

تاريخ الإسلام

السياسي والديني والثقافي والاجتماعي

الجزء الأول

الدولة العربيـــــة

فى الشرق ومصر والمغرب والأندلس

(١ — ١٣٢ هـ = ٦٢٢ — ٧٤٩ م)

تأليف

الدكتور حسن إبراهيم حسن

مدير جامعة أسيوط ، وأستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة القاهرة وأستاذ الدراسات الإسلامية وتاريخ الشرق الأدنى بجامعتى بنسلفينيا وكاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية ، وأستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة بغداد (سابقاً) ، وأستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة الرباط بالمغرب سابقا

الطبعة السابعة ١٩٦٤

ملتزم النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية

لأصحابها حسن محمد وأولاده

٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة

الطبعة الأولى	أكتوبر ١٩٣٥
الطبعة الثانية	يونيـــة ١٩٤٨
الطبعة الثالثة	مايو ١٩٥٣
الطبعة الرابعة	مايو ١٩٥٧
الطبعة الخامسة	إبريل ١٩٥٩
الطبعة السادسة	أكتوبر ١٩٦١
الطبعة السابعة	يناير ١٩٦٤

مقدمة الطبعة السابعة



ظهرت الطبعة الأولى من الجزء الأول من هذا الكتاب فى شهر أكتوبر سنة ١٩٣٥ ، فى خمسة أبواب ، تبحث فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، والبعثة النبوية ، والخلفاء الراشدين ، والدولة الأموية ، والحضارة العربية فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين .

ولما نفدت الطبعة الثانية من هذا الجزء الأول التى ظهرت فى شهر يونية سنة ١٩٤٨ ، ونفدت الطبعة الثالثة التى ظهرت فى شهر مايو سنة ١٩٥٣ ، والطبعة الرابعة التى ظهرت فى شهر مايو سنة ١٩٥٧ ، والطبعة الخامسة التى ظهرت فى ابريل سنة ١٩٥٩ ، والطبعة السادسة التى ظهرت فى أكتوبر سنة ١٩٦١ حرصت على إعادة طبعه للمرة السابعة ، فأعدت تنظيمه ، وأدخلت عليه مادة جديدة ، ورجعت إلى مصادر أخرى عربية وإفرنجية ، يجدها القارىء فى الهوامش وفى ثبت المصادر وفى الفهارس .

على أن هذا التعديل لم يغير من تقسيم هذا الجزء إلى تسعة أبواب ، بحثت فى الباب الأول منها فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، وعالجت فى الباب الثانى البعثة النبوية ، فتحدثت عن نشأة الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، وعن دعوته ، وهجرته إلى المدينة ، وعن إقامة شعائر الإسلام ، والجهاد والغزوات والسرايا . وتناولت فى الباب الثالث الكلام على أثر الإسلام فى العرب ، فبحثت دعوى عموم الرسالة المحمدية ، وناقشت آراء المستشرقين فى موضوع الرسالة ، وما كان للدعوة الإسلامية من أثر فى الدين والاجتماع ، وفى الأدب والسياسة .

وترجمت فى الباب الرابع للخلفاء الراشدين ، وعرضت لأهم الأحداث التى وقعت فى عهدهم ، وتناولت بالبحث الفتوح الإسلامية وعواملها ونتائجها . وتحدثت فى الباب الخامس عن قيام الدولة الأموية ، وترجمت لخلفائها ،وعرضت لأهم الأحداث التى وقعت فيها كامتداد النفوذ الإسلامى إلى بلاد ما وراء النهر والصين والسند والمغرب والأندلس .

وفى الباب السادس خصصت عن الحركات السياسية والدينية واتجاهاتها المختلفة وما كان لها من أثر فى السياسة والدين والأدب والاجتماع وغير ذلك ، كردة

العرب ، والفتنة التى أدت إلى قتل عثمان ، وظهور الخوارج ، والشيعة ، وحزب الزبيريين ، والمرجئة ، والمعتزلة . وجعلت الباب السابع خاصاً بنظم الحكم السياسية والإدارية والمالية والحربية والقضائية ، وبينت كيف كانت تدار الحكومة الإسلامية فى ذلك العصر .

وألممت فى الباب الثامن بحالة الثقافة والفن ، فعالجت أنواع العلوم العقلية كعلم القراءات ، والتفسير ، والحديث ، والنحو ، والأدب ، كما عالجت أنواع العلوم العقلية ، كالكيمياء والطب . ثم تحدثت عن السير والمغازى ، وتاريخ الفنون ، وخاصة فن العمارة الذى يعد بحق مقياساً لتقدم الأمم ونهضتها ، فعرضت لتأسيس المدن . كالبصرة والفسطاط ودمشق والقيروان ، كما تحدثت عن المساجد الهامة كالحرم النبوى الشريف ، والجامع العتيق ، ومسجد دمشق ، ومسجد القيروان ، وتناولت فى الباب التاسع الحالة الاجتماعية، فبحثت فى طبقات الشعب ، ومجالس الغناء والطرب ، وقصور الخلفاء والأمراء، والطعام والملابس والمرأة وأنواع التسلية .

وقد سرت فى هذا الجزء على النهج الذى سرت عليه فى الجزأين الثانى والثالث من هذا الكتاب ، فبحثت فى هذا العصر من نواحيه المختلفة : سياسية ودينية وثقافية واجتماعية . كما يرى القارىء فى الهوامش وفى ذيل الكتاب تنبيها على المصادر لمن أراد التوسع فى مسألة من المسائل التى لم يسمح المجال بالتوسع فيها . وذيلت الكتاب بثبت ذكرت فيه المصادر مرتبة بحسب أحرف الهجاء بالنسبة لأسماء المؤلفين ، كما ذيلته بفهارس شاملة لأسماء الأعلام من الرجال والنساء والأماكن والحوادث التاريخية الهامة .

ومن دواعى الفخر أن أنوه فى هذا المقام إلى أن هذا الكتاب الذى ظهرت الأجزاء الثلاثة الأولى منه إلى الآن ، قد ترجم إلى اللغة الأردية بحكومة الباكستان كما طلب إلىّ الموافقة على ترجمته إلى اللغة الإندونيسية وإلى اللغة الإنجليزية .

والله أسأل أن يوفقنى إلى إتمام الجزأين الرابع والخامس فى القريب تحقيقاً لفائدة طلاب الثقافة الإسلامية ، وأعتذر إلى القراء الكرام عن صدورهما إلى الآن لظروف قاهرة هى اشتغالى بأبحاث أخرى .

الجيزة فى شهر يناير سنة ١٩٦٤ — حسن إبراهيم حسن

محتويات الكتاب

صفحة

الباب الأول

العرب قبل الإسلام

الباب الثانى

البعثة النبوية

صفحة

الباب الثالث

أثر الإسلام فى العرب

الباب الرابع

الخلفاء الراشدون

صفحة

الباب الخامس

الخلفاء الأمويون

صفحة

الباب السادس

الحركات السياسية والدينية

صفحة

الباب السابع

نظم الحكم

صفحة

الباب الثامن

الثقافة والفن

صفحة

الباب التاسع

الحالة الاجتماعية

صفحة

فهرس الكتاب

الباب الأول

العرب قبل الإسلام

---

١ — وصف بلاد العرب

لما كانت بلاد العرب مهد الدين الإسلامى ومنبع الدول الإسلامية ، وجب أن نعرف شيئاً عن وصفها الجغرافى ، وعن شعوبها ، وحالتها السياسية والاجتماعية والدينية قبل ظهور الإسلام .

يكاد يكون تاريخ العرب القديم مجهولا جهلا تاما لسببين :

الأول — عدم الوحدة السياسية ، فقد كانت جمهرتهم بدوا رحلا ، متفرقين فى مختلف الأصقاع ، متعادين متنافرين ، لم تضمهم وحدة شاملة ولا ملك قوى .

الثانى — عدم معرفتهم الكتابة إذ كان أكثرهم أميين ، ولذلك لم يدونوا حوادثهم إلا فى أواخر العصر الأموى . أما قبل ذلك فكان اعتمادهم على نقل الأخبار شفوياً ، اللهم إلا أطرافاً من الجزيرة كمملكتى سبأ ومعين اللتين نقشت أخبارهما على الآثار التى لا تزال باقية إلى اليوم .

وقد بحث نلدكه[١] لفظ « عرب » فقال : « يظهر أن المعنى الحقيقى للفظ عرب هو صحراء ، كما يظهر أن معنى Arabia يشمل صحراء الجزيرة وسورية وشبه جزيرة سيناء . وتصادف لفظى Arabia, Arab فى الكتب اليونانية . ولهيرودت معرفة تامة بالعرب ، وبالجزء الذى يقع بين فلسطين ومصر . وقد درس معاصرو هيرودوت من المؤرخين ، من أمثال أكزينوفون Xenophon تلميذ سقراط ، لفظ Arab ، وقالوا إنه يطلق على صحراء الجزيرة

---

(١) Noeldeke: Historians History of the World, vol. viii, pp. 1, 2, 3.

العربية بوجه خاص ، كما يطلق على البدو من زمن بعيد لفظ « أعراب » .

وقد اختلف المؤرخون فى موطن الساميين الأصلى ، أهم من بلاد العرب ؟ أم رحلوا إليها من إفريقية ؟ أم رحلوا إليها من بلاد الجزيرة Mesopotamia ؟ فيقول أصحاب التوراة إن «مهدالإنسان فيما بين النهرين ، ومنه تفرق فى الأرض، فاشتق من الساميين : الأشوريون والبابليون فى العراق ، والأراميون والشام ، والفينيقيون على شواطىء سورية ، والعبرانيون فى فلسطين ، والعرب فى جزيرة العرب ، والأثيوبيون فى الحبشة ؛ ومرجعهم فى إثبات ذلك إلى التوراة . ولايقول هذا القول من علماء العصر إلا قليلون » .

ويرى بعض المستشرقين « أن مهد الساميين فى إفريقية . ونظراً لقرب بلاد الحبشة من بلاد العرب إقليما ولغة ، قالوا إن مهد الساميين الحبشة » . ويرى بعض آخر أن مهد الساميين جزيرة العرب ، ومنها تفرقوا فى الأرض كما تفرقوا فى صـــدر الإسلام . وذهبت طائفة أخرى إلى أن مهد الساميين فى جنوبى الفرات . ولكل من هؤلاء أدلة جغرافية ، أو اقتصادية ، أو جنسية ، أو لغوية . ويرى بعض المستشرقين أيضاً أن مهد الساميين فى بادية الشام إلى نجد .

ولم يقطع العلماء فى أصل مهد الساميين برأى حتى الآن ، وهم دائبون على التنقيب عن الآثار ومقارنة اللغات بعضها ببعض ، ودراسة الحضارات المختلفة للشعوب السامية والبلاد المحيطة بها ، ليقفوا على الرأى الأخير فى هذه المسألة .

والمشاهد فى أحوال الأغلب من سكان الجزيرة العربية ، أنهم دائمو السفر والترحال إلى البلاد الخصبة المحيطة بالجزيرة ، لاستيفاء ما ينقصهم من وسائل الحياة فى بلادهم . وقد يشنون على هذه الأطراف غارات حربية . ويقول نلدكه : (vol. viii, p. 3) «إن أهالى الولايات البيزنطية المجاورة لبلاد العرب أطلقوا لفظ Saracens على هذه القبائل، بسبب تعديهم على القوافل ، أو لفرضهم مكوساً ثقيلة عليهم ، فأصبح يطلق على البدو من أهل هذه الجهات Saracens ؛ ثم أطلق هذا اللفظ على جميع العرب بل على جميع المسلمين من غير تمييز ، ثم تعداه إلى الشرقيين بلا استثناء » .

وقد أدلى المسعودى[1] برأيه عن التفسير الصحيح لأصل هذه الكلمة فقال :
« وأنكر (الإمبراطور نقفور) على الروم تسميتهم العرب « ساراقينوس » ؛ تفسير ذلك عبيد سارة ، ضغنا منهم على هاجر وابنها اسماعيل ، وأنها كانت أمة لسارة . وقال تسميتهم عبيد سارة كذب ؛ والروم إلى هذا الوقت تسمى العرب ساراقينوس » .

ولكن يظهر أن لفظ ساراقينوس الذى أورده المسعودى محرف عن Sarakinos اليونانى ، وقد أمدنى زميلى الأستاذ د . ل . درو D. L. Drew أستاذ الدراسات القديمة بكلية الآداب بجامعة القاهرة سابقاً ، بتعليق طريف على هذه التسمية كما وردت فى المراجع اللاتينية واليونانية ، فكتب إلى :

١ — إن المؤرخ اميانس مرسيلينس Ammianus Marcellinus يقول إن Scenitae يعنى العرب سكان الخيام ، أو أهل الوبر ، وإن هذا الاسم صار Sarraceni .

٢ — إن المؤرخين اليونان ذكروا لفظ سراقينوس Sarakinos الذى استعمل فى آداب القرن الأول الميلادى ، ويظهر أنه يدل على اسم شعب كان يسكن سورية ، أو شرق الاردن ، أو شبه جزيرة سيناء ، ثم توسعوا فى استعماله حتى شمل كل الشرقيين ، وأصبح اسم Sarcens يطلق على العالم الإسلامى فى العصور الوسطى ، وهو تحريف للفظ سراقينوس[2] .

أما لفظ Taits فقد أطلق بهذه الصورة على جميع العرب ، أطلقه عليهم السريانيون من أهل الرها Edessa وأهل بابل . وربما كان المراد بهذا اللفظ : قبيلة طيء التى كانت تقيم فى الجبلين أجأ وسلمى فى الشمال الغربى من نجد على مقربة من المدينة ، ثم انتشروا فى جهات مختلفة خارج بلادهم .

وبلاد العرب فى الجزء الجنوبى الغربى من آسيا ، وهى شبه جزيرة يحيط بها الماء من ثلاث جهات : البحر الأحمر ، والمحيط الهندى ، والخليج الفارسى . ويطلق العرب على بلادهم اسم جزيرة العرب .

---

(١) كتاب التنبيه والإشراف ص ١٦٨ .

(٢) وقد تفضل الأستاذ درو فذكر تفاصيل فقهية عن تطور اشتقاق هذه الكلمات .

وبلاد العرب فى مجموعها صحراء . ولكنها ليست ككل الصحارى التى لا زرع فيها ولا ماء . ومما يلاحظ عليها طبيعة سطحها ، فهو مختلف الأجزاء ، فبعضه مغطى بالكثبان الرملية ، وبعضه الآخر بالجبال والآكام ، كما أن بعضه غور منخفض ، وبعضه الآخر نجد مرتفع .

وكانت هذه التفرقة ملحوظة عند الجغرافيين فى العصور القديمة ، فقسموا بلاد العرب إلى Arabia Petrix (أو Petraea كما سماها بطليموس) ، وهى الأرض الواقعة جنوب غربى بادية الشام ، وحاضرتها بطرة ؛ Arabia Deserta ، وقد أطلق على بادية الشام وحدها ثم أطلقه بعض على شبه جزيرة العرب لجدبها بوجه عام ؛ و Arabia Felix ، وهى بلاد اليمن ، التى تسمى الأرض الخضراء ، أو البلاد السعيدة ، حيث قامت فيها حضارة معين وسبأ [1] .

ويقسم جغرافيو العرب الجزيرة العربية بحسب طبيعتها خمسة أقسام [2] :

١ — تهامة : وهى الأرض الواطئة الممتدة بمحاذاة ساحل البحر الأحمر من ينبع إلى نجران فى اليمن ؛ وسميت بهذا الاسم لشدة حرها وركود ريحها ، من التهم وهو شدة الحر وركود الريح . وتسمى الغور أيضاً لانخفاض أرضها عن أرض نجد .

٢ — الحجاز : ويقع شمالى اليمن وشرقى تهامة ، ويتكون من عدة أودية تتخلل سلسلة جبال السراة الممتدة من الشام إلى نجران فى اليمن . وقد وصفه جوستاف لى بون [3] بأنه إقليم جبلى رملى فى الصقيع الأوسط من المنطقة المعتدلة الشمالية تجاه البحر الأحمر ، وفيه المدينتان المقدستان : مكة والمدينة . وقد سمى حجازاً لأنه يحجز بين تهامة ونجد .

٣ — نجد : ويمتد بين اليمن جنوباً وبادية السماوة شمالا والعروض وأطراف العراق ، وسمى نجداً لارتفاع أرضه .

٤ — اليمن : ويمتد من نجد إلى المحيط الهندى جنوباً والبحر الأحمر غرباً ، ويتصل به من الشرق حضرموت والشحر وعمان . وكانت بلاد اليمن وحضرموت

---

(١) Doughty, Arabîa Deserta p. 524.

(٢) انظر مقدمة معجم ما استعجم لأبى عبيد البكرى الذى أفاض فى وصف الجزيرة العربية ج ١ ص ١ — ٩٠ (القاهرة سنة ١٩٤٥) .

(٣) Le Bon : Civilisation des Arabes, tome I, p. II.

فى الجنوب ميداناً للحروب الداخلية والفتن الأهلية ، ففنيت منها سلالة التتابعة الذين بنوا مأرب وقصور غمدان وظفار ، وأقاموا سد مأرب الذى يشبه خزان أسوان فى مصر .

٥ — العروض : ويشمل اليمامة وعمان والبحرين ، وسمى عروضاً لاعتراضه بين اليمن ونجد والعراق . وكانت عمان والبحرين ، منفصلتين عن سائر بلاد العرب بأمرين أحدهما طبيعى وهو تلك المفاوز والبرارى الواسعة والصحارى الجدبة القفرة التى حالت بينها وبين سائر البلاد ، والأمر الثانى سياسى وهو إذعانها لسيادة الفرس .

ويقول « هل »[1]: « وقد تزول الدهشة التى يثيرها الاعتقاد السائد بأن بلاد العرب صحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء ، إذا بحثنا فى أرض بلاد العرب من الناحية الطبيعية . فليس شبه جزيرة العرب خلوا إلا من الصحارى والسهوب[2]، وهو يحوى أراضى غاية فى الخصب كانت تزرع منذ آلاف السنين ، فيها المدن والقرى الآهلة بالسكان » .

وهذه الأقسام الخصبة تمتد على سواحل شبه الجزيرة بوجه عام : ففى الجنوب الغربى بلاد اليمن ، ويسميها الأقدمون الأرض الخضراء ، كما تقدم ؛ وفى الجنوب بلاد حضرموت موطن البخور الكثير الاستعمال فى الأزمان الغابرة ؛ وفى الشرق بلاد الأحساء الخصبة على الخليج الفارسى ، وكانت جميع أرضها صالحة للزراعة عدا جزء قليل جدا . وأما الساحل الغربى ، فأرضه وعرة حزنة ، تتخللها التلال والكثبان ، ولكنها تمتاز بمراعيها ، وكانت فى الأزمان الغابرة أحسن حالا مما هى عليه اليوم . أما أرض بلاد العرب الوسطى المرتفعة ، وهى نجد ، وما يتخللها من الجبال المرتفعة هنا وهناك ، ووديانها الطويلة وسهوبها التى تربى فيها أحسن الخيول العربية ؛ واليمامة الواقعة إلى الجنوب الشرقى ، فقد كانتا تسدان حاجة العرب من القمح والشعير وغيرهما ، كما كانتا فى القرنين السادس والسابع الميلاديين لا تقلان خصبا عن أراضى أوربا الخصبة اليوم ، بل ربما كانت تبذها فى كثير من البقاع[3].

وقد وصف سديو[4] بلاد الحجاز فقال : « إن الحجاز يجذب النفوس

---

(١) Culter der Araber, trans. by Khuda Bukhsh, pp. 2-3

(٢) هى أرض واسعة جرداء لا نبات فيها ولا ماء .

(٣) انظر ما ذكر البكرى عن حمى ضربة والنقيع قرب المدينة .

(٤) Histoire générale des Arabes, tome i, pp. 41 - 2

ويشوقها أكثر من غيره ، لاشتماله على أكثر مدائن العرب ، و«يثرب» ، التى سميت فيما بعد المدينة . ويتخلل أرض الحجاز كثبان من الرمال وآكام خصبة ، وهى مساكن القبائل . وحول هذه الآكام قرى وضياع ، وهى قلاع حصينة تقيهم شر هجمات الأعداء ، وينبت بمنحدراتها بعض الحبوب والثمار التى تستعمل علفا الماشية ؛ وبها عيون ماء كثيرة . وإلى الغرب من إحدى تلك الآكام مدينة الطائف التى تعد بستانا ونزهة لأهل مكة .

ويتألف وسط شبه جزيرة العرب من سهول قاحلة رملية جنوبا حجرية شمالا . وفى الجهات القاحلة أماكن جبلية ذات ينابيع مائية يشتغل سكانها بالزراعة ، ولهم مدن وقرى كثيرة كما فى الصحراء الإفريقية .

وأول من وقف على أحوالها من الأوربيين ووصفها وصفاً تاما ، الرحالة الإنجليزى بلجريف[1] (Palgrave) الذى جاب شبه جزيرة العرب فى سنتى ١٨٦٢-١٨٦٣ م . وكان أول من زار «الرياض» من الرحالة الإنجليز ، ووصف نجد بأنها سهل موحش فسيح يقع فى مقدمته حاضرة هذا الإقليم (الرياض) . وهى كبيرة مربعة الشكل ، تتوجها أبراج عالية وأسوار دفاعية متينة ، وتبدو فيها عظمة القصر الملكى الشاهق المعروف بقصر فيصل . ومن البلاد التى زارها بلجريف « الأحساء » على ساحل الخليج الفارسى . وقد سحرته مناظرها الطبيعية الخلابة ، وأعجب بها إعجابه بالرياض ، وقال إن بها أفضل أشجار النخيل فى بلاد العرب ، ثم نوه بالمثل العربى المشهور « لا يحمل التمر إلى هجر » ، كما وصف بلجريف الكويت والقطيف .

وبلاد العرب كثيرة الجبال الجرد المختلفة اللون ، وفيها الحرار[2] والصحارى الرملية المترامية الأطراف ، وتتخلل الجبال والوديان التى هيأتها السيول . والأراضى القريبة خصبة التربة صالحة لإقامة الأهالى الذين يعتمدون على ما تنبته أراضيهم ، وما يجدونه فيها من ماء يشربون منه ومرعى يسيمون فيه أنعامهم . وأما ما بعد عن هذه الوديان فهو قفر غير صالح للسكنى . وأعظم واد ببلاد العرب ،

---

(١) انظر مجلة « المستمع العربى » السنة الخامسة ، عدد ٥١ ص ٨ — ٩ .

(٢) جمع حرة وهى أرض بركانية ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار . انظر لفظ حرار فى معجم البلدان لياقوت ومعجم ما استعجم للبكرى .

وادى « الدهناء » الذى يعود على العرب بالخير إذا أخصب ؛ غير أن الانتفاع بجميع مائه غير ميسور لأن كثيراً منه يغيض فى الرمال . وقد يتأخر المطر فتشتد الحال بالقبائل الكثيرة التى تعتمد عليه ، ومع ذلك قل أن يستقر العرب فى مكان واحد لأنهم ينتقلون إلى حيث الماء . كما أن فى بلاد العرب مياهاً يسمونها « الأحساء » ، وهى جمع حسى ، وهو الرمل الذى تحته صلابة . فإذا نزل المطر على ذلك الرمل منعته الصلابة أن يتسرب إلى الأرض .

ولما كانت مياه هذه الأودية لاتسد حاجة الجزيرة غلب عليها الجدب : لأن الكثير من مائها يغيض فى جوف الأرض فلا يمكن الإنتفاع به إلا بطرق هندسية لم يكن للعرب معرفة بها ، اللهم إلا فى بلاد اليمن التى استطاع أهلها أن يحفظوا مياه الأودية . فبنوا سد مأرب المشهور لحجز الماء خلفه فى أرض صلبة للانتفاع به وقت الحاجة ، وهو العرم المذكورة فى سورة سبأ من القرآن الكريم (سورة ٣٤ : ١٥) .

ويظن بعض أن المعيشة فى الصحارى غير ممكنة ، ولكن الحال على العكس من ذلك ، فإن جوها ملائم لسكنى قوم أقوياء خالين من الأمراض يتحملون المشاق التى فرضتها عليهم طبيعة أرضهم . وكمية المطر قليلة أو معدومة فى بلاد العرب اللهم إلا فى بلاد اليمن التى تعتبر أكثر بلاد العرب أمطاراً بسبب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية التى تقابل الجبال ، فتتساقط الأمطار على سفوحها الجنوبية وتتسرب إلى جوف الأرض ثم تتجمع فى بعض الجهات المنخفضة فى صورة آبار .

وإذا نظرنا إلى مصور بلاد العرب وجدنا به جزأين صحراويين : أحدهما فى شمالى هضبة نجد ، ويسمى « النفود » ، ويمتد حتى جنوبى فلسطين ، وهو عبارة عن كثبان رملية تتخللها وديان عميقة لايصل إليها الماء . ويمكن اختراق النفود من الشرق إلى الغرب فى نحو أربعين ساعة مع صعوبة عبورها : والآخر فى الجنوب الشرقى من جزيرة العرب ، شمالى حضرموت ، ويسمى « بادية الأحقاف » أو « الربع الخالى » ، وهو أشق بكثير من صحراء الشمال وأشد جدباً منها . ولم يعبر أحد تلك الأرض حتى الرحالة والبدو أنفسهم . وفيما عدا ذلك نرى ببلاد العرب أراضى زراعية ودارات[1]، وهى واحات خصبة يمكن السكنى فيها .

---

(١) الدارة أرض مستديرة منخفضة تحفها الجبال ، فيها مياه ورمال منبثة . ودارات العرب كثيرة ، جمع منها ياقوت والبكرى نحو ستين دارة .

وقد كسبت طبيعة هذه البلاد أهلها النشاط والخفة ، وخصوصاً البدو منهم ، فإنهم لايعتمدون كثيراً على الزراعة ولا سيما إذا فقد الماء ، وجل اعتمادهم على تربية الأنعام ، وخصوصاً الإبل ، فيأكلون لحومها ، ويشربون ألبانها ، ويكتسبون بأوبارها ، وهي تحمل أمتعتهم إلى حيث يريدون الإقامة إذا فقدوا الماء ، أو أرادوا الرحيل إلى جهة من الجهات للتجارة [١] .

٢ — الشعوب العربية

يقسم مؤرخو العرب قسمين عظيمين : القسم الأول ، العرب البائدة ، وهم الذين بادوا ودرست آثارهم وانقطعت أخبارهم ، ولا نعرف عنهم شيئاً إلا ماورد في الكتب السماوية والشعر العربي كأخبار عاد وثمود . ومن أشهر قبائلهم عاد ، وثمود ، وطسم ، وجديس ، وجرهم الأولى . أما القسم الثاني فهم العرب الباقية ، وينقسمون إلى فرعين : العرب العاربة [٢] ، وهم شعب قحطان وموطنهم بلاد اليمن . ومن أشهر قبائلهم : جرهم ، ويعرب . ومن يعرب تشعبت القبائل والبطون من فرعين كبيرين هما : كهلان وحمير .

وأشهر بطون حمير : قضاعة . ومن فروع قضاعة : بلى ، وجهينة ، وكلب ، وبهراء ، وبنو نهد ، وجرم .

وأشهر بطون كهلان : الأزد (ومنهم الأوس ، والخزرج وأولاد جفنة ، وهم الغساسنة الذين ملكوا الشام) ، وطيء (ومنهم جديلة ؛ ونبهان ، وبحتر ، وزبيد وثعلبة) ، ومذحج (ومنهم خولان وسعد العشيرة قبيلة المتنبي ، والنخع وعنس ، وإليهم ينسب الأسود العنسي الكذاب) ، وهمدان ، وكندة ، ومراد ، وأنمار ، وجذام ، ولخم [٣] .

ولما أخذ اليمنيون بأسباب الحضارة قامت لهم عدة ممالك أشهرها : معين وسبأ وحمير وغيرها . وقد حاول بعض ملوك سبأ الاستفادة من مياه الأمطار

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ٣١٣ — ٣١٥ .

(٢) يقال عرب عاربة وعرباء وعربة ، أي صرحاء خلص . وهم العرب الأصليون .

(٣) القلقشندى ج ١ ص ٣١٣ — ٣٥٣ .


خريطة
بلاد العرب قبل الاسلام
القبائل العربية
بادية الشام
غسان
بصرى
الكرك
معان
تبوك
تيماء
كلب
دومة الجندل
النفود
تغلب
بكر
تنوخ
البصرة
الكويت
بغداد
طي
قيس
غطفان
عبس
هلال
البحرين
اليمامة
الاحساء
عبد القيس
عمان
مسقط
كعب بن ربيعة
الربع الخالي
خثعم
ثقيف
قريش
مكة
المدينة
بادية الأحقاف
مراد
معين
مارب
صنعاء
حضرموت
مهرة
الشحر
عدن
بحر اليمن
مقياس الرسم

الكثيرة ، فأقاموا سداً لحفظ المياه وراءه يسمى العرم بلسانهم كما تقدم . وقد تحولت أراضيهم بتنظيم الرى فى هذه البلاد إلى جنات ، كما فصل القرآن الكريم ذلك فى سورة سبأ ، على ماسيأتى :

ولما أخذت بلاد اليمن فى الانحطاط ، وعجز أهلها عن إصلاح السد الذى أقامه أسلافهم لحفظ المياه ، وانكسر السد ، غرقت بلادهم ، وتفرقوا أيدى سبأ فى شتى أنحاء الجزيرة العربية .

فسارت قبيلة ثعلبة بن عمرو نحو الحجاز ، وانتهوا إلى المدينة فغلبوا على من كان بها ، وأكثرهم من اليهود ؛ وسارت قبيلة حارثة بن عمرو — وهم خزاعة — فاقتحموا الحرم وأجلوا عنه سكانه من جرهم الثانية ، وهى قبيلة قحطانية قديمة من اليمن ، وسارت عمران بن عمرو نحو عمان فنزلوها واستوطنوها . وهم أزد عمان ، وسارت جفنة بن عمرو إلى الشام ونزلوا بماء يقال له غسان ، فنسبوا إليه ، ومنهم ملوك الغساسنة . وسارت لخم بن عدى إلى الحيرة وسكنوها ، ومنهم نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة ؛ وسارت طيء بعد مسير الأزد إلى الشمال ، ونزلوا بالجبلين أجأ وسلمى ، لما رأوه هناك من الخصب . وهذان الجبلان فى الشمال الشرقى من المدينة ، يخترقهما وادى الدهناء . وقد ورد ذكرهما كثيراً فى أشعار العرب الطائيين لما لها من المنعة والحصانة ، وبهما كانوا يستهينون بسلطان الملوك من بنى نصر . قال شاعرهم عارق الطائى :

من مبلغ عمرو بن هند رسالة إذا استحقبتها [1] العيس تنضى [2] من البعد
أيوعدنى والرمل بينى وبينه ؟ تأمل رويداً ما أمامة من هند
ومن أجأ حولى رعان [3] كأنها قبائل خيل من كميت [4] ومن ورد [5]

---

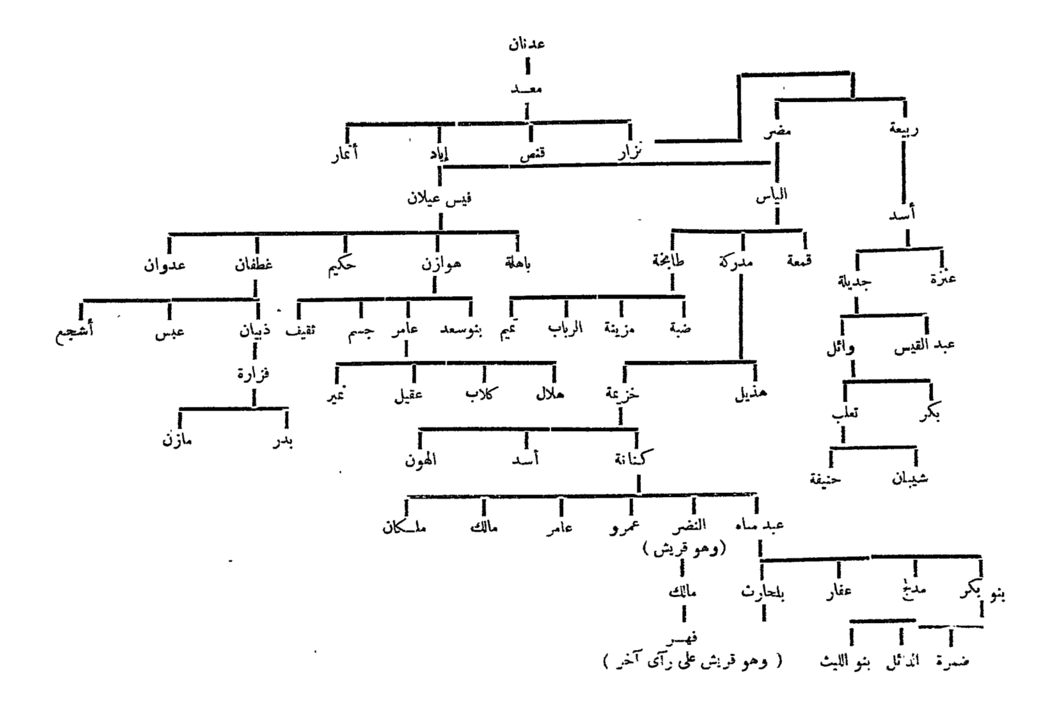
(١) حملتها فى الحقب ، وهو الحزام الذى يشد عليه صدر الناقة ، أى إذا حملتها العيس .

(٢) أى سارت أنضاء هزيلة .

(٣) جمع رعن وهو أنف الجبل .

(٤) الكميت الأحمر .

(٥) الأصهب وهو لون الظباء . التبريزى : شرح حماسة أبى تمام .



عدنان
معد
نزار
قنص
إياد
أنمار
ربيعة
مضر
الياس
قيس عيلان
أسد
عنزة
جديلة
عبد القيس
وائل
بكر
تغلب
شيبان
حنيفة
قمعة
مدركة
طابخة
ضبة
مزينة
الرباب
تميم
هذيل
خزيمة
كنانة
أسد
الهون
عبد مناة
النضر
(وهو قريش)
عمرو
عامر
مالك
ملكان
مالك
فهر
(وهو قريش على رأى آخر)
بلحارث
عفار
مدلج
بنو بكر
ضمرة
الدئل
بنو الليث
باهلة
هوازن
حكيم
غطفان
عدوان
بنو سعد
عامر
جسم
ثقيف
هلال
كلاب
عقيل
نمير
ذبيان
عبس
أشجع
فزارة
بدر
مازن

وسارت كلب بن وبرة من قضاعة إلى بادية السماوة . طرف شمال نجد وأقاموا بها . وتتصل السماوة بأطراف العراق ، ويخترقها وادى الدهناء . ومنهم ميسون بنت بحدل الكلبية أم يزيد بن معاوية ، والكلبى المؤرخ النسابة المشهور .

العرب المستعربة : ويقال لهم العرب المتعربة أيضاً كما فى القاموس ، سموا بذلك لأن إسماعيل كان يتكلم العبرانية أو السريانية . فلما نزلت جرهم من القحطانية بمكة وسكنوا مع إسماعيل وأمه ، تزوج منهم وتعلم هو وأبناؤه العربية ، فسموا بذلك العرب المستعربة . وهم جمهور العرب من البدو والحضر الذين يسكنون أواسط جزيرة العرب وبلاد الحجاز إلى بادية الشام حين خالطهم أخيراً فى مساكنهم عرب اليمن بعد انكسار سد العرم .

ويختلف النسابون فيما بين إسماعيل وعدنان من أسماء رءوس القبائل المستعربة والذى ذكره النبى صلى الله عليه وسلم من أجداده ، هو ما بين عدنان وعبد المطلب . أما ما فوق عدنان فهو محل خلاف كثير بين المؤرخين فى أسماء الآباء وعددهم . وهو شىء طبيعى ، لأن العرب كانوا أميين لم يدونوا أنسابهم فى كتب ولا نقشوها على آثار ، وإنما تناقلوها رواية باللسان ، والمنقول باللسان عرضة لكثير من الخطأ والتغيير . وقد ذكر ابن قتيبة (كتاب المعارف ص ٢٩) عدة أقوال مختلفة فى العدد والأسماء نضرب عنها صفحا لعدم إمكان تحقيقها . يقول نيكلسون[١]: « لا مراء فى أن هذه الأنساب غير صحيحة ، وأن نسب عدنان إلى إسماعيل لايزال مثار كثير من الشك، على الرغم من أن العرب كادوا يجمعون على أنه من ولد إسماعيل . وبنوا على ذلك أنسابهم ، وظهرت فيه عصبياتهم واضحة جلية . وخير لنا أن نتحدث عما يعتقده العرب ويتخذونه أساساً لنظامهم الاجتماعى وآثارهم الأدبية ، صارفين النظر عن نقده وبيان حظه من الخطأ أو الصواب » .

والذى استفاض فى كتب مؤرخى العرب أن إبراهيم[٢] رحل بولده إسماعيل

---

(١) Lit. Hist. of the Arabs, pp. xviii., xx, xxi.

(٢) ولد إبراهيم عليه السلام بالعراق . ولما أمره الله تعالى أن يدعو قومه إلى التوحيد دعا أباه فلم يجبه . ودعاقومه فلم يجيبوه، ولما نمى خبره إلى نمرود أمر به فألقى فى النار فكانت عليه برداً وسلاماً كما يحدثنا القرآن الكريم (سورة الأنبياء ٢١ : ٦٨ — ٩٦) . وقدسار =

وأمه هاجر إلى مكة ، فأقام إسماعيل وأمه مع جرهم من أولاد قحطان فنشأ معهم . وكانت لغتهم العربية ، فتعلمها منهم [١] ، ثم صاهرهم ، وولد اثنى عشر ولدا تفرعت منهم بطون كثيرة [٢] .

ومن أولاد عدنان : معد ، ومنه تناسل عقب عدنان كلهم . وكان لمعد أربعة أولاد : إياد ، ونزار ، وقنص ، وأنمار . وكان اقنص الإمارة بعد أبيه على العرب فى مكة . وقد أراد إخراج أخيه نزار من الحرم ، فأخرجه أهل مكة ، وقدموا عليه نزار ، الذى تشعبت منه هذان البطنان العظيمان وهما : ربيعة ومضر . وقد نزلت ربيعة « مهبط الجبل من غمر ذى كندة ، وبطن ذى عرق وما صاقبها من بلاد نجد إلى الغور من تهامة » . وانتشر بنو مضر بن نزار فى الحجاز وكثروا كثرة عظيمة ، ثم غلبوا على كثير من المواضع فى نجد وغيرها وانتهت إليهم رياسة الحرم بمكة .

قام النزاع بين إياد بن معد ، وكانت تقيم مع أخواتها بتهامة حتى قامت بينهم حرب . فتظاهرت مضر وربيعة على إياد وأوقعوا بها الهزيمة وأرغموها على الخروج من تهامة . فنزلوا بناحية سواد الكوفة ، ثم اجتازوا نهر الفرات وانتشروا بأرض الجزيرة . ثم نزل بعضهم تكريت والموصل ، وسار بعضهم إلى حمص وأطراف الشام [٣] . ودان بعضهم لغسان وتنصروا ، ثم لحق أكثرهم ببلاد الروم مع جبلة بن الأيهم . وكان من دخل مع جبلة من إياد وقضاعة وغسان ولخم وجذام نحو أربعين ألفا ، ولم يزالوا بها على الإسلام . فلما كان زمن عمر بن الخطاب

= إبراهيم وزوجته سارة وغيرها ممن آمن بدعوته إلى حران ، ثم أتى مصر حيث حاق بهم حنق فرعون الذى أطلقه هو وزوجته بعد أن ظهرت على يد إبراهيم آيات النبوة . وكانت هاجر لا تلد ، فوهبت لإبراهيم ، فأولدها إسماعيل ، فحزنت سارة لذلك ، فرزقها الله إسحاق . ثم غارت سارة من هاجر وابنها إسماعيل ، وقالت : « إن ابن الأمة لا يرث مع ابنى » ، وطلبت من إبراهيم أن يخرجها عنها ، فسار إبراهيم بهاجر وإسماعيل إلى بلاد الحجاز ، وتركهما بمكة (أبو الفدا ج ١ ص ١٣) .

(١) يظهر أن إسماعيل كان يتكلم العبرانية ، وأن بنى جرهم كانوا يتكلمون لغة عربية تختلف عن اللغة العربية المعروفة الآن بعض الاختلاف ، ثم امتزجت اللغتان ، فكانت منهما اللغة العربية التى يتكلمها أهل الحجاز عند نزول القرآن الكريم .

(٢) ابن قتيبة : كتاب المعارف ص ١٨ .

(٣) البكرى ج ١ ص ١٨ ، ٧ — ٧١ .

بعث رسلا من عنده معهم المصاحف إلى ملك الروم ، أن أعرض هذه المصاحف على من قبلك من قومنا من العرب ، فمن أسلم منهم فلا تحولن بينه وبين الخروج إلينا . فوالله لئن لم تفعل ، لأتتبعن كل من كان على دينك فى جميع بلادنا فلأقتلنه . فلما قدمت المصاحف عليه عورضت بالإنجيل ، فوجدوا القرآن يوافق الإنجيل فأسلموا . ولم يبق من ولد عدنان بعد خروج إياد من تهامة ، إلا ربيعة ومضر ومن كان معهم أو دخيلا فيهم أو مجاوراً لهم[١] .

وقد تشعبت مضر شعبتين : قيس عيلان بن مضر ، وإياس بن مضر[٢] . ومن قبائل قيس عيلان بن مضر : خصفة وسعد وعمرو . ومن أولاد خصفة : عكرمة ، ومحارب ؛ ومن أعقاب عكرمة القبيلتان المشهورتان : هوازن وسليم . ومن أعقاب هوازن : معاوية بن بكر بن هوازن ، وسعد بن بكر ، وإليه ينسب كل سعدى . ومنهم حليمة بنت ذؤيب السعدية التى أرضعت الرسول ، وقسى ، وهو ثقيف ، واسمه منبه بن بكر ، وإليه ينسب الثقفيون . وقد أقام ثقيف بالطائف فى نفر من أصهاره عدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان . وقد تمرد ثقيف على قومه وفتك بمن جاوره ، فنابذوه العداء فانحاز عنهم[٣] .

وقد روى البكرى[٤] عن هشام الكلبي فى سبب تسمية ثقيف بهذا الاسم ، وما كان من نزول منبه بن بكر بن هوازن ، واسمه ثقيف — فقال : « إن ثقيفاً والنخع ابنا خالة ، وإنهما خرجا فى نجعة ، ومعهما غنيمة (أى قطعة يسيرة من الغنم) لهما ، فيها شاة ، معها جدى لها ، فعرض لها مصدق[٥] لبعض ملوك اليمن ، فأرادهما على أخذ الشاة ذات الجدى ، فقالا له : خذ منها ما شئت ، فقال : هذه الشاة الحلوب . قالا : إنما نعيش ويعيش جديها منها ، فخذ غيرها . فأبى ، فنظر أحدهما إلى صاحبه ، وهما بقتله . فأشار أحدهما إلى صاحبه أن ارمه فرماه بسهم ، ففلق قلبه . ثم قال أحدهما لصاحبه : والله ما تحملنا أرض واحدة .

---

(١) البكرى ٧٦ .
(٢) ابن خلدون : العبر ج ٢ ص ٣٠٠ ، ٣٠٥ ، ٣١٥ ، ٣١٩ — ٣٢٠ .
(٣) البكرى ج ١ ص ٦٤ — ٦٦ ، ٧٦ ، ٧٧ .
(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٦٤ — ٦٦ .
(٥) المصدق : العامل الذى يجمع الأموال للحكومة .

إما أن تغرب وأشرق ، وإما أن تشرق وأغرب ، فقال قسى ، وهو ثقيف : فإنى أغرب ، وقال النخع ، واسمه جسر : فإنى أشرق . فمضى النخع حتى نزل بيشة باليمن ، فلما كثر ولده ، تحول إلى الدثنية ، فهى منازلهم إلى اليوم . ومضى قسى حتى أتى وادى القرى » فنزل بعجوز يهودية كبيرة لا ولد لها ، فكان يعمل بالنهار ويأوى إليها بالليل ، فاتخذها أماً واتخذته ابنا . فلما حضرتها الوفاة قالت له : يا هذا لا أحد لى غيرك ، وقد أردت أن أكرمك لإلطافك إياى ، وإنما كنت أعدك ابنى . وقد حضرنى الموت ، فإذا أنت واريتنى ، فخذ هذا الذهب وهذه القضبان من العنب ، فإذا أنت نزلت وادياً تقدر على الماء فيه ، فأغرسها فيه ، فإنك تنتفع بها ، وماتت .

فأخذ الذهب والقضبان ثم أقبل ، حتى إذا كان قريباً من وج ، وهو الطائف ، إذا هو بأمة يقال لها خصيلة . قال هشام : ويقال زبيبة ، ترعى ثلاث مائة شاة فأسر فى نفسه طمعاً فيها ، وفطنت له ، فقالت : كأنك أسررت فى طمعاً : تقتلنى وتأخذ الغنم ، قال : أى والله ! قالت : والله لو فعلت لذهبت نفسك ومالك وأخذت الغنم منك . أنا جارية عامر بن الظرب العدوانى سيد قيس وحكمها ، وأظنك خائفاً طريداً . قال : نعم ، قالت : فعربى ، أنت ؟ قال : نعم . قالت : فأنا أدلك على خير مما أردت ، مولاى إذا طفلت الشمس للإياب يقبل فيصعد هذا الجبل ثم يشرف على هذا الوادى ، فإذا لم ير فيه أحداً وضع قوسه وجفيره[1] وثيابه ، ثم ينحدر فى الوادى ، لقضاء حاجته ، ثم يستنجى بماء من العين ثم يصعد فيأخذ ثيابه وقوسه ، ثم ينصرف فيخرج رسوله فينادى : ألا من أراد الدرمك[2] واللحم والتمر واللبن ، فليأت دار عامر بن الظرب فيأتيه قومه ، فاسبقه إلى الصخرة وأكمن له عندها . فإذا وضع ثيابه وقوسه فخذها ، فإذا قال لك : من أنت ؟ فقل : غريب فأنزلنى ، وطريد فآونى ، وعزب فزوجنى ، فأنه سيفعل . ففعل ذلك قسى ، فقال له : من أنت ؟ فقال : أنا قسى بن منبه ، وأنا طريد فآونى ، وغريب فأنزلنى ، وعزب فزوجنى . فانصرف به إلى وج ،

---

(١) الجفيرة : جعبة من جلود لا خشب لها أو من خشب لا جلود فيها .
(٢) الدرمك : الدقيق النقى الحوارى ، ولعله يريد الخبز المصنوع منه .

وخرج مناديه فنادى : ألا من أراد الخبز واللحم والتمر واللبن فليأت دار عامر ابن ظرب ، فأقبل كل من كان من حوله من قومه . فلما أكلوا وتجعوا[١] وفرغوا ، قال لهم : ألست سيدكم وابن سيدكم وحكمكم ؟ قالوا بلى ! قال : ألم تؤمنون من أمنت وتؤوون من آويت وتزوجون من زوجت ؟ قالوا : بلى ! قال هذا قسى بن منبه وقد زوجته ابنتى وآويته معى فى دارى وأمنته . قالوا : نعم ! جوزنا مافعلت ؛ فزوجه ابنته زينب ، فولدت له عوفاً وجشم ودارساً ، وهم من الأزد بالسراة ، وسلامة انتسبوا فى اليمن . وهم أهل أبيات قليلة فى بنى نصر بن معاوية . ثم هلكت زينب فزوجه ابنة له أخرى يقال لها آمنة ، فولدت له ناصر بن قسى ، والمسك بنت قسى . . . وهى أم النمر بن قاسط .

وغرس قسى تلك القضبان بوادى وج ، فأنبتت ، فقالوا : قاتله الله ما أثقفه حين ثقف عامراً حتى أمنه وزوجه ، وأنبتت تلك القضبان حتى أطعمت ، فسمى ثقيفاً يومئذ »[٢] .

كذلك نزلت هاجر من صعصعة ناحية من الطائف بجوار أصهارهم عدوان ابن عمر بن قيس . ثم وقعت بين عدوان حرب ، فتفرقت جماعتهم وتشتت شملهم ، فطمعت فيهم بنو عامر وأخرجتهم من الطائف ، غير أن ثقيفاً ، وقد عرفت فضل الطائف ، فقالوا لبنى عامر : « إن هذه بلاد غرس وزرع ، وقد رأيناكم اخترتم المراعى عليها ، فأصررتم بعمارتها واعتمالها ، ونحن أبصر بعملها منكم . فهل لكم أن تجمعوا الزرع والضرع وتدفعوا بلادكم هذه إلينا ، فنثيرها حرثاً ونغرسها ثماراً وأشجاراً ونكظمها كظائم ، ونحفرها أطواء ، ونملؤها عمارة وجناناً بفراغنا لها وإقبالنا عليها وشغلكم عنها واختياركم غيرها ؟ فإذا بلغت الزروع وأدركت الثمار شاطرناكم ، فكان لكم النصف بحكم فى البلاد ولنا النصف بعملنا فيها ، فكنتم بين ضرع وزرع لم يجتمع لأحد من العرب مثله . فدفعت بنو عامر الطائف إلى ثقيف بذلك الشرط ، فأحسنت ثقيف

---

(١) تجع : أكل التمر اليابس وشرب عليه اللبن .

(٢) هذا ما رواه هشام بن الكلبى فى خبر ثقيف وسكناها الطائف وهو لايخلو من مسحة القصص الموضوع .

عمارتها . . . فلبثوا بذلك زماناً حتى كثرت ثقيف ، وحصنوا الطائف ، وبنوا عليها حائطاً يطيف بها ، فسميت الطائف[١] . ومن قبائل قيس أيضاً : بنو غطفان ، ومن بطونها بنو عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان ، ومنهم زهير بن قيس صاحب حرب داحس والغبراء ، وعنترة العبسى البطل المشهور . ومن غطفان بنو ذبيان بن ريث بن غطفان ، ومنهم النابغة الذبيانى الشاعر ؛ ومن ذبيان : فزارة ، وكانت تقيم بنجد ووادى القرى[٢] .

وكان لإلياس بن مضر ثلاثة أولاد : قمعة وطابخة ومدركة . وقد تفرعت منهم بطون كثيرة : فمن قمعة : أسلم ، وخزاعة ؛ ومن طابخة : ضبة ، والرباب ، ومزينة وتميم . ومن بطون تميم : بنو العنبر بن عمرو بن تميم ، وإليهم ينسب جديلة بن عبد الله العنبرى الصحابى ، ومن بطون تميم أيضاً : بنو حنظلة بن مالك ابن زيد مناة بن تميم[٣] .

ومن أولاد مدركة : خزيمة ، ومن خزيمة : الهون ، وأسد ، وكنانة ، ومن كنانة : النضر ؛ ومن النضر : مالك بن النضر ؛ ومن مالك : فهر ، وهو قريش . وتقيم بطون كنانة بن خزيمة إخوة بنى أسد بجهات مكة . وانقسمت قريش إلى قبـائل شتى . ومن أولاد مدركة أيضاً : بنو هذيل ؛ ومن هذيل بنو لحيان ، وسعد[٤] .

وكانت ديار بنى هذيل بن مدركة على مقربة من الطائف ، ولهم أراضى أخرى فى نجد وتهامة بين مكة والمدينة . أما بنو أسد بن خزيمة بن مدركة فكانت ديارهم مما يلى الكرخ من أرض نجد ، وكانت طيىء تقيم بجوارهم[٥] .

ولما تنافست أولاد مدركة وطابخة بن إلياس بن مضر فى أرضهم وقعت بينهم حرب انتهت بانتصار مدركة ، فرحلت طابخة من تهامة إلى ظواهر نجد والحجاز ، وانحازت مزينة بن أد بن طابخة إلى جبال رضوى وما والاها من

---

(١) البكرى : معجم ما استعجم ج ١ ص ٧٧ — ٧٨ .
(٢) النويرى ج ٢ ص ٣١٦ — ٣١٧ ، ٣٢٣ . القلقشندى ج ١ ص ٣٤٤ — ٣٤٥ .
(٣) القلقشندى : ج ١ ص ٣٤٧ .
(٤) ابن قتيبة ص ٣٠ . النويرى ج ٢ ص ٣٣٢ — ٣٣٣ .
(٥) القلقشندى : ج ١ ص ٣٤٩ .

أرض الحجاز . وسارت تميم بن مر بن أد بن طابخة وضبة بن أد بن طابخة وعكل بن أد إلى بلاد نجد وصحاريها ، ثم نزلوا فى الأراضى الواقعــة بين اليمامة وهجر .

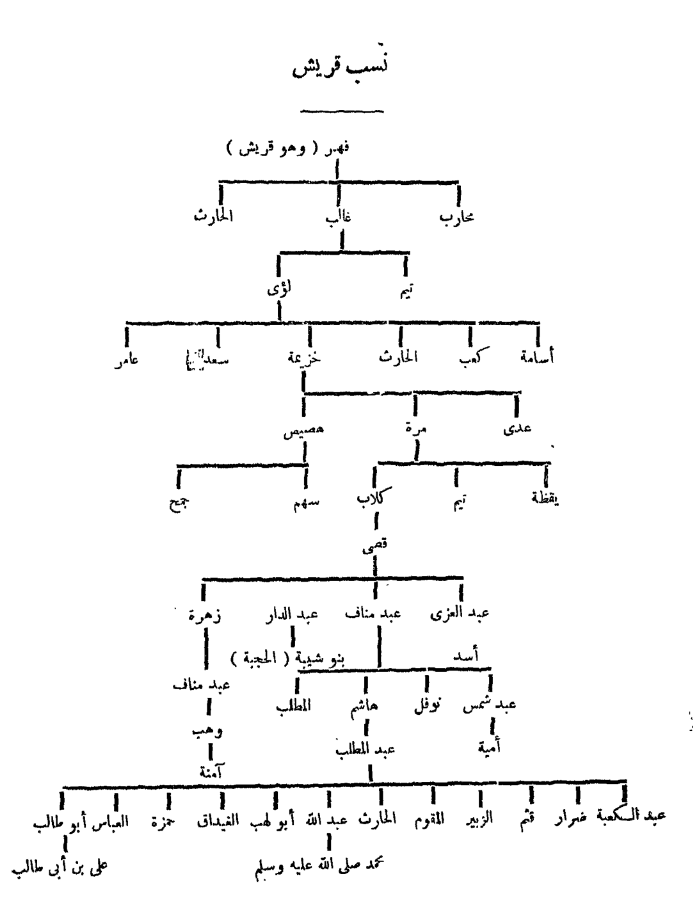
وقامت قبائل مدركة بن إلياس بن مضر بتهامة وما والاها من البلاد ، وأقام ولد النضر بن خزيمة بن مدركة حول مكة وما والاها (١) .

وأقام أبناء فهر بن مدركة حول مكة ، وظلوا على ذلك حتى أنزلهم قصى ابن كلاب الحرم ، ومن ولد فهر : قريش البطاح ، وهم الذين دخلوا مع قصى الأبطح من مكة ، وقريش الظواهر من ولد فهر : تيم الأدرم بن غالب بن فهر ، ومعيص بن عامر بن لؤى ، ومحارب والحارث ابنا فهر .

---

(١) البكرى ج ١ ص ٨٧ — ٨٨ .

نسب قريش



فهر (وهو قريش)
محارب
غالب
الحارث
تيم
لؤى
أسامة
كعب
الحارث
خزيمة
سعد
عامر
عدى
مرة
هصيص
يقظة
تيم
كلاب
سهم
جمح
قصى
عبد العزى
عبد مناف
عبد الدار
زهرة
أسد
بنو شيبة (الحجبة)
عبد مناف
عبد شمس
نوفل
هاشم
المطلب
وهب
أمية
عبد المطلب
آمنة
عبد الكعبة
ضرار
قثم
الزبير
المقوم
الحارث
عبد الله
أبو لهب
الغيداق
حمزة
العباس
أبو طالب
محمد صلى الله عليه وسلم
على بن أبى طالب

انقسمت قريش إلى بطون شتى ، من أشهرها جمح وسهم ابنا هصيص بن كعب ، وعدى بن كعب وتيم بن مرة ، وزهرة بن قصى بن كلاب ، وقصى بن كلاب بن مرة ؛ ويتفرع منه قبيلتان : بنو عبد الدار بن قصى ، وبنو عبد العزى بن قصى ؛ ومن بنى عبد العزى بنو أسد .

ومن أولاد قصى : عبد مناف بن قصى . ومن أولاده نوفل ، وعبد شمس جد الخلفاء الأمويين ، والمطلب ، وهاشم[1] . ومن بيت هاشم النبي صلى الله عليه وسلم ، والعباسيون أولاد العباس بن عبد المطلب ، والعلويون أولاد على بن أبى طالب .

ولما تكاثرت العدنانية ، ورأوا أن البلاد التى كانوا يقيمون فيها قد ضاقت بهم ، تفرقوا حيث الماء والزرع . وممن هاجر منهم عبدالقيس بن ربيعة ، وبطون من بكر بن وائل ، وبطون من تيم بن مرة ، وقد هاجروا إلى جهة البحرين . وكان المنذر بن ساوة من بنى حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم أمير هذه الجهة من قبل الفرس عند ظهور الإسلام .

وقامت بنوسليم فى الأراضى الممتدة بين وادى القرى وخيبر إلى شرق المدينة المنورة (ومنهم الخنساء وابنها العباس بن مرداس) . كما سكنت ثقيف بالطائف ، وهوازن شرقى مكة بنواحى أوطاس[2] على الطريق بين مكة والبصرة ، وسكنت بنو أسد شرقى تيماء ، وسكنت ذبيان بالقرب من تيماء إلى حوران ، وأقامت قريش بمكة وضواحيها ؛ إلا أنهم ظلوا متفرقين حتى جاء قصى بن كلاب ، فكون لهم وحدة وغلبت خزاعة على أمر الكعبة ، ومن ثم ظهر أمرهم بين القبائل الأخرى[3] .

وقد بين البكرى (ج ١ ص ٩٠) مواضع القبائل العربية المضرية التى

---

(١) القلقشندى ج ١ ص ٣٥٥ — ٣٥٦ .

(٢) اسم واد دارت فيه غزوة حنين التى أوقع فيها النبى صلى الله عليه وسلم ببنى هوازن انظر سورة التوبة ٩ : ٢٥ .

(٣) راجع كتاب معجم ما استعجم للبكرى ج ١ ص ٨٩ .
Wustenfeld : Genealogische der arabischen stamme und famillien (Gottingen, 1852 — 1853).

نزلت الحجاز ونجدا عند مجيء الإسلام فقال : وجاء الله عز وجل بالإسلام ، وقد نزل الحجاز من العرب أسد ، وعبس ، وغطفان ، وفزارة ، ومزينة ، وفهم ، وعدوان ، وهذيل ، وخثعم ، وسلول ، وهلال ، وكلاب بن ربيعة ، وطيء — وأسد وطيء حليفان — وجهينة ، نزلوا جبال الحجاز : الأشعر ، والأجرد ، وقدساً ، وآرة ، ورضوى ، وأسهلوا إلى بطن أضم ، ونزلت قبائل من بلى شغباً وبدا ، بين تيماء والمدينة . ونزلت ثقيف وبجيلة حضرة الطائف ، ودار خثعم من هؤلاء : تربة وبيشة ، وظهر تبالة ، على محجة اليمن ، من مكة إليها ، وهم مخالطون لهلال بن عمرو ، وبطن تبالة لبنى مازن ، ودار سلول فى عمل المدينة ، ومنازل أزد شنوءة السراة ، وهى أودية مستقبلة مطلع الشمس بتثليث وتربة وبيشة . وأوساط هـــذه الأودية لخثعم ، على ما تقدم ، وأحياء مذحج . وهذه الأودية تدفع فى أرض بنى عامر بن صعصعة ، ومن بقى بأرض الحجاز من أعجاز جشم ونصر بن معاوية . ومن ولد خصفة بن قيس: فهم بالحرة ، حرة بنى سليم وحرة بنى هلال وحضرة الربذة ، إلى قرن تربة ، وهم مخالطون لكلاب بن ربيعة ، هؤلاء كلهم من ساكنى الحجاز .

ونزل نجدا من العرب: بنو كعب بن ربيعة بن عامر ، ودارهم الفلج وما أحاط به من البادية . ونزل نمير بن عامر ، وباهلة بن يعصر ، وتميم كلها بأسرها ، باليمامة وبها دارهم ، إلا أن حاضرتها لربيعة بن نزار وإخوتهم » .

ومن أشهر قبائل ربيعة : أسد ، وكانت تسكن شمالى وادى الرمة [١] بنجد وعبد القيس ، ووائل ، وتنقسم إلى بكر وتغلب ، ومن تغلب بن وائل ، كليب ملك بنى وائل الذى قتله جساس [٢] .

ولما قامت الحرب بين بنى ربيعة ، تفرقوا ، فرحلت عبد القيس إلى البحرين وهجر وزاحموا إياد والأزد ، وكانوا قد رحلوا إلى هـذه البلاد قبل ذلك الوقت وأجلوهم عنها ، فرحلوا إلى بلاد العراق ، واقتسمت قيس البحرين بينهم ودخلت

---

(١) الرمة : قاع عظيم بنجد من ناحية المدينة المنورة ، تنصب فيه عدة أودية ويقع على مقربة من بلاد فزارة . انظر كتاب معجم ما استعجم للبكرى .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ٣٣٨ .

قبائل من بنى ربيعة ، من بكر ، وتغلب ، وغفيلة ، وعنزة ، وضبيعة ظواهر بلاد نجد والحجاز وأطراف تهامة وما والاها ، وانتشروا فيها ، حتى وقعت الحرب بينهم وقتل جساس بن مرة بن ذهل بن شيبان ، كليب بن ربيعة ، وقامت بسبب ذلك الحرب المعروفة بحرب البسوس التى دامت أربعين سنة (١) .

« ولم تزل الحروب والوقائع تنقلهم من بلد إلى بلد ، وتنفيهم من أرض إلى أرض ، وتغلب فى كل ذلك ظاهرة على بكر ، حتى التقوا يوم قضة(٢) » ، وكانت الغلبة لبنى تغلب على بكر ، « فتفرقوا على ذلك اليوم ، وتبددوا فى البلاد ، أعنى بنى تغلب . وانتشرت بكر بن وائل ، وعنزة وضبة باليمامة ، فيما بينها وبين البحرين إلى أطراف سواد العراق ومناظرها ، وناحية الأبلة إلى هيت وما والاها من البلاد ، وانحازت النمر وغفيلة إلى أطراف الجزيرة وعانات وما دونها ، إلى بلاد بكر بن وائل وما خلفها من بلاد قضاعة » (البكرى ١ : ٨٥ — ٨٦) .

وإلى بكر بن وائل ينسب طرفة بن العبد البكرى ، وإلى تغلب ينسب عمرو ابن كلثوم والأخطل ، وثلاثتهم من كبار شعراء العربية .

٣ — الممالك العربية قبل الإسلام

(ا) معين : كان الحكام فى هذه البلاد قسمين :

الأول : الملوك المتوجون ، وكانوا تابعين لملوك آخرين ، ويسمون أقيالا . ولم يكونوا مستقلين استقلالا تاما ، اللهم إذا استثنينا بعض ملوك اليمن فى عصور ازدهارها .

الثانى : رؤساء العشائر ، وكان لهم ما للملوك من الحكم والمزايا ، ولكنهم لم يكونوا أصحاب تيجان ، وقد يكونون على تمام الاستقلال ، أو تابعين لملك متوج .

---

(١) البكرى ج ١ ص ٨١ ، ٨٣ ، ٨٥ .

(٢) قضة : هى عقبة فى عارض اليمامة ، وعارض جبل ، وقضة من اليمامة على ثلاث ليال .

ومن ممالك بلاد العرب الجنوبية معين وسبأ وحمير ، ومنهم الملوك التبابعة (واحدهم تبع) . وكان التبع بمنزلة الإمبراطور أى ملك الملوك ، لسيادته على عدة ملوك مستقلين استقلالا داخلياً ، ويسمون الأذواء أو الأقيال . وكان ينبغ من هؤلاء الحكام فى بعض الأحيان رئيس يوسع سلطانه إلى ما يجاوز مخلافه ، ويعظم نفوذه أو يصغر ، بحسب اتساع مخلافه وخصبه أو ضيقه وفقره . ويعد مخلاف صنعاء أضخم هذه المخاليف وأخصبها حتى إن رؤساءه كانوا يلقبون بالملوك . وكانت عدن من المدن المستقلة .

كذلك كان فى جزيرة العرب ملوك من قبيلة كندة ، وكان موطنهم بلاد حضرموت الواقعة فى الجنوب الشرقى . وقد ملكوا جهات مختلفة من هذه البلاد ، كما كان لهم السلطان والقوة فى بلادهم . على أن هذه المملكة لم تدم طويلا .

ومن ممالك بلاد العرب الجنوبية مملكة معين ، وكانت فى الشمال ، وسبأ جنوبها ، وقتبان . وكانت أشد إمعاناً فى الجنوب بنواحى عدن . أما حضرموت فكانت شرقى هذه الممالك الثلاث .

وقد ورد ذكر معين فى بعض الكتب العربية ، كما وقفنا على أخبارها من النقوش التى كشفت حديثاً فى جزيرة العرب ومن بعض أخبار التوراة . وقد قامت هذه المملكة فى بلاد اليمن ، فى منطقة الجوف الجنوبى شرقى صنعاء ، وحاضرتها القرن كما وردت فى الآثار ، ويسميها اليونان كارنا أو قارنا ، وتشمل معين : قتبان ، وحضرموت ، وإقليم ملخ Melukh .

وقد ذكر الهمدانى[1] مخفد معين بأسفل جوف أرحب ، وقال إنها خراب خاوية على عروشها .

وذكر جليزر Glazer أن معين أقدم فى تاريخها وثقافتها من سبأ . وأيد هذه الدعوى فريق من العلماء وعارضها فريق آخر ، ويقول بعض المؤرخين إن المنافسة قامت بين معين وبين سبأ التى خلفتها . ويزعم جليزر أن المعينيين قد انحط

---

(١) الإكليل : ج ٨ ص ١٠٥ (برنستون سنة ١٩٤٥) .

شأنهم حتى وصلوا إلى بربرتهم الأولى ، أو أنهم انقرضوا فعلا حول نهاية القرن الأول قبل الميلاد ، وهذا لا يتفق مع ما أشار إليه بلينى من أنهم كانوا جيران السبئيين ، ومع وصف بطليموس لهم فى وقت متأخر من أنهم كانوا شعباً عظيما جداً [١] .

ولم يذكر مؤرخو اليونان شيئاً عن ملوك معين ولا عن أسمائهم . ولكن رجال الآثار استطاعوا أن يعثروا على أسماء ملوكها فى أنقاض منطقة الجوف (أى جوف أرحب) ببلاد اليمن بين نجران وحضرموت .

وفى الجوف نجد مكاناً يحمل اسم معين . ويقول هلبنى إن بمنطقة الجوف أطلالا أقدم من أى منطقة أخرى ببلاد العرب . ومن أهم هذه الأطلال من الناحية التاريخية تلك الأماكن التى لا تزال تحمل اسم معين أو مأرب ، ولا شك أن الأولى تمثل حاضرة المعينيين (أو ليرى ص ٩٥) .

وكانت الحكومة فى هذه المملكة ، على ما ورد فى النقوش المعينية ، وراثية تنتقل من الأب إلى الإبن ؛ وقد يشترك الاثنان معا فى الحكم . واهتدى بعض المنقبين إلى معرفة ستة وعشرين من ملوك هذه الدولة [٢] .

ويستدل من النقوش ، وما ورد فى التوراة ، وما كتبه بعض مؤرخى اليونان أن معين ظهرت فى الألف الثانى قبل الميلاد ، أى بين سنتى ١٢٠٠ و ٦٥٠ ق م . ، وأنها كانت على جانب عظيم من القوة والثروة . كذلك يستدل مما وقف عليه الباحثون من أحوال المعينيين السياسية والاجتماعية ، ومن أسماء رجالهم وآلهتهم أنهم ينتسبون فى الأصل إلى عمالقة العراق . وقد هاجر المعينيون مع غيرهم من القبائل من بلاد العراق ، والتمسوا مقراً متحضراً يقيمون فيه ؛ فنزلوا اليمن بإقليم الجوف ،وشيدوا القصور والمحافد على مثال ماشاهدوه فى بابل .

وامتد نفوذ المعينيين بفضل نشاطهم التجارى إلى الخليج الفارسى وإلى أعالى بلاد الحجاز مما يلى سواحل البحر الأحمر . يدل على ذلك النقوش التى عثروا

---

(1) O'Leary : Arabia Before Muhammad, p. 94.
(2) Hitti : History of the Arabs, pp. 53 — 54.

عليها فى وادى القرى والصفا وحوران[1] وكان المعينيون يحملون أنواع البخور من جنوبى الجزيرة العربية إلى الشمال مارين بأواسط الجزيرة وحذا حذوهم السبئيون فى إمداد المعابد المصرية بالبخور فى عصر البطالمة (أوليرى ص ٩٤) .

وكانت مملكة معين أقوى وأغنى من مملكة سبأ التى اشتهر أمرها فى التاريخ : لظهورها فى وقت كان فيه الجزء الجنوبى الغربى من بلاد العرب مزعزعا وأقل أمناً ، ولا سيما فى عالم التجارة ، على حين ظهرت معين فى وقت كانت فيه قبائل الجزيرة العربية على جانب عظيم من القوة .

(ب) *مملكة سبأ* : كانت مملكة سبأ بين معين وقتبان ، وامتد نفوذها من ساحل الخليج الفارسى شرقاً إلى البحر الأحمر غربا[2] . وقد انتقل سلطان معين إلى سبأ التى بدأت قوتها تظهر فى أواخر أيام معين ، وامتد نفوذها حول سنة ٩٥٠ إلى سنة ١١٥ ق . م . وورثت سبأ ملك معين حول سنة ٦٥٠ ق م . كما تقدم ، وآلت إليها السيادة على الجزء الجنوبى لبلاد العرب ، كما أصبح ملوك سبأ حكاماً على هذه البلاد فى هذه الفترة التى تعد أزهى عصورها .

ويستدل من آثار دولة سبأ أنها كانت فى بدء أمرها إمارة صغيرة ، ثم أصبحت مملكة تتمتع بنفوذ قوى على ما جاورها من المحافد ، أو القلاع والقصور والمخاليف . ومما هو جدير بالذكر أننا لا نجد فى آثارها إلا القليل عن الفتوح والحروب التى قامت بها ، ويرجع السبب فى ذلك إلى أنها كانت دولة تعنى بالتجارة دون غيرها .

كذلك يتبين من الآثار التى عثر عليها الباحثون ، أن دولة سبأ الحقيقية مرت فى طورين يتميزان بألقاب ملوك السبئيين . فكان ملكهم فى الطور الأول الذى ينتهى حول سنة ٦٥٠ ق.م. ، ويسمى « مكرب سبأ » . . وقد تلقب بهذا اللقب ، على ما ورد فى النصوص نحو سبعة عشر ملكا . وكان يحفد صرواح ،

---

[1] جرجى زيدان : تاريخ العرب قبل الإسلام ص ١١١ — ١١٤ .

[2] كان السبئيون أكثر أهالى بلاد اليمن شهرة ؛ إذ كان لفظ سبأ يطلق عادة على جميع تجار العرب كما كان كثير الاستعمال فى العهد القديم .



خريطة
بلاد العرب الجنوبية
قبل الاسلام
مكه
الطائف
الليث
قنفده
وادي الدواسر
سليل
الربع الخالي
بادية الاحقاف
الجوف
مهره
الجوف الجنوبي
وادي نجران
قران
ازد
معين
مارب
كهلان
صنعاء
همدان
الحديده
زبيد
مخا
اليمن
عدن
حضرموت
الشحر
مقياس الرسم
كيلومتر

وهو خريبة الحديثة على مسيرة يوم غربى مأرب ، من أقدم مبانى السبئيين ، وكان حاضرتهم الأولى(١) .

أما فى الطور الثانى (حول سنة ٦٥٠ إلى ١١٥ ق . م) فقد كان الحكام يحملون لقب « ملك سبأ »(٢). وكانت حاضرة سبأ فى ذلك العصر مدينة مأرب . ويقول بعض إن سبأ هى مأرب . ويقول الأستاذ فيليب حتى (p. 55) إن سبأ هى فى الحقيقة اسم يطلق على البلاد والشعب وليس على المدينة . وذكر أوليرى (p. 90) أن حاضرة سبأ كانت تسمى مريابة Mariaba جنوب شرقى مأرب وأنها على جبل كثير الأشجار .

وقد نقل أوليرى (p. 90) وصف مدينة مأرب وأعمالها عن الرحالة المحدثين مثل هليفى ، فقال إنها تمتد إلى مسافة ١٦٠ ميلا شمال شرقى بلاد اليمن ، ويفصل هضبة صنعاء عن منحدرات تهم بلد خولان واد عميق متسع ، أو بعبارة أدق ، سلسلة غير متصلة من الوديان . وتجرى هذه الأرض المنخفضة غير المنتظمة إلى الشمال والجنوب منفصلة عن هضبة اليمن وعسير . وإلى الشرق منها رمال الصحراء الكبرى المرتفعة . أما الجزء الجنوبى من هذا المنخفض ، فهو الجوف (ويعرف بوجه خاص بجوف اليمن) ، وهو مركز حضارة سبأ القديمة . وتقع الحاضرة القديمة ، وهى مأرب ، على بعد ثلاثين ميلا جنوبى الجوف الأسفل وخمسة وخمسين ميلا شمالى صنعاء . وقد شاهدها كل من نيبوهر Mebuhr فى سنة ١٧٦٢ م ، ثم هليفى الذى وصفها فقال : « إنها عبارة عن أطلال ، عدا ذلك الجزء الذى تتألف منه البلدة الحديثة ، ويقع على تل . وتشغل هذه الأطلال مساحة قطرها نحو خمسمائة متر ، وتشتمل على كثير من أعمدة الرخام التى لاقواعد لها ويقع السد على مسيرة ساعتين أو ثلاث تقريباً من ناحية الغرب عند مدخل واد يؤلف مجرى وادى شبوان . والجزء الذى لايزال باقياً إلى اليوم يكشف عن أطلال سد متين البناء جداً ، وله عيون كثيرة . وإلى الجنوب الغربى قليلا يرى الناظر أطلال بناء كبير جداً ذى حجارة منحوتة ، مبنى ببراعة ، ويرى قبالته صخرة عظيمة . وعلى مقربة من هذه الصخور يرى الناظر سلسلة من

---

(١) Hitti, p. 54.

(٢) جرجى زيدان : تاريخ العرب قبل الاسلام ص ١١٧ — ١١٨ .

الصهاريج التى تغذيها ينابيع المياه . وعلى مقربة منها مدن أخرى قديمة أشهرها نجران ، وتقع فى ولاية يفصلها عن الجوف الأعلى أرض حزنة تمتد إلى مسيرة أربعة أيام » .

وقد ساعد سبأ وحمير على الاستقرار ذلك الخصب الذى امتاز به هذا الإقليم الذى كانوا يسكنونه من بلاد العرب ، كما كان لتجارتهم المطردة الواسعة النطاق مع مصر وسورية وبابل أثر كبير فى تدفق موارد الثروة على هذه البلاد . وكان بعضهم يزرع الحقول ، وبعضهم الآخر يتجر فى البهار الذى تغله بلادهم ، أو الذى يستجلب من بلاد الحبشة . ومن هذه يقدمون فى قوارب مصنوعة من قشور الأشجار .

وكان لسبأ فى البحر الأحمر أسطول بحرى تشحن سفنه بالبخور لإمداد الهياكل المصرية بها . وقد ورثت سبأ من معين ذلك المركز التجارى ، كما كان لها قوافل تخترق الصحراء إلى الشام وفلسطين لنقل السلع التجارية بينها وبين البلاد الأخرى .

ولاشك أنه كان لهذه الأقاصيص الشائعة بين الأمم الغربية عما بلغته مدن سبأ وحمير من الأبهة والعظمة ، وهذه الستون هيكلا ، وأوانى الذهب والفضة ، وأعمده الرخام ، وعجلات مأرب ، أساس من الحقيقة .

وإن أطلال هذه القناطر المقامة على الأعمدة لتوصيل ماء الشرب إلى المدن (aqueducts) ، وهذه السدود والأحواض لتثير إعجاب الرحالة والسائحين الأوربيين ، من حيث براعة الرسم ومتانة البناء . وهى تكشف ، لا عن المهارة التى بلغتها سبأ وحمير فى فن العمارة وحدها ، بل تدل أيضاً على معرفتهم التامة بنظام الرى . ولا غرو فقد حذقوا فن شق الترع وإقامة الأحواض من هذه المجارى المتدفقة من الجبال للانتفاع بها فى رى أرضهم . وقد تأثرت الأعمال الهندسية فى مملكة سبأ بالأبنية المصرية والبابلية وهى — بلا شك — ذات طابع قريب الشبه بالأبنية التى أقامها قوم يتمتعون بثقافة هؤلاء الذين يسكنون وادى النهر ، من حيث ضبط المياه المعرضة للفيضان الذى يحدث فى أوقات دورية .

وإن خرائب الأبنية الفخمة من القصور والمحافد والقلاع قرب مأرب ونجران والغراب ونقب الحجرة لتؤيد الروايات العربيـــة والأوربية التى تحدثنا عما بلغته هذه البلاد من العظمة والمجد فى الأزمان الغابرة . وإن النقوش التى وجدت على هذه الأطلال وغيرها فى جنوب غربى بلاد اليمن (وترجع إلى سنة ١٢٠ تقريباً) ، لتعطينا فكرة عن حياة القبائل التى كانت تقيم فى جنوبى بلاد العرب ق . م وما بلغته من تقدم فى الفن والثقافة ، كما أن الأشكال الأولى لحروف الهجاء قد اشتقت عن الأشكال البابلية ، ثم سارت معها جنباً لجنب من حيث التطور والرقى .

ومع ما كان لدولة سبأ من تقدم فى الحضارة والتجارة ، يظهر أنها لم يكن لها قوة حربية ، فإن الملكة بلقيس ، وهى من أشهر ملوك سـبأ ، والتى ورد ذكرها فى القرآن والتوراة بلقب ملكة سبأ ، لم تخف خوفها حين تسلمت رسالة سليمان وقالت لقومها : (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون) . ويدل على ذلك أيضاً قول سليمان حين أرسل إلى بلقيس مهدداً (فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) (سورة النمل ٢٧ : ٣٤ ، ٣٧) . وإذا علمنا أن ملك سليمان لم يجاوز فلسطين وما حواليها ، أمكننا أن نتبين مقدار قوة بلاد اليمن إذ ذاك (١) .

اختلف المؤرخون فى أسباب سقوط الدولة السبئية . فيرى مؤرخو العرب أن السبب فى ذلك يرجع إلى تصدع سد مأرب ، الذى لم يكن لهم غنى عنه لرى أرضهم رياً منظماً ، والذى كان السبب الأساسى فى رقى بلادهم وتقدمها . ويذهب بعض المستشرقين إلى أن انكسار هذا السد كان فى حد ذاته نتيجة إهمال من أمة آخذة فى الانحطاط ، وأن هذا الخراب الذى حل بأهل سبأ لابد أن يكون قد حدث تدريجياً قبل انهيار السد بزمن طويل ، لأنه لايعقل أن تزول مدينة عظيمة دفعة واحدة . وكان من أثر ذلك الحادث أن هاجر عدد كبير من أهل هذه البلاد إلى الجهات الشمالية والشرقية من جزيرة العرب كما تقدم .

---

(١) Noeldeke, Vol. viii, pp. 104—105.

ويظهر أنه لما تطاولت الأزمان على هذا السد وأهمله الملوك ، تصدعت جوانبه ولم يعد يحتمل تدفق السيول والمياه الكثيرة المحجوزة خلفه ، فانكسر ، وفاضت المياه على ما حوله من القرى والمزارع فأتلفتها .

وقد ذكر أوليرى أن انكسار سد مأرب حدث تاريخى لاريب فيه ، وأن القرآن الكريم وصف هذا الحدث بأنه عقاب أنزله الله بأهل سبأ .

(ح) *مملكة حمير* : كانت حمير وكهلان من العرب القحطانيين تتنازعان الرياسة وتتنافسان على الملك ؛ وقد قسموا بلادهم إلى مخاليف ، لكل منها رئيس يكبر ويصغر بحسب زيادة قوة مخلافه أو ضعفها .

وتقع مملكة حمير بين سبأ والبحر الأحمر ، وتشغل الأراضى التى يطلق عليها اسم قتبان . وقد حلت أول الأمر محل قتبان التى ظهرت قبلها ، ثم استوعبت مملكة سبأ وريدان ، وظهرت مملكة حمير بعد سنة ١١٥ ق م . واتخذ الحميريون ريدان التى عرفت فيما بعد باسم ظفار مقراً لملكهم . وكانت ظفار مدينة داخلية على بعد مائة ميل شرقى مخا على الطريق إلى صنعاء ، وحلت محل مأرب حاضرة سبأ ، وقرنا أو قرناو حاضرة المعينيين . وقد ورث الحميريون ، المعينيين والسبئيين فى الثقافة والتجارة ، وكانت لغتهم هى نفس لغة السبئيين والمعينيين من قبلهم .

وكان الحميريون يقيمون فى ريدان قبل ذلك ، وهم أقيال أو أذواء . ويسمى كبيرهم « ذو ريدان » ، ولما تغلبوا على السبئيين صار لقب كبيرهم «ملك سبأ وذو ريدان » . ودامت مملكة حمير ٦٤٠ سنة يمكن تقسيمها إلى عصرين متساويين . ويلقب ملوك العصر الأول أو الطبقة الأولى بملوك سبأ وريدان . ويبدأ العصر الثانى بضم حضر موت إلى حمير ، ويلقب ملوكها بلقب ملوك سبأ وريدان وحضرموت .

وتختلف مملكة حمير عن مملكة سبأ فى اهتمامها بالفتوح ، وقد نبغ من ملوكها قواد عملوا على اتساع رقعة دولتهم ، فتغلبوا على بعض البلاد المجاورة ، وحاربوا الفرس والأحباش .

ولا نستطيع أن نصل إلى معلومات ذات غناء عن أعمال ملوك حمير لاختلاف الروايات العربية ، كما أنه ليس من السهل الاهتداء إلى تاريخ هؤلاء الملوك من

الآثار المنقوشة أو النقود ، لتشابه أسماء كثير من هؤلاء الملوك الذين عاشوا فى عصور متقاربة ، على الرغم من مقارنة ما كتبه مؤرخو اليونان ، مثل سترابون بما عثر عليه من هذه النقوش . ولعل السبب فى تشابه أسماء ملوك حمير وزيادة عددهم ، يرجع إلى أن بعض مؤرخى العرب أدخل فى عداد هؤلاء الملوك أقيالا أو قواداً اشتهروا بفتوحاتهم ، فأدخلوهم فى عداد ملوكهم .

ومن أشهر ملوك حمير : شمر يرعش ؛ وقد ذكرت الروايات العربية أنه وطىء أرض العراق وفارس وخراسان ، وفتح مدائنها ، وخرب مدينة الصغد ، وراء نهر جيحون ، ثم بنى مدينة هناك عرفت باسمه ، وتعرف بسمرقند (١) .

ومن ملوك حمير أسعد أبو كرب (٣٨٥ — ٤٢٠ م) . وقد زعمت الروايات العربية أنه غزا أذربيجان ، وهزم ملك الفرس ، كما هزم ملك سمرقند وقتله ، وعاثت جيوشه فى بلاد الصين ، وعادت محملة بالغنائم . كما حاصرت جيوشه رومة ، وأدت له القسطنطينية الجزية . كذلك تزعم الروايات العربية أن أسعد هذا غزا يثرب ، وكسا الكعبة ، وأنه كان أول من تهود من العرب (٢) .

ومن ملوك حمير : يوسف ذو نواس ، وكان يحكم بلاد نجران التى كانت تدين بالمسيحية ؛ غير أنه اعتنق اليهودية فى أواخر أيامه ، واضطهد المسيحيين وأحرقهم بالنار فى سنة ٥٣٤ م (٣) . فطلب جستنيان إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية من من نجاشى الحبشة غزو هذه البلاد وإنقاذ المسيحيين . وكان جستنيان يرمى من وراء ذلك إلى غرضين : أحدهما سياسى ، وهو اتخاذ بلاد اليمن طريقاً لتجارته إلى الشرق إذا وقعت فى يد حلفائه الأحباش ليقضى على تجارة منافسيه الفرس ، والآخر دينى ، وهو جعل السيادة للدين المسيحى هناك .

١ — استيلاء الحبشة على بلاد اليمن : تغلب أرياط الحبشى على بلاد اليمن وحكمها من قبل النجاشى . إلا أن المنافسة قامت بينه وبين أبرهة أحد قواد

---

(١) ابن هشام : كتاب التيجان فى ملوك حمير ص ٢٢٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٩٤ — ٢٩٦ .

(٣) وهم الذين ذكرهم القرآن الكريم فى سورة البروج وسماهم أصحاب الأخدود (قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود) (سورة ٨٥ : ٤ — ٥) .

الحبشة وتحاربا ، فقتل أرباط ، فخلفه أبرهة على اليمن برضاء النجاشى . وقد جرح أبرهة فى هذه المعركة ، وشجت شفته ، فلقب الأشرم .

وكان من أول ماقام به أبرهة الأشرم أن فكر فى بناء هيكل فى صنعاء لصرف الحجاج عن الكعبة إليه ، كما غزا مكة لهذا الغرض ، فأخفق فى غزوته على ماسيأتى عند الكلام عن قريش .

٢ — استيلاء الفرس على بلاد اليمن : توفى أبرهة بعد أن عاد إلى اليمن بقليل ، فخلفه ولداه « يكسوم » ثم « مسروق » ، وقد أذلا أهل اليمن وأساءا معاملتهم ، فلجأ سيف بن ذى يزن الحميرى إلى قيصر الروم ، وطلب منه أن يخرج الأحباش من بلاد اليمن ، وأن يكون له الملك فيها ، فلم يجبه إلى طلبه ، فاستنجد بالمنذر بن ماء السماء والد النعمان بن المنذر المشهور . وكانت الحيرة تابعة إذ ذاك للفرس ، وطلب منه أن يقدمه إلى كسرى أنوشروان (٥٣١ — ٥٧٨) . فلما قابله سيف بن ذى يزن فى بلاطه ، ووجد ذلك التاج العظيم معلقاً على رأسه ، لم تبهره هذه العظمة بل تقدم فى شجاعة إلى كسرى وطلب منه مساعدته على استرداد بلاده من الأحباش ، فأمهله كسرى وقال له : بعدت أرضك من أرضنا وهى أرض قليلة الخير ، وإنما بها الشاة والبعير ، وذلك مما لاحاجة لنا به » . ثم صرفه بعد أن أعطاه ١٠٫٠٠٠ درهم فارسى وخلع عليه . فخرج سيف من عنده غاضباً ورمى الدراهم فتخاطفها الخدم . فلما علم كسرى بذلك ، غضب وأمر بإحضاره ، وأراد أن يعاقبه لجرأته وعبثه بهيبته . فلما دخل عليه قال كسرى :[1] « عمدت إلى حباء (عطاء) الملك الذى حباك به تنثره للناس » ، فأجابه ابن ذى يزن : « ماصنع بالذى أعطانى الملك ؟ ماجبال أرضى التى جئت منها إلا ذهب وفضة ؟ » فطمع كسرى فى الاستيلاء على هذه البلاد ، وعقد مجلساً من ذوى الرأى فى بلاده ، واستشارهم فى غزوها . فأشار عليه بعضهم برأى يكفل له الاقتصاد فى الأرواح والنفقات التى تحتاج إليها غزوة كهذه الغزوة ، ولذلك اختاروا الجنود لها من بين المسجونين ، حتى إذا انتصروا لم يكلفهم ذلك شيئاً ، وإن قتلوا فى تلك الحرب كان فى ذلك خير

(١) الطبرى ج ٢ ص ١١٦ .

وسيلة للتخلص منهم : فأخرج منهم ٨٠٠ مسجون ، وكان قائدهم « وهرز » . ويصفه المؤرخون ، ومنهم المستشرق نلدكه (أمراء غسان ص ٢٦) ، بأنه بلغ من الكبر عتيا لدرجة أن جفنيه انطبق أحدهما على الآخر ، حتى إنه كان لا يرى إلا بصعوبة . وسار الجيش وعدده ٨٠٠ مقاتل فى ثمانى سفن ، على كل سفينة مائة ، غرق منها اثنتان ووصل ٦٠٠ جندى . فلما علم أهل اليمن بذلك ، وكانوا يقاسون ألوان العذاب وصنوف الخسف من الأحباش ، خرج كثير منهم وانضموا إلى الجيش الفارسى .

أو لم « وهرز » وليمة كبيرة فى صنعاء ، وفى أثنائها أحرق المواكب الست ، وقال لجنوده : ليس أمامكم إلا إحدى اثنتين : إما القتال بشجاعة حتى الظفر ، وإما الاستكانة والتخاذل ، وحينذاك يلحقكم العار والخزى العظيم .

ولما نشب القتال بين الفرس والأحباش ، قتل نوذاذ بن وهرز ، فحنق وهرز على الأحباش وقال : أرونى ملكهم ، فقالوا له : ترى رجلا على الفيل عاقداً تاجه على رأسه بين عينيه ياقوتة حمراء . ثم أمر بحاجبيه فعصبا له ، ووضع فى قوسه نشابة فمغط فيها حتى إذا ملأها أرسلها . فصك بها الياقوتة التى بين عينيه فتغلغلت النشابة فى رأسه حتى خرجت من قفاه فمات . وهزم الأحباش وكتب وهرز إلى كسرى : « إنى قد ضبطت لك اليمن وأخرجت من كان بها من الحبشة » ؛ فكتب إليه كسرى يأمره أن يملك سيف بن ذى يزن على اليمن وأرضها . وفرض كسرى على سيف بن ذى يزن جزية يؤديها إليه كل عام ، وكتب إلى وهرز أن ينصرف إليه ، فانصرف[1] .

قتل سيف بن ذى يزن كثيراً من الأحباش فى بلاد اليمن ، وانتهى به الأمر بأن قتله رجل حبشى . فلما بلغ ذلك كسرى ، بعث وهرز إلى بلاد اليمن فى أربعة آلاف من الفرس ، وأمره ألا يترك أسود ولا ولد عربية من أسود صغيراً أو كبيراً إلا قتله ، فلما دخل وهرز بلاد اليمن لم يترك بها حبشياً إلا قتله ، ثم كتب إلى كسرى بذلك ، فأمره عليها حتى هلك ، فخلفه ابنه المرزبان . فلما مات خلفه خرخسره بن البينجان بن المرزبان بن وهرز . وقد غضب عليه كسرى

---

(١) الطبرى جـ ٢ ص ١١٧ .

خالف ليأتيه به أهل اليمن يحملونه على أعناقهم . فلما قدم على كسرى ، تلقاه رجل من عظماء فارس ؛ فألقى عليه سيفاً لأبى كسرى ، فأجاره كسرى بذلك ونجاه من القتل ونزعه . وولى باذان على اليمن ، وهو آخر ولاة هذه البلاد من قبل كسرى فارس ، وعاش إلى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وأسلم هو وقومه على أثر مادار بينه وبين الرسول من الرسائل بشأن إسلامه كما سيأتى (الطبرى ٢ : ١٢١) .

(د) مملكة الحيرة :

١ — نشأة مملكة الحيرة : استوطن بعض القبائل العربية الأراضى القريبة من حدود الدولتين الرومانية والفارسية وتمتعت باستقلال محدود . واستعان الفرس والروم بهذه القبائل على أغراضهم السياسية ، التى كانت ترمى إلى الوقوف فى وجه القبائل العربية الأخرى التى تغير على بلادهم ، وتهدد الأمن فى القرى الزراعية والمراكز التجارية المجاورة لتلك القبائل كلما أصابهم الجدب ، واستعاض الروم والفرس عن جنودهم بجنود هذه القبائل .

وقد اتخذت سياسة خاصة إزاء هؤلاء الجيران الذين كانوا يهددون الأمن فى القرى الزراعية المجاورة لهم ، كما عبدوا الطرق وأنشأوا مصلحة حدود أقاموا فيها الجند ، وعقدوا المعاهدات لحفظ الأمن كما كانت تفعل انجلترا من إبرام المعاهدات مع أمراء الشمال الغربى للهند ، كالأفغان ، وتسليح منافذ جبال الشمال الشرقى .

وقد حاول المناذرة والغساسنة أن يقلدوا حضارة الفرس والروم ، فأحاط ملك الحيرة نفسه بجميع مظاهر البلاط الفارسى ، وكذلك كانت الحال مع ملك الغساسنة بالنسبة إلى الدولة الرومانية الشرقية ، وتوالت وفود العرب على بلاط كسرى وقيصر ، حتى إن بعضهم تنصر واعتنق المسيحية .

كانت علاقة الحيرة ببلاد الفرس كعلاقة غسان بدولة الروم . وقد اتخذ الفرس إمارة الحيرة ، للاستعانة بها على حرب الروم ، ولتكون حائلا بين العراق وغارات العرب على الدولة الفارسية . كما اتخذ الروم أمراء غسان أعواناً

لهم على الفرس ، ووسيلة لحكم قبائل العرب القريبة منهم كما تقدم . وكان للغسانيين مواقف معدودة فى الجاهلية انتصروا فيها للروم على الفرس ، وصدوا عنهم ملوك الحيرة ، وتأثروا بحضارة الروم كما تأثر المناذرة بحضارة الفرس .

وتقع إمارة الحيرة على بعد ثلاثة أميال من الكوفة على بحيرة النجف موطن الشيعة حتى اليوم ؛ وكانت على أرض خصبة تمر بها فروع من نهر الفرات ، أما أهلها فكانوا منذ القرن الثالث الميلادى ثلاثة أجناس :

١ — تنوخ وينزلون غربى الفرات .

٢ — العباد[1] وهم الذين سكنوا المدينة .

٣ — الأحلاف وهم الذين لحقوا بها من غير تنوخ والعباد .

انحطت الدولة الفارسية على أثر هزيمة الإسكندر المقدونى دارا ملك الفرس سنة ٣٣٣ ق . م . وقد قسم الإسكندر بلاد الفرس إلى دويلات صغيرة يحكمها ملوك يعرفون بملوك الطوائف حتى لا يقووا على الإغارة على بلاد اليونان . واستمر ملوك الطوائف يتولون حكم بلاد الفرس إلى سنة ٢٢٦ م ، حين نبغ أردشير ابن بابك مؤسس الطبقة الرابعة من ملوك الفرس المعروفين بآل ساسان أو الأكاسرة . واستمر أردشير فى الحكم إلى سنة ٢٤١ م ، واستطاع أن يوحد كلمة الفرس من جديد ، كما أعاد إلى سلطانه الأراضى العربية المتاخمة لبلاده ومنها الحيرة والأنبار ، ومنحهما الاستقلال ليمنع أهلها من الإغارة على تخوم بلاده ، وليستعين بهم على الرومان وعلى العرب الذين يغيرون على بلاد الفرس كما تقدم .

ويرجع تاريخ إمارة الحيرة إلى القرن الثالث الميلادى ، واستمر إلى ظهور الإسلام ، وكان لأهلها أثر كبير فى الحضارة العربية : فقد كانوا يجوبون أرجاء

---

(١) سموا عباداً ، لأن شعارهم كان « بالعباد الله » قول خولف ، فقال ابن دريد : إنما سموا عبادا لأنهم كانوا طاعة لملوك العجم . وقال الطبرى فى قوله تعالى (وقومهما لنا عابدون) معناه مطيعون . وقال أحمد بن أبى يعقوب : إنما سمى نصارى الحيرة العباد ، لأنه وفد على كسرى خمسة منهم : فقال لأحدهم : ما اسمك ؟ قال عبد المسيح ، وقال للثانى : ما اسمك ؟ قال : عبد ياليل ، وقال للثالث : مااسمك ؟ قال عبد يسوع ، وقال للرابع : ما اسمك ؟ قال : عبد الله ، وقال للخامس : مااسمك ؟ قال عبد عمر ، فقال كسرى : أنتم عباد كلكم ، فسموا العباد — أنظر البكرى : معجم ما استعجم ج ١ ص ٢٥ .

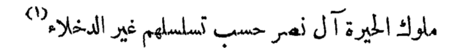
الجزيرة العربية بالتجارة ، ويشتغلون بتعليم القراءة والكتابة . وبذلك أصبحوا واسطة فى نشر المعارف فى الجزيرة ، كما ساعدوا على نشر النصرانية فى بلاد العرب على أثر اعتناق بعض ملوكهم الدين المسيحى بعد تركهم الوثنية .

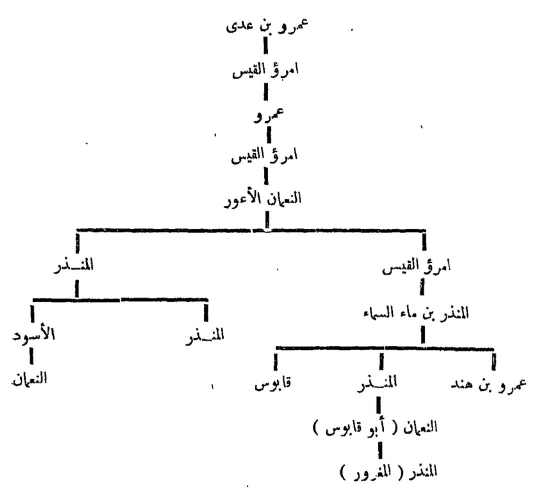
وصفوة القول إن أهل الحيرة كانوا واسطة بين الفرس والعرب ، وعلى أيديهم انتقلت الحضارة الفارسية إلى بلاد العرب . وقد تعاقب على هذه المملكة خمسة وعشرون ملكا ، نكتفى الآن بذكر أشهرهم .

٢ — **ملوك الحيرة** : تولى عمرو بن عدى الملك بعد جذيمة الأبرش صاحب القصة المعروفة مع الزباء[١] ، وكان عمرو أول من اتخذ مدينة الحيرة حاضرة الملك ، وقد تولى النعمان بن امرىء القيس الحكم فى أوائل القرن الخامس الميلادى ، وهو بانى الخورنق والسدير .

---

(١) راجع هذه القصة فى المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ٢٩٠ — ٢٩١ .





وكان النعمان شديد الوطأة على العرب ، ويقال إنه تنصر وتنسك فى آخر عهده . ويذكر الطبرى (٢) فى سبب بنائه الخورنق ، أن يزدجرد الأثيم بن بهرام ابن سابور كسرى فارس لم يعش له ولد ، فسأل عن منزل برىء مرىء صحيح من الأدواء والأسقام، فدل على ظهر(ظاهر) الحيرة . فدفع ابنه بهرام جور إلى النعمان ابن امرىء القيس ، وأمره ببناء الخورنق مسكناً له ، وأنزله إياه ، وأمره بإخراجه إلى بوادى العرب . وكان الذى بنى الخورنق رجلا يقال له سنمار ، فلما فرغ من بنائه تعجبوا من حسنه وإتقان عمله . فقال له : لو علمت أنكم توفونى أجرى

---

(١) جرجى زيدان : العرب قبل الإسلام ص ٢٠١ .
(٢) ج ٢ ص ٧٢ . البكرى ج ٢ ص ٥١٥ — ٥١٦ .

وتصنعون بي ما أنا أهله ، بنيت بناء يدور مع الشمس حيثما دارت ، فقال : وإنك لتقدر على أن تبنى ماهو أفضل منه لم تبنه ؟ فأمر به فطرح من رأس الخورنق . وقد سار ماصنعه النعمان بسنمار سير الأمثال حتى قيل : « جزاء جزاء سنمار » ، وقال الشاعر فى ذلك :

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر وحسن فعل كما يجزى سنمار

وإذا امتاز الخورنق بهذه العظمة والوجاهة اللتين يطريهما شعراء العرب ، فقد كان هناك قصر يقال له الحضر (بفتح الحاء وسكون الضاد) ، بناه الضيزن ابن معاوية بن عمران بن الحاف بن قضاعة بحيال تكريت بين دجلة والفرات . وكان صاحبه قد ملك تلك الناحية وبلغ ملكه الشام ، فأغار على فارس فى غيبة سابور وأسر أخته . فلما عاد سابور ، غزاه الضيزن ، فاحتمى منه فى قصره الحضر . فأقام سابور أربعة أعوام لايستطيع هدمه ولا الوصول إلى الضيزن ، حتى خرجت النضيرة بنت الضيزن لأمر لها : فلما رأت سابور أعجب كل منهما بجمال الآخر ؛ واتفقت معه على أن تعرفه مايهدم به سور هذا القصر ، ويقتل أباها ، ثم يتزوجها ويحتملها . ولكنه قتلها قبل عودته بعد أن فتح الحصن . وقد وصفه عدى بن زيد العبادى فى قصيدته التى وصف فيها الخورنق فقال :

وأخو الحضر[1] إذ بناه وإذ دجـ ـلة تجبى إليـه والخابور
شاده مرمراً وجلله كلـ ـسا فللطير فى ذراه وكور[2]

قال حمزة الأصفهانى[3] (ت٣٠٦هـ) : فلما أتى على الملك النعمان ثلاثون سنة ، علا بمجلسه على الخورنق ، وأشرف منه على النجف وما يليه من النخل والبساتين والجنان والأنهار مما يلى المغرب ، وعلى الفرات مما يلى المشرق ، فأعجبه مارأى

---

(١) الحضر : حصن بحيال تكريت بين دجلة والفرات كان صاحبه ملكا من العجم يقال له الساطرون . البكرى ج ٢ ص ٤٥٣ — ٤٥٤ .

(٢) الطبرى ج ٢ ص ٦٢ . الأغانى ج ٢ ص ١٤١ .

(٣) تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء (برلين سنة ١٣٤١ هـ) ص ٥٦٨ . الطبرى ج ٢ ص ٧٣ .

فى البر من الخضرة والنور والأنهار الجارية ولقاط الكمأة [١] ورعى الإبل وصيد الظباء والأرانب ، وفى الفرات من الملاحين والغواصين وصيادى السمك ، وفى الحيرة من الأموال والخيول ومن يموج فيها من رعيته ، ففكر وقال . أى درك فى هذا الذى قد ملكته اليوم ويملكه غداً غيرى ؟ فبعث إلى حجابه ونحاهم عن بابه . فلما جن عليه الليل ، التحف بكساء وساح فى الأرض ، فلم يره أحد ، وفيه يقول عدى بن زيد يخاطب النعمان بن المنذر :

وتدبر رب الخورنق إذ أشـ	ـرف يوماً وللهـدى تفكير
سره حاله وكثرة ما يمـ	ـلك والبحر معرضاً والسدير
فارعوى قلبه فقـال : وما غبـ	ـطة حى إلى الممات يصير ؟
ثم بعد الفلاح والملك والأمـ	ـة [٢] وارتهم هناك القبور
ثم أضحَوْا كأنهم ورق جـ	ـف فألوت به الصبا ، والدبور [٣]

تولى المنذر الحكم سنة ٥٢٠ م . وكان يعاصره كسرى أنوشروان ملك فارس ، وجستنيان أمبراطور الروم ، والحارث بن أبى شمر الغسانى عامل الدولة الرومانية على بلاد الشام ، الذى اشتبك مع المنذر فى نزاع على الأرض الواقعة جنوبى تدمر ، وتمتد على جانبى الطريق من دمشق إلى مدينة سرجيوس Sergiopolis ، وتسمى Strata [٤] . فقد كان كل من هذين الأميرين يدعى السلطة على القبائل العربية النازلة بها . ولم يكد ينتهى ما بينهما من نزاع حتى نشبت الحرب بينهما من جديد حول سنة ٥٤١ م ، وفيها أسر المنذر أحد أبناء الحارس ، وانتهت الحرب بهزيمة المنذر وقتله فى موقعة مرج حليمة سنة ٥٥٤ م . غير أن الحرب لم تلبث أن نشبت بين عرب الحيرة والغساسنة ، وانتهت بموقعة

---

(١) لقط السنبل ولقاطه مايلتقطه الناس من الثمار ، والكمأة نبات ترعاه الإبل وقد يأكله الناس وينبت فى الأراضى الصحراوية بعد المطر .

(٢) الأمة النعمة .

(٣) الصبا : ريح تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل بالنهار ، والدبور : ريح تقابل الصبا . أنظر الطبرى ج ٢ ص ٧٢ — ٧٤ . الأغانى ج ٢ ص ١٤٤ .

(٤) نلدكه : أمراء غسان ص ١٨ .

عين أباغ[١] التى قتل فيها ملك الحيرة أيضاً[٢] (سنة ٥٧٠ م) .

وتولى النعمان بن المنذر الحكم ٥٨٠ م ، ثم قتله كسرى أبرويز فى سنة ٦٠٢ م — وقد مدحه النابغة الذبيانى بعدة قصائد . ويروى المسعودى[٣] أن النابغة استأذن على النعمان يوماً ، فقال له الحاجب إن الملك على شرابه . قال فهو وقت الملق ، تقبله الأفئدة ، وهو جذل للرحيق ، فإن تلج تلق المجد عن غرر مواهبه فأنت قسيم ما أفدت . قال له الحاجب : مانفى عنايتى بدون شكر ، فكيف أرغب فيما وصفت ، ودون ماطلبت رهبة التعدى ؟ قال النابغة : ومن عنده ؟ قال الحاجب : خالد بن جعفر الكلابى نديمه . فقال النابغة : هل لك أن تؤدى إلى خالد عنى ما أقول لك ؟ قال : وماهو ؟ قال : تقول إن من يدرك وفاء الدرك بك وتأدينى من الشكر ماقد علمت . فلما صار خالد إلى بعض مابعثه موارد الشراب عليه نهض فاعترضه الحاجب : فقال يهنك التئام حادث النعيم . قال : وما ذاك ؟ فأخبره الخبر . وكان خالد رفيقاً يأتى الأشياء بلطف وحسن بصيرة ، فدخل متبسماً وهو يقول :

ألا لمثلك أو من أنت سابقه   سبق الجواد إذا استولى على الأمد

واللات لكأنى أنظر إلى ذى رعين وقد مدت لهم قضبان المجد ؟ إلى معالم إحسانكم ومناقب أنسابكم ، فى حلبة أنت إن أبيت اللعن غرتها ، لجئت سابقاً منهملا وجاءوا لم يلم لهم سعى . قال النعمان : لأنت فى وصفك أبلغ إحساناً من النابغة فى نظام قافيته . فقال خالد : ما أبلغ فيك حسناً إلا وهو دون قدرك استحقاقا للشرف الباهر ، ولو كان النابغة حاضراً لقال وقلنا . فأمر النعمان بإدخاله ، فخرج الحاجب فقال : قد أذن بفتح الباب ورفع الحجاب . أدخل ! فدخل ، ثم انتصب بين يديه وحياه تحية الملك ، وقال : أبيت اللعن ، أتفاخر وأنت سائد العرب وغرة الحسب . ثم قال :

---

(١) هو واد وراء الأنبار على طريق الفرات إلى الشام أنظر هذا اللفظ فى معجم البلدان لياقوت ، وانظر يوم عين أباغ فى ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٣٢٣ .

(٢) نلدكه : أمراء غسان ص ٢٤ ، ٢٥ .

(٣) مروج الذهب ج ١ ص ٢٩٣ — ٢٩٤ .

أخلاق مجدك جلت مالها خطر　　في الجود والناس بين العلم والخبر
متوج بالمعـــالي فوق مفرقه　　وفي الوغى ضيغم في صورة القمر

فتهلل وجه النعمان بالسرور ثم أمر فحشى فوه جوهرا .

٣ — المناذرة في أواخر أيامهم : حل الضعف والانقسام بأمراء الحيرة على أثر مانزل بهم من الحوادث الجسام ، وما توالى على دولة آل ساسان من الضعف . وكانت أولى تلك الحوادث هزيمة المنذر بن ماء السماء عاهل البيت اللخمي وقتله على يد الحارث بن أبي شمر الغساني في موقعة مرج حليمة ، ثم هزيمة ابنه وقتله على يد المنذر بن الحارث الغساني سنة ٥٧٠ م . ثم تبع ذلك الاضطراب حبل هذا البيت وتنازع أولاد المنذر العرش . وإنه وإن كان النعمان بن المنذر قد فاز به ، فإنه لم ينج من الدس والكيد له في البلاط الفارسي ، حتى غضب كسرى عليه ، فاستدعاه إلى بلاده ، فذهب إليـــه بعد أن عرض نفسه على القبائل ، فلم تجرؤ إحداهن على مناصرته على كسرى ، وظل هناك حتى مات . ثم أقام كسرى إياس بن قبيصة خلفاً للنعمان على بلاد الحيرة ، ولم يكن من أهل بيته ، وأشرك معه رجلا فارسياً في الحكم ، اسمه « النخيرجان » .

وكان من أثر نزع النعمان من الحيرة أن ضعفت الأداة الحكومية ، وقامت حرب « ذي قار » بين إياس بن قبيصة حاكم الحيرة ، وتؤيده حكومة فارس ، وبين العرب . فكان النصر للعرب ، وهزم الفرس وأمير الحيرة . ثم انفرد بالملك في الحيرة آزاذ بن بابيان الهمذاني سبعة عشر عاماً ، ولم يلبث المنذر ابن النعمان بن المنذر الذي ملك الحيرة من بعده إلا ثمانية أشهر حتى قدم خالد ابن الوليد الحيرة [1] .

(هـ) مملكة غسان : سارت قبائل من قضاعة إلى الشام في الوقت الذي هاجر فيه عرب اليمن إلى العراق ، وسكنت في شمال غربي الجزيرة العربية في الأراضي التي يطلق عليها الآن شرقي الأردن ، وكان يسكنها الضجاعمة . ولما

---

(١) الطبري ج ٢ ص ١٥٦ — ١٥٧ .

هاجرت الأزد من بلاد اليمن على أثر انكسار سد مأرب ، ذهب بطن منهم إلى الشام وأقاموا على ماء هناك يقال له غسان ، فسموا أزد غسان . وكان شأن الضجاعمة قد ضعف . فتمكنت أزدغسان من إقامة دولة لهم عرفت بدولة الغساسنة ، وولى الروم منهم جفنة بن عمرو ملكا على عرب الشام . ولم يزل الغسانيون يحكمون هذه البلاد من قبل الروم حتى جاء الإسلام ووقعت موقعة اليرموك سنة ١٣ هـ .

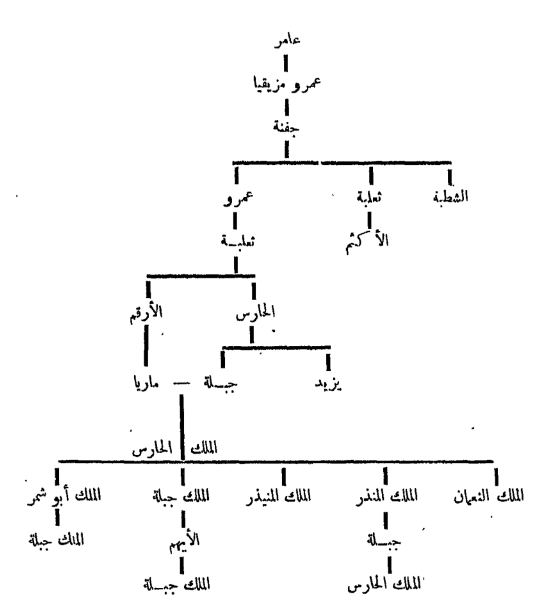
وقد أجمعت الروايات التاريخية والشعراء والمعاصرون على أن جفنة هو جد أسرة الغساسنة ، فقد دعا النابغة الذبيانى أحد أمراء هذا البيت القدماء « الحارث الجفنى » . ويستنتج من قصيدة متأخرة لحسان بن ثابت أن جفنة كان شيخاً من أهل العصور القديمة يفتخر به سكان يثرب[١] . وكان ملك الغساسنة حول دمشق وتدمر . وكانوا يتجولون فى الجهات الجنوبية لدمشق ، وخاصة لبنان وفلسطين والبلقاء وحوران . وقد قابل النبى صلى الله عليه وسلم بعض الأعراب من غسان فى غزوة تبوك وأسلم بعضهم على يديه .

---

(١) نلدكه : أمراء غسان ص ٣ .

أنساب بنى جفنة

حسب رواية ابن الكلبى



ملوك غسان : كان الحارث بن جبلة أول أمراء بنى جفنة وأعظمهم شأناً .
وقد تولى ملك الغساسنة فى أيام الإمبراطور جستنيان من سنة ٥٢٨ إلى سنة ٥٦٩م
وينتهى نسبه إلى جفنة بن عمرو . وقد رفع الإمبراطور جستنيان الحارث إلى
مرتبة الملوك ، وبسط سلطته على كل القبائل العربية فى بلاد الشام ؛ يريد بذلك
أن يقيم خصما قوياً فى وجه المنذر ملك الحيرة . ومن المرجح أنه لم يكن للروم قبل
هذا الإمبراطور عمال كبار من العرب فى سورية ، وأنه لم تكن لأحد من
الضجاعمة أو لأمراء كندة — الذين خضعوا مدة من الزمن للدولة الرومانية
الشرقية — أو لغيرهم من أمراء العرب سلطان بلغ ما بلغه بنو جفنة فيما بعد[1] .

ويستفاد من أخبار العرب أن بنى جفنة استولوا على سورية بعد أن انتصروا
على الضجاعمة من قبائل سليح . وذكر حمزة الأصفهانى وابن قتيبة أن أول أمير
جاء بالغساسنة إلى سورية هو ثعلبة بن عمرو . ويؤيد هذا الروايات العربية القديمة .
وقد وقعت بينه وبين قضاعة حرب انتهت بإرغامه على دفع الجزية لرئيس قضاعة
لكن غسان لم تلبث أن انتصرت على قضاعة ، وأصبح الغساسنة منذ ذلك
الوقت أصحاب السلطان فى هذه البلاد ؛ ووجد الروم فيهم حلفاء أقوياء يقاومون
الفرس والعرب المغيرين على أطراف مملكتهم . واختلف المؤرخون فى الوقت
الذى تعاقد فيه الغساسنة والروم الذين تعهدوا أن يمدوا الغساسنة بعدد من
جندهم إذا حاربوا قوماً من العرب . ويقدر هذا العدد بـ ٣٠ ألف أو ٤٠ ألف ،
كما تعهدت الغساسنة بإمداد الروم بعشرين ألف مقاتل إذا تحارب الفرس والروم .

وقامت بين الحارث والمنذر أمير الحيرة حرب بسبب النزاع على الأراضى
الممتدة على جانبى الطريق الحربية من دمشق إلى ما بعد تدمر . ذلك أن أمير الحيرة
ادعى أن القبائل العربية النازلة فى تلك الأراضى خاضعة لسلطته ؛ فنازعه
الأمير الغسانى هذه السلطة ، ونشبت الحرب بينهما وكان من أثر ذلك أن قام
النزاع بين الدولتين[2] .

وفى سنة ٥٤١ حارب الحارث فى العراق بجانب الروم تحت قيادة بليزاريوس

---

(١) نلدكه : أمراء غسان ص ١١ .

(٢) ابن قتيبة : المعارف ص ١٣٣ . اليعقوبى ج ١ ص ٢٣٥ .

Belizarius ، ولم يحصل من حملته هذه على نتائج تذكر . ولهذا لم يمض على هذه الغزوة زمن طويل حتى عاد الأميران العربيان إلى القتال سنة ٥٤٤ م ، ووقع فى هذه الحرب أحد أبناء الحارث أسيراً فى يد المنذر . واستمر القتال بين الأميرين العربيين إلى أن أحرز الحارث بن جبلة انتصاراً حاسماً سنة ٥٥٤ م ، فى معركة دارت بينهما بالقرب من قنسرين وانتهت بقتل المنذر ملك الحيرة ، وسافر الحارث على أثر ذلك إلى القسطنطينية (٥٦٣ م) لمفاوضة قيصر الروم فيمن يخلفه من أولاده على سورية ، وما يتخذ من التدابير لمقاومة ملك الحيرة . وكان لما شاهده الحارث فى الحاضرة البيزنطية من مظاهر الترف وقع عظيم فى نفسه[1] .

ولما توفى الحارث سنة ٥٧٠ م خلفه ابنه المنذر ، ولم يكد يتسلم زمام الحكم حتى هب لمحاربة عرب الحيرة ، وكانوا قد أغاروا على سورية بعد وفاة أبيه ، فقاتلهم وانتصر على ملكهم قابوس بن المنذر . ثم وقعت جفوة بين غسان والروم انقطع على أثرها وصول المدد ثلاث سنوات ، فانتهز عرب الحيرة هذه الفرصة ، وأغاروا على سورية . فاضطر الروم إلى مسايرة أمير الغساسنة ، وعقدت محالفة بين إمبراطور الروم وبينه ، ثم ارتاب الإمبراطور فى ولائه ونفاه إلى صقلية . ولكن المنذر لم يلبث طويلا فى منفاه ، فقد سخط على الإمبراطور أبناء المنذر الأربعة ، وشقوا عصا الطاعة على دولة الروم ، ثم أوغلوا تحت قيادة أخيهم الأكبر النعمان فى الصحراء وأخذوا يشنون منها الغارات على أراضى الدولة الرومانية . غير أن القائد البيزنطى تمكن من القبض على النعمان وأسره وساقه إلى القسطنطينية (٥٨٣)[2] . وقد تفرقت كلمة العرب فى سورية بعد أن سيق المنذر إلى القسطنطينية وتفككت عرا وحدتهم فاختارت كل قبيلة منهم أميراً لها والتحق بعضهم بالفرس .

ولما كثر النزاع بين القبائل العربية بعد فقد أميرها ، أسرع الروم فى إقامة عامل جديد لتسكين القبائل البدوية الضاربة فى تلك الأنحاء[3] .

---

(١) نلدكه أمراء غسان ص ١٨ ، ٢٠ — ٢١ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣١ ، ٣٢ .

(٣) المصدر نفسه ص ٣٥ .

على أن دخول الفرس بلاد الشام سنة ٦١٣ م قضى على ملك بنى جفنة ، ففر بعض أمرائهم إلى بلاد الروم ولجأ بعضهم إلى داخل الصحراء ، وأنزل الفرس الرعب فى قلوب أهالى بلاد الشـــام وطردوا منها عمال الروم . ولم يتركوا الحكم فى أيدى بنى جفنة الذين أراقوا دماءهم وعاثوا فى ديارهم (نلدكه ص ٤٦).

وفى سنة ٦٢٨ م انتصر الروم على الفرس واستردوا بلاد الشام . وليس لدينا مايثبت أن هرقل أسند الحكم فى سورية أحد أمراء بنى جفنة ، وقد يتضح من عدم مقاومة المناذرة أنه لم يكن الروم فى بلاد الحبشة إذ ذاك عامل قوى يحميها ويدفع عنها المغيرين من الخارج .

والواقع أن الغساسنة فى ذلك الوقت كثيراً ماحاربوا المسلمين إلى جانب الروم . وكان آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم . ويقال إنه أسلم فى عهد عمر بن الخطاب على أثر انتصار العرب فى اليرموك (١٣ / ٦٣٦) . غير أنه لم يلبث أن عاد إلى الروم وتحول إلى النصرانية ، وهجر وطنه ليستقر نهائياً فى بلاد الدولة الرومانية [1] .

بلغت دولة الغساسنة درجة كبيرة من الحضارة . فقد كان ببلادها كثير من الحصون ؛ كما كان بها كثير من البيع والكنائس . وكان ملوكها يقتنون الجوارى الروميات ، ومبانيها محلاة بالحجر الأبيض المأخوذ من الجبال القريبة منها . وقد تعلموا من مخالطتهم الروم ومحاربتهم الفرس ، الفنون الحربية ، وطرق الدفاع ، وكسبوا المران العسكرى ، وأخذوا من اللغة اليونانية كثيراً من الكلمات التى لم تكن معروفة بها مثل الكنيسة والراهب .

(و) بلاد الحجاز :

١ — مكة : حافظ الحجاز على استقلاله منذ أقدم العصور ، فلم يعبث بحريته الملوك الفاتحون ، فى الوقت الذى عبث فيه كيرش وقمبيز وغيرهما من ملوك الفرس

---

(١) كان سبب ارتداده إلى النصرانية أن أحد العامة من بنى فزارة وطىء ذيل إزاره وهو يطوف بالكعبة ، فلطمه جبلة حتى هشم أنفه . فشكاه الرجل إلى عمر بن الخطاب فحكم بالقود فعز على جبلة ، وهو ملك ، أن يصفعه رجل من العامة ويهشم أنفه ، فاحتال للهرب ، ولجأ إلى ملك الروم ، وتبعه خمسمائة رجل من قومه ، فتنصروا عن آخرهم ، وفرح بهم هرقل وأكرمهم . ثم ندم جبلة على فعله (أبو الفدا ج ١ ص ١٦١ — ١٦٢) .

باستقلال كثير من الأمم . كذلك ظل محافظاً على استقلاله أيام الاسكندر المقدونى الذى صده العرب حين أغار على دارا ملك الفرس . وكان من أثر تمتع أهل الحجاز بالاستقلال طول حياتهم ، أن ظهرت فيهم طبائع خاصة بهم ، من حيث عراقة أصلهم وشرف آبائهم وشهامتهم التى كانت - ولاتزال - مضرب الأمثال ولغتهم التى حافظت على نقائها وصفائها (١) .

وكان لبلاد العرب دين واحد وعقيدة مشتركة مركزها مكة (٢) ، وهى قرية تأسست حول منتصف القرن الخامس الميلادى ، فى واد ضيق طويل مجدب على مقربة من بئر زمزم ، وتبعد عن جدة بنحو ٤٥ ميلا .

وكان العمالقة أول من سكن مكة ؛ ثم خلفتهم قبيلة جرهم الثانية ، وفى عهدهم نزل إسماعيل وأمه بوادى مكة . وصاهرهم إسماعيل . ولما مات تولى البيت بعده ابنه ثابت ، وهو أكبر أولاده ، ثم تولى ولاة من جرهم استمرت ولايتهم إلى سنة ٢٠٧ م كما ذكر سديو .

ظلت ولاية البيت فى جرهم حتى اتسع سلطانهم وعظمت شوكتهم . فعاثوا فى الأرض ، واستحلوا أموال الكعبة ، واضطهدوا من دخل مكة من غير أهلها (٣) . ولما قدمت خزاعة من اليمن أجلت جرهم وانتزعت منها السيادة بعد تفرق سبأ على أثر سيل العرم ، إذ عرج على مكة بنو حارثة بن عمرو الملقب بخزاعة ، فاستعان بنو حارثة بكنانة (بطن من مر) فغلبهم بنو حارثة ، وكان رئيسهم يومئذ عمرو بن لحى . واستمرت خزاعة على ولاية البيت نحواً من ثلثمائة سنة أحدثوا فيها كثيراً من الأوهام الفاسدة ولاسيما عبادة هبل (٤) .

---

(١) Sèdillot, Vol. i. p. 41.

(٢) قال ياقوت فى معجمه (ج ٨ ص ١٣٣) : مكة بيت الله الحرام ، فيقال مكة اسم المدينة وبكة اسم البيت . وقال آخر هى بكة ، وقيل بالميم الحرم كله وبالباء المسجد خاصة . وقد تضاربت أقوال المؤرخين فى تسمية مكة واشتقاقها : فهى أم القرى كما سماها الله تعالى (لتنذر أم القرى ومن حولها) ، والبلد الأمين كما جاء فى قوله تعالى (والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين) ، والبيت العتيق كما سماها الله تعالى (وليطوفوا بالبيت العتيق) ومكة أو بكة كلمة بابلية سمته بها العماليق ، ومعناها البيت .

(٣) الأزرقى : كتاب أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ص ٣٦ .

(٤) بضم الهاء وفتح الباء : اسم صنم أتى به عمرو بن لحى .

٢ — انتقال السيادة إلى قريش : استمرت خزاعة على ولاية البيت حتى قويت قريش(١) وتغلبت عليها فى القرن الخامس الميلادى ، وكانت على درجة كبيرة من الرقى . فاستولى قصى بن كلاب على أمر مكة والبيت الحرام سنة ٤٤٠ م من يد خزاعة وأجلاهم عنها بما كان له من العصبية ، فرحلت خزاعة ونزلت فى بطن مر (وادى فاطمة) . ومن ثم عظم نفوذه واجتمعت له السقاية والحجابة والرفادة واللواء ولم تجتمع فى رجل من قبله .

وقد أجمع المؤرخون على أن قريشاً الذين منهم قصى بن كلاب ، الجد الرابع للرسول عليه الصلاة والسلام ، هم من ولد كنانة ، الذى يرجع نسبه إلى عدنان وينتهى إلى إسماعيل عليه السلام . وإلى ذلك يشير الحديث الذى أثر عن الرسول : « اختار الله من إسماعيل كنانة ، واختار قريشاً من كنانة ، واختار بنى هاشم من قريش ، واختارنى من بنى هاشم ، فأنا خيار من خيار من خيار » .

وتحدثنا المصادر العربية ، ومن بينها القرآن الكريم ، أن إبراهيم كان يزور ولده إسماعيل من حين لآخر ، وأن الله أمره ببناء الكعبة — أى البيت الحرام — وأن إبراهيم كان يبنى ، وإسماعيل يرفع له الحجارة ، حتى تماه (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم (سورة البقرة ٢ : ١٢٧) .

وقد سارت الركبان بذكر الكعبة ولاسيما بعد أن أمر الله إبراهيم عليه السلام بقوله : (وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) (سورة الحج ٢٢ : ٢٧) ولولا هذه القصة التى أوردها لنا القرآن الكريم فى سورة إبراهيم وماحوته من الأخبار لما عرفنا عن قريش شيئاً ذا غناء .

---

(١) قريش هم ولد النضر بن كنانة على مايقول بعض . وقد ورد مثل ذلك عن الرسول حين سئل : من قريش ؟ فقال « من ولد النضر » وهم بنو فهر الذى هو قريش ، ولأن كل من كان من ولد فهر فهو قرشى ، ذلك النسب الذى يتصل بمعد بن عدنان . وقد سمو قريشاً حين جمعهم قصى بن كلاب إلى الحرم بعد أن نفى خزاعة من الحرم ، من القرش وهو التجمع ، كما ورد ذلك فى معاجم اللغة ، أو أنهم سموا قريشاً لاحترافهم التجارة ، كما قيل أيضا إنها سميت قريشا بدابه فى البحر ، فشبه بنو النضر بن كنانة بها لأنها أعظم دواب البحر قوة .

الطبرى ج ٢ ص ١٨٧ . المبرد : نهاية الأرب فى معرفة قبائل العرب ص ١٢٩ . العقد الفريد ج ٢ ص ٢٠٢ .

بنيت الكعبة فى مكة ؛ وهى بيت صغير مربع يحيط به فضاء غير مسقوف. وقد أطلق عليها الكعبة لأنها تشبه الكعب. وكانت قبائل العرب تحج إليها ، ولكل قبيلة منها صنمها فى جوف الكعبة. وفيها صور إبراهيم والمسيح ، وفيها الحجر الأسود الذى يقال إنه سقط من السماء ، وتمثال الهبل صنم قريش وهو من العقيق ، وكان أكثر احتراماً وتقديساً من الأصنام الأخرى.

وقد قام حول الكعبة بعض أسر من فهر إحدى بطون قبيلة كنانة عرفت باسم قريش — كما تقدم — وأسست حكومة جمهورية من نوع الحكومات التى كانت فى بلاد العرب. واتخذوا جزءاً من الأرض المجاورة للكعبة أولوه احترامهم واعتبروه مقدساً وحرموا فيه القتال وأخذوا على عاتقهم حمايته ، فأمنوا بذلك أذى غيرهم من القبائل. وكان لمكة مركز خاص لوجود الكعبة بها كما أصبحت قبيلة قريش محترمة فى نظر القبائل العربية.

وإلى قريش يرجع الفضل فى توثيق الروابط التى تربط من يؤمون البيت الحرام كل عام من مختلف القبائل ، إذ أصبحت مكة المكان الذى تفد إليه القبائل من كافة أرجاء بلاد العرب حيث يجتمعون للحج والتجارة. وقد جعل هذا الأمر لقريش مركزاً خاصاً فى نفوس القبائل ، وأتاح الفرصة لكثير من رجال هذه القبيلة ، فظهرت مواهبهم بعد ظهور الإسلام. وكان منهم رجال كثيرون يعتبرون بحق من أكبر قادة العالم فى الحرب والسياسة [١].

٣ — **الحكومة فى قريش** : ذكر المؤرخون أن بنى سهم (ومنهم عمرو ابن العاص) كانوا أصحاب الحكومة فى قريش قبل الإسلام. على أننا لا ندرى حقيقة هذه الحكومة ، وكل ما نعلمه هو أن العادة قد جرت عند العرب وعند غيرهم من الأمم فى عصورها الأولى قبل الإسلام ، أن تقتسم الأسر الكبيرة منها الأعمال الاجتماعية. فلعل هذه الحكومة كانت شيئاً يشبه القضاء ، بحيث يحتكم القرشيون وغيرهم ممن يفدون على مكة من العرب إلى بنى سهم ، أو بعبارة أصح إلى زعماء بنى سهم ، فيما كان يقع بينهم من الخصومات. وكان بلى

---

(١) القلقشندى : ج ٢ ص ٣٢٦ — ٣٢٨.

الحكومة عند قريش أصحاب الرأى والحلم والدهاء فيها . ولا يغيب عنا مايروى عن أكثم بن صيفى وذى الإصبع العدوانى وغيرهما من حكماء العرب . ولم تكن حكومة قريش قبل قصى بن كلاب فى يد هذه القبيلة ، بل كانت فى خزاعة . فلما جاء قصى جمع شتات القرشيين ووحد كلمتهم ، ثم أصبح الرئيس الدينى للبيت الحرام الذى كان يفد إليه العرب من كافة أنحاء الجزيرة .

ومن مآثر قصى تأسيس دار الندوة بمكة ، وكان له من مظاهر الرياسة أربعة أمور :

١ — رياسة دار الندوة : وهى نادى قريش ومجمع الملأ والسراة منها ، يتشاورون فيها فى مهام أمورهم ويزوجون بناتهم ، وكان لايسمح بدخولها إلا لمن بلغ الأربعين .

٢ — اللواء : وهى رياسة القوى الحربية ، وتكون لمن بيده اللواء ، يسلمونه إليه عند قيام الحرب .

٣ — الحجابة : وهى حجابة الكعبة أو سدانتها ، فلا يفتح بابها إلا هو ، وهو الذى يلى أمر خدمتها [١] .

٤ — سقاية الحجاج ورفادته [٢] : كان أهل مكة يملئون أحواضاً من ماء زمزم يحلونها بشىء من التمر والزبيب . وكانت السقاية عند ظهور الإسلام فى يد العباس بن عبد المطلب وولده . أما الرفادة فهى خرج قرره قصى على أهل مكة ليصنعوا به طعاماً للحاج على سبيل الضيافة . وقام بالرفادة بعد قصى ابنه عبد مناف ، ثم ابنه هاشم [٣] ، ثم ابنه عبد المطلب ، ثم ابنه أبوطالب ، ثم أخوه العباس ، وجرى الأمر على ذلك فى الجاهلية والإسلام .

---

(١) كانت الحجابة فى بنى عبد الدار حتى فتحت مكة ، فطلبها العباس من النبى صلى الله عليه وسلم ، وأراد أن يجمع النبى له السقاية والحجابة ، فأنزل الله تعالى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) فرد النبى المفتاح إلى عثمان بن طلحة بن عبد العزى .

(٢) لم تشترك جميع بطون قريش فى الرفادة قبل قصى ، فلما جاء زمن الحج رأى قصى أن يكون لكل قرشى نصيب فى إطعام الحاج لعله مايكون لقرى الضيف فى نفس مضيفه من أثر .

(٣) سمى هاشما لأنه هشم الثريد لقومه بمكة وقد أصابهم القحط .

وكانت لقريش مظاهر أخرى للرياسة تلى هذه فى الأهمية ، وزعت بين رؤسائهم حتى لايكون هناك مجال للنزاع . على أنهم ، وإن أمنوا الحروب ، لم يأمنوا المنافسة بين كبراء البيت الواحد ، كما حدث بين هاشم بن عبد مناف وابن أخيه أمية بن عبد شمس ، الذى كان ينافس عمه على رئاسة قريش بما كان له من ثروة ، مما ولد الجفوة بين البيتين .

وكانت أشهر الحج عندهم أشهراً حرما يقيمون فيها أسواقهم حول الحرم . ولم يجرؤ أحد على الإخلال بحرمة البيت . ولما قامت الحرب بين قريش وكنانة واضطرت قريش إليها اضطراراً ، سمتها العرب حرب الفجار ، لما كان فيها من انتهاك حرمة الحرم . ومما ساعد على سيادة قريش واحترامهم عند جميع العرب ، حلف الفضول[1] ، فقد أخذت فيه قريش على نفسها ألا تجد مظلوماً فى مكة إلا نصروه ولا غريباً إلا آووه .

٤ — *مكة فى عهد عبد المطلب* : وما زال فضل قريش يزداد بين القبائل حتى جاء عبد المطلب الذى اشتهر بتجديد حفر بئر زمزم[2] سنة ٥٤٠م . وفى عهده خذل الله أبرهة الأشرم ، وصده عن مكة والبيت الحرام ، ونجت مكة فى أيامه من خطر الحبشة ، فذاعت شهرته وقصدته القبائل من كافة أطراف الجزيرة . فقد كتب أبرهة إلى قيصر الروم فى ذلك الوقت أنه يريد بناء كنيسة بصنعاء ، وسأله العون ، فأرسل إليه الصناع ، وأمده بالفسيفساء والرخام . فلما تم بناؤها ، كتب أبرهة إلى النجاشى أنه يريد أن يصرف إليها حجاج العرب ويحول تجارة قريش إلى صنعاء . فأثار ذلك حفيظة العرب ، فخرج رجل من بنى مالك بن كنانة حتى قدم اليمن . ودخل الكنيسة وعبث بأثاثها وانتهك حرمتها ، فغضب أبرهة وأقسم ليهدمن الكعبة ، وجرد جيشاً عظيما من الأحباش سير أمامه الفيلة ، ويمم شطر الكعبة ، وعسكر بقرب مكة فى مكان يقال له المغمس[3] حيث دارت المناوشات بين الحبشة والعرب .

(١) سمى حلف الفضول لأنهم حلفوا أن يردوا الفضول إلى أهلها ، أو لأنه يشبه حلف ثلاثة من جرهم كل واحد منهم يقال له الفضل .

(٢) يقال إن إسماعيل لما عطش ضرب بقدمه الأرض فنبع الماء وظهرت بئر زمزم .

(٣) المغمس : بتشديد الميم وفتحها موضع على ثلثى فرسخ من مكة فى طريق الطائف يرجم فيه الحجاج قبر أبى رغال الذى كان دليل أبرهة .

روى الطبرى (ج ٢ ص ١١١) أن أبرهة لما نزل المغمس بعث رجلا من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود على خيل له حتى انتهى إلى مكة ، فساق إليه أموال أهلها من قريش وغيرهم ، وأصاب مائتى بعير لعبد المطلب ابن هاشم ، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها ، فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بالحرم من سائر الناس بقتاله ، ورأوا أن لا طاقة لهم به . وبعث أبرهة حناطة الحميرى إلى مكة وقال له : سل عن سيد هــذا البلد ثم قل له إن الملك يقول لكم : إنى لم آت لحربكم ، إنما جئت لهدم البيت ، فإن لم تعرضوا دونه بحرب ، فلا حاجة لى بدمائكم ؛ فإن لم يرد حربى فأتنى به . فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها ، فقيل له عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف بن قصى ، فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة . فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة . هـذا بيت الله وبيت خليله إبراهيم . فقال له حناطة : انطلق إلى الملك ، فإنه قد أمرنى أن آتيه بك . فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى العسكر ، فلما تقابل معه أبرهة قال لترجمانه : « حاجتى إلى الملك أن يرد على مائتى بعير أصابها لى » . فلما قال له ذلك ، قال أبرهة لترجمانه : قل له قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ، ثم زهدت فيك حين كلمتنى . أتكلمنى فى مائتى بعير قد أصبتها لك ، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمنى فيه ؟ قال له عبد المطلب : إنى أنا رب الإبل وإن للبيت ربا سيمنعه » ، ثم عرض على أبرهة ثلث أموال تهامه على أن يرجع عن مكة ولا يهدم البيت ؛ فأبى . فخرج عبد المطلب حانقا وجاء إلى الكعبة ومعه جماعة من قريش وقال :

يارب لا أرجو لهم سواكا يارب فامنعْ منهمُ حماكا
إن عدو البيت عن عاداكا امنعهمْ أن يُخرّبوا قراكا

صمم أبرهة على دخول مكة وهدم الكعبة . فأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : حجر فى منقاره ، وحجران فى رجليه أمثال الحمص والعدس لا تصيب منهم أحدا إلا هلك . وقد ورد ذكره فى القرآن فى سورة الفيل (١٠٥ : ١ — ٥). قال تعالى : ﴿ألم تر كيف

فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول ؟ ﴾ (١) .

هكذا هزم أبرهة وجيشه ، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذى جاءوا منه ، ويسألون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن ، فقال نفيل حين رأى ما أنزل الله بهم من نقمته :

أين المفر والإله الطالب والأشرم المغلوب ليس الغالب

اختلف المؤرخون فيما حل بجيش أبرهة ، فقال بعض إنه لم ينج منه سوى أبرهة ورجل آخر من الأحباش عاد إلى اليمن وتحدث بما صنع الله بأصحاب الفيل .

ويقول براون (Vol. i, pp. 176—181) عن غزو الأحباش للكعبة : « إن عام الفيل يعتبر فاتحة عصر جديد فى تاريخ حياة العرب القومية » . ولا شك أن هذه الحادثة التاريخية كانت فاتحة خير على العرب عامة وقريش خاصة ، حتى إنهم أصبحوا يؤرخون بها حوادثهم . فقد مهدت السبيل لقبول الدعوة الإسلامية والقيام بنصرتها ، ونشر دين توحيد جديد هو دين الحنيفية ، إذ لو أتيح لهذا الجيش النصر والظفر لتغير وجه التاريخ ، وانتشر الدين المسيحى فى بلاد العرب وانصرف الناس عن مكة إلى صنعاء .

ولما ذاع نبأ أصحاب الفيل بين العرب زاد احترامهم الحرم وقالوا : « أهل الله قاتل عنهم وكفاهم كيد عدوهم » .

٤ — الحالة السياسية

(ا) أنواع الحكم فى بلاد العرب : لم يكن للعرب نوع من الحكومات المعروفة الآن ، ولم يكن لهم قضاء يحتكمون إليه أو « بوليس » يقر الأمن والنظام ، وجيش يدرأ عنهم الأخطار الخارجية . كذلك لم يكلفوا دفع الضرائب ، لعدم وجود حكومة تقبض على زمام السلطة التنفيذية ، وتضرب على أيدى المعتدى وتوقع عليه العقاب المتناسب مع جرمه . وإنما كان الشخص المعتدى

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ٥٢ — ٥٣ .

عليه يثأر لنفسه بنفسه ، وعلى قبيلته أن تشد أزره . ولا يصبح للمعتدى عليه حق فى المطالبة بالثأر إذا دفع المعتدى تعويضاً ، كما كانت الحالة عند الجرمانيين فى العصور الوسطى . أما إذا كان المعتدى أحد أقرباء المعتدى عليه أخذ الثأر منه وحده لا من قبيلته . ومما يلفت النظر ، أن العربى لما دخل فى الإسلام لم يغتفر لذوى قرباه كفرهم وعدم إيمانهم هذا (١) .

يقول أرنولد(٢) : « لم يكن هناك إطلاقا أى منهج منظم للإدارة أو القضاء كالذى نعرفه عن فكرة الحكومة فى العصر الحديث . كانت كل قبيلة أو عشيرة تؤلف جماعة منفصلة مستقلة تمام الاستقلال ؛ وينسحب هذا الاستقلال أيضاً على أفراد القبيلة ، فكل فرد منهم لا يعتبر زعامة شيخ قبيلته أو سلطته إلا رمزاً لفكرة عامة شاءت الظروف أن يأخذ هو منها بنصيب ، بل كان مطلق الحرية فى أن يرفض ما اجتمع عليه رأى الأغلبية من أبناء قبيلته . وأبعد من هذا أنه لم يكن هناك نظام لنقل سلطة الرئيس ، إذ كان يختار لها غالباً أكبر أفراد القبيلة سناً ، وأكثرهم مالا ، وأعظمهم نفوذاً ، وأجدرهم بكسب الاحترام الشخصى . وإذا ما تضخمت قبيلة تشعبت فروعا كثيرة يتمتع كل منها بحياة منفصلة ووجود مستقل ، ولا تتحد إلا فى ظروف غير عادية اشتراكا فى الدفاع عن القبيلة أو قياما بغارات بالغة الخطورة » .

وكان الأحرار من العرب يحاربون تحت إمرة الأمير فى وقت الحرب ؛ أما فى وقت السلم فقد كانت الأسرة هى الشىء الوحيد المنظم .

(ب) أيام العرب : كثر النزاع بين القبائل العربية فى الجاهلية بسبب الاختلاف على السيادة أو التسابق على موارد الماء ومنابت الكلأ ، فوقعت

---

(١) من ذلك ما أشار به عمر بن الخطاب حين استشاره النبى صلى الله عليه وسلم وعبد الله بن رواحة فيما يصنع بأسرى بدر ، إذ أشار عمر بضرب أعناقهم ، وأشار عبد الله ابن رواحة بحرقهم فى واد كثير الحطب . حتى أبو بكر الذى أشار بإخلاء سبيلهم وأخذ الفداء منهم ، قصد إلى انتفاع المسلمين وإعزاز الدين بما يؤخذ من أموالهم فدية ، وبما يخسره فريق مما يفت فى عضدها ويثنيها عن قتال المسلمين والصد عن سبيل الله ، حتى نزل فى ذلك قوله تعالى (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة) (سورة الأنفال ٨ : ٦٧) : الطبرى ج ٢ ص ٢٩٤ .

(٢) الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة المؤلف ٥١ — ٥٢ .

بينهم حروب كثيرة أريقت فيها الدماء وأيام معدودة عرفت بأيام العرب ووقائعها ومن أشهرها :

١ — **البسوس** : وقعت حرب البسوس قبل الإسلام بين قبيلتى بكر وتغلب ابنى وائل : وكانت هذه الحرب الطاحنة التى دامت أربعين سنة بسبب ناقة كانت تملكها امرأة عجوز من بكر تدعى البسوس .

ذلك أنه لما آلت السيادة إلى تغلب ، علا نفوذ وائل بن ربيعة الذى لقب كليبا (لأنه كان إذا سار صحب كلبه) ، واجتمعت تحت راية كليب كل قبائل معد ، وظل موضع احترامهم . ثم داخله الزهو والإعجاب ، وبغى على قومه حتى بلغ من بغيه أنه كان يحمى مواقع نزول المطر حيث ينبت الكلأ ، واتخذ لنفسه حمى من الأرض لا يجرؤ أحد أن يطأه ، وجعل حمايته تشمل كل أنواع الوحش حتى كان يقول « وحش أرض كذا فى جوارى فلا يصاد » . وأصبح الناس لا يرعون إبلهم مع إبله ولا يوقدون ناراً مع ناره ، ولا يجسر أحد أن يمر بين بيوته .

تزوج كليب جليلة بنت مرة بن شيبان من بكر . وكان لها أخ اسمه جساس كان حمى كليب . أى المنطقة المحرمة على غيره ، فى أرض تسمى «العالية» لا يقربها إلا المحارب . واتفق أن رجلا يقال له سعد بن سميس بن طوق الجرمى نزل بدار البسوس بنت منقذ التيمية خالة جساس بن مرة . وكان للجرمى ناقة اسمها سراب ترعى مع نوق جساس . وقد ضربت العرب بها المثل فقالت : « أشأم من سراب» كما قالوا : « أشأم من البسوس » ، فخرج كليب يوماً يتعهد الإبل ومراعيها ومعه جساس ، فنظر كليب إلى سراب وسأل عن أمرها ، فقال له جساس : هذه ناقة جارنا الجرمى ، فقال كليب : لئن عادت لأضعن سهمى فى ضرعها ، فقال جساس : لئن وضعت سهمك فى ضرعها لأضعن سنان رمحى فى لبتك [١] . وافترقا ، فذهب كليب إلى زوجته وقال لها : أترين أن فى العرب رجلا مانعا منى جاره ؟ فقالت : لا أعلمه إلا جساسا . ثم أخبرها بما حدث ، فخافت عاقبة هذا التنافر ومنعته الخروج إلى الحى ونهت أخاها جساسا عن أن يسرح إبله فيها .

---

(١) اللبة : موضع القلادة من العنق .

ثم خرج كليب ذات يوم إلى الحمى وجعل يتصفح الإبل ، فرأى ناقة الجرمي فرمى ضرعها ، فولت ولها عجيج حتى بركت بفناء صاحبها . فلما رأى الجرمي ماحل بها صرخ ، فسمعت البسوس صراخه فخرجت إليه ووضعت يدها على الناقة وصاحت : وادلاه ! ورآها جساس فقال : اسكتى ولا تراعى . وأسكت الجرمي وقال له وللبسوس : إنى سأقتل جملا أعظم من هذه الناقة ، سأقتل غلالا ، وهو فحل لكليب لم ير فى زمانه مثله . وكان جساس يعنى بمقالته كليبا . فلما نقل أحد أصحاب كليب هذا الحديث إليه ثارت ثائرته ، وأخذ جساس يترقب الفرص لتحقيق غرضه .

خرج كليب أحد الأيام وابتعد عن بيوته . فركب جساس فرسه وأخذ رمحه وأدرك كليبا . فوقف كليب فقال له جساس : يا كليب ! الرمح وراءك ، فقال : إن كنت صادقا فأقبل إلى من أمامى ، ولم يلتفت إليه ، فطعنه ، فارداه عن فرسه فقال كليب : ياجساس ، أغثنى بشربة من ماء ، فلم يأته بشىء ، وقضى كليب نحبه . ثم انصرف جساس راكبا فرسه وقد ظهرت ركبتاه . فلما أتى أباه مرة قال له : طعنت طعنة يجتمع بنو وائل غداً لها رقصا ، فقال أبوه مرة : ومن طعنت ؟ قال : قتلت كليبا ، فقال أبوه : بئس والله ماجئت به قومك ، ولم ير بدأ من التأهب للحرب ، فدعا قومه إلى القتال فأجابوه .

ولما علم قوم كليب بمقتله خرجوا إليه ودفنوه . وقالت النساء لأخت كليب : أخرجى جليلة أخت جساس عنا فإن قيامها فيه شماتة وعار علينا . فخرجت جليلة تجر أذيالها ، وأتت أباها مرة ، فقال لها أبوها : ما وراءك ياجليلة ؟ فقالت : ثكل العدد ، وحزن الأبد ، وفقد خليل ، وقتل أخ عن قليل ، وبين هذين غرس الأحقاد وتفتت الأكباد .

ولما وصل إلى مهلهل نبأ مقتل أخيه كليب ، جز شعره ، وقصر ثوبه ، وهجر النساء ، وامتنع عن القمار والشراب ، ودعا قومه ، وبعث رجالا منهم إلى بنى شيبان ، وقالوا لمرة والدجساس : إنكم أتيتم عظيما بقتلكم كليباً بناقة ، وقطعتم الرحم وانتهكتم الحرمة ، وإنا نعرض عليك خلالا أربعا لكم فيها مخرج ولنا فيها مقنع : إما أن تحيي كليبا ، أو تدفع إلينا قاتله جساس فنقتله به ، أو هماما

فإنه كفء له ، أو تمكننا من نفسك فإن فيك وفاء لدمه ؛ فقال لهم مرة : أما إحيائي كليباً فلست قادراً عليه ؛ وأما دفعي جساساً إليكم فإنه غلام طعن طعنة على عجل وركب فرسه ولا أدرى أى بلاد قصد ؛ وأما همام فإنه أبو عشرة ، وأخو عشرة وعم عشرة وكلهم فرسان قومهم ، فلن يسلموه بجريرة غيره ، وأما أنا فما هو إلا أن تجول الخيل جولة فأكون أول قتيل ، فما أتعجل الموت . لكم عندى خصلتان : أما إحداهما فهؤلاء أبنائى الباقون ،فخذوا أيهم شئتم فاقتلوه بصاحبكم ، وأما الأخرى فإنى أدفع إليكم ألف ناقة سود الحدق حمر الوبر . فغضب القوم من إجابته ، ونشبت الحرب بين الفريقين أربعين سنة ، وتعرف بحرب البسوس [١] .

١ — داحس والغبراء : وهى حروب قيس. قال أبو عبيدة : حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان ابنى بغيض بن ريث بن غطفان . وكان السبب الذى هاجها أن قيس بن زهير وحمل بن بدر تراهنا على داحس والغبراء ، أيهما يكون له السبق . وكان داحس فحلا لقيس بن زهير ، والغبراء حجر[٢] لحمل بن بدر . وتواضعا الرهان على مائة بعير ، وجعلا منتهى الغاية غلوة [٣] والاضمار [٤] أربعين ليلة . ثم قادوهما إلى رأس الميدان بعد أن أضمروهما أربعين ليلة. وفى طرف الغاية شعاب كثيرة ، فأكمن حمل بن بدر فى تلك الشعاب [٥] فتياناً على طريق الفرسين ، وأمرهم إن جاء داحس سابقاً أن يردوا وجهه عن الغاية . فأرسلوهما فأحضرا [٦] . فلما أحضرا خرجت الأنثى من الفحل [٧] ، فقال حمل بن بدر : سبقتك ياقيس ،فقال قيس : رويدا يعدون الجدد إلى الوعث[٨] وترشح أعطاف

---

(١) ابن الأثير ج ١ ص ١٨٧ — ١٩٣ . (٢) الحجر الأنثى من الخيل .

(٣) الغلوة : مقدار رمية السهم .

(٤) المضمار الموضع تضمر فيه الخيل ، والاضمار : إعدادها ليوم السباق بإطعامها طعاماً خاصاً وتدريبها على الجرى .

(٥) الشعاب : منافذ على جانبى الوادى أو الجبل . (٦) الاحضار : الجرى السريع .

(٧) خرجت منه : أى فاقته وسبقته .

(٨) يعدون الجدد : أى انتظر حتى تخرج الخيل من الأرض الصلبة المستوية إلى الأرض الرخوة والطريق العسر .

الفحل . فلما أوغلا فى الجدد وخرجا إلى الوعث ، برز داحس عن الغبراء فقال قيس : جرى المذكيات غلاء ، فذهبت مثلا . فلما شارف داحس الغاية ودنا من الفتية وثبوا فى وجه داحس فردوه عن الغاية .

وثارت الحرب بين عبس وذبيان ابنى بغيض ، فبقيت أربعين سنة لم تنتج لهم ناقة ولا فرس لاشتغالهم بالحرب فبعث حذيفة بن بدر أخو حمل بن بدر (صاحب الغبراء) ابنه مالكا إلى قيس بن زهير (صاحب داحس) يطلب منه حق السبق ، فقال قيس : كلا ، لا مطلتك به ، ثم أخذ الرمح فطعنه به فدق صلبه ، ورجعت فرسه غائرة . فاجتمع الناس فاحتملوا دية مالك مائة عشراء ، وزعموا أن الربيع ابن زياد العبسى حملها وحده فقبضها حذيفة وسكن الناس . ثم إن مالك بن زهير (العبسى أخا قيس بن زهير) نزل اللقاطة من أرض الشربة ، فأخبر حذيفة بمكانه ، فعدا عليه فقتله . ففى ذلك يقول عنترة العبسى الفوارس :

فلله عينا مَن رأى مثلَ مالكٍ   عقيرةَ قوم إن جرى فرسان
فليتهما لم يجريا قيد غلوة   وليتهما لم يرسلا لرهان

فقالت بنو عبس : مالك بن زهير بمالك بن حذيفة ، وردوا علينا مالنا . فأبى حذيفة أن يرد شيئاً . وكان الربيع بن زياد (العبسى) مجاوراً لبنى فزارة ، ولم يكن فى العرب مثله ومثل إخوته ، وكان يقال لهم الكملة ، وكان مشاحناً لقيس ابن زهير من سبب درع لقيس غلبه عليها الربيع بن زياد ، فأطرد[1] قيس لبونا لبنى زياد . فأتى بها مكة ، فعاوض بها عبد الله بن جُدعان بسلاح ، وفى ذلك يقول قيس بن زهير :

ألم يأتيك والأنباء تنمى[2]   بما لاقت لبون بنى زياد ؟
ومحبسها على القرشى تشرى   بأدراع وأسياف حداد ؟
وكنت إذا بليت بخصم سوء   دلفت له[3] بداهية الفؤاد ؟

ولما قتل مالك بن زهير قامت به بنو فزارة يسألون ويقولون : ما فعل

---

(١) أطرد : ساق أى أغار عليها فى الطريق   (٢) بكسر الميم أى تنتشر وتذيع .
(٣) دلفت له : أى خرجت إليه وأسرعت خربه .

حماركم؟[1] قالوا صدناه، فقال الربيع : ماهذا الوحى ؟ قالوا : قتلنا مالك بن زهير . قال : بئسما فعلتم بقومكم ، قبلتم الدية ثم رضيتم بها وغدرتم . قالوا : لولا أنك جارنا لقتلناك . وكانت حفرة الجار ثلاثا ،فقالوا له بعد ثلاث ليال : اخرج عنا، فخرج ، واتبعوه فلم يلحقوه حتى لحق بقومه وأتاه قيس بن زهير فعاقده (حالفه). وفى ذلك يقول الربيع بن زياد العبسى :

فإنْ تك حربكم أمست عواناً ... فإنى لم أكن ممن جناها
ولكن وُلد سودة أرَّثوها[2] ... وحشوا[3] نارها لمن اصطلاها
فإنى غير خاذلكم ولكن ... سأسعى الآن إذ بلغت مداها

ـ ثم نهضت بنو عبس وحلفاؤهم بنو عبد الله بن غطفان إلى بنى فزارة وذبيان ورئيسهم الربيع بن زياد ورئيس بنى فزارة حذيفة بن بدر ، ووقعت بين الحيين حروب طويلة ووقائع كثيرة دامت نحو أربعين سنة كانت سجالا بينهم ، وورد فيها من الشعر العربى شىء كثير جداً من أحسن الشعر وأقواه كمعلقة زهير ابن أبى سلمى التى مطلعها :

أمن أمِّ أوفىَ دِمنةٌ لم تكلم ... بحومانة الدرّاج فالمتثلم

وكمعلقة عنترة العبسى التى مطلعها :

هل غادر الشعراء من متردم[4] ... أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟[5]

٣ — أيام الفجار : هى حروب وقعت فى الأشهر الحرم بين قبائل من عرب الحجاز ؛ والفجار الأول كان بين كنانة وهوازن ، ولم يقع فيها بأس شديد. والفجار الثانى كان بين قريش وهوازن ، اقتتل فيه القوم قتالا يسيراً وأصلح بينهم حرب ابن أمية ؛ والفجار الثالث كان بين كنانة وهوازن بسبب دين كان على رجل من كنانة لرجل من بنى نصر بن معاوية ،ولم يستطع الوفاء به . وتهايج الناس فى سوق

---

(١) كناية عن مالك بن زهير الذى قتل .

(٢) أرث النار : أشعلها . (٣) أى غذوها بالوقود .

(٤) أى هل تدرك الشعراء مكاناً أى معنى لم يقولوا فيه شعرا ؟ .

(٥) العقد الفريد جـ ٢ ص ٣١٣ — ٣١٤ .

عكاظ من الفريقين ، وكاد أن يقع بينهم قتال ، ثم رأوا الخطب يسيرا فتراجعوا. وهذه الأيام تسمى فجارا لأنها كانت فى الأشهر الحرم ، وهى الشهور التى يحرمونها ففجروا فيها .

ومن أشهر هذه الأيام ، الفجار الرابع ، كان بين قريش وكنانة من ناحية وهوازن من ناحية أخرى . هاجها رجل اسمه البراض الكنانى بقتله عروة الرحال الكلابى من هوازن ، فأبت هوازن أن تقتل بعروة البراض ، لأن عروة سيد هوازن والبراض خليع من بنى كنانة ، وأرادوا أن يقتلوا به سيداً من قريش .

وهذه الحرب كانت قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم بست وعشرين سنة ، وقد شهدها النبى وهو ابن أربع عشرة سنة مع أعمامه ، وقال النبى : كنت أنبل على أعمامى يوم الفجار وأنا ابن أربع عشرة سنة ، يعنى أناولهم النبل[١] .

وكان سبب هذه الحرب « أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة كان يبعث بسوق عكاظ فى كل عام ، لطيمة [٢] فى جوار رجل شريف من أشراف العرب يجيرها (يحميها) له حتى تباع هناك ، ويشترى له بثمنها من أدم الطائف ما يحتاج إليه . وكانت سوق عكاظ تقوم أول يوم من ذى القعدة ، فيتسوقون إلى حضور الحج ، ثم يحجون . وكانت الأشهر الحرم أربعة أشهر : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب . وعكاظ بين نخلة والطائف وبينها وبين الطائف نحو عشرة أميال . وكانت العرب تجتمع فيها للتجارة والتهيؤ للحج من أول ذى القعدة إلى وقت الحج ويأمن بعضها بعضا . فجهز النعمان عير اللطيمة ثم قال من يجيرها؟ فقال البراض بن قيس الضمرى : أنا أجيرها على بنى كنانة ، فقال النعمان : ما أريد إلا رجلا يجيرها على نجد وتهامة ، فقال عروة الرحال وهو يومئذ رجل هوازن : أكلب خليع يجيرها لك ؟ أبيت اللعن ، أنا أجيرها لك على أهل الشيح والقيصوم[٣] فى أهل نجد وتهامة ، فقال البراض : أعلى بنى

---

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٣٦٨ — ٣٦٩ .

(٢) العير التى تحمل البز والمسك من العراق وجزيرة العرب .

(٣) الشيح والقيصوم من نباتات جزيرة العرب .

كنانة تجيرها ياعروة ؟ قال : وعلى الناس كلهم . فدفعها النعمان إلى عروة فخرج بها ، وتبعه البراض وعروة لا يخشى منه شيئاً لأنه كان بين ظهرانى قومه من غطفان إلى جانب فدك إلى أرض يقال لها أوارة . فنزل بها عروة ، فشرب من الخمر وغنته قينة ثم قام فنام ؛ فجاء البراض فدخل عليه ، فناشده عروة وقال : كانت منى زلة ، وكانت الفعله منى ضلة ، فقتله ، وخرج يرتجز ويقول :

قد كانت الفعلة منى ضَـلّـهْ ـ هلا على غيرى جعلت الزلهْ ؟

فسوف أعلو بالحسام القلة (الرأس)

واستاق اللطيمة إلى خيبر ، واتبعه المساور بن مالك الغطفانى وأسد بن حيثم الغنوى حتى دخلا خيبر ، فكان البراض أول من لقيهما . فقال لهما من الرجلان؟ قالا : من غطفان وغنى ، قال البراض : ماشأن غطفان وغنى بهذه البلدة ؟ قالا : ومن أنت ؟ قال : من أهل خيبر ، قالا . ألك علم بالبراض ؟ قال : دخل علينا طريداً خليعاً ، فلم يؤوه أحد بخيبر ولا أدخله بيتاً . قال : فأين يكون ؟ قال : فهل لكما به طاقة إن دللتكما عليه ؟ قالا : نعم . قال : فانزلا ! فنزلا وعقلا راحلتيهما : قال : فأيكما أجرأ عليه وأمضى مقدماً وأحد سيفاً ؟ قال الغطفانى : أنا ، قال البراض : فانطلق أدلك عليه ويحفظ صاحبك راحلتيكما ، ففعل فانطلق البراض يمشى بين يدى الغطفانى حتى انتهى إلى خربة فى جانب خيبر عن البيوت ، فقال البراض : هو فى هذه الخربة وإليها يأوى ، فانظرنى حتى أنظر أثم (هناك) هو أم لا ، فوقفت له ودخل البراض ، ثم خرج إليه وقال : هو نائم فى البيت الأقصى خلف هذا الجدار عن يمينك إذا دخلت ، فهل عندك سيف فيه صرامة ؟ قال : نعم . قال : هات سيفك أنظر إليه أصارم هو ، فأعطاه إياه ، فهزه البراض ثم ضربه به حتى قتله ، ووضع السيف خلف الباب وأقبل على الغنوى فقال : ما وراءك ؟ قال : لم أر أجبن من صاحبك ، تركته قائماً فى الباب الذى فيه الرجل والرجل نائم لايتقدم إليه ولايتأخر عنه . قال الغنوى: يالهفاه لو كان أحد ينظر راحلتينا . قال البراض : هما علىّ إن ذهبتا . فانطلق الغنوى والبراض خلفه ، حتى إذا جاوز الغنوى باب الخربة أخذ البراض السيف من خلف الباب ثم ضربه

به حتى قتله ؛ وأخذ سلاحها وراحلتهما ثم انطلق . وبلغ قريش خبر البراض بسوق عكاظ فخلصوا نجيا (١) ، واتبعتهم قيس لما بلغهم أن البراض قتل عروة الرحال . وعلم قيس أبو براء بن مالك ، فأدركوهم وقد دخلوا الحرم ونادوهم : يامعشر قريش ! إنا نعاهد الله أن لانبطل دم عروة الرحال أبداً ونقتل به عظيما منكم وميعادنا وإياكم هذه الليالى من العام المقبل . فقال حرب بن أمية لأبى سفيان ابنه : قل لهم إن موعدكم قابل فى هذا اليوم ، فقال خداش بن زهير فى هذا اليوم وهو يوم نخلة .

ياشدة ما شددنا غير كاذبة	على سخينة (٢) لولا الليل والحرم
لما رأوا خيلنا تزجى أوائلها	آساد غيل حمى أشبالها الأجم (٣)
واستقبلوا بضراب (٤) لا كفاء (٥) له	يبدى من الغزل الأكفال ما كتموا
ولولا سلالا وعظم الخيل لاحقة	كما تخب إلى أوطانها النعم
ولت بهم كل محضار ململمة	كأنها لِقْوَةٌ فى جنبها ضرم

ومن أيام الفجار يوم شمطة ، وكانت الغلبة فيه لهوازن على كنانة . وتفصيل ذلك أن كنانة جمعت قبائلها من قريش وعبد مناف والأحابيش (٦) ومن لحق بهم من بنى أسد بن خزيمة . والأحابيش بنو الحارث بن عبد مناه بن كنانة . وجمعت سليم وهوازن جموعها وأحلافها غير بنى كلاب وبنى كعب ، فإنهما لم يشهدا يوما من أيام الفجار غير يوم نخلة . فاجتمعوا بشمطة من عكاظ فى الأيام التى تواعدوا

---

(١) خلصوا نجيا : أخذوا يتشاورون .

(٢) لقب لقريش تعير به ، لأنها كانت تأكل السخينة فى الجدب ، وهى طعام دقيق يخلط به مواد أخرى لتكثيره .

(٣) الأجم : الرماح ، شبه الرماح يحملها القوم بالغابة يسكنها الأسد .

(٤) الضراب : الضرب . (٥) لا كفاء له : لا مثيل له .

(٦) كان هؤلاء الأحابيش من الجند المرتزقة ، استأجرتها قريش لتدافع عنها عند الحاجة لانصراف أهلها للتجارة . وقد اختلف المؤرخون فى أصل هذه الجماعة وتسميتها بهذا الاسم : فنهم من يقول إن بعض قبائل العرب تجمعت ونزلت عند جبل بأسفل مكة يسمى « حبيش » من تحبش بمعنى اجتمع . ولكن الأب لامانس يقول إنهم من أصل حبشى . ومع كل ، فسواء أكانت هذه القوة عربيا خالصا ، أم من الأحباش ، أو من الأرقاء الذين كانوا فى خدمة قريش ، فقد كانوا قوة لقريش يدافعون عنها إذا أغار عليها المغير .

فيها ، وعلى كل قبيلة من قريش كنانة سيدها ، وكذلك على قبائل قيس . غير أن أمر كنانة كلها إلى حرب بن أمية ، وعلى إحدى مُجَنِّبتيها عبد الله بن جدعان ، وعلى الأخرى كريظ بن ربيعة ، وحرب بن أمية فى القلب ، وأمر هوازن كلها إلى مسعود بن معتب الثقفى ، فتناهض الناس وزحف بعضهم إلى بعض ، فكانت الدائرة فى أول النهار لكنانة على هوازن ، حتى إذا كان آخر النهار تداعت هوازن وصابرت وانقشعت كنانة ، فاستمر القتل فيهم ، فقتل منهم تحت رايتهم مائة رجل ، وقيل ثمانون ، ولم يقتل من قريش يومئذ أحد يذكر .

وكانت أيام الفجار خمسة فى أربع سنين : أولها يوم نخلة ، ولم يكن لواحد منهما الغلبة على صاحبه ، ثم يوم شمطة لهوازن على كنانة ، وهو أعظم أيامهم ، ثم يوم العبلاء ، ثم يوم شرب ، وكان لكنانة على هوازن ، ثم يوم الحريرة لهوازن على كنانة . قال أبو عبيدة : ثم تداعى الناس إلى السلم على أن يذروا الفضل [1] ويتعاهدوا ويتواثقوا [2] .

٥ — التجارة فى بلاد العرب : جمع أهل سبأ ثروة كبيرة من احتكارهم التجارة ، وعلى الأخص فى العطور كالبخور الذى كان شائع الاستعمال فى المعابد بمصر والحبشة وغيرهما . وكانت قوافل سبأ — كما سبق — تحمل هذه الحاصلات وغيرها من حاصلات هذه البلاد إلى الأصقاع الشمالية ، كما كانت لهم محطات تجارية تصل بلادهم بغيرها . ولا شك أن اليمن بلغت درجة عظيمة من المدنية والحضارة انتقلت منها إلى أرجاء جزيرة العرب ، وخاصة الجهات التى اتصلوا بأهلها عن طريق الأسفار المنظمة .

ولما كانت أرض مكة صخرية لا ماء فيها ولا زرع امتاز أهلها على غيرهم من العرب بالنشاط التجارى . وكان لهم فى نفوس العرب احترام لأنهم ولاة الكعبة الذابون عن حياضها الحافظون مجدها ، وساعدهم على ذلك مركز مكة الجغرافى ، لذلك لا ندهش إذا أصبحت مكة منذ القرن السادس الميلادى مركزاً للتجارة بين اليمن والشام والحبشة .

---

(١) أى يتركوا مازاد من عدد القتلى فى فريق على الآخر دون أن يطالبوا بديته .

(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ٣٧١ ، ٣٧٣ .

وكانت قوافل قريش معروفة عند العرب ، لأنهم سكان مكة وحماة الكعبة التى يقدسها العرب . فكانوا يسيرون آمنين مطمئنين . وجابت قوافلهم هذه البلاد طولا وعرضا كما فعل أهل اليمن من قبل ، فوصلوا إلى غزة وبيت المقدس ودمشق ، وعبروا البحر الأحمر إلى الحبشة . وكانت ميناء جدة ، التى تبعد عن مكة بنحو أربعين ميلا ، واسطة التجارة بينها وبين الحبشة . وكانت السلع تحمل من جدة إلى القطيف فى إقليم البحرين ، حيث تنقل فى القوارب مع اللؤلؤ الذى يستخرج من الخليج الفارسى إلى مصب الفرات .

وتقع مكة فى نحو منتصف المسافة بين اليمن جنوبا والشام شمالا . وكانت عير قريش تحمل من أسواق صنعاء ومن موانى عمان واليمن ، الطيب والبخور الكثير الاستعمال فى المعابد والكنائس والقصور فى البلاد الواقعة فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، وكذا المنسوجات الحريرية والجلود والأسلحة والمعادن النفيسة التى يرد كثير منها إلى موانى بلاد اليمن من الهند والصين وغيرهما من بلاد الشرق. وتحمل من أسواق بصرى ودمشق القمح والمصنوعات وزيت الزيتون والحبوب والخشب والقز ، ومن بلاد الحبشة التوابل ، ومن مصر المنسوجات المعروفة بالقباطى .

وبلغ من اهتمام القرشيين بالتجارة أنهم كانوا يرحلون رحلتين فى العام: رحلة الشتاء إلى اليمن ، رحلة الصيف إلى الشـــام . وكان بنو عبد مناف الأربعة يتوجهون إلى البلاد المختلفة للتجارة : فكان هاشم يتوجه إلى الشام ، وعبدشمس إلى الحبشة ، والمطلب إلى اليمن ، ونوفل إلى فارس . وكان تجار قريش يختلفون إلى هذه البلاد فى ذمة هؤلاء الإخوة الأربعة لا يتعرض لهم أحد بسوء[1]. وكان كل أخ منهم يأخذ من ملك البلد الذى يقصده أمانا له ؛ فكان هذا أشبه بالعلاقات التجارية بين أمراء مكة وغيرهم من الملوك . وقد منّ الله تعالى على قريش فى ذلك بقوله: ﴿ لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾ .

وكانت بلاد العرب وعرة إلا عليهم ، لعلمهم بالصحراء وسبلها ومواضع الأمن والخوف منها ، وقدرتهم على تحمل القيظ وعناء السير ، فلم يكن لأهل

---

(١) الألوسى : سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب (بغداد سنة ١٢٨٠هـ) ص٦٩ .

الشام والحبشة وغيرهما من سبيل للسير فى هذه الفيافى والقفار الكثيرة الوعورة والأخطار . فاحتكروا تجارة البلاد السعيدة (اليمن) والشام وغيرهما واختصوا بنقل سلعها . وكان من أثر احتكارهم تلك التجارة وانتشارها فى مكة أن أثرى أهلها ثراء كبيرا . ولم يكن حب أبناء الأشراف والنبلاء وأهل الشرف منهم للفروسية بأقل من حبهم للتجارة التى كانوا يمارسونها منذ نعومة أظفارهم . أضف إلى ذلك ازدياد عددهم على الأيام ، لجودة غذائهم بالنسبة لغيرهم من القبائل ، وعدم تعرضهم للمنازعات والحروب التى أنهكت قوى العرب فى جاهليتهم . كما ساعدتهم ثروتهم على قرى الضيف ، فلهجت بمحامدهم ألسنة الشعراء والوافدين على مكة من كافة أرجاء بلاد العرب .

وقد أثرت قريش من التجارة ثراء عظيما ، وظهر فيها كثير من الأثرياء كأبى سفيان ، والوليد بن المغيرة ، وعبد الله بن جدعان الذى استطاع أن يسلح فى حرب الفجار مائة رجل بالسلاح الكامل . وكان القرشيون بمثابة الوسطاء بين إقليم البحر الأبيض المتوسط فى الشمال ، حيث الشام وفلسطين ، وسواحل آسيا الصغرى ومصر الشمالية ، وبين ذلك الإقليم الموسمى الذى تكثر فيه الخيرات المعروفة من توابل وحاصلات أخرى هامة .

وبما أن التجارة تقتضى علما بالسياسة العامة والعلاقات التجارية ، عنى القرشيون بالوقوف على العلاقات بين فارس والروم ، وبين اليمن والحبشة ، وهل هناك ما يعترض تجارتها . وبذلك كانت تجارة قريش مدرسة لتكوين أفراد يصعب على المدارس العادية تخريجهم فيها ، كما تقتضى التجارة علما خاصا بالحساب التجارى وكل ما يتعلق بالتجارة من مكاييل ومقاييس .

وقد أفادت قريش من اشتغالها بالتجارة فوائد معنوية وأدبية على جانب كبير من الأهمية . وساعد اشتغالهم بالتجارة وكثرة أسفارهم إلى الشام والحبشة ومصر وغيرها ، ومخالطتهم أقواما مختلفين ، كالفرس والروم ، من ذوى المدنيات القديمة ، على معرفة أحوال هذه الأمم السياسية والاجتماعية والأدبية ، مما كان له أثر كبير فى تثقيف عقولهم ورقى مداركهم حتى وصلوا إلى مستوى فكرى لم يصل إليه أهل البدو وسكان الواحات . وكانوا يعرفون الكتابة والقراءة

والحساب ، كما كانوا على علم بأحوال الأمم المجاورة لهم من سياسة وغيرها مما ظهرت آثارها بعد فى الفتوح الإسلامية . ولكن ذلك حسنت إدارتهم لشئون الكعبة ، وسهلوا على الناس القدوم إليها وشجعوهم على الحج إلى بلدهم .

(٦) الحالة الاجتماعية : نعنى بالحالة الاجتماعية علاقة العربى بزوجته وأولاده وبنى عمه وعلاقة القبائل المختلفة بعضها ببعض :

وإذا بحثنا تاريخ العرب القديم وجدنا فيه مؤثرات ثلاثة عظيمة :

الأول — أنهم يتكلمون لغة واحدة هى العربية وإن اختلفت لهجاتها .

الثانى — أنهم يدينون بدين واحد هو الدين الوثنى .

الثالث — أنهم من جنس واحد هو الجنس السامى .

وتفسر لنا هذه العزلة التى فرضتها الطبيعة على بلاد العرب بقاء الجنس السامى فيها نقيا حافظا لصفاته . وتشمل بلاد العرب فريقين من السكان : بدو وحضر . فأما البدو فيعيشون فى الصحراء ، وهم — كما وصفهم سمنة Simneh مؤرخ مصر فى عصر الأسرة التاسعة عشرة — رعاة يحبون الحرب ويغير بعضهم على بعض ، ولا يزالون ، على الرغم من مرور القرون والأجيال ، كما كانوا أيام الأسرة التاسعة عشرة وفى القرن السادس الميلادى ، لم يظهر عليهم تغيير جوهرى . أما الحضر فيسكنون المدن ، وقد أفرغوا جهودهم فى حرث الأرض وتجارة القوافل حتى جنوا من ذلك ثروة عظيمة .

ومن يتتبع أشعار العرب فى الجاهلية يجزم أن المرأة العربية كانت تتمتع فى ذلك العصر بقسط وافر من الحرية . فكانت تستشار فى مهام الأمور ، بل تشارك الرجل فى كثير من أعماله . وكانت علاقتها بزوجها على درجة من الرقى أكثر مما يخيل إلينا . يدلك على ذلك افتخار الرجل بنسبه لأمه كما يفخر بنسبه لأبيه ، وإعطاؤهم المرأة قسطها مما تحب من النسيب إذا بدءوا قصائدهم التى يفخرون فيها بمحامد قومهم وعظيم فعالهم . ناهيك بما كان للمرأة العربية من الأثر الصالح فى الإسلام .

وكان للعرب نظام ثابت فى الزواج ، فكان جمهورهم يقترنون بالزوجة بعد رضاء أهلها ، كما كان كثير منهم يستشيرون البنات فى أمر زواجهن . وينبغى ألا نخلط بين

هذا الارتباط بالزواج وبين غيره مما عرف عن بعض العرب من اجتماع الرجل بالمرأة بغير هذه الطريقة . وهذا الأمر لم يكن يستحسنه جمهور العرب مع ما عرف عنهم من غيرة على الأهل ومحافظة على الشرف ، حتى كان من النادر أن يرى الإنسان بنتا بالغة قد أدركت سن الزواج ، أو أرملة صغيرة فى سن لم تتزوج ، إذ كان من الضرورى أن يكون للأسرة أطفال عديدون كى تكون غنية بأفرادها قوية محترمة .

وكانوا يطلقون ، والطلاق بيد الرجل ، إلا أنه كان هناك نساء تشترطن أن تكون الفرقة بأيديهن . ومن عاداتهن المستقبحة وأد البنات مخافة المذلة أو العار . على أن هذا الأمر لم يكن شائعا عند العرب ، بل كان فى بعض الطبقات المنحطة منهم خشية الفقر ، وعلى الأخص فى بنى أسد وتميم . وقد نهى عن ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت ﴾ (سورة التكوير ٨١ : ٨ — ٩) .

أما معاملة العرب لأبنائهم الذكور فكانت تنطوى على الحنان والمحبة ، إلا قليلا من الفقراء والضعفاء كانوا يقتلون أولادهم مخافة الإملاق . وقد سفههم الله فى ذلك ونهى عن هذه العادة المرذولة بقوله ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ﴾ ، وأما معاملتهم للأخ وابن العم ، فكانوا ينصرونهم أخطأوا أم أصابوا ، عدلوا أم ظلموا ، بمعنى أن الرجل كان يلحقه العار إذا قعد عن نصرة أخيه أو ابن عمه . فكان لزاما عليه أن يقوم بنصرته مخطئا كان أو مصيبا . وفى ذلك قالوا : انصر أخاك ظالما أو مظلوما [1] .

هذه هى حال العربى مع أهله وأبيه وأخيه وابن عمه وأفراد قبيلته . فإذا تشعبت بطون القبيلة الواحدة تنافس أفراد كل بطن فى الرياسة والشرف وإن كان يجمعهم أصل واحد . وقد يبلغ العداء أشده وتراق الدماء بسبب هذه المنافسة . ومن أمثلة ذلك العداء بين الأوس والخزرج ، وبين عبس وذبيان ، وبين عبد شمس وهاشم ، وبين ربيعة ومضر .

---

(١) هذا القول من حكمة الجاهلية . وكانوا يعتبرون النصرة هى الإعانة على الغير ، أما فى الإسلام فقد اعتبر من ضمن النصرة نصيحة الظالم لرده عن ظلمه . ولذا قال عليه الصلاة والسلام : « أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » ، كما قال : « الدين النصيحة » . قالوا : لمن يارسول الله » ؟ قال : « لله ولرسوله والمؤمنين » .

والخلاصة أن روح الوئام كانت سائدة بين أفراد القبيلة الواحدة ، مفقودة تماما بين القبائل المختلفة . وقد نهك ذلك الأمر قواهم فى حروبهم المستمرة لسببين :

الأول — التنافس على مادة الحياة وهى المراعى وموارد الماء .

الثانى — تنازع الشرف والرياسة ، فإذا مات أكبر الأخوة نازع ابنه أعمامه . ولذلك نشبت الحروب بين القبائل المتقاربة فى الأنساب أو الأمكنة .

وكان للشعر أثر كبير فى تأريث نيران العداوة بين القبائل العربية بتعداد المآثر والمفاخر لقوم ودفع نظرائهم عنها .

وإذا ذل أحد أفراد القبيلة لحق العار القبيلة بأسرها ؛ وقد يؤدى نزاع بين فردين من قبيلتين مختلفتين إلى قيام الحروب بين هاتين القبيلتين ، ولو كان السبب تافها .

٧ — الحالة الأدبية :

كانت مكة — كما أسلفنا — مركز الحركة التجارية والأدبية ببلاد الحجاز ؛ فكان يفد إليها العرب من كل صوب وحدب فى أيام الحج والمواسم ، فيتناقلون الآداب الاجتماعية بعضهم من بعض ، ويتناشدون الأشعار الحماسية ويتحدثون بشرف أصلهم وكرم محتدهم ، فتغرس كل هذه المظاهر الاجتماعية والأدبية فى نفوس أطفالهم المواهب النادرة والقرائح الوقادة والخصال الكريمة ، وتدفع بهم إلى جليل الأعمال وأسمى الغايات .

على أن التعليم فى هذا العصر لم يكن منتشراً فى بلاد العرب ، لأن العرب لم يكن لهم بالعلوم عهد . وما نظن أن بلاد العرب — وعلى الأخص مكة — كانت تعنى بتعليم أطفالها الكتابة والقراءة ، إنما كان الرجل من أهلها يشعر بالحاجة إلى ذلك فيتعلمها . وكان النبى صلى الله عليه وسلم أول من عنى عناية خاصة بتعليم العرب الكتابة والقراءة ، بأن عهد إلى أسرى بدر الذين يعرفون الكتابة والقراءة ممن عجزوا عن دفع الفداء بأن يعلم كل منهم عشرة من أبناء المسلمين هذه الكتابة والقراءة .

ولا يغيب عن أذهاننا ما كان لاجتماع الشعراء في مكة وفي سوق عكاظ من أثر في حياة العرب الأدبية ، كما لا نجهل أيضا أن كثيرين من هؤلاء الشعراء كانوا يجوبون البلاد المجاورة ، فاتصلوا بالفرس عن طريق المناذرة وبالروم عن طريق الغساسنة ، واتصلوا بالفرس والروم معا عن طريق التجارة ، كما أخذوا بعض الفكر الدينية عن الجاليات اليهودية وعن نساطرة الحيرة .

وقد ظهر أثر تلك الأفكار في شعر الشعراء كقس بن ساعدة وأمية بن أبي الصلت ، وفي خطب الخطباء وأقوال الحكماء من العرب مثل أكثم بن صيفي وورقة بن نوفل .

أما العلوم التي حذقها العرب بحكم البيئة التي نشأوا عليها وطبيعة البلاد التي درجوا على أرضها فهي علم الأنواء . ولا غرو فقد مهروا في تتبع الأنواء وتعرف أوقات نزول الغيث ، كما مهروا في علم الأثر . فقد كانت لهم دراية خاصة بمعرفة آثار الأقدام ، وساعدهم على ذلك تلك الصحراء المغطاة بالرمال التي تنطبع فيها آثار الأقدام بسهولة . كما مهروا في علم الأنساب ؛ فقد كان يسكن جزيرة العرب قبائل متنافرة . ومن ثم دفعتهم الحاجة الملحة إلى أن يحفظوا أنسابهم التي يعتمدون عليها في عقد محالفاتهم أو في شن الغارات على أعدائهم أو المنافسة على مركز الرياسة فيهم — إلى غير ذلك من العلوم التي تنشأ في مثل هذه البيئة والتي هي أولى بأن يطلق عليها مجموعات من المعارف من أن تكون علوما بالمعنى الذي نعرفه .

وكان الغرض الأصلي من اجتماعات العرب دينياً بحتاً : أما تناشدهم الأشعار وتبادلهم الأفكار ، فإنما كان أمراً ثانويا دفعوا إليه بحكم اجتماعهم في صعيد واحد ترفرف عليهم ألوية السلام . على أن ذلك الغرض الديني لم يلبث أن أصبح عرضيا لا قيمة له وثانويا لا يؤبه له ، بعد أن حلت محله الأغراض الاجتماعية والشئون السياسية . فطالما كانت تعقد المعاهدات وتبرم المحالفات في تلك المجتمعات . ومن ثم ظهر الشعراء الذين كانت لهم جلسات ممتعة يتبارون فيها في الشعر ، وأصبح تبادل الأفكار والمنافع هو الغرض الأصلي من تلك المجتمعات [1] .

---

(١) انظر تاريخ عمرو بن العاص للمؤلف ص ١٩ — ٢٠ .

ولم يحل عدم انتشار التعليم فى بلاد العرب فى الجاهلية دون قيام نهضة أدبية فى خلال ذلك العصر . وليس أدل على تلك النهضة من ازدهار الشعر الذى يكون صورة صادقة للخلق القومى ، والذى يختلف تماما عن الشعر فى الشعوب السامية الشمالية فى مادته وتركيبه ،ذلك الشعر الذى لم نعلم به إلا فى أزهى عصور انتشاره.

وجميع الشعر العربى مقفى . على أن القافية ليست خاصة بالشعر ، فقد تقفى العبارات التى لها علاقة ما بالأمور الدينية والأحاديث ذات الخطر ، والتى ليست خاضعة لقواعد الشعر الضيقة مثل تنبؤات بعض المتنبئين وحكم الحكماء .

يقول نلدكه : « ولما كان هذا النوع من الشعر يرجع إلى عصر غير معلوم ، وأنه قد ظهر وانتشر بادىء ذى بدء بين الاغريق والروم فى القرن الرابع الميلادى ، فليس بعيداً أن يكون ثمة ارتباط من ناحية ما ، بين ذلك الشعر وبين الشعر العربى ، وخصوصا فى استعمال تلك الطريقة الفنية التى لا يبعد أن تكون قد وصلت إلى العرب فى نفس ذلك الوقت . . على أنه يغلب على الظن أن يكون الشعر العربى قد ابتدأ بالنثر المقفى ، ثم تطور حتى انتهى إلى ما هو عليه اليوم من البحور والأوزان. ومع ذلك فإن هذه المسألة لاتزال محلا لاحتمالات كثيرة ، ولم تقم الآن أدلة قاطعة نستطيع الأخذ بها. على أن اقتباس الشعر العربى أوزانه عن الشعر اللاتينى أو اليونانى لا يحط قدره ؛ كما لا ينقص طرافته تلك الدقة فى مراعاة هذه القافية واستيلائها على النفس ، حتى إن العربى الذى لم يمرن على الأدب ، والذى لم يكن له من الثقافة حظ كبير أو قليل ، ليحفظ تلك القصائد والمقطوعات الشعرية وينقلها مع الرعاية التامة والمحافظة الشديدة لتلك الأوزان النظمية ، على الرغم من أنها تختلف كثيراً فى أوزانها وقافيتها عن المقاييس النظمية للشعر اللاتينى واليونانى » .

ويتناول الشعر العربى القديم الحياة العادية والشئون الحيوية للبدوى . وطالما كان يتغنى الشعر العربى بذكر تلك الحياة وامتداحها وصبغها بجم الألوان من الأخيلة الشعرية ، كما لم ينس هذا الشعر نصيبه من الحكم الرائعة والأفكار القيمة .

وقد مهد الطريق للدين الإسلامى بعض مشهورى الشعراء الذين ثقفت عقولهم الأسفار الطويلة والمشاهدات الجمة ،والذين اختلطوا بالمسيحيين وترددوا على بعض أقيال العرب. وكان العربى يحرص كل الحرص على الامتناع عن القتال فى بعض أشهر

السنة وهى الأشهر الحرم . وكانوا يتهادنون فتضع الحرب أوزارها بين جميع القبائل فى تلك الأشهر ، وينسى الضغن والحفيظة بينهم ولو إلى حين ، فلا يراق فيها دم ولا تنتهك فيها حرمة ، فيتقابل الأصدقاء والأعداء لا يذكر أحدهم للآخر فى تلك الفترة من السلم ضغناً أو موجدة ، ويجتمعون فى أوقات معينة وأماكن معروفة للقيام ببعض النسك والشعائر الدينية ، وتكريم الآلهة والزلفى إليها مما كان له أكبر الأثر فى نهضة العرب .

٨ — الحالة الدينية :

لم يحفظ لنا التاريخ شيئاً ذا غناء عن ديانة العرب فى الجاهلية . على أن ما لدينا من المعلومات يمكننا — على قلته — من أن نصور هذه الحالة تصويراً أقرب إلى الحقيقة .

كان دهماء العرب يدينون بالدين الوثنى . ويقال إن الذى نقل الوثنية إلى العرب هو عمرو بن لحى (بضم اللام وفتح الحاء وتشديد الياء) الخزاعى . ولا يبعد أن يكون عمرو هذا قد نقل بعض الأوثان من بلاد الشام إلى الكعبة .

روى ابن الكلبى أن عمرو بن لحى مرض مرضاً شديداً فقيل له : « إن بالبلقاء من الشام حمة إن أتيتها برأت ، فأتاها فاستحم بها فبرأ ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام فقال : ما هذا ؟ فقالوا : نستسقى بها المطر ونستنصر بها على العدو ، فسألهم أن يعطوه منها ، فنقلها ، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة » .

وكان لقريش أصنام فى جوف الكعبة وحولها ، وكان هبل أعظمها شأناً ؛ وكان من العقيق الأحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى ، فصنعت له قريش يداً من ذهب . وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر ، فكان يقال له هبل خزيمة .

وكان من عادة العرب فى الجاهلية أنه إذا أراد أحدهم قضاء أمر لجأ إلى القداح فضربها ، فإن خرج قدح بنعم مضى إلى غايته ، وإن خرج بلا عدل عن المضى فيه . روى ابن الكلبى أنه كان أمام هبل فى جوف الكعبة سبعة من القداح كتب فى أولها صريح ، وفى ثانيها ملصق ، فإذا

شكوا فى مولود أهدوا له هدية ، ثم ضربوا بالقداح ، فإن خرج صريح ألحقوه ، وإن خرج ملصق دفعوه . ومن هذه القداح قدح على الميت ، وقدح على الزواج ، وثلاثة لم يقف المؤرخون بعد على حقيقتها . فإذا اختصموا فى أمر أو أرادوا سفراً أو عملا أتوا هبل فاستقسموا بهذه القداح عنده .

وقد أثر عن عبد المطلب جد الرسول عليه الصلاة والسلام أنه قال : لئن ولد لى عشرة أبناء ثم شبوا وأصبحوا بحيث يمنعوننى لأنحرن أحدهم عند الكعبة . فلما حقق الله سبحانه وتعالى أمنيته أراد أن يفى بنذره ، فجمع أبناءه عند هبل ، وطلب إلى صاحب القداح أن يضرب عليهم ، وأعطى كل واحد منهم قدحاً فيه اسمه . ثم ضرب صاحب القداح فخرج قدح أصغر أولاده عبد الله بنمم . وأراد عبد المطلب أن يضحى بابنه عبد الله على كره منه إذ كان يؤثره على سائر أبنائه ، فحالت قريش بينه وبين ذلك وأشاروا عليه بأن يسير إلى عرافة بخيبر ، فإن أمرته بذبحه فعل ، وإن أشارت بغير ذلك عمل بمشورتها . فلما قص عبد المطلب على العرافة خبر ابنه قالت له : كم الدية فيكم ؟ قال : عشراً من الإبل ، قالت : فارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم ، وقربوا عشراً من الإبل . ثم اضربوا عليه وعليها بالقداح ، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم . فإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم . فعاد عبد المطلب إلى مكة ولجأ إلى صاحب القداح ، فكان كلما ضرب بقدح خرج على عبد الله ، فزاد عشراً من الإبل ، فخرج القدح على عبد الله أيضاً . وأخذ عبد المطلب يزيد الفداء عشراً فعشراً حتى بلغ المائة ، فخرج القدح على الإبل ، فنحرت ثم تركت لا يمنع عنها إنسان . وهكذا افتدى عبد المطلب ولده عبد الله (١) .

ولم يكن هبل وحده معبود العرب ، فقد انتشرت الأصنام فى أنحاء الجزيرة العربية على شكل بيوت وأشجار وحجارة مصورة وغير مصورة ، حتى قيل إنه كان حول الكعبة ثلثمائة وستون صنما . ويظهر أن السبب فى وجودها أن قريشاً رأت أن تنتفع من قدوم القبائل العربية فى موسم الحج ، فوضعت أصنام القبائل

---

(١) ابن الكلبى : كتاب الأصنام ص ٨ ، ٢٧ — ٢٨ .

الشهيرة حول الكعبة ، حتى إذا أتوا مكة وزاروا الحرم وجدوا معبوداتهم فأولوها احترامهم وتقديسهم .

كانت مناة أقدم هذه الأصنام ، وهى إلهة القضاة ولا سيما قضاء الموت ، وكان العرب يسمون أبناءهم عبد مناة وزيد مناة . وقد نصب هذا الصنم على ساحل البحر بقديد بين المدينة ومكة . وكانت تعظمها الأزد والأوس والخزرج حتى أمر الرسول على بن أبى طالب بكسره عند ما خرج لفتح مكة فى السنة الثامنة للهجرة .

ومن هذه الأصنام : اللات بالطائف ، ومعناها الإله . وقد عرفت فى آثار تدمر والنبط . وكانت صخرة مربعة أقيم عليها بناء ، وقامت على سدانتها ثقيف التى تشبهت بقريش سدنة الكعبة . وبلغ من تعظيم العرب اللات أن كانوا يسمون أبناءهم زيد اللات وتيم اللات .

ومن هذه الأصنام : العزى ، وهى أحدث من مناة واللات . وكانت تمثل فى شجيرات فى وادى نخلة عن يمين الذاهب من مكة إلى العراق . وبلغ من تعظيم العرب وقريش إياها أن كانوا يسمون أبناءهم عبد العزى (١) .

وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول : واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، فإنهن الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى ، كما كانوا يقولون : بنات الله وهن يشفعن إليه : فأنزل الله على الرسول ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذن قسمة ضيزى إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ (سورة النجم ٥٣ : ١٩ — ٢٣) .

ومن معبودات العرب الوثنيين : سواع بأرض ينبع ، وقد قام بنو لحيان على سدانته ، واتخذت قبيلة كلب بدومة الجندل ودا ، واتخذت مذحج وأرض جرش يغوث ، واتخذت خيوان يعوق ، وكانت على ليلتين من صنعاء ، واتخذت حمير نسرا . وكان قوم نوح يعبدون هذه الأوثان التى جاء ذكرها فى سورة نوح (٧١ : ٢١ — ٢٣) . ﴿ قال نوح : رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله

(١) ابن الكلبى ١٣ — ١٥ ، ١٦ ، ٢٧ .

وولده إلا خسارا ومكروا مكراً كباراً وقالوا لا تذرن آلهتكم ولاتذرن وداً ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ﴾ :

وكان إلى جانب الوثنية فى بلاد العرب نحل وديانات أخرى ، منها الصابئة ويعبد أتباعها النجوم والكواكب . وقد انتشرت فى بلاد اليمن وحران وأعالى العراق . والزرادشتية نسبة إلى زرادشت نبي الفرس القدماء ، وهى ديانة رمزية تقول بأن فى العالم قوتين هما الخير والشر ، ويرمز لإله الخير بالنور ولإله الشر بالظلمة . ويعتبر أتباع الزرادشتية النار لا على أنها العنصر المحرق بل على أنها مصدر النور الذى هو أساس الخير . وكانت هذه الديانة سائدة فى فارس وفى شرق بلاد العرب وخاصة فى جهة البحرين .

وكان للعرب الوثنيين كثير من الأماكن المقدسة . غير أن اعتقاداتهم لم تكن من الجد فى شىء كثير . ولا شك أنه كان لطبيعة بلاد العرب تأثير كبير فى العادات التى خلفها آباؤهم ، وكانوا محافظين عليها شديدى التمسك بها . على أنهم لم يجهدوا أنفسهم لمعرفة حقيقتها . ولكن الوثنيين فى شمالى بلاد العرب كانوا أكثر حماسة من غيرهم وأشد تعصباً لدينهم لاتصالهم بالمسيحيين فى الشام وفلسطين ، وكذلك كانت الحال فى اليمن لاتصالهم بالأحباش الذين كانوا يدينون بالمسيحية .

وكان العرب يقدمون القرابين لآلهتهم ويسيرون فى مواكب حول معابدهم . وكان المنذر بن ماء السماء (٥٠٥ — ٥٥٤ م) فى الحيرة يقدم كثيراً من أسرى المسيحيين تكريماً للسيار « فينوس » (الزهرة) ، كما كان عرب شبه جزيرة سيناء يقدمون القرابين البشرية لنفس هذا السيار . وقد سبقهم الإسرائيليون منذ عهد بعيد إلى مثل ذلك . ومن المحتمل أن يكون لاتصال العرب الشديد بالمسيحيين وأهل الديانات الأخرى أثر كبير فى إحياء الحماس الدينى . ومن القرآن الكريم نقف على أن العرب كانوا — على الرغم من وثنيتهم — يؤمنون بالله ، بدليل قوله تعالى ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ .

انتشرت اليهودية فى جزيرة العرب قبل ظهور الإسلام ولا سيما فى اليمن ، كما انتشرت فى وادى القرى وخيبر وتيماء ويثرب حيث أقامت قبائل بنى قريظة

وبنى النضير وبنى قينقاع . ويقول نللـكه (جـ ٨ ص ٨) إن هؤلاء اليهود كانوا فى الأصل من أهالى الجزيرة العربية ثم اعتنقوا اليهودية ، وأنهم لم يكونوا مزودين بمعلومات كافية فى التوحيد ، وإن كانوا شديدى التمسك بدينهم . على أن فريقاً آخر من المؤرخين يرى أن يهود هذه الجزيرة نزحوا إليها من فلسطين . وقد نشر هؤلاء اليهود فى البلاد التى نزلوها فى جزيرة العرب تعاليم التوراة من بعث وثواب وعقاب . وكان لذلك أثره فى الوثنية الحجازية حتى أصبح أهل يثرب أسرع العرب إلى قبول الإسلام .

وكذلك انتشرت المسيحية فى قبائل تغلب وغسان وقضاعة فى الشمال وفى بلاد اليمن فى الجنوب . وقد دخلت بلاد العرب بفضل جهود أباطرة الدولة الرومانية الشرقية فى القرن الرابع الميلادى ؛ إلا أنها لم تجذب إليها أنصاراً كثيرين منهم . وقد تـكون الحال على غير هـذا لو أن حكومة رومة أخذت على عاتقها نشر هذا الدين . وكان من أثر هذه العلاقات الوثيقة بين العرب والبيزنطيين أن تأثر العرب بالمسيحية إلى حد ما ، فانتشرت فى الجنوب عن طريق الحبشة وفى الشمال عن طريق سورية وشبه جزيرة سيناء الآهلة بالأديار والصوامع .

وقد انقسمت النصرانية فى ذلك الوقت إلى عدة فرق تسرب منها إلى جزيرة العرب فرقتان : فـكانت النسطورية منتشرة فى الحيرة ، واليعقوبية فى غسان وسائر قبائل الشام . وكان أهم مواطن النصرانية فى بلاد العرب نجران ، وهى مدينة خصبة التربة عامرة بالسكان ، يشتغل أهلها بالزراعة ويجيدون صناعة المنسوجات الحريرية ويتجرون فى الجلود والأسلحة .

وكان بين العرب أناس مستنيرون فطنوا إلى سوء حالتهم الدينية وحاولوا الارتقاء من الوثنية إلى اعتقادات أرقى منها . وذلك لاختلاطهم باليهود والمسيحيين . ووجد بينهم أناس دعوا إلى دين توحيد جديد له علاقة ما بالمسيحية ، ودعوا إلى نبذ عبادة الأوثان والتخلص من عادات الجاهلية كوأد البنات وشرب الخمر ولعب الميسر . وكانوا يعتقدون فى البعث بوجود إله واحد يحاسب ويجازى الناس على أعمالهم من خير وشر . ويطلق على هذه النزعة التحنف وعلى أصحابها الحنفاء

أو التائبون المعترفون ، نسبة إلى حنيف . وقد ورد هذا اللفظ فى القرآن الكريم فى سورة آل عمران : (٣ : ٦٧) ﴿ ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾ ، وفى سورة الأنعام (٦ : ٧٦ — ٧٩) : ﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هـذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾ .

ومن هؤلاء أمية بن أبى الصلت الشاعر المعروف . وكان يؤمل أن يكون النبي المنتظر . فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم حقد عليه . ومنهم ورقة بن نوفل ابن عم السيدة خديجة زوج الرسول . وكان ورقة شيخاً كبيراً يحفظ الإنجيل ، وهو الذى قال حين أخبرته خديجة بنزول الوحى على الرسول : ياليتنى كنت جذعا إذ يخرجك قومك ثم قال : وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً ، وقس بن ساعدة الإيادى ، وكان أشهر قضاة العرب وفصحائهم وخطبائهم . وقد سمعه الرسول يخطب بسوق عكاظ على جمل له يحث العرب على ترك العادات المرذولة ويبشرهم ببعث الرسول . وقد قال فيه الرسول : « يرحم الله قسا ! إنى لأرجو أن يبعث يوم القيامة أمة وحده [1] .

وعلى الجملة ، فإنه لما ولد الرسول صلى الله عليه وسلم ، أخذت الوثنية لدى العرب فى الضعف وأخذ بعضهم يؤمن بالحياة الآخرة . وكان لليهودية والمسيحية أشياع كثيرون يؤمنون بتلك العقيدة القائلة بالتوحيد .

على أنه لم يقدر لأى دين من هـذه الأديان الفوز والغلبة فى بلاد العرب ، فقد كانت المسيحية إذ ذاك مذهباً معقداً تعددت فيه الفرق واختلفت ، وكانت اليهودية دين الشعب المختار الذى لم يقبل العرب على أنفسهم أن يضحوا له باستقلالهم ، كما ضعف مذهب التوحيد لما لاقاه من معارضة العناصر المقتبسة من دين زرادشت . ومع ذلك فقد مهدت المذاهب والأفكار والآراء المسيحية واليهودية والفارسية الطريق لظهور المصلح المنتظر وهو النبي صلى الله عليه وسلم.

---

(١) راجع خطبة قس بن ساعدة فى صبح الأعشى جـ ١ س ٢١٢ .

الباب الثانى

البعثـــة النبوية

١ — الرسول منذ أن ولد إلى أن بُعث

ولد الرسول فى ٢٠ إبريل سنة ٥٧١ م ، كما تروى لنا الروايات العربية[١] ، وهى السنة المعروفة بعام الفيل ، من أبوين فقيرين فى مالهما ، غنيين فى جاههما وحسبهما . وكان أبوه عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى ابن كلاب . وكان لأولاد هاشم سقاية الحاج . وقد مات أبوه قبل أن يولد فكفله جده عبد المطلب . فلما مات كفله عمه أبو طالب ، وعهد فى إرضاعه إلى امرأة بدوية تسمى حليمة كما جرت عادة الأشراف من قريش ، فنشأ الطفل فى جو بدوى يتكلم لغتهم الفصيحة . وتوفيت أمه آمنة وهو فى السادسة من عمره ، ولم يكن له من الميراث إلا القليل .

وقد اعتاد محمد أن يخرج مع إخوته من الرضاع فى رعاية الغنم وهو طفل فى البادية . وكان لهذا العمل أثر كبير فى نفسه ، إذ أنه ولد فى قلبه الرأفة والرحمة ولين الجانب وغيرها من الصفات الحميدة . ثم اشتغل بالتجارة وذهب إلى بلاد اليمن والشام[٢] . والتجارة — كما لا يخفى — تربى فى التاجر صفات لا تقل عن صفات القائد فى الجيش ، إذ يحتاج التاجر المسافر فى القافلة لحراسة بضاعته والذود

---

(١) ذكر المرحوم محمود باشا الفلكى أن ولادة الرسول كانت فى صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول الموافق ٢٠ إبريل سنة ٥٧١ م .

(٢) سافر الرسول بالتجارة إلى الشام أكثر من مرة ، فذهب به عمه أبو طالب إلى بصرى وهو فى الثانية عشرة من عمره ، وهناك لمح فيه راهب اسمه بحيرا (بضم الباء) علامات النبوة بعد أن سأله عن أمور فى نومه ويقظته ، ورأى فى بدنه علامات النبوة على ما جاء فى كتب النصارى . وقد سافر الرسول إلى الشام وهو فى الخامسة والعشرين مع ميسرة غلام السيدة خديجة ، فربحت التجارة ، وأخبر راهب اسمه نسطور الرسول بأنه سيكون نبياً .

عنها إذا هجم عليه بعض الأعراب . وقد اتسعت معرفته وتجربته بما شاهد من أحوال بلاد الشام وطرق التعامل وأخلاق الناس ومظاهر الحياة فى البيئة الرومانية ، كما وقف على أساليب الناس فى البيع والشراء مما كان له أعظم الأثر فى التشريعات بعد الرسالة .

وقد أدى اشتغاله بالتجارة ، وما عرف عنه من الصدق والأمانة اللتين كانتا شعاراً له منذ نعومة أظفاره ، إلى معرفته بالسيدة خديجة بنت خويلد ، وهى سيدة شريفة موسرة ، فأنفذته فى تجارة لها إلى الشام . فربحت تجارتها ضعف ما كانت تربح من قبل . فضاعفت له الأجر ، وارتضته زوجا لها وهو فى الخامسة والعشرين وكانت أرملة فى الأربعين ، وقالت له يا ابن عم ! إنى قد رغبت فيك , لقرابتك وسلطتك فى قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك[1] » . وقد دفع صداقه عمه أبو طالب . وخطب خطبة ، شهدها حمزة ابن عبد المطلب عم الرسول أبان ما عليه محمد من الفضل والنبل على الرغم من قلة ماله ، فقال : « الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وجعل لنا بيتاً محجوجاً وبلداً حراماً . وجعلنا الحكام على الناس . ثم إن محمد ابن عبد الله ابن أخى من لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح (فاقه) عليه براً وفضلا ، وكرماً وعقلا ومجداً ونبلا (ذكاء) . وإن كان المال قل (قلة) فإنما المال ظل زائل وعارية مسترجعة . وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصداق فعلى[2] » . وقد أعقب الرسول منها ستة أطفال منهم فاطمة التى تزوجت فيما بعد بعلى بن أبى طالب .

ويقول ابن إسحق (ص ١٢٠) فى خديجة : « وكانت أول من آمن بالله ورسوله ، وصدق بما جاء به فخفف بذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم ، لا يسمع شيئاً مما يكرهه ، من رد عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك ، إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها تثبته وتخفف عنه ، وتهون عليه أمر الناس » .

---

(١) ابن إسحاق ص ١٢٠ .

(٢) ابن هشام ج١ ص ٣ : ٢ — ٢٠٦

كان المزوج لها عمها عمرو بن أسد ، والمزوج له بها عمه أبو طالب ، والسفير بين خديجة والرسول نفيسة بنت منبه . وكان الصداق اثنى عشرة أوقية من الذهب (والأوقية أربعون درهما).

ولما بلغ الرسول الخامسة والثلاثين جددت قريش بناء الكعبة لتصدع جدرانها . وكان الرسول ينقل الحجارة مع القرشيين ؛ وقد اختلفوا فيمن يضع الحجر الأسود مكانه ، ثم اتفقوا على أن يحكموا أول داخل من باب شيبة[1] ، فكان الرسول أول من دخل منه فقالوا : هذا هو الأمين رضيناه حكما ، وأخبروه الخبر ، فبسط رداءه ووضع الحجر فيه وقال . لتأخذ كل قبيلة بناحية ، من الثوب ، فرفعوه حتى انتهوا إلى موضعه ، فأخذه الرسول ووضعه فى مكانه ، وبذلك أرضاهم جميعاً .

وكان الرسول على خلق عظيم ، وقد اشتهر بين قومه بالمروءة والوفاء بالعهد وحسن الجوار والحلم ، والعفة والتواضع والجود والشجاعة والصدق والأمانة حتى سموه الأمين . وكان يكره عبادة الأوثان ، فلم يحضر مواسم الحج ، وكان لا يشرب الخمر ولا يأكل مما يذبح على النصب[2] ، ولا يحضر مجالس اللهو والسمر .

وقد عصمه الله قبل النبوة وبعدها ، وبشرت بنبوته التوراة والإنجيل ، كما تنبأ الرهبان والكهان بقرب بعثته ، وكثرت بذلك الأخبار حتى سمى بعض العرب أولادهم باسم محمد عسى أن يكون هو النبى المنتظر . وقد قال الله تعالى حاكيا ما جاء على لسان عيسى عليه السلام : ﴿ وإذ قال عيسى بن مريم : يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة مبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ﴾ (سورة الصف ٦١ : ٦) .

وقد جاء فى سورة الضحى ﴿ ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى . فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر . وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ (سورة الضحى ٦ — ١١) . ولعل المقصود بالضلال هنا الحيرة فى طريق الهداية التى يسلكها بقومه ليخرجوا من الوثنية إلى الإسلام ويتمنى ذلك فى سرعة . لكن سنة الله فى هداية الأقوام كانت تقتضى زمنا أطول إلى

---

(١) وكان يقال له فى الجاهلية باب عبد شمس ويقال له باب السلام الآن .

(٢) هى حجارة تنصب عليها دماء الذبائح وتعبد .

أن تلين قلوب العرب لقبول الإسلام . وقد تم ذلك فى خلال ثلاثة وعشرين عاماً سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا[١]

وقد أجمع المؤرخون وأصحاب السيرة على أن الرسول لم يكن يأنس لهذا النوع من الديانات التى كان يدين بها العرب ، فقد كان يخلو بنفسه ويفكر فى ذلك كثيراً ، واستمر كذلك حتى أخذ بالحنيفية ، وهى دين إبراهيم الذى كان يدين به بعض العرب الذين تنبهت عقولهم إلى انحطاط الوثنية ، من أمثال قس ابن ساعده ، واكثم بن صيفى ، وأمية بن أبى الصلت .

٢ — بعثـــة الرسول

وقد آثر الرسول العزلة وألف النسك والعبادة ، فكان يذهب إلى غار حراء[٢] يتحنث فيه ويتأمل عجائب الكون ، ويفكر فى البعث والحساب والجنة والنار ، حتى إذا فرغ ما معه من الزاد عاد إلى بيت خديجة فتزود مرة أخرى لمثل ذلك التغيب ؛ ولم يزل كذلك حتى نزل عليه الوحى . وكان أول ما بدىء به من الوحى الرؤيا الصالحة . وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . وبقى الرسول على ذلك ستة أشهر حتى بلغ الأربعين من عمره ، فنزل عليه الوحى يوم الاثنين لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان ، فرأى جبريل الذى ظهر أمامه وقال : اقرأ ! فقال ما أنا بقارىء ، فضمه ضمة قوية حتى بلغ منه الجهد ، وقال له : إقرأ ! فقال : ما أنا بقارىء ، فضمه كذلك ثم أطلقه وقال له فى الثالثة : ﴿ إقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ (سورة العلق ٩٦ : ١ — ٥) . فكانت هذه الآيات أول ما نزل من القرآن .

وسرعان ما عاد الرسول إلى خديجة وهو يرتجف مما أصابه فقال : زملونى : زملونى (أى لفونى فى ثيـاب) ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، وأخبر خديجة

---

(١) أنظر تفسير سورة الضحى من جزء عم للاستاذ الشيخ محمد عبده ص ١١٠ — ١١٢

(٢) بجبل ثور الذى اختفى فيه الرسول وأبو بكر ، وهو على مقربة من مكة . وسمى ثور لأن ثور بن عبد مناة ولدعنده فنسب إليه .

بما رأى وقال : قد خشيت على نفسى (من شـــدة ما لاقاه من الملك) ، فقالت : كلا والله مايخزيك الله أبدا . ثم انطلقت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، وكان شيخا كبيراً يحفظ الانجيل ، فقالت له : يا ابن العم اسمع من ابن أخيك . فأخبره عليه الصلاة والسلام بما رأى ، فقال له ورقة : هـذا الناموس (أى ملك الوحى) الذى نزل على موسى ، ثم قال : ياليتنى كنت فيها جذعا (أى شابا قوياً) إذ يخرجك قومك . فقال الرسول : أو مخرجى هم ؟ فقال ورقة : لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزرا ، ثم لم يلبث ورقة أن توفى .

وعاود الرسول الذهاب إلى غار حراء مدة ، وقد سمع ذات يوم صوتا من السماء ، فرفع إليه بصره ، فإذا الملك الذى جاءه أولا بين السماء والأرض ؛ فرجع إلى داره فقال دثرونى دثرونى ! فنزل قوله تعالى: ﴿ ياأيها المدثر قم فأنذر وربك فـكبر وثيابك فطهر والرُّجْزَ فاهجر ولا تَمْنُنْ تستكثر ولِرَبِّك فاصْبِر ﴾[1] (سورة المدثر ٧٤ : ١ — ٧) وهذا هو بدء دعوته صلى الله عليه وسلم .

فى هذه البيئة التى انتشر فيها ظلام الوثنية بعث الله محمدا برسالة إلى هذا العالم يعلمه الحقيقة الخالدة ، وهى أنه ليس هناك إلا إله واحد ، نبيه محمد ، يدبر ويراقب ويجازى الطيبين والأشرار بعد الموت ، كل بمقدار عمله ، كما دعاهم إلى نبذ عبادة الأصنام والتسليم لإرادة الله .

اعتنق هذا الدين البسيط السامى أول الأمر الأفراد المتصلون بالرسول ، كزوجه خديجة ، وابن عمه على بن أبى طالب ، وكان فى كفالة الرسول ، لأن أبا طالب كان كثير العيال قليل المـال ، فـكفل العباس جعفرا والرسول عليا . وأسلم من الموالى زيد بن حارثة الـكلبى الذى وهبته السـيدة خديجة للرسول ، فأعتقه وتبناه ؛ فـكان يقال له زيد بن محمد إلى أن نزل قوله تعالى

---

(١) وقد قيل أيضاً إن أول من آمن بالرسول من الموالى بلال بن رباح الحبشى مولى أبى بكر ، وآمنت به أيضاً أم بركة الحبشية .

﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم ﴾ ، فدعوه زيد بن حارثة (سورة الأحزاب ٣٣ : ٥) .

ولكن الأمر لم يقتصر على أقاربه ومواليه ، بل تعداهم إلى بعض رجالات قريش ، كأبى بكر الصديق الذى كان من أخلص أصدقاء النبى ، واتصف بصفات قل أن تجمع فى شخص . فقدكان ثرياً عالماً بقريش وأنسابها . وكان لإسلامه أثر كبير ؛ فقد أسلم على يديه خمسة من المسلمين الأولين ، منهم عثمان بن عفان وكان لا يجاوز العشرين ، والزبير بن العوام أحد أقرباء النبى وزوجته خديجة ، وقد بلغ الحلم ، وسعد بن أبى وقاص الذى تم على يديه فتح بلاد الفرس ، وعبد الرحمن بن عوف[١] التاجر الموسر . وكان اسمه عبد عمر فسماه الرسول بهذا الاسم ، وطلحة بن عبيد الله وكان أحد رجال الشورى الستة الذين رشحهم عمر ليختار المسلمون واحداً منهم للخلافة .

وتلا هؤلاء رجال من أفذاذ قريش ، كأبى عبيدة بن الجراح ، والأرقم ابن أبى الأرقم ، الذى اتخذت داره مركزاً للدعوة سراً إلى الإسلام ، ولا تزال بمكة إلى اليوم . وكانت هذه الدار على جبل الصفا يؤمها الحجيج والغرباء . وتعد الفترة التى قضاها الرسول فى هذه الدار فترة هامة فى تاريخ الدعوة إلى الإسلام بمكة ، حتى إن كثيراً من المسلمين يؤرخون دخولهم فى الإسلام من تلك الأيام التى كان الرسول يبث فيها الدعوة بدار الأرقم[٢] .

ولم تقتصر الدعوة على هؤلاء ، بل تلاهم قوم آخرون من بينهم طائفة من الموالى والفقراء . وسميت هذه الدعوة دعوة الأفراد لأن الرسول كان يدعو كلا من هؤلاء على انفراد ، وسموا السابقين الأولين .

---

(١) لما علمت أمه بإسلامه قالت له : والله ، لا يظلنى سقف من الحر والبرد وإن الطعام والشراب على حرام حتى تكفر .

(٢) ابن هشام ج ١ ص ٢٦٥ — ٢٦٧ .

٣ — الجهر بالدعوة — مناوأة قريش

حماية أبي طالب للرسول

استمر الرسول ثلاث سنين يدعو سراً إلى الإسلام كل من يثق فيه ويطمئن إلى استعداده النفسي لقبول دعوته . وكان هو وأصحابه في تلك الفترة يستخفون من قريش في صلاتهم وفي الدعوة إلى هذا الدين . وكان المشركون كلما رأوهم في صلاتهم سخروا منهم ومن عبادتهم ، إذا كثر المسلمون وخافت قريش كثرة عددهم ، قعدت لهم بكل طريق ، تصد الناس عن دعوتهم وتحقر من شأنهم وتستهزىء بهم . ولكن الرسول أمر على رأس ثلاث سنين بالجهر بالدعوة وعدم المبالاة بما نصب له المعارضون المستهزئون ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين ﴾ (سورة الحجر ١٥ : ٩٤) وقال تعالى ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فإن عصوك فقل إني برىء مما تعملون ﴾ (سورة الشعراء ٢٦ : ٢١٤—٢١٦) .

صدع الرسول بأمر ربه وأخذ يفكر فيما يحدث به قريشاً ويستشير ذلك النفر القليل الذي آمنوا به وصدقوه . ثم دعا الرسول بني عبد المطلب إلى طعام صنعه علي بن أبي طالب وتكلم الرسول فقال : يا بني عبد المطلب ! إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به . إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ودعا بطون قريش من فوق جبل الصفا بظاهر مكة .

فلما اجتمعت إليه قال : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا : نعم ! ما جربنا عليك كذباً . فقال ﴿ إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾ ، فقال أبو لهب : تباً لك ، ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله تعالى في أبي لهب وزوجه قوله ﴿ تبّت يدا أبي لهب وتَب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد ﴾[1] (سورة اللهب ١١١ : ١ — ٥) .

---

(١) كان أبو لهب من أعمام الرسول ، ولكنه كان من أشد الناس عداوة له وأحرصهم على إيذائه . وقد يكون السبب في ذلك أنه كان متزوجا بأم حرب بن أمية وأخت أبي سفيان ابن حرب . وكانت هي الأخرى معادية للرسول تسيء إليه بالقول والفعل . فقد روى =

بدأت عداوة قريش بعد ذلك تظهر ظهوراً جلياً ، لأن الرسول لو قصر كلامه على تطهير النفس وإصلاح الأخلاق لما أثارت دعوته شيئاً من المقاومة أو المعارضة التي لقيها . ولكن جهره بالدعوة إلى وحدانية الله ، ودعوته إلى تلك الوحدانية في كل مكان وغضه من شأن الأوثان — كل ذلك جعلهم يخشون القضاء على عبادة الأوثان التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم ، وأيقنوا أن انتصار الدين الجديد معناه تحطيم دين العرب الموروث والعبادة القومية وضياع ما كان يتمتع به سدنة الكعبة المقدسة من ثروة[1] ، فناصبته قريش العداء وأجمعوا على خلافه والوقوف في سبيل دعوته وإيذاء أتباعه ليفتنوهم عن دينهم ، فلم يزدهم ذلك إلا إيماناً .

روى ابن إسحاق عن عبد الله بن عباس أن المشركين كانوا يضربون المسلم ويجيعونه ويعطشونه حتى كان لا يقدر على الجلوس من شدة الضرب ، ليرتد عن دينه ويقول آمنت باللات والعزى ، وكان بعض المسلمين يقول كلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان فراراً من أذاهم . وقد فرق الله تعالى بين هؤلاء وبين من ارتد عن الإيمان وانشرح صدره للكفر بقوله ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ (سورة النحل ١٦ : ١٠٦) .

ويقول ابن الأثير (جـ ٢ ص ١٣٠) إن مشركي قريش كانوا يخرجون عمار ابن ياسر وأباه وأمه إلى الأبطح[2] إذا حميت الرمضاء ويعذبونهم بحرها ، فيمر بهم الرسول فيقول : « صبراً يا آل ياسر موعدكم الجنة » . وكان أبو جهل إذا سمع بإسلام رجل من ذوي الشرف أنبه وقال : « تركت دين أبيك وهو خير

= أنها كانت تجلس في مجتمعات النساء وتقوم بدعاية سيئة ضده وضد ما يدعو إليه . كما روي أنها كانت تطرح الشوك في طريق الرسول إذا سار . وقد سماها القرآن حمالة الحطب . قال البيضاوي : « يعني حطب جهنم ، فإنها كانت تحمل الأوزار بمعاداة الرسول وتحمل زوجها على إيذائه أو النميمة به ، وكانت توقد نار الخصومة أو حزمة الشوك أو الحسك التي تحملها فتنثرها بالليل في طريق رسول الله » . (تفسير البيضاوي — سورة المسد)

(١) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام : ترجمة المؤلف ص ٣٧ .

(٢) هي أرض مستوية بين مكة ومنى .

منك لنسفهن حلمك ، ولنفيلن[1] رأيك ، ولنضعن شرفك » . وإن كان تاجراً قال له . لنكسدن تجارتك ولنهلكن مالك ، وإن كان ضعيفاً ضربه . ولما مات ياسر من العذاب ، أغلظت امرأته سمية القول لأبي جهل فطعنها بحربة فماتت ، وهي أول شهيدة في الإسلام . ثم أمعن المشركون في تعذيب ابنه عمار ، بالحر تارة وبوضع الصخر على صدره تارة أخرى[2] .

وهذا بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي ذاعت شهرته باعتباره أول مؤذن في الإسلام ، ومن أعظم الفقهاء والمحدثين . وهو عبد حبشي وصفه الرسول بأنه أول ثمار الحبشة ، وكان يقاسي أشد ألوان العذاب . وكان خلف الجمحي من مشركي قريش يلقيه في الرمضاء على وجهه وظهره إذا حميت الشمس وقت الظهيرة ، ثم يأمر بالصخرة الكبيرة فتلقى على صدره ويقول له : لاتزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى . وكان ورقة بن نوفل يمر به وهو يقول : أحد أحد ؛ فيقول أحد أحد والله يابلال ، ولم يزل على هذا العذاب حتى اشتراه أبو بكر وأعتقه .

أما خباب بن الأرت فقد عذبه الكفار عذاباً شديداً ، إذ كانوا يوثقون ظهره بالرمضاء ثم بالرضف[3] ، فلم يزده ذلك إلا تمسكا بالإسلام وإخلاصاً له . وقد هاجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشهد معه المشاهد كلها .

ولم يقتصر تعذيب قريش المسلمين على الرجال بل تعداهم إلى النساء . فقد أسلمت لبينة جارية بني مؤمل (وهو حي بني عدي بن كعب) قبل إسلام عمر ابن الخطاب ؛ فكان عمر يمعن في تعذيبها حتى يمل ، ثم يدعها ويقول : إني لم أدعك إلا سآمة ، ولم تزل في هذا العذاب حتى اشتراها أبو بكر وأعتقها[4] .

وقد ضعفت عزائم فئة قليلة بتأثير هذه المحنة ، على حين ساعد هذا الاضطهاد على إذكاء الحماسة الدينية في نفوس فئة أخرى ؛ فقد برهن عبد الله بن مسعود على جرأته حين قرأ القرآن في فناء الكعبة نفسها ، فتعرض له قوم من قريش وجعلوا يضربونه في وجهه ؛ لكنه استمر يتلو القرآن ، ثم عاد إلى رفاقه وأظهر

---

(١) أي لنقبحنه ولنخطئنه . (٢) ابن هشام ج ١ ص ٣٤٢ .

(٣) الحجارة المحماة بالنار . (٤) ابن هشام ج ١ ص ٣٣٩ — ٣٤١ .

استعداده للجهر بالإسلام بمثل هذه الطريقة فى اليوم التالى . ولكن أصحابه أقنعوه بالعدول عن ذلك قائلين : حسبك قد أسمعتهم مايكرهون[1] .

ولم تفعل قريش بالرسول أول الأمر مافعلت بالمستضعفين الذين اتبعوه ، لمكانة عمه أبى طالب وشرفه وجاهه فيهم . وقد عطف أبوطالب على الرسول ومنعه وحماه ، فمضى رسول الله على أمر الله ، مظهراً لدينه ، لايرده عن ذلك شىء . فلما رأت قريش منه الجد فى الدعوة ، وسكوت أبى طالب عنه وعدم نهيه عن ذلك الذى يقول عن آلهتهم وآبائهم ونظمهم ، خشيت أن يتفاقم شره ويعظم أمره ، فمشى رجال من أشرافها إلى أبى طالب فقالوا : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا . فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تخلى بيننا وبينه ، فإنك على مانحن عليه من خلافة ، فنكفيكه . فقال لهم أبوطالب قولا رقيقاً وردهم رداً جميلا فانصرفوا عنه ، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ماهو عليه ، يظهر دين الله ويدعو إليه . ثم اشتد الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال ، ودبت العداوة والبغضاء بين أفراد الأسرة الواحدة . فمشوا إلى أبى طالب مرة أخرى . فقالوا له : يا أبا طالب ! إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لانصبر على هذا ، من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين .

ثم انصرفت قريش عن أبى طالب ، فعظم عليه تحدى قومه له وفراقهم إياه وعدوانهم له : ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله ولاخذلانه ، وبعث إلى الرسول فقال له يا ابن أخى ! إن قومك قد جاءونى فقالوا لى كذا وكذا ، فأبق على وعلى نفسك ، ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق . فظن رسول الله أن عمه يريد أن يخذله ؛ وأنه ضعف عن نصرته والقيام معه ، فقال ياعم ! والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ماتركته ، ثم أستعبر فبكى ، ثم قام . فلما ولى ناداه أبوطالب فقال : أقبل

(١) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٣٧ .

يا ابن أخى ، فأقبل رسول الله ، فقال : اذهب يا ابن أخى قل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً . وبذلك أظهر أبوطالب الجد فى نصرة الرسول .

فلما رأت قريش أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله ، وأنه آثر فراقهم وعداوتهم ، مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له : يا أبا طالب ! هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى[1] فى قريش وأجمله ، فخذه فلك عقله ونصره واتخذه ولداً فهو لك ، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذى قد خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك ، وسفه أحلامهم . فنقتله ، فإنما هو رجل برجل . قال : والله لبئس ماتسوموننى ! أتعطوننى ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم إبنى تقتلونه ؟ هذا والله مالا يكون أبداً . فقال المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف بن قصى : والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكرهه ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً . فقال أبوطالب لمطعم : والله ما أنصفونى ، ولكنك قد أجمعت خذلانى ومظاهرة القوم على ، فاصنع مابدالك . واشتد الجدال وتنابذ الفريقان ، فخرجت قريش من عند أبى طالب وقد أجمعت على التنكيل بمحمد وأتباعه ليحولوا دون انتشار دعوته ، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم ، ومنع الله رسوله منهم بعمه أبوطالب .

قام أبوطالب فى بنى هاشم وبنى المطلب حين رأى صنيع قريش بالمسلمين ، فدعاهم إلى ماهو عليه من منع رسول الله والقيام دونه ، فاجتمعوا إليه وقاموا معه وأجابوه إلى مادعاهم إليه إلا ما كان من أبى لهب[2] .

وقد خشيت قريش أن يستعمل الرسول الحجاج الذين كانوا يفدون على مكة فى الحج ، وتشاوروا فيما بينهم للقضاء على الدعوة الإسلامية وهى لاتزال فى مهدها ، واجتمع إلى الوليد بن المغيرة نفر من قريش قد حضر الموسم . وكان الوليد ذا سن وشرف فقال لهم : يامعشر قريش ! إنه قد حضر الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ويرد قولكم بعضه بعضاً . قالوا : فأنت

---

(١) يعنى أشده وأقواه ، والفرس النهد : هو الغليظ .

(٢) ابن هشام جـ ١ ص ٢٨٢ .

يا أباعبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقل به قال : بل أنتم فقولوا أسمع .. قالوا : نقول كاهن ، قال : والله ماهو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولاسجعه [١]. قالوا : فنقول مجنون ، قال : ماهو بمجنون ، قالوا لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته [٢] . قالوا فنقول شاعر ، قال : ماهو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه [٣] ، فما هو بالشعر ، قالوا : فنقول ساحر . قال : ماهو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم فماهو بنفثهم ولاعقدهم [٤] قالوا : فما نقول يا أباعبد شمس؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناه [٥] ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل . وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا هو ساحر جاء بقول ، هو سحر يفرق بين المرء وأبيه والمرء وأخيه وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته . فتفرقوا عنه وجعلوا يجلسون بسبل [٦] الناس حين قدموا الموسم لايمر أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره [٧] .

وقد روى البيضاوى أن المغيرة مر بالرسول وهو يقرأ سورة السجدة . فأتى قومه وقال : لقد سمعت من محمد آنفاً كلاما ماهو من كلام الإنس والجن . إن له الحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ، فقالت قريش : صبأ الوليد ، فقال ابن أخيه أبوجهل : أنا أكفيكموه . فقعد إليه حزيناً وكلمه بما أحماه فقام فناداهم فقال : تزعمون أن محمداً مجنون ، فهل رأيتموه يخنق . وتقولون إنه كاهن فهل رأيتموه يتكهن ؟

---

(١) زمزمة الكاهن كلام خفى لا يفهم وسجعه أن يجعل الكلامه المنثور نهايات كنهايات الشعر .

(٢) الخنق : الاختناق الذى يصيب المجنون ، والتخالج : اختلاج الأعضاء وتحركها من غير إرادة ، والوسوسة: ما يلقيه الشيطان فى نفس الإنسان .

(٣) هذه كلها أنواع من الشعر .

(٤) هذا إشارة إلى ما كان يفعل الساحر إذا كان يأخذ خيطا فيعقده ثم ينفث عليه ومن ذلك قوله تعالى (ومن شر النفاثات فى العقد) أراد الساحرات .

(٥) العذب : الكثير الشعب والأطراف ، وقوله لجناه : أى فيه ثمر يجنى .

(٦) السبل : طرق الناس واحدها سبيل .

(٧) ابن هشام ج ١ ص ٢٨٣ — ٢٨٤ .

وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعراً ؟ فقالوا : لا ، فقال : ما هو إلا ساحر . أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟ ففرحوا بقوله وتفرقوا عنه متعجبين منه . وقد نعى القرآن ذلك على الوليد بقوله ﴿ ذرنى ومن خلقت وحيداً وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهوداً ومهدت له تمهيداً ثم يطمع أن أزيد كلا إنه كان لآياتنا عنيداً سأرهقه صعوداً ، إنه فكر وقدر فقُتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر ﴾ (سورة المدثر ٧٤ : ١١ — ٢٥) .

يقول ابن هشام (جـ ١ ص ٢٨٦) : « فجعل أولئك النفر يقولون ذلك فى رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن لقوا من الناس وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانتشر ذكره فى بلاد العرب كلها . فلما خشى أبو طالب دهماء العرب (عامتهم وجماعتهم) أن يركبوه مع قومه ، قال قصيدته التى تعوذ فيها بحرم مكة وبمكانه منها وتودد فيها أشراف قومه ، وهو على ذلك يخبرهم وغيرهم فى ذلك من شعره ، إنه غير مسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تاركه لشىء أبداً حتى يهلك دونه » ، فلجئوا إلى تعذيب المسلمين عن طريق السفهاء .

٤ — هجرة المسلمين إلى الحبشة

ولما رأى الرسول ما أصاب أصحابه من البلاء قال لهم : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه » .

ولم يفكر الرسول فى هجرة المسلمين إلى إحدى القبائل العربية ، لأنها كانت ترفض دعوته فى مواسم الحج مجاملة لقريش أو تمسكا بدينها الوثنى . وكذلك لم يفكر فى الهجرة إلى مواطن أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين ، لأن كلا من الجاليتين اليهودية والمسيحية كانت تنازع الأخرى وتنافسها فى النفوذ الأدبى ببلاد العرب ، فهما والحالة هذه لا تقبلان منافساً ثالثاً خصوصاً إذا كان من العرب الذين كانوا يحتقرونهم ويقولون فيهم : « ليس علينا فى الأميين سبيل »[1] . أما اليمن ـ وكانت

---

(١) وقد بدا هذا الشعور واضحاً عند ما هاجر الرسول إلى المدينة إذ ائتمروا به مرات جادلوه غير مخلصين حتى وصل بهم الأمر إلى أن قالوا لقريش « لدينكم أفضل من دينه » .

مستعمرة للفرس الذين لم يدينوا بدين سماوى — فلم يطمئن الرسول إلى الالتجاء إليها . وقد برهنت الأيام على بعد نظره ، فقد كتب كسرى [١] إلى « باذان » عامله على اليمن : « ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين جلدين من عندك فليأتيانى به » .

وكذلك كان شأن الحيرة التى كانت إلى ذلك الحين بعيدة غاية البعد عن مكة . أما الشام فهى بعيدة كذلك ، فضلا عما كان يسودها هى والحيرة إذ ذاك من اضطراب . ولا يخفى استحالة الهجرة إلى مكان قصى كالحيرة والشام على أولئك اللاجئين الذين كانوا يخرجون من مكة فقراء مستخفين من قريش لئلا تحول بينهم وبين الخروج ، ثم إن كلا من الشام واليمن والحيرة كانت أسواقاً هامة لتجارة قريش . وكان لقريش بكل منها صلات وثيقة ومصالح متبادلة وزيارات فى أوقات منتظمة . فإذا علمت هذه القبيلة بوجودهم فى بلد منها ، طلبت إلى أهل ذلك البلد أن يردوهم إليها ويخرجوهم منها ، كما حاولت ذلك مع النجاشى لولا تسامحه وقوة خلقه .

لذلك اتجه الرسول إلى بلاد الحبشة لما كان يعرف فى ملكها من العدل والتسامح . وفى ذلك يقول الرسول للمسلمين: « فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق » . وقد هاجر عشرة رجال وأربع نسوة ، ثم زاد عددهم حتى بلغ ثلاثة وثمانين رجلا وسبع عشر امرأة سوى الصبيان ، وكلهم من بطون قريش . وكان فيهم عثمان بن عفان : وزوجه رقية بنت الرسول، والزبير بن العوام، وعبد الله بن عوف ، وجعفر بن أبى طالب وامرأته أسماء بنت عميس ، وعمرو بن سعيد بن العاص بن أمية ، وأخوه خالد بن سعيد بن العاص . وقد أكرمهم النجاشى وأمنهم على حياتهم وأصبحوا فى رغد من العيش .

« فلما رأى قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد آمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة وأنهم قد أصابوا بها داراً وقراراً ، ائتمروا فيما بينهم على أن يبعثوا منهم رجلين جلدين إلى النجاشى ليخرجهم من بلاده ، فبعثوا عبد الله بن

(١) كان ذلك عند ما وصل إليه كتاب الرسول يدعوه إلى الإسلام وترك المجوسية ، فغضب ومزق الكتاب وأهان حامله ، وكتب إلى باذان ليحمل إليه هذا النبى على ما سيأتى فى دعوى عمومية الرسالة .

أبى ربيعة وعمرو بن العاص . ويقال إنه كان معهما معاوية بن أبى سفيان والمغيرة بن شعبة . .

سار عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص إلى النجاشى ومعهما الهدايا ، وطلبا مقابلته ثم قالا له : « أيها الملك ! إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت . وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم عليهم ، فهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم ، وعاتبوهم فيه » . فقالت بطارقة النجاشى : أيها الملك ! قومهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم » .

وكان النجاشى بعيد النظر ، فطلب هؤلاء المهاجرين وسألهم عن حقيقة دينهم ، فتقدم جعفر بن أبى طالب ووصف له حالة العرب قبل الإسلام وبعده ، وشرح له أن دعوة الرسول ترمى إلى ترك الأوثان وعبادة الله والتخلق بمكارم الأخلاق ، فقال له النجاشى : هل معك مما جاء به عن الله شىء ؟ فقال جعفر : نعم ! قال : فاقرأه على ، فقرأ جعفر عليه صدراً من كهيعص (سورة مريم وفيها حديث ميلاد المسيح) . فبكى النجاشى حتى أخضلت لحيته ، وبكى أساقفته حتى أبلت مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم ، ثم قال النجاشى : إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مسكاة واحدة ، انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما [١] .

ولما خرجا قال عمرو بن العاص : « والله لآتينه غداً عنهم بما استأصل به خضراءهم [٢] ، ولأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد » ، وطلب مقابلة النجاشى من الغد وقال له : « أيها الملك إنهم يقولون فى عيسى بن مريم قولا عظيما ، فأرسل إليهم وسألهم عما يقولون فيه » . فلما دخلوا عليه قال لهم : ماذا تقولون فى عيسى بن مريم ؟ فقال جعفر بن أبى طالب : نقول فيه الذى جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول ، فقال النجاشى : والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت ،

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ — ٣٦٠ .

(٢) يعنى جماعتهم ومعظمهم .

ثم قال : اذهبوا فأنتم شيوم (آمنون) بأرضى . من سبكم غرم (أى عاقبناه) ، فانصرفوا ، ورجع بعضهم إلى مكة قبل هجرة الرسول إلى المدينة ، وأقام بعضهم فى الحبشة إلى السنة السابعة للهجرة .

ولما رأت قريش أن مكايدهم التى دبروها للرسول قد أخفقت ، أجمعوا أمرهم على مقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب ، وعاهدوا أنفسهم على أن لايتعاملوا مع هذين البيتين ، فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم من أنفسهم . ولا يتجرون معهم حتى يسلموا إليهم رسول الله ليقتلوه . وكتبوا بذلك صحيفة علقوها فى جوف الكعبة ، فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً ، حتى جهدوا لايصل إليهم شىء إلا سراً مستخفياً ممن أراد صلتهم من قريش .

وهكذا ظل بنو هاشم مهجورين فى شعب من شعاب مكة ، إلا فى الأشهر الحرم حيث حرم القتال فى كافة أنحاء بلاد العرب ، وعقد حلف بين الفريقين حتى يتمكن الحجيج من زيارة الكعبة المكرمه التى كانت تعد مركز ديانة العرب فى ذلك الحين .

وقد رثى بعض القرشيين لحال بنى هاشم وبنى المطلب وتعاقدوا على نقض الصحيفة وإخراجهم من الشعب ، وكان من بينهم زهير بن أمية بن عاتكة عمة الرسول ، فقد حرض قومه على الخروج على الصحيفة وقال لهم : يا أهل مكة ! أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكى لايبيعون ولايبتاعون ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة القاطعة » . فعارضه أبو جهل ، فقام المطعم بن عدى — وكان من بيت نوفل بن عبد مناف — إلى الصحيفة فشقها ، وبذلك نقضوا هذه الصحيفة ، فعاد بنو هاشم والمطلب إلى مساكنهم بعد ماذاقوه من العذاب[1] .

٥ — الهجرة إلى يثرب

كان الرسول فى ذلك الوقت يجد فى نشر الدعوة الإسلامية ، وكان أهل بيته مسلمهم وكافرهم ينصرونه ، على الرغم مما لاقوه من الشدائد والأهوال . وماوافت

(١) ابن هشام ج ١ ص ٣٦٠ ، ٣٧٢ ، ٣٧٥ ، ٣٩٧ — ٣٩٩ .

السنة العاشرة من نزول الوحي حتى أصيب الرسول بوفاة عمه وحاميه أبي طالب ، وقد مات على الكفر برغم تصديقه لرسول الله ونصرته إياه ، مخافة العار وخشية المسبة لترك ما كان عليه آباؤه .

ثم ماتت خديجة بعد أبي طالب . وكان موتهما قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين ، وفقد الرسول بذلك نصيرين كبيرين ، وأصبح بقاؤه في مكة محفوفاً بالمخاطر. يقول أبو الفدا (١) . وتتابعت على الرسول صلى الله عليه وسلم بموتهما المصائب ونالت منه قريش ، خصوصاً أبو لهب بن عبد المطلب ، والحكم بن العاص ، وعقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية ، فإنهم كانوا جيران النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانوا يؤذونه بما يلقون عليه من الأقذار وقت صلاته وطعامه .

ولما اشتد أذى قريش لرسول الله بعد وفاة عمه ، عزم على التماس قوم آخرين يكونون أكثر استعداداً لقبول دعوته ، ويستطيع أن يجد في بلدهم تربة أشد خصباً وصلاحية ؛ فانطلق إلى مدينة الطائف ودعا فريقاً من أشرافها إلى وحدانية الله . ولكنه لم يلق منهم أذناً مصغية ، بل قابلوا دعوته بالاستهزاء « وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس وألجئوه إلى حائط « بستان » . فعاد إلى مكة ولم يتمكن من دخولها ، وتجلت مرارة نفسه في تلك الآيات التي جاءت على لسان نوح ﴿ قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهاراً فلم يزدهم دعائي إلا فراراً وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ﴾ (سورة نوح ٧١ : ٢ — ٧) . فطلب الرسول حماية المطعم بن عدي ، فتسلح مع بنيه ، ودخلوا مع الرسول الحرم حيث طاف وصلى ولم يصبه أحد بسوء .

ثم عاود الرسول نشر الإسلام بين أهل مكة . وكان كل اعتماده في نشر الدعوة في موسم الحج ؛ فكان يعرض نفسه على القبائل ويدعوهم إلى الله وعمه أبو لهب ينادي : « إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه » . وكان بعض الحجاج يرفض دعوته وبعضهم الآخر يرد عليه رداً قبيحاً .

---

(١) المختصر ج ١ ص ١٢٠ ، ١٢٢ — ١٢٣ .

فى ذلك الوقت أسرى برسول الله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهو بيت المقدس ، حيث عرج به إلى السموات السبع . يقول الله تعالى : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾ (سورة بنى إسرائيل ١٧ : ١) وفى تلك الليلة فرض الله على الرسول الصلوات الخمس[1] .

(ا) ترحيب أهل يثرب بدعوة الرسول :

وجدت دعوة الرسول بيئة صالحة فى أهل يثرب ، الذين وصل إلى علمهم ما كان بين المسلمين وكفار قريش فى مكة من نزاع أدى إلى هجرة جماعة من المسلمين ونجاتهم بعقيدتهم إلى بلاد الحبشة ، كما علموا بإسلام رجال من بطون قريش المختلفة ومن القبائل الأخرى . كما علم غيرهم من العرب بذلك ، وهم على اتصال بمكة عن طريق الذين كانوا يفدون من أهلها على مكة للحج ، وعلى الأخص عن طريق ذلك الوفد الذى أرسلته الأوس فى السنة العاشرة من البعثة يلتمس من قريش الحلف على قومهم من الخزرج ، وانتهز الرسول فرصة وجودهم ، ودعاهم إلى الإسلام ، فأسلم بعضهم وأعرض بعضهم الآخر[2] .

وكان أهل يثرب من الأوس والخزرج شعباً قوياً صلب العود . ولا غرو فقد برهنوا على شدة بطشهم وقوة بأسهم فى تلك الحروب التى لم تهدأ ثائرتها ولم تنطفىء نارها بينهم . وقد أقام بها اليهود من بنى قريظة وبنى النضير زمناً طويلا . ولا يبعد أن يكونوا قد نزحوا من بلادهم على أثر هذه الكارثة التى نزلت بهم باضطهاد أدريان Hadrian لهم . وفى ذلك الوقت وصلت إلى يثرب طائفة من البدو المهاجرين ، وهم الأوس والخزرج من قبائل عرب الجنوب ، وسمح لهما بالإقامة فى رقعة من هذه المنطقة . ولما تكاثر عددهم أخذ تعديهم على سلطة الحكام اليهود يزداد شيئاً فشيئاً ، حتى استطاعوا آخر الأمر أن ينقلوا زمام الحكم كله إلى أيديهم ، وذلك فى نهاية القرن الخامس الميلادى ، كما أقام اليهود أيضاً فى فدك وتيماء وفى وادى القرى وخيبر .

---

(١) راجع الاسراء والمعراج فى سيره ابن هشام ج ٢ ص ٣ — ١٥ .

(٢) ابن الأثير ج ٢ ص ٣٥ .

وكانت هناك صلات وثيقة بين هؤلاء اليهود فى يثرب وبين من جاورهم من الأوس والخزرج ، حتى إنهم ألفوا أفكار اليهود الدينية ومرنوا على استساغة الكثير منها. وفى الحق أنه كان لوجود أديان سماوية فى يثرب ، لها كتب منزلة من عند الله ، كاليهودية فيها ذكر للوحى ووحدانية الله ، ثم عظمته وقدرته الشاملة ، والبعث والحساب وما بعدهما من جنة ونار وغير ذلك — كان لهذا كله من الأثر ما أضعف الوثنية فى نفوس العرب النازلين بيثرب وجعلهم أقدر على فهم دعوة نبوة محمد من أهل مكة الوثنيين . فقد كانت مثل هذه الفكرة غريبة عليهم كل الغرابة مبغضة إلى نفوس القرشيين منهم خاصة[1] .

وقد عرف أهل يثرب عند ما رأوا محمداً وتعاليمه مبلغ الشبه بينه وبين من توعدهم به اليهود ، فبادروا إلى تصديقه حتى لا يسبقهم هؤلاء اليهود إلى اتباعه ، فيقتلوهم قتل عاد وإرم[2] . لهذا لا نعجب إذا رأينا أهل يثرب أكثر تحمساً للإسلام .

ولعل حالة المجتمع فى يثرب كانت تدعو إلى انتهاز مثل هذه الفرصة ، إذ وجد أهلها فى هذا الدين ما يوحد كلمتهم ويجمع شملهم ويقضى على ما بينهم من تنازع وبغضاء . كما وجدوا فى شخصية الرسول بغيتهم المنشودة ، إذ عرفوه رجلا من أكرم بيوتات قريش وساداتها ، ثم هو ابن آمنة من بنى النجار أحد بطون الخزرج . ومع ذلك فهو نبى يستطيعون أن يطاولوا اليهود بما ينزل عليه من وحى . فهو الذى يستطيع أن يجمع الأوس والخزرج تحت لوائه ، وكانوا أحوج إلى ذلك بعد يوم بُعاث الذى كان النصر فيه للأوس . ولعل انهزام الخزرج

---

(١) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمه ص ٤٢ .

(٢) ذكر ابن هشام (ج ٢ ص ٣٨) عن رجال من الأنصار قالوا : إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهداه لما كنا نسمع من رجال يهود : كنا أهل شرك أصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا . وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور ، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : إنه تقارب زمان نبى يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم . فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم . فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم أجبناه حتى دعانا إلى الله وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به ، فبادرناهم إليه فآمنا به . ففينا وفيهم نزلت الآيات « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدقاً لما معهم ، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » (سورة البقرة ٢ : ٨٩) .

يوم بعاث قد جعلهم أكثر استعداداً لقبول الدين الإسلامى ، حتى كانوا أسبق إليه من بنى عمهم الأوس .

فنى الموسم التالى ليوم بعاث ، أقبل جماعة من الخزرج للحج ، فيهم ستة من ساداتهم ، وكانوا ينشدون حليفاً لتوحيد كلمتهم مع الأوس أو للتغلب عليهم ، إذ كان كل منهما يريد أن تكون له الرياسة ، فلقيهم الرسول عند العقبة[1] ، فسمعوا لدعوته وأجابوا .

(ب) بيعتا العقبة :

يقول ابن هشام (ج ٢ ص ٣٨) : فبينما الرسول عند العقبة ، لقى رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً . ولما لقيهم رسول الله قال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج ، قال من موالى يهود ، قالوا : نعم ، قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى ، فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم شيئاً من القرآن . فلما كلم رسول الله أولئك النفر ودعاهم إلى الله — وكانوا إذ ذاك متأثرين بما سمعوا من اليهود — قال بعضهم لبعض : ياقوم ! تعلموا والله ، أنه للنبي الذى توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه . فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا له : إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله بك ، وسنقدم عليهم ، فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك . ثم انصرفوا عن رسول الله راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا ، وكانوا ستة من الخزرج . فلما قدموا المدينة إلى قومهم ، ذكروا لهم رسول الله ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم . فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ، وذلك بفضل استعداد هذه المدينة لقبول الدعوة ، وما أبداه هؤلاء الدعاة من حماسة وغيرة فى تأدية رسالتهم .

ولما حل الموسم التالى ، وافى مكة (فى السنة الثانية عشرة من البعثة) اثنا عشر رجلا من أهل يثرب ، لقوا الرسول بالعقبة وبايعوه فى تلك الليلة . وقد سميت تلك

(١) منزل فى طريق مكة على مقربة من منى بعد واقصة وقبل القاع لمن يريد مكة . وهو ماء لبنى عكرمة من بكر بن وائل

للبيعة (بيعة النساء) و (بيعة العقبة الأولى) : قال عبادة بن الصامت : كنت فيمن حضر العقبة الأولى ، وكنا اثنى عشر رجلا ، فبايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء ، وذلك قبـــل أن يفرض علينا الحرب ، على ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ونأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى مكروه . فإن وافيتم فلكم الجنة ، وإن غشيتم من ذلك فأمركم إلى الله عز وجل ، إن شاء غفر وإن شاء عذب » . ولعل هذه الغزوة سميت بيعة النساء ، لوجود عفراء بنت عبيد بن ثعلبة بها ، وهى أول امرأة بايعت الرسول .

وقد أرسل الرسول مع أهل يثرب مصعب بن عُمَيْر يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويؤمهم فى المسجد ، وكان يسمى المقرىء »[1] .

اجتمع مصعب برسول الله بالعقبة بعد الحج ، وقد عاد أخيراً من الحبشة واتخذ دار أسعد بن زُرارة مقاماً له . وكان يجمع المسلمين للصلاة وقراءة القرآن فى تلك الدار أحياناً وأحياناً أخرى فى دار بنى ظُفر فى حى من أحياء يثرب حيث كانت تقيم فى هذه الأسرة مع أسرة بنى عبد الأشهل .

وكان سعد بن مُعاذ وأسيد بن حُضير شيخى بنى عبد الأشهل فى ذلك الحين . وقد حدث ذات يوم أن كان مصعب جالساً مع أسيد فى دار بنى ظفر ، وكانا مشغولين بنشر تعاليم الدين بين من دخلوا فيه حديثاً ، إذ قدم عليهم سعد بن معاذ ليعرف مكانهم ، وقال لأسيد بن خضير : « لا أبالك ، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارنا ليسفها ضعفاءنا ، فازجرهما وانههما أن يأتيا دارنا ، فإنه لولا أسيد بن زرارة منى حيث قد علمت ، لكفيتك » (وكان سعد بن معاذ ابن خالة أسيد) . عندئذ تناول أسيد حربته وانطلق إلى أسعد ومصعب ثم صاح بهما : « ما جاء بكما إلينا ؟ أتسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا إن كانت لكما فى نفسيكما حاجة » . فأجاب مصعب فى هدوء : « أو تجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهت فكف عنه » . فركز أسيد حربته فى الأرض وجلس

---

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٣٣ — ٣٤ . ابن سعد ج ٢ ص ٨٢ .

إليهما يسمع ومصعب يشرح له مبادىء الإسلام الأساسية ويقرأ بعض آيات القرآن ، ويصاح به مأخوذاً : « كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين ؟ » فأجاب مصعب ، تغتسل فتطهر ثوبك ، ثم تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فاستجاب أسيد لساعته وردد شهادة الإسلام ثم قال : « إن ورائى رجلا (يشير إلى سعد بن معاذ) إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ، وسأرسله إليكما الآن » .

عند ذلك انصرف أسيد ، وما لبث أن جاء سعد بن معاذ نفسه ثائراً غضباً على أسيد لما قدمه لدعاة الإسلام من تأييد ؛ فرجا منه مصعب ألا يحكم على الدين قبل أن ينظر فيه . عندئذ رضى أن يصغى إلى كلام مصعب ، وسرعان ما أثر فيه وحمل الإقناع إلى قلبه ، فدخل فى الدين وأصبح من المسلمين ، ثم رجع إلى قومه يلتهب حماسة وقال لهم : يابنى عبد الأشهل ! كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ فقالوا : « سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبة » ، فقال سعد : « فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله » . ومنذ ذلك اليوم أسلم كل آل عبد الأشهل[1] . وسرعان ما أصبحت الرياسة إليه على الأوس والخزرج جميعاً ، وأسلم كثير من أهل يثرب ، حتى لم يبق دار من دورها إلا فيها مسلمون ومسلمات .

وما أن وافى موسم الحج التالى (فى السنة الثالثة عشر من البعثة) ، حتى خرج من يثرب ثلاثة وسبعون شخصاً من المسلمين الذين أسلموا حديثاً قاصدين مكة ، وقد عزموا على أن يدعوا النبى للهجرة إلى يثرب ويبايعوه على أنه نبيهم وزعيمهم .

وكان يرافقهم شيخهم مصعب بن عمير ، الذى بادر على أثر وصوله بزيارة النبى وأخبره بما أصابه من نجاح فى نشر الدعوة إلى الإسلام . ويقال إن أمه لما سمعت بقدمه ، بعثت إليه تقول : « ياعاق ، أتقدم بلداً أنا فيه لاتبدأ بى ؟ فقال : ما كنت لأبدأ بأحد قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما سلم على

(١) ابن اسحاق ص ٢٩١ وما يليها . أنظر أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٣١ — ٣٢ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بما أخبره ، ذهب إلى أمه فقالت : إنك لعلى ما أنت عليه من الصبأة بعد ، قال : أنا على دين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الإسلام ، الذى رضى الله لنفسه ولرسوله . قالت : ماشكرت ما رثيتك مرة بأرض الحبشة ومرة بيثرب ، فقال : أفر بدينى أن تفتنونى ، فأرادت حبسه ، فقال : لئن حبستنى لأحرضن على قتل من يتعرض لى ، قالت : فاذهب لشأنك وجعلت تبكى ، فقال مصعب : يا أمه إنى لك ناصح عليك شفيق ، فاشهدى أنه لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، قالت : والثواقب (النجوم) لا أدخل فى دينك ، فيزرى بى ويضعف عقلى ، ولكنى أدعك وما أنت عليه وأقيم على دينى [1] .

اجتمع هؤلاء اليثربيون برسول الله فى العقبة بعد أداء الحج . وكان معه عمه العباس ، وكان لايزال على الشرك . « فلما جلس ، كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب ، فقال : يا معشر الخزرج ! إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه . فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده ؛ وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم . فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ؛ وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ؛ فمن الآن فدعوه ، فإنه فى عز ومنعة فى قومه وبلده » [2] . فقلنا له : فقد سمعنا ما قلت . فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت ، فتكلم رسول الله فتلى القرآن ودعا إلى الله ورغب فى الإسلام ؛ ثم قال : أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ، فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم ، والذى بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أزرنا [3] ، فبايعنا يارسول الله فنحن والله أهل الحروب وأهل الحلقة [4] ، ورثناها كابراً عن كابر ، فاعترض القول ــ والبراء يكلم رسول الله ــ أبو الهيثم بن

---

(١) ابن اسحاق ص ٢٩١ وما يليها . انظر ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ، ص ٤٤ — ٤٥ .

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ٤٩ — ٥٠ . الطبرى ج ٢ ص ٢٣٨ — ٢٣٩ .

(٣) أزرنا : نساءنا ، والمرأة يكنى عنها بالآزار .

(٤) الحلقة : السلاح عامة ، وقيل الدروع خاصة .

التيهان ؟ فقال : يارسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : بل الدم الدم والهدم الهدم (١) ، أنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » .

وقد طلب الرسول منهم أن ينتخبوا من بينهم إثنى عشر نقيباً ليكونوا رؤساء عليهم ، فانتخبوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس . وقال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصارى موجهاً كلامه إلى الخزرج : هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا نعم ! قال: فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه ، فمن الآن فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهلكة الأموال وقتل الأشراف ، فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة ، قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف فما لنا بذلك يارسول الله إن نحن وفينا ؟ قال : الجنة . قالوا : ابسط يدك ، فبسط يده فبايعوه . فأما عاصم بن عمر بن قتادة فقال : والله ماقال ذلك العباس إلا ليشد العقل لرسول الله فى أعناقهم ، وأما عبد الله بن أبى بكر فقال: ماقال ذلك العباس إلا ليؤخر القوم تلك الليلة رجاء أن يحضرها عبد الله ابن أُبى ابن سلول فيكون أقوى لأمر القوم (٢) .

ولما وصل نبأ تحالف الرسول مع أهل يثرب تآمروا على اغتياله ، واجتمعوا فى دار الندوة للتشاور فى هذا الأمر الخطير . فأشار بعضهم بحبسه ، وبعضهم بقتله . وانتهى بهم الرأى إلى أن يأخذ من كل قبيلة فتى جلد ، وأن يعطى كل منهم سيفاً صارماً فيضربوه ضربة رجل واحد ، وبذلك يتفرق دمه فى القبائل فلا يستطيع بنو عبد مناف أن يحاربوا العرب جميعاً (٣) . فنزل على الرسول قوله تعالى : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ (سورة الأنفال ٨ : ٣٠) .

ذهب الرسول الى صاحبه أبى بكر وأطلعه على ما أخبره الله به من تآمر قريش

---

(١) معنى ذلك أن ذمة الرسول ذمتهم وحرمته حرمتهم .

(٢) ابن هشام ج ٢ ص ٥٥ (٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٩٢ — ٩٥ .

به ، وقال له : إن الله قد أمرني بالهجرة ، فطلب منه أبو بكر أن يصحبه وخرج الإثنان من باب صغير خلف دار أبي بكر ، وأمر الرسول علي بن أبي طالب أن يبيت في مكانه تلك الليلة ، ثم جاء القوم ووقفوا على باب بيت الرسول .

يقول ابن هشام (ج ٢ ص ٩٨ — ١٠٠) : فلما اجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج ، أتى أبي بكر بن أبي قحافة ، فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته ، ثم عمد إلى غار بجبل ثور بأسفل مكة فدخلاه . وأمر أبو بكر ابنه عبد الله ابن أبي بكر أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر ، وأمر عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليهما ، يأتيهما إذا أمسى في الغار . وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما » .

وخشي الرسول وأبو بكر أن يلحقهما أذى قريش ، إلا أنهما تذرعا بالصبر . وإلى ذلك يشير القرآن الكريم في سورة التوبة (٩ : ٤٠) ﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم ﴾ .

ولما خرج الرسول من مكة مهاجراً إلى يثرب جعلت قريش مائة ناقة مكافأة لمن يدلهم عليه أو يأتي به .

وقد وصف جغرافيو العرب الأرض التي بين مكة والمدينة بأنها وعرة موحشة لايصادف فيها المسافر مايخفف عنه عناء السفر من زرع وماء . ويتخللها طريقان : أحدهما شرقي محاذ لبلاد نجد ، والآخر غربي محاذ لساحل البحر الأحمر . وقد اختار الدليل الطريق الثاني . بيد أنه لم يسلك جادة هذا الطريق المألوفة تماماً ، بل كان يلتوى هنا وهناك تفادياً من أن يلحقهم من يقفوا أثرهم من القرشيين ممن كان يطمع في الحصول على الجائزة التي قررتها قريش لمن يأتي بالرسول .

وقد وصف ابن هشام (ج ١ ص ١٠٤ — ١٠٨) الطريق الذي سلكه الرسول وصحبه من جبل ثور إلى المدينة ، فقال إن عبد الله بن أريقط سلك بهما

أسفل مكة ، ثم مضى بهما إلى الساحل حتى عارض الطريق أسفل عسفان[١]، وتبعد عن مكة بستة وثلاثين ميلا . ثم سلك بهما الدليل على أسفل أمج ، ثم استجاز بهما الدليل حتى عارض الطريق بعد أن جاوز قديد ، ثم سلك الخرار[٢] ، وهو واد يقع فى نحو منتصف الطريق بين مكة والمدينة . ثم أخذ بهما الجداجد[٣] وتقع فى أرض مستوية صلبة ، ثم هبط بهما العرج[٤] . ثم هبط وادى العقيق الذى يؤدى إلى المدينة ، وقدم بهما قباء على عمرو بن عوف يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ، فأقام بها أربعة أيام ومعه أبو بكر ، وأسس مسجده فى هذه الأيام الأربعة . وبينما هما بقباء لحق بهما على بن أبى طالب بعد ما رد الودائع التى كانت عند الرسول لأصحابها من أهل مكة . وهكذا غادر الرسول مكة متحملا كل ألم فى سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه .

خرج الرسول من قباء يوم الجمعة ميمما شطر يثرب . فلما أدركته الصلاة فى الطريق صلى بالناس الجمعة لأول مرة ، ثم تابع سيره إلى يثرب فوصل إليها فى ١٦ ربيع الأول (٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ م)[٥] .

٦ — نشأة حكومة نظامية فى المدينة :

أصبحت يثرب بعد هجرة الرسول إليها معقل الإسلام وملجأ جماعة المسلمين ، وغدت تعرف باسم مدينة النبى ، وتسمى اليوم المدينة والمدينة المنورة لوجود قبر الرسول بها[٦] .

---

(١) بضم أوله وسكون ثانيه ثم فاء وآخره نون وهى قرية صغيرة قريبة من ساحل البحر الأحمر على حد تهامة على طريق المدينـة ، يكثر بها النخيل والمزارع ، وسميت عسفان لتعسف الطريق ، ويسمى الطريق بين عسفان وملل الساحل .

(٢) بفتح الخاء وتشديد الراء : موضع بالحجاز قرب الجحفة . معجم ما استعجم للبكرى ج ٢ ص ٤٩٢ .

(٣) جمع جدجد وهى الأرض المستوية الصلبة ، ويجوز أن يكون جمع جدجد وهى البئر القديمة . ويظن ياقوت أنها آبار قديمة .

(٤) بفتح أوله وسكون ثانيه وجيم : منزل بطريق مكة على طريق الحاج .

(٥) الطبرى ج ٢ ص ٢٥٥ .

(٦) وقد ذكر ياقوت تسعة وعشرين اسماً . منها المدينة ، وطيبة (لطيب هوائها) ، والمحببة ، والمحبوبة ، ويثرب ، والناجية ، والمباركة ، والعاصمة ، والشافية .

وقد اتخذ المسلمون السنة التى هاجر فيها الرسول من مكة إلى المدينة مبدأ للتاريخ عندهم ، نسبة إلى هذا الحادث العظيم ، وكانوا يؤرخون الحوادث قبل ذلك بعام الفيل .

وأصبح بالمدينة فى ذلك الوقت ثلاثة أصناف من السكان .

الأول : المهاجرون وهم الذين هاجروا فراراً بدينهم من مكة إلى المدينة .

الثانى : الأنصار وهم الذين دخلوا الإسلام من سكان المدينة الأصليين وهم الأوس والخزرج ، وسموا بذلك لأنهم نصروا النبى على قريش .

الثالث : اليهود ، وقد انتهى بهم الأمر إلى الخروج تدريجياً من جزيرة العرب .

وقد استطاع الرسول أن ينشر دينه بين أهل المدينة ، وأن يجد من بينهم أتباعا كثيرين فى فترة قصيرة ، كما استطاع أن يصلح ذات بينهم ، ويوطد السلم بين عشائرهم ، ويعقد حلفاً بين المسلمين من مهاجرين وأنصار ، وبين اليهود . وقد أورد لنا ابن هشام (ج ٢ ص ١١٩ — ١٢٣) صورة هذا الحلف الذى هو موادعة ومسالمة ليهود المدينة ، وإقرار لهم على دينهم وأموالهم ، جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم » ، هذا كتاب من محمد النبى (صلى الله عليه وسلم) بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على ربعتهم[1] يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم (أسيرهم) بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون مُعاقلهم الأولى . وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه . وإن المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة (عطية) ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وإن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم . ولا يقتل مؤمناً فى كافر ولا ينصر كافرا على مؤمن . وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس ، وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصر

---

(١) بفتح الراء وسكون الباء أى حالهم التى جاء الإسلام وهم عليها من أحكام الديات والدماء .

عليهم ، وإن سلم المؤمنين واحدة لا يُسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم ، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا ، وإن المؤمنين يبيء (يمنع ويكف) بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله ، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه ، وإنه لا يجير مشرك[1] مالا لقريش ولا نفسا ، ولا يحول دونه على مؤمن . وإنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينه فإنه قود به[2] إلا أن يرضى ولى المقتول . وإن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه ، وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا[3] ولا يؤويه ، وإنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة . .. وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد (صلى الله عليه وسلم). وإنه لا يحوز على ثأر جرح ، وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم . ... وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وإن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره ، وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها وإن من بينهم النصر على من دهم يثرب . وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين على أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم . . . » .

وإن الناظر إلى هذا الحلف ليرى أن الرسول :

١ — استطاع أن يوحد بين جميع المسلمين على اختلاف شعوبهم وقبائلهم وأن يجعل منهم أمة واحدة ألف الإسلام بين قلوب أفرادها المتباينة .

٢ — أوجد التعاون والتضامن بين أفراد تلك الجماعة على أساس أن الزمالة فى الدين مقدمة على غيرها من الصلات حتى صلة القرابة .

٣ — ذكر أن للجماعة من حيث كونها جماعة ذات شخصية دينية وسياسية حقوقا على الأفراد ، أظهرها السهر على الأمن والضرب على يد المفسد .

---

(١) لعله يقصد من دخلوا فى الحلف من مشركى المدينة .

(٢) أى مأخوذ به قصاصا :

(٣) المحدث الذى يجنى جناية .

٤ — شرط لجماعة اليهود المساواة مع المسلمين فى المصلحة العامة ، وفتح الطريق للراغبين فى الإسلام ، وكفل لهم التمتع بما للمسلمين من حقوق .

ولم يرد لهذا الكتاب ذكر إلا فى سيرة ابن هشام .

استطاع الرسول أن يجعل نفسه فى المدينة على رأس جماعة من أتباعه كبيرة العدد آخذة فى النمو ، يتطلعون إليه زعيما وقائداً ، ولا يعترفون بسلطان غير سلطانه ، دون إثارة أى شعور من القلق أو خوف من التعدى على السلطة المعترف بها ... وهكذا باشر الرسول سلطة زمنية كالتى كان يمكن أن يباشرها أى زعيم آخر مستقل ، مع فارق واحد ، وهو أن الرباط الدينى بين المسلمين يقوم مقام رابطة الأسرة والدم .

وعلى هذه الصورة أصبح الإسلام ، ولو من الوجهة النظرية على الأقل — كما كان دائماً — نظاماً سياسياً بقدر ما هو نظام دينى .

كان أول شيء اتجه إليه نظر الرسول حين وصل إلى المدينة العمل على إقامة شعائر دينه الجديد ، فبنى مسجده الذى دفن فيه . وكان المسلمون يجتمعون فى المسجد للصلاة لاينادى بها أحد فيهم ، فتكلموا يوماً فى ذلك القتال فقال بعضهم : اتخذوا ناقوساً مثل ناقوس النصارى ، وقال بعضهم : اتخذوا قرناً (بوقاً) مثل قرن اليهود ، فقال عمر : أولا تبعثون رجلا ينادى بالصلاة ؟ فقال الرسول يابلال ! قم فناد بالصلاة . وإذا جاء وقت الصلاة يقول بلال : الصلاة جامعة . وكان من المنادين عبد الله بن زيد بن ثعلبة الأنصارى . فبينما هو بين اليقظان والنائم ، يرى شخصاً يلقنه الأذان ، فحضر إلى الرسول وقص عليه ما رأى ، فقال له : إنها لرؤيا حق ، لقن ذلك بلالا فإنه أندى صوتاً . ولما أذن بلال ، حسر عمر يجر رداءه فقال : والله لقد رأيت مثله يا رسول الله[1] .

ولم يكد الرسول يفرغ من بناء المسجد حتى أخذ يبث الدين فى نفوس

---

(١) اختلف الفقهاء فى الطريق الذى ثبت به الأذان ، فقال بعضهم إنما ثبت عن طريق الوحى . وقال آخرون إنه ثبت عن طريق الرؤيا التى رآها عبد الله بن زيد . ونحن نميل إلى الأخذ بالرأى الثانى ، فقد وقع فيما رواه عبد الرازق ، وأبو داود ، فى المرسل عن طريق عبيد بن عمر الليثى أحد كبار التابعين أن عمر لما رأى الأذان جاء يخبر الرسول فقال له : قد سبقك بذلك الوحى (جامع الترمذى ، طبعة الهند سنة ١٩١٠ هـ ص ٢٦) .

أصدقائه وأتباعه . ومن ثم سمى هذا الدين « الإسلام » لما فيه من الانقياد والخضوع المطلق لإرادة الله تعالى ، والذين يدينون به يسمون المسلمين أى الذين يخضعون لأمر الله ورسوله . وأمر الرسول بإقامة الصلاة خمس مرات فى اليوم ، كما أمر بصوم شهر رمضان ، وحمى حقوق الملكية ، وجعل للمرأة مركزاً محترما لم يكن لها فى الجاهلية .

وكان من أظهر آثار الإسلام أنه آخى بين المسلمين على اختلاف قبائلهم ومراتبهم ، وأحل الوحدة الدينية محل الوحدة القومية ، فأصبحوا متساوين جميعاً ، لا فرق بين السيد والعبد ، وغدوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً . وقد من الله على المسلمين بقوله : ﴿ وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم ولو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾ سورة الأنفال ٨ : ٦٢ — ٦٣ .

وقد ساعد الرسول على توحيد كلمة العرب تلك المساواة التى جاء بها الإسلام وتلاشت أمامها هذه الفوارق الجنسية التى مزقت شمل العرب . وليس أدل على تلك الديمقراطية من قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ سورة الحجرات ٤٩ — ١٣ ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى » .

وهكذا أصبح الدين دون الجنس المرجع الوحيد فى تحديد العلاقات بين الحكومة والرعية ثم بين أفراد الشعب . فلما فرغ الرسول من توحيد كلمة العرب حول همته إلى نشر الإسلام خارج المدينة ، وحينئذ بدأت غزواته الأولى .

٧ — الجهاد وأغراضه :

يزعم بعض ذوى الأغراض أن الرسول أكره الناس على قبول الإسلام ، وأنه اعتمد فى نشره على السيف . ولكن هذا لا يتفق مع صريح قوله تعالى : ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ﴾ سورة البقرة ٢ : ٢٥٦ . كما يتنافى مع ما رواه الثقاة من المؤرخين عن بدء انتشار الإسلام . فقد بدأ الرسول بدعوة بعض أصحابه ممن كان يثق بهم ، فأسلم أبو بكر الصديق وعثمان بن عفان والزبير ابن العوام وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف ، وتبعهم غيرهم . وطالما

كان الرسول يعرض نفسه فى موسم الحج على القبائل داعياً إلى الإسلام من أقبل إلى مكة من سائر العرب . ومن هؤلاء جماعة من الأوس والخزرج أجابوه إلى مادعاهم إليه من اعتناق الإسلام . ثم رجعوا إلى المدينة ودعوا قومهم إلى هذا الدين . مضى ذلك فى جزيرة العرب دون أن يستل الرسول سيفاً أو يقاتل عدواً . وكذلك اتبع الرسول الطرق السلمية فى نشر الإسلام خارج جزيرة العرب ، إذ كتب إلى الملوك والأمراء فى ذلك العصر يدعوهم إلى الإسلام .

وإن ما ادعاه بعض من أن الإسلام انتشر بحد السيف ليتنافى مع ماسار عليه الخلفاء الراشدون من أهل البلاد التى فتحوها واحترامهم حريتهم الدينية ومحافظتهم على حقوقهم المدنية . يدل على ذلك أمان عمر بن الخطاب لأهل إيلياء (الطبرى ج ٤ ص ١٥٩) .

من هذا يتبين أن الإسلام وجد طريقه إلى القلوب وخالطت بشاشته النفوس عن طريق الحجة والإقناع . أضف إلى ذلك أن النفوس كانت تتطلع منذ مستهل القرن السابع الميلادى إلى مصلح جديد ، فقد تطرق الفساد إلى جميع نواحى الحياة ، ومال ميزان العدل بين الناس ببلاد العرب والفرس والروم . ومن ثم بادر الناس إلى الإسلام لما امتاز به من الديمقراطية الصحيحة والمساواة الحقة ﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾ (سورة الروم ٣٠ : ٣) .

وقد مكث الرسول بمكة ثلاث عشر سنة يدعو الناس بالحجة والموعظة الحسنة . وقد أذاقته قريش هو والمسلمين كل صنوف الأذى ، فصبروا على أذاهم وحثه الله تعالى على التدرع بالصبر بما أنزله عليه من الآيات ، وضرب له الأمثال فى الصبر والاحتمال ، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ واصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل عليهم ﴾ (سورة الأحقاف ٤٦ : ٣٥) .

ولما تفاقم أذى قريش للرسول وصحبه أمره الله تعالى بقتال المشركين ، وهو ما يعبر عنه بالجهاد أو القتال فى سبيل الله ، وهو القتال الخالص لله تعالى .

وقد أذن الله لرسوله وللمؤمنين بأن يقاتلوا فى سبيل الله فى آيات بعضها نزل بمكة وبعضها نزل بالمدينة.

وقد أذن للمسلمين بالقتال لأمور منها :

١ — الدفاع عن النفس ، وفى ذلك يقول الله تعالى ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾ سورة الحج ٢٢: ٣٩ — ٤٠).

وقوله تعالى ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فقاتلوهم كذلك جزاء الكافرين فان انتهوا فإن الله غفور رحيم وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾ (سورة البقرة ٢ : ١٩٠ — ١٩٣) .

﴿ وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً ﴾ (سورة النساء ٤ : ٧٥) .
من ذلك نرى أن القتال لم يشرع إلا دفاعاً عن النفس وما إلى ذلك من العرض والمال .

٢ — تأمين الدعوة والدفاع عنها أمام من يقف فى سبيلها ، حتى لا يخشى من يريد الدخول فى الإسلام الفتنة عن دينه ، كما حدث لعمار بن ياسر وبلال وغيرهما من المستضعفين من المسلمين .

ولما تمالأ أهل مكة مع غيرهم من العرب على قتال الرسول ، أمره الله بقتال المشركين كافة ﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ﴾ سورة التوبة ٩ : ٣٦) .

ولما نقض يهود المدينة العهد الذى أخذه الرسول عليهم وانضموا إلى مشركى قريش لقتاله ، نزل قوله تعالى « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين » (سورة الأنفال ٩ : ٥٨) .

وقد وعد الله المسلمين النصر على أعدائهم فى الدنيا وبشرهم بالنعيم فى الآخرة

فقال ﴿ فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما ﴾ (سورة النساء ٤ : ٧٤)، وقوله تعالى ﴿ ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون ﴾ (سورة النساء ٤ : ١٠٤) ، وقوله تعالى ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً ، فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دُبُره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾ (سورة الأنفال ٨ : ١٥ — ١٦) .

الغزوات والسرايا[1]

غزوة بدر الكبرى[2] : ذكر الواقدى أن رسول الله عقد فى رمضان من السنة الأولى للهجرة لحمزة بن عبد المطلب لواء فى ثلاثين رجلا من المهاجرين ليعترض عيرا لقريش ، وقد لقى أبا جهل فى ثلاثمائة رجل ، فحجز بينهم مجدى ابن عمرو الجهنى ، فافترقوا دون قتال . وقد أرسل الرسول عدة سرايا بقصد الاستطلاع ، حتى إذا كان شهر ربيع الأول من السنة الثانية للهجرة خرج بنفسه إلى قرية يقال لها ودان على بعد ثمانية أميال من الأبواء بين مكة والمدينة يريد قريشا وبنى ضمرة ، فوادعته بنو ضمرة وعاد إلى المدينة ، وتسمى هذه الغزوة غزوة الأبواء أيضا .

وفى شهر رجب من هذه السنة بعث رسول الله عبد الله بن جحش[3] ومعه

---

(١) الغزوة هى ما خرج فيها الرسول مع المقاتلين ، والسرية أو البعث ما لم يخرج فيها بنفسه، فقد يعقد اللواء لها على رجل من أصحابه. وقد يطلقون على السرية غزوة (ولكن ذلك قليل) ، كما قالوا غزوة مؤتة وغزوة ذات السلاسل .وكانت الغزوات التى غزا فيها الرسول بنفسه سبعة وعشرين غزوة ، وكانت السرايا والبعوث ثمانياً وثلاثين ، وقيل أكثر من ذلك .

(٢) تختلف الرواية العربية فى أول غزوة وتاريخها وترتيب السرايا التى سبقت بدراً ؛ فتزعم الواقدى أن سرية حمزة كانت فى رمضان من السنة الأولى للهجرة كما يعتبرها الأولى . أما ابن هشام فيعتبرها مسبوقة لغزوة ودان ، وسرية عبيد بن الحارث بن عبد المطلب إلى ماء بالحجاز فى أسفل ثنية المرة ، ويعتبر أن أول غزوة كانت فى صفر من السنة الثانية (الطبرى ج ٤ ص ٢٥٩) :

(٣) هو من السابقين إلى الإسلام ، ولما بعثه النبى سماه أمير المؤمنين ، فكان أول من سمى فى الإسلام بهذا الاسم ، وهذا لا يتنافى مع القول بأن عمر أول من تسمى به من الخلفاء .

ثمانية من المهاجرين ، وكتب له كتابا أمره فيه ألا يفضه حتى يسير يومين ، ثم ينظر فيه ويمضى لما أمره به ولا يستكره أحدا من أصحابه ففعل . حتى إذا فتح الكتاب وجد فيه : « إذا نظرت فى كتابى هـذا فسر حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف ، فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم[1] » . ثم عرض الرسول الأمر على أصحابه وخيرهم بين المضى معه أو الرجوع فمضوا ، ولم يتخلف عنه واحد منهم حتى نزل نخلة ، فمرت به قافلة قريش بتجارتها وعليها عمرو بن الحضرمى الذى قتله المسلمون عندما اشتبكوا بهم ، ثم أسروا منهم عثمان بن عبد الله والحكم ابن كيسان وقدموا بهما وبالبعير على الرسول بالمدينة فقال لهم : « ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام » . ثم وقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئا ، وعنفهم إخوانهم المسلمون على ما صنعوا وقالوا لهم : « صنعتم ما لم تؤمروا به وقاتلتم فى الشهر الحرام » ، فسقط فى أيديهم ، وظنوا أنهم قد هلكوا بما صنعوا . فانتهزت قريش هذه الفرصة ونادت فى كل مكان بأن محمدا وأصحابه استحلوا الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا الأموال وأسروا الرجال . كما خاض اليهود فى ذلك حتى غفر الله للمؤمنين ودافع عنهم بقوله : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به . والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ (سورة البقرة ٢ : ٢١٧) .

ولما وضعت الحرب أوزارها بعثت قريش فى افتداء الأسيرين ، فقال الرسول : لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا[2] فإنا نخشاكم عليهما ، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم » . فلما قدم سعد وعتبة افداهما رسول الله ، فأما الحكم بن كيسان فقد أسلم وأقام عند الرسول إلى أن استشهد يوم بئر معونة .

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٢٦٢ .

(٢) يعنى سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان ، وكانا قد تخلفا عن عبد الله بن جحش فى بحثهما عن بعير ضل منهما .

وفى رمضان من السنة الثانية للهجرة وقعت غزوة بدر الكبرى ، فقد ندب الرسول نفراً من المسلمين لاعتراض قافلة قريش وهى قادمة من الشام . فلما علم بذلك أبو سفيان بن حرب رئيس القافلة ، بعث إلى قريش من يخبرها باعتراض المسلمين لتجارتهم ويستنفرهم لاستنقاذها ، ثم غير طريقه ، وتوجه إلى البحر وسار بحذائه حتى جاوز موقف المسلمين ، ثم انسل إلى مكة دون أن تمس تجارة قريش بسوء . وقد التقى الرسول بقريش عند ماء بدر . وكان عددهم يتراوح بين تسعمائة وألف ، فيهم العباس بن عبد المطلب عم الرسول،وأبو جهل بن هشام بن المغيرة؛ فنصر الله المسلمين ، وقتل سبعون من رجالات قريش وساداتهم ، أما المسلمون فقد استشهد منهم أربعة عشر[١] .

كان لهذه الغزوة أثر كبير فى تاريخ الإسلام : فقد كانت أول اصطدام جدى بين المسلمين وقريش ، انتصر فيه المسلمون على الكفار ، وتجلى فيه للمشركين مبلغ تمسك المسلمين بعقيدتهم وتفانيهم فى نصرة دينهم . وقد أحفظ ذلك رجالات قريش ، فأجمعت أمرها على أن تغسل عار تلك الهزيمة بغارة أخرى تشنها على المسلمين .

وبلغ من اغتزاز المسلمين بانتصارهم فى تلك الغزوة أن سموها غزوة الفرقان ، لأن الله سبحانه وتعالى فرق بها بين الحق والباطل ، وأعز الإسلام وأذل الكفر بقتل صناديد قريش وأسر كبرائهم ، مع قلة عدد المسلمين وكثرة عددهم ؛ كما سموا كل من شهدها من المسلمين بدرياً ، وكانوا يعتزون بهذه التسمية ويفخرون .

وبلغ من تأثر قريش لهزيمتها فى تلك الموقعة أنها رصدت جميع أموال تلك القافلة لحرب الرسول والقضاء على أصحابه . ومن ثم بدأت سلسلة من الحروب كان النصر فيها حليف المسلمين (اللهم إلا غزوة أحد) . وكان مركز المسلمين يتحرج أو يتوطد بعد كل حرب تبعاً لنتيجتها ، ولكنهم صبروا واطمأنوا إلى نصر الله وكانت العاقبة للمتقين .

اختلف القوم فى النفل[٢] الذى ساقه الله إلى المسلمين فى غزوة بدر . فقد

---

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٢٤٣ — ٢٧٥ ، ٣٥٤ — ٣٥٥ : الطبرى ج ٤ ص ٢٦٧ — ٢٩٧ .

(٢) النفل أو الغنيمة هو ما أخذه المسلمون من الكفار قهراً بعد هزيمتهم فى الحرب =

ادعاه الذين جمعوه ، كما ادعاه من باشروا القتال ومن أحاطوا بالرسول يحرسونه خشية أن يغتاله المشركون . ونسى كل فريق من هؤلاء نصيب الآخرين واستحقاقهم فى النفل ، كما أهملوا من وكل إليهم الرسول أعمالا تتصل بالقتال وليست منه ، ومن تخلف عن القتال لأعذار كعثمان بن عفان الذى أبقاه الرسول مع أسامة بن زيد فى المدينة لتمريض رقية بنت الرسول وزوجة عثمان التى فاضت روحها والمسلمون فى المعركة ، وأتى البشير بالنصر وهم يوارونها فى التراب .

ولما رفع الأمر إلى الرسول نزل قوله تعالى ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ﴾ (سورة الأنفال ٨ : ١) . ثم أقبل رسول الله إلى المدينة ، واحتمل معه النفل وجعل عليه عبد الله بن كعب ، حتى إذا قربوا من المدينة قسم الرسول الغنائم بين المسلمين على السواء .

غزوة أحد :

وقعت هذه الغزوة فى النصف من شعبان فى السنة الثالثة للهجرة . ويرجع السبب فى وقوعها إلى أن قريشاً لما أرادت أن تثأر لما أصابها يوم بدر ، خصصت جميع ما كان من مال فى العير التى اعترضها المسلمون فى ذلك اليوم ليستعينوا به على حرب الرسول وأصحابه . واجتمع حول أبى سفيان بن حرب ثلاثة آلاف من قريش والأحابيش وعرب كنانة وتهامة ، فخرج بهم يريد المدينة ، واصطحب القيان ومعهم المعازف والخمر ، وخرج معهم نساء كبرائهم لإثارة حماستهم ، ولم

= وهناك الفيء وهو أيضاً مأخوذ من الكفار ، ولكن عن طريق صلح واتفاق معهم .

ويختلف النفل عن الفيء بأن أربعة أخماس النفل تقسم على المحاربين . أما أربعة أخماس الفيء فإنها تترك للرسول أو لإمام المسلمين ليصرفها فى مصالح المسلمين التى منها الجيش . وأما خمس الفيء أو الغنيمة فإنه يقسم إلى خمسة أسهم أو أقسام : سهم للرسول (فى حياته) ينفق منه على نفسه وأزواجه ويصرفه فى مصالحه ومصالح المسلمين ، والسهم الثانى لذوى القربى ، والسهم الثالث لليتامى من ذوى الحاجات ، والسهم الرابع للمساكين ، والسهم الخامس لأبناء السبيل .

ويدخل فى الفيء الجزية والخراج والعشر من متاجر المشركين : وهذا كله يختلف عن الصدقات ، وهى المال الذى يؤخذ من المسلم زكاة كان أو تطوعاً (أنظر كتاب الأحكام السلطانية للماوردى ص ١٢١ — ١٥١) .

يحضر العباس بن عبد المطلب عم الرسول يوم أحد . وتقول بعض الروايات إنه أرسل إلى الرسول سراً من يعلمه بخروج قريش إليه .

ولما سمع الرسول بقدوم قريش استشار الصحابة فيما يصنع ، فأشار عليه قوم بلقائهم فى خارج المدينة . وكان يقول بذلك الشباب ومن لم يشهد بدراً ، وهم أكثر أهل المدينة . أما كبار الصحابة فكانوا يرون البقاء فى المدينة ، وكان ذلك رأى الرسول أيضاً لحصانتها الطبيعية ومناعتها وسهولة الإحاطة بالعدو فى أزقتها ، وانتفاع المسلمين بمساعدة النساء والأطفال ، لأنهم يستطيعون أن يحصبوا المشركين بالحجارة وهم فى دورهم آمنين . وكان هذا الرأى هو رأى عبد الله بن أبى بن سلول عندما استشاره الرسول كما كان ذلك رأى كبار الصحابة .

وقد قبل الرسول الرأى الأول إذ وجد فى عددهم كثرة وفى بأسهم قوة . فعزم على الخروج . ولبس لامته وصلى بالناس الجمعة ، وحثهم على الثبات والصبر ، فخشى هذا النفر من الصحابة أن يكونوا قد استكرهوا الرسول وتحدثوا إليه فى ذلك ، وعرضوا عليه البقاء فى المدينة والنزول على رأيه ورأى كبار الصحابة فقال : ما كان لنبى لبس لامته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه .

وقد سار الرسول وقت السحر من ليلة السبت فى ألف من المسلمين . ولم يكد جيش المسلمين يبلغ الشوط ، وهو مكان خارج المدينة ، حتى رجع عبد الله ابن ابى بثلثهم وقال : عصانى واتبع الولدان . فلما ذكرهم عبد الله بن عمرو ابن حرام بحق الله عليهم وقال لهم : ﴿ وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا ﴾ (سورة آل عمران ٣ : ١٦٧) ، احتجوا بأنه لن يكون قتال وقالوا لو نعلم قتالا لا تبعناكم .

وكان لهذا الانقسام أثر كبير فى صفوف المسلمين وكادت أن تتفرق كلمتهم وتتمزق وحدتهم . وقد وصف الله تعالى حال عبد الله بن أبى بن سلول ومن لف لفه من المنافقين بقوله : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم

---

(١) وليس ذلك بعيداً ، فقد كان معروفاً عن بنى هاشم أن هواهم مع الرسول ، وأنهم ما كانوا يخرجون لحربه إلا مستكرهين . ولذلك يشك بعض المؤرخين فى أن العباس حضر بدراً (راجع الطبرى ج ٤ ص ٢٢٦ — ٢٨٢).

خبالا ودوا ماعنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ، ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ . قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور ، إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ (سورة آل عمران : ١١٨ — ١٢٢) .

نزل رسول الله الشعب من جبل أحد ، وعسكر على سفحه الموجه للمدينة والمنحدر إلى بطن الوادى الذى عسكرت فيه قريش . فاحتمى الرسول بالجبل . وجعل الرماة على جبل صغير أمام أحد يعرف حتى الآن بجبل الرماة ، وأوصاهم بألا يتركوا مكانهم سواء أكانت الغلبة للمسلمين أو عليهم . ثم استعرض الجيش وأخرج منه الأحداث الذين دفعتهم الحماسة إلى اصطلاء نار الحرب . ثم ألح عليه فتيان وبكيا فاستبقاهما بعد أن اختبر استعدادهما .

وبدأت المعركة بالمبارزة ، وكان على رأس المشركين أبو سفيان بن حرب . وعلى الخيل خالد بن الوليد . ثم التحم الجيشان وصمد بعضهما لبعض ، واتبع المسلمون خطة الرسول أول الأمر ، فكان النصر فى جانبهم ، فقد حصدوا أعداءهم بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكر . ويقول الزبير بن العوام فى رواية ابن هشام : والله لقد رأيتنى أنظر إلى خدم هند بنت عتبة مشمرات هوارب مادون أخذهن قليل ولا كثير .

ولما رأى المسلمون تقهقر المشركين،أهمل الرماة وصية الرسول إياهم بالثبات فى أماكنهم حتى يعلن هو انتهاء القتال ، وأخذوا يجمعون ماتركه العدو وراءهم من الغنيمة والأسلاب . ولقد ذكرهم أميرهم عبد الله بن جبير بما قال الرسول فلم يسمعوا ، بل اندفعوا يتعجلون الغنيمة ويستبقون إليها ، فانتهز خالد بن الوليد فرصة خلو الجبل من الرماة وأتى المسلمين من خلفهم وأعمل الرماح فى ظهورهم. وقد اضطرب المسلمون لهذه المفاجأة واختل نظامهم حتى تعرضت حياة الرسول

للخطر ، ثم اشتد الخطر عندما صرح بن قيئة (من المشركين) : « ألا إن محمداً قد قتل » ، وتخاذل المسلمون واستولى اليأس على قلوب فريق منهم ، ومن بينهم عمر بن الخطاب مع ما امتاز به من رباطة الجأش وقوة النفس ؛ كما استقتل فريق آخر من أمثال أنس بن النضر (عم أنس بن مالك) قال : ماذا تصنعون بالحياة من بعده ؟ فموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وأحاط الباقون بالرسول وقاموا دونه يدفعون و يتلقون دونه طعنات الرماح وضربات السيوف . على أن خبر مقتل الرسول ، وإن كان قد أدى إلى انخذال المسلمين وجعل اليأس يستولى عليهم ، أدى إلى نجاته من أيدى المشركين . ولا غرو فقد انخدعت قريش بذلك الخبر واكتفت من الحرب بتلك النتيجة . وفطن الرسول نفسه لهذا ، ورأى ذلك فرصة أتاحها الله له وللمسلمين لصرف المشركين عنه . فقد أشار إلى كعب بن مالك الأنصارى بالسكوت حين هم بأن يصيح فى المسلمين بأن الرسول على قيد الحياة .

وعلى الرغم من استبسال المسلمين وتفانيهم فى الذود عن حياة الرسول . جرح فى وجنته وكسرت رباعيته وشج فى رأسه ، ووقع فى إحدى الحفر التى حفرها المشركون ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون . واستشهد من المسلمين أكثر من سبعين .

وقد مثل نساء قريش بقتلى المسلمين ، حتى أن هنداً بنت عتبة زوجة أبى سفيان بن حرب بقرت بطن حمزه بن عبد المطلب (١) . وأخذت مضغة

(١) هو عم النبى ، قتله غلام حبشى يقال له وحشى مولى مطعم بن جبير ، وقد بعثه مولاه مع قريش وقال له : إن قتلت حمزة بعمى طعيمة بن عدى فأنت عتيق ؛ فأتى وحشى إلى حمزة وقد سبقه إليه سباع من بنى عبد العزى . فلما رأى حمزة سباعا ضربه فقتله ، فانتهز وحشى فرصة انشغال حمزة بطعن سباع وصوب حربته عليه فاثبتها فى جسمه ؛ فاتجه حمزة إلى قاتله ليفتك به ولكنه عجز وهوى إلى الأرض ، فتركه وحشى حتى مات ثم عاد فانتزع منه حربته ولم يقاتل حتى رجع إلى مكة . وقد هرب منها إلى الطائف يوم الفتح خائفاً من الرسول لعلمه بشدة حزنه على عمه . فلما أخبر بأن الرسول يعفو عمن أتاه ، ذهب إليه فأسلم ، فعفا عنه الرسول . وقد حارب وحشى مع المسلمين جيوش مسيلمة الكذاب ، وتمكن من قتل مسيلمة نفسه حتى كان يقول : « قتلت خير الناس بعد رسول الله (يعنى حمزة) ، وقد قتلت شر الناس (يريد مسيلمة) .

من كبده فلاكتها حتى إذا عجزت عن أكلها لفظتها (١) .

وقد أمر الرسول بجمع قتلى المسلمين إلى جنب حمزة وصلى عليهم ، ثم أمر بدفنهم ، ثم عاد إلى المدينة . وقد تلقى المؤمنون فى هذه الموقعة أنفع الدروس وأبعدها أثراً فى حياتهم المستقبلة ، إذ كانت أول انهزام حربى حل بهم بعد تلك الانتصارات التى اعتادوها ، كما كشفت للمسلمين عن مبلغ إيمان المنافقين واستعدادهم للتضحية ، وأطمعت قريشاً وغيرها من القبائل فى جماعة المسلمين ، حتى استهانوا بهم وظنوا أنه من اليسير القضاء عليهم . وهكذا شجعت تلك الغزوة المشركين على حرب المسلمين كما سيأتى .

غزوة الأحزاب (سنة ٥ هـ) .

ظنت قريش بعد أحد أنها هزمت محمداً وأخذت تعد العدة لغزوة أخرى تقضى بها على ما بقى له من قوة . وكان خروجها يوم الأحزاب تنفيذاً لهذه الخطة . على أن هذه الفترة بين غزوتى أحد والأحزاب لم تمر من غير أن يشتبك المسلمون فيها مع بعض القبائل العربية الأخرى التى استخفت بقوة المسلمين وتجرأت عليهم ، فاعتدت عليهم لتتقرب بذلك إلى قريش زعيمة الوثنية ، ولتأخذ بنصيبها فى شن الغارة على المسلمين والنيل من هذا الدين الجديد . من ذلك ما صنعت قبيلتا عضل والقارة يوم الرجيع ، ثم ما صنعت بنو سليم يوم بئر معونة ، حتى لقد بلغ الاستخفاف بالمسلمين والاستهانة بشأنهم أن فكر بنو النضير من يهود المدينة فى قتل محمد رأس هذه الجماعة للتخلص منها .

قدم على رسول الله وفد من عضل والقارة فقالوا : « يا رسول الله ، إن فينا إسلاماً وخيراً ، فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا فى الدين ويقرءوننا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام » ، فبعث رسول الله ستة من أصحابه . فلما أتوا على الرجيع (٢) غدروا بهم ، فأخذوا سيوفهم ليقاتلوهم ، وما زالوا يدافعون عن أنفسهم حتى قتل بعضهم وأسر البعض الآخر ، وكانت نهايتهم القتل . فكان ذلك بسبب غزوة بنى لحيان (٣) .

---

(١) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٤٨ .

(٢) الرجيع : ماء لبنى لحيان من هذيل بين مكة وعسفان بناحية الحجاز .

(٣) ابن هشام ج ٣ ص ٣٢٠ — ٣٢٢ . الطبرى ج ٥ ص ٢٩ — ٣٣ .

ذكر ابن هشام[1] أن أبا براء عامر بن مالك قدم المدينة على رسول الله ، فعرض عليه الرسول الإسلام ودعاه إليه فلم يسلم ، ثم قال للرسول : « يا محمد لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجـــد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك » . فقال رسول الله : « إنى أخشى عليهم أهل نجد » ، فقال أبو براء : « أنا لهم جار فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك » . فبعث الرسول المنذر بن عمرو فى أربعين رجلا من خيار المسلمين ، فساروا حتى نزلوا بئر معونة ، فبعثوا أحدهم بكتاب رسول الله إلى عامر بن الطفيل ، فلم ينظر فيه وعدا على الرجل فقتله ، ثم استصرخ عليهم بنى عامر ، فأبوا أن يجيبوه وقالوا : « لن نخفر أبا براء وقد عقد لهم عقداً وجواراً » . فاستصرخ عليهم قبائل من بنى سليم فأجابوه إلى ذلك وخرجوا حتى غشوا القوم ، فأحاطوا بهم وهم فى رحالهم . فلما رأوهم أخذوا سيوفهم ثم قاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم ، وكانوا — رضى الله عنهم — من أشهر القراء والحفاظ .

أما بنو النضير فقد أجمع المؤرخون على أن السبب فى حربهم يرجع إلى تآمرهم على قتل الرسول : فقد جاءهم يستعينهم فى دية قتيلين قتلهما المسلمون خطأ[2] ، قالوا : « نعم يا أبا القاسم (كانت هذه كنية الرسول) نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه » ، ثم خلا بعضهم إلى بعض فقالوا : « إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه » .

وكان الرسول قد جلس إلى جنب جدار من بيوتهم حتى يأتوه بالمال ، فقالوا من رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه ؟ فقال عمرو ابن جحاش : أنا لذلك . ثم صعد ليلقى بالحجر على الرسول وهو جالس فى نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلى . فأتى الخبر من السماء بما أراد القوم ، فعاد إلى المدينة من غير أن يعلم أحداً بذلك . فلما استبطأه أصحابه خرجوا يبحثون عنه ، فأخبرهم رجل أنه رآه يدخل المدينة ، فأقبلوا عليه يسألونه عن السبب ،

---

(١) ج ٣ ص ١٨٤ — ١٨٥ . الطبرى ج ٥ ص ٣٣ — ٣٦ .

(٢) كان بينهم وبين المسلمين حلف يقضى بالتعاون على دفع الدية الواجبة على أحد الفريقين .

فأخبرهم بما ألهمه الله إياه من تآمر اليهود وأمره بالتهيؤ لحربهم . ثم سار إليهم فتحصنوا منه بآطامهم (أى حصونهم) ، فحاصرهم ستة أيام ، وأمر بقطع النخيل وتحريقه . ثم ألقى الله فى قلوبهم الرعب فسألوا الرسول أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن يأخذوا معهم ما تحمل الإبل من المال إلا الدروع ، فأجابهم الرسول إلى ذلك فخرجوا إلى خيبر وسار بعضهم إلى الشام . وكان من أشرافهم الذين ساروا إلى خيبر سلام بن أبى الحقيق ، وكنانة ابن أخيه الربيع ، وحيى ابن أخطب ، فلما نزلوها دان لهم أهلها[1] .

ولما أجلى الرسول يهود بنى النضير عن ديارهم بالمدينة ، رحلوا إلى خيبر وعزموا على الانتقام منه ومن أصحابه ، ومن ثم ذهبوا يؤلبون عليه سائر العرب ويحزبون الأحزاب عليه . وكانت قريش قد خرجت من أحد منتصرة ، وخيل إليها أنها قد هزمت المسلمين أو محمداً ، ولم يبق إلا أن تشن عليه غارة أخرى فتقضى عليه نهائياً . يدل على صيحة أبى سفيان بن حرب : « إن موعدكم بدر العام المقبل » (الطبرى جـ ٥ ص ٢٤) .

ولكن قريشاً لم يسعفها الحظ فى ذلك العام لوقوع الجدب بأرضهم والكساد بتجارتهم . فلما جاءهم وفد اليهود[2] واطمأنت قريش إلى نصرتهم وانضمامهم إليها رأت أنهم سوف يحيطون بمحمد فى داخل المدينة وفى خارجها ، كما رأوا فى خروجهم محواً لما ألحقهم من تهمة الجبن عن قتال محمد . وخرج الرسول إلى لقائهم فى الموعد الذى ضربوه وأقام ثمانية أيام فلم يخرجوا إليه . لذلك نشطت قريش لما دعيت إليه من حرب الرسول واعتبرتها فرصة سانحة .

فلما اطمأن اليهود إلى مناصرة قريش ، ذهبوا إلى غطفان من قيس عيلان ودعوهم إلى مثل ما دعوا قريشاً إليه ، ووعدوهم العون وأخبروهم بانضمام قريش إليهم فقبلت غطفان ، وتهيأت الأحزاب للخروج إلى المدينة . وكان قائد قريش أبا سفيان بن حرب ، وقائد بنى أشجع من غطفان مسعر بن رخيلة . فلما اتصل

---

(١) ابن هشام جـ ٣ ص ١٩٢ — ١٩٣ .

(٢) هم سلام بن أبى الحقيق ، وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق ، وحيى بن أخطب فى نفر من بنى النضير ، وهوذة بن قيس ، وأبو عمار فى نفر من بنى وائل .

بالرسول ما عزم عليه المشركون حفر الخندق ، وعمل بنفسه فيه « ترغيباً للمسلمين فى الأجر ، وعمل معه المسلمون فيه ، فدأب فيه ودأبوا ، وعمل المسلمون حتى أحكموه : وارتجزوا فيه برجل من المسلمين يقال له « جعيل » فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرا ، فقالوا :

سماه من بعد جعيل عمرا　　وكان للبائس يوماً ظهرا

فإذا مروا بعمرو قال رسول الله « عمراً » وإذا مروا بظهر قال رسول الله « ظهرا[1] .

كان الخندق شمالى المدينة ، لأن الجهات الأخرى كانت محصنة بالجبال والنخيل والبيوت . واختلف المؤرخون فى مكان الخندق وطوله . ويظهر أنهم خطوه من الحرة الشرقية إلى الشمال فالغرب ثم إلى الجنوب قليلا . وإذا صحت الرواية القائلة بأن الرسول وكل إلى كل عشرة من المسلمين أن يحفروا قطعة من الخندق طولها أربعون ذراعاً ، فإننا نستطيع أن نستنتج أن طول هذا الخندق بلغ إثنى عشر ألف ذراع على الأقل . هذا إذا فرضنا أنه لم يعمل فى حفره إلا رجال الجيش الذين اتفقت الروايات على أنهم كانوا ثلاثة آلاف .

فرغ المسلمون من حفر الخندق قبل وصول قريش على الرغم من تسلل المنافقين وهربهم فى أثناء العمل دون إذن الرسول . « وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التى لابد له منها ، يذكر لرسول الله ويستأذن فى اللحوق لحاجته فيأذن له . فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله رغبة فى الخير واحتساباً له . فأنزل الله تعالى فى أولئك النفر من المؤمنين ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ، إن الذين يستأذنوك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله . فإذا استاذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم ﴾ (سورة النور ٢٤ : ٦٢) . ثم قال تعالى فى المنافقين الذين كانوا يتسللون من العمل ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لو اذا ،

---

(١) ابن هشام جـ ٣ ص ٢٣٠ — ٢٣٢ .

فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ (سورة النور ٢٤ : ٦٣) .

وقد أقبلت قريش ومن تبعها من أعراب كنانة وتهامة فى عشرة آلاف ونزلوا فى مجتمع الأسيال من رومة ، وهى بين الجرف التى تقع على بعد ثلاثة أميال من المدينة وزغابة ، وفيها بئر رومة التى ابتاعها عثمان بن عفان وتصدق بها على المسلمين . وأقبلت غطفان ومن تبعهم من نجد ، فنزلوا بذنب نقمى إلى جانب أحد ، وخرج الرسول فى ثلاثة آلاف وجعلوا ظهرهم إلى جبل سلع ، وجعل الرسول النساء والأولاد فى الآطام ، والخندق بينهم وبين المشركين[١] .

وقد جاء حيي بن أخطب النضيرى إلى كعب بن أسد القرظى صاحب عهد بنى قريظة ليراوده على نقض ما بينه وبين الرسول ، فامتنع أولا ، ثم انتهى إلى أن نقض بنو قريظة ما بينهم وبين المسلمين . فلما علم الرسول بذلك أرسل إليهم أربعة ، منهم سعد بن معاذ سيد الأوس ، وسعد بن عبادة سيد الخزرج ليستيقنوا من هذا الخبر ، فرأوا منهم الغدر ، فعادوا وأخبر الرسول : فقال الله أكبر ! أبشروا يا معشر المسلمين .

واشتد الخوف وعظم البلاء على المسلمين إذ ذاك ، وظهر نفاق الكثيرين حتى قال متعب بن قشير أخو بنى عمرو بن عوف : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط »[٢] . وأقام الرسول وأقام المشركون عليه قريباً من شهر لم يكن بينهم حرب إلا المراماة بالنبل والحصار . فلما اشتد الأمر على المسلمين بعث الرسول إلى قائدى غطفان يفاوضهما فى قبول ثلث غلة المدينة على أن يرجعا بمن معهما ، فقبلا ، وكتب نص المحالفة خلوا من أسماء الشهود ، إذ لم يتم الصلح ولم يكن إلا المراودة . فتحدث الرسول إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة سيدى الأوس والخزرج ، وذكر لهما ما وصل إليه مع غطفان من اتفاق ، فلم يرضيا إلا أن يكون أمراً من عند الله ، فأخبرهما الرسول بأن هذه الفكرة عرضت له للخروج من هذا المأزق

---

(١) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٥٠ — ٥١ .

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ٢٣٨ . تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٥١ .

الذى يحيط بالمدينة ، ثم أعطاهما الكتاب ليمحوا ما به ففعلا ، وعاد الموقف إلى ما كان عليه من تبادل المناوشات التى لم تأت بنتيجة حاسمة لأحد الطرفين . وكان الرسول فى ذلك الوقت يدأب على مصابرة المسلمين الذين اشتد بهم البلاء وزاد تأثير الجوع والبرد فيهم [1] وفى مفاوضة غطفان ابتغاء صرفهم عن قريش ليفت ذلك فى عضدهم فيرجعوا هم أيضاً . وأما قريش فقد ثقل عليهم الحصار وملوا الانتظار فى البرد القارس والمطر الذى لم تغن عنهم خيامهم شيئاً .

عند ذلك جاء إلى الرسول نعيم بن مسعود مسلماً ، وعرض عليه أن يكلفه بأى عمل يقوم به فى جهاد المشركين وصرفهم عن المدينة ، فقال له خذّل عنا فإن الحرب خدعة . فذهب مسعود إلى بنى قريظة وحذرهم إن هزمت قريش فنجت بنفسها فتركتهم تحت رحمة محمد ، ثم نصحهم بألا يطمأنوا إلا إذا أعطوهم رهائن من سادتهم وأشرافهم . ثم ذهب إلى كل من قريش وغطفان وأوهمهم أن بنى قريظة قد ندموا على نقضهم عهد محمد ، واتفقوا معه على أن يخدعوا له قريشاً وغطفان عن بعض سادتهم فيأخذونهم على أنهم رهائن ويقدمونهم إلى محمد ليضرب أعناقهم . فاستمهلت قريش وعد قريظة لها نصرتها . فكان فى جوابهم عليهم ما يؤكد عزم قريظه على الغدر بهم .

وقد فعلت هذه الوقيعة فعلها فى الأحزاب ، وتأكدت قريش وغطفان من غدر القريظيين بهم ، فعزموا على الرحيل . وكان للعوامل الطبيعية أيضاً أكبر الأثر فى ذلك ، إذ هبت ريح زعزع عاتية جعلت تكفأ قدورهم وتنزع خيامهم فأرغمتهم على الرحيل .

---

(١) بلغ من شدة وطأة الجوع على الرسول والمسلمين أن كانوا يربطون الحجارة على بطونهم. وقد ذكر أن الرسول كان يصلى فى الليلة التى عادت فيها قريش فى مرط (بكسر الميم وسكون الراء وهو إزار أو كساء من صوف أو خز) . وروى ابن هشام (ج ٣ ص ٢٥٠) أن حذيفة بن اليمان الذى بعثه الرسول ليتعرف حالة الأحزاب قال : فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائم يصلى فى مرط لبعض نسائه مراجل (ضرب من وشى اليمن فيه صور المراجل وهى القدور التى يطبخ فيها) ، فلما رآنى أدخلنى إلى رجليه وطرح على طرف المرط .

وكان لطول أمد الحصار أسوأ الأثر فى نفوس الأحزاب المتحالفة مع قريش مما جعل لإخفاقها ورجوعها تجر أذيال الخيبة وتندب الآمال التى كانت تحلم بها أثراً كبيراً فى سرعة انتشار الإسلام بين قبائل العرب.

كما ظهرت فى هذه الحرب مقدرة الرسول الحربية ومرونته السياسية، إذ أنفذ مشورة سلمان الفارسى بحفر الخندق، وهو من الأعمال الحربية التى لم تعرفها العرب قبل ذلك، حتى لقد دهشت قريش عندما رأته وقال قائلهم « والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها [1] . كما تجلت حنكته السياسية فى مساومة غطفان لزلزلتها عن موقفها إلى جانب قريش [2] ، ثم فى التفريق والوقيعة بين هذه الأحزاب وبين بنى قريظة. هذا إلى ما أبداه الرسول من المهارة فى مصابرة المسلمين وتشجيعهم على تحمل الجوع والعرى فى تلك الأيام التى عصفت الطبيعة بمعسكر قريش واضطرتهم إلى الجلاء.

غزوة بنى قريظة :

عاد الرسول من جبل سلع بعد رحيل قريش ووصل إلى المدينة ظهراً، فدخل بيت عائشة ثم خرج، وأمر بلالا أن يؤذن فى الناس : من كان سميعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببنى قريظة. فتلاحق المسلمون وخرج بالراية، وكانت على حالها لم تطو بعد. ولا غرو فقد أحفظ قلوب المسلمين وملأها حقداً وموجدة على بنى قريظة نقضهم العهد وممالأة الأعداء عليهم حتى ﴿ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ﴾ (سورة الأحزاب ٣٣ : ١٠).

فلما رأى بنو قريظة جيش المسلمين خارت قواهم وأيقنوا بالهلاك ، فتبرءوا عما ارتكبوه من الغدر وسألوا الرسول العفو، فأبى ذلك عليهم وشدد الحصار خمسة وعشرين يوماً، حتى نزلوا على حكمه وسألوا حلفاءهم الأوس أن يتوسطوا فى إطلاقهم كما توسط الخزرج فى إطلاق حلفائهم من بنى قينقاع. فتواثبت الأوس

---

(١) ابن هشام ج ٣ ص ٢٤٠.

(٢) لما فاوض الرسول غطفان وأطمعهم فى ثلث غلة المدينة ثم عدل عن ذلك ورفضه، توهمت غطفان أن مركزه قد تحسن، وأنه مقبل على حرب الأحزاب وإجلائهم. ومما زاد هذا الوهم تحقق غطفان من عدول بنى قريظة عن مناصرة الأحزاب وعزمها على تقديم سادات قريش وغطفان إلى الرسول ليقتلهم.

وقالوا : يا رسول الله إنهم كانوا موالينا ، فقال لهم رسول الله : ألا ترضون يامعشر الأوس أن يحكم رجل منكم ؟ قالوا : بلى ، قال : فذاك إلى سعد بن معاذ[1] .

فلما جيء بسعدقاموا إليه فقالوا : يا أبا عمرو ، إن رسول الله قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم . فأخذ سعد عهد الله وميثاقه على الفريقين إن الحكم فيهم لمن حكم ؛ فأجابوه وأجابه الرسول : أن نعم . قال سعد : فإنى أحكم بأن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذرارى والنساء ، فقال له رسول الله : لقد حكمت فيهم بحكم الله ، ثم حفرت لهم الخنادق وضربت أعناقهم جميعاً ، وكانوا نحو سبعمائة . ولم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة تسمى بنانة زوجة الحكم القرظى . لقتلها خلاد بن سويد برحى طرحتها عليه فمات ، فقتلها الرسول فى خلاد .

وقد قسم الرسول أموال بنى قريظة وسباياهم بعد أن عزل الخمس لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل .

كانت انتصارات الجيوش الإسلامية تجذب كل يوم أفراداً من شتى القبائل ، ولاسيما من كان يقيم منهم فى جوار المدينة ، لتزداد بهم صفوف أتباع النبى . وكثيراً ما كان يفد أحد أفراد القبيلة على النبى بالمدينة ، ثم يعود إلى قومه داعياً إلى الإسلام جاداً فى تحويل إخوته إليه . وفى القصة التالية مثل من أمثلة التحويل إلى الإسلام ، وذلك فى السنة الخامسة للهجرة :

بعثت بنو سعد بن بكر واحداً منها يقال له ضمام بن ثعلبة رسولا إلى النبى ، فقدم وأناخ بعيره على باب المسجد ثم عقله . ودخل المسجد حيث كان النبى جالساً فى أصحابه ، فأقبل حتى وقف عليهم وقال : « أيكم ابن عبد المطلب » ؟ فقال النبى . « أنا ابن عبد المطلب » قال : « أمحمد ؟ » قال « نعم » . قال : إنى سائلك ومغلظ عليك فى المسألة فلا تجدن فى نفسك » . قال : لا أجد فى نفسى فسل عما بدا لك » . قال أنشدك الله : إلهك وإله من كان من قبلك وإله من هو كائن بعدك : الله بعثك إلينا رسولا ؟ قال محمد : « اللهم نعم » . قال : فأنشدك الله إلهك

---

(١) روى ابن هشام (ج ٣ ص ٢٥٧ — ٢٥٨) أن على بن أبى طالب صاح وهم على حصار بنى قريظة : يا كتيبة الإيمان . وتقدم هو والزبير بن العوام وقال : والله لأذوقن ماذاق حمزة أو لأفتحن حصنهم ، فقالوا : يامحمد ! ننزل على حكم سعد بن معاذ .

وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ، الله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده ولا نشرك به شيئاً وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون معه ؟ » قال محمد : « اللهم نعم » . وبعد ذلك سأل النبي عن فرائض الإسلام كلها ، عن الصلاة والصيام والحج إلخ ، وهو يستحلفه مثل ما سبق . وأخيراً قال : « . . فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، وسأؤدى هذه الفرائض وأجتنب مانهيتني عنه ثم لا أزيد ولا أنقص » ، ثم انصرف وأطلق بعيره ورجع إلى قومه . فلما جمعهم كان أول ماقال لهم : « بئست اللات والعزى ، قالوا : مه يا ضمام اتق البرص ، اتق الجذام ، اتق الجنون » ، قال : « ويلكم إنهما والله لا ينفعان ولا يضران إن الله قد بعث رسولا وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه ، وإني أشهد أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ومانهاكم عنه » ، ومازال يقص عليهم حتى لم يأت المساء إلا وقد أسلم كل من في الحي رجالا ونساء[1] .

وكان عمرو بن مرة من جهينة التي كانت تقيم بين المدينة والبحر الأحمر مثلا آخر لهؤلاء الدعاة . وقد وصف إسلامه بقوله : « كان لنا صنم وكنا نعظمه ، كنت سادنه . فلما سمعت بالنبي كسرته وخرجت حتى أقدم المدينة على النبي ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق وآمنت بما جاء به من حلال وحرام ، فذلك حين أقول :

شهدت بأن الله حق وإنني	لآلهة الأحجار أول تارك
وشمرت عن ساق الإزار مهاجراً	إليك ، أجوب الرعث بعد الدكادك
لأصحاب خير الناس نفساً ووالداً	رسول مليك الناس فوق الحبائك

فبعثه رسول الله إلى قومه يرغب في الإسلام ، فتكللت جهوده بالنصر حتى لم يبق هناك إلا رجل واحد هو الذي استعصى على الترغيب .

---

(١) ابن اسحاق ص ٩٤٣ — ٩٤٤ . وتعتمد هذه القصة على بعض مصادر مشكوك في صحتها .

غزوة بنى المصطلق أو المريسيع :

بلغ الرسول أن بنى المصطلق بن خزاعة (من حلفاء بنى مدلج) ، قد عولوا على حربة بزعامة الحارث بن أبي ضرار أبي جويرية بنت الحارث زوج الرسول . فلما سمع الرسول بذلك ، خرج إليهم حتى لقيهم على ماء لهم يقال له المريسيع قرب قديد. وحلت الهزيمة ببنى المصطلق وأسر المسلمون كثيراً من نسائهم وإبلهم .

وكان لهذه الغزوة أهمية كبرى فى تاريخ الإسلام ، لقيام النزاع بين المهاجرين والأنصار قياما كاد يؤدى إلى انفصام عرى الوحدة بين المسلمين ، وزواج الرسول بجويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق ، ثم لوقوع حادث الإفك الذى كدر حياة عائشة أياماً وأرجف به المبطلون ورموها فى أعز شىء لديها .

تنازع سنان بن دبر الجهنى حليف بنى سالم من الأنصار بعد انتهاء موقعة المريسيع مع جهجاه بن مسعود الغفارى ، فضربه هذا بيده ، فنادى سنان يا للأنصار ونادى جهجاه يا لقريش ! يا لكنانة ! وشهر المهاجرون والأنصار السلاح كل فى وجه الآخر وكادوا يقتتلون لولا أن تداركهم الرسول وقال : « ما بال دعوى الجاهلية ! دعوا هذه الكلمة فإنها فتنة » ، وسرعان ما سكنت الفتنة .

وكان عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين يحقد على الرسول ، إذ كان يطمع فى سيادة يثرب قبل هجرة الرسول إليها ، وكاد يلبس التاج أو شارة السيادة ، فأحفظه ذلك وعبر عما كان يجيش فى نفسه من حقد على الرسول وكراهة للإسلام والمسلمين ، وحض قومه على طرد المهاجرين وعود الحال إلى ما كانت عليه قبل الهجرة ، فقال : أو قد فعلوها ؟ قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، والله ما عدونا وجلابيب قريش ما قال القائل : سمن كلبك يأ كلك . أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » . وسمع بذلك الرسول وأشار عليه عمر بقتل عبد الله بن أبي ؛ فنهاه وقال : كيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟

وكان الرسول عليه السلام سياسياً ماهراً ؛ فقد رأى ببعد نظره أن يشغل جنده ليصرفهم عن الحديث فى هذا الأمر ، فإذا أخذ منهم التعب ناموا ولم يجدوا فرصة للحديث . حتى إذا ما أخذ الرسول فى المسير لقيه أسيد بن حضير

فحياه بتحية النبوة وسأله عن سبب خروجه وقت الظهيرة ؛ فأخبره الخبر فقال : يا رسول الله ارفق به فوالله لقد جاءنا الله بك ، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكا . وكان من أثر تدخل عبد الله بن عبد الله ابن أبي فى أمر أبيه والإلحاح عليه فى الذهاب إلى الرسول أثر فى إصلاح ذات البين بينه وبين الرسول .

وكان بين سبايا بنى المصطلق جويرية بنت الحارث سيد القوم . وكانت قد وقعت من نصيب ثابت بن قيس ، فشق ذلك على نفسها ، واتفقت معه على أن تتحرر بطريق المكاتبة (١) . فلما جاءت إلى الرسول تطلب منه العون على الحصول على هذا المال ، رأى من الحكمة أن يتألفها بما ينزع من قلبها الحقد على الإسلام . فقدم إليها المال وعرض عليها الزواج منها وتزوجها . وكان الرسول بعيد النظر ، فقد كانت بنت سيد مات أبوها بسيف الإسلام ، فخشى الرسول أن يجتمع حولها فلول أبيها فتكون باباً من أبواب الشر على المسلمين . وكان من أثر ذلك أن اعتق كل مسلم من كانت بيده من أهل بيتها استعظاماً لأن يسترقوا أصهار الرسول (٢) .

حادثة الإفك : كانت عائشة مع الرسول فى هذه الغزوة . وفى أثناء عودة المسلمين إلى المدينة حدثت حادثة الإفك التى أذاعها دعاة السوء حول السيدة عائشة ، وذلك حين رأوا صفوان بن المعطل يقود بعيرها فى المدينة عند عودتها من غزوة بنى المصطلق فاتهموها إفكاً وبهتاناً ، وتطرق الحزن والألم إلى قلب الرسول . وتقص علينا السيدة عائشة نفسها هذه الحادثة ، كما رواها ابن هشام (ج ٣ ص ٣٤٢ — ٣٤٣) .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفراً ، أقرع بين نسائه ،

---

(١) المكاتبة هى أن يتفق الرقيق مع مولاه على مبلغ معين من المال فى أجل محدود يقدمه إلى مولاه فيصبح حراً ، ويصير للعبد فى أثناء هذه المدة الحق فى المتاجرة وما تستلزمه من تصرفات كالبيع والشراء وغيرها مما لا يصح له مباشرته لولا إبرام هذا العقد . فإذا أدى العبد المال المتفق عليه صار حراً ، وإذا عجز عن أدائه فى الموعد المحدد عاد كما كان ، ولمولاه كل ما جمعه من مال .

(٢) ابن سعد ج ٢ ص ٢٥ . الطبرى ج ٥ ص ٦٣ — ٦٦ .

فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه . فلما كانت غزوة بنى المصطلق ، أقرع بين نسائه كما كان يصنع ، فخرج سهمى عليهن معه ، فخرج بى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان النساء إذ ذاك إنما يأكلن العلق (١) لم يهيجهن اللحم (٢) فيثقلن . وكنت إذا رحل بى بعيرى جلست فى هودجى . ثم يأتى القوم الذين يرحلون لى ويحملونني ، فيأخذون بأسفل الهودج فيرفعونه، فيضعونه على ظهر البعير، فيشدونه بحباله ، ثم يأخذون برأس البعير فينطلقون به . فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره ذلك، وجه قافلا، حتى إذا كان قريباً من المدينة ، نزل منزلا فبات به بعض الليل ، ثم أذن فى الناس بالرحيل، فارتحل الناس، وخرجت لبعض حاجتى وفى عنقى عقد لى فيه جزع ظفارى (٣) . فلما فرغت انسل من عنقى ولا أدرى . فلما رجعت إلى الرحل ، ذهبت ألتمسه فى عنقى فلم أجده . وقد أخذ الناس فى الرحيل ، فرجعت إلى مكانى الذى ذهبت (إليه) ، فالتمسته حتى وجدته . وجاء القوم خلافى ، الذين كانوا يرحلون لى البعير . وقد فرغوا من رحلته ، فأخذوا الهودج وهم يظنون أنى فيه كما كنت أصنع . فاحتملوه فشدوه على البعير ولم يشكوا أنى فيه ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به . فرجعت إلى العسكر وما فيه من داع ولا مجيب ، قد انطلق الناس : فتلففت بجلبابى ثم اضطجعت فى مكانى . وعرفت أن لو قد افتقدت لرجع إلى . فو الله أنى لمضطجعة ، إذ مر بى صفوان ابن المعطل السلمى ، وكان قد تخلف عن العسكر لبعض حاجاته، فلم يبت مع الناس فرأى سوادى (٤) ، فأقبل حتى وقف على ، وقد كان يرانى قبل أن يضرب علينا الحجاب . فلما رآنى قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ظعينة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأنا متلففة فى ثيابى ، قال : ما خلفك يرحمك الله ؟ فما كلمته ، ثم قرب البعير فقال: اركبى؛ واستأخر عنى . فركبت وأخذ برأس البعير فانطلق سريعاً يطلب

---

(١) بضم العين وفتح اللام — جمع علقة ، وهى ما فيه بلغة من الطعام إلى وقت الغداء، تريد أن طعامهم كان قليلا ، فهن نحيفات غير بدينات .

(٢) التهييج : انتفاخ الجسم حتى يشبه الورم .

(٣) الجزع : خرز أسود فيه خطوط بيض أى مجزع . وظفارى نسبة إلى مدينة ظفار باليمن.

(٤) السواد ههنا : الشخص ، تقول : رأيت سواداً من بعيد إذا رأيت شخصاً .

الناس . فوالله ما أدركنا الناس وما افتقدت حتى أصبحت ونزل الناس فلما اطمأنوا ، طلع الرجل يقودني ، فقال أهل الإفك ماقالوا ، فارتج العسكر (تحرك واضطرب) ، ووالله ما أعلم بشيء من ذلك .

« ثم قدمنا المدينة ، فلم ألبث أن اشتكيت شكوى شديدة ، ولا يبلغني من ذلك شيء . وقد انتهى الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أبوي ، لايذكرون لي منه قليلا ولا كثيراً . إلا أني قد أنكرت من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض لطفه بي ، كنت إذا اشتكيت رحمني ولطف بي ، فلم يفعل ذلك بي في شكواي تلك ، فأنكرت ذلك منه ، كان إذا دخل علي وعندي أمي [١] تمرضني .. قال : « كيف تيكم ؟ » « لايزيد على ذلك » .

ولكن الله سبحانه لم يلبث أن برأ السيدة عائشة مما رميت به . وجعل حصانتها قرآناً يتلى ، فقال تعالى في سورة النور [٢] (٢٤ : ١١) : ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لاتحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم ﴾ ، ثم قال تعالى ﴿ إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ماليس لكم به علم ، وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ﴾ (سورة النور : ٢٤ : ١٥) .

وأنشد حسان بن ثابت قصيدة طويلة ، يعتذر فيها عما فرط منه في حق السيدة عائشة ، ننقل منها هذه الأبيات :

حصان رزانٌ ماتزن بريبة ... وتصبح غرثى من لحوم الغوافل [٣]

عقيلة حي من لؤي بن غالب ... كرام المساعي مجدهم غير زائل [٤]

---

(١) هي أم رومان ، واسمها زينب بنت عبد دهمان أحد بني فراس بن غنم بن مالك بن كنانة .

(٢) أنظر ما ذكرته الدكتورة زاهية قدورة عن حديث الإفك في كتابها عائشة أم المؤمنين (القاهرة سنة ١٩٤٧) ص ٨٤ — ١٠٠ .

(٣) حصان : عفيفة ، ورزان : هادئة وقور ، وتزن — بالبناء للمجهول : تتهم ، وغرثى : جائعة ، والغوافل : جمع غافلة ، وهي المرأة التي لا تتناول أحداً بأذى من قول أو فعل ولا تفطن لعيوب الناس .

(٤) العقيلة : الكريمة ، والمساعي : جمع مسعاة ، وهو ما يسعى فيه المرء من طلب المجد والمكارم :

مهذبة قد طيب الله خيمها ... وطهرها من كل سوء وباطل[1]
فإن كنت قد قلت الذى قد زعمتم ... فلا رفعت سوطى إلى أناملى[2]
وكيف وودى ما حييت ونصرتى ... لآل رسول الله زين المحافل[3]

الهدنة مع قريش (سنة ٦ هـ) : وفى السنة السادسة للهجرة خرج الرسول للعمرة ، وهى زيارة البيت الحرام فى غير موسم الحج ، فى ألف وأربعمائة من المسلمين[4] ؛ فوقف القرشيون فى طريقه على مقربة من مكة يمنعونه من دخولها ، فندب الرسول عثمان بن عفان للذهاب إلى قريش لمكانته فيهم واستطلاع أنبائهم وتعرف السبب فى منعهم المسلمين من أن يطوفوا ببيت الله ويعظموه ؛ فحجزت قريش عثمان عندها ، وشاع بين المسلمين أنه قتل . عندئذ تأهب الرسول لقتال قريش وبايعه من كان معه من المسلمين على حربها . وتسمى هذه البيعة بيعة الرضوان[5]

ولما علمت قريش بأمر هذه البيعة أسقط فى يدها ، وأرسلت البعوث إلى الرسول تفاوضه فى العدول عن دخوله مكة هذا العام . فلما رأت قريش أن تلك البعوث لم تنجح أرسلت إلى الرسول وفداً على رأسه سهل بن عمرو وخطيبهم المفوه ، فقال للرسول : « يا محمد ! ما كان من حبس عثمان ومن معه ، وما كان من قتال

---

(١) مهذبة : صافية مخلصة ، والخيم — بكسر الخاء — الطبع والأصل .
(٢) الأنامل : جمع أنملة . وهى طرف الإصبع ، وربما عبر بها عن الإصبع ، وأراد الدعاء على نفسه بشلل يده إن كان ما نسب إليه قد قاله حقاً .
(٣) المحافل : جمع محفل ، وهو المكان الذى يجتمع فيه الناس .
ابن هشام ج ٣ ص٣٥٣ — ٣٥٤ . راجع حديث الإفك فى فتح البارى ، شرح البخارى ج ٨ ص ٣٣٤ ، والطبرى ج ٣ ص ٦٧ — ٧١ .
(٤) تكاد تجمع روايات الطبرى على أن عدد المسلمين كان ألفاً وأربعمائة . ولم يخالف ذلك إلا رواية واحدة ، إذ تقول إن عددهم كان سبعمائة . وقد فصل الطبرى اختلاف الروايات فى إسلام خالد بن الوليد وهل كان إذ ذاك فى جيش المسلمين أو أنه كان لا يزال على الشرك أو أنه كان على خيل المسلمين (ج ٣ ص ٧٢) .
(٥) وقد نوه الله بشأن هذه البيعة فى قوله تعالى فى سورة الفتح (٤٨ : ١٨ — ١٩) (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيما) ، كما عظم شأن هذه البيعة عند المسلمين . فلما ولى عمر الخلافة ، خشى أن يقدس المسلمون الشجرة التى عقدت تحتها هذه البيعة ، فقطعها لئلا يفتتن بها الناس ؛ ومن هذه الآية سميت هذه البيعة بيعة الرضوان .

من قاتلك ، فإنه ليس من رأى عقلائنا ، بل شيء قام به السفهاء ، فابعث إلينا من أسرت » . فقال الرسول : « حتى ترسلوا من عندكم » ، فأرسلت قريش عثمان ومن معه ، وأمر الرسول بإطلاق من في يد المسلمين من أسرى قريش ، وتم الاتفاق بين الرسول وسهيل على :

١ — أن تضع الحرب أوزارها بين الفريقين عشر سنين .

٢ — أن يرد الرسول من يأتيه من قريش مسلماً بدون إذن وليه .

٣ — ألا تلزم قريش برد من يأتى إليها من عند محمد .

٤ — أن من أحب الدخول فى عقد قريش وعهدها فله ذلك ، ومن أراد أن يدخل فى عهد محمد من غير قريش دخل فيه .

٥ — أن يرجع الرسول هذا العام من غير عمرة ، على أن يأتى فى العام التالى فيدخل مع أصحابه مكة بعد أن تخرج منها قريش ، ويقيم بها ثلاثة أيام وليس معهم من السلاح إلا السيوف فى القرب (الأغماد) .

وقد عز على المسلمين أن يعودوا إلى المدينة من غير أن يعتمروا ، وكانوا واثقين من وعد الله إياهم فتح مكة فى رؤيا رآها الرسول . وكاد الشيطان ينزغ بين المسلمين فى هذه المرة لولا حكمة أم سلمة زوجة الرسول وبعد نظرها . ذكر الطبرى (ج ٣ ص ٨٠) أن الرسول — بعد أن فرغ من صلح الحديبية — « قال لأصحابه : قوموا فانحروا ثم احلقوا ، فلم يقم منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات . فلما لم يقم منهم أحد ، قام فدخل على أم سلمة فذكر لها ما لقى من الناس وما كان من مخالفتهم أمره ، فقالت : يا نبى الله ! أتحب ذلك ؟ أخرج فلا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنتك وتدعو حالقك فيحلقك . فقام فخرج ، فلم يكلم أحداً منهم كلمة حتى نحر بدنته ودعا حالقه فحلقه . فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً » .

كما عز عليهم أن يسلموا برد من يلجأ إليهم من قريش إليها ، على حين أن قريشا لم تلتزم لهم بمثل ذلك . ولقد ذاقوا ما فى ذلك من مذلة واستسلام عند تطبيق ذلك الشرط لأول مرة ، إذ ما لبثوا أن وجدوا أبا جندل بن سهيل ابن عمرو قادماً عليهم يرسف فى أغلاله الحديدية ويستغيث بهم من ظلم قريش

وعسفها . فلما رآه أبوه (سهيل بن عمرو) التفت إلى الرسول وطلب إليه تنفيذ شروط الصلح : فقد لجت[1] القضية بينه وبين الرسول ، فأجابه الرسول إلى ما أراد ، ورد أبا جندل إلى قريش وهو يصيح مستنجداً والرسول يقول له : « يا أبا جندل ! اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا . إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله لا نغدر به[2] .

وقد ثارت نفوس المسلمين واستزل بعضهم الشـيطان وأخذوا يتساءلون فيما بينهم . على أن أحدا لم يجرؤ على مفاتحة الرسول فى شأن ذلك الصلح حتى قام عمر ، وقد طوعت له جرأته أن يسأل الرسول وقال له : « ألست رسول الله ؟ قال : بلى ، قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال بلى ، قال أو ليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ، قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ » .

غير أن الرسول عالج هذه الفورة بحكمته وسداده فأجابه بقوله : « أنا عبدالله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى » . ثم عاتب الشاكين من أصحابه عتاباً خفيفا وتوجه إلى المدينة ، وشرع استغلال هذه الهدنة لبث الدعوة وتبليغ الرسالة والعمل على تنظيم شئون المدينة الداخلية . وقد عد الزهرى هذا الصلح فتحاً عظيما للإسلام إذ يقول : فما فتح فى الإسلام قبله أعظم منه . . . فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها وأمن الناس كلهم بعضهم بعضاً ، فالتقوا وتفاوضوا فى الحديث والمنازعة ، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه . فلقد دخل فى تينك السنتين فى الإسلام مثل ما كان الإسلام قبل ذلك وأكثر »[3] .

وقد جعلت هـذه الهدنة الاتصال مع بلاد العرب الجنوبية أمراً ميسوراً فى ذلك الحين ، فجاء وفد صغير من قبيلة بنى دوس من تلك الجبال التى تتاخم بلاد اليمن الشمالية وانضموا إلى النبى فى المدينة . وكانت جماعة من هـذه القبيلة

---

(١) يقصد أن الصلح قد أبرم .
(٢) ابن هشام ج ٣ ص ٣٦٧ ، ٣٧٢ — ٣٧٣
(٣) الطبرى ج ٣ ص ٧٩ ، ٨١ .

قبل ظهور الإسلام ، مزودين بلمحات من ديانة أرقى من الوثنية التى كانت منتشرة فيمن حولهم . وكانوا يرون أن هذا العالم لابد له من خالق ولو أنهم لم يهتدوا إليه . فلما بعث محمد رسولا من قبل الخالق ، قدم أحدهم ، واسمه طفيل بن عمرو ، إلى مكة ليقف على حقيقة هذا الخالق .

وعلى الرغم من أن قريشاً حذرته ما قد يتركه محمد فى نفسه من تأثير خطير إذا ما تحدث إليه ، تبع طفيل النبى إلى بيته بعد أن رآه يصلى فى الكعبة ، فشرح له النبى تعاليم الإسلام . وقد أصبحت نفس طفيل تفيض تحمسا لهذا الدين الجديد . فلما رجع إلى بلده ، أفلح فى هدى أبيه وزوجه ، ولكنه وجد قومه غير راغبين فى ترك عباداتهم الوثنية القديمة ؛ فعاد إلى النبى ، وقد استولى عليه اليأس مما أصابه من الإخفاق فى دعوته ، وطلب إليه أن يستنزل لعنة الله على بنى دوس ، ولكن النبى شجعه على المثابرة بقوله : « إرجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم » ، ودعا لهم النبى بقوله : اللهم اهد دوسا » . وقد بلغ من نجاح طفيل فى بث الدعوة إلى الإسلام أنه وفد على المدينة فى السنة السابعة للهجرة ومعه عدد يتراوح بين السبعين والثمانين أسرة من قومه كان الإسلام قد ظفر بانضمامهم إليه . وبعد أن دخل النبى مكة دخول الظافر ، أشعل طفيل النار فى كتلة من الخشب ، وهى الصنم الذى كانت قبيلته تنظر إليه نظرة التبجيل والتعظيم حتى ذلك الحين[١] .

إسلام خالد وعمرو :

كان صلح الحديبية فى الواقع نصراً للمسلمين ، فقد أدركت قريش أن أمر الإسلام ظاهر لا محالة . وكان المسلمون واثقين من وعد الله إياهم بفتح مكة ، وأدركوا أن انتصار المسلمين قد تكرر ، وأن أمره قد عظم فى جميع البلاد العربية ، فقتلت سادات قريش ، ومات ذوو الحلم فيها ، كما أدركوا أن أمر الإسلام سينتهى بالظفر ، وأن سقوط مكة قريب .

لذلك أسرع خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص وغيرهما ، فأدركوا الفرصة قبل فواتها ، وعقدوا النية على الدخول فى الإسلام ، ووقف خالد فى قريش

---

(١) ابن اسحاق ص ٢٥٢ — ٢٥٤ . انظر كتاب الدعوة إلى الإسلام ص ٥٧ .

يقول : « لقد استبان لكل ذى عقل أن محمداً ليس بساحر ولا شاعر ، وأن كلامه من كلام رب العالمين ، فحق على كل ذى لب أن يتبعه » ، وفزع عكرمة ابن أبى جهل لما سمع ، فرد قائلا : لقد صبئت ياخالد ، فقال خالد : لم أصبأ ، ولكنى أسلمت فقال عكرمة : والله إن كان أحق قريش ألا يتكلم بهذا الكلام لأنت ، فقال خالد : ولم ؟ فقال عكرمة : لأن محمداً وضع شرف أبيك حين جرح ، وقتل عمك وابن عمك ببدر . فوالله ما كنت لأسلم ولا تكلم بكلامك ياخالد . أما رأيت قريشاً يريدون قتاله ؟ فقال خالد : هذا أمر الجاهلية وحميتها لكنى والله أسلمت حين تبين لى الحق ، وبعث خالد إلى النبي بأفراس كما بعث إليه بإقراره بالإسلام .

التى خالد عمرو بن العاص وهو مقبل من مكة يريد المدينة المنورة ، فقال عمرو أين ياأبا سليمان ؟ قال : والله لقد استقام المنسم ، وإن الرجل لنبى . أذهب والله أسلم ، فحتى متى ؟ فقال عمرو : والله ما جئت إلا لأسلم . فقدما على الرسول ، فتقدم خالد فأسلم وبايع ، ثم دنا عمرو وقال يا رسول الله إنى أبايعك على أن تغفر لى ما تقدم من ذنبى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عمرو بايع ، فإن الإسلام يجب ما قبله ، وإن الهجرة تجب ما قبلها[1] » .

موقف اليهود من المسلمين : نشب النضال بين اليهود والمسلمين منذ رحل النبي إلى المدينة واتخذها مركزاً لنشر دعوته ، فقد رأوا فى محمد وفى دينه منافساً جديداً يوشك أن يقضى على نفوذهم وعلى نفوذ النصارى جميعاً ، وأن ينتزع من الفريقين لواء الزعامة الدينية الذى يتجاذبونه . فقد كان من صميم العرب ومن أكرم بيوتات قريش ، فهو لذلك أقرب إلى نفوس العرب الذين يبغضون اليهود ويضيقون ذرعاً بافتخارهم بالعلم وإذلالهم بالتوراة وكتب بنى إسرائيل . لذلك كان أهل المدينة أسرع إلى قبول دعوة محمد بن عبد الله والانضواء تحت لواء ذلك النبي العربى الذى كان اليهود يستفتحون به عليهم .

وكان اليهود والنصارى فى بلاد العرب يتنازعون النفوذ الأدبى فى الجزيرة

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ١٠٢ — ١٠٤ .

ويتنافسون فى كسب احترام العرب وفى الدعاية بينهم كل لدينه . وكان اليهود يستنصرون على المشركين فى الجاهلية ويقولون : اللهم انصرنا بنبى آخر الزمان . وإذا سألهم العرب قالوا : إن نبياً قد قرب زمانه ، وسيكون لمن اتبعه العز والنصر إلى يوم القيامة ، ويتوعدون العرب باتباعه والاستنصار به عليهم .

لذلك كان اليهود يكرهون محمداً وينظرون إليه وإلى دعوته بعين الخوف من أول يوم طلع عليهم من أفق يثرب . ثم ازداد خوفهم منه وظهر حسدهم له عندما رأوا الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً ، فأخذوا يكيدون للإسلام والمسلمين بالدس والإرجاف ، ثم بالمراء والجدل فيما يعلمون وما لا يعلمون . وإذا سئلوا عن شىء مما فى كتبهم حرفوا الكلم عن مواضعه ، وألبسوا الحق بالباطل ليكسبوا ولاء المشركين بالغض من شأن الإسلام ، لا لسبب سوى كراهيتهم للرسول لما اختصه الله من الرسالة . وقد نعى الله عليهم ذلك بقوله ﴿ بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ﴾ (سورة البقرة ٢ : ٩٠) وكانوا يسعون فى دين الله معاجزين ، لكى يفتنوا الناس عن دينهم ويوهنوا عقائدهم بالشبه والأباطيل . وفى ذلك يقول الله تعالى ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم ، من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره إن الله على كل شىء قدير ﴾ (سورة البقرة ٢ : ١٠٩) . كل ذلك والنبى يصابرهم ويصبر عليهم ويغض النظر عن نفاق من نافق منهم ، ويسوى بينهم وبين المسلمين فى المصالح ، ويحترم شعائرهم . وقد وفى لهم بوعودهم ، مكتفياً بعقاب الأشخاص الذين كانوا يخالفون عهوده ، ولم يأخذ البرىء منهم بجرم المسىء كما فعل بكعب ابن الأشرف وسلام بن أبى الحقيق . فقد اكتفى بقتلهما دون أن يتعرض لجماعة اليهود .

ومع ذلك كان الرسول يرفق باليهود إذا نقضوا عهده أو حاربهم فانتصر عليهم ، فكان لا يعاقبهم إلا بمقدار ما يكف أيديهم عنه . وكان يحكم فيهم من يختارونه بأنفسهم . وصفوة القول أن معاملة الرسول إياهم كانت أيسر وأخف من معاملته قريشاً وغيرها .

ولما رأى اليهود جماعة المسلمين تتكاثر والإسلام ينتشر وأن الله يفتح لقبوله قلوب العرب ، وأن جميع مصالح اليهود القائمة على ارستقراطية دينية فرضوها على العرب بقولهم أنهم شعب الله المختار وأبناء الله وأحباؤه . أصبحت مهددة باستقرار الأمر لهؤلاء العرب الأميين — لما رأوا ذلك أيقنوا ألا سبيل للمحافظة على هذه المصالح وضمان اطمئنانهم فى الجزيرة إلا بالقضاء على محمد وأتباعه .

ولذلك مافتئوا يكيدون للإسلام والمسلمين بكافة الطرق . وينتهزون الفرص لمحاولة قتل الرسول تارة وتأليب سائر العرب على المسلمين تارة أخرى ، وتحزيب الأحزاب عليهم ، ثم خيانة عهود المسلمين ونقضها فى أحرج الأوقات ، وممالأة الأعداء عليهم ليستأصلوا شأفتهم ويبيدوهم عن آخرهم .

فلما أخفقت هذه المحاولات ، وأخفق العرب فى القضاء على محمد ، جمع اليهود شملهم وتحزبوا أحزاباً . وقاموا بأنفسهم للإغارة على المدينة ليدهموا المسلمين فيها ، فسعى بذلك يهود خيبر إلى بنى عمهم فى تيماء وفدك ووادى القرى . ولا غرو فإن فى خيبر أشراف بنى النضير الذين ساروا إليها بأموالهم ، وأصبحت بيدهم دفة الأمور فيها .

ولما علم الرسول بتأهب اليهود للاغارة على المدينة والقضاء على الإسلام فى معقله ، عاجلهم وسار إلى خيبر ، معقد هذا الحلف وصاحبة الزعامة فيه ، والرأس المدبرة له المهيمنة عليه ، فقضى عليها ليتفرغ لأداء الرسالة وتبليغ دين الله إلى خلقه . ولعل فيما أوردناه عن موقف اليهود حيال الرسول وعدائهم لدعوته ، ومكايدهم التى دبروها له ، مايدحض أقوال بعض ذوى الأغراض من المستشرقين الذين ذهبوا إلى أن الغرض الأول من إغارة المسلمين على اليهود إنما هو الحصول على الغنائم ، من ذلك ما يقوله مرجليوث (١) .

عاش محمد هذه السنين الست بعد هجرته إلى المدينة على التلصص والسلب والنهب . ولكن نهب أهل مكة قد يبرره طرده من بلده ومسقط رأسه وضياع

Nuhammad and the Rise of Islam· pp· 362-3 (١)

أملاكه . وكذلك بالنسبة إلى القبائل اليهودية فى المدينة ، فقد كان هناك على أى حال سبب ما — حقيقياً كان أو مصطنعاً — يدعو إلى انتقامه منهم . إلا أن خيبر التى تبعد عن المدينة كل هذا البعد ، لم يرتكب أهلها فى حقه ولا فى حق أتباعه خطأ يعتبر تعدياً منهم جميعاً ، لأن قتل أحدهم رسول الله لا يصح أن يكون سبباً يتذرع به للانتقام » . ولم يطمئن مرجليوث إلى مارواه الواقدى من أن الرسول صلى الله عليه وسلم وصل إلى علمه أن يهود خيبر يعدون العدة لشن الغارة على المدينة .

ثم ينتهى مرجليوث من ذلك كله إلى أن المسلمين إنما غزوا خيبر للحصول على ما فيها من الغنائم ، وأن الحجة التى تذرعوا بها ، وهى أن أهلها لم يكونوا على الإسلام ، ينطوى تحتها شن الغارة على العالم خارج المدينة ، وإلى أن الرسول قد غير سياسته مع اليهود ومع المشركين حيث يقول : « وهذا يبين لنا ذلك التطور العظيم الذى طرأ على سياسة الرسول (صلى الله عليه وسلم) منذ أيامه الأولى فى المدينة ، عند ما أعلن مساواة اليهود بالمسلمين فى المعاملة ، وأن يترك الوثنيين لا يتعرض لهم بسوء ، طالما كانوا بعيدين عن إظهار عدائهم للمسلمين . أما الآن فإن مجرد القول بأن جماعة ما ، مشركة أو يهودية أو غير مسلمة ، يعتبر كافياً لشن الغارة عليها . وهذا يفسر لنا تلك الشهوة التى سيطرت على نفس محمد ، والتى دفعته إلى شن غارات متتابعة ، كما سيطرت على نفس الإسكندر من قبله ونابليون من بعده » .

وهذا يبين لنا السبب الذى حدا مرجليوث على أن يقول : إن استيلاء محمد على خيبر يبين لنا إلى أى حد أصبح الإسلام خطراً يهدد العالم » .

وإنا لنعجب لهذا الأسلوب الذى ذهب إليه مرجليوث ومن نحا نحوه فى قراءة التاريخ . فإذا حدثه التاريخ أن الرسول أتى بعين (جاسوس) أقر لهم بأنه بعث إلى خيبر يعرض عليهم معونة فدك ونصرتها على أن يجعلوا لهم ثمر خيبر ، أو قال له أن الذى قبض على هذا العين إنما هو على بن أبى طالب الذى ذهب إلى فدك لما علم الرسول أن لهم جمعاً يريدون أن يمدوا يهود خيبر ، شك مرجليوث

في صدق التاريخ وأمانته ، لأن صدق التاريخ في هذه الحالة يدحض دعواه ويصد هجماته على الرسول والمسلمين .

وإذا روى التاريخ لكل غزوة أسبابها الملحة التي يصح أن تحمل الرسول على أنواع من العقاب أقسى مما كان يفعل، وروى إلى جانب هذه الغزوات حرص الرسول على الوفاء بعهوده ودفعه الديات لمن قتلهم أتباعه خطأ ، وعفوه عن كل معتد إذا أتاه مسلماً — إذا حدثه التاريخ بكل ذلك أصم أذنيه وادعى أن الرسول قد غير سياسته التي أعلنها في أيامه الأولى بالمدينة .

أما دعوى مرجليوث أن المسلمين لم يهاجموا خيبر إلا رغبة في الحصول على أموالها ، فلعل في خروج المسلمين الأولين بمكة عن أموالهم وتحملهم ألوان الفتنة وآلام العزلة ثم الاغتراب والهجرة ، ولعل في إيواء الأنصار إخوانهم المهاجرين وقسمتهم ثرواتهم عليهم ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ (سورة الحشر ٥٩ : ٩) ، ولعل في الآلام التي تحملوها والفقر والجوع والفزع الذي ذاقوا مرارته في غزوة الأحزاب وفي غيرها — لعل في ذلك كله ما يدحض تلك الفرية التي رمى مرجليوث المسلمين بها .

غزوة خيبر (٨ هـ) غزوة مؤتة (٨ هـ)

لما أزال الله عن المدينة خطر الأحزاب من قريش ومن والاهم ، حول الرسول اهتمامه إلى اليهود ، ليؤدبهم على نقضهم العهود وتحالفهم مع أعدائه من مشركي مكة وغطفان ، فابتدأ ببني قريظة الذين خذلوه ونقضوا عهده ، ثم أمضى شطراً كبيراً من السنة السادسة في محاربة يهود وادي القرى وفدك ، وأخذ يعد العدة لغزو خيبر التي آوى إليها سادة بني النضير وأشرافهم ، وأخذوا يعقدون المحالفات ويفاوضون يهود فدك على نصرتهم ، على أن يكون لهم ثمر خيبر ، وتقع على مسيرة خمسة أيام من المدينة . كما أرسل زيد بن حارثة في رجب من هذه السنة في غزوة وادي القرى ، فجرح فيها وقتل كل أصحابه . فنذر أن يعيد عليهم الكرة إذا شفي من جراحه ، فعاد إليهم في رمضان من هذه السنة .

فلما عاد الرسول من العمرة في شهر ذي الحجة سنة ٩ هـ أقام بالمدينة أياماً ،

ثم سار إلى خيبر (المحرم سنة ٧ هـ) ، فوصل إلى وادى الرجيع[١] فى الليل[٢]، وأناخ بها . فلما أصبح الرسول ركب إلى خيبر دون أن يحس أهلها ، حتى بلغها والعمال قد خرجوا بمساحيهم ومكاتلهم[٣] ، فلما رأوه رجعوا هاربين إلى حصونهم . ولما همت غطفان بنصرة خيبر وجدوا الرسول قد نزل بوادى الرجيع بينهم وبين خيبر ليحول دون مساعدتهم إياهم فرجعت ، وأخذ الرسول فى مهاجمة الآطام (الحصون) ، فاستولى على حصن ناعم ثم حصن القموص ، وهو حصن ابن أبى الحقيق ، وامتنع على المسلمين حصن الصعب بن معاذ مدة حتى جهدوا من طول الحصار ونفد ما عندهم من القوت .

وقد جاء إلى الرسول بنو سهم ممن أسلم يسألونه بعض القوت ، فلم يجدوا عنده شيئاً ، فدعا لهم . وقد بلغت الحالة فى جيش المسلمين أن اضطروا إلى أكل الحمر الأهلية ، فنهاهم الرسول عن ذلك وأجاز لهم أكل الخيل ، ثم غدا الجيش فى ذلك اليوم ، ففتح الله عليهم حصن الصعب بن معاذ ، وكان أكثر الحصون وفرة فى الزاد والطعام ، فتحسن مركز المسلمين واشتد ساعدهم على الحصار . ثم تداعت بقية الحصون إلا حصنى الوطيح والسلالم ، فقد اعتصم بهما اليهود ودافعوا عنهما حتى قطع الرسول عنهم الماء وأيقنوا بالهلاك ، فسألوه أن يحقن دماءهم ففعل ، ثم سألوه أن يبقيهم على الأرض يزرعونها ، لأنهم أعلم بها وأعمر لها على أن يكون لهم نصف ما تغله الأرض ويؤتيه النخيل ، فأجابهم الرسول إلى ذلك وقال لهم : « على أنا إن شئنا أخرجناكم » . فلما سمعت فدك بغزو خيبر وما عاهد النبى أهلها عليه ، صالحوه على مثل ذلك بدون حرب ولا قتال . وكذلك صنع

---

(١) هو غير وادى الرجيع القريب من الطائف الذى يسكنه بنو الرجيع الذين عدوا على المسلمين فى غزوة بنى الرجيع . قال ياقوت فى معجمه : « وهذا غير الأول ، لأن ذلك قرب الطائف . وخيبر من ناحية الشام على خمسة أيام من المدينة ، فيكون بين الرجيعين أكثر من خمسة عشر يوماً » .

(٢) روى الترمذى فى جامعه (ص ١٩٨) عن مالك بن أنس عن حميد عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج إلى خيبر أتاها ليلا ، وكان إذا جاء قوماً بليل لم يغر عليهم حتى يصبح .

(٣) المسحاة : أداة من أدوات الزراعة لجرف الطين ، والمكاتل : جمع مكتل كمنبر وهو زنبيل يسع خمسة عشر صاعا .

يهود تيماء إلا وادى القرى ، فقد تمسكوا وأبوا حتى هاجمهم الرسول واضطرهم إلى التسليم ؛

وفى السنة الثامنة للهجرة بعث الرسول إلى الغساسنة ، وكانوا من العرب الضاربين على حدود بلاد الشام ، رسولا يدعوهم إلى الإسلام ، فقتلوه . فأنفذ إليهم جيشاً يتألف من ثلاثة آلاف بقيادة مولاه زيد بن حارثة ، فلقيته جموع هرقل إمبراطور الروم عند مؤتة [١] وهى قرية من قرى البلقاء فى حدود الشام ، فأبلى زيد بلاء حسناً فى الجهاد حتى استشهد فى سبيل الله ، فتولى إمرة المسلمين عبد الله بن رواحه ، فاستشهد ، وكان فى الخامسة والخمسين من عمره فخلفه جعفر بن أبى طالب ، فلحق به ؛ ثم أخذ الراية خالد بن الوليد ، فأبلى فى الجهاد، حتى لقد قال : اندق يومئذ فى يدى سبعة أسياف، فما ثبت فيها صفيحة يمانية [٢] ، ثم عاد بجيش المسلمين إلى المدينة .

وقد نزل الوحى على الرسول بخبر من استشهد من القواد فى هذه الغزوة ، فصعد المنبر وخطب المسلمين خطبة أخبرهم فيها بقتل زيد ومن خلفه فى قيادة الجيش إلى أن قال : « ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله خالد بن الوليد ففتح الله عليه « فسمى سيف الله » .

فتح مكة أو غزوة الفتح (سنة ٨ هـ)

نقض أهل مكة الهدنة التى عقدت بينهم وبين الرسول فى السنة السادسة للهجرة ، فأغاروا على إحدى القبائل المحالفة للمسلمين ؛ فاستجارت هذه القبيلة بالرسول ، فسار إلى مكة فى عشرة آلاف من المسلمين . ولما علم أهل مكة بقدوم هذا الجيش خرج قادتهم خاضعين . وكان فى مقدمتهم أبو سفيان فأكرمه الرسول. ودخل المسلمون مكة ، وسار رسول الله إلى الكعبة وطاف بها سبع مرات ، ثم أمر بإزالة التماثيل والصور ، وحطم أصحابه الأصنام وهو يقول ﴿ قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ﴾ (سورة بنى إسرائيل ١٧ : ٨١) .

---

(١) بالضم ثم واو مهموزة وتاء مثناة من فوقها ، كانت تطبع بها السيوف ، وإليها تنسب المشرفية من السيوف .

(٢) ابن الأثير : أسد الغابة جـ ٢ ص ١٠٢ .

ولا يفوتنا أن نبحث العوامل التى ساعدت على فتح مكة بهذه السهولة ، وما كان من انقياد سادة قريش وأصحاب الرأى فيهم إلى الرسول ، بعد ما أذاقوه هو والمسلمين من ألوان التعذيب ، حتى هاجر من مكة إلى المدينة حيث آواه الأنصار ونصروه على أهله . ومن نظر فى أمر قريش ومسلكها مع الرسول ، عرف أن شيوخها وشبابها كانوا ذوى حماسة شديدة فى جهاد الإسلام أول الأمر ، وكان انتصار الرسول لايزيدهم إلا شدة وحماسة . فلما تكرر هذا الانتصار وعظم أمره فى جميع البلاد العربية ، أخذ الشبان وذوو المطامع يترددون ويتساءلون عن أى الأمرين أوفق لهم : رأوا قوة المسلمين وضعف المشركين ، فكانوا يودون لو انضموا إلى هذه القوة الناشئة فأفادوا واستفادوا . ولكنهم كانوا يخشون اتهام قومهم إياهم ، وضياع ما كانوا يستمتعون به من الحرية : فمنهم من تغلب على هذه الأوهام فذهب إلى المدينة وأسلم ، كخالد بن الوليد ؛ ومنهم من اشتد تردده فاعتزل الطرفين حيناً . حتى إذا ما وضح الصبح لذى عينين وتبين له أن أمر محمد قد ظهر على قريش ، أسرع فأدرك الفرصة قبل ضياعها وأسلم قبل الفتح كعمرو بن العاص . فقد اعتزل البلاد العربية وذهب إلى أرض محايدة هى أرض الحبشة ليرقب الأمر ، فرأى ما كان من حسن الصلة بين المدينة والنجاشى وأيقن أن أمر الإسلام سينتهى بالظفر ، وأنه إن أراد أن يدخر لنفسه مكانة بين أقرانه الذين سبقوه إلى الإسلام ، لم يكن بد من أن يسلم طائعاً قبل أن يسلم كارهاً .

ولقد روى عن عبد الرحمن بن يزيد بن أسلم عن أبيه قال : قال عمر ابن الخطاب لعمرو بن العاص : « لقد عجبت لك فى ذهنك وعقلك كيف لم تكن من المهاجرين الأولين ؟ فقال عمرو : وما أعجبك يا عمر من رجل قلبه بيد غيره ، لايستطيع التخلص منه إلا إلى ما أراد الذى هو بيده ! فقال عمر : صدقت » .

ولم يكن هذا أمر عمرو وحده ، وإنما كان أمر طائفة كبيرة من الذين أسلموا متأخرين ، ولسنا نشك فى أن عمراً حين أسلم ، قد وثق بأن أمر الإسلام

ليس مقصوراً على بلاد العرب ، بل هو متجاوزها إلى غيرها ، وأنه قد تنبأ بما سيكون للمسلمين من فتح[1] .

كان فتح مكة واستيلاء المسلمين على البيت الحرام (الكعبة) من أكبر العوامل التى ساعدت على نجاح الدعوة الإسلامية ؛ فقد اعتقدت القبائل العربية التى رفضت الدعوة أول الأمر ، أن المسلمين تلحظهم عناية لاقبل لغيرهم بها ، فسارعوا إلى الإسلام ودخلوا فيه أفواجاً .

وبعد أن تم للرسول النصر على أهل مكة ، أخضع فريقاً من البدو كان يهدد هذه المدينة ، كما أخضع مسيحيى نجران وأمراء مهرة وعمان وقبائل اليمن ونجد . ولم يأت عام ١٠ ﻫ (٦٣١ م) حتى كانت بلاد العرب جميعها خاضعة له . وبذلك دالت دولة الأصنام واستوصلت الوثنية من بلاد العرب .

يقول ندلكة : « ولو أن القبائل العربية استطاعت أن تعقد فيما بينها محالفات حربية دقيقة ضد محمد للدفاع عن طقوسهم وشعائرهم الدينية والذود عن استقلالهم ، الأمر الذى كان ذا أهمية فى نظرهم ، لأصبح جهاد محمد فى مناجزتهم جهاداً فى غير عدو . إلا أن عجز العربى القح عن أن يجمع شتات القبائل المتفرقة ، وأن يوحد بين البطون الممزقة للعمل تحت لواء واحد — حتى ولو كان ذلك فى سبيل الظفر بغايات سامية وأغراض خطيرة الشأن — فإن ذلك قد سمح له أن يخضعهم لدينه القبيلة تلو الأخرى ، وأن ينتصر عليهم بكل الوسائل ، تارة بالقوة والقهر ، وتارة بالمحالفات الودية والوسائل السلمية . وإن الهدايا الثمينة التى كان الرسول يتألف بها قلوب الناشئين فى الدين ، وكذلك خاصة القوم وصفوتهم الذين لم يتغلغل الإيمان بعد فى قلوبهم ، وكان لها أثر كبير فى قلوب العرب ، حتى أصبحوا يدخلون فى دين الله أفراداً وجماعات » .

على أن ندلكة لم يفطن لما كان من اجتماع العرب على حرب الرسول فى غزوة الأحزاب . فقد حزبوا الأحزاب عليه ، وأغاروا على المدينة وحاصروها ، وضيقوا على أهلها ، حتى كادوا يقضون على المسلمين فيها ، لولا ما أبداه الرسول من المهارة الحربية والسياسية . فقد أمر بحفر الخندق ليحول بين الأحزاب وبين

---

(١) انظر كتاب تاريخ عمرو بن العاص للمؤلف ص ٣٠ ، ٣١ .

دخلوا المدينة ، كما أمر نعيم بن مسعود أن يخذل عنه غطفان وبنى قريظة وقريشاً ويوقع بينهم — لما يعلمه من حسن صلته بهم — كما ذكرنا فى غزوة الأحزاب .

غزوتا حنين والطائف (سنة ٨ هـ) :

ولم يكد يمضى على الرسول بمكة خمسة عشر يوماً بعد الفتح ، حتى سمع بقدوم هوازن ، وعلى رأسها مالك بن عوف (من بنى نصر) ومعهم ثقيف . وقد حشد مالك خلف الجند النساء والأطفال والأموال ليحول بينهم وبين الفرار . فلما أشار عليه دريد بن الصمة بإرجاعهم لئلا يثقلوا الجيش ويعوقوا حركته ، أبى ونزل حنيناً ، وأوصى رجاله أن يكسروا جفون (أغماد) سيوفهم إذ لقوا المسلمين وأن يحملوا عليهم حملة رجل واحد .

سمع الرسول بهؤلاء فندب من يتعرف أمرهم . ولما عرف أنهم قد أعدوا عدتهم للحرب ، أخبر الرسول بذلك ، فخرج إليهم على رأس عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار الذين فتح الله بهم مكة وألفين من أهلها . واستعار الرسول من صفوان بن أمية — وكان لايزال على الشرك — مائة درع ، ثم خرج . حتى إذا بلغوا حنيناً فى عماية الصبح ، راعهم انقضاض القبائل عليهم من هوازن وثقيف من شعب الوادى ، ففزع المسلمون واختل نظامهم ، ولم تغن عنهم كثرتهم شيئاً ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، ثم ولوا مدبرين وأقام الرسول ينادى : أين أيها الناس ؟ هلموا إلى ! أنا رسول الله محمد بن عبد الله . ولم يبق حوله إلا نفر قليل من المهاجرين والأنصار وأهل بيت الرسول ، منهم العباس بن عبد المطلب ممسكا بعنان بغلة الرسول ، وأبوسفيان بن الحارث .

واشتد الحال على المسلمين وعظم البلاء حتى كانوا لايسمعون نداء الرسول لهم . وقال كلدة أو جبلة أخو صفوان بن أمية : ألا بطل السحر اليوم . وقد حدثت شيبة بن عثمان بن أبى طلحة نفسه بالانتقام من الرسول وأخذ ثأر أبيه الذى قتل يوم أحد . قال : فأردت برسول الله صلى الله عليه وسلم لأقتله ، فأقبل شىء حتى تغشى فؤادى ، فلم أطق ذلك ، فعلمت أنه ممنوع منى (ابن هشام جـ ٤ — ص ٧٢ — ٧٣) . عند ذلك أمر الرسول العباس بن عبد المطلب — وكان جهورى الصوت بديناً — أن يصيح فى الناس : يامعشر الأنصار ! يا أصحاب

السمرة[١] . فأجابوه : لبيك لبيك . وسارعوا ناحية الرسول يتراكضون إليه ، حتى كان الرجل إذا عجز عن اقتحام السبيل إلى الرسول على بعيره نحره وقصد إليه رجلا .

واجتمع الرسول نحو مائة من الأنصار الذين أعز الله بهم الإسلام ، فاستقبلوا الأعداء بقلوب مطمئنة ، وقام العباس ينادى : يا للأنصار ! يا للخزرج فتكاثر الناس حوله . فلما أصفر الصبح وخرج العدو من مكمنه التقوا به وجهاً لوجه ، ثم اجتلد القوم واستحر القتال . وقال الرسول : « الآن حمى الوطيس » . وقد أهوى على بن أبى طالب إلى صاحب راية المشركين ، فضرب عرقوبى جمله ، ووثب أحد الأنصار على الرجل فقتله ، وتمت هزيمة المشركين وتفرقت فلولهم . فذهب مالك بن عوف ببعضهم إلى الطائف ، وذهب آخرون إلى سهل أوطاس ونخلة ، وتتبع المسلمون من ذهبوا إلى أوطاس ومن ذهبوا إلى نخلة ، وانصرف الرسول من وادى حنين إلى الطائف فى أثر مالك بن عوف ليحاصرها . وقد أمر بحمل السبايا والغنائم إلى الجعرانة[٢] حتى يعود من حصار الطائف . ثم سار الرسول إلى الطائف مطارداً فلول ثقيف الذين لجئوا إليها ، ومعهم مالك بن عوف؛ حتى إذا دخلوا مدينتهم ،أغلقوا عليهم أبوابها واعتصموا بالحصون يرمون المسلمين بالنبال من فوقها . وكان الرسول قد عسكر قريباً منهم ، فأمر أصحابه بالتقهقر قليلا حتى لا يستهدفوا لنبل المشركين ، مكتفياً بحصارهم . ولكن ثقيفاً صمدت لقتال المسلمين وحصارهم خمسة عشر يوماً (أو بضعة وعشرين على رواية أخرى) ، وظلت ترميهم بالنبال مطمئنة إلى مناعة أسوارها ووفرة الغذاء والمئونة فيها[٣] ، حتى اضطر الرسول إلى أن ينصب المنجنيق[٤]

---

(١) هى الشجرة التى عقدت تحتها بيعة الرضوان ، وكان يطلق عليها السمرة أو السدرة فكان يناديهم بذلك تذكيراً لهم بعهدهم للرسول فى البيعة .

(٢) بكسر أوله وسكون العين وتخفيف الراء ، وبعضهم يكسر العين ويشدد الراء . هى ماء بين الطائف ومكة ، وهى إلى مكة أقرب . وقال أبو العباس القاضى : أفضل العمرة لأهل مكة ومن جاورها من الجعرانة ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتمر منها . انظر هذا اللفظ فى معجم البلدان لياقوت .

(٣) روى ابن سعد (جـ٢ ص١١٤) أن ثقيفارمّوا حصنهم وأدخلوا فيه مايصلحهم لسنة.

(٤) قال ابن هشام (جـ ٤ ص ١٢٨) إن أول من رمى فى الإسلام بالمنجنيق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رمى به أهل الطائف . والمنجنيق أداة ترمى بها الحجارة على الأعداء .

ويرميهم به ، كما سير إليهم جنده فى الدبابات(١) والضبور(٢) ليتقى بها المسلمون النبل الموجه من عل . فلم يلبثوا — وكانوا أهل حذق ومهارة — أن احتالوا لصدها عنهم بإلقاء قطع الحديد المحمية عليهم ، فأحرقوها واضطروا من فيها إلى إلى الخروج منها ، ثم رموهم بالنبل ، فقتلوا منهم رجالا . فلم يجد الرسول بدا من أن يهددهم بإتلاف بساتينهم وتحريق كرومهم ، وهى عزيزة عليهم لما لها من الشهرة وبعد الصيت فى جميع أرجاء جزيرة العرب ، حتى غدت الطائف بفضل هذه الكروم جنة فيحاء وسط هذه الصحراء القاحلة . وأخذ المسلمون فى تنفيذ أمر الرسول ، فعز على ثقيف كرومها . وقد رأت الجد من الرسول وأتباعه ؛ فبعثت إليه من يخبره « بأنه ليس بالطائف مال أبعد رشاء ولا أشد مؤنة ولا أبعد عمارة من مال بنى الأسود ، وأن محمداً إن قطعه لم يعمر أبداً . فيأخذه لنفسه أو ليدعه لله والرحم ، فإن بيننا وبينه من القرابة مالا يجهل » (ابن هشام ٤ : ١٢٩) وأقام الرسول على حصارهم ، حتى إذا دنا شهر ذى القعدة (وهو من الأشهر الحرم ، فك عنهم الحصار ليرجع إليهم بعد انقضاء الأشهر الحرم .

عاد الرسول إلى الجعرانة حيث كانت تنتظره أسلاب هوازن وسبيها ؛ ووافاه وفد هوازن مسلمين تائبين ، وطلبوا منه أن يرد عليهم أموالهم ومن سبى منهم . فخيرهم بين أخذ السبى أو الأموال ، فآثروا نساءهم على أموالهم ، فنزل لهم الرسول عن كل من دخل منهم فى ملكه أو ملك بنى عبد المطلب ، وقال لهم : إذا صليت فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين بالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا ، فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم . ففعلوا ؛ فقال رسول الله أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وقال المهاجرون والأنصار :

---

(١) الدبابة أداة من أدوات الحرب يدخل المحاربون فى جوفها ويدفعونها إلى جدار الحصن ، فينقبونه وهم فى داخلها يحميهم سقفها وجوانبها من نبل العدو .

(٢) الضبر ويجمع على ضبور كسهل وسهول : أداة كالدبابة تقريباً تصنع من الخشب المغطى بالجلد ، فيكمن فيها المهاجمون ويقربونها للحصن لقتال أهله وهم فيها ، وهى أشبه بالسيارات المدرعة اليوم . روى ابن هشام (ج ٤ ص ١٢٢) أن عروة بن مسعود وغيلان ابن سلمة لم يشهدا وقعة حنين ولا حصار الطائف ، لأنهما كانا يتعلمان صنعة الدبابات والمجانيق والضبور مما يدل على مبلغ اهتمام ثقيف بحرب الرسول وإعدادها المعدات المختلفة لتلك الحرب التى شنتها عليه وهو فى مكة ، فكانت وقعة حنين .

وما كان لنا فهو لرسول الله ، فقال الأقرع بن حابس أما أنا وبنو تميم فلا ، وقال عيينة بن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا ، وقال عباس بن مرداس : أما أنا وبنو سليم فلا . فأجابه بنو سليم بأنهم نزلوا عمن فى أيديهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم[١] ؛ فقال عليه الصلاة والسلام لمن احتبس نصيبه من سبى هوازن وضن به : ادفعودها ولكم بكل إنسان ست فرائض من أول شىء أصيبه . فردوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم ، وأنفذ الرسول بحكمته لهوازن كل من أخذ منها . ومما هو جدير بالملاحظة أن هؤلاء الذين رفضوا كانوا من الذين خرجوا مع رسول الله من مكة فى حرب هوازن ، فهم ممن أسلموا يوم الفتح وليسوا من المهاجرين ولا من الأنصار الذين خالط الإيمان قلوبهم وقام الإسلام على أكتافهم .

أهل[٢] الرسول بالعمرة من الجعرانة ، فرجع إلى مكة وفرق الغنائم فى المؤلفة قلوبهم من سادات قريش وغيرها من قبائل العرب . على أن الأنصار قد تغيرت نفوسهم لذلك بعض الشىء ، وساورتهم الشكوك ، فظنوا أن الرسول صار فى غنى عنهم بعد أن لقى قومه . فلم يعد يحفل بهم ولا يعنى بشأنهم كما كان من قبل . فلما بلغ الرسول ذلك أمر سعد بن عبادة أن يجمع له الأنصار ، فجمعهم وخطبهم تلك الخطبة التاريخية التى يتجلى فيها حسن سياسته وقدرته على جذب النفوس وتأليف القلوب إليه ، ومهارته فى إعداد سامعيه ، وتهيئتهم لقبول ما يريد أن يلقيه عليهم والتأثر به إلى أبعد حد . فقد بين للأنصار فى عبارة سلسلة أخاذة نعمة الإسلام عليهم ، إذ هداهم بعد الضلالة وألف بين قلوبهم بعد العداوة ، ثم ذكر لهم بالثناء تصديقهم رسالته وإيواءهم إياه ومواساتهم له ، ثم عتب فى كياسة وظرف تطلعهم إلى هـذا الفىء الذى أفاءه الله عليهم ، ففرقه فى حديثى عهد بالإسلام تطييباً لنفوسهم عما أصابهم من القتل والهزيمة ، معتمداً على حسن إسلام الأنصار وصدق رغبتهم فى نشر الدين وإعلاء كلمة الله . ثم أكد محبته إياهم وإيثارهم على غيرهم من العرب ، وأخيراً أعلن إليهم أنه منهم ، ودعا لهم ولأبنائهم

---

(١) ابن هشام ج ٤ ص ١٣٥ — ١٣٦ .

(٢) أهل بالحج أو بالعمرة : إذ أحرم من الميقات (وهو المكان الذى يلبس فيه قاصد مكة لحج أو عمرة لباس الإحرام) ونوى الحج أو العمرة .

وأبناء أبنائهم . فلا عجب إذا بكى الأنصار بعد هذه الخطبة الرائعة وطابت نفوسهم برضاء رسول الله عليهم وعدوا ذلك غنماً عظيماً .

روى الطبرى (ج ٣ ص ١٣٨ — ١٣٩) أنه لما اجتمع الأنصار برسول الله حمد الله وأثنى عليه بالذى هو أهله ثم قال : « يامعشر الأنصار ! ماقالة بلغتنى عنكم وموجدة وجدتموها فى أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا : بلى ! لله ولرسوله المن والفضل ، فقال : ألا تجيبونى يامعشر الأنصار ؟ قالوا : وبماذا نجيبك يارسول الله ؟ لله ولرسوله المن والفضل ! قال : أما والله لو شئتم لقلتم فصدقتم ولصدقتم : أتينا مكذباً فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلا فآسيناك . وجدتم أنفسكم يامعشر الأنصار فى لعاعة[1] من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم . أفلا ترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار . ولو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً . لسلكت شعب الأنصار : اللهم ارحم الأنصار . وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار . فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قسما وحظاً . ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرقوا » .

ثم عزم الرسول على العودة إلى المدينة ، فأقام على مكة عتاب بن أسيد[2] ، ثم سار إلى المدينة ، فوصل إليها فى شهر ذى القعدة سنة ٨ للهجرة .

ظنت ثقيف ، وقد رأت جيش المسلمين يتراجع عن الطائف دون أن ينال منهم شيئاً أو أن يكرههم على التسليم ، أنها قد امتنعت بحصونها على الرسول وأصحابه وانتصرت عليهم ، وهم الذين دانت لهم جزيرة العرب كلها ، فاعتزت ثقيف بهذا النصر وفرحت به ، ثم شمخت بأنفها على من جاورها من القبائل ، وعز عليها أن يقوم عروة بن مسعود فوق علية (غرفة فى أعلى البيت) له ينادى

---

(١) اللعاع : كغراب نصيب قليل من الدنيا .

(٢) وفى رواية أخرى للطبرى (ج ٣ ص ١٣٢) أنه استخلف أبا بكر على أهل مكة أمره أن يقيم للناس الحج ويعلم الناس الإسلام وأن يؤمن من حج من الناس .

الصلاة ويدعو إلى دين ذلك النبي الذى يغض من شأن طاغيتهم وصنمهم «اللات»، فرشقوه بالنبال حتى قتلوه . عندئذ لجأ ابنه مليح ومعه قارب بن الأسود إلى الرسول — وقد أسلما — « يريدان فراق ثقيف وألا يجامعاهم على شيء أبداً[1] » .

ولا غرو فقد أصبحت ثقيف أشد على المسلمين من قريش فى عهد نضالها مع الرسول . وقد آوى الرسول هذين اللاجئين ، كما آوى العبيد الذين انضموا إليه عند حصار الطائف وأعتقهم . ولم تدر ثقيف أن الرسول إنما عدل عن حصارها وتركها لحصار أطول وأشد ، فقد صارت بوثنيتها فى الطائف فى عزلة عن سائر العرب حولها ، والذين أسلموا وأصبحوا يناصبونها العداء ويعتبرون أنفسهم فى حالة حرب معها لمناوأتها الإسلام وتعذيبها من أسلم من أهلها ، كما فعلت مع عروة ومع هؤلاء العبيد .

وقد أحست ثقيف بشدة وطأة هذا النوع من الحضارة وثقله عليها . روى ابن هشام (ج ٤ ص ١٩٥ — ١٩٦) أن عمرو بن أمية أتى « عبد ياليل » — وكان بينهما شيء من الجفاء - فقال له : « إنه قد نزل بنا أمر ليست معه هجرة . إنه قد كان من أمر هذا الرجل (يعنى الرسول) ما قد رأيت ، وقد أسلمت العرب كلها ، وليست لكم بحربهم طاقة ، فانظروا فى أمركم ، فعند ذلك ائتمرت ثقيف بينها وقال بعضهم لبعض : أفلا ترون أنه لا يأمن لكم سرب (نفس) ولا يخرج

---

(١) لما قدم الرسول المدينة بعد حصار الطائف وفد عليه عروة بن مسعود مسلماً ، وهو من سادات ثقيف . وكان فى أثناء حصار الطائف فى جرش (من مخاليف اليمن) يتعلم صناعة الدبابات والضبور التى عزمت ثقيف على أن تعدها لمهاجمة الرسول فى موقعة حنين . فلما علم بانصراف الرسول عن الطائف وذهابه إلى المدينة ، لحق به حتى قبل إنه أدركه قبل أن يصل إلى المدينة . فلما أسلم استأذن الرسول فى العودة إلى الطائف ليدعو قومه إلى الإسلام . فخشى عليه الرسول عنت أهل الطائف وحذر أن يقتلوه ، فعزم على الذهاب معتمداً على شرف بيته فيهم ورفعة شأنه بينهم وقال للرسول : « أنا أحب إليهم من أبكارهم » . فلما وصل إلى الطائف دعا قومه إلى الإسلام ، حتى إذا كان الفجر صعد إلى علية له ودعا من فوقها إلى الصلاة والإيمان بالله ، فاجتمعوا عليه ورموه بالنبل ، فمات مغتبطا باستشهاده فى سبيل الله ، وطلب أن يدفن مع من استشهد من المسلمين فى حصار الطائف فدفن معهم . ابن هشام ج ٤ ص ١٩٤ — ١٩٥ ، ١٩٩ .

منكم أحد إلا اقتطع ؟ فائتمروا بينهم وأجمعوا على أن يرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا ، كما أرسلوا عروة، فكلموا عبد ياليل بن عمرو بن عمير وكان فى سن عروة بن مسعود ، وعرضوا ذلك عليه . فأبى أن يفعل ، وخشى أن يصنع به إذا رجع صنع بعروة فقال : لست فاعلا حتى ترسلوا معى رجالا ، فأجمعوا أن يبعثوا معه رجلين من الأحلاف وثلاثة من بنى مالك فيكونوا ستة .. فخرج بهم .. لكى يشغل كل رجل منهم إذا رجعوا إلى الطائف رهطه» ، وحملهم على الالتزام بما التزم به الوفد فأجابوه إلى ذلك .

قدم وفد ثقيف على الرسول فى الشهر الذى عاد فيه من غزوة تبوك (رمضان سنة ٩ هـ) ، وعرضوا عليه إسلامهم ، وشرطوا عليه أن يعفيهم من الصلاة ، وأن يترك لهم طاغيتهم « اللات » لا يهدمها ثلاث سنين ، فأبى إلا أن يدخلوا فى الإسلام من غير قيد ولا شرط ، حتى لقد سألوه أن يتركها سنتين بدلا من ثلاث ثم سنة ثم شهراً فأبى . غير أنه أعفاهم أن يهدموها بأيديهم ، وأرسل معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة (١) .

وقد أمر الرسول عليهم عثمان بن أبى العاص ، وكان أحدثهم سناً ، لكنه كان أحرصهم على التفقه فى الإسلام وتعلم القرآن ، كتب لهم الرسول كتاباً .(٢) فلما بلغوا الطائف أراد المغيرة أن يقدم أبا سفيان فأبى وقال له : أدخل أنت على قومك . ولما شرع المغيرة فى هدم (اللات) قام أهله (بنو معتب) دونه يحمونه خشية أن يرمى كما رمى عروة بن مسعود ، وخرجت نساء ثقيف حسراً يبكين على صنمهم .

على أن أهل الطائف الذين حرصوا على وثنيتهم كل الحرص ودافعوا الرسول عنها بهذه الحماسة ، أصبحوا بعد إسلامهم من أشد العرب حرصاً على الإسلام

---

(١) كان المغيرة بن شعبة من بنى ثقيف أنفسهم : وكان — كما وصفه النووى فى تهذيب الأسماء واللغات (جـ ٢ ص ١٠٩ — ١١٠) — موصوفاً بالدهاء والحلم . وكذلك كان لأبى سفيان بن حرب حرمة ومكانة عند أهل الطائف ، وكان له فيهم قرابة ورحم ، وقد فقئت إحدى عينيه فى حصار الطائف .

(٢) انظر نص هذا الكتاب فى ابن هشام (جـ ٤ ص ٢٠٠).

وذوداً عنه ، حتى فى محنة الردة ، حيث أصبح الإسلام مقصوراً على أهل مكة والمدينة والطائف وقبيلة عبد القيس كما سيأتى .

غزوة تبوك[١] (سنة ٩ هـ) :

وفى السنة التاسعة للهجرة بلغ الرسول عليه الصلاة والسلام أن الروم تجمعوا على حدود فلسطين لقتال المسلمين ، ومعهم بعض القبائل العربية ، فدعا المسلمين إلى الجهاد ، وخرج بالجيش فى طريق الشام . فلما وصل إلى تبوك أقام فيها أياماً فصالحه أهلها ، وجاءت الوفود من أيلة وغيرها ، وصالحوه على دفع الجزية . كما بعث خالد بن الوليد بفريق من الجند إلى دومة الجندل ؛ فأسر صاحبها واستولى عليها ، ثم عاد الرسول إلى المدينة . وكانت غزوة تبوك آخر غزوات الرسول .

أخذت الدعوة الإسلامية فى الانتشار بين كثير من القبائل العربية . من ذلك ما ذكره ابن سعد عن انتشار الإسلام بين أهالى حمير : « كتب رسول الله إلى الحارث ، ومسروح ، ونعيم بن عبد كلال من حمير : سلم أنتم ما آمنتم بالله ورسوله ، وأن الله وحده لا شريك له ، بعث موسى بآياته وخلق عيسى بكلماته . وقالت اليهود «عزير ابن الله» . وقالت النصارى» الله ثالث ثلاثة ، عيسى ابن الله» (قال) : بعث الرسول بالكتاب مع عياش بن ربيعة المخزومى ، وقال : إذا جئت أرضهم فلا تدخلن ليلا حتى تصبح ثم تطهر ، فأحسن طهورك وصل ركعتين ، وسل الله النجاح والقبول واستعذ بالله وخذ كتابى بيمينك ، وادفعه بيمينك فى أيمانهم فإنهم قابلون ، واقرأ عليهم : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين ﴾ الخ . (سورة البينة رقم ٩٨) . فإذا فرغت منها فقل آمن محمد وأنا أول المؤمنين ، فلن تأتيك حجة إلا دحضت ولا كتاب زخرف إلا ذهب نوره ، وهم قارئون عليك ، فإذا رطنوا فقال «ترجموا» ، وقل ﴿ حسبى الله آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير ﴾ . فإذا أسلموا فسلهم قضبهم الثلاثة التى إذا حضروا بها سجدوا

---

[١] بفتح التاء ، على بعد اثنى عشر فرسخاً من المدينة وفلسطين على سكة حديد الحجاز .

وهى من الأثل . قضيب ملمع ببياض وصفرة وقضيب ذو عجز كأنه خيزران ، والأسود البهيم كأنه من سأسم ، ثم أخرجها لحرقها بسوقهم » . قال عياش : « فخرجت أفعل ما أمرنى به رسول الله . حتى إذا دخلت إذا الناس قد لبسوا زينتهم . قال : فررت لأنظر إليهم حتى انتهيت إلى ستور عظام على أبواب دور ثلاثة ، فكشفت الستر ودخلت باب الأوسط ، فانتهيت إلى قوم فى قاعة الدار فقلت : أنا رسول الله ، وفعلت ما أمرنى فقبلوا ، وكان كما قال النبى صلى الله عليه وسلم[1] .

وفى السنة التاسعة للهجرة وفد على النبى ثلاثة عشر رجلا من بنى كلاب ، وهم فرع من بنى عامر بن صعصعة ، وأخبروه أن أحد صحابته وهو الضحاك بن سفيان قد سار فيهم بالقرآن وسنة الرسول ، وأن قومهم قد استجابوا بدعوته للدين الجديد . كذلك أسلم فرع آخر من القبيلة نفسها وهى بنو رؤاس بن كلاب على يد واحد منهم يقال له عمرو بن مالك ، وكان فى المدينة ، واعتنق الإسلام ثم عاد بعد ذلك إلى عشيرته وحضهم على الاقتداء به[2] .

وفى هذه السنة نفسها قام واثلة بن الأسقع — وكان حديث العهد بالإسلام — بمحاولة لم تصادف نجاحاً كبيراً ، إذ أخذ يرغب قومه فى الإسلام . وكان قد اعتنقه بعد أن لقى النبى مرة ، فطرده أبوه فى احتقار وازدراء وقال : « والله لا أكلمه كلمة أبداً » ، ولم يجد راغباً فيما دعا إليه من تعاليم إلا أخته التى جهزته للرجوع إلى النبى بالمدينة . وكانت هذه السنة التاسعة للهجرة تسمى بعام الوفود ، لأن عدداً كبيراً من القبائل العربية وأهالى المدن أرسلوا إلى النبى وفادات تعلن إسلامها . وكان ذلك المبدأ الجديد من الوحدة الاجتماعية فى ظل الأخوة الإسلامية فى المجتمع العربى قد أخذ فى إضعاف قوة الرابطة القبلية القديمة التى أقامت بناء المجتمع العربى على أساس قرابة الدم . وكان إسلام الفرد ودخوله فى المجتمع الجديد ينطوى على هدم أهم قوانين الحياة العربية الأساسية ، كما كانت كثرة دخول العرب فى الإسلام من العوامل القوية التى أدت إلى تفكك النظام القبلى ، حتى أصبح ضعيفاً أمام حياة قومية شديدة التعصب قوية التماسك كتلك

---

(١) ابن سعد ص ٨٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ٨٦ ، ٩١ .

الحياة التى سار إليها المسلمون . وهكذا اضطرت القبائل العربية إلى أن تذعن للنبى ، لا لمجرد أنه رئيس لأقوى قوة عسكرية فى بلاد العرب، بل لأنه رمز لمذهب حياة إجتماعية كان يجعل كل خارج عليه ضعيفاً عديم التأثير (١) .

٩ — وفاة الرسول :

وفى السنة العاشرة للهجرة خرج الرسول للحج فى أكثر من مائة ألف من المسلمين . وعند جبل عرفات ألقى على المسلمين خطبته الخالدة (٢) التى تعتبر دستور الإسلام . ولا غرو فقد بين فيها دستور الإسلام وقواعده . ونادى بالمساواة بين الناس ، لافرق فى ذلك بين العبد الحبشى والشريف القرشى : « أيها الناس ! إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد . كلكم لآدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

وقد تم القرآن بنزول قوله تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ (سورة المائدة ٥ : ٤) .

ولم يمض على حجة الوداع ثلاثة أشهر حتى مرض الرسول عليه الصلاة والسلام بالحمى . فلما رأى الأنصار اشتداد المرض عليه أحاطوا بالمسجد ، فأخبره الفضل بن عباس وعلى بن أبى طالب بذلك ، فخرج متوكئا على علىّ والعباس والفضل أمامهما . وكان الرسول معصوب الرأس يخط برجليه ، فجلس فى أسفل مرقاة من المنبر وقال بعد أن حمد الله واثنى عليه : « أيها الناس ! بلغنى أنكم تخافون من موت نبيكم . هل خلد نبى قبلى ممن بعث الله فأخلد فيكم ؟ ألا إنى لاحق بربى ، وأنكم لاحقون بى . فأوصيكم بالمهاجرين الاولين خيراً ، وأوصى المهاجرين فيما بينهم فإن الله تعالى يقول : ﴿ والعصر إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ (سورة العصر : ١٠٣) . وإن الأمور تجرى بإذن الله ، ولا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله ، فإن الله عز وجل لايعجل بعجلة أحد ، ومن غالب الله

(١) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٥٩ — ٦٠ .

(٢) راجع هذه الخطبة فى ابن هشام ج ٤ ص ٢٧٥ — ٢٧٦ .

غلبه ، ومن خادع الله خدعه . فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ؟

وأوصيكم بالأنصار خيراً — فإنهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم — أن تحسنوا إليهم . ألم يشاطروكم فى الثمار ؟ ألم يوسعوا لكم فى الديار؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة ؟ ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين، فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم . ألا ولا يستأثروا عليهم ، ألا وإنى فرط لكم وأنتم لاحقون بى . ألا فإن موعدكم الحوض (١)، ألا فمن أحب أن يرده على غداً فليكفف لسانه إلا فيما ينبغى » .

انتقل الرسول إلى جوار ربه فى يوم الإثنين ١٣ ربيع الأول سنة ١١ هـ (٨ يونيه سنة ٦٣٢ م) ، وهو فى الثالثة والستين من عمره ، بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة على أحسن الوجوه وأكملها .

وقد وقع خبر وفاة الرسول على المسلمين وقع الصاعقة ، حتى أنهم ذهلوا ونسوا ما نزل من الآيات التى تشير إلى موت الأنبياء كسائر البشر ، ووقف عمر بن الخطاب رافعاً سيفه مهدداً بالقتل كل من يقول بوفاة النبى ، ويقول : « إن رجلا من المنافقين زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى . وإنه والله ما مات ، ولكنه ذهب كما ذهب موسى . والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقطع أيدى رجال زعموا أنه مات » .

فلما أقبل أبا بكر نزل على باب المسجد وعمر يكلم الناس ، فلم يلتفت إلى شىء حتى دخل على الرسول عليه الصلاة والسلام وهو مغطى بثوب ، فكشف عنه وقال : بأبى أنت وأمى ! طبت حياً وميتاً ! وانقطع لموتك مالم ينقطع لموت أحد من الأنبياء من النبوة ، فعظمت عن الصفة وجللت عن البكاء ، وخصصت حتى صرت مسلاة (٢) ، وعممت حتى صرنا فيك سواء . ولولا أن موتك كان

(١) يعنى حوض الكوثر الذى يشرب المؤمنون منه يوم القيامة .

(٢) خص الشىء من باب قعد خصوصاً فهو خاص ، خلاف عم، مثل اختص (وكلا الفعلين يستعمل متعديا ولازماً) : والمعنى أنك يا رسول الله قد صرت بموتك مسلاة للناس ، فإنك مع ما اختصصت به من مناقب النبوة قد نزل بك الموت .

اختيار منك ، لجدنا لموتك بالنفوس ، ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفدنا عليك ماء الشئون[١] ، فأما مالا نستطيع نفيه عنا فكمد وإدناف[٢] يتحالفان ولا يبرحان . اللهم فأبلغه عنا السلام . أذكرنا يا محمد عند ربك ، ولنكن من بالك ، فلولا ماخلفت من السكينة لما خلفت من الوحشة ، اللهم أبلغ نبيك عنا ، واحفظه فينا ! » .

ثم خرج أبو بكر إلى الناس وخطب خطبته الحكيمة ، فثاب الناس إلى رشدهم :
« أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله . وأشهد أن الكتاب كما نزل ، وأن الدين كما شرع ، وأن الحديث كما حدث ، وأن القول كما قال ، وأن الله هو الحق المبين : ثم قال أيها الناس ! من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ؛ ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، ثم تلا هذه الآية ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزى الله الشاكرين ﴾[٣] وإن الله قد تقدم إليكم فى أمره فلا تدعوه جزعاً ، وإن الله قد اختار لنبيه ما عنده وما عندكم ، وقبضه إلى ثوابه وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه . فمن أخذ بهما عرف ، ومن فرق بينهما أنكر . « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط » ، ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم ولا يفتننكم عن دينكم ، فعالجوه بالذى تعجزونه ، ولا تستنظروه فيلحق بكم »[٤] .

« روى عن مالك أنه قال : بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى يوم الاثنين ودفن يوم الثلاثاء ، وصلى عليه الناس أفواجا لا يؤمهم أحد . وقد اختلفوا فى مكان دفنه . فقال بعضهم : ندفنه فى مكة مسقط رأسه ، وقال آخرون بالبقيع مع أصحابه ، وقال غيرهم : ندفنه فى مسجده ، فقال أبو بكر :

---

(١) جمع شأن وهو مجرى الدمع إلى العين .
(٢) دلف المريض كفرح . وأدنف : ثقل ، والشمس : دنت للغروب وأصفرت .
(٣) سورة آل عمران ٣ : ١٤٤ . وقد نزلت هذه الآية فى غزوة أحد .
(٤) ابن هشام ج ٤ ص ٣٣٥ . الطبرى ج ٣ ص ١٩٧ — ١٩٨ : زهرة الآداب ج ١ ص ٣٥ .

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مادفن نبي إلا مكانه الذى توفى فيه فحفر له فيه »[١] .

١٠ — صفات الرسول وأخلاقه :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معتدل القامة متوسط الطول ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، كثيف الشعر ، سبط الأطراف ، عريض مابين الكتفين ، أبيض اللون مشرباً بحمرة ، أكحل العينين أدعجهما . وكان يعنى بنظافة جسمه وثيابه ويحرص على حسن هندامه . وفى ذلك يقول . « النظافة من الإيمان . وكان حاضر البديهة سريع الجواب فى أدب ووقار ، كما كان كثير الإنشراح والتبسط مع أصحابه وأهله ، وكان شديد الحياء إلا فى حدود الله ، فإنه كان لايخشى فى إقامتها لومة لائم . روى عن أبى سعيد الخدرى قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذارى[٢] .

وكان الرسول سياسياً حكيما ذا رأى صائب وفكر ثاقب . وقد بدت مهارته السياسية فى التأليف بين أهل المدينة ، وهم الأوس والخزرج ، كما ظهر ذلك واضحاً جلياً فى تصرفاته التى كان يصدرها على البديهة ويخرج بها من أشد المآزق حرجا .

روى ابن هشام (ج ٣ : ٣٣٤ — ٣٣٥) أنه لما تفاقمت روح العصبية بين الأنصار والمهاجرين فى غزوة المريسيع — حتى قال عبد الله بن أبى بن سلول : ليخرجن الأعز منها الأذل — أمر بالارتحال وسار فى وقت الظهيرة ، ولم يرح الجيش حتى وصل إلى المدينة لكى لايترك للرجال فرصة الجدال والانقسام وهم بعيدون عن مدينتهم . كما رفض ماعرضه عليه عمر من قتل ابن سلول رأس النفاق وسبب هذه الفرقة ، وترفق بإبنه عبد الله إذ طلب إليه أن يأذن له بقتل أبيه إذا أراد ، فقال له الرسول : بل نترفق به ونحسن صحبته مابقى معنا . فكان ابن أبى إذا أحدث حدثاً بعد ذلك ، عاتبه قومه وعنفوه . وقال الرسول لعمر ابن الخطاب يوماً : كيف ترى ياعمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لى أقتله ،

---

(١) تيسير الوصول الى جامع الأصول ج ٤ ص ١٩٥ . سيرة ابن هشام ج٤ ص٣٤٣ .
(٢) صحيح البخارى على هامش ابن حجر العسقلانى ج ٦ ص ٣٧٣ .

لارعدت له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته . كما ظهر ذلك أيضاً فى الانتفاع بحسن صلة نعيم بن مسعود بكل من قريظة وقريش وغطفان ، فى الإيقاع بينهم وتخذيلهم بعضهم عن بعض ، حتى أذن الله وأزال عن المدينة خطراً داهما .

« كان محمد فى مكة والمدينة من ساعة أن استيقظ على صوت الرفيق الأعلى فى حراء إلى أن استجابت روحه لذلك الرفيق فى بيت عائشة ، واضح الهدف متعدد الوسيلة ، راجح العقل ، حسن السياسة .

عاش (الرسول) فى جوار عبد المطلب وهو مشرك ، وطلب فى عودته من الطائف جوار المطعم بن عدى ، فدخل مكة فى حمايته وهو مشرك . ولذلك قبل الاستفادة من نظم أهل الأوثان فى مكة ، وقبل فى المدينة أن ينظم أهلها ويعاهدهم ، ويستعين بهم ، ويقودهم إلى النصر ، ليحمى نفسه وصحبه ، ويقضى على الأوثان : موهبة واحدة ، ووسيلة واحدة ، لغاية واحدة من أحوال شتى ، أخطأ هؤلاء الكتاب تصويرها »[١] .

وكان صلى الله عليه وسلم ذا نفس سمحة تحب الخير وتميل إلى العفو . يدله على ذلك عفوه عن وحشى مولى مطعم بن جبير الذى قتل عمه حمزة بن عبد المطلب فى غزوة أحد ، وعن رفاعة بن سموأل القرظى ، وعن هند بنت عتبة زوج أبى سفيان بن حرب التى لاكت كبد عمه حمزة ، وعن مالك بن عوف صاحب هوازن الذى قتل المسلمين وخدعهم فى عماية الصبح[٢] .

قال ابن أبى ليلى : لو أخبرنا علىّ أن فاطمة اشتكت ما تلقى من الرحى ماتطحن ، فبلغها أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى بسبى ، فأتته تسأله خادماً ، فلم توافقه (تجده) ، فذكرت لعائشة . فجاء النبى فذكرت عائشة له ذلك، فأتانا وقد أخذنا مضجعنا ، فذهبنا لنقوم فقال : مكانكما حتى وجدت برد قدمه على صدرى فقال : ألا أدلكما على خير مما سألتمانى ؟ إذا أخذتما مضاجعكما ، فكبرا الله أربعاً وثلاثين ، واحمداه ثلاثاً وثلاثين ، وسبحاه ثلاثاً وثلاثين . إن ذلك خير لكما مما سألتماه » . وقد ورد فى حديث آخر عن على فى هذه القصة : والله

---

(١) عبد الرحمن عزام : بطل الأبطال ص ٧٠ — ٧١ .

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ١٨ ، ٤١ ، ١٣٧ .

لا أعطيكم وأدع أهل الصُّفَّة تُطْوَى بطونُهم من الجوع لا أجد ما أنفق عليهم ، ولكن أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم . وفى حديث الفضل بن الحسن الضمرى عن ضباعة أم الحكم بن الزبير قالت : أصاب النبى صلى الله عليه وسلم سبياً ، فذهبت أنا وأختى فاطمة نسأله فقال : سبقكما يتامى بدر [١] .

وكان عليه الصلاة والسلام قنوعاً زاهداً صبوراً . روى عن أنس قال : قال صلى الله عليه وسلم : لقد أخفت فى الله وما يخاف أحد ، ولقد أذيت فى الله وما يؤذى أحد ، ولقد أتت على ثلاثون من بين يوم وليلة (يعنى ثلاثون يوماً وليلة متتابعة) ومالى ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شىء يواريه إبط بلال . قال الترمذى فى شرح الحديث إن هذا كان حين خرج النبي صلى الله عليه وسلم هارباً من مكة ومعه بلال ، أى أن ما كان مع بلال من الزاد كان قليلا بحيث يستره بلال تحت إبطه .

وروى عن على بن الجعدى قال : ما عاب النبى صلى الله عليه وسلم طعاماً قط ، إن اشتهاه أكله وإلا تركه . وعن عائشة قالت : إن كنا آل محمد نمكث شهراً ما نستوقد ناراً إن هو إلا الماء والتمر ! وعنها أنها قالت ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً ، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه ، وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم الله بها .

وقال ابن مسعود : دخلت على رسول الله وقد نام على حصير وقد أثر فى جنبه فقلت : يارسول الله ! لو اتخذنا لك وطاء نجعله بينك وبين الحصير يقيك منه . فقال : مالى وللدنيا ؟ ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها .

ولم يكن أحرص من الرسول على حسن معاملة أصحابه ، حتى لقد كان يكنى عن الشخص الذى يريد تنبيهه إلا خطأ لكى لا يحقره بين الأقران . روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه ما لعن مسلماً بذكر (أى بصريح اسمه) ، ولا ضرب بيده شيئاً

(١) صحيح البخارى على هامش ابن حجر العسقلانى ج ٦ ص ١٣٢ .

قط إلا أن يضرب بها فى سبيل الله ، ولا سئل فى شىء قط فنعه إلا أن يسأل مأثماً ، ولا يألو جهداً فى أن يضرب لهم المثل وينأىَ بهم عن مزالق الطمع فى مال الله والاستجداء . روى أن حكيم بن حزام قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطانى ، ثم سألته فأعطانى ، ثم سألته فأعطانى ، ثم قال : ياحكيم إن هذا المال خضرة حلوة ، من أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى(١) .

وكان عليه الصلاة والسلام أشد الناس حياء لا يحدث أحداً بما يكره ، قالت عائشة : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل : مابال فلان يقول كذا ، ولكن مابال أقوام يصنعون أو يقولون كذا . وروى أنه كان لايثبت بصره فى وجه واحد .

أما شفقته ورأفته ورحمته فقد وصفه بها القرآن الكريم ﴿ لقد جاءكم رسولٌ من أنفسِكم عزيزٌ عليه ماعَنِتُّم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ (سورة التوبة ٩ : ١٢٨) . روى أن أعرابياً جاءه يطلب منه شيئاً فأعطاه ثم قال : أحسنت إليك يا أعرابى ؟ قال : لا ، ولا أجملت ، فغضب المسلمون وقاموا إليه فأشار إليهم الرسول أن يكفوا ، ثم قام ودخل داره وأرسل إلى الأعرابى وزاده شيئاً ثم قال : أحسنت إليك ؟ قال نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً ، فقال له الرسول : إنك قلت ماقلت وفى أنفس أصحابى من ذلك شىء ، فإن أحببت ، فقل بين أيديهم ماقلت بين يدى حتى يذهب مافى صدورهم عليك . فلما كان العشى ، جاء الأعرابى فقال الرسول : إن هذا الأعرابى قال ماقال فزدناه فزعم أنه رضى ، أكذلك ، قال الأعرابى : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً . وروى عنه عليه السلام أنه قال : لايبلغنى أحد منكم عن أحد من أصحابى شيئاً ، فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر .

---

(١) راجع هذا الحديث فى صحيح البخارى (كتاب الزكاة — باب الاستعفاف عن المسألة) (المطبعة الأميرية سنة ١٣١٤ هـ) جـ ٢ ص ١٢٣ . شرح فتح البارى على البخارى (القاهرة سنة ١٣١٩ هـ) جـ ٣ ص ٢١٥ .

وذكر ابن هشام (٤ : ١٥٢ — ١٥٣) أن كعب بن زهير بن أبي سلمى وفد على الرسول معتذراً تائباً بعد أن هجاه وهجا المسلمين ، وسأله العفو وأنشده قصيدته المشهورة : « بانت سعاد فقلبي اليوم متبول » ، فعفا عنه وأجازه على شعره[1] ، كما كان يجيز من شعراء المسلمين حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبدالله بن رواحة .

وكان الرسول لايبارى فى جوده وكرمه . قال جابر : ماسئل عليه السلام عن شيء فقال لا . وقال ابن عباس . كان أجود النـاس بالخير ، وأجود مايكون فى شهر رمضان . وعن أنس أن رجلا سأله فأعطاه غنما بين جبلين ، فرجع إلى بلده وقال : أسلموا ، فإن محمداً يعطى عطاء من لايخشى فاقه . وأعطى غير واحد مائة من الإبل ؛ وحمل إلى الرسول تسعون ألف درهم ، فما رد سائلا حتى فرغ منها . وجاءه رجل فسأله فقال : ماعندى شيء ، ولكن ابتع على فإذا جاءنا شيء قضيناه ، فقال له عمر : ما كلفك الله مالا تقدر عليه فكره النبي ذلك ، فقال رجل من الأنصار : يارسول الله ! أنفق ولا تخف من ذى العرش إقلالا ، فتبسم صلى الله عليه وسلم ، وعرف البشر من وجهه وقال بهذا أمرت .

---

(١) ذكر كثير من المصادر العربية إن النبي خلع على كعب بن زهير بردته فى ذلك اليوم فبقيت فى أهل بيته حتى باعوها لمعاوية بن أبي سفيان بعشرين ألف درهم ، ثم بيعت للمنصور العباسى بأربعين ألف ولا تزال فى القسطنطينية إلى اليوم .

الباب الثالث

أثر الإسلام فى العرب

---

١ — عموم الرسالة المحمدية

(ا) كتب الرسول إلى الملوك والأمراء :

أرسل الرسول فى السنة السادسة للهجرة الكتب إلى الملوك والأمراء ، فبعث دحية بن خليفة الكلبى الخزرجى إلى هرقل إمبراطور الروم ، وعبد الله ابن حذافة السهمى إلى كسرى فارس ، وعمر بن أمية الضمرى إلى النجاشى ، وحاطب بن أبى بلتعة اللخمى إلى المقوقس عامل هرقل على مصر ، وسليط ابن عمرو العامرى إلى هوذة بن على الحنفى أمير بلاد اليمامة . شجاع بن وهب من بنى أسد بن خزيمة إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى ، والعلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى أخى بنى القيس صاحب البحرين ، وعمرو بن العاص إلى جَيْفر وعَبّاد ابنى الجُلَنْدَى[١]

ولعل إنكار بعض المستشرقين كتب الرسول إلى الملوك والأمراء خارج جزيرة العرب يرجع إلى عدم عثورهم على مايدل على شىء من ذلك فى الوثائق التى خلفها هؤلاء الملوك والأمراء . وهذا لاينهض دليلا على صحة هـــذا الزعم ، إذ ليس بعيداً أن تكون الصور الأصلية لتلك الكتب قد فقدت لسبب من الأسباب .

أما مؤرخو العرب فلا يشكون فى إرسال هذه الكتب . فقد ذكر بن هشام[٢] واليعقوبى[٣] والطبرى (٣ : ٨٥) ما يثبت بعوث الرسول إلى جيرانه من الملوك والأمراء وكتبه إليهم يدعوهم فيها الإسلام . يقول الطبرى : « حدثنا ابن حميد

---

(١) ابن هشام جـ ٤ ص ٢٩٧ . الطبرى جـ ٣ ص ٨٤ — ٨٥ .

(٢) جـ ٤ ص ٢٧٩ — ٢٨٠ . (٣) جـ ٢ ص ٨٣ .

قال ، حدثنى ابن اسحاق عن يزيد أبى حبيب المصرى أنه وجد كتاباً فيه تسمية من بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملوك الخائبين (الكفار) وماقال لأصحابه حين بعثهم ، فبعث به (أى الكتاب) إلى بن شهاب الزهرى مع ثقة من أهل بلده فعرفه (أى هذا الكتاب) .

وفى الكتاب أن رسول الله خرج على أصحابه ذات غداة فقال لهم: إنى بُعِثْتُ رحمة وكافة : فأدّوا عنى يرحمكم الله ولا تختلفوا على كاختلاف الحواريين على عيسى بن مريم قال يارسول الله ! وكيف كان إختلافهم ؟ قال : دعا إلى مثل مادعوتكم إليه ، فأما من قرب به فأحب وسلم ، وأما من بعد به فكره وأبى ؛ فشكا ذلك منهم عيسى إلى الله عز وجل ، فأصبحوا من ليلهم تلك وكل رجل منهم يتكلم بلغة القوم الذين بعث إليهم . فقال عيسى هذا أمر قد عزم الله لكم عليه ، فامضوا » . قال بن اسحاق : ثم فرق الرسول صلى الله عليه وسلم بين أصحابه . فبعث سليط بن عمرو بن العاص . . الخ .

ويقال إن الكتاب الذى أرسل إلى هرقل كان نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم ! من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل قيصر الروم . السلام على من اتبع الهدى ! أما بعد . أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن تتولى فإن اثم الاكارين (الأريسيين) عليك [1] . ﴿ يا أهل الكتاب ، تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمين ﴾ [2] .

وكتب إلى المقوقس : « بسم الله الرحمن الرحيم ! من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط . سلام على من اتبع الهدى ! أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، فأسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ .

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٨٧ .

(٢) سورة آل عمران ٣ : ٦٤ فتوح مصر لابن عبد الحكم (طبعه دار العاديات الشرقية بالقاهرة) ص ٥٢ . انظر أيضا الطبرى ج ٣ ص ٨٧ .

وكتب إلى النجاشى : « بسم الله الرحمن الرحيم ! من محمد رسول الله إلى النجاشى الأصحم ملك الحبشة . سلام أنت فإنى أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى ، فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم ونفخه . وإنى أدعوك إلى الله وحده لاشريك له والموالاة على طاعته ، وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى فإنى رسول الله . وقد بعثت إليك ابن عمى جعفراً ونفراً معه من المسلمين ، فإذا جاءك فأقرهم ودع التجبر ، فإنى أدعوك وجنودك إلى الله ؛ فقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحى ، والسلام على من اتبع الهدى » ! .

وكتب إلى كسرى أبرويز ملك الفرس : « من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وأدعوك بدعاية الله عز وجل ، فإنى رسول الله إلى الناس كافة ولأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، وأسلم تسلم ، فإنى توليت فإن إثم المجوس عليك[1] » .

(ب) أثر هذه الكتب : ولننظر الآن فى أثر هذه الكتب فى الملوك والأمراء الذين أرسلت إليهم ، والذين يمثلون الشعوب التى كانوا يحكمونها . ولو أن أحداً من هؤلاء الملوك قبل دعوة الرسول ودان بالإسلام لانتشر هذا الدين بين رعاياه . على أن التاريخ لم يذكر لنا أن أحداً من الملوك الذين كانوا فى خارج جزيرة العرب دان بالإسلام ، وإن كان بعضهم قد أحسن معاملة الرسل وتجمل فى الرد على كتاب الرسول .

فمن الطبيعى أن كسرى — وهو ذلك الملك الذى ورث « الحق الملكى المقدس عن أجداده من آل ساسان — يأبى أن يكون تابعاً للعرب . ومن ثم كان يخشى من هذا الدين على شخصه وسلطانه اللذين كانا موضع قداسة الشعب . هذا إلى ما كان يراه الفرس لأنفسهم من سيادة على عرب اليمن والحيرة ، وهم لايقلون فى نظرهم عن عرب الحجاز .

من ذلك لانعجب إذا ثارت ثائرة كسرى فمزق كتاب الرسول وأرسل إلى باذان عامله على اليمن : « ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين من عندك

(١) راجع هذه الكتب فى صبح الأعشى للقلقشندى (ج ٦ ص ٣٧٦ — ٣٨٠) .

جلدين فليأتيانى به » . فبعث باذان رسولين يحملان كتاباً إلى الرسول ، يأمره فيه أن ينصرف معهما إليه ، فخرجا حتى قدما الطائف ، فوجدا رجالا من قريش فسألاهم عن الرسول فقالوا هو بالمدينة ، واستبشروا بهما وفرحوا وقال بعضهم : أبشروا فقد نصب له كسرى ملك الملوك ، كفيتم الرجل ، فخرج الرجلان حتى قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالا : إن كسرى قد بعثنا إليك لتنطلق معنا . فصرفهما الرسول على أن يعودا إليه فى الغد . فأتى رسول الله الخبر من السماء « أن الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله » . فلما قدم الرسولان أخبرهما الرسول هذا الخبر فقالا له إنا قد نقمنا عليك ماهو أيسر من هذا أفنكتب هذا عنك ونخبره الملك ؟ قال نعم ! أخبراه ذلك عنى ، وقولا له إن دينى وسلطانى سيبلغ مابلغ ملك كسرى ، وقولا له إنك إن أسلمت أعطيتك ماتحت يديك وملكتك على قومك من الأبناء[١]، فعاد الرسولان إلى باذان فقصا عليه ما تنبأ به النبى فقال : والله ماهذا بكلام ملك ، وإنى لأرى الرجل نبياً كما يقول ولننظر ماقد قال ، فلئن كان هذا حقاً فإنه لنبى مرسل ، وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا . فلم يلبث باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه : « أما بعد ، فإنى قد قتلت كسرى ، ولم أقتله إلا غضباً لفارس لما استحل من قتل أشرافهم . فإذا جاءك كتابى هذا فخذ لى الطاعة ممن قبلك ، وانظر الرجل الذى كان كسرى كتب فيه إليك (يعنى الرسول عليه الصلاة والسلام) ، فلا تهجه حتى يأتيك أمرى فيه » . فلما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان قال : إن هذا الرجل لرسول ، فأسلم وأسلم من كان معه من الفرس ببلاد اليمن (الطبرى ٣ : ٩٠) .

ويزعم مرجليوث[٢] أن عيون الرسول كانت تأتيه بالأخبار بسرعة ، ويستبعد عدول رسولى باذان عن تأدية واجبهما على أثر نبوءة الرسول بموت كسرى ، ثم يقول : وإذا كان تاريخ اغتيال كسرى فارس صحيحاً [٣] ، فإن كل مايمكن أن

---

(١) الأبناء : هم أولاد الفرس القدماء الذين فتحوا بلاد اليمن واستولوا عليها من الأحباش.

(٢) Margoliouth, Mohammad and the Rise of Islam p.368

(٣) الثلاثاء ١٠ جمادى الآخرة سنة ٧ هـ وذلك بعد استيلاء المسلمين على خيبر بثلاثة أشهر تقريبا .

نفرضه هو أن هذا الاضطراب الذى انتشر على أثر مقتل كسرى كان السبب فى نقل عيون الرسول نبأ هذا الاغتيال إليه . ويزعم مرجليوث أن هذه الرسالة لم تسلم قط إلى كسرى .

على أنه قد فات مرجليوث أن الرسول أعلن موت كسرى يوم اغتياله ، برغم بعد الشقة بين الحجاز وفارس ، حتى إن خبر موته كسرى لم يصل إلى بلاد اليمن إلا بعد نبوءة الرسول بمقتله وعود رسولى باذان إليه ، وانتظار باذان وصول الأخبار الرسمية من بلاد الفرس . وأما استبعاد مرجليوث عدول رسولى باذان عن تنفيذ أمر كسرى لمجرد تنبؤ الرسول بمقتله ، فهو غير مقبول ، ولاسيما إذا علمنا أن عقلية أهالى بلاد العرب وماجاورها من بلاد الفرس والروم كانت مهيأة لقبول هذه التنبؤات . ناهيك بما كان من هرقل واشتغاله بعلم النجوم ، وكتابته إلى صاحب إيلياء يستطلع رأيه فى ظهور نبى آخر الزمان . أما هرقل فإن الرواية العربية تزعم أنه كان راغباً فى الإسلام ، وأنه تحدث فى شأن هذا الدين إلى أبى سفيان ونفر من قريش كانوا معه حين وصل إليه كتاب الرسول ، فاستقبله استقبالا حسناً ودعاه إلى مجلس جمع رجال الكنيسة وأفضى إليهم بما وصل إليه . حتى إذا نفروا وأنكروا ذلك عليه عدل عن رأيه وتظاهر بحرصه على المسيحية .

ولا عرو فقد كان العالم فى ذلك الوقت يتطلع إلى ظهور نبى آخر الزمان ، وعنى هرقل نفسه بهذه المسألة عناية خاصة ؛ فقد كتب إلى صاحب إيلياء — وكان مرجعاً فى علم النجوم كما تقدم — يخبره بأنه رأى من علم النجوم أن نبى آخر الزمان قد ظهر ويسأله رأيه فى ذلك .

قال أبو سفيان [1] : خرجنا فى نفر من قريش تجاراً إلى الشام . . . . ووالله إنا لبغزة إذ هجم علينا صاحب شرطته (أى شرطة هرقل) ، فقال : أنتم من رهط

---

(١) صحيح البخارى (طبعة بولاق سنة ١٣١٣ هـ) ج ١ ص ٨ . انظر أيضا الطبرى (طبعة القاهرة) ج ٣ ص ٨٥ — ٨٧ فتح البارى (شرح البخارى) لابن حجر (القاهرة سنة ١٣١٩ هـ) ج ١ ص ٢٤ — ٣٤ . عمدة القارىء ، شرح البخارى للعينى (القاهرة سنة ١٣٠٨ هـ) ج ١ ص ٩١ .

هذا الرجل الذى بالحجاز (يعنى النبى صلى الله عليه وسلم) ؟ قلنا : نعم ! قال انطلقوا بنا إلى الملك ، فانطلقنا معه . فلما انتهينا إليه قال : أيكم أمس به رحماً ؟ قلت : أنا ، فقال أدنه . فأقعدنى بين يديه وأقعد أصحابى خلفى ، قال إنى سأسأله ، فان كذب فردوا عليه ، فوالله لوكذبت ماردوا على ، ولكن كنت امرأ سيداً أتكرم عن الكذب ، وعرفت أن أيسر مافى ذلك إن أنا كذبته ، أن يحفظوا ذلك على ثم يحدثوا به عنى ، فلم أكذبه . فقال : أخبرنى عن هذا الرجل الذى خرج بين أظهركم يدعى مايدعى . قال : فجعلت أزهد له شأنه وأصغر له أمره وأقول له : أيها الملك ! مايهمك من أمره ، إن شأنه دون مايبلغك . فجعل لايلتفت إلى ذلك منى ثم قال : أنبئنى عما أسألك عنه من شأنه ، قلت : سل عما بدالك . قال : كيف نسبه فيكم ؛ قلت : محض ، أوسطنا نسباً . قال : فأخبرنى هل كان أحد من أهل بيته يقول مثل مايقول هو فهو يتشبه به ؟ قلت : لا . قال فهل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه ؟ قلت لا ؛ قال : فأخبرنى عن أتباعه منكم من هم ؟ قلت الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء ، وأما ذوو الأسنان والشرف من قومه فلم يتبعه منهم أحد . قال فأخبرنى عمن تبعه ، أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه ؟ (وفى رواية أخرى هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه ؟) قلت ماتبعه رجل ففارقه . قال : هل يغدر ؟ فلم أجد شيئاً مما سألنى عنه أغمزه فيه غيرها . قلت : لا ! ونحن منه فى هدنة (يريد صلح الحديبية) ولا نأمن غدره . قال : فوالله ما التفت إليها منى ، ثم كرر على الحديث فقال : سألتك كيف نسبه فيكم فزعمت أنه محض من أوسطكم نسباً ، وكذلك يأخذ الله النبى إذا أخذه ، لا يأخذه إلا من أوسط قومه نسباً ، وسألتك هل كان أحد من أهل بيته يقول بقوله فهو يتشبه به ، فزعمت أن لا ، وسألتك هل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث يطلب ملكه ، فزعمت أن لا ، وسألتك عن أتباعه فزعمت أنهم الضعفاء والمساكين والأحداث والنساء ، وكذلك أتباع الأنبياء فى كل زمان ، وسألتك عمن يتبعه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه ، فزعمت أن لا يتبعه أحد فيفارقه ، وكذلك حلاوة الإيمان لاتدخل قلباً فتخرج منه (وفى رواية أخرى وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب) ، وسألتك هل يغدر فزعمت أن لا .

فلئن كنت صدقتنى عنه ، ليغلبنى على ما تحت قدمى هاتين ، ولوددت أنى عنده فأغسل قدميه . انطلق لشأنك . قال : فقمت من عنده وأنا أضرب إحدى يدى بالأخرى وأقول : أى عباد الله ! لقد أمر أمر ابن أبى كبشة (١) » .

ويحدثنا الطبرى (٣ : ٨) فى إحدى رواياته أن هرقل لما وصل إليه كتاب الرسول وهو بالشام يريد العودة إلى القسطنطينية ، جمع الروم وقال لهم : يا معشر الروم ! إنى عارض عليكم أموراً فانظروا فيما قد أردتها . قالوا : ماهى؟ قال تعلمون والله إن هذا الرجل لنبى مرسل ، إنا نجده فى كتابنا نعرفه بصفته التى وصف لنا . فهلم فلنتبعه فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا . فقالوا : نحن نكون تحت يدى العرب ونحن أعظم ملكا وأكثرهم رجالا وأفضلهم بلداً ؟ قال : فهلم فأعطيه الجزية فى كل سنة أكسر عنى شوكته وأستريح من حربه بما أعطيه إياه ، قالوا : نحن نعطى العرب الذل والصغار بخراج يأخذونه منا ، ونحن أكثر الناس عدداً وأعظمهم ملكا وأمنعهم بلداً ؟ لا والله لانفعل هذا أبداً . قال : فهلم فلأصالحه على أن أعطيه أرض سورية ويدعنى وأرض الشام . فقالوا له : نحن نعطيه أرض سورية وقد عرفت أنها سرة الشام ؟ والله لا نفعل هذا أبدا ، فلما أبوا عليه قال : أما والله لترون أنكم قد ظفرتم إذا امتنعتم منه فى مدينتكم . ثم جلس على بغل له فانطلق ، حتى إذا أشرف على الدرب استقبل أرض الشام ثم قال : السلام عليكم أرض سورية تسليم الوداع ، ثم ركض حتى دخل القسطنطينية » .

من ذلك نرى أن الروايات العربية المختلفة تكاد تجمع على أن هرقل كان يميل إلى قبول الإسلام ، وأن من أهم الأسباب التى من أجلها رفض الروم قبول هذا الدين أنه دين العرب الذين كان الروم يستصغرون شأنهم ، وأن هرقل كان ضعيفاً أمام ذوى الرأى من دولته ، حتى لقد خيرهم بين قبول هذا الدين أولا ، ثم عدل عن رأيه إلى مصالحة المسلمين على أن يعطيهم جزءا من بلاد الشام .

على أنا لا نستطيع أن نسلم بجميع ما جاء فى هذه الرواية العربية ، ولاسيما

---

(١) يعنى الرسول عليه الصلاة والسلام . وكان يكنيه كفار قريش بأبيه من الرضاع استخفافا به . وأبو كبشة هذا هو زوج حليمة السعدية التى أرضعت الرسول .

إذا علمنا — اعتماداً على المصادر التاريخية التى بأيدينا — أن هرقل كانت تحيط به فى ذلك الوقت أخطار خارجية ، فإنه وإن كان قد انتصر على الآفار والصقالبة واسترد بلاد سورية ومصر ، وغزا بلاد الجزيرة وانتصر على الفرس فى موقعة نينوى سنة ٦٢٧ م ، ودخل بجيوشه إلى قلب الدولة الفارسية وهدد حاضرتها المدائن (٦٢٨ م) — فقد كانت جيوش خسرو ، كسرى فارس فى ذلك الوقت ، تتقدم فى آسيا الصغرى وتهاجم البسفور حتى كادت القسطنطينية تقع فى أيديهم .

كما تصف لنا بعض الروايات حال هرقل وما كان يساوره من الأفكار إذ ذاك ، والمخاوف التى كانت تجول بخاطره فترغبه فى اعتناق الإسلام ، وأنه كان لايريد الدخول فى حرب مع عدو جديد بعد أن فرغ من حروبه مع الدولة الفارسية ، إذ كان يتوقع خطرا جديداً سوف يدهمه من ناحية هذه الدولة العربية الناشئة .

ومما يدل على أن هرقل كان يصدر فى ذلك الأمر عن بواعث سياسية أكثر منها دينية ، أنه جمع الجيوش الجرارة لحرب هؤلاء العرب فى الشام وفلسطين ومصر ، وغضب على المقوقس واستدعاه إلى القسطنطينية حين علم أنه دخل فى صلح مع العرب ، ثم نفاه وأرسل إلى قواد الروم بمصر يوبخهم ويحثهم على مواصلة قتال العرب ، وظل كذلك إلى أن مات والعرب يحاصرون حصن نابليون سنة ٦٤١ م[١]

وقد يكون من الأسباب التى حملت مؤرخى العرب على الاعتقاد بأن هرقل كان يميل إلى اعتناق الإسلام ، ما ذكره الطبرى[٢] من « أنه قد أجاز دحية الكلبى (سفير الرسول إليه) بمال وكساه كسى » ، وأن ناساً من جذام بأرض حسمى[٣] قطعوا عليه الطريق ولم يتركوا معه شيئاً فجاء إلى

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ج ٢ ص ٦٤ — ٦٦ . (٢) ج ٣ س ٨٧ .

(٣) أرض ببادية الشام بينها وبين وادى القرى ليلتان . وأهل تبوك يرون جبل حسمى فى غربيهم . قال المتنبي : حسمى أرض طيبة تنبت جميع النبات مملوءة جبالا فى كبد السماء متناوحة ملس الجوانب ، إذا أراد الناظر النظر إلى قلة أحدها فتل عنقه حتى يراها بشدة . ومنها مالا يقدر أحد أن يراه ولا يصعده ولا يكاد القتام يفارقها . والقتام دخان أسود لايزال =

الرسول قبل أن يدخل بيته ، فبعث رسول الله زيد بن حارثة فى سرية إلى أرض حسمى .

ومع تسليمنا باحتمال صدق ما فى هذا الخبر من الحوادث ، فلا نستبعد أن منح هرقل وحباءه دحية لا يعدو أن يكون ضرباً من ضروب السياسة ، أراد أن يتألف به قلوب المسلمين ، لما كان يخشاه من ظهور أمر الرسول . وليس أدل على صحة هذا الرأى من أنه جمع رجال دولته وعرض عليهم الإسلام فلما أبوا ورأى منهم الجدل فى الخروج عليه إن هو دخل فى ذلك الدين ، عدل عن ذلك وقال لهم : يا معشر الروم ! إنى قد عرضت عليكم وعرضت . لأنظر كيف صلابتكم على دينكم لهذا الأمر الذى قد حدث ، وقد رأيت منكم الذى أسر به » .

وأما المقوقس حاكم مصر من قبل هرقل إمبراطور الروم ، فإنه لم يقل عن هرقل فى الاحتفاء بحاطب بن أبى بلتعة رسول النبى إليه . فمؤرخوا العرب يكادون يجمعون على أنه أحسن استقباله وأجابه بقوله : « قد كنت أعلم أن نبياً قد بقى ، وكنت أظن أن مخرجه الشام — وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله — فأراه قد خرج فى العرب فى أرض جهد وبؤس . والقبط لا تطاوعنى فى اتباعه ، ولا أحب أن يعلم بمحاورتى إياك »[(١)] ، ورده بهدية إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، اتفق المؤرخون على أن منها مارية القبطية وأختاً لها وشيئاً من خيرات مصر[(٢)] . ويمكننا أن نثق بصدق هذه الرواية اعتماداً على ما أجمع عليه المؤرخون من أنه كانت عند الرسول جارية تدعى مارية القبطية وأنها ولدت له ابنه ابراهيم .

= يتصاعد من رأس الجبل ، لأن فيه بركانا كان يثور أحيانا — أنظر هذا اللفظ فى معجم البلدان لياقوت ومعجم ما استعجم للبكرى .

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ج ٢ ص ٤٢ .

(٢) تختلف الروايات فيضيف بعضها إلى ذلك كسوة وبغلة بسرجها ، وبعضهم يضيف خصيا . ذكر الطبرى أنه كان حارسا ودليلا واسمه مابور ، كما ذكر بعض آخر أنه كان من بين الهدية طبيب ، وأن الجوارى كن أربعا لا اثنتين .

ومما يؤثر عن الرسول أنه قبل الهدية ورد الطبيب وقال : نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع .

وكان من أثر استقبال المقوقس حاطب بن أبى بلتعة ، وهذه الهدايا التى كان من بينها مارية القبطية ، أن أثنى الرسول على أهل مصر من القبط وأوصى بهم خيراً إذ يقول : « إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيراً ، فإن لهم فيكم صهراً وذمة » (١) .

أما النجاشى ، فعلى الرغم من تأكيد الرواية العربية أنه قد أسلم ،(٢) ومظاهر حسن الصلة التى نشأت ودامت بينه وبين محمد صلى الله عليه وسلم طوال حياته.(٣) فإن هذا كله لا يحملنا على القول بإسلام النجاشى ، ولا سيما أن جمهرة المؤرخين وثقاتهم يكادون يجمعون على أن الإسلام لم يظهر فى بلاد الحبشة إلا بعد دولة من الزمن . يدل على ذلك ما رواه الطبرى وابن الأثير (٤) من أن الحبشة « كانت قد تطرفت طرفا من أطراف الإسلام (أى أغارت على طرف من بلاد المسلمين) فى زمن عمر ، فبعث إليهم علقمة بن مجزز المدلجى فى البحر فى نفر من المسلمين فأصيبوا ، فجعل عمر على نفسه (أى عزم) ألا يحمل فى البحر أحداً يعنى للغزو (٥) .

(ج) المستشرقون والرسالة :

يقول سير توماس أرنولد (٦) : « على أنه ، وإن كانت هذه الكتب قد بدت فى نظر من أرسلت إليهم ضربا من الخرق، فقد برهنت الأيام على أنها لم تكن

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٢٢٨ . أورد ابن عبد الحكم (ج ١ ص ١ ، ٢) رواية تشبه هذه .

(٢) قد تكون هذه الرواية متأثرة بما أبداه النجاشى من استقبال المهاجرين وإكرام ضيافتهم وامتناعه عن تسليمهم إلى قريش حين بعثت إليه فى طلبهم .

(٣) حتى لقد روى أن النبى نعى النجاشى إلى المسلمين مما جعل بعض المؤرخين يذهبون إلى أنه كان مسلما . (الطبرى ج٣ ص ٨٩) . وقد أورد ابن هشام (ج ١ ص ٣٦٢) عن عائشة أنها قالت : لما مات النجاشى كان يتحدث أنه لا يزال يرى على قبره نور : وهذا الحديث — إن صح — يبين لنا مبلغ إعجاب المسلمين بالنجاشى .

(٤) الطبرى ج ٤ ص ٢٣١ . ابن الأثير ج ٢ ص ٢٤٠ .

(٥) ذكر ابن سعد (كتاب الطبقات الكبير ج ٢ ص ١١٧) أن هذه الغزوة كانت فى عهد الرسول (شهر ربيع الآخر سنة ٩ هـ) . وسواء صحت روايته أو الرواية التى اتفق عليها كل من الطبرى وابن الأثير ، فإن ذلك لا ينقص قيمة هذه الحادثة فى ذلك الاستدلال الذى ذهبنا إليه .

(٦) الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة المؤلف ص ٤٨ .

صادرة عن حماسة جوفاء . وتدل هذه الكتب دلالة أكثر وضوحا وأشد صراحة على ماتردد ذكره فى القرآن من مطالبة الناس جميعاً بقبول الإسلام » :
فقد قال تعالى فى سورة (ص) : ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾[١]. وفى سورة يس : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ، لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ﴾[٢] . وفى سورة الفرقان : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾[٣]

﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾[٤] .

﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً [٥] .

﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾[٦]

﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا ﴾[٧] .

﴿ قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق ، من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولُهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبلُ قاتلهم الله أنى يؤفكون ، اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلاأن يتم نوره ولوكره الكافرون ، هوالذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾[٨]

وينكر بعض المؤرخين أن الإسلام قد قصد به مؤسسه فى بادىء الأمر أن يكون ديناً عالمياً برغم هذه الآيات البينات ، ومن بينهم وليم ميور[٩] إذ

---

(١) سورة ص ٣٨ : ٨٧ — ٨٨ . (٢) سورة يس ٣٦ : ٦٩ — ٧٠ .
(٣) سورة الفرقان ٢٥ : ١ . (٤) سورة سبأ ٣٤ : ٣٨ .
(٥) سورة الأعراف ٧ : ١٥٨ . (٦) سورة آل عمران ٣ : ٨٥ .
(٧) سورة النساء ٤ : ١٢٥ . (٨) سورة التوبة ٩ : ٢٩ — ٣٣ .
(٩) Muir : The Caliphate, pp. 43 — 44.

يقول : « إن فكرة عموم الرسالة جاءت فيما بعد ، وإن هذه الفكرة على الرغم من كثرة الآيات والأحاديث التى تؤيدها ، لم يفكر فيها محمد نفسه . وعلى فرض أنه فكّر فيها ، كان تفكيره تفكيراً غامضاً . فإن عالمه الذى كان يفكر فيه إنما كان بلاد العرب ، كما أن هذا الدين الجديد لم يهيأ إلا لها ، وأن محمداً لم يوجه دعوته منذ بعث إلى أن مات إلا للعرب دون غيرهم . وهكذا نرى أن نواة عالمية الإسلام قد غرست ، ولكنها إذا كانت قد اختمرت ونمت بعد ذلك ، فإنما يرجع هذا إلى الظروف والأحوال أكثر منه إلى الخطط والمناهج » . وكذلك شك كيتانى[١] فى أن يكون النبى قد تخطى بفكره حدود الجزيرة العربية ليدعو أمم العالم فى ذلك الوقت إلى هذا الدين .

ومن الغريب أن يشك وليم ميور فى صحة دعوى عموم الرسالة . وأن يبنى شكه هذا على أن محمداً ما كان يعرف غير الجزيرة ، وأنها كانت عالمه الذى لم يفكر فى سواه ، وأن هذا الدين لم يهيأ إلا لتلك البلاد ، وأن محمداً منذ بعث إلى أن مات لم يوجه دعوته إلا للعرب دون غيرهم ، فهل خفيت على ذلك المؤرخ صلة قريش بدول ذلك العهد ، وما أتاحته لها التجارة من دربة وخبرة بشئون هذه الأمم وأحوالهم ، وأن محمداً بوجه خاص قد سافر غير مرة للتجارة ببلاد الشام ؟ — فقد سافر وهو صبى مع عمه أبى طالب فى تجارته ، حتى إذا بلغ خديجة مابلغها عن خبرته وأمانته ألقت بمالها بين يديه ، فكان من مهارته وحذقه ماجعلها تعرض عليه الزواج منها . ثم ظل يشتغل بالتجارة حتى بعث : أفبعد ذلك يمكن أن يقال عن محمد إنه كان لايعرف غير بلاد العرب ، وهو رجل عصامى لم يكسب مركزه الممتاز فى مكة قبيل البعثة إلا من ذكاء عقله وكفاية مواهبه ؟ وهل يستبعد على محمد الذى خرج من مكة ناجياً بنفسه ونفس صاحبه أن يتخطفهما الناس ، لائذاً بأهل المدينة الذين آووه ونصروه ، ثم صبر وصابر ، حتى عاد إلى مكة بعد ثمانى سنين وهو السيد الآمر فيها وفى الجزيرة ، تحوم حول شخصه مائة ألف من القلوب أو تزيد ، ومن ورائهم كثيرون من أرجاء الجزيرة العربية يدينون له بالطاعة ، يقدم عليه رؤساؤها وأكابرها ؟ هل يبعد على هذا الرجل أن يرنو بناظره إلى ماوراء الجزيرة ليبسط

---

(١) Caetani : Annali del' Islam, vol. v. pp. 323—324.

عليها سلطانه إن كان من محبي السلطة والحكم ، أو ليفيض عليها من فضل الله الذي عمر الجزيرة وملأها عدلا وأمناً ودعة وحباً ؟ .

لو قيل أن الإسكندر المكدونى كان يعمل على تكوين إمبراطورية تشمل العالم القديم كله ، وتجعله يلتف حول هذا الشاب الإغريقى ، لصدقنا . ولو قيل إن نابليون كان يعمل على تكوين إمبراطورية تشمل العالمين القديم والجديد ليجلس على عرشها الفتى الطليانى ، لصدقنا . أما إذا قيل أن محمد بن عبد الله فكر فى أن يدعو خلق الله المتاخمين لجزيرة العرب والمتصلين بقريش — اتصالا تعيش عليه قريش وينبنى على أساسه كل شىء فى البيئة القرشية — فذلك أمر يعز على البحث النزيه والعقل الحر أن يقبله ، إلا أن يكون تفكير ذلك النبي فى هذا الأمر تفكيراً على نحو غامض .

وأما القول بأن هذا الدين « لم يهيأ إلا لبلاد العرب » ، فإن ذلك لم يمنع محمداً من التفكير فى تعميم دينه ، لأن هذا التفكير ، سواء تحقق أو لم يتحقق ، إنما يعتمد على اعتقاده أن دينه صالح لذلك . وقد ثبت فى القرآن أنه كان يعتقد أن الإسلام قد هيىء لكل حالة ، وأن القرآن قد تكفل بتبيان كل شىء إذ يقول الله تعالى لرسوله فى غير آية : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾ (سورة النحل ١٦ : ٨٩) ﴿ وما فرطنا فى الكتاب من شىء ﴾ (سورة الأنعام ٦ : ٣٨) .

ويؤيد دعوى عموم الرسالة بالجنس البشرى قول محمد متنبئاً أن بلالا « أول ثمار الحبشة » وأن صهيباً « أول ثمار الروم » . وكذلك ما قاله عن سلمان الذى كان أول من أسلم من الفرس ، وكان عبداً نصرانياً بالمدينة . اعتنق هذا الدين الجديد فى السنة الأولى من الهجرة ، وهكذا صرح الرسول فى وضوح وجلاء أن الإسلام ليس مقصوراً على الجنس العربى قبل أن يدور بخلد العرب أى شىء يتعلق بحياة الفتح والغزو بزمن طويل ؛ يؤيد ذلك ما ورد فى القرآن الكريم فى هذه الآيات البينات :

﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمةٌ سبقتْ من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون ﴾ (سورة يونس ١٠ : ١٩) .

﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل ﴾ (سورة الأحقاف) ٤٦ : ٩) .

﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ (سورة البقرة ٢ : ٢١٣) .

﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ (سورة النحل ١٦ : ١٢٣) .

﴿ قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيما ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ (سورة الأنعام ٦ : ١٦١) .

﴿ قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ (سورة البقرة ٢ : ١٣٥)

﴿ قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين ﴾ (سورة آل عمران ٦ : ٩٥-٩٦) .

﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلا ﴾ (سورة النساء ٤ : ١٢٥) .

﴿ هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين ﴾ (سورة الحج ٢٢ : ٧٨) [١] .

ويعزو بعض المستشرقين إلى الرسول أموراً يشمئز منها الذوق السليم ويبرأ منها النقد النزيه . على كثيراً من المنصفين قد صرحوا بأن القرآن وحده وما فيه من قواعد العمران وأسس المدنية الحقة ، هو الذى أخرج للعالم تلك المدنية التى لا يزال الأوربيون يستغلون ثمارها بعد أن وضع لهم القرآن نظمها وأسسها .

يريد بعض المستشرقين أن يقلل من أهمية الرسالة ويحكم على الرسول حكما جائراً يدفعهم إليه التعصب والتحزب وبغضهم للإسلام ومقتهم لنبيه ، وذلك بتطبيقهم على التاريخ الإسلامى بعض أنماط من النقد المتطرف وطرقه القاسية . ومن هؤلاء الأب اليسوعى . لامانس . فإنه ، على الرغم من أنه أحد أولئك الباحثين المحدثين المبرزين ومن أوسع الأخصائيين فى تلك الموضوعات اطلاعاً ومن أكثرهم تعصباً

(١) انظر كتاب الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة المؤلف ص ٥١ .

وتحيزاً ، نراه يحيد عن الطريق السليم حين يعرض للمسائل الإسلامية . وقد وقف على مدى هذا التحيز الذى دفعه إلى توجيه حملاته إلى الإسلام والمسلمين كاتب فرنسى معتدل فى حكمه هو مسيو « إميل درمنجم » فى كتابه « حياة محمد »(١) يفند فى مقدمته مايقوله لامانس عن الدعوة الإسلامية فيقول :

« إن الأب لامانس يرى مثلا أنه حين يوافق حديث من أحاديث الرسول بعض آى من القرآن ، أن الحديث قد وضع ودس على محمد ، اعتماداً على ورود معناه فى القرآن وتأييد الكتاب له . ومن ثم لايعتبره الأب لامانس صحيح الرواية ، ولايثق به ولايعتمد عليه . فحدثنى بربك كيف يمكن تدوين التاريخ إذن ؟ إذا كان كلما اتفقت شهادتان واجتمع دليلان ، فبدلا من أن تقوى إحداهما الأخرى وتزكيها ، فإنها تكذبها وتجرحها . يمكن أن يكون الحديث قد وضع لشرح بعض النصوص القرآنية ، أو الأخذ بظاهر اللفظ القرآنى ، ولكن على الرغم من كل ذلك ، قد يكون مايذكره الحديث حقاً فى كثير من الحالات إن لم يكن صحيحاً فى أغلبها ، وليس أمام المؤرخ الذى يجهل طرق النقد وسائل أخرى ممكنة يستطيع أن يعتمد ويتصرف بها سوى نقل الخبر وروايته . فمثلا الحديث الذى يعزو إلى محمد حب العسل : يحتمل أن يكون وضع بناء على أن القرآن امتدح فى العسل خواصه الصحية الصافية ؛ كما يحتمل أن يقال إن محمداً إنما نصح وأوصى بأكل العسل لأنه كان يحبه ويجده صحياً ، وأيضاً لأن العسل فى نفسه صحى وجدير بأن يوصى باستعماله . فكيف يستطيع راوى الحديث أن يتصرف فى روايته أكثر من أن يسند الحديث إلى الرسول ؟ وكيف يستطيع أن يذكر ذلك بدون أن يقاسى شكوك العالم المحدث ؟ »

ومهما يكن من نقد هؤلاء المستشرقين ، فلا شك أن الرسول قد نهض ببلاد العرب ، ووحد كلمة رجال قريش وزعمائهم وأولى الرأى فيهم ، ووجه شعارها الدينى الغامض بعد أن خلع عليه قالباً عملياً واضحاً نحو دين آخر ، هو أشد صفاء وأكثر نقاء مما ألفوه فى وثنيتهم الأولى .

---

(١) Dermenghem : La Vie de Mahomet. (Paris, 1929). pp. V-VI.

قال فنلى[1] : قد ينحرف المؤرخ عن موضوعه ليتأمل حياة رجل نال سلطة خارقة على عقول أتباعه وأعمالهم ، ووضعت عبقريته أساس نظام دينى سياسى مازال يحكم الملايين من البشر من أجناس مختلفة وصفات متباينة . إن نجاح محمد كمشرع بين أقدم الأمم الآسيوية ، وثبات نظمه مدى أجيال طويلة فى كل نواحى الهيكل الاجتماعى ، لدليل على أن ذلك الرجل الخارق قد كونه مزيج نادر من كفايات ليكورغوس والإسكندر .

٣ — الأثر الدينى :

(ا) القرآن بين عهدين : بعث الرسول صلى الله عليه وسلم على رأس الأربعين من عمره ، واختاره الله تعالى لجواره وله من العمر ثلاث وستون سنة بعد أن بلغ رسالته وأدى أمانته . وقد ظل الوحى يوانيه طوال تلك المدة بأحكام الله وما شرع لعباده ، ينزل عليه بين حـين وآخر بالآية والآيات فى حل مايعرض له من مشكلات وتذليل مايعترض مهمته من عقبات ينير له الطريق ويرسم الخطط .

ومن هذه الحوادث الجسام التى امتلأت بها حياة الرسول وتخللت كفاحه لتبليغ رسالته ، حادث عظيم فذ ، هو هجرته إلى المدينة والتجاؤه إلى من آمن به من أهلها ليؤووه وأصحابه ، وليحموا دعوته مما نصبت لها قريش : تلك الهجرة قسمت حياة الرسول إلى عهدين ، تطورت فيهما طرقه فى تبليغ الرسالة . فكان الرسول قبل الهجرة يناقش قريشاً فى المبادىء العامة ويختلف وإياهم فى الألوهية . وهل أساسها التوحيد أم تعدد المعبودات ، ويخوفهم بيوم القيامة ويرهبهم بما فيه من بعث وحساب يتبعه ثواب أو عقاب ، ويطالبهم بإنصاف نسائهم وعبيدهم ويسوى بين فقيرهم وغنيهم ، قال الرسول الكريم فى حجة الوداع « كلكم لآدم وآدم من تراب » . وقال الله تعالى ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (سورة الحجرات ٤٩ : ١٣) ، ويدعوهم إلى أن فى أموالهم حقاً معلوماً للسائل والمحروم ، مما أثار حنق قريش وحفيظتها عليه ، فأخذته وأصحابه بصنوف التعذيب والتنكيل ، ليصرفوه عن دعوته ويمنعوه عن الاتصال بالناس حتى تموت الفكرة وتقبر فى مهدها .

Finaly : Greece Uuder The Roman, Chapter V. p. 2. (١)

فلما هاجر الرسول إلى المدينة أخذ يفصل ما أجمل فى العهد المكى من أمور العبادة ومبادىء الأخلاق ، كما وضـــع النظريات العامة ، وشرع للمسلمين نظم المعاملات كالبيع والشراء والزواج والطلاق ، وحرم المنكرات كالخمر والزنا والميسر وقرر الحدود والقصاص .

وصفوة القول أن الرسول أخذ ينظم أمر تلك الجماعة الصغيرة الناشئة التى حاطه أفرادها بقلوبهم وأرواحهم ، ويشرع لها نظما لمعاملتها . وهو فى ذلك كله لا يألوا جهداً ولا يدخر وسعاً فى بث الدعوة وتبليغ الرسالة . وكان القرآن فى ذلك كله ساعده الذى لايخذله ومدد الله إليه الذى لايتأخر عنه عند الحاجة ، فيه ناقش المشركين فى مكة أمهات مسائل الدين وقضاياه الكلية ، وسفه آلهتهم وعاب نظامهم الاجتماعى .

كذلك كان القرآن رائد الرسول فى المدينة حين كان يناقش اليهود الذين استعانت بهم قريش فى الغض من دعوته ، والذين استكثروا على العرب الأميين أن يبعث الله فيهم رسولا منهم ، وهم شعب الله المختار وأبناء الله وأحباؤه ؛ كما كان مرجعه الوحيد حين كان يحاسب هؤلاء اليهود وغيرهم من أهل الكتاب على ماغيروا وبدلوا فى دينهم وكتبهم .

(ب) تحويل القبلة : وبينما كان الرسول يعمل على نشر الدعوة فى خارج المدينة كان يفكر فى أمر القبلة ، ويقلب وجهه فى السماء ينتظر الوحى من عند الله ، لأنه كان فى مكة يجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس فى صلاته[1] ، وظل الرسول يصلى قبل بيت المقدس إلى شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة ، حين أمره الله سبحانه وتعالى بالتحول إلى الكعبة بدلا من بيت المقدس . وكانت الكعبة بيت إبراهيم ، ومقعد فخار العرب واحترام قبائلهم جميعاً .

وقد اتخذ اليهود من اتجاه الرسول إلى بيت المقدس فى صلاته ذريعة لمجادلته بما يعلمون وما لا يعلمون ، كما حاولوا فتنة المسلمين ليوقعوا بينهم ، وصار بعضهم يقول : نحن علمنا محمد قبلته ولولانا ما درى إلى اين يتجه[2] : وتعجب بعض

(١) تفسير الطبرى ، الفخر الرازى ، سورة البقرة ٢ : ١٤٢ .

(٢) ابن هشام ج ٢ ص ١٧٦ .

آخر من محمد الذى يخالف دينهم ويتبع قبلتهم .

روى ابن هشام [١] عن ابن اسحاق أنه « لما صرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة ، وصرفت فى رجب على رأس سبعة عشر شهراً من مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم رفاعه بن قيس ، وفردم بن عمرو ، وكعب بن الأشرف ، ورافع بن أبى رافع ، والحجاج بن عمرو حلف كعب بن الأشرف ، والربيع بن الربيع بن أبى الحقيق ، وكنانة بن أبى الحقيق فقالوا : يامحمد ! ماولاك عن قبلتك التى كنت عليها وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه ؟ إرجع إلى قبلتك التى كنت عليها نتبعك ونصدقك . وإنما يريدون بذلك فتنته عن دينه ؛ فأنزل الله تعالى فيهم ﴿ سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ (سورة البقرة ٢ : ١٤٢) .

وقد ألقى فى روع الرسول إذ ذاك أن الله محوله عن قبلتهم هذه ، لأن من سنة الله تعالى أن يجعل لكل وجهة قبلة هو موليها . قال تعالى ﴿ ولكل وجهة هو موليها ﴾ (سورة البقرة ٢ : ١٤٨) ولأن الله ما جعل القبلة إلى الكعبة إلا ليمتحن المسلمين ليعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه . لذلك توقع الرسول الوحى فى أمر القبلة وانتظر حكم الله فيها . فأنزل الله عليه ﴿ قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون ﴾ (سورة البقرة ٢ : ١٤٤) . وإنما أمر الله الرسول بذلك ليقضى على تخرصات اليهود ويدحض حجتهم وحجة المشركين الذين كانوا يقولون إن محمداً يدعى ملة إبراهيم ويخالف قبلته . وقد أشار القرآن إلى أن أمر القبلة وتحولها يعرفه أهل الكتاب [٢] ، ولكنهم يثيرون الشبهات ويعرضون

(١) ج ٢ ص ١٧٦ — ١٧٧ .

(٢) يقول البيضاوى فى ذلك : « لعلمهم بأن من عادة الله وسنته تخصيص كل شريعة بقبلة ، ولتضمن كتبهم أن النبى صلى الله عليه وسلم يصلى إلى القبلتين » . كما يشير إلى أن قبلة اليهود الصخرة ببيت المقدس ، وقبلة النصارى مطلع الشمس . ويروى أيضاً أن من أوصاف النبى فى التوراة التى كانت بين أيديهم أن قبلته الكعبة .

على الرسول أنه لو عاد إلى قبلتهم ، لكانوا يرجون أن يكون صاحبهم الذى ينتظرونه — كل ذلك ليفتنوه فيتبع قبلتهم ، فأجاب الله عن ترهاتهم بأن لله المشرق والمغرب ، وبأن لكل شريعة قبلة كما يعلمون ، ثم أيأسهم من رجوع الرسول إلى قبلتهم ، فقال تعالى : ﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم ﴾ (سورة البقرة ٢ : ١٤٥) .

« أما تعيين القبلة فى الصلاة فقد ذكروا فيها حكما : أحدها أن الله تعالى خلق فى الإنسان قوة عقلية مدركة للمجردات والمعقولات ، وقوة خيالية متصرفة فى عالم الأجسام . وقلما تنفك القوة العقلية عن مقارنة القوة الخيالية ومصاحبتها . فإذا أراد الإنسان استحضار أمر عقلى مجرد ، وجب أن يضع له صورة خيالية يحسنها ، حتى تكون له تلك الصورة الخيالية معينة على إدراك تلك المعانى العقلية . ولذلك فإن المهندس إذا أراد إدراك حكم من أحكام المقادير وضع له صورة معينة وشكلا معينا ، ليصير الحس والخيال معينين للعقل على إدراك ذلك الحكم الكلى . ولما كان العبد الضعيف إذا وصل إلى مجلس الملك العظيم ، فإنه لابد أن يستقبله بوجه ، وأن يكون معرضا عنه ، وأن يبالغ فى الثناء عليه بلسانه ، ويبالغ فى الخدمة والتضرع له ؛ فاستقباله القبلة فى الصلاة يجرى مجرى كونه مستقبلا الملك لا معرضا عنه ، والقراءة والتسبيحات تجرى مجرى الثناء عليه والركوع والسجود يجرى مجرى الخدمة ... وثالثها أن الله يحب الموافقة والألفة بين المؤمنين . وقد ذكر المنة بها عليهم حيث قال : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليهم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾ (سورة آل عمران ٣ : ١٠٣) . ولو توجه كل واحد فى صلاته إلى ناحية أخرى لكان ذلك يوهم اختلافا ظاهرا ؛ فعين الله تعالى لهم جهة معلومة وأمرهم بالتوجه نحوها ليحصل لهم الموافقة بسبب ذلك . وفيه إشارة إلى أن الله يحب الموافقة بين عباده فى أعمال الخير[1] .

(ح) أركانه الدين : لم يكن للعرب قوانين معروفة ؛ فقد كانوا يرجعون إلى رؤسائهم فيما ينشأ بينهم من خلاف ، حتى جاء الإسلام بقانون سماوى هو

(١) تفسير الفخر الرازى ، سورة البقرة ٢ : ١٤٢ — ١٥٠ .

القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . فنظم المعاملات ، كما شرع للمسلمين العبادات[1] : كالصلاة والصوم والزكاة والحج لتوجههم نحو الخير ، ولتكون صلة بين العبد وربه .

شرعت الصلاة لتكون رمزاً لشكر المنعم على بعض آلائه ، وليلتمس بها المسلم العون من الله سبحانه خالق الكون وبارئه ؛ وشرع الصوم لتقوى به الروح على كبح جماح النفس إذا ضغت المادة ، لما فيه من كسر حدة الشهوات الجسمية التى تعوق الروح عن السمو اللائق بالإنسان .

ولا غرو فإن النفس لا تكاد تقارب الكمال من تلك الرياضة حتى تحس ألم الجوع والحرمان ، فتعطف على الفقير والمحروم ، وتتجاوز عن اليسير من المال للعائل والعانى . وهذه هى حكمة مشروعية الزكاة . فإذا اطمأنت نفس المسلم وآمن بما عليه من حق نحو بنى جنسه ، وبذل هذا الحق عن حب ورضى ، علم أن هذا الحق ليس مقصوراً على المال ، بل ثمة أنواع أخرى من التعاون ليست دون المال نفعاً . ولما كان الإسلام دين وحدة وتعارف وألفة ، شرع لهم الحج يجتمع فيه القادرون من المسلمين .

ومن أصول الإسلام الإيمان بالبعث فى يوم القيامة ، حيث يبعث الإنسان ويجازى على عمله ﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ (سورة الزلزلة ٩٩ : ٦ — ٨) .

٣ — الأثر الاجتماعى :

(ا) تنظيم المعاملات : حرم الإسلام سفك الدماء ، ومنع أن يأخذ صاحب الثأر ثأره بنفسه ، بل جعل ذلك إلى الإمام وحده وأوصى الإمام وحثه على القصاص من القاتل . قال تعالى ﴿ ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب ﴾

---

(١) شرعت الصلاة والزكاة فى مكة . وأما كيفية إقامة الصلاة ومصارف الزكاة ومقاديرها فلم يشرع إلا فى المدينة . (وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله) (سورة البقرة ٢ : ١١٠) . كما شرع بها الصوم سنة ٢ هـ . وفى ذلك يقول الله تعالى (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم) (سورة البقرة ٢ : ١٨٣) ، والحج سنة ٦ هـ لقوله تعالى (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) (سورة آل عمران ٣ : ٩٧) .

(سورة البقرة ٢ : ١٧٩) ، كما حث على العفو ، وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى : الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى . فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ﴾ (سورة البقرة ٢ : ١٧٨) . كما جعل الدية لولى المقتول خطأ ، قال تعالى ﴿ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله ﴾ (سورة النساء ٤ : ٩١) . وكذلك نهى الإسلام عن الربا حتى لا تضيع المروءة بين الناس ويفرق الشره والتكالب على المادة كلمتهم . كما نهى عن أكل أموال الناس بالباطل . قال تعالى : ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ﴾ (سورة البقرة : ٢ : ٢٧٥) . ﴿ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ﴾ (سورة البقرة ٢ : ٢٧٨ — ٢٨٠) .

كما وضع الإسلام الكثير من الأسس والمبادىء العامة التى تنظم المعاملات بين أفراد جماعة المسلمين كالبيع والشراء . وعنى عناية كبيرة بالأسرة ، فشرع الزواج والطلاق ، وفرض النفقة للزوجة على زوجها . وللإبن على أبيه ، وللأب على ابنه . وسمى عقد الزواج ميثاقاً غليظاً كما وصفه بأنه علاقة مودة ورحمة ، وجعل للمرأة على زوجها المهر والنفقة ، ولم يحدد نهايته . ونهى عن الزواج بالمشركات ، وحرم التزوج بالأم والأخت ومن يشبههما . قال تعالى : ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن ، فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم . وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ماقد سلف إن الله كان غفوراً رحيماً ﴾ (سورة النساء ٤ : ٢٣) .

وأباح الإسلام التزوج بأكثر من واحدة إلى أربع ، ولكنه اشترط العدل ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾ (سورة النساء ٤ : ٣) . كما بين أن العدل بينهن من أصعب الأمور ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو

حرصتم فلا تميلوا كل الميل ﴾ (سورة النساء ٤ : ١٢٩) .

كذلك حرص الإسلام على أواصر القرابة من أن تعبث بها الغيرة ، كما حث على التمسك بالفضائل والآداب العالية كالاستئذان ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ، فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم ﴾ (سورة النور ٢٤ : ٢٧ — ٢٨) ، والتحية إذ أمر برد التحية بمثلها أو بأحسن منها ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ﴾ (سورة النساء ٤ : ٨٦) . وأمر كلا من الرجال والنساء بغض الطرف ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة (١) من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ، وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ (سورة النور ٢٤ : ٣٠ — ٣١) .

وكذلك اهتم الإسلام كثيراً بمسألة العهد والميثاق ، قال تعالى : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ﴾ (سورة النحل ١٦ : ٩١) . وقال ﴿ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ﴾ (سورة التوبة ٩ : ٤) . وجعل القتيل من القوم المعاهدين للمسلمين في درجة المقتول من المسلمين أنفسهم فقال : ﴿ وإن كان من قوم بينكم

(١) الإربة والأرب ، بالكسر والضم في الهمزة : الحاجة والخبث والدهاء والمنكر والغائلة .

وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ﴾ (سورة النساء ٤ : ٩٢) . وهذه دية المسلم نفسه .

(ب) مركز المرأة فى الإسلام : يظن بعض علماء الاجتماع أن الإسلام هضم المرأة حقها ، حيث أعطاها نصف نصيب الرجل فى الميراث ، وجعل الرجل يتزوج بأكثر من واحدة إلى أربع ، وجعل الطلاق بيد الرجل ، ومنح الرجل سلطة ليست للمرأة ، فحرمها كثيراً من الحقوق التى يتمتع بها الرجل .

كانت المرأة فى العصور القديمة والوسطى عند اليونان والرومان وغيرهم كالمتاع أو كالحيوان : فلم يكن لها حق فى التملك عن أى طريق ، ولم يكن لها ميراث أصلا ، كما لم يكن لها حظ من التعليم(١) .

أما الإسلام فقد أوجب تعلم العلم على كل مسلم ومسلمة ، كما أوجب على أمهات المؤمنين تلاوة القرآن وتعلم العلم ﴿ واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة ﴾ (سورة الأحزاب ٣٣ : ٣٤) . ناهيك بعائشة أم المؤمنين التى اشتهرت بالرواية والفقه والفتيا والتاريخ والنسب ورواية الشعر والطب وعلم النجوم ، حتى لقد قال فيها الرسول : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » . وقد اشتركت فى الخلاف السياسى وقادت المسلمين يوم الجمل ، وكذلك أختها أسماء بنت أبى بكر وأم عبد الله بن الزبير التى اشتهرت برواية الحديث(٢) . « وظهر كثير من النساء فى الحرب التى قامت بين على ومعاوية ، فخضن غمارها وقدن الجيوش فيها : كأم الخير بنت الحريش البارقية ، والزرقاء بنت عدى بن قيس الهمدانية ، وعكرمة بنت الأطرش ، وأم سنان بنت جشيمة بن خرشة المذحجية.(٣) »

كما سوى الإسلام بين المرأة والرجل فى جميع الحقوق تقريباً ، فأباح للمرأة

---

(١) حقيقة أن الأمية فى الجاهلية كانت تشمل الرجل والمرأة على السواء ، وإنما المقصود من هذا التعليم والتهذيب هو حرمانها من المجالس والاختلاف إلى مجالس التهذيب والثقافة عند العرب .

(٢) ابن سعد ج ٨ ص ٤٥ ، ٤٨ . عمدة القارى ج ١ ص ٢٨ . ابن الأثير : أسد الغابة فى معرفة الصحابة ج ٥ ص ٤ ، ٥ . شرح الزرقانى على المواهب اللدنية ج ٤ ص ٢٧٩ ، ٢٨١ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ٢٤٨ — ٢٥٨ .

ما دامت من أهل التصرف فى مالها أن تتزوج بنفسها ، وأن توكل غيرها فى زواجها دون اعتراض عليها ، كما أباح الشارع للمرأة أن تشترط فى عقد الزواج أن يكون أمرها فى يدها تطلق نفسها من الرجل متى شاءت .

وقد يعترض أحد على قسمة المواريث التى جعلت للمرأة نصف نصيب الرجل ، فيتوهم أن فى هذا إجحافا بحقوقها . على أننا نجد أن حظها قد زاد إذا عرفنا أن المرأة مكفولة بالرجل فى معظم أدوار حياتها ، وأنه يجب عليه شرعا أن ينفق عليها « فاذا كلف الشرع القوامين عليها من الرجال أن يقوموا بجميع حاجاتها بالمعروف ، فان تقدير الشارع لها حظاً من المواريث غاية فى الرأفة بها ومراعاة جانبها والعناية بشأنها » . فأين حجر الإسلام على المرأة ؟ وأين التضييق عليها مع هذا التسامح ؟ (١) .

وقد أباح الإسلام الطلاق على أنه ضرورة ، وقال فيه الرسول : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » . كما اتفق فقهاء المسلمين على النهى عنه عند استقامة الزوجين ؛ فمنهم من قال إنه نهى كراهة ، ومنهم من قال إنه نهى تحريم . ورأت الحنفية تحريم الطلاق بلا سبب مستدلين بأنه إضرار . كما نهى الرسول عن ذلك فى قوله : « لا ضرر ولا ضرار » . ويروى أنه كره أن يطلق زيد زوجته زينب بنت جحش لأنها كانت تكثر من إيذائه والاستخفاف به ؛ وطالما كان يقول له « أمسك عليك زوجك واتق الله » .

واختلف الفقهاء فى الأسباب التى تسوغ الطلاق . قال ابن عابدين : « أما الطلاق فالأصل فيه الحظر أى الحرمة ، والإباحة للحاجة إلى الخلاص عند تباين الأخلاق ووجود البغضاء » . فإذا تجرد عن الحاجة المبيحة له شرعا كان محظوراً . قال الله تعالى : ﴿ فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ﴾ (سورة النساء ٤ : ٣٤) أى لا تطلبوا الفراق .

وجعل الإسلام الطلاق بيد الرجل ، لأن الرجل هو المسئول عن الأسرة وتدبير معاشها وتربية الأبناء ؛ ورباط الزوجية هو أساس هذا كله ، فمن الخطر أن يوضع فى يد غير مسئولة . ذلك إلى ما يعرف فى طبيعة النساء من سرعة

---

(١) عبد العزيز جاويش : الإسلام دين الفطرة ص ٨٦ .

الانفعال والتأثر بأوهى الأسباب ، فلو وضعت العصمة فى يدها لتعرضت للخطر عند حدوث أقل المؤثرات .

على أن هـذا الدين قد عوض المرأة ما عسى أن تخسره من جعل الطلاق بيد الرجل ، فوضع الإسلام للرجل قيوداً ، ورسم له خطـة من شأنها أن تحول بينه وبين العبث برباط الزوجية والتخلص منه لسبب غير معقول : فكلفه أن يدفع للمرأة صداقها ، ومنعه أن يأخذ من ذلك الصداق شيئاً عند الفراق ، حتى يكون فى هذه الخسارة المالية وما سوف يحتاج إلى بذله للزوجة الجديدة ما يحول بينه وبين الطلاق إن كانت له مندوحة. ﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾ ؟ (سورة النساء ٤ : ٢٠) . كما نصحه أن يعرض ما بينه وبينها من خلاف على حكمين من أهله وأهلها رجاء التوفيق ﴿ وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما ﴾(سورة النساء ٤ : ٣٥).

كما أمره بإحسان معاملتها ورعايتها ، وخوفه من الإقدام على فسخ عقدة الزواج أو التفريط فى شأنها تخويفاً دينياً ومادياً ﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ (سورة النساء ٤ : ١٩) . وفى الحديث « إن أبغض الحلال عند الله الطلاق » .

وقد أخذ مشرعو أوربا اليوم بما عابوه على الإسلام بالأمس ، فشرعوا الطلاق بعد أن ألجأتهم إلى تشريعه الحاجة الملحة والضرورة القصوى ، وبعد أن ظهرت لهم حكمته ووجهة نظر الإسلام فى تشريعه . وإليك ما يقوله بعض فقهائهم : « الطلاق شر ولكنه شر لابد منه لصلاح المجتمع ، لأنه العلاج الوحيد لشر قد يكون أكثر منه بلاء . وتحريم الطلاق — بما فيه من ضرر — بمثابة تحريم ممارسة فن الجراحة ، لأن الجراح سوف يضطر إلى بتر بعض أعضاء المريض . على أنه ليس ثمة خطر من شرعية الطلاق ، إذ ليس الطلاق هو الذى يفسد الحياة الزوجية ويحل عراها المقدسة ، وإنما هو سوء التفاهم الذى يقع بين الزوجين ويخرق إحكام هذه العروة ويدك صرحها . والطلاق وحده هو الذى

يضع حداً لما عساه ينشأ بين الزوجين من نفور قبل أن يستفحل ويصبح شراً مستطيرا على المجتمع[١] » .

كما جعل الإسلام للمرأة الحق فى المطالبة بالتفرقة بينها وبين زوجها إذا وجدت ضرورة تدعو إلى ذلك ، وأجاز لها أن تتفق مع زوجها ، على أن يكون من حقها حل رباط الزوجية . ولو فاتتها كل هذه الفرص فإنها تستطيع أن تتفق معه بعد الزواج على الفرقة ، بشرط أن تعوضه عما يتعرض له من خسارة . قال تعالى : ﴿ فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ﴾ (سورة البقرة ٢ : ٢٢٩) . على أن القرآن قد حذر الرجل من مساومة المرأة وإساءة معاملتها ، لكى يبتز مالها (ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن) (سورة النساء ٤ : ١٩) .

وأما أن الرجل يصح له التزوج بأكثر من واحدة فيرجع إلى أن هذا خير طريق للإكثار من النسل ، وخاصة فى البيئات التى تحتاج إلى كثرة الأيدى للحرب أو العمل كالبلاد الزراعية . وكان الرسول يعلم أن المسلمين مكلفون بالجهاد فى سبيل الدعوة ، فزواج بعض العرب بأكثر من واحدة كفيل بأن يعوض على المسلمين ما يفقدونه فى جهادهم ، ويعوض الكثير من النساء عن أزواجهن الذين فقدوا فى الحرب ، وهو سبيل لتلافى زيادة عدد البنات اللاتى بلغن سن الزواج ولم يتزوجن .

أضف إلى ذلك أن المرأة قد تكون عاقرا أو مصابة بمرض ، ولكن مصلحتها تقتضى بقاءها مع زوجها . على أن الإسلام ، وإن كان قد أجاز التزوج بأكثر من واحدة ، فقد أجازه بشرط ليس من اليسير تحقيقه على أكمل وجه وهو العدل بين الزوجات .

(ح) زوجات الرسول : كانت السيدة خديجة عون الرسول على الشدائد كما كانت وزير صدق للإسلام . وقد توفيت فى السنة العاشرة من نزول الوحى قبل الهجرة بثلاث سنين . وسمى هذا العام عام الحزن ، حيث كانت الفاجعة

---

(١) Planiol et Ripert: Traité élementaire de Droit Civil (Paris, 1932.) tome i, p. 404.

فيه مزدوجة ، بوفاة عمه أبي طالب الذي كان يحميه من العرب ، وزوجه خديجة التي كان يسكن إليها . يقول ابن سعد[١] . « وجد الرسول صلى الله عليه وسلم على خديجة حتى خشي عليه » . وكان هذا الحزن يمنعه من التفكير فى أمر الزواج حتى ساق الله إليه خولة بنت حكيم ، وقد قالت له : يا رسول الله ! كأنى أراك قد دخلتك خلة (حاجة) لفقد خديجة فقال : أجل ! أم العيال وربة البيت : قالت : أفلا أخطب عليك ؟ قال : بلى ! فإنكن معشر النساء أرفق بذلك . فخطبت عليه سودة بنت زمعة من بنى عامر بن لؤى . وخطبت عليه عائشة بنت أبى بكر فتزوجها ، فبنى بسودة بمكة ولعائشة يومئذ ست سنين حتى بنى بها بعد ذلك حين قدم المدينة » . وكان زواج الرسول بسودة بنت زمعة فى شهر رمضان سنة عشر من النبوة ، ثم تزوج عائشة بنت أبى بكر فى المدينة . وكان صداق الرسول اثنتى عشرة أوقية ونشا — أى خمسمائة درهم — لأن الأوقية أربعون درهماً والنش عشرون[٢] .

كان الرسول يحب عائشة حبا جما ويعطف عليها كل العطف . فقد روى عنها أنها قالت : كنت ألعب بالبنات (اللعب) ، ويجئن صواحبات لى فيلعبن معى ؛ فإذا رأين رسول الله صلى الله عليه وسلم إنقمعن[٣]منه ، فكان رسول الله يدخلهن فيلعبن معى[٤] .

وعن عائشة أيضاً قالت : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك فهبت ريح ، فكشفت ناحية من ستر على صفة فى البيت عن بنات لى ، فقال : وما هذا يا عائشة ؟ قلت : بناتى . ورأى بينهن فرساً لها جناحان من رقاع[٥] قال : وما هذا الذى أرى وسطهن ؟ قلت : فرسى . قال : وما هذا الذى عليه ؟ قلت جناحان . قال : جناحان ؟ قالت : أما سمعت أن لسليمان خيلا لها

---

(١) الطبقات الكبير ج ١ ص ٤١ . (٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١١٥ ، ١٥٧ .

(٣) أى دخلن فى بيت أو من وراء ستر . وأصله من القمع الذى على رأس الثمرة ، أى دخلن فيه كما تدخل الثمرة فى قمعها . النهاية فى غريب الحديث ج ٣ ص ٣١١ .

(٤) ابن سعد ج ٢ ص ٤٥ .

(٥) الرقاع : بالكسر جمع رقعة بالضم وهى الخرقة التى يرقع بها الثوب ، يريد أن جناحى الفرس كانا من الرقاع

أجنحة ؟ فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه[١] .

ولا غرو فقد تمتعت السيدة عائشة بمنزلة لم تتمتع بها امرأة غيرها من زوجات الرسول إلا خديجة . وإنا لنجد مظهر ذلك الحب بادياً فى كلام الرسول لعائشة ، وفى كلام عائشة نفسها ، وفى كلام زوجات الرسول والصحابة . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ياعائشة ! حبك فى قلبي كالعروة الوثق. وكانت السيدة عائشة تسأله من وقت لآخر : كيف حال العروة يا رسول الله ؟ فيقول لها : إنها على حالها لم تتغير ولم تتبدل[٢] . وكانت السيدة عائشة تشعر بهذا الحب وتعلم مكانتها عند الرسول ، تقول فى حديث لها : ولقد كانت زينب بنت جحش وأم سلمة لهما عنده مكان ، وكانتا أحب نسائه إليه فيما أحسب بعدى . وكانت زوجات الرسول يعلمن هذه المكانة ، فلما كبرت سودة بنت زمعة وخافت أن يفارقها الرسول وهبت يومها لعائشة دون سواها[٣] . وقد غضبت زينب بنت جحش حين رأت أن عائشة قد ملكت قلب الرسول[٤] .

ولعل قائلا يقول : إذا كانت هذه مكانة عائشة من الرسول ، فلماذا تزوج عليها ، وفى هذا مافيه من الإساءة إليها ؟ ظن بعض المستشرقين ومن يجهلون حقيقة ما يرمى إليه الإسلام ، أن الرسول تزوج بعد موت خديجة بغير امرأة ، وعابوا عليه ذلك ، ولم يدروا أن هذا الزواج كان لأغراض دينية وسياسية . فقد تزوج الرسول جميع زوجاته بعد موت خديجة وهو فى سن الخمسين أو بعدها[٥]. أضف إلى ذلك أنه كان يحب عائشة حباً جما ، ويعمل على إرضائها ، ولم يتزوج بعدها بامرأة لجمال أعظم من جمالها . وبذلك أصبح من اليسير أن ندرك أن ذلك إنما كان لأغراض سياسية ودينية فحسب .

---

(١) زينى دحلان : السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٣٠ .

(٢) الألوسى : روح المعانى ج ٢ ص ٧٥٣ .

(٣) ابن سعد ج ٨ ص ٣٦ ، ٨١ .

(٤) محب الدين أحمد بن عبد الله الطبرى : السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين ص ٣٩ .

(٥) روى الطبرى (ج ٣ ص ٨٣) أن الرسول حين بعث عبد الرحمن بن عوف إلى دومة (أو دومة الجندل بلد بينها وبين دمشق خمس ليال وبينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة ، تقع قرب تبوك . وهى أول غزوات الشام فى السنة الخامسة للهجرة) قال له : « إن أطاعوك فتزوج ابنة ملكهم » ، مما يدل على أن ذلك كان سياسة من الرسول .

وكان من أثر تلك الأغراض الانتفاع بالمصاهرة واتخاذها وسيلة لاجتذاب عطف القبائل . يفسر لنا هذا أن أكثر زواجه كان من قريش سيدة العرب؛ كما كان لتأليف القلوب إلى الإسلام دخل كبير في زواجه عليه الصلاة والسلام . أضف إلى ذلك ما كان لرأفته وعطفه على من ذل بعد عز من أثر في زواجه ببعض زوجاته ، فقد تزوج من جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق ، وصفية بنت حيي سيد بني النضير ليتم له إسلام قومهما ، لا لتأثير جمالها كما يقولون ، فهو أعلى نفساً من أن يتأثر بذلك ، وهو الذي يقول في المرأة : « فاظفر بذات الدين تربت يداك »[1] ، وهو الذي تفيض الروايات في وصف حبه لعائشة طوال حياته .

وتزوج الرسول أم سلمة ، وهي امرأة مسلم مات في سبيل الله والدفاع عن الإسلام ، تطييباً لقلبها وإثابة لها عن زوجها ، كما تزوج حفصة بنت عمر تطييباً لقلبها عن زوجها المتوفى ومكافأة لأبيها عمر ، ومكانته في نصرة الدين على ما نعلم .

وأما زينب بنت جحش فكان زواج الرسول منها لأغراض تشريعية . فقد كان العرب يحرمون في جاهليتهم الزواج بزوجة المتبنى ، لاعتقادهم أن زوجة المتبنى كزوجة الابن من الصلب ، فتزوجها الرسول إبطالا لهذا الزعم . ولما خشي أن يتقوّل عليه اليهود والمنافقون ويرمونه بأنه خرج على هذه التقاليد نزل قوله تعالى ﴿ فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولا ﴾ (سورة الأحزاب ٣٣ : ٣٧).

أضف إلى ذلك أن الرسول تزوج زينب للمحافظة على كرامتها بعد زواجها بمولى ، فقد كانت ابنة أميمة بنت عبد المطلب عمة الرسول الذي خطبها لمولاه زيد بن حارثة ، فعز على أهلها أن تتزوج من مولى ، ولكنهم لم يروا بدأ من إجابة الرسول . فلما تزوج بها زيد أظهرت له من الشمم والعظمة ما لم يتحمله ، فشكا ذلك إلى الرسول ، فأمره بأن يتدرع بالصبر ، ولكن الوحي نزل على الرسول بالطلاق ، وأمره أن يتزوج هو بها ، حسما لما بين الزوجين من نزاع ، وحرصاً على شرفها أن يضيع بعد زواجها بمولى وهي من أشرف بيوت العرب .

---

(١) يدعو عليه بالفقر حتى تلتصق يده بالتراب .

على أننا نرى فى زواج الرسول بزينب بنت جحش مثلا أعلى من مثل الديمقراطية التى امتاز بها الإسلام . فليس أمعن فى تلك الديمقراطية من أن يتزوج رسول الله بامرأة كانت بالأمس زوجة أحد مواليه . تلك الديمقراطية التى وضع أساسها بخطبة زينب ، وهى بنت عمته ، وكانت من أشراف العرب، لزيد ، وهو من الموالى ، ولم يستنكف الرسول أن يتزوج بها بعد أن طلقها زيد .

(د) الرقيق : سوى الإسلام بين الناس على اختلاف أجناسهم : فسوى بين الأبيض والأسود ، والبدوى والمتحضر ، والحاكم والمحكوم ، وبين الرجال والنساء ، كما سوى اليهود والنصارى بالمسلمين ماداموا فى سلم معهم .

انظر إلى المسلمين وهم فى المسجد يؤدون فريضة الصلاة ، أو فى مكة يحجون البيت الحرام ، أو فى المحاكم الشرعية فى صدر الإسلام فقد جعل الله المؤمنين إخوة لا تفاوت بينهم إلا بقدر ما يتفاوتون به من الحق ، كما يظهر من قوله عليه الصلاة والسلام فى خطبة الوداع : « أيها الناس إنما المؤمنون إخوة . إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب . إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى »(١) .

روى عن ابن عباس أن أحد الموالى خطب إلى جماعة من بنى بياضة وأشار عليهم الرسول بتزويجه فقالوا : يارسول الله ! أنزوج بناتنا موالينا ؟ فنزل قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾(٢) .

وروى فى نزول هذه الآية سبب آخر لا يقل عن هذا السبب فى الدلالة على مبلغ عناية الإسلام بالرقيق . فقد أمر الرسول بلالا بأن يؤذن على ظهر الكعبة ، فغضب الحارث بن هشام وعتاب بن أسيد وقالا : أهذا العبد الأسود يؤذن على ظهر الكعبة ؟ .

وكان المسلمون يعاملون الرقيق أحسن معاملة ، فقد ظفر الموالى بأسمى الرتب وتسنموا أعلى المناصب . ولنضرب لذلك مثلا زيد بن حارثة وابنه أسامة الذى

---

(١) عبد العزيز جاويش : الإسلام دين الفطرة ص ٧٧ — ٧٨ .

(٢) سورة الحجرات ٤٩ : ١٣ .

ولى إمرة المسلمين ولما يناهز الثامنة عشرة من عمره .

كان زيد بن حارثة من أحرار العرب ينتهى نسبه إلى كلب . وكان من عجائب الاتفاق أن خرجت به أمه سعدى لتزور قومها بنى معن . وبينا تم فى الطريق انقضت عليهم خيل من بنى القين بن جسر ، فأسروا زيداً وساقوه إلى سوق عكاظ ، حيث اشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد بأربعمائة درهم . وظل زيد فى خدمة خديجة إلى أن تزوجت من الرسول عليه الصلاة والسلام فوهبت له زيداً . وقد وجد عليه أبوه وجداً شديداً ورثاه بقوله :

بكيتُ على زيدٍ ولم أدرِ مافعلْ   أحىٌّ يرجَّى أم أتى دونه الأجلْ ؟
تُذَكِّرنيه الشمسُ عند طلوعها   وتَعْرِضُ ذُكراه إذا قارَبَ الطفَلْ[1]

وقد حج قوم من كلب فرأوا زيداً ، فعرفهم وعرفوه فقال : أبلغوا أهلى هذه الأبيات :

أحِنُّ إلى قومى وإنْ كنتُ نائياً   بأنى قطينُ البيتِ عند المشاعرِ[2]

فانطلقوا ، فأعلموا أباه ووصفوا له موضعه ، فقدم مكة ، فسأل عن النبى فقيل : هو فى المسجد ، فدخل عليه فقال : يابن عبد المطلب ، يابن سيد قومه ! أنتم أهل حرم الله ، تفكون العانى وتطعمون الأسير . جئناك فى ولدنا عندك ، فامنن علينا وأحسن فى فدائه ، فإنا سنرفع لك ، قال : وما ذاك ؟ قالوا : زيد ابن حارثة ، فقال : أو غير ذلك ؟ ادعوه فخيروه ، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء ، وإن اختارنى ، فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى فداء . فدعاه الرسول فقال : هل تعرف هؤلاء ؟ قال نعم ! هذا أبى وهذا عمى ، قال فأنا من قد علمت ، وقد رأيت صحبتى لك ، فاخترنى أو اخترهما ، فقال زيد : ما أنا بالذى أختار عليك أحداً ، أنت منى بمكان الأب والعم . فقال أبوه : ويحك يازيد : أتختار العبودية على الحرية ؟ قال : قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذى أختار عليه أحدا . فلما رأى الرسول ذلك ، أخرجه إلى الحجر فقال : اشهدوا أن زيداً ابنى ، يرثنى وأرثه . فلما رأى ذلك أبوه وعمه ، طابت أنفسهما وانصرفا

---

(١) ابن حجر : الإصابة فى تمييز الصحابة ج ٣ ص ٢٥
(٢) لم يذكر ابن حجر إلا هذا البيت .

ثم بعث الرسول وأخذ ينشر تعاليم الإسلام السمحة ، وجعل المؤمنين إخوة ، لاتفاوت بينهم إلا بقدر مايتفاضلون به من الحق . وكان زيد من المسلمين الأولين حتى لقد قيل إنه رابع أربعة دخلوا فى الإسلام وهم : خديجة ، وأبو بكر ، وعلى ، وزيد . وقد شهد زيد غزوة بدر الكبرى ، وكان البشير الذى حمل إلى أهل المدينة أنباء انتصار الإسلام على الكفر . وشاء الرسول إلا أن يعبر لزيد عن محبته له وإيثاره إياه وحدبه عليه ، فزوجه من مولاته أم أيمن ، فولدت له ابنه أسامة. بل لقد خصه الرسول بعطفه ، فزوجه من ابنة عمته زينب بنت جحش كما تقدم . قالت عائشة ما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة فى سرية إلا أمره عليها ، ولو بقى لاستخلفه بعده . وروى الزهرى أن الرسول استخلف زيداً فى بعض أسفاره ، فلا عجب إذا ظفر زيد ، وهو أحد موالى الرسول ، بعطف مولاه ، وغدا موضع ثقته ومحل رعايته ، حتى أطلق عليه المسلمون ، زيد بن محمد ، فأنزل الله عز وجل ﴿ أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾ فسمى زيد بن حارثة[1] .

« على أن الشرع لا يبيح أن يسترق مسلم أصلا . ثم إنه لا يبيح بعد ذلك إلا استرقاق أسرى حرب شرعية لم تقم إلا على إعلاء كلمة الله تعالى بشرط أن تكون مسبوقة باعتداء غير المسلمين عليهم ، أما استرقاق غير المحاربين ممن لا كتاب لهم كعبدة الأوثان . فقد قال مالك والشافعى وأحمد فى إحدى رواياته إن ذلك لا يجوز مطلقاً .

وقد حاول الإسلام جهده أن يلغى ذلك النظام ويحول دون انتشاره بشتى الوسائل . فقال فقهاء المسلمين إن كل من أسلم من الأسرى عصم نفسه وماله ، وإن مجرد دخول العدو المحارب دار الإسلام أمان له من السبى .

على أن الإسلام لم ين فى تعبيد الطريق لإلغاء الرق . فما فتىء الرسول يرغب الناس فى تحرير الرقيق ، كما جعل هذا الدين أموراً يلزم فيها السيد بالإعتاق . من ذلك إخبار الرسول أصحابه غير مرة بأن العتق من أجل العبادات وأقربها قبولا عند الله ، وأنه كفارة لبعض الخطايا والحنث فى بعض الإيمان . وفى القرآن غير آية جعلت فك الرقاب أولى العبادات التى يتقرب بها المسلم إلى ربه .

---

(١) ابن حجر ج ٣ ص ٢٠٦ .

على أن الإسلام ، وإن لم يجد بدأ من إباحة الرق ، لم يترك الأرقاء هملا ، فقد نظم شئونهم وأخذ بأيديهم فى طريق الحرية ، فسوى بين الرقيق ومولاه فى الطعام والشراب واللباس : وفى التعليم والتهذيب ، وسواهم بسادتهم فى معظم الحقوق المدنية ، اللهم إلا فى الولاية (أى الرياسة) ، كما حث على معاملتهم بالحسنى ، ورغب المسلمين فى تحرير من بأيديهم من الأرقاء وحذرهم من إساءة معاملتهم .

واعتبر الإسلام الرق عارضا ، ولذلك شرع عـــدة وسائل للنهوض بالأرقاء ومساعدتهم على استرداد حريتهم واستقلالهم . قال تعالى ﴿ والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ﴾ (سورة النور ٢٤ : ٣٣) .

وقد أجمع فقهاء المسلمين على أن مكاتبة العبد مستحبة ، وللإمام أحمد ابن حنبل فى رواية أنها واجبة متى دعا العبد سيده إليها على قدر قيمته أو أكثر ، وأن للعبد الاتجار ليحصل على مايدفعه لسيده من نجوم (أقساط) الكتابة ، وأن على سيده أن يتركه يشتغل أين شاء وفيما شاء .

وإذا امتنع المكاتب عن الأداء ومعه مابقى من المال المتفق عليه ، فالحنفية تجبره على الأداء حرصاً على تحريره . وإذا لم يكن معه مال — ولكنه كان قادراً على الكسب — فالمالكية تجبره على الكسب مادام قادراً عليه . ويشترط الفقهاء أن يراعى فى عقد الكتابة حال الرقيق ، فلا يرون أن أقل وعد من السيد أو أقل احتمال للوعد بالتحرير يجعل التحرير ضرورياً [1] . كما رغب الإسلام فى إعتاق الرقيق بدون مقابل ابتغاء وجه الله . قال تعالى : ﴿ ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين وهديناه النجدين فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فكُّ رقبةٍ أو إطعامٌ فى يوم ذى مسغبة يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة ﴾ (سورة البلد ٩٠ : ٨ — ١٦) .

ولم يترك الإسلام فرصة من فرص التحرير إلا انتهزها ، فسن طريقة التدبير ،

---

(١) عبد العزيز جاويش : الإسلام دين الفطرة ص ٨١ .

وهى أن يوصى السيد بأن يكون مولاه حراً بعد موته . واتفق الأئمة على أنه لو كان فى يد إنسان غلام بالغ عاقل وادعى عليه أنه عبده فكذبه الغلام ، فالقول للغلام مع يمينه أنه حر . وبتطبيق القاعدة المشهورة « البينة على المدعى واليمين على من أنكر » ، نجد إن الشرع اعتبر حرية الإنسان هى الأصل ، وأن الرق أمر عارض ، فكلف من ادعاه البينة ، واكتفى ممن أنكره باليمين . ولا يخفى ما فى ذلك من شدة حرص الشارع على تحرير الأرقاء ما وجد إليه سبيلا . أضف إلى ذلك إجماع الفقهاء على أنه إذا التقط شخصان لقيطا : فادعى مسلم أنه عبده وادعى كافر أنه ابنه ، فإنه يقضى ببنوته للكافر حتى يكون حراً ولا يقضى للمسلم حتى لا يكون رقيقاً . ومن هذا يتبين لنا مبلغ تقديس الإسلام للحرية ..

وللإسلام — عدا ذلك — وسائل شتى لتحرير الرقاب . فقد جعل الشارع من مصارف الزكاة عتق الرقاب ، بأن يعطى الأمير أو العامل للرقيق المكاتب ما يستعين به على فك رقبته ، أو أن يشترى الإمام بمال الصدقة العبيد ويعتقهم .

عن واصل الأحدب قال : سمعت المعرور بن سويد قال : رأيت أبا ذر الغفارى وعليه حلة وعلى غلامه حلة ، فسألناه عن ذلك فقال : سببت رجلا فشكانى إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال لى النبى : أعيرته بأمه ؟ ثم قال : « إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم . فمن كان أخوه تحت يده ، فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم » . وقال عليه الصلاة والسلام : « إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه ، فإن لم يجلسه معه ، فليناوله لقمة أو لقمتين أو أكلة أو أكلتين فإنه ولى علاجه »(١).

وعن ابن مسعود الأنصارى قال : بينما أنا أضرب غلاما لى إذ سمعت صوتاً من خلفى : « اعلم يا ابن مسعود » مرتين ، فالتفت ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فألقيت السوط من يدى فقال : والله لله أقدر عليك منك على هذا .

---

(١) العينى : « شرح البخارى » جـ ١٣ ص ٢٧ . الإحياء للغزالى : باب حقوق المملوك ، علاج الطعام وتجهيزه وإعداده .

وبلغ من رحمة الرسول أنه كان لا يطيق أن يسمع أحداً يقول : عبدى أو أمتى ، وأنه أمر المسلمين أن يكفوا عن ذلك وأن يقولوا : فتاى وفتاتى. وكان لهذه التربية أحسن الأثر فى تحرير الأرقاء ونشر المساواة بين المسلمين . روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن الرسول رأى رجلا على دابة وغلامه يسعى خلفه ، فقال : ياعبد الله احمله خلفك ، فإنما هو أخوك روحه مثل روحك ، فحمله » .

ولم تكن العناية بالرقيق مقصورة على الرسول ، بل إن ذلك قد تعدى إلى بعض الصحابة . فقد روى أن على بن أبى طالب قال : إنى لأستحى أن أستعبد إنسانا يقول ربى الله . ومن أحسن ما روى عن على أنه أعطى غلامه دراهم ليشترى بها ثوبين متفاوتى القيمة ، فلما أحضرهما أعطاه أرقهما نسيجاً وأغلاهما قيمة وحفظ لنفسه الآخر ، وقال له : أنت أحق منى بأجودهما لأنك شاب وتميل نفسك للتجمل ، أما أنا فقد كبرت » .

وعنى الإسلام بنفسية الرقيق عناية خاصة ، فقال تعالى يطيب خاطرهم ويفتح باب الأمل فى المغفرة وحسن الجزاء : ﴿يا أيها النبي قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾. (سورة الأنفال ٨ : ٧٠) . وقال الرسول : « العبد إذا نصح سيده وأحسن عبادة ربه ، كان له أجره مرتين » ، حتى إن كثيراً منهم كان يتمنى أن يعيش رقيقاً ليكون له أجران .

وقد وصف المستشرق « فان دنبرغ » معاملة الإسلام للرقيق فى هذه العبارة : « لقد وضعت للرقيق فى الإسلام قواعد كثيرة تدل على ما كان ينطوى عليه محمد وأتباعه نحوهم من الشعور الإنسانى النبيل . ففيها تجد من محامد الإسلام ما يناقض كل المناقضة الأساليب التى كانت تتخذها إلى عهد قريب شعوب تدعى أنها تسير فى طليعة الحضارة . نعم ! إن الإسلام لم يلغ الرقيق الذى كان شائعاً فى العالم ، ولكنه عمل كثيراً على إصلاح حاله ، وأبقى حكم الأسير ، ولكنه أمر بالرفق به » . فلما جىء بالأسرى بعد غزوة بدر الكبرى ، فرقهم الرسول على أصحابه وقال : استوصوا بهم خيراً . وقال أبو عزيز بن عمير صاحب لواء المسلمين فى بدر : كنت فى رهط من الأنصار حين أقبلوا بى من بدر ، فكانوا

إذا قدموا غذاءهم أو عشاءهم خصونى بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله إياهم بنا .

٤ — **الأثر الأدبي** : رأى العرب فى بلاغة القرآن وروعة أسلوبه ما بهرهم وآثار إعجابهم ، فانساقوا إلى تقليده ومحاكاته . وبلغ من افتتان العرب بالقرآن وإعجابهم به أن امتنع بعضهم عن قول الشعر ، كما فعل لبيد بن ربيعة أحد أصحاب المعلقات ؛ فإنه قدم على الرسول فى وفد من قومه،وأسلم وحسن إسلامه، واستغنى بالقرآن وقراءته عن شعره الذى نبغ فيه ، حتى إنه لم يصح عنه فى أربعين سنة قضاها فى الإسلام إلا بيت واحد :

ما عاتب الحر الكريم كنفسه   والمرء يصلحه الجليس الصالح

وهو فى رواية الأغانى :

الحمد لله إذ لم يأتنى أجلى   حتى لبست من الإسلام سربالا

وكان إذا سئل عن شعره تلا سورة من القرآن وقال : أبدلنى الله خيراً منه(١).
شاعت ألفاظ القرآن وطرائفه فى جميع القبائل العربية ، وأصبحت معروفة لديهم فيما ينشئون من خطب وأشعار . فكان لهم بذلك لغة عامة ، وحدت مشاربهم وخلقت فيهم خيالا متجانساً ومثلا عليا متحدة .

يقول الأستاذ كرد على : (٢) « والقرآن أبلغ كتاب العرب ، ولولاه لما كان لهم أدب ولا شريعة ﴿كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً﴾(سورة السجدة ٤١ : ٣)، عجز فصحاء العرب عن الإتيان بمثله مع أنهم خصوا بالتحدى(٣) ، وكان للفصاحة عندهم المكان الأرفع ، فاعترفوا بعد جدال طويل : « أن نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ويتميز فى تصرفه على أساليب

---

(١) انظر ترجمة لبيد فى طبقات الشعراء لابن سلام ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ، والأغانى ج ١٤ ص ٧٤ .

Nicholson : Lit. Hist. of the Arabs, pp. 119--120

(٢) الإسلام والحضارة العربية ص ٦٧ وما يليها .

(٣) تحدى أقرانه إذا باراهم ونازعهم الغلبة وتحدى صاحبه القراءة والصراع لينظر أيهما أقرأ وأصرع

الكلام المعتاد (١). « جعله الله كما قال على بن أبي طالب : رياً لعطش العلماء ، وربيعاً لقلوب الفقهاء ، ومحاج لطرق الصلحاء ، وبرهاناً لمن تكلم به ، وشاهداً لمن خاصم به ، وفلجا لمن حاج به ، وعلماً لمن وعى ، وحديثاً لمن روى ، وحكماً لمن قضى » .

قال جان جاك روسو أحد مفكرى القرن الثامن عشر : « من الناس من يتعلم قليلا من العربية ثم يقرأ القرآن ويضحك منه . ولو أنه سمع محمداً يمليه على الناس بتلك اللغة الفصحى الرقيقة ، وذاك الصوت المقنع المطرب المؤثر فى شغاف القلوب ، ورآه يؤيد أحكامه بقوة البيان ، لخر ساجداً على الأرض وناداه : أيها النبى رسول الله ! خذ بأيدينا إلى مواقف الشرف والفخار ، أو مواقع التهلكة والأخطار ، فنحن من أجلك نود الموت أو الانتصار » وقال كارلايل (Carlyle) أحد كتاب القرن التاسع عشر : « إن فرط إعجاب المسلمين بالقرآن وقولهم بإعجازه لأكبر دليل على تباين الأذواق فى الأمم المختلفة . والترجمة تذهب بأكثر جمال الصنعة وحسن الصياغة » . وجاهر كلود فارير فى القرن العشرين بأن « آيات القرآن جميلة ، تحسن تلاوتها ، فيها نفحة طاهرة عجيبة ، لأنها تأمر بالشجاعة والصدق والأمانة ، وتدعو إلى حماية الضعيف وإلى عبادة إله واحد (٢) » .

ويقول الدكتور محمد حسين هيكل (٣) عن توجيه القرآن للناس إلى مايستطيعون معرفته من أمره : « والقرآن يتحدث عما فى الكون من خلق الله حديثاً يوجهنا إلى غاية ما نستطيع معرفته من أمره . فهو يتحدث عن الأهلة ، وعن الشمس والقمر ، وعن الليل والنهار ، وعن الأرض وما خلق فيها ، والسماء وزينة كواكبها ، وعن البحر يزجى الله الفلك فيه لنبتغى من فضله ، وعن الأنعام التى نركبها وزينة ، وعن كل ما فى الكون من علم وفن . ويتحدث القرآن عن هذا كله ، ويدعو إلى النظر فيه وإلى دراسته ، وإلى الاستمتاع بآثاره وثمراته شكراً لله على نعمته . .

---

(١) كرد على : عن كتاب إعجاز القرآن للباقلانى .

(٢) انظر كتاب الإسلام والحضارة للأستاذ محمد كرد على ص ٦٩ .

(٣) حياة محمد ص ٥٢١ .

٥ — الأثر السياسى : جمع الإسلام قبائل العرب تحت لوائه ، وألف بين قلوبهم ، وقضى على العصبية الجاهلية فزالت الحزازات القديمة والثارات التى بين القبائل ، فخضعوا لحكم النبى وأوامر القرآن بعد أن كانوا يدينون لرؤساء متفرقين. وبذلك قامت فى بلاد العرب حكومة مركزية محترمة عزيزة الجانب ؛ وكان حماس العربى للإسلام وولاؤه له لا يقل عن حماسه لوثنيته واستبساله فى الذود عنها . ومن ثم بذل النفس والنفيس فى سبيل نشر الدين وحمايته حتى دانت قبائل العرب وأصبحت ترى فى الإسلام رمز وحدتها وشعار مجدها وقد حملهم على الاستماتة فى نشر هذا الدين الجديد ما ضمنه لهم من حسن ثواب الدنيا والآخرة . قال تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ (سورة آل عمران ٣ : ١٦٩ — ١٧١) .

وقصارى القول أن الإسلام غير أخلاق العرب وساعد على نشر الفضيلة بينهم حتى ظهر منهم رجال كثيرون اشتهروا بالورع والتقوى . إلا أنه كان هناك فريق سموا الأعراب عرفوا بالنفاق ، وقد وصفهم الله تعالى فى قوله: ﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم ، ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم﴾ (سورة التوبة ٩ : ٩٧ — ٩٨) .

ويقول سير توماس أرنولد[١] نقلا عن فون كريمر: « وقد جمعت فكرة الدين المشترك تحت زعامة واحدة شتى القبائل فى نظام سياسى واحد ، ذلك النظام الذى سرت مزاياه فى سرعة تبعث على الدهش والإعجاب . وإن فكرة واحدة كبرى هى التى حققت هذه النتيجة ، تلك هى مبدأ الحياة القومية فى جزيرة العرب الوثنية . وهكذا كان النظام القبلى لأول مرة ، وإن لم يقض عليه نهائيا (إذ كان ذلك مستحيلا) ، شيئاً ثانوياً بالنسبة للشعور بالوحدة الدينية . وتكللت المهمة الضخمة بالنجاح ؛ فلما انتقل محمد إلى جوار ربه ، كانت السكينة ترفرف على أكبر جزء من شبه الجزيرة بصورة لم تكن القبائل العربية تعرفها من قبل ،

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٥٣ .

مع شدة تعلقها بالتدمير وأخذ الثأر . وكان الدين الإسلامى هو الذى مهد السبيل إلى هذا الائتلاف » .

٦ — بين الجاهلية والإسلام : قال براون : « لم يكن عمل محمد فى الإسلام سهلا . فقد كانت السنوات الثمان أو العشر التى قضاها فى مكة إلى أن هاجر إلى المدينة فى سنة ٦٢٢ م[١] (وهى السنة التى اعتبرها المسلمون مبدأ لتاريخهم ولا زالوا على ذلك إلى اليوم) عصر يأس وقنوط . إذا استثنينا هؤلاء المسلمين الذين عمر الإسلام قلوبهم ، فلم يحفلوا بالتعذيب ولم يجد اليأس إلى قلوبهم سبيلا » . ولم يكن يشق على العرب ، وخاصة بدو الصحراء ، أن ينبذوا آلهتهم ويتركوا عاداتهم الموروثة . لولا أنهم كرهوا هذه التكاليف التى أتى بها الإسلام، كما شن عليهم ذلك الوعيد الذى أتى به القرآن . لذلك رفضوا هذه النظم التى أتى بها الإسلام . ولا يزال عربى الصحراء محافظا على بداوته الأولى إلى اليوم ؛ لا يعتقد بشىء ولا يسعى إلا وراء المادة ، ولم يكن ذكاؤه إلا نشاطا عقليا فى دائرة محدودة ، ولم تكن سذاجته وسرعة تصديقه وميله لقبول كل غريب تدفعه إلى تصديق ما أتى به الدين من الأمور المعنوية . كما أن طبيعته التى فطرت على الاعتزاز بالنفس والثقة بها لم تكن لتشعر بالحاجة إلى إله يخضع له ويفنى فى عبادته . ولم تكن فكرة التوحيد والانصراف عن هذه الآلهة المتعددة إلى إله واحد ، اكتشافا حديثاً انفرد به الإسلام . ومع أن الاسلام كان يطالب العرب الوثنيين بتكاليف مادية أقل مما كانوا يقدمونه لأوثانهم ، فإن تلك الأوثان ما كانت لتفرض عليهم تلك الفروض التى أتى بها هذا الدين ، كما أنهم كانوا لا يلقون إليها بالمودة إلا بقدر ما تصيبهم به من خير ، بخلاف الإسلام الذى يطالبهم بالخضوع لله تعالى فى السراء والضراء ، ويأمرهم بقبول قضاء الله من خير وشر » .

ويقول دوزى : « وكانوا يغضبون من الآلهة ويجبهونها بحقيقة ما يعتقدون ، كما كانوا يتحدونها . وكانوا يطرحون الأزلام[٢] فى غضب وازدراء إذا كانت

---

(١) يعنى منذ أمر الرسول بالهجرة بالدعوة إلى عام هجرته .

(٢) الزلم القدح وجمعها أزلام ، والقداح هى السهام التى كان الجاهليون يستقسمون بها أى يستفتونها فيما يهمون بالقيام به من سفر أو تجارة أو نحو ذلك .

مشورتها على غير ماتهوى نفوسهم ، ويسبون الأصنام ويرجمونها بالحجارة إذا عاكسهم القدر فظنوه من غضب تلك الآلهة ، ويسقطون آلهتهم عن عروشها[١] ، ويشبعونها سبابا لأقل سبب . ومع ذلك لم تكن هذه الحالة[٢] . لتحمل العرب على قبول هذا الدين الجديد الذى يفرض عليهم أوامره ونواهيه . حقاً إن هذه الآلهة ، وإن لم يكن لها سلطان عليهم ، كانت مألوفة لهم . ومع ذلك فإنها لم تضرهم فى شىء ولم تكلفهم شيئا يذكر . أضف إلى ذلك أن الإسلام لم يسالم هذه الأوثان ولا الذين ألفوا عبادتها ، بل ناصبهم العداء . والواقع أنه كان من الأسباب التى ساعدت على انتشار ذلك الدين الجديد الذى ينهى عن عبادة الأوثان أنه لم يصطدم بسيادة لها تأثير فى قلوب أصحابها » .

وقد وازن جولدتسيهر فى باب الدين والمروءة بين المثل العليا فى الجاهلية والإسلام فقال: إن الشجاعة الشخصية، والكرم الذى لا يحد، والبذخ والإسراف فى قرى الضيف ، واختصاص ذوى قرباه بنصره وولائه ، وأخذ الثأر من غير ما رحمة ولا شفقة إذا اعتدى عليه أو على عشيرته ، كانت أظهر الفضائل فى الجاهلية . أما فى الإسلام ، فنجد الصبر والاحتمال ، وإيثار المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، شخصية كانت أو قبلية ؛ كما نجد عدم الاكتراث بالأمور الدنيوية والأعراض الزائلة ، وتجنب الرياء والفخر وكثيراً غيرها مما جاء به الإسلام . وكانت هذه الفضائل جديرة بأن تبعث المسلمين على ازدراء هذه المثل العليا للجاهلية[٣] » .

وإن هذه المثل التى جاء بها الإسلام ليتجلى بعضها فى القرآن : ﴿ ليس البرَّ أن تولوا وجوهكم قِبَلَ المشرق والمغرب ولكن البرّ من آمَنَ بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفونَ بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضرّاء وحين البأسِ ،

(١) هى القواعد التى كانوا يضعون عليها التماثيل أو الأصنام .

(٢) أى عدم احترامهم تلك الآلهة على هذه الصورة التى وصفها .

(٣) Browne, vol. i. pp. 189-191.

أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) (سورة ٢ : ١٧٧) .

« إن الأثر الوحيد الجدير بالذكر الذى تركه الإسلام فى العرب هو القضاء على الأخذ بالثأر ، حتى إن كل قبيلة كانت تخضع للإسلام أو تدين له وتعتنقه ، تنزل عن حقها فى الأخذ بثأر من سفكت دماؤهم فى الوقائع والحروب ، مع أنا كنا نجد العربى فى غير تلك الظروف يرى ترك الأخذ بالثأر أو دية الدم من أحط مظاهر الذلة والعار . ولكن اتخاذ العرب الرسول زعيما لهم ، ذلك الأمر الذى كان شاقا على نفوسهم وصعباً عليها أن يدينوا لواحد منهم ، قد هيأ ذلك الشعب العربى لقبول تلك الحالة الجديدة ؛ فألان قناتهم وأسلس قيادهم ، فأتمروا بأمره ، حتى إنه لم يعد هناك عربى إلا دافع دفاع المخلصين فى الذود عن ذلك الدين الجديد . ومن ثم يتضح لك كيف استطاع عرب ذلك العصر نشر دينهم فى جميع الربوع والأرجاء[1] » .

وهناك قصيدة تأبط شرا [2] التى تصور لنا تلك المثل الجاهلية وكيف كان ينظر العرب إليها . وعلى الرغم من تشكك علماء الشعر فى نسبة هذه القصيدة إلى العصر الجاهلى وحكايتهم عن خلف الأحمر أنها منتحلة ، فإن هذا التشكك لا يقلل من قيمتها باعتبارها صورة[3] للمثل العليا التى كان يتمسك بها عرب الجاهلية . وهذه القصيدة التى نظمها هذا الشاعر على أثر قتل هذيل خاله ، وإغارته عليهم ليأخذ بثأره ، قد تحدث فيها بأن دم خاله لن يهدر ، وبأنه سيضطلع بهذا

Noëldeke. vol, viii. p. 20. (١)

(١) واسمه ثابت وكنيته أبو زهير من بنى فهر . وإنما لقب بهذا اللقب لأنه تأبط سكيناً ذات يوم ، وسئلت أمه عنه فقالت : لا أدرى إنه تأبط شراً وخرج . وقيل غير ذلك . ديوان الحماسة لأبى تمام ، مختصر شرح التبريزى (القاهرة سنة ١٣٣٤ هـ = ١٩١٦ م) ص ٢٩٦ — ٣٠٣ .

(٣) نرى أن الحجة التى اعتمد عليها من ادعى انتحال هذا الشعر هى أمور تتصل باللفظ وطرق التعبير ؛ قال التبريزى : ومما يدل على أنه مولد قوله (فى البيت الخامس) جل حتى دق فيه الأجل ، فإن الأعرابى لا يكاد يتغلغل إلى مثل هذا . أما الحجة الأخرى فهى ملاحظة البيت الأول لبعد هذا المكان عن ديار هذيل التى قتل فيها خال تأبط شراً ، أى أنهم لم يذكروا أن منتحل هذا الشعر قد أخطأ فتمدح بأمور لم تكن مما يتمدح به العرب .

العبء ، وبأن من ورائه ابن أخت له قوي جدير بأن يشد أزره وأن يحل محله . ثم ينتقل من قتل خاله إلى وصف ما في هذا الحادث من خسارة فادحة حلت به ، ثم يستطرد في ذكر مناقب خاله ويذكر هجوم فتيان هذيل عليهم ، ويعقب ذلك بوصف قوتهم وقدرتهم على دفعهم ، ثم يتسلى عن قتلهم خاله بأنه كثيراً ما نال منهم ، ويصف حياة خاله في حالتي السلم والحرب .

إن بالشعب[1] الذي دون سلع — لقتيلا دمه ما يُطل[2]

خلف العبء عليّ وولى — أنا بالعبء له مستقل[3]

ووراء الثأر مني ابن أخت — مصع[4] عقدته ما تحل[5]

مطرق[6] يرشح سمّا كما أطر — ق أفعى ينفث السم صل[7]

خبر ما نابنا مصمئل[8] — جل حتى دق فيه الأجل

بزّني[9] الدهر وكان غشوما — بأبي جاره ما يذل

شامس[10] في القر حتى إذا ما — ذكت الشعرى[11] فبرد وظل

يابس الجنبين[12] من غير بؤس — وندي الكفين شهم مدل[13]

ظاعن[14] بالحزم حتى إذا ما — حل ، حل الحزم حيث يحل

---

(١) الشعب : الطريق في الجبل . (٢) ما يهدر .

(٣) استقل بالشيء رفعه وبالعبء حمله .

(٤) المصع بكسر الصاد وتسكينها هو الرجل الشديد أو الضارب بالسيف .

(٥) لا ينثني عن عزمه . (٦) مرخي عينيه ينظر إلى الأرض .

(٧) الصل الخبيث من الأفاعي . ومعنى البيت أن ابن أخته شجاع في الحرب يطرق إطراق الحية الخبيثة التي تقذف السم .

(٨) المصمئل الشديد . ومعنى البيت أن الذي أصابه ونزل به خبر موته خطب جلل يصغر عنده العظيم من الحوادث .

(٩) سلبني والمراد فجعني في هذا الرجل الأبي عن الضيم الذي يجعل جاره عزيزاً .

(١٠) شمس يوماً كنصر وجلس وكرم صار ذا شمس ومنه شامس ذو شمس . والمقصود هنا أنه ذو دفء بما يفيضه على ضيفه ويكرمه به من طعام ولباس كالشمس تدفئ المقرور .

(١١) ذكت الشعرى ونحت وبانت في السماء ولا يكون ذلك إلا في الصيف في ابتداء حرها الشديد . ومعنى البيت أنه عند أصدقائه دفئاً وإيناساً في الشتاء وظلاً ظليلا وماء بارداً في حر الصيف .

(١٢) يابس الجنبين نحيل ضامر وكانوا يتمدحون بذلك .

(١٣) المدل الواثق بنفسه وبعمله . (١٤) الظعن السفر والانتقال .

غيث مزن(١) غامر(٢) حيث يجدى ... وإذا يسطو فليث أبل(٣)

مسبل فى الحى(٤) أحوى(٥) رفل(٦) ... وإذا يغزو فسمع(٧) أزل(٨)

وله طعمان أرى وشرى(٩) ... وكلا الطعمين قد ذاق كل

يركب الهول وحيداً ولا يصـــحبه إلا اليمانى الأفـــل(١٠)

وفتو(١١) هجروا(١٢) ثم أسروا(١٣) ... ليلهم حتى إذ انجاب(١٤) حلوا(١٥)

كل ماض(١٦) قد تردى(١٧) بماض(١٨) ... كسنا البرق(١٩) إذا ما يسل(٢٠)

فادركنا الثأر منهم ولما ... ينج ملحيين(٢١) إلا الأقل

فاحتسوا أنفاس نوم(٢٢) فلما ... هوموا(٢٣) رعتهم(٢٤) فاشمعلوا(٢٥)

---

(١) الغيث المطر والمزن جمع مزنة وهى السحابة البيضاء .

(٢) غمر الماء كثر وغمر الشىء غطاه .

(٣) الليث الأبل هو المصمم الماضى على وجه لا يبالى ما يلقى .

(٤) مسبل فى الحى : يسبل ثيابه حينما يكون فى الحى .

(٥) الأحوى من شفتيه سواد وهو محمود .

(٦) الكثير اللحم والواسع الثوب . (٧) السمع ولد الذئب .

(٨) الأزل : السريع المشى الخفيف لحم العجز والفخذين . فى القاموس المحيط (السمع الأزل ذئب أرسح يتولد بين الضبع والذئب) . والأرسح من الرسح وهو قلة لحم العجز والفخذين .

(٩) الأرى العسل والشرى الحنظل ، يقصد أنه قد أذاق الناس فى كرمه أطيب الأطعمة كرماً كما أنه أذاق أعداءه الصاب والعلقم .

(١٠) الذى انثلم من كثرة الضرب به .

(١١) جمع فتى على وزن فعول مثل ذكر وذكور .

(١٢) ساروا وقت الهاجرة وهى اشتداد الحر فى منتصف النهار .

(١٣) الإسراء والسرى والسير ليلا . (١٤) انجاب الليل : انقضى .

(١٥) أقاموا . (١٦) شخص ماض أى ماضى العزيمة

(١٧) لبس الرداء يعنى تقلد السيف أو نحوه .

(١٨) السيف الماضى : القاطع . (١٩) السنا الضوء .

(٢٠) يلمع فى الأفق . (٢١) من الحيين .

(٢٢) احتسى الشراب : تناوله متمهلا ، [illegible] أنفاس النوم [illegible] فى نوم [illegible] .

(٢٣) هوم الرجل : إذا هز رأسه من النعاس . (٢٤) أى فزعتهم من الروع .

(٢٥) أسرعوا فى السير والمقصود [illegible] أعقابهم .

فلئن فلت(١) هذيل شباه(٢) لبما كان هذيلا يفل(٣)
وبما أبركها(٤) في مناخ جعجع(٥) ينقب فيه الأظل(٦)
وبما صبحها(٧) في ذراها(٨) منه بعد القتل نهب وشل(٩)
صليت(١٠) مني هذيل بخرق(١١) لا يمل الشر حتى يملوا
ينهل(١٢) الصعدة(١٣) حتى إذا ما نهلت كان لها منه عل(١٤)
حلت الخمر وكانت حراما وبلأى(١٥) ما ألمت تحل(١٦)
فاسقنيها ياسواد(١٧) بن عمرو إن جسمى بعد خالى لخل(١٨)
تضحك الضبع لقتلى هذيل وترى الذئب لها يستهل(١٩)
وعتاق الطير(٢٠) تغدو بطانا(٢١) تتخطاهم فما تستقل(٢٢)

ولنأت بحديث جعفر بن أبي طالب إلى النجاشي حين دبرت قريش المكايد لإخراج المهاجرين من بلاد الحبشة وإعادتهم إلى بلدهم ليفتنوهم عن دينهم ،

---

(١) فل حد السيف : كسره . (٢) الشباة حد السيف .
(٣) فكثيراً ما كان يفل هذيلا . (٤) أناخها .
(٥) الجعجع الأرض الغليظة .
(٦) ينقب يعني يحفى. والأظل هو باطن خف البعير : ومعنى البيت أنه كثيراً ما حمل هذيلا على الأرض الصعبة التي تحفى قدم البعير وحملهم الكثير من المشاق .
(٧) صبحها : أتاها في الصباح . (٨) الذرى الظل ، وذرى البيت ساحته
(٩) الشل : الإفساد والطرد ، أي أنه أعقب تقتيله إياهم بنهب وإفساد في عقر دارهم في وضح النهار .

(١٠) صلي النار : قاسى حرارتها . (١١) الخرق : الشجاع .
(١٢) النهل : الشرب أولا والإنهال إيراد البعير ليشرب لأول مرة .
(١٣) الصعدة : القناة نبتت مستوية .
(١٤) العل الشرب بعد الشرب أي أنه يسقي رمحه من دم خصمه مرة وأخرى .
(١٥) اللأى : البطء .

(١٦) الالمام الزيارة الخفيفة . وكان من عادة العرب أن يحرم الرجل على نفسه عدة أشياء إذا قتل له قتيل حتى يدرك ثأره مثل شرب الخمر وغسل الرأس ، فهو يقول إنه قد صار في حل من شرب الخمر بعد أن حرم ذلك على نفسه .
(١٧) أصلها يا سوادة فرخم وهو قياسي في النداء .
(١٨) مهزول .
(١٩) يتهلل بالفرح .
(٢٠) عتاق الطير : جوارحها وكواسرها . (٢١) ترجع مملوءة البطن .
(٢٢) تطير أي أنها لا تستطيع الطيران لكثرة ما أكلت من قتلاهم .

فأرسلوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة لتحريض النجاشي على إخراجهم من بلاده. وقد تقدم القول بأن النجاشي بعث في طلب المهاجرين وسألهم عن حقيقة دينهم، فتقدم جعفر بن أبي طالب ورد عليه في هذا الحديث الذي يعتبر موازنة طريفة بين مثل الجاهلية ومثل الإسلام، وهاك نصه :

« أيها الملك ! كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف. فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان. وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة. وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام... فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا. فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث[1] ».

ويقول ابن حزم[2] « وكانت العرب بلا خلاف قوما لقاحا لا يملكهم أحد، كربيعة ومضر وإياد وقضاعة، أو ملوكاً في بلادهم يتوارثون الملك كابرا عن كابر... فانقادوا كلهم لظهور الحق وآمنوا برسول الله، وهم آلاف آلاف. وصاروا إخوة كبني أب وأم، وانحل كل من أمكنه الانحلال عن ملكه منهم إلى رِسْله[3] طوعا بلا خوف غزو ولا إعطاء مال ولا بطمع في عز. بل كلهم أقوى جيشاً من جيشه، وأكثر مالا وسلاحا منه وأوسع بلداً من بلده. وهكذا كان إسلام جميع العرب، أولهم كالأوس والخزرج ثم سائرهم قبيلة قبيلة، لما ثبت عندهم من آياته ويبهرهم به من معجزاته، وما اتبعه الأوس والخزرج إلا وهو فريد طريد، قد نابذه قومه حسدا له، إذ كان فقيرا لا مال له، يتيما لا أب

---

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٣٥٨ — ٣٥٩.
(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٢ ص ٨٥.
(٣) الرسل بكسر الراء وتشديدها وسكون السين هو اللين.

له ولا أخ ولا ابن أخ ولا ولد ، أميا لا يقرأ ولا يكتب ، نشأ فى بلاد الجهل يرعى غنم قومه بأجرة يتقوت بها ، فعلمه الله تعالى الحكمة دون معلم ، وعصمه من كل من أراد قتله » .

وقد جعل الإسلام العقل حكما فى الدين وفى الإيمان . يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون ﴾ (سورة البقرة ٢ : ١٧١) . ويفسر الشيخ محمد عبده الآية فيقول : « إن الآية صريحة فى أن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين ، وأن المرء لا يكون مؤمنا إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به . فمن ربى على التسليم بغير عقل والعمل ولو صالحا بغير فكر ، فهو غير مؤمن . فليس القصد من الإيمان أن يذلل الإنسان للخير كما يذلل الحيوان ، بل القصد منه أن يرتقى عقله وترتقى نفسه بالعلم فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضى لله ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته . . والدعوة إلى النظر فى الكون لاستنباط سننه وللاهتداء إلى الإيمان بباريه . يكررها القرآن مئات المرات فى سوره المختلفة ، وكلها موجهة إلى قوى الإنسان العاقلة ، تدعوه إلى التدبير والتأمل ليكون إيمانه عن عقل وبينة ، وتحذره الأخذ بما وجد آباءه عليه من غير نظر فيه وتمحيص له وثقة ذاتية بمبلغه من الحق » .

وقال ديلز : « كان الإسلام فى أول أمره خاليا من التعقيدات اللاهوتية التى طالما تعقدت بها النصرانية ، وأحدثت شقاقا قضى على الروح النصرانى . وليس للإسلام كهنة ، بل له علماء ومفسرون ووعاظ . ودين حافل بروح الرأفة والسخاء والإخاء ، كما أنه ينطوى على عاطفة النجدة التى تنبت فى الصحراء ، ولهذا يعاز إلى قلوب عامة الناس دون أن يجد ما يصده فى غرائزهم » .

وصفوة القول أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، على ما وصفه ميور (١) ، امتاز « بوضوح كلامه ويسر دينه وقد أتم من الأعمال ما يدهش العقول ، ولم يعهد التاريخ مصلحا أيقظ النفوس وأحيا الأخلاق ورفع شأن الفضيلة فى زمن قصير ، كما فعل محمد » .

The Life of Muhammad, pp. 523, 528. (١)

الباب الرابع

الخلفاء الراشدون

أبو بكر الصديق

(١١ — ١٣ / ٦٣٢ — ٦٣٤)

١ — أبو بكر منذ ولد إلى أن ولى الخلافة :

هو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة التيمى[١]. كان يسمى فى الجاهلية عبد الكعبة[٢]، فسماه الرسول عبد الله ؛ ولقب عتيقا[٣]، والصديق لأنه بادر إلى تصديق الرسول ولا سيما صبيحة الإسراء .

ولد أبو بكر بمكة بعد عام الفيل بعامين وأشهر ، وعرف بالخصال الكريمة ، واشتهر بالعفة ؛ ولم يكن يشرب الخمر التى كانت فاشية فى الجاهلية[٤] . وكان من سراة مكة فى الجاهلية ، عالما بأنساب العرب وأخبارهم . وكان بزازا يتاجر فى الثياب ؛ وقد بلغ رأس ماله أربعين ألف درهم وهو أول من أسلم من الرجال. وسرعان ماترك التجارة بعد إسلامه ليتفرغ إلى الدعوة الإسلامية مع رسول الله ،

---

(١) ابن حجر : الاصابة فى تمييز الصحابة جـ ٤ ص ١٠١ .

(٢) زينى دحلان : السيرة الحلبية ص ١١٠ . وقيل عبد اللات وقيل عبد العزى .

(٣) قيل إنه كان لا يعيش لأمه ولد فاستقبلت به البيت وقالت اللهم هذا عتيقك من الموت . وقيل لسبقه إلى الإسلام أو لأن الرسول بشره بأن الله أعتقه من النار . وروى ابن حجر (الاصابة جـ ٤ ص ١٠٢) أن الرسول كان هو وأصحابه بفناء الكعبة إذ جاء أبو بكر ، فقال الرسول : من سره أن ينظر إلى عتيق من النار فلينظر إلى أبى بكر ، فغلب عليه اسم عتيق : انظر كتاب تيسير الوصول إلى جامع الأصول لأحاديث الرسول لابن الديبع الشيبانى جـ ٣ ص ٢٦٣ .

(٤) السيوطى : تاريخ الخلفاء جـ ١ ص ٢٢ .

فأسلم بدعوته كثير من العرب الذين اعتز بهم الإسلام : كعثمان بن عفان، والزبير ابن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله .

وكان إيمانه بالرسول شديدا ، إذ كان صديقه في صباه وكان رفيقه عندما هاجر إلى المدينة ؛ وهو المعنى بقوله تعالى : ﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾ (سورة التوبة ٩ : ٤٠) . ولما استقر الرسول فى المدينة كان أبو بكر ساعده الأيمن . وقد خصه الرسول بمزايا لم يخص بها أحد سواه . وكان كما يقول ابن خلدون (مقدمة ص ٢٠٦) يفاوض أصحابه ويشاورهم فى مهماته العامة والخاصة ، ويخص مع ذلك أبا بكر بخصوصيات أخرى. فكان العرب الذين عرفوا الدول وأحوالها فى كسرى وقيصر والنجاشي يسمون أبا بكر وزيره » .

روى الطبرى (جـ ٣ ص ١٩٣) أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما قال فى آخر خطبة له : « إن عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله » ، فهمها أبو بكر وعلم أن رسول الله إنما يريد نفسه ، وأن وفاته قد حانت فبكى وقال : بل نفديك بأنفسنا وأبنائنا ، فقال على رسلك يا أبا بكر : أنظروا هذه الأبواب الشوارع اللافظة فى المسجد فسدوها إلا ما كان من بيت أبى بكر ، فإنى لا أعلم أحداً كان أفضل عندى فى الصحبة يداً منه » .

وصفوة القول أن أبا بكر قاسم الرسول مر العيش وحلوه ، وآلام الحياة وما فيها من نصر وظفر ، وبقى معه لا ينفك عنه كظله .

٢ — بيعة السقيفة : لم يوص الرسول بزعامة المسلمين لأحد من أصحابه ، بل ترك مسألة الخلافة شورى بينهم . فلما تطاير نعيه اجتمعت الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة فى المدينة ، وأرادوا أن يبايعوا بالخلافة رجلا منهم ، هو سعد بن عُبادة سيد الخزرج . فحضر إليهم نفر من المهاجرين ، وكاد يقوم بين هؤلاء وهؤلاء خلاف شديد ، لولا أن قام بينهم أبو بكر خطيباً وأدلى لهم بالحجة على أن هذا الأمر لقريش وأن أمر العرب لن يصلح إلا إذا وليته قريش ، وحذر الأنصار إن وليته الأوس أن تنفس عليها الخزرج ، وإن وليته الخزرج أن تنفس عليها الأوس . فلما ذكر الأنصار ما كان بينهم فى الجاهلية ، وأن الحال توشك أن تعود

إلى مثل ما كانوا عليه من عداوة ، اطمأنوا إلى رأى أبى بكر ، فعرض عليهم مبايعة عمر أو أبى عبيدة بن الجراح . فخشى عمر أن يترك الناس فيختلفوا على أنفسهم ويضيع الأثر الذى أحدثه كلام أبى بكر ، فقام إلى أبى بكر وبايعه بالخلافة[١] وقال له : « ألم يأمر النبى أن تصلى أنت يا أبا بكر بالمسلمين ؟ فأنت خليفته ، ونحن نبايعك فنبايع خير من أحب رسول الله منا جميعاً » . وقد بايع عمر وأبو عبيدة أبا بكر وسبقهما بشير بن سعد ، ثم تتابع المهاجرون والأنصار يبايعونه ؛ وتسمى بيعة السقيفة بالبيعة الخاصة لأنه لم يبايعها إلا نفر قليل من المسلمين هم الذين حضروا السقيفة . فلما كان الغد جلس أبو بكر على المنبر فى المسجد وبايعه الناس البيعة الكبرى أو العامة .

حدث هذا بينما كان على بن طالب قد انحاز مع الزبير ونفر من بنى هاشم إلى بيت فاطمة ، وقضى هو وأهل بيت الرسول يوم الثلاثاء فى تجهيزه ودفنه . فوجد فى نفسه على أبى بكر ومن بايعوه متجاهلين مكانته وحقه[٢] . على أن علياً بايع أبا بكر بعد موت فاطمة ؛ وأعلن عمر فى خطبة له أن علياً تخلف عنهم هو والزبير ومن كان معهما إلى بيت فاطمة ، وأن الظرف كان دقيقاً يتطلب حلا حاسما عاجلا[٣] .

وقد أعلن أبو بكر سياسته التى عول على انتهاجها فى هذه الخطبة القصيرة الجامعة التى خطبها فى مسجد الرسول على أثر أخذ البيعة العامة له فى اليوم التالى لاجتماع السقيفة ؛ وهاك نصها :

« أيها الناس ! إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم . فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى : الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا قوم ضربهم الله بالذل ،

---

(١) ابن هشام ج ٤ ص ٣٣٥ — ٣٣٩ .

(٢) انظر خطبة على فى الطبرى ج ٣ ص ٢٠٢ .

(٣) انظر خطبة عمر فى سيرة ابن هشام (ج ٤ ص ٣٣٧ — ٣٣٨) والطبرى (ج ٣ ص ٢٠٠) .

ولا تشيع الفاحشة فى قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء . أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم ، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله »[1].

٣ — صفات أبى بكر :

كان أبو بكر من رؤساء قريش وأهل مشورتهم ، وكان رجلاً [illegible] لقومه محببا سهلا . وكانت تساق إليه فى الجاهلية الأشناق ، وهى [illegible] والمغارم التى يتحملها من يتقرب بها من العشيرة . فكان إذا [illegible] من ذلك فسأل فيه قريشاً صدقوه وأمضوا حمالته ، فإن احتملها غيره لم يصدقوه .

فلما جاء الإسلام آثره الرسول على من سواه ، فأخلص فى الصحبة لرسول الله ، ولم يخالجه شك فى كل ما أتى به حتى سماه الرسول الصديق . وقد أجمع أهل السير على أنه لم يتخلف عن رسول الله فى مشهد من مشاهده ، وكان فيمن ثبت معه يوم أحد وحنين . روى عن عائشة أنها قالت : لم أعقل أبوى إلا وهما يدينان الدين ولم يمر عليهما يوم إلا يأتيان فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفى النهار بكرة وعشيا .

اشتهر أبو بكر فى جميع مواقفه بالشجاعة والثبات فى الخطوب . ولا غرو فقد نهض بإتمام نشر الدعوة وتوحيد كلمة العرب بعد أن تمزق شملهم أو كاد . ناهيك بما فعله مع المرتدين الذين رماهم بجيوش المسلمين لحربهم ، وخرج بنفسه لقتالهم عند ما هاجموا المدينة وأسامة فى الشام بجيش المسلمين ، حتى لقد ناشده الصحابة ألا يعرض نفسه للخطر ، فأبى وقال : والله لا أفعل ولأواسينكم بنفسى . وصبر وصابر حتى آتاه الله سبحانه وتعالى النصر والظفر بهم ، وأعادهم إلى حظيرة الدين وأعلى شأن الإسلام . ثم جعل من المسلمين جندا لبث الدعوة والجهاد فى سبيل الله فى خارج الجزيرة العربية ، حتى أديل لهم من دولتى الفرس والروم العظيمتين وفتحوا ما فتحوا من بلادهم حتى قبضه الله .

وأحاديث الرسول فى إكرام أبى بكر والاعتراف بأياديه عنده وفضله على الإسلام كثيرة متواترة . روى البخارى عن أبى الدرداء فى حديث طويل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله بعثنى إليكم فقلتم كذبت ، وقال

(١) ابن هشام ج ٤ ص ٣٤٠ — ٣٤١ . الطبرى ج ٣ ص ٢٠٣ .

أبو بكر صدقت ، وواساني بنفسه وماله ، فهل أنتم تاركو لي صاحبي (مرتين) ؟ وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : مالأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه ما خلا أبا بكر ، فإن له عندنا يدا يكافئه الله عز وجل بها يوم القيامة ، وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر ، ولو كنت خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، وإن صاحبكم خليل الله .

كان أبو بكر كريم اليد كثير البذل حتى لقد أنفق ثروته التي يقدرها عروة ابن الزبير بأربعين ألف درهم في سبيل الله تعالى وقال : أخبرتني عائشة أنه مات وما ترك درهما ولا دينارا[١] . وقد أنفق ثروته في سبيل الله ، وأعتق سبعة من المسلمين كان القرشيون يعنون في تعذيبهم ليرتدوا إلى الوثنية . ومن هؤلاء بلال وعامر بن فهيرة وجارية بني المؤمل .

واشتهر كذلك بالتواضع والزهد ، مقتديا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى كان إذا مدح يقول : اللهم أنت أعلم بي من نفسي وأنا أعلم بنفسي منهم ، اللهم اجعلني خيرا مما يظنون واغفر لي ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذني بما يقولون . وكان رضي الله تعالى عنه معروفاً بين الصحابة بالعلم والتفقه في الدين والفصاحة وأصالة الرأي وصدق الفراسة ودقة الفهم .

ذكر النووي (ج ٢ ص ١٩١) عن علي بن أبي طالب أنه قال : قدم رسول الله أبا بكر يصلي بالناس ، وأنا حاضر غير غائب وصحيح غير مريض . ولو شاء أن يقدمني لقدمني ، فرضينا لدنيانا من رضيه الله ورسوله عليه السلام لديننا .

عمر بن الخطاب

(١٣ — ٢٣ / ٦٣٤ — ٦٤٤)

١ — عمر منذ ولد إلى أن ولي الخلافة :

ينتهي نسب عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح إلى كعب بن لؤي القرشي العدوي . اشتهر بنو عدي ، وهم بطن من بطون قريش ، بالشرف

---

(١) النووي : تهذيب الأسماء واللغات جـ ٢ ص ١٨٩ ابن حجر : الإصابة في تمييز الصحابة جـ ٤ ص ٢٧٩ .

والمجد ، وكانت لهم مواقف مشهورة فى الإسلام . ومنهم زيد بن عمرو ابن نفيل الذى رفض عبادة الأوثان فى الجاهلية والتزم الحنيفية ، وابنه سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وخارجة بن حذافة الذى ولى قضاء مصر فى عهد عمرو بن العاص . ويجتمع نسب عمر مع الرسول فى الجد السابع ، ويجتمع معه من جهة أمه فى الجد السادس ، وكنيته أبو حفص ، كناه الرسول بذلك لما رآه فيه من الشدة .

روى الطبرى (٥ : ١٧) أن عمر ولد بمكة قبل حرب الفجار بنحو أربع سنين . ونشأ نشأة عالية ، فكان مثال الفصاحة والبلاغة والصراحة فى الحق . وكان فى صغره يرعى الغنم لأبيه ، ثم احترف التجارة ، يختلف فيها إلى الشام . وهو من الرهط الذين انتهى إليهم الشرف فى الجاهلية . وكانت إليه السفارة ، وذلك أنهم كانوا إذا وقعت بينهم وبين غيرهم حرب بعثوه سفيرا . وكان عمر عزيز الجانب محترما بين قومه ، قوى الشكيمة شديد البأس . وروى ابن الأثير فى أسد الغابة (ج ٤ ص ٥٣) أنه ولد بعد الرسول بثلاث عشرة سنة .

إسلام عمر : وفى السنة الخامسة للدعوة أسلم عمر بن الخطاب . وكان لإسلامه أثر كبير فى ظهور الإسلام ، إذ أبى إخفاء شعائره الدينية لاعتقاده أنه لم يكن بين القرشيين من يجرؤ على معارضته[١] . وقد أثر عن الرسول أنه قال : اللهم أعز الإسلام بأحد هذين الرجلين ، يعنى عمرو بن هشام ، وعمر بن الخطاب[٢] . وروى ابن الأثير[٣] عن عبد الله بن مسعود قال : كان إسلام عمر فتحا ، وكانت هجرته نصرا ، وكانت إمارته رحمة . ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلى فى البيت ، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا فصلينا . وروى عن على بن أبى طالب أنه قال : ماعلمت أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفيا إلا عمر بن الخطاب ، فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه وانتضى فى يديه أسهما ، واختصر عنزته ، ومضى قبل الكعبة والملأ من قريش بفنائها ، فطاف بالبيت سبعا متمكنا ، ثم أتى المقام فصلى متمكنا ،

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ٣٦٤ — ٣٧٠ . (٢) الطبرى ج ٥ ص ١٧ .
(٣) أسد الغابة ج ٤ ص ٥٨ .

ثم وقف على الحلق واحدة واحدة وقال لهم : شاهت الوجوه لا يرغم الله إلا هذه المعاطس . من أراد أن تثكله أمه ويوتم ولده وترمل زوجته فيلقنى وراء هذا الوادى . قال على : فما تبعه أحد إلا قوم من المستضعفين علمهم وأرشدهم ومضى لوجهه .

وكان عمر يعارض الدعوة الإسلامية معارضة شديدة فى مبدأ الأمر ؛ ولكنه مالبث أن صار من أتباع الرسول المتفانين فى نشر الإسلام . وهاك مارواه ابن هشام(١) عن إسلامه : خرج عمر يوماً متوشحاً بسيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلقيه نعيم بن عبد الله فقال له : أين تريد ياعمر ؟ فقال : أريد محمداً هذا الصابىء الذى فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله ، فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك ياعمر ، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً ؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ قال : وأى أهل بيتى ؟ قال : ختنك (صهرك ، يقصد زوج أخته) ، وابن عمك سعيد بن زيد ابن عمرو ، وأختك فاطمة بنت الخطاب . فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه فعليك بهما ؛ فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة فيها « طه » يقرئها إياها . فلما سمعوا صوت عمر اختفى خباب فى البيت وأخفت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة . . وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب . فلما دخل قال : « ماهذه الهينمة التى سمعت » ؟ قالا له : ماسمعت شيئاً . قال : « بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه » . وبطش بختنه سعيد ابن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها ، فضربها . فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه : نعم ! قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع مابدالك . فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ، ندم على ماصنع ، فارعوى وقال لأخته : أعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرءون آنفاً ، أنظر ماهذا الذى جاء به محمد . فقالت له أخته : إنا نخشاك عليها ، قال لاتخافى ، وحلف لها بآلهته ليردنها إليها إذا قرأها ، فقالت له أخته : يا أخى ! إنك نجس على شركك وإنه لايمسها إلا الطاهر . فقام عمر فاغتسل ، فأعطته الصحيفة وفيها « طه » . . .

---

(١) ج ١ ص ٣٦٤ — ٣٧٠ .

فلما قرأ منها صدرا قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ! فلما سمع ذلك خباب خرج إليه فقال له : ياعمر ! والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فإنى سمعته أمس وهو يقول : اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام أو بعمر ابن الخطاب . فالله الله ياعمر ! فقال له عمر : فدلنى ياخباب على محمد حتى آتيه فأسلم ، فقال له خباب : هو فى بيت عند الصفا (يريد بيت الأرقم بن أبى الأرقم ، وكان مقر الدعوة الإسلامية فى دور استتارها) معه فيه نفر من أصحابه ؛ فأخذ عمر سيفه فتوشحه ، ثم عمد إلى رسول الله وأصحابه فضرب عليهم الباب . فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله ، فنظر من خلل الباب فرآه متوشحاً بالسيف ، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فزع فقال : يارسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشحاً بالسيف ، فقال حمزة بن عبد المطلب : فأذن له ، فإن كان جاء يريد خيرا بذلناه له ، وإن كان يريد شرا قتلناه بسيفه ، فقال رسول الله : ائذن له ، فأذن له الرجل ونهض إليه رسول الله حتى لقيه بالحجرة ، فأخذ بحجرته (١) أو بمجمع ردائه ، ثم جبذه جبذة شديدة وقال : ماجاء بك يا ابن الخطاب ؟ فو الله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة ؛ فقال عمر : يارسول الله جئتك لأؤمن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله ، فكبر الرسول تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب الرسول أن عمر قد أسلم . ولما وافق إسلام عمر إسلام حمزة ، اطمأن المؤمنون وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله وينصفانه من عدوه .

صحب عمر الرسول بعد إسلامه ، فأحسن صحبته ، وبالغ فى نصرته ، ووقف حياته على المدافعة عنه والذود عن الإسلام . وكان من أشد الناس على الكفار وشهد بعض غزواته ، فكان مع الرسول فى بدر وأحد والخندق وبيعة الرضوان ، وفى غزوة خيبر والفتح وغيرها . وكان الرسول يستشيره فى كثير من الأمور ، وكثيرا ما كان عمر يشير على الرسول بالأمر فينزل القرآن موافقاً لما أشار به . وقد أثر عن الرسول أنه قال : عمر معى وأنا مع عمر ، والحق بعدى مع عمر حيث كان (٢) .

---

(١) الحجرة : موضع تكة السراويل . (٢) الطبرى ج ٣ ص ١٩٢ .

وكان أبو بكر يستشير عمر فى مهام الأمور ويحيل عليه الفصل فى القضايا ، وإن لم يتسم باسم القاضى . وكان ساعده الأيمن فى حروب الردة ، وإليه يرجع الفضل فى جمع القرآن وتدوينه على ما سيأتى .

٢ — بيعة عمر : لما مرض أبو بكر وأحس بدنو أجله ، خشى إن هو قبض ولم يعهد بالخلافة إلى أحد يجمع شتات المسلمين ويوحد كلمتهم ، عاد الاختلاف على الخلافة بين المسلمين سيرته الأولى فيتمكن منهم العدو ؛ فرأى ببعد نظره أن يحتاط لهذا الأمر تلافيا للأخطار .

نظر أبو بكر فى أصحابه ليتخير من بينهم رجلا يكون شديدا فى غير عنف ولينا فى غير ضعف ، فوجد أن « من توفرت فيه هذه الصفة من الصحابة أحد رجلين : عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب . إلا أن الأول ربما يريد الأمر فيرى فى طريقه عقبة فيدور إليه ، والثانى يرى الاستقامة لا يبالى بالعقبة تقوم بين يديه . فهو بهذا إلى الشدة أميل منه إلى اللين » [١] .

ولما وقع اختيار أبى بكر على عمر ، جعل يستشير فيه كل من دخل عليه من الصحابة ، فسأل عبد الرحمن بن عوف فقال : أخبرنى عن عمر بن الخطاب فقال : ما تسألنى عن أمر إلا وأنت أعلم به منى . فقال أبو بكر : وإن ، فقال عبد الرحمن : هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل ، ولكن فيه غلظة . قال أبو بكر : ذلك لأنه يرانى رقيقا ، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيرا مما هو فيه ، ثم دعا عثمان فقال : أخبرنى عن عمر ؟ فقال : أنت أخبرنا به ، فقال : على ذلك يا أبا عبد الله ؟ أخبرنى عن عمر ، فقال : اللهم علمى به أن سريرته خير من علانيته ، وأنه ليس فينا مثله . وسأل أسيد بن حضير الأنصارى [٢] فقال أسيد : اللهم أعلمه الخير بعدك ، يرضى للرضا ويسخط للسخط ، الذى يسر خير من الذى يعلن ، ولن يلى هذا الأمر أحد أقوى عليه منه . واستشار أبو بكر سعيد بن زيد وغيره من المهاجرين والأنصار فأثنوا على عمر .

---

(١) رفيق العظم : أشهر مشاهير الإسلام ص ١٢٣ .

(٢) كان أبو حضير فارس الأوس ورئيسهم يوم بعاث وكان أسيد من السابقين إلى الإسلام ، وهو أحد النقباء ليلة العقبة . ابن حجر : الإصابة فى تمييز الصحابة ج ١ ص ٤٨ .

ثم دعا أبو بكر عثمان بن عفان فأملاه كتاب عهده لعمر ، وهاك نصه :
« بسم الله الرحمن الرحيم ! هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، فى الحال التى يؤمن فيها الكافر ويتقى الفاجر . إنى استعملت عليكم عمر بن الخطاب ؛ فإن بر وعدل فذلك علمى به ورأيى فيه ، وإن جار وبدل فلا علم لى بالغيب ، والخير أردت ، ولكل امرىء ما اكتسب ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ (سورة الشعراء ٢٦ : ٢٢٧) » .

ولما ولى عمر الخلافة صعد المنبر فقال : إنى قائل كلمات فأمنوا علهن . فكان أول كلام قاله حين استخلف : « إنما مثل العرب مثل جمل أنف (١) اتبع قائده ، فلينظر قائده حيث يقوده . وأما أنا فورب الكعبة لأحملنهم على الطريق » (٢) .

٢ — الفتوح الإسلامية :

(ا) **عوامل الفتوح** : عرفنا كيف وضع النبى صلى الله عليه وسلم السياسة الخارجية ، فأرسل الكتب والبعوث إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى توحيد الله والإيمان برسالته ، وحارب الغساسنة الخاضعين للروم على حدود بلاد الشام لما سخروا من دعوته واعتدوا على رسله وقتلوا أصحابه .

وقد جهز الرسول قبل وفاته حملة لغزو بلاد الشام عقد لواءها لأسامة بن زيد ابن حارثة . وكان أسامة حين استشهد أبوه فى الخامسة عشرة من عمره ، فما كاد يبلغ الثامنة عشرة ، حتى رأى الرسول ، تكريما لذكرى أبيه ، أن يعقد لابنه ، ويسيره لقتال الروم ليأخذ بثأر أبيه وثأر من استشهد معه من المسلمين ، ويؤدب الروم الذين سخروا من دعوة الرسول واعتدوا على رسله وقتلوا أصحابه .

ثم مرض الرسول وانتقل إلى جوار ربه ، فرأى أسامة أن ينزل عن إمرة الجيش ليترك للخليفة الجديد حرية الاختيار . ولكن أبا بكر خليفة رسول الله

---

(١) الجمل الأنف : الذى اشتكى أنفه من البرة . وهى حلقة أنف البعير أو فى لحمة أنفه يجر منها لإخضاعه وتذليله .

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٥٤ . ابن الأثير . ج ٢ ص ٢٠٨ .

أبى إلا أن ينفذ رغبة الرسول ؛ فسير أسامة إلى مشارف الشام ، لأنه رأى فى ذلك مناورة حربية وسياسية تشعر أعداءهم فى الداخل والخارج بقوة الحكومة العربية وثبات مركزها ، وقال العرب : لولم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوا .

ولكن بعض الصحابة ، ومن بينهم عمر بن الخطاب ، اعترضوا على تولية أسامة على رأس هذا البعث ، لصغر سنه ، واضطراب الأحوال فى شبه الجزيرة العربية بعد وفاة الرسول . ولكن أبا بكر قال فى حزم : « لا أرد قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو ظننت أن السباع تختطفنى لأنفذت جيش أسامة كما أمر النبى » . ثم وثب ، وكان جالساً ، فأخذ بلحية عمر وقال : ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب ، استعمله رسول الله وتأمرنى أن أعزله ؟ » .

لذلك لانعجب إذا رأينا المسلمين وبينهم عمر بن الخطاب يسارعون إلى الإنضواء تحت لواء أسامة ، مجاهدين فى سبيل الله ونصرة دينه .

ولما تحرك الجيش ، خرج أبوبكر ماشياً لتوديعه ؛ وأسامة راكب ، فقال أسامة : ياخليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن . فقال : والله لانزلت ولا أركب ، وما على أن أغبر قدمى ساعة فى سبيل الله ، فإن الغازى له بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له ، وسبعمائة درجة ترفع له ، وسبعمائة سيئة تمحى عنه . وبلغ من إكبار أبى بكر لأسامة أن قال له : إن رأيت أن تعيننى بعمر فافعل ، ثم وصاه أبو بكر فقال : « لا تخونوا ولا تغدروا ، ولا تغلوا ولا تمثلوا ، ولاتقتلوا طفلا ولاشيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، لا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . وسوف تقدمون على قوم بآنية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شىء فاذكروا اسم الله عليه . وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب ، فاخفقوهم بالسيف خفقاً . اندفعوا باسم الله[1] » .

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٢ ص ١٣٩ .

وهكذا شرع أبو بكر خليفة رسول الله المسلمين آداب القتال ، فأوصاهم بالضعفاء خيراً ، وحثهم على أن يؤمنوا الناس على أموالهم وأرواحهم ، ولا يتعرضوا لشعائرهم الدينية . وكان أسامة ، ذلك الفتى اليافع والقائد الشاب والمسلم الورع ، خير من يقوم على تنفيذ هذه السياسة التى تتفق مع ما جاء به الكتاب والسنة : وهو يعتبر بحق مثلا رائعاً ضربه ذلك الدين السمح وذلك النبى العربى الكريم وقام على تنفيذه خلفاء المسلمين وقوادهم المبرزون .

وقد بعث انتصار أسامة البشر فى نفوس أهل المدينة بعد أن أحزنتهم حروب الردة وأصبح لانتصاره من الأهمية مالا يتفق مع قيمته الحقيقية ، بل اعتبر فيما بعد فاتحة للحملة التى وجهت لغزو الشام .

وجه أبو بكر همه بعد ذلك إلى إخماد الفتن والثورات الداخلية ليشغل العرب بالحروب الخارجية ، لأنها كانت تفى بما أمر به الدين من نشر الإسلام من جهة ، ولأنها كانت من جهة أخرى استغلالا صالحاً لما جبل عليه العربى من حب للقتال . لذلك لم يكد أبو بكر ينتهى من حروب الردة الطاحنة التى شنها على العرب المارقين ، حتى أرسل تلك الجيوش وزودها بالأمداد يتلو بعضها بعضاً لفتح البلاد ونشر الإسلام فيها : فأنفذ خالد بن الوليد إلى الحيرة ودعا المقاتلين من أرجاء الجزيرة العربية للجهاد فى سبيل الله ، وأنفذهم إلى بلاد الشام .

وإن توجيه أبى بكر الجيوش لغزو دولتى الفرس والروم فى وقت واحد ، مع ما كان لهاتين الدولتين من الملك وبسطة النفوذ ووفرة الثروة ، ليدل على حسن سياسته وقوة عزيمته . غير أننا لا نعجب إذا عرفنا أن هاتين الدولتين ، وإن كانتا مضرب الأمثال فى الأبهة والعظمة ، إلا أن هذا كله كان أمراً ظاهرياً فقط . فقد أضعفهما استبداد الملوك والبذخ والخلافات الدينية والتنافس على الملك ، على حين ألف الإسلام بين قلوب العرب ، فوجد أبو بكر فى الأمة العربية الفتية المولعة بالحرب المتقشفة فى طعامها ولباسها مع ما عليه رجالها من شدة الإيمان والحرص على الاستشهاد فى سبيل نصرة الدين خير معين للقضاء على هاتين الدولتين .

وقد تمت معظم الفتوح الإسلامية فى عهد عمر بن الخطاب : ففتحت فارس وفلسطين والشام ومصر ، وزادت الدولة العربية فى رقعة أملاكها على حساب هاتين الدولتين العظيمتين : الفارسية والرومانية الشرقية أو البيزنطية .

وسهل على العرب فتح ولايات الدولة الرومانية الشرقية ما كان بينها وبين العرب من صلة فى الجنس وتقارب فى اللغة وصلات فى التجارة . أضف إلى ذلك ما كان بين الدولة الرومانية والأمم التى تحت سلطـــانها من النفور بسبب الانقسامات الدينية ، وزيادة الضرائب زيادة ناء تحتها الأهلون ، فرحبوا بحكم العرب ليتخلصوا من الحـكم الرومانى واستبداد الكنيسة البيزنطية .

أخذت الدولة الرومانية فى الانحطاط على أثر قيـام الفتن والثورات فى أواخر عهد جستنيان إلى وفاة هرقل (٥٦٥ — ٦٤١ م) . ومع أن هرقل استطاع أن يحول دون توسع الفرس فى فتوحاتهم ، واسترد البلاد التى كانوا قد استولوا عليها بمعاهدة سنة ٦٢٨ م ، فإن المسلمين اقتطعوا منه أجل ممتلكاته الشرقية ، وحاصر الآفار القسطنطينية من الشمال ، وجاء معهم البلغار الذين استقروا نهائياً فى شبه جزيرة البلقان سنة ٦٧٩ حيث لا يزالون إلى الآن ، وبذلك لم يعد الدانوب الحد الشمالى للإمبراطورية كما كان من قبل .

وكان ضعف نفوذ البيزنطيين فى الغرب أكثر منه فى الشرق فقد قام فى أسبانيا القوط الغربيون واستولوا على إشبيلية عنوة سنة ٥٨٢ م ، واضطروا قرطبة إلى التسليم . واستولى سفنتيلا (Swinthilla) على آخر ممتلكات البيزنطيين سنة ٦٢٨ م ، ولم يعد للقوط منازع فى كافة أرجاء شبه جزيرة أيبريا ، وأصبح نهوض العرب فى الوقت نفسه من أعظم الأخطار التى تهدد كيان هذه الإمبراطورية واستقلالها .

أما فى بلاد فارس فقد كان الفرس أمة مستقلة متجانسة فى جنسياتها ولغتها ودينها . ومن ثم كانت مقاومة الفرس للعرب مقاومة أمة لأمة أخرى . ومع ذلك استولى عليهم التوانى والتواكل على أثر انتصار هرقل عليهم . وهناك أسباب أخرى أدت إلى القضاء على الإمبراطورية الفارسية ، فقد انقضى على تأسيس إمبراطورية آل ساسان (سنة ٢٢٦ م) على يد أردشير بن بابك أربعة قرون ،

وهو عصر طويل تزعزعت فيه أسس الإمبراطورية الفارسية واختل نظامها ، واقتبس عنها العرب مذهب مانى [1] . كما انتقلت إليهم بعض آثار الفلسفة والعلوم اليونانية على يد النسطوريين أو الأفلاطونيين الذين طردهم جستنيان من أثينا .

وكان للدولة الفارسية علاقات وثيقة مع الإمبراطورية الصينية التى كانت متاخمة لها ، ومع الهند حيث انتشرت الديانة البوذية ، وساعد اتصالها بهذه الحضارات على تقدمها فى العلوم والمعارف .

وكان من أثر استبداد الساسانيين بالحكم فى أواخر عهدهم أن كرههم الأهلون وأصبحوا ينظرون إليهم نظرة السخط والاستياء . وبذلك أعرضوا عنهم ، واتسعت مسافة الخلف بينهم حين شجع هؤلاء الملوك ديانة زرادشت — وكانت من قبل بغيضة لدى الأهلين — وأفسحوا المجال لكهنتها حتى أصبح لهم شىء من السلطة فى الدولة ومنحوهم نفوذاً عظيما فى مجالس الملك ، فادعوا أن لهم نصيباً كبيراً فى سياسة الدولة ، وأخذوا يضطهدون الأحزاب الدينية المخالفة من يهود ومسيحيين وصابئة وبوذيين ومانويين ، وساعدت هذه الأسباب على ضعف الدولة الفارسية وانحلالها .

هكذا كانت حالة الفرس من الفساد والتفكك السياسى والضعف المعنوى حين اعتلى عرشها يزدجرد الثالث آخر ملوك آل ساسان الذى اضطربت فى عهده

---

(١) المانوية نسبة إلى مانى . وقد حاولت هذه الطائفة — كما حاول القدامى من الإشراقيين — التوفيق بين المسيحية والوثنية فى الشرق . وقد أخذت عقائدها وطقوسها عن التوراة وعن الفارسية القديمة ثم البوذية ، ويقول أنصار هذه الطائفة بالأثينية وهى العقيدة الأساسية لديانة الفرس . ومن ثم يقولون بوجود مصدرين إلهيين لهذا العالم : أحدهما إله الخير ويرمزون له بالنور ، والثانى إله الشر ويرمزون له بالظلمة . ويسمون الأول إله النور والثانى إله الظلمة ، وهو الإله الذى صدر عنه هذا العالم المادى ، وانتشرت المانوية فى الشرق ولاسيما فى بلاد الفرس والهند ، وفى بلاد التبت والصين والتركستان ، حيث ظلت مزدهرة بها حتى القرن الحادى عشر الميلادى ، ثم انتقلت إلى العرب حتى وصلت إلى جنوبى إيطاليا ، وقد دعا القديس أوغسطين إلى هذا المذهب وعمل على نشره زهاء ثمانى سنوات ، وناوأه كل من فالنتيان سنة ٣٧٢ م ثم ثيودوسيس الأول سنة ٣٨١ م مناوأة شديدة وأصدر ضده المراسيم الشديدة .

أمور الفرس . وكان قد جلس على سرير الملك وعمره إحدى وعشرون سنة ، فقوى حينئذ طمع العرب فى غزو هذه البلاد ، وساعد على ذلك ما كان الرسول يعدهم به من امتلاك كنوز الأكاسرة .

(ب) **فتح العراق وفارس** : كان العرب يرون بلاد الفرس أصعب منالا من بلاد الدولة البيزنطية كما تقدم ، ومن ثم كانوا يتهيبون غزوها ، وقد وجه أبو بكر جيشاً إلى أطراف العراق بقيادة خالد بن الوليد ومعه المثنى بن حارثة ، فأخضع القبائل العربية التى كانت تقيم جنوبى نهر الفرات ، وانتصر على الفرس واستولى على الحيرة والأنبار . وما لبث العرب أن تقهقروا أمام جيش الفرس الكثيف الذى أعده يزدجرد الثالث آخر ملوك آل ساسان بقيادة رستم ، وارتدوا إلى أطراف الصحراء . وظلت الحال على ذلك إلى آخر أيام أبى بكر ، حيث وجه خالد بن الوليد لمساعدة المسلمين فى قتال الروم بالشام وفلسطين .

فلما ولى عمر بن الخطاب الخلافة وزاد الاضطراب فى بلاد الفرس ، كتب المثنى بن حارثة إلى عمر بذلك ، وما كان من جلوس يزدجرد على العرش مع حداثة سنه ، وحثه على انتهاز هذه الفرصة . وكان عمر قد اطمأن من ناحية الروم بعد هزيمتهم فى أجنادين سنة ١٥ هـ ، فوجه همه لغزو العراق ، ودعا الناس لغزوها وهون عليهم فتحها ، وأراد أن يقود الجيش بنفسه . ولكن بعض الصحابة أشاروا عليه أن يبعث رجلا من كبار الصحابة وأن يكون هو من ورائه يمده بالأمداد . فلما سمع عمر ذلك صعد المنبر وقال : « أيها الناس ! إنى كنت عازماً على الخروج معكم ، وإن ذوى اللب والرأى منكم قد صرفونى عن هذا الرأى ، وأشاروا بأن أقيم وأبعث رجلا من الصحابة يتولى أمر الحرب» (الفخرى ص ٧٥) .

وقع الاختيار على سعد بن أبى وقاص ، فاستحسن عمر هذا الرأى ، واستقدم سعداً وعهد إليه بفتح العراق ثم ودع الجيش . وجعل سعد يتنقل فى الأراضى التى بين الحجاز والكوفة ، يستمع الأخبار ، ورسل عمر توافيه وكتبه تأتيه يشير عليه فيها بآرائه ويمده بالجنود .

ولما قصد سعد القادسية (١٥ هـ / ٦٣٦ م) — وكانت باب العراق —

التقى برستم (بفتح التاء) فى جيش يبلغ ثلاثين ألف مقاتل ، على حين كان جند العرب يتراوح بين سبعة آلاف وثمانية آلاف ، وكان الفرس يضحكون من نبل العرب ويشبهونها بالمغازل .

ترددت الرسل بين قائد العرب وقائد الفرس . فكان العربى يأتى إلى باب رستم وهو جالس على سرير الذهب ، وقد زين مجلسه بالفرش المنسوج بالذهب ، ولبس الفرس التيجان وأقاموا الفيلة حول المكان ، فيجىء العربى وهو متقلد سيفه فيربط فرسه بالقرب من سرير رستم ، فيهم الفرس بمنعه . ذكر البلاذرى(١) أن رستم سأل سعد بن أبى وقاص أن يوجه إليه بعض أصحابه ، فأرسل إليه المغيرة بن شعبة ، فقصد سريره ليجلس معه عليه ، فمنعته الأساورة من ذلك فقال له رستم : « لقد علمت أنه لم يحملكم على ما أنتم فيه إلا ضيق المعاش وشدة الجهد . ونحن نعطيكم ما تتشبعون به ونصرفكم ببعض ما تحبون . فقال المغيرة : إن الله بعث إلينا نبيه صلى الله عليه وسلم ، فسعدنا بإجابته واتباعه . وأمرنا بجهاد من خالف ديننا ﴿ حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ . ونحن ندعوك إلى عبادة الله وحده ، والإيمان بنبيه صلى الله عليه وسلم . فإن فعلت ، وإلا فالسيف بيننا وبينكم ، » فقال له رستم : والشمس والقمر لا يرتفع الضحى غداً حتى نقتلكم أجمعين ، فقال المغيرة : لا حول ولا قوة إلا بالله وانصرف عنه » .

وقد أعجب رستم بالعرب وبسديد إجابتهم حتى قال لأصحابه : انظروا فإن هؤلاء لا يخلوا أمرهم من أن يكون صدقاً أو كذباً . فإن كانوا كاذبين ، فإن قوماً يحفظون أسرارهم هذا الحفظ ، ولا يختلفون فى شىء ، وقد تعاهدوا على كتمان سرهم هذا التعاقد بحيث لا يظهر أحد منهم سرهم ، لقوم فى غاية الشدة والقوة ، وإن كانوا صادقين فهؤلاء لا يقف حذاءهم أحد . فصاحوا حوله وقالوا : الله الله أن نترك ما أنت عليه لشىء رأيته من هؤلاء الكلاب بل صمم على حربهم . فقال رستم : « هو ما أقول لكم لكنى معكم على ما تريدون » . (الفخرى ص ٧٧) .

---

(١) فتوح البلدان ص ٢٦٥ .

لذلك لم ير رستم بدأ من المضى فى حرب العرب، واقتتلوا أياماً انعكس الريح فى آخرها عليه وعلى جنده حتى أعماهم الغبار، وقتل رستم وعدد كبير من جنده وهرب الباقون، وغنمت أموالهم. ثم تبعهم سعد إلى جلولاء (١٦ هـ) وأوقع بهم، وأسر إحدى بنات كسرى وقتل عدداً كبيراً من الفرس [١]. وكان من أثر فتح جلولاء أن اعتنق الإسلام دهاقين الفلاليج والنهرين، وبابل، ونهر الملك، وكوثى وغيرهم، فأقرهم عمر بن الخطاب على ما بأيديهم من البلاد ورفع عنهم الجزية [٢].

عند ذلك كتب سعد إلى عمر يبشره بالفتح، فكتب إليه: «قف مكانك ولا تتبعهم واقنع بهذا، واتخذ للمسلمين دار هجرة ومدينة يسكنونها، ولا تجعل بيني وبينهم بحراً». فاتخذ سعد الكوفة وأسس بها المسجد الجامع واختط الناس المنازل ومصرها. أى جعلها حاضرة للمسلمين فى هذه البلاد. ثم توغل سعد فى بلاد العراق واستولى على المدائن حاضرة بلاد الفرس بعد أن حاصرها شهرين. وغنم العرب منها غنائم كثيرة، من بينها بساط كسرى، وفر يزدجرد إلى حلوان وحمل معه أمواله وما خف حمله من متاعه.

ولم يستطع يزدجرد أن يلم شعث جنده ويستعد لملاقاة العرب من جديد إلا بعد أربع سنين. فقد ذكر البلاذرى (ص ٢٦١)، أن سعد ابن أبى وقاص أرسل إلى حلوان جيشاً يتألف من ثلاثة آلاف رجل بقيادة جرير بن عبد الله البجلى، ففتحها صلحاً، وفر يزدجرد إلى نواحى أصبهان (١٩ هـ). وفى سنة ٢٠ هـ تجمع حول يزدجرد المقاتلون من الرى وقومس وأصبهان وهمذان وغيرها. وذكر البلاذرى (ص ٣٠٩ — ٣١٠) أن جيش كسرى بلغ ٦٠,٠٠٠ مقاتل، وفى رواية أخرى ١٠٠,٠٠٠. ولما اتصلت هذه الأنباء بمسامع الخليفة عمر عول على المسير إليه بنفسه، ثم خاف خروج العرب حين غيابه. وأشير عليه بأن «يغزى أهل الشام من شامهم وأهل اليمن من يمنهم. فخاف إن فعل ذلك أن تعود الروم إلى أوطانها وتغلب الحبشة على ما يليها. فكتب إلى أهل الكوفة يأمرهم أن يسير ثلثاهم ويبقى ثلثهم لحفظ بلدهم وديارهم، وبعث من أهل البصرة بعثاً».

(١) الطبرى ج ٤ ص ١٣٢ — ١٤٠. (٢) البلاذرى. فتوح البلدان ص ٢٧١.

وولى عمر النعمان بن مقرن المزنى قيادة جيش العرب فى نهاوند (٢١ هـ) ، وكتب النصر للعرب برغم استماتة الفرس فى الدفاع . وعرفت هذه الموقعة بفتح الفتوح لشدتها وأهميتها .

وبعد أن استولى العرب على نهاوند ساروا إلى الأهواز وفتحوها سنة ٢٢ هـ ، ثم فتحوا قم وقاشان . ثم وجه عمر بن الخطاب ، عبد الله بن بديل إلى أصبهان ، ففتحها صلحاً على أن يؤدى أهلها الجزية والخراج ، وأمنهم على أنفسهم وأموالهم . ثم وجه عروة بن زيد الخيلى الطائى إلى الرى فى ثمانية آلاف مقاتل ففتحها ، كما فتح المسلمون قومس صلحاً [١] ، وكاتب سويد بن مقرن ، ملك جرجان ، ثم سار إلى بلاده .

وقد أورد الطبرى شروط الصلح التى تعهد فيها أهالى هذه البلاد بأن يؤدوا الجزية للمسلمين كفاء تأمينهم على أنفسهم وأموالهم وإطلاق الحرية الدينية لهم ، وبأن يجازى من يقوم من أهلها بمساعدة المسلمين ، كما نضمن هذا الصلح أن يلتزم المسلمون المحافظة على هذه الشروط طالما أدى أهل جرجان الجزية وأقروا المسلمين ولم ينقضوا ذلك العهد ، « وعلى أن من سب مسلماً بلغ جهده (أى ضرب ضرباً شديداً يبلغ الجهد) ومن ضربه حل دمه » [٢] .

ويظهر أن الأصبهبذ حاكم بلاد طبرستان الواسعة على ساحل بحر الخزر [٣] خشى سوء العاقبة ، فحذا حذو ملك جرجان القريبة من بلاده ، فطلب من المسلمين الصلح على ألا يكون بينهما قتال ، فكتب إليه سويد عهداً على مثال العهد الذى أعطاه أهل جرجان [٤] .

وكانت سنة ٢٣ هـ حافلة بالفتوح العربية فى فارس . وكان الخليفة عمر يرمى إلى القضاء على ملك الأكاسرة . روى البلاذرى [٥] أن المغيرة بن شعبة عامل الكوفة غزا أذربيجان وفتحها عنوة وفرض عليها الخراج [٦] . ولم يزل العرب

---

(١) البلاذرى ص ٣١٩ — ٣٢٠ .

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٢٥٤ . (٣) ويسمى بحر قزوين وبحر طبرستان .

(٤) راجع هذا العهد فى الطبرى (ج ٤ ص ٢٥٤ — ٢٥٥) .

(٥) فتوح البلدان ص ٣٣٤ .

(٦) أورد الطبرى (ج ٤ ص ٢٥٦) شروط الصلح الذى عقد بين المسلمين وأهل أذربيجان

يتابعون فتوحهم فى هذه البلاد الشاسعة الأرجاء ، فندب سراقة بن عمرو ، عبد الرحمن بن ربيعة للمسير إلى بلاد الباب وهى بلاد الترك خلف باب الأبواب المعروفة بالدربند ، وأمده عمر بحبيب بن مسلمة عامله على بلاد الجزيرة . فطلب شهر براز ملك هذه البلاد من عبد الرحمن أن يأتيه ، ففعل . ثم عبر له عما يكنه من سخط وكراهة للأرمن والقبج الذين يقيمون حول بلاده . وأعرب له عن نياته الطيبة نحو المسلمين ، وطلب إليه أن يعفيه من الجزية ، إذ كان يرى فيها مايشعر بالذلة على أن يعاونهم فى حروبهم . بيد أن ذلك القائد لم ير بدأ من الرجوع إلى قائده الأعلى سراقة بن عمرو الذى قبـــل ذلك الطلب وكتب بذلك إلى عمر ابن الخطاب فأقره .

وجه سراقة أربعة جيوش إلى البلاد المحيطة بأرمينية . ولما تم له فتحها كتب إلى عمر يبشره بالفتح ، ولكنه لم ينعم بثمرة تلك الانتصارات ، وحالت منيته دون إتمام هذه الفتوح ؛ وخلفه عبد الرحمن بن ربيعة الذى عهد إليه عمرو بغزو بلاد الترك ، ولكنه لم يتمكن إلا من فتح بعضها [1] .

ولكن أقدام العرب لم تتوطد فى هذه البلاد التى لم تلبث أن انتقضت فى عهد عثمان الذى عول على فتحها من جديد على ماسيأتى .

أما يزدجرد الثالث فقد ظل العرب يطاردونه ويستولون على بلاده ، حتى إنه اضطر إلى الفرار إلى أقصى الحدود الشرقية ، ومازال أمره يضعف حتى قتل بخراسان فى خلافة عثمان بن عفان سنة ٣١ هـ . وبموت يزدجرد زالت الدولة الساسانية وتحققت دعوة النبى بتمزيق ملك الأكاسرة .

أثر الفتح العربى فى بلاد الفرس :

لاشك أن العرب قد جنوا ثمار هذه الانتصارات التى أحرزوها على الفرس ، فضموا إلى بلادهم بلداً جديداً ، وأثروا وأصبحوا فى رغد من العيش بعد أن امتلكوا كنوز الفرس . وقد بهرت تلك النفائس والأموال العرب الذين اعتادوا التقشف والبساطة . فقد ذكر صاحب الفخرى (ص ٧٨) أن بدوياً ظفر بحجر

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٢٥٦ — ٢٥٨ .

من الياقوت يساوى مبلغاً عظيما ، فلم يدر قيمته ، فرآه بعض من يعرف قيمته فاشتراه منه بألف درهم . ثم عرف البدوى قيمته ولامه أصحابه وقالوا له : هلا طلبت فيه أكثر من ذلك ؟ قال : لو علمت أن وراء الألف عددا أكثر من الألف لطلبته . وكان من بين العرب من يأخذ فى يده الذهب الأحمر ويقول : « من يأخذ الصفراء ويعطينى البيضاء » ؟ لأنه يرى أن الفضة خير من الذهب .

وقد رحب الفرس بالعرب حباً فى الخلاص من ظلم الحكام أولا ، ورغبة فى إعفائهم من الخدمة العسكرية ثانياً ، ثم أملا فى تمتعهم بالحرية الدينية آخر الأمر وذلك لأن الإسلام كان يبيح لغير المسلمين من يهود ومسيحيين ، ومن زرادشتيين وصابئة وعبدة الأوثان والنار والحجارة ، أن يتدينوا بما يرضون لأنفسهم من دين على أن يدفعوا الجزية للمسلمين[1] .

على أن سكان المدن ، وخاصة الصناع وأصحاب الحرف وأهل الطبقة العاملة ، رحبوا بالدين الإسلامى ، واعتنقه عدد عظيم منهم فى حماسة كبيرة ، وذلك لما تتطلبه أعمالهم من تركهم ديانة زرادشت وتقبيح عبادة النار والأرض والماء ، وهم الذين كان ينظر إليهم باحتقار وازدراء ، ولما يترتب على اعتناقهم الإسلام من تركهم أحرارا ومساواتهم فى المذهب الدينى . ولم يكن ارتدادهم عن ديانة زرادشت نفسها بالأمر الصعب ، فقد تبع سقوط الأسرة الساسانية تدهور الكنيسة ، حتى إنه لم يعد لأتباعها مركز يجتمعون حوله ، فوجدوا السبيل سهلا ميسورا لاعتناقهم الإسلام لما بين مذهبهم الجديد ومذهبهم القديم من أوجه الشبه الكثيرة . فالفارسى يستطيع أن يجد فى القرآن كثيرا من التعاليم الأساسية فى ديانته القديمة ، وإن كان ذلك بصورة مختلفة كثيرا[2] .

وفضلا عن هذه العوامل التى أدت إلى انتشار الإسلام ببلاد الفرس فى سرعة مدهشة ، كان ثمة عامل آخر هو الشعور السياسى والوطنى لهذا الشعب المغلوب ، ذلك الشعور الذى أدى إلى انضوائهم تحت لواء هذا الدين الجديد عن طريق زواج الحسين بن على بشهر بانوه إحدى بنات يزدجرد آخر ملوك الأسرة

---

(١) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ٧٣ .

(٢) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة المؤلف ص ٢٣٧ — ٢٣٨ .

الساسانية . وقد رأى الفرس فى أولاد الحسين وارثين لملوكهم الأقدمين . وهذا الشعور الوطنى يفسر لنا تعلق الفرس بعلى من جهة ، وظهور المذهب الشيعى فى بلادهم من جهة أخرى (١) .

ولم تكن القوة هى السبب فى تحويل الناس إلى الإسلام ، بدليل هذه المعاملة الحسنة التى عامل بها العرب من بقى من الفرس على تمسكه بمذهبه القديم. ولا تزال هناك بعض جماعات صغيرة من الفرس يعبدون النار ، وكان أجدادهم يتمتعون بقسط وافر من الحرية الدينية بعد الفتح الإسلامى ، كما كانت الدولة الإسلامية تحول دون التعرض لمعابدهم .

ولما تم للعرب فتح بلاد الفرس قاموا بحماية الأهالى مقابل دفع مبلغ معين يؤديه كل فرد قادر على القتال ، يسمى الجزية أو جزية الرءوس ، وهى ضريبة شخصية يدفعها أهل الذمة كفاء إعفائهم من خدمة الجيش . وكانوا يعفون من تلك الجزية إذا اعتنقوا الإسلام . وكانت الأرض ملكاً للفاتحين . غير أن هؤلاء كانوا يتركونها للأهالى يزرعونها على أن يؤدوا جزءاً من غلتها ضريبة عقارية تسمى الخراج . ويرجع السبب فى ترك الأرض فى أيدى الأهلين إلى الرغبة فى أن يكون كل مسلم جنديا من جنود الإسلام على أهبة الاستعداد لتلبية داعى الجهاد ، على أن يمنح عطاء معيناً من بيت مال المسلمين مقابل خدماته .

وكان من أثر هذه السياسة أن بادر كثير من الأهلين إلى الإسلام ، مما ساعد العرب على التوسع فى فتح بلاد المشرق .

(ج) فتح الشام وفلسطين :

تسيير الجيوش : كان حكام الروم فى أواخر أيامهم يعاملون الأهلين بالظلم ويسومونهم العذاب ، فتأذى من جورهم أهالى البلاد التى كانت تحت سلطانهم ، ومالوا إلى الخلاص من ربقة الذل والاستعباد ، وتغيير الحال التى أصبحوا فيها على أى شكل كان . ولم يكن الروم ، وقد ضعف أمرهم وكادت تدول دولتهم ، من القوة بحيث يتمكنون دفع العرب عن بلادهم ، فخارت نفوسهم وداخلهم

---

(١) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٣٨ — ٢٣٩ .

شيء من اليأس . فساعد هذا تلك الأمة الطموح ، مع ماعليه رجالها من الشجاعة وقوة الإيمان وعدم المبالاة بالموت على فتح الشام وفلسطين وغيرهما من البلاد .

وكانت نيران الانتقام والحقد تأكل قلوب الروم من جراء هذه الغارة التى شنها على بلادهم أسامة بن زيد ، فجمع الامبراطور هرقل جيشاً جرارا عسكر به على مقربة من حدود بلاد العرب وفلسطين[1] ، فدعا أبوبكر المقاتلين من جميع أرجاء جزيرة العرب . فلبوا الدعوة بحمية وحماسة شديدتين . وسرعان ما أنفذ الجيوش نحو الشمال عقب تجمعهم بالمدينة بعد أن عقد اللواء لأربعة من الأمراء هم :

١ — أبو عبيدة بن الجراح ووجهته حمص ومركز القيادة الجابية .

٢ — عمرو بن العاص ووجهته فلسطين .

٣ — يزيد بن أبى سفيان ووجهته دمشق .

٤ — شرحبيل ابن حسنه ووجهته وادى الأردن .

وأمرهم أبوبكر أن يعاون بعضهم بعضاً ، وأن يكونوا جميعاً تحت إمرة أبى عبيدة ، وأن يستقل عمرو بفتح فلسطين ، وأن يمد الجيوش الأخرى إذا دعت الحاجة إلى ذلك[2] .

وعند مسير عمرو بن العاص إلى فلسطين ، أوصاه أبو بكر وصية بليغة نقف منها على أخلاق عمر ، وحرص أبى بكر على المسلمين ، وسلوك الأمراء مع أهالى البلاد التى فتحها العرب[3] .

عمل عمرو بما رسمه له أبوبكر فى وصيته التى كانت أشبه شيء بالخطة الحربية ، فسارفى طريق إيلياء حتى وصل إلى فلسطين ، ونزل « بغمر العربات » : فلما علم هرقل بوصول كتائب المسلمين ، أراد أن يشغل كل طائفة منهم بطائفة من جنده الكثير ليضعف من قوتهم . ولما بلغ عمر أن جيش الروم يزيد على مائة ألف

---

(١) تاريخ عمرو بن العاص للمؤلف ص ٣٩ — ٤٠ .

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٢٨ . ابن الأثير ج ٢ ص ١٩٥ .

(٣) راجع هذه الوصية فى كتاب فتوح الشام للواقدى ج ١ ص ٩ — ١٠ .

أرسل عبد الله بن عمر بن الخطاب فى ألف فارس داهم بهم عشرة آلاف من الروم ، وحمل بنفسه على كبيرهم فقتله . فداخل الفزع قلوب الأعداء واقتتل الفريقان وحلت الهزيمة بالروم ، فولوا الأدبار . واستولى المسلمون على ما كان معهم عدا ستمائة أسير ، وقتل من المسلمين سبعة على ما رواه الواقدى[1] .

ولما أصبح المسلمون أشرف عليهم عشرة صلبان تحت كل صليب عشرة آلاف[2] فأقبل عمرو ورتب الجند وأمرهم أن يقرءوا القرآن ، وجعل يحببهم فى القتال ويرغبهم فى ثواب الله وجنته . فلما شاهدهم روبيس بطريق الروم ، انكسرت حميته وأسقط فى يده .

ولما اشتبك الفريقان فى القتال حمل المسلمون على العدو حملة منكرة ، وكان شعارهم : « لا إله إلا الله محمد رسول الله ، يارب انصر أمة محمد صلى الله عليه وسلم » . ولم تزل الحرب تضطرم نارها بين الفريقين إلى الأصيل ، إذ آتى الله المسلمين النصر وولى الروم منهزمين والمسلمون فى أعقابهم مسرعين . وكانت خسارة الروم فى هذه الموقعة خمسة عشر ألفاً وخسارة المسلمين مائة وثلاثون ، من بينهم سعيد بن خالد أخو عمرو بن العاص لأمه .

مسير خالد إلى الشام — موقعة اليرموك :

وفى الوقت الذى اشتغل فيه المسلمون بفتح بلاد الدولة البيزنطية فى الشام وفلسطين ، وتوجهت قوة صغيرة لفتح بلاد العراق . وبينما كانت انتصارات المسلمين تتوالى فى العراق ، وصلت أنباء الشام بأن أبا عبيدة لم يقو على مدافعة الروم ، فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد بأن يسير حتى يأتى جموع المسلمين باليرموك ، فسار خالد من العراق لمساعدة جيوش العرب فى الشام وتولى القيادة مكان أبى عبيدة ، فولى خالد المثنى بن حارثة الشيبانى قيادة جند المسلمين ، وصار على رأس جيش كبير[3]

---

(١) لم يرو الطبرى هذه الموقعة ولعله أكثر احتياطا فى رواية الأخبار .

(٢) هذا ما ذكره الواقدى ، أما الطبرى فقد ذكر أن هذا الجيش كان سبعين ألفاً ، وذكر ابن الأثير أن هرقل أرسل إلى عمرو تسعين ألفاً .

(٣) فى الطبرى أن جيش خالد كان عشرة آلاف قوزبهم من قراقر إلى سوى ، وما زال يوقع بما يقابله من المدن إلى أن اجتمع ببقية جيوش المسلمين فى اليرموك . ابن الأثير ج ٢ ص ١٩٨ .

حتى وصل إلى بصرى ، وهى مدينة تجارية حصينة . وكان أبو عبيدة قد أنفذ شرحبيل بن حسنة إليها ، فلم يقو على هزيمة الروم ، لأن حامية هذه المدينة صوبت سهامها إلى المسلمين من كل جانب ، ولم ينجهم إلا حضور خالد الذى استطاع أن يستولى عليها بمعونة واليها رومانوس الذى اعتنق الإسلام وسلم المدينة للمسلمين بعد أن دلهم على الدخول إليها من سرداب تحت سورها .

على أن خالدا سار إلى الشام كارهاً ، واعتقد أن الخليفة عمر سعى لإقصائه عن العراق حتى لا يتم فتحها على يديه . يدل على ذلك قوله عند ماجاءه كتاب أبى بكر : « هذا عمل الأعيثر بن أم شملة : يعنى عمر بن الخطاب ، حسدنى أن يكون فتح العراق على يدى »[1] .

وقد شجع استيلاء العرب على مدينة بصرى على محاصرة دمشق ، فى الوقت الذى شدت فيه عمرو بن العاص شمل الجيوش البيزنطية فى فلسطين . ولما سمع عمرو أن الإمبراطور أرسل أربعة جيوش لمحاربة جيوش المسلمين الأربعة ، غدا مركز المسلمين من الدقة بحيث استشار قوادهم بعضهم بعضاً ، فأشار عليهم عمرو بالاجتماع فى مكان واحد يواجهون فيه قوى البيزنطيين ، واختار اليرموك .

ولما علم « هرقل » بذلك جيش الجيوش تحت قيادة ماهان (أو باهان) ، وهو قائد أرمنى عرف فيه « هرقل » الشجاعة والإقدام ، فسار فى ثمانين ألفاً ، ولحق به جبلة بن الأيهم ملك غسان على رأس ستين ألفاً من العرب المتنصرة ، عدا الجنود التى كانت مع غيرهم من قواد الروم : فأصبح عددهم مائة وأربعين ألفاً . وذكر الطبرى وابن الأثير وغيرهما أن جيش المسلمين كان يجاوز أربعين ألفاً . أما قول الواقدى[2] إنه كان مع «ماهان» ومن تحت إمرته خمسمائة ألف أو ستمائة ألف أو ألف ألف وستمائة ألف (١٫٦٠٠٫٠٠٠) فهو قول مردود والمبالغة فيه ظاهرة .

اجتمع العرب على مقربة من نهر اليرموك الذى ينبع من مرتفعات حوران ويصب فى الأردن جنوبى بحيرة طبرية . وعلى نحو ثلاثين ميلا من التقائه بالأردن

(١) الطبرى ج ٤ ص ٤٤ . (٢) فتوح الشام ج ١ ص ١٢٠ .

يكوّن فى الطرف الشمالى شرجاً على شكل نصف دائرة يحيط بسهل متسع صالح لأن يعسكر به جيش كبير . وضفاف هذا النهر وعرة منحدرة ، وعند مضيق هذا الشرج عنق يكون مدخل هذه الأرض المنبسطة التى فى الداخل . وهذه البقعة تسمى « الواقوصة » ذات الشهرة العظيمة فى الوقائع الإسلامية . وقد زعم الروم أنها محمية من جميع جهاتها وأنها محصنة تحصيناً طبيعياً ، وسيروا جيشهم إلى العرب الذين عبروا النهر من شماله وجعلوا مركزهم بجانب هذا العنق .

وكان « هرقل » قد أوصى « ماهان » بمراسلة العرب للصلح ، فأرسل جبلة بن الأيهم إلى أبى عبيدة ، فأبى أن يجيبه إلى طلبه إلا بعد أن يستولى المسلمون على بلاد الشام وفلسطين ، وأرسل أبو عبيدة إلى جبلة رسلا يؤنبونه لانضمامه إلى الروم ، وينصحون له بأن يرجع إلى الإسلام أو يكف عن قتالهم ويدفع الجزية ، فلم يزده ذلك إلا مكابرة .

ولما قدم خالد بجيشه إلى الشام وجد المسلمين يقاتلون الروم متساندين ، فرتب الجيش ، وجعل أبا عبيدة فى القلب ، وعمرو بن العاص على الميمنة ، ويزيد بن أبى سفيان على الميسرة ثم دارت رحى الحرب بين الفريقين ، واشتركت النساء مع الرجال فى القتال لصد هجمات العدو الذى اضطرهم إلى التقهقر عدة مرات[١] ، وبعد الهزائم التى لحقت بالروم فى الأدغال وعلى رءوس الجبال ، جاء يوم الواقوصة الذى كتب فيه النصر للعرب حيث هوى من جند الروم مائة وعشرون ألفاً[٢] .

وبينما كان العرب يقاتلون الروم فى اليرموك ، أتاهم نعى أبى بكر وتولية عمر الخلافة . وكان الخليفة الجديد لا يزال يذكر لخالد موقفه من مالك ابن نويرة . فعزله عن القيادة وولى مكانه أبا عبيدة ، ولكنه « استحى أن يقرأ خالد الكتاب حتى فتحت دمشق وجرى الصلح على يد خالد ، وكتب الكتاب باسمه » .

ولكن خالداً لم يكن بالرجل الذى يتمرد على خليفة رسول الله أو يعترض على أمره ، لأنه كان يحرص على وحدة المسلمين حتى ينصرفوا إلى جهاد العدو .

---

(١) الواقدى ج ١ ص ١٦٥ . الطبرى ج ٤ ص ٣٢ .
(٢) الطبرى ج ٤ ص ٣٥ .

فإنه لما قرأ كتاب عمر قال : ما أنا بالذى أعصى أمير المؤمنين ، وحارب تحت إمرة أبى عبيدة جندياً من جنود الإسلام .

على أن بعض المسلمين لم ير رأى عمر فى عزل خالد عن القيـــادة ، فقد قال أبو عمرو بن حفص بن المغيرة : عزلت عاملا استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضعت لواء رفعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر : إنك قريب القرابة ، حديث السن ، مغضباً لابن عمك [1] .

وقد قيل إن عمر عزل خالداً لأنه كان يخشى أن يفتتن النـاس به ، وأنه عزم على أن يوليه عملا بعد أن يرجع من الحج . ولـكن المنية وافته سنة إحدى وعشرين للهجرة [2] .

فتح دمشق وبيت المقدس :

ولما علم « هرقل » بانتصار المسلمين فى اليرموك — وكان ببيت المقدس — رأى فى بقائه خطراً عليه ، فأسرع بالرحيل إلى حمص ليجعلها مقراً لأعماله الحربية . فخرج أبو عبيدة حتى نزل بمرج الصفر وهو يريد تتبع الفالة ، وكان لا يدرى أيجتمعون أم يفترقون ، فأتاه الخبر بأنهم اجتمعوا بفحل وأن المدد أتى أهل دمشق من حمص . وكان لا يدرى هل يبدأ بدمشق أم بفحل من بلاد الأردن ، فيكتب إلى الخليفة عمر يستطلع رأيه ، وأقام بمرج الصُّفَّر . فلما جاء عمر نبأ فتح اليرموك ، ولى الأمراء على ما استعملهم عليه أبو بكر إلا ما كان من عمرو ابن العاص وخالد بن الوليد ، فإنه ضم خالداً إلى أبى عبيدة ، وأمر عمرو بمعاونة غيره من القواد حتى تنتقل الحرب إلى فلسطين فيتولى القيادة فيها .

ولما جاء عمر كتاب أبى عبيدة كتب إليه : أما بعد فابدءوا بدمشق فإنهـا حصن الشام ، وأشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بإزائهم . وأهل فلسطين وأهل حمص ، فإن فتحها الله قبل دمشق فذاك الذى نحب ، وإن تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق ، فلينزل بدمشق من يمسك بها ودعوها ؛ وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على فحل ، فإن فتح الله عليك فانصرف أنت وخالد إلى

---

(١) ابن حجر : الإصابة فى تمييز الصحابة جـ ٢ ص ٩٨ .

(٢) المصدر نفسه جـ ٣ ص ١٧٨ .

حمص ودع شرحبيل وعمراً ، وأخلهما بالاردن وفلسطين ، وأمير كل بلد وجند على الناس حتى يخرجوا من إمارته . وقد أرسل أبو عبيدة إلى فحل عشرة قواد ، فبث الروم المياه حولها ، فوحلت الأرض وعاق ذلك تقدم المسلمين [1] .

ولما وصلت جيوش المسلمين إلى دمشق نزل عمرو بن العاص بباب الفراديس ونزل شرحبيل بن حسنة بباب توما ، وقيس بن هبيرة بباب الفرج ، وأبو عبيدة بباب الجابية ، وبقي خالد بالباب الشرقى .

وقد شدد المسلمون الحصار على أهل دمشق سبعين يوماً . ولم تجدهم منعة حصونهم وما عليها من المنجنيقات وغيرها من آلات الدفاع نفعاً . ومنع المسلمون المدد من أن يصل إليهم ، ونفدت المؤن من عندهم ، فعيل صبرهم وانكسرت حميتهم ، وتم للمسلمين فتح هذه المدينة [2] .

وقد اختلف المؤرخون فى الوقت الذى فتحت فيه دمشق ، فروى بعض أنها فتحت فى أواخر سنة ١٣ للهجرة ، وقال بعض إنها فتحت فى أوائل المحرم ، وقال بعض إنها فتحت فى رجب من هذه السنة .

وبعد فتح دمشق سار المسلمون إلى فحل ، وكان قد أخلاها أهلها وساروا إلى بيسان ، وصارت المياه والأوحال بينهم وبين الروم .

اقتتل المسلمون والروم قتالا شديداً ، فانهزم الروم وطاردهم المسلمون إلى الأوحال ، ووخزوهم بالرماح حتى أصيبوا جميعاً ، ولم يفلت منهم إلا الشريد ، وانصرف أبو عبيدة وخالد إلى حمص ، فاستوليا عليها ثم على حماه وقنسرين واللاذقية وحلب .

أما شرحبيل وعمرو بن العاص فقد قصدا بيسان ، فحاصرا أهلها أياماً وأرغموهم على طلب الصلح والأمان . ولما علم أهل طبرية بما حل بأهل فحل وبيسان صالحوا أبا الأعور ، وتم بذلك صلح الأردن ، وكتب عمرو ابن العاص إلى عمر بالفتح [3] .

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٥٦ — ٥٧ .
(٢) انظر عمرو بن العاص للمؤلف ص ٤٦ — ٤٧ .
(٣) الطبرى ج ٤ ص ٥٩ . ابن الأثير ج ٢ ص ٢٦٩ — ٢٧١ .

كان على فلسطين فى ذلك الوقت وال رومانى يدعى « أرطبون » [١] . وقد أقام جنداً كثيراً ببيت المقدس وغزة والرملة ، على حين عسكر بجنده الكثيف بأجنادين .

ولما رأى عمرو أن القوة التى مع الروم أقوى مما كان يظن ، كتب إلى عمر بن الخطاب فقال عمر : قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب ، فانظروا عما تنفرج ، وكتب إلى القواد أن يسيروا إلى قيسارية والرملة وإيلياء ليشغلوا الروم عن عمرو .

سار عمرو وعلى مقدمته شرحبيل بن حسنة ، وحاول إضعاف قوة « أرطبون » فلم يوفق ، واقتتل المسلمون والروم قتالا شديداً لا يقل عن قتال اليرموك . فانهزم « أرطبون » فى ثمانين ألفاً من الروم وآوى بالفالة إلى إيلياء ، وكان ذلك سنة ١٥ هـ (٦٣٦) [٢] .

وكان من أثر انتصار عمرو على « أرطبون » أن أذعن لسلطان العرب كل من يافا ونابلس وعسقلان وغزة والرملة وعكاء وبيروت ولد والجبلة ، وفتحت أبوابها لهم من غير قتال إلا بيت المقدس .

ولما أتم عمرو بن العاص فتح غزة ولد ونابلس وبيت جبرين ، قصد بيت المقدس ، وأخذ يخابر الأرطبون مخابرة ودية ويطلب إليه تسليم المدينة ، والأرطبون يأبى عليه . وقد أنزلت المنجنيقات التى نصبها الروم على أسوار مدينة بيت المقدس خسائر فادحة بالعرب الذين قاسوا الأمرين من شدة البرد . وقد حاصر المسلمون هذه المدينة أربعة أشهر لم ينقطع فيها القتال ، وعدوا الاستيلاء عليها دينياً أكثر منه سياسياً ، لأنهم كانوا يعظمون بيت المقدس بعد مكة والمدينة لكونها مركز الأرض المقدسة .

ولما كتب أبو عبيدة إلى أهل إيلياء يدعوهم إلى الإيمان بالله وبرسوله أو الدخول فى طاعة المسلمين ودفع الجزية ، نظروا فى أمرهم، فوجدوا أنفسهم فى

---

(١) ذكر بطلر (The Arab Coquest of Egypt p. 215) أن لفظ أرطبون الذى يطلقه مؤرخو العرب على هذا القائد خطأ والصحيح أريطيون .

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٥٧ .

ضنك عظيم وحصار شديد . وقد أيقنوا بانقطاع المدد عنهم واستيلاء المسلمين على أطراف الشام ومدنها الكبار ، وأنهم مأخوذون لا محالة، وخافوا إذا سلموا المدينة للمسلمين ألا يصالحوهم على ماصولح عليه أهل المدن الأخرى ، لكثرة ما لاقى المسلمون فى حربهم من العناء وما بذلوا فى قتالهم من الدماء . وقد خافوا على كنيستهم العظمى أن ينزعها منهم المسلمون ، فأخذ الروع بقلوب أهل بيت المقدس فرأوا توكيداً للأمان وتوثيقاً لعرى العهد ، أن يباشروا ذلك مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فطلبوا من الأمراء حضوره بنفسه . ثم ظهر بطرقهم سفرونيوس (Sophronius) على الأسوار طالباً التسليم ، على أن يكون المتولى للصلح الخليفة عمر بن الخطاب . فكاتبه الأمراء فى ذلك ، فرضى عمر ورحل إلى إلى الجابية وكتب إلى أهل إيلياء كتاباً أشهد فيه قواد المسلمين ، كما كتب إلى سائر كور فلسطين كتاباً أورد الطبرى صورته . وكان فتح إيلياء فى سنة ١٦ ﻫ أو فى أواخر سنة ١٥ ﻫ (٦٣٥ م) [١] .

غير أن عمرو بن العاص ظل مع جيشه بفلسطين للقضاء على القوة التى كانت لا تزال مع قسطنطين بن هرقل . فسار إلى قيسارية (قيصرية) حيث عسكر قسطنطين بجيش كثيف . وقد تغلبت على هذا الأمير عوامل الخوف حين علم بسقوط طبرية وهرب أبيه من أنطاكية ، وتوهم أن عمرو ابن العاص اخترق أسوار المدينة ، فانسل من قصره هو وأسرته خفية ، ورحل إلى القسطنطينية كما رحل أبوه من قبل . ولما علم الأهلون بهرب أميرهم سلموا لعمرو .

ضعف سلطان الروم من البلاد السورية بعد حروب طويلة لاقى المسلمون فيها المشاق والأهوال ، وقاسوا طويلا من شدة بردها ، وقتل من جندهم عدد كبير لا سيما فى مواقع اليرموك ودمشق وبيت المقدس وحلب ، حتى بلغ عدد من قتل منهم أكثر من خمسة وعشرين ألفاً ، مما جعل ثمن هذه البلاد عليهم غالياً والدماء الغزيرة التى أهدرت فى فتحها عزيزة .

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ١٥٨ — ١٦٠ .

(د) فتح مصر :

حالة مصر قبل الفتح :

لكى نقف على مبلغ السهولة التى تم بها فتح مصر على أيدى العرب ، ينبغى أن نتعرف على حالة هذه البلاد من الناحيتين الدينية والسياسية .

كانت مصر إحدى الولايات الرومانية ؛ وكانت — كغيرها من الولايات — تدين بالدين الوثنى ، إلى أن ولد المسيح عليه السلام فى عهد الإمبراطور أوغسطس قيصر مؤسس الإمبراطورية الرومانية ، على أثر انتصاره على جيوش أنطنيوس وكيلوبطرة سنة ٣١ ق . م . فأخذت نقم الأباطرة الرومان تتوالى على الوثنيين الذين اعتنقوا هذا الدين الجديد ، وظلوا على ذلك إلى أن اعترف الإمبراطور قسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧م) بالدين المسيحى ، وساوى بين المسيحية وغيرها من الأديان (٣٢٣ م) ، وأعطى المسيحيين بعض الامتيازات[1] ، إلى أن جعل الإمبراطور تيودوسيس (٣٧٨ — ٣٩٥ م) المسيحية الدين الرسمى للدولة فى سنة ٣٨١ م .

بعد ذلك أخذت النقم تتوالى على الوثنيين بعد أن كانت تتوالى على المسيحيين . على أن المسيحيين ما كادوا يتخلصون من الاختلافات الدينية حتى وقعوا فى الاختلافات المذهبية ، ونشأ عن ذلك ما يعرف بالمذهب الأرثوذكسى والمذهب

---

(١) كان ذلك عملا سياسياً أكثر منه دينياً . وذلك أنه أراد أن يربط أجزاء الإمبراطورية برابطة أدبية قوية تكون أداة للوحدة التى كان ينشدها ، ووجد فى الدين المسيحى تلك الرابطة التى كان يريدها . يدل على صحة هذا الرأى أنه اتخذ من الخلاف بين أريوس الذى كان يقول إن المسيح أشرف مخلوق ولكنه دون الله ، وأثناسيوس الذى كان يرى أنه من روح الله وأنه يساويه فى اللاهوت وأن العلاقة بينهما أبدية (وهوما يعبر عنه بمبدأ التثليث) ، ذريعة لعقد مجمع نيقية فى آسيا الصغرى سنة ٣٢٥ م للتوفيق بين هذه الآراء . وكان من أثر ذلك أن انقسم المسيحيون إلى أرثوذكس (المستقيمو الرأى أو المتمسكون بالدين القويم وهم كأهل السنة عندنا) ، وإلى كاثوليك وهم أتباع الكنيسة الجامعة أى كنيسة رومة ومن أنصار أثناسيوس.

ومن ذلك يتبين أن المصريين ما كادوا يخلصون من اضطهاد الأباطرة الوثنيين حتى وقعوا فى الاختلافات المذهبية التى كان لها أثرها . فإن مسيحيي مصر كانوا أرثوذكس بينما عدا الأباطرة فى رومة كاثوليكا .

الكاثوليكى وغيرهما من المذاهب[1]. وكان هذا الاختلاف سبباً فى انتشار البؤس والشقاء بين المصريين .

استولى الرومان على مصر سنة ٣٠ ق . م ، فجعل أوغسطس قيصر هذه البلاد مخزناً يمد رومة بحاجتها من الغلال ، وبذلك انحطت درجة العلم والعرفان فيها ، وأغلقت أبواب المناصب العالية أمام المصريين ، وزادت الضرائب فى عهد الرومان زيادة كبيرة حتى شملت — كما يقول المؤرخ « ملن »[2] — الأشخاص والأشياء : فكانت تجبى على الرءوس والصناعات ، وعلى الماشية والأراضى . ولم تكن مقصورة على أنواع خاصة من البضائع ، بل كانت تجبى على المارة رجالا ونساء — تجاراً وغير تجار — ومن صناع السفن ، ومن زوجات الجنود ، وعلى أثاث المنازل . ولم تقتصر تلك الضرائب على الأحياء بل تعدتها إلى الموتى ، حتى إنه كان لا يسمح بدفن الميت إلا بعد دفع ضريبة معينة .

وقد ألزم المصريون بإيواء من يمر بهم من الموظفين الملكيين والعسكريين من الرومان ، وتقديم ما يلزمهم من الحاجات ، وتوفير أسباب الراحة لهم فى حلهم وترحالهم ، كما ألزموا فى السنين الأخيرة بأن يقوموا بغذاء الجنود . وقد أدت هذه الأعباء إلى ضعف المصريين وخمولهم وازدياد سخطهم على الحكم الرومانى . كما كان للاختلافات الدينية نتائج لا يستهان بها ، ومهدت السبيل لاستيلاء الفرس على مصر فترة من الزمن ثم لاستيلاء العرب عليها[3].

---

(١) لم يكد تيودوسيس يقبض على زمام الأحكام حتى جعل المسيحية الدين الرسمى للدولة؛ وكان من أثر هذه السياسة أن لاقى الوثنيون فى مصر (وفى غيرها) ما لاقاه المسيحيون من قبل . على أنه قد قام خلاف آخر بين المصريين والروم بسبب ظهور مذهبين جديدين :

١ — اليعقوبى : ويقول أتباعه بامتزاج الطبيعتين الإلهية والبشرية فى المسيح ، وذلك بعد التجسد .

٢ — الملكى : ويعتقد أتباعه أن الابن مولود من الأب قبل كل الدهور وأنه غير مخلوق ، اتحد بالإنسان المأخوذ من مريم فصارا واحدا وهو المسيح .

وكان من أثر هذا الخلاف أن عقد مجمع خلقدونية سنة ٤٥١ م فى عهد الإمبراطور مرقيانوس (٤٥٠ — ٤٥٧ م) .

(٢) Milne, History of Egypt Under Roman Rule, pp. 115 — 125.

(٣) على أن كل هذه الآلام لم تكن مقصورة على المصريين ، إنما كانت شاملة لجميع أجزاء الإمبراطورية ، وهى من الأسباب التى أدت إلى سقوطها وفتح العرب لها .

لذلك لا نعجب إذا أصبح المصريون يتطلعون لدولة أخرى تخلصهم من هذه الحالة السيئة وترفع عنهم تلك المظالم . وقد سرهم ماعلموه من استيلاء العرب على الشام ، كما سرهم ماسمعوه من حسن سيرتهم فى البلاد التى فتحوها ، وتمنوا أن يكون خلاصهم من ظلم الروم على يد المسلمين .

مسير عمرو إلى مصر :

لما قدم عمر بن الخطاب الجابية من أعمال دمشق سنة ١٨ ﻫ (٦٣٩ م) . أتى إليه عمرو بن العاص ، وكان من القواد الأربعة الذين ندبهم أبو بكر لفتح الشام وفلسطين ، وقال له : « ائذن لى فى السير إلى مصر » ، وذكر له أنها أكثر الأرض أموالا ، وقال له : « إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم » . فتردد الخليفة فى الأمر ، وأشفق على المسلمين من أن يصيبهم الإخفاق . ولم يستطع أن يجمع لفتح هذه البلاد جيشاً كبيراً ، لتفرق جند المسلمين فى الشام والجزيرة وفارس . أضف إلى ذلك ما كان يخشاه عمر من التوسع فى الفتح ، وخاصة أن أقدام المسلمين لم تثبت بعد فى البلاد التى فتحوها . فلم يزل عمرو يهون عليه فتحها ويعظم أمرها ، طمعاً فيها ورغبة فى خيراتها . لأنه وقف بنفسه على أحوالها فى الجاهلية عند قدومه إليها للتجارة عدة مرات ؛ وعرف خصب أرضها ووفرة خيراتها . كما بين لعمر أن استيلاء المسلمين عليها معنـــاه تثبيت فتوحهم فى الشام وفلسطين وتأمينها من ناحية الجنوب ، وأن بقاءها فى يد الروم يعرض سيادة العرب فى بلاد الشام ؛ وما زال بعمر حتى أذن له بقصدها وعقد له على أربعة آلاف رجل .

ولما أمر عمر عمرو بن العاص بالمسير قال له : « إنى مرسل إليك كتاباً ، فإن أدركك وأمرتك فيه بالإنصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف ، وإن دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره » . ويقال إن كتاب عمر وصل إلى عمرو وهو برفح ، فلم يتسلمه من الرسول حتى قرب من العريش ، فأخذ الكتاب وقرأه على أصحابه ، فإذا عمر يأمره فيه بالانصراف إن لم يكن قد دخل أرض مصر ، ثم أمر الجيش بالمسير على بركة الله .

سار عمرو بجنده مخترقاً رمال سيناء حتى وصل إلى العريش [1] سنة ١٨ هـ ، وفتحها من غير مقاومة ، لأن حصونها لم تكن من المتانة بحيث تقف فى وجه العرب زمناً طويلا ، ثم لعدم وجود حامية رومانية بها . ثم غادر عمرو العريش مخترقاً الطريق الذى كان يسلكه المهاجرين والفاتحون والتجار والحجاج والسائحون منذ أقدم العصور . وهو طريق إبراهيم عند ما سار إلى بلاد العرب بابنه إسماعيل ، وطريق يوسف عندما سار من الشام إلى مصر زمن الفراعنة ، وطريق قمبيز ملك فارس حين سار لغزو مصر . والإسكندر المقدونى الذى مد فتوحه إلى الهند . ولم يشتبك عمرو مع جند الروم فى قتال حتى وصل إلى مدينة « الفرما » . وهى مدينة قديمة العهد ذات حصون قوية وكنائس وأديار ، وكان لها ميناء على البحر يصل إليها جدول ماء من النيل ، وكانت بمثابة مفتاح مصر فى ذلك الزمن . ولما فتح الفرس مصر خربوا أسوارها وهدموا بعض كنائسها . وكان الروم قد رمموا مادمره الفرس فى أثناء غزوتهم لمصر ، فعادت هذه الأسوار منيعة على المغيرين . واضطر المسلمون إلى حصارها أكثر من شهر ثبتوا فيه حتى تم لهم فتحها فى منتصف يناير سنة ٦٤٠ م (أول المحرم سنة ١٩هـ). وقد أجمع المؤرخون على أن القبط كانوا أعواناً للعرب على حصار الفرما .

تقدم عمرو حتى وصل إلى بلبيس ، ماراً فى طريقه بأرض مغطاة بقشور الصدف البيضاء التى استحالت اليوم إلى رمال ، ثم بمدينة مجدل Migdol ،وتلى الفرما فى الصحراء على مقربة من ساحل البحر الأبيض إلى الجهة المعروفة بالقنطرة الواقعة على قناة السويس الحالية . ثم أخذ فى السير إلى الصالحية فوادى الطليمات بقرب التل الكبير . وإنما اختار عمرو هذا الطريق لخلوه من المستنقعات، بخلاف الطريق الآخر الذى كان يسلكه معظم الفاتحين . ولما وصل عمرو إلى بلبيس وجد بها الأرطبون ، وكان قد فر إلى مصر قبل تسليم بيت المقدس لعمر بن الخطاب، فهزمه عمرو واستولى على المدينة بعد شهر لم ينقطع فيه القتال . ويقال أن ابنة

(١) إن المسافر من فلسطين إلى مصر يسير إلى الشجرتين على حدود مصر ثم إلى العريش فى قسم الحدود ، ثم إلى قرية البقارة ثم إلى الواردة وسط التلال المرملة ، ثم إلى الفرما وهى أول مدينة مصرية يصل إليها ، ثم إلى مدينة الجرير ثم إلى جيفة ثم إلى الفسطاط .

المقوقس حاكم مصر من قبل الروم كانت بها حين فتحها المسلمون ، فأرسلها عمرو إلى أبيها معززة مكرمة ، مما أكسب المسلمين محبة القبط ، فحسن رأيهم فيهم وفى حكمهم .

وبعد استيلاء عمرو على بلبيس سار إلى تندونياس التى سماها العرب فيما بعد أم دنين ، ثم سميت المقس . وهنا نشب القتال بين المسلمين والبيزنطيين ، ودام القتال عدة أسابيع ، ولما أبطأ الفتح على عمرو كف عن القتال وأرسل إلى عمر يطلب منه المدد ، فأمده بأربعة آلاف ، على رأسهم أربعة من كبار الصحابة هم : الزبير بن العوام ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد ، والمقداد بن الأسود . وكتب الخليفة لعمرو : « قد أمددتك بأربعة آلاف فيهم رجال الواحد منهم بألف رجل » :

ولما وصل هذا المدد إلى عين شمس ، سار عمرو لملاقاته ، وتقدم تيودور قائد الروم فى عشرين ألفاً ، فوضع له عمرو كميناً فى الجبل الأحمر شرقى العباسية ، وآخر على النيل قريباً من أم دنين ، ولاقاه ببقية الجيش . ولما نشب القتال بين الفريقين ، خرج الكمين الذى كان فى الجبل الأحمر وانقض على الروم ، فاختل نظامهم وعرجوا على أم دنين ، فقابلهم الكمين الذى كان بقرب أم دنين ، فأصبحوا بين جيوش العرب الثلاثة وحلت بهم الهزيمة ، ولم يبق منهم إلا عدد قليل سار بعضهم فى النيل وفر البعض الآخر إلى حصن بابليون .

فتح حصن بابليون :

ثبتت قدم عمرو فى أم دنين وعين شمس التى صارت مركزاً لقيادته الحربية ، ولم يبق أمامه سوى حصن بابليون ، فسار إليه وحاصره سنة ٢٠ هـ ، وكان ذلك وقت فيضان النيل . وطال أمد الحصار إلى سبعة أشهر لمناعة أسوار المدينة وقلة معدات الحصار عند العرب .

وبعد شهور رأى المقوقس الجد من العرب وصبرهم على القتال ، وأنهم سوف يقتحمون الحصن بصبرهم وشجاعتهم ، فخرج هو ونفر من قومه ولحقوا بجزيرة الروضة ، وأرسل إلى عمرو يطلب منه الصلح ، وقال له فى كتاب أرسله إليه : « قد جئتم أرضنا وطال مقامكم فيها ، وأنتم عصبة يسيرة ، وأخشى أن تغشاكم

الروم فتندموا ، فابعثوا إلينا رجالا منكم نسمع من كلامهم ، فلعله أن يأتى الأمر بيننا على ما نحب وتحبون » . ولما أتت رسل المقوقس إلى عمرو ، أبقاهم عنده يومين حتى خاف عليهم المقوقس ، ثم قال لهم عمرو : ليس بيننا وبينكم إلا إحدى خصال ثلاث :

١ — إما دخلتم فى الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم مالنا وعليكم ماعلينا .

٢ — وإن أبيتم فالجزية عن يد وأنتم صاغرون .

٣ — وإما القتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو أحكم الحاكمين .

ولما عاد الرسل إلى المقوقس ، سر بلقائهم وسألهم عن حال المسلمين فأجابوا : رأينا قوماً الموت أحب إليهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس لأحد منهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة . جلوسهم على التراب وأميرهم كواحد منهم ، مايعرف كبيرهم من وضيعهم ولا السيد فيهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم » .

وقد أرهب المقوقس هذا الحديث ، فأشار على قومه بطلب الصلح ، وأرسل إلى المسلمين أن يبعثوا إليه رسلا للمفاضة فى الصلح . فبعث عمرو عشرة رجال فيها عبادة بن الصامت ، وأمره أن يكون هو المتكلم . ودارت المحادثات بين الطرفين ، وسلك المقوقس طريق الإرهاب المصوغ فى قالب النصيحة ، وألح على عبادة وأصحابه أن يجيبوه إلى خصلة غير هذه الثلاث ، فرفع عبادة يديه وقال : لا ورب هذه السماء ، ورب هذه الأرض ، ورب كل شىء . مالكم عندنا خصلة غيرها ، فاختاروا لأنفسكم « فقال المقوقس لقومه : « أطيعونى وأجيبوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث . فوالله مالكم بهم من طاقة ، وإن لم تجيبوا إليهم طائعين ، لتجيبنهم إلى ما هو أعظم من هذه كرها »[1] .

ولما كتب المقوقس بذلك إلى هرقل رد عليه يوبخه ويحقر من قوة المسلمين ، وكتب بمثل ذلك إلى قواد الروم الذين مع المقوقس ، فأعادوا الكرة على المسلمين ونبذوا صلحهم . أما المقوقس فإنه لم يعبأ بهرقل ، بل أعلم عمرو بن العاص أنه لم

---

(١) راجع ابن عبد الحكم ص ٥٩ — ٦٣ .

يخرج عما عاقده عليه ، وأن القبط موفون له ما صالحهم عليه . وتحدثنا المصادر العربية أن عمرا طلب من المقوقس أن يضمن له الجسور ويقيم للمسلمين الأنزال والضيافة بين الفسطاط والإسكندرية ، فقبل وصار القبط أعواناً للمسلمين[١] . وقد عد مورخو الفرنجة هذا العمل خيانة من المقوقس .

فتح الإسكندرية :

كانت الإسكندرية عند استيلاء العرب على مصر ، قصبة الديار المصرية ، وثانية حواضر الإمبراطورية الرومانية الشرقية (بعد القسطنطينية) ، وأول مدينة تجارية فى العالم . وقد أيقن الروم أن سقوط هذه المدينة فى أيدى العرب يؤدى حتما إلى زوال سلطانهم من مصر . لذلك بادر الإمبراطور إلى إرسال الجيش إليها ، ونشطوا للدفاع عن المدينة وأغلقوا أبوابها وتحصنوا فيها .

سار عمرو إلى هذه المدينة ، وفتح فى طريقه طرنوط[٢] ، ثم نقيوس[٣] ثم سلطيس[٤] ، ثم الكريون ، وهى آخر حلقة فى سلسلة الحصون الرومانية التى كانت تمتد من بابليون إلى الإسكندرية . وقد تحصن فيها تيودور قائد الحصن الرومانى وقاتل المسلمين قتالا شديداً . ولما دارت الدائرة عليه ، ولى هو وفلول جيشه الأدبار حتى وصلوا إلى الإسكندرية . وكان على المقدمة عبد الله بن عمرو ابن العاص ، وحامل اللواء وردان مولى عمرو .

وصلت فلول الروم إلى الإسكندرية وتحصنوا بها ، وكانت منيعة حصينة . وقد عنى الروم بتحصينها كما عنى البطالسة من قبلهم لتقوى على رد غارات الأعداء وصد هجمات الفاتحين . وكانت الأمداد تأتى إليه من الروم باستمرار . ولم تقل حاميتها عن خمسين ألف جندى مزودين بالمؤن الوفيرة والعدد الكثيرة ، على حين بلغ جند العرب نحو اثنى عشر ألفاً . وظل عمرو وجنده يردون غارات الأعداء

---

(١) ابن عبد الحكم ص ٦٥ — ٦٧ .

(٢) بفتح الطاء والراء ، على الشاطىء الغربى لفرع رشيد ، وتسمى الآن الطرانة وتقع على مقربة من كفر داود على خط المناشى فى جهة الخطاطبة وكوم حمادة .

(٣) بفتح النون ، على النيل إلى الشمال من طرنوط بمديرية البحيرة بجهة النخيلة مركز كوم حمادة .

(٤) بضم السين على بعد ستة أميال جنوبى دمنهور فى منتصف المسافة بين كوم شريك والكريون .

ويقابلون هجمات الروم نحواً من أربعة أشهر ، فأقلق هذا الخليفة عمر ، فبعث إلى عمرو كتاباً يلزمه فيه هو والمسلمين، فقرأ عمرو الكتاب، وعقد لعبادة بن الصامت وولاه قتال الروم ، ففتح الله الإسكندرية على يديه ، وتم هذا الفتح عنوة، ولكن عمراً جعل أهلها ذمة على أن يخرج من يخرج ويقيم من يقيم باختيارهم، شأن العرب مع أهالى معظم البلاد التى فتحوها . وإنما عامل عمرو المصريون معاملة من فتحت بلادهم صلحاً ليستجلب محبتهم .

ويتلخص الصلح الذى عقده المقوقس مع العرب فيما يلى :

١ — أن يدفع كل من فرضت عليه الجزية دينارين فى كل سنة .

٢ — المهادنة أحد عشر شهراً .

٣ — احتفاظ العرب بمركزهم مدة الهدنة ، وألا يباشروا أعمالا حربية ضد الإسكندرية ، وأن يكف جند الروم عن الأعمال العدائية .

٤ — ألا يتعرض المسلمون للكنائس بسوء وألا يتدخلوا فى أمور المسيحيين

٥ — أن ترحل الحامية التى بها مع ما يملكون من أموال وأمتعة وأن يدفعوا الجزية عن شهر عند رحلتهم .

٦ — بقاء اليهود بالإسكندرية .

٧ — ألا يعود أو يحاول استرداد مصر جيش رومى .

٨ — أن يكون عند المسلمين من الروم ١٥٠ جندياً و ٥٠ ملكياً رهينة لتنفيذ هذه المعاهدة [١] .

أثر فتح مصر :

(١) معاملة العرب للمصريين :

لم يشتط العرب فى معاملة القبط بل عاملوهم بمنتهى اللين ؛ فخيروهم بين الإسلام والبقاء على دينهم ؛ فمن أسلم منهم صار له ما للمسلمين من الحقوق وعليه ما عليهم من الواجبات . ومن بقى على دينه فرضت عليه جزية صغيرة مقدارها ديناران على من بلغ الحلم منهم ، واستثنوا النساء والشيوخ والأطفال . أضف إلى ذلك رفع

---

(١) راجع كتاب فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ٧٢ — ٧٤ ، وكتاب فتوح البلدان للبلاذرى ص ٢٨٨ وما يليها ، وكتاب الولاة للكندى ص ٩ وما يليها .

الاضطهاد عنهم وعدم تحميلهم مالا يطيقون ، وبهذه الطريقة أتيح لعمرو تنفيذ أوامره على أهون سبيل . وكان عمرو يضع مصلحة المصريين نصب عينيه، ولم يأل جهداً فى اكتساب محبتهم ، فدانوا له بالطاعة وأحبوا ولايته .

وقد أطلق العرب الحرية الدينية للقبط . يؤيد ذلك ما فعله عمرو بعد استيلائه على حصن بابليون ، إذ كتب بيده عهداً للقبط بحماية كنيستهم ولعن كل من يجرؤ من المسلمين على إخراجهم منها ، وكتب أماناً للبطريق بنيامين ، ورده إلى كرسيه بعد أن تغيب عنه زهاء ثلاث عشر سنة . وأمر عمرو باستقبال بنيامين عندما قدم الإسكندرية أحسن استقبال ، وألقى على مسامعه خطاباً بليغاً ضمنه الاقتراحات التى رآها ضرورية لحفظ كيان الكنيسة ، فتقبلها عمرو ومنحه السلطة التامة على القبط والسلطان المطلق لإدارة شئون الكنيسة ؛ وقد لاحظ « بطلر » أن عودة بنيامين إلى عرش الكنيسة كفاها شر الوقوع فى أزمة خطيرة .

وإن الخطبة البليغة التى ألقاها باسيلى اسقف نقيوس بدير مقاريوس ، لخير شاهد على أن القبط أصبحوا بعد الفتح الإسلامى فى غبطة وسرور لتخلصهم من من عسف الروم . يدل على ذلك رد بنيامين على باسيلى بقوله : « لقد وجدت فى مدينة الإسكندرية زمن النجاة والطمأنينة اللتين كنت أنشدهما بعد الاضطهادات والمظالم التى قام بتمثيلها الظلمة المارقون » . فمن هذه الكلمات التى فاه بها البطريق يتجلى مبلغ الطمأنينة التى شعر بها المصريون فى عهد عمرو . مما يؤيد هذا القول وصف « ساويرس » القوم بأنهم كانوا فى اليوم الذى زار فيه دير مقاريوس كالثيرة إذا أطلقت من قيودها .

ومما يدل أيضاً على حسن سياسة العرب فى مصر ، أنهم لم يفرقوا بين الملكانية واليعاقبة من المصريين ، الذين كانوا متساوين أمام القانون ، والذين أظلهم العرب بعدلهم وحموهم بحسن تدبيرهم . يقول سير توماس أرنولد[1] : « يرجع النجاح السريع الذى أحرزه غزاة العرب قبل كل شىء إلى ما لقوه من ترحيب الأهالى المسيحيين الذين كرهوا الحكم البيزنطى ، لما عرف به من الإدارة الظالمة

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة المؤلف ص ١٢٣ .

وما أضمروه من حقد مرير على علماء اللاهوت : فإن اليعاقبة الذين كانوا يكونون السواد الأعظم من السكان المسيحيين عوملوا معاملة مجحفة من أتباع المذهب الأرثوذكسى التابعين للبلاط ، الذين ألقوا فى قلوبهم بذور السخط والحنق الذين لم ينسهما أعقابهم حتى اليوم » .

وقد ترك العرب الأرض للمصريين ، وأخذوا على عاتقهم حمايتهم وأمنوهم على أنفسهم ونسائهم وعيالهم ، فشعروا براحة كبيرة لم يعهدوها منذ زمن طويل.

ولم تقتصر أعمال العرب على ذلك ، بل إنهم أعادوا الأمن والنظام إلى البلاد ، وقاموا بالإصلاحات العظيمة ، فنظموا الإدارة ، ونصبوا القضاة ورسموا خطة جباية الخراج ، وعنوا عناية كبرى بالأعمال الخاصة بهندسة الرى من كرى الخلجان ، وبناء مقاييس للنيل ، وإنشاء الأحواض والقناطر والجسور . وكان من أثر هذه الإصلاحات أن تحسنت حال القبط وزادت ثروتهم . وينسب إليهم بعض المؤرخين خطأ أو عن سوء قصد إحراق مكتبة الإسكندرية [١].

(ب) مكتبة الإسكندرية :

خاض بعض المتأخرين من المؤرخين فى مسألة إحراق مكتبة الإسكندرية ، فنسبها بعضهم إلى عمرو بن العاص ، وزعموا أن عمر بن الخطاب أمره بإحراقها . وناقش هذه المسألة كثير من الفرنجة مثل جبون [٢] وبطلر [٣] وسديو [٤] وجوستاف لى بون [٥] وغيرهم ، ولكنهم لم يجزموا برأى فيها ، بل ارتابوا فى صحة تهمة إحراق هذه المكتبة التى وجهت إلى عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر ، وقالوا إنها تخالف التقاليد الإسلامية . « ولا يؤيدها أحد من المؤرخين المعاصرين للفتح الإسلامى مثل : أوتيخا الذى وصف فتح مصر بإسهاب ، ولم يرد فى تاريخه ولا فى تاريخ غيره من معاصريه ذكر لهذه التهمة . كذلك لم ترد فى تاريخ

---

(١) راجع كتاب عمرو بن العاص للمؤلف ص ١٣٠ — ١٥٣ .

(٢) Cibbon, vol. Ix. pp. 274—276.

(٣) Butler, pp. 401—426.

(٤) Sèdillot, vol. I. pp. 155—156.

(٥) Le Bon, p. 708.

الأقدمين . كاليعقوبى ، والبلاذرى ، وابن عبد الحكم ، والطبرى ، والكندى ولا فى تاريخ من جاء بعدهم وأخذ منهم : كالمقريزى ، وأبى المحاسن ، والسيوطى وغيرهم .

وأول من نسب الحريق إلى عمرو هو عبد اللطيف البغدادى[1] (٦٢٩ هـ / ١٢٣١ م) وجاء بعده ابن القفطى (٦٤٦ / ١٢٤٨)[2] وأبو الفرج الملطى[3] (٦٨٥ هـ — ١٢٨٦ م) . على أنه لا يمكننا أن نلقى التبعة على ابن القفطى وأبى الفرج ، لاحتمال أن يكونا قد أخذا هذه المقالة عن عبد اللطيف البغدادى الذى رمى عمراً بهذه التهمة ، ولم يذكر لنا من أى تاريخ أخذ ولا من أى مصدر استقى ، بل ذكرها عرضاً فى سياق كلامه عن عمود السوارى ، وإنما تلقف ذلك من ألسنة العوام . فالتبعة واقعة إذن على عبد اللطيف البغدادى لا على ابن القفطى وأبى الفرج ، إذا فرض أن عبد اللطيف هو أول من ذكر هذه المسألة .

وقد دلل المؤرخون الذين ذهبوا إلى القول بأن إحراق مكتبة الاسكندرية كان على يد عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر بن الخطاب :

١ — بأن المسلمين كانت لهم رغبة عظيمة فى محو كل كتاب غير القرآن والسنة .

٢ — وأنهم أحرقوا مكاتب الفرس عند فتح بلادهم ، كما ذكر ذلك حاجى خليفة فى كتابه كشف الظنون .

---

(١) الافادة والاعتبار ص ٢٨ .

(٢) وزير حلب المعروف بالقاضى الأكرم . ولد فى قفط من بلاد الصعيد سنة ٥٦٥ ، وتوفى بحلب سنة ٦٤٦ هـ . وألف كتابه « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » (لايبسك سنة ١٣٤٠ — ١٩٠٢ م) .

(٣) غريغورس أبو الفرج بن أهرون المعروف بابن العبرى . ولد سنة ١٢٢٦ م فى مدينة ملطية بأرمينية الصغرى . وتعلم فى صغره اليونانية والسريانية والعربية ، ثم اشتغل بالفلسفة واللاهوت . وفر به والده إلى أنطاكية سنة ١٢٤٣ م : وعاش أبو الفرج عيشة الزهد والنسك وانفرد فى مغارة بالبرية ، ثم ذهب إلى طرابلس الشام حيث أتم دراسة البيان والطب ، ورقى وهو فى العشرين من عمره إلى أسقفية جوماس من أعمال ملطية . وفى سنة ١٢٦٤ م انتخب (مغريانا)، وهى كلمة فارسية معناها المثمر . وهذا المنصب من أكبر المناصب بعد منصب البطريركية ، وهو أشبه بكبير (الأساقفة) على الجهات الواقعة بين النهرين والعراق العجمى . وألف أبو الفرج أكثر من ثلاثين كتابا بالعربية والسريانية فى الفلسفة وعلم الهيئة والطب والتاريخ والنحو والشعر وغيرها من بينها كتابه مختصر الدول .

٣ — وأن هذه الرواية التى تثبت الحريق لم يروها أبو الفرج فقط ، بل رواها أيضاً مؤرخان مسلمان هما عبد اللطيف البغدادى وابن القفطى .

٤ — وأن إحراق الكتب كان أمراً معروفاً وشائعاً يتشفى به كل مخالف ممن خالفه فى رأيه .

وقد ذكروا أن عبد الله بن طاهر أتلف فى سنة ٢١٣ هـ كتباً فارسية من مؤلفات المجوس ، وحذا حذوه هولاكو التتارى سنة ٦٥٦ هـ بإلقاء خزائن الكتب فى دجلة .

أما الدليل الأول فغير مسلم به ، لأن المعروف من أخلاق المسلمين أنهم كانوا يشجعون العلم ، بدليل ماذكره أبو الفرج من أن عمرو بن العاص كان يصغى إلى أقوال يوحنا النحوى ، ويعجب بها كل الإعجاب ، ويحله من نفسه محل الإحترام والإجلال . ومن المعلوم أن هذه الآراء مسيحية . أضف إلى ذلك أن المسلمين بعد غزوة بدر كانوا يجعلون فداء من لم يجد مالا يفتدى به نفسه أن يعلم عشرة من صبيان المسلمين ، وهذا منتهى التشجيع للعلم .

أما الدليل الثانى ، وهو أنهم أحرقوا مكتبة الفرس عند الفتح ، فلم نر من المؤرخين من ذكره إلا حاجى خليفة ، ومثل هذا المؤرخ لايؤخذ بكلامه ولا يعول عليه فى المسائل التاريخية المتقدمة ، لأنه توفى سنة ١٠٦٧ هـ (١٦٥٧م) . فلو أن المسلمين أحرقوا هذه المكتبات لذكر ذلك المؤرخون الذين تقدموا حاجى خليفة .

أما الدليل الثالث ، هو أن أبا الفرج لم يرو هذه الرواية وحده ، بل رواها أيضاً عبد اللطيف البغدادى وابن القفطى ، وهما مؤرخان إسلاميان عظيمان ، فيمكن دحضه بما أوردناه فى مناقشة ماذكره أبو الفرج ، لأنهم عاشوا فى عصر واحد ، وروايتهم واحدة تقريباً ، ولا يبعد أن يكونوا قد أخذوا عن مصدر ضائع معاد للعرب والإسلام .

وأما الدليل الرابع فلا يثبت دعواهم ، لأنه على فرض صحة هذه الرواية ، فإن عبد الله بن طاهر كان متأخراً (٢١٣هـ) . ولا يؤخذ عمله حجة على عمر بن الخطاب المتوفى سنة ٢٣ هـ . هذا إلى أن عبد الله بن طاهر أحرق هذه الكتب لأنها من كتب المجوس عباد النار ، وفرق بين الكتب المسيحية والمجوسية فى نظر المسلمين

الذين يحترمون أهل الكتاب من النصارى واليهود ، لاتفاق الجميع على غاية واحدة هى الإعتراف بإله قادر (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لانعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون) (سورة آل عمران ٣ : ٦٤) .

وقد أسهب بعض المؤرخين المحدثين فى تفنيد رواية أبى الفرج . ومنهم جبون وبطلر وسديو وغيرهم ، وذكروا مايدل على أن عمراً وعمر بريئان مما نسب إليهما . وهاك رواية أبى الفرج عن كيفية حريق هذه المكتبة على يد عمرو بن العاص قال :

« كان فى وقت الفتح رجل اكتسب شهرة عظيمة عند المسلمين يسمى يوحنا النحوى ، كان قسيساً قبطياً من أهل الإسكندرية . رفى هذا الزمان اشتهر بين الإسلاميين بيحى المعروف عندنا (بغرماطيقوس) أى النحوى . وكان إسكندرياً يعتقد اعتقاد النصارى اليعقوبية ويشيد عقيدة (ساورى) ، ثم رجع عما يعتقده النصارى فى التثليث ، فاجتمع إليه الأساقفة بمصر وسألوه الرجوع عما هو عليه ، فلم يرجع فأسقطوه من منزلته . وعاش إلى أن فتح عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية . ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم ، فأكرمه عمرو وسمع من ألفاظه الفلسفية التى لم تكن للعرب بها أنسه ماهاله ففتن به ، وكان عمرو عاقلا حسن الاستماع صحيح الفكر ، فلازمه وكان لايفارقه . ثم قال له يحى يوماً : إنك قد أحطت بحواصل الإسكندرية وختمت على كل الأشياء الموجودة بها . فما لك به انتفاع فلا أعارضك فيه ، وما لا انتفاع لك به فنحن أولى به . فقال له عمرو : وما الذى تحتاج إليه ؟ قال : كتب الحكمة التى فى خزائن الملوكية . فقال له عمرو : لايمكننى أن آمر فيها إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وكتب إلى عمر وعرفه قول يحى ، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه : وأما الكتب التى ذكرتها ، فإن كان فيها مايوافق كتاب الله ، ففى كتاب الله عنه غنى ، وإن كان فيها مايخالف كتاب الله ، فلا حاجة إليه فتقدم بإعدامها ، فشرع عمرو بن العاص فى تفريقها على حمامات الإسكندرية

وإحراقها فى مواقدها ، فاستنفدت فى ستة أشهر ، فاسمع ماجرى واعجب » !
وهذا ما يستنتج من أقوال المؤرخين :

١ — إذا تأملنا رواية أبى الفرج فاننا نجدها بالخرافة أشبه . فقد ذكر فيها أن كتب المكتبة كفت أربعة آلاف حمام ستة أشهر . وهذا غير معقول ، فضلا عن أن عمراً لو قصد تدمير المكتبة لأحرقها فى الحال ولم يتركها تحت رحمة أصحاب الحمامات ، وإلا لتمكن يوحنا الذى بنى أبو الفرج روايته عليه من أخذ ما يلزم من هذه الكتب بثمن بخس .

ذكر « بطلر » أن يوحنا مات قبل استيلاء العرب على الإسكندرية بثلاثين أو أربعين سنة . وإن صح هذا كان معناه دحض ماجاء بهذه الرواية خاصاً بيوحنا النحوى . وإذن تنهدم الرواية والحادثة من أولها إلى آخرها .

٣ — إن روايات عبد اللطيف وابن القفطى وأبى الفرج ظهرت بعد ستة قرون من وقوع هذه الحادثة . فلو سلمنا جدلا بصحتها ، لما مر عليها مؤرخان شهيران تقدما عبد اللطيف وأبا الفرج ، وهما أوتيخا المتوفى سنة ٣١١هـ ، ويوحنا أسقف نقيوس من غير أن يتعرضا لها ، وتاريخهما عن مصر من أهم المصادر التى يعتمد عليها ، فضلا عن أنه لم يذكر هذا الخبر أحد من المتقدمين كابن عبد الحكم والبلاذرى واليعقوبى والطبرى ، حتى جاء عبد اللطيف وابن القفطى وأبو الفرج فى القرن السابع للهجرة (الثالث عشر الميلادى) فذكروها . فلو أنها حقيقة لتعرض لها هؤلاء المتقدمون .

٤ — إن هذه المكتبة قد أصابها الحريق مرتين : الأولى سنة ٤٨ ق . م على أثر إحراق أسطول يوليوس قيصر . والثانية فى عهد القيصر تيودوسيس (٣٧٨ — ٣٩٥ م) سنة ٣٩١ .

٥ — إن قول أورازيوس Orazius إنه وجد رفوف المكتبة خالية من الكتب عند زيارته مدينة الإسكندرية فى أوائل القرن الخامس الميلادى ، يثبت عدم وجود هذه المكتبة قبل استيلاء العرب على الإسكندرية . وعلى ذلك فإن الكتب التى كانت بالمكتبة من عهد البطالسة لم يبق لها أثر منذ أواخر القرن الرابع الميلادى ، أى منذ عهد الإمبراطور تيودوسيس ، كما أنه لم يرد لها ذكر

فى الآداب فى القرنين السادس والسابع . ومن المعلوم أن حالة مصر قبل الفتح الإسلامى — أى منذ أيام دقلد يانوس — كانت ، على ما سبق ، حالة تأخر فى الزراعة والصناعة والعلوم والمعارف والآداب . فمن البعيد إذاً أن يهتم الناس بإعادة هذه المكتبة إلى عهدها الأول .

٦ — إن التعاليم الاسلامية تخالف رواية أبى الفرج (وعبد اللطيف) لأنها ترمى إلى عدم التعرض للكتب الدينية — اليهودية والنصرانية — وكذا غيرها لأنه يجوز أن ينتفع المسلمون بها . ومن هنا يتضح أن هذه الرواية منافية لعادات العرب الذين عرف عنهم عدم التعرض لما فيه ذكر الله .

٧ — وإذ ثبت أن المسيحيين أحرقوا هيكل سيرابيس ، فمن المعقول أن النيران التهمت ما فيه من الكتب فلم تبق عليها ولم تذر .

٨ — ولو فرضنا أن هذه المكتبة بقيت إلى الفتح الإسلامى ، فإن لم يكن ثمة ما يمنع من نقلها إلى القسطنطينية على أيدى الروم فى أثناء الهدنة ، وقد أجاز لهم عمرو فى عهد الصلح أن يحملوا كل ما يقدرون عليه ، وكان لديهم من الوقت ما يمكنهم من نقل مكتبات لا مكتبة واحدة .

فالقول إذن بأن إحراق مكتبة الإسكندرية كان على يد عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر بن الخطاب محض إفتراء .

صفات عمر — وفاته :

كان عمر رضى الله عنه شديداً فى الحق ، كان قبل أن يسلم أشد القرشيين خطراً على المسلمين . فلما أسلم أصبح أشد المسلمين مجاهرة برأيه ودفاعاً عن هذا الدين . قال أبو مسعود : ما عبد الله جهرة حتى أسلم عمر (١) ، وكان من أقسى المسلمين فى التنكيل بالمشركين وإيقاع العقوبة بهم . فقد قال للرسول حين استشاره فى أسارى بدر : « ادفعهم إلينا يارسول الله فلنضرب أعناقهم » . وفيهم أقاربه وأقارب أبى بكر ، بل كان فيهم أقارب الرسول وفروع بنى هاشم . وقال عمر للرسول فى شأن صلح الحديبية : «ألست رسول الله ؟ وألسنا مسلمين

(١) ابن حجر : الإصابة فى تمييز الصحابة ج ٤ ص ١٧٩ .

ألبسوا كفاراً ؟ » حتى إذا قال له الرسول : نعم ! قال له : وعلام نعطى الدنية في ديننا ؟

وشهر عمر سيفه وهدد بالقتل كل من قال إن محمداً قد مات . فلما تمت البيعة لأبى بكر بالخلافة جلس عمر منه مجلس المشير ، فكان صارماً فى رأيه ، شديداً على من تأخر عن جماعة المسلمين فى البيعة . كذلك أشار على أبى بكر بقتل خالد بن الوليد فى مالك بن نويرة حين علم أن خالداً قتله بعد أن ثاب للاسلام واعترف به ، فأبى أبو بكر عليه ذلك وقال إنه تأول فأخطأ ، فقال له عمر : فاعزله ، فرفض أبو بكر ، وقال : ما كنت لأشيم « لأغمد » سيفا سله الله على الكافرين[١] . فلما ولى عمر الخلافة عزل خالداً عن قيادة الجيش .

وكانت شدة عمر فى خلافته من أظهر ما امتاز به ، فكان إذا أمر بشىء أو نهى عنه بدأ ذلك بأهله ، فجمعهم وقال لهم : إنى نهيت عن كذا وكذا ، وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير يعنى إلى اللحم[٢] ، واقسم بالله : لا أجد أحداً منكم فعله إلا ضاعفت عليه العقوبة .

وكان عمر شديداً على ولاته ، يخشى أن يرهبوا الناس فيذلوا نفوسهم ويعلموهم الجبن ويطبعوهم على الصغار ، فكان يفتح صدره لأية شكاية فى أحد عماله ، فيعلن ذلك لعامة المسلمين فى خطبه .

وكما كان عمر حريصاً على كرامة المسلمين وعزة نفوسهم ، يحميهم وينتصف لهم من عدوان الولاة والأرستقراطيين منهم كذلك كان أحرص الناس على أموال المسلمين ومصالحهم . فكثيراً ما كان يرى وهو يدهن إبل الصدقة بالقار[٣] . وقد قام على بن أبى طالب يوماً على رأس عثمان وهما فى الظل يملى عليه ما يقول عمر ، وقد لف على رأسه بردا يتقى به حرارة الشمس ، وجعل يعد الإبل ويحصيها ويملى عليهم ذلك حتى قال على لعثمان : نعت بنت شعيب فى كتاب الله (يا أبت

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢٤٣ .

(٢) وهو يقصد من ذلك أن الناس إذا رأت من أهل الأمير وحاشيته تهاونا فى أمر اقتدوا بهم وأمضوا فى الاستهتار به .

(٣) هى إبل كانت لبيت المال مما يجمع من الزكاة وغيرها يتصدقون بألبانها على فقراء المسلمين .

استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين ﴾ » (سورة طه ٢٨ : ٢٦) ، ثم أشار إلى عمر فقال : هذا هو القوى الأمين[1] » . روى عن أسلم أنه قال : « إنه بعثه مرة بإبل من إبل الصدقة إلى الحمى ، فوضع رحله على ناقة منها ، فلما رأى عمر أنه وضع رحله على ناقة من الأبل حسناء قال له : لا أم لك ، عمدت إلى ناقة تغنى أهل بيت مال المسلمين ، فهلا ابن لبون بوالا أو ناقة شصوصا[2] ؟ .

وقد استقرضته هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان وأم معاوية بن أبى سفيان أربعة آلاف درهم تتجر فيها على أن تضمنها فأعطاها ، فلما عادت شكت الوضيعة[3] ، فقال لها عمر : لو كان مالى لتركته ، ولكنه مال المسلمين ، وهذه مشورة (صفقة) لم يغب عنها أبو سفيان ، فبعث إليه فحمله حتى وفته[4] .

كذلك نرى عمر مع احترامه للأنصار واتباعه وصية الرسول بهم يقول لسادتهم وكبرائهم — وقد اجتمعوا فى المسجد يتناشدون الأشعار التى قيلت فى هجاء قريش إبان البعثة — أرغاء كرغاء الإبل ؟ وكذلك لم تمنعه منزلة سعد بن عُبادة وفضله فى الإسلام من أن يقول له يوم السقيفة : قتل الله سعد بن عبادة إنه منافق ، لأنه حاول أن يأخذ الخلافة لنفسه ، فلما بايع المسلمون أبا بكر تخلف سعد عن جماعتهم .

وقد بلغ من عدل عمر أنه كان يحرص كل الحرص على دفع أعطيات المسلمين إليهم فى مواعيدها لا فرق بين عامة وخاصة . وقد أثر عنه أنه كان يقول : والله لئن بقيت ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال (يعنى أموال الفيء) وهو فى مكانه . كما كان لا يعفى أى إنسان مهما كانت منزلته مما يستحقه من العقوبة ، وكانت لا تؤثر فى تصرفاته عواطفه الخاصة ونزعات قلبه . روى صاحب الفخرى (ص ٣٧) أن عمر قال لرجل : إنى لا أحبك . قال : فتنقصنى

---

(١) الطبرى ج ٥ ص ٨ .

(٢) الطبرى ج ٥ ص ١٨ . ابن لبون هو الذكر من الإبل الذى مضى عليه أكثر من عام ، والبوال كثير البول والشصوص التى لا لبن لها .

(٣) وضع فى تجارته (على صيغة المبنى للمجهول) ضعة — خسر والوضيعة الخسارة .

(٤) حبس عمر أبا سفيان بن حرب ، وهو من سادات قريش وزعمائها ، حتى ردت زوجته هند قرضاً أخذته من بيت مال المسلمين .

من حقى شيئاً ؟ قال عمر : لا ! قال الرجل : فليفرح بالحب بعد هذا إلا النساء .

ولقد بلغ من زهد عمر أن أصاب أرضا بخيبر ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أصبت أرضا بخيبر لم أصب مالا قط أنفس عندى منه ، فما تأمر به ؟ وأجاب رسول الله : إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها . فتصدق عمر بها على الفقراء والقربى وفى الرقاب وفى سبيل الله والضيف ، لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف ويطعم صديقا غير متمول فيها . وقال إنه لا يباع أصلها ولا توهب ولا يورث. فكانت هذه أول صدقة تصدق بها فى الإسلام ، وكانت الأصل الأول لنظام الوقف عند المسلمين(١) .

وكان عمر متواضعا برغم هذه الشدة التى عرفت عنه . ذكر هشام الكلبى أن عمر كان يحمل ديوان أعطيات خزاعة حتى ينزل قديدا ، فتأتيه خزاعة فى قديد فلا تغيب عنه امرأة بكر ولا ثيب فيعطيهن فى أيديهن ، ثم يروح فينزل عسفان فيفعل مثل ذلك أيضاً حتى توفى . وقد ظهر تواضع عمر فى ملبسه ومظهره عند ذهابه إلى الشام ، وعند مقابلته الهرمزان قائد الفرس الذى قصد إليه فى المدينة ، وما كاد يعرفه لبساطة ملبسه وعدم اعتداده بنفسه .

وكان عمر مع تواضعه يأخذ منه الغضب كل مأخذ على من يجترئ على سلطان الله . أتى عمر يوماً بمال فجعل يقسمه بين الناس ، فازدحموا عليه ، فأقبل سعد بن أبى وقاص يزاحم الناس حتى خلص إليه ، فعلاه عمر بالدرة وقال : إنك أقبلت لا تهاب سلطان الله فى الأرض فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لن يهابك (الطبرى ٥ : ٢٣ — ٢٤) .

وكان رضى الله عنه عالما بالقرآن وتأويله مجتهدا فى دين الله ذا رأى وفتيا . روى النووى عن ابن عمر أنه سئل : من كان يفتى الناس فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال أبو بكر وعمر ، ما أعلم غيرهما(٢) .

وكان عمر أكثر الصحابة شجاعة وجرأة . فكثيراً ما كان يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن التصرفات التى يدرك حكمتها ، كما سأله فى يوم الحديبية

---

(١) البيضاوى : كتاب الحديث ٢٤ : ١٩ باب الهبة ، ص ٣٢١ — ٣٣٢ .

(٢) النووى : تهذيب الأسماء واللغات ج ٢ ص ١٩٠ .

عن السبب فى قبول هذا الصلح . ولم يفارقه رأيه واجتهاده طوال حياته، وخاصة بعد موت الرسول وانقطاع الوحى وحرمان المسلمين من شخص الرسول الذى كان المرجع الأخير فى حل المشكلات وتوضيح المبهمات . روى عن عمران بن سوادة قال « صليت الصبح مع عمر فقرأ سبحان (أى سورة الإسراء) وسورة معها . ثم انصرف ، وقمت معه فقال : « أحاجة ؟ » قلت حاجة « حاجة »قال: «فالحق» ، فلحقت . فلما دخل أذن لى فإذا هو على سرير ليس فوقه شىء، فقلت : « نصيحة » . فقال : « مرحباً بالناصح،غدواً وعشياً » قلت: «عابت أمتك منك أربعاً » ، فوضع رأس درته فى ذقنه ، ووضع أسفلها على فخذه ثم قال : «هات!» قلت « ذكروا أنك حرمت العمرة فى أشهر الحج ، ولم يفعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر رضى الله تعالى عنه ، وهى حلال » . قال : « وهى حلال لو أنهم اعتمروا فى أشهر الحج رأوها مجزية من حجهم، فكانت قائبة (١) ، قوب عامها ، فقرع حجهم وهو بهاء من بهاء الله ، وقد أصبت » . قلت : « وذكروا أنك حرمت متعة النساء ، وذكر له أشياء أخرى أتى بها عمر من غير أن يسبقه فى ذلك مثل أو قدوة من عهد الرسول أو أبى بكر، فأجابه عمر عن كل منها وشرح له حكمتها والأسباب التى دعت إليها ، فاطمأن ابن سوادة وزالت شبهته (الطبرى ٥ : ٤٢) .

ومما يدل على نفاذ بصيرة عمر وحسن تقديره للأمور ودقة فهمه لنفسية الشعب العربى ، ما قاله لعمر أن هذا فى آخر ذلك الحديث ، حين شكا من زجره الرعية ، إذ شرع الدرة ثم مسحها حتى أتى على آخرها ثم قال : أنا زميل محمد ، فوالله إنى لأرتع فأشبع ، وأسقى فأروى ، وأنهز اللفوت وأزجر العروض ، وأذب قدرى، وأسوق خطوى، وأضم العنود وألحق القطوف، وأ كثر الزجر، وأقل الضرب. وأشهر العصى ، وأدفع باليد ، لولا ذلك لأعذرت ، حتى قال معاوية لما بلغه ذلك الكلام ، كان والله عالماً برعيته . وقد أراد عمر بذلك أن يهيء للرعية جميع وسائل الراحة والطمأنينة بالعدل وصيانة الحقوق ، ثم يضرب على أيدى المعتدين ويكف المفسدين .

---

(١) يريد أنه لو أتيحت لهم العمرة زمن الحج لاكتفوا بهـا عن الحج فبطل الحج وهو فريضة مهمة .

وكان عمر إذا قسا فى عقوبة شخص فإنما يفعل ذلك ليزجر غيره عن الوقوع فى معصية . وهو رفيق برعيته يشهر عليها العصا ليخيفهم حتى إذا اضطر إلى ضربهم أو دفعهم بيده .

كان عمر ورعاً متقشفاً ، لا يخشى فى القيام بالواجب لومة لائم ، وكان لا يحابى فيه أحداً ، متحمساً للحق إلى حد الصلابة برغم عطفه على الضعفاء ؛ كما كان قاضياً شديد النزاهة نحو غيره وخاصة نحو نفسه . ولا غرو فقد ولد حاكماً بطبيعته ورجلا فى كل خطوة من خطوات حياته (١) .

وكان عمر شديد التعلق بالقرآن ، ولم تمنعه شدة حرصه على الوقوف عند أوامره ونواهيه واحترامه للرسول وصدقه مع صحبته ، من الاجتهاد برأيه وإنشاء ماتدعوا إليه الضرورة وتقتضيه مصلحة الرعية . فإذا ورد نص لم يبق فى أحوال الجماعة ما يقتضى تطبيقه ، لم يطبقه . وإذا اقتضت أحوال الجماعة تأويل النص ، أوله ، حريصاً على ملاءمة الحكم لأحوال المجتمع مع مطابقته لتعاليم الإسلام .

أخرج عمرو بن ميمون عن أبيه قال : أتى عمر بن الخطاب رجل فقال : يا أمير المؤمنين ! إنا لما فتحنا المدائن أصبت كتاباً فيه كلام معجب ، قال : أمن كتاب الله ؟ قال : لا فدعا عمر بالدرة فجعل يضربه بها ويقول : (الر : تلك آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين) (سورة يوسف ١٢ : ١ — ٣) ، ثم قال : إنما أهلك من كان قبلكم أنهم أقبلوا على كتب علمائهم وأساقفتهم ، وتركوا التوراة والانجيل حتى درس وذهب ما فيهما من العلم .

قتل عمر بن الخطاب على يد فيروز ، ويلقب أبا لؤلؤة ، وكان غلام المغيرة ابن شعبة . قتله بخنجر له رأسان وضربه ست ضربات إحداها تحت سرته ، وهى التى قتلته . وتوفى فى شهر ذى الحجة سنة ٢٣ هـ بعد أن ولى الخلافة عشر

(١) Nicholson. p. 189.

سنين وستة أشهر ، ومات وهو فى الثالثة والستين من عمره كما مات النبى وأبو بكر فى هذه السن أيضاً .

وإن مقتل عمر على يد رجل من الموالى ليبين مبلغ الاستياء والسخط الذى استولى على نفوس هؤلاء الفرس بعد زوال سلطانهم ودخولهم فى حوزة العرب .

عثمان بن عفان
(٢٣ — ٣٥ / ٦٤٤ — ٦٥٦)

١ — عثمان منذ ولد إلى أن ولى الخلافة :

ولد عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن مناف بن قصى الأموى القرشى فى السنة الخامسة بعد ميلاد الرسول بخمس سنين ، وقيل إنه ولد بعد عام الفيل بست سنين . وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب ابن عبد شمس ، وأمها البيضاء بنت عبد المطلب عمة الرسول : وكانت توأمة لعبد الله أبى الرسول .

اشتهر عثمان بالعفة والحياء والكرم ، وكان لين العريكة كثير الإحسان والحلم . « وكان — كما يقول ابن حجر [1] — لا يوقظ نائماً من أهل بيته إلا أن يجده يقظان ، فيدعوه فيناوله وضوءه ، وكان يصوم الدهر » . كان يصوم طوال أيام السنة ، عدا الأيام المكروهة ، وهى أيام العيدين ويوم الشك فى أول رمضان .

أسلم عثمان على يد أبى بكر ، وزوجه الرسول ابنته رقية . فلما آذى مشركو قريش المسلمين ، كان عثمان من أوائل المهاجرين مع زوجته فلما علم المهاجرون برضاء قريش عن الرسول عاد عثمان إلى مكة وهاجر مع الرسول إلى المدينة ، واشترك فى الغزوات إلا غزوة بدر لاشتغاله بتمريض زوجته التى ماتت ودفنت فى اليوم الذى انتصر فيه المسلمون ، فعده الرسول من البدريين . ثم زوجه الرسول ابنته الثانية أم كلثوم . ولهذا كان يلقب ذا النورين ، لزواجه بابنتى الرسول : رقية

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة جـ ٤ ص ٢٢٣ .

وأم كلثوم التى توفيت فى السنة التاسعة من الهجرة . وهو — كما يقول الذهبى[١] — أفضل من قرأ القرآن على النبى صلى الله عليه وسلم .

وقد استعان الرسول بعثمان فى كثير من أمور المسلمين ؛ فكان سفيره لدى قريش فى السنة السادسة للهجرة حين حالت دون دخول الرسول مكة لأداء العمرة . فلما ذاع نبأ قتلهم عثمان بايع المسلمون الرسول بيعة الرضوان فى المكان المعروف بالحديبية على مقربة من مكة . وبذل عثمان كثيراً من ماله فى سبيل الإسلام . ولا غرو فقد كانت له اليد الطولى فى جيش العسرة الذى أعده الرسول لغزوة تبوك ، فقد أمد المسلمين بتسعمائة وخمسين فرساً وألف دينار ، كما اشترى بئر رومة من يهودى بعشرين ألف درهم تصدق بها على المسلمين . وقد أثر عن الرسول أنه قال : من حفر بئر رومة فله الجنة [٢] . كما أثر عنه أنه بشر عثمان بالجنة وعده من أهلها ، وقال : لكل نبى رفيق ، ورفيقى فى الجنة عثمان .

وكان عثمان من رواة الحديث . يقول ابن حجر : روى عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن أبى بكر وعمر ، كما روى عنه أولاده : عمرو وأبان وسعيد ، وابن عمه مروان بن الحكم ، ومن الصحابة عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وعبد الله ابن العباس وعبد الله بن الزبير وزيد بن ثابت ، وأبوهريرة وغيرهم ، ومن التابعين الأحنف بن قيس ومحمد بن الحنفية بن على وسعيد بن المسيب[٣] . وذكر النووى[٤] أن عثمان روى عن الرسول مائة حديث وستة وأربعين حديثاً ، اتفق البخارى ومسلم على ثلاثة منها ، وانفرد البخارى بثمانية ومسلم بخمسة .

ولما انتقل الرسول إلى جوار ربه اتخذ أبو بكر عثمان أميناً وكاتباً له ، يستشيره فى مهام الأمور ، وكانت أغلبية الشورى فى جانبه بعد مقتل عمر .

وصفوة القول أن عثمان كان على ماوصف نفسه فى هذه الكلمات : « إن الله بعث محمداً بالحق نبياً ، وكنت ممن استجاب لله ولرسوله ، وآمنت بما بعث به

---

(١) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٩ .
(٢) النووى : تهذيب الأسماء واللغات ج ١ ص ٢٢٣ . صحيح البخارى ج ٤ ص ١٧٨ .
(٣) ابن حجر : الإصابة ج ٤ ص ٢٢٣ .
(٤) تهذيب الأسماء واللغات ج ١ ص ٣٢٢ .

ثم هاجرت الهجرتين . وصحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونالت صهر رسول الله ، وبايعته . فوالله ماعصيته ولاغششته حتى توفاه الله تعالى ، ثم أبوبكر مثله مثل عمر .

٢ — قصة الشورى أو بيعة عثمان .

لما طعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دخل عليه نفر من الصحابة فقالوا له : « يا أمير المؤمنين لو استخلفت » . قال : « من استخلف ؟ لو كان أبوعبيدة ابن الجراح حياً استخلفته ، فإن سألنى ربى قلت سمعت نبيك يقول إنه أمين هذه الأمة ، ولو كان سالم مولى أبى حذيفة حياً استخلفته ، فإن سألنى ربى قلت سمعت نبيك يقول إن سالماً شديد الحب لله فقال : رجل أدلك عليه عبد الله ابن عمر . فقال : قاتلك الله ؟ والله ما أردت الله بهذا ، لا أرب لنا فى أموركم ، ماحمدتها لأرغب فيها لأحد من أهل بيتى ، بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر أمة محمد . أما لقد جهدت نفسى وحرمت أهلى ، وإن أنج كفافاً لاوزر ولا أجر إنى لسعيد » ، ثم قال : فإن استخلف فقد استخلف من هو خير منى (يعنى أبا بكر) ، وإن أترك فقد ترك من هو خير منى (يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، ولن يضيع الله دينه ، فخرجوا .

وقد خشى أصحاب رسول الله أن يقضى عمر نحبه دون استخلاف ، فذهبوا إليه مرة أخرى وقالوا : يا أمير المؤمنين ! لوعهدت عهداً ؟ فقـــال : عليكم بهؤلاء الرهط الذى مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، قال فيهم إنهم من أهل الجنة : على بن أبى طالب ، وعثمان بن عفان ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف . والزبير بن العوام حوارى رسول الله وابن عمته ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الله بن عمر على ألا يكون له من الأمر شىء . وأوصى بأن تكون الخلافة الرجل الذى يقع عليه الاختيار من الفريق الذى فى صفه عبد الله بن عمر فى حالة تساوى الأصوات . فإن لم يرضوا بحكم عبد الله ابن عمر فليكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف . ثم دعاهم عمر وقال لهم : « إنى نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ، لا يكون هذا الأمر إلا فيكم . وقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنكم راض . إنى لا أخاف الناس

عليكم إن استقمتم ، ولكنى أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس . فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام ، ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم ، ويحضر عبد الله بن عمر مشيراً ولا شيء له من الأمر ، وطلحة شريككم فى الأمر . فإن قدم فى الأيام الثلاثة قبل قدومه فاقضوا أمركم ، وقال عمر لصهيب : صل بالناس ثلاثة أيام ، وأدخل علياً وعثمان والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف وطلحة إن قدم ، وأحضر عبدالله بن عمر ولا شيء له من الأمر . وقم على رءوسهم ؛ فان اجتمع خمسة ورضوا رجلا وأبى واحد ، فاشدخ رأسه أو اضرب رأسه بالسيف ، وإن اتفق أربعة فرضوا رجلا منهم وأبى إثنان فاضرب رءوسهما ؛ فإن رضى ثلاثة رجلا منهم وثلاثة رجلا منهم ، فحكموا عبد الله بن عمر ، فأى الفريقين حكم له فليختاروا رجلا منهم . فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر ، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ، واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس .

فلما مات عمر اجتمع هؤلاء النفر فى بيت المسور بن مخرمة إلا طلحه فإنه كان غائباً . ولكن سرعان ماظهر فيهم التنافس . فقال لهم طلحة الأنصارى : « أنا كنت لأن تدفعوها أخوف منى لأن تنافسوها » . ولكن عبد الرحمن بن عوف أخرج الناس من هذا المأزق واقترح عليهم اقتراحاً يمنع هذا التنافس ، فقال لهم : « أيكم يخرج نفسه منها ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم ؟ » ، فلم يجبه أحد ، فقال : « أنا أخلع منها نفسى ، فرضى القوم بذلك وعلى ساكت فقال له : « ماتقول يا أبا الحسن ؟ » ، فقال : « أعطنى موثقاً لتؤثرن الحق ولاتتبع الهوى ، ولا تخص ذا رحم لرحمه . ولا تألو الأمة » .

فقال : « أعطونى مواثيقكم على أن تكونوا معى على من بدل وغير ، وأن ترضوا من اخترت لكم على ميثاق الله ، ألا أخص ذا رحم ولا آلو المسلمين » . فأخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله ، ومن ثم أخذ عبد الرحمن يستشير الصحابة وأمراء الأجناد وأشراف الناس فيمن يصح أن يختار خليفة من بين هؤلاء : فكان بعض يشير بعلى ، وبعض آخر يشير بعثمان . وكذلك استشار أصحابه ، فقال لعلى : « لولم يكن لك هذا الأمر فمن ترضى ؟ فقال عثمان » ، وكذلك فعل

مع الزبير وسعد ، فقالا : عثمان . ثم سأل عثمان فأشار بعلى . ومن هنا نجد أن استحقاق الخلافة انحصر فى على وعثمان ، إذ كانا محط أنظــار الصحابة وأشراف المسلمين .

ولما انتهى الأجل الذى ضربه عمر ، جاء عبد الرحمن — بعد أن طاف هذه الليالى يستأنس برأى الناس — وقت صلاة الصبح إلى المسجد حيث اجتمع سائر أصحابه ، وحضر من عداهم من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الأنصار وأمراء الأجناد . ولما ازدحم المسجد بالناس ، قام عبد الرحمن فقال : « أيها الناس ! إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم وقد علموا أميرهم » .

وهنا ظهرت بوادر الانقسام بين أنصار على وعثمان ، إذ قام عمـار بن ياسر فقال : « إن أردت ألا يختلف الناس فبايع علياً » ، فقال المقداد بن الأسود : « صدق عمار ، إن بايعت علياً قلنا سمعاً وأطعنا » . فقام عبد الله بن أبى سرح وقال : « إن أردت ألا تختلف قريش فبايع عثمان » ، فقال عبد الله بن أبى ربيعة : « صدق عبد الله إن بايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا » ، فشتم عمار ابن أبى سرح وقال له : « متى كنت تنصح المسلمين[1] ؟ »

فتكلم بنو هاشم وبنو أمية ، فقال عمار : « أيها النـاس ! إن الله عز وجل أكرمنا بنبيه وأعزنا بدينه . فأنى تصرفون هذا الأمر على أهل بيت نبيكم ؟ » فقال سعد بن أبى وقاص : « ياعبد الرحمن ! أفرغ قبل أن يفتتن الناس » .

فقال عبد الرحمن : إنى قد نظرت وشاورت ، فلا تجعلن أيهـا الرهط على أنفسكم سبيلا » . ودعا علياً فقال له . « عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده » . قال : أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمى وطاقتى . ثم دعا عثمان وأعاد عليه ماقال لعلى ، فقال : نعم ! فبايعه . وبذلك نال عثمان الخلافة ، فقال على لعبد الرحمن : « لقد حبوته حبو دهر ، ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا ، فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون . والله ماوليت عثمان إلا ليرد الأمر إليك ، والله كل يوم هو فى شأن[2] » .

---

(١) الطبرى ج ٥ ص ٣٤ — ٣٥ ، ٣٦ .

(٢) الطبرى ج ٥ ص ٣٧ . ابن الأثير ج ٣ ص ٣٠ — ٣١ .

ومن ثم نرى أن التنافس قد ظهر عند ذلك الوقت بين عثمان وعلى أو بالأحرى بين بنى هاشم وبنى أمية ، لأن الخلافة انحصرت فيهما تقريبا ، إذ أن الناس كانوا لا يعدلون بهما أحدا غيرهما . وكاد الأمر يتم لعلى ، لولا أنه لم يتمش مع عبد الرحمن بن عوف بأن يسير على ما سنه أبو بكر وعمر ، وأراد أن يعمل بمبلغ علمه ، فصرفت عنه الخلافة إلى عثمان الذى رضى عن طيب خاطر أن يتبع سنة من كان قبله . وكان ذلك فى آخر شهر ذى الحجة سنة ٢٣ هـ :

اختير عثمان للخلافة ، فانقسم المسلمون إلى أمويين وهاشميين أو علويين . فقد كان على هو المقدم فى بنى هاشم ، لسبقه فى الدين وإخلاصه وتضحيته فى سبيل نصرة هذا الدين ، ولأنه زوج فاطمة بنت رسول الله . أما العباس عم النبى فإنه لم يتطلع إلى الخلافة واكتفى بمساعدة على . وبعد أن بويع عثمان خطب الناس هذه الخطبة فقال : « إنكم فى دار قلعة[1] ، وفى بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فلقد أتيتم صبحتم أو مسيتم . ألا وإن الدنيا طويت على الغرور ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور . اعتبروا بمن مضى ، ثم جدوا ولا تغفلوا ، فإنه لا يغفل عنكم . أين أبناء الدنيا وإخوانها ؛ الذين آثروها وعمروها ومتعوا بها طويلا ؟ ألم تلفظهم ؟ ارموا الدنيا حيث رمى الله بها ، واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلا — والذى هو خير — فقال عز وجل : ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدرا المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا ﴾ (سورة الكهف ١٨ : ٤٥)[2] .

وهذه الخطبة لا تبين لنا السياسة التى عول عثمان على انتهاجها فى إدارة شئون دولته ، وإنما هى عبارة عن نصائح تتعلق بالدين لا بالسياسة . كأن عثمان لا يريد أن يلزم نفسه بسياسة خاصة يطمئن إليها المسلمون وغيرهم من أهالى الدولة الإسلامية فى عهده . وقد يرجع سبب ذلك إلى شيخوخته ، وما فطر عليه من اللين والتدين والتعلق بآثار السلف .

---

(١) بضم القاف وتسكين اللام أو ضمها أو فتحها ، أى دار انقلاع ليست بمستوطن .
(٢) الطبرى ج ٥ ص ٤٣ .

على أن عثمان سرعان ما تدارك هذا الأمر ، فأرسل إلى الولاة والقواد وعمال الخراج وعامة المسلمين بالأمصار ، كتباً يحثهم فيها على الأخذ بالمعروف والنهى عن المنكر ، والعطف على أهل الذمة ، وجباية الخراج بالعدل والإنصاف ، ونصح عمال الخراج فى هذه الكلمات : « أما بعد ، فإن الله خلق الخلق بالحق ، فلا يقبل إلا الحق. خذوا الحق وأعطوا الحق به . والأمانة الأمانة قوموا عليها ، ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم . الوفاء الوفاء ، لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فإن الله خصم لمن ظلمهم » .

٣ — الفتوح فى عهد عثمان :

لم يقطع استخلاف عثمان سلسلة الفتوح التى قام بها المسلمون فى عهد عمر . فقد فتحت بلاد أرمينية وإفريقية وقبرس ، وواصل المسلمون العمل على توطيد نفوذهم فى بلاد الفرس التى انتفض بعضها ، فلم يكن بد إذن من أن يعملوا على فتحها وتوطيد نفوذهم فيها من جديد .

ففى عهد عثمان فتحت بلاد طبرستان على يد سعيد بن العاص . وقد قيل إن جيش المسلمين كان يضم الحسن والحسين ابنى على وعبد الله بن العباس وعمرو ابن العاص والزبير بن العوام . وكذلك اضطر ملك جرجان إلى طلب الصلح من سعيد بن العاص وتعهد بأن يدفع له ٢٠٠,٠٠٠ درهم كل سنة .

وفى سنة ٣١ ﻫ انتقض أهل خراسان على عثمان . فأرسل إليهم عبدالله بن عامر عامله على البصرة فى جيش كثيف اشتبك مع أهالى هذه البلاد فى مرو ونيسابور ونَسا وهراة وبوشنج وبدغيس ومرو الشاهجان وغيرهما ، ففتحها من جديد . ثم وجه ذلك القائد الأحنف بن قيس إلى طخارستان . فلما بلغ «قصر الأحنف» ، وكان من حصون بلاد مرو الروذ ، حاصر أهله فى ذلك المكان وأرغمهم على طلب الصلح ، بيد أنه سرعان ما انضم إلى أهل مرو الروذ أهل الجوزجان والطالقان والفارياب والصغانيان شرقى نهر جيحون . واشتبك هؤلاء جميعاً مع الأحنف بن قيس الذى أحل بهم الهزيمة فى عدة مواقع ، وفتح الجوزجان عنوة ، ثم فتح الطالقان صلحاً ، ثم فتح الفارياب ، وسار إلى بلخ فصالحه أهلها ، ثم سار إلى خارزم ، ولكنه لم يتمكن من فتحها فعاد إلى مرو .

عبر الأحنف نهر جيحون فصالحه أهالي بلاد ما وراء النهر ، ثم قدم على عثمان بعد أن استخلف قيس بن الهيثم على هذه البلاد ، فتوغل فى طخارستان وفتحها مدينة تلو مدينة وأرغم أهلها على مصالحته(١) .

كذلك ضرب عثمان على أيدى الثائرين فى سائر الولايات الإسلامية ، فجعل على الكوفة الوليد بن عقبة ، وأمده بأربعين ألف مقاتل للمحافظة على الثغور كالرى وأذربيجان وغيرهما ، وإعادة أهلها إلى الطاعة إذا حدثتهم أنفسهم بالعصيان ، وقد خصص عامل الكوفة عشرة آلاف من جنده لغزو هذه الثغور مرة فى كل سنة .

كما انتقضت أذربيجان ومنعت الجزية التى فرضها عليها المسلمون ، فغزاها الوليد وأرغمها على دفع الجزية . ولما خرج أهل أرمينية عن طاعة المسلمين ، سير إليهم الوليد جيشاً شتت شملهم وأحل بهم الهزيمة .

وكان معاوية على ولاية الشام منذ أيام عمر . وقد أنشأ هذا الوالى أسطولا حارب به البيزنطيين حتى وصل إلى عمورية فى آسيا الصغرى ، كما استولى على جزيرتى قبرص ورودس وفتح كثيراً من الحصون ، وسار إلى أرمينية الصغرى حتى وصل إلى قاليقلا(٢) ، فصالحه أهلها ، ثم استمر فى فتوحه حتى بلغ تفليس .

أما مصر فإن عمر بن الخطاب لم يرض بمقدار الخراج الذى جباه عمرو ابن العاص ، فظن فيه الظنون وأرسل ابن مسلمة ليقاسمه ماله ، ثم عزله سنة ٢٣ هـ أى قبل وفاته بقليل ، عن ولاية الصعيد وقلدها عبد الله بن سعد ابن أبى سرح . فلما ولى عثمان الخلافة عزل عمرا بعد أن وليها أربع سنين وأشهرا(٣) ، وولى ابن أبى سرح مصر جميعها . فكان ذلك سبب الجفاء والعداوة بين عمرو وعثمان ، حتى قيل إن عمرا أخذ يؤلب الناس على عثمان وعلى سياسته وأن له يداً فى قتله .

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٤٢ ، ٤١٠ — ٤١٥ .

(٢) أوكيلكيا وهى البلاد التى فوق زاوية خليج اسكندرونة وتعرف عند العرب باسم قاليقلا .

(٣) الكندى : كتاب الولاة ص ١٠ .

على أن ابن أبى سرح لم يكد يستقر فى ولاية مصر حتى انتقض الروم فيها ، وكتب أهل الإسكندرية إلى الإمبراطور قسطنطين بن هرقل يصفون له ما كانوا عليه من الذلة ويهونون عليه فتح الإسكندرية لقلة من كان بها من حامية المسلمين. فأنفذ قسطنطين قائده الأرمنى مانويل إلى الإسكندرية على رأس جيش كثيف ، فاستولى عليها ، وأخذ هو وجنده ومن انضم إليهم من الروم المقيمين فى الوجه البحرى يعيثون فى هذه البلاد حتى بلغوا مدينة نقيوس .

ولم يرحب القبط بعودة بلادهم إلى الروم فيسومونهم الخسف لمظاهرتهم العرب ورضائهم عن حكمهم من جهة ، ولما كان بينهم وبين الروم من الخلاف المذهبى الذى كان مصدر شقائهم من جهة أخرى ، لهذا كتب القبط إلى الخليفة عثمان يلحون فى إسناد حرب الروم إلى عمرو بن العاص لما كسبه فى حروبه معهم من خبرة ، فولى عثمان عمراً الإسكندرية وعهد إليه بحرب الروم وإخراجهم من مصر. وفى مدينة نقيوس دار القتال بين جند عمرو وجند مانويل فى البحر وفى النهر ، وكثر الترامى بالنشاب حتى وقع فرس عمرو من تحته . ثم طلب المسلمون المبارزة بين فارس منهم وفارس من الروم ، فكانت الغلبة لفارس المسلمين ، فثارت حميتهم وشدوا على العدو وانتصروا عليه وقتلوا قائده ، ثم تعقبوا الفالة إلى الإسكندرية وأعملوا السيف فى رقابهم ، ثم أمر عمرو بوقف القتال ، وأمر بأن يبنى فى الموضع الذى رفع فيه السيف مسجد أطلق عليه فيما بعد مسجد الرحمة ، وهدم سور الإسكندرية ، وكان قد حلف لئن نصره الله ليهدمنه . وبهذا ثبتت أقدام العرب فى مصر من جديد (٢٥ هـ) .

وقد أقام والى مصر الجديد فى الفسطاط يرقب الأمور عن كثب وينتظر ما سوف تلده تلك الحرب الناشئة بين العرب والروم فى مصر . ولا شك أن انتصار عمرو وطد قدم عبد الله بن سعد فى ولايته ، فحذا حذو سلفه فى الإصلاح الداخلى وفى الحروب الخارجية . أما الإصلاح الداخلى فإن عمراً لم يترك له شيئاً جديداً ، اللهم إلا ما كان من زيادة الخراج فى ولايته حتى بلغ ١٤٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار بدل ١٢٫٠٠٠٫٠٠٠ . وأما الأحوال الخارجية فتنحصر فى أمرين هما :

١ — موقف مصر من الفتنة التي أدت إلى قتل عثمان وعلى وقيام الدولة الأموية .

٢ — الفتوح الخارجية :

ويهمنا الآن أن نتكلم على الفتوح الخارجية فنقول : إن عمرو بن العاص أمن حدود مصر من ناحية الغرب بفتح برقة صلحاً سنة ٢١ هـ . وفتح طرابلس عنوة سنة ٢٢ هـ . ثم بعث نافع بن عبد القيس الفهرى،وكان أخا العاص بن وائل لأمه ، إلى بلاد النوبة فقاتل أهلها قتالا شديداً فانصرفوا .

فلما ولى مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة ٢٧ هـ ، فكر فى غزو إفريقية واستأذن الخليفة عثمان ، فأذن له بعد أن استشار كبار الصحابة ،وأرسل إليه من المدينة المنورة جيشاً يضم كثيراً من أعيان الصحابة .

وسار هذا الجيش إلى إفريقية ، وانقطعت أخباره عن مركز الخلافة ، فأرسل عثمان عبد الله بن الزبير فى جماعة لموافاته بأخبار الجند . ولما وصل ابن الزبير إلى إفريقية ،لم ترقه الخطة التى سار عليها ابن أبى سرح فى قتال الأعداء ، إذ كان يقاتلهم كل يوم إلى وقت الظهيرة ثم يعود الجيشان إلى معسكرهما فى اليوم التالى .

وقد أنكر ابن الزبير على ابن أبى سرح خطته هذه لما رأى فيها من إتاحة الفرصة للعدو للاستعداد ، وأشار عليه بتقسيم جيش المسلمين إلى فرقتين : إحداهما تسير لقتال العدو أول النهار ، على حين تأخذ الأخرى قسطها من الراحة وتستعد لمباغتة العدو عند ما يأوى إلى معسكره . فنزل ابن أبى سرح عن قيادة الجيش لابن الزبير الذى شرع فى تنفيذ خطته . فلما حان الموعد المضروب لانصراف الجيشين ، استعدت الفرقة التى لم تخرج للحرب أول النهار ، وهجم بها على العدو الذى نهكته الحرب . ثم غشيهم فى خيامهم ، وهزمهم هزيمة منكرة ، وقتل ملكهم جرجير . وبذلك تم النصر للمسلمين ؛ ولولا خطة ابن الزبير وحيلته ، لما أحرز المسلمون هذا النصر . وقد غنم المسلمون فى هذه الحرب غنائم كثيرة حتى قيل أن سهم الفارس بلغ

ثلاثة آلاف دينار والراجل ألف دينار[١] .

عاد ابن الزبير بالغنائم إلى المدينة ، وأخبر عثمان بانتصار المسلمين وما غنموه من ذلك الفتح ، فسر بذلك وطلب منه أن يخطب الناس ، فقال : يا أمير المؤمنين ! إنى أهيب لك منى لهم . فقام عثمان فى الناس خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أيها الناس ! إن الله قد فتح عليكم إفريقية ، وهذا عبدالله بن الزبير يخبركم بخبرها إن شاء الله » . وكان عبد الله بن الزبير إلى جانب المنبر ، فخطب الناس خطبة طويلة رواها ابن عبد ربه[٢] .

ثم وجه ابن أبى سرح همه إلى الجنوب ، فغزا بلاد النوبة من جديد — وكان عمرو قد غزاها من قبل — فبلغ دنقلة سنة ٣١ هـ ، وقاتل أهلها قتالا شديداً ، ولكنه لم يتمكن من فتحها ، فهادن أهلها وعقد معهم صلحاً رواه البلاذرى[٣] والكندى[٤] ونقله لينبول ، وهو أشبه بمعاهدة اقتصادية بين مصر وبلاد النوبة ، هذه تمدهم بالحبوب والعدس وتلك ترسل الرقيق إلى مصر .

وفى سنة ٣٤ هـ نشب القتال بين عبد الله بن سعد وبين الروم تحت قيادة ملكهم قسطنطين فى البحر الأبيض المتوسط على مقربة من الإسكندرية . وكان النصر للعرب فى هذه الموقعة التى عرفت بموقعة السوارى أو ذات السوارى ، لكثرة سوارى السفن التى اشتركت فى المعركة ، حتى قيل إنه اشترك فيها ألف سفينة ، منها مائتان للمسلمين .

وقد دارت هذه الموقعة بالقرب من الساحل الإفريقى فى الفرضة المسماة فرضة « زيوارة » . وساعدت السفن التى استولى عليها العرب فى هذه الموقعة على إنشاء أسطول مصرى كان له أثر كبير فى المواقع البحرية التى دارت بين

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٣١ — ٢٣٤ . الكندى : كتاب الولاة ص ٩ — ١٢ .

(٢) العقد الفريد جـ ٢ ص ٣٧٥ — ٣٨٦ . وقد قيل إنه أول من خطب إلى جانب المنبر .

(٣) فتوح البلدان ص ٢٤٥ — ٢٤٦ . (٤) كتاب الولاة ص ١٢ — ١٣ .

(٤) Hist. of Egypt in the Middle Ages, pp. 20-21

المسلمين والبيزنطيين فى أيام الأمويين[١] .

٤ — صفات عثمان :

كان عثمان تقياً ورعا يصوم الدهر كما تقدم ، ويحج بيت الله كل عام . وعن عائشة أنها قالت لما بلغها قتل عثمان : « قتلوه وإنه والله لأوصلهم للرحم وأتقاهم للرب . ثم هو أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الستة الذين توفى رسول الله وهو عنهم راض[٢] » . وقد وصف عبد الله بن العباس عثمان فقال . « رحم الله أبا عمرو ، كان والله أكرم الحفدة وأفضل البررة ، هجادا بالأسحار كثير الدموع عند ذكر النار ، نهاضا عند كل مكرمة ، سباقا عند كل منحه ، حييا أبيا وفيا ، صاحب جيش العُسرة ، وخَتن رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، فأعقب الله على من يلعنه لعنة اللاعنين إلى يوم الدين » .

وكان عثمان طيب النفس ، نقى السريرة ، حليما متواضعاً ، رفيقاً بالناس . يقول المسعودى : « كان عثمان فى نهاية الجود والكرم والسماحة والبذل فى القريب والبعيد ، فسلك عماله وكثير من أهل عصره طريقته وتأسوا به (اقتدوا) فى فعله » . وهو الذى جهز جيش العسرة بالمال والإبل والأفراس . واشترى بئر رومة وزاد فى مسجد الرسول ، وعوض الناس عن أرضهم التى أدخلها فى المسجد من ماله الخاص .

وكانت الخصلة التى ميزه بها النبى فيما روى المحدثون وأصحاب السير صدق الحياء ، وكان النبى يقول : إن الملائكة لتستحي من عثمان ، وكان النبى يلقى أصحابه منفصلا غير متكلف ، فإذا أذن لعثمان احتشم وقال : كيف لا نستحي من رجل تستحي منه الملائكة . وكان النبى يملل احتشامه حين يأذن لعثمان بأنه إن يفعل ، استحيا عثمان أن يثبت بين يديه وأن يبلغه حاجته ويأخذ حظه من التحدث إليه .

وكان عثمان غنياً[٣] ينعم بما ينعم به الأغنياء ، فيسكن فى داره التى بناها فى

---

(١) الكندى كتاب الولاة ص ١٣ .

(٢) ابن حجر : الاصابة ج ٤ ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .

(٣) ذكر المسعودى (مروج ١ : ٤٢٣) عن عبد الله بن عتبة أنه كان عند خازن =

المدينة بالحجر والكلس ، وجعل أبوابها من الساج والعرعر (شجر السرو) . واقتنى الأموال والجنان والعيون بالمدينة وغيرها ، وإذا حج ضرب له الفسطاط بمنى . وكان يأكل ألين الطعام وأطيب أصنافه ، كما روى أنه كان يشد أسنانه بالذهب ويلبس أفخر الثياب .

روى الطبرى (٥ : ٣٦١) عن عمرو بن أمية الضمرى ، قال : وإنى كنت أتعشى من عثمان خزيرا (شبه عصيدة بلحم) من طبخ مطبوخ من أجود ما رأيت ، فيها بطون الغنم وأدمها اللبن والسمن . وعن عبد الله بن عامر قال : كنت أفطر مع عثمان فى رمضان ، فكان يأتينا بطعام هو ألين من طعام عمر ، قد رأيت على مائدة عثمان الدرمك الجيد (نوع من الدقيق) وصغار الضأن كل ليلة . كما روى أن عثمان أول من نخل له الدقيق .

ولكن عثمان كان يحب التوسعة على الناس ، فلم يقتصد فى بذل أعطياتهم ولم يقتصر على إعطائهم الكفاف من العيش كما كان يفعل عمر خشية الفتنة . ولم يرض عثمان أن يأخذ الناس بأكثر مما فرضه الله تعالى عليهم ، فلم يحجر على كبار الصحابة ، ولم يمنعهم من الخروج إلى الولايات ، فالتفت الناس حولهم وافتتنوا بهم ، كما افتتن هؤلاء الصحابة بما رأوه من ألوان النعم ومظاهر الحضارة فى البلاد التى خرجوا إليها ، وهذا ما كان يخشاه عمر حين منعهم من الخروج إلى الولايات .

ولم يحمل عثمان ولاته على التقشف والبعد عن مواطن التهمة والريبة كما فعل عمر ، إذ كان يأخذ على الوالى عهداً ألا يلبس رقيقاً ولا يأكل نقياً ولا يتخذ دون حاجات الناس حجاباً .

غير أن ذلك التساهل من عثمان لم يكن عن تهاون فى حقوق الله وإغضاء عن حرماته ، فكثيراً ما كان يحث الناس على التمسك بالدين ويأخذهم بالمحافظة عليه ويضرب على أيدى المستهترين حتى كرهوه « واستطالوا عمره » . من ذلك أنه عين رجلا من بنى ليث ، وكلفه مراقبة من يطيرون الحمام على الجلاهقات[1] حتى

= عثمان يوم قتل من المال خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم وقيمة ضياعه بوادى القرى وحنين وغيرها ١٠٠٠٠٠ دينار ، وخلف خيلا كثيراً وإبلا .

(١) الجلاهق : البندق الذى يرمى به فى الصيد .

قضى عليها ، وأرسل طائفاً بالعصا يمنع الذين اعتادوا السكر ، فاشتد فى مهمته وجلد كل من وقع فى يده . وهدد عثمان بالنفى عن المدينة كل من عكف على البدع ، وخطب الناس خطبة حثهم فيها على العدول عن تلك الأحداث حتى لايكونوا قدوة سيئة لغيرهم من أهل الأمصار الأخرى . ثم حظر عليهم التوسط أو الاستشفاع عنده لمن يوقع عليه عقوبة من العقوبات ، ولم يعف عنه واحد ممن كانوا يقترفون هذه الآثام ، فضج الناس من الجلد والنفى .

واتبع عثمان سياسة عمر فى الاستفسار عن الولاة من الوفود وسؤال الرعية عن أمرائها . غير أن ذلك أدى إلى عكس ما كان يرجو ، إذ كثر الدس على هؤلاء الولاة ، واتخذ المغرضون من ذلك سبيلا للحط من شأنهم ، كما كان بعض الولاة يدس إلى الخليفة من يمدحونه عنده[1] .

ومما يؤخذ على عثمان أنه كان سريع التأثر بأحاديث الناس ، زمامه بيد أقاربه ولاسيما مروان بن الحكم .

وقد وصف سيد أمير على عثمان بن عفان فقال : «كان عثمان شيخاً كبيراً ضعيف الإرادة . فلم يستطع الاضطلاع بأعباء الحكم رغم نزاهته وفضائله الكثيرة[2] . وقد أثار بسياسة الضعف التى سار عليها وانحيازه إلى ذوى قرباه ومحاباتهم ، كراهة أهل المدينة وكثيرين من أهالى الأمصار الإسلامية ، فقام المسلمون بهذه الفتنة التى انتهت بقتله فى أواخر سنة ٣٥ هـ على ما سيأتى فى الباب السادس .

على بن أبى طالب
(٣٥—٤٠/٦٥٦—٦٦١)

١ — على منذ أن ولد إلى أن ولي الخلافة :

ولد على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى ابن كلاب القرشى بمكة قبل البعثة بعشر سنين ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم ابن عبد مناف ، وقد أسلمت وهاجرت مع الرسول ، وكانت من السابقات إلى الإسلام[3] .

(١) الطبرى ج ٥ ص ١٢٢ . (٢) A Short Hist. of the Saracnes. p.46-
(٣) ابن أبى الحديد : شرح نهج البلاغة ج ١ ص ٥ .

كان أبو طالب كثير العيال ، فلما أصاب مكة جدب سأل الرسول عمه العباس أن يخفف عن أبى طالب مشقة العيش بأن يعول بعض ولده ، وذهب الرسول والعباس إلى أبى طالب وعرضا عليه المساعدة فقبل ، فضم العباس إليه جعفراً وضم الرسول علياً . ولما بعث الرسول كان على أول من آمن به من الصبيان ، ولما يناهز الثالثة عشرة . وقد قيل إن الرسول لما دعا العرب إلى دينه الجديد وأحجم القوم عن مناصرته صاح على فى حماسة الصبى قائلا : « أنا يانبى الله أكون وزيرك عليه » .

بات على فى موضع الرسول فى الليلة التى هاجر فيها من مكة إلى يثرب(١) . ثم هاجر بعد أن أدى الودائع التى كانت عند الرسول لأهلها . وقد زوجه الرسول من ابنته فاطمة فى السنة الثانية للهجرة ، فأعقب منها الحسن والحسين . واشترك فى جميع الغزوات عدا غزوة تبوك ، فإن الرسول خلفه على المدينة . وقد روى كثيراً عن الرسول ، كما روى عنه من الصحابة ولداه الحسن والحسين وعبد الله ابن مسعود وعبد الله بن العباس وأبو موسى الأشعرى وعبد الله بن عمرو وأبو سعيد الخدرى وصهيب ومروان بن الحكم ، واشتهر على بالفروسية والإقدام .

ولما توفى الرسول اشتغل على بتجهيزه ودفنه ، واشترك معه العباس ابن عبد المطلب والفضل وقثم بن العباس وأسامة بن زيد(٢) . وكان على يرى أنه أحق المسلمين بالخلافة بعد الرسول ، لما له من السابقة فى الإسلام ، ولأنه أقرب الناس إلى الرسول نسباً وصهراً . فلما آلت الخلافة إلى أبى بكر لم يبايعه على أول الأمر .

وكان أبو بكر يستشير عليا فى مهام الأمور ، وكان عمر لا يعمل عملا إلا بمشورته لما يعهده فيه من الفقه والدين والذكاء ، وكان من أهل الشورى الستة الذين رشحهم عمر للخلافة . وقد عرض عبد الرحمن بن عوف الخلافة على علىّ ، وشرط عليه شروطاً امتنع عن بعضها فعدل عنه إلى عثمان(٣) ، فقبلها فولاه ، فبايعه على . وكان على يظن أن الخلافة ستؤول إليه ، فلما آلت إلى عثمان بايعه على ولازمه ،

---

(١) راجع ابن أبى الحديد ج ٣ ص ٢٥٦ — ٢٥٨ .

(٢) الطبرى ج ٣ ص ١٤٣ ، ٢٦٢ .

(٣) ابن حجر : الإصابة ج ٤ ص ٢٦٩ .

ولكن محاباة عثمان ذوى قرباه غيرت رأى على فيه ، ففطن الناس أن العلاقة قد توترت بينهما[١] .

٢ — بيعة على — سياسته :

ولم يكن انتخاب على على الصورة التى تم بها انتخاب من سبقه من الخلفاء. فقد انتخب أبو بكر عن رضا من الصحابة الذين اجتمعوا بالمدينة ،وإن كانوا قد اختلفوا بعض الاختلاف فى بادىء الأمر . وبعد وفاة أبى بكر لم يكن ثمة اختلاف فى الرأى ، لأنه كان قد عهد إلى عمر ، فرأى المسلمون وجوب طاعته . ولما توفى عمر انتخب عثمان بمقتضى قانون الشورى الذى سنه عمر .

أما عند موت عثمان فقد مال بعض الثوار إلى تولية على ، وعلى رأسهم ابن سبأ . وكان أكثر الصحابة متفرقين فى الأمصار ،ولم يكن بالمدينة منهم سوى عدد قليل وعلى رأسهم طلحة والزبير . وقد تردد بعض الصحابة فى بيعة على . كسعد ابن أبى وقاص وعبد الله بن عمر، وتخلف بعض الأنصار كحسان بن ثابت ومسلمة ابن مخلد وأبى سعيد الخدرى ، إذ كانوا يميلون إلى عثمان ، وهرب بعض إلى الشام كالمغيرة بن شعبة . وتمت بيعة على بالأغلبية على الرغم من تخلف بعض الصحابة الذين كانوا بالمدينة ، وتخلف بنى أمية ولحق بعضهم بالشام وبعض آخر بمكة[٢]. قال صاحب العقد الفريد (ج ٢ ص ٩٣) : لما قتل عثمان بن عفان أقبل الناس يهرعون إلى على بن أبى طالب ، فتراكمت عليه الجماعة فى البيعة فقال : ليس ذلك الحكم ، إنما ذلك لأهل بدر : أين طلحة والزبير وسعد ؟ فأقبلوا فبايعوا ،ثم بايعه المهاجرون والأنصار ، ثم بايعه الناس ، وذلك يوم الجمعة لثلاث عشرة خلت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين ، وكان أول من بايعه طلحة .

بادر على ، لما عرف عنه من الشدة فى الحق وعدم الهوادة فيه،بعزل الولاة الذين ولاهم عثمان والذين كانوا مثار الفتنة وسبب خروج الثوار عليه ، ولم يصغ لنصيحة بعض الصحابة له بإبقائهم حتى تهدأ الحالة وتستقر الأمور فى نصابها . كما استفتح ولايته باسترداد الإقطاعيات التى كان عثمان قد منحها بعض بطانته

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢٠٤ . ابن أبى الحديد ج ٣ ص ١٩٢ .

(٢) الدينورى : الأخبار الطوال ص ١٤٠ .

والمقربين من أهل بيته إلى بيت المال ، واتبع فى توزيع الأرزاق القواعد التى سنها عمر .

وقد أثار هذا العمل سخط أولئك الولاة الذين أثروا فى عهد عثمان . وأبى معاوية بن أبى سفيان ، الذى مكنته ثروة بلاد الشام من تكوين حزب قوى ، الإذعان لأمر على ونشر لواء الثورة والعصيان ، وطالب علياً الذين لم يدخلوا فى طاعته بأن يأخذ بثأر عثمان فيتتبع قتلته ويقتلهم . لكنه رأى أن يدخلوا فى الطاعة ثم يتقدم إليه ولى دمه أولا ، فيتبع معه ما يوجبه الشرع ، إذ كان يرى أن القصاص من غير دعوى ولا إقامة بينة مخالف لكتاب الله .

ومن ثم قامت موقعة الجمل بين جند على من ناحية وبين بنى أمية وعائشة وطلحة والزبير من ناحية أخرى . ثم دارت بين جند على ومعاوية موقعة صفين التى أعقبها التحكيم وما اقترن به من انقسام جند على على أنفسهم وظهور الخوارج واستيلاء معاوية على مصر .

ذلك أن على بن أبى طالب لما بلغه أن معاوية قد استعد للقتال ومعه أهل الشام . سار فى شهر شعبان من سنة ٣٦ هـ — وكان قد أوقع برجال طلحة والزبير وعائشة فى يوم الجمل — إلى صفين . وهنا اجتمع الجيشان على الموادعة إلى آخر المحرم سنة ٣٧ هـ . ولما لم يتم الاتفاق بينهما دارت رحى الحرب من جديد [1] ، وأشرف على على النصر لولا ما ابتكره معاوية وعمرو بن العاص من ضروب الحيل التى أدت إلى انقسام جند على ، وعقد التحكيم فى شهر رمضان من هذه السنة ، وازداد أمر معاوية بقوة جيشه وتخاذل الناس عن على واعتزالهم إياه . وكان من أثر تلك القوة المتحدة التى كانت بزعامة معاوية أن تمكن من سلخ ما كان تحت سلطان على شيئاً فشيئاً .

كانت مصر إحدى الولايات التى سلخها معاوية من على ، ذلك أنه بعد أن قتل عثمان عاد وفد مصر من أنصار ابن سبأ إلى بلادهم . فلما دخلوا الفسطاط ارتجز رجل منهم يفتخر بما أوتوا من نصر وما أصابوا من بلاء ، وما كان لهم

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج ١ ص ١٧٢ .

من أثر فى الفتنة التى انتهت بقتل عثمان ، وبما أجمعوا رأيهم عليه إذا حاد الخليفة الجديد عن السبيل فقال :

خذها إليك واحذرن أبا حسنْ   إنما نمر الحرب إمرار الرسن (١)
بالسيف كى تخمد نيران الفتن

على أن قتل عثمان لم يرض شيعته فى مصر ، بل أغضبهم وأثار حفيظتهم ، فصمموا على أن يثأروا لقتله وأن يطلبوا بدمه ، وبايعوا معاوية بن حديج (٢) الذى سار بهم إلى الصعيد ، فبعث إليهم محمد بن أبى حذيفة جيشاً ، والتقى الجمعان بدقناس من كورة البهنسا ، فهزم أصحاب ابن أبى حذيفة ، ومضى ابن حديج إلى برقة ثم عاد إلى الإسكندرية .

هذا ما رواه الكندى (٣) ومن أخذ عنه كالمقريزى (٤) . وإنا لاندرى لماذا واصل معاوية بن حديج السير حتى وصل إلى برقة ثم عاد إلى الإسكندرية، وهل كان يرمى إلى الاستيلاء عليها فتم له ذلك؟ أم أنه لم يظفر بشىء فاضطر إلى الرجوع ؟ ومع كل فقد ذكر هؤلاء المؤرخون ما كان من الحوادث بين شيعة عثمان وشيعة علىّ على ما ذكرناه . وزاد الكندى أن ابن أبى حذيفة لما علم بوصول العدو إلى الإسكندرية جمع جيشاً آخر (رمضان سنة ٣٦ هـ) . وفى مدينة خربتا فى كورة الحوف شرقى الدلتا ،التقى الجيشان فدارت الدائرة أيضاً على أنصار ابن أبى حذيفة وقتل قائدهم فى الحرب .

وهناك عامل آخر خارجى كان ينازع سلطان العلويين فى مصر ، هو حزب الأمويين فى الشام وعلى رأسه معاوية بن أبى سفيان الذى أخذ يعمل على سلخ مصر من على كما تقدم . سار معاوية إلى هذه البلاد ونزل بسلمنت من كورة عين شمس (شوال سنة ٣٦ هـ) . فخرج إليه ابن أبى حذيفة وأنصاره ليمنعوه ، فبعث إليه معاوية يخبره أنه لا يريد قتالا ، بل يريد منه أن يدفع إليه رءوس قتلة

(١) الرسن : حبل يربط به رأس الدابة مع أنفها :

(٢) وهو الذى قتل محمد بن أبى بكر بأمر عمرو بن العاص ، وغزا إفريقية ثلاث مرات فأصيبت عينه فى إحداهن. قيل أيضاً إنه غزا النوبة مع عبد الله بن سعد بن أبى سرح فأصيبت عينه هناك .

(٣) كتاب الولاة ص ١٨ — ٢٠ .   (٤) خطط جـ ٢ ص ٣٣٥ — ٣٣٦ .

عثمان، فأبى ذلك عليه . فبعث معاوية يطلب تبادل الرهائن والودائع كى يضمنوا جميعاً أن يكف الفريقان عن الحرب ، فقبل ابن أبى حذيفة .

ولعل ابن أبى حذيفة لم يفطن إلى ما كان يرمى إليه معاوية ،وأن هذا الطلب لم يكن فى حقيقة الأمر إلا مكيدة حاك شركها دهاؤه ، فاستخلف على مصر رجلا من أنصاره ، هو الحكم بن أبى الصلت ، وخرج فى الرهن هو وغيره من قتلة عثمان . وفى لد من أرض فلسطين حبسهم معاوية وسار إلى دمشق ، فهربوا من سجنهم إلا واحداً منهم أبى الفرار ، فتتبعهم عامل معاوية وقتلهم وقتل معهم محمد بن أبى حذيفة (ذو الحجة سنة ٣٦ هـ) .

ونحن نستبعد أن يقبل ابن أبى حذيفة طلب معاوية . يدل على ذلك أن معاوية لما بعث إلى ابن أبى حذيفة يطلب إليه أن يدفع إليه عبد الرحمن بن عديس وكنانة بن بشر — وكانا على رأس قتلة عثمان — امتنع ابن أبى حذيفة وقال له: لو طلبت منا جدياً رطب السرة بعثمان ما دفعناه إليك .

ولما بلغ علياً قتل ابن أبى حذيفة ، ولى مصر قيس بن عبادة الأنصارى ، فدخلها فى شهر ربيع الأول سنة ٣٧ هـ . وكان قيس من أهل الرأى والبأس ، استمال إليه العثمانية المقيمين بخربتا وأحسن إليهم . وكان أهل مصر ، إلا هؤلاء (وكانوا زهاء عشرة آلاف) مع على بن أبى طالب . وقد حاول معاوية وعمرو ابن العاص التغلب على مصر ، فامتنع قيس على معاوية . فلم يكن بد إذن من إعمال الحيلة لإخراجه ، فأذاع معاوية أن قيساً من شيعة عثمان وأن كتبه تأتيه . فلما سمع على أمر قيساً بمحاربة العثمانيين بخربتا ،فأجابه بأنه أمنهم على أنفسهم ليأمن جانبهم، لأن فيهم كثيرين من وجوه أهل مصر وأشرافهم، فعزله على وولى مكانه الأشتر بن مالك لأنه ثقل عليه فأبعده عنه [1] .

على أن والى مصر الجديد لم يكد يصل إلى القلزم (وهى مدينة السويس الحالية) حتى شرب شربة من العسل ، لا يبعد أن يكون قد دس له السم فيها ، فمات ، فولى على بن أبى طالب بعده محمد بن أبى بكر الذى دخل مصر فى منتصف شهر رمضان سنة ٣٧ هـ . فأظهر الخيلاء وأساء إلى العثمانية وبعث إلى زعيمهم

(١) الكندى : كتاب الولاة ص ١٩ — ٢٢ .

معاوية بن حديج يدعوه إلى بيعة على ، فلم يجبه إلى طلبه ، فهدم دورهم ونهب أموالهم وآذى أولادهم وحبسهم فعولوا على حربه . ولكن ابن أبى بكر رأى أن يتلافى ما قد يجره الاشتباك معهم فى حرب ، فصالحهم ثم سيرهم إلى معاوية ، فظلوا هناك حتى انتهت موقعة صفين وعقد التحكيم .

ولم يكن معاوية بالذى يفتر عن استخلاص مصر وانتزاعها من على ، فسار عمرو على رأس جيش من أهل الشام ، وحمى وطيس القتال بين الفريقين ، ودخل عمرو الفسطاط واختفى محمد بن أبى بكر ، فبعث معاوية بن حديج عدوه القديم العيون حتى اهتدوا إلى مكانه : فقتله ابن حديج ثم جعله فى جيفة حمار وأحرقه بالنار (صفر ٣٨ ﻫ) .

ظلت ولاية عمرو بن العاص الثانية على مصر زهاء خمس سنين (٣٨—٤٣ﻫ) ، حيث ولاه معاوية إياها ولاية مطلقة وجعلها له طعمة بعد النفقة على جندها وما تحتاج إليه من ضروب الإصلاح ، وما بقى فهو له .

كان عمرو يشرف على القضاء والخراج والجند والشرطة ، فنظم القضاء على وفق أحكام الشريعة الإسلامية ، وقسم البلاد كوراً ، أى مديريات ، وأقام على كل منها قاضياً قبطياً يفصل فى النزاع الدينى والمدنى لغير المسلمين على وفق شرائعهم ، ونظم الخراج ، وكان يأتى من ناحيتين .

الأولى — الضريبة الشخصية ، وهى جزية الرءوس التى فرضت على أهل الذمة .

الثانية — ضريبة الأطيان ، وقد راعى عمرو فى جبايتها حالة النيل من حيث زيادته ونقصانه .

وقد تحبب عمرو إلى القبط وأطلق لهم حرية الدين ، وأقام العدل بينهم ، فتمتعوا بالهدوء والطمأنينة . وتجلت مقدرته فى الحرب والسياسة . ولا عجب فقد ملأ اسم عمرو كل مكان لانفراده بتلك المأثرة الخالدة وهى فتح مصر ونشر الإسلام فيها . ولم يكن عمرو تاجراً فحسب ، بل كان شاعراً يجيد الشعر ، وسياسياً عبقرياً ، وقائداً فذاً . وقد اشتهر بالفصاحة حتى كان عمر بن الخطاب يقول إذا رأى رجلا يتعلثم فى كلامه : خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد .

وقد عرف عمرو بالحكمة البليغة ، وله قوال مأثورة جرت مجرى المثل . من ذلك قوله : ليس العاقل الذى يعرف الخير من الشر ولكنه الذى يعرف خير الشرين ، وقوله : إن الكريم يصول إذا جاع واللئيم يصول إذا شبع .

كان عمرو شخصية فذة جمعت بين العدل والحلم والشجاعة والإقدام وطهارة السريرة ، واحتلت مكانها اللائق بها بين الأبطال وأعلام الإسلام الذين يمجدهم التاريخ ويحفظ لهم أجمل الذكرى وأطيب الأثر .

٤ — صفات علي — وفاته :

اتصف على بن أبى طالب بالخصال الحميدة . فقد نشأ فى بيت رسول الله ، فتأدب بآدابه العالية وتخلق بصفاته الكريمة . وكان أول من أسلم من الصبيان كما تقدم . وقد أحله الرسول من نفسه المحل اللائق به ، فعهد إليه بكثير من أمور المسلمين ، فأبلى فيها بلاء حسناً وأخلص فى نصرة الإسلام ، فعلا أمره ونبه ذكره ، واشتهر بالشجاعة والبطولة . وليس أدل على ذلك من تعرضه للخطر فى الليلة التى هاجر فيها الرسول ، إذ لبس ثوب الرسول وبات فى فراشه ، مع أنه كان يعلم عزم المشركين على قتله فى تلك الليلة ، كما اختاره الرسول فى غزوة خيبر وقال : لأعطين الراية غداً لرجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، فيفتح الله عليه . فلما أصبح الناس دعا علياً ووجهه إلى فتح خيبر .

كما اشتهر على بالمروءة والوفاء واحترام العهود والحرص على مال المسلمين . يدل على ذلك ما نقله الطبرى (ج ٦ ص ٩٠) عن أبى رافع خازن بيت المال فى عهد على قال : دخل على يوماً وقد زينت ابنته ، فرأى عليها لؤلؤة من بيت المال قد كان عرفها فقال : من أين لها هذه ؟ لله على أن أقطع يدها . فلما رأيت جده فى ذلك قلت : أنا يا أمير المؤمنين زينت بها إبنة أخى ، ومن أين كانت تقدر عليها لو لم أعطها ؟ فسكت .

وذكر صاحب الفخرى (ص ٨١) أن عقيل بن أبى طالب أخا على من أبيه وأمه طلب من بيت المال شيئاً لم يكن له حق فيه ، فمنعه على وقال : يا أخى ! ليس لك فى هذا المال غير ما أعطيتك ، ولكن اصبر حتى يجىء مالى وأعطيك ما تريد ، فلم يرض عقيلا هذا الجواب ، ففارق علياً وقصد معاوية بالشام .

وكان على لا يعطى ولديه الحسن والحسين أكثر من حقهما . وكان يرجع إليه في كثير من مسائل الدين وتفسير القرآن ورواية الحديث ومسائل الميراث والمشكل من القضايا : روى أن عمر كان يتعوذ من معضلة ليس لها أبو حسن ويقول : قضية ولا أبا حسن لها . وأبو حسن كنية على بن أبى طالب . وكان على يقول : سلونى سلونى عن كتاب الله تعالى ، فوالله مامن آية إلا وأنا أعلم أنزلت بليل أم نهار فى سهل أم فى جبل .

وكان على مضرب الأمثال فى الفصاحة ، يلقى القول فيأخذ بمجامع القلوب ، ويخطب الخطبة فيثير النفوس ويحمسها للحرب ، كما كان أشعر الخلفاء الراشدين ، أخرج السيوطى[1] عن الشعبى قال : كان أبو بكر يقول الشعر ، وكان عمر يقول الشعر ، وكان عثمان يقول الشعر ، وكان على أشعر الثلاثة .

« كان على — كما يقول نيكلسون[2] — يعوزه حزم الحاكم ودهاؤه ، برغم ما كان يمتاز به من الفضائل الكثيرة . فقد كان نشيطاً ، ذكياً ، بعيد النظر ، بطلا فى الحرب ، مشيراً ، حكيماً ، وفياً ، شريف الخصومة . نبغ فى الشعر والبلاغة ، واشتهرت أشعاره وخطبه فى الشرق الإسلامى ، على الرغم من أن كثيراً منها مدسوس عليه . ويمكن مقارنته بمونت روز[3] وبيار[4] فى شجاعته ونجدته . وكانت تنقصه الحنكة السياسية وعدم التردد فى اختيار الوسائل أياً كانت لتثبيت مركزه . ومن ثم تغلب عليه منافسوه الذين عرفوا أول الأمر أن الحرب خدعة ، والذين كانوا لا يتورعون عن ارتكاب أى جرم يبلغ بهم الغاية ويكفل لهم النصر » .

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٢٢٢ .

(٢) Lit. Hist. of the Arabs, p. 191.

(٣) اشتهر جيمس جراهام مونتروز . James Graham Montrose (١٦١٢ — ١٦٥٠) بالبطولة والشجاعة فى الثورات التى قامت فى اسكتلندة سنة ١٦٢٧ م .

(٤) كان Pierre Terrail Bayard من مشهورى قواد فرنسا ، ولد بمدينة جرينوبل سنة ١٤٦٣ م وأحرز النصر والظفر فى جميع الحروب التى وقعت فى عهد شارل الخامس ولويس الثانى عشر وفرانسوا الأول . وقد أثارت شجاعته وكرمه إعجاب الناس حتى الكثيرين من أعدائه أنفسهم .

وبينما كان على يلقى الشدائد على يد أصحابه الذين تثاقلوا عنه وتسللوا من جيشه ، تمكن معاوية من الاستيلاء على مصر على يد عمرو بن العاص كما تقدم . ولم يكتف معاوية بذلك بل أخذ يدعو إلى نفسه بالخلافة ، وأدرك على هذا الخطر فجمع جيشاً قوامه أربعون ألفاً لقتال معاوية . ولم يكد هذا الجيش يتحرك حتى طعن عبد الرحمن بن ملجم الخارجى علياً بسيف مسموم ، فتوفى فى ١٧ رمضان سنة ٤٠ هـ .

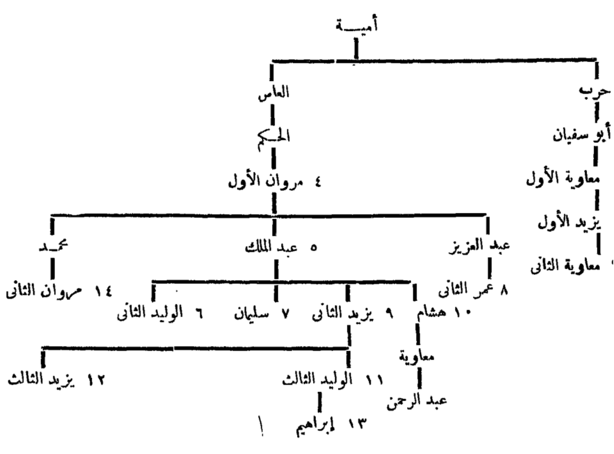
ذلك أن ثلاثة من الخوارج أجمعوا أمرهم على قتل على ومعاوية وعمرو ابن العاص فى يوم واحد ، لترتاح الأمة الإسلامية من تلك الحروب التى نشبت من أجل الخلافة . فأما ابن ملجم فقد قتل علياً كرم الله وجهه . وبوفاته انتهى عهد الخلفاء الراشدين ، ولم يفز الذى ندب نفسه لقتل معاوية بقتله . أما عمرو بن بكر الذى عزم على قتل عمرو بن العاص ، فإنه جلس فى الليلة المتفق عليها ، فلم يخرج عمرو لمرضه ، وندب خارجة بن حذافة قاضى مصر أن يصلى بالناس . وبينما هو فى الصلاة ضربه الخارجى بالسيف فقتله ، وكان يظنه عمراً . فلما علم أن المقتول غير عمرو قال أردت عمراً وأراد الله خارجة ، فذهبت مثلا . ولما وقف الرجل بين يدى عمرو بكى ، فقيل له : أجزعاً من الموت مع هذا الإقدام ؟ قال : لا والله ، ولكن غماً أن يفوز صاحباى بقتل على ومعاوية ولا أفوز أنا بقتل عمرو .

الباب الخامس

الخلفاء الأمويون

(٤١ — ١٣٢ / ٦٦١ — ٧٥٠)

هجرية		ميلادية
٤١	معاوية	٦٦١
٦٠	يزيد الأول	٦٨٠
٦٤	معاوية الثانى	٦٨٣
٦٤	مروان	٦٨٣
٦٥	عبد الملك	٦٨٥
٨٦	الوليد	٧٠٥
٩٦	سليمان	٧١٥
٩٩	عمر بن عبد العزيز	٧١٧
١٠١	يزيد الثانى	٧٢٠
١٠٥	هشام	٧٢٤
١٢٥	الوليد الثانى	٧٤٣
١٢٦	يزيد الثالث	٧٤٤
١٢٦	إبراهيم	٧٤٤
١٢٧	مروان الثانى	٧٤٤
— ١٣٢		— ٧٥٠



(الأمويون فى الأندلس)

١ — معاوية بن أبى سفيان

(٤٠ — ٦٠/٦٦٠ — ٦٨٠)

١ — معاوية منذ ولد إلى أن ولى الخلافة :

ينتسب معاوية بن أبى سفيان بن حرب مؤسس الدولة الأموية التى دان لها المسلمون زهاء ثمانين سنة (٤٠ - ١٣٢ ﻫ) إلى أمية بن عبد شمس بن عبدمناف ابن قصى . وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف(١). كان أمية من سادات قريش فى الجاهلية ، وكان فى الشرف والرفعة كما كان عمه هاشم ابن عبد مناف . لهذا لاعجب إذا تنافس هذان البطنان رياسة قريش مما أدى إلى قيام العداء بينهما فى الجاهلية والإسلام .

(١) وهى أم أخيه عتبة ، وأما يزيد بن أبى سفيان ومحمد بن أبى سفيان وحنظلة بن أبى سفيان وعمرو بن أبى سفيان فمن أمهات أخرى .

كان أمية تاجرا كثير المال والعيال ، فكان له عشرة من الأولاد امتازوا بالشرف والسيادة ، منهم حرب ، وسفيان ، وأبو سفيان . وكان حرب بن أمية قائد قريش يوم الفجار ، كما قاد أبو سفيان قريشاً فى حروبها ضد النبى . وهو صاحب العير القادم من الشام إلى مكة التى وقعت من أجلها غزوة بدر الكبرى. وكان رئيس الجيش النافر وقتئذ لحماية قريش عتبة بن ربيعة بن عبد شمس جد معاوية لأمه ، فكان أبوه صاحب العير وجده صاحب النفير ، وبهما يضرب المثل فيقال للخامل : « لا فى العير ولا النفير »[1] .

ولد معاوية بمكة قبل البعثة بخمس سنين . وأسلم يوم فتح مكة هو وأبوه وأخوه يزيد وأمه هند ، وله من العمر ثلاث وعشرون سنة . واتخذه الرسول كاتبا للوحى . ولما فتحت مكة فى السنة الثامنة من الهجرة أراد أبو سفيان أن يمنع الأذى والمذلة عن قومه ، وأنهى العباس ذلك إلى الرسول ، فأمر مناديا ينادى بمكة : من أغمد سيفه فهو آمن . ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن . وبذلك سوى الرسول بين بيت أبى سفيان وبيت الله ، وهو شرف عظيم لم ينله أحد مثله . فليس من عجب إذا أسلم كثير من بنى أمية وأخذوا يعملون على نشر الإسلام ومد فتوحه .

وقد روى معاوية الحديث عن أبى بكر وعمر وعثمان وأخته أم المؤمنين حبيبة بنت أبى سفيان ، وروى عنه من الصحابة عبد الله بن عباس ، ومعاوية ابن حديج ، وعبد الله بن الزبير ، ومروان بن الحكم ، وسعيد بن المسيب[2]. وقد أبلى بنو أمية فى حرب الردة بلاء حسنا ، وسار بعضهم إلى الشام ، فاشتهر أمرهم وعظم ذكرهم . ومنهم يزيد بن أبى سفيان الذى ولاه أبو بكر قيادة أحد الجيوش الأربعة التى أنفذها لفتح الشام ، وولاه عمر دمشق ، كما ولى أخاه معاوية ما وليها من البلاد الشامية . فلما مات يزيد أضاف عمر إلى معاوية ما كان لأخيه . ولما ولى عثمان الخلافة ولى معاوية الشام كلها ، ثم استقل بهذه البلاد بعد مقتل عثمان . ولما بويع على بالمدينة امتنع معاوية من المبايعة له متهما إياه بالهوادة فى أمر

---

(١) ابن أبى الحديد : شرح نهج البلاغة ج ١ ص ١١٠ .

(٢) ابن حجر : الإصابة ج ٦ ص ١١٣ .

عثمان وإيوائه قتلته فى جيشه وعدم القصاص منهم ، وبايعه أهل الشام على المطالبة بدم عثمان ومحاربة على ، مما أحدث الخلاف والشقاق بين أهل العراق وأهل الشام . وقصارى القول أن بيت عبد شمس انتقل من سيادة فى الجاهلية إلى سيادة فى الإسلام .

نال معاوية الخلافة بحد السيف تارة وبالمكيدة والسياسة تارة أخرى . فقد دعا المسلمون إلى الحسن بن على بعد مقتل أبيه واستخلفوه . إلا أن خلافته لم تثبت أمام قوة معاوية وما كان من رواج الإشاعة بانهزام جيوشه أمام جند الشام مما أدى إلى تخلى أهل العراق عنه ، فلم يجد بدا من النزول عن الخلافة حقنا لدماء المسلمين . على أن الدافع الحقيقى الذى حدا الحسن على النزول ، يرجع — على ماذهب إليه اليعقوبى[1] — إلى أنه قد أصبح لا قبل له بمعاوية وجنده ، فعقد معه صلحاً نزل له فيه عن حقه فى الخلافة ، على أن يكون الأمر بعد معاوية شورى بين المسلمين يولون عليهم من أحبوا : وبذلك أصبح معاوية صاحب السلطان المطلق فى الولايات الإسلامية كافة .

وفى اليوم الخامس والعشرين من شهر ربيع الثانى سنة ٤١ هـ[2] دخل معاوية الكوفة حيث أخذت له البيعة بحضور الحسن والحسين ، واجتمع عليه الناس ، فسمى ذلك العام عام الجماعة ، ثم رحل الحسن إلى المدينة ولزم منزله حتى مات .

يقول نيكلسون[3] : اعتبر المسلمون انتصار بنى أمية وعلى رأسهم معاوية انتصاراً للأرستقراطية الوثنية التى ناصبت الرسول وأصحابه العداء ، والتى جاهدها رسول الله حتى قضى عليها وصبر معه المسلمون على جهادها ومقاومتها حتى نصرهم الله ، فقضوا عليها وأقاموا على أنقاضها دعائم الإسلام ، ذلك الدين السمح الذى جعل الناس سواسية فى السراء والضراء ، وأزال سيادة رهط كانوا يحتقرون الفقراء ويستذلون الضعفاء ويبتزون الأموال ، لذلك لا ندهش إذا

---

(١) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٣٥٤ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦ .

(٣) Nicholson, p. 139.

كره المسلمون بنى أمية وغطرستهم وكبرياءهم وإثارتهم الأحقاد القديمة ، ونزوعهم للروح الجاهلية ، ولاسيما أن جمهور المسلمين كانوا يرون بين الأمويين رجالا كثيرين لم يعتنقوا الإسلام إلا سعياً وراء مصالحهم الشخصية . ولا غرو فقد كان معاوية يرمى إلى جعل الخلافة ملكا كسرويا . وليس أدل على ذلك من قوله : « أنا أول الملوك »[1] .

١ — الفتوح فى عهد معاوية : غزا عبد الله بن سوار ، وكان أميراً على ثغر السند ، القيقان ، وهى بلاد السند مما يلى خراسان ، مرتين ، ولكنه قتل فى المرة الثانية . ثم غزا المهلب بن أبى صفرة هذه البلاد حتى وصل إلى لاهور[2] . وقد توجهت همة المسلمين نحو الشمال والغرب حيث الدولة الرومانية الشرقية التى كانت تغير على البلاد الإسلامية القريبة منها : فرتب معاوية الغزو إليها براً وبحراً ، وبلغ أسطول الشام فى عهده ١٧٠٠ سفينة فتح بها عدة جهات كجزيرة رودس وبعض الجزائر اليونانية . أما فى البر فقد رتب معاوية الشواتى والصوائف وهى الجيوش التى كانت تغزو هذه البلاد فى الشتاء والصيف .

وفى سنة ٤٢ هـ . ولى معاوية قيس بن الهيثم بلاد خراسان ، وكان أهل بدغيس وهراة وبلخ قد نقضوا عهد الصلح ، فصار قيس إلى بلخ فخرب معبدها (ويدعى نوبهار) ، وطلب أهلها الصلح فأجابهم . ولما علم أهل بدغيس وهراة وبوشنج بما حل بأهل بلخ ، طلبوا الصلح والأمان من عبد الله بن حازم الذى حمل الأموال إلى عبد الله بن عامر بالبصرة .

ولما تولى زياد بن أبيه البصرة سنة ٤٥ هـ ، ولى أمير بن أحمد مرو ، وولى خليد بن عبد الله الحنفى أبرشهر ، وقيس بن الهيثم مرو الروذ والطالقان والفارياب ، ونافع بن خالد الطاحى من الأزدهراة وبادغيس وبوشنج وقادس ، والحكم بن عمرو الغفارى خراسان ثم خلفه عليها الربيع بن زياد الحارثى .

ولما توفى زياد بن أبيه ولى معاوية ابنه عبيد الله بن زياد خراسان . وكان فى

---

(١) تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ٢٧٦ :

(٢) البلاذرى : فتوح البلدن ص٤٣٨ — ٤٣٩ .

الخامسة والعشرين من عمره ، فبلغ بيكَنْد ، وأرغم خاتون أميرة بخارى[1] على طلب الصلح ؛ فاستنجدت بالترك ، فأرسلوا إليها جيشاً أحل به المسلمون الهزيمة وأرغمت خاتون على طلب الصلح والأمان ، ودخل جيش المسلمين بيكند . على أن خاتون نقضت العهد وأبطلت الإتاوة ، ولكنها لم تلبث أن حملت على دفعها . ودخل المسلمون بخارى بقيادة سعيد بن عثمان الذى خلف عبيد الله بن زياد على ولاية خراسان . ثم دخل المسلمون سمرقند بعد قتال عنيف[2] .

وفى سنة ٤٨ هـ جهز معاوية جيشاً لفتح القسطنطينية براً وبحراً . وكان هذا الجيش بقيادة سفيان بن عوف ، وخرج معه عبد الله بن عباس ، وعبد الله ابن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وأبو أيوب الأنصارى ؛ وأمر معاوية ابنه يزيد على الجيش ، فساروا حتى بلغوا القسطنطينية ، فاقتتل المسلمون والروم . ولم يستطع جيش العرب فتح القسطنطينية لمتانة أسوارها ومنعة موقعها وفتك النار الإغريقية بسفن المسلمين . وفى أثناء الحصار قتل أبو أيوب الأنصارى ، فدفن خارج القسطنطينية بالقرب من سورها ، ثم اضطر المسلمون للعودة إلى الشام بعد أن فقدوا كثيراً من جندهم وسفنهم .

وفى سنة ٥٠ هـ أرسل معاوية إلى عقبة بن نافع ، وكان يقيم ببرقة وزويلة منذ أيام عمرو بن العاص ، عشرة آلاف جندى ، فدخل إفريقية وتمكن من فتحها وأسلم على يديه كثير من البربر . وقد عمل العرب على إدخالهم فى جيوشهم ، وبذلك تسنى لهم أن يجذبوهم إلى الإسلام حتى وصل إلى بلاد السودان . وقد كون البربر نواة الجيوش التى أتمت فتح بلاد المغرب تحت قيادة قواد من العرب بل من البربر أيضاً . وبذلك أصبح عقبة بن نافع والياً على إفريقية بعد أن كانت تابعة لوالى مصر .

وقد رأى عقبة على أثر انتصاره على البربر أن يتخذ مدينة يقيم بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا ثورة أهل البلاد . فقصد موضع القيروان ، وأمر

---

(١) هى زوجة أمير بخارى المتوفى ، وقد أصبحت وصية على ابنها الصغير ، وخاتون معناه السيدة بلغة أهل الصغانيان .

Gibb, The Arab Conquests in Central Asia p. 16.

(٢) Ibid. pp. 16—17 البلاذرى ص ٤١٧ — ٤١٨ .

ببناء هذه المدينة وبنى بها المسجد الجامع ، ولم يلبث أن عزل عقبة وولى مكانه أبو المهاجر مولى مسلمة بن مخلد الذى ولاه معاوية مصر وإفريقية(١) .

٣ — *تولية يزيد العهد* : كان المغيرة بن شعبة أول من أشار على معاوية بولاية ابنه يزيد العهد ، وذلك أن معاوية أراد فى سنة ٤٩ هـ أن يعزل المغيرة على الكوفة ويستعمل عليها سعيد بن العاص . فبلغ الخبر المغيرة ، فذهب إلى الشام وقابل يزيد بن معاوية وقال له : « إنه قد ذهب أعيان أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وآله وكبراء قريش وذوو أسنانهم . وإنما بقى أبناؤهم ، وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأياً وأعلمهم بالسنة والسياسة . ولا أدرى ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة . قال أو ترى ذلك يتم ؟ قال : نعم » .

ولما اختمرت هذه الفكرة عند يزيد أعلم أباه بها ، فأحضر معاوية المغيرة وسأله عن هذا الأمر ، فقال له : ما يقول يزيد ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان وفى يزيد منك خلف ، فاعقد له . فإن حدث بك حادث كان كهفاً للناس وخلفاً منك ، ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة : قال : ومن لى بهذا ؟ قال أ كفيك أهل الكوفة ، ويكفيك زياد أهل البصرة ، وليس بعد هذين المصريين أحد يخالفك .

رد معاوية المغيرة إلى الكوفة وعدل عن عزله وطلب منه أن يمهد البيعة ليزيد ، فعاد إلى الكوفة وحبب الناس إلى هذا الأمر ، فبايع أنصار الأمويين يزيد ؛ ثم أوفد المغيرة عشرة منهم إلى معاوية فزينوا له البيعة ليزيد وطلبوا منه أن يعهد إليه . وبذلك قوى عزم معاوية على البيعة لابنه ، فأرسل إلى زياد بن أبيه فنصح لمعاوية أن يتريث هذا الأمر لعدم توافر شروط الخلافة فى يزيد وقال : « ويزيد صاحب رسلة وتهاون مع ما قد أولع به من الصيد » . وعاد الرسول إلى دمشق وأخبر يزيد برأى زياد فيه ، فكف عن كثير مما كان يصنع ، وكتب زياد إلى معاوية يشير إليه بالتأنى فى هذا الأمر ، فعمل معاوية بمشورة زياد .

فلما مات زياد أرسل معاوية إلى مروان بن الحكم عامله على المدينة يقول : « إنى قد كبرت سنى ودق عظمى وخشيت الاختلاف على الأمة من بعدى ،

(١) اليعقوبى : كتاب البلدان (طبعه دى غويه) ص ٣٤٧ — ٣٤٨ .

وقد رأيت أن أتخير لهم من يقوم بعدى ، وكرهت أن أقطع أمراً دون مشورة من عندك ، فاعرض ذلك عليهم وأعلمنى بالذى يردون عليك » .

عرض مروان الأمر على الناس فوافقوا ، فأخبر معاوية بموافقتهم . ثم أرسل معاوية إلى مروان كتاباً يقول فيه إنه عول على أخذ البيعة لابنه يزيد ، فقرأه على الناس فى المسجد ، فهاج القوم وماجوا فقال عبد الرحمن بن أبى بكر : « ما الخيار أردتم لأمة محمد ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية ، كلما مات هرقل ، قام هرقل » ، وقام الحسين بن على فأنكر ذلك ، وفعل مثله عبد الله ابن الزبير[1] .

ومن ثم ظهر حزب المعارضة الذى أنكر البيعة ليزيد ، وعلى رأسه عبد الرحمن بن أبى بكر ، والحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير . على أن معاوية، لم يأبه لهذه المعارضة وكتب إلى عماله أن تمهدوا لبيعة يزيد فى الأمصار ، وأن يرسلوا إليه الوفود بدمشق لإعلان رضاهم عن تلك البيعة . وقد تكلم الضحاك ابن قيس الفهرى فى هذه الوفود ودعا لبيعة يزيد . وتحققت بذلك سياسة معاوية . فأعلن البيعة لابنه بعد أن خطبهم معاوية والضحاك بن قيس وغيرهما فى تعظيم الإسلام وحرمة الخلافة ، وفضل يزيد وعلمه بالسياسة وما يترتب على بيعته من جمع كلمة المسلمين .

ويظهر أن كثيراً من هؤلاء القوم لم يرضوا عن هذه السياسة . فقد انبرى له رجل عرف بالصراحة ، لا يخشى فى الحق لومة لائم ، هو الأحنف بن قيس فقال : « نخافكم إن صدقنا ، ونخاف الله إن كذبنا . وأنت يا أمير المؤمنين أعلم بيزيد فى ليله ونهاره وسره وعلانيته ومدخله ومخرجه ، فإن كنت تعلمه لله تعالى وللأمة رضا فلا تشاور فيه ، وإن كنت تعلم فيه غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة ، وإنما علينا أن نقول سمعنا وأطعنا » .

على أن معاوية استعمل كل أنواع الحيل والدهاء ، فكان « يعطى المقارب ويدارى المباعد ويلطف به حتى استوثق أكثر الناس » وبايعوا ابنه يزيد . فلما تمت بيعة أهل الشام والعراق ، ذهب إلى المدينة لأخذ البيعة لابنه ، فقابله

---

(١) ابن الأثير ج ٣ ص ٢١٤ ، ٢١٥ — ٢١٦ .

الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر . فأساء لقاءهم . ثم دخل على عائشة أم المؤمنين فشكاهم إليها وهدد بقتلهم إن لم يجيبوه إلى بيعة يزيد ؛ فنصحت له أن يرفق بهم ويحسن معاملتهم . ثم عاد إلى المدينة ولقى عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير والحسين بن علي ، وأغدق عليهم الهبات ، وتكلم معهم في شأن البيعة ، فقال ابن الزبير : « نخيرك بين ثلاث خصال . فقال : أعرضهن . قال : تصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو كما صنع أبو بكر ، أو كما صنع عمر ، قال معاوية ما صنعوا ؟ قال : قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يستخلف أحداً فارتضى الناس أبا بكر . قال : ليس فيكم مثل أبي بكر وأخاف الاختلاف ، قالوا : صدقت فاصنع كما صنع أبو بكر فإنه عهد إلى رجل من قاصية قريش ليس من بني أبيه فاستخلفه ، وإن شئت فاصنع كما صنع عمر ، جعل الأمر شورى في ستة نفر ليس فيهم نفر من ولده ولا من بني أبيه . قال معاوية : هل عندك غير هذا ؟ قال : لا . ثم قال : فأنتم ؟ قالوا : قولنا قوله . قال : فإني قد أحببت أن أتقدم إليكم أنه قد أعذر من أنذر ، إني كنت أخطب فيكم ، فيقوم إلى القائم منكم فيكذبني على رءوس الناس . فأحمل ذلك وأصفح . وإني قائم بمقالة ! فأقسم بالله لئن رد على أحدكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه ، فلا يبقين رجل إلى على نفسه . ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم ، فقال : أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ومع كل واحد سيف ، فإن ذهب رجل منهم يرد على كلمة تصديق أو تكذيب ، فليضرباه بسيفيهما . ثم خرج وخرجوا معه حتى رقى المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم ، لا يبتز أمر دونهم ولا يقضى إلا عن مشورتهم . وأنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد . فبايعوا على اسم الله ، فبايع الناس وكانوا يتربصون بيعة هؤلاء النفر . ثم انصرف إلى المدينة ، فلقى الناس أولئك النفر فقالوا لهم : زعمتم أنكم لا تبايعون ، فلم رضيتم وأعطيتم وبايعتم ؟ قالوا : والله ما فعلنا ، فقالوا : ما منعكم أن تردوا على الرجل ؟ قالوا : كادنا وخفنا القتل »[1]

(١) ابن الأثير ج ٢ ص ٢١٦ — ٢١٧ — ٢١٨ .

هكذا بايع الناس يزيد عدا هؤلاء النفر ، فقسا معاوية عليهم ، وخالف شروط الخلافة ، وانتقل بها من خلافة إسلامية شورية إلى ملكية وراثية .

٤ — صفات معاوية — وفاته :

كان معاوية داهية من دهاة العرب ومن أوفرهم حظاً فى السياسة ، يقول صاحب الفخرى (ص ٩٩ — ١٠٠) : كان معاوية عاقلا فى دنياه ، لبيباً عالماً ، حليما ، ملكا قوياً ، جيد السياسة حسن التدبير لأمور الدنيا ، عاقلا حكيما فصيحاً بليغاً ، يحلم فى موضع الحلم ويشتد فى موضع الشدة ، إلا أن الحلم كان أغلب عليه . وكان كريماً باذلا للمال محباً للرياسة شغوفاً بها . كان يفضل على أشراف رعيته كثيراً ، فلا يزال أشراف قريش — مثل عبد الله بن العباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن جعفر الطيار وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن ابن أبى بكر وأبان بن عثمان بن عفان وناس من آل أبى طالب رضى الله عنهم — يفدون عليه بدمشق ، فيكرم مثواهم ويحسن قراهم ويقضى حوائجهم ، ولا يزالون يحدثونه أغلظ الحديث ويجبهونه أقبح الجبه ، وهو يداعبهم تارة ويتغافل عنهم أخرى ولا يعيدهم إلا بالجوائز السنية والصلات الجمة . قال يوماً لقيس بن سعد بن عبادة رضى الله عنه ، وهو رجل من الأنصار : ياقيس ! والله ما كنت أود أن تنكشف الحروب التى كانت بينى وبين على عليه السلام وأنت حى » . فقال قيس : » والله إن كنت أكره أن ينكشف هذه الحروب وأنت أمير المؤمنين » ، فلم يقل له شيئاً ، وهذا من أجمل ما كانوا يخاطبون به » .

وقد وصف نيكلسون (١) معاوية فقال : « كان معاوية سياسياً محنكا لا يقل فى مضمار السياسة عن ريشيليو . فقد مكنته معرفته التامة بالطبائع البشرية من أن يجذب إليه الرجال ذوى الآراء المعتدلة فى جميع الأحزاب المعارضة له » ، وبهذه الصفات استطاع أن يكبح جماح المسلمين عامة والخوارج خاصة ، وأن يسوس الأمة العربية سياسة تدل على الحكمة وحسن التدبير . وبذلك أصبح — على ما ذهب إليه صاحب الفخرى (ص ١٠٠) — خليفة العالم ، وخضع له من أبناء المهاجرين والأنصار كل من يعتقد أنه أولى بالخلافة .

---

(١) Lit. Hist. of the Arab, p. 195.

لما مرض معاوية مرض الموت أوصى ابنه يزيد وصية تدل على سداد رأيه وخبرته بالأمور ومعرفته بالرجال ، فقال له : أنظر إلى أهل الحجاز ، منهم أصلك وعترتك ، فمن أتاك منهم فاكرمه ، ومن قعد عندك فتعاهده . وانظر أهل العراق ، فإن سألوك عزل عامل فى كل يوم فاعزله ، فإن عزل عامل واحد أهون من سل مائة ألف سيف لاتدرى على من تكون الدائرة ، ثم انظر إلى أهل الشام فاجعلهم الشعار دون الدثار ؛ فإن رابك من عدوك ريب فارمه بهم . ثم أردد أهل الشام إلى بلدهم ولا يقيموا فى غيره ، فيتأدبوا بغير أدبهم . لست أخاف عليك إلا ثلاثة : الحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر . فأما الحسين بن على فأرجو أن يكفيكه الله فإنه قتل أباه وخذل أخاه . وأما ابن الزبير فإنه خب [1] ضب فإن ظفرت به فقطعه إرباً إرباً . وأما ابن عمر فإنه رجل قد وقذه [2] الورع ، فخل بينه وبين آخرته يخل بينك وبين دنياك [3] . ومات معاوية فى شهر رجب سنة ٦٠ هـ .

٢ — يزيد بن معاوية

(٦٠ — ٦٣ / ٦٨٠ — ٦٨٤)

١ — توليته الخلافة :

ولد يزيد من ميسون بنت بحدل الكلبية ، وهى امرأة بدوية تزوجها معاوية قبل أن يلى الخلافة . غير أنها لم تحتمل المعيشة فى دمشق فردها إلى أهلها ، فنشأ يزيد فى البادية على ما عودته أمه من معيشة البدو . وكان فصيحاً كريماً وشاعراً مفلقاً ، حتى قالوا : « بدىء الشعر بملك وختم بملك » ، يعنون امرىء القيس ويزيد .

ولما مات معاوية بايع الناس يزيد بالخلافة ، وقعد عن بيعته الحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن العباس ، وعبد الله بن عمر ، فكتب يزيد إلى

---

(١) الخب بالفتح والكسر : هو الداهية .

(٢) وقذه : سكنه وغلبه وتركه عليلا .

(٣) العقد الفريد ج ٣ ص ١٣١ — ١٣٢ .

الوليد بن عتبه عامله على المدينة أن يأخذ له البيعة من هؤلاء النفر ، فبـــايعه عبد الله بن العباس ، وعبد الله بن عمر . أما عبد الله بن الزبير ، فإنه أبى وفر إلى مكة واستعاذ بالبيت ، وأخذ يعمل على بث الدعوة لنفسه ، ولكنه وجد فى الحسين بن على منافساً قوياً ، فلم يجرأ على مناوأته (١) .

ولما طلب عامل المدينة من الحسين بن على أن يبايع يزيد بالخلافة قال له : « أما البيعة فإن مثلى لايعطى بيعته سراً ، ولا أراك تجتزىء بها منى سراً دون أن تظهرها على رءوس الناس علانية . . فإذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا مع الناس فكان أمراً واحداً » ، فقال له الوليد ؛ وكان يحب العافيه : فانصرف على إسم الله . وعلى أثر هذه المقابلة توجه الحسين إلى مكة وكاتب الشيعة بالكوفة .

٢ — خروج بلاد الحجاز — غزو مكة :

لم تقف مصائب يزيد عند كارثة كربلاء التى قتل فيها الحسين بن على سنة ٦١ هـ ، فقد أبيحت المدينة المنورة ؛ وهى حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عهده ، ويرجع ذلك إلى كراهة أهلها حكم يزيد وخلعهم إياه وطردهم عامله وتضييقهم على من كان بها من بنى أمية (٢) ، فبعث إليهم يزيد مسلم بن عقبة المرى وكان من جبابرة العرب ودهاتهم (٣) ، وكان قد طعن فى السن فسار إليها وهو مريض وحاصرها من جهة الحرة من ظاهر المدينة وفتحها ، ثم أباحها للجند ثلاثة أيام ، وأسرف هو وجنده فى القتل والنهب والاعتداء فلقبوه مسرفاً لذلك . وقد استشهد فى تلك المعركة التى كانت شراً على الإسلام والمسلمين زهرة أهل المدينة من الفرسان ومن خيرة أصحاب الرسول . وهكذا أباح الأمويون المدينة ودنسوها .

أمر يزيد قائده مسلم بن عقبة بطل الحرة بالمسير إلى مكة . فتوجه إليها، وكان عبد الله بن الزبير قد دعا فيها إلى نفسه ، وتبعه أهلها . ومات مسلم فى الطريق ،

(١) الدينورى : الأخبار الطول ٢٣٠ : الطبرى ج ٦ ص ١٨٩ .
(٢) اليعقوبى : تاريخ الإسلام ج ٢ص ٣٠٤ وما يليها .
(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٩٢ .

فتولى قيادة الجند الحصين بن نمير ، وكان يزيد قد أوصى بتوليته إذا مات مسلم ، فسار بالجيش إلى مكة وحاصرها ، فخرج إليه ابن الزبير . وبينما كانت رحى القتال تدور بين الفريقين أتاهم نعى يزيد ، فرأى الحصين أن يأخذ البيعة لابن الزبير إذا انتقل إلى الشام ، فأبى ابن الزبير لأنه أراد أن يعيد إلى بلاد الحجاز مجدها ويجعلها مركز الخلافة ، فعاد الحصين هو وأتباعه ورفعوا الحصار عن مكة بعد أن ألحقوا الخسارة الفادحة بالكعبة[1] ، فتواردت — كما يقول المسعودى (ج ٢ ص ٩٧) — أحجار المجانيق والعرادات على البيت ، ورمى مع الأحجار بالنار والنفط — ومشاقات الكتان وغير ذلك من المحرقات ، وانهدمت الكعبة واحترقت البنية (البناء) ... لثلاث خلون من شهر ربيع الأول (سنة ٦٤هـ) » .

وقد علق فان فلوتن[2] على حصار الأمويين المدينة وغزو الكعبة بقوله : « كان السواد الأعظم من العرب يرى فى حزب بنى أمية حزب الدين والنظام ، كما أن عدداً كبيراً من المسلمين كان لا يرى فى الاستيلاء على المدينتين المقدستين إلا ضرورة دعا إليها موقف أهل الحجاز العدائى دون أن يرى فى ذلك أى انتهاك لحرمتيهما » .

٣ — معاوية الثانى

(٦٣ / ٦٨٠)

كان معاوية صبياً ضعيفاً ليس له من الأهمية ما يستحق الذكر ، إذ لم يزد عهده على أربعين يوما ؛ فلم يتمتع بالملك لمرضه ، ولم يكن بد من نزوائه فى داره . ذكر صاحب الفخرى (ص ١٠٩) أنه فكر فى ترشيح رجل للخلافة كما فعل أبو بكر مع عمر ، فلم يجد الرجل الذى يصلح لها فاقتدى بعمر بن الخطاب فى اختيار ستة ينتخب الخليفة من بينهم رجلا فلم يفلح . فترك الأمر شورى للناس

---

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ٥٥ .

(٢) السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات فى عهد بنى أمية ، ترجمة المؤلف ص ٦٩ — ٧٠ .

أنظر أيضاً الأبيات ١٧ ، ٣٠ وما يليها من قصيدة أبى صخر الهذلى، ديوان هزيل (طبعة Welhausen) ٩٢ .

يولون أمرهم من يشاءون وقال لهم . فأنتم أولى بأمركم فاختاروا من أحببتم » ، فقالوا : ول أخاك خالدا ، فقال : والله ماذقت حلاوة خلافتكم فلا أتقلد وزرها ثم صعد المنبر وقال « يا أيها الناس ! إن جدى معاوية نازع الأمر أهله ، ومن هو أحق به منه لقرابته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على ابن أبي طالب . وركب بكم ما تعلمون حتى أتته منيته ، فصار فى قبره رهيناً بذنوبه وأسيراً بخطاياه . ثم قلد أبى الأمر فكان غير أهل لذلك ، وركب هواه وأخلفه الأمل وقصر عنه الأجل ، وصار فى قبره رهيناً بذنوبه وأسيراً بجرمه » . ثم بكى حتى جرت دموعه على خديه وقال : « إن من أعظم الأمور علينا علمنا بسوء مصرعه وبئس منقلبه ، وقد قتل عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأباح الحرم وخرب الكعبة . وما أنا بالمتقلد ولا بالمتحمل تبعاتكم ، فشأنكم وأمركم . والله لئن كانت الدنيا خيراً فلقد نلنا منها حظاً ، ولئن كانت شراً فكفى ذرية أبى سفيان ماأصابوا منها : ألا فليصل بالناس حسان بن مالك ، وشاوروا فى خلافتكم رحمكم الله » . ثم دخل منزله وتغيب حتى مات فى سنته بعد أيام[1] .

٤ — مروان بن الحكم
(٦٤ — ٦٥ هـ)

١ — مروان منذ ولد إلى أن ولي الخلافة :

ينتسب مروان إلى البيت الأموى الذى وقف من الرسول ومن دعوته ذلك الموقف العدائى المعروف . فقد كان أبوه الحكم بن العاص يؤذى الرسول قبل أن يسلم : فلما أسلم لم يخلص فى إسلامه ولم يفتر عن إيذاء الرسول والسخرية به . وبلغ من جرأته أنه أطلع على الرسول فى إحدى حجراته ، فخرج الرسول مغضباً . ولما عرفه قال : من عذيرى من هذا الوزغ ! ثم أخرجه من المدينة وقال : لايساكنى فيها أبداً[2] .

ولكن عثمان لما ولى الخلافة أعاد الحكم ، وكان من ذوى قرباه ، إلى المدينة

(١) الكندى ص ٤٥ — ٤٦ .

(٢) الخميس فى أنفس نفيس ج ٢ ص ٣٠٧ .

وأعطاه مالا كثيرا، وآثر ابنه مروان. واتخذه وزيرا له ومشيرا، فكان ساعده وكاتبه ومدبره. فلما توفى عثمان وآلت الخلافة إلى علي، اعتزل مروان السياسة بعد موقعة الجمل المشهورة، وبايع عليا، وأقام بالمدينة، وظل على ذلك حتى آلت الخلافة إلى معاوية، فولاه المدينة مرتين. ولما مات معاوية قربه ابنه يزيد إليه وأكرمه، فظل بالشام إلى أن ولى الخلافة بعدمعاوية الثانى بن يزيد، وشد أزره عبيد الله بن زياد وعمرو بن سعيد بعد أن كاد يبايع ابن الزبير.

٢ — الحروب الأهلية :

لما مات معاوية الثانى هاج عرب الشام، وكانوا عصب الدولة وقوتها، بفضل اتحادهم وتماسكهم. غير أن هذه الوحدة مالبثت أن تفككت أوصالها حين مالت كلب إلى بنى أمية، وأصبحت قيس ضلعهم مع عبد الله بن الزبير. وانقسمت كلب نفسها، فمال فريق منهم إلى خالد بن يزيد بن معاوية، وكان برغم صغر سنه، فصيحا بليغا ضرب فى الكيمياء بسهم، ومال فريق آخر إلى مروان ابن الحكم بن العاص بن أمية لسنه وشيخوخته. من ذلك نرى أن النزاع قد احتدم بين عرب الشام بسبب المنافسة بين أفراد البيت الأموى، إذ أصبح كل منهم يطمح إلى الخلافة ويرى نفسه أحق بها من غيره.

واستمر النزاع بين أنصار بنى أمية حتى عقدوا مؤتمر الجابية، الذى بايعوا فيه مروان بن الحكم بالخلافة (فى ذى القعدة ٦٤ هـ)[١]، ثم خالد بن يزيد، ثم عمرو بن سعيد بن العاص من بعده، وبذلك انتقل الملك من الفرع السفيانى إلى الفرع المروانى، وبذلك أرضوا الذين يتطلعون إلى الخلافة.

اتحدت كلمة اليمنية من كلب؛ وأما قيس فإنها اجتمعت بزعامة الضحاك بن قيس الفهرى بمرج راهط وبايعت عبد الله بن الزبير، فانحصرت الخلافة بينه وبين مروان. ثم سار مروان إلى الضحاك وهزمه فى موقعة مرج راهط (المحرم سنة ٦٥ هـ)، وبذلك انتصر العنصر اليمنى على العنصر المضرى.

وقد أذكت هذه الموقعة نار العصبية من جديد، ليس فى الشام وحدها، بل

(١) الطبرى جـ ٧ ص ٣٤ — ٣٩.

فى سائر الولايات الإسلامية وخاصة فى خراسان ، وظهر العداء بين اليمنية والمضرية فى صورة نزاع متصل بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، وامتد لهيب العصبية إلى أقاصى البلاد التى وصلت إليها الفتوح العربية فيما شنه هؤلاء وأولئك من حروب أهلية ومعارك دموية .

تابع مروان بن الحكم نشاطه بعد هذه الموقعة ، فجرد جيشاً بقيادته إلى مصر لطرد عبد الرحمن بن جحدم عامل عبد الله بن الزبير ، وسار ابنه عبد العزيز فى جيش إلى أيلة (عند العقبة) . ونشط ابن جحدم لحربه ، وأشار عليه بعض رجاله بأن يحفر خندقا ، موقعه الآن جهة القرافة ، فتم حفره فى شهر واحد .

بعث ابن جحدم الجيوش والمراكب لحرب مروان وابنه عبد العزيز ، فحلت الهزيمة بجيوش عامل ابن الزبير . ولم ينفعه خندقه ، ودخل مروان عين شمس ثم الفسطاط فى أول جمادى الأولى سنة ٦٥ هـ ، وبنى الدار البيضاء لتكون مقراً له ، وبايعه الناس إلا نفراً ظلوا على تمسكهم ببيعة ابن الزبير ، فضرب أعناقهم ، وكانوا ثمانين رجلا من المعافر ، وقتل الأكدر بن حمام بن عامر بن صعب سيد لخم ، فسار زهاء ثلاثين ألفا من لخم وهم مدججون بالسلاح ، ووقفوا بباب مروان ثائرين ، فتوسط بعضهم فى الصلح وانصرف الثائرون . وتصادف أن توفى عبد الله ابن عمرو بن العاص فى اليوم الذى قتل فيه الأكدر (١٥ جمادى الآخرى سنة ٦٥ هـ) ، فلم يستطع الناس أن يخرجوا بجنازته لتألب الجند على مروان ، فدفن فى داره[١] .

ثم عاد مروان إلى الشام حيث أعد جيشين ، سير أحدهما إلى الحجاز حيث دعا عبد الله بن الزبير إلى نفسه بالخلافة ، والآخر إلى العراق ، فحلت الهزيمة بجيش الحجاز . ولم يقم جيش العراق بشىء يذكر فى حياة مروان الذى عاجلته المنية سنة ٦٥ هـ بعد أن عهد بالخلافة لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز .

كان مروان من ذوى الرأى والفصاحة والشجاعة ، وكان كثير التلاوة للقرآن . روى الديار بكرى « أن مروان كان من رجال قريش ، وكان من أقرأ الناس للقرآن »[٢] . وقد روى الحديث عن كثير من الصحابة كعثمان بن عفان

---

(١) الكندى ص ٤٥ — ٤٦ .

(٢) الخميس فى أنفس نفيس جـ ٢ ص ٣٩٧ .

وعمر بن الخطاب ، وزيد بن ثابت . وإليه يرجع الفضل فى ضبط المقاييس والموازين حتى لا يقع الغبن فى البيع والشراء . ومما يؤخذ عليه اتهامه بالكتاب المكذوب على عثمان ، وإن كان الدليل لم يقم على ذلك .

وقد ذكرنا أن أنصار الأمويين اتفقوا فى مؤتمر الجابية على مبايعة مروان ابن الحكم بالخلافة ، على أن يخلفه خالد بن يزيد بن معاوية ، ثم سعيد بن العاص من بعده . غير أن مروان نقض ذلك العهد وبايع ابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز وأخذ يحقر من شأن خالد ليصرف أهل الشام عنه . وقد دخل خالد بن يزيد على مروان يوما فشتمه مروان ، فخجل خالد ودخل على أمه — وكانت قد تزوجت من مروان بعد وفاة أبيه — وأخبرها بما حدث ، فقالت له : « لا يعرفن ذلك منك واسكت فإنى أكفيكه[1] » . ولما نام مروان وضعت على وجهه وسادة لم ترفعها حتى مات . ولما علم بذلك ابنه عبد الملك أراد أن يقتلها ، فأشير عليه بالعدول عن رأيه حتى لا يتحدث الناس عن امرأة قتلت أباه فيلحق به العار .

٥ — عبد الملك بن مروان

(٦٥ — ٨٦ / ٦٨٥ — ٧٠٥)

١ — عبد الملك منذ ولد الى أن ولي الخلافة :

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف ، وأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبى العاص بن أمية . ويجتمع نسبه من جهة أبيه وأمه فى أبى العاص ؛ وكان يضرب بأمه المثل فى الخصال الحميدة والصفات الكريمة .

ولد عبد الملك بالمدينة سنة ٢٦ هـ فى خلافة عثمان بن عفان . وقد نشأ نشأة عالية ، فعرف بالشجاعة والنجدة . وكان فصيحاً بليغاً ، صريحاً فى الحق لا يخشى فيه لومة لائم . وقد حفظ الكتاب الكريم وقرأ العلوم الدينية من الفقه والتفسير والحديث على مشيخة الحجازيين فى المدينة .

---

(١) الطبرى ج ٧ ص ٨٣ .

روى ابن سعد[1] أن أهل المدينة قالوا : حفظ عبد الملك عن عثمان وسمع من أبي هريرة وأبي سعيد الخدرى وجابر بن عبد الله وغيرهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولا غرو فقد أصبح فقيها وعالماً مشغوفا بالعلم ، كما كان أديباً عالماً بنقد الشعر وتمييز جيده من رديئه . وله مع الشعراء والأدباء مجالس مشهودة ذاعت فى كتب الأدب والمحاضرات ، مثل كتاب الكامل للمبرد والأمالى لأبى على وغيرهما من دواوين الأدب .

٢ — الدولة الأموية فى عهد عبد الملك :

كادت الأمة العربية عند وفاة مروان بن الحكم تمزقها العصبية القبلية التى دأب النبى صلى الله عليه وسلم على إخمادها ، حتى أشرفت الدولة الأموية على الزوال ، لولا أن أتاح الله لهذه الدولة عبد الملك بن مروان الذى يعتبر بحق المؤسس الثانى للدولة الأموية ، لما امتاز به من رجاحة العقل والقدرة على تصريف الأمور ، فانتشلها من الفوضى التى وصلت إليها وأقام صرح مجدها على أسس لم يسبقه إليها من جاء قبله من الخلفاء .

وقد أخذ عبد الملك فى مبدأ عهده يشن الغارة على أعدائه ، ولم يمض سبع سنين حتى استقامت له الأمور وهدأت الأحوال وساد السلام فى البقية الباقية من عهده وعهد من جاء بعده من أولاده .

ففى مصر انتشر السلام واستتب الأمن بفضل حسن سياسة أخيه عبد العزيز ابن مروان (٦٥—٨٦ هـ) . وكان من خير الولاة الذين حكموا مصر فى العصر الأموى ؛ فقد صحب أباه مروان حين جاء لاسترداد هذه البلاد من عامل عبد الله بن الزبير الذى صادفت دعوته نجاحاً عظيما فى بلاد العرب والعراق ، وفى مصر حيث انضم إليه أنصار العلويين لاعتقادهم أنه يدعو لأهل البيت .

ولما عزم مروان على العودة إلى دمشق ولى ابنه عبد العزيز على مصر صلاتها وخراجها ، وجعلها له طعمة يتصرف فى خراجها كيف شاء . وكان بعض المصريين فى ذلك الوقت على البغض لمروان ولبنى أمية ، فخاف عبد العزيز أنصار

---

(١) كتاب الطبقات الكبير ج ٥ ص ١٧٣ .

ابن الزبير وخشى عاقبة عدائهم إذا بقى فى مصر ، وأفضى بذلك إلى أبيه ، فخفف من خوفه ورسم له الخطة التى يتألف بها قلوب المصريين على اختلافهم ، وأوضح له أن هذا الأمر لا يتم إلا إذا أسرهم بجوده وجذبهم إليه بالمودة والبشاشة ، وأوصاه بأن يظهر لكل زعيم أنه خاصته دون غيره من الزعماء ، وبهذا يتفانى الكل فى خدمته ويجمعون على طاعته[1] .

ولم يفت مروان أن يزيد ابنه من النصائح فى وصية أخرى تكفل له الراحة والطمأنينة فى هذا البلد ، فأوصاه بتقوى الله فى السر والعلانية ، وبالبر بالفقراء وتنفيذ وعده إذا وعد ولو حال دون ذلك شوك القتاد ، وأن تكون المشورة رائده قبل الفصل فى أمور دولته ، فتلهج الألسنة بالدعاء له ويأمن الفتن والقلاقل[2] .

وعمل عبد العزيز بنصائح أبيه ، فنجحت سياسته فى مصر نجاحاً ظاهراً ، واستطاع أن يدخل كثيراً من ضروب الإصلاح ، فبنى مقياساً للنيل ، وزاد فى جامع عمرو من ناحية الغرب ، وأدخل فى شماله رحبة فسيحة . وأقام على خليج أمير المؤمنين قنطرة عند الحمراء القصوى بطرف الفسطاط[3] ، ونقش عليها اسمه (٦٩ هـ)[4] ، واتخذ مدينة حلوان حاضرة لولايته (٧٣ هـ) بعد أن أصيب بداء الجذام . وقيل إنه انتقل إليها لتفشى الوباء فى الفسطاط ، ونقل إليها بيت المال ، وأنشأ بها بركة كبيرة ساق إليها الماء من العيون القريبة من جبل المقطم على قناطر معلقة مشيدة على أعمدة تصل عيون الماء بالبركة ويظهر أن الأمويين أخذوا هذا النوع من القناطر عن الروم ، وكانت منتشرة فى الدولة الرومانية فى القرن الثانى الميلادى . وغرس عبدالعزيز فى حلوان الأشجار والنخيل ، وبنى بها المساجد وغيرها من الأبنية الفخمة ، حتى قيل إنه بذل فى سبيل ذلك مليون دينار[5] . وبلغ من شغفه بالعمارة والتماثيل أنه بنى فى مدينة الفسطاط حماما لابنه زبان وأقام على بابه تمثالا عجيبا من الزجاج على صورة امرأة ، وأطلق

(١) الكندى : كتاب الولاة ص ٤٧ — ٤٨ .
(٢) الكندى ص ٤٨ . المقريزى : خطط ج ١ ص ٢٠٩ .
(٣) ومكانها الآن على الخليج عند مسجد السيدة زينب .
(٤) ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٤ ص ٦٣ ، ١٢٠ أ .
(٥) أبو صالح الأرمنى : كنائس وأديرة مصر ، ورقة ٥٢ ب — ٥٢ .

عليه « أبو مره » ، ذلك الاسم الذى تسمت به القيسارية التى كان يمتلكها عبد العزيز ، وكانت تعرف فى زمن ابن دقماق[1] المتوفى سنة ٨٠٩ هـ باسم حمام بثنية .

كان عهد عبد العزيز بن مروان عهد يسر ورخاء لمصر التى استطاعت أن تظهر بمظهر النشاط الأدبى والمادى . وتغنى المؤرخون والشعراء بأعمال البر والكرم التى قام بها هذا الوالى ، فقال بعض المؤرخين إنه « كان له ألف جفنة تنصب حول داره ومائة جفنة تحمل على العجلات ويطاف بها على قبائل مصر » ، حتى وصف أحد الشعراء أيام عبد العزيز بأنها كأعياد الفطر أو أعياد الأضحى[2] .

وعلى الرغم من أن مصر كانت طعمة لعبد العزيز ، قيل إنه لم يترك عند وفاته من المال غير سبعة آلاف دينار — عدا أمواله فى حلوان وقيسارية أبى مرة ، وما خلفه من الخيل والرقيق والثياب المرقع بعضها . فلا عجب إذا أجمع الناس على محبته ورضوا عنه وعن ولايته .

على أن مصر لم تنعم بهذا الرخاء طويلا بعد موت عبد العزيز ، فقد زج الجند العربى بنفسه فى النزاع الذى انتهى بسقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية على ما سيأتى :

وكان أشد أعداء عبد الملك خطراً المختار بن أبى عبيد وعبد الله بن الزبير . روى المسعودى[3] أن عبد الملك سار فى سنة ٦٦ هـ على رأس الجنود الشامية لقتال المختار بالكوفة . وبينا هو فى الطريق أتاه فى إحدى الليالى خبر مقتل عبيد الله بن زياد وانهزام جنده ، وأتاه فى تلك الليلة أيضاً مقتل القائد الذى أرسله لحرب عبد الله بن الزبير بالمدينة ، ثم جاءه خبر دخول جند ابن الزبير أرض فلسطين ولحاق أخيه مصعب بهم . ثم جاءه خبر مسير امبراطور الروم ونزوله المصيصة[4] فى طريقه إلى الشام . ثم جاءه أن عبيد دمشق وأوباشها خرجوا على أهلها ، وأن المسجونين فيها فتحوا السجن وخرجوا منه ، وأن

---

(١) الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٤ ص ٣٩ ، ١٠٥ .

(٢) الكندى ص ٥١ — ٥٢ .

(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ١١٣ .

(٤) بالفتح ثم الكسر والتشديد من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم بقرب طرسوس .

خيل الأعراب أغارت على حمص وبعلبك وغيرهما — إلى آخر ما هنالك من أخبار السوء التي تذهب بعقل الحليم وتبعث في النفس اليأس والقنوط .

كان عبد الملك — على الرغم من هذا كله — رابط الجأش شديد الإيمان بكفايته ومقدرته ، فلم ير في ليلة قبلها أشد ضحكا ، ولا أحسن وجهاً ، ولا أبسط لساناً ، ولا أثبت جناناً من تلك الليلة تجلداً وسياسة للملوك . ولننظر الآن كيف تغلب عبد الملك على هذه الصعاب .

بعد أن قضى الحجاج بن يوسف الثقفي على عبد الله بن الزبير — على ما سيأتي — ولاه عبد الملك بلاد الحجاز سنة ٧٣ هـ ، فظل بها إلى سنة ٧٥ هـ حيث ولاه عبد الملك العراق ، وسار إليها في جيش من أهل الشام . ولما بلغ القادسية أمر الجيش بالاستراحة ، وسار هو في اثني عشر راكباً إلى الكوفة ، فدخلها وصعد المنبر متلثما . ولما غص الجامع بأهله كشف اللثام عن وجهه وخطبهم خطبته في الأدب والتاريخ ، وكلها إطناب وإستهتار بأهل العراق ، وتوعد لهم لما كان منهم من شق عصا الطاعة على بني أمية :

« أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

يا أهل الكوفة ! إني لأرى رءوساً قد أينعت وحان قطافها ؛ وإني لصاحبها ، وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى » . أما بقية الخطبة فإنها لا تختلف في معناها ولهجتها عما تقدم .

ولما فرغ الحجاج من خطبته لم يفه أحد ممن كان بالمسجد ، وفيهم أهل الشرف والرياسة ، بكلمة يعترض فيها على قوارص كلمه وشديد زهوه بنفسه أو يظهر استياءه لما لحق أهل بلده من مذلة وما حاق بهم من مهانة . وبعد هذه المقدمة الطويلة المفزعة أمر الحجاج غلامه بأن يقرأ على الناس كتاب عبد الملك فقرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم ! من عبد الملك أمير المؤمنين إلى من بالكوفة من المسلمين ، سلام عليكم ! » . غير أن أحداً من الحاضرين لم يرد سلام الخليفة ، فأمر الحجاج غلامه بالكف ، وأخذ يوبخ الناس ويتهددهم ويتوعدهم ، فقال « والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب أو لتستقيمن » ، ثم أمر غلامه فأعاد الكرة ،

فلما قرأ سلام الخليفة قال الحاضرون على أمير المؤمنين السلام (١) » .

ومن هذه الخطبة نتبين السياسة التى رسمها الحجاج للسير عليها مع أهل العراق ، وهى سياسة حزم ممزوج بالظلم والجبروت . ولا غرو فقد أخذ الناس بغير هوادة وقتلهم على الريبة والظنة .

ولما فرغ الحجاج من أهل الكوفة ، سار إلى البصرة وخطب الناس فيها خطبة لا تختلف فى معناها ومرماها عن خطبته فى الكوفة . ومن ثم عمل على معاونة المهلب ابن أبى صفرة فى حرب الخوارج .

تفاقم خطر المشرق حين خلع ابن الأشعث طاعة الحجاج ثم طاعة عبد الملك ، وانقاد إليه أهل كرمان والرى والجبال ، وما لبث أن دخل البصرة والكوفة ، وقوى أمره ، فاستنجد الحجاج بعبد الملك وألح عليه فى إرسال المدد . يدل على ذلك قوله فى ختام كتابه إلى الخليفة : وأغوثاه بالله ثلاث مرات ، فأمده عبد الملك بالجيوش .

التقى الحجاج وابن الأشعث بالموضع المعروف بدير الجماجم ، وكانت الحرب سجالا بين الفريقين ، ووقعت بينهم أكثر من ثمانين موقعة دارت الدائرة بعدها على ابن الأشعث ، فهرب إلى بلاد الهند ، فاحتال الحجاج فى قتله وأتى إليه برأسه فى الكوفة ، وأسرف الحجاج فى قتل أسرى دير الجماجم ، وفى إعطاء الأموال لمن نصروه على عدوه .

وهكذا أخضع الحجاج بلاد العراق وما ولاه من بلاد المشرق لسلطان عبد الملك بن مروان ، الذى توطدت دعائم ملكه وانتشر الأمن فى بلاده بفضل يقظته ودأبه على العمل لخير رعاياه . فقد كان يميل إلى إقرار العدل، ويكره تخطى حدود الاعتدال فى عقوبته . يدل على ذلك مادار بينه وبين الحجاج من مكاتبات حين بلغه إسرافه فى قتل أسرى دير الجماجم ، وإعطائه الأموال لرجاله، إذ كتب إليه فى ذلك الكتاب الشديد اللهجة برغم مابذل من جهد فى سبيل تثبيت دعائم ملكه .

« أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين سرفك فى الدماء وتبذيرك فى الأموال . ولا يحتمل أمير المؤمنين هاتين الخصلتين لأحد من الناس ، وقد حكم عليك أمير

---

(١) الطبرى ج ٧ ص ٢١٠ . المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٢٥ .

المؤمنين فى الدماء والخطأ الدية ، وفى العمد القود (القصاص) ، وفى الأموال ردها إلى مواضعها ثم العمل فيها برأيه . فانما أمير المؤمنين أمين الله ،وسيان عنده منع حق وأعطاء باطل . فإن كنت أردت للناس له فما أغناهم عنك ، وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم . وسيأتيك من أمير المؤمنين أمران : لين وشدة؛ فلا يؤنسك إلا الطاعة ولا يوحشك إلا المعصية ، وظن بأمير المؤمنين كل شىء إلا احتمالك على الخطأ ، وإذا أعطاك الظفر على قوم فلا تقتلن جانحاً ولا أسيراً.

وصل إلى الحجاج كتاب عبد الملك ، وكتاب رجل لا تأخذه لومة لائم فى الحق وإيثار مصلحة شعبه واكتساب محبته . وقد رد عليه الحجاج بهذا الكتاب الرقيق يبرر فيه تصرفه : « أما بعد ! فقد أتانى كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه سَرْفى فى الدماء وتبذيرى فى الأموال . ولعمرى ما بلغت فى عقوبتى أهل المعصية ما هم أهله وما قضيت حق أهل الطاعة بما استحقوه . فإن كان قتل أولئك العصاة سرفاً ، وإعطائى أولئك المطيعين تبذيراً ، فليس على أمير المؤمنين ما سلف وليحد لى فيه حداً أنتهى إليه إن شاء الله تعالى ولا قوة إلا بالله . ووالله ما على من عقل ولا قود ، ما أصبت القوم خطأ فأفديه ولا أعطيتهم إلا لك ،ولا قتلتُ إلا فيك. وأما ما أنا منتظره من أمريك فألينهما عدة وأعظمها محنة . فقد عبأت للعدة الجلاد وللمحنة الصبر (١) .

أسند الحجاج بن يوسف ولاية خراسان إلى المهلب بن أبى صفرة ، فقام بكثير من الفتوح فى هذه البلاد . ذكر البلاذرى (٢) أنه فتح خجندة وغزا كش سنة ٨٠ هـ (٦٩٩ م) واتخذها مركزاً لقيادته ، وأرسل منها أولاده لغزو كثير البلاد ، فأرسل يزيد على رأس قوة لغزوة الختل ، وأرسل حبيب إلى راينجان قوات بخارى . وذكر الطبرى (٨ : ١٧) أن المغيرة بن المهلب الذى خلف أباه فى مرو مات فى رجب سنة ٨٢ هـ . فلما علم أخوه يزيد بن المهلب بذلك أراد أن يعلم أباه الخبر، وكان بكش ، فأمر النساء فصرخن ، فقال المهلب : ماهذا ؟فقيل: مات المغيرة ، فجزع جزعا شديداً ، فوجه ابنه إلى مرو ، وأوصاه بما يعمل

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٣٦ — ١٣٧ .

(٢) فتوح البلدان ص ٤٢٣ — ٤٢٤ .

وكتب الحجاج إلى المهلب يعزيه فى ابنه المغيرة . ويظهر أن هذا الحادث قد نال من نفس المهلب حتى أنه أيقن بأنه ليس من أمل فى أية محاولة لفتح هذه البلاد . ومن ثم تصالح مع أهل كش وعدل عن غزواته ، ولكنه مات فى شهر ذى الحجة على مقربة من مرو الروذ وولى الحجاج ابنه يزيد بلاد خراسان (١) .

استهل يزيد عهده بغزو خوارزم؛ ولم يقدم على غزو غيرها من البلاد لاختلال الأمن فى خراسان بسبب ظهور روح العصبية بين قيس والأزد ، وزاد ميل يزيد إلى الأزد نار هذه العصبية اشتعالا . ولم يكن موقف الموالى أقل سوءاً حيث نرى مؤامرة ثابت بن قطنة وأخيه حريث على موسى بن عبدالله السلمى عامل ترمذ الذى ناصره طرخون ملك الصغد . وسرعان ما قتل حريث بن قطنة وأخوه ثابت فى ميدان القتال (٢) . وقد عمل الحجاج على التخلص من يزيد ابن المهلب ، ولكنه خشى فى الوقت نفسه ثورة الأزد فى خراسان عليه ، فولى هذه البلاد أخاه المفضل بن أبى صفرة فى سنة ٨٥ﻫ (٧٠٤ م) . وكان ضعيفاً ، ففتح بادغيس ، وكانت قد انتفضت . وسعى الحجاج لدى عبد الملك بن مروان إلى تولية قتيبة بن مسلم خراسان . وكان هذا الوالى من باهلة إحدى بطون قيس وبذلك يستطيع أن يجذب إليه القيسيين فى خراسان . ووصل قتيبة مرو حول نهاية سنة ٨٥ ﻫ .

٣ — صفات عبد الملك :

وصف الشعبى عبد الملك بن مروان فى هذه الكلمات : « ما جالست أحداً إلا وجدت لى الفضل عليه إلا عبد الملك بن مروان ، فإنى ما ذكرته حديثا إلا زادنى فيه ، ولا شعراً إلا زادنى فيه » (٣) . وكان عبد الملك فصيحا . قيل له : لقد أسرع إليك الشيب . قال : شيبنى صعود المنابر والخوف من اللحن . قيل له : يا أمير المؤمنين ! عجل إليك الشيب . فقال :

---

(١) Gibb, p. 25.

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٢٤ — ٤٢٥ .

(٣) ابن سعد : كتاب الطبقات ج ١ ص ١٦٦ .

وكيف لا وأنا أعرض عقلى على الناس كل جمعة[1] .

اشتهر عبد الملك بالحزم وأصالة الرأى . قال العينى[2] . كان يقال معاوية أحلم وعبد الملك أحزم .

وقد تولى عبد الملك القضاء والفتيا فى المدينة بعد زيد بن ثابت سنة ٤٢ ﻫ وولاه أبوه هجر فأقام فيها العدل ونظم أمورها .

وروى صاحب كتاب العقد[3] أن عبد الملك بن مروان خطب الناس يوماً فقال : أيها الناس ، إنى والله ما أنا بالخليفة المستضعف — يريد عثمان بن عفان — ولا بالخليفة المداهن — يريد معاوية — ولا بالخليفة المأفون[4] — يريد يزيد بن معاوية . فمن قال برأسه كذا قلنا بسيفنا كذا ثم نزل » ; وخطب أيضاً على المنبر : « أيها الناس ! إن الله حد حدوداً وفرض فروضاً ، فما زلتم تزدادون فى الذنب نزداد فى العقوبة حتى اجتمعنا نحن وأنتم عند السيف ، ثم نزل » .

ويتبين مما ذكره المسعودى[5] ما اتصف به عبد الملك من الآداب الاجتماعية . فقد ذكر أن بعض جلسائه قال له يوما : أريد الخلوة بك ، فلما خلا به قال له عبد الملك : بشرط ثلاث خصال : لا تطر نفسى عندك فأنا أعلم بها منك ، ولا تغتب عندى أحداً فلن أسمع منك ، ولا تكذب فلا رأى لمكذب . قال : أتأذن فى الانصراف ؟ قال إذا شئت .

٦ — الوليد بن عبد الملك

(٨٦—٩٦ / ٧٠٥—٧١٥)

١ — توليته الخلافة :

لما مات عبد الملك بن مروان سنة ٨٦ ﻫ خلفه ابنه الوليد ، وقد ظل فى الخلافة عشر سنين ، وكان عهده عهد فتح ويسر ورخاء ، فاتسعت فى أيامه

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٨٤ — ٩٥ .

(٢) عقد الجمان ص ١١ .

(٣) ج ١ ص ٢٨٨ (وطبعة القاهرة سنة ١٣٤٦ ﻫ) ج ٣ ص ١٤٩ .

(٤) الضعيف الرأى .

(٥) مروج الذهب ج ٣ ص ١٢٦ .

رقعة الدولة الأموية شرقاً وغرباً ، كما خفف أعباء الحياة على جمهور المسلمين ، بعطفه على الفقراء والمعوزين ، واهتمامه بأحوال رعيته وسهره على مصالحهم ، وعمله على تخفيف آلام مرضاهم ، وتخصيصه أعطيات للمجذومين لمنعهم عن سؤال الناس ، كما أعطى كل مقعد خادماً يهتم بأمره ، وكل ضرير قائداً يسهر على راحته.

كان الوليد لحاناً ، فقال له أبوه : « إنه لا يلي العرب إلا من يحسن كلامهم » فدخل الوليد بيتاً وأخذ معه جماعة من علماء النحو وأقام مدة يشتغل فيه ، فخرج أجهل مما كان يوم دخوله . فلما بلغ ذلك أباه عبد الملك قال : قد أعذر ، لقد أضر بالوليد حبنا له ، يشير إلى أنه لم يرسله إلى البادية ليتعلم الفصاحة بين الأعراب.

٢ ــ الفتوح فى عهد الوليد :

(ا) فتح بلاد ما وراء النهر :

تمكن الوليد بفضل السلام الذى انتشرت ألويته بين ربوع بلاده من إعادة عهد الفتوح التى تمت فى عهد من سبقه من الخلفاء ، فاتسعت رقعة أملاكه فى المشرق والمغرب . وقد اشتهر فى عهد الوليد ثلاثة من القواد كان لهم أثر عظيم فى هذه الفتوح : هم قتيبة بن مسلم الباهلى ، ومحمد بن القاسم بن محمد الثقفى ، وموسى بن نصير .

وأما قتيبة بن مسلم فقد ولاه الحجاج خراسان سنة ٨٦ هـ ، فخرج إلى بلخ ــ وكانت أول جهة قصدها ــ فتلقاه دهاقينها وعظماؤها وساروا معه. ولما عبر نهر جيحون قابله ملك الصغانياى وأهدى إليه كثيراً من الهدايا وسلم إليه بلاده. وفى سنة ٨٧ هـ ، غزا قتيبة بيكند [1] حيث أغار على الصغد وقاتلهم قتالا شديداً ، فانهزموا وتفرقوا ، ثم طلبوا من قتيبة الصلح ، فصالحهم وولى عليهم والياً من قبله . غير أن أهل بيكند انتهزوا فرصة غياب قتيبة وغدروا بعامله وقتلوه ، فرجع إليهم وفتح المدينة عنوة ، وغنم منها مغانم كثيرة ثم عاد إلى مرو . وفى ربيع سنة ٨٨ هـ استخلف قتيبة على مرو أخاه بشار بن مسلم ،

---

(١) بكسر الباء وفتح الكاف وسكون النون وهى بلدة بين بخارى وجيحون على مرحلة من بخارى . وقد خربت قبل ياقوت الحموى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ .

وواصل فتوحاته ، فكان النصر حليفه فى بلاد كرمينية (١) ، ثم سار إلى بخارى وفتحها بعد أن لقى عناء كبيراً واضطر أهلها إلى مصالحته .

ولم تكن الإصلاحات التى قام بها قتيبة بعد أن تم له فتح بخارى مقصورة على الشئون المدنية ، بعد تعدتها إلى الجيش . وكانت روح العصبية التى أملت على العرب أن يستأثروا بحقوقهم كاملة باعتبارهم طبقة محاربة . قد قللت إلى حد بعيد من عدد الفرس فى الجيوش الإسلامية . وكانت جيوش خراسان فى ذلك الوقت تتألف على الوجه الآتى : من أهل البصرة والعالية من المقاتلة ٩٠٠٠ ، ومن بكر ٧٠٠٠ ، ومن تميم ١٠٠٠٠ ، ومن عبد القيس ٤٠٠٠ ، ومن الأزد ١٠٠٠٠ ، ومن الكوفة ٧٠٠٠ . ولم يكن مع هؤلاء الـ ٤٧٠٠٠ عربى سوى ٧٠٠٠ من الموالى بقيادة حيان النبطى ، وكان من الديلم ، وقيل من خراسان ، وإنما قيل له نبطى للكنته (٢) .

على أن قتيبة ألزم أهالى بخارى ، بعد أن فتحها لأول مرة ، كما ألزم غيرها من أهالى البلاد المفتوحة أن يمدوه بقوة إضافية من الجيوش المحلية ، تتراوح عادة بين ١٠٠٠٠ ، ٢٠٠٠٠ رجل يقومون بالخدمة مع الجيوش العربية . يقول جب (٣) : « ولا يبعد ، إذا كان ما ذكرناه حقاً ، أن يكون سعيد بن عثمان هو الذى سن هذه السنة بعد أن قام بفتح سمرقند ، كما لا يبعد أن يكون ذلك النظام قد عمل به فى أماكن أخرى شملتها الفتوح العربية . لتكون هذه الجيوش على أهبة الاستعداد لتلبية نداء قوادهم إذا دعت الحاجة إلى ذلك . وهذا يعلل السرعة التى تم بها فتح سمرقند على يد قتيبة بن مسلم » .

وبينما كان قتيبة مشتغلا بتنظيم بخارى سير أخاه عبد الرحمن على رأس قوة صغيرة من كش ونسف لتأخذ من طرخون ملك الصغد ما كان قد صالحه

---

(١) بفتح الكاف وسكون الراء ، وكسر الميم بعدها ياء مثناة من تحت ساكنة فنون مكسورة وباء أخرى مفتوحة غير مشددة ، هى بلدة من نواحى الصغد بين سمرقند وبخارى .

(٢) ابن الأثير ج ٥ ص ٦ .

(٣) Gibb, p. 40.

قتيبة عليه فى العام الماضى ، ولقى هذا القائد نجاحاً ملحوظاً فى هذا السبيل، وأعاد إلى طرخون الرهائن ، ورجع إلى أخيه قتيبة ببخارى حيث عادا إلى مرو لقضاء الشتاء فيها [١] .

وفى سنة ٩٣ هـ فتح قتيبة مدن خوارزم صلحاً ، ثم فتح سمرقند بعد قتال شديد ، واستخلف عليها عبد الله بن مسلم ثم عاد إلى مرو . وبفتح سمرقند وطد قتيبة مركزه فى بلاد ما وراء النهر . ولكن فتح هذه المدينة ليس معناه ، كما يقول « جب » (ص ٤٧ — ٤٨) ، فتح بلاد الصغد ، وإنما كان كل ما قام به العرب أنهم أقاموا حامية عربية فى بلد يضمر لهم العداء . وقد رأى قواد سمرقند من العرب من الواجب عليهم أن يمدوا نفوذهم تدريجياً على كل إقليم الصغد بإرسال الحملات والغارات إليه . وبذلك كان هناك اختلاف جوهرى بين فتح بخارى وفتح سمرقند : فالفتح الأول كان نتيجة سلسلة حملات نضبت فيها موارد البلاد التى ضمت إلى حوزة العرب شيئاً فشيئاً ، وأصبح جميع السكان رعايا العرب، وغدوا تحت إشرافهم المستمر . أما فتح سمرقند فإن العرب قد استولوا عليها إثر معركة واحدة حاسمة .

ولكن الصغد لم تذعن جميعاً لحكم العرب ، وإنما اعترفت بسيادتهم اعترافاً ظاهرياً . وقد عانت هذه البلاد كثيراً من المحن من جراء الغارات المستمرة ، حتى أن أحد شعراء ذلك العصر قد أمدنا بصورة حية عن ثروتها التى تبددت وأراضيها التى أصبحت فقراً مجدبة حيث يقول :

كل يوم يحوى قتيبة نهباً   ويزيد الأموال مالا جديداً
باهلىٌّ قد ألبس التاج حتى   شاب منه مفارق كن سوداء
دوخ الصغد بالكتائب حتى   ترك الصغد بالعراء قعوداً
فوليد يبكى لفقد أبيه   وأب موجع يبكى الوليدا [٢]

قد يتوقع بعض أن الغرض الذى كان يرمى إليه قتيبة بعد فتح سمرقند أن يوطد السيادة العربية فى الصغد كما فعل فى بخارى من قبل . لكننا نراه يقرر مد حدود الدولة العربية فى أواسط آسيا ، ويعبر نهر جيحون ميمما شطر بخارى

---

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ٢٢٦ — ٢٢٧ .   (٢) المصدر نفسه ج ٤ ص ٢٣٦ .

حيث التقى بجيش مؤلف من ٢٠٠٠٠٠ مقاتل من خوارزم وبخارى وكش ونسف[١] ، ثم يسير فى العام التالى إلى فرغانة[٢] ، حيث استأنف منها السير حتى بلغ خجندة[٣] حيث لقى مقاومة تذكر ، ولكنه أحرز نصراً مبيناً . ثم انصرف إلى كاشان حاضرة فرغانة ، ففتحها وعاد إلى مرو . وفى أثناء إقامته بها أتاه كتاب الوليد بن عبد الملك ، وقد جاء فيه : « قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجدك واجتهادك فى جهاد أعداء المسلمين ، وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك الذى يجب لك . فأتم مغازيك وانتظر ثواب ربك ، ولا تغيب عن أمير المؤمنين كتبك ، حتى كأنى أنظر إلى بلائك والثغر الذى أنت فيه[٤] » :

وكان من أثر فتح بلاد ما وراء النهر أن دخل الإسلام فيها . ذلك أن قتيبة لما وصل إلى سمرقند وجد فيها كثيراً من الأصنام ، وكان عبادها يعتقدون أن كل من اعتدى عليها مات لساعته . على أن هذا الفاتح المسلم لم يأبه لهذه المخاوف التى أثارتها تلك الخرافات ، ولم يحجم عن إحراق الأصنام .

يقول ابن الأثير (٤ : ٢٣٥) : « وأتى بالأصنام فكانت كالقصر العظيم ، وأخذ ما عليها وأمر بها فأخرجت . فجاءه غوزك فقال : إن شكرك علىّ واجب لا تتعرض لهذه الأصنام ، فإن منها أصناما من أحرقها هلك ، فقال قيتبة : أنا أحرقها بيدى ، فدعا بالنار فكبر ثم أشعلها فاحترقت » .

وكان تحول الناس فى هذه البلاد إلى الإسلام برغم هذا ضئيلا فى مستهل تاريخ تقدم الفتوح الإسلامية فى أواسط آسيا . ويظهر أن أهالى هذه البلاد طالما تظاهروا بانتحالهم الإسلام إلى حين ، ثم أسرعوا فكشفوا القناع وشقوا عصا الطاعة للخليفة بمجرد انسحاب جيوش الفتح : ولم يصب العرب النجاح المطلوب فى إرغام الأهلين على اعتناق دين الفاتحين ، حتى أتم قتيبة فتح بخارى

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٣٧ . ج ٨ ص ٨٩ .
(٢) إقليم متاخم لبلاد تركستان ومن مدنه خجندة .
(٣) بضم الخاء وفتح الجيم هى مدينة مشهورة على نهر سيحون بينها وبين سمرقند نحو عشرة أيام .
(٤) الطبرى ج ٨ ص ٩١ — ٩٦ . ابن الأثير ج ٤ ص ٢٣٨ — ٢٣٩ .

الدرجة الرابعة ، لحمل أهلها على اعتناق الإسلام . ولقى الذين أسلموا من أهالى هذه البلاد مقاومة عنيفة من مواطنيهم ، حتى إن كل مسلم اضطر أن يحمل سلاحاً أنى سار ليحافظ على حياته . ولم يجرؤ المسلمون على الظهور فى المساجد أو الأماكن العامة من غير أن يكونوا متقلدى السلاح ، على حين لم يكن بد من أن تقام الجواسيس لمرافقة الحديثى العهد بالإسلام . وكذلك بذل الفاتحون جهوداً كبيرة لجذب الناس إلى هذا الدين ، بل لقد حاولوا تأليفهم بالمال لحضور صلاة الجمعة بالمساجد ، وسمحوا بقراءة القرآن باللغة الفارسية بدلا من العربية ، حتى يستطيعوا جميعاً أن يفهموه فى سهولة ويسر[1] .

(ب) محاولة فتح بلاد الصين :

روى عن الرسول أنه قال : « أطلبوا العلم ولو فى الصين »[2] . ومع أنه ليس لدينا شاهد تاريخى يدل على أن هذا الكلام قد جاء على لسان الرسول ، فليس من المستحيل أن يكون قد عرف إسم هذه البلاد ، لأن الصلات التجارية بين بلاد العرب والصين كانت قد توطدت قبل مولده بزمن طويل . فكانت حاصلات الشرق التى تتلقاها بلاد الشام وموانى البحر الأبيض تمر بنسبة هائلة عن طريق بلاد العرب . وفى القرن السادس الميلادى كانت بين الصين وبلاد العرب تجارة هامة عن طريق سيلان . وفى بداية القرن السابع كانت التجارة بين الصين وبلاد فارس وبلاد العرب هى السوق الرئيسية للتجار الصينيين . وقد ورد ذكر العرب لأول مرة فى التواريخ الصينية فى ذلك الوقت الذى ابتدأ فيه حكم دولة تانج T'ang (٦١٨ — ٩٠٧ م) . وتشير هذه التواريخ إلى نشأة القومية الإسلامية فى مدينا ، كما تتحدث بإيجاز عن التعاليم الدينية للعقيدة الجديدة .

وعندما توفى يزدجرد آخر ملوك آل ساسان فى فارس ، استنجد ابنه فيروز بالصين لتنصره على العرب الغزاة . غير أن إمبراطور الصين أجاب بأن بلاد

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٠٧ . أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ترجمة ص ٢٤٣ .
(٢) كنز العمال ج ٥ ص ٢٠٢ .

الفرس من بعد الشقة وطول المسافة بحيث لا يستطيع أن يرسل إليه الجيوش المطلوبة . ولكن قيل إنه بعث إلى البلاط العربى سفيراً يدافع عن قضية الأمير الهارب . ومن المحتمل أيضاً أن يكون الإمبراطور قد أوصى سفيره بأن يتبين مدى الاتساع والقوة فى الدولة الجديدة التى كانت قد نشأت فى بلاد العرب . وقيل إن عثمان بن عفان أرسل أحد القواد العرب ليرافق السفير الصينى فى عودته فأكرم الإمبراطور وفادة أول سفير من المسلمين بعث إليه(١) .

وفى عهد الوليد بن عبد الملك نجد القائد العربى المشهور قتيبة بن مسلم لا يكتفى بما فتحه من بلاد ما وراء النهر ، بل يمضى قدما فى سنة ٩٦ هـ إلى حدود الصين على رأس جيش كثيف . وبينما هو فى طريقه إليها جاءه نبأ وفاة الوليد بن عبد الملك ، فلم يثنه ذلك عن مواصلة الغزو ، بل تابع سيره حتى قرب من الصين ، فأرسل إلى ملكها وفدا برياسة هبيرة بن المشمرج الكلابى . وبعد أن دارت بينه وبينهم عدة مراسلات قال ملك الصين موجهاً كلامه إليهم : « انصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له ينصرف ، فإنى قد عرفت حرصه وقلة أصحابه ، وإلا أبعث عليكم من يهلككم ويهلكه » . فقال له هبيرة : « كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون ؟ وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا قادراً عليها وغزاك ؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل ، فلسنا نكرهه ولا نخافه » . فأجابه ملك الصين : فما الذى يرضى صاحبك ؟ فقال هبيرة : « إنه قد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويعطى الجزية » فقال الملك : « فإننا نخرجه من يمينه : نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه ، ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم ، ونبعث إليه بجزية يرضاها(٢) » . ثم دعا بصحاف من ذهب فيها تراب ، وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم ، ثم أجاز الوفد فساروا حتى قدموا على قتيبة ، فقبل الجزية وختم الغلمان وردهم ووطىء التراب ثم عاد إلى مرو ،

---

(١) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٣٣٣ .
(٢) الطبرى جـ ٨ ص ١٠٠ — ١٠١ .

وتذكر التواريخ الصينية أن هشام بن عبد الملك أرسل سفيراً يدعى سليمان إلى الإمبراطور هزوان تسنج Hswan T'sang . وقد اكتسبت هذه العلاقات السياسية التى قامت بين الدولتين العربية والصينية أهمية جديدة فى أواخر عهد هذا الإمبراطور حين طرده أحد الغاصبين من عرشه ، فتنحى عنه لابنه سوتسنج Su Tsung ، فطلب هذا الأخير النجدة من الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور ، فأرسل إليه قوة من الجيوش العربية التى ساعدته على استرداد ملكه . ولم ترجع هذه القوة العربية إلى بلادها بل تزوجت من أهلها واستقرت فى الصين[1] .

(ح) فتح بلاد الهند :

ترجع حملات المسلمين على بلاد الهنـــد إلى عهد بعيد . فقد أرسلوا أولى حملاتهم بعد أن انتقل الرسول إلى جوار ربه بخمس عشرة سنة . ومن ثم أخذ سيل العرب يتدفق على هذه البلاد من ناحية الشمال الغربى ، واستمر ذلك إلى القرن الثامن عشر الميلادى ، واستقر بعضهم فيها ، وكونوا ممالك كان لها أثر كبير فى تقدم الحضارة الإسلامية .

يقول البلاذرى (ص ٤٣٨) : ولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه عثمان ابن أبى العاص الثقفى البحرين وعمان سنة خمس عشرة للهجرة ، فوجه أخاه الحكم إلى البحرين ، ومضى إلى عمان فأقطع جيشاً إلى تانة . فلما رجع الجيش كتب إلى عمر يعلمه ذلك ، فكتب إليه عمر : يا أخا ثقيف ! حملت دوداً على عود ، وإنى أحلف بالله أن لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم » . ووجه عثمان بن أبى العاص الحكم أيضاً إلى بروص ، ووجه أخاه المغيرة بن أبى العاص إلى خور الديبل على الساحل الغربى لبلاد الهند ، ويعرف الآن باسم كراتشى . فلقى العدو فظفر به .

فلما ولى عثمان بن عفان الخلافة ، ولى عبد الله بن عامر العراق ، وأمره أن يوجه إلى الهند رجلا يستطلع أخبارها ، ويصفها له ، فوجه حكيم بن جبلة العبدى ، فلما رجع وصفها له . ولم يغز هذه البلاد أحد حتى سنة ٣٩ هـ حين وجه

---

(١) الدعوة إلى الإسلام : ترجمة ٣٣٢ — ٣٣٣ .

على ابن أبى طالب إليها حملة بقيادة الحارث بن مرة ، فغنم كثيراً من الغنائم والأسرى ، ثم قتل سنة ٤٢ هـ بأرض القيقان من بلاد السند مما يلى خراسان .

وفى عهد معاوية بن أبى سفيان غزا المهلب بن أبى صفرة بلاد السند سنة ٤٤هـ ، وامتدت فتوحه إلى الأراضى الواقعة بين كابل والملتان . ثم امتدت فتوح المسلمين فى هذه البلاد فشملت القوقان والقيقان والديبل .

ولما ولى الوليد بن عبد الملك (٨٦ — ٩٦هـ) الخلافة عهد الحجاج بن يوسف الثقفى إلى محمد بن القاسم فى غزو بلاد الهند ، فسار إليها سنة ٨٩ هـ ، وحاصر ثغر الديبل وفتحه عنوة وبنى به مسجداً ، ثم سار إلى بيرون فاستقبله أهلها استقبالا حسناً وأدخلوه مدينتهم ووفوا بالصلح .

وواصل محمد بن القاسم فتوحه فى هذه البلاد حتى بلغ نهر السند ، وكان يعرف إذ ذاك باسم نهر مهران . وهنا التقى بداهر ملك السند ، وكان هو وجنده يقاتلون على ظهور الفيلة ، فاقتتلوا قتالا شديداً انتهى بقتل داهر وهزيمة أصحابه . وذكر المدائنى أن الذى قتله رجل من بنى كلاب[1] .

بذلك استطاع محمد بن القاسم أن يمد فتوحه فى كافة أرجاء بلاد السند ، ثم تابع هذه الفتوح حتى وصل إلى الملتان ودخلها . على أن مؤن المسلمين نفذت وكادوا يهلكون جوعا وعطشاً ، حتى اضطروا إلى أكل الدواب . وقتل محمد بن القاسم سدنة البد ، وهو مكان عبادته ، ويشبه كنائس النصارى وبيع اليهود . ويقول البلاذرى (ص ٤٤٥) : « وكان بد الملتان بدأ تهدى إليه الأموال وتنذر له النذور ، ويحج إليه السند فيطوفون به ويحلقون رءوسهم ولحاهم عنده ، ويزعمون أن صنما فيه هو أيوب النبى صلى الله عليه وسلم » . والمولتان أو الملتان مركز مشهور للحجاج من الهنـــود فى جنوب بلاد البنجاب . قال ياقوت : « وبه صنم يعظمه الهند ، وتحج إليه من أقصى بلدانها ، ويتقرب إلى الصنم فى كل عام بمال عظيم ينفق على بيت الصنم والمعتكفين عليه منهم . وسمى المولتان بهذا الصنم . وقد ألبس جميع بدنه جلداً يشبه السختيان الأحمر لايبين من جثته

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٤٤٣ — ٤٤٤ .

شيء إلا عيناه . وعيناه جوهرتان وعلى رأسه إكليل ذهب ، وهو متربع على ذلك السرير ، وقد مد ذراعيه على ركبتيه . ويسمى العرب المولتان فرج بيت الذهب ، لأنها فتحت فى أول الإسلام ، وكان بها ضيق وقحط ، فوجدوا فيها ذهباً كثيراً فاتسعوا به » .

ولما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة (٩٩ — ١٠١ هـ) كتب إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام ، ووعد بأن يقرهم على ما بأيديهم ، وأن يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . « وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه ، فأسلم حليشة بن داهر والملوك وتسموا بأسماء العرب » ، وغزا عمر بن مسلم الباهلى عامل عمر بن عبد العزيز بعض بلاد الهند . وفى عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥ هـ) خرج المسلمون عن بلاد الهند . ثم ولى الحكم بن عوانة الكلبى ، وقد كفر أهل الهند إلا أهل قصة ، فلم ير المسلمون ملجأ يلجأون إليه ، فبنى من وراء البحيرة مما يلى الهند مدينة سماها « المحفوظة » وجعلها مأوى لهم ومعاذا ومصرها » (١) .

ولما قامت الدولة العباسية فتح المسلمون فى عهد أبى جعفر المنصور (١٣٦ — ١٥٨ هـ) بلاد قشمير والملتان ، وكانت قد انتقضت ، وهدموا البد وبنوا فى موضعه مسجداً .

(د) فتح بلاد الأندلس :

١ — حالة الأندلس قبل الفتح :

ظلت أسبانيا تحت حكم الرومان إلى أن أغارت عليها قبائل الوندال فى القرن الخامس الميلادى . ومن ذلك الوقت أطلق على هذه البلاد فاندلوسيا أى بلد الوندان ، فأطلق عليها العرب بلاد الأندلس ، كما يطلقون عليها اسم الجزيرة .

وفى أوائل القرن السادس الميلادى (٥٠٧) أغار على أسبانيا قبائل القوط الغربيين وطردوا الوندال إلى إفريقية وكونوا لهم دولة قوية فى أسبانيا . غير أن أمرهم مالبث أن ضعف وسرت فيهم روح التخاذل ، فقسم الأشراف ورجال

(١) البلاذرى ٤٤٦ — ٤٤٩ .

الذين البلاد إلى إقطاعات كبيرة وسكنوا القصور الفخمة ، وانصرفوا إلى اللهو ومات فيهم حمية آبائهم الشجعان ، وتركوا الصناعة والزراعة فى أيدى الأرقاء الذين كانوا يعيشون فى ذل وضعة . كما أثقلوا كاهل الطبقة الوسطى من الزراع والتجار بالضرائب .

وقد اتبع رجال الدين — الذين كانوا يشيدون بالأخوة المسيحية بعد أن أثروا وملكوا الضياع الواسعة — السياسة الموروثة وعاملوا عبيدهم وخولهم بالعسف كما كان يفعل أثرياء الرومان وأغنياء القوط من بعدهم . « وقد كسب رجال الدين — كما يقول سير توماس أرنولد[1] — لطائفتهم نفوذا راجحا فى شئون الدولة . وجلس الأساقفة وكبار رجال الدين فى المجالس الوطنية التى كانت تجتمع لإقرار الشئون الهامة فى الدولة والمصادقة على انتخاب الملك ، وادعت لنفسها الحق فى عزله إذا أبى الإذعان لقراراتهم . واتخذ القسس من من وراء هذه القوة التى وصلوا إليها سبيلا لاضطهاد اليهود الذين كانوا طائفة كبيرة العدد فى أسبانيا . وصدرت الأوامر المشددة ضد كل من امتنع عن الدخول فى المسيحية » ، وحاول اليهود إشعال الثورة مرارا لما نزل بهم من الضيق والعسف ، لكنهم أخفقوا فى محاولاتهم ونهبت ديارهم واضطر كثير منهم إلى اعتناق المسيحية .

وكانت الطبقة الدنيا تشمل العبيد الذين انصرفوا إلى زراعتها . أما الطبقة الوسطى فقد كانت تلاقى من ضنك العيش شرا مما كان يلاقيه العبيد ، فكان يقع عليهم عبء الإنفاق على الدولة ، فهم الذين يؤدون الضرائب ويجمعون الأموال للأغنياء مما جر إلى خراب هذه الطبقة وإفلاسها[2] . هذا إلى ما أصاب أسبانيا من بؤس وشقاء ؛ فقد قيل إن الوباء تفشى فى سنى ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ هـ حتى مات أكثر من نصف سكانها .

تلك هى حال بلاد الأندلس فى الوقت الذى كان أهل شمالى إفريقية يتمتعون بحكم العرب وينعمون بعدلهم . فلا عجب إذا تمنى الأسبان ، وبخاصة اليهود والعبيد ، الخلاص من نير الحكم القوطى الجائر ، ولا يأبهون لتغلب

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ١٥٤ — ١٥٥ .

(٢) لينبول : العرب فى أسبانيا ، ترجمة على الجارم ص ٥ — ٦ ، ٨ .

حاكم على حاكم . وقد تولى العرش وتيكا الذى يسميه العرب «غيطشة» ، ولكنه لم يلبث أن عزل فى نهاية سنة ٧٠٩ م .

وصل العرب فى أوائل القرن الثامن الميلادى إلى سواحل المحيط الأطلسى بإفريقية ، ورأوا مضيق هرقل ، ورنوا بأبصارهم إلى ولايات أسبانيا المشرقة . وكان قد مضى على حكم القوط الجائر لهـذه البلاد زهاء قرنين . وحاول العرب فى النصف الثـانى من القرن الأول الهجرى غزو أسبانيا من ناحية إفريقية ، فأغاروا على السواحل الأسبانية فى عهد الملك فبا Vampa (٦٧٢ — ٦٨٠ م) القوطى . وقد خلفه فى الحـكم الملك إرفنج . وفى عهده سن تشريع خاص لاضطهاد اليهود . ثم اعتلى اجيسـا Egica العرش من بعـده . وفى أيامه دبر يهود أسبانيا (٦٩٤ م) مؤامرة واسعة النطاق لقلب النظام السياسى فى أسبانيا بمساعدة العرب الذين استولوا على شمال إفريقية . ولما اكتشفت هـذه المؤامرة شرعت عدة قوانين لحمل اليهود على التنصر واستعباد من لم يعتنق المسيحية منهم . غير أن هذه السياسة كانت بعيدة عن الصواب .

وجلس على العرش من بعده أخيلا Achila فى أوائل سنة ٧٠١ م ، ثم عزل فى ربيع هذه السنة على أيدى نبلاء القوط ورجال الـكهنوت الذين ولوا مكانه قائد الجيش القوطى رودريك[1] (ويسميه العرب لذريق ورذريك) ، وهو آخر ملوك الدولة القوطية فى أسبانيا . ولـكن هذا الملك مالبث أن أغرق فى الشهوات حتى نفرت منه القلوب ، وظهر فى عهده حزب قوى بزعامة أخيلا الذى حاول استرداد عرشه وحزب آخر ناصر الملك .

تقلد موسى بن نصير مولى عبد العزيز بن مروان إفريقية من قبل الوليد ابن عبد الملك سنة ٨٨ هـ . فخرج من مصر على رأس جيش قاصداً إفريقية . فلما بلغها ضم جيشاً آخر جعل على مقدمته مولاه طارق بن زياد . ثم أخذ موسى يقاتل البربر ويبسط نفوذ الأمويين وينشر الإسلام فى أرجاء بلاد المغرب حتى بلغ طنجة ، وكانت قصبة بلادهم وأم مدائنهم ، فحاصرها حتى فتحت وأسلم أهلها وقلد طارقا ولايتها[2] .

---

(١) Dozy, The Moslems in Spain, p 231

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٠٨ .

بهذا تمكن موسى وطارق من فتح بلاد المغرب كلها ، ولم يقف فى طريقه غير قلاع سبتة الحصينة على مجاز الزقاق . وكانت سبتة — كما يقول لينبول[1] — كغيرها من بلاد جنوبى بحر الروم تحت حكم إمبراطور الروم . غير أنها لبعدها عن القسطنطينية كانت تتوجه إلى مملكة أسبانيا بطلب المعونة ، فهى تابعة للروم من حيث الحكم ، مضافة فى الحقيقة إلى ملك طليطلة لحمايتها والدفاع عنها . على أن معاونة أسبانيا لها لم تكن كافية لصد تيار العرب الفاتحين الذين امتدت فتوحهم من بلاد الصين شرقاً إلى أعمدة هرقل غرباً ، أى إلى سواحل المحيط الأطلسى . على أنه حدث فوق هذا أن قام الشقاق بين الكونت جوليان حاكم سبتة من قبل القوط ولذريق ملك أسبانيا ، وفتح هذا الشقاق الباب واسعاً لدخول العرب وذلل سبيل الفتح للغزاة .

٢ — الفتح العربى :

تحالف الكونت جوليان مع حزب أخيلا للتخلص من لذريق لما كان يضمره له من العداء بسبب سوء مسلكه مع ابنته[2] ، وانضم إلى المؤتمرين وعول على الانتقام لنفسه ، ووجد فى جيوش البربر والعرب فى شمالى إفريقية خير من يقوم على تحقيق أغراضه وإرواء أحقاده . زار جوليان موسى بن نصير وأخبره أن الحرب بينهما قد انتهت ، « وكلمه فى غزو الأندلس ووصف له حسنها وفضلها ، وما جمعت من أشتات المنافع وأنواع المرافق وطيب المزارع وكثرة الثمار وغزارة المياه وعذوبتها ، وهون عليه مع ذلك حال رجالها ، ووصفهم بضعف البأس وقلة الغناء . فشوق موسى إلى ما هنالك وأخذ بالحزم فيما دعاه إليه يليان ، فعاقده على الانحراف إلى المسلمين ، واستظهر عليه بأن سامه (كلفه) مكاشفة أهل ملته من الأندلس المشركين والاستخراج إليهم بالدخول إليها وشن الغارة فيها . ففعل يليان ذلك وجمع جمعاً من أهل عمله ، فدخل بهم فى مركبين وحل بساحل الجزيرة الخضراء ، فأغار وقتل وسبى وغزا . وأقام بها أياماً . ثم رجع بمن معه سالمين ،

---

(١) العرب فى أسبانيا ، ترجمة على الجارم ص ٤ .

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٠٩ .Bradly, The Goths, p. 358

وشاع الخبر عند المسلمين ، فأنسوا ليليان واطمأنوا إليه ، وكان ذلك عقب سنة تسعين (١) .

لم ير موسى بدأ من الرجوع إلى الخليفة الوليد الذى تردد أول الأمر ، ثم أمره أن يرتاد الطريق حتى يتحقق أن جوليان لم يرد التغرير بالمسلمين . فأرسل طريف بن مالك ، وكان من البربر وإليه تنسب جزيرة طريف على المجاز ، فى سنة ٩١ هـ (٧١٠ م) على رأس خمسمائة مقاتل منهم أربعمائة راجل ومائة فارس جاز بهم البحر فى أربع من سفن جوليان ، وغزا بعض ثغور الأندلس الجنوبية بمساعدة جوليان وعاد محملا بالغنائم ، بعد أن اقتنع بانعدام وسائل الدفاع فى أسبانيا .

وقد شجع نجاح طريف فى هذه الغزوة موسى بن نصير على فتح أسبانيا ، فندب لهذا الأمر الخطير مولاه طارق بن زياد قائد جيشه وحاكم طنجه . وقيل إنه اختاره ليرتاد الطريق كطريف .

كان طارق أحد الموالى الذين كان لهم شأن فى الفتوح الإسلامية . ومن عجب أن يختلف المؤرخون وأصحاب السير فى نسب قائد فذ وفاتح مشهور مثله . فيذكر بعضهم أنه بربرى الأصل ينتمى إلى نفزاوة من بربر إفريقية ، وهى البلاد التى يطلق عليها إسم تونس الآن . وفى رواية أخرى أنه ينتمى إلى قبيلة زناتة . ويرى بعض آخر أنه من موالى الفرس من مدينة همذان ، وقيل إن اسمه طارق بن عمرو وليس طارق بن زياد . ولكن مما لاشك فيه أنه كان مولى لموسى ابن نصير ، وأن موسى وثق به فقربه إليه وأمره على بعض الجيوش ، وجعله فى مقدمة جيشه الذى قاتل به البربر وفتح بلادهم وولاه طنجة كما تقدم . ثم ندبه لفتح أسبانيا لأنه توسم فيه صدق العزيمة وقوة الشكيمة وشدة البأس وصلابة العود ، فوق ما امتاز به من حسن الكلام وقوة البيان والقدرة على التأثير فى قلوب سامعيه ، وما اشتهر عنه من الاخلاص فى الجهاد . ورجل هذا شأنه وتلك سريرته خير من يضطلع بهذا الأمر الجليل . هذا إلى أن طارقاً كان من بربر إفريقية وأن جل جنده كانوا من البربر ؛ فهو يستطيع إذن أن يصل

(١) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١١٩ — ١٢٠ .

إلى شغاف قلوبهم ، ويؤثر فى نفوسهم ، ويحسن توجيههم ، ويأخذ بأيديهم فى طريق النصر .

وفى شهر شعبان سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) عبر طارق البحر فى أربع سفن أعدها له جوليان ، وسار على رأس سبعة آلاف من المسلمين . وأخذ طارق وهو على رأس سفينته يتأمل عجائب الكون وينظر إلى السماء متوجهاً إلى الله بقلبه يلتمس منه العون ويذكر الرسول الكريم وما لاقاه فى سبيل نشر الدعوة من محن وآلام ، إذ أخذته سنة من النوم ، « فرأى النبي صلى الله عليه وسلم وحوله المهاجرون والأنصار قد تقلدوا السيوف وتنكبوا القسى ، فيقول له رسول الله : « ياطارق ! تقدم لشأنك ، ونظر إليه وإلى أصحابه قد دخلوا الأندلس قدامه » . ثم هب طارق من نومه مستبشراً ، وثابت نفسه ببشراه ولم يشك فى النصر .

ألقت السفن مرساها قبالة الجزيرة الخضراء عند صخرة الأسد التى حملت اسم طارق إلى اليوم فسميت « جبل طارق » ، ونزل المسلمون فى مكان يقال له البحيرة جنوبى أسبانيا . وكان الملك لزريق إذ ذاك مشغولا بثورة أخيلا فى عبلونه شمالى أسبانيا ، ولما علم بنزول العرب فى أرض أسبانيا ، أدرك ما يحدق ببلاده من خطر ، وأغذ السير إلى الجنوب ، وجمع جيشاً جراراً قيل إنه بلغ سبعين ألفاً ، وقيل مائة ألف .

ولكن هذا الجيش الجرار المزود بكامل العدة والسلاح لم يثن من عزيمة طارق أو يضعف إيمانه ، بل أخذ يفتح القلاع والمدن . وقد قيل إن امرأة عجوزاً من أهل الجزيرة الخضراء وقعت فى أيدى المسلمين . فلما رأت طارقاً قالت : « إنه كان لها زوج عالم بالحدثان ، فكان يحدثهم عن أمير يدخل بلدهم هذا فيتغلب عليه ويصف من نعته أنه ضخم الهامة ، فأنت كذلك . ومنها أن فى كتفه الأيسر شامة عليها شعر ، فإن كانت فيك فأنت هو ، فكشف ثوبه فإذا بالشامة فى كتفه على ما ذكرت ، فاستبشر بذلك ومن معه (١) .

---

(١) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٠٩ .

بعث طارق إلى موسى بن نصير يطلب منه المدد حتى يستطيع الوقوف أمام جيش لذريق ، فأمده بخمسة آلاف ، فبلغ عدد جنده اثنى عشر ألفاً . وقد ثارت مخاوف المسلمين حين علموا بدنو جيش لذريق ، ولكن طارقاً لم يزد إلا حماسة واستبسالا ، فقام فى أصحابه فحمد الله وأثنى عليه ، وألقى عليهم خطبته الخالدة التى حثهم فيها على الجهاد والتذرع بالصبر ، ومناهم الأمانى الطيبة ، وبشرهم بما سيفتحون من بلاد ويصيبون من غنائم وينعمون فى دنياهم وآخرتهم فقال :

« أيها الناس ! أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر . واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه ، وأسلحته وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم . وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ، ذهب ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم . فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة بمناجزة هذه الطاغية ... وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت . وإنى لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ، حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس . أبدأ بنفسى ، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا ... وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان ، الرافلات فى الدر والمرجان والحلل المنسوجة بالعقيان (الذهب) ، المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختانا ... ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مغنمها خالصاً لكم من دونه ومن دون المسلمين سواكم . واعلموا أنى مجيب لما دعوتكم إليه ، وإنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله [1] » .

ولما أصبح الصباح أقبل لذريق وهو على سريره محمولا على دابتين، وعليه مظلة مكللة بالدر والياقوت والزبرجد ، تحف به البنود والأعلام ، وبين يديه جنده

(١) المقرى ج ١ ص ١١٣ — ١١٤ .

الكثيف من العبيد والمستضعفين الذين ينقصهم النظام والإخلاص . وأقبل طارق فى بساطته يحف به أصحابه الذين عمر الإخلاص قلوبهم ، وعليهم الزرد ، ومن فوق رءوسهم العمائم ، وبأيديهم القسى العربية ، وقد امتشقوا السيوف وتقلدوا الرماح .

التقى طارق بجيش لذريق على مقربة من نهر وادى لكة ، ويسميه العرب وادى بكة ، ويصب فى المضيق عند رأس الطرف الأغر . وأخذ طارق وجنده يحملون على العدو حتى تم له النصر . ثم هجم طارق على لذريق فضربه بسيفه فقتله ، وقيل إنه جرح ، فرمى بنفسه فى وادى لكة فغرق ، وحمل النهر جثته إلى المحيط . ولا تزال نهايته سرا إلى اليوم ، وحلت الهزيمة بجنده وتشتت شمله وتفرق أيدى سبأ .

ومما ساعد على انتصار جيش طارق انحياز أبنـــاء غيطشة وأنصارهم إلى العرب ، وكانوا ينفسون على لذريق اغتصابه العرش بعد موت أبيهم . فقد ذكر المقرى أن لذريق كتب إلى أولاد غيطشة يحثهم على الانضمام إليه لحرب العرب ويحذرهم من القعود عن نصرته ، وقال بعضهم لبعض ، « إن هذا ابن الخبيثة قد غلب على سلطاننا وليس من أهله ، وإنما كان من أتباعنا ، فلسنا نعدم من سيرته خبالا فى أمرنا . وهؤلاء القوم الطارقون لاحاجة لهم فى استيطان بلدنا ، وإنما مرادهم أن يملئوا أيديهم من الغنائم ثم يخرجوا عنا . فهلموا فلننهزم بابن الخبيثة إذا نحن لقينا القوم لعلهم يكفوننا إياه . فإذا انصرفوا عنا أقعدنا فى ملكنا من يستحقه » . وقيل لما تقابل الجيشان أجمع أولاد غيطشة على الغدر بلذريق ، وأرسلوا إلى طارق يسألونه الأمان على أن يميلوا إليه عند اللقاء فيمن يتبعهم ، وأن يسلم إليهم إذا ظفر ، ضياع والدهم بالأندلس كلها ، وكانت ثلاثة آلاف ضيعة نفائس مختارة ، وهى التى سميت بعد ذلك صفايا الملوك » . كما استطاع جوليان أن يستميل إليه كثيراً من جند لذريق ، مما رجح كفة العرب ومزق شمل جيش لذريق . وقد قيل إن طارقا ضربه بسيفه فقتله[1] .

---

(١) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١١٧ ، ١٢١ — ١٢٢ Dozy, p. 232 et seq.

يقول ستانلى لينبول(١) : إن إنتصار المسلمين فى وادى لـكة ألقى بأسبانيا كلها فى أيدى المسلمين . ولم يكن طارق بحاجة إلا إلى قليل من الجهد ليقضى على المقاومة الضئيلة فى بعض المدن » ، بل إن الأسبان « كانوا — كما يقول المقرى — يسلمون بلداً بلداً ومعقلاً معقلا » .

كتب طارق إلى موسى بن نصير يخبره بما أحرزه من نصر وما استولى عليه من غنائم ، فدبت الغيرة إلى نفسه ، وأراد أن يكون له شرف فتح بلاد الأندلس ، وأن يكون له نصيب فى الغنائم . فكتب إلى طارق يأمره ألا يتجاوز مكانه حتى يلحق به ، واستخلف ابنه عبد الله على القيروان ، وخرج فى سنة ٩٣ هـ فى عسكر ضخم بصحبة حبيب بن منذة الفهرى .

وقد رأى طارق بعد أن استشار رؤساء جيشه ، أن وقف القتال يعرض المسلمين للخطر ويعطى القوط فرصة يلمون فيها شعثهم ويوحدون كلمتهم ، فأخذ يزحف على مدن أسبانيا ، وقسم جنده ثلاث فرق أو كتائب بثها فى شبه الجزيرة : فأرسل مغيث بن الحارث على رأس سبعمائة فارس إلى قرطبة (وقيل إن الذى سار إلى قرطبة هو طارق نفسه) ، وكان معظم أهلها قد رحلوا إلى طليطلة التى كانت حاضرة دولتهم وبقى فيها أميرها فى أربعمائة فارس .

وقد دلهم راعى غنم على ثغرة فى سور قرطبة العالى الحصين ، وأعانت الطبيعة المسلمين على أعدائهم فى تلك الليلة فانهمر المطر وسقط الجليد ، فلم يسمع وقع حوافر الخيل . وعبر المسلمون نهر قرطبة وباغتوا حراس المدينة الذين انزووا هرباً من المطر والبرد ، وتسلقوا السور وباغتوا الحراس وقتلوا نفراً منهم ، وفتحوا باب الحصن واستولوا على المدينة عنوة ، وتحصن أميرها بكنيسة غربى المدينة ثلاثة أشهر حتى ضاق ذرعا وأرغم على الهرب ، فطارده مغيث وقبض عليه ، ثم جمع يهود قرطبة وأقرهم فيها مع طائفة من الجند(٢) .

وكان لليهود أثر يذكر فيما فتحه العرب من المدن . أضف إلى ذلك ما استولى على نفوس الأسبان من خوف وفزع . وهذا يعلل لنا مبلغ السهولة التى ساعدت

---

(١) العرب فى أسبانيا . ترجمة ص ٢١ .

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٢٣ — ١٢٥ .

العرب على فتح كورة رية وفتح أكبر مدائنها مالقة ، ثم كورة ألبيرة حيث غرناطة التى أنزلوا فيها اليهود . ثم فتحت مدينة أريولة أبوابها للعرب ، وتبعتها طليطلة حاضرة مملكة القوط ، وكان أهلها قد اعتصموا بمدينة خلف الجبل ، وأنزل المسلمون اليهود فى طليطلة وخلفوا معهم فريقا من الجند لحمايتها . وكان ذلك سنة كدأبهم فى كل مدينة يفتحونها . ثم طاردوا أهل طليطلة المنهزمين ، فسلكوا وادى الحجارة حتى بلغوا مدينة المائدة . ومازالوا يتبعون جند الأسبان المنهزمين أمامهم إلى أن وصلوا إلى جليقية فى الشمال الغربى من الأندلس :

أما موسى بن نصير فإنه لما دخل الأندلس على رأس جيش كثيف يتألف من العرب والبربر ، فتح مدينة قرمونة ، وكانت أحصن مدن هذه البلاد ، ثم مضى إلى إشبيلية ، وكانت من أعظم مدن الأندلس شأنا وأفخمها بناء وأكثرها آثاراً ، وكانت حاضرة أسبانيا ، حتى غلب عليها القوط فاتخذوا طليطلة حاضرة لدولتهم كما تقدم . ولكن هذه المدينة امتنعت على موسى الذى أرغم على حصارها عدة أشهر حتى تم له فتحها . ثم أخذ يفتح البلاد حتى بلغ مدينة ماردة التى اتخذها بعض ملوك أسبانيا حاضرة لهم . وقد امتازت بقصورها ومصانعها وكنائسها . وقد استعصت على المسلمين حتى فتحوها فى يوم عيد الفطر سنة ٩٤ هـ . ولكن أهلها لم يلبثوا أن انقضوا على المسلمين وقتلوا منهم نحو ثمانين رجلا ، فوجه إليها موسى بن نصير ابنه عبد العزيز ففتحها من جديد .

امتدت فتوح موسى إلى برشلونة شرقا وأربونا فى الجوف وقادس فى الجنوب الغربى وجيليقية فى الشمال الغربى . ثم التقى موسى بطارق فى مكان من كورة طلبيرة ، فحط شأنه وأظهر مافى نفسه من حقد وموجدة عليه لمخالفته أمره ، بل ضربه بالسوط ووبخه على استبداده برأيه وطالبه بالأموال والنفائس التى استولى عليها ثم سجنه[1] .

غير أن طارقا استطاع وهو فى سجنه أن يبث شكواه إلى الخليفة الوليد ، فكتب إلى موسى بإطلاقه ورده إلى عمله . ثم سار موسى وطارق لفتح شمالى أسبانيا ، ففتحا أقاليم أرغونة وقشتالة وقطلونية ، كما استولى على سرقسطة

---

(١) المقرى جـ ١ ص ١٢٥ ، ١٢٧ — ١٢٨ .

وبرشلونة ، واستمرا فى السير حتى بلغا جبال البرانس . وتم بذلك فتح أسبانيا عدا الأقاليم الجبلية فى الشمال الغربى التى التجأ إليها أشراف القوط وكبراؤهم .

ولم تقف أطماع موسى عند حد جبال البرانس ، بل عزم على مواصلة الفتوح فى جنوب بلاد فرنسا الحالية ، على أن يتجه شرقا حتى يصل إلى القسطنطينية التى عجز العرب عن فتحها ، ثم يستمر فى فتوحه حتى يلحق بحاضرة الخلافة ، وبذلك يجعل البحر الأبيض المتوسط بحيرة عربية . ولما بلغ الخليفة الوليد ذلك أمره بالكف عن التوسع واستدعاه هو وطارقا ، لأنه لم يرض أن يعرض المسلمين للخطر ، ولأنه كان يخشى ازدياد نفوذ موسى واستقلاله بتلك البلاد إذا تم له فتحها ، وكتب إلى موسى أن يعدل عن تنفيذ هذه الخطة الجريئة . فرحل إلى دمشق سنة ٩٦ هـ بعد أن ولى ابنه عبد العزيز بن موسى عليها ، وولى ابنه عبد الله على إفريقية . وقبل وصول موسى إلى دمشق مرض الوليد مرض الموت ؛ فطلب أخوه سليمان ، وكان الوليد قد ولاه عهده ، إلى موسى أن يبطىء فى السير حتى يموت الوليد طمعاً فى الحصول على الغنائم والتحف التى كان يحملها هذا القائد . غير أن موسى لم يعمل بهذا الرأى فحقد عليه سليمان كما سيأتى . أما طارق فقد انتهت حياته فى غموض كما بدأت فى غموض . وكل ما ذكره المؤرخون أنه رحل مع مولاه موسى بن نصير بعد فتح الأندلس إلى الشام وانقطع خبره .

خلف عبد العزيز بن موسى بن نصير أباه فى ولاية الأندلس كما تقدم ، فنظم الحكومة ، وألف مجلساً خاصاً لاستنباط الأحكام الشرعية التى تتفق وحالة السكان ، وعنى بالزراعة ونظم الطرق ، ورفع عن الأسبان مظالم القوط ؛ فخفف الضرائب التى أثقلت كاهلهم وساوى فيها بين طبقات الأمة من غير تمييز فى الدين والجنس . كما أمن الأهلين على دينهم وأمـــوالهم وأنفسهم وحريتهم ، وشجع العرب على الاختلاط والتصاهر معهم ، وتزوج هو بأرملة لذريق التى بقيت على دينها .

وكان من أثر مغالاة عبد العزيز بن موسى فى إرضاء المسيحيين ، أن نقم عليه بعض أعدائه ووشوا به عند الخليفة سليمان بن عبد الملك الذى كان يخاف خروجه عليه انتقاما لأبيه ، فأثار جند الأندلس وأوغر صدورهم عليه فقتلوه بعد أن حكم هذه البلاد سنتين[1] .

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١١٠ .

وبعد أن قتل عبد العزيز بن موسى أقام الجند قائدهم أبا أيوب بن حبيب الفهرى ابن أخت موسى بن نصير والياً على الأندلس ، فأخذ يطوف البلاد وينشر العدل فى أرجائها . غير أن مدة ولايته لم تطل ، فقد عزل لعدم موافقة والى إفريقية على تعيينه ، وكان لهذا الوالى حق تعيين الأمراء على بلاد الأندلس ، فخلفه الحر بن عبد الرحمن الثقفى سنة ٩٧ هـ ، وبقى فى ولايته سنتين وثمانية أشهر (١) .

٣ — أثر فتح الأندلس :

غير الفتح الإسلامى حال أهل الأندلس بوجه عام . فقد زال الحكم القوطى وآثاره عن تلك البلاد ، ولم يبق للقوط شوكة ، إلا فريقاً اعتصم فى جبال جليقية فى الشمال الغربى ، وقد آلت ممالكهم وأموالهم إلى العرب الفاتحين . وأبقى العرب على بعض الذين أعانوهم من الحكام القدماء ، فأعيد جوليان إلى حكم سبتة كما كان ، وردت إلى أبناء غيطشة أموالهم وضياعهم الكثيرة (٢) .

أما اليهود الذين ذاقوا الذل والهوان فى حكم القوط ، فقد سمح لهم العرب بمزاولة التجارة ، وأمنوهم على أنفسهم وأولادهم وأموالهم ، وسمحوا لهم بحرية الملكية ، واشتغل كثير منهم بالعلوم والآداب والطب والفلسفة فنبغوا ونبهوا (٣) .

وأحسن العرب معاملة الرقيق الذين حل بهم البؤس والشقاء قديماً ، فنالوا فى عهد العرب كثيراً من الحقوق المدنية ، فزرعوا الأرض لحسابهم على أن يؤدوا الخراج . وكان هم العرب منصرفاً إلى توطيد السلام بين الأجناس المختلفة ، فانقاد الأسبان لحكمهم لما وجدوا فيه التسامح الذى كانوا ينشدونه .

وقد دان بالإسلام عدد كبير من أهالى الطبقات الدنيا عن إيمان ثابت ، متحولين إليه من دنياهم القديمة التى أهمل رجالها مصالحهم ولم يحفلوا بتلقينهم

(١) المقرى ج ٢ ص ٦٩٥ — ٦٩٦ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٢٦ — ١٢٧ .

(٣) المقرى ج ١ ص ٢٨٠ — ٢٨١ . أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ١٥٥ .

أصولها ، وانصرفوا إلى مطامع الدنيا فساموهم الخسف ونهبوا أملاكهم . « أما عن حمل الناس على الدخول فى الإسلام أو اضطهادهم بأية وسيلة من وسائل الاضطهاد فى الأيام الأولى التى أعقبت الفتح العربى ، فإننا لا نسمع عن ذلك شيئاً . وفى الحق أن سياسة التسامح الدينى التى أظهرها هؤلاء الفاتحون نحو الديانة المسيحية كان لها أكبر الأثر فى تسهيل استيلائهم على هذه البلاد »[1]

٤ — حروب العرب فيما وراء البرانس :

لم يحقق موسى بن نصير فكرته الجريئة التى كانت تهدف إلى فتح جنوبى أوروبا ، فلم تتعد فتوح العرب جبال البرانس ، إلى أن ولى عمر بن عبد العزيز ، السمح بن مالك الخولانى (١٠٠ — ١٠٢ هـ) بلاد الأندلس ، فجدد عهد الفتوح واخترق جبال البرانس ، وزحف على مقاطعتى سبتمانيا وبروفانس ، ثم أغار على أكيتانيا ، وكانت مقاطعة مستقلة جنوبى نهر اللوار ، وحاصر تولوز (طلوشة) ، فقابله يودو دوق أكيتانيا بجيش كبير ، ونشبت بين الفريقين معركة عظيمة قتل فيها السمح وأكثر رجاله ، فتولى عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى قيادة الجند ، فانسحب بفلول جيشه إلى مدينة نربونة .

وقد أدخل السمح كثيراً من ضروب الإصلاح ، فخمس الأراضى التى فتحت عنوة (بأمر عمر بن عبد العزيز) وبنى قنطرة قرطبة .

وفى سنة ١٠٣ هـ تولى على بلاد الأندلس عنبسة بن سحيم الكلبى من قبل والى إفريقية ، فعاد إلى غزو بلاد غالة واستولى على سبتمانيا ، ووصل إلى حوض الرون ، وتوغل فى إقليم برغندية حتى بلغ مدينة ليون واستولى عليها . ولكنه قتل أثناء عودته (١٠٧ هـ) ، فاضطر العرب إلى التقهقر إلى نربونة ثانية ، ووقف تيار الفتح أربع سنين بسبب قيام الاضطرابات الداخلية فى الأندلس ، إلى أن تولى حكم هذه البلاد عبد الرحمن الغافقى من قبل عبيد الله بن الحبحاب عامل إفريقية فى عهد هشام بن عبد الملك ، فوطد النظام فى أرجاء البلاد ، وأصلح ما أصاب الجيش والإدارة من خلل ، ثم تفرغ للقتال فى بلاد غالة ، فخرج فى ثمانية آلاف رجل واستولى على دوقية أكيتانيا .

---

(١) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ١٥٧ ، ١٥٩ .

وقد استعان دون أكيتانيا بالفرنجة ، فجمع شارل مارتل جيشاً ضخماً لقى به العرب على مقربة من بواتييه حيث دارت بينهم الموقعة المشهورة بموقعة تور ، فى الموضع المعروف ببلاط الشهداء . وتعرف هذه الغزوة بغزوة البلاط كما عرفت غزوة السمح بن مالك من قبل[1] . وكانت الغنائم التى غنمها المسلمون فى أكيتانيا من الكثرة بحيث خشى عبد الرحمن أن تشغل الجند وتعطل حركات الجيش . وبعد مناوشات دامت ثمانية أيام دارت رحى القتال إلى أن غابت الشمس . وفى اليوم التالى هجم المسلمون على العدو وكاد النصر يتم لهم ، لولا ما أشيع من أن العدو استولى على ما خلفوه من غنائم . فأسرع الجند لحمايتها ووقع الاضطراب فى صفوفهم وأصيب عبد الرحمن بسهم أودى بحياته ، فتفرقت كلمة المسلمين ، واختلف رؤساء الجند واضطروا إلى الانسحاب فى ظلام الليل دون أن يشعر بهم المسيحيون . ولم يتعقب شارل مارتل فلول جيش المسلمين خشية أن يكون انسحابهم تدبيراً للإيقاع بهم .

وتعتبر موقعة تور من المواقع الحاسمة فى التاريخ ، إذ لو تم النصر للعرب لوقعت أوربا فى أيديهم وانتشر الإسلام فيها . ولم يحاول العرب الاستيلاء على بلاد الفرنجة بعد هذه الموقعة ، بل أخذوا يتراجعون إلى بلاد الأندلس ، حتى إنه لم يبق لهم فيما وراء البرانس إلا مقاطعة سبتمانية ولم تكن حروبهم بعد ذلك إلا غارات لا أهمية لها .

وكان من أثر ما أحرزه شارل مارتل من انتصار على العرب أن ذاع صيته ولقبه الفرنجة شارل مارتل أى شارل المطرقة .

٥ — الأندلس فى أواخر العصر الأموى :

على أن العصبية القبلية لم تلبث أن ظهرت بين العرب فى الأندلس ، بين الشاميين والبلديين (وهم عرب الحجاز) ، وبين البربر والعرب ، بل بين العرب أنفسهم من يمنية ومضرية ، وأصبح بعض المسلمين يستعين بالفرنجة على إخوانهم فى الدين . ورأى الفرنجة تغلب المسلمين على بلاد الأندلس ،

(١) المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ٦٩٥ — ٦٩٦ .

فهالهم هذا الأمر وعملوا على مناوأتهم وإخراجهم من البلاد . وخشى الفرنجة توغل العرب فى بلادهم ، فاجتمعوا إلى ملكهم « قارله » (هو شارل مارتل) ... فقالت له . ماهذا الخزى الباقى فى الأعقاب ؟ كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس حتى أتوا من مغربها واستولوا على بلاد الأندلس وعظيم ما فيها من العدة والعدد ، بجمعهم القليل وقلة عدتهم وكونهم لادروع لهم ، فقال لهم ماممناه : « الرأى عندى أن لاتعترضوهم فى خرجتهم هذه ، فإنهم كالسيل يحمل من يصادره ، وهم فى إقبال أمرهم ، ولهم نيات تغنى عن كثرة العدد وقلوب تغنى عن حصانة الدروع . ولكن أمهلوهم حتى تمتلىء أيديهم من الغنائم ويتخذوا المساكن ويتنافسوا فى الرياسة ويستعين بعضهم ببعض ، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر »[١] .

ولا غرو فقد قام النزاع بين العرب والبربر . وماكاد شر البربر يزول من الأندلس ، حتى قام النزاع بين المضرية واليمنية : فقد تولى أبو الخطار بلادالأندلس سنة ١٢٥ هـ ، فقام فى وجهه الصميل بن حاتم — وكان مضريا — وخلعه وأسره وولى عليهم واحدا منهم (١٢٧ هـ) . ولكن هذا الوالى الجديد ، أو الثائر بعبارة أدق ، توفى بعد سنتين ، فأراد أهل اليمن إعادة أبى الخطار ، وامتنعت مضر ورأسهم الصميل وافترقت الكلمة ، فأقامت الأندلس أربعة أشهر بغير أمير ... فلما تفاقم الأمر اتفق رأيهم على يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة الفهرى ؛ فوليها يوسف وكان (مضريا) سنة تسعة وعشرين (ومائة) ، فاستقر الأمر على أن يلى سنة ثم يرد الأمر إلى اليمن فيولون من أحبوا من قومهم ، فلما انقضت السنة أقبل أهل اليمن بأسرهم يريدون أن يولوا رجلا منهم ، فهم الصميل فقتل منهم خلقاً كثيراً ... واجتمع الناس على يوسف ولم يعترضه أحد ... وبقى يوسف على الأندلس إلى أن غلب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام[٢] .

٧ — سليمان بن عبد الملك

(٩٦ — ٩٩ / ٧١٥ — ٧١٧)

اتسعت رقعة الدولة الأموية فى الشرق والغرب فى عهد الوليد بن عبد الملك

(١) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٣٠ .

(٢) ابن الأثير ج ٥ ص ١٩٨ — ١٩٩ . المقرى ج ٢ ص ١٩٩ — ٢٠٠ .

كما تقدم . أما فى عهد سليمان فإنه لم يكن هناك من فتح غير بلاد جرجان وطبرستان على يد يزيد بن المهلب أمير بلاد المشرق وحصار القسطنطينية .

١ — فتح القسطنطينية :

وكان الوليد قد شرع فى إرسال حملة الاستيلاء على القسطنطينية ، ولكنه توفى قبل مسير هذه الحملة . فلما ولى سليمان الخلافة ، أنفذ هذه الحملة ورابط فى مرج دابق على بعد أربعة فراسخ من حلب[1] . وقد دافع أنستسياس الثانى إمبراطور الروم عن حاضرة ملكه بكل ما أوتى من قوة ، وأرسل إلى الثغور حملة لتحول دون وصول الأقوات والمؤن إلى جند المسلمين ، ولكنها أخفقت ، وانضم إلى جيش المسلمين فى آسيا الصغرى ليو الأزورى البيزنطى ، وكان يطمع فى الملك ، واتحد مع مسلمة بن عبد الملك بن مروان أمير هذه الحملة . ومن ثم أخذ المسلمون يستولون على بلاد آسيا الصغرى مدينة تلو مدينة حتى عبروا البحر ووصلوا إلى أسوار القسطنطينية ، وتبعهم أسطول المسلمين من الثغور الشامية والمصرية ، واشترك فى حصار حاضرة البيزنطيين .

غير أن ليو خرج على صفوف المسلمين وأعلن نفسه إمبراطورا بدلا من أنستسياس الذى كان مكروها من الأهلين . واشتد حصار المسلمين المدينة من البحر ، وهاجمها أسطولهم ، فعمل ليو على استدراج سفن المسلمين ، ففتكت بها النار الإغريقية ونفدت أقواتهم ، فتحملوا آلام الجوع والمرض حتى فنى جلهم بعد أن دمرت أكثر سفنهم ، وعادت الحملة تجر ذيل الخيبة ، كما أخفقت الحملة التى سبقتها فى عهد معاوية .

٢ — التشكيك بوورة أخيه الوليد — وفاته :

هذا إلى ما كان من إيثار بعض ولاة سليمان وعماله عن النيل من البعض الآخر . ومن هؤلاء محمد بن القاسم فى الهند ، وقتيبة بن مسلم فى بلاد ماوراء النهر ، وموسى بن نصير فى الأندلس ، وأسرة الحجاج فى العراق .

---

(١) والمرج عشب نزة كان ينزله بنو مروان إذا غزوا الصائفة فى ثغر المصيصة ، وبه قبر سليمان بن عبد الملك .

كان سليمان بن عبد الملك يبغض الحجاج وأهله وولاته ، حتى إن الحجاج كان يخشى أن يموت الوليد قبله فيقع فى يد سليمان ، وذلك لما كان من إجابة الوليد إلى ما اعتزمه من عزل سليمان من ولاية العهد وتولية ابنه عبد العزيز . فلما ولى سليمان الخلافة وولى يزيد بن أبى كبشه السكسكى السند ، أخذ محمد ابن القاسم ابن أخت الحجاج وقيده وحمله إلى العراق . وكان محمد محبوباً من أهالى السند لحسن سيرته فيهم ، حتى إنهم بكوا عليه حين فارقهم . ولما وصل محمد إلى العراق حبس فى واسط ثم عذبه صالح بن عبد الرحمن وقتله . وبذلك انتهت حياة هذا القائد إرضاء لأهواء الخليفة الذى نسى بلاءه وعظيم أعماله .

وحقد سليمان بن عبد الملك كذلك على قتيبة بن مسلم الباهلى لأنه كان ممن وافق الوليد على عزله من ولاية العهد . وأما موسى بن نصير فقد تعجل الذهاب إلى الخليفة الوليد قبيل وفاته ومعه الأموال والغنائم ، ولم يصغ إلى طلب سليمان إياه التريث حتى يموت الوليد وتؤول إليه غنائم الأندلس . ومن هذا نرى أن سليمان كان مدفوعاً فى حقده على أولئك الرجال بعوامل شخصية . ومن ثم لم يكن من سبيل إلى نبوغ القواد وإخلاص قلوبهم لخلفائهم بعد أن رأوا أن إخلاصهم كان وبالا عليهم .

لم يعمر سليمان فى الخلافة أكثر من سنتين . وقد اشتهر بالفصاحة بعكس أخيه الوليد . وكان فوق ذلك نهماً مغرماً بالطعام والنساء ، وقد دب الترف والبذخ فى البلاط فى عهد سليمان وتسرب إليه الفساد ، فأكثر من الخصيان وتعدت هذه الرذائل إلى الولاة والأمراء . وقد قيل عن وفاته إنه لبس يوماً حلة وعمامة خضراء ونظر فى المرآة وقال : أنا الملك الفتى فنظرت إليه جارية من جواريه وقالت :

أنتَ نِعمَ المتاع لو كنت تبقى ... غيرَ أنْ لابقاء للإنسان

ليس فيما علمْته فيك عيبٌ ... كان فى الناس غير أنك فان

ولم يمض أسبوع واحد على ذلك حتى مات .

٨ — عمر بن عبد العزيز

(٩٩ — ١٠١ هـ)

١ — عمر منذ ولد الى أن ولى الخلافة :

يعد عمر بن عبد العزيز من أحسن خلفاء بنى أمية سيرة ،وأنقاهم سريرة، وأنزههم يداً ، وأعفهم لساناً ، وأسبقهم إلى نشر الإسلام وإعلاء كلمة الدين ، وقد أصبح حكمه غرة فى جبين ذلك العصر الذى تلطخ بالاستبداد وسفك الدماء ، حتى شبه المسلمون خلافته بخلافة جده عمر بن الخطاب فى عدله وزهده .

ولد عمر بن عبد العزيز فى مدينة حلوان التى اتخذها أبوه عبدالعزيز بن مروان دار الإمارة ونقل إليها الدواوين . وطالت أيامه فى مصر حتى أربت على العشرين سنة (٦٥— ٨٦) ، وتغنى المؤرخون والشعراء بأعمال البر والإحسان والكرم التى قام بها هذا الأمير كما تقدم .

فى هذه البيئة المترفة وفى ذلك النعيم المقيم ، ولد عمر بن عبد العزيز من أبوين كريمين . ولا عجب فى ذلك : فأبوه ذلك الأمير السمح الكريم الذى اشتهر بالورع والتقوى وعكف على مجالسة الصحابة ورواة الحديث والاستماع إلى الشعر والأدب ، حتى كان مجلسه ندوة الفقهاء والعلماء والأدباء . وأمه أم عاصم بن عمر ابن الخطاب ، وكانت لينة الجانب رضية الخلق على جانب عظيم من الورع والتقوى.

حفظ عمر بن عبد العزيز القرآن وهو صغير ، ثم أرسله أبوه إلى المدينة لطلب العلم ، فتفقه فى الدين وروى الحديث وعكف على دراسة الأدب ونظم الشعر ، وبلغ من علو كعبه واستبحاره فى العلم أن قيل : كانت العلماء مع عمر بن عبد العزيز تلامذة » .

ظل عمر بالمدينة حتى مات أبوه وآلت الخلافة إلى عبدالملك بن مروان ، فبعث فى طلب ابن أخيه وزوجه من ابنته فاطمة . وأقام عمر بدمشق حتى ولى الوليد الخلافة سنة ٨٦ هـ ، فعرف لعمر صلاحه وكفايته ، فولاه المدينة فى تلك السنة ، فبقى بها سبع سنين ، كان فيها مثالا يحتذى فى الورع والتقوى ، حتى إنه روى

عن أنس بن مالك أنه قال : « ما صليت وراء إمام بعد رسول الله أشبه صلاة برسول الله من هذا الفتى ، يعنى عمر بن عبد العزيز ، وهو أمير على المدينة » .

على أن عمر كان برغم هذا كله متأثراً بجاهه وطيب أرومته ، حتى لقد أخذ عليه البعض أنه كان فى صباه يبالغ فى تنعمه ويختال فى مشيته . ولعل ذلك كان راجعاً إلى أنه كان لا يزال حينذاك فى ميعة الصبا وشرخ الشباب . حتى إذا تقدمت به السن وأثقلت أعباء الإمارة والخلافة كاهله زهد فى الدنيا وزينتها .

نعم ! إن هذا التنعم لم يله هذا الشاب المترف عن التمسك بأهداب الدين وما يتطلبه ذلك التمسك من الوفاء بالعهد والميثاق . فقد أراد الخليفة الوليد أن يعزل أخاه سليمان من ولاية العهد وأن يبايع ابنه ، وأطاعه كثير من الأشراف رغبة أو رهبة . ولكن عمر أبى أن يخلع رجل له فى عنقه بيعة ، ولم يخش فى الحق لومة لائم ولا سخط خليفة ولا خشية عذاب أو موت حين قال للخليفة : « فى أعناقنا بيعة » ، وأصر على موقفه ، فانقلب عليه الوليد حتى ما لت عنقه وأشرف على الهلاك ، لولا أن بعضهم شفع فيه ، فأطلقه الخليفة واكتفى بعزله عن المدينة (١) .

ثم دارت الأيام دورتها ، وآلت الخلافة إلى سليمان بن عبد الملك ، فلم ينس ذلك الموقف الرائع الذى وقفه منه عمر حتى كاد أن يضحى بحياته فى سبيل الوفاء بعهده . فإن سليمان لما مرض مرض الموت أراد أن يبايع أحد أولاده ، فنهاه السدى وكان أحد خاصته ، وقال له : يا أمير المؤمنين ! إنه مما يحفظ الخليفة فى قبره أن يستحفظ على الناس رجلا صالحاً ، فقال سليمان : أستخير الله وأفعل ، ثم استشاره فى عمر بن عبد العزيز ، فأثنى عليه خيراً وأشار بتوليته للعهد (الفخرى ص ١١٧) .

ولم يتردد سليمان فى تولية عمر عهده ، مدفوعاً بذلك الموقف الذى وقفه منه عمر وما آنسه فيه من حسن الخلق وكريم السجايا . فكتب عهده . وختمه بدير سمعان من أعمال حمص (٢) ، ودعا أهل بيته وقال لهم : « بايعوا لمن عهدت إليه

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ١٢٥ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٦٧ .

فى هذا الكتاب » ، ولم يعلمهم به فبايعوا ، ولما مات سليمان جمعهم السدى وكتم موته عنهم وقال لهم ، بايعوا مرة أخرى . ولما رأى أنه قد أحكم الأمر أعلمهم بموت سليمان ، فبايعوا عمر بن عبد العزيز ، ولم يتخلف عن بيعته إلا سعيد وهشام ابنا عبد الملك .

ضربت عمر دابة فى جبهته وهو غلام ، فجعل أبوه يمسح الدم عنه ويقول : إن كنت أشج بنى أمية إنك لسعيد . وقد أثر عن عمر بن الخطاب أنه قال : من ولدى رجل بوجهه شجة يملأ الأرض عدلا[1] . وقد اشتهر عمر بن عبد العزيز بالعدل حتى قيل : الأشج والناقص أعدلا بنى مروان : أما الناقص فهو يزيد ابن الوليد بن عبد الملك ، لقب بذلك لأنه نقص من أعطيات أهل الحجاز ما كان قد زادهم الوليدبن يزيد بن عبد الملك (الفخرى ص ١٢٢) .

٢ — خلافة عمر :

ولما ولى عمر الخلافة جاءه سالم السدى فقال له عمر : أسرك ماوليت أم ساءك ؟ فقال : سرنى للناس وساءنى لك . قال له عمر : إنى أخاف أن أكون قد أوبقت (أهلكت) نفسى . قال السدى : ما أحسن حالك إن كنت تخاف ، إنى أخاف عليك ألا تخاف ، قال عمر : عظنى ! فقال السدى : أبونا آدم أخرج من الجنة بخطيئة واحدة[2] .

ولما بويع عمر بالخلافة وقرىء كتاب العهد باسمه قال والله إن هذا الأمر ما سألته الله قط . ولما قدم إليه مركب الخليفة أبى وقال : ائتونى ببغلتى . فلما جاء أصحاب المراكب يسألونه العلوفة ورزق خدمتها قال : أبعث بها إلى أمصار الشام يبيعونها فيمن يريدون ، وأجعل أثمانها فى مال الله ، تكفينى ببغلتى هذه الشهباء[3] .

ولما فرغ عمر من تشييع جنازة سليمان وعاد إلى داره قال له مولاه : مالى أراك مغتماً ؟ قال : لمثل ما أنا فيه فليغتم ؛ ليس أحد من الأمة إلا وأنا

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ١٥٢ .
(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٦٧ — ١٦٨ .
(٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ١٥٣ .

أريد أن اوصل إليه حقه غير كاتب إلى فيه ولا طالبه منى ، ثم صعد المنبر وقال : أيها الناس ! إنه لا كتاب بعد القرآن ولا نبي بعد محمد عليه الصلاة والسلام ، ألا وإنى لست بقاض ولكنى منفذ ، ولست بمبتدع ولكنى متبع ، ولست بخير من أحدكم ولكنى أثقلكم حملا . وإن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بظالم ، ألا لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » .

بذلك كان عمر أشبه بجده عمر بن الخطاب فى زهده وتقشفه ، وإيمانه بالله وتمسكه بكتابه وسنة رسوله .

٣ — إصلاحات عمر :

أدخل عمر بن عبد العزيز كثيراً من الإصلاحات ، ولكن هذه الإصلاحات كانت فى الواقع فى مصلحة الإسلام أكثر منها فى مصلحة بيت المال . فقد رفع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة ، وخفف الضرائب عن عامة المسلمين وبخاصة الموالى من الفرس . ومن السهل أن نتنبأ بنتائج هذه السياسة الجديدة التى كان من أثرها أن زاد إقبال الناس على الإسلام . ولتحاشى ذلك الخطر اشترط بعض الولاة الختان وحفظ شيء من القرآن . ومن ثم كان لزاماً العودة إلى فرض الجزية كما كانت من قبل أو ضياع ثمار ما فتحه المسلمون من البلاد .

وقد نقص إيراد بيت المال نقصاً محسوساً . ورأى بعض الولاة عندما نقصت جزية الرءوس على أثر ازدياد دخول الناس فى الإسلام أن يرفع الجزية عمن أسلم ، فأبى عمر أن يجيب هؤلاء الولاة إلى ما طلبوه ، مدفوعا فى ذلك بشدة إيمانه ، وحرصه على إعلاء كلمة الدين . يدل على ذلك جواب عمر على كتاب واليه على مصر وقد شكا إليه أن الإسلام أضر بالجزية واستأذنه فى أن يفرضها على من أسلم ، فكتب إليه عمر كتابه الخالد الذى يقول فيه : « فضع الجزية عمن أسلم ، قبح الله رأيك ، فإن الله إنما بعث محمداً صلى الله عليه وسلم هادياً ولم يبعثه جابياً ، ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم فى الإسلام على يديه » .

ولا غرو فقد قام عمر بن عبدالعزيز بتنظيم حركة ملؤها الحماسة فى نشر الدعوة الإسلامية ، وقدم لأهالى البلاد التى فتحها العرب كل لون من ألوان الإغراء لقبول الإسلام ، حتى إنه كان يمنحهم هبات من المال . وقد قيل إنه أعطى قائدة

نصرانياً ألف دينار تألفه بها على الإسلام كما أمر عمال الولايات بدعوة الذميين إلى الإسلام . وقد قيل إن الجراح بن عبد الله عامله على خراسان أدخل فى الإسلام نحوا من أربعة آلاف شخص ، كما قيل إن عمر كتب إلى ليو الثالث ملك الروم يدعوه إلى الدخول فى الإسلام[١] .

بل لقد كان من أثر دعوة عمر عبد العزيز الناس إلى الإسلام أن دخل فى هذا الدين كثير من أهالى بلاد ما وراء النهر[٢] ، كما استجاب كثير من أمراء السند لدعوة عمر الذى أرسل إلى إسماعيل بن عبد الله حين ولاه بلاد المغرب عشرة من الفقهاء ليفقهوا مسلمى البربر فى أمور دينهم . وقد أظهر هذا الوالى الجديد نشاطاً ملحوظاً فى دعوة البربر إلى قبول الإســــلام بحيث لم يبق منهم واحد لم يدخل فى هذا الدين[٣] .

وبلغ تسامح عمر ورعايته لأهل الذمة وما ذاع عن زهده وورعه وتقشفه ، أن أحد كتاب النساطرة كان يضيف كلمات التبجيل والتقديس إلى اسم الرسول وإلى أسماء الخلفاء الأول كلما عرض لذكرهم ، ويستنزل رحمة الله على عمر بن عبد العزيز[٤] .

كان من سياسة عمر أن يجنح إلى المسالمة ، ويرى أنها كفيلة بحل المشكلات وجمع الشمل وتوحيد الكلمة ، فإن الخوارج لما خرجوا فى عهده لم يشأ أن يسلك معهم سبيل العنف والشدة كما فعل عمه عبد الملك بن مروان من قبل ، بل إن أخلاقه الكريمة وحبه للسلم قد أبت عليه إلا أن يقارعهم بالحجة . وقد نجح فى إقناع الرسل الذين أرسلهم إليه زعيم الخوارج ، ولكن المنية لم تلبث أن عاجلت عمر فلم يجن ثمار ما زرع[٥] .

وكان عمر فى غاية النسك والصلاح والتواضع ، حتى إنه لم يكن للشعراء

---

(١) ابن سعد : كتاب الطبقات جـ ٥ ص ٢٥٨ . أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٧٦ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٤١ .

(٣) أرنولد : ص ٣٥١ نقلا عن Fournel : Les Berbères, p. 270 .

(٤) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٤٦٦ .

(٥) راجع ما ذكرناه عن سياسة عمر بن عبد العزيز مع الخوارج فى الباب السادس .

نصيب فى بلاطه الذى امتلأ بأهل التقوى والزهد ، وصرف عمال من كان قبله من بنى أمية ، « واستعمل أصلح من قدر عليه ، فسلك عماله طريقته ، وترك لعن على عليه السلام على المنابر »[1] ، وكان بنو أمية يسبونه . ولا عجب فقد سار عمر سيرة أبيه عبد العزيز فى مصر . فقد أثر عنه أنه كان « إذا وصل إلى ذكر أمير المؤمنين على عليه السلام ، تتعتع . فلما قال له (ابنه عمر : لم فعلت ذلك ؟ قال يا بنى ! اعلم أن العوام لو عرفوا عن على بن أبى طالب ما نعرفه نحن لتفرقوا عنا إلى ولده . فلما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة قطع السب وجعل مكانه قوله تعالى ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ (الفخرى ص ١٧٧) .

وقد بلغ من زهد عمر أنه كان يؤثر المصلحة العامة على المصلحة الخاصة . روى أنه قال لامرأته فاطمة بنت عبد الملك ، وكان عندها جوهر أمر لها به أبوها لم ير مثله : اختارى ، إما أن تردى حليك إلى بيت المال ، وإما أن تأذنى لى فى فراقك ، فإنى أكره أن أكون أنا وهو فى بيت واحد ، فقالت : لا بل أنا أختارك عليه وعلى أضعافه . فأمر به حتى وضع فى بيت مال المسلمين . فلما مات عمر واستخلف يزيد قال لأخته فاطمة : إن شئت رددته إليه . قالت : لا والله لا أطيب به نفساً فى حياته وأرجع فيه بعد موته .

وكان يشترى لعمر قبل خلافته الحلة بألف دينار ، فإذا لبسها استخشنها ولم يستحسنها . فلما أتته الخلافة كان يشترى قميص بعشرة دراهم ، فإذا لبسه استلانه .

كان عهد عمر بن عبد العزيز ، برغم قصره من أحسن عهود الخلفاء ، حتى إن بعض المؤرخين عده متمما لعهد الخلفاء الراشدين بل لعهد أبى بكر وعمر ، فقالوا : الخلفاء ثلاثة : أبو بكر ، وعمر ، وعمر بن عبد العزيز .

ولو أن خلافة عمر التى لم تزد عن سنتين وخمسة أشهر قد طالت ، لفتح صفحة رائعة مجيدة فى تاريخ الإسلام وفى تاريخ الدولة الأموية . ومات هذا

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٦٧ — ١٦٨ .

الخليفة في شهر رجب من سنة ١٠١ هـ . ولا عجب إذا نبشت قبور الخلفاء الأمويين بعد قيام الدولة العباسية إلا قبر عمر بن عبد العزيز الذى ظل معظما يغشاه كثير من الناس كما ذكر المسعودى المتوفى سنة ٣٤٦ هـ .

٩ — يزيد بن عبد الملك

(١٠١ — ١٠٥ / ٧٢٠ — ٧٢٤ م)

ولى يزيد بن عبد الملك الخلافة فى شهر رجب سنة ١٠١ هـ . وبعد توليته الخلافة أعلن شوذب الخارجى الحرب على الأمويين ، وهزمهم فى عدة وقعات ، إلى أن ولى مسلمة بن عبد الملك الكوفة من قبل يزيد ، فأرسل إلى شوذب سعيد بن عمرو الحريشى فى جيش كثيف ، فدارت الدائرة على شوذب ومن معه من الخوارج ، ولم يفلت منهم إلا القليل .

وفى أيام يزيد خرج يزيد بن المهلب بن أبى صفرة . وقد فر من سجن عمر بن عبد العزيز ، فسار إلى البصرة وأسر واليها ، ثم واصل السير إلى الكوفة ، فانضم إليه الأزد ، كما انحاز إليه أهله وخاصته ، فعظم أمره واشتدت شوكته ، فبعث إليه يزيد أخاه مسلمة وابن أخيه العباس بن الوليد فى جيش عظيم . ولما التقى الجيشان اقتتلوا قتالا شديداً ، فولى أصحاب يزيد عنه ، فقتل فى المعركة .

اشتهر يزيد بن عبد الملك باللهو والخلاعة والتشبيب بالنساء . قيل إنه شغف بجاريتين إحداهما تسمى : سلامة والأخرى حبابة (بضم الحاء) ، وقد غنت حبابة يوماً ليزيد :

بين التراقى واللهاة حرارة ما تطمئن ولا تسوغ فتبرد

فطرب يزيد ثم قال : أريد أن أطير ! فقالت له حبابة : فعلى من تدعو الأمة ؟ قال : عليك ، وقبل يدها ؛ فخرج بعض خدمه وهو يقول : سخنت عينك فما أسخفك !

فانظر إلى هذا وإلى أبيه عبد الملك حين خرج إلى قتال مصعب بن الزبير وصدته زوجه عاتكة ، فلم يلتفت إليها واستشهد بقول كثير عزة :

إذا ما أراد الغزو لم يثن همه حصان[1] عليها در نظم يزينها

(١) امرأة حصان : (بفتح الحاء) أى عفيفة .

نهته فلما لم تر النهى نافعاً بكت فبكى مما شجاها قطينها[1]

ذكر المسعودى[2] أن أبا حمزة الخارجى كان إذا ذكر بنى مروان وعابهم ذكر يزيد بن عبد الملك فقال : أقعد حبابة عن يمينه وسلامة عن يساره ، ثم قال أريد أن أطير ، فطار إلى لعنة الله وأليم عذابه .

ولما اعتلت حبابة أقام يزيد أياما لايظهر للناس . فلما ماتت مكث معها أياما لايدفنها جزعا عليها . فقال له بعض خاصته : إن الناس يتحدثون بجزعك وإن الخلافة تجل عن ذلك ، فدفنها وأقام بعدها أياماً قلائل ومات .

وفى أيام يزيد ظهرت النفرة بينه وبين أخيه هشام لما كان من سوء سيرة يزيد . ولما بلغه أن أخاه هشاماً ينتقصه ويتمنى موته ويعيب عليه لهوه كتب إليه : أما بعد ! فقد بلغنى استثقالك حياتى واستبطاؤك موتى ، ولعمرى إنك بعدى لواهى الجناح أجذم الكف[3] ، وما استوجبت منك مابلغنى عنك » . فأجابه هشام : أما بعد ! فإن أمير المؤمنين متى فرغ سمعه لقول أهل الشنآن وأعداء النعم ، يوشك أن يقدح ذلك فى فساد ذات البين وتقطع الأرحام . وأمير المؤمنين بفضله وماجعله الله أهلا له ، أولى أن يتعهد ذنوب أهل الذنوب . فأما أنا فمعاذالله أن أستثقل حياتك أو أستبطىء وفاتك » ؛ فكتب إليه يزيد : « نحن مغتفرون ما كان منك ، ومكذبون مابلغنا عنك . فاحفظ وصية عبد الملك إيانا وقوله لنا فى ترك التباغى والتخاذل ، وما أمر به من صلاح ذات البين واجتماع الأهواء ، فهو خير لك وأملك بك ... فلما أتى الكتاب هشاما ارتحل إليه ، فلم يزل فى جواره مخافة أهل البغى والسعاية حتى مات يزيد[4] :

١٠ — هشام بن عبد الملك

(١٠٥ — ١٢٥ / ٧٢٤ — ٧٤٣)

ولى هشام بن عبد الملك الخلافة فى شهر شعبان سنة ١٠٥ هـ فى اليوم الذى

---

(١) القطين : من يسكن مع الإنسان والمراد بها حاشيتها وخدمها .

(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ١٧٥ ؛ الفخرى ص ١١٨ — ١١٩ .

(٣) أجذم الكف : مقطوع الكف .

(٤) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ١٧٩ .

مات فيه أخوه زيد ، وبقى فى الخلافة إلى أن توفى بالرصافة من أرض قنسرين فى شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ ، بعد أن مكث فى الخلافة تسع عشرة سنة وسبعة أشهر وأياما .

وقد بادر الخلفاء بعد موت عمر عبد العزيز إلى فرض ضرائب فادحة لسد النقص الذى جرته سياسة عمر إزاء الموالى وإعفائهم من الجزية . فقد فاجأ هشام الموالى بضريبة خراجية لاقبل لهم باحتمالها ، فسار الحارث بن سريج وحارب الأمويين ، وكان يزعم أنه المهدى الذى بعثه الله لتخليص المضطهدين والأخذ بناصر المظلومين . بل انضم إليه فى ثورته هذه أنصار من العرب ، وسرعان ما استولى على المدن الواقعة على ضفاف نهر سيحون .

ولما تولى أسد بن عبد الله القسرى هذه البلاد بعد عاصم بن عبد الله ، استرد من الحارث البلاد التى استولى عليها من الأمويين ، واضطره إلى الانسحاب إلى طخارستان ومنها إلى بلاد ماوراء النهر حيث انضم إلى الأتراك ضد العرب .

وفى سنة ١٢٠ هـ ولى هشام بن عبد الملك نصربن سيار خراسان ، وكان أكثر الموالين للعرش الأموى كفاية ، فاستطاع أن يوطد دعائم الحكم الأموى فى بلاد ماوراء النهر سنة ١٢٣ هـ (١) .

وفى عهد هشام خرج زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على على ماسيأتى فى الباب السادس .

كان هشام غزير العقل حليما عفيفاً ؛ اشتهر بالتدبير وحسن السياسة ، حتى قيل إن السواس من بنى أمية ثلاثة : « معاوية وعبد الملك وهشام » . وكان أبو جعفر المنصور يقتدى بهشام فى أكثر أموره ، وفى سياسته وتدبيره شئون الدولة .

ومن إصلاحات هشام اهتمامه بتعمير الأرض وتقوية الثغور وحفر القنوات والبرك فى طريق مكة ، وغير ذلك من الآثار التى أتى عليها داود بن على العباسى. وفى أيامه ظهرت صناعة الخز والقطيفة . وكان هشام كلفا بالخيل ، وهو أول من أقام لها الحلبات من الخلفاء ، كما عنى بعدد الحرب ولامتها .

---

(١) كتاب السيادة العربية ، ترجمة المؤلف ص ٦١ — ٦٣ .

ومما يؤخذ على هشام إمعانه فى الانتقام من العلويين والتنكيل بهم كلما أمكنته الفرصة . ناهيك بما فعله بزيد ويحيى ابنى على بن الحسين بن على . هذا إلى ماعرف عنه من الغلظة وخشونة الطبع وشدة البخل . ومما يدل على بخله أن رجلا أهدى إليه طائرين فأعجب بهما ، فقال له الرجل : أين جائزتى يا أمير المؤمنين ؟ فقال له هشام : وما جائزة طائرين ؟ قال ماشاء أمير المؤمنين . قال : خذ أحدهما ، فقصد الرجل لأحسنهما فأخذه فقال له : وتختار أيضاً ؟ قال : نعم ! والله اختار ، فقال دعه ، وأمر له بدريهمات . دخل هشام بستاناً له ومعه ندماؤه فطافوا به ، وبه كل الثمار ، فجعلوا يأكلون ويقولون : بارك الله لأمير المؤمنين ، فقال هشام : وكيف يبارك لى فيه وأنتم تأكلونه ؟ ثم نادى حارسه فقال له : اقلع شجرة وأغرس فيه زيتونا حتى لا يأكل منه أحد شيئاً[1] .

١١ — الوليد بن يزيد بن عبد الملك

(١٢٥ / ٧٤٣)

بويع الوليد بن يزيد فى شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ فى اليوم الذى توفى فيه هشام ، وبقى فى الخلافة سنة وشهرين وأياما إلى أن قتل بقرية من قرى دمشق فى شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ .

اشتهر الوليد باللهو والخلاعة والمجون . وكان شاعراً مجيداً ، له أشعار حسنة فى العتاب والغزل ووصف الخمر .

كان السبب فى قتل الوليد أنه كان قبل أن يلى الخلافة من سوء السيرة وانتهاك حرمات الله عز وجل . فلما أفضت إليه الخلافة لم يزدد إلا انهماكا فى اللذات واستهتاراً بالمعاصى ، وإغضاب أكابر أهل بيته والإساءة إليهم . فاجتمعوا عليه مع غيرهم من رجالات دولته وهجموا عليه . فلما أحس بهم دخل داره وفتح المصحف وقال : يوم كيوم عثمان بن عفان ، ثم تقدم إليه يزيد ابن الوليد وقتله .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٨٤ — ١٨٥ .

١٢ — مروان بن محمد

(١٢٧ — ١٣٢ / ٧٤٤ — ٧٤٩)

ولى يزيد بن الوليد الخلافة بدمشق فى جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ ، وتوفى فى ذى الحجة من هذه السنة بعد أن بقى فى الخلافة خمسة أشهر ، وقام بالأمر من بعده أخوه إبراهيم بن الوليد ، فلم يمكث فى الخلافة أكثر من شهرين .

وكان يزيد بن الوليد أحول ، يظهر التنسك . وقد سمى الناقص لأنه نقص أرزاق بعض الجند وخاصة جند الحجاز كما تقدم . وكان يميل إلى تعاليم المعتزلة . وفى عهده أخذ حبل أمية فى الاضطراب . ولما مات بويع أخوه إبراهيم بيعة لم تأت بطائل ، « فكان ناس يسلمون عليه بالخلافة وناس بالإمارة وناس لايسلمون عليه بواحدة منهما » . ولم يلبث مروان بن محمد أن سار إليه وخلعه . وهرب إبراهيم من دمشق فظفر به مروان فقتله وصلبه وقتل من مالأه ، ومن بينهم عبد العزيز بن الحجاج ويزيد بن خالد القسرى عند ذلك اشتعلت نار العصبية بين النزارية أو المضرية وبين القحطانية أو اليمنية ، وتحزبت القبائل وثارت العصبية فى البدو والحضر ، وتعصب مروان بن محمد لنزار على اليمن وانصرفت اليمن عنه ومالوا إلى الدولة العباسية[1] .

بويع مروان بدمشق فى شهر صفر سنة ١٢٧ هـ . وكان يلقب بالحمار ، لأنه كان لا يجف له لبد فى محاربة الخارجين عليه ؛ فكان يصل السير بالسير ويصبر على مكايد الحرب . ولقب الجعدى نسبة إلى مؤدبه الجعد بن درهم من أصحاب المقالات فى الاعتزال ، وكان يكنى أبا عبد الملك ، واشتهر بالشجاعة والدهاء والمكر .

ولما ولى الخلافة ثارت الفتن والقلاقل ، فنشطت الشيعة فى بث دعوتها التى قضت على البيت الأموى ، وظهرت عقيدة المهدى التى كان لها أثر كبير فى سقوط الدولة الأموية .

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ١٩٣ . الفخرى ص ١٢٣ .

سقوط الدولة الأموية وأسبابه

١ — تولية العهد اثنين :

من الأسباب التي أضعفت البيت الأموى وآذنت بذهاب ريحه تولية العهد اثنين يلى أحدهما الآخر ، فقد لق هـذا بذور الشقاق والمنافسة بين أفراد ذلك البيت وأورثهم الحقد والبغضاء . ولا غرو فإنه لم يكد يتم الأمر لأولهما حتى يعمل على إقصاء الثانى من ولاية العهد وإحلال أحد أبنائه مكانه ، مما أوغر صدور بعضهم على بعض . ولم يقتصر النزاع بين أفراد هذا البيت بل تعداهم إلى القواد والعمال . فإنه لم يكد يتم الأمر لثانيهما حتى ينكل بمن ظاهر خصمه وساعده على إقصائه من ولاية العهد .

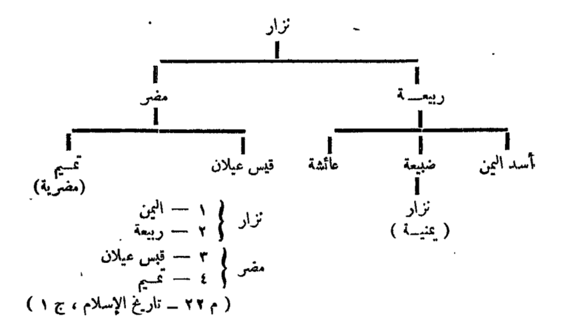
وأول من سن هذه السنة مروان بن الحكم ، فقد ولى عهده ابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز ، ولم يأبه بما كان فى مؤتمر الجابية حيث بايعوا عبد الملك ثم خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد بن العاص . وكان من أثر ذلك أن خرج عمرو ابن سعيد على عبد الملك .

سار عبد الملك على سنة أبيه مروان ، فقد فكر فى خلع أخيه عبد العزيز من ولاية العهد وتولية ابنيه الوليد ثم سليمان ، لولا أن حالت وفاة عبد العزيز دون ما كانت تحدثه به نفسه من خلعه . ولم يمنعه ذلك من ارتكاب تلك الغلطة التى أورثت البغض والعداوة بين الأخوين ، بل تعدتهما إلى القواد والعمال . فإن الوليد بن عبد الملك لما ولى الخلافة عمل على خلع أخيه سليمان من ولاية العهد وجعلها فى ابنه عبد العزيز ، وكتب بذلك إلى العمال ، فأجابه الحجاج بن يوسف الثقفى والى العراق ، وقتيبة بن مسلم والى خراسان ، ومحمد بن القاسم والى السند وأجزل الوليد العطاء للشعراء للارشاد بفضل عبد العزيز مما أثار روح الكراهة والبغضاء بينه وبين أخيه . فلما ولى سليمان الخلافة بعد وفاة أخيه الوليد ، انتقم ممن كان لهم ضلع فى خلعه . وهكذا تطورت المنافسة بين أفراد البيت المالك تطوراً غريباً وأضحت خطراً على الدولة الأموية فقد كان الخليفة ينتقم من القواد والعمال لمجرد اتهامهم بممالأة الخليفة السابق على خلعه .

هكذا بدأ سليمان عهده بالانتقام من كبار القواد وخيرة العمال والتشفي منهم ، وكان من حسن حظ الحجاج أن مات قبل الوليد . على أن ذلك لم يصرف سليمان عن الانتقام من أهل بيته ، فقد أمر يزيد بن المهلب ، وكان عدو الحجاج الألد ، وصالح بن عبد الرحمن أن يذيقا آل الحجاج أشد صنوف العذاب . كذلك انتقم سليمان من محمد بن القاسم ، ذلك القائد العظيم الذي بسط نفوذ الدولة على الهند والسند ، وكذلك كان نصيب قتيبة بن مسلم الذي بسط نفوذ الدولة في بلاد ما وراء النهر .

٢ — ظهور روح العصبية :

بعث روح العصبية بين القبائل العربية عقب وفاة يزيد بن معاوية ، غير أنها لم تكن من الشدة بحيث تؤثر في انحلال الحزب الأموي الذي ظل حافظاً لكيانه كحزب سياسي يناضل خصومه من الأحزاب الأخرى ، إلى أن كانت خلافة عمر بن عبد العزيز التي تعتبر فترة انتقال بين حال القوة والتماسك وحال الضعف والتفكك الذي اعترى ذلك الحزب . فقد كان عمر صالحا عادلا ، قضى فترة خلافته في إصلاح ما أفسده من سبقه من خلفاء بني أمية حتى نال رضاء جميع العناصر الثورية ، فلم يتعصب لقبيلة دون أخرى ، ولم يول واليا إلا لكفايته وعدالته ، سواء أكان من كلب أو من قيس . فسكنت في عهده الفتن التي كانت تنتاب الدولة وتكاد أن تذهب بريحها .



فلما توفى عمر بن عبد العزيز خلفه يزيد بن عبد الملك ، فاستقبل بخلافته فتنة كان لها أسوأ الأثر فى حزب بنى أمية . وكانت هذه الفتنة فى الواقع نزاعا بين عرب الشمال وعرب الجنوب أو بين مضر واليمن ؛ ولما كان الخليفة من عرب الشمال لم يتورع عن خوض غمار تلك الفتنة .

وكانت هذه الفتنة سبباً فى القضاء على أفراد بيت المهلب بن أبى صفرة ، فقد قتل بعضهم فى الحرب ، وحمل بعضهم فى الأغلال إلى يزيد بن عبد الملك ، فأمر بهم فقتلوا جميعاً .

وقد أخلصت أسرة المهلب فى خدمة بنى أمية ، فأبلى هو وأبناؤه فى حرب الأزارقة من الخوارج بلاء حسنا ، كما حارب أهل خراسان والخزر والترك . وخلفه أبناؤه ، فكانوا مثله فى النبل والشجاعة والفضل ، فمدحهم الشعراء وتغنى بفضلهم الركبان ، وقصدهم الشعراء وذوو الحاجات . فأجزلوا لهم العطاء ووصلوهم بالصلات الجمة ، فعظم أمرهم وبعد صيتهم ونبه شأنهم ، فكانوا غرة فى جبين الدولة الأموية ، كما كان البرامكة فى دولة بنى العباس . لذلك لاندهش إذا انحاز إليهم العنصر اليمنى الذى أصبح منذ ذلك الحين خطراً يهدد كيان حزب بنى أمية . وقد زج يزيد بنفسه فى تلك العصبية التى عادت سيرتها الأولى يوم مرج راهط ، وأخذ الخلفاء يعملون على توسيع مسافة الخلاف بين هذين العنصرين اللذين كانا عصب دولتهم ومصدر قوتهم ، فتراهم ينضمون إلى القيسية حيناً وإلى اليمنية حيناً آخر .

كان طبيعياً بعد هذه الحادثة أن يأخذ يزيد جانب القيسيين ، فولى أخاه مسلمة الذى قضى على ثورة يزيد بن المهلب على المشرق ، ثم ولى عمر بن هبيرة وهو قيسى . واصطبغت الدولة كلها بالصبغة القيسية المضرية ، وأصبح العنصر اليمنى ضعيفاً لا يملك من الأمر شيئاً .

ولما توفى يزيد بن عبد الملك وخلفه أخوه هشام ، رأى أن القيسية قد علت كلمتها وخاف ازدياد نفوذها على الدولة ، فعمل على التخلص منهم والانحياز إلى اليمنية ليعيد التوازن بين العنصرين اليمنى والقيسى ، فعزل العمال المضريين وولى مكانهم بعض اليمنيين . فولى خالد بن عبد الله القسرى على العراق وولى أخاه

أسداً عن خراسان . وبذلك أخذ العنصر اليمنى يستعيد قوته وأخذ العنصر القيسى فى الضعف ، وتعصب خالد وأخوه لليمنية ، فأخذوا ينتقمون من المضريين[١] .

على أن هشاماً لم يتبع سياسة ثابتة بإزاء القبائل المختلفة . فإنه بعد أن انحاز إلى جانب اليمنيين لم يلبث أن تحول عنهم إلى المضريين وولى منهم العمال : فولى يوسف بن عمر الثقفى العراق ، ونصر بن سيار خراسان ، وكذلك فعل فى بلاد الأندلس .

وكان مقتل خالد بن عبد الله القسرى زعيم اليمنية من أقوى الأسباب التى عجلت بسقوط حزب بنى أمية ، فإن اليمنية الذين لم ينسوا للدولة قضاءها على آل المهلب ، فوجئوا بقتل زعيمهم خالد بن عبد الله ، لاتهامه بمالأة العلويين وإغداقه عليهم حتى خرج زيد بن على زين العابدين ، كما اتهم بالزندقة والإلحاد فعادت القلاقل سيرتها الأولى ، وعمل اليمنية على التخلص من سيادة الأمويين .

لزم الوليد بن يزيد بن عبد الملك جانب المضريين لأن أمه كانت منهم وأقصى العنصر اليمنى ، فأثار هذا عوامل السخط والغضب فى نفوس اليمنية عليه بعد أن قتل زعيمهم وأقصاهم من مناصب الدولة ، فأخذوا يدبرون المكائد لقتله ، وسخط عليه عامة الناس ، فانتهز اليمنيون هذه الفرصة وثاروا عليه ، وانضم إليهم يزيد بن الوليد بن عبد الملك الذى كان يظهر التنسك والتواضع ، وقتلوه فى جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ وبايعوا يزيد .

ولم يضع قتل الوليد حداً للنزاع الذى قام بين أفراد البيت الأموى وظهر بين العنصرين اليمنى والمضرى ، بل ساعد على تفاقم ذلك النزاع ، فإن يزيد لم يكد يعتلى عرش الخلافة حتى أخذ بسيرة أسلافه . فانضم إلى اليمنيين ولزم جانبهم ، وأخذ يولى العمال منهم لأنهم ساعدوه على الوصول إلى الخلافة .

وأطلق اليمنيون يدهم فى الإساءة إلى المضريين الذين ثارت ثائرتهم ، فأشعلوا نار الثورة فى حمص ، وانضم إليهم يزيد بن خالد بن يزيد بن معاوية وغيره من

---

(١) الطبرى ج ٨ ص ١٩٢ — ١٩٣ .

أفراد البيت الأموى ، كما ثاروا فى فلسطين بزعامة يزيد بن سليمان بن عبد الملك ، وحذا أهل الأردن حذوهم بزعامة محمد بن عبد الملك . غير أن يزيد بن الوليد استطاع بمساعدة اليمنيين أن يتغلب على هؤلاء جميعاً ، فأخضعهم وزج بزعمائهم من أهل بيته فى أعماق السجون .

توفى يزيد بعد أن حكم ستة أشهر (١٢٦ هـ) ، فولى الخلافة بعد أخوه إبراهيم ، وكان يزيد قد عهد إليه بالخلافة التى فقدت ما كان لها من هيبة فى نفوس المسلمين . ولم يلق إبراهيم الاحترام الذى كان لمن سبقه من الخلفاء ، حتى كان الناس يسلمون عليه بالخلافة تارة ، وبالإمارة تارة أخرى ، وطوراً لا يسلمون عليه بواحدة منهما(١) .

سار مروان بجنوده من الجزيرة يريد الشام مطالباً بدم الوليد بن يزيد ، وتظاهر بعزمه على إعادة الخلافة إلى ابنه إبراهيم . وسرعان ما انضمت إليه القيسية لمناهضة اليمنية التى دبرت مؤامرة لقتل الوليد ، فأخذ إبراهيم يحشد الجيوش لقتال مروان بن محمد عامل الجزيرة وأرمينية . ولكن مروان كان قائداً شجاعاً حنكته الحروب مع الخزر والترك ، فاستطاع أن يتغلب على جنود إبراهيم وهزمهم شر هزيمة ودخل الشام ، وفر إبراهيم هو وكثير من أنصاره .

وكان مروان يريد أن تكون الخلافة فى ولد الوليد ، ولكن اليمنيين عمدوا إلى ابنى الوليد فقتلوهما فى السجن خوفاً من أن يليا الخلافة فيقتصان منهم ، وشهد محمد السفيانى بأنهما جعلا الخلافة من بعدهما لمروان ، ثم قال السفيانى لمروان : أبسط يدك أبايعك ، فبايعه وتبعه أهل الشام ، وبذلك أصبح مروان خليفة المسلمين (١٢٧ هـ) . وفى عهده ثارت روح العصبية فى جميع أنحاء الدولة الأموية وتقوض بناء البيت الأموى وأشرف على الزوال .

على أن مروان سار سيرة سلفه ، فتعصب للقيسية وطالب اليمنية بدم الوليد الذى قتلوه انتقاماً لخالد بن عبد الله القسرى . فانتقض أهل حمص بزعامة ثابت ابن نعيم ، وانضم إليهم أهل تدمر برياسة الأصبغ بن ذؤالة الكلبى . غير أن مروان استطاع أن يتغلب عليهم ويهزمهم شر هزيمة ، كما ثار يزيد بن خالد

(١) ابن الأثير جـ ٥ ص ١١٥ ، ١١٧ — ١١٨ ، ١٢٥ .

القسرى بدمشق وانضمت إليه اليمنية ، فأرسل مروان جيشا أحل بهم الهزيمة وقتل يزيد ، فخلصت له دمشق وحذت اليمنية حذوهم فى فلسطين ، فأرسل إليه مروان جيشاً قضى عليهم .

ولم يكد الأمر يستتب لمروان فى بلاد الشام حتى خرج عليه بها سليمان بن هشام بن عبد الملك ، ودعا أهلها إلى خلعه ، فانضمت إليه اليمنية ، فسار إليه مروان وهزمه بعد حروب طويلة ، وفر سليمان إلى العراق وانضم إلى الخوارج لمناوأة مروان ، كما انضم إليه عبد الله بن عمر بن عبد العزيز .

هذه هى حال العصبية فى الشام ، وقد ساعد على قيام الثورة فيها أن أكثر أهلها كانوا من العنصر اليمنى . وربما كان ذلك هو السبب الذى حدا مروان على عدم اتخاذها مقراً لملكه ، وانتقل إلى الجزيرة حيث أقامت القيسية الذين كانوا عماد دولته .

وأما بلاد العراق فإن الحالة لم تكن فيها أحسن مما كانت عليه فى بلاد الشام . فقد اشتعلت نار العصبية فى هذه البلاد حتى ظهر الضحاك بن قيس الخارجى الذى استولى عليها ، كما استولى فريق من الخوارج على بلاد اليمن والحجاز بقيادة المختار ابن أبى عبيد[1] .

وهكذا أصبحت البلاد مرتعا للفتن والاضطرابات . وشغل إخماد هذه الفتن مروان ، فلم يلتفت إلى خراسان وما كان يجرى فيها من بث الدعوة العباسية التى اشتد أمرها وعظم خطرها . ولم يلبث أن باغتته الرايات السود من خراسان، وطاردته وقضت على جيشه ، ففر إلى مصر حيث أدركه عبد الله بن على العباسى ثم أخوه صالح بن على الذى قتله سنة ١٣٢ هـ . ويعتبر القضاء على بنى أمية قضاء على نفوذ العرب الذين كان الأمويين يعتمدون عليهم دون سواهم .

٣ — انغماس بعض الخلفاء فى الترف :

كان لانصراف بعض خلفاء بنى أمية إلى حياة البذخ والترف اللذين أخذوهما عن البلاط البيزنطى أثر كبير فى سقوط دولتهم . فقد اشتهر يزيد بن معاوية بحبه للهو . وكان — كما يقول المسعودى[2] — صاحب طرب وجوارح وكلاب وفهود ومنادمة على الشراب .

---

(١) ابن الأثير جـ ٥ ص ١٣١ ، ١٣٥ . (٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٩٤ .

أما يزيد بن عبد الملك فإنه لم يكن أحسن حالا من يزيد بن معاوية ؛ فقد كان — كما ذكر البلخى[1] — صاحب لهو وقصف ، شغف بحبابة واشتهر بذكرها . كذلك اشتهر ابنه الوليد باللهو والمجون ، وكان شاعراً مجيداً له أشعار كثيرة فى العتاب والغزل[2] .

٤ — تعصب الأمويين للعرب :

كانت الدولة الأموية دولة عربية لحماً ودماً ، ومن ثم تعصب الأمويون للعرب والعربية ، وأخذوا ينظرون إلى الموالى نظرة الاحتقار والازدراء ، مما أيقظ الفتنة بين المسلمين وبعث روح الشعوبية فى الإسلام : وكان منشأ تلك الحركة اعتقاد العرب أنهم أفضل الأمم وأن لغتهم أرقى اللغات .

وإذا نظرنا إلى حركة الشعوبية ألفيناها حرباً سلمية اشتبكت فيها الألسنة والأقلام اشتباكا لا يقل أثراً عن اشتباك الألسنة والرماح . وترجع هذه الحركة — على ما يظهر — إلى الوقت الذى دخل فيه العرب بلاد الفرس وغيرها من بلاد الأعاجم . ولما جاء الأمويون حملوا لواء تلك الحركة طوال خلافتهم، وانحازوا إلى العرب ولم يساووا بينهم وبين الموالى ، فأجمع هؤلاء أمرهم ، وثاروا على الأمويين فى عهد عبد الملك بن مروان ، فأرسل إليهم الحجاج بن يوسف الثقفى ليقضى على حركاتهم .

ولما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة أمر عماله بوضع الجزية عمن أسلم ، سواء كان عربياً أم غير عربى . ولقد نجحت سياسته فى حياته ، ثم تبدلت الحال بعد وفاته ، فعاد الأمويون يفرقون فى المعاملة بين العرب والموالى .

فلا عجب إذا أثارت هذه المعاملة حنق الموالى وسخطهم على الأمويين وأخذوا يتلمسون الفرص للإيقاع بهم ، فانضموا إلى المختار ، ثم إلى الخوارج واشتركوا فى فتنة عبد الرحمن بن الأشعث ، كما ثاروا مع يزيد بن المهلب للقضاء على هذه الدولة . فلما نشط دعاة العباسيين انضموا إلى الدعوة العباسية لينالوا حقوقهم المهضومة . وقد فطن العباسيون إلى ما كان يضمره الموالى لبنى أمية ودولتهم من كراهة فاستعانوا بهم فى نشر الدعوة لهم .

---

(١) كتاب البدء والتاريخ ، وينسب إلى أبى زيد بن سهل البلخى ، وهو لمطهر بن طاهر المقدسى (طبعة باريس) ج ٦ ص ٤٨ — ٤٩ .

(٢) الطبرى ج ٨ ص ٢٨٨ — ٢٨٩ .

الباب السادس

الحركات السياسية والدينية

تمهيد :

امتاز هذا العصر بقيام حركات كان لها أثر بعيد فى السياسة والدين . فإننا نرى الخلاف يدب بين العرب منذ انتقل الرسول إلى جوار ربه فلا تخضع أكثر القبائل العربية لسلطان أبى بكر وترتد عن الإسلام ويمتنع بعضها عن أداء الزكاة، بل إن بعض العرب يدعون النبوة . كما شاهد هذا العصر تلك الفتنة الجامحة التى أودت بحياة عثمان بن عفان نتيجة لظهور النزعات السياسية والعصبية .

ولا غرو فقد اختلف المسلمون إثر وفاة الرسول فيمن يولونه الخلافة ، وانتهى الأمر بتولية أبى بكر ، وانضم كثير من العرب إلى على ، وأدى ذلك إلى انقسام الأمة العربية إلى فريقين : جماعية وشيعة . أما الجماعية فهم الذين رضوا خلافة أبى بكر وعمر وعثمان . ولما استقر الأمر لبنى أمية دخلوا فى طاعتهم . ومن تاريخ هذه الجماعة الكبيرة يتألف تاريخ الدولة الإسلامية ، وأما من عداها فأحزاب ثائرة أو طوائف خارجة لم تجتمع على واحدة منهـا كلمة المسلمين ، ولا كانت لها دولة جامعة ، وإن ملك بعضها ملكا واسعاً فى حقب من التاريخ . وأما الشيعة فهم الذين يرون أن الخلافة يجب أن تكون فى بيت النبى ، وقرروا أنها حق لعلى بن أبى طالب ثم لأولاده بالوراثة من بعده .

وكذلك ظهر فى أواخر عهد الخلفاء الراشدين حزب الخوارج الذى وقف مع حزب الشيعة فى وجه بنى أمية . واستمر النزاع بين الجماعية والخوارج والشيعة طوال العصر الأموى . كما ظهر فى هذا العصر حزب الزبيريين الذى

تفاقم خطره فى الحجاز والعراق ومصر وكاد يقضى على نفوذ الأمويين فى بلاد الشام . ولا يقل أثر المرجئة والمعتزلة فى توجيه السياسة الإسلامية فى ذلك العصر عن هذه الأحزاب التى أضعفت نفوذ الأمويين وساعدت على سقوط دولتهم على أيدى العباسيين وأنصارهم كما سيأتى :

١ — ردة العرب

كانت حكومة الرسول حكومة دينية تعتمد ، إلى حد كبير ، فى سلطتها التنفيذية على عقيدة الناس فى أن هذا النبى إنما يصدر فى أحكامه وتصرفاته عن وحى الله وأمره . قال تعالى : ﴿ والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ،علمه شديد القوى ﴾ (سورة النجم ٥٣ : ١ — ٥). كما كان فى حكمة الرسول وتسويته بين أبناء القبائل المختلفة ، وعدم خضوعه لنزعات النفس وميلها إلى إيثار الأهل والعشيرة ، واختصاصهم بالفائدة وتقديمهم على الأكفاء من غيرهم ، وفى محوه العصبية والشعور القبلى ، وإحلال الوحدة الدينية والقومية الإسلامية محلها — كان فى هذا كله ما سهل على العربى طاعته والإذعان له ، وسهل على القبائل المختلفة أن تنضوى تحت لوائه وأن تدين له بالزعامة ، بل لقد بلغ من افتتان بعض العرب بشخصية الرسول أنهم ما كانوا يستطيعون أن يصدقوا بموته .

فلما انتقل الرسول إلى جوار ربه وتحققوا من ذلك ، شك فريق منهم فى أمر هذا الدين الذى خلفه ، واعتقد غيرهم أن قريشاً أو غيرها إذا وليت هذا الأمر سوف تحيله ملكا عضوداً . فأخذوا يفكرون فى موقفهم وينظرون إلى مصيرهم، فرأوا أن هذا النبى الذى كان يقوم بالسفارة عن الله عز وجل ، ويبلغهم أمره ونهيه ، ويتمتع بالعصمة عن الخطأ والتنزه عن الزلل ،قد فارقهم إلى ربه . وليس ثمة إنسان فى العالم يتصف بهذه الصفات التى كانت الضمان الوحيد لمساواة القبائل بعضهم ببعض وجعل الناس كأسنان المشط .

فمن المحتمل أن يحكم من يخلف هذا الرسول هواه وأهله وعشيرته فى الناس ومصالحهم ، كما لا يبعد أن يعلى هذا المركز (الخلافة) من شأن القبيلة

التى ينتمى إليها الخليفة ، ويغض من شأن غيرها من القبائل فيميل ميزان العدل بين الناس .

ويفسر لنا هذا تسابق القبائل والبطون عند وفاة الرسول على أن يكون الأمر لها دون غيرها ، فتكشف ما فى الصدور وتجلت النفس العربية والطبيعة القبلية إذ ذاك : فالأنصار يخافون قريشاً والمهاجرين إن استأثروا بالأمر دونهم وهم جميعاً فيما بينهم يتوجسون ، وتخشى كل من الأوس والخزرج صاحبتها . ولم يكن الحال فى مكة بأقل منه فى المدينة . فقد دب التنافس فى هذا الأمر بين بطون قريش . فلما تم الأمر لأبى بكر ، وجد عليه بنو هاشم وامتنع على عن بيعته أشهراً ، وسعى أبو سفيان بن حرب فى إيغار صدر علىّ على أبى بكر ونعت علياً والعباس « الأذلين والمستضعفين » (١) .

ولئن كان للمهاجرين من بنى هاشم وغيرهم ، وللأنصار أوسهم وخزرجهم من القرابة لرسول الله أو الفضل والسبق فى الإسلام ، أو النصر والإيواء لدين الله والذود عنه — لئن كان لهؤلاء وأولئك سبب من هذه الأسباب يتذرعون به ويطمعون من أجله فى الخلافة ، فإن القبائل العربية الأخرى لم تجد لنفسها من السابقة فى الإسلام ولا من القرابة للرسول ما تعتز به .

وقد رأت هذه القبائل المهاجرين والأنصار يتنازعون هذا الأمر فيما بينهم ، فيقول المهاجرون : « منا الأمراء ومنكم الوزراء » . ويقول الأنصار : « بل منا أمير ومنكم أمير » . فيئست هذه القبائل وضاع أملها فى الخلافة ، فأعلنت العصيان ورفض أكثرهم أن يخضعوا لسلطان أبى بكر وامتنعوا عن أداء الزكاة التى ظنوها إتاوة . ولا غرو فقد كان بعضهم يعتقد أنه لن تقوم لقريش قائمة بعد موت زعيمهم ، ولأنهم كرهوا سيادة قريش الذين ظنوا أنها قد سلبتهم حريتهم وأدخلتهم تحت سلطانها بحكم الدين (٢) وما زال دبيب العصيان ينمو فى النفوس ، والتمرد على الحكومة القرشية ينتشر بين القبائل ، حتى كاد يتزعزع مركز الإسلام وانكمشت أطرافه إلى مكة والمدينة والطائف وبنى عبد القيس .

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢٠٢ .

(٢) أنظر تاريخ عمرو بن العاص للمؤلف ٣٦ — ٣٧ .

ولم يكن ما حدث بالمدينة بالشيء المذكور إذا قيس بما حدث بغيرها .
فقد هم أهل مكة أنفسهم بالردة عن الإسلام حتى خافهم عتاب بن أسيد عامل رسول الله على أم القرى ، فتوارى منهم . ولولا أن قام فيهم سهيل بن عمرو فقال لهم بعد ذكر وفاة النبي : « إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة ، فمن رأينا ضربنا عنقه » لترددوا في موقفهم . على أن سهيلا أضاف إلى هذا الإرهاب ترغيباً كان له أثره : « والله ليتمن الله عليكم هذا الأمر كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم » . ولعل هذه الكلمة كانت أقوى أثراً في نفوسهم من التهديد ، وكانت لذلك سبب رجوعهم عن ردتهم ؛ فقد رأوا الأمر في المدينة قد آل إلى أبي بكر وإلى أبناء مكة من قريش ، فاطمأنوا إلى ما ذكره سهيل من حديث رسول الله واستمسكوا بالإسلام وأقاموا عليه .

وهمت ثقيف بالطائف أن ترتد ، فقام عثمان بن أبي العاص عامل النبي عليهم فقال : « يا أبناء ثقيف ! كنتم آخر من أسلم ، فلا تكونوا أول من ارتد » . وذكرت ثقيف موقف النبي منها بعد حنين ، وذكرت ما بينها وبين مكة من أواصر النسب والقربى ، « فاستمسكت بالإسلام . ولعل قيام أبي بكر بالخلافة ونهوض أهل المدينة إلى جانبه في أمرها ، قد كان له من الأثر في ثقيف مثل ما كان له في أم القرى» (١) .

هذا هو الشعور الذي شاع في القبائل التي ارتدت عن الإسلام. أما قريش، وقد آل إليها هذا التراث المجيد ، فقد اضطلعت بعبئه وتلقته بما يليق به من العناية والجد في تحمل مسئولياته . ولم تضن في سبيله بفلذات أكبادها وساداتها وأشرافها ، فوجهتهم لمحاربة هذه القبائل ، وبرهنت على أنها زعيمة العرب ، وأحقهم بهذا الأمر وأقدرهم على الاضطلاع به . يدل على ذلك قول عمر لنفر من الصحابة : « أظن قلتم ما أخوفنا على قريش من العرب وأخلقهم ألا يقروا بهذا الأمر » ، ثم قال : « فلا تخافوا هذه المنزلة ، أنا والله منكم على العرب أخوف مني من العرب عليكم ، والله لو تدخلون معاشر قريش جحراً لدخلته العرب في أثركم ، فاتقوا الله فيه » (٢) .

---

(١) أنظر هيكل : الصديق أبو بكر ص ٧٦ — ٧٧ .
(٢) الطبري ج ٣ ص ٢٤٦ .

(ا") موقف أبي بكر من المرتدين

وليس غريبا أن تحمل العصبية العرب على ركوب هذا الأمر الصعب والارتداد عن دين الله من أجل حرمانهم من الخلافة ؛ فنحن نعلم أن العصبية من أهم العوامل وأبعدها أثراً في القبائل التي أسلمت أو حاربت الإسلام في عهد الرسول : فالأوس والخزرج قبلوا الإسلام لأنهم سيعتزون به ويستنصرونه على اليهود الذين كانوا يدلون عليهم بدينهم وكتبهم ويتهددونهم بقتلهم قتل عاد وإرم حينما يبعث نبي آخر الزمان . وهؤلاء اليهود — والنصارى أيضاً — أعرضوا عن الإسلام ونفروا منه لأنه لم يوح به إلى رجل منهم . وحاربت القبائل الأخرى المشهورة مثل هوازن وثقيف الإسلام خشية أن يظهر عليها ويخضعها كما أخضع القبائل الأخرى .

بل لقد دفعت هذه العصبية بعض القبائل إلى انتحال النبوة ، فتنبأ فيها رجال قبل وفاة الرسول وبعدها ، وشايعتها هذه القبائل . وكان أشد هؤلاء المتنبئين خطراً مسيلمة الكذاب الذي استفحل خطره وتفاقم شره لانضمام الرجال بن عنفوة من بني حنيفة إليه وخديعته سجاح التميمية حتى تزوجته وانضم أتباعها إليه(١) .

وقد كتب مسيلمة إلى الرسول كتاباً يدعي فيه مشاركته في الرسالة ويساومه في اقتسام الملك والسيادة في جزيرة العرب ، فكتب إليه الرسول . « من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإن الأرض يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » .

ثم لم يلبث الرسول أن توفي . فلما ولي أبو بكر الخلافة أرسل إليه عكرمة ابن أبي جهل ، وألحق به شرحبيل بن حسنة . فتعجل عكرمة حتى حلت به الهزيمة ، فوجه إليه أبو بكر خالد بن الوليد على رأس جيش كثيف على مقدمته شرحبيل ، والتحم جيش المسلمين بجيش مسيلمة ، واستماتت بنو حنيفة في القتال ، وفي مقدمتهم الرجال ، حتى كاد النصر يتم لهم ، لولا أن صدق المسلمون في الجهاد وصبروا في الحرب . كما دعا خالد مسيلمة للمبارزة عساه يقتله فيقضي على رأس تلك

---

(١) الطبري ج٣ ص ٢٤٤ — ٢٤٦ .

الفتنة ويخمد جذوتها . ولكن مسيلمة لم يستطع صبراً أمام خالد ، فولى هارباً ، وحمل المسلمون عليه وعلى أصحابه فهزموهم . وأكثر المسلمون القتل فى بنى حنيفة حتى قتل مسيلمة على يد وحشى قاتل حمزة عم الرسول فى غزوة أحد ورجل من الأنصار(١) .

كذلك ادعى الأسود العنسى النبوة فى اليمن وتابعه قومه ، فاشتد بهم ساعده ، وغزا بلاد نجران فدانت له ، كما دانت له مذحج التى استخلف عليها عمرو ابن معد يكرب . وعدا على شهر بن باذان صاحب صنعاء فقتله وتزوج امرأته ، وألقى الرعب فى قلوب ولاة المسلمين على اليمن حتى كتبوا بذلك إلى الرسول ، فكتب إليهم يأمرهم بالقيام على دينهم ومناهضة الأسود ، فأتمروا به حتى قتلوه غيلة فى الليلة التى مات الرسول فى صبيحتها(٢) .

وممن ادعى النبوة أيضاً طليحة بن خويلد ، وهو كاهن من بنى أسد ، اتبعه قومه ودعوا إليه حلفاءهم من طيء والغوث ومن إليهم . فلما توفى النبي ظهر أمره وانضمت إليه غطفان ومن حولها ، فبعث إليهم أبو بكر عديا ثم خالد بن الوليد ، فأسلمت طيء وجديلة وصبرت معه فزارة وأسد ، حتى إذا استحر القتال وأيقن طليحة بالهلاك فر إلى الشام . وذكر الطبرى فى رواية له أن طليحة مضى حتى نزل إلى كاب ، فأسلم ، ولم يزل مقيما بينها حتى مات أبو بكر . فلما ولى عمر الخلافة أتاه فبايعه واشترك فى الفتوح العربية فى عهده .

وممن التف حول هؤلاء المتنبئين عرب لم يؤمنوا بنبوتهم ، وإنما فكروا فى الارتداد ، وانحازوا إلى هؤلاء المتنبئين يستنصرون بهم على قريش ليتخلصوا من زعامتها وسيادتها التى فرضتها عليهم .

وهناك فريق من العرب ارتدوا ولم ينضموا إلى واحد ممن ادعوا النبوة . ومن هؤلاء سكان البحرين الذين ارتدوا بعد وفاة ملكهم المنذر بن ساوى ، حتى قيض الله الجارود بن المعلى العبدى ، فنصحهم حتى ثابوا إلى الإسلام . ولكن الحطم بن ضبيعة ومن اتبعه من بنى بكر بن وائل ، أحاطوا بالمسلمين وحاصروهم

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢٤٧ — ٢٤٨ .

(٢) الطبرى ج ٣ ص ٢٣٢ . Muir, The Caliphate, pp. 20—22.

حتى بعث إليهم أبو بكر العلاء الحضرمى ، لحارب الحطم ومن معه ولم يستطع أن يقهره حتى بدت له فرصة فانتهزها . ذلك أنهم سمعوا فى معسكر المشركين ضجة فدسوا فيهم من يتعرف خبرهم ، فعرف أن القوم سكارى ، فهجم عليهم المسلمون وأعملوا فيهم السيف واستولوا على مافى المعسكر(١) .

واجه أبو بكر كل هذه الصعاب بما عرف عنه من حزم وعزم وغيرة على الدين ، فبادر إلى تسيير الجيوش إلى المرتدين والمتنبئين ومانعى الزكاة ، وعقد اللواء لقتالهم على أحد عشر قائداً فى وقت واحد وهم :

١ — خالد بن الوليد ووجهته طليحة بن خويلد ، فإذا فرغ سار إلى مالك ابن نويرة بالبطاح .

٢ — عكرمة بن أبى جهل ووجهته مسيلمة الكذاب فى بنى حنيفة .

٣ — المهاجر بن أبى أمية ووجهته العنسى باليمن ومعونة الأبناء على قيس ابن العاص .

٤ — عمرو بن العاص ووجهته قضاعة ووديعة والحارث .

٥ — سعيد بن العاص ووجهته الحمقتان من مشارف الشام .

٦ — حذيفة بن محصن الغلفانى وأمره بأمر دبا .

٧ — عرفجة بن هرثمة ووجهته مهرة .

٨ — شرحبيل بن حسنة بعثه فى إثر عكرمة بن أبى جهل على أن يلحق بعمرو بن العاص إذا فرغ من بنى حنيفة فى اليمامة .

٩ — طريفة بن حاجز ووجهته بنو سليم ومن معهم من هوازن .

١٠ — سويد بن مقرن ووجهته تهامة باليمن .

١١ — العلاء بن الحضرمى ووجهته البحرين .

وأمر أبو بكر كل قائد بالمسير إلى ناحية من نواحى بلاد العرب بعد أن كتب له عهداً يأمره فيه : « بالجد فى أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أمانى الشيطان » ، وأمره « أن لا يرد المسلمين عن قتال عدوهم » ، وأن « لا يقاتل إلا من كفر بالله ورسوله ، ثم نصحه بأن لا يدخل فى المسلمين

(١) الطبرى : ج ٣ ص ٢٥٤ — ٢٦١ .

جشوا حتى يعرفهم ويعلم ماهم. حتى لا يكونوا عيونا ، ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم[1] .

وأرسل أبو بكر إلى جميع المرتدين كتاباً يدعوهم فيه الرجوع إلى حظيرة الدين ويرد الشبهة التى نشأت عن موت الرسول بأنه بشر يموت كما يموت كل إنسان ، ثم هددهم بالقتل والإحراق وسبى النساء والذرارى إذا لم يرجعوا .

بعث أبو بكر هذه الكتب مع الرسل إلى المرتدين أمام الجنود ، وخرجت الأمراء ومعهم العهود . وكانت الغلبة للجيوش الإسلامية ، وعلت كلمة الدين من جديد بعد أن عمل هؤلاء القواد وجنودهم السيف فى رقاب المرتدين .

ومما ساعد على انتصار المسلمين فى حروب الردة قوة إيمانهم التى بعثت فى نفوسهم الشجاعة والإقدام والاستخفاف بردة العرب . يدل على صحة هذا القول ما رواه المؤرخون عن موقف عمرو بن العاص ، من قرة بين هبيرة من بنى عامر ، إذ نزل به فأكرمه ثم خلا به وقال : يا هذا ، إن العرب لا تطيب لكم نفسا بالإتاوة ، فإن أعفيتموها فتسمع لكم وتطيع ، وإن أبيتم فلا تجتمع عليكم » . فأجابه عمرو على الفور جواباً يدل على استهانته بردة العرب فقال : تخوفنا بردة العرب ؟ فوالله لأوطئن عليك الخيل فى حفش[2] أمك .

ولما أتى بقرة بن هبيرة أسيراً إلى أبى بكر رضى الله عنه ، استشهد بعمرو على إسلامه ، فأحضر أبو بكر عمراً فسأله ، فأخبره بقول قرة إلى أن وصل إلى ذكر الزكاة ، فقال قرة : مهلا يا عمرو ، فقال : كلا والله لأخبرنه بجميعه . فعفا عنه أبو بكر وقبل إسلامه[3] .

يقول ميور[4] عن سبب نجاح المسلمين فى القضاء على الردة واستئصال شأفتها من بلاد العرب : « وإنما يرجع الفضل فى تتويج هذه الجهود بالنصر والظفر إلى تلك الروح القوية التى بثها محمد فى نفوس أتباعه المخلصين » .

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢٢٧ .

(٢) الحفش بكسر السكون بيت تنفرد فيه النفساء .

(٣) الطبرى ج ٣ ص ٢٣١ . أنظر كتاب عمرو بن العاص للمؤلف ص ٣٨ .

(٤) The Caliphate, p. 18

(ب) موقف الإسلام من المرتدين

اتخذ بعض المستشرقين ارتداد بعض القبائل العربية عن الإسلام بعد وفاة الرسول ، دليلا على أن الإسلام إنما قام بحد السيف ، وأن الخوف وحده هو الذى أدخل العرب فى هذا الدين . وفى الحق أن العرب الذين حاربهم أبو بكر وسموا مرتدين لم يرتدوا عن الإسلام كما يتبادر إلى الذهن من تسميتهم مرتدين ، وإنما كانوا فريقين :

١ — فريقاً منع الزكاة فقط زاعماً أنها إتاوة تدفع إلى الرسول . فلما انتقل إلى جوار ربه ، أصبحوا فى حل من عدم دفعها إلى خليفته . وفى شأن هذا الفريق عارض عمر أبا بكر فى حربهم ، محتجاً بقوله عليه السلام : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قالها فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله » . ولكن أبا بكر رأى فى امتناع هؤلاء عن دفع الزكاة هدماً لركن من أهم أركان الدين قد يؤدى التهاون فيه إلى هدم سائر الأركان .

وكان من رأى أبى بكر أن يأخذ هذا الفريق من المرتدين فى غير هوادة حيث قال : « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال . والله لو منعونى عقالا[1] كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه » ، فقال عمر : « فو الله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبى بكر رضى الله عنه فعرفت أنه الحق » [2] .

على أن هؤلاء لم يرتدوا عن الإسلام لبغضهم إياه أو كراهتهم له ، وإنما ظنوا أن الإسلام قد انتهى بوفاة الرسول . أضف إلى ذلك أنهم لم يخرجوا على عقيدة التوحيد التى هى عماد هذا الدين ، بل زعموا أن الزكاة إنما هى إتاوة يدفعونها

---

(١) العقال : الحبل الذى يعقل به البعير الذى كان يؤخذ فى الصدقة ، لأن على صاحبها التسليم ، وإنما يقع القبض بالرباط . وقيل أراد ما يساوى عقالا من حقوق الصدقة إذا أخذ المتصدق أعيان الإبل . قيل أخذ عقالا ، وإذا أخذ أثمانها قيل أخذ نقدا . وقال المبرد فى الكامل إن المتصدق إذا أخذ من الصدقة ما فيها ولم يأخذ ثمنها قيل أخذ عقالا ، وإذا أخذ الثمن قيل أخذ نقدا .

(٢) صحيح البخارى (طبعة بولاق) ج ٢ ص ١٠٥ .

الرسول ، ومن ثم لم يجدوا مبرراً لدفعها بعد وفاته (١) .

٢ — وأما الفريق الثانى فقد ارتدوا عن الإسلام ولم يكونوا مسلمين حقاً ، لأن السواد الأعظم منهم كان من هؤلاء الأعراب الذين مردوا على النفاق ولم يمض عليهم من الزمن ما يكفى لأن يؤثر الدين فى قلوبهم . ولا غرو فالدين عقيدة ومبدأ يملآن القلب ويؤثران فى كل ما يصدر عنه . وقد نعى الله سبحانه وتعالى عليهم هذه الطبيعة الجافية فى غير آية من القرآن . من ذلك قوله تعالى : ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لايلتكم (٢) من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم . إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون . قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله بكل شىء عليم ﴾ (سورة الحجرات ٤٩ : ١٤ — ١٦) . وقال تعالى : ﴿ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً ، وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم ﴾ (سورة التوبة ٩ : ٩٨ — ٩٩) .

وأما معاقبة الإسلام من ارتد عنه بالقتل ، فذلك أمر اقتضته سياسة الدولة أكثر من الحرص على إسلام هؤلاء ، إذ كان أخوف ما تخافه الدولة الإسلامية من الإبقاء على هؤلاء المرتدين أن ينقلبوا عيوناً عليها ، وبذلك يصبحون شراً مستطيراً يهدد كيانها . ولا غرو فإن السياسة والدين لايكاد ينفصل أحدهما عن الآخر عند المسلمين (٣) .

على أن الإسلام شديد الحيطة فى أمر المرتدين ، فهو لا يأخذهم بالشبه ولا يحكم فيهم بالظنة ، وإنما يمهل المرتد ثلاثة أيام يناقشه خلالها علماء المسلمين وفقهاؤهم فيما التبس عليهم من أمر الدين ، وما عرض له من الشبه فى صحته ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيى عن بينة .

(١) أنظر تعليق المؤلف على كتاب السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات فى عهد بنى أمية ص ٨٧ .

(٢) لاينقصكم من أجور أعمالكم .

(٣) أنظر Nicholson, p. 197.

وإلى القارىء طائفة من أقوال الأئمة فى هذا الصدد ، قال أبو حنيفة : إذا ارتد المسلم عرض عليه الإسلام وأجل ثلاثة أيام ، لأن الظاهر أنه دخلت عليه شبهة ارتد لأجلها . فعلينا إزالة تلك الشبهة ، أو هو يحتاج إلى التفكر لتبين له الحق ، فلا يكون ذلك إلا بمهلة ، فإن استمهل كان على الإمام أن يمهله . ومدة النظر مقدرة بثلاثة أيام فى الشرع كما فى الخيار (خيار الشرط وخيار الرؤية فى البيوع) ، فلهذا يمهله ثلاثة أيام[1] .

ويقول بعض فقهاء المالكية : « واستتيب المرتد وجوباً ولو عبداً أو امرأة ثلاثة أيام بلياليها من يوم الثبوت لا من يوم الكفر بلا جوع ولا عطش ، بل يطعم ويسق من ماله وبلا معاقبة وإن لم يتب »[2].

وقال الإمام الشافعى : « ويجب استتابة المرتد ذكراً أو غيره لأنه كان محترماً بالإسلام ، وربما عرضت له شبهة فتزال ، وقيل يمهل ثلاثة أيام »[3] ؛ وقال الإمام أحمد بن حنبل : « ومن ارتد عن الإسلام من الرجال والنساء وهو بالغ عاقل ، دعى إليه ثلاثة أيام[4] » .

على أنه ينبغى ألا يكفر مسلم يحتمل عمله أو قوله الكفر وعدمه إلا إذا كان التكفير بقوله أو بعمله مجمعاً عليه . وقد صرح العلماء بأنه لا يكفر مسلم بقول يحتمل الكفر من تسع وتسعين وجهاً ويحتمل الإيمان من وجه واحد[5] .

من ذلك نرى أن محاربة أبي بكر من ارتد من المسلمين بعد وفاة الرسول لم تكن سوى قمع ثورة داخلية أراد بعض من لم يخالط الإسلام قلوبهم القضاء عليه

---

(١) كتاب المبسوط لشمس الدين السرخسى (القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ) ج ١٠ ص ٩٨ — ١٠٠ .

(٢) انظر باب الردة وأحكامها فى الشرح الكبير للدردير (طبعة بولاق سنة ١٣٠٩ هـ) ج ٤ ص ٢٧٠ حاشية الدسوقى ج ٤ ص ٢٦٧ .

(٣) انظر باب الردة حاشية البجرمى على شرح المنهج (طبعة بولاق سنة ١٣٩٩ هـ) .

(٤) انظر كشاف القناع على متن الإقناع (طبعة القاهرة سنة ١٣١٩ هـ) ج ٤ ص ١٠٠ — ١٠٥ .

(٥) انظر باب المرتد فى حاشية رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين (طبعة مصر سنة ١٢٧٢ هـ) . وهذه هى الروح التى أملت على أبى بكر كتابه إلى المرتدين وعهده إلى القواد .

وهو لا يزال فى مهده ، فلم يكن بد إذا من أن يقضى أبو بكر على هذه الثورة حتى لا تتصدع أركان الوحدة العربية وتتفرق كلمة المسلمين .

وأما من دخلوا الإسلام عن اقتناع بصحته وإدراك لسمو مبادئه ، فإنه لم يرتد منهم أحد . وقد أجمع المؤرخون على أن أهل مكة والمدينة والطائف ثبتوا على إسلامهم ، ولم تؤثر فيهم تلك العاصفة التى عصفت بشبه جزيرة العرب على أثر وفاة الرسول .

٢ — الفتنة التى أدت إلى قتل عثمان

كان عثمان فى السبعين من عمره حين آلت الخلافة إليه . وكان سهلا ليناً ؛ فلم يكن له حزم أبى بكر وعمر ، تلك الصفة التى كان لابد منها لادارة دولة مترامية الأطراف كالدولة الإسلامية فى ذلك العهد ، وخاصة فى دور انتقال العرب من معيشة البساطة والزهد إلى معيشة الغنى والاستمتاع بالأموال المتدفقة من البلاد المفتوحة .

ولقد اغتبط المسلمون بخلافة عثمان لما وجدوا فيه من لين وتيسير بعد شدة عمر وتضييقه . فقد سمح لكبار الصحابة بالخروج إلى الأقاليم وامتلاك الضياع فيها[1] ، وترك للأغنياء أمر الزكاة يدفعونها كما يشاءون . كما بدأت الثروات التى تدفقت على المدينة ومكة تفعل فعلها فى نفوس العرب فتغريهم بالاستمتاع بها

---

(١) قال الطبرى (ج ٥ ص ١٣٤) : « كان عمر بن الخطاب قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج الى البلدان إلا بإذن وأجل . فشكوه فبلغه فقام فقال : ألا إنى قد سننت الإسلام سن البعير ، يبدأ فيكون جذعا ، ثم ثنيا ، ثم رباعيا، ثم سديسا ثم نازلا (الجزع من الإبل ما كان فى السنة الخامسة ، والثنى ما كان فى السادسة، والرباعى (منقوص على وزن ثمانى) من الإبل ما كان فى السابعة ، والسديس ما كان فى الثامنة ، والبازل ما كان فى التاسعة) ، ألا فهل ينتظر بالبازل إلا النقصان ؟ ألا فإن الإسلام قد بزل ألا وإن قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده . ألا فأما وابن الخطاب حى فلا، إنى قائم دون شعب الحرة آخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا فى النار . فلما ولى عثمان الخلافة لم يأخذهم بالذى كان يأخذهم به عمر ؛ فانساحوا فى البلاد ، فلما رأوها ورأوا الدنيا ورآهم الناس ، انقطع من لم يكن له طول ولامزية فى الإسلام ، فكان مغموماً فى الناس وصاروا أوزاعا إليهم وأملوهم وتقدموا فى ذلك : فقالوا يملكون فنكون قد عرفناهم وتقدمنا فى التقريب والانقطاع إليهم ، فكان ذلك أول وهن على الإسلام وأول فتنة كانت فى العامة ليس إلا ذلك .

استمتاعاً دفع بعضهم إلى حياة البذخ والترف . فانتشر فى المدينة بعض أنواع اللهو (١) ، فاضطر عثمان إلى الضرب على أيدى أصحابها وكبح جماحهم ونفى بعضهم عن المدينة فتذمروا(٢) ، وتذمر ذووهم وذوو فريق من الصحابة كعبدالله ابن مسعود وأبى ذر الغفارى وعمار بن ياسر . فقد روى السيوطى (٣) أن بنى هذيل وبنى زهرة حنقوا على عثمان لهناة (إساءة) كانت منه إلى صاحبهم عبد الله بن مسعود ؛ وكذلك غضب بنو غفار وأحلافها لأبى ذر الغفارى ، وبنو مخزوم الذين حنقوا على عثمان لما صنع بعمار بن ياسر .

لذلك لا نعجب إذا رأينا هؤلاء يسارعون إلى إجابة دعاة الثورة على عثمان فى الأقاليم . وكان ذوو قرباهم فى المدينة وما حولها أول من استاء من سياسة عثمان ، كما كانوا أكثر الناس مجاهرة بالتبرم من أعماله ونقداً لسياسته ، مما اضطر عثمان – وهو صحابى جليل وخليفة المسلمين – إلى تبريرها أمام جمهور المسلمين(٤). فكان تبرير بعضها كافياً لبيان صحتها وإخلائه من المسئولية . ولكن الدعاية

---

(١) قال الطبرى (ج ٥ ص ١٣٤) : أول منكر ظهر بالمدينة حين فاضت الدنيا (أى كثرت الأموال) وانتهى وسع الناس (أى بلغوا من الثروة والترف الغاية) طيران الحمام (أى تطييره) والرمى على الجلاهقات (جمع جلاهق وهو البندق الذى يرمى به الطير) ، فاستعمل عثمان رجلا من بنى ليث سنة ثمانى (من خلافته) فقصها (أى قص الحمام)وكسر الجلاهقات .

(٢) روى الطبرى (ج ٥ ص ١٣٧) أن عثمان لما عاقب كعب بن ذى الحبكة على لهوه ، غضب ونفر فى الناس الذين نفروا فضرب معهم ثم نفى إلى الشام . ولما عاقب ضابىء بن الحارث البرجمى بالحبس وظل فيه حتى مات عثمان ، خرج ضابى وهو يقول .

همت ولم أفعل وكدت وليتنى تركت على عثمان تبكى حلائله

وذكر الطبرى أيضاً أن نفراً اجتمعوا بالكوفة وفيهم الأشتر وزيد بن صوحان وكعب ابن ذى الحبكة وأبو زبيب وأبو مورع . . فقالوا : والله لا يرفع رأس مادام عثمان على الناس. فقال عمر بن ضابى وكميل بن زياد : نحن نقتله . فأما عمير فقد رجع عن عزمه ، وأما كميل فإنه جسر وحاول قتل عثمان لولا أن عثمان لكمه .

(٣) تاريخ الخلفاء ص ١٠٦ .

(٤) مما عابوه على عثمان أنه حمى الحمى ، فأجابهم عنه بأن عمر قد اتخذه من قبله ولم يفعل إلا أن وسع هذا الحمى لما زادت إبل الصدقة وامتنع بعض المسلمين الذين يملكون أرضا بجوار المسجد النبوى عن تسليمها إليه ليوسع بها المسجد ، فأخذها عنوة وقال : قد فعل ذلك عمر من قبل .

السيئة التي قامت ضده كثيراً ما كانت تغلب على حججه وأدلته ، وكان تبريره بعضها الآخر ضعيف الحجة[1] ، لم يقتنع به شيوخ الصحابة ولم يخله من لومهم واعتراضهم عليه .

وذكر الطبرى والدينورى والسيوطى وغيرهم عدة أشياء استحدثها عثمان فى الدين لم يسبق بها فى عهد الرسول ولا فى عهد أبى بكر وعمر . فهو أول من أقطع القطائع ، وأول من خفض صوته بالتكبير ، وأول من أمر بالأذان يوم الجمعة ، وأول من قدم الخطبة فى العيد على الصلاة ، وأول من فوض الناس إخراج زكاتهم ، وأول من أخذ الزكاة على الخيل ، وكان النبى قد أعفى من زكاة الخيل والرقيق ، وأول من حمى الحمى[2] . يقول بعض إنه حمى الحمى لإبل الصدقة ولإبله وخيله وإبل بنى أمية وخيلها . ويقول عثمان إنه لم يحم الحمى إلا لإبل الصدقة . ولما لامه المسلمون على أنه حمى الحمى لإبل الصدقة كانت حجته إنما أراد ألا يكون هناك اختلاف بين الأفراد والدولة فيما يتصل بالمراعى .

كذلك أخذ المسلمون على عثمان أنه أعاد عمه الحكم بن العاص وأهله إلى المدينة ، وكان الرسول قد أخرجهم منها بسبب إيذاء الحكم للرسول . ولكن عثمان شفع عند الرسول فى إعادته فلم يعده . فلما ولى الخلافة أعاد الحكم إلى المدينة . ولما مات الحكم ضرب عثمان على قبره فسطاطاً وولى ابنه الحارث ابن الحكم سوق المدينة ، فأساء السيرة وطمع فى جمع المال ، وآثر ابنه الآخر مروان

---

(١) قال عثمان حين سئل عن بذخه وترفه وأكله ألين الطعام وشده أسنانه بالذهب ومقارنة ذلك بما كان يصنع عمر : يرحم الله عمر ومن يطيق ما كان عمر يطيق ؟ وقوله عن الأموال التى كان يغدقها على نفسه والأعوان من أهله وأقربائه على حين كان عمر يستغنى من بيت المال بالكفاف : كان هذا حقاً لعمر وقد تركه وتبرع به للمسلمين وليس على من لا يتبرع بشىء من حقه لوم ولا تثريب . وكذلك كان موقفه من الولاة الذين عينهم من أقربائه ، فاستغاث منهم رعيتهم فلم يردعهم ولم يكفهم .

(٢) يقال حمى فلان الأرض يحميها حمى حتى لا يقرب . والحمى موضع فيه كلأ يحمى من الناس أن يرعى . وقال الشافعى رضى الله عنه فى تفسير قوله صلى الله عليه وسلم : « لا حمى إلا لله ولرسوله » . وكان الشريف من العرب فى الجاهلية إذا نزل بلداً فى عشيرته استعوى كلبا فحمى خاصته مدى عواء الكلب لا تشركه فيه غيره فلم يرعه معه أحد . وكان شريك القوم فى سائر المراتع حوله ، فنهى النبى صلى الله عليه وسلم أن يحمى على الناس كما كانوا فى الجاهلية يفعلون .

ابن الحكم فاتخذه وزيراً ومشيراً ، فأنكر المسلمون ذلك وسعى إليه أعلام الصحابة فلاموه فيه ، ولكنه زعم لهم أنه كلم النبي في رد الحكم فأطمعه في ذلك ثم توفى قبل أن يرده [١] » .

كما نقم المسلمون على عثمان أنه عزل ولاة عمر عن الأمصار وولاها ذوى قرباه ومن بينهم وبينه صلة .

كان هذا في داخل المدينة وهي حاضرة الدولة وقلبها النابض. أما في الولايات الإسلامية فقد وجد إلى جانب هؤلاء المنفيين المتذمرين من عثمان الحانقين عليه طبقتان من الشعب : طبقة الاستقراطيين أصحاب الثروات الضخمة ، وطبقة المقاتلين المتبرمين من فقرهم وحرمانهم .

أوجد الطبقة الأولى عثمان ، فقد أباح لأعلام قريش كما أسلفنا — أن يتملكوا الضياع ويشيدوا القصور في الولايات الإسلامية المفتوحة كالعراق والشام ومصر. كما سمح لهم أن يستبدلوا بأملاكهم في الحجاز أملاكاً في تلك الأمصار، وقد تصدى المسعودى لذكر نفر من هؤلاء الصحابة الذين رحلوا إلى الولايات واستقروا بها فقال : « وفي أيام عثمان أقتنى جماعة من أصحابه الضياع والدور » .

خرج هؤلاء السادة من المهاجرين والأنصار إلى تلك الأقاليم النائية عن الحجاز ، وأنشأوا لأنفسهم أرستقراطية دينية سداها المال ولحمتها السبق في الإسلام وصحبة الرسول . وإنا لنستطيع من وراء تلك الثروات التي وصف لنا المسعودى بعضها — أن نتصور عدد من يحيطون بهذه الشخصيات الغنية ذات الزعامة الدينية ، ويلتفون حولهم معجبين بأخلاقهم ومحامدهم مأخوذين بأحاديثهم عن مواقفهم المجيدة وحسن بلائهم في نصرة النبي على أعدائه المشركين، ومفتونين بما يضفيه عليهم هؤلاء الأغنياء من هبات وأعطيات ، حتى أصبح كل فريق منهم يتمنى أن تصير الخلافة في يد صاحبه .

ومن بين هؤلاء الأشياع والأتباع نفر كان يتمنى أن يلي صاحبهم الخلافة لتكون لهم الحظوة عنده ، فتعظم مكانتهم ويعلو مقامهم . وإن اختلاف الوفود

---

(١) طه حسين : فتنة عثمان ص ١٨٠ — ١٨٥ .

التى أتت من الولايات الإسلامية لخلع عثمان ، على من توليه خلفاً له — حتى قال أهل البصرة نولى الزبير وقال أهل الكوفة نولى طلحة . . . الخ — لأكبر دليل على صحة هذا القول .

كما وجد إلى جانب هذه الطبقة الأرستقراطية طبقة أخرى فقيرة معدمة أنشأها عمال عثمان ، باستئثارهم بالفيء والغنائم لأنفسهم وخزائن دولتهم وحرمان المقاتلة منها ، مدعين أن الفيء لله وليس للمحارب إلا أجر قليل يدفع إليه . فلما رأى هؤلاء المحاربون — وجلهم من البدو — هذه الثروات الضخمة والأموال الكثيرة يستأثر بها الحكام والقواد من قريش ، ورأوا أنفسهم قد خرجوا من الصحراء يطلبون الغنى والمجد فى ظلال السيوف ، فاحتكرتها قريش لنفسها وحرمتهم حتى من الغنائم التى كانت تعطى للمحارب فى عهد الرسول ثم فى عهد أبى بكر وعمر ، حقدوا على قريش واعتبروها مغتصبة لحقوقهم وتمنوا الخلاص من سيادتها وحكومتها . لذلك لا نعجب إذا أعلن المقاتلة من العرب بأن أموال الفيء والغنائم إنما هى لهم وليست للحكومة ، وأن المال مال المسلمين وليس مال الله .

من هذا كله يتبين أن حال الدولة الإسلامية قد تغيرت تماماً فى عهد عثمان ، وأن هذا التغير أثار روح المعارضة لسياسة الحكومة والاستياء من تصرفاتها ، وبعث على التمرد عليها فى المدينة وفى جميع الأمصار . فكان هذا الجو ملائماً تمام الملاءمة ومهيئاً لقبول دعوة عبد الله بن سبأ ومن لف لفه والتأثر بها إلى أبعد حد .

وقد أذكى نيران هذه الثورة صحابى قديم اشتهر بالورع والتقوى — وكان من كبار أئمة الحديث — وهو أبو ذر الغفارى[1] الذى تحدى سياسة عثمان ومعاوية واليه على الشام بتحريض رجل من أهل صنعاء هو عبد الله بن سبأ . وكان يهودياً فأسلم، ثم أخذ يتنقل فى البلاد الإسلامية ، فبدأ بالحجاز ثم البصرة فالكوفة والشام ومصر .

وفد ابن سبأ إلى الشام وحرض أبا ذر على معاوية وقال له: يا أبا ذر ! ألا تعجب

---

(١) كان أبو ذر من أهل الصفة ، ولا يبعد أن يكون لهذا أثر فى ميوله الاشتراكية .

إلى معاوية يقول المال مال الله ؟ ألا إن كل شيء لله ، كأنه يريد أن يحتجنه [١] دون المسلمين ، ويمحو اسم المسلمين [٢] (أى من ديوان العطاء) .

لهذا لا نعجب إذا رأينا أبا ذر يعلن استياءه من سياسة معاوية ، ويحض الأغنياء على الرحمة بالفقراء وعلى الإقلاع عن ادخار الأموال وكنزها ، محتجاً بقوله تعالى ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ (سورة التوبة ٩ : ٢٤) . كما لا نعجب أيضاً إذا ألفينا الفقراء يلتفون حوله ويسيئون إلى الأغنياء حتى شكوا ذلك إلى معاوية . فلما رفع معاوية الأمر إلى عثمان أيقن أن الفتنة قد أخرجت بخطمها [٣] وعينها .

وقد بعث عثمان فى طلب أبى ذر الذى آلى على نفسه أن يواصل حملاته على هذه السياسية . وكأن أبا ذر قد تنبأ بتلك الثورة التى ذهب عثمان ضحيتها . ولما دخل المدينة ووجد المجتمعات تعقد للتآمر على عثمان ، نادى فى المجتمعين : « بشر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار » .

وقد أذن عثمان لأبى ذر بالإقامة فى الربذة ، وهى قرية صغيرة على مقربة من المدينة — أو نفاه إليها على ماذهب إليه ابن هشام [٤] والخوارزمى [٥] — ولكنه واصل حملاته العنيفة على سياسة عثمان إلى أن مات سنة ٣١ هـ وهو كاره لها .

ولقد وجد ابن سبأ — وهو أول من حرض الناس على كره عثمان — الطريق ممهدة لحلمه . ولسنا نشك فى حسن نية أبى ذر ، وما كان من استيائه من عثمان ومن سياسته . فقد كان مصدر استيائه ما كان يعتقده فى عثمان من هوادة فى الدين وتهاون فى أحكامه ، بخلاف ما كان عليه ابن سبأ .

وقد صادفت دعوة ابن سبأ فى البصرة مرعى خصيباً ؛ بيد أن عبد الله

---

(١) احتجن المال : ضمه واحتواه .

(٢) الطبرى ١ : ٢٨٥٩ .

(٣) الخطم : (بفتح الخاء وسكون الطاء) مقدم الأنف والفم من الدابة ، والمراد هنا : بدأت أوائل الفتنة .

(٤) سيرة ابن هشام (طبعة أوربا) ٢ : ٩٧١ .

(٥) رسائل الخوارزمى ص ١٣١ . مروج الذهب للمسعودى ج ١ ص ٤٨٣ .

ابن عامر والى عثمان طرده من هذه البلاد ، فرحل إلى الكوفة ، حيث تفاقم استياء الناس من عثمان وواليه ، ومن قريش الذين استولوا على أرض السواد[1] ، واتخذوه بستاناً لهم . وواصل الثائرون الاجتماعات فى منازلهم ولعن عثمان جهاراً وخاض الناس فيما ارتكب من عظائم الأمور .

ثم طرد ابن سبأ من الكوفة أيضاً ، فقصد الشام ، فلم يلق من أهلها ما لقى فى البصرة والكوفة ، فرحل إلى مصر حيث أخذ ينشر دعوته التى ألبسها لباس الدين ، واتصل بالثائرين فى البصرة والكوفة ، وتبادل معهم الكتب والرسل ، وبعث الدعاة إلى هذه البلاد يدعون لعلى ، واستطاع أن يؤثر فى نفوس الناس : فوضع مذهب الرجعة أى رجعة محمد . ثم نشر مذهب الوصاية ، بمعنى أن علياً وصى محمد ، وأنه خاتم الأوصياء بعد محمد خاتم النبيين . واتهم أبا بكر وعمر وعثمان بالتعدى على حق على فى الخلافة ، كما روج بين المسلمين نظرية الحق الإلهى التى أخذها عن الفرس الذين احتلوا قبل الإسلام بلاد اليمن موطنه الأصلى ، بمعنى أن عليا هو الخليفة بعد النبى ، وأنه يستمد الحكم من الله . وبذلك هيأ ابن سبأ العقول إلى الاعتقاد بأن عثمان اغتصب الخلافة من على وصى الرسول ، وأخذ يؤلب الناس على عثمان وعلى ولاته ، فقال لهم : « إن عثمان أخذ الخلافة بغير حق ، وهذا على وصى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فانهضوا فى هذا الأمر فحركوه ، وابدءوا بالطعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر[2] » .

وقد سهل على ابن سبأ تنفيذ سياسته فى مصر اشتداد سخط أهلها على عثمان وعلى عبد الله بن سعد بن أبى سرح عامله على مصر ومن ذوى قرباه . كما ساعد انضمام محمد بن أبى حذيفة ومحمد بن أبى بكر على

---

(١) موضعان أحدهما بنواحى البلقاء ، سميت السواد لسواد حجارتها ، والثانى يراد به رستاق العراق وضياعها التى افتتحها المسلمون فى عهد عمر بن الخطاب . سمى بذلك لسواده بالزروع والنخيل والأشجار ، لأنه حين تاخم جزيرة العرب التى لازرع فيها ولا شجر ، كانوا إذا خرجوا من أرضهم ظهرت لهم خضرة الزرع والأشجار فيسمونه سوادا ، كما ترى شيئاً من بعد فتقول : ما ذلك السواد ؟ وهم يسمون الأخضر سوادا والسواد أخضراً .

(٢) الطبرى ١ : ٢٩٤٢ .

إذ كاء نيران السخط فى مصر ونجاح ابن سبأ فى سياسته .

ويرجع سبب انضمام محمد بن أبى بكر إلى صـــلة النسب بينه وبين على ابن أبى طالب وابنه الحسين بن على . فقد تزوج على أسماء بنت عميس أم محمد ابن أبى بكر بعد وفاة أبيه . فكان ابن أبى بكر ربيباً فى بيت على ؛ ولأن الحسين ابن على ومحمد ابن أبى بكر كانا زوجين لابنتى يزدجرد الثالث آخر ملوك بنى ساسان من الفرس ، ولأن كتاب مروان بن الحكم قد كتب إلى ابن أبى سرح بقتل محمد بن أبى بكر والتمثيل به وبمن معه من المهاجرين والأنصار .

وأما مسلك ابن أبى حذيفة العدائى لعثمان فقد ظهر أثره فيما شجر بينه وبين ابن أبى سرح فى غزوة ذات السوارى التى نشبت بين المسلمين والبيزنطيين سنة ٣١ هـ على ما تقدم .

ولما وضعت الحرب أوزارها . رجع هو ومحمد بن أبى بكر إلى الفسطاط حيث انضما إلى ابن سبأ [١] . وذكر المقريزى السبب الذى حدا ابن أبى حذيفة على أن يسلك هذا المسلك العدائى لعثمان فقال : إن ابن أبى حذيفة تربى فى كنف عثمان بعد وفاة أبيه ؛ فلما ولى عثمان الخلافة طلب أن يوليه بعض أمور المسلمين ، فأبى ذلك عليه ، إذ نمى إليه أنه شرب الخمر فقال له : لو كنت رضا لوليتك ولكنك لست هناك » .

وقد أصبحت الحالة فى البصرة والكوفة ومصر من الحرج بحيث اضطر عثمان إلى ندب أربعة من رجاله ليبحثوا أسباب هذه القلاقل ويقفوا على حقيقة الحال فى الولايات الإسلامية ؛ فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة ، وأسامة ابن يزيد إلى البصرة ، وعبد الله بن عمر إلى الشام ، وعمار بن ياسر إلى مصر ، وهو أحد أصحاب رسول الله ومن السابقين إلى الإسلام .

وقد عاد هؤلاء إلى الخليفة إلى عمار بن ياسر ، فقد استماله الثائرون فى مصر [٢] . وساعد على ذلك ما كان بين عمار وعثمان الذى أدبه لقذف حصل بينه وبين عباس بن عتبة بن أبى لهب .

---

(١) الطبرى ج ٥ ص ٧٠ — ٧١ ، ١٣٥ .

(٢) المصدر نفسه ١ : ٢٩٤٣ — ٢٩٤٤ .

وقد حقق ابن أبى سبأ ما كان يرمى إليه من تأليب الولايات الإسلامية على عثمان وولاته . وليس أدل على صحة هذا القول من انضمام كثير من أصحاب النفوذ والجاه إلى صفوفه من أمثال محمد بن أبى حذيفة ومحمد ابن أبى بكر وعمار بن ياسر .

ولا غرو فقد قام ابن أبى حذيفة بتنفيذ الخطة التى رسمها ابن سبأ . فكاتب أهل مصر أشياعهم من أهل البصرة والكوفة واتفقوا على الشخوص إلى المدينة ، وهو ما يمكن تسميته دور العمل . وخرج كل منهم فى ستمائة رجل توافوا خارج المدينة حيث اختلفوا فيمن يولونه الخلافة بعد عثمان : فمال أهل البصرة إلى الزبير ، وأهل الكوفة إلى طلحة ، ورغب أهل مصر — وعلى رأسهم ابن سبأ — فى على بن أبى طالب ، وعمل كل فريق على أن يتم الأمر له ولمن وقع اختياره عليه دون غيره (١) .

أجاب عثمان وفد مصر إلى مطالبه ، فقفل راجعاً . وبينما هم الطريق رأوا راكباً يتعرض لهم تارة ويفارقهم أخرى ففتشوه فإذا هو يحمل كتاباً عن لسان عثمان وعليه خاتمه إلا عامله فى مصر ، يأمره فيه أن يستأصل شأفة هذا النفر قتلا وتصليباً ، فعادوا إلى المدينة ودخلوا على عثمان ، فأغلظ الإيمان على أنه ما كتب ولا أمر بكتابة هذا الكتاب ولا علم له به . فطلبوا إليه أن يسلم إليهم مروان بن الحكم . إذ قام عندهم الدليل على أنه هو الذى بعث بهذا الكتاب ، فأبى عثمان . فحاصروه اثنين وعشرين يوماً ، فقام فريق من الصحابة يدافعون عنه ، فناشدهم الله أن يكفوا حتى لايندلع لسان الفتنة ويتفاقم خطرها .

ولما وجد الثوار أن موسم الحج قد انتهى ، و ن المدد الذى طلبه عثمان من الولايات الإسلامية أوشك أن يبلغهم ، جدوا فى أمرهم واقتحموا عليه الدار بعد أن دار قتال بينهم وبين من تصدى للدفاع عنه ، كمحمد بن أبى بكر والحسن والحسين ابنى على وعبد الله بن الزبير . ولما حوصر عثمان أشرف على المتآمرين وقال لهم : أنشدكم بالله ولا أنشد إلا أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، ألستم

---

(١) الطبرى ١ : ٢٩٥٥ .

تعلمون أن رسول الله قال : من جهز جيش العسرة فله الجنة ، فجهزته . ألستم تعلمون أن رسول الله قال : من حفر بئر رومة فله الجنة ، فحفرتها [١] .

وقد قتله الغافقى بحديدة كانت معه ، وجاء غيره ليضربه بسيفه فأكبت زوجه نائلة وتلقت السيف منه بيدها ، فقطع أصبعها . وانتهبوا بيته وبيت المال. وكان ذلك فى الثامن عشر من ذى الحجة سنة ٣٥ ﻫ (٦٥٦ م) . وتولى على بن أبى طالب الخلافة فى الخامس والعشرين من هذا الشهر ، فكان ذلك أول فصول هذه المأساة وما أعقبها من تحزب العرب أحزاباً مما أضعف الإسلام وزاد كلمة المسلمين تفريقاً .

ويظهر أن أهل المدينة تواكلوا فى الدفاع عن عثمان ، إذ يبعد كل البعد أن يعجزوا عن نصرته وصد تلك الفئة الباغية عنه ، وهم الذين مرنوا على الحرب وبرهنوا فى مواقفهم مع رسول الله وأبى بكر وعمر عن شجاعة نادرة واستبسال لا يزال مضرب الأمثال . فلو أنهم نشطوا للذود عن عثمان لما تمكن الثوار مع قلة عددهم من قتله والاستبداد بالأمر والتحكم فى المدينة ومن بها .

ولا شك أن كثيراً من علية القوم فى المدينة نقموا على عثمان إيثاره بنى أمية على غيرهم من جلة الصحابة ، فنفضوا أيديهم من تلك الفتنة لما بلغ الهياج أشده ، ولم تجد نصائحهم نفعاً ، فظلوا يشاهدون تمثيل هذه الرواية المحزنة على بعد ، ظناً أن عثمان يخلع نفسه إذا اشتد عليه التضييق .

روى ابن قتيبة أن عثمان خرج إلى المسجد ، فإذا هو بعلى وهو شاك معصوب الرأس فقال عثمان : والله يا أبا الحسن ما أدرى ، أشتهى موتك أم أشتهى حياتك ؟ فوالله إن مت ما أحب أن أبقى بعدك لغيرك لأنى لا أجد منك خلفاً» .

وقال صاحب الفخرى (ص ٥٥) : « وما زال على عليه السلام من أكبر المساعدين لعثمان الذابين عنه ، وما زال عثمان يلجأ إليه فى دفع الناس عنه ، فيقوم عليه السلام فى دفعهم عنه القيام المحمود . ولما حوصر عثمان أرسل إليه عليه السلام ابنه الحسن عليه السلام لنصرة عثمان رضى الله عنه ، فقال إن

(١) الطبرى ج ٥ ص ١٣٠ — ١٣٢ . المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ٣٠٦ — ٣٠٧ .

الحسن عليه السلام استقتل مع عثمان ، فكان عثمان يسأله أن يكف فيقسم عليه وهو يبذل نفسه فى نصرته » .

٣ — الأحزاب بعد مقتل عثمان

(ا) خروج طلحة والزبير وعائشة — موقعة الجمل :

نصح على بن أبى طالب الذين طالبوه بدم عثمان أن يتريثوا ، حتى إذا هدأت النفوس وعاد الأمن إلى نصابه أجرى الحق مجراه وتمكن من إنزال الجزاء بقتلة عثمان . إلا أن نصائحه لم تجد أذناً مصغية ، فقد ساء عائشة قتل عثمان ، وانضم إليها طلحة والزبير . وقيل أن الزبير كان يطمع فى ولاية العراق ، وطلحة فى ولاية اليمن . فلما أرسل على الولاة ولم يكن لهما حظ فى الولاية ، نقما عليه وندما على بيعتهما وعزما على الخروج ، فاستأذنا علياً فى الخروج إلى مكة لأداء العمرة ، ولكنه لم يخف عليه أمرهما ، فقال لهما : والله ما العمرة تريدان .

وقد عولت حفصة بنت عمر زوجة الرسول على الخروج مع عائشة ولكن أخاها عبد الله ثناها عن عزمها . ولم يكن من رأى أم سلمة زوج الرسول أن تمضى عائشة فى هذا السبيل ، فأرسلت إليها كتاباً طويلا تطلب إليها العدول عن الخروج وتقول لها : « لو علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن النساء يحتملن الجهاد عهد إليك . أما علمت أنه قد نهاك عن الفراطة [1] فى الدين ؟ فإن عمود الدين لايثبت بالنساء إن مال ولا يأرب بهن إن انصدع . جهاد النساء غض الأطراف وضم الذيول وقصر الموادة . ما كنت قائلة للرسول صلى الله عليه وسلم لو عارضك [2] ببعض هذه الفلوات [3] ناصة قعودا [4] من منهل إلى منهل؟ وغداً تردين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وأقسم لو قيل لى يا أم سلمة ادخلى الجنة لاستحييت أن ألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم هاتكة حجاباً ضربه على . فاجعليه ستترك وقاعة البيت حصنك ، فإنك أنصح ما تكونين لهذه الأمة ما قعدت عن

---

(١) الإفراط مجاوزة الحد .

(٢) قابلك أو التقى بك .

(٣) جمع فلاة وهى الصحراء الواسعة .

(٤) نص البعير أو الفرس ، استخرج أقصى ماعنده من السير ، والقعود الناقة .

نصرتم . ولو أنى حدثتك بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لنهشت نهش الرقشاء [١] المطرقة والسلام » .

فردت عائشة عليها بهذا الكتاب : « أما بعد ، فما أقبلنى لوعظك وأعرفنى لحق نصيحتك ، وأما أنا بمعتمرة بعد تعريج ، ولنعم المطلع مطلع فرقت فيه بين فئتين متشاجرتين من المسلمين . فإن أقعد فعن غير حرج ، وإن أمض فإلى ما غنى بى عن الازدياد منه ، والسلام [٢] ؟ » .

عمل طلحة والزبير على استمالة زعماء البصرة [٣] ، كما استمالا عبد الله بن عمر ؛ لكنه كان يرى فى القعود النجاة والخير ، كما كان يرى فى انزواء عائشة المحافظة على كرامتها والإشفاق على المسلمين من أن تتفرق كلمتهم وتذهب ريحهم [٤] .

ولم يصغ طلحة والزبير لنصح الناصحين ولم يرعيا حرمة لوحدة المسلمين التى كادت تتمزق شر ممزق ، بل لم يكن لنصيحة أم سلمة أى أثر فى نفس عائشة . وسرعان ما خرج طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة فى ستمائة رجل . فلما وصلوا « إلى ماء الحوأب » فى طريق البصرة نبحتهم كلابه ، فسألت عائشة محمد بن طلحة : أى ماء هذا ؟ قال : هذا ماء الحوأب ، فقالت : ما أرانى إلا راجعة ، قال : ولم؟ قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لنسائه : كأنى بإحداكن قد نبحها كلاب الحوأب ، وإياك أن تكونى أنت ياحميراء . فقال لها محمد بن طلحة : تقدمى رحمك الله ودعى هذا القول ، وأتى عبد الله بن الزبير فحلف لها بالله أنها غادرته أول الليل ، وأتاه بينة من الأعراب فشهدوا بذلك فزعموا أنها أول شهادة زور شهد بها فى الإسلام .

استأنف الجيش السير إلى البصرة ، وقد عرض لهم سعيد بن العاص والمغيرة ابن شعبة فى الطريق ، ونصحا لهم بالرجوع ، كما نصحا الجند . وسار على بن

---

(١) الرقشاء : من الحيات المنقطة بسواد وبياض .

(٢) انظر هذين الكتابين فى العقد الفريد ج ٣ ص ٩٦ — ٩٧ .

(٣) هم كعب بن سور سيد اليمن ، والمنذر بن ربيعة سيد ربيعة والأحنف بن قيس سيد مضر .

(٤) بن قتيبة : الإمامة والسياسة ج ١ ص ٩٩ — ١٠٠ ، ١٠٣ .

أبي طالب نحو البصرة . والتقى الجيشان فى مكان يقال له الخريبة (١) فى منتصف جمادى الآخرة سنة ٣٦ هـ . ونشب القتال ، وعائشة راكبة فى هودجها على جمل يسمى عسكراً . واقتتل الناس حوله حتى صار كالقنفذ من النشاب ، وثبتت عائشة وحماها مروان بن الحكم فى نفر من قيس وكنانة وبنى أسد ، وظل مروان كلما وثب رجل إلى الجمل ضربه بالسيف وقطع يده ، حتى قطع نحو عشرين يداً ، وأتاه رجل من خلفه وضربه وضرب عرقوب الجمل ، وتمت الهزيمة على أصحاب عائشة وطلحة والزبير ، وأسرت عائشة ومروان بن الحكم ، وقتل طلحة ، رماه مروان بن الحكم بسهم فقتله لما كان يتهمه بتحريض الناس على عثمان ، وانصرف الزبير إلى المدينة ، فقتله ابن جرموز غيلة فى الطريق . وبقيت عائشة فى هودجها إلى الليل ، وأدخلها أخوها محمد بن أبى بكر إلى البصرة . وسأل على عائشة : أترتحل إلى المدينة ؟ قالت : أرتحل . فجهزها بما احتاجت إليه ، وسير معها أولاده مسيرة يوم ، وشيعها الناس . وقيل أن عدد القتلى فى يوم الجمل عشرة آلاف من الفريقين (٢) .

وإنا لاندهش أن يقابل على إساءة عائشة إليه بالعفو فيحسن إليها الإحسان كله ويجهزها بما تحتاج إليه فى سيرها ، ويزورها فى البيت الذى نزلت فيه ، ويوفد أولاده ليشيعوها ، ويودعها بنفسه. لذلك قالت عائشة يوم رحيلها لمشيعها: إنه والله ما كان بينى وبين على فى القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها ، وإنه عندى — على معتبتى — من الأخيار » (٣) . قال على : أيها الناس ! صدقت والله وبرت ، وإنه ما كان بينهما إلا ذلك ، وإنها لزوجة نبيكم صلى الله عليه وسلم فى الدنيا والآخرة (٤) » .

على أننا نرى أنه لم يكن هناك مبرراً لخروج طلحة والزبير وعائشة ، مادام للأمة إمام ينفذ الأحكام ويقيم الحدود ، ولا سيما بعد أن وعدهم على بالنظر فى أمر

---

(١) سميت بذلك فيما ذكره الزجاجى ، لأن المرزبان كان قد بنى به قصرا خرب بعده . فلما نزل المسلمون بالبصرة ابتنوا عنده ، وسموه الخريبة .

(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ١٠٣ — ١٠٤ .

(٣) لهذا القول علاقة بحادثة الإفك التى أشرنا إليها فى غزوة بنى المصطلق .

(٤) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير : ج ٣ ص ٢٠ ، ٥٦ .

عثمان والبحث عن قاتليه والقصاص منهم عندما تستقر الأمور وتهدأ تلك الفتنة . ونرى من جهة أخرى أن مجرد قبول على فى جيشه أعوان ابن سبأ الذين قتلوا عثمان فى الوقت الذى يطالب فيه الناس بدمه ، كاف لأن تحوم حوله الشبه التى تبرر اتهامه بالاشتراك فى دمه .

(ب) النزاع بين حزب عثمان وحزب على — موقعة صفين — التحكيم :

على أثر انتصار على فى موقعة الجمل انحصر النزاع بين حزبين اثنين :

١ — حزب عثمان وعلى رأسه معاوية بن أبى سفيان أعظم قرابة عثمان شأناً والمطالب بدمه .

٢ — حزب على بن أبى طالب ، رابع الخلفاء الراشدين ، ورأس بنى هاشم ، الذين كان العداء بينهم وبين بنى أمية قديماً منـــذ الجاهلية ، ولم يزده الإسلام إلا شدة : فبنو حرب لم ينسوا ما كان من حمزة وما كان من على يوم بدر ، كما أن بنى هاشم لم ينسوا ما كان من هند يوم أحد .

وقد صورت أم الخير بنت الحريش البارقية ، الخلاف بين على ومعاوية ، وذكرت أسبابه فى تلك الخطبة التى ألقتها يوم صفين : « يا أيها الناس ! اتقوا ربكم ، إن زلزلة الساعة شىء عظيم ؛ إن الله قد أوضح الحق وأبان الدليل ونور السبيل ، ورفع العلم ؛ فلم يدعكم فى عمياء مبهمة ، ولا سوداء مدلهمة . فإلى أين تريدون رحمكم الله ؟ أفراراً عن أمير المؤمنين ، أم فراراً من الزحف ؟ أم رغبة عن الإسلام أم ارتداداً عن الحق ؟ أما سمعتم الله عزوجل يقول : ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ (سورة محمد ٤٧ : ٣١) ؟ قد عيل الصبر وضعف اليقين وانتشرت الرغبـــة وبيدك يارب أزمة القلوب . فاجمع الكلمة على التقوى ، وألف القلوب على الهدى . هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل ، والوصى الوفى ، والصديق الأكبر . إنها إحن بدرية وأحقاد جاهلية وضغائن أحدية ، وثب بها معاوية حين الغفلة ليدرك بها ثارات بنى عبد شمس ... والله أيها الناس لولا أن تبطل الحقوق ، وتعطل الحدود ، ويظهر الظالمون ، وتقوى كلمة الشيطان ، لما اخترنا ورود المنايا على خفض العيش وطيبه . فإلى

(١) سورة محمد ٣١ : ٤٨ .

أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته وأبي ابنيه ؟ (تعني الحسن والحسين) . خلق من طينته ، وتفرع عن نبعته ، وخصه بسره ، وجعله باب مدينته ، وأعلم بحبه المسلمين ، وأبان ببغضه المنافقين . فلم يزل كذلك يؤيده الله بمعونته ، ويمضي على حسن استقامته ، لا يعرج لراحة اللذات ، وهو مفلق الهام ومكسر الأصنام . إذ صلى والناس مشركون ، وأطاع والناس مرتابون : فلم يزل كذلك حتى قتل مبارزي بدر ، وأفنى أهل أحد ، وفرق جمع هوازن . فيالها وقائع زرعت في قلوب القوم نفاقا وردة وشقاقا . وقد اجتهدت في القول وبالغت في النصيحة ، وبالله التوفيق ، والسلام عليكم ورحمة الله ! » .

بادر علي لما عرف عنه من شدة في الحق بعزل الولاة الذين ولاهم عثمان والذين كانوا مثار الفتنة وخروج الثوار عليه . وقد أذعن جميع الولاة لأمر علي وانصرفوا عما كانوا يلونه من الولايات .

أما معاوية بن أبي سفيان الذي مكنته ثروه بلاد الشام من تكوين حزب قوي من المرتزقة الذين انضموا إليه طمعاً فيما كان يضفيه عليهم من الأرزاق ويسبغه من الأعطيات ، فقد أبى الإذعان لأمر علي وشق عصا الطاعة عليه ، واتهمه بدم عثمان لأنه آوى قتلته في جيشه .

وأصر معاوية على أن يقاتل علياً بجند الشام بعد أن أوغر صدورهم عليه لإيوائه قتلة عثمان في جيشه . فلما بلغ علياً أن معاوية استعد للقتال ومعه أهل الشام ، توجه إلى الكوفة بعد انتصاره في موقعة الجمل ووجه جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية يدعوه إلى بيعته والدخول في طاعته ، وزوده بكتاب يعلمه فيه اجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته ، ونكث طلحة والزبير وما كان من أمرهما . فماطله معاوية واستنظره وكتب إلى عمرو بن العاص : « أما بعد فإنه كان من أمر علي وطلحة والزبير ماقد بلغك ، فقد قدم علي جرير بن عبد الله في بيعة علي ، وحبست نفسي عليك حتى تأتيني ، فأقدم على بركة الله تعالى »(١) .

---

(١) اليعقوبي ج ١ ص ٣١٥ .

ولما قدم عمرو على معاوية أشار عليه أن يلزم دم عثمان وأن يحاربه بجند الشام إذا أبى[1] .

رجع جرير إلى على وأخبره بحال معاوية ، وأنه قد أصر على أن يقاتله بجند الشام الذين بكوا حين وضع لهم معاوية على المنبر قميص عثمان الذى قتل فيه مخضباً بدمه وإصبع زوجه نائلة معلقة فيه . وكتب بالخبر إلى الأجناد ، فآلوا على أنفسهم ألا يهدأ بالهم حتى يأخذوا بثأر عثمان ، وأجمعوا على قتال على اعتقاداً منهم أنه قعد عن نصرة عثمان وآوى قتلته .

سار على من الكوفة إلى صفين فى تسعين ألفاً ، وسار معاوية من الشام فى خمسة وثمانين ألفاً على ما رواه المسعودى[2] ، وعسكر فى موضع سهل على الفرات ، وبات على وجيشه فى البر عطاشاً لأنه حيل بينهم وبين الماء .

ولكن علياً أرسل من أجلى رجال معاوية عن الماء ، فأرسل إليه معاوية يستأذنه فى وروده ، فأذن له . وبعد يومين من نزول على فى هذا الموضع بعث إلى معاوية يدعوه إلى توحيد الكلمة والدخول فى جماعة المسلمين . وطالت المراسلات بينهما ، فاتفقا على الموادعة إلى آخر المحرم سنة ٣٧ ه‍ ، ثم دارت رحى الحرب بينهما من جديد[3] .

ويظهر من رواية الطبرى[4] أن رسل على إلى معاوية لم يكونوا ليصلحوا رسل صلح ؛ فقد كانت فيهم شدة ، وكان رسل معاوية يسيئون الرد عليهم ، مما وسع مسافة الخلاف بين الفريقين .

وفى اليوم الأول من صفر سنة ٣٧ ه‍ عاد القتال بين على ومعاوية سيرته الأولى . فكان يخرج قائد من هنا وقائد من هناك للمبارزة ، حتى إذا مضت سبعة أيام قال على لجنده : حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم بجمعنا ؟ فباتوا يصلحون أمرهم ، وغدت الأمة العربية على حد قول الشاعر :

(١) هذا ما ذكره الطبرى ، وهو يخالف ما ذكره اليعقوبى من أن عمراً أشار على معاوية ألا يذكر عثمان لأن معاوية خذله ؛ وأما عمرو فقد تركه عيانا وذهب إلى فلسطين .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ١٥ — ١٧ .

(٣) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج ١ ص ١٧٢ .

(٤) ج ٥ ص ٣٤٣ .

أصبحت الأمة فى أمر عجب   والأمر مجموع غداً لمن غلب
فقلت قولا صادقا غير كذب   إن غداً تهلك أعلام العرب

اشتعلت نار الحرب بين الفريقين أياماً متوالية ، فلما قتل عمار أستاء أصحابه على لمقتله ، فزحفوا على جند معاوية حتى أشرفوا على الفتح . فدعا معاوية بفرسه ونادى أهل الشام : الله الله فى الحرمات والنساء والبنات ! وقال : هلم مخبأتك يا ابن العاص فقد هلكنا . غير أن عمرو بن العاص استطاع بما أوتيه من فنون الدهاء أن يفرق بين جند على وقال لجنده : « أيها الناس ! من كان معه مصحف فليرفعه على رمحه » ، فرفعوا المصحف وقال قائلهم : « هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم » . فلما رأى أهل العراق المصاحف مرفوعة قالوا : « نجيب إلى كتاب الله »[1] : وأراد عمرو بحيلته هذه أن يكسر من حدة جند على وحميتهم — وكانوا قاب قوسين أو أدنى من الإنتصار — وأن يفرق بينهم ويفت فى عضدهم فيسكفون عن قتالهم .

ولما رغب أهل العراق فى الموادعة نصح لهم على ألا يغتروا بقول معاوية وأصحابه وقال لهم : إن ذلك لم يكن إلا خديعة أرادوا أن يفرقوا كلمتكم ويقضوا على وحدتكم . فأبوا وطلبوا منه أن يبعث إلى الأشتر ليترك القتال ، فأرسلوا إليه ، فقال الأشتر الرسول : « ليس هذه الساعة التى ينبغى أن تزيلنى فيها عن موضعى وقد رجوت أن تفتح لى فيها فلا تعجلنى » فرجع الرسول بالخبر ، فما انتهى إليه حتى ارتفع الضجيج وعلت الأصوات بين جند الأشتر ، فقال له القوم : « والله ما نراك إلا أمرته أن يقاتل . ابعث إليه فليأت ، وإلا والله اعتزلنـــاك » . فقال على للرسول : « ويحك ! قل للأشتر أن يقبل فإن الفتنة قد وقعت » فلم يسعه إلا المجىء وترك ساحة القتال .

أرسل على الأشعث بن قيس إلى معاوية يستطلع رأيه ، فقال له معاوية : « نرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله فى كتابه : تبعثون منكم رجلا ترضونه وتبعث منا رجلا ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما فى كتاب الله » .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٠ — ٢٢

ثم رجع الأشعث إلى على فأخبره برأى معاوية، فقال الناس : رضينا وقبلنا ، فاختار أهل الشام عمرو بن العاص ، وقال أهل العراق قد رضينا أبا موسى الأشعرى ، فقال على : « قد عصيتمونى أول الأمر فلا تعصونى الآن » ، وبين لهم تخوفه من أبى موسى لأنه كان يخذل الناس عنه ، فأبوا إلا إياه ، فأذعن على كره منه (١) .

اجتمع عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعرى بدومة الجندل (٢) ، حيث كتبا عقد التحكيم فى شهر صفر سنة ٣٧ هـ . وهذه صورة ذلك الكتاب نقلا عن الطبرى (ج ٦ ص ٢٩ — ٣٠) .

بسم الله الرحمن الرحيم . هـذا ما تقاضى عليه على بن أبى طالب ومعاوية ابن أبى سفيان ، قاضى علىّ على أهل الكوفة ومن معه من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين وقاضى معاوية على أهل الشام ومن معهم من المؤمنين والمسلمين ، إنا ننزل عند حكم الله عز وجل وكتابه ولا يجمع بيننا غيره ، وإن كتاب الله عز وجل بيننا من فاتحته إلى خاتمته ، نحيى ما أحيا ، ونميت ما أمات . فما وجد الحكمان فى كتاب الله عز وجل ، وهما أبو موسى الأشعرى عبد الله بن قيس ، وعمرو بن العاص القرشى ، عملا به ، وما لم يجدا فى كتاب الله عز وجل فالسنة الجامعة غير المفرقة . وأخذ الحكمان من على ومعاوية ومن الجندين من العهود والمواثيق والثقة من الناس، أنهما آمنان على أنفسهما وأهلهما ، والأمة لهما أنصار على الذى يتقاضيان عليه . . وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة ولا يرادها فى حرب ولا فرقة حتى يعصيا ، وأجل القضاء إلى رمضان . وإن أحبا أن يؤخرا ذلك أخراه على تراض منهما ، وإن توفى أحد الحكمين فإن أمير الشيعة يختار مكانه ويأخذ الحكمان من أرادا من الشهود ، ثم يكتبان شهادتهما على ما فى هذه الصحيفة وهم أنصار على من ترك ما فى هذه الصحيفة ، وأرادا فيه إلحاداً وظلما . اللهم إنا نستنصرك على من ترك ما فى هذه الصحيفة » .

---

(١) اليعقوبى ج ١ ص ٢١٨ — ٢١٩ . المسعودى ج ٢ ص ٢٠ — ٢٢ .

(٢) بضم الدال وفتحه تبعد عن دمشق بسبعة مراحل وتقع على الطريق من دمشق إلى المدينة .

ولما حان وقت اجتماع الحكمين بعث على بن أبى طالب أربعمائة رجل عليهم شريح ابن هانىء الحارثى وعبد الله بن العباس يصلى بهم ويلى أمورهم وأبو موسى الأشعرى معهم ، وبعث معاوية بن أبى سفيان عمرو بن العاص فى أربعمائة من أهل الشام ، فتوافوا بدومة الجندل . وذكر المسعودى (١) أنه لما دنا وفد على من موضع الاجتماع قال عبد الله بن العباس لأبى موسى : إن علياً لم يرض بك حكما لفضل على غيرك ، والمتقدمون عليك كثيرون ، وإن الناس أبوا غيرك . وإنى لأظن ذلك لشر يراد بهم . وقد ضم داهية العرب معك . إن نسيت فلا تنس أن علياً بايعه الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، وليس فيه خصلة تباعده من الخلافة ، وليس فى معاوية خصلة تقربه من الخلافة . ووصى معاوية عمراً حين فارقه وهو يريد الاجتماع بأبى موسى فقال : يا أبا عبد الله ! إن أهل العراق قد أكرهوا علياً على أبى موسى ، وأنا وأهل الشام راضون بك. وقد ضم إليك رجل طويل اللسان قصير الرأى ، فأخذ الجد . . . لا تلقه برأيك كله » ، ووافى عمراً سعد بن أبى وقاص ، وعبد الله بن عمر ، والمغيرة بن شعبة وغيرهم من الصحابة الذين تخلفوا عن بيعة على . ويتبين لنا مما ذكره المسعودى .

١ — أن أبا موسى لم يكن بالرجل الذى يقف أمام عمرو داهية العرب هذا الموقف الذى يحتاج إلى الحنكة فى السياسة وابتكار ضروب المكر والدهاء أكثر مما يحتاج إلى استقصاء مسائل الدين .

٢ — أن علياً أكره على اختيار أبى موسى ، فلم يثق به لأنه فارقه وخذل الناس عنه . أما معاوية وأهل الشام فقد كانوا راضين بعمرو .

اجتمع الحكمان فى شهر رمضان سنة ٣٧ هـ . وفى هذا اليوم المشهود تجلى دهاء عمرو بأجلى مظاهره ، إذ استدرج أبا موسى حتى خلع علياً على حين ثبت عمرو موكله معاوية . قال المسعودى : (٢) قال عمرو : يا أبا موسى ! رأيت أول ما نقضى لأهل الوفاء بوفائهم وعلى أهل الغدر بغدرهم ، فحمد الله أبو موسى وأثنى

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤ — ٢٥ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٥

عليه وذكر الحدث الذى حل بالإسلام والخلاف الواقع بأهله، ثم قال: ياعمرو ! هلم إلى أمر يجمع الله فيه الألفة ويلم الشعث ويصلح ذات البين ، فجزاه عمرو خيراً وقال : إن للكلام أولا وآخراً ، ومتى تنازعنا الكلام خطبا لم نبلغ آخره حتى ننسى أوله ، فاجعل ماكان من كلام نتصادر عليه فى كتاب يصير إليه أمرنا ؛ فقال أبو موسى : فاكتب ، فدعا عمرو بصحيفة وكاتب ، فتقدم إليه ليبدأ به أولا دون أبى موسى لما أراد من المكر به ، ثم قال له بحضرة الجماعة : اكتب فإنك شاهد علينا ولا تكتب شيئاً يأمرك به أحدنا حتى يستأمر الآخر فيه ، فإذا أمرك فاكتب ، وإذا نهاك فانته حتى يجتمع رأينا . اكتب . . !

بسم الله الرحمن الرحيم ،هذا ما تقاضى عليه عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص، تقاضيا على أنهما يشهدان أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . ثم قال عمرو : نشهد أن أبا بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عمل بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قبضه الله إليه ، وقد أدى الحق الذى عليه . قال أبو موسى : اكتب ! ثم قال فى عمر مثل ذلك . قال عمرو : اكتب ! وأن عثمان ولى هذا الأمر بعد عمر على إجماع من المسلمين وشورى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضا منهم ، وأنه كان مؤمناً . فقال أبو موسى : ليس هذا والله مما قعدنا له . قال عمرو : والله لابد من أن يكون مؤمناً أو كافراً : قال أبو موسى : اكتب ! قال عمرو : فظالما قتل أو مظلوما ، قال أبو موسى : بل قتل مظلوما ، قال عمرو : أفليس قد جعل الله لولى المظلوم سلطاناً يطلب بدمه ؟ قال أبو موسى : نعم ! قال عمرو : فهل تعلم لعثمان ولياً أولى من معاوية ؟ قال أبو موسى: لا ! قال عمرو : أفليس لمعاوية أن يطلب قاتله حيثما كان حتى يقتله أو يعجزعنه ؟ قال أبوموسى : بلى ! فقال عمرو للكاتب :اكتب! وأمره أبو موسى فكتب ، قال عمرو : فإنا نقيم البينة على أن عليا قتل عثمان : قال أبو موسى وهذا أمر حدث فى الإسلام وإنما اجتمعنا لله ، فهلم إلى أمر يصلح الله به أمة محمد . قال عمرو : وماهو ؟ قال أبو موسى : قد علمت أن أهل العراق لايحبون معاوية أبداً وأن أهل الشام لايحبون علياً أبداً ،فهل نخلعهما جميعاً ونستخلف عبدالله بن عمر ؟فعمد عمرو إلى ماقاله أبوموسى فصوبه ،وعدد له جماعة وأبو موسى يأبى إلا ابن عمر . فأخذ عمرو الصحيفة وطواها بعد أن ختماها جميعاً» .

ويتبين مما كتب فى تلك الصحيفة مبلغ تفوق عمرو على أبى موسى فى الدهاء والسياسة . ولا غرو فقد استدرجه حتى أقرله بأن عثمان قتل مظلوماً ، وأن لمعاوية الحق أن يطالب بدمه المسفوك . وهكذا تمكن عمرو من تنفيذ غرضه والوصول إلى غايته وهو خلع على بن أبى طالب وتثبيت معاوية بن أبى سفيان ، على الرغم من تشبث أبى موسى بخلع معاوية واستخلاف عبد الله بن عمر دون غيره من الصحابة .

قال الطبرى (٦ : ٣٩) : قال عمرو لأبى موسى (بعد أن عدد أسماء كثيرين من الصحابة لتولية الخلافة) : ما رأيك ؟ قال : رأيى أن نخلع هذين الرجلين ونجعل الأمر شورى بين المسلمين فيختاروا لأنفسهم من أحبوا ، فقال له عمرو : إن الرأى ما رأيت وقال : يا أبا موسى ! أعلمهم بأن رأينا قد اجتمع واتفق . فتكلم أبو موسى : إن رأيى ورأى عمرو قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله عز وجل به أمر هذه الأمة ، فقال عمرو : صدق ، تقدم يا أبا موسى فتكلم . فتقدم أبو موسى ثم قال : أيها الناس ! إنا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ولم شعثها من أمر قد أجمع رأيى ورأيه عليه ، وهو أن نخلع علياً ومعاوية . فتستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم . وإنى قد خلعت علياً ومعاوية ، فاستقبلوا أمركم وولى عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلا . ثم أقبل عمرو بن العاص فقام مقامه فحمد الله وأثنى عليه وقال : إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبى معاوية ، فإنه ولى عثمان بن عفان رضى الله عنه والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه ؛ فتنابذا وركب أبو موسى راحلته ولحق بمكة ، ثم انصرف أهل الشام إلى معاوية وسلموا عليه بالخلافة .

ونحن نشك فى هذا ونميل إلى ما قاله المسعودى [١] إنه لم يكن بين الحكمين غير ما كتب فى الصحيفة ، وما كان من إقرار أبى موسى بأن عثمان قتل مظلوماً وغير ذلك ، وأنهما لم يخطبا . وإنما كتبا صحيفة فيها خلع على ومعاوية وأن يولى المسلمين من أحبوا .

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧

على أن المؤرخين يظلمون أبا موسى حين يرمونه بالغفلة وقصور الرأى ، ونرى أن الرجل قد اختير عن أهل العراق فنصح لهم ، وصادف أن خالف رأيه رأى على وبنى هاشم ، فكان هذا مصدر سخط بعض المسلمين عليه . ولا شك أن رأى أبى موسى كان رأى طائفة عظيمة من معاصريه ، ولم يكن ما قام به عمرو بن العاص من مبايعته معاوية كافياً وحده لتثبيت ملك صاحبه ، بل كانت هناك أمور جديرة بالذكر منها .

١ — اضطراب جند على بن أبى طالب الذى أراد إعادة الكرة على معاوية وبخاصة بعد موقعة صفين وانشقاق الخوارج عليه .

٢ — اتحاد جند معاوية والتفافهم حوله وتفانيهم فى نصرته . ولا غرو فقد عمل منذ ولى بلاد الشام فى عهد عمر على استعمارها بأتباعه وذوى قرباه وجذب الأنصار حوله بالعطايا والمنح .

وإن الناظر فى أمر التحكيم ليجد أنه لم يكن قائماً على أساس ، إذ لم يكن من وراء الحكمين قوة من المسلمين تستطيع تنفيذ حكمهما . فقد اتفق الحكمان على خلع على ومعاوية ، وأن يستقبل المسلمين أمرهم من جديد فيولوا عليهم من يختارونه للخلافة ، وقد دونا ذلك فى صحيفة ختما عليها جميعها . بيد أننا نرى أن الفريقين لم يدعنا لهذا الحكم ، مع أن الحكمين قد فوض إليهما الفصل فى هذا الخلاف . وكل ما كان للتحكيم من أثر هو أنه أعطى الفرصة لجند الشام بالاستئثار بالأمر بعد أن انقسم جند على .

ولما علم على بهذه الخدعة أراد أن يحكم السيف بينه وبين معاوية وأخذ يستعد لقتاله من جديد . فلما تكامل جيشه واعتزم المسير إلى الشام ، جاءته الأخبار أن الخوارج الذين اعتزلوه قد ساروا نحو « المدائن » .

٣ — الخوارج

(ا) نشأة الخوارج — يوم النهروان :

كانت الأمة الإسلامية حين ولى معاوية الخلافة ثلاثة أحزاب :

١ — شيعة بنى أمية من أهل الشام وغيرها من سائر الأمصار الإسلامية

وخاصة مصر ، وكانوا يرون أن تكون الخلافة فى قريش وأن البيت الأموى أحق بها .

٢ — شيعة على بن أبى طالب ، وكانوا ببلاد العراق وقليل منهم بمصر ، وكانوا يرون أن تكون الخلافة فى قريش وأن علياً وأولاده من بعده أحق المسلمين بها .

٣ — الخوارج وهم أعداء الفريقين يستحلون دماءهم ويرون أنهم خارجون على الدين . وكان هؤلاء الخوارج يمثلون الديمقراطية الإسلامية ، إذ كانوا يرون أن الخلافة حق لكل مسلم مادام كفؤاً لا فرق فى ذلك بين قرشى وغير قرشى .

كان لكل من الأحزاب اتباع وأشياع يدينون برأيه فى الخلافة . ومنها الديمقراطى كحزب الخوارج ، وغير الديمقراطى كسائر الأحزاب الأخرى . وعلى هذا أخذ كل حزب يناضل غيره من الأحزاب ، واشتد النزاع بينها وجرد كل منها السيف ، واستمر النزاع بين الأمويين والهاشميين حتى قامت الدولة العباسية . وبعد موقعة صفين انصرف على مع أشياعه إلى العراق وعاد معاوية مع أنصاره إلى الشام ولكن أهل الشام عادوا متفقى الكلمة ، وعاد أهل العراق وقد وقع الانقسام فى صفوفهم [1] ، ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق كله ويتشاتمون ويتضاربون بالسياط . يقول الخوارج : يا أعداء الله أوهنتم فى أمر الله عز وجل وحكمتم ، ويقول الآخرون : فارقتم إمامنا وفرقتم جماعتنا » . فلما دخل على الكوفة لم يدخلوا معه حتى أتوا قرية بظاهر الكوفة تسمى حروراء ، فنزل بها منهم اثنا عشر ألفاً ونادى مناديهم : إن أمير القتال شبث بن ربعى وأمير الصلاة عبد الله بن الكواء اليشكرى ، والأمر شورى بعد الفتح ، والبيعة لله عز وجل ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ويسمى هؤلاء الذين اعتزلوا علياً الخوارج ، كما يسمون الحرورية .

مما تقدم يتضح أن الخوارج خرجوا على على وانشقوا عليه مع أنهم كانوا بالأمس من حزبه وأعوانه ، لأنهم كانوا يعتقدون أن علياً إمام بويع بيعة

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ٣٥ .

صحيحة ، فلا معنى لقبول التحكيم مع جماعة خرجوا عليه ، بل كان خليقاً به أن يمضى فى حربهم حتى يدخلوا فيما دخل فيه عامة الناس أو يقتلوا عن آخرهم.

أخذ على فى مفاوضة هؤلاء الخوارج عسى أن يرجعوا عن رأيهم ، فأرسل إليهم عبد الله بن العباس ، فناقشهم واقتنع كثير منهم بحجته ، فرجعوا عن رأيهم وامتنع آخرون ، فخرج إليهم على بنفسه ثم سألهم : « ما أخرجكم علينا ؟ » قالوا : حكومتكم يوم صفين . فقال : « أنشدكم الله ! ألست قد نهيتكم عن قبول التحكيم فرددتم على رأيى ؟ ولما أبيتم إلا ذلك اشترطنا على الحكمين أن يحكما بما فى القرآن فإن حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف حكما يحكم بما فى القرآن ، وإن أبيا فنحن من حكمهما براء ؟ » قالوا له : فخبرنا ، أتراه عدلا تحكيم الرجال فى الدماء ؟ ، فقال : « إنا لم نحكم الرجال وإنما حكمنا القرآن ، وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين لاينطق إنما يتكلم به الرجال » ، قالوا : فخبرنا « عن الأجل لم جعلته فيما بينك وبينهم ؟ » قال : « ليعلم الجاهل ويثبت العالم ، ولعل الله عز وجل يصلح فى هذه الهدنة هذه الأمة : أدخلوا مصركم ! » . فدخلوا إلى أن ينتهى الحكمان من حكمهما الطبرى (٦ : ٣٦) .

هؤلاء هم نواة الخوارج الذين كان لهم شأن كبير فى تاريخ الإسلام ، وهذا مبدأ ظهورهم . ومن ثم أصبح فى الدولة العربية ثلاثة أحزاب بعد أن كان بها حزبان هما : حزب على وحزب معاوية ، أو إن شئت فقل حزب الشيعة وحزب الأمويين .

وإن الناظر إلى هذا الحزب الجديد ، وهو حزب الخوارج ، ليرى أنهم كانوا من حزب الشيعة أنصار على ، ولكنهم انشقوا على هذا الحزب بسبب قبول على التحكيم .

ولكن أمر هذا الحزب الجديد يدعو إلى العجب ، فإنهم لم يبنوا خروجهم على أمر معقول يبرر هذا الخروج ، لأنهم هم الذين أشاروا بهذا التحكيم ، وإن علياً لم يقبله إلا بعد أن أكرهوه على قبوله . فكيف إذن يسوغون لأنفسهم أن يخرجوا على ما أبرموه ؟ وأما قولهم إن علياً بقبوله التحكيم قد شك فى خلافته ، فهذا أمر

غير صحيح ، لأن صاحب الحق كثيراً مايتحقق أن الحق له ، فإذا رأى من خصمه إنكاراً لهذا الحق وتمسكا بوجهة نظره ، فإنه لايجد أمامه سبيلا إلا أن يرفع الأمر إلى قاض حسما للنزاع .

وصفوة القول أن هذه الطائفة الجديدة بنت أمرها على مقدمات لم تتضح بعد ؛ فزادوا كلمة المسلمين تفريقاً وخدعوا بما ظهر لهم أنه الصواب ، كما قال لهم على حين رددوا قولتهم المشهورة : « لاحكم إلا الله » ، « كلمة حق يراد بها باطل » .

لم يستطع على أن يجارى هؤلاء القوم فى رأيهم . وهو أنه أخطأ أو كفر ، على الرغم مما أبدوه من استعداد للعودة إلى صفوفه ، وقولهم إنه ليس عليه من حرج إذا أجابهم إلى ماطلبوه ، مع أنه كان يعتبر رجوع هذه الطائفة إلى صفوفه من شأنه أن يزيده قوة أمام مناوئيه . فقد رأى فى إجابة طلبهم إقراراً بكفره على الرغم من أنه كان يعتقد أنه يعمل للمصلحة العامة ابتغاء مرضاة الله .

اجتمع الخوارج من أهل البصرة والكوفة وقصدوا إلى النهروان ، واستخلفوا عليهم رجلا منهم هو عبد الله بن وهب الراسبى ، واخذوا يقتلون كل من لم يشاطرهم رأيهم ويعترف بخليفتهم ويلعن عثمان وعلياً .

ولما التقى على بالخوارج فى النهروان ولوا هاربين إلى ناحية الجسر ، فظن الناس أنهم عبروه ، فقالوا لعلى : يا أمير المؤمنين ! إنهم عبروا الجسر فالقهم قبل أن يبعدوا . فقال على : ماعبروا وأن مصارعهم دون الجسر ، ووالله لايقتل منكم عشرة ولا يبقى منهم عشرة ، فشك الناس فى قوله . فلما أشرفوا على الجسر رأوهم لم يعبروا ، فكبر أصحاب على وقالوا : هو كما قلت يا أمير المؤمنين قال : نعم ! والله ما كذبت ولا كذبت . فلما انتهت الواقعة وسكنت الحرب ، أحصى القتلى من أصحاب على فكانوا سبعة : وأما الخوارج فذهبت طائفة منهم قبل أن تنشب الحرب وقالوا : والله ماندرى على أى شىء نقاتل على بن أبى طالب ، سنأخذ ناحية حتى ننظر إلى ماذا يؤول الأمر . وأما الباقون فثبتوا وقاتلوا فهلكوا جميعاً . فلما فرغ على من هزيمة الخوارج ، رجع إلى الكوفة وندب الناس إلى قتال أهل الشام . فتثاقلوا . ولما وعظهم وحثهم على الجهاد قالوا : يا أمير المؤمنين ! كلت سيوفنا وفنيت نبالنا وملِلنا من الحرب ، فأمهلنا نصلح أمورنا ونتوجه .

وكان على قد عسكر بظاهرة الكوفة ، فأمهلهم وأمرهم أن يوطنوا نفوسهم على الحرب ، ونهاهم عن الرجوع إلى أهليهم حتى يعودوا من الشام ، فصاروا يتسللون ويدخلون الكوفة حتى خلا المعسكر منهم ، فلم يجد على منهم أذناً مصغية ، وكان ذلك سنة ثمان وثمانين من الهجرة .

(ب) الخوارج فى عهد معاوية :

كانت الأمة الإسلامية حين ولى معاوية الخلافة ثلاثة أحزاب : شيعة بنى أمية ، وشيعة على ، والخوارج وهم أعداء الفريقين يستحلون دماءهم ويرون أنهم خارجون على الدين .

وكان الخوارج أشد هذه الأحزاب خطراً ، وكان من الصعب ردهم إلى جماعة المسلمين بالحجة والإقناع . ولا عجب فقد كانوا يرون أن غيرهم من المسلمين كفار وأن دماءهم وأموالهم حلال . لذلك لم يكن بد من أن يسلك معاوية معهم سبيل الشدة والقمع ليأمن شرهم ويحول دون مايلقونه من بذور التفرقة التى كادت تودى بالأمة الإسلامية .

وكان معاوية أبغض إلى الخوارج من على ، لما كانوا يعتقدون فيه من العبث بأموال المسلمين ، واتخاذه القصور والحراس والحجاب وما إلى ذلك من مظاهر الملك التى اتخذها عن البلاط البيزنطى ، وأنه لم ينل الخلافة عن إجماع من المسلمين ورضا منهم .

فلما استتب الأمر لمعاوية سنة ٤١ هـ عول الخوارج على قتاله ، وكان على رأسهم فروة بن نوفل الأشجعى الذى اعتزل علياً والحسن فى خمسمائة من الخوارج بشهرزور [١] . فلما بايع الحسن معاوية قال فروة لأصحابه : جاء الآن مالا شك فيه ، فسيروا إلى معاوية فجاهدوه . فخرج هو وأصحابه إلى الكوفة حيث كان معاوية ، فأرسل إليهم جيشاً من أهل الشام ، فلما هزمه الخوارج ، قال معاوية ، لأهل الكوفة : لا أمان لكم والله عندى حتى تكفوا بوائقكم [٢] فخرج أهل الكوفة لقتال الخوارج ، فقالوا لهم : « ويلكم ما تبغون ! أليس معاوية عدونا وعدوكم؟ دعونا نقاتله ، إن أصبناه كنا قد كفيناكم عدوكم وإن أصابنا كنتم قد كفيتمونا فأبى أهل الكوفة إلا القتال حتى يغلبوهم [٣] » .

---

(١) إقليم واسع فى بلاد الجبل بين أردبيل وهمدان وأهلها من الأكراد يمتازون بالبأس والشدة . (٢) جمع بائقة وهى الأمر المهلك. (٣) الطبرى ج ٦ ص ٩٥ .

ولم يكن انهزام الفريقين ليثنى الخوارج عن عزمهم ولا ليثبط همتهم فى الدفاع عما يعتقدون أنه الحق . فسرعان ماقام فريق آخر بزعامة حيان بن ظبيان السلمى وتذكروا إخوانهم بالنهروان وما لاقوه فى سبيل الدفاع عن مبادئهم .

وكان حيان من هؤلاء الذين قاتلوا علياً يوم النهروان ، وقد عفا عنه على عندما أصابه جرح فى هذه الموقعة . فلما برىء خرج هو وجماعته من الخوارج إلى الرى وأقاموا بها حتى بلغهم قتل على . فحث حيان من معه من الخوارج على المسير إلى الكوفة ومناجزة أعدائهم . فقد سار الخوارج إلى الكوفة ودخلوها . وكان من حسن حظهم أن كان عليها المغيرة بن شعبة ، وكان حسن السيرة يكره إراقة الدماء ، فلم يتدخل فى شئون الخوارج الذين اجتمعوا فى ذلك الوقت فى دار حيان حيث ولوا أمرهم المستورد بن علفة التيمى ، واتفقوا على أن يكون خروجهم فى غزوة شعبان سنة ٤٣ هـ[١] .

على أن أحلام الخوارج لم تتحقق حين عول المغيرة على التنكيل بهم واستئصال شأفتهم بما عرف عنه من الدهاء والمكر . ولا غرو فقد كان ثالث ثلاثة اشتهروا بين العرب بالدهاء : هم عمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان والمغيرة هذا الذى كان يقول فيه الناس : لوكان الدهاء له ثمانية أبواب استطاع المغيرة أن يخرج منها كلها .

ولما علم المغيرة بأمر الخوارج شدد فى طلبهم وعول على القضاء عليهم قبل أن يشتد خطرهم ؛ فقبض على جماعة منهم من بينهم حيان بن ظبيان ومعاذ بن جوين الطائى وأودعهم السجن[٢] ، وضيق على إخوانهم حتى غادروا الكوفة وأخذوا يتنقلون فى البلاد الإسلامية . ثم ساروا إلى نهير الصراة (قرب مدينة بغداد التى بنيت فى عهد أبى جعفر بن المنصور) ومنها إلى بهرسير[٣] القريبة من المدائن، ولما علم المغيرة بمسيرهم جمع لقتالهم جيشاً من الشيعيين يربو عدده على ثلاثة آلاف وأمر عليه رجلا من كبار الشيعة هو معقل بن قيس الرياحى[٤] ، فأدرك الخوارج

(١) الطبرى ج ٦ ص ١٠٠ .
(٢) الطبرى ج ٦ ص ١٠٤ .
(٣) بفتح الباء وضم الهاء وفتح الراء وكسر السين .
(٤) الطبرى ج ٦ ص ١٠٨ — ١١٨ .

بالمذار ، بين واسط والبصرة ، ثم بديلمايا ، وهى قرية من قرى إستان بهرسير بجانب دجلة ، على مقربة من ساباط حيث قتلهم عن آخرهم .

ولما وجد معاوية تفاقم خطر الخوارج فى العراق ولى زياد بن أبيه[1] البصرة سنة ٤٥ هـ ، فخطبهم خطبته المشهورة بالبتراء ، لأنه لم يبتدئها بحمدالله على ما جرت به عادة خطباء الإسلام منذ عهد النبى . وقد أوضح فيها السياسة التى سيسير عليها فى حكم هذه البلاد ، وهى سياسة حزم كان من آثرها أن توطدت أركان ملك معاوية فى هذه البلاد واستتب الأمن والطمأنينة فى ربوعها ، واستطاع بذلك أن يضرب على أيدى هؤلاء الخوارج الذين أخذهم بالشدة وأوقع الرعب فى قلوبهم فانقادوا له ، وحذا حذوه المغيرة فى الكوفة ، وبذلك أمن معاوية جانب أهل العراق .

وفى سنة ٥٣ هـ أضاف معاوية لزياد ولاية الكوفة بعد موت واليها المغيرة ابن شعبة . فلما وصل إليها حُصب وهو على المنبر ، فأغلق أبواب المسجد واستحلف الناس على ذلك ، فمن حلف خلى سبيله ومن لم يحلف حبسه ، وأودع السجن ثلاثين رجلا قطعت أيديهن ، وكان زياد يقيم فى البصرة ستة أشهر وفى الكوفة ستة أشهر .

وقد ضعفت شوكة الخوارج بما أبداه زياد بن أبيه من الشدة والقسوة فى معاملتهم ، فلم تقم لهم قائمة مدة ولايته على العراق حتى ولى البصرة عبيد الله ابن زياد ، فظنوه سهلا ليناً ، فتحركوا فى سنة ٥٨ هـ . ولكن زياد قتل منهم جماعة صبرا .

ويروى الطبرى أن ابن زياد خرج فى رهان له . فلما جلس ينظر الخيل

---

(١) كان زياد والياً على فارس من قبل على بن أبى طالب ؛ فلما قتل على اعتصم زياد فى ولايته فبعث إليه معاوية ، المغيرة بن شعبة ، فما زال زياد حتى ثناه عن رأيه وأرسل إليه معاوية كتاب الأمان. فسار إليه وسلمه ما بقى عنده من أموال فارس ، واستلحقه معاوية بأبى سفيان الذى اعترف ببنوته فى حياته على ما قيل ، وشهد بذلك نفر من الناس ، وإن كان بعض ينكر صحة هذا النسب ومنهم عائشة أم المؤمنين . لهذا يقال لهزياد بن سمية نسبة إلى أمه سمية ، وزياد ابن أبيه لجهلهم اسم أبيه ، وبعضهم يلحقه بابى سفيان . ومن الغريب أن يلحقه معاوية بأبيه مع مافى هذا الأمر من العار والخزى ، وإنما هى السياسة تفعل ماتشاء .

اجتمع الناس وفيهم عروة بن أدية ، فأقبل على ابن زياد وقال له : « خمس كن في الأمم قبلنا فقد صرن فينا (أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، وإذا بطشتم بطشتم جبارين) ؟ سورة الشعراء ٢٦ : ١٢٨ — ١٣٠ . فلما سمع ابن زياد ذلك ترك رهانه وأضمر لعروة الشر ، فهرب * غير أن ابن زياد تمكن من القبض عليه وقتله . فغضب لقتله أخوه أبو بلال ، وخرج إلى الأهواز في أربعين رجلا من الخوارج ، فبعث إليهم عبيد الله بن زياد ألفي رجب على رأسهم ابن حصن التيمي ، فهزمته الخوارج ، فقال شاعرهم :

أألفاً مؤمن منكم زعمتم ... ويقتلهم بآسك أربعونا ؟

كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ... ولكن الخوارج مؤمنونا

هي الفئة القليلة قد علمتم ... على الفئة الكثيرة ينصرونا(١)

على أن ما أصابه أبو بلال لم يأت بطائل ، فقد عول ابن زياد على استئصال شأفته وشأفة من معه ، فأرسل إليه ثلاثة آلاف وأوقعوا به وقتلوه هو وكثيراً من أصحابه سنة ٦١ هـ .

(حـ) الخوارج في عهد عبد الملك :

لما اشتد عبيد الله بن زياد على الخوارج في العراق وسد في وجوههم كل طريق ، اجتمعوا وتذاكروا ما حل بهم على يد الأمويين ، فقال لهم نافع ابن الأزرق : « إن الله قد أنزل عليكم الكتاب وفرض عليكم الجهاد واحتج عليكم ، وقد جرد أهل الظلم فيكم السيوف ، فاخرجوا بنا إلى هذا الذي قد ثار بمكة ؛ فإن كان على رأينا جاهدنا معه ، وإن لم يكن على رأينا دافعناه عن البيت » . ثم سار الخوارج إلى مكة حيث لحقوا بعبد الله بن الزبير ، فعول على استمالتهم إليه واتخذ من انضمامهم إليه فرصة للوصول إلى غايته ، وأخبرهم أنه على رأيهم فقاتلوا معه أهل الشام حتى مات يزيد .

ولما وضعت الحرب أوزارها بين ابن الزبير ويزيد بن معاوية اجتمع الخوارج وقالوا : إن الذي صنعتم أمس ليس رأياً ناجحاً : تقاتلون مع رجل لا تدرون لعله

(١) الطبري جـ ٦ ص ١٧٥ .

ليس مثل رأيكم » . ثم اتفقوا على أن يفدوا على ابن الزبير ويسألوه عن رأيه في عثمان وعلى وما أحدثه كل منهما . فلما كاشفوه بذلك قال لهم : « أشهدكم ومن حضرني أني ولي لابن عفان وعدوا أعدائه » . ولما تبين الخوارج أن ابن الزبير ليس على رأيهم رحلوا من مكة ، فأقبل نافع بن الأزرق الحنظلي وعبد الله بن الصفار السعدي وعبد الله بن إباض وحنظلة بن بيهس حتى بلغوا البصرة ، وسار أبو طالوت من بني بكر بن وائل وأبو فديك وعطية بن الأسود اليشكري إلى اليمامة(١) .

ولما دخل نافع بن الأزرق البصرة ، اجتمع هو وأصحابه وأخذوا يتذاكرون الجهاد ، ثم خرجوا وكسروا باب السجن وأخرجوا من فيه من الخوارج الذين حبسهم ابن زياد ، وساعدهم على ذلك خروج أهل البصرة على ابن زياد الذي ضعف نفوذه بعد موت يزيد بن معاوية وازدياد خطر الزبير الذي كان يدعو لنفسه في بلاد الحجاز .

ولما لحق نافع بالأهواز واستولى عليها وجبى خراجها ، وكثر أتباعه وانتشر عماله في السواد وأوقع الفزع في قلوب أهل البصرة ، أصبحت الحرب سجالا بين الأمويين والخوارج حتى حلت الهزيمة بأهل البصرة في جمادى الآخرة سنة ٦٥ هـ .

ولما رأى أهل البصرة أن خطر الخوارج قد تفاقم ، طلبوا إلى الأحنف بن قيس أن يتولى حربهم ، فأشار عليهم بالمهلب بن أبي صفرة ، لما يعلمه فيه من الشجاعة وحسن الرأي والمعرفة بالحرب . ودارت رحى القتال بين الخوارج وأهل البصرة بقيادة المهلب والأحنف بن قيس ، فدارت الدائرة على الخوارج وقتل زعيمهم ، فانحازوا إلى نواحي كرمان وأصفهان ا. ولم يزل المهلب يطارد الخوارج حتى تقلد مصعب بن الزبير ولاية العراق ؛ فولاه الجزيرة وولى عمر بن عبيد الله بن معمر حرب الخوارج ، واستطاع أن يجليهم إلى أصفهان حيث جمع الخوارج شملهم في سابور ، فسار إليهم قائد ابن الزبير وهزمهم . غير أنه لم يكن في حزم المهلب وشدته ، وأتاح بذلك الفرصة للخوارج فعاثوا في الأرض وقتلوا الأطفال والنساء وجبوا الخوارج . ولم ير أهل العراق بدا من أن يطلبوا إلى مصعب رجوع المهلب

---

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ٨٠ .

إلى قتالهم . وسرعان ما تلاقى المهلب مع الخوارج بزعامة قطرى بن الفجاءة ، واقتتل الفريقان ثمانية أشهر صمد فيها المهلب لقتالهم[1] .

استفحل خطر الخوارج الذين أبلوا فى كثير من المعارك لما اشتهر عن ولاة العراق من الضعف ووهن العزيمة . لذلك لم ير الخليفة عبد الملك بدأ من تولية الحجاج بن يوسف على العراق — كما أشرنا — فأخذ أهلها بالشدة حتى انضموا إلى المهلب ، وأخذ الحجاج يواليه بالمدد حتى تمكن من طرد الخوارج إلى كرمان ، وأقام بفارس ، ثم تبعهم إلى بجيرفت[2] ، حيث قاتلهم أكثر من سنة صبر فيها على قتالهم حتى دب الشقاق بينهم .

ولما علم الحجاج بمسير قطرى ومن معه إلى طبرستان أرسل إليهم جيشاً كبيراً قضى عليهم وقتل قطرى . ومن ذلك الوقت ضعفت شوكة الأزارقة[3] .

وكذلك حارب الحجاج الصفرية من الخوارج الذين هزموا الجيش الأموى فى حران — وكان يبلغ مائة ألف — هزيمة منكرة وغنموا ما معه من سلاح ومال ، كما أوقعوا بالأمويين فى كثير من المعارك .

وعلى الرغم من قلة عدد الخوارج وقتل صالح بن مسرح ، نراهم يهزمون جند الأمويين على كثرتهم فى أكثر المواقع . ذكر ابن خلكان أن قطرى ابن الفجاءة خرج فى بعض حروبه وهو على فرس أعجف وبيده عمود خشب ، فدعا إلى المبارزة ، فخرج إليه رجل من الأعداء ، فحسر قطرى عن وجهه ، فلما رآه الرجل ولى هارباً ، فقال له قطرى : إلى أين ؟ قال : لا يستحى الإنسان أن يفر منك :

وليس غريباً أن يولى مثل هذا الرجل الأدبار أمام قطرى وهو الذى يقول :

فصبراً فى مجال الموت صبراً ... فما نيل الخلود بمستطاع

سبيل الموت غاية كل حى ... وداعيه لأهل الأرض داعى

وما للمرء خير فى حياة ... إذا ما عد من سقط المتاع[1]

---

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ١١٨ — ١٢٠ .

(٢) بكسر الجيم وفتح الراء وسكون الفاء بعدها تاء مثناه فوقية ، من أشهر مدن كرمان وأوسعها ، بها خيرات ونخل وفواكه ، ويتخللها نهر .

(٣) ابن الأثير ج ٤ ص ١٨٣ . (٤) ابن خلكان ج ١ ص ٤٣٠ .

ولما رأى الحجاج ضعف أهل الكوفة عن مقاومة الخوارج وتثاقل أهل العراق عن حربهم ، سأل عبد الملك أن يمده بجيش من أهل الشام ، فبعث اليه ستة آلاف حمل عليهم شبيب أكثر من ثلاثين حملة ، فصمدوا حتى اضطروا الخوارج إلى عبور جسر نهر دجيل . نهوت بشبيب رجل فرسه فغرق فى النهر ، فحمل أهل الشام على أصحابه وأفنوهم عن آخرهم (١) ، واستراح الحجاج من خطر الخوارج ، وطويت بموت شبيب صفحة من صفحات الفروسية النادرة .

ويمتاز هذا العصر بكثرة الحروب التى أضرم نارها الخوارج ، وأظهروا فيها شجاعة نادرة وبسالة ممتازة ولاسيما منذ فارق بعضهم عبد الله بن الزبير بمكة ؛ وأغار بعضهم — كالأزارقة والنجدية والصفرية — على بلاد الدولة الأموية فى عهد عبد الملك بن مروان الذى يرجع إليه الفضل فى إضعاف قوتهم وفل شوكتهم . ولو أنهم تعاونوا وكانوا يداً واحدة لكان لهم شأن غير هذا الشأن .

(ى) الخوارج فى عهد عمر بن عبد العزيز :

لم يحرك الخوارج ساكناً فى عهد الوليد بن عبد الملك وأخيه سليمان ؛ فلما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة خرج رجل من بنى يشكر من الخوارج يدعى شوذب . ولكن عمر ، بما جبل عليه من الأخلاق الكريمة وما اشتهر عنه من حبه للسلم وجمع الكلمة ، لم يشأ أن يأخذ الخوارج بالشدة والقسوة ، بل أراد أن يعاملهم باللين ويقارعهم بالحجة ، فأرسل إلى شوذب كتاباً يقول فيه : « بلغنى أنك خرجت غضباً لله ولنبيه ، ولست أولى بذلك منى . فهلم أناظرك ، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس ، وإن كان فى يدك نظرنا فى أمرنا » . فكتب شوذب إلى عمر : « لقد أنصفت ، وقد أرسلت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك » .

وكان عمر بن عبد العزيز يرمى بهذا العمل إلى إزالة الخلف بين الفريقين عن طريق الإقناع بالحجة والبرهان . ولم ير ، بما عرف عنه من كراهة لإراقة دماء المسلمين ، إلا أن يسلك معهم سبيل اللين . وقد أثمرت سياسة عمر ، فشهد أحد

(١) أنظر كتاب السيادة العربية ترجمة المؤلف ص ٦٩ .

هذين الخارجين المتناظرين بأن عمر على صواب ، وذكر المسعودى (١) أن أحد هذين الرسولين قال لعمر : « ما سمعت كاليوم قط حجة أبين وأقرب مأخذا من حجتك ، أما أنا فأشهد أنك على الحق وأنا برىء ممن برىء منك » ، فقال عمر للرسول الآخر : « فأنت ما تقول » ؟ قال : « ما أحسن ما قلت وأبين ما وصفت ! ولكنى لا أفتات على المسلمين بأمر حتى تعرض عليهم قولك فأنظر ما حجتهم » . ثم مضى أحد الرسولين إلى شوذب وأتباعه ليطلعهم على مادار فى هذه المناظرة ، ولكن المنية لم تلبث أن عاجلت عمر (٢٥ رجب سنة ١٠١ هـ) .

وقد نصب الخوارج أنفسهم فى بلاد العراق والجزيرة منذ خلافة عمر ابن عبد العزيز حماة للضعفاء والمضطهدين وحربا على المستبدين والطاغين . لذلك لا نعجب إذا أمد هؤلاء الخوارج البربر من أهل إفريقية المتذمرين من حكم الأمويين بالأسلحة التى استعانوا بها على قتال ولاتهم فى تلك البلاد .

(هـ) الخوارج فى أواخر الدولة الأموية — أبو حمزة الخارجى :

وفى عهد مروان بن محمد تفاقم خطر الخوارج واشتد أمر أبى مسلم الخراسانى ، وانتهز الضحاك بن قيس الشيبانى الخارجى فرصة انقسام حزب بنى أمية على نفسه إثر مقتل الوليد بن يزيد وإذكار نار العصبية بين القبائل العربية : فخرج على بنى أمية وانضم إليه الخوارج . وزاد هذه الحالة سوءاً عزل مروان ابن محمد عبدالله بن عمر بن عبد العزيز عن العراق وتولية النضر بن سعيد الحريشى . فامتنع عبد الله فى الحيرة ، فسار اليه النضر وانضمت قيس إلى عبد الله بن عمر ابن عبد العزيز وطالبوا مروان بدم الوليد — وكانت أمه من قيس — كما انضمت إليه اليمنية لاشتراكهم فى قتل الوليد .

فلما رأى الضحاك ذلك الخلاف زحف على الكوفة سنة ١٢٧ هـ . فانضم إليه عبد الله بن عمر بن سليمان بن هشام . وهكذا ظهر الانقسام بين أفراد البيت الأموى ظهوراً بيناً ، وأخذ بعضهم ينضم إلى الثائرين ليكيد الفريق الآخر .
واشتد خطر الضحاك فى الكوفة حتى بلغ أنصاره زهاء مائة ألف وغدا يهدد

---
(١) مروج الذهب ج ٢ ص ١٣٠ — ١٣١ .

سلامة الدولة الأموية . وسرعان ماغادر الكوفة وسار إلى الموصل ثم إلى نصيبين،فكتب مروان إلى ابنه عبدالله أن يسير إليه ، فحاصره فى نصيبين ،ثم لحق به مروان وقضى عليه وهزم أتباعه عند ماردين سنة ١٢٨هـ(١) .

وعلى أن موت الضحاك لم يضع حد لثورات الخوارج فى العراق ، فقد ظهر زعيم جديد هو أبو حمزة الخارجى ؛ وكان يفد إلى مكة كل سنة لإثارة الناس على مروان وحثهم على قتاله . وبلغ من تفاقم خطره أنه جاء إلى عبد الله بن يحيى المعروف بطالب الحق (سنة ١٢٨ هـ) وقال له : « أسمع كلاما حسنا ، إنى أراك تدعو إلى حق ، فانطلق معى فإنى رجل مطاع فى قومى » . فخرج معه حتى أتيا حضرموت فبايعه أبو حمزة على الخلافة ودعا إلى قتالى مروان(٢) .

وفى سنة ١٢٩ هـ خرج أبو حمزة إلى مكة فى سبعمائة رجل من قبل عبد الله ابن يحيى ، ففزع الناس حين رأوهم . ولم ير عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك ، وكان على مكة والمدينة ، بدأ من أن يطلب منهم الهدنة حتى ينتهى موسم الحج .

ولما انتهى الموسم سار عبد الواحد إلى المدينة ، وزاد أهلها فى أعطياتهم وأمر عليهم عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان(٣) ، فخرج لقتال أبى حمزة . فلما كان بالعقيق جاءته رسل أبى حمزة يقولون : « إننا والله مالنا بقتالكم حاجة ، دعونا نمضى إلى عدونا » . فأبى ذلك عليهم وأصر على الحرب وسار حتى نزل قديدا ، فأعمل فيهم أصحاب أبى حمزة السيف وقتلوا منهم عدداً كبيراً .

ولما اتصل نبأ هذه الهزيمة بعبد الواحد هرب إلى الشام ، فدخل أبو حمزة الخارجى المدينة فى صفر سنة ١٣٠ هـ ، وأحسن السيرة فى أهلها ، وأقام بها ثلاثة أشهر . ثم سار إلى الشام ، فأرسل إليه مروان بن محمد جيشاً التقى مع الخوارج فى وادى القرى ، فقتل أبو حمزة وكثير من أصحابه . ثم سار عبد الملك إلى المدينة ثم إلى اليمن وهزم عبد الله ابن يحيى المعروف بطالب الحق . وكان أبو حمزة قد ولاه الخلافة ، وقتله وهو وكثيراً من أتباعه(٤) .

---

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٤١ .
(٢) المصدر نفسه ج ٥ ص ١٤١
(٣) المصدر نفسه ج٥ ص ١٤٧ .
(٤) الطبرى ج٩ ص ١٠٩ . ابن الأثير ج ٥ ص ٥٨ .

وكانت ثورة أبى حمزة آخر ثورات الخوارج الذين حاولوا قلب نظام الحكم فيها فلم يفلحوا . وإلى مروان يرجع الفضل فى القضاء على الخوارج ، ولم يشغله تفكك عرى دولته عن الضرب على أيديهم بعد أن عاثوا فى الأرض وقتا طويلا .

(و) نظرية الخلافة عند الخوارج :

كان الخوارج الأول حزباً سياسياً لايعدو بحثه مسألة الخلافة وما يتصل بها ، وكانوا يقولون بصحة خلافة أبى بكر وعمر وعثمان فى سنيه الأولى وعلى إلى أن حكم الحكمين . ويمثل الخوارج — أو الجمهوريون كما يسميهم فان فلوتن(١) — المبادىء الديموقراطية المتطرفة . ويمكن تلخيص نظريتهم فى الخلافة فى أنها حق لكل عربى حر ، وأنه إذا اختير الخليفة فلا يصح له أن ينزل عنها ، وإذا جار استحلوا عزله أو قتله إذا اقتضت الضرورة ذلك(٢) .

وقد أدخل الخوارج بعض التعديل على الشرط الأول ، فشرطوا الإسلام والعدل بدل العروبة والحرية ، ولا سيما حين انضم إلى صفوفهم كثير من المسلمين من غير العرب . لذلك جعلوا حق الخلافة شائعاً بين جميع المسلمين الأحرار والأرقاء على سواء ، وخالفوا بهذا الرأى نظرية الشيعة التى تقول بانحصار الخلافة فى آل بيت النبى .

وقد انضم إلى الخوارج وغذى صفوفهم أولئك العرب الخلص من رجاله الصحراء ، وبخاصة بعض القبائل العربية ذات الخطر والشأن ، مثل قبيلة تميم وأبطال القادسية ورؤساء الجند الذين انضم إليهم أولئك المتطرفون فى الإسلام من أهل الصيام والصلاة كما سماهم بذلك الشهرستانى ، ورأوا أن جماعة المسلمين أصبحت فى خطر بسبب المطامع الشخصية ، وأن مصالحهم أصبحت خاضعة لمصلحة بعض الأحزاب تعبث بها كما تشاء . وكذلك انضم إليهم بعض القراء من جند على ، وبخاصة حين رأوا إخفاق الحكمين فى حكمهما وخيبة أملهم فى حقن دماء المسلمين وإحلال الوئام بينهم .

كانت صبغة الخوارج منذ نشأتهم صبغة سياسية خالصة بخلاف ما ذهب إليه

---

(١) السيادة العربية ، ترجمة المؤلف ص ٦٩ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١١٠ — ١١١ .

فيكلسون الذى يرى أن الدفاع الأصلى للخوارج عن تلك الحركة وتركهم جند على إنما هو دافع دينى برغم ما كان يشوبه من المظهر السياسى . وقد ظلت هذه الصبغة السياسية حتى خلافة عبد الملك بن مروان حيث مزجوا آراءهم السياسية بالأبحاث الدينية ، فقالوا إن العمل بأوامر الدين من صلاة وصيام وصدق وعدل جزء من الإيمان ، وليس الإيمان الاعتقاد بالله ورسالة محمد فحسب : فمن اعتقد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ثم لم يعمل بما يفرضه الدين وارتكب الكبائر فهو كافر . وهكذا كانت أفكار الخوارج فى الدين لاتقل شدة عن أفكارهم فى السياسة . وكان لتعصبهم السياسى أثر كبير فى وجهة نظرهم الدينية ، فكانوا أشداء فى الدين غير متسامحين لا تعرف المرونة ولا اليسر إلى نفوسهم سبيلا .

ومما امتاز به الخوارج شدة تمسكهم بالقرآن واتباع أحكامه وتنفيذ أوامره . وكان خوفهم من عذاب الله يوم القيامة يثير فى نفوسهم التحمس للحق وشدة التمسك به والائتمار بأوامر الله واجتناب نواهيه ، حتى لقد وصفهم الشهرستانى بأنهم « أهل صيام وصلاة » . إلا أنهم غلوا فى أفكارهم حتى عدوا مرتكب الكبيرة — بل مرتكب الصغيرة أيضاً — كافراً ، وخرجوا على أئمتهم للهفوة الصغيرة يرتكبونها . ويتشدد كثير منهم فى النظر إلى مخالفيهم من المسلمين فيعدونهم كفاراً ، بل كانوا يعاملونهم بما هو أقسى من معاملة الكفار . يحكون أن واصل ابن عطاء ، رأس المعتزلة ، وقع فى أيديهم ، فادعى أنه مشرك مستجير » ورأى أن هذا ينجيه منهم أكثر مما تنجيه دعواه أنه مسلم مخالف لهم .

واشتد الخوارج فى معاملة المخالفين لهم ، حتى كان كثير منهم لا يرحم المرأة ولا الطفل الرضيع ولا الشيخ الفانى . وهكذا كانوا لا يتورعون عن ارتكاب أشد أعمال القسوة ، برغم ما كان من ظهورهم بمظهر العباد والزهاد ، وتورعهم عن تافه الأشياء ، وتحرجهم من صغائر الأمور أشد التحرج . كما كانوا يأتون أفظع المنكرات وأكبر الكبائر كأنهم لا يدينون بإله ولا يعرفون شفقة ولا رحمة . وهم مع ذلك لا يعجزون عن الإتيان بالآيات البينات من كتاب الله وأحاديث الرسول يستدلون بها على تبرير عملهم ، على الرغم من أن فريقاً منهم قد شذ عنها ، ففهموا من قولهم : « لا حكم إلا لله » أن المراد لا حكومة — أى لا حاجة إلى

إمام — بدليل قول على بن أبى طالب حين سمعهم يقولون هذه العبارة : « كلمة حق يراد بها باطل » . نعم ! إنه لا حكم إلا لله ، ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة إلا لله ، وأنه « لابد للناس من أمير بر أو فاجر ، يعمل فى إمرته المؤمن، ويستمتع فيها الكافر ، ويبلغ الله فيها الأجل ، ويجمع به الفيء ، ويقاتل به العدو ، وتأمن به السبل . ويؤخذ به للضعيف من القوى » .

وصفوة القول أن نظرية الخوارج الأساسية فى الخلافة تكاد تكون مشتركة بين جمهورهم على الأقل .

(ز) فرق الخوارج : تفرق الخوارج عشرين فرقة كل منها تخالف الأخرى فى تعاليمها كلها أو بعضها . والآن نتكلم على أشهر هذه الفرق وما كان لها من تعاليم .

فمن فرق الخوارج : الأزارقة ، وهم أصحاب نافع بن الأزرق ، وكان من أكبر فقهائهم . ولم تكن من الخوارج قط فرقة أكثر عدداً ولا أشد شوكة من الأزارقة . وقد كفر نافع وأصحابه عليا بن أبى طالب وجميع المسلمين ، وقال نافع إنه لا يحل لأصحابه المؤمنين أن يجيبوا أحداً من غيرهم إذا دعاهم للصلاة ، ولا أن يأكلوا من ذبائحهم ولا أن يتزوجوا منهم . وهم فى نظره مثل كفار العرب وعبدة الأوثان ، كما قال عن بلادهم إنها دار حرب . ويحل قتالهم وقتل أطفالهم ونسائهم لأنهم كانوا يعتقدون أن أطفال مخالفيهم مشركون وأنهم مخلدون فى النار .

وكان نافع لا يجيز التقية فى قول ولا فى عمل ، لأن الله تعالى يقول ﴿ إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ﴾ . وكان يستحل الغدر بمن خالفه ويكفر القعدة الذين كانوا على رأيه عن القتال مع قدرتهم عليه أو عن الهجرة إليهم ، وأوجب امتحان من ينضمون إليهم . وكانوا يدفعون إليه واحداً من أسرى مخالفيهم ويأمرونه بقتله ، فإن قتله صدقوه وإن لم يقتله قالوا هذا منافق ومشرك وقتلوه(١) . وكذلك يكفرون مرتكب الكبيرة مستدلين بكفر إبليس

(١) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٦٣ .

الذى يقولون عنه إنه لم يرتكب إلا كبيرة واحدة حيث أمر بالسجود فأبى وقال : ﴿ أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾ .

وزاد نافع أن أسقط حد الرجم على الزانى المحصن لأنه لم يرد نص عليه فى القرآن (١) ، وأسقط الحد عمن قذف الرجل المحصن ، ولكنه أقامه على من قذف المحصنات من النساء ، وحكم بقطع يد السارق فى القليل والكثير ، وقد كفرهم المسلمون بهذه البدع التى استحدثوها(٢) .

ومن فرق الخوارج النجدية : وهم أتباع نجدة بن عامر الحنفى . ومن تعاليمه التى انفرد بها ، أن المخطىء بعد أن يجتهد معذور ، وأن الدين أمران : معرفة الله ومعرفة رسوله ، وتحريم دماء المسلمين وتحريم غصب أموالهم والإقرار بما جاء من عند الله جملة(٣) . وما عدا ذلك فالناس معذورون بجهلهم إلى أن تقوم عليهم الحجة ، ومن أداه اجتهاده إلى استحلال حرام او تحريم حلال فهو معذور ، ومن خاف العذاب على المجتهد المخطىء قبل قيام الحجة عليه فهو كافر . وعظم جريمة الكذب(٤) على الزنا وأسقط حد شرب الخمر(٥) ، وأجاز التقية(٦) ، واحتج بقوله تعالى : ﴿ إلا أن تتقوا منهم تقاة ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ﴾ . كما قال إن القعود عن القتال جائز ، والجهاد إذا أمكن كان أفضل ، واستدل بقوله تعالى : ﴿ وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما ﴾ . واستحل دماء أهل الذمة وأموالهم وحكم بالبراءة ممن حرمها ، وأجاز عدم إقامة إمام ، وإنما على الناس أن ينصف بعضهم بعضاً

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ١٦٤ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٦٣ — ١٦٥ .

(٣) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٦٨ .

(٤) قال : من نظر نظرة صغيرة أو كذب كذبة صغيرة وأصر عليها فهو مشترك ، ومن زنى وسرق وشرب الخمر غير مصر فهو مسلم إذا كان من موافقيه (الفرق بين الفرق ص ٦٨) .

(٥) الفرق بين الفرق ص ٦٨ . يقول الشهرستانى (ج ١ ص٦٦) إنه غلظ على الناس تغليظاً شديداً .

(٦) هى اتقاء أذى الخصم بأن يكتم عنه اعتقاده عن غيره

فيما بينهم ، فإن رأوا أن ذلك لا يتم إلا بحملهم عليه فأقاموه جاز(١) .

أما البيهسية من الخوارج فهم أصحاب أبي بيهس بن جابر . ومن تعاليمه أنه لا يسلم أحد حتى يقر بمعرفة الله ومعرفة رسله ومعرفة ماجاء به النبي صلى الله عليه وسلم ، والولاية لأولياء الله . وكان يكفر الواقفية(٢) ، لأنه يعتبر أن من بين الأشياء التي جاء بها النبي والتي تجب معرفتها ، المحرمات التي جاء الوعيد والتهديد لمن فعلها ، فهذه يجب على المسلمين معرفتها بعينها وتفسيرها والاحتراز عنها . ويقول إن هناك أشياء أخرى يجب على المسلم ألا يعرفها إلا باسمها ولا يضره الجهل بتفسيرها . وكان يقول إن الإيمان هو العلم بالقلب دون القول والعمل. أما مخالفوهم فهم كأعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم تحل الإقامة معهم كما فعل المسلمون في إقامتهم .

والأباضيه من الخوارج هم أتباع عبد الله بن إباض التميمي ، ويختلفون عن بقيه فرق الخوارج في أنهم لم يغلوا في الحكم على مخالفيهم . ولعل هـــذا يرجع الى طبيعة ظروف نشأتهم ، فإن صاحبهم عبد الله بن إباض لم يخرج إلا في أيام مروان بن محمد بعد أن قضى الأمويون على الخوارج أو كادوا ، وبعد أن كاد اليأس يدب الى الأحزاب ، وتحول نضالهم حول الحكم الى آراء ومذاهب تكاد تكون علمية بحتة ، بل قالوا أنه يجهل التزوج منهم ، وأن يتوارثه الخارجي وغيره .

وهم الى المسالمة أميل ، حتى إنهم قالوا إنه لا يحل قتل الخوارج غيلة ولا يحل سبيهم إلا بعد الدعوة وإقامة الحجة واعلان القتال . فاذا قاتلوهم وغنموا أموالهم لم يستحلوا منها غير السلاح والخيل . أما الذهب والفضة أو غيرهما فإنهم يردونه إلى أعدائهم وكانوا يرون أن بلاد مخالفيهم من المسلمين هي ديار توحيد إلا معسكر السلطان (يقصدون منها حاكم بني أمية أو غيره من الأمراء الجائرين) ، فانه دار بغي ، كما قالوا إن مرتكب الكبيرة من أهل القبلة موحد مؤمن ، فهو كافر كفر

---

(١) الشهرستاني ج ١ ص ١٦٨ — ١٦٩ .

(٢) وهم الذين يقولون إنا نقف فيمن اقترف فعل الحرام وهو لا يعلم أحلال أم حرام .

نعمة لا كفر ملة(١) ، وإن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى إحداثاً وإبداعاً ومكتسبة للعبد حقيقة لا مجازاً ، ولم يعتبروا أوامر الله ونواهيه موجهة إلى المؤمن فحسب بل أن الكافر مطالب بها أيضاً ، وليس فى القرآن تخصيص الأمر أو النهى بواحد منهما ، وهم جماعة متفرقون فى مذاهبهم(٢)

ومن فرق الخوارج أيضاً الصفريه: وهم أصحاب زياد بن الأصفر، وهو لايكفر الذين قعدوا عن القتال ماداموا متفقين فى الدين والاعتقاد . وقال إن التقية جائزة فى القول دون العمل ولم يحكم بقتل أطفال المشركين ولا بتكفيرهم أو تخليدهم فى النار، وفرق بين الكبائر التى يلزم فيها والتى لاحد عليها(٣) ، فلم يكفر مرتكب الأولى(٤) ، إنما كفر مرتكب الثانية(٥)

هؤلاء هم أشهر فرق الخوارج. وإن الناظر إلى مذاهبهم ليجد إنهم قد اشتطوا جميعاً فى الحكم على مخالفيهم حتى ساووا بينهم وبين الكفار وعبدة الأوثان . فلا عجب إذا اشتطوا فى حربهم وبذلوا نفوسهم فى سبيل الذود عن مبادئهم وقد ضربوا المثل فى الشجاعة النادرة والبطولة الفذة ، وشغلوا — كما رأينا —

---

(١) أى أنه مؤمن بالله وبوحدانيته وبالرسول ، ولكنه مقصر فى شكال نعمة الله عليه فهو كافر فضل الله عليه وجاحدله وإلالما ارتكب مانهاه عنه الله

(٢) هم أربع فرق : الحفصية والحارثية واليريدية وأصحاب طاعة لايراد بها الله (أى من يرون أن النفاق والرياء فى طاعة الله لايكفر) . غيرأنهم أجمعوا على أمور منها ماذكرنا : ومنها القول بإمامة عبد الله بن اياض ، وبأن كفار هذه الأمة أو كفار أهل القبلة (ويعنون مخالفيهم من المسلمين)ليسوا مشركين وليسوا مؤمنين ، ولكنهم كفار(أى كفروا بنعمة الله وجحدوها ولو أنهم مؤمنون بألوهيته) ، وأجازوا شهادة هؤلاء عليهم فى القضايا (الفرق بين الفرق ص ٨٢ — ٨٣) .

(٣) لعظم قدرها وفظاعة الجريمة فيها حتى لايكفر عن الإنسان سيئتها أى عفو فى الدنيا ، ومثلوا لهذا النوع من الكبائر بترك الصلاة .

(٤) قالوا لايصح أن يسمى إلا باسم الحد الذى يوقع عليه . فإذ سرق أو قذف قيل إنه سارق أو قاذف، ولايصح أن يسمى كافراً أومشركاً .

(٥) روى الشهرستانى أن زيادا (امامهم) قال : الشرك شركان : شرك هو طاعة الشيطان وشرك هو عبادة الأوثان ، والكفر كفران : كفر بالنعمة ، وكفر بإنكار الربوبية ، والبراءة براءتان. براءة من أهل الحدود) هم من يرتكبون جريمة السرقة أوجريمة الزنا أوالقذف ...) وهى سنة وبراءة من أهل الجحود وهى فريضة (جا ص ١٨٤ — ١٨٥)

الحزب الأموى وغيره مدة طويلة ، وكلفوا الأمة الإسلامية ثمناً غالياً من الأرواح والأموال .

يرى نيكلسون(١) أن الخوارج كانوا المثل الأعلى فى الدفاع عن العقيدة والاستماتة فى سبيل الانتصار للمبدأ ، برغم ما كان من اعتسافهم فى ذلك المبدأ واشتطاطهم فى تلك العقيدة ، مما أدى إلى إخفاقهم . وقد لانت قناتهم قليلا وابتدأ الاعتدال والتسامح يدب إلى نفوسهم ويسود أفكارهم ، حين وجدوا أنفسهم أمام خطر داهم كاد ينتهى بإبادتهم واستئصال شأفتهم . ويرى أنه لم تكن لهم مآرب شخصية يرمون إلى تحقيقها من وراء حركتهم هذه ، كما كان لغيرهم من الأحزاب السياسية الأخرى من شيعة وأمويين وزبيريين .

وقد أصاب نيكلسون فيما ذهب إليه. فإنه ليس أدل على زهد هؤلاء الخوارج فى حطام الدنيا وزينتها مما ذكره الطبرى (٧ : ٢٤٨) عن شبيب الخارجى وقد انتهى إلى إحدى المدن ، فندب من أصحابه من يأتيه برأس عاملها. « فساروا حتى أتوا دار العامل ونادوا : أجيبوا الأمير ، فقالوا : أى الأمراء ؟ قالوا : أمير خرج من قبل الحجاج يريد هذا الفاسق شبيباً . فاغتر العامل بذلك وخرج إليهم ، فضربوا عنقه ، وقبضوا على ما كان فى دار الإمارة من مال ولحقوا بشبيب . فلما انتهوا إليه قال : ما الذى أتيتمونا به ؟ قالوا : جئناك برأس الفاسق وما وجدنا من مال ، والمال على دابة فى بدره ، فقال شبيب : اتيتمونا بفتنة للمسلمين . هلم الحربة ياغلام ! فخرق بها البدر وأمر فنخس بالدابة والمال يتناثر من بدره حتى وردت الصراة . فقال : إن بقى شيء فاقذفه فى الماء » .

٥ — الشيعة

(ا) نشأة الشيعة :

اعتقد أنصار على بن أبى طالب أنه أحق بالخلافة ، وأن أبابكر وعمر وعثمان أخذوا حق الإمامة المقدس من على . وأتاح تذمر المسلمين من سياسة عثمان

---

(١) p. 221.

الفرصة لأنصار على لتحويل الخلافة إلى أهل البيت ، وأذكى نيران الثورة أبوذر الغفارى بتحريض ابن سبأ الذى أخذ يتنقل فى الولايات الإسلامية . ووضع عقائد مذهب الشيعة الغالية فى الإسلام ، وانتهى به المطاف إلى مصر حيث أخذ ينشر دعوته التى ألبسها لباس الدين ، وأرسل دعاته إلى الأمصار الإسلامية لنشر الدعوة لعلى ، ووضع مذهب الرجعة أى رجعة محمد صلى الله عليه وسلم وقال فى ذلك : « إنى لأعجب ممن يقول برجعة عيسى ولا يقول برجعة محمد » وقد قال الله عز وجل : ﴿ إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾ (سورة القصص ٢٨ : ٨٥) . وزاد ابن سبأ أن محمداً أحق بالرجوع من عيسى . ومن هنا نشأ فى الإسلام مذهب تناسخ الأرواح ، وهو خروج الروح من جسد وحلولها فى جسد آخر .

كما نشر ابن سبأ مذهب الوصاية الذى أخذه عن اليهودية دينه القديم ، بمعنى أن عليا وصى محمد ، وأنه خاتم الأوصياء بعد محمد خاتم النبيين ، وأنهم من ناوءوا علياً وتعدوا على حقه فى الإمامة . كما أخذ عن الفرس الذين كانوا يحتلون فى صدر الإسلام بلاد اليمن موطنه الأصلى نظرية الحق الإلهى ، بمعنى أن علياً هو الخليفة بعد النبى . وأنه يستمد الحكم من الله سبحانه . وأعلن ابن سبأ « أن عثمان أخذها (أى الخلافة) بغير حق . وهذا وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانهضوا فى هذا الأمر فحركوه ، وأبدءوا بالطعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا الناس ، وادعوهم إلى هذا الأمر »(١) .

ولما ولى على الخلافة تطور مذهب السبيئة . ذكر ابن حزم(٢) أن قوما من أصحاب عبد الله بن سبأ أتوا علياً وقالوا له : « أنت هو » فقال لهم : « ومن هو » ؟ فقالوا : « أنت الله » فغضب على وأظهر الجد وأمر بنار فأوقدت ، وأمر مولاه قنبرا بأن يأتى بهؤلاء الرجال فيها ، فجعلوا يقولون وهم يلقون فى النار : « الآن صح عندنا أنه الله » ا .

أمر على بنفى ابن سبأ إلى المدائن . ولكن هـــذا لم يثنه عن مواصلة الدعوة

(١) الطبرى (طبعه دى غويه) ١ : ٢٩٤٢ .
(٢) الملل والنحل ج ٤ ص ١٨٦ .

لعلى . فلما مات على قالت السبئية برجعته وتوقفه . وذكر ابن حزم أن(١) ابن سبأ لما بلغه قتل على قال : « لو أتيتمونى بدماغه سبعين مرة لما صدقنا موته . ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً » . وكذلك ذهبت السبئية إلى القول بأن علياً يجيء فى السحاب وأن الرعد صوته والبرق سوطه (أو تبسمه أو نوره على ما ذهب إليه بعض) ، وأنه سينزل بعد ذلك إلى الأرض فيملؤها عدلا بعد أن ملئت جورا وظلما(٢) .

ولما قتل على دعا العرب إلى ابنه الحسن . وذكر المسعودى(٣) أنه استخلف فى الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ٤٠ هـ ، إلا أن خلافته لم يطل أمدها لما أشيع من انهزام جيوشه أمام جند الشام وتخلى أهل العراق عنه ، فلم يجد بدأ من النزول عن الخلافة حقنا لدماء المسلمين .

على أن الدافع الحقيقى الذى حمل الحسن على النزول عن الخلافة ، إنما يرجع — على ما ذهب إليه اليعقوبى(٤) — إلى أنه لم يعد بحيث يستطيع أن يقف فى وجه معاوية . ذكر الطبرى (ج ٦ ص ٩٢) عن السبب الحقيقى الذى حدا الحسن على النزول لمعاوية عن الخلافة : « وخرج الحسن حتى نزل المقصورة البيضاء بالمدائن . وكان عم المختار بن أبى عبيد عاملا على المدائن ، وكان اسمه سعد بن مسعود ، فقال له المختار وهو غلام شاب : هل لك فى الغنى والشرف ؟ قال : وماذا ذاك ؟ قال توثق الحسن وتستأمن به إلى معاوية ، فقال له سعد : عليك لعنة الله ! أثب على ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأوثقه ، بئس الرجل أنت ! فلما رأى الحسن عليه السلام تفرق الأمر عنه ، بعث إلى معاوية يطلب الصلح ، وبعث معاوية إليه عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس ، فقاما على الحسن بالمدائن فأعطياه ما أراد وصالحاه على أن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف ألف فى أشياء اشترطها . ثم قام الحسن فى أهل

---

(١) الشهرستانى ج ٤ ص ١٨٠ .

(٢) المصدر نفسه ج ٤ ص ١١٠ أنظر كتاب « تاريخ الدولة الفاطمية » للمؤلف ص ٥ — ١٢ .

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٣١ .

(٤) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٢٥٥ .

العراق فقال : إنه سخى بنفسه عنكم لثلاث : قتلكم أبى ، وطعنكم إياى ، وانتهابكم متاعى ، ودخل معاوية الكوفة فبايعه الناس ».

(ب) الشيعة فى عهد معاوية :

خمدت روح التشيع فى نفوس أهل الكوفة وانضووا تحت لواء معاوية الذى أصبح صاحب السلطان المطلق على أثر نزول الحسن بن على له عن الخلافة ومغادرته الكوفة إلى المدينة . بيد أن السياسة التى سار عليها معاوية من سب على بن أبى طالب وأهل بيته على المنابر أثارت حنق الشيعيين عليه . ذلك أن معاوية لما ولى المغيرة بن شعبة على الكوفة أمره بلعن على ، فأخذ المغيرة فى لعنه كلما قام خطيبا . وبينما هو يخطب ذات مرة سب عليا ومدح عثمان ، فقام حجر بن عدى وقال له : « إن من تذمون وتعيرون لأحق بالفضل ، وإن من تزكون وتطرون أولى بالذم(١) » فقال له المغيرة ويحك : « ياحجر ! اتق السلطان وغضبه وسطوته فإن غضب السلطان أحيانا مما يهلك أمثالك » .

ظل حجر بن عدى على سياسته العدائية ضد سلطان بنى أمية حتى مات المغيرة وولى الكوفة بعده زياد ابن أبيه ، فسار على سنة من كان قبله فى سب على ، فزاد هذا فى حنق حجر ومن معه ، وأخذوا يعقدون الاجتماعات لسب معاوية . فلما نمى خبر هذه الاجتماعات إلى زياد غادر البصرة إلى الكوفة وأمر رئيس شرطته أن يأتى بحجر . فلما ذهب إليه سبه أصحاب حجر ومنعوه من أن يصل إليه . فجمع زياد أهل الكوفة وقال لهم : « تشجون(٢) بيد وتواسون بأخرى ، أبدانكم معى وقلوبكم من حجر الأحمق . هذا والله من رجسكم ، والله لتظهرون لى براءتكم أو لآتينكم بقوم أقيم بهم أودكم » فقالوا : معاذ الله أن يكون لنا رأى إلا طاعتك وما فيه رضاك ، ثم أمر زياد صاحب شرطته مرة أخرى أن يقبض على حجر ويحضره إليه فتم له ذلك . ولم يلبث زياد أن أرسل حجراً وأصحابه إلى معاوية(٣) فقتل منهم ثمانية وعفا عن ستة تبرءوا من على بن أبى طالب (سنة ٥١ هـ) .

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ١٤٣ .

(٢) من الشج وهو الجرح .

(٣) الطبرى ج ٦ ص ١٥٠ .

بذلك ضعفت الشيعة وأصبح التشيع أمراً نظرياً . ولا غرو فقد كان بعضهم ينقصهم الحماس والإخلاص للمبدأ الذى كانوا يعتنقونه ، ولم يكونوا كالخوارج فى شجاعتهم وإخلاصهم لمبادئهم التى كانوا يضحون فى سبيلها بأنفسهم .

(ح) خروج الحسين بن على — مأساة كربلاء — التوابون :

ولما ولى يزيد بن معاوية الخلافة أرسل إلى الوليد بن عقبة — وكان عامله على المدينة — أن يأخذ له البيعة من كبار الصحابة فى الحجاز ، فامتنع عبد الله ابن الزبير وفر إلى مكة ، وخرج الحسين بن على من المدينة وسار إلى مكة دون أن يبايع يزيد ، وكاتب الشيعة بالكوفة ، فاجتمعوا وأرسلوا إليه كتاباً جاء فيه : « إنه ليس علينا إمام ، فاقدم علينا لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى فإن النعمان بن بشير فى قصر الإمارة ، ولسنا نجتمع معه فى جمعة ولا نخرج معه إلى عيد . ولو قد بلغنا مخرجك أخرجناه من الكوفة وألحقناه بالشام » . ثم اتبعوا هذا الكتاب بكتب أخرى ذكروا فيها أسماء الشيعيين الذين حضروا الاجتماع . وطلبوا منه أن يبادر إلى الذهاب إلى الكوفة(١).

وقد قيل إن الحسين تسلم نحوا من مائة وخمسين كتابا من مختلف الجماعات ، وكان ذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٦٠ هـ فلما وصلت هذه الكتب إلى الحسين أرسل ابن عمه مسلم بن عقيل ليتبين حقيقة الأمر ، فسار إلى الكوفة حيث التف حوله كثير من الشيعيين وبايعوه على النصر ، فاغتر بما شاهده منهم وأرسل إلى الحسين يستحثه على القدوم إلى الكوفة .

وفى هذه الأثناء عزل يزيد النعمان بن بشير عن الكوفة لضعفه ، أو لأنه كان يؤثر العافية ويحب السلم ، وولى مكانه عبيد الله بن زياد أمير البصرة وأصبح أميراً على البلدين . فأخذ الشيعة بالشدة ، وتفرق عن مسلم بن عقيل كثير من أهل الكوفة ، فاستجار بهانىء بن عروة المرادى ، فقتلهما عبيد الله بن زياد .

أما الحسين فإنه لم يعتبر بما فعله أهل الكوفة مع أبيه وأخيه من قبل . ولما

---

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٣ — ٤ .

استبطأ أخبار مسلم وعزم على الخروج ، نصح له عبد الرحمن بن الحارث وعبدالله ابن العباس أن يعدل عن الخروج وأن يسير إلى اليمن . وقد قيل إن الحسين كان يعرف مايحدق به من خطر إذا بقى فى مكة ، لأن بنى أمية سوف يتعقبونه حتى يقتلونه فى الحجاز . لذلك آثر أن يكون قتله بعيداً عن البيت الحرام . ولما رأى عبد الله بن العباس إصرار الحسين على الخروج قال له : فإن كنت سائراً فلا تسر بنسائك وصبيتك . فإنى خائف أن تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه.

ولكن الحسين لم يلتفت إلى نصح الناصحين ، بل سار إلى الكوفة على رأس فئة قليلة لم يجاوز عددها ثمانين رجلا ، ولم يكن قد علم بقتل مسلم بن عقيل وخذلان الشيعة له ، ولقى الفرزدق فى الطريق فسأله عن أهل الكوفة فقال له : « خلفت قلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية عليك » .

فلما دنا الحسين من الكوفة وعلم بقتل مسلم بن عقيل وخذلان أهلها . قابله الحر بن يزيد التميمى وقال له : ارجع فإنى لم أدع لك خلفى خيراً أرجوه . ومن ثم داخل الحسين الشك وهم بالرجوع . غير أن إخوة مسلم بن عقيل صمموا على أن يأخذوا بثأر أخيهم أو يقتلوا دونه ، فنزل الحسين على رأيهم وسار حتى لقيته خيل ابن زياد ، فعدل إلى كربلاء حيث نشب القتال فى العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ . « ثم قتل الحسين عليه السلام — كما يقول صاحب الفخرى (ص ١٠٧) — قتلة شنيعة ، ولقد ظهر منه عليه السلام من الصبر والاحتساب والشجاعة والورع والخبرة التامة بآداب الحرب والبلاغة ، ومن أهله وأصحابه رضى الله عنهم من النصر له والمواساة بالنفس وكراهية الحياة بعده ، والمقاتلة بين يديه عن بصيرة مالم يشاهد مثله . ووقع النهب والسبى فى عسكره وذراريه عليهم السلام . ثم حمل النساء رأسه صلوات الله عليه إلى يزيد بن معاوية بدمشق فرد نساءه إلى المدينة » .

كان لمقتل الحسين فى أرض كربلاء التى أصبحت ملطخة بدمائه ودماء أهل بيته أثر بعيد فى إذكاء نار التشيع فى نفوس الشيعة وتوحيد صفوفهم ، وكانوا قبل ذلك متفرقى الكلمة مشتتى الأهواء ، إذ كان التشيع قبل مقتله رأياً سياسياً نظرياً لم يصل إلى قلوب الشيعة . فلما قتل الحسين امتزج التشيع بدمائهم وتغلغل فى أعماق قلوبهم وأصبح عقيدة راسخة فى نفوسهم .

وعلى أثر مقتل الحسين انتشر التشيع بين الفرس الذين تربطهم به رابطة النسب ، إذ كانوا يرونه أحق بالخلافة هو وأولاده من بعده ، لأنهم يجمعون بين أشرف دم عربى وأنقى دم فارسى . لذلك لا نعجب إذا أخذ شعور العداء منذ ذلك الوقت يثور لأوهى الأسباب . يؤيد هذا أن عبيد الله بن زياد لما ارتقى المنبر بعد قتل الحسين وخطب خطبته التى جاء فيها : « الحمد لله الذى أظهر الحق وأهله ونصر أمير المؤمنين يزيد وحزبه ، وقتل الكذاب ابن الكذاب وشيعته » ، قام عبد الله ابن عفيف ، وأخذ يفند قوله بهذه الكلمات المملوءة حنقا المفعمة سخطا على بنى أمية وولاتهم فقال : « يا عدو الله ! إن الكذاب أنت وأبوك والذى ولاك وأبوه . تقتل أولاد النبيين وتقوم على المنبر مقام الصديقين(١) » ؟

وقد وصف صاحب الفخرى (ص ١٠٦) موقعة كربلاء فقال . « هذه قضية لا أحب بسط القول فيها استعظاما لها واستفظاعا . فإنها قضية لم يجر فى الإسلام أعظم فحشا منها . ولعمرى إن قتل أمير المؤمنين عليه السلام هو الطامة الكبرى ، ولكن هذه القضية جرى فيها من القتل الشنيع والسبى أو التمثيل ما تقشعر له الجلود . واكتفيت أيضا عن بسط القول فيها بشهرتها فإنها أشهر الطامات . فلعن الله كل من باشرها وأمر بها ورضى بشىء منها ، ولا تقبل الله منه صرفا ولا عدلا ، وجعله من « الأخسرين أعمالا ، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » .

ولنأت الآن برأى مؤرخ شرقى مسلم عن هذه الموقعة وما كان لها من أثر فى نفوس الشيعة خاصة والمسلمين عامة ، وهو سيد أمير على(٢) :

« لقد ألقت مذبحة كربلاء الفزع والهلع فى جميع البلاد الإسلامية ، كما أذكت فى نفوس أهل بلاد الفرس ذلك الحماس الوطنى الذى ساعد بنى العباس على ثل عرش الأمويين وإسقاط دولتهم » .

وكذلك علق نيكلسون(٣) على مأساة كربلاء بهذه الكلمات فقال : « يعتبر

---

(١) تاريخ الدولة الفاطمية للمؤلف ص ١٤ — ١٥ .

(٢) p. 87.

(٣) pp. 197—198.

جميع المؤرخين الإسلاميين الذين يكادون يجمعون — مع استثناء القليل النادر منهم — على بغض الأمويين والعداء لهم ، ويعتبرون الحسين بن على شهيدا فى الوقت الذى يعتبرون يزيد بن معاوية سفاكا ؛ على حين يرى جمهرة المؤرخين المحدثين رأى سير وليم ميور الذى يذهب إلى أن الحسين « بانسياقه إلى تدبير الخيانة سهيا وراء العرش ارتكب جريمة هددت كيان المجتمع وتطلبت من أولى الأمر (فى الدولة الأموية) التعجيل بقمعها .

وكان هذا بطبيعة الحال وجهة نظر الفريق الذى كان بيده النفوذ والسلطان . وأما حكم التاريخ فى هذا الموضوع — إذا تصدينا لبحثه وتمحيصه — فلن يعدو أن يكون حكم الدين على الملكية أو قضاء الحكومة الدينية على الدولة العربية وعلى هذا الأساس يحكم التاريخ بحق بإدانة الأمويين على أنه يجمل بنا أن نذكر أن انفصال الدين عن الحكومة لا وجود له فى نظر المسلمين . وقد اتخذ بنو أمية من يوم كربلاء سبباً كافياً يدعوهم إلى أن يندموا على ما فرطت أيديهم ، إذ أن هذا اليوم وحد صفوف الشيعة فصاحوا صيحة واحدة : الأخذ بثأر الحسين ، هذا النداء الذى دوى فى كل مكان وعلى الأخص عند الموالى من الفرس الذين تاقوا إلى الخلاص من نير العرب .

هذه العبارات تصف حال الأمة العربية وصفاً دقيقاً فى ذلك الحين، حتى أن العداء بين الأمويين و العلويين غدا شديد الخطر بعد مقتل الحسين وقتل كثير من ذوى قرباه .

اشتد شعور العداء بعد مقتل الحسين وتفاقم سخط سائر المسلمين وحنقهم على بنى أمية وولاتهم . وفى عهد مروان بن الحكم غلا مرجل هذا العداء وتحركت الشيعة بالكوفة سنة ٦٥ هـ ، فتلاقوا وندموا على ما فرطوا فى حق الحسين وخذلانهم إياه وعدم إغاثتهم له حتى قتل بينهم ، وتابوا عما فعلوا ، فسموا التوابين . ثم تحالفوا على بذل نفوسهم وأموالهم فى الأخذ بثأره ومقاتلة قتلته ، وإقرار الحق فى نصابه بتنصيب رجل من أهل البيت ، وأمروا عليهم رجلا منهم اسمه سليمان بن صرد ، ثم دعوا الناس للأخذ بثأر الحسين ، ونظموا القصائد فى رثائه والتحريض على القتال .

اجتمع التوابون وساروا حتى وصلوا إلى عين الوردة (٦٥ هـ) ، حيث اشتبكوا بعبيد الله بن زياد الذى أرسله مروان بن الحكم للاستيلاء على العراق ، ثم أقره عبد الملك بن مروان عليها ، ولحق بالشيعة كثير من أهل البصرة والمدائن ، ولما تلاقى الجيشان ، حلت الهزيمة بالشيعيين بعد أن أبلوا بلاء حسناً وقتل رئيسهم سليمان بن صرد وفر المنهزمون إلى بلادهم (١) .

(د) المختار بن أبي عبيد :

ظهر المختار بن أبي عبيد الثقفى فى ميدان السياسة سنة ٦٦ هـ . وكان ذا أطماع كبيرة ؛ تقلب كثيراً فى الأحزاب . واتصل أخيراً بعبد الله بن الزبير وأراد أن يكون وزيراً له . ولكن ابن الزبير كان قليل الثقة به لما أبداه من التقلب : فقد كان أموياً ثم زبيرياً . ولما لم يجد من ابن الزبير ما كان يؤمله رجع إلى الكوفة وانضم إلى الشيعة ، واستغل ثورة التوابين لنيل أغراضه ومراميه ضد ابن الزبير والأمويين ، واستتر وراء ابن الحنفيه وادعى أنه أميره ووزيره ، وذلك لتنفيذ أغراضه والوصول إلى الخلافة ،وبذلك وقف فى وجه كل من ابن الزبير وعبد الملك ابن مروان ، وانضوت الشيعة تحت لوائه ، وساعده على ذلك امتناع ابن الحنفيه عن الدخول فى الدعوة التى قام بها ابن الزبير فى مكة .

أما ما كان من أعمال المختار الحربية ، فإنه بعد أن انضمت إليه فلول جيش التوابين والموالى الذين تعلقوا بحب آل البيت ، وثب على عامل الكوفة من قبل ابن الزبير فطرده . ولما أتيحت له الفرصة أرسل إلى الكوفة جيشاً بقيادة إبراهيم ابن الأشتر لقتال ابن زياد والأخذ بثأر الحسين بعد أن عجز التوابون عن الأخذ بالثأر .

سار إبراهيم حتى لقى ابن زياد ومن معه من أهل الشام على نهر الخازر(٢) . فدارت الدائرة على ابن زياد وقتل هو وكثير من أشراف أهل الشام وحمل رأسه إلى المختار ، فبعث به إلى ابن الزبير بمكة . وكان من أثر انتصار المختار على ابن زياد أن ازداد تعلق الشيعة به والتف حوله كثير منهم .

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ٧٣ — ٧٩ .

(٢) بفتح الزاى وكسرها وبعدها راء : هو نهر بين إربل والموصل ثم بين الزاب الأعلى والموصل ويصب فى دجلة .

ولما استفحل أمر المختار عمل ابن الزبير على الإيقاع به . فأرسل إليه جيشاً بقيادة أخيه مصعب بعد أن ولاه العراق . وقد عمل مصعب على استخلاص هذه البلاد من المختار . فوقعت بالقرب من الكوفة سنة ٦٧ هـ حرب كان النصر فيها حليف مصعب بعد أن قتل المختار وسبعة آلاف من أتباعه الذين طالبوا بدم الحسين ، واستولى مصعب بن الزبير على الكوفة .

وقد ظل عبد الملك فى الشام يرقب الحوادث ، فترك عبد الله بن الزبير يقاتل الشيعة والخوارج دون أن يتعرض لهم . ولا شك أنه كان يرمى بسياسته هذه إلى إضعاف قوة ابن الزبير ، فلم يكد مصعب يفرغ من قتال المختار حتى خرج إليه عبد الملك بن مروان بعد أن هادن إمبراطور الروم حين أغار على المصيصة سنة ٧٠ هـ حتى لا ينتهز فرصة انشغاله بقتال ابن الزبير فيغير على بلاد الشام . وبعث إليه عبد الملك الأموال والهدايا وصالحه على أن يؤدى إليه نحو خمسين ألف دينار فى كل عام . غير أنه عاد فقطعها عندما انقشعت سحب الصعاب التى كانت تحيط به . ولما وثق عبد الملك من أن الروم لن يغيروا على بلاده فى أثناء محاربته ابن الزبير ، سار من الشام إلى العراق بحذاء الفرات .

وانتهز عمرو بن سعيد بن العاص فرصة انشغال عبد الملك بحرب ابن الزبير فى العراق وشق عصا طاعته ودعا الناس إلى بيعته فى دمشق ، فلم ير الخليفة الأموى بدآ من العودة إلى دمشق ، وما زال بعمرو حتى ثناه عن رأيه بعد أن مناه ولاية العهد(١) .

وقد عرف عمرو بن سعيد بالفصاحة والبلاغة والشهامة والإقدام ، وكان يرى أحقيته بالخلافة دون عبد الملك . فكتب إليه عبد الملك : « إنك لتطمع نفسك بالخلافة ولست لها بأهل » ، فرد عليه عمرو يهدده ويتوعده فى كتاب ينم عن الازدراء والاستهتار(٢) .

(هـ) الكيسانية :

فت إباء محمد بن الحنفية عن الدخول فيما قام به عبد الله بن الزبير فى عضد هذه

(١) اليعقوبى ج ٢ ص ٣٠٤ .

(٢) المسعودى ج ٢ ص ١١٦ — ١١٧ .

الدعوة وهيأ للمختار فرصة سانحة لتكوين حزب شيعي جديد هو حزب الكيسانية . بيد أن الجهود التي بذلها المختار لم تلق عطف ابن الحنفية وتأييده ، لأنه لم يكن يثق بأهل الكوفة الذين خذلوا أباه وأخويه من قبل :

قامت ثروة المختار في خلافة عبد الملك بن مروان . وقد قارن فان فلوتن بين مذهب السبئية ومذهب الكيسانية فقال : « يظهر أن عقيدة السبئية بنيت على الرأي القديم القائل بتجسد الألوهية : وزاد هذا المؤرخ أن السبئية يختلفون عن الحزب الشيعي الآخر وهو حزب الكيسانية الذي ظهر في بادىء أمره بالكوفة تحت زعامة المختار حين سار بها (١) . وعلى الرغم من عقيدتهم الأصلية وهي القول بإمامة محمد بن الحنفية بعد أبيه علي ، يغالي الكيسانية في اعتقادهم بإحاطة الأئمة بالعلوم الإلهية ، فيذهبون إلى أن ابن الحنفيـــة هو الإمام ، ويعتقدون أنه أحاط بالعلوم كلها (٢) ، وأن أخويه الحسن والحسين قد عهدا إليه بالأسرار وبعلم التأويل والباطن (٣) . وانتهى اعتقاد الكيسانية بوجوب انفراد الإمام بتأويل الشريعة إلى القول بضرورة طاعته ، إذ أن طاعته لم تكن إلا طاعة للقانون الإلهي (وهذا ما يميزهم عن غيرهم من المعتدلين من الشيعة) .

ويعتقد الكيسانية في البداء ، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى يغير ما أراد ، وفي تناسخ الأرواح ، وهو خروج الروح من جسد وحلولها في جسد آخر ، وفي الرجعة ، أي رجعة محمد بن الحنفية ، كما يعتقدون بنبوة علي والحسن والحسين وابن الحنفية . على أنهم يختلفون في أن ابن الحنفية ورث الإمامة عن علي مباشرة أو عن طريق أخويه الحسن والحسين . ويقول النوبختي (٤).

---

(١) ذكر الشهرستاني (ج ٢ ص ١٢) أن الكيسانية بنوا معتقداتهم على معتقدات المجوس المزدكية (ظهرت هذه الطائفة في بلاد الفرس قبل ظهور الإسلام في القرن الخامس الميلادي ، "والبراهمة في الهند ، والفلاسفة القدماء والصابئة .

(٢) قيل إن ابن الحنفية تبرأ من هذا الاعتقاد وحذا حذوه غيره من الأئمة ، قال فان فلوتن وهنا يسأل المرء بأي مظهر من مظاهر الترحاب قابل الأئمة هذه المعتقدات المغرقة في الغلو التي كانت أشخاصهم السبب في ظهورها .

(٣) الشهرستاني : الملل والنحل ج ٢ ص ١٩٦ — ١٩٨ .

(٤) كتاب فرق الشيعة ص ٢٠ — ٢١

« وفرق قالت بإمامة محمد بن الحنفية ، لأنه كان صاحب راية أبيه يوم البصرة دون أخويه ، وادعى (المختار) أن محمد بن الحنفية أمره بذلك وأنه الإمام بعد أبيه . وكان يقول إن محمد بن الحنفية وصى على بن أبى طالب ، وأنه الإمام المختار قيمه وعامله » .

أما عن الرجعة فقد أنكر جماعة من الكيسانية موت ابن الحنفية ،واستفزتهم الأخبار التى ذاعت عن موته ، فاعتقدوا أنه يقيم فى جبل رضوى على مسيرة سبعة أيام من المدينة(١) . وأن عودته ستكون من هذا المكان . وقد نظم كثير عزة والسيد الحميرى أشعاراً كثيرة فى هذا الإعتقاد حتى غدا هذا النوع من الشعر يعرف بالشعر الكيسانى . يقول كثير عزة المتوفى سنة ١٠٥ (٧٢٣ م) .

ألا إن الأئمة من قريش ... ولاة الحق أربعة سواء
على والثلاثة من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر ... وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى ... يقود الخيل يتبعها اللواء
تغيب لا يرى عنهم زماناً ... برضوى (١) عنده عسل وماء

ويقول الشهرستانى (١ : ١٩٦) : « إن جميع الكيسانية يعتقدون أن الدين طاعة رجل ، وأن طاعتهم ذلك الرجل تبطل ضرورة التمسك بقواعد الإسلام كالصلاة والصوم والحج وهكذا » .

وقد تكلم فان فلوتن(٢) عن الإمام حسب معتقدات السبئية والكيسانية فقال : « إن السبئية ، وإن كانوا يعتبرون إمامهم شخصاً مقدساً بطبيعته ، فإن الكيسانية يبذلون له الطاعة باعتباره رجلا رفيع المنزلة محيطاً بعلوم ما وراء الطبيعة » .

هذا موجز عما بثه المختار بن أبى عبيد فى نفوس الشيعة الكيسانية من عقائد وبدع لا يخفى على القارىء بطلانها وبعدها عن تعاليم الدين الإسلامى .

---

(١) هو جبل قرب ينبع منيف ذو شعاع وأودية وبه أشجار ومياه كثيرة حتى ليرى من ينبع أخضر اللون .

(٢) السياده العربية ، ترجمة المؤلف ص ٨٢ .

(و) خروج زيد بن على زين العابدين :

وفى عهد هشام خرج زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على . وكان يحدث نفسه بالخلافة ، ويرى أنه أحق بها حتى كانت أيام هشام بن عبد الملك . ذكر المسعودى (مروج ج ٢ ص ١٨١) أن زيداً دخل على هشام ، فلم يحفل به هو ولا رجال بلاطه ، فجلس حيث انتهى به مجلسه فقال: يا أمير المؤمنين ! ليس أحد يكبر عن تقوى الله ولا يصغر دون تقوى الله، فانتهره هشام وقال له : أنت الذى تنازعك نفسك فى الخلافة وأنت ابن أمة ، واتهمه هشام بوديعة لخالد ابن عبد الله القسرى أمير الكوفة ، فبعث به يوسف بن عمر الثقفى والى العراق من قبل هشام ، فاستحلفه أنه ليس عنده مال لخالد فخلى سبيله (١) .

فلما عاد زيد إلى المدينة تبعه زهاء خمسة عشر ألفاً من أهل الكوفة ، وقيل أربعون ألفاً ، وحرضوه على الخروج . ولما ظهر أمره حاربه يوسف بن عمر فتفرق أصحاب زيد عنه ، وخذلوه ، وحارب فى نفر قليل فأصابه سهم فى جبهته فمات من ساعته ، ودفنه أصحابه فى ساقية وأجروا الماء على قبره خوفاً أن يمثل به. وقد دل بعض العبيد يوسف على جثة زيد ، فنبش القبر وأخرجها وصلبها ، ثم حرقها وذر رمادها فى الفرات (٢) .

وإلى زيد ينسب جماعة الزيدية التى تفرعت منها جماعة الرافضة. ويرجع السبب فى تسميتهم « الرافضة » إلى أن زيداً لما اشتبك مع يوسف بن عمر الثقفى قالوا له: « إننا ننصرك على أعدائك بعد أن تخبرنا برأيك فى أبى بكر وعمر اللذين ظلما جدك على بن أبى طالب » . فقال زيد : «إنى لا أقول فيهما إلا خيراً وما سمعت أبى يقول فيهما إلا خيراً . وإنما خرجت على بنى أمية لأنهم قتلوا جدى الحسين وأغاروا على المدينة يوم الحرة ، ثم رموا بيت الله بحجر المنجنيق والنار » . ففارقوه عند ذلك حتى قال لهم رفضتمونى ، فأطلق عليهم الرافضة .

انقسمت الزيدية بعد موت زيد إلى طوائف عدة،فظل فريق منهم على ولائه لزيد ، وبايعوا ابنه يحيى وقاتلوا معه فى خراسان سنة ١٢٥ هـ (٧٤٣ م) ، إلا أنه

---

(١) الفخرى ص ١١٩ — ١٢٠

(٢) تاريخ الدولة الفاطمية للمؤلف ص ٢٨ — ٢٩

أمره قد آل إلى ما آل إليه أمر أبيه من قبل ، إذ أصابته نشابة فمات ، وحز رأسه وصلب ، ثم أحرق حتى صار رمادا تذروه الرياح (١) .

(ز) عقيدة المهدى :

يقول فان فلوتن : « إن الاعتقاد بظهور المهدى وانتظاره لم يقتصر فى بادىء الأمر على آل البيت وحدهم ، بل إن ذلك الاعتقاد بدأ يذاع وينتشر بين المسلمين بحسب ازدياد نفوذ الشيعة وانتشاره (٢) . وقد انتشرت فكرة المهدى المنتظر عند أهل السنة ، حتى محت ذكر غيره من المهديين الذين كان بعض يتنبأ بهم : مثل السفيانى المنتظر والقحطانى المنتظر وغيرهما . ولاشك أن التنبؤ بهؤلاء وانتظارهم لم يتلاش تماما فى نفوس المسلمين ، وإنما صاروا بالنسبة إلى المهدى المنتظر كالدجال بالنسبة إلى عيسى بن مريم . لذلك كان من المعقول أن يظهر عليهم ذلك المهدى . ويهزمهم هزيمة حاسمة ، وينتصر عليهم انتصارا مبينا » (٣) .

وكان البون شاسعاً بين تلك السعادة التى كان ينشدها الناس على يد المهدى المنتظر ، وتلك الآلام التى كانوا يعانونها فى ذلك الحين ، حيث الحروب الأهلية التى اشتعلت بسبب انقسام خلفاء بنى أمية على أنفسهم ، وبسبب تلك الإحن والأحقاد القديمة التى تفاقمت بين مضر وقحطان ، تلك الحروب التى أنزلت الخراب ببلاد الشام حيث اندلع لهيبها أول الأمر ، ثم تطاير شررها إلى غيرها من الولايات الإسلامية .

وقد ساد الاضطراب كافة أنحاء الدولة الأموية ، واستولى على العرب من

---

(١) كانت الزيدية ثمانى فرق : الأولى الجارودية وهم أصحاب أبى الجارود زياد بن المنذر العبدى ، وذهبوا الى أن الإمامة مقصوره فى ولد الحسن والحسين دون غيرهما ، الثانية : المرتدية ، الثالثة : الأبريقية ، الرابعة : اليعقوبية وهم أصحاب يعقوب بن على الكوفى ، الخامسة : العقبية ، السادسة : الأبترية وهم أصحاب كثير الأبتر والحسن بن صالح بن جنى ، السابعة : الجريرية وهم أصحاب سليمان بن جرير ، الثامنة : اليمانية وهم أصحاب محمد بن اليمانى الكوفى ، وقد علا هؤلاء فى المذهب وفرعوا مذاهب على ماسلف من أصولهم — أبو الحسن النوبختى : كتاب فرق الشيعة ص ١٩ ، ٤٩ ، ٥٠ — ٥١ .

(٢) ذكر بعض المؤرخين أن الناس كانوا يلقبون كلا من موسى بن طلحة وعمر ابن عبد العزيز بالمهدى .

(٣) فان فلوتن : السيادة العربية ، ترجمة المؤلف ص ١٢١ — ١٢٢ .

جديد الميل إلى الحرب والكفاح . فرفع الشيعة والخوارج رءوسهم ، وظلت الحاميات السورية وحدها على ولائها للعرش الأموى . على حين كان المرابطون من الجنود العربية يشايعون أعداء الحكومة ، حتى كادت تلك الفتن تقضى على ذلك التراث الذى خلفه النبى صلى الله عليه وسلم ، وتودى بذلك الإصلاح الذى قام به كل من أبى بكر وعمر . وهكذا كان ذلك العصر عصراً محزناً ملأ قلوب التقاة من المسلمين تشاؤما بالمستقبل .

وتصف لنا هذه الأبيات التى نظمها عباس بن الوليد حرج الدولة الأموية وما وصل إليه الخلفاء الأمويون من يأس وقنوط .

إنى أعيذكم بالله من فتن مثل الجبال تسامى ثم تندفع
إن البرية قد ملت سياستكم فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
لاتلحمن (١) ذئاب الناس أنفسكم إن الذئاب ما ألحمت رتعوا
لاتبقرن بأيديكم بطونكم فثم لاحسرة تغنى ولا جزع (٢)

يقول فان فلوتن (٣) : هل كان الناس يعتقدون إزاء تلك الحالة السيئة بقرب ظهور المهدى (المخلص) ؟ كل ذلك ممكن ، بل من المحتمل جداً أن هذا الأمل كان العزاء الوحيد للتقاة من المسلمين (أهل السنة) . ومع ذلك فلا ندهش إذا رأينا نبوءة أخرى تشغل الأذهان فى ذلك الحين . لذلك كان من الضرورى ظهور رجل يهدم كل قديم ويأتى عليه ليعبد السبيل لذلك المهدى المنتظر . وهكذا ظهرت بجانب تلك النبوءات القديمة نبوءة أخرى هى نبوءة الرجل ذى الأعلام السود ٤) الذى يخرج من المشرق ويزيل عرش بنى أمية (٥) .

---

(١) (بضم التاء والميم) لاتطعموا .
(٢) الطبرى (طبعة دى غوبة) ٢ : ١٧٨٨ .
(٣) السيادة العربية (ترجمة المؤلف) ص ١٢٣ — ١٢٥ .
(٤) كان البياض شعار الأمويين إلى ذلك الحين فاتخذ العباسيون السواد شعاراً لهم حداداً على الشهداء من آل البيت .
(٥) انظر المبرد : كتاب الكامل ص ٥٨٥ . الطبرى (طبعة دى غويه) (٢ : ١٩٢٩ وما يليها .

على أن دعوى الحارث هذه لم تصادف شيئا من النجاح . فقد ظلت الحكومة وأنصارها من العرب اليمنيين القحطانية صاحبة النصر والظفر . بيد أن ذلك الأمل الذى كان الحارث بن سريج أول بعثه فى النفوس لم يخب بعد ، كما كان العامل الوحيد الذى جذب إلى الدعوة العباسية جميع هؤلاء الذين كانوا يشاطرون الحارث ميوله وآراءه السياسية . وليس بعيداً أن يكون الحارث قد اعتمد فى دعوته هذه على هذا الحديث المشهور الذى رواه أبو داود(١) : « يخرج رجل من وراء النهر يقال له الحارث حراث ، على مقدمته رجل يقال له منصور ، يوطىء أو يمكن لآل محمد ، كما مكنت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجب على كل نصره » . ولم يلبث هذا الحديث — إن صح — أن أصبح نبوءة من تلك النبوءات التى وردت فى كتب التكهن .

حزب الزبيريين

(١) نشأة حزب الزبيريين :

يرى كثير من المؤرخين أن نشأة هذا الحزب ترجع إلى الوقت الذى دعا فيه عبد الله بن الزبير إلى نفسه بمكة سنة ٦٣ هـ . على أننا نرى أن نواة هذا الحزب قد ظهرت بعد الفتنة التى أدت إلى قتل عثمان وخروج طلحة والزبير وعائشة على على بن أبى طالب .

فقد اتخذ عبد الله بن الزبير من تأمير عثمان له على داره سببا كافيا لأحقيته بالخلافة ، لأن استخلاف عثمان له دون أصحابه الذين كانوا معه يدل على كفاءته ومقدرته على القيام بمهام الأمور . وقد استند فى ذلك إلى تأمير الرسول أبا بكر للصلاة وهو فى مرضه الأخير بما عده المسلمون كافيا لإسناد الخلافة إليه . فلا عجب إذا صار ابن الزبير يتحين الفرص من ذلك الوقت للوصول إلى الخلافة .

وكان عبد الله بن الزبير فى عهد على يرى أحقيته بالخلافة ، ويعمل على تحقيق أغراضه . فأوقع بين معاوية وبين على الذى وقف على ما تنطوى عليه أغراضه ، فخاطب أباه الزبير فى شأن ابنه عبدالله وقال له : « لقد كنا نعدك من بنى عبد المطلب

---

(١) كتاب السنن ج ٢ ص ١٣٥ .

حتى يلغ ابنك ابن السوء ففرق بيننا »(١) . كما عمل عبد الله بن الزبير على تقوية حزب الزبير وطلحة وعائشة طمعا فى الخلافة . ولا غرو فقد كان يد هذا الحزب ولسانه الناطق ، وكان لا يألو جهداً فى جمع كلمته . ولا عجب فقد كان عبد الله ربيبا فى بيت خالته عائشة أم المؤمنين التى كانت تسعى لتحول الخلافة إليه . وقد قيل إن مروان بن الحكم لما سار إلى طلحة والزبير وقال لهما : على أيكما أسلم بالإمرة وأؤذن بالصلاة ، أرسلت إليه عائشة رسولا يقول له : «فليصل بالناس ابن أختى(٢) » ، تريد عبد الله بن الزبير .

وقد بينا كيف ثنى عبد الله بن الزبير عزم خالته عائشة عن العودة إلى المدينة حين نبحتها كلاب الحوأب ، وكيف ألح على أبيه الزبير بالعدول عن رأيه حين هم بالانصراف والعودة إلى المدينة ، ورماه بالجبن حتى كفر عن يمينه وخاض غمار الحرب(٣) .

على أننا لا نعلم أن ابن الزبير قد عارض معاوية قبل توليته يزيد العهد أو أنه خالفه فى شىء ، بل العكس نراه جنديا من جنود معاوية يشترك مع الجيوش فى محاربة الأعداء . فكان فى الجيش الذى سار لغزو القسطنطينية سنة ٥٠ ﻫ بقيادة يزيد بن معاوية . ولا ريب أن معاوية كان يلمح فى ابن الزبير ناحية المعارضة ، فكان يترضاه ويتودد إليه ويحسن وفادته ويغدق عليه العطايا والمنح وطالما كان يقول له : « مرحبا يابن عمة رسول الله وابن حوارى رسول الله ويأمر له بمائة ألف » . وليس ذلك ببعيد على معاوية الذى عرف بالمكر والدهاء .

ومهما يكن من شىء فقد كمن ابن الزبير فى عقر داره طوال عهد معاوية تقريبا . ولعل هزيمة حزب طلحة والزبير وعائشة فى موقعة الجمل كان لها أثر فى انزوائه وعدم معارضته . على أنه لم يظل طويلا على هذه الحال من الجمود والاستكانة ، فإنه لما علم بتولية يزيد العهد هب من سباته وقاد حزب المعارضة الذى وقف فى وجه معاوية ، وعمل على إحباط مساعيه فى هذه السبيل .

---

(١) ابن الأثير ج ٣ ص ٢٠٢ .

(٢) المصدر نفسه ج ٤ ص ٨٨ .

(٣) المصدر نفسه ج ٣ ص ٢٠١ .

تطورت دعوة ابن الزبير بعد موت معاوية بن أبى سفيان ، فقد خلا له الجو بعد مقتل الحسين بن على — على ما تقدم — فدعا إلى نفسه سنة ٦٣ هـ ، وصادفت دعوته نجاحاً عظيماً فى بلاد العرب والعراق . على أن امتناع محمد بن الحنفية بن على عن مبايعة ابن الزبير — وكان قد بايع يزيد بن معاوية — قد فت فى عضد ابن الزبير وساعد على ظهور حزب الكيسانية بزعامة المختار بن أبى عبيد الذى قام فى الكوفة بعد مقتل الحسين .

وعلى الرغم من ذلك كله استطاع حزب الزبيريين أن يعكر صفو الأمويين ردحاً من الزمن . وكانت هناك عوامل عدة ساعدت إلى إثارة المسلمين على بنى أمية وأتاحت الفرصة لظهور هذا الحزب . ومن هذه العوامل :

١ — تحول الخلافة من طريق الشورى والانتخاب إلى طريق التعيين والوراثة . ومن الحكم الجمهورى إلى الحكم الملكى ، ذلك النظام الذى جرى عليه الأكاسرة والقياصرة ، وما أذاعه أعداء الأمويين عن صفات يزيد الخلقية مما حط قدره وباعد بينه وبين أحقيته بالخلافة فى نظر المسلمين .

٢ — وقوع الحوادث الجسام فى عهد يزيد ولا سيما مقتل الحسين بن على ، وغزو مكة والمدينة . فقد اتخذ عبد الله بن الزبير من هذه الحوادث وسيلة لإثارة شعور المسلمين على بنى أمية والدعوة لنفسه بالخلافة فى الحجاز .

٣ — معاملة ولاة بنى أمية أهالى الولايات بالقسوة والعنف حتى كرهوا حكم الأمويين وانضموا إلى أعدائهم .

٤ — ما عرف عن عبد الله بن الزبير من الصلاح والتقوى والتمسك بالدين حتى إنه اكتسب محبة المسلمين وظفر بتأييدهم .

(ب) الدعوة لابن الزبير :

وسرعان ما ظهر أمر ابن الزبير بمكة . روى الطبرى عن هشام عن أبى مخنف فى خطبة لعبد الله بن الزبير أنه قال عن أهل العراق بعد مقتل الحسين : « إنهم دعوا حسيناً لينصروه ويولوه عليهم . فلما قدم عليهم ساروا إليه وقالوا له : إما أن تضع يدك فى أيدينا فنبعث بك إلى ابن زياد بن سمية سلماً فيمضى فيك حكمه ، وإما أن تحارب . فرأى والله أنه هو وأصحابه قليل فى كثير ، وإن كان

الله عز وجل لم يطلع على الغيب أحداً أنه مقتول ، ولكنه اختار الميتة الكريمة على الحياة الذميمة . فرحم الله حسينا وأخزى قاتل حسين . لعمرى لقد كان من خلافهم إياه وعصيانه ما كان فى مثله واعظ وناه عنه ، ولكنه ما حم نازل (ما قدر يكون) ، وإذا أراد الله أمراً لن يدفع . أفبعد الحسين تطمئن إلى هؤلاء القوم ونصدق قولهم ونقبل لهم عهدا ؟ لا ! ولا نراهم لذلك أهلا . أما والله لقد قتلوه طويلا بالليل قيامه ، كثيرا فى النهار صيامه ، أحق بما هم فيه منهم ، وأولى به فى الدين والفضل . أما والله ما كان يبدل بالقرآن الغناء ، ولا بالبكاء من خشية الله الحداء ، ولا بالصيام شرب الحرام ، ولا بالمجالس فى حلق الذكر الركض فى طلاب الصيد (يعرض بيزيد) . فسوف يلقون غيا » . فثار إليه أصحابه فقالوا : أيها الرجل ! أظهر بيعتك فإنه لم يبق أحد إذ هلك حسين ينازعك هذا الأمر (وقد كان يبايع الناس سرا ويظهر أنه عائذ بالبيت) فقال لهم : لا تعجلوا ! وعمرو بن سعيد بن العاص يومئذ عامل مكة ، وقد كان أشد شىء عليه وعلى أصحابه ، وكان مع شدته عليهم يدارى ويرفق . فلما استقر عند يزيد بن معاوية ما قد جمع ابن الزبير من الجموع بمكة ، أعطى الله عهدا ليوثقنه فى سلسلة . فبعث بسلسلة من فضة ، فمر بها البريد على مروان بن الحكم بالمدينة ، فأخبر ما قدم له بالسلسلة ، وبالسلسلة التى معه . ثم مضى من عنده حتى قدم على ابن الزبير فأتى ابن الزبير فأخبره بمر البريد على مروان فقال ابن الزبير : لا والله لا أكون أنا ذلك المتضعف ، ورد ذلك البريد رداً رفيقاً . وعلا أمر ابن الزبير بمكة وكاتبه أهل المدينة ، وقال الناس : « أما إذ هلك الحسين عليه السلام ، فليس أحد ينازع ابن الزبير »(١)

استطاع ابن الزبير أن يثير أهل المدينة على ولاة يزيد حتى ثاروا وطردوا عامله (٦٣ هـ) . وقد بينا ما ترتب على هذا من حصار مسلم بن عقبة المرى لها من ناحية الحرة وفتحها وإباحتها ، وما تلا ذلك من حصار الحصين بن نمير مكة حيث دعا ابن الزبير إلى نفسه ، ونشوب القتال بينهما وإحراق الكعبة. ثم توفى

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ٢٧٣ — ٢٧٤ .

يزيد بن معاوية ، وانقسم الأمويون على أنفسهم وكادت تضيع الخلافة من أيديهم. واتسع نطاق الدعوة لابن الزبير بعد موت معاوية الثانى فى الحجاز والعراق واليمن ومصر ، وانضم فريق من أهل الشام إليه : انضم إليه أهل مكة والمدينة عدا عبد الله بن العباس ومحمد بن الحنفية ، إذ كانا يعتقدان أن بنى هاشم أحق بالخلافة. ودعا إلى ابن الزبير سلمة بن حنظلة التيمى فى البصرة(١) . كما دخل أهل الكوفة فى طاعته ، ثم تبعهم سائر أهل العراق بعد أن نقضوا بيعة عبد الله بن زياد الذى أقام نفسه نائب خليفة بعد موت يزيد وبايعوه بيعة مؤقتة .

أما فى بلاد الشام فإن دعوة ابن الزبير لم تظهر إلا بعد موت معاوية بن يزيد حيث انقسم أهل هذه البلاد إلى أمويين وزبيريين . يقول ابن عبد ربه (٢) : « فلما مات معاوية بن يزيد بايع أهل الشام كلهم ابن الزبير إلا أهل الأردن . وبايع أهل مصر أيضاً ابن الزبير ، واستخلف ابن الزبير الضحاك بن قيس الفهرى على أهل الشام » .

سار عبد الملك لقتال مصعب بن الزبير بعد أن صالح القيسيين . فلما علم مصعب بمسيره إلى الكوفة أخذ يستعد لملاقاته . ولم يستطع جند مصعب الوقوف أمام جند عبد الملك ، لأن جزءاً كبيراً من جيشه — وعلى رأسهم المهلب بن أبى صفرة — قد نهكته محاربة الخوارج : أضف إلى ذلك سخط الشيعة عليه لقتله المختار بن أبى عبيد .

وقد أرسل عبد الملك قواد مصعب وأعيان الكوفة ومناهم الأمانى حتى أفسدهم عليه ، إلا إبراهيم بن الأشتر . فإنه أعطى مصعب الكتاب الذى بعث به عبد الملك إليه . يقول ابن قتيبة (٣) : « فكلهم أخفى الأمر عن مصعب إلا إبراهيم ابن الأشتر ، فإنه لما جاءه كتاب عبد الملك أخذه وأعطاه لمصعب فوجده يمنيه بولاية العراق . وأخبره خبر القواد وأنهم أخفوا كتب عبد الملك وطلب من مصعب أن يقتلهم حتى لا يفسدوا الجيش ، فأبى مصعب ثم رجا منه حبسهم حتى يتبين الأمر ، فأبى ذلك عليه أيضاً » .

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ٢٠ . ابن الأثير ج ٤ ص ٥٦٤ .
(٢) العقد الفريد : ج ٣ ص ١٤٥ . (٣) الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٢٠ .

من ذلك نرى أن مصعب بن الزبير لم يتمتع بإخلاص جنده الذين استمالهم عبدالملك إليه بالأماني ، كما نرى قصر نظر مصعب الذى سمح لهؤلاء الساخطين عليه بالبقاء فى جيشه وعدم أخذه برأى إبراهيم بن الأشتر بعد أن أطلعه على الحقيقة .

وكان لهذه السياسة أثرها ، فتفرق أصحاب مصعب عنه وترك فى عدد قليل . وعلى مقربة من باخمرا (١)، نشب القتال بين الفريقين ، فقتل مصعب بعد أن أبلى بلاء حسنا وهزم من كانوا معه ، ودخل عبدالملك الكوفة ، فبايعه أهلها سنة ٧١ هـ، وولى على البصرة والكوفة عمالا من قبله (٢) .

بذلك صفا الجو لعبد الملك فى العراق ، ولم يبق فى يد عبد الله بن الزبير إلا بلاد الحجاز ، فلما توطدت سلطته فى العراق أعد جيشاً كثيفاً بقيادة الحجاج بن يوسف للقضاء على ابن الزبير .

خرج الحجاج إلى الطائف ، ومنها إلى المدينة حيث انضم إليه عاملها ومن معه من الجند ، ثم سار إلى مكة وحاصرها . وضرب الكعبة بالمجانيق ، وأرغم أهلها على طلب الأمان ، فانضم بعض أتباع ابن الزبير وغيرهم من ذوى قرباه إلى الحجاج ، وبقى عبد الله فى عدد قليل من أنصاره (٣).

على أن عبد الملك لم يرد أن يحط شأن الكعبة ، وإنما اضطر إلى قتال ابن الزبير ، فحدث ما حدث عن غير قصد . وذلك أن الحجاج لما نصب المجانيق على الكعبة جعل هدفه الزيادة التى زادها ابن الزبير فى الكعبة ، إذ كان الأمويون يعتبرون ذلك بدعا فى الدين .

خرج عبد الله بن الزبير بعد ذلك وقاتل أهل الشام قتالا شديداً ، وأظهر شجاعة نادرة حتى حمل عليه العدو وقتلوه فى جمادى الآخرة سنة ٧٣ هـ .

(ﻫ) عوامل انحلال حزب الزبيريين :

جعل عبد الله بن الزبير مقر حكومته فى الحجاز ، وكان الحجاز بعد أن

---

(١) بين الكوفة وواسط ، وتبعد عن الكوفة بسبعة عشر فرسخا .

(٢) الطبرى ج ٧ ص ١٨٧ — ١٨٨ .

(٣) ابن الأثير ج ٤ ص ١٤٧ — ١٤٨ .

انصرفت عنه العناصر السياسية إلى الشام والعراق مأوى الطبقة الأرستقراطية التى مالت إلى حياة اللهو والمجون لتدفق الثروة عليها . لذلك لم تلق دعوة ابن الزبير نجاحا فى تلك البلاد .

ويظهر أن ابن الزبير كان متأثراً بهذه الفكرة القديمة ، وهى إعادة النفوذ والسيطرة إلى بلاد الحجاز كما كان فى عهد النبى وأبى بكر وعمر وعثمان ، حتى إنه لم يسر إلى بلاد الشام حيث دعاه الحصين بن نمير ليبايع له بعد وفاة يزيد بن معاوية ، فأبى ابن الزبير أن يغادر بلاد الحجاز .

أضف إلى ذلك تواكل عبدالله بن الزبير فى نشر الدعوة لنفسه ، فظل بالحجاز وترك أمر الدعاية إلى أنصاره كالضحاك بن قيس ، وزفر بن الحارث بالشام ، وأخيه مصعب بالعراق ، على حين كانت السياسة الحكيمة تقضى عليه بأن يتولى ذلك بنفسه فى الولايات الإسلامية الأخرى كالعراق ومصر .

وكان لظهور الشيعة والخوارج وقيامهم فى وجه ابن الزبير أثر كبير فى قتله : فقد توزعت قوته ، فاشتغل فريق من رجاله المحنكين بقتال حرب الخوارج ، وتعقب فريق آخر المختار ، وحارب فريق ثالث بنى أمية ، ولو أن هذه الفرق تجمعت على بنى أمية لما تمكن الأمويون من القضاء على الزبيريين .

أضف إلى ذلك ما اشتهر عن عبد الله بن الزبير من البخل . ذكر صاحب العقد الفريد (١ : ٢٠٩) أن مصعب بن الزبير لما قتل المختار بن أبى عبيد الثقفى وفد على أخيه عبدالله ومعه وجوه أهل العراق ، فقال : يا أمير المؤمنين ! جئتك بوجوه أهل العراق لم أدع لهم بها نظيرا لتعطيهم من هذا المال ، فقال له : جئتنى بعبيد أهل العراق لأعطيهم من مال الله والله لا فعلت . أما خلفاء بنى أمية فقد اجتذبوا الناس إليهم بالأموال الضخمة والعطايا ، والناس عبيد الدرهم والدينار كما يقولون .

ولا عجب إذا تفوق الأمويون على الزبيريين من ناحية الدعاية واجتذاب الناس إليهم ، حتى كثر الشعراء الذين لهجوا بمحامدهم وبثوا الدعاية لدولتهم رغبة فى الحصول على أموالهم وأعطياتهم التى كانو يبذلونها فى شىء كثير من السخاء ، حتى إنهم كانوا يفيضون على الشعراء وعلى القبائل التى ينتمى إليها هؤلاء الشعراء ،

على حين لا نجد أكثر من شاعر واحد أخلص للزبيريين وظل على ولائه لهم حتى بعد سقوط حزبهم . هذا الشاعر هو عبيد الله بن قيس الرقيات(١) الذى كان من أنصار عبد الله بن الزبير ، وكان مغاليا فى نصر الزبيريين .

انصرف الناس عن عبد الله بن الزبير وكاتبوا عبد الملك بن مروان وغدروا بمصعب ، وقد عرف فيه عبدالملك هذا البخل ، فتنبأ بأفول نجمه . وقال لمصعب عند ما طلب منه أن ينضم إليه ويترك أخاه : « والله إن فيه ثلاث خصال لايسود بها أبدا : عجب قد ملأه ، واستغناء برأيه ، وبخل التزمه . فلا يسود رجل فيه تلك الخصال . أضف إلى ذلك إخراج عبدالله بن الزبير بنى أمية من المدينة وتحامله على بنى هاشم وحطه من شأنهم ، وهدمه الكعبة لإصلاحها ، فاتخذ الحجاج بن يوسف من ذلك وسيلة لإثارة الناس عليه .

وبذلك سقط حزب الزبيريين بعد أن بسط سلطانه على الحجاز والعراق ومصر تسع سنين (٦٤ — ٧٣ هـ) ، ولم تقم له بعد ذلك قائمة .

وكان لهزيمة ابن الزبير مغزاها السياسى ، فإنها ليست هزيمة شخص أو حزب ولكنها هزيمة ذلك الإقليم الذى حمل لواء هذه النهضة مدة من الزمن . وكانت تلك المحاولة آخر المحاولات التى بذلها الحجاز لاسترداد نفوذه الأدبى والسياسى .

٧ — المرجئة

تكلمنا من قبل على طائفتين من أقدم الطوائف الإسلامية وهما : الخوارج أو الجمهوريون ، والشيعة أو الملكيون . وسنتكلم الآن على طائفة أخرى لا يقل أثرها فى توجيه السياسة الإسلامية عن هاتين الطائفتين ، وهى طائفة المرجئة التى ظهرت فى دمشق حاضرة الأمويين بتأثير بعض العوامل المسيحية خلال النصف الثانى من القرن الأول الهجرى .

---

(١) سمى ابن قيس الرقيات لأنه شبب بثلاث نسوة كان اسم كل منهن رقية . وهو شاعر قرشى يؤثر العصبية القرشية ويختص منها بحزب الزبيريين الذين اتصل بهم ومدحهم ودافع عنهم حتى قتل مصعب بن الزبير ثم أخوه عبد الله واختفى حزبهم من ميدان السياسة . أنظر ترجمته فى الأغانى (٥ : ٧٣ — ١٠٠) .

وقد سميت هذه الطائفة المرجئة ، من الإرجاء وهو التأخير ، لأنهم يرجئون الحكم على العصاة من المسلمين إلى يوم البعث(١) ، كما يتحرجون عن إدانة أي مسلم مهما كانت الذنوب التي اقترفها . ويرى فان فلوتن أن تسميه المرجئة ترجع إلى بعض أي القرآن ، وأنها مأخوذة من قوله تعالى . ﴿ وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم ﴾ (سورة التوبة ٩: ١٠٦) : ويرى نيكلسون أن المرجئة مشتقة من أرجأ بمعنى بعث الرجاء والأمل (٢) ، لأنهم كانوا يقولون إنه لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة .

وكانت العقيدة الأساسية عند المرجئة عدم تكفير أي إنسان أيا كان مهما ارتكب من المعاصي ، مادام قد اعتنق الإسلام ونطق بالشهادتين ، تاركين الفصل في أمره لله وحده .

وقد غلا جهم بن صفوان أحد رءوس المرجئة ، فزعم « أن الإيمان عقد بالقلب ، وإن أعلن الكفر بلسانه بلا تقية ، وعبد الأوثان أو لزم اليهودية أو النصرانية(٣) في دار الإسلام وعبد الصليب ، وأعلن التثليث في دار الإسلام ومات على ذلك ، فهو مؤمن كامل الإيمان عند الله عز وجل ، ولي الله عز وجل من أهل الجنة » وكان من الطبيعي أن تدفع مثل هذه العقيدة أصحابها إلى إطراح الفرائض العملية للإسلام ووضعهم واجبات المرء نحو من يحيط به من الناس فوق أداء الفروض التي جاء بها القرآن .

وهؤلاء هم في الحقيقة كتلة المسلمين التي رضيت حكم بني أمية ، مخالفين في ذلك الشيعة والخوارج . ومع هذا فإنهم يتفقون في العقيدة إلى حد ما مع طائفة المحافظين وهي أهل السنة ، وإن كانوا — كما يرى فون كريمر (٤) — قد ألانوا من شدة عقائد هؤلاء السنيين ، باعتقادهم « أنه لا يخلد مسلم مؤمن في النار » - وعلى العموم فهم يضعون العقيدة فوق العمل .

وكانت آراؤهم تتفق تماماً مع رجال البلاط الأموي ومن والوه ، بحيث

(١) انظر البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٩٠ . الشهرستاني: الملل والنحل ج ١ ص ١٩٨

(٢) Lit Hist. Of The Arabs, p. 221.

(٣) ابن حزم (طبعة القاهرة سنة ١٣٢٠) ج ٤ ص ٢٠٤

(٤) Gesch. d. Herrsch. Ideen, p. 25

لا يستطيع أحد من الشيعيين أو الخوارج أن يعيش بينهم ، فى الوقت الذى تمكن فيه المسيحيون وغيرهم من غير المسلمين أن ينالوا الحظوة لديهم أو يشغلوا المناصب العالية ، حتى كان من الصعب اعتبار تلك الطائفة من المسيحيين أكثر من خدام ضرورة وأغراض ، يدورون مع الزمن أنى دار ويميلون مع الرياح كيفما دارت . وكانوا فى ذلك أشبه بقسيس برى Brey (١) .

وبزوال الدولة الأموية أفل نجم طائفة المرجئة ولم تصبح بعد حزباً مستقلا . ومع ذلك فقد ظهر من بينهم أبو حنيفة صاحب المذهب المشهور .

ويقول فون كريمر : « ومما يؤسف له كثيراً أنه ليس لدينا غير القليل من الأخبار الصحيحة عن هذه الطائفة . فقد استمروا طوال ذلك العصر وذاقوا حلوه ومره . فقد ضاعت جميع المصادر التاريخية العربية عن الأمويين حتى إن أقدم المصادر التاريخية التى وصلت إلينا إنما ترجع إلى عهد العباسيين . ومن ثم كان لزاماً علينا أن نستقى معلوماتنا عن المرجئة من تلك الشذرات المبعثرة فى مؤلفات كتاب العرب فى ذلك العصر الثانى » .

وممن اشتهر من شعراء بنى أمية بالقول بالإرجاء ثابت قطنه ، وكان فى صحبة يزيد بن المهلب ، وله قصيدة فى الإرجاء تعد وثيقة تاريخية قيمة فى توضيح مذهبهم ، وقد رواها صاحب الأغانى (ج ٦ ص ٩٢٧) .

٨ — المعتزلة

(١) نشأة المعتزلة وآراؤهم :

تكلمنا من قبل على الشيعة والخوارج والمرجئة من حيث أثرها فى تاريخ الإسلام. والآن نتكلم على طائفة رابعة لا يقل أثرها فى توجيه السياسة الإسلامية عن تلك الطوائف الثلاث ، وهذه الطائفة هى القدرية أو المعتزلة .

اختلف واصل بن عطاء الغزال الفارسى مع أستاذه الحسن البصرى

---

(١) اسم قسيس كان مضرب المثل فى التقلب ؛ فقد اشتهر مذهبه حسب تغير الأحوال ، واستطاع أن يعيش فى عهد شارل الثانى وجيمس الثانى ووليم الثالث والملكة آن وجورج الأول ، بتقلبه وتغييره مذهبه فى الوقت الذى كان يعيش فيه .

الفقيه المشهور فى مسألة المؤمن العاصى الذى ارتكب ذنباً كبيراً . هل يسمى مؤمناً أولا ؟ ويقول واصل : إن مثل هذا الشخص لا يمكن أن يسمى مؤمناً كما لا يمكن أن يسمى كافراً ، بل يجب أن يوضع فى منزلة بين المنزلتين. وقد انتحى واصل ناحية بعيدة من المسجد وأخذ يشرح رأيه لزملائه من التلاميذ الذين اتبعوه ، فكان الحسن البصرى يقول للذين التفوا حوله إن واصلا « اعتزل عنا » ومن ثم أطلق خصوم واصل عليه وعلى أتباعه اسم « المعتزلة(١) » .

ويظهر من المعلومات التى وصلت إلينا أن مولد تلك الطائفة ومهدها كان بلاد العراق ، وهى بابل القديمة — حيث تقابل الجنسان السامى والفارسى واختلطا — التى أصبحت بعد قليل كعبة العلم ، ثم غدت بعد قليل أيضاً مقر الحكومة فى عهد العباسيين(٢) .

ويرى فون كريمر أن الاعتزال نما وانتشر فى دمشق بتأثير رجال الدين من البيزنطيين ، وبخاصة يحيى الدمشقى وتلميذه تيودور أبو قره . أما ذلك الاسم الآخر الأكثر وضوحاً وهو « القدرية » الذى عرف به أهل هذه الطائفة ، فإنه يرجع مذهبهم القائل بحرية ارادة الإنسان ، وإلى الحديث المكذوب على النبى صلى الله عليه وسلم وهو « القدرية مجوس هذه الأمة » ، وذلك لأنهم — كما يقول شتينر — يبررون وجود الشر . فقد وضعوا قاعدة أخرى هى إرادة الإنسان ضد إرادة الله ، وهى ما عزاه إليهم خصومهم ، حتى إننا لنجد الشاعر الصوفى الفارسى محمود الشبستارى يشير فى أوائل القرن السادس الهجرى (الثالث عشر الميلادى) إلى ذلك الحديث فى كتابه المشهور عن التصوف المسمى جاهنى راز بما يأتى : « كل رجل لا يعتقد بالقضاء والقدر فهو مجوسى (أى من عباد النار) ، كما قرر ذلك الرسول فى سنته » .

ويرى فون كريمر أن معبد الجهنى (ت ٨٠ / ٦٩٩) كان يدين بمذهب حرية الإرادة فى دمشق فى آخر القرن السابع الميلادى ، وأنه تلقاه عن رجل فارسى يسمى سنبويه Sinluye ، الذى قتله عبد الملك بن مروان ،

---

(١) انظر كتاب الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٩٧ — ٩٨ .
(٢) Dozy : Histoire de L'Islsmisme, p. 201 .

وفى رواية أخرى الحجاج بن يوسف (١) .

وتتكون عقيدة المعتزلة من خمسة أصول : التوحيد ، والعدل ، والوعيد ، والقول بالمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

أما القول بالتوحيد ، وهو الأصل الأول ، فقد ذهبت المعتزلة من بصريين وبغداديين وغيرهم أن الله عز وجل لا كالأشياء وأنه ليس بجسم ولا عنصر ولا جزء ولا جوهر ، بل هو الخالق للجسم والعرض والعنصر والجزء والجوهر ، وأن شيئاً من الحواس لا يدركه فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وأنه لا يحصره المكان ولا تحويه الأقطار ، بل هو الذى لم يزل ولا زمان ولا مكان ، ولا نهاية ولا حد ، وأنه الخالق للأشياء المبدع لها لا من شىء ، وأنه قديم وأن ما سواه محدث .

وأما القول بالعدل ، وهو الأصل الثانى ، فمعناه أن الله لا يحب الفساد ولا يخلق أفعال العباد ، بل إنهم يفعلون ما أمروا به ونهوا عنه بالمقدرة التى جعلها الله لهم وركبها فيهم ، وأنه لم يأمر إلا بما أراد ، ولم ينه إلا عما كره ، وإنه ولى كل حسنة أمر بها ، برىء من كل سيئة نهى عنها ، لم يكلفهم مالا يطيقونه ، ولا أراد منهم مالا يقدرون عليه ، وأن أحداً لا يقدر على قبض ولا بسط إلا بقدرة الله التى أعطاهم إياها ، وهو المالك لها دونهم ، يفنيها إذا شاء ويبقيها إذا شاء . ولو شاء لجبر الخلق على طاعته ومنعهم اضطرارياً عن معصيته ، ولكان على ذلك قادراً . غير أنه لا يفعل ، إذا كان فى ذلك رفع للمحنة وإزالة للبلوى .

وأما القول بالوعيد ، وهو الأصل الثالث ، فهو أن الله لا يغفر لمرتكبى الكبائر إلا بالتوبة ، وإنه لصادق فى وعده ووعيده ، لا مبدل لكلماته .

أما القول بالمنزلة بين المنزلتين ، وهو الأصل الرابع ، فهو أن الفاسق المرتكب للكبائر ليس بمؤمن ولا كافر ، بل يسمى فاسقاً على حسب ماورد التوفيق بتسميته وأجمع أهل الصلاة على فسوقه .

وأما القول بوجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو الأصل الخامس فهو أن ماذكر على سائر المؤمنين واجب على حسب استطاعتهم فى ذلك بالسيف

(١) راجع .Browne, vol. I. pp. 279–281

حقا دونه ، وإن كان كالجهاد . ولافرق بين مجاهدة الـكافر والفاسق (١) .

ويقول المعتزلة أيضاً بسلطة العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح ، ولو لم يرد بها شرع ، وأن للشيء صفة فيه جعلته حسناً أو قبيحاً . ويشبه هذا المذهب من بعض الوجوه مذهب العقليين Rationalists الذى ساد أوربا فى عصر النهضة (٢) .

(ب) علاقة المعتزلة بالشيعة والخوارج :

ابتدأت المعتزلة منذ نشأتها طائفة دينية لاحل لها فى السياسة على عكس ماكان عليه الخوارج والشيعة والمرجئة ، إلا أنها لم تلبث أن خاضت غمار السياسة ، فتكلمت فى الإمامة وشرط الإمام . يقول المسعودى (٣) : « يذهب المعتزلة إلى أن الإمامة اختيار من الأمة ، وذلك أن الله عز وجل لم ينص على رجل بعينه . وأن اختيار ذلك مفوض إلى الأمة . تختار رجلا منها ينفذ فيها أحكامه ، سواء كان قرشيا أو غيره من أهل ملة الإسلام وأهل العدالة والايمان . ولم يراعوا فى ذلك النسب ولا غيره . وواجب على أهل كل عصر أن يفعلوا ذلك . والذى ذهب إلى أن الإمامة قد تجوز فى قريش وغيرهم من الناس هو المعتزلة بأسرها وجماعة من الزيدية مثل الحسن ابن صالح بن جنى . ويوافق من ذكرنا على هذا القول جميع الخوارج من الإباضية وغيرهم إلا النجدات من فرق الخوارج ، فزعموا أن الإمامة غير واجب نصبها . ووافقهم على هذا القول أناس من المعتزلة ممن تقدم وتأخر ، إلا أنهم قالوا : إن عدلت الأمة ولم يكن فيها فاسق لم يحتج إلى إمام ، وذهب من قال بهذا القول إلى دلائل ذكروها ، منها قول عمر ابن الخطاب رضى الله عنه حين فوض الأمر إلى الشورى : لو أن سالما حى لما داخلنى فيه الظنون . فلو لم يعلم عمر أن الإمامة جائزة فى سائر المؤمنين ، لم يطلق هذا القول ولم يتأسف على موت سالم مولى أبى حذيفة . وقد صح بذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم أخبار كثيرة منها قوله : اسمعوا وأطيعوا ولو لعبد

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ١٩٠ — ١٩١ .

(٢) Nicholson, p. 224 .

(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ١٩١ — ١٩٢ .

أجدع . وقال عز وجل ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (سورة الحجرات ٤٩ : ١٣) .

قال جولدتسيهر عن علاقة المعتزلة بالشيعة : « ومما هو جدير بالملاحظة أن طوائف الشيعة برغم تشعبها قد سادت فيها مبادىء المعتزلة فى كثير من المسائل ولاسيما ما لم يتأثر منها بعقيدة الإمام أو المهدى ، فقد استطاع فقهاء الشيعة وعلماء التوحيد منهم أن يستفيدوا من أفكار المعتزلة ويستخدموها لدعم عقائدهم ومذاهبهم الخاصة . وهذا يدل على أن الشيعة آثروا أن يسموا أنفسهم أهل العدل ، وهو نفس التسمية التى تسمى بها المعتزلة .

ويظهر التشابه بين المعتزلة والشيعة فيما يدعيه هؤلاء أن علياً والأئمة من آل بيته هم أول من قالوا بحرية الإرادة ، وأن المعتزلة لم يزيدوا فى ذلك شيئاً أكثر من شرحهم تلك العقيدة التى وضع أساسها على بن أبى طالب . لذلك نرى فى كتبهم التى كتبوها فى علم الكلام تلك الظاهرة الغريبة ، وهى أنهم كانوا يلقبون فقهاءهم بلقب إمام ، ذلك اللقب الذى يقدسه الشيعة . أضف إلى ذلك تأثر الشيعة بمبادىء المعتزلة فى عقيدتهم القائلة أن الإمام المنتظر سوف يظهر لنشر العدل والتوحيد . وهذا نفس ما يقوله المعتزلة . والزيدية أكثر شبها فى ذلك بالمعتزلة من الإمامية . وهكذا تأثر كل من الشيعة والمعتزلة بعضها ببعض ، حتى لقد اختلط الأمر على المؤرخين ، فلم يستطيعوا التمييز بين كتب الشيعة وكتب المعتزلة فى التوحيد خاصة .

ولا غرو فقد نسبت المعتزلة عقائدها إلى على بن أبى طالب . وقلما نجد كتابا من كتبهم ، وعلى الأخص كتب المتأخرين منهم ، إلا ادعوا فيه أنه ليس ثمة مؤسس لمذهب الاعتزال وعلم الكلام غير الإمام على .

يقول ابن أبى الحديد (١) : « وأما الحكمة والبحث فى الأمور الإلهية فلم يكن من فن أحد من العرب ، ولا نقل فى جهاز أكابرهم وأصاغرهم شىء من

---

(١) شرح نهج البلاغة ج ٢ ص ١٢٨ — ١٢٩ .

ذلك أصلا. وهذا فن كانت اليونان وأوائل الحكماء وأساطين الحكمة ينفردون به . وأول من خاض فيه من العرب على عليه السلام . ولهذا تجد المباحث الدقيقة فى التوحيد والعدل مبثوثة عنه فى فرش كلامه وخطبه . ولا تجد فى كلام أحد من الصحابة والتابعين كلمة واحدة من ذلك ، ولا يتصورونه ، ولو فهموه لم يفهموه وأنى للعرب ذلك . ولهذا انتسب المتكلمون الذين لججوا فى بحار المعقولات إليه خاصة دون غيره ، وسموه أستاذهم ورئيسهم ، واجتذبته كل فرقة من الفرق إلى نفسها . ترى أن أصحابنا ينتمون إلى واصل بن عطاء ، وواصل تلميذ أبى هاشم بن محمد بن الحنفية . وأبو هاشم تلميذ أبيه محمد ، ومحمد تلميذ أبيه على عليه السلام ، ؟ .

كذلك ذكر المعتزلة الإمام علياً فى الطبقة الأولى من طبقاتهم . كما ذكروا قصة الشيخ الذى سأله عند انصرافه من صفين ، أكان المسير بقضاء الله وقدره ؟ فقال عليه السلام: والذى خلق الحبة وبرأ النسمة ماهبطنا واديا ولاعلونا تلعة (١) إلا بقضاء وقدر . فقال الشيخ : عند الله أحتسب عنائى ، مالى من الأجر شىء » فقال : بل أيها الشيخ عظم الله لكم الأجر فى مسيركم وأنتم سائرون ، وفى منقلبكم وأنتم منقلبون ، ولم تكونوا فى شىء من حالاتكم مكرهين ولا إليها مضطرين » فقال الشيخ . كيف ذلك والقضاء والقدر ساقانا وعنهما كان مسيرنا ؟ فقال عليه السلام: لعلك تظن قضاء واجباً وقدراً حتما ، ولو كان ذلك لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد ، ولما كانت تأتى من الله لائمة لمذنب ولا محمدة لمحسن، ولا كان المحسن بثواب الإحسان أولى من المسىء ، ولا المسىء بعقوبة المذنب أولى من المحسن. تلك مقالة إخوان الشياطين ، وعبدة الأوثان ، وخصماء الرحمن وشهود الزور ، وأهل العماء عن الصواب فى الأمور ، هم قدرية هذه الأمة ومجوسها . إن الله تعالى أمر تخييراً ونهى تحذيراً ، ولم يكلف جبراً ولا بعث الأنبياء عبثاً . ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للكافرين من النار ، فقال الشيخ : وما ذلك القضاء والقدر اللذان ساقانا ؟ فقال : أمر الله بذلك وإرادته ثم تلا (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه

---

(١) التلعة والتلاع أرض مرتفعة .

وبالوالدين إحسانا) فنهض الشيخ مسروراً بما سمع وأنشد يقول :

أنت الإمام الذى نرجو بطاعته   يوم النشور من الرحمن رضوانا
أوضحت من ديننا ما كان ملتبساً   جزاك ربك بالإحسان إحسانا(١)

كذلك ذكروا فى الطبقة الثانية الحسين ، وعلى بن الحسين ، ومحمد بن على — وكان محمد هذا (ابن الحنفية) هو الذى ربى واصل بن عطاء كما تقدم . وكان أبو هشام إذا سئل عن مبلغ علم محمد بن الحنفية يقول : اذا أردتم معرفة ذلك فانظروا الى أثره فى واصل بن عطاء . وكذلك أخذ واصل عن أبى هاشم الذى كان معه فى المكتب ، فأخذ عنه وعن أبيه .

هذه بعض الصلات التى ظهرت منذ ظهور المعتزلة ، ومنها نرى أثر آل البيت فى ظهور الاعتزال ومقدار تأثر رؤساء المعتزلة بالبيت النبوى .

ولما كانت الشيعة فيما بعد طوائف مختلفة ، لم تكن المعتزلة مع كل هذه الطوائف على علاقة متساوية ، فخاصمت بعضها ، واتصلت ببعضها الآخر اتصالا يختلف شدة وضعفاً حسبما يذهب اليه كل منهما فى عقائده . ولبيان هذا نقول: ان الشيعة تنقسم بحسب اعتقادها ثلاثة أقسام : غالية ورافضة وزيدية . أما الغالية فهم الذين غالوا فى على وقالوا فيه قولا عظيما ، وهم فرق كثيرة كالسبئية(٢) .

لذلك قيل إن المعتزلة وضعت الأصل الأول من أصولها الخمسة ، وهو التوحيد ، للرد على غلاة الشيعة ، والرافضة الذين قالوا إن الله ذو صورة وأنه جسم ذو أعضاء . واذا نظرنا الى الرافضة وعلاقتها بالمعتزلة ، نرى أن المتقدمين منهم ، مثل هشام بن الحكم وهشام بن سالم الجواليقى وشيطان الطاق وغيرهم من متقدمى الرافضة ، كانوا كذلك خصوماً للمعتزلة ، لقولهم بالتشبيه والرجعة وغير ذلك . يقول الخياط المعتزلى(٣) : « فهل كان على الأرض رافضى الا وهو يقول : إن الله صورة ، ويروى فى ذلك الروايات ، ويحتج فيه بالأحاديث عن أئمتهم ، إلا من صحب المعتزلة منهم قديما فقال بالتوحيد، فنفته الرافضة عنها ولم تقر به ؟ » .

---

(١) كتاب طبقات المعتزلة ص ٧ ، ١١

(٢) المصدر نفسه ص ٨ .

(٣) كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندى ص ١٤٤ .

أما الزيدية أتباع زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على ، فقد كانت صلة المعتزلة بهم أقوى منها بغيرهم من الشيعة . وترجع هـــذه الصلة إلى أيام زيد بن على الذى تتلمذ لواصل بن عطاء الغزال رأس المعتزلة ، واقتبس منه أصول الاعتزال ، وأصبح جميع أصحابه معتزلة إلا من خرج عليه منهم . وقد اشتركت المعتزلة من بنى هاشم فى مبايعة محمد النفس الزكية وإبراهيم ابنى عبد الله بن الحسين بمكة فى أواخر عهد بنى أمية ، ثم شاركوا الشيعة فى سخطهم على العباسيين بعد أن آلت الخلافة إليهم ، وانضوى المعتزلة والزيدية بزعامة عيسى بن زيد بن على تحت لواء إبراهيم بن عبد الله فى العراق فى محاربة أبى جعفر المنصور ، وظلوا على ولائهم لإبراهيم حتى قتل وقتلت المعتزلة بين يديه (١) . ويبين لنا بشكل أوضح الرابطة بين عقيدة الشيعة الرئيسية ومذهب الاعتزال ، ما نلاحظه من تأثير الشيعة بمبادىء المعتزلة فى عقيدتهم التى تقول إن الامام المنتظر سوف يظهر لنشر العدل والتوحيد ، وهذا هو عقيدة المعتزلة . والزيدية أكثر شبهاً بالمعتزلة فى ذلك من الامامية ، إذا تتفق مع المعتزلة فضلا عن ذلك فى كثير من الأجزاء والتفاصيل . ولا يزال الاعتزال ظاهراً فى أدب الشيعة حتى اليوم . ومن ذلك كان الخطـــأ البين — من وجهة التاريخ السياسى الدينى أو من وجهة التاريخ الأدبى — أن نظن أن انتصار مذهب الأشاعرة المؤزر على مذهب المعتزلة قد قضى عليه القضاء الأخير ، وأنه لم يبق له وجود بعد ذلك .

وقد بلغ من شدة التشابه بين المعتزلة والشيعة أن اختلط الأمر على المؤرخين ، فلم يميزوا بين كتب الشيعة وكتب المعتزلة فى التوحيد ، وذلك لانقسامها إلى قسمين رئيسيين :

١ — قسم يحتوى على الفصول التى تبحث فى التوحيد .

٢ — وقسم يتضمن البحوث المتعلقة بالعدل .

على أن كتب الشيعة امتازت بذكر نظرية الإمام وعصمته ، وهذا ما يميز كتب الشيعة عن كتب المعتزلة .

---

(١) مقالات الإسلاميين جـ ١ ص ١٧٩ .

بيد أنه يجمل بنا ألا نهمل القول بأن النظام — وهو من أئمة المعتزلة — كان يوافق الشيعة فى كل ما يتعلق بنظرية الإمام وعصمته . ومما هو جدير بالملاحظة أن معظم البراهين التى استدل بها الشيعيون على نظرية الإمامة قامت على أسس من مذهب الاعتزال البحت ، فالقول بضرورة وجود إمام فى كل عصر ، ووجوب عصمة ذلك الامام عن الخطأ يتفق تماماً مع رأى المعتزلة وقولهم بوجوب إرسال الرسل لأن الله حكيم وعادل . ومن ثم يقول الشيعة : « إن الله يبعث للناس فى كل عصر مرشداً وهادياً معصوماً من الخطأ . وهكذا نرى الشيعة تقيم قواعدها الرئيسية على نظريات عقائد المعتزلة (١) » .

ويتفق المعتزلة مع الخوارج فى القول بأن الإمامة تجوز فى قريش وفى غيرهم من الناس ، كما يتفقون معهم فى القول بعدم ضرورة نصب إمام للمسلمين . ويفهم ذلك من قول الخوارج « لا حكم إلا لله » . الا أن المعتزلة لا تجيز هذا إلا فى حالة واحدة وهى : أن يكون جميع المسلمين عدولا ليس بينهم فاسق . ولا غرو فطالما اتخذ الخوارج مبادىء الاعتزال ذريعة للخروج على بنى أمية وإثارة الفتن والاضطرابات ، ولاسيما فى إفريقية وبلاد المغرب . تلك المبادىء التى كانت تتفق فى كثير من المسائل — وخاصة ما يتعلق منها بالعقيدة الأساسية — مع ميول الخوارج (٢) .

(1) Goldziher, Le Dogme et la Loi de l'Islam. pp. 188–189.

(٢) المسعودى . مروج الذهب ج ٢ ص ١٩١ .

الباب السابع

نظام الحكم

تتكون نظم الحكم فى الدولة من مجموع القوانين والمبادىء والتقاليد التى يقوم عليها الحكم فى هذه الدولة . ومن هذه النظم :

١ — النظام السياسى ويتناول الخلافة من حيث كونها نظاما للحكم ، ومن حيث نشأتها وارتقاؤها وضعفها ، كما يتناول الكلام على الوزارة والكتابة التى يتولى صاحبها مخاطبة الولاة وغيرهم من موظفى الدولة ، والحجابة التى يشبه صاحبها كبير الأمناء فى أيامنا هذه .

٢ — النظام الإدارى ونعنى به إدارة الأقاليم من حيث بيان سلطة الولاة فى ولايتهم ، وتعدد دواوين الدولة ، كديوان الخراج ، وديوان الرسائل ، وديوان المستغلات أو الإيرادات ، وديوان الطراز ، وديوان الخاتم ، ويشبه قلم « الأرشيف » أو السجلات ، والبريد ، والشرطة .

٣ — النظام المالى ويبحث موارد بيت المال ومصارفه . والخراج بنوعيه ، وديوان الخراج وجبايته ، ونظام المقاسمة ونظام الالتزام أو الإقطاع ، ثم الجزية والزكاة والفىء والغنيمة والعشور . كما يتناول نظام الضرائب وطرق جبايتها ومقدار الجباية ، والأوجه التى تصرف فيها موارد بيت المال .

٤ — النظام الحربى ويتناول الجيش وإمرته وأسلحته .

٥ — النظام القضائى ويتناول القضاء والمظالم التى يلجأ إليها المتقاضون إذا اعتقدوا أن القاضى لم يحكم بينهم بالعدل ، والحسبة التى تعتبر وسطاً بين القضاء والمظالم .

٢ — النظام السياسى

(ا) الخلافة :

لم يؤثر عن النبي صلى الله عليه وسلم نص صريح فى مسألة الحكم من بعده ، بل ترك هذه المسألة من غير أن يبت فيها ، ورأى أن يترك الأمر شورى للمسلمين ليختاروا من أحبوا .

والخلافة لغة مصدر « خلف » . يقال « خلفه خلافه ، كان خليفته وبقى بعده . والخليفة السلطان الأعظم ، والجمع خلائف وخلفاء » . فالخلافة موضوعة فى الأصل لكون الشخص خلفاً لأحد ، ومن ثم سمى من يخلف الرسول فى إجراء الأحكام الشرعية خليفة ، ويسمى أيضاً إماما . فأما تسميته إماماً فتشبيها بإمام الصلاة فى اتباعه والاقتداء به . ولهذا يقال الإمامة الكبرى . وأما تسميته خليفة فلأنه يخلف النبي فى أمته ، فيقال خليفة بإطلاق ، وخليفة رسول الله . واختلف فى تسميته خليفة الله ، فأجازه بعضهم اقتباساً من الخلافة العامة التى للآدميين فى قوله تعالى (إنى جاعل فى الأرض خليفة) ، وقوله (وهو الذى جعلكم خلائف فى الأرض)(١) ومنع الجمهور منه . وقد نهى أبو بكر عنه لما دعى به ، وقال : لست خليفة الله ، ولكنى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولأن الاستخلاف إنما هو فى حق الغائب . أما الحاضر فلا(٢) .

أما الخلافة فى الاصطلاح ، فهى رياسة عامة فى أمور الدين والدنيا نيابة عن النبي صلى الله عليه وسلم . وفى ذلك يقول ابن خلدون : والخلافة هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها . إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا(٣) » .

---

(١) سورة الأنعام : ٦ : ١٦٥ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٦٦ .

(٣) المصدر نفسه .

وإن منزلة الخليفة من الأمة كمنزلة الرسول من المؤمنين ، له عليهم الولاية العامة والطاعة التامة ، وله حق القيام على دينهم ، فيقيم فيهم حدوده وينفذ شرائعه . وله بالأولى حق القيام على شئون دنياهم أيضاً ، بيده وحده زمام الأمة . فكل ولاية مستمدة منه ، وكل خطة دينية أو دنيوية متفرعة عن منصبه . فهو الحاكم الزمني والروحي بخلاف مانجده فى الغرب فى العصور الوسطى .

وقد ذكر سير توماس أرنولد(١) أوجه الشبه والاختلاف بين هذين النظامين الذين قاما خلال العصور الوسطى : وهما الخلافة فى الشرق والإمبراطورية الرومانية المقدسة فى الغرب ، فقال : « إن كلا النظامين يستند إلى قوة الدين : فكلاهما دين عالمي يعمل على ضم العالم تحت لوائه : بيد أن الإمبراطورية المقدسة لم تكن مستحدثة الوجود بل كانت استمراراً لإمبراطورية وثنية سابقة ، حتى إن الإمبراطور شرلمان تلقب بألقاب الأباطرة الوثنيين ، كما نجد فى الغرب حاكمين : أحدهما زمني وهو الإمبراطور ، والآخر روحي وهو البابا . أما الخلافة فإنها لم تقم على نظام سياسي سابق ، بل هى نظام مستحدث وليد الظروف والأحوال التى نشأت إثر ظهور الإسلام وبسط سيادة العرب على بلاد فارس ومعظم بلاد الدولة الرومانية الشرقية . والخليفة حاكم سياسي ، بمعنى أنه يجمع بين السلطتين الزمنية والروحية ، ولا تتعدى وظيفته الدينية المحافظة على الدين . ويستطيع باعتباره حامى الدين أن يعلن الحرب على الكفار ، ويعاقب الخارجين على الدين ويؤم الناس فى الصلاة ، ويلقى خطبة الجمعة ، بخلاف البابا فإنه يعتبر قسيساً أعظم يستطيع أن يغفر خطايا المذنبين ، وهو المرجع الأعلى فى الأمور الدينية » .

١ — شروط الخلافة : والخلافة ضربان : اختيارية وقهرية . فالاختيارية(٢)،

(١) The Caliphate, p. 1—2.
Henry Osborn Talylor : The Mediaveal Mind, vol. 1I, pp. 393.
Goldziher ; Muhammedanische Studien. vol. 11. p. 19. seq.

(٢) بدر الدين بن جماعة . تحرير الأحكام فى تدبير أهل الإسلام المنشور بمجلة Islamica الألمانية ، العدد الرابع سنة ١٩٣٤ . الماوردى . الأحكام السلطانية ص ٤ . مقدمة ابن خلدون ص ١٥٢ .

هى التى تكون نتيجة انتخاب الأمة وبيعتها برضاها . ويشترط فى الشخص الذى يرشح لها أن يكون جامعاً للصفات المطلوبة والشروط اللازمة لها ، وهى — كما ذكر الماوردى وغيره — أربعة : العلم ، والعدالة ، والكفاية ، وسلامة الحواس والأعضاء مما يؤثر فى الرأى والعمل . واختلف فى شرط خامس هو النسب القرشى . أما القهرية فهى التى نالها صاحبها بالغلب والقوة . ويرى الفقهاء انعقادها ولزوم الطاعة لصاحبها .

ويراد بالعلم العلم المؤدى إلى الاجتهاد فى النوازل والأحكام الفقهية ، وبالعدالة أن يكون الخليفة صاحب استقامة فى السيرة والسلوك متجنباً المعاصى ، وفى ذلك يقول ابن خلدون (مقدمة ١٥٢) : « ولا خلاف فى انتفاء العدالة فيه بفسق الجوارح من ارتكاب المحظورات وأمثالها ، وفى انتفائها بالبدع الاعتقادية خلاف » .

ويقصد بالكفاية أن يكون الخليفة قادراً على إقامة الحدود ، بصيراً بالحروب كفيلا بحمل الناس عليها ، صاحب رأى وتدبير(١) .

أما قرشية النسب فالمراد بها أن يكون الخليفة من قبيلة قريش ، بدليل إجماع كثير من الصحابة يوم السقيفة(٢) على ذلك ، واحتجاج قريش على الأنصار لما هموا يومئذ ببيعة سعد بن عبادة بقول الرسول : الأئمة من قريش ، وبأن النبى أوصانا بأن نحسن إلى محسنكم ونتجاوز عن مسيئكم . ولو كانت الإمارة فيكم لم تكن الوصية بكم ، فحاجوا الأنصار حتى عدلوا عما هموا به من بيعة سعد . وثبت فى الصحيح أيضاً : « لا يزال هذا الأمر فى هذا الحى من قريش » ، كما أثر عن النبى أنه قال : « الملك فى قريش والقضاء فى الأنصار والآذان فى الحبشة » ، كما قال : « الخلافة فى قريش والحكم فى الأنصار والدعوة فى الحبشة » .

على أن أكثر هذه الأحاديث مدسوس على الرسول ، فقد ذكر ابن خلدون (مقدمة ص١٥٣ — ١٥٤) أن الرسول قال : « الأئمة من قريش ما حكموا فعدلوا ووعدوا فوفوا ، واسترحموا فرحموا » . مما يدل على أن الإمامة تكون فى قريش

---

(١) راجع ما ذكره الدكتور عبد الرازق أحمد السنهورى فى كتابه Le Califat, pp. 53-58.

(٢) هى ظلة كانت بالقرب من دار سعد بن عبادة يجتمعون فيها وكانت له الرياسة .

إذا استوفوا هذه الشروط ، على أن هناك أيضاً من الأحاديث النبوية ما يبيح إطلاق الخلافة إطلاقاً وعدم قصرها على قريش .

وقد نشر المهاجرون كل تلك الأحاديث مع أن القرآن لم يشر إلى قصر الخلافة على أسرة أو قبيلة معينة ، فقد قال الله تعالى . ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ سورة الحجرات ٤٩ : ١٣) ، وأثر عن الرسول أنه قال : اسمعوا وأطيعوا وان استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة : (١)

ويرى الشيعة أن تكون الخلافه لعلي ثم لأولاده من بعده عن طريق الوراثة. وهم لا يحبذون فكرة الانتخاب في اختيار الخليفة ، كما يجعلون للخليفة صفات دينية ، فهو لديهم مستودع العلم الشرعي ، لأنه هو وحده الذي يفهم القرآن والسنة وله حق تفسيرهما . ولذلك لقبوا الخليفة بلقب « إمام » لأنهم يعتبرونه قدوة لهم . ووضع بعضهم علياً في مصاف الآلهة ، بل قالوا ان الخلافة ركن من أركان الدين .

ويرى الخوارج صحة خلافة أبي بكر وعمر وعثمان في سنيه الأولى وعلى إلى أن حكم الحكمين ، ويعتقدون أن الخلافة حق لكل عربي حر . ثم شرطوا الاسلام والعدل بدل العروبة والحرية ، ولاسيما حين انضم إلى صفوفهم كثير من المسلمين من غير العرب . ولذلك جعلوا حق الخلافة شائعاً بين جميع المسلمين الأحرار أو الأرقاء على سواء ، وخالفوا بهذا الرأى نظرية الشيعة التي تقول بقصر الخلافة على آل بيت النبي .

وقد رضي المرجئة حكم بني أمية ، مخالفين في ذلك الخوارج والشيعة ، لأن العقيدة الأساسية عندهم هي عدم تكفير أي أنسان اعتقد الإسلام ونطق بالشهادتين مهما ارتكب من المعاصي . أما المعتزله أو القدرية التي لم تلبث أن خاضت غمار السياسة ، فقد تكلمت في الامامة وشروط الإمام ، وقالوا إن الإمامة اختيار من الأمة .

طريقة انتخاب الخلفاء الراشدين :

اجتمع الأنصار إثر وفاة الرسول في سقيفة بني ساعدة ليختاروا من بينهم

---

(١) الزبيبة واحدة الزبيب المأكول ، ورءوس الحبش توصف بالصغر .

(٢) أنظر كتاب النظم الإسلامية للمؤلف (الطبعة الثالثة . القاهرة ١٩٦٢) ص ٧-١٣

خليفة، ورشحوا سيد الخزرج ، وهو سعد بن عبادة ، الذى قام فيهم خطيباً فقال :
يامعشر الأنصار ! لكم سابقة فى الدين وفضيلة فى الإسلام ليست لقبيلة من
العرب ... أثخن الله عز وجل لرسوله بكم الأرض ، ودانت بأسيافكم له العرب .
وتوفاه الله وهو عنكم راض وبكم قرير العين ، استبدوا بهذا الأمر دون سائر
الناس ، فإنه لكم دون الناس » .

ولما اتصل نبأ هذا الاجتماع بعمر بن الخطاب ، أسرع ومعه أبو بكر وأبو عبيدة
ابن الجراح الى السقيفة حيث قام بين المهاجرين والأنصار نقاش طويل (١).
وقام أبو بكر خطيباً وأخذ يبرر موقف المهاجرين وأحقيتهم بالخلافة فقال :
« ... فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والإيمان به والمؤاساة له
بالصبر معه ، على شدة أذى قومهم لهم وتكذيبهم إياهم .. فهم أول من عبد الله
فى الأرض وآمن بالله وبالرسول . وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر
من بعده ، ولا ينازعهم فى ذلك إلا ظالم . وأنتم يا معشر الأنصار ، من لا ينكر
فضلهم فى الدين ولا سابقتهم العظيمة فى الإسلام ، رضيكم الله أنصاراً لدينه
ورسوله وجعل إليكم هجرته ، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه . فليس بعد المهاجرين
الأولين عندنا بمنزلتكم فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تفتاتون بمشورة ولا
تقضى دونكم الأمور » .

ولم ترد الأوس أن تؤول الخلافة الى الخزرج وانضمت إلى المهاجرين . ثم
قام عمر فبايع أبا بكر بالخلافة وقال له: ألم يأمر النبى بأن تصلى أنت يا أبا بكر ؟
فأنت خليفته ونحن نبايعك فنبايع خير من أحب رسول الله منا جميعا . ثم قال له
عمر : أبسط يدك أبايعك ، فبسط يده فبايعه . وبايعه المهاجرون والأنصار (٢) .

بويع أبو بكر بفضل ما أوتيه عمر من المهارة والشجاعة . وتسمى هذه البيعة
« البيعة الخاصة » ، إذ لم يبايعه الا نفر قليل من المسلمين الذين حضروا السقيفة .
ثم جلس أبو بكر على المنبر فى اليوم التالى وبايعه عامة المسلمين . وتسمى هذه
البيعة « البيعة العامة » .

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢٠٧ — ٢١٠ .
(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ٢١٠.

يقول سير توماس أرنولد (١) : « لوحظ فى انتخاب أبى بكر ما يلاحظ فى انتخاب شيخ القبيلة العربية ، لأنه انتخاب يتفق مع الروح العربية » . وتم هذا الانتخاب بطريقة ديمقراطية على نحو ما كان مألوفا لدى قبائل العرب فى الجاهلية ، ذلك النظام الذى يقضى بأن تكون السن والفضائل أساسا لاختيار شيخ القبيلة .

بقى أبو بكر فى الخلافة أكثر من عامين ، وقبل موته رشح عمر للخلافة . وهنا أيضاً تتمشى الشورى وعدم التوريث مع الطبيعة العربية . ذلك أنه لما اشتد المرض على أبى بكر خاف إن هو ترك أمر الخلافة كما تركه رسول الله ، أن ينقسم المسلمون ويصبحوا أشد خطرا على أنفسهم من أهل الردة . لذلك استقر رأيه على أن يعهد بالخلافة من بعده إلى من يعتقد فيه الكفاية وحسن السياسة ، فوقع اختياره على عمر . وهذه هى الحادثة الأولى التى عين فيها الخليفة من يخلفه ، أما الثانية فهى حين عين عمر ستة من أهل الشورى يختارون من بينهم خليفة .

على أن أبا بكر لم يشأ أن ينفرد برأيه حين رشح عمر للخلافة . فاستشار كبار الصحابة وسألهم رأيهم فى عمر ، فأثنوا عليه ووافقوا على اختياره ، فكتب كتاب عهده لعمر وهو : « بسم الله الرحمن الرحيم ! وهذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، فى الحال التى يؤمن فيها الكافر ويتقى الفاجر . إنى استعملت عليكم عمر بن الخطاب ، فإن بر وعدل فذلك علمى به ورأيى فيه ، وإن جار وبدل فلا علم لى بالغيب ، والخير أردت ، ولكل امرىء ما اكتسب ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

ولما طعن عمر أخذ الناس يتكلمون فى أمر الخلافة ، وطلبوا إليه أن يعهد ، وعرض عليه بعض أن يعهد الى ابنه عبد الله ، فأبى واختار ستة من الصحابة هم . على بن أبى طالب ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، والزبير بن العوام . وطلحة بن عبيد الله ، ودعاهم اليه إلا طلحة ، وكانه

The Caliphate, p. 20. (١)

غائباً ، وقال لهم : « ... فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام ، وليصل بالناس صهيب ، ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم ، ويحضر عبد الله بن عمر مشيرا ولا شيء له في الأمر » .

ولما بويع عثمان بالخلافة خطب الناس خطبته المعروفة ، وهي لا تبين السياسة التي عول على انتهاجها في إدارة دولته ، وإنما هي عبارة عن نصائح تتعلق بالدين لا بالسياسة . وقد يرجع ذلك إلى شيخوخته وما فطر عليه من اللين والتدين والتعلق بآثار السلف . وقد دلت الحوادث على أن عثمان لم يكن يستطيع أن يحكم الدولة العربية بعد أن تغيرت أحوالها واتسعت رقعة بلادها وكثرت أموالها وزادت مطامع رجالها. لذلك لا نعجب اذا غلب على أمره وذهب ضحية هذه السياسة التي لم تلائم العصر الذي عاش فيه .

وبعد مقتل عثمان مال الثوار إلى تولية علي ، ولم يكن بالمدينة سوى عدد قليل من الصحابة ، على رأسهم طلحة والزبير . كما تردد في بيعته بعض الصحابة كسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر ، وتخلف بنو أمية الذين لحق بعضهم بالشام وبعضهم الآخر بمكة .

وقد أراد علي أن يحكم وفق التقاليد التي سادت زمن النبي وأبي بكر وعمر ، مع أن الأحوال كانت تستلزم شيئاً من السياسة والدهاء . فبادر إلى عزل ولاة عثمان برغم نصيحة بعض الصحابة له بإبقائهم حتى تهدأ الأحوال وتستقر الأمور . ولكن معاوية أبى الإذعان لأمر علي وقامت بسبب ذلك الحرب بينهما ، ثم عقد بينهما التحكيم ، وقتل علي وفاز معاوية بالخلافة وقامت الدولة الأموية .

٣ — رأينا في بيعة الخلفاء الراشدين :

على الرغم من أن بيعة الخلفاء الراشدين لم تكن منظمة إلا أنها كانت تحمل فكرة الشورى التي تتمشى مع الروح العربية وتبعد كل البعد عن النظام الوراثي.

ويزعم بعض أن انتخاب أبي بكر كان انتخابا غير منظم ، اذا لم يتخذ المسلمون مكانا يجتمعون فيه ، ولم يؤذن الناس بهذا الاجتماع من قبل . والجواب على ذلك أنه قد حصل اجتماع ضم أصحاب الرسول ، ورشح الأنصار سعد ابن عبادة ، ورشح أبو بكر أبا عبيدة وعمر . وتبادل الأنصار والمهاجرون الآراء

وأقاموا الحجج، ورجحت حجة على حجة . لذلك لا نستطيع أن نوافق الذين يطعنون فى هذا الانتخاب . وإن حرص الصحابة وكراهتهم أن يظلوا يوما أو بعض يوم من غير أن يكون لهم إمام يجمع كلمتهم هو الذى حملهم على المبادرة إلى الاجتماع فى سقيفتهم . وكذلك كان حرص عمر فى مبادرته إلى بيعة أبى بكر، فقد أثر عنه أنه قال : « إنه بلغنى أن قائلا منكم يقول : لو مات أمير المؤمنين بايعت فلانا . فلا يغرن امرأ أن يقول إن بيعة أبى بكر كانت فلتة ، فقد كانت كذلك ، غير أن الله وقى شرها ، وليس منكم من تقطع إليه الأعناق مثل أبى بكر» .

ويظهر أن الذين عابوا هذا الانتخاب ، وخاصة المحدثين من المؤرخين ، أرادوا أن يقيسوا ما حدث منذ ألف وثلثمائة وثلاث وسبعين سنة بما يحدث الآن . وهو قياس مع الفارق .

ونلاحظ فى اختيار عمر أمرين خطيرين : أولهما أن أبا بكر علق خلافة عمر على رضا الناس ، وثانيهما أن أبا بكر لم ينتخب أحداً من أبنائه أو أقربائه بل انتخب شخصاً أجمع الناس على احترامه .

وكانت بيعة عمر صحيحة . وإذا قيل إنه ليس فيها ضمان لاختيار من يحبه الناس غالباً ويكون قادراً على حمايتهم ، وأنها أشبه بولاية العهد أو التعيين ، فإن أبا بكر لم يستبد برأيه ولم يرغم جماعة المسلمين على قبول خلافة عمر ، بل إنه استشار الصحابة فأثنوا على عمر ووافقوا على اختياره .

على أن هذه الطريقة لا تخلو من العيوب ، إذ قد يخطىء الخليفة أو يحسن الظن بمن لا يحقق ظنه . فليس كل خليفة كأبى بكر ولا كل ولى عهد كعمر . ولا يستطيع أحد أن يطمئن إلى حسن نتيجة مثل هذه الطريقة لما فيها من احتمال الخطأ فى الاختيار على الأقل . وقد زعم الأمويون والعباسيون وغيرهم أن هذه السنة التى سنها أبو بكر ، والتى كان قوامها الشورى وعدم التوريث تعطى الخليفة الحق فى انتخاب من يخلفه بغير قيد ولا شرط .

أما بيعة عثمان فهى أقرب الى الشورى من بيعة عمر ، إذ قد تعدد المرشحون للخلافة . وكان للمجتمعين بمسجد المدينة من الصحابة وغيرهم أثر كبير فى توجيه هذا الانتخاب وحصر الخلافة فى واحد من اثنين هما عثمان وعلى . وقد تكون

هذه الطريقة التى أشار بها عمر فى اختيار خليفته صالحة لو أنها وجدت البيئة الصالحة لها . ويزعم بعض أنها ناقصة ، لأنها ضيقت دائرة الناخبين الى حد بعيد فجعلتهم ستة ، وأهملت جمهور المسلمين ، كما أدت الى ظهور التنافس بين عثمان وعلى ، أو بعبارة أخرى بين بنى هاشم و بنى أمية ، وانقسم المسلمون بسبب ذلك الى أمويين وهاشميين وعلويين ، لأن على بن أبى طالب كان هو المقدم فى بنى هاشم .

كذلك كان انتخاب على شورياً ، وإن لم يكن هذا الانتخاب عاماً لتفرق أكثر الصحابة فى الأمصار كما تقدم . وان لم يكن انتخابه بالطريقة التى انتخب بها من سبقه من الخلفاء ، فقد انتخب أبو بكر عن رضا من الصحابة الذين اجتمعوا فى المدينة ، وان كانوا قد اختلفوا فى بادىء الأمر . وبعد وفاة أبى بكر لم يكن ثمة اختلاف فى الأمر لأنه كان قد عهد الى عمر ورأى المسلمون وجوب طاعته ، ثم بويع عثمان بمقتضى قانون الشورى الذى سنه عمر . أما من يقول ان علياً لم يبايعه الا أهل المدينة وانه لم يؤخذ فى ذلك رأى غيرهم من المسلمين فى الحواضر الإسلامية ، فيمكن الرد على ذلك بأن مذهب مالك برمته مبنى على رأى أهل المدينة .

ومما هو جدير بالملاحظة أن أحداً من الخلفاء الراشدين لم يفكر فى جعل الخلافة وراثية ، فقد أبى عمر أن يعهد لابنه عبد الله ، وأبى على أن يعهد لابنه الحسن حين سأله بعض المسلمين وهو على فراش الموت فقال : « لا آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر » . كما يلاحظ أنه كان من السهل أن يحسن المسلمون اختيار من يليق لهذا المنصب الخطير من بين الشخصيات البارزة فيهم ، اذا كانت محدودة العدد معروفة للخاص والعام .

وإذن لم يكن ثمة استبداد فى طريقة تولية العهد التى قد تقى المسلمين شر التنافس والتناحر . ولا غرو فقد لقيت طريقة أبى بكر ارتياحاً لدى جمهور المسلمين ، بدليل مطالبتهم عمر بأن يعهد لأحدهم كما فعل أبو بكر من قبل . ولكن قتل عثمان دون أن يعهد لغيره عاد بالعرب الى الطريقة الأولى التى كانت قريبة الشبه بطريقة انتخاب شيخ القبيلة العربية . وكان كل من الخلفاء الراشدين يخطب الناس بعد بيعته ، فيوضح لهم السياسة التى عول على انتهاجها فى ادارة شئون دولته ، فكانت هذه الخطبة بمثابة العرش فى الوقت الحاضر .

٤ – الأمويون والخلافة :

وقد غير انتقال الخلافة إلى معاوية بن أبى سفيان نظام الشورى الذى كان أساس انتخاب الخلفاء الراشدين ، وتحولت الخلافة إلى ملك آل إلى صاحبه بقوة السيف والسياسة والمكايد . على أنه وجد فريق من المسلمين يبرر هذه الحالة ويستند فى ذلك إلى أحاديث رويت عن النبى صلى الله عليه وسلم تحض الناس على طاعة الحاكم والخضوع لحكمه أيا كانت نزعته وطريقة حكمه . فقد أثر عنه أنه قال : « سيليكم بعدى البر ببره ويليكم الفاجر بفجوره فاسمعوا وأطيعوا فى كل ماوافق الحق ، فإن أحسنوا فلكم ولهم ، وإن أساءوا فلكم وعليهم » .

ولما ولى معاوية ابنه يزيد العهد ظهر نظام التوريث ، وانتقلت الدولة من ذلك النظام الذى ساد عهد الخلفاء الراشدين إلى النظام الذى سار عليه الأمويين فى حكم الدولة الإسلامية ، أو بعبارة أخرى من نظام الخلافة الذى يعتمد على الشورى ويستند إلى الدين ، إلى النظام الملكى الذى يقوم على أساس التوريث ويستند إلى السياسة أولا وإلى الدين ثانياً . وبذلك أصبحت الخلافة الأموية أقرب الى السياسة منها الى الدين واستحالت بذلك الى ملك .

على أنه ينبغى أن لايعزب عن أذهاننا أثر البيئة فى تطور نظام البيعة ، إذ أنه لما كانت المدينة حاضرة الدولة العربية فى عهد الخلفاء الراشدين ، كانت السيادة والنفوذ للعنصر العربى ، وقام ذلك النظام الذى يتفق وطبيعة العرب كما تقدم . فلما أصبحت دمشق حاضرة الدولة العربية ، تأثر العرب بالبيئة التى عاشوا فيها ، وغدا نظام الخلافة أشبه بالنظام الملكى أو القيصرى ، ومن ثم زادت الصفة الزمنية فى الخليفة . وكان معاوية متأثراً فى ذلك بالنظام الذى كان سائدا فى الدولتين البيزنطية والساسانية ، وسار فى تحقيق هذه السياسة بمنتهى المهارة ، وأخذ لهذا الأمر الخطير أهبته فى شىء كثير من الحيطة ، فأوحى الى عماله على الأمصار أن يمهدوا السبيل لأخذ البيعة لابنه يزيد .

وعلى هذا النظام سار العباسيون ، فحرموا المسلمين هذا الحق الطبيعى وهو الشورى التى ألفها العرب وجاء بها القرآن وأيدتها الأحاديث النبوية . وغلا

الأمويين — والعباسيون من بعدهم — فى ذلك حتى أصبحوا يولون عهدهم اثنين بل ثلاثة ، وأصبح الخليفة الأموى يعين ولى عهده ويأخذ البيعة له من وجوه الناس وكبار القواد فى حضرته على حين أصبحت هذه البيعة تؤخذ فى الأقاليم بحضور الوالى نيابة عن الخليفة . وهذه الطريقة جمعت فى نفسها — كما يقول سيد أمير على (١) — كلا من النظام الديمقراطى ونظام الحكم المطلق فى آن واحد مع تجردها من مزايا كل منهما ، إذ كانت البيعة تتم بأية طريقة . سواء أكان ذلك بالوعيد أم بالوعود الخلابة ، وأصبح الانتخاب شرعياً على أى حال . على أن هذا النظام أدى الى ظهور العداوة والبغضاء بين أفراد البيت الأموى وأوغر صدور بعضهم على بعض ، فقام النزاع بينهم وتعدى ذلك الى القواد والعمال ، مما ساعد على سقوط الدولة الأموية .

ومع ذلك أبى معاوية الثانى أن يعهد لوالده أو بعض آل بيته ، بل ترك الأمر شورى للناس ليختاروا من أحبوا ، فقال : « فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم » وقال أيضا : « وما أنا بالمتقلد ولا بالمتحمل تبعاتكم . فشأنكم وأمركم » (٢) .

٥ — ألقاب الخليفة :

كان أبو بكر يلقب بلقب خليفة رسول الله إذ كان يقوم مقام الرسول فى حكم الدولة الإسلامية والمحافظة على الدين . وكان عمر يلقب بلقب خليفة خليفة رسول الله .

روى البلاذرى أن بلالا مؤذن الرسول كان يقف بباب الرسول ويقول السلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته ، حى على الصلاة حى على الفلاح ، الصلاة يا رسول الله ! فلما ولى أبو بكر كان المؤذن يقف ببابه ويقول : السلام عليك يا خليفة رسول الله ورحمة الله وبركاته ، حى على الصلاة حى على الفلاح !

---

(١) A Short Hist. of the Saracus p. 185

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٦٤ .

الصلاة ياخليفة رسول الله ! وفى خلافة عمر بن الخطاب كان المؤذن يردد هذه الكلمات مبتدئاً بقوله : السلام عليك ياخليفة خليفة رسول الله . . الخ . ومنعاً لتكرار لفظ خليفة بالنسبة إلى من يتولى أمور المسلمين من الخلفاء بعد أبى بكر، أمر عمر أن يستبدل هذا اللفظ بعبارة أمير المؤمنين ، وأن تزاد عبارة رحمك الله على الأذان (١) ، ويقول ابن خلدون (مقدمة ص ٢١٧ — ٢١٩) إن المؤذنين كانوا يختمون الأذان بعبارة : « السلام عليك » ، يعنون بذلك الخليفة أو أحد عماله . وظلت الحال على ذلك طوال عهد الأمويين وفى الصدر الأول من أيام العباسيين حتى تولى الخلفاء والولاة الصلاة بأنفسهم . على أن الخلفاء تخلفوا عنها فى أواخر أيام العباسيين لوقوعهم تحت سلطان الأتراك ، فعدل الخلفاء عن إقامة الصلاة بأنفسهم ، وبطل استعمال هذه الكلمات ، وحذا حذوهم الخلفاء الفاطميون الذين لم يقيموا الصلاة ، فلم تذكر هذه الكلمات إلا فى أذان الفجر (٢) .

وقد أورد صاحب كتاب « محاسن الملوك » (٣) عن هذا الاستعمال منذ أيام عمر ما نصه : قال المغيرة لعمر رضى الله عنهما : ياخليفة الله ! فقال عمر : ذاك نبى الله داود ، قال : ياخليفة رسول الله ! قال ذلك صاحبكم المفقود قال ياخليفة خليفة رسول الله ! قال : ذاك أمر يطول . قال : ياعمر ! قال : لاتبخس مقامى شرفه ، أنتم المؤمنون وأناأميركم ، فقال المغيرة : يا أميرالمؤمنين. وبذلك كان عمر أول من تلقب بهذا اللقب الذى كان يتمشى مع عهد الفتوح، لما فى ذلك اللفظ من معنى السلطتين الحربية والإدارية .

أما لفظ إمام فإن الأصل فيه مستعار من إمامة الصلاة ، ولذا ترى الشيعة يستعملون هذا اللفظ ، لأنهم يعتقدون أن لأفراد البيت العلوى قوى إلهية مقدسة. وقد ورد لفظ إمام فى القرآن بمعنى الزعيم أو الدليل أو الرئيس، قال تعالى ﴿ وجعلناهم

---

(١) ذكر المقريزى (خطط ج ٢ ص ٢١٧) أن عثمان هو الذى أمر بإضافة هذه العبارة .

(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٩٦ — ٩٩ .

(٣) ورقة ٢٥ — ٢٧ ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، القاهرة ، راجع كتاب التاج فى أخلاق الملوك (طبعة أحمد زكي باشا) ص ٨٨ حاشية ٩ ص ٨٦ — ٨٨ .

أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات ﴾ (سورة الأنبياء ٢١ : ٢٣)، وكان النبي يؤم الناس في الصلاة باعتباره زعيما للمسلمين . ولما مرض مرضه الأخير ندب أبا بكر ليصلي بالناس . وكانت إمامة أبي بكر المسلمين في الصلاة نيابة عن النبي من أهم الأدلة التي استند إليها السنيون في أحقية أبي بكر بالخلافة بعد النبي . وقد حرص الخلفاء على إمامة المسلمين في الصلاة لما تدل عليه من صفة الزعامة ، حتى أصبحت من أهم أعمال الولاة في الأمصار الإسلامية .

(ب) الوزارة :

الوزير كلمة مشتقة من الوزر وهو الثقل ، لأن الوزير يحمل أعباء الدولة ، أو من الوزر وهو الملجأ والمعتصم ، بمعنى أنه يلجأ إليه ويرجع إلى رأيه وتدبيره (الفخري ص ١٣٧) . قال ابن خلدون في مقدمته (ص ٢٠٤) : « اعلم أن السلطان في نفسه ضعيف يحمل أمراً ثقيلا ، فلا بد من الاستعانة بأبناء جنسه . وإذا كان يستعين بهم في ضرورة معاشه وسائر مهنه ، فما ظنك بسياسة نوعه ومن استرعاه من خلقه وعباده ؟ وقد طلب موسى من الله سبحانه وتعالى أن يمده برجل من أهله يستعين به على القيام بأعباء الحكم فقال : ﴿ واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي أشدد به أزري وأشركه في أمري ﴾ (سورة طه ٢٠ : ٢٩ — ٣١) .

والوزارة ليست من مستحدثات الإسلام ، بل هي أقدم عهداً من ذلك ، فقد عرفها الفرس وبنو اسرائيل وغيرهما من الأمم .

أما إذا أريد بالوزارة استعانة السلطان أو الأمير بمن يشد أزره أو يعاونه في الحكم . فهي تتصل بصدر الإسلام ، لأن الرسول الكريم كان يشاور أصحابه في الأمور العامة والخاصة ويخص أبا بكر ببعض الأمور ، حتى إن العرب الذين اختلطوا بالفرس والروم قبل الإسلام وعرفوا هذا الاسم عنهم كانوا يسمون أبا بكر وزير النبي .

كذلك كان حال عمر مع أبي بكر ، فقد كان يشرف على القضاء ويقوم بتوزيع الزكاة . وكذلك كان شأن عثمان وعلي مع عمر ، فإنه كان يستعين بهما ويستنير بآرائهما ويعهد إليهما في القيام بكثير من أمور الدولة والنظر في أحوال الرعية .

وكان على يقوم بالقضاء بين الناس وبكتابة الرسائل وفداء أسرى المسلمين .
وكان هؤلاء الأعوان يعملون عمل الوزراء ، وان كان اسم الوزير لم يطلق عليهم ، لأنه لم يكن معروفاً عند العرب فى ذلك العصر ، لبساطة الإسلام وبعده عن أبهة الملك(١) . وكان الخليفة يستعين فى ادارة شئون الدولة بمجلس من الشيوخ يتألف من كبار الصحابة وأعيان المدينة وشيوخ القبائل ؛ وكان لا يقطع أمراً دونهم . لذلك كان نظام الحكم فى ذلك العصر أقرب الى النظام الجمهورى .
ولما انتقلت الخلافة الى بنى أمية واستحالت الى ملك وراثى اختار الخلفاء بعض ذوى الرأى ليستعينوا بآرائهم . فكان هؤلاء يقومون بعمل الوزراء وإن لم يلقبوا بلقب الوزير . ومع ذلك فإننا نجد زياد بن أبيه يلقب بلقب الوزير فى عهد معاوية بن أبى سفيان ، وروح بن زنباع الجذامى فى عهد عبد الملك .

(ج) الكتابة :

ومن أكبر أعوان الخليفة « الكاتب » ، وكان عمر بن الخطاب ، وعثمان ابن عفان ، وعلى بن أبى طالب ، وزيد بن ثابت ، ومعاوية بن أبى سفيان ، والمغيرة بن شعبة وسعيد بن العاص يكتبون القرآن ويحررون الكتب التى كان الرسول يرسلها الى الملوك والأمراء(٢) .

ولما ولى أبو بكر الخلافة اتخذ عثمان بن عفان كاتباً له . واتخذ عمر زيد ابن ثابت وعبد الله بن الأرقم ، واتخذ عثمان مروان بن الحكم . وروى الجهشيارى (ص ٢٣) أن علياً كرم الله وجهه قال لكاتبه عبد الله بن رافع : « يا عبد الله ؟ ألق دواتك(٣) . وأطل شباة(٤) قلمك ، وفرج بين السطور ، وقرمط(٥) بين الحروف » .

ولما انتقلت الخلافة الى بنى أمية تعدد الكتاب لتعدد مصالح الدولة ، وأصبح

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .
(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٦ .
(٢) الجهشيارى : كتاب الوزراء والكتاب ص ١٢ — ١٤ .
(٣) اجعل لها ليقة وهى خرقة توضع فى المداد .
(٤) الشباه (بفتح الشين) برية القلم .
(٥) القرمطة : الدقة فى الكتابه والتقريب بين الحروف .

الكتاب خمسة : كاتب الرسائل وكاتب الخراج وكاتب الجند وكاتب الشرطة وكاتب القاضي . وكان كاتب الرسائل أهم هؤلاء الكتاب في الرتبة ، وكان الخلفاء لا يولو هذا المنصب إلا أقرباءهم وخاصتهم ،وظلوا على ذلك إلى أيام العباسيين .

ومن الكتاب الذين ذاع صيتهم زياد بن أبيه كاتب أبي موسى الأشعري . وسالم كاتب هشام بن عبد الملك ، وعبد الحميد الكاتب كاتب مروان بن محمد .

(د) الحجابة :

كان الخلفاء الراشدون لا يمنعون أحدا من الدخول عليهم ، بل كانوا يخاطبون الناس على اختلافهم بلا حجاب . فلما انتقلت الخلافة إلى بني أمية ، اتخذ معاوية ومن جاء بعده من الخلفاء الحجاب بعد حادثة الخوارج مع علي ومعاوية وعمرو ابن العاص ، وذلك خوفاً على أنفسهم من شر الناس ، وتلافيا لازدحامهم على أبوابهم ، وشغلهم عن النظر في مهام الدولة . وفي ذلك يقول ابن خلدون :

« وأما مدافعة ذوي الحاجات عن أبوابهم فكان محظوراً بالشريعة ، فلم يفعلوه . فلما انقلبت الخلافة إلى ملك وجاءت رسوم السلطان وألقابه ، كان أول شيء بديء به في الدولة شأن الباب وسده دون الجمهور بما كانوا يخشون على أنفسهم من اغتيال الخوارج وغيرهم ،كما وقع لعمر وعلي ومعاوية وعمرو بن العاص وغيرهم ، مع ما في فتحه من ازدحام الناس عليهم وشغلهم بهم عن المهمات ، فاتخذوا من يقوم بذلك وسموه الحاجب » (١) .

والحاجب موظف كبير يشبه كبير الأمناء في أيامنا هذه ، وكان يشغل منصباً سامياً في البلاط ، ومهنته إدخال الناس على الخليفة ، مراعياً في ذلك مقامهم وأهمية أعمالهم . ولكنهم كانوا يبيحون الدخول لثلاثة في أي وقت شاءوا ، فقد قال عبد الملك ابن مروان لما ولى حاجبه : « لقد وليتك حجابة بابي إلا عن ثلاثة : المؤذن للصلاة فإنه داعي الله ، وصاحب البريد فأمر ما جاء به ، وصاحب الطعام لئلا يفسد » .

كذلك أوصى عبد الملك أخاه عبد العزيز الذي ولي مصر من قبله (٦٥ — ٨٦ هـ) فقال : « أبسط بشرك ، وألن كنفك ، وآثر الرفق

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .

فى الأمور فإنه أبلغ بك . وانظر حاجبك فليكن من خير أهلك ، فإنه وجهك ولسانك ، ولا يقفن أحد ببابك إلا أعلمك مكانه لتكون أنت الذى تأذن له أو ترده » (١).

٢ — النظام الإدارى

ظل النظام الإدارى للحكومة الإسلامية فى الجملة على ما كان عليه فى بلاد الفرس والروم . فقد وجد العرب أن هذه الأمم التى بنوا حضارتهم على أنقاضها ذات تاريخ مجيد عريق فى الحضارة والمدنية والنظم السياسية . فلم يكن بد إذن من قبول هذا النظام وإبقائه على ما كان عليه من قبل ، ثم إحداث ما يتطلبه الإصلاح من التغيير الذى يتفق وعقائدهم الدينية ويتمشى مع مصلحة الشعوب التى دانت للمسلمين .

وكان النظام الإدارى فى صدر الإسلام وفى عهد بنى أمية نظاماً أولياً ، فلم يتبع نظام توزيع الأعمال على الإدارات المختلفة واختصاص كل إدارة بأعمال معينة كما فعل العباسيون من بعد .

ولما ولى أبو بكر الخلافة أقر عمال الرسول على أعمالهم وقال له أبو عبيدة : أنا أكفيك المال ، وقال عمر : وأنا أكفيك القضاء . وكان أبو بكر يستشير أهل الرأى والفقه من أمثال عمر وعثمان وعلى وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت .

وقد بقى النظام الإدارى فى الولايات الاسلامية وسار عليه الولاة دون أن يدخل عليه تغيير يستحق الذكر . فكان بمصر مثلا المدير أو المحافظ ، والمأمور ، أو نائب المدير ، والخولى أو المفتش الزراعى . وهم لا يختلفون حتى اليوم من حيث اختصاصتهم عما كانوا عليه فى عهد الرومان ، اللهم إلا فى الألفاظ الرومانية التى كانت تطلق على من كانوا يشغلون هذه المناصب قبل الفتح الإسلامى .

---

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١١٥ .

(أ) الدواوين :

كان المسلمون يحاربون ابتغاء مرضاة الله لا يريدون على ذلك مالا ولا جزاء إلا من عند الله . ولا بذل بعضهم كثيراً من ماله فى وجوه البر والإحسان . ولم يفرض لهم النبى ولا أبو بكر عطاء مقررا ، ولكن جرت العادة أنهم إذا غزوا بلدا من البلاد أخذوا نصيبهم من الغنائم بحسب ما قررته الشريعة . وإذا ورد إلى المدينة شىء قسمه النبى عليهم فى المسجد ، وجرى الأمر على ذلك حتى كانت سنة ١٥ هـ . ولما توالت الفتوح الاسلامية وأثرت الدولة العربية بما ملكته من كنوز الفرس ، رأى عمر توزيع هذه الأموال على المسلمين مراعيا فى ذلك مراتبهم ومبلغ إستحقاقهم . ولكنه لم يعرف كيف يؤدى هذا العمل على أتم الوجوه ، فأشار عليه أحد مرازبة الفرس بإدخال نظام الدواوين الذى سار عليه الفرس لضبط دخل الدولة وخرجها .

والديوان كلمة فارسية معناها سجل أو دفتر(١) وأطلق اسم الديوان من باب المجاز على المكان الذى يحفظ فيه الديوان . يقول الماوردى(٢) : « والديوان موضوع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال » . ويقول الجهشيارى(٣) عن سبب تدوين عمر الدواوين : « كان عمر أول من دون الدواوين من العرب فى الاسلام ، وكان السبب فى ذلك أن أبا هريرة قدم عليه من البحرين ومعه مال ، فلقى عمر فقال له عمر : ماذا جئت به؟ قال : خمسمائة ألف درهم فقال عمر : أتدرى ما تقول ؟ قال نعم مائة ألف درهم ، ومائة ألف درهم ، ومائة ألف درهم فقال عمر : أطيب هو؟ (يريد أحلال هو؟) قال : لا أدرى ، فصعد عمر المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! قد جاءنا مال كثير ، فإن شئتم كلناه كيلا ، وإن شئتم أن نعده عدا . فقام إليه رجل فقال . يا أمير المؤمنين ! قد رأيت هؤلاء الأعاجم يدونون ديوانا لهم قال : دونوا الدواوين » ،

---

(١) ذكر ابن خلدون (مقدمة ص ٢١١) أن أصل هذه التسمية أن كسرى نظر يوما إلى كتاب ديوانه وهم يحسبون على أنفسهم كأنهم يحادثون فقال « ديوانه » أى مجانين بلغة الفرس ، فسمى موضعهم بذلك ، وحذفت الهاء لكثرة الاستعمال تخفيفا فقيل ديوان ، ثم نقل هذا الاسم إلى كتاب هذه الأعمال المتضمن للقوانين والحسبانات .

(٢) الأحكام السلطانية ص ١٩١ .   (٣) الوزراء والكتاب ص ١٦ — ١٧ .

وكان بالمدينة بعض مرازبة الفرس . فلما رأى حيرة عمر قال له: ياأمير المؤمنين! إن للأكاسرة شيئاً يسمونه ديوانا جميع دخلهم وخرجهم مضبوط فيه لا يشذ منه شيء . وأهل العطاء مرتبون فيه مراتب لايتطرق عليها خلل ، فتنبه عمر وقال : صفه لى : فوصفه المرزبان ، فدون الدواوين وفرض العطاء.

وقد قيل إن عمر استشار المسلمين فى تدوين الديوان فقال على بن أبى طالب: « تقسم كل سنة ما اجتمع إليك من مال ولا تمسك منه شيئاً » وقال عثمان ابن عفان : « أرى مالا كثيراً يسع الناس ، وإن لم يحصوا ، حتى يعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر » ، فقال له الوليد بن هشام بن المغيرة : « قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دنوا ديوانا وجندوا جندا : فدون ديوانا وجند جندا » ، فأخذ بقوله ، فدعا عقيل بن أبى طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم ، وكانوا من نساب قريش ، فقال لهم : « اكتبوا الناس على منازلهم » . فبدءوا ببنى هاشم ، ثم أتبعوهم أبا بكر وقومه ، ثم عمر وقومه على الخلافة . فلما نظر إليه عمر قال : وددت والله أنه هكذا ، ولكن ابدءوا بقرابة النبى صلى الله عليه وسلم الأقرب فالأقرب ، حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله ».

عامل عمر المسلمين وأهل الذمة على سواء معاملة قوامها العدالة المطلقة. يدل على صحة هذا القول ماحكى عن عمر حين عاب عليه قومه تأخير تدوين أنصبتهم فى بيت المال وقالوا له : أنت خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخليفة أبى بكر ، خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلو جعلت نفسك حيث جعلك هؤلاء القوم الذين كتبوا ، قال بخ بخ بنى عدى ! أردتم الأكل على ظهرى ، وأن أهب حسناتى لكم . لاوالله حتى تأتيكم الدعوة وأن يطبق عليكم الدفتر (يعنى ولو أن تكتبوا آخر الناس) . إن لى صاحبين (يعنى النبى وأبا بكر) سلكا طريقاً ، فإن أنا خالفتهما خولف بى . والله ما أدركنا الفضل فى الدنيا ، ومانرجو الثواب على عملنا إلا بمحمد صلى الله عليه وسلم . فهو شرفنا ، وقومه أشرف ، ثم الأقرب فالأقرب : والله لئن جاءت الأعاجم بعمل وجئنا

(١) الفخرى ص ٧٩ — ٨٠ .

(٢) البلاذرى . فتوح البلدان ص ٣٥٣ — ٣٥٤ .

بغير عمل ، لهم أولى بمحمد منا يوم القيامة . فإن من قصر به عمله لم يسرع به نسبه . ابدءوا بقرابة النبي صلى الله عليه وسلم : الأقرب فالأقرب حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله تعالى » .

ولما عزم عمر على تدوين الديوان في المحرم سنة ٢٠ هـ ، « بدأ ببني هاشم في الدعوة ، ثم الأقرب فالأقرب برسول الله صلى الله عليه وسلم. فكان القوم إذا استووا في القرابة قدم أهل السابقة ، ثم انتهوا إلى الأنصار فقالوا : بمن نبدأ ؟ فقال : ابدءوا برهط سعد بن معاذ الأشهلي من الأوس ثم الأقرب فالأقرب لسعد وفرض عمر لأهل الديوان ، ففضل أهل السوابق والمشاهد في الفرائض . وكان أبو بكر قد سوى بين الناس في القسم . فقيل لعمر في ذلك فقال : لا أجعل من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كمن قاتل معه . فبدأ بمن شهد بدراً من المهاجرين والأنصار ، وفرض لكل رجل منهم خمسة آلاف درهم في كل سنة حليفهم ومولاهم بالسواء ، وفرض لمن كان له إسلام كإسلام أهل بدر ومن مهاجرة الحبشة ممن شهد أحداً أربعة آلاف درهم لكل رجل ، وفرض لأبناء البدريين ألفين ألفين إلا حسنا وحسينا ، فإنه ألحقهما بفريضة أبيهما لقرابتهما برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففرض لكل واحد منهما خمسة آلاف ، وفرض للعباس بن عبد المطلب خمسة آلاف لقرابته برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال بعضهم فرض له سبعة آلاف درهم ، وقال سائرهم : لم يفضل أحداً على أهل بدر إلا أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فإنه فرض لهن اثني عشر ألفاً ، وألحق بهن جويرية بنت الحارث وصفية بنت حيي بن أخطب . وفرض لمن هاجر قبل الفتح لكل رجل منهم ثلاثة آلاف درهم ، وفرض لمسلمة الفتح لكل رجل منهم ألفين . . وفرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف .. ثم فرض للناس على منازلهم وقراءتهم القرآن وجهادهم ، ثم جعل من بقي من الناس باباً واحداً ، فألحق من جاءه من المسلمين بالمدينة في خمسة وعشرين ديناراً لكل رجل ، وفرض لآخرين معهم وفرض لأهل اليمن وقيس بالشام والعراق لكل رجل ما بين ألفين إلى ألف إلى تسعمائة إلى خمسمائة إلى ثلثمائة . ولم ينقص أحداً من ثلثمائة . وقال لئن كثر المال لأفرضن لكل رجل أربعة

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٥٤ — ٤٥٥ .

آلاف درهم : ألفاً لسفره ، وألفاً لسلاحه ، وألفاً يخلفه لأهله ، وألفاً لفرسه ونعله . وفرض لنساء مهاجرات ، فرض لصفية بنت عبد المطلب ستة آلاف درهم ، ولأسماء بنت عميس ألف درهم . ولأم كلثوم بنت عقبة ألف درهم ، ولأم عبد الله بن مسعود ألف درهم »(١) .

على أن بعض المسلمين رأى أن تدوين الدواوين يجعل العرب يهملون التجارة التى كانوا يعتبرونها من أشرف المهن ، فقال أبو سفيان بن حرب لعمر : أديوان مثل ديوان بنى الأصفر ؟ إنك إن فرضت للناس اتكلوا على الديوان وتركوا التجارة ، فقال عمر : لابد من هذا ، فقد كثر فىء المسلمين .

استخدم عمر الكتاب فى الدواوين ، فرتبوا الناس طبقات كما تقدم ، مبتدئين بالعباس عم النبى ، ثم بنى هاشم ، ثم بمن بعدهم . وجرى الحال على ذلك مدة خلافته وخلافة عثمان الذى أدخل فى أيامه تعديلا يستحق الذكر (الفخرى ص ٧٩ — ٨٠) .

وأنشأ عمر ديوان الجند لتدوين أسماء الجند وما يخص كلا منهم من العطاء ، وديوان الخراج أو الجباية لتدوين ما يرد الى بيت المال وما يفرض لكل مسلم من العطاء ، وانحصرت الأعمال الإدارية فى عهد بنى أمية فى أربعة دواوين أو إدارات رئيسية هى :

١ — ديوان الخراج .

٢ — ديوان الرسائل ويشرف صاحبه على الولايات والرسائل التى ترد من الولاة :

٣ — ديوان المستغلات أو الإيرادات المتنوعة .

٤ — ديوان الخاتم وقد أنشأه معاوية بن أبى سفيان ، وكان أكبر دواوين الدولة . ويقوم موظفوه بنسخ أوامر الخليفة وإيداعها هذا الديوان بعد أن تحزم بخيط وتختم بالشمع ثم تختم بخاتم صاحب هذا الديوان ، كما هو الحال اليوم فى قلم « الأرشيف » أو السجلات .

---

(٣) الطبرى ج ٤ ص ١٦٢ — ١٦٣ .

ويرجع السبب فى إنشاء هذا الديوان الى أن معاوية أحال رجلا على زياد ابن أبيه عامله على بلاد العراق بمائة ألف درهم ، فمضى ذلك الرجل وقرأ الكتاب — وكانت توقيعاتهم تصدر غير مختومة — وجعل المائة مائتين . فلما رفع زياد حسابه الى معاوية أنكر هذا العدد وقال « ما أحلته إلا بمائة ألف » ، ثم استعاد المائة ألف من الرجل ووضع ديوان الخاتم ، فصارت التوقيعات تصدر مختومة لا يعلم أحد ما تشتمل عليه ولا هو يستطيع أن يغيرها فى شىء (الفخرى ص ١٠٢) .

على أن ختم الرسائل والصكوك كان قبل ذلك . فقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يكتب الى هرقل امبراطور الروم ، قيل له إن العجم لا يقبلون كتاباً الا اذا كان مختوماً ، فاتخذ الرسول خاتماً من فضة ونقش فيه « محمد رسول الله » ، ثم ختم به أبو بكر وعمر وعثمان إلى أن سقط من يد عثمان فى بئر أريس ، فصنع آخر على مثاله .

وكان ديوان الخاتم يعد من الدواوين الكبرى منذ خلافة معاوية إلى أواسط عهد الدولة العباسية ، ثم ألغى لتحول الأعمال إلى الأمراء والوزراء والسلاطين وغيرهم .

وكان بجانب هذه الدواوين الأربعة مصالح أخرى أقل أهمية من هذه : منها ما هو خاص بصرف نفقات الشرطة وما هو خاص بنفقات الجند .

وكان ديوان الخراج (المالية) يكتب بالفارسية والرومية إلى عهد عبد الملك ابن مروان ، فنقل عبد الملك ديوان فارس والشام إلى العربية ونقل ابنه الوليد ديوان مصر إلى العربية .

ويقول سيد أمير على : إن النظام الإدارى والسياسى للولايات الإسلامية فى عهد الدولة الأموية لم يكن من عمل معاويه ، بل إن عبد الملك هو الذى وضع هذا النظام فقد صبغ الإدارة والمالية بالصيغة العربية ، وبتحويله الدواوين إلى العربية

تقتصر على أهل الذمة والمسلمين من غير العرب بعد أن انتقلت مناصب هؤلاء إلى أيدي المسلمين من العرب بعد قيام الحجاج بن يوسف بتنفيذ سياسة عبد الملك.

ولما فتح المسلمون بلاد الفرس والروم واتسع ملكهم وعظمت دولتهم، اقتبسوا من الأكاسرة والقياصرة، فاتخذوا الطراز عن الروم. لكنهم لم يستحسنوا اتخاذ الصور لتحريمها في الإسلام، بل استعاضوا عنها بكتابة أسمائهم وعبارات أخرى تجري مجرى الفأل والدعاء، وظلوا على ذلك إلى أيام عبد الملك. فقد كانت العربية يؤتى بها بالقراطيس (الورق البردي)، وكانت القراطيس تنسج ... عليها عبارات مسيحية. وقد أمر عبد الملك بترجمة هذه العبارات العربية، فلما عرف معناها قال: ما أغلظ هذا في أمر الدين والإسلام! وكتب إلى أخيه عبد العزيز بن مروان عامله على مصر، بإبطال هذا الطراز واستبدال تلك العبارات بإحدى الشهادتين (لا إله إلا الله). ففعل. وظل هذا الطراز في سائر بلاد الدولة الإسلامية ولم يتغير ... كتب عبد الملك إلى عماله بإبطال القراطيس المطرزة بطراز الروم ...

وقد بقي الخلفاء في قصورهم دور النسيج ... فكان يشرف على أعماله صاحب الطراز، وينظر في أمور الصناع والحاكة ويجري عليهم الأرزاق ويتفقد أعمالهم. وقد بلغت هذه الدور أوج عظمتها في عهد الدولتين الأموية والعباسية.

(١) ابن خلدون: المقدمة ... ص ٢٣٨ ...

(ولما حملت هذه القراطيس إلى بلاد الروم وعلم بها الإمبراطور أنكر ما فيها، واستشاط غيظاً، فكتب إلى عبد الملك: إن عمل القراطيس بمصر وسائر ما يطرز هناك للروم ولم يزل يطرز بطراز الروم، فإن كان من تقدمك من الخلفاء قد أصاب فقد أخطأت، وإن كنت قد أصبت فقد أخطأوا. فاختر من الحالتين ... وبعث إليه بهدية يسترضيه بها للرجوع إلى الطراز، ورد عبد الملك هديته وأخبر الرسول بأنه لا جواب عنده، فأعاد إليه أضعافها وطلب الجواب. فلما لم يرد عليه غضب الإمبراطور وبعث يهدده بنقش شتم النبي على النقود، لذلك ... عبد الملك على ضرب العملة الإسلامية ...

وكان لإصلاح العملة من أهم الأعمال التي قام بها عبد الملك، وهي تدل على

حسن سياسته وبعد نظره ، إذ لم يكن فى العربية عملة مقررة إلى ذلك الحين . وكان لكل ولاية دار ضرب خاصة بها تضرب فيها العملة . على أنها لم تفد بالغرض المطلوب لعدم ضبط معيار هذه النقود وظهور تزييفها (١) . وقد بنى عبد الملك داراً للضرب ، وأمر بسحب العملة فى جميع أنحاء الدولة وضرب بدلها عملة جديدة من الذهب والفضة . وكان يعاقب كل من يزيف العملة عقاباً صارماً .

وحذا الوليد حذو أبيه عبد الملك ، فحول ديوان الخراج فى مصر إلى العربية بعد أن كان باليونانية التى كانت اللغة الرسمية فى هذه البلاد إلى عهد الوليد ابن عبد الملك (شوال ٨٦ — جمادى الآخرة سنة ٩٦ هـ) . يؤيد ذلك أوراق البردى العربية ذات الصبغة الرسمية التى يرجع تاريخها إلى عهد الوليد ، والتى دونت باليونانية والعربية معاً .

ولنأت بوصف بعض الوثائق نقلا عن كتاب أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية للدكتور أدولف جروهمان (٢) ، فنى صفحة ٢١ نجد الطراز رقم ٥ المؤرخ (٩٠ — ٩٦ هـ) ، وهو عبارة عن كتاب من أهل كورة اشقوه (كوم أشقوه) إلى الأمير قرة بن شريك صاحب الخراج والصلاة فى مصر .

ونجد فى صفحة ٢٥ الطراز رقم ٩٥ ، وهو بمثابة مرسوم صادر من عبد الله ابن عبد الملك بن مروان صاحب الخراج والصلاة فى مصر (٨٦ — ٩٠ هـ) ، وفيه بعد البسملة وعبارات التوحيد وذكر أمير المؤمنين الوليد (بن عبد الملك) : هذا ما أمر به الأمير عبد الله بن عبد الملك فى سنة ست وثمانين . وتدل هذه الوثيقة على أن اللغتين اليونانية والعربية كانتا مستعملتين فى دواوين الحكومة : الأولى على أنها اللغة الرسمية التى كانت تدون بها الأعمال فى تلك الدواوين ، والثانيه لأنها لغة الحاكم العربى ، وذلك لصدور هذه الوثيقه عن رجل له صفة رسمية ، وهو والى مصر . وكذلك نجد فى صفحه ٦٧ الطراز رقم ٦٧ . وهو شبيه بهذا تماما ، غير أنه مؤرخ بسنة ٨٩ هـ .

وكذلك كانت الحال فى الوثائق التى صدرت عن الوالى الذى حل محله فى

---

(١) Von Kremer : Orient Under the Caliphas, pp. 199-200

(٢) أنظر ترجمتنا فى هذا الكتاب .

بولاية الصلاة والخراج فى مصر وهو قرة بن شريك ، فإنها يمثل هاتين الصيغتين فى نفس هذه المسائل الرسمية (١) . أضف إلى ذلك الطراز رقم ٦٨ وفيه نجد ثبتاً دونت فيه عدة أسماء أمام كل منها مقدار مادفع . ولهذه الوثيقة أهمية كبيرة لتعلقها بمسألة الخراج مباشرة .

وقد يلاحظ فى بعض أوراق البردى كتابات باللغة القبطية إلى جانب اللغتين اليونانية والعربية . وربما دعا ذلك إلى الاعتقاد بأن اللغة القبطية كانت لغة رسمية . ولكننا نستطيع أن ندفع هذا الاعتقاد بما نلاحظه على هذه الكتابات القبطية من أنها قد دونت إما فى آخر الوثيقة (٢) أو فى ظهرها ، مما يدل على أن هذه اللغة كانت فى الدرجة الثالثة من الأهمية (٣) ، ومن أن هذه الكتابات كلها قد دونت بحبر مخالف لحبر النص الأصلى للوثيقة (٤) . كما نلاحظ أن هذه الكتابات القبطية يختلف موضوعها عن موضوع النص الأصلى اليونانى العربى ، فموضوعها فى الغالب من نوع واحد هو الصكوك كما وجد فى الوثائق صكوك باليونانية (٥) . يضاف إلى ذلك كله أنه لم يعثر حتى الآن على وثيقة رسمية كتبت بالقبطية فى العهد العربى .

ومما يدل على كتابة هذه الوثائق اليونانية والعربية كانت عامة لسكان مصر يخاطب بها اليونان والقبط وغيرهم ، ما ورد بصفحة ٥٤ عن الطراز رقم ٣٠ ، حيث نجد ثبتاً على عمود يمتد ١١ سطراً يحتوى على أسماء من القبط . ويرجع خطه

---

(١) انظر الطرز رقم ٢٨ ، ٢٩ ، ٦٠ ، ٦٥ ، ٦٩ص ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٤ .

(٢) يقول جروهمان فى إحدى هذه الأوراق : « ... وعرض الفراغ الذى بين السطر الأخير من الطراز والسطر الأول من الصك القبطى ٥ سم ... (ص ٦٣) . ويقول فى وصف الطراز رقم ٦ المؤرخ (٨٦ — ٩٦ هـ) ، وفى أسفل الطراز فراغ عرضه ١و٥ سم ، وفى أسفله نص قبطى ، وكذلك رقم ٣ ص ٤٤ يوجد بين النص القبطى ومتن الطراز ٥ر٦ سم .

(٣) كما فى الطراز رقم ٦٦ ص ٢٣ ، فإن به سطرين من متن قبطى كتبا فى ظهر الطراز ، وكذلك بالطراز رقم ٤ ص ٤٦ أربعة اسطر قبطية فى ظهر الأصل .

(٤) انظر وصف جروهمان للطراز رقم ٦ ، فإن اصله مكتوب بحبر بنى مائل للسواد على حين كتبت السطور القبطية الملحقة به بحبر اسود . وكذلك الحال فى الطراز رقم ٦١ ص ١٣ ثم فى الطراز رقم ٦٦ ص ٢٣ . وعلى العكس من ذلك الطراز رقم ٣ ص ٤٤ فإن لون الحبر فى نصه الأصلى اسود ولونه فى النص القبطى بنى .

(٥) انظر الطرار رقم ٣١ ، ٤٨ ، ٥٠ ص ١٦ ، ١٧ ، ١٨ على الترتيب .

(ب) الإدارة على البلدان ...

كانت حكومة القبيلة عند العرب في العصر الجاهلي ديمقراطية ، وكان شيخها يجمع رؤساء العشائر للتشاور والفصل في الأمور . ولم يكن للقبيلة قانون تسير على وفقه ، بل كانت تحكم بما جرى عليه العرف الذي قام عندهم مقام القانون . فلما ظهر الإسلام أحل الوحدة الدينية محل الوحدة القومية ، وأصبح المسلمون متساوين جميعاً . وليس أدل على تلك الديمقراطية من قوله تعالى : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) (سورة الحجرات ٤٩ : ١٣) .

ولم تكن حكومة الرسول حكومة دينية فحسب ، بل كانت حكومة سياسية أيضاً . فقد كان يقود الجيوش ويفصل في الخصومات ويجبي الأموال . ومن ثم جمع في يده السلطتين الدينية والسياسية معاً ، على أن السلطة السياسية جاءت عرضاً ، لأن الغرض الأول الذي بعث الرسول من أجله إنما كان نشر الدعوة إلى الإسلام .

ولما هاجر الرسول إلى المدينة وضع نظام الدولة الإسلامية على ما تقدم وكان ينيب عمالاً على القبائل وعلى المدن . وكان على كل مدينة كبيرة أو قبيلة في الحجاز واليمن عامل من قبله ، يقوم بإمامة المسلمين في الصلاة وجمع الزكاة .

ومن ثم لم يكن لهؤلاء العمال صفة سياسية . وقد فرض الرسول لعتاب ابن أسيد الذي ولاه مكة درهماً كل يوم ، فكان هذا الراتب أول ما وضع من الرواتب للعمال . أما كبار الصحابة فكانوا يعطون نصيبهم من الغنائم وغيرها .

ولما ولي أبو بكر الخلافة أقر عمال الرسول على أعمالهم ، وقسمت بلاد العرب إلى عدة ولايات هي : مكة ، والمدينة ، والطائف ، وصنعاء ، وحضرموت ، وخولان وزبيد ، ورمع (١) ، والجند ، ونجران ، وجرش ، والبحرين .

ولما اتسعت الدولة العربية في عهد عمر ، قسم البلاد أقساماً إدارية كبيرة

(١) بكسر أوله وفتح ثانيه وعين مهملة موضع باليمن ، وقيل هو جبل باليمن .

إليها حكمها والإشراف على موارد ثروتها : وهى ولاية الأهواز والبحرين ، وولاية سجستان ومكران وكرمان ، وولاية طبرستان ، وولاية خراسان . وجعل بلاد فارس ثلاث ولايات . بلاد العراق وقد قسمها قسمين أحدهما حاضرته الكوفة والآخر حاضرته البصرة . وقسم بلاد الشام قسمين أحدهما قاعدته حمص والثانى دمشق ، وجعل فلسطين قسماً قائماً بذاته . وقسم إفريقية إلى ثلاث ولايات : مصر العليا ومصر السفلى وغربى مصر وصحراء ليبيا .

وقد عين عمر على هذه الولايات عمالا أو ولاة يستمدون سلطتهم من الخليفة الذى كان يجمع فى يده السلطتين التنفيذية والقضائية . وكان أمراء الأقاليم يسمون عمالا ، ومعنى عامل يفيد أن صاحبه ليس مطلق السلطة ، وقد استعملت كلمة والٍ فيما بعد ، وهذا يشعر بأن العامل قد أصبح له النفوذ والسلطان كما كانت الحال مع الحجاج بن يوسف الثقفى الذى ولى بلاد العراق من قبل عبد الملك بن مروان ثم ابنه الوليد من بعده . كذلك أطلقت عليه كلمة أمير . ويدل تطور هذا اللفظ على هذا النحو على السلطة الاستبدادية التى كان يتمتع بها الولاة .

كما أصبحت كلمة عامل فى عهد بنى أميه تطلق على رئيس الناحيه الإداريه ، وكان حكام الولايات يلقبون بلقب أمير ، ذلك اللقب الذى يطلق على أمراء البيت المالك . ولم تكن ثمة صلة بين لقب أمير ولقب أمير الأمراء الذى أدخله الخلفاء العباسيون فى سنة ٣٢٤ هـ ، وتلقب به قائد القواد مؤنس الخادم الذى لم يلقب نفسه أميراً قط . ثم جاء كافور الإخشيدى فرضى بأن يلقب بلقب أستاذ .

وكان فى كل إقليم عامل (أو والٍ أو أمير) يقوم بإمامة الناس فى الصلاة والفصل فى النزاع وقيادة الجند وجمع المال وما إلى ذلك . وكان عامل الخراج أهم هؤلاء العمال وكان يقف مع الوالى جنباً إلى جنب ، هذا يدير دفة السياسه وذاك يتولى شئون الدولة المالية . وكان بمثابة الرقيب على أعمال الوالى مما أدى إلى تنازع السلطة وقيام المنافسه بينهما ، الأمر الذى يعلل قصر مدة الولاة وعمال الخراج . وكان عامل الخراج يعين من قبل الخليفه مباشرة ، ولكن الأمير يتمتع بالسلطة المطلقة .

وقد ذكر الطبرى أسماء ولاة الأقاليم الإسلاميه فى عهد عمر (ج ٥ ص ٤٢ — ٤٢) ثم عهد عثمان (ج ٥ ص ١٤٨) الذى اتسعت رقعة الدولة فى عهده كما يتبين ذلك من الثبت الآتى .

الولايات	العمال في عهد عمر	العمال في عهد عثمان
مكة	نافع بن الحارث الخزاعي	عبد الله الحضرمي
الطائف	سفيان بن عبد الله الثقفي	القاسم بن ربيعة الثقفي
صنعاء	يعلى بن منبه حليف بني نوفل	يعلى بن منبه
البصرة	أبو موسى الأشعري	عبد الله بن عامر
الكوفة	المغيرة بن شعبة	سعيد بن العاص
مصر	عمرو بن العاص	عبد الله بن سعد بن أبي سرح
البحرين	عثمان بن أبي العاص	عبد الله بن قيس الفزاري
الشام	(دمشق)معاويه بن أبي سفيان	معاويه بن أبي سفيان
حمص	عمير بن سعد	عبد الرحمن بن خالد بن الوليد
الأردن		الأعور بن سفيان
فلسطين		علقمة بن حكيم الكناني
قنسرين		حبيب بن سلمة
قرقيسيا		جرير بن عبد الله
أذربيجان		الأشعث بن قيس
حلوان		عتبه بن النهاس
همذان		النسير
الري		سعيد بن قيس
أصبهان		السائب بن الأقرع
ماسبذان		حبيش

وعمر أول من وضع النظام السياسي للدولة الإسلامية ونظم إدارتها . وكانت سياسته ترمى إلى تماسك بلاد العرب وإدخال القبائل بعضها فى بعض لتكون أمة واحدة هى الأمة العربية . وكانت سياسته ترمى إلى عدم اختلاط العرب بأهالى البلاد التى فتحوها حتى لاتضيع قوميتهم . يقول سيد أمير على (ص٥٧) : « لو أن عمر عاش أطول مما عاش لاستطاع بما وهبه الله من قوة الشكيمة والشخصية البارزة أن يقوى من شأن الوحدة العربية ويحول دون قيام هذه الحروب الأهلية الطاحنة التى هددت كيان الإسلام » .

وقد اختار عمر الولاة من العرب ، وسار على هذه السياسة من جاء بعده من الخلفاء الراشدين والأمويين .

روى الطبرى (٥ : ٢٠) ، أن عمر خطب الناس يوماً فقال : أيها الناس ! إنى والله ما أرسل إليكم عمالا ليضربوا أبشاركم (جلودكم) ولا ليأخذوا أعشاركم (أموالكم) ، ولكن أرسلهم ليعلموكم دينكم وسنتكم . فمن فعل به شىء سوى ذلك فليرفعه إلى ، فو الذى نفس عمر بيده لأقصنه منه . فوثب عمرو ابن العاص وقال : رأيتك يا أمير المؤمنين إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعيه فأدب بعض رعيته إنك لتقصنه ؟ قال عمر : أى والذى نفس عمر بيده لأقصنه (١) منه ، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه . ثم بين لعمرو ما يخشاه على الرعية من عنف الأمراء وظلم الولاة فقال : « ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تجمروهم (٢) فتفتنوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم » . ناهيك بما فعله عمر بولد عمرو بن العاص وبجبلة بن الأيهم حين حكم بالقصاص لكل منهما لواحد من السوقه .

وكان عمر يسأل الرعية إذا وفدت عليه فى موسم الحج أو فى غير موسمه عن حال أمرائهم وسيرتهم فيهم . روى عن الأسود بن أبى يزيد قال : كان الوفد إذا

---

(١) بضم القاف وفتح الصاد والنون مع التشديد .
(٢) اى لاتتركوا الجنود فى بلاد الأعداء زمناً طويلا بعيدين عن أهلهم .

قدموا على عمر، سألهم عن أميرهم فيقولون خيراً، فيقول: هل يعود مرضاكم؟ فيقولون نعم. فيقول: هل يعود العبد؟ فيقولون نعم. فيقول: كيف صنيعه بالضعيف؟ هل يجلس على بابه؟ فإن قالوا لخصلة منها: لا، عزله(١).

وكان عمر لا يولي عاملا إلا إذا كتب له عهداً وأشهد عليه رهطاً من المهاجرين والأنصار، واشترط عليه ألا يركب برذوناً (حصاناً)، ولا يأكل نقياً ولا يلبس رقيقاً ولا يتخذ باباً دون حاجات الناس(٢).

وكان عمر يتفقد أحوال الرعية بنفسه [illegible] القرآن، ويقضي بين الناس حيث أدركه الخصوم، بل لقد عزم على الطواف في الولايات الإسلامية ليقف بنفسه على أحوال الرعية فيها، فقد روي أنه قال: لئن عشت إن شاء الله لأسيرن في الرعية حولاً، فإني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني. أما عمالهم فلا يرفعونها إلي، وأما هم فلا يصلون إلي فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين، والله لنعم الحول هذا(٣).

ورسم عثمان السياسة التي يسير عليها عماله في الأقاليم في هذه العبارة التي رواها الطبري (٥: ٤٤) في حوادث سنة ٢٤ هـ. فقد كتب إلى عماله: «أما بعد، فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة. وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة، ولم يخلقوا جباة، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة. فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء. ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم، فتعطوهم ما لهم وتأخذوهم بما عليهم. ثم تثنوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم، ثم العدو الذي تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء».

[illegible] نوعان :

(١) الطبري ج ٥ ص ٢٣ .

(٢) المصدر نفسه ج ٥ ص ٢١

(٣) المصدر نفسه ج ٥ ص ٢٠

[illegible]

الإمارة عن اختيار سبعة أمور أوردها الماوردي (١) [illegible]

[illegible]

٢ — النظر في الأحكام وتقليد القضاة والحكام [illegible]

[illegible] جباية الخراج وقبض الصدقات وتقليد العمال فيهما وتفريق

ما يستحق منهما . [illegible]

[illegible] حماية [illegible] الحريم [illegible]

[illegible] إقامة الحدود في حق الله [illegible]

[illegible] الإمامة في الجمع والجماعات [illegible]

٧ — تسيير الحجيج من عمله ومن سالكه من غير أهله [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] أما الإمارة [illegible]

يكون الوالي مستبدا بالسياسة والتدبير [illegible]

من اختصاص [illegible] الخليفة [illegible]

وأما عن الإمارة الخاصة فيقول الماوردي : « [illegible]

الإمارة على تدبير الجيش وسياسة الرعية وحماية البيضة (٢) [illegible] الحريم ،

وليس له أن يتعرض للقضاء والأحكام وجباية [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

(١) الأحكام السلطانية [illegible]

(٢) البيضة : المجتمع [illegible]

تقلد قضاء مصر قاض للفصل فى الخصومات ، فصارت سلطة الوالى مقصورة على قيادة الجيش وإمامة الصلاة (١) .

و قد بلغ من اهتمام الخلفاء باختيار الولاة أن كان بعضهم يسند هذا المنصب الكبير إلى أفراد من البيت المالك .

ويقول سيد أمير على (ص ١٩٠) : إن هناك نقصاً تطرق إلى النظام الإدارى فى عهد بنى أمية وجر إلى أسوأ العواقب فيما بعد . وذلك أنه كان يفرض على ولاة الأقاليم الإقامة فى حواضر ولاياتهم . أما فى عهد الأمويين فقد أصبحت ولاية الولايات تسند إلى بعض أفراد البيت المالك وإلى كبار رجال البلاط الذين كانوا يقيمون فى دمشق ويعينون من قبلهم رجالا يحكمون الولايات نيابة عنهم .

وكانت الولاية عامة للخليفة على جميع بلاد الدولة الإسلامية . ومن ثم كان من حقه تعيين القضاة والولاة ليحكموا هذه البلاد باسمه . وكان الخليفة يستعين فى إدارة البلاد بطائفة من كبار الموظفين ، منهم : عامل الخراج أو صاحب بيت المال ، والقاضى . والقائد ، وصاحب الشرطة ، على حين عين عمر عمالا للصلاة لفلسطين ودمشق وحمص وقنسرين .

وقد بلغت الدولة الإسلامية أقصى اتساعها فى عهد الأمويين ، وكانت تنقسم إلى خمس ولايات كبرى هى :

١ — الحجاز واليمن وأواسط بلاد العرب .

٢ — مصر بقسميها السفلى والعليا .

٣ — العراقان : العربى (بلاد بابل وآشور القديمة) ، والعجمى (بلاد الفرس نفسها) ، وعمان والبحرين وكرمان وسجستان ، وكابل وخراسان، وبلاد ماوراء النهر والسند ، وبعض أجزاء بلاد البنجاب . وكانت كل هذه الأقطار تكون ولاية كبيرة يتولى أمرها والى العراق وحاضرته الكوفة . ويلى خراسان وبلاد ماوراء النهر عامل من قبل والى العراق ومركزه مدينة مرو عادة. وكانت

---

(١) راجع كتاب النظم الإسلامية للمؤلف (الطبعة الثالثة : القاهرة ١٩٦٢) ص ١٥٣ — ١٦٢ .

بلاد البحرين وعمان تحت إشراف عامل البصرة من قبل والى العراق : ويلي بلاد السند والبنجاب عامل آخر من قبل والى العراق .

٤ — بلاد الجزيرة وتتبعها أرمينية وأذربيجان وبعض بلاد آسيا الصغرى .

٥ — والولاية الخامسة هى أهم هذه الولايات ، وتشمل كل إفريقية الشمالية حتى غربى مصر ، وبلاد الأندلس وجزر صقلية وسردينية والبليار ، ومركزها القيروان . وقد أناب والى إفريقية ولاة من قبله لحكم طنجة وجزر البحر الأبيض المتوسط وبلاد الأندلس(١) .

(ه) البريد :

البريد فى الاصطلاح هو أن يجعل خيل مضمرات فى عدة أماكن . فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى المكان الآخر ، وقد تعب فرسه ، ركب غيره فرساً مستريحاً . فإذا وصل إلى المكان الآخر ركب غيره فرسا آخر ، وهكذا حتى يصل إلى المكان النهائى . وأما معناه اللغوى فهو مسافة معلومة قدرت باثنى عشرة ميلا ، وقدره الفقهاء وعلماء المسالك بأربعة فراسخ ، والفرسخ ثلاثة أميال . وكان يطلق على الرسول « بريد » ، وقد قيل إن لفظ بريد عربى ، وقيل إنه فارسى معرب وإن أصله بالفارسية « بريد دم » ، أى مقصوص الذنب ، لأن الفرس كانوا يقصون ذنب بغل البريد ليمتاز عن غيره من الدواب الأخرى . وكان البريد يطلق على الرسول ، وكانوا يضعون البريد فى أماكن معينة لحفظ الأموال وسرعة وصول الأخبار(٢) .

وقد أدخل نظام البريد فى أيام أكاسرة الفرس وقياصرة الروم . على أن مقاديره أو مسافته كانت متفاوتة . وقد أدخل نظام البريد فى الإسلام فى عهد معاوية بن أبى سفيان ، ثم أدخل عليه عبد الملك بن مروان عدة تحسينات ، وبذلك أصبح أداة هامة فى إدارة شئون الدولة . وبلغ من اهتمامه بالبريد أنه أوصى حاجبه أن لا يمنع عامل البريد من الدخول عليه ليلاً أو نهاراً لأن عدم دخوله ساعة قد يفسد أعمال الولاية سنة كاملة (٣) .

---

(١) Ameer Ali, pp. 187-188

(٢) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٠١ — ١٠٢ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٦٧ — ٣٦٨ .

(ح) الشرطة : والشرطة هي الجند الذين يعتمد عليهم الخليفة أو الوالي في استتباب الأمن وحفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين ، وما إلى ذلك من الأعمال الإدارية التي تكفل سلامة الجمهور وطمأنينتهم . وقد سموا بذلك لأنهم أشرطوا أنفسهم بعلامات خاصة يعرفون بها .

وكان عمر أول من أدخل نظام العسس في الليل . وفي عهد علي بن أبي طالب نظمت الشرطة ، وأطلق على رئيسها صاحب الشرطة . وكان يختار من علية القوم ومن أهل العصبية والقوة ، وهو أشبه بالمحافظ في هذا العصر ، لأنه يتولى رياسة الجند الذين يساعدون الوالي على استتباب الأمن .

وكانت الشرطة تابعة للقضاء أول الأمر ، تقوم على تنفيذ الأحكام القضائية ، ويتولى صاحبها إقامة الحدود . لكنها لم تلبث أن انفصلت عن القضاء ، واستقل صاحب الشرطة بالنظر في الجرائم .

وقد أدخل هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ) نظام الأحداث ، وكان صاحبه يضطلع بالأعمال العسكرية التي تعتبر وسطاً بين أعمال صاحب الشرطة والقائد (١) .

ولما فتح العرب مصر سنة ٢٠ هـ كانت الشرطة في مدينة الفسطاط ، ولما أسس صالح بن علي العباسي مدينة العسكر سنة ١٣٢ هـ ، أنشئت فيها دار أخرى للشرطة أطلق عليها دار الشرطة العليا ، كما أطلق على دار الشرطة في الفسطاط دار الشرطة السفلى ، وانقسمت الشرطة بذلك قسمين :

١ - الشرطة السفلى ومقرها الفسطاط .

٢ - الشرطة العليا ومقرها العسكر ، وربما سميت بهذا الاسم لأن مكان العسكر يقع شمالي الفسطاط ، ومن ثم سميت الشرطة العليا (٢) .

وكانت الشرطة في بلاد الأندلس على نوعين : شرطة كبرى وشرطة صغرى ، وقد بين ابن خلدون (٣) اختصاص كل من الشرطتين

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢١٧ — ٢١٩ .

(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٤٠ .

(٣) انظر ص ٢٩ من مقدمة ابن خلدون المخطوطة بالمكتبة الملكية المحفوظة بدار الكتب المصرية برقم ١٠١٦ وعليها خط المؤلف .

[illegible] شرطة كبرى وشرطة صغرى [illegible] لصاحب
الشرطة الكبرى الحكم على الخاصة من ذوى النفوذ والجاه واختص صاحب
الشرطة الصغرى بالحكم على العامة، ونصب لصاحب الكبرى كرسى بباب
دار السلطان ورجال (١) يتبوءون المقاعد بين يديه، فلا يبرحون عنها إلا فى
تشريفه ».

(١) موارد بيت المال :

تعمل السياسة المالية لكل دولة على تحقيق التوازن بين مواردها ومصارفها. وقد سارت الدولة الإسلامية على هذه السياسة منذ نشأتها، فأنشأت بيتاً للمال يقوم على صيانته وحفظه والتصرف فيه للمصالح العامة للمسلمين، وهو بهذا يشبه وزارة المالية فى العصر الحاضر، وصاحبه يقوم بمهمة وزير المالية.

والمال الوارد لبيت مال المسلمين: إما أن يكون ضريبة عن الأرض أو عن أشياء أخرى غير الأرض كنصيبه من الفىء والغنائم والركاز، وكالجزية الرءوس التى يدفعها أهل الكتاب عن أشخاصهم، والعشر الذى يدفعه المشركون عن متاجرهم وسفنهم التى تدخل بلاد المسلمين وموانيهم، ويسمى العشور. كما كانت ترد إلى بيت المال الأموال التى لم يعلم لها مستحق، كاللقطة وتركة من لا وارث له، والأموال التى يصالح عليها المسلمون أعداءهم ونحو ذلك. ويجمل بنا الآن أن نأتى بكلمة عن كل مورد من هذه الموارد التى تمد بيت المال بالأموال :

١ — الخراج: والخراج هو مقدار معين من المال أو الحاصلات، ويفرض على الأرض التى فتحها المسلمون عنوة، وإذا عدل الخليفة عن تقسيمها على المحاربين ووقفها على مصالح المسلمين بعد أن يعوض المحاربين عن نصيبهم فيها أو استرضاهم، كما فعل عمر بن الخطاب. ويؤخذ عن الأرض التى أفاء الله بها على المسلمين

---

(١) كذا فى المخطوطات الثلاث المحفوظة بدار الكتب المصرية من مقدمة ابن خلدون.

فملكوها وصالحوا أهلها على أن يتركوهم فيها بخراج معلوم يؤدونه إلى بيت مال المسلمين .

وكانت هناك ثلاثة أنواع من الأراضى لا يفرض عليها الخراج ، وإنما يدفع عنها أصحابها عشر ثمارها وغلاتها ، وتسمى الأرض العشرية . وقد ذكر الماوردى (١) هذه الأنواع فقال :

١ — الأرض التى أسلم أهلها وهم عليها بدون حرب ، فهذه كانت تترك لهم على أن يدفعوا عنها ضريبة العشر زكاة ، ولا يجوز بعد ذلك أن يوضع عليها خراج .

٢ — الأرض التى ملكها المسلمون عنوة إذا قسمها الخليفة على الفاتحين ، فهذه تعتبر أرض عشر ولا يجوز أن يوضع عليها خراج :

٣ — الأرض التى كانت تؤخذ من المشركين عنوة ، وهذه تعتبر غنيمة تقسم بين الفاتحين فيملكونها ويدفعون عنها العشر من غلاتها ، وحينئذ تكون أرض عشر لا يوضع عليها خراج .

وكان الخراج إما شيئاً مقدراً من مال أو غلة كما صنع عمر بن الخطاب فى أرض السواد(٢) ، وإما حصة معينة مما خرج من الأرض . ويطلق على ذلك المعاملة أو المزارعة ، كما عامل النبى أهل خيبر على نصف مايخرج من الأرض قليلا كان أو كثيراً .

وقد مسحت أرض السواد فى زمن عمر بن الخطاب فبلغت ٣٦٫٠٠٠٫٠٠٠ جريباً ، فوضع عليها مقادير معينة من الدراهم تختلف باختلاف مقدار الأرض من درهمين إلى عشرة دراهم عن كل جريب ، وبلغ ما جبى من خراج العراق فى

---

(١) الأحكام السلطانية ص ١٣١ .

(٢) روى أن السواد لما فتح فى زمن عمر بن الخطاب شاور الناس فى قسمة الأرضين التى فتحها المسلمون فأراد قوم قسمتها ، فقال عمر : فكيف بمن يأتى من المسلمين بعدكم فيجدون الأرض قد اقتسمت ودونت ؟ وبعد مناقشات كثيرة جمع عمر الناس وخطبهم خطبة جاء فيها : قد رأيت أن أحبس الارضين بعلوجها وأضع فيها الخراج فتكون فيئا للمسلمين المقاتلة والذرية ولمن يأتى بعدهم ، فوافقوه على ذلك . وقد طلبوا إليه أن يقسم أرض الشام كما قسم الرسول خيبر فقال عمر : إذن أترك من بعدكم من المسلمين لاشىء لهم : وفعل بالشام كما فعل بالعراق فترك أهله ذمة يؤدون الخراج للمسلمين .

عهد عمر ١٨,٠٠٠,٠٠٠ درهم ، متوسط جباية الجريب ٣,٥٥ درهم . فإذا كان الفدان يساوى ٣,٥ من الأجربة فتكون ضريبة الفدان المزروع قمحاً ١٤ درهما .

وقد اختلف المؤرخون فى تقدير الخراج ، فقصره بعضهم على جزية الرءوس التى فرضت على أهل الذمة ، وقصره غيرهم على ضريبة الأرض . وكل منهما يخالف ماجرى به عرف الرواة الذين تحدثوا عن مقدار الخراج فى الولايات . فهم يعنون بالخراج المال الذى يأتى من إحدى ناحيتين : الأولى الضرائب الشخصية المعروفة بالجزية أوجزية الرءوس ، الثانية ضرائب الأطيان . لذلك اختلف المؤرخون فى تقدير الخراج (١) .

ولم يكن الخراج إيراداً ثابتاً للدولة ، إذ كانت ضريبة الأطيان تقل وتكثر حسب الاهتمام بالتعمير وإصلاح الجسور والخلجان وتحسين وسائل الرى ، كما أن جزية الرءوس كانت تتناقص بالتوالى لدخول أهل الولايات الإسلاميـــة فى الإسلام .

وقد تناول الماوردى الكلام على الخراج فقال « فأما الخراج فهو ما وضع على رقاب الأرض من حقوق تؤدى عنها ، وفيه من نص الكتاب بينة خالفته نص الجزية ، فلذلك كان موقوفا على اجتهاد الأئمة » . وقال فى موضع آخر : « الأرضون كلها تنقسم أربعة أقسام : أحدها ما استأنف المسلمون إحياءه فهو أرض عشر لا يجوز أن يوضع عليها خراج ، والقسم الثانى ما أسلم عليه أربابه فهم أحق به ، فتكون على مذهب الشافعى أرض عشر ولا يجوز أن يوضع عليها خراج ، والقسم الثالث ما ملك عن المشركين عنوة وقهرا فيكون على مذهب الشافعى رحمه الله غنيمة تقسم بين الفاتحين فيملوكونها ويدفعون العشر من غلاتها . وحينئذ تكون أرض عشر لا يوضع عليها خراج ، والقسم الرابع ما صولح عليه المشركون عن أرضهم فهى الأرض المختصة بوضع الخراج عليها .

وكذلك يقول (ص ١٢٢) : وأما الأرضون إذا استولى عليها المسلمون

---

(١) ذيل التاريخ المجموع على التحقيق لأوتيخا أوسعيد بن البطريق المتوفى سنة ٣٢٨ هـ (٩٤٠ م) .

فتنقسم ثلاثة أقسام : أحدها ما ملكت عنوة وقهراً حتى فارقوها بقتل أو أسر أو جلاء ، فقد اختلف الفقهاء في حكمها بعد استيلاء المسلمين عليها : فذهب الشافعي إلى أنها تكون غنيمة كالأموال ، تقسم بين الفاتحين إلا أن يطيبوا نفساً بتركها فتوقفها على مصالح المسلمين ؛ وقال مالك : تصير وقفاً على المسلمين حين غنمت ولا يجوز قسمتها بين الفاتحين ؛ وقال أبو حنيفة : الإمام فيها بالخيار بين قسمتها بين الفاتحين فتكون أرضاً عشرية ، أو يعيدها إلى أيدي المشركين بخراج يضربه عليها فتكون أرض خراج ا.هـ.

وكان الخلفاء يعينون عمالاً مستقلين عن الولاة ليقوموا بجباية الخراج ، فيدفعون منه أرزاق الجند وما تحتاج إليه المصالح العامة ، ويرسلون الباقي إلى بيت المال ليصرف في أبوابه المخصصة له .

وذكر أبو يوسف في كتابه الخراج الصفات التي تتوافر فيمن يتولى جباية الخراج فقال : إنه يجب أن يكون فقيهاً عالماً ، مشاوراً لأهل الرأي ، عفيفاً لا يخاف في الله لومة لائم ، ولا يخاف منه جور في حكم إن حكم .

وعلى الجملة فقد كان عهد الخلفاء الراشدين عهد عدل وتسامح لم يشتد فيه الولاة في جمع الجزية . وكانت الضرائب المفروضة على الأرض تقدر على حسب مساحة الأرض ومبلغ جودتها ونوع المحصول . ولم تكن الضرائب كلها تقدر بل كان بعضها يدفع عيناً . وقد عني الولاة بأمر الري اتصالاً بجباية الخراج ، فعنوا بمراقبة السدود وإنشاء الترع والجسور والعمل على صيانتها وتكريها (أي تطهيرها) . وكانت الضريبة تخفض إذا قل المحصول لسبب من الأسباب .

وكان هنالك نظامان لجباية الخراج : نظام المقاسمة ، ونظام الالتزام . ففي النظام الأول ترى الخلفاء يشرفون بأنفسهم على جباية الخراج ويحاسبون الولاة وعمال الخراج حساباً عسيراً ، ويبلغ من شدة مراقبة عمر لعماله أن يحصي أموالهم قبل توليتهم ، فإذا انتهت ولايتهم أحصى ثروتهم من جديد ، وما زاد صادرهم فيه كله أو بعضه ورده إلى بيت المال ، إلا إذا اتضح له أن هذه الزيادة أتت إلى العامل بطرق مشروعة .

وأما نظام الالتزام أو الإقطاع فإنه يرجع إلى عهد الرسول ، فقد أقطع

أناساً من مزينة أو جهينة أرضاً بقصد تعميرها فلم يعمروها ، وجاء آخرون فعمروها ؛ فاختصم الجهنيون والمزنيون إلى عمر بن الخطاب فقال : « من كانت له أرض ثم تركها ثلاث سنين لا يعمرها فعمرها قوم آخرون فهم أحق بها » .
وأقطع عثمان بن عفان عبد الله بن مسعود النهرين ، وأقطع سعد بن أبي وقاص قرية هرمز .

ويقول المقريزي (خطط ج ١ ص ٩٧) : إن الخلفاء الأمويين والعباسيين كانوا يقطعون أرض مصر لنفر من خواصهم ، ومن خراج مصر تصرف أعطيات الجند وما تتطلبه مرافق الدولة وما بقي يرسل إلى بيت المال ، وما أقطع من الأراضي يبقى بيد من آل إليه .

وقد ذكر الماوردي (١) نوعي الإقطاع فقال إنه ضربان : إقطاع استغلال وإقطاع تمليك . والثاني ينقسم إلى موات وعامر ، والثاني ضربان : أحدهما ما يتعين مالكه ولا نظر للسلطان فيه إلا بتلك الأرض في حق لبيت المال إذا كانت في دار الإسلام . فإن كانت في دار الحرب ولم يثبت للمسلمين عليها يد فإنه يجوز أن يقطعها الإمام المقطع ليتملكها .

وقد أوضح الأستاذ جروهمان (٢) طريقة كراء أرض الدولة أو قبالة (كفالة) الأراضي فقال « إن ذلك كان يحصل على طريقة المزاد على يد متولي خراج مصر بجامع عمرو بن العاص بالفسطاط حيث ينادى على الأرض جزءاً (أو كورة) ، ويعطى لمن يرسو عليه المزاد لمدة أربع سنوات » . وفي ذلك يقول المقريزي (٣) : « إن متولي خراج مصر كان يجلس في جامع عمرو بن العاص من الفسطاط في الوقت الذي تهيأ فيه قبالة الأراضي ، وقد اجتمع الناس من القرى والمدن ، فيقوم رجل ينادي على البلاد صفقات صفقات . وكتاب الخراج بين يد متولي الخراج يكتبون ما انتهى إليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس . وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالأربع سنين لأجل الظمأ

---

(١) الأحكام السلطانية ص ١٨١ — ١٨٢ .
(٢) Ar. Pap. Vol. II pp. 64-65
(٣) خطط ج ١ ص ٨٢ .

أو الاستبحار وغير ذلك . فإذا انقضى هذا الأمر خرج كل من كان تقبل أرضاً وضمنها إلى ناحيته ، فيتولى زراعتها وإصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه وأهله ومن ينتدبه لذلك ، ويحمل ما عليه من الخراج فى إبانه على أقساط ، ويحسب له من مبلغ قبالته ، وضمانه لتلك الأراضى ما ينفقه على عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خلجها بضرابة مقدرة فى الخراج . ويتأخر من مبلغ الخراج فى كل سنة فى جهات الضمان والمتقبلين » .

وبلغ مقدار خراج السواد فى عهد عمر بن الخطاب ۰۰۰ر۰۰۰ر۱۲۰ درهم ، وفى عهد ولاية عبيد الله بن زياد ۰۰۰ر۰۰۰ر۱۳۵ درهم ، وعهد الحجاج بن يوسف ۰۰۰ر۰۰۰ر۱۸۸ درهم ، وفى عهد عمر بن عبد العزيز ۰۰۰ر۰۰۰ر۱۲۰ درهم ، وفى عهد عمر بن هبيرة ۰۰۰ر۰۰۰ر۱۰۰ درهم ، سوى طعام الجند وأرزاق المقاتلة ، وفى عهد يوسف بن عمر ۰۰۰ر۰۰۰ر۱۰۰ درهم كان يحمل منها إلى دار الخلافة مبلغ يتراوح بين ۰۰۰ر۰۰۰ر٦۰ درهم و۰۰۰ر۰۰۰ر۷۰ درهم ، وينفق على من معه من جند الشام ۰۰۰ر۰۰۰ر۱٦ درهم ، وعلى البريد ۰۰۰ر۰۰۰ر٤ درهم وعلى الطوارىء ۰۰۰ر۰۰۰ر۲ درهم ، ويبقى عنده للنفقة على بيوت الأحداث والعواتق ۰۰۰ر۰۰۰ر۱۰ درهم .

وبلغ خراج بلاد الشام فى عهد عبد الملك بن مروان ۰۰۰ر۷۳۰ر۱ دينار منها ۰۰۰ر۱۸۰ من الأردن ، ۰۰۰ر۳٥۰ من فلسطين ، ۰۰۰ر٤۰۰ من دمشق ، ۰۰۰ر۸۰۰ من حمص وقنسرين والعواصم (۱) .

أما عن خراج مصر فيقول ابن عبد الحكم (۲) : « حدثنا عبد الملك بن مسلمة قال : لما فتح عمرو بن العاص مصر صولح على جميع من فيها من الرجال من القبط من راهق الحلم إلى ما فوق ذلك : ليس فيهم امرأة ولا صبى ولا شيخ على دينارين ، فأحصوا ذلك ، فبلغت عدتهم ثمانية آلاف ألف » .

ونحن نشك فى صحة هذا التقدير لأنه لو حسبت جزية الرءوس وحدها بناء على هذا التقدير ، لبلغ مقدارها ۰۰۰ر۰۰۰ر۱٦ دينار ، مع أن عمرا جباها

---

(۱) جرجى زيدان : التمدن الإسلامى ج ۱ ص ۱۷٥ .

(۲) كتاب فتوح مصر ص ۱٥٦ .

١٢٫٠٠٠٫٠٠٠ . ورب قائل يقول : إن الأربعة ملايين الباقية قد استبقاها عمرو لجنده ، ولما قد يقوم به من الإصلاحات . ومع ذلك فقد أهملنا حساب جزية الأرض كفاء ما ينفق على مصر من وجوه الاصلاح . فصحة التقدير ٦٫٠٠٠٫٠٠٠ إذ أن متوسط عدد سكان مصر فى أيام الخلفاء الراشدين والأمويين يتراوح بين ١٥٫٠٠٠٫٠٠٠ ، ١٨٫٠٠٠٫٠٠٠ . وهذا التقدير يتناسب مع ما قدره المؤرخ ملن فى كتابه مصر تحت حكم الرومان من أن عدد سكان مصر لم يقل فى أيام الخلفاء الراشدين عن عددهم فى أيام البيزنطيين ، إذ لم تكن هناك حروب ولا مجاعات ولا أوبئة (١) .

وبلغ خراج مصر فى عهد عمرو بن العاص ١٢٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار . ولكن الخليفة عمر لم يقنع بهذا القدر وعجب من أن مصر لم تؤد نصف ما كانت تؤديه قبل الاسلام ، إذ نمى إليه أن خراجها بلغ ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار فى عهد المقوقس ، بل قيل إنه بلغ ٢٤٫٤٠٠٫٠٠ دينار .

وكانت مساحة الأرض المزروعة فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين تقرب من ٦٫٠٠٠٫٠٠٠ فدان . كان المصريون يزرعون ثلثى هذه المساحة قمحا وشعيراً . وإذا كان خراج الفدان الواحد سبع كيلات كان محصول الأرض :

$$\frac{\text{٧ كيلات} \times \text{٤ أفدنة}}{\text{١٢}} = \text{٢٫٣٣٣٫٣٣٣}$$

أردباً . فإذا حسبنا ضريبة الأرض على أساس ٢ ٪ بلغ نصيب الدولة من هذا الايراد

$$\frac{\text{٢٫٣٣٣٫٣٣٣} \times \text{٢}}{\text{١٠٠}} = \text{٤٫٦٦٦٫٦٦٦ أردبا}$$

من ذلك يتضح أن ضريبة الأرض كانت بنسبة ٢ ٪ . وفى ذلك يقول اليعقوبى (٢) : « هذه السنة فتح عمرو بن العاص الاسكندرية وسائر أعمال مصر وأجتباها ١٤٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار من خراج رءوسهم لكل رأس دينار ، وخراج غلتهم من مائة أردب أردبان . وبلغ خراج مصر فى عهد عبد الله بن سعد بن

---

(١) راجع كتاب النظم الإسلامية للمؤلف (الطبعة الثالثة) ص ٢٥١ — ٢٥٢ .
(٢) تاريخ اليعقوبى ج ٩ ص ١٦٦ — ١٧٧ .

أبى سرح ٠٠٠ر٠٠٠ر١٤ دينار ، ثم أخذ الخراج يتناقص حتى بلغ فى عهد ولاية أسامة بن زيد فى خلافة سليمان بن الملك (٦٩ — ٩٩ هـ) ٠٠٠ر٠٠٠ر١٢ دينار ، وبلغ فى عهد ولاية عبيد الله الحبحاب فى خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥ هـ) ٠٠٠ر٠٠٠ر٤ دينار (١) . ويرجع هذا النقص إلى كثرة دخول المصريين فى الاسلام وانصراف الولاة عن العناية بشئون الرى .

وصفوة القول أن خراج العراق بلغ فى عهد الدولة الأموية ٠٠٠ر٠٠٠ر١٣٠ درهم ، وخراج مصر ٠٠٠ر٠٠٠ر٣٦ ، والشام ٠٠٠ر٠٠٠ر٢٠ ، فيكون مجموع خراج هذه البلاد ٠٠٠ر٠٠٠ر١٨٦ درهم . عدا خراج سائر البلاد الاسلامية التى لم يعرف مقدار خراجها بالضبط .

٢ — العشور :

يرجع نظام العشور إلى عهد عمر بن الخطاب . فقد كتب إليه أبو موسى الأشعرى أن تجاراً من المسلمين يأتون أرض الحرب (أى بلاد الكفار الذين ليس بينهم وبين المسلمين عهد) فيأخذون منهم العشر . فكتب عمر : خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين . وخذ من أهل الذمة نصف العشر ومن المسلمين درهما من كل أربعين درهماً ، ولا تأخذ منهم فيما دون المائتين شيئاً ، فإذا بلغت مائتين ففيها خمسة دراهم .

وقد نص الشرع على أخذ العشر من سلع تجار الكفار التى يقدمون بها من دار الحرب إلى دار الاسلام إذا شرط ذلك عليهم . وقد أفتى الشافعى للإمام أن يزيد عن العشر وأن ينقص منه إلى نصف العشر ، وأن يرفع ذلك عنهم إذا رأى فى ذلك مصلحة ، ولا يزيد أخذ العشر على مرة من كل قادم فى التجارة فى السنة الواحدة ولو تكرر قدومه . وكانت هذه الضريبة لا تؤخذ من التاجر إلا إذا انتقل من بلاده إلى بلاد أخرى .

٣ — الزكاة :

الزكاة والصدقة شىء واحد من أزكى الشىء يزكيه إذا نماه ، أو من زكاه تزكية إذا طهره . وإنما سميت بذلك للإشارة إلى أن إخراج

---

(١) راجع كتاب النظم الإسلامية للمؤلف (الطبعة الثالثة) ص ٢٥٦ — ٢٥٩ .

شيء من مال الانسان والتصدق به كفيل بتنمية هذا المال وإنزال البركة فيه ، وأيضاً لأن إخراج شيء من المال يطهره ويبعد عن صاحبه نظرة الحقد والحسد ويذهب عن نفس صاحبه الشح والأثرة . قال تعالى (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم)(١) . وهي كل ما يأخذ من أغنياء المسلمين ويوزع بين فقرائهم . وكان للصدقة ديوان خاص بها في دار الخلافة له فروع في سائر الولايات . فكان على المسلمين أن يؤدوا الزكاة بمقدار ربع العشر (٢٫٥٪) عما يمتلكونه من المال . وهذه هي زكاة النقد أو النقدين (الذهب والفضة) .

أما زكاة السوائم وهي الإبل والغنم ويلتحق بها العنز . فكانت تؤخذ بمقدار واحدة من أربعين فما فوق إلى مائة ، ثم يبتدىء من ١٠١ إلى ٢٠٠ بمقدار واحدة في كل مائة . والابل عن كل خمس شاة إلى أربع وعشرين ، فإن كانت خمساً وعشرين فعليها بنت مخاض (ناقة صغيرة بنت سنة أو أقل) . والجاموس والبقر كل ثلاثين عليها واحد بنت سنة .فإذا بلغ العدد ستين كانت بمقدار واحدة بنت سنتين ، والخيل إذا اعتبرت آلة من آلات الحرب فلا زكاة عليها . كل ذلك إذا كانت الحيوانات تأكل من الكلأ المباح ، فإن علفها صاحبها فلا زكاة فيها ، وإذا دخلت في التجارة فتقوم ويدفع عنها زكاة التجارة (٢) .

أما زكاة عروض التجارة فهي ربع العشر بشرط أن تبلغ قيمتها نصابا من الذهب أوالفضة وأن يحول عليها الحول .

وزكاة المعدن والركاز ، وهو مال وجد تحت الأرض سواء كان معدناً خلقه الله تعالى بدون أن يضعه أحد فيها أو كان كنزاً دفنه الكفار . فقد قال الحسن البصري فيه : ماكان من ركاز في أرض الحرب ففيه الخمس ، وما كان في أرض السلم ففيه الزكاة وهو ربع العشر (٣) .

وأما زكاة الزرع والثمار فيجب فيها العشر إذا كانت خارجة عن أرض تسقى بالمطر أو السيح (٤) ، ونصف العشر إذا كانت خارجة من أرض تسق

---

(١) سورة البقرة ٢ : ٢٦١ .

(٢) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ١٠٨ — ١١٧ .

(٣) راجع كتاب صحيح البخاري .

(٤) الماء الذي يسيح على الأرض من المصارف وغيرها .

بالدلاء ونحوها ، وأن يكون الخارج منها مما يقصد بزراعته استغلال الأرض ونماؤها (١) .

وكانت الزكاة تقسم على الأشخاص المذكورين فى قوله تعالى : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) (سورة التوبة ٩ : ٦٠) .

٤ — الجزية :

ومن موارد بيت المال الجزية ، وهى مبلغ معين من المال يدفعه من توافرت فيه شروط خاصة ، وهى تشبه الخراج فى أن كلا منهما جزء من الفيء يجىء فى أوقات معينة من كل سنة ، ولكنهما يختلفان فى أن الجزية موضوعة على الرءوس وتسقط بالإسلام ، وفى أنها قد ثبتت بنص الكتاب الكريم : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد (أى عن قدرة) وهم صاغرون) (سورة التوبة ٩ : ٢٩) (أى قابلون أن تجرى عليهم أحكام الإسلام). وأما الخراج فهو على الأرض ، ولا يسقط بإسلام المالك ، والخراج إنما ثبت بالاجتهاد .

وإنما وجبت الجزية على أهل الكتاب كما وجبت الزكاة على المسلمين حتى يتكافأ الفريقان ، وهما رعية لدولة واحدة فى المسئولية ، كما تكافآ فى التمتع بالحقوق وتساويا فى الانتفاع بالمرافق العامة للدولة « إذ ليس فى مواشى أهل الذمة من الإبل والبقر والغنم زكاة » . والرجال والنساء فى ذلك (أى فى عدم دفعهم الزكاة عن مواشيهم وغيرها) سواء ؛ فليست الجزية دينا على الذمى . يستوفى منه بالوسائل التى تستوفى بها الديون . فمن وجبت عليه الجزية ومات أو أسلم قبل دفعها لم تؤخذ من تركته ولم يطالب بها ورثته (٢) .

---

(١) راجع الجامع لأحكام القرآن ج ٧ ص ٩٩ ، والفقه على المذاهب الأربعة ، وصحيح البخارى .

وتجب الجزية على الرجال الأحرار العقلاء الأصحاء القادرين على الدفع ، ولا تؤخذ من مسكين يتصدق عليه ، ولا ممن لا قدرة له على العمل ، ولا من الأعمى أو المقعد أو المجنون وغيرهم من ذوى العاهات ، ولا من أحد من المترهبين فى الأديرة وأهل الصوامع إلا إن كان غنيا .

ويلاحظ أن الشرع لم يفرض الجزية إلا على الأشخاص الذين يجب عليهم الجهاد لو كانوا مسلمين . وأنه أعفى منها الأشخاص الذين يعفيهم من القتال . وفى ذلك يقول الماوردى (١) : « واسمها مشتق من الجزاء ، فيجب على أولى الأمر أن يضعوا الجزية على رقاب من دخل الذمة من أهل الكتاب ليقروا (يستقروا) بها فى دار الإسلام ويلتزم لهم ببذلها بحقين : أحدهما الكف عنهم ، والثانى الحماية لهم ، ليكونوا بالكف آمنين وبالحماية محروسين .

أما مقدار الجزية فقد قسمها أبو حنيفة ثلاثة أقسام :

١ — أغنياء يؤخذ منهم ثمانية وأربعون درهما .

٢ — ومتوسطون يؤخذ منهم أربعة وعشرون درهما .

٣ — وفقراء يكسبون ويؤخذ منهم اثنا عشر درهما .

أما جباية الجزية فقد أوصى صاحب الشرع وقادة الإسلام بالرفق والانصاف فى جبايتها من أهل الكتاب وصيانة أرواحهم وأموالهم من عبث الجباة والولاة . وتقضى القاعدة الفقهية أو دستور الإسلام فيما يتعلق بطريقة أخذ الجزية من دافعيها بأنه « لا يضرب أحد من أهل الذمة فى استيدائهم الجزية (أى لحملهم على أدائها) ، ولا يقاموا فى الشمس ولا غيرها ، ولا يجعل عليهم فى أبدانهم شىء من المكاره ، ولكن يرفق بهم ويحبسون حتى يؤدوا ما عليهم » .

والأخبار الواردة فى معاملة المسلمين أهل الكتاب فى صدر الإسلام كثيرة تشهد بروح العدل والرفق والشعور النبيل نحوهم . روى أبو يوسف عن أبى ظبيان قال : « كنا مع سلمان الفارسى فى غزاة ، فمر رجل وقد جنى فاكهة ، فجعل يقسمها بين أصحابه . فمر بسلمان فسبه ، فرد على سلمان وهو لا يعرفه . فقيل له : هذا سلمان ، فرجع فجعل يعتذر إليه ثم قال له الرجل : ما يحل لنا من أهل

---

(١) الأحكام السلطانية ص ١٣٧ .

الذمة يا أبا عبد الله ؟ قال : ثلاث : من عماك إلى هداك ، ومن فقرك إلى غناك ، وإذا صحبت الصاحب منهم تأكل طعامه ويأكل طعامك ، ويركب دابتك وتركبه دابته فى أن لا تصرفه عن وجه يريده » .

وروى أن عمر بن الخطاب مر على باب قوم وعليه سائل يسأل : شيخ كبير ضرير البصر ، فضرب عمر عضده من خلفه وقال : من أى أهل الكتاب أنت ؟ فقال يهودى ، قال : فما ألجأك إلى ما أرى ؟ قال : أسأل الجزية والحاجة والسن ! فأخذ عمر بيده وذهب إلى منزله فرضخ له بشىء من المنزل (١) . ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال : أنظر هذا وضرباءه (أشباهه) . فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم . إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، وهذا من مساكين أهل الكتاب ، ووضع الجزية عنه وعن ضربائه (٢) .

وهذا أبو يوسف قاضى الرشيد يكتب إليه والدولة العباسية فى أوج عزها وسلطانها وبطشها فيقول : قد ينبغى يا أمير المؤمنين أيدك الله أن تتقدم فى الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد صلى الله عليه وسلم ، والتفقد لهم حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ولا يؤخذ شىء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم . فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه . وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه عند وفاته : أوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من ورائهم ، ولا يكلفوا فوق طاقتهم .

وروى عن نافع عن ابن عمر أنه قال : كان آخر ما تكلم به النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : احفظونى فى ذمتى (٣) ، وعن ابن عباس أنه قال : ليس فى أموال أهل الذمة إلا العفو .

٥ — الفىء والغنيمة :

والفىء هو مال وصل من المشركين للمسلمين عفواً من غير قتال ولا بإيجاف خيل ولا ركاب (٤) .

---

(١) أى أعطاه شيئاً ليس بالكثير .

(٢) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ٧٠ (٣) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣٧ .

(٤) الإيجاف : سرعة السير ، والركاب : الإبل التى يسافر عليها لا واحد لها من لفظها ، أى لم يعدوا فى تحصيله خيلا ولا إبلا بل حصل بلا قتال .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم خمس الفيء بقسم خمسة أسهم متساوية: كل سهم منها لأربابه عملا بقوله تعالى: ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ (١). وبعد موت الرسول رد نصيبه إلى بيت المال. وأما أربعة الأخماس الباقية فكانت تقسم بين الجند حتى دون عمر الدواوين وقدر أرزاق الجند.

والغنيمة هى كل ما أصابه المسلمون من عساكر أهل الشرك بالقتال. وتشتمل على أربعة أقسام: هى الأسرى والسبي والأرضون والأموال: فالأسرى هم الرجال المقاتلون من الكفار الذين يقعون فى الأسر. والسبي هم النساء والأطفال الذين يقعون فى أيدى المسلمين، فلا يجوز قتالهم وإنما يقسمون فى جملة الغنائم. وإن كان النساء من غير أهل الذمة أو ممن ليس لهن كتاب — كالدهرية وعبدة الأوثان — وامتنعن عن الإسلام يقتلن أو يسترققن، ويجوز قبول الفدية عنهن، فإن نودى بهم أسرى من المسلمين فى أيدى قومهم عوض الغانمون عنهم من سهم المصالح (بفتح اللام الثانية)، وكذلك فى حالة المن عليهن. يدل على هذا ما فعله الرسول مع هوازن حينما أتوه مستعطفين! فقد قسم السبي على الجيش. وكانت الأرض التى تؤخـــذ فى الحرب عنوة يخرج أهلها منها لأنها غنيمة كالأموال. واختلفوا فى كيفية تصرف الامام فيها: هل يحبسها لمصالح المسلمين؟ أم يقسمها على المحاربين؟ فالشافعي يرى تقسيمها كما فعل أبو بكر. وقال مالك إنها تصير وقفاً كما فعل عمر، وقال أبو حنيفة بالخيار بين قسمتها أو وقفها.

وأما الأموال المنقولة. وهى ما يمكن نقله كالماشية والمال، فكانت تقسم بين المقاتلة، وكذلك الحال بالنسبة للأسلاب كثياب القتلى وأسلحتهم ودوابهم، وكان الرسول يقسمها حسبما يرى.

ولما اختلف الصحابة فى تقسيم غنائم بدر شرح القرآن طريقة قسمها فى هذه الآية ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء، فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ (سورة الأنفال ٨ : ٤١). فكان للإمام مع من ذكر فى الآية الخمس وصارت الأربعة الأخماس الباقية حقاً للفاتحين (٢).

---

(١) سورة الحشر ٥٩ : ٧.

(٢) الماوردى: الأحكام السلطانية ص ١٢٥ — ١٢٧.

الضرائب فى عهد بنى أمية :

زادت الضرائب فى عهد بنى أمية على ما كانت عليه فى عهد الخلفاء الراشدين . فلم يراع الخلفاء الأمويين القواعد التى قررها أسلافهم بل جاوزوا حدودها . وقد كتب معاوية إلى وردان عامله على مصر : « أن زد على كل امرىء من القبط قيراطاً ، فكتب إليه وردان، كيف أزيد عليهم وفى عهدهم أن لا يزاد عليهم ؟ » . وكانت الحال كذلك فى سائر الولايات الاسلامية ، فقد صادر أحد إخوة الحجاج أملاك الأهالى ببلاد اليمن ، وأثار حنقهم وسخطهم بفرضه عليهم ضريبة معينة (وظيفة) ، عدا العشر الذى قرره الاسلام (١) .

وفى عهد عبد الملك عمل فى خراسان إحصاء جديد للسكان عامة ، وكلف كل شخص بسداد ما فرض عليه من الضريبة . وزادت جزية كل شخص ثلاثة دنانير على ما كانت عليه من قبل (٢). وكذلك كانت الحال فى العراق حيث كانت تزيد الضرائب الاستثنائية فى عبء ما كان يثقل كاهل الاهلين من الضرائب المقررة .

وقد بين فون كريمر (٣) كيف استطاع الحجاج أن يرغم حديثى العهد بالاسلام على دفع الضريبة التى كان يدفعها الكفار ، وما تلا ذلك من المقاومة العنيفة التى قاوموه بها . وانضمامهم إلى صفوف عبد الرحمن بن الاشعث الذى أشعل نار الثورة على بنى أمية .

وروى مؤرخو العرب نتائج تلك السياسة التى كانت ترمى إلى العودة بنظام الضرائب إلى ما كان عليه من قبل ، فقد أجمع هؤلاء على القول بأن بلاد العراق كانت بعد الحجاج أسوأ البلاد حالا . من ذلك ما ذكره اليعقوبى (٤) : « وكان (الحجاج) أول من أخذ بالقذف والظنة وقتل بهما الرجال ، وانكسر الخراج فى أيامه ، فلم يحمل كثير شىء ، ولم يحمل الحجاج من جميع العراق إلا خمسة وعشرين ألف ألف درهم » ، وكان خراجها فى عهد معاوية ١٢٠ مليونا من الدراهم على

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٧٣ .

(٢) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ٢٣ .

(٣) Orient Under the Caliphs, p. 208.

(٤) ج ٢ ص ٣٤٨ وما يليها .

أنه يجب ألا يغيب عن الذهن أن عصر الحجاج كان مليئاً بكثير من حروب الخوارج التي استنفدت أموال العراق .

على أن الحجاج ، وإن كان قد قسا في معاملة الموالي خاصة وأهل العراق عامة كان مخلصاً في خدمة بني أمية زهاء عشرين سنة حتى مات في عهد الوليد بن عبد الملك ، ولم يترك وراءه غير القرآن وسلاحه ويضع مئين من العملة الفضية .

وقد أمر عمر بن عبد العزيز جباة الخراج أن لا يأخذوا من الأهالي من الدراهم ما زاد وزنه على أربعة عشر قيراطاً ، وهو ما أمر به عمر بن الخطاب ، ورأى أن العمال كانوا يأخذون دراهم أثقل وزنا من تلك الدراهم التي فرضها عمر بن الخطاب مما كان يزيد زيادة فاحشة في الضرائب التي كان يدفعها الاهالي .

(ب) مصاريف بيت المال :

وكان المال الذي يأتي من الموارد المتقدمة ينفق على مصالح الدولة على حسب ما يراه الإمام فتدفع منه أرزاق القضاة والولاة والعمال وصاحب بيت المال وغيرهم من الموظفين ، ولا يصرف للولاة ولا للقضاة شيء من أموال الصدقة ، بخلاف والي الصدقة فإن رزقه يصرف منها . وكانت زيادة أرزاق القضاة والولاة ونقصها من حق الإمام ، ومنه تدفع أعطيات الجنـــد ، وهي رواتبهم التي يستولون عليها في أوقات خاصة . وكانت في أيام النبي صلى الله عليه وسلم غير محدودة ولا معينة ، وإنما كانوا يأخذون من أربعة أخماس الغنيمة ، وما يرد من خراج الأرض التي بقيت في أيدي أهلها كما كانت تقسم بينهم .

ولما ولي أبو بكر الخلافة سوى بينهم في العطاء قائلا : « هذا معاش ، فالأسوة فيه خير من الأثرة » . ولما ولي عمر جعل العطاء بحسب السبق إلى الاسلام . وبقيت أعطيات الجند تقسم على هذا النحو في عهد الخلفاء الراشدين . فلما احتاج معاوية وهو وال على بلاد الشام إلى استنجاد العرب زاد في أعطيات جنده الذي بلغ ستين ألفاً ، أنفق عليهم ستين مليون درهم في السنة . فلما توطدت دعائم الأمويين نقصوا ذلك المبلغ الضخم إلى أقل من النصف .

وكان ينفق من بيت المال على كري الترع الكبيرة ، والمجاري التي تأخذ من الأنهار الضخمة كدجلة والفرات لتوصيل الماء إلى الأراضي البعيدة، وعلى حفر الترع

للزراعة وغيرها . أضف إلى ذلك النفقة على المسجونين وأسرى المشركين من مأكل ومشرب وملبس ودفن من يموت منهم (١)، وعلى شراء المعدات الحربية وإعطاء العطاء والمنح للأدباء والعلماء .

ولا يفوتنا أن نذكر أن النظام الذى أقره عمر كان يفرض لكل مسلم دون اسمه فى دواوين الحكومة رواتب سنوية كفاء خدماته الحربية . عدا ما كان يمنحه من الأجر (فريضة) لأبنائه ، لا فرق فى ذلك بين العرب والموالى .

على أن هناك أمراً آخر جديراً بالملاحظة ، هو أن عدد هؤلاء لم يكن كبيراً فى عهد هذا الخليفة . لذلك أصبح العطاء وقفاً على الدهاقين ، وهم كبار ملاك الأراضى من الفرس الذين ساعدوا العرب فى فتوحاتهم. وبذلك نستطيع أن نعلل ماذهب إليه البلاذرى (٢) من أن العرب فى ذلك الوقت لم يكن يحفظهم أن يقاسمهم غيرهم من الذين دخلوا الإسلام من غير العرب نصيبهم من الغنائم . وقد ذكر اليعقوبى (٣) أن علياً وحده هو الذى تمسك بالقواعد القديمة . ولا نعلم إلى أى حد اتبع الأمويون الطريقة التى وضعها عمر للأعطيات السنوية .

وكان الأمويون على جانب كبير من الحكمة وبعد النظر ، فقد عملوا على تلافى ما عسى أن يجره عليهم ذلك النظام الذى كان يقضى بنقص عطاء رعاياهم من العرب عن القدر الذى فرضه لهم عمر بن الخطاب . وقد أجحف مؤرخو الغرب فى الحكم على هذه الإصلاحات التى قام بها عمر بن عبد العزيز والتى كان الغرض منها القضاء على ماقام به فى سبيل انتشار الإسلام من العقبات ، وذلك بمنحه الموالى الحقوق التى كان يستمتع بها المسلمون من العرب وحدهم ، وإعفاءهم من الجزية التى كان يدفعها الكفار ، ثم مقاسمتهم إخوانهم المسلمين من العرب نصيبهم من الأعطيات السنوية (٤) .

وعلى الرغم من ذلك ، ينبغى أن يتورع المؤرخ عن القسوة فى الحكم على تلك الإصلاحات التى قام بها عمر بن عبد العزيز . ويقول ڤان ڤلوتن . ومن العدل أن أطالب الذين يشايعون الحجاج بن يوسف على ذلك الخليفة المصلح بالإجابة عن

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٩٤ — ١٩٦ .

(٢) فتوح البلدان ص ٤٦١ . (٣) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٢١٣ .

(٤) Von Kremer, Vol. i. p. 174.

هذين السؤالين : (١) ألم يكن خيراً للأمويين أنفسهم مساواتهم جميع العناصر في الحقوق : تلك السياسة التي لا يبعد أن يكون عدم الأخذ بها هو السبب الأول في سقوط دولتهم ؟ (٢) وإذا لم تكن تلك المساواة في مصلحة خلفاء بني أمية ، ألم تكن من مصلحة الإسلام نفسه ؟ ليس ثمة أحد كائناً من كان يستطيع أن يشك في صحة هذه الملاحظة الثانية فإن النظام العسكري الذي وضعه عمر بن الخطاب لم يعد يلائم حال الأمة العربية في ذلك الحين » .

وكان عمر بن عبد العزيز أول من فطن من خلفاء بني أمية إلى أن وقته التفرغ للإصلاحات الداخلية قد آن ، كما افتتح بذلك عمر بن الخطاب من قبل ، حتى إن ذلك قد حال دون القيام بفتوحات جديدة. وكانت سياسة عمر تقوم على المحافظة على الدين والتمسك الشديد بالنظام الذي سنه جده عمر بن الخطاب . فقد كان يكن لجده في أعماق نفسه الاحترام والإكبار ، برغم ما كانت تتطلبه الحالة من العدول عن ذلك النظام عدولا تاماً . فقد كان لزاماً أن تجد الحكومة أعمالا جديدة غير الغزو والفتح للمرابطين في الولايات الإسلامية من جند العرب حتى لا يكونوا عيالا على بيت المال .

ولا غرو فقد كانت السياسة التي سار عليها عمر بن عبد العزيز تحول دون ملكية الجند الأرض ، على حين كانت الحال تقضي بمنحهم إياها لاستغلالها واستثمارها ، كما كانت تسخو في منح الأعطيات حتى للموالي من المسلمين ، في الوقت الذي كانت فيه مالية البلاد تتطلب إلغاء تلك الاعطيات حتى ما كان يمنح منها للعرب أنفسهم . وهكذا حال ذلك التصرف الذي أنضب موارد الدولة دون نجاح تلك السياسة التي كانت ترمي إلى الاصلاح وإعفاء الجدد في الاسلام من الجزية .

٤ — النظام الحربي

(١) الجيش :

لما جاء الاسلام ألف بين قلوب العرب الذين أخذوا يدافعون عنه بالنفس والنفيس ، فيلبون دعوة الرسول أو الخليفة ، ويقاتلون في سبيل الله ونصرة الدين . وكان عمر بن الخطاب أول من جعل الجند فئة مخصوصة ، فأنشأ « ديوان الجند » للإشراف عليهم ، بتقييد أسمائهم وأوصافهم ومقدار أرزاقهم وإحصاء أعمالهم .

وكان القتال فى عهد عمر يقوم على العاطفة الدينية والرغبة فى نشر الاسلام .

ولما تمكنت جيوش المسلمين من فتح العراق والشام وفلسطين ومصر ، أقام الجند فى هذه الأمصار فى معسكرات خاصة بهم ، وانصرفوا إلى الزراعة وتكوين الثروة وامتلاك العقار الثابت ، وبذلك انصرفوا عن الجندية وفترت الروح العسكرية فيهم ، ففطن عمر إلى هذا الخطر وأمرهم أن ينصرفوا إلى الجهاد وضمن لهم أرزاقهم وأرزاق أسراتهم .

وإلى عمر يرجع الفضل فى إقامة الحصون والمعسكرات الطويلة الدائمة لراحة الجنود فى أثناء الطريق ، بعد أن كانوا يقطعون المسافات الطويلة على ظهور الابل ، ولا يرتاحون إلا فى أكواخ مصنوعة من سعف النخل . ومن ثم بنيت « العواصم » وأقيمت الحاميات لصد هجمات الأعداء المفاجئة . وكان عدد جند العرب عند فتحهم حصن بابليون يتراوح بين ١٢٫٠٠٠ ، ١٥٫٦٠٠ ، ١٦٫٠٠٠ . ولما جاء عثمان وحدثت فى عهد الفتنة التى أدت إلى انقسام المسلمين ، أصبح القتال فى سبيل الدفاع عن الرأى وليس فى سبيل نشر الدين كما كانت الحال فى أيام عمر .

وقد أكمل الأمويون ما بدأه عمر فى نظام الجنديه ، ولكن لما استقر الأمر لهم قعد المسلمون عن الحرب وانصرفوا عن القتال ، فأدخل عبد الملك ابن مروان نظام التجنيد الاجبارى . وقيل إن عدد جند العرب بلغ فى عهد معاوية ٤٠ ألفاً من الجنود المرتزقة والمتطوعة .

وكان الجيش فى عهد عبد الملك بن مروان يتكون من العنصر العربى ، لأن الدولة الأموية كانت — على ما نعلم — عربيه لحماً ودماً . وظلت الحال على ذلك حتى توسع الأمويون فى فتوحهم ، وضموا شمالى إفريقية وبلاد الأندلس فاستعانوا بالبربر فى الجيش .

كان الجيش يتألف من الفرسان والرجالة ، وكان هؤلاء يتسلحون بالدروع والسيوف والرماح ، وأولئك يتسلحون بالدروع والسيوف والقسى والسهام . وكان العرب فى الجاهلية يستعملون هذه الأسلحة ، لأنهم كانوا يحمون بها أعراضهم ويستجلبون معايشهم ، وخصوصاً القسى التى مهروا فى الرمى بها لحدة أبصارهم وحاجتهم إليها فى الصيد . وبلغ من مهارتهم فى الرمى بالقوس أن الرامى كان يستطيع أن يرمى إحدى عينى الغزال دون الأخرى .

فلما جاء الإسلام ساعدتهم مهارتهم فى إستعمال القسى على قهر الروم الذين لم يكونوا يحسنون الرمى بها. لذلك وكان قادة المسلمين يدربون جنودهم على إتقان الرمى بالنبال. وكان النبى يقول: «أرمو واركبوا، وأن تركبوا أحب إلى من أن ترموا». وفى القرآن الكريم: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾. وكان الرسول يقول وهو على المنبر بعد أن يتلو هذه الآية: «ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوة الرمى».

ولما سار الرسول إلى الطائف مطارداً فلول ثقيف الذين اعتصموا بحصونهم ورموا المسلمين بالنبال من فوقها، اضطر الرسول أن يرميهم بالمنجنيق. روى أن الرسول كان أول من رمى فى الإسلام بالمنجنيق، (١) وهو أداة ترمى بها الحجارة على الأعداء، ويتركب من ثمان وعشرين قطعة من الخشب تعمل منها القاعدة وفوقها القائمتان على الجانبين. وتتصل هاتان القائمتان بعرضة، ثم يركب على هذه العرضة سهم يراعى فى وضعه أن يكون أحد طرفيه قصيرا والآخر طويلا، وتثقل الجهة القصيرة حتى يصير وضع السهم رأسيا. وفى الجهة الطويلة تركب الكفة التى يوضع فيها الحجر المعد للقذف بعد أن يجذب حتى يجعل عاليه أسفلا، وعندئذ يخلى السهم فينطلق الحجر نحو الهدف، كذلك سير إليهم الرسول الدبابات، وهى من آلات الحرب. وكان المحاربون يدخلون فى جوفها ويدفعونها إلى جدران الحصن فينقبونه وهم فى داخلها تحميهم سقفها وجوانبها من نبل العدو. وكذلك استعمل الرسول الضبور وهى كالدبابة تقريباً تصنع من الخشب المغطى بالجلد. ويكمن فيها المهاجرون ويقربونها للحصن فيقاتلون أهله وهم فيها، وهى تشبه بالسيارات المصفحة اليوم.

وكان الرجالة يقفون فى صفوف متراصة يتقدمهم حاملوا الرماح لصد هجمات الفرسان. وكان جناحا الجيش يتألفان من الفرسان عادة. ولا يرجع تفوق العرب على أعدائهم فى ميادين القتال إلى أسلحتهم وحدها. بل إلى ما امتازوا به من النشاط والخفة وسرعة الحركة والمثابرة والصبر على تحمل الشدائد. وإذا أضفنا إلى هذه الصفات ما امتازوا به من الحماس وبذل النفس فى نصرة الدين،

---

(١) ابن هشام: ج ٣ ص ٣٠٣.

أمكننا أن نهتدى إلى سر ذلك الفوز الذى أحرزه العرب فى حروبهم . وكانت الدولة العربية تسخو فى تموين الجند وإمدادهم بما يحتاجون إليه من الزاد والسلاح .

وكان الفرسان يلبسون الدروع والخوذ المصنوعة من الصلب والمحلاة بريش النسور ، ويرتدى الرجالة أقبية قصيرة متدلية إلى ماتحت الركبة ، وسراويل ونعالا تشبه النعال التى يلبسها أهل بلاد الأفغان اليوم .

وكانوا يكبرون ويتلون الآيات القرآنية فى أثناء سيرهم للغزو والجهاد وفى اشتباكهم فى المعارك الحربيه .

وكانت النساء يصحبن الجيش ، ويخصص لهن أماكن فى المدن الحصينة ويقرعن الطبول لإثارة الحماسة فى نفوس الجند .

وكان القواد يحافظون على حسن سلوك الجند ويشددون العقاب على من يعبث بالنظام أو يتعرض لأهالى البلاد المفتوحة بسوء . ومما ساعد على حسن سلوكهم تحريم الخمر . وكان الجندى لا يقيم فى خدمة الجيش أكثر من أربعة أشهر إذا كان بعيداً عن أسرته(١) .

وكانت وحدات الجيش من القبائل العربية ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقود الجيش بنفسه أحيانا . ولما تطورت الأحوال وتعددت الجيوش فى البلدان المختلفة ، أصبح من الصعب على الخلفاء أن يقوموا بهذه المهنة ، فكانوا يختارون أصلح الناس لقيادتها من أمثال خالد بن الوليد وأبى عبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص والمثنى بن حارثة .

وكانت طاعة القائد واجبة كطاعة الخليفة نفسه لأنه يعتبر نائبه . فقد كان ينوب عنه فى إقامة الصلاة وإذا اجتمع أكثر من قائد فى مكان واحد عين الخليفة أحدهم للصلاة بالناس ، فيصبح هذا القائد بمثابة « قائد القواد » . وإذا انتهى الفتح أصبحت مهمة القواد مقصورة على النظر فى أمر الجند وتدريبهم وتحسين معداتهم وأسلحتهم . وكان ديوان الجند الذى استحدثه عمر بن الخطاب أكبر مساعد على تحسين نظام الجندية وضبطه فى الإسلام .

وإلى القواد العرب يرجع الفضل فى تنظيم طريقة القتال ، فقد كان العرب فى الجاهلية يتبعون طريقة الكر والفر فيكرون على العدو ؛ وإذا آنسوا

---

(١) Ameer Aly, pp. 45 – 55.

فى أنفسهم ضعفاً فروا ، ثم عادوا فكروا ، وهكذا يسيرون على غير ضابط أو نظام .

غير أن قواد المسلمين لم يطمئنوا إلى الطريقة ورأوا أنها لاتكفل لهم النصر ولا تصلح لقتال الجنود المنظمة . وقد نزلت الآية الكريمة : (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص) (سورة الصف ٦١ : ٤) . وأخذ المسلمون فى عهد النبى يقفون للقتال صفوفاً كما يفعلون فى الصلاة ، ثم يسيرون لملاقاة العدو متضامين ، ليس لأحد منهم أن يتقدم عن الصف أو يتأخر عنه .

وفى عهد الأمويين اختلط العرب كثيراً بالفرس وأخذوا عنهم نظام التعبئة ، أى تقسيم الجيش إلى خمس كتائب . ولذلك كانوا يسمون الجيش كله خميساً ، تكون إحداها فى الوسط تحت إمرة القائد العام وتسمى « قلب الجيش » ، وإلى يمينها واحدة تسمى « الميمنة » ، وأخرى إلى يسارها تسمى « الميسرة » ، ثم تكون أمامها كتيبة — من الفرسان فى الغالب — وتسمى « المقدمة » ، وخلفها كتيبة تسمى « ساقة الجيش » ، ولذلك تركوا نظام الصفوف .

وتتضح لنا طريقة العرب فى تسيير الجيوش ونظامها فى كتاب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص حيث يقول : « وترفق بالمسلمين فى سيرهم ، ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم ، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص من قوتهم ، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم حامى الأنفس والكراع . وأقم بمن معك فى كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون بها أنفسهم ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم . ونحّ منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة ، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق به ، ولا يرزأ أحد من أهلها شىء ، فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها فما صبروا لكم فتولوهم خيراً . ولا تنتصر على أهل الحرب بظلم أهل الصلح . وإذا وطئت أرض عدوك ، فأذك العيون بينك وبينهم ولايخف عليك من أمرهم شىء ، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه ، فإن الكذوب لاينفعك خبره وإن صدقك فى بعضه ، والغاش عين عليك وليس عين لك . وليكن منك عند

دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم ، فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم ، وتتبع الطلائع عوراتهم . واختر للطلائع أهل اليأس والرأى من أصحابك ، وتخير لهم سوابق الخيل ، فإن لقوا عدواً كان أول من تلقاهم القوة . واجعل أهل السرايا من أهل الجهاد والصبر على الجلاد . ولا تخص أحداً بهوى فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك . ولا تبعث طليعة ولا سرية فى وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة أو نكاية ، فإذا عاينت العدو فاضمم إليك أقاصيك واجمع إليك مكيدتك وقوتك ، ثم لا تعاجلهم بالمناجزة مالم يستكرهك قتال حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله ، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها بها فتصنع بعدوك كصنعه بك . . . » .

(ب) البحرية :

لم يكن العرب يعنون بالحروب البحرية فى صدر الإسلام لبداوتهم وعدم تعودهم ركوب البحر وممارستهم أحواله . وكان أول من ركب البحر العلاء ابن الحضرمى والى البحرين فى عهد عمر ، فقد توجه لغزو بلاد فارس فى اثنى عشر ألفاً من المسلمين من غير إذن الخليفة ، وعاد المسلمون إلى البصرة محملين بالغنائم بعد أن فقدوا سفنهم التى عبروا بها بلاد الفرس . فلما علم عمر بذلك ، وكان يكره ركوب البحر ، غضب على العلاء وعزله .

ولما فتحت الشام شاهد العرب سفن الروم ، فتطلعت أنفسهم إلى مجاراة أعدائهم ، وألح معاوية على عمر فى أن يأذن له بغزو بلاد الروم بحراً لقربها منه ، فطلب الخليفة عمر من عمرو بن العاص والى مصر أن يصف له البحر وراكبه ، فكتب إليه عمرو : « يا أمير المؤمنين ! إنى رأيت البحر خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير ، ليس إلا السماء والماء ، إن ركد أحزن القلوب ؛ وإن ثار أزاغ العقول . يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة . هم فيه كدود على عود ، إن مال غرق وإن نجا برق » : فلما جاء عمر هذا الكتاب كتب إلى معاوية يردعه عن ركوب البحر قائلا : لا والذى بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً » .

وقد علل ابن خلدون[1] سبب امتناع العرب فى أول عهدهم عن ركوب

---

(١) مقدمة ص ٢٢٠ — ٢٢٢ .

البحر فقال : « والسبب فى ذلك أن العرب لبداوتهم لم يكونوا أول الأمر مهرة فى ثقافته وركوبه ، والروم والإفرنجة لممارستهم أحواله ومرباهم فى التقلب على أعواده ، مرنوا عليه فأحكموا الدراية بثقافته . فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم ، وصارت أمم البحر خولا لهم وتحت أيديهم ، وتقرب كل ذى صنعة إليهم بمبلغ صناعته ، واستخدموا من النواتية فى حاجاتهم البحرية أمما ، وتكررت ممارستهم البحر وثقافته ، استحدثوا بصراء بها ، فتاقت نفوسهم إلى الجهاد فيه وأنشئوا السفن فيه والشوانى[1] ، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر ، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغرهم ما كان أقرب إلى هذا البحر وعلى حافته مثل الشام وإفريقية والمغرب والأندلس » .

ولما ولى عثمان الخلافة أعاد عليه معاوية الكرة فى غزو الروم بحراً ، فأذن له على ألا يحمل الناس على ركوب البحر كرهاً ؛ فاستعمل على البحر عبد الله ابن قيس ، فغزا خمسين غزوة بين شاتية وصائفة . كما حارب عبد الله بن سعد ابن أبى سرح والى مصر من قبل عثمان قسطنطين بن هرقل فى بحر الروم ، وانتصر عليه فى موقعة ذات السوارى التى اشتبك فيها ألف سفينة للبيزنطيين ومائتان للمصريين . وفى هذه السنة أيضاً فتح العرب جزيرة قبرس ، كما جردوا حملة لغزو بلاد الدولة البيزنطية .

ومن ذلك الحين أخذت الحملات تتوالى على تلك البلاد . ولما ولى معاوية الخلافة عنى بإنشاء السفن الحربية لصد غارات الدولة البيزنطية على البلاد الإسلامية ، ورتب لغزوها الشواتى والصوائف ، ووضع نظاماً يكفل استمرار الحرب بينه وبينهم شتاء وصيفاً . وبلغ أسطول الشام ١٧٠٠ سفينه . وفى عهد معاوية غزا عقبة بن عامر الفهرى جزيرة رودس ، وفى سنة ٥٣ هـ غزا الروم البرلس فى عهد ولاية مسلمة بن مخلد (٤٧ — ٦٢ هـ) ، وقتلوا عدداً كبيراً من المسلمين وعلى رأسهم وردان مولى عمرو بن العاص . ومن ثم اهتم أمراء مصر ببناء السفن ، فأنشئت

---

(١) جمع شونة ، وهى المركب المعد للجهاد فى البحر .

لأول مرة (٥٤ ﻫ) دار الصناعة لبنائها فى جزيرة الروضة [1] .

أما أن العرب كانوا فى الأصل مدينين للبيزنطيين فى هذه الناحية من الفنون الحربية ، فهو أمر لاسبيل إلى إنكاره . إلا أن العرب الذين فطروا على الشجاعة وحب المغامرة ، وإن كانوا قد تتلمذوا للبيزنطيين فى تلك الناحية فترة من الزمن ، أصبحوا فيما بعد أساتذة أوربا فى هذه الفنون ، يدلنا على ذلك أن بعض الإصلاحات البحرية المستعملة فى أوربا لاتزال تحتفظ بعربيتها إلى اليوم [2] .

٥ — النظام القضائى

(ا) القضاء :

وجدت نواة القضاء عند العرب فى الجاهلية . فلما جاء الإسلام تولى الرسول الفصل فى الخصومات ، كما يتبين ذلك من الحلف الذى عقـــد بين المهاجرين وأهل المدينة من المسلمين واليهود وغيرهم من المشركين ، وقد جاء فى هذا الحلف : « وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله [3] » .

كان عليه الصلاة والسلام قاضياً كما كان للشريعة مبلغاً ، ولم يكن للمسلمين فى عهده قاض سواه ، إذ كانت الأمة لاتزال على بساطتها وضيق رقعتها ، ثم لقلة عدد القضايا المرفوعة إليه . ولم يؤثر عنه أنه عين فى بلد من البلدان رجلا اختص بالقضاء بين المسلمين . بل كان يعهد بذلك إلى بعض الولاة ضمن ولايتهم أمور الولاية ، وتارة يعهد إلى أحد أصحابه بفض بعض الخصومات .

وكان الرسول يحكم بين الناس بما ينزله الله عليه من الوحى . وكان المتخاصمان يحضران إليه مختارين فيسمع كلام كل منهما . وكانت طرق الإثبات عنده البينة واليمين وشهادة الشهود والكتابة والفراسة والقرعة وغيرها ، وكان الرسول يقول : « البينة على من ادعى واليمين على من أنكر » . والبينة فى

---

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ١٩٠ — ١٩١ .

(٢) Hell : Die Kultur der Araber. p. 72.

(٣) ابن هشام ج٢ ص ٩٤ — ٩٨ .

الشرع اسم لمـــا يبين الحق ويظهره ، بمعنى أن المدعى ملزم بإظهار ما يبين صحة دعواه ، فإذا أظهر صدقه بإحدى الطرق حكم له . وكان الرسول يقول : أمرت أن أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر » .

وكان عليه السلام لايحابى أحداً من المتخاصمين . فقد أثر عنه أنه قال : « إذا جلس بين يديك الخصمان ، فلا تقض حتى تسمع كلام الآخر كما سمعت كلام الأول ، فإنه أحرى أن يتبين لك وجه القضاء » . وروى مسلم أنه قال : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر » .

ولمـــا انتشرت الدعوة الإسلامية أذن الرسول لبعض الصحابة بالقضاء بين الناس بالكتاب والسنة والاجتهاد ، كما أذن للبعض الآخر بالفتيا . وممن اشتهر بالفتيا من الصحابة فى عهد الرسول مائة وواحد وثلاثون رجلا وامرأة ، نبغ منهم سبعة هم : عمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب ، والسيدة عائشة ، وعبدالله ابن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس .

ولم يكن السجن بمعناه المعروف الآن موجوداً فى زمن الرسول ولا فى عهد أبى بكر ، وإنما استحدث فى عهد عمر بن الخطاب ، إذ كان الحبس لايتعدى فى عهد الرسول منع المتهم من الاختلاط بغيره ، وذلك بوضعه فى بيت أو مسجد ، وملازمة الخصم أو من ينيبه عنه له . فلم يكن السجن إذن مكاناً يحبس فيه المجرم كما كانت عليه الحال فى عهد عمر ومن جاء بعده من الخلفاء .

ولما ولى أبو بكر الخلافة أسند القضاء إلى عمر بن الخطاب ، فظل سنتين لا يتأتيه متخاصمان لمـا عرف به من الشدة والحزم . على أن عمر لم يتلقب بلقب قاض فى خلافة أبى بكر .

ولما انتشر الإسلام فى عهد عمر واختلط العرب بغيرهم من الأمم ، دعت حالة المدينة الجديدة إلى إدخال نظام تشريعى لفض المشاكل التى تنشأ بين الأفراد من العرب وغيرهم ، وقضى هذا النظام بتعيين قضاة ينوبون عن الخليفة فى فض هذه المشاكل طبقاً لأحكام القرآن والسنة والقياس . والسنة ما صدر عن النبى من قول أو فعل أو تقرير . ويقصد بالقياس أن القاضى إذا عرضت عليه قضية لم يجد فيها حكما منصوصاً عليه فى القرآن الكريم ولا فى سنة رسول الله ولم يكن

قد صدر فيها حكم بإجماع من الصحابة ، بحث عن مشكلة تشبه المشـــا كل التى بين يديه يكون قد صدر فيها حـكم من القرآن أو الســـنة أو الإجماع ، وهو اتفاق مجتهدى الأمة فى عصر من العصور على أى حكم من الأحكام ، بشرط أن يكون له مستند من الـكتاب والسنة ، وهذا يكفى من غير تعرف المستند ، وفى ذلك يقول الماوردى (ص ٦٣) فى كلامه عن الشروط التى يجب أن تتوافر فى القاضى : « والرابع — علمه بالقياس الموجب لرد الفروع المسكوت عنها إلى الأصول المنطوق بها والمجمع عليها ، حتى يجد طريقاً إلى العلم بأحكام النوازل وتمييز الحق من الباطل » .

كان عمر أول من عين القضاة فى الولايات الإسلامية . وكان القضاة يعينون من قبل الخليفة أو الوالى إذا كانت ولايته عامة ، بمعنى أن تكون له الولاية على الخراج والصلاة معاً . فولى أبا الدرداء قضاء المدينة ، وولى شريحاً ابن الحارث الـكندى قضاء الـكوفة ، كما ولى أبا موسى الأشعرى قضاء البصرة ، وولى عثمان بن قيس بن أبى العاص قضاء مصر ، وجعل قضاء الشام قضاء مستقلا.

ومن الثابت أن شريحاً بن الحارث الـكندى كان قاضى الـكوفة فى عهد عمر ، وأن أبا موسى الأشعرى تولى قضاء البصرة من قبل عمر أيضا ، وهذا يخالف ما ذكره بعض المؤرخين من أن عمر أرسل هذا الـكتاب إلى أبى موسى الأشعرى وهو على قضاء الـكوفة ، لأنه لم يتقلد ولاية الـكوفة إلا فى خلافة عثمان ابن عفان [١] .

وقد سن عمر لهؤلاء القضاة دستوراً يسيرون على هديه فى الأحكام ، ويعتبر هذا الـكتاب أساس علم المرافعات فى القضاء ، وبعث بهذا الـكتاب إلى أبى موسى الأشعرى وإلى غيره من القضاة وهاك نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله ابن قيس [٢] ، سلام عليك ! أما بعد فالقضاء فريضة محـكمة ، وسنة متبعة فافهم إذا أدلى إليك [٣] فإنه لاينفع تـكلم بحق لانفاذ له . واس بين الناس [٤] فى وجهك ومجلسك وعدلك حتى لايطمع شريف فى حيفك [٥] ولا ييأس ضعيف

---

(١) راجع الطبرى ج ٤ ص ٢٥٣ .
(٢) هو اسم أبى موسى الأشعرى .
(٣) أى رفع لك الأمر وجىء به إليك .
(٤) أى اعدل وساو.
(٥) الحيف : الظلم والجور .

من عدلك ، البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالا . ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق . فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل . الفهم الفهم فيما تلجلج[1] فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة . ثم أعرف الأمثال والأشباه وقس الأمور بنظائرها ، واجعل للمدعى حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهى إليه ، فإن أحضر بينة أخذ بحقه ، وإلا وجهت القضاء عليه ، فإن ذلك أجلى للعمى وأبلغ للعذر . المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً فى حد أو مجرباً فى شهادة زور أو ظنيناً (متهماً) فى ولاء أو قرابة . فإن الله سبحانه تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالبينات ، وإياك والقلق والضجر والتأذى للناس ، والتنكر للخصوم فى مواطن الحق التى يوجب بها الله الأجر ويحسن بها الذخر ، فإنه من يصلح نيته فيما بينه وبين الله ولو على نفسه يكفيه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تزين للناس بما يعلم الله منه غير ذلك شانه الله[2] » .

كان القضاء فى عهد الخلفاء الراشدين مستقلا محترم الجانب ، وكان يراعى فى اختيار القاضى غزارة العلم والتقوى والورع والعدل . وكان القاضى يحكم فى بعض الأحيان بحسب ما يوحى به إليه اجتهاده بمعنى أنه إذا سئل فى واقعة وقعت بالفعل أخذ من النصوص الواردة فى الكتاب والسنة والحكم المراد تطبيقه . فإن لم يكن فى الواقعة نص من الكتاب والسنة اجتهد برأيه وقاس الأمور بأشباهها . ومن ثم أصبح الاجتهاد (أو الرأى أو القياس) مبدأ يعتد به فى الأحكام القضائية فى العصور التالية ، وأصبحت تبنى عليه أكثر الأحكام .

ولم يكن للقاضى كاتب أو سجل تدون فيه الأحكام ، لأنها كانت تنفذ على أثر البت فيها ، وكان القاضى يقوم بتنفيذها بنفسه ، كما كان القاضى يجلس للحكم فى منزله أولا ، ثم أصبح يجلس فى المسجد ليفصل فى الخصومات .

وقد تميز القضاء فى عهد أمية بميزتين :

---

(١) التلجلج : التردد فى الكلام .

(٢) سنن الدار قطنى . البيان والتبيين للجاحظ ج ٢ ص ٢٢ .

الأولى — أن القاضى كان يحكم بما يوحيه إليه اجتهاده ، إذ لم تكن المذاهب الأربعة التى تقيد بها القضاة قد ظهرت بعد ، فكان القاضى فى هذا العصر يستنبط الحكم بنفسه من الكتاب والسنة أو الإجماع أو يجتهد فى الحكم اجتهاداً .

الثانية — أن القضاء لم يكن متأثراً بالسياسة ، إذ كان القضاة مستقلين فى أحكامهم لا يتأثرون بميول الدولة الحاكمة ، وكانوا مطلقى التصرف وكلمتهم نافذة حتى على الولاة وعمال الخراج .

كما كان القضاة فى العصر الأموى من خيرة الناس ، يخشون الله ويحكمون بين الناس بالعدل . وعلى الرغم من أنهم كانوا مستقلين فى أحكامهم ، كان الخليفة يرقب أحكامهم ويعزل من يشذ منهم عن الطريق السوى . حكى الكندى (١) أن هشام بن عبد الملك بلغه أن يحى بن ميمون الحضرمى لم ينصف يتيما احتكم إليه بعد بلوغه ، فكتب إلى عامله على مصر يقول : « اصرف يحى عما يتولاه من القضاء مذموما مدحوراً ، وتخير لقضاء جندك رجلا عفيفا ورعاً تقياً سليما من العيوب لا تأخذه فى الله لومة لائم » .

ومن هذه العبارة تتبين الصفات التى كان يجب أن تتوافر فى القاضى فى ذلك العصر . قال عمر بن عبد العزيز : « إذا كان فى القاضى خمس خصال فقد كمل ؛ علم بما كان قبله ، ونزاهة عن الطمع ، وحلم عن الخصم ، واقتداء الأئمة ، ومشاركة أهل العلم والرأى .

وفى ذلك العهد ظهرت الحاجة إلى وجود سجلات تدون فيها الأحكام التى يصدرها القضاة ، ولم يعرف هذا فى عهد الخلفاء الراشدين . إلا أن تناكر الخصوم أدى إلى إدخال هذا النظام ، فوجدت السجلات . قال الكندى : كان سليم بن عنز قاضى مصر من قبل معاوية بن أبى سفيان ؛ فاختصم إليه فى ميراث ، فقضى بين الورثة ولكنهم تناكروا ورجعوا إليه ، فقضى بينهم وكتب كتاباً بقضائه وأشهد فيه شيوخ الجند ، فكان بذلك أول قاض فى العهد الأموى سجل أحكامه .

(١) كتاب القضاة ص ٤٢٣ — ٤٢٤ .

(ب) الحسبة :

وكانت سلطة القاضى موزعة بينه وبين المحتسب وقاضى المظالم : فوظيفة القاضى فض المنازعات المرتبطة بالدين بوجه عام ، ووظيفة المحتسب النظر فيما يتعلق بالنظام العام وفى الجنايات أحياناً مما يحتاج الفصل فيها إلى السرعة ، ووظيفة قاضى المظالم الفصل فيما استعصى من الأحكام على القاضى والمحتسب .

وكان القضاء والحسبة يسندان فى بعض الأحيان إلى رجل واحد مع مابين العملين من التباين : فعمل القاضى مبنى على التحقيق والأناة فى الحكم ، وعمل المحتسب مبنى على الشدة والسرعة فى الفصل(١) .

كان عمر بن الخطاب أول من وضع نظام الحسبة ، وكان يقوم بعمل المحتسب ، ولو أن هذا اللفظ لم يستعمل إلا فى عهد الخليفة المهدى العباسى . (١٥٨ — ١٦٩ ه) . وقد رؤى عمر يضرب جمالا ويقول له : « حملت جملك مالا يطيق » . فالمحتسب إذن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحافظ على الآداب والفضيلة ، وينظر فى مراعاة أحكام الشرع ، ويشرف على نظام الأسواق . ويحول دون بروز الحوانيت حتى لايعوق ذلك نظام المرور ، ويستوفى الديون ، ويكشف على الموازين والمكاييل تجنباً للتطفيف(٢) ، ويعاقب من يعبث بالشريعة أو يرفع الأثمان ، ويمنع التعدى على حدود الجيران ، وارتفاع مبانى أهل الذمة على مبانى المسلمين . وقد أجمل ابن خلدون (مقدمة ص ١٩٦) أعمال المحتسب فى هذه العبارة فقال :

« ويبحث عن المنكرات ، ويعزر (يزجر) ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على المصالح العامة فى المدينة ، مثل المنع من المضايقة فى الطرقات ، ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار من الحمل ، والحكم على أهل المبانى المتداعية

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٦١ — ٧٢ .

(٢) وكان لها دار خاصة : فيطلب المحتسب الباعة إلى هذه الدار فى أوقات معينة . ومعهم موازينهم وصنوجهم ومكاييلهم فيعايرها . فان وجد فيها خللا صادرها ، وألزم صاحبها بشراء غيرها أو أمره باصلاحها . وقد بقيت هذه الدار طوال عهد الدولتين الفاطمية والأيوبية . المقريزى : خطط ج ١ ص ٤٦٣ — ٤٦٤ .

السقوط بهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة ، والضرب على أيدى المعلمين فى المكاتب وغيرها فى الإبلاغ فى ضربهم للصبيان المتعلمين . ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداء[1] ، بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك ويرفع إليه . وليس له إمضاء الحكم فى الدعاوى مطلقاً بل فيما يتعلق بالغش والتدليس فى المعايش وغيرها ، وفى المكاييل والموازين ، وله أيضاً حمل المماطلين على الإنصاف ، وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة ولا إنفاذ حكم . وكأنها أحكام ينزه القاضى عنها لعمومها وسهولة أغراضها ، فتدفع إلى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها ، فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء . وقد كان فى كثير من الدول الإسلامية ، مثل العبيديين بمصر والمغرب والأمويين بالأندلس داخلة فى عموم ولاية القاضى يولى فيها باختياره » .

أما فى الأندلس فكان يتولى الحسبة فى كل مدينة موظف يسمى المحتسب أو صاحب السوق ، لأن معظم عمله متعلق بالإشراف على أهل الأسواق . وكان يشترط فيمن يتولى هذه الوظيفة أن يكون من المشهود لهم بالعلم والمعرفة والفطنة ، ويختار من بين القضاة ، لأن عمله مرتبط بالقضاء . وقد حدد المقرى[2] سلطة المحتسب فى الأندلس ، ومنه يتبين أن هذا النظام بلغ شأواً بعيداً من الدقة ، حتى إن أثمان الحاجيات كانت محدودة ، وإن الإشراف على الباعة بلغ مبلغاً كبيراً ، وإن المحتسبين « كان لهم فى أوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها كما تتدارس أحكام الفقه لأنها عندهم تدخل فى جميع البياعات » .

(ح) المظالم :

وكانت هناك سلطة قضائية أعلى من سلطة القاضى والمحتسب ، هى سلطة قاضى المظالم . ولا غرو فقد كانت محكمة المظالم بمثابة محكمة الاستئناف العليا فى هذا العصر ، تعرض عليها القضايا إذا عجز القاضى عن تنفيذ حكمه فى قضية رجل من علية القوم .

---

(١) طلب رد عدوان الغير برفع قضية ونحو ذلك . ؟

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ١٠٣ .

وقد دعت الحالة إلى إنشاء محكمة المظالم لوقف تعدى ذوى الجاه والحسب . ولهذا كانت المظالم تسند إلى رجل جليل القدر كثير الورع .

وقد نظر الرسول فى الشرب الذى تنازعه الزبير بن العوام ورجل من الأنصار فحضره بنفسه وقال للزبير : أسبق أنت يازبير ثم الأنصارى ، فقال الأنصارى : إنه لابن عمك يارسول الله ، فغضب الرسول من قوله وقال : يازبير أجرره على بطنه حتى يبلغ الماء إلى الكعبين . وإنما أمر بذلك تأديباً له . ولم يجلس للمظالم أحد من الخلفاء الراشدين ، لأن الناس كانوا فى صدر الإسلام بين من يقوده التناصف إلى الحق أو يزجره الوعظ عن الظلم إلا علياً كرم الله وجهه ، فإنه احتاج إلى النظر فيها . على أنه لم يفرد لسماع المظالم يوما معيناً أو ساعة معينة ، وإنما كان إذا جاءه متظلم أنصفه ، ثم أفرد الخلفاء الأمويون يوماً خاصاً للنظر فى أحوال المتظلمين وتصفح قصصهم . وأول من فعل ذلك عبد الملك بن مروان . لكنه كان إذا وقف منها على مشكل احتاج فيه إلى حكم رده إلى قاضيه ابن إدريس الأزدى ، فكان ابن إدريس المباشر وعبد الملك الآمر . وهذا يدل دلالة واضحة على حسن تصرف عبد الملك وعدالته واحتياطه فى أمور المسلمين .

وكانت محكمة المظالم تنعقد برياسة الخليفه أوالوالى أومن ينوب عنه . وكان صاحب المظالم يعين يوما يقصده فيه المتظلمون إذا كان من الموظفين لكى يتفرغ لأعماله الأخرى بقية الأسبوع ، إلا إذا كان من عمال المظالم المنفردين بها فيكون له النظر فى جميع الأيام . وكانت محكمة المظالم تنعقد فى المسجد كغيرها من المحاكم التى يعقدها القضاة ، ويحاط صاحب المظالم بخمس جماعات مختلفة لاينتظم عقد جلساته إلا بحضورهم .

١ — الحماة والأعوان ، قد اختيروا بحيث يستطيعون التغلب على من يلجأ إلى القوة والعنف أو الفرار من وجه القضاء .

٢ — القضاة والحكام ، ومهمتهم الإشارة على صاحب المظالم بأقوم الطرق لرد الحقوق إلى أصحابها وإعلامه بما يجرى بين الخصوم لإلمامهم بشتى الأمور الخاصة بالمتقاضين .

٣ — الفقهاء ، وإليهم يرجع قاضى المظالم فيما أشكل عليه من المسائل الشرعية .

٤ — الكتاب ، ويقومون بتدوين ما يجرى بين الخصوم وإثبات مالهم وما عليهم من الحقوق .

٥ — الشهود ، ومهمتهم الشهادة على أن ما أصدره القاضى من الأحكام مما لاينافى الحق والعدل .

ومن اختصاصات قاضى المظالم النظر فى القضايا التى يقيمها الأفراد والجماعات على الولاة إذا حادوا عن طريق العدل والانصاف ، وعلى عمال الخراج إذا اشتطوا فى جميع الضرائب ، وعلى كتاب الدواوين إذا حادوا عن إثبات أموال المسلمين بنقص أو زيادة ، والنظر فى تظلم المرتزقة إذا أنقصت أرزاقهم أو تأخر دفعها إليهم . وكان يستعان بشخصية صاحب المظالم ونفوذه وهيبته والتأثير فى الخصم حتى يعترف بالحق (فإذا اعترف حكم عليه باعترافه) ، ومن اختصاصه كذلك تنفيذ مايعجز القاضى والمحتسب عن تنفيذه من الأحكام ، ومراعاة إقامة العبادات كالجمع والأعياد والحج والجهاد[1] » .

ومن هذا نقف على مبلغ أهمية هذه الوظيفة وما كان لصاحبها من القوة ونفاذ الكلمة ، كما نقف على ما كان عليه النظام القضائى من الدقة والإتقان . هذا إذا راعينا أن هذا النظام الذى ساد منذ نيف وعشرة قرون لايقل كثيراً عن مثيله فى الوقت الحاضر . على أنه لم يكن ثمة ما يدعو إلى الخوف إذ روعى فى اختيار قاضى المظالم أن يكون رجلا مشهوداً له بالورع والتقوى لاتأخذه فى الله لومة لائم .

رواتب القضاة : وكان راتب القاضى لايقل — على ماهو معروف من المصادر التاريخية — عن عشرة دنانير كل شهر ، وبلغ بعد ذلك سبعة دنانير فى اليوم حتى لاينظر القاضى بعد ذلك إلى شىء . وكان يضاف إلى القضاء أحياناً أعمال أخرى كالقصص ، وبيت المال ، والمظالم ، فيتقاضى القاضى ماخصص لكل وظيفة من هذه الوظائف مما أدى إلى ضخامة راتبه .

وقد فرض عمر بن الخطاب لشريح قاضيه على الكوفة مائة درهم فى كل شهر مع مؤنته من الحنطة ، وزاد راتب القاضى فى الدولة الأموية تبعاً لزيادة موارد

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٧٣ — ٨٩ .

الدولة . قيل أن عبد الرحمن بن حجيرة قاضى مصر (٦٩ — ٨٣ ﻫ) كان يتناول ألف دينار فى العام ؛ مائتين عن القضاء . ومائتين عن القصص ، ومائتين عن بيت المال . وكان عطاؤه مائتى دينار ، وجائزته مائتين . ولكن معظم القضاة لم يتناولوا فى عهد عمر بن عبد العزيز راتباً أصلا ، لأنه كان يرى أن القاضى لايجوز له أن يتناول راتباً كفاء قيامه بهذه الخدمة الدينية . وبلغ راتب القاضى فى عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية عشرة دنانير فى كل شهر ، كما ثبت من براءة عثر عليها فى ديوان مروان كانت قد صدرت إلى خازن بيت المال بإعطاء عبد الرحمن بن سالم القاضى رزقه الشهرى فى شهر ربيع الأول سنة ١٣١ ﻫ .

الباب الثامن

الثقافة والفن

١ — الثقافة

عنى الدين الإسلامى بالعلم وتشجيعه والدعوة إلى تحصيله. فقد حرص الرسول على تعليم الصحابة الكتابة ففرض على كل أسير من أسرى بدر يجيد القراءة والكتابة ولا يستطيع أن يفدى نفسه أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين . ثم حث الصحابة على تعلم اللغات حين بعث دعاته ورسله إلى الملوك والأمراء فى خارج الجزيرة العربية، فنصح زيد بن ثابت بأن يتعلم كتابة اليهود لأنه لا يأمن جانبهم .

ولم يختص النبي الرجال بالعلم والتعليم ، بل كان يحرص على أن يكون حظ المرأة من ذلك موفوراً ; ولذلك قال عليه السلام : طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة .

وكان الرسول يحث الرجال على أن يعلموا أهلهم وذويهم . عن أبى بردة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاثة لهم أجران : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله تعالى وحق مولاه ، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ، ثم أعتقها فتزوجها فله أجران (١) .

وليس أدل على نصيب المرأة المسلمة من العلم من محاجة إحدى نساء المدينة لعمر بن الخطاب حين قام يخطب المسلمين ويحثهم على ألا يزيدوا فى مهور نسائهم عن مهور زوجات الرسول ، إذ قالت له تلك المرأة : وماذا تقول فى قوله تعالى « وإن آتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً » ؟ فقال عمر : أصابت امرأة وأخطأ عمر .

---

١ — صحيح البخارى ج ١ ص ٣٠ .

وكان الصحابة أنفسهم مشغوفين بسماع الرسول والأخذ عنه ، حتى كان الرجل إذا لم يستطع أن يذهب إلى مجلسه أناب عنه صديقاً له ثم يتعلم منه آخر النهار ما قال الرسول . قال عمر : كنت أنا وجار لى من الأنصار فى بنى أمية ابن زيد — وهى من عوالى المدينة — وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ينزل يوماً وأنزل يوماً ، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحى وغيره ، وإذا نزل فعل مثل ذلك [١] .

ولم ينفرد الرسول وأصحابه ببث الدعوة وتعليم الناس فى المدينة ، بل كان يرسل دعاته ورسله إلى الجهات النائية من شبه الجزيرة ليعلموا الناس ويوضحوا لهم الطريق إلى ربهم ويقرئوهم القرآن الكريم .

ويعتبر الفقهاء أن أوجب حقوق الأمة على الخليفة « نشر العلوم والشريعة ، وتعظيم العلم وأهله ، ورفع مناره ومحله ، ومخالطة العلماء الأعلام والنصحاء لدين الإسلام ، ومشاورتهم فى موارد الأحكام ومصادر النقض والإبرام [٢] »

وقد ألقت أفكار الرسول وتعاليمه بذورها فى تربة خصيبة فأنتجت جماعة من أعظم الرجال قدراً ، فكانوا الحفظة على نصوص القرآن المقدسة . وهم وحدهم الذين وعوها عن ظهر قلب ، وهم الحراس المتحمسون لحفظ كل ما روى عن النبى من كلام ووصايا ، والأمناء على تراث محمد الأدبى . ولقد تألفت من هؤلاء جماعة الإسلام المبجلة الذين انبثقت منهم يوماً طبقة الأجلاء من أوائل الفقهاء والأصوليين والمحدثين فى المجتمع الإسلامى [٣] .

وقد أفاد كثير من الصحابة من صحبتهم للرسول : فنبغ على فى القضاء حتى كان يقال إذا أشكل الأمر : قضية ولا أبا حسن لها ، ونبغ معاذ بن جبل فى العلم بالحلال والحرام ، وزيد بن ثابت فى تقسيم المواريث والأنصبة فى الغنائم وما إليها ،

---

(١) صحيح البخارى : ج ١ ص ٢٧ .

(٢) بدر الدين بن جماعة : تحرير الأحكام فى تدبير أهل الإسلام ، المجلد الرابع من مجلة Islamica ج ١ ص ٢٦١ (١٩٣٤) .

(٣) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٦٠ — ٦١ ، نقلا عن Caetani, Vol. II. p. 429.

وأبى بن كعب فى قراءة القرآن .. روى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أرحم أمتى بأمتى أبو بكر ، وأشدهم فى دين الله عمر ، وأصدقهم حياء عثمان ، وأقضاهم على ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ ، وأفرضهم زيد بن ثابت (أى أعلمهم بعلم الفرائض وهى المواريث) ، وأقرؤهم لكتاب الله أبى بن كعب ، ولكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح [1] » .

وقد تفرق هؤلاء العلماء من الصحابة فى الأمصار الإسلامية ، فقاموا فيها بحركة علمية ، والتفت حولهم تلاميذ أخذوا العلم عنهم وأذاعوه بين الناس ، ولم يكن جميع هؤلاء من العرب بل كان بينهم كثير من الموالى .

وكانت عناية المسلمين فى صدر الإسلام مقصورة على العلوم الدينية ، وهى القرآن وتفسيره والحديث وروايته ،واستنباط الأحكام الفقهية والفتاوى الشرعية فيما يجد من مشاكل وما يعرض من أحداث . ولذلك نلاحظ أن العلوم المتصلة بالدين قد انتشرت فى عهد بنى أمية ، بخلاف ما كانت عليه الحال فى أيام العباسيين الذين اشتغلوا بالعلوم العقلية كالطب والفلسفة والرياضيات وغيرها .

تقسيم العلوم :

وقد ميز كتاب المسلمين بين العلوم التى تتصل بالقرآن الكريم والعلوم التى أخذها العرب عن غيرهم من الأمم . ويطلق على الأولى العلوم النقلية أو الشرعية ، وعلى الثانية العلوم العقلية أو الحكمية ، ويطلق عليها أحياناً علوم العجم أو العلوم القديمة وعلوم الأوائل .

وتشمل العلوم النقلية . علم القراءات ، وعلم التفسير ، وعلم الحديث ،والفقه والنحو ، واللغة ، والأدب .

وتشمل العلوم العقلية : الفلسفة ، والهندسة ، وعلم النجوم ، والموسيقى ، والطب ، والسحر والكيمياء والتاريخ ؛ والجغرافيا .

(ا) العلوم النقلية :

١ — علم القراءات :

كان علم القراءات من العلوم التى اشتغل بها المسلمون ؛ ويعتبر المرحلة الأولى

---

(١) ابن عساكر . تاريخ دمشق ج ٣٣ ص ٨٠ .

التفسير القرآن ، تتركز النواة التى بدأ بها هذا العلم فى القرآن ، وفى نصوصه نفسها ، وبعبارة أوضح فى قراءته . فى هذه الأشكال المختلفة نستطيع أن نرى أول محاولة للتفسير .

يقول جولدتسيهر[1] : وهذه القراءات المختلفة تدور حول المصحف العثمانى وهو المصحف الذى جمع الناس عليه خليفة المسلمين عثمان بن عفان ، وأراد بذلك أن يرفع الخطر الذى أوشك أن يقع فى كلام الله فى أشكاله واستعمالاته . وقد تسامح المسلمون فى هذه القراءات واعترفوا بها جميعاً على الرغم مما قد يفرض من أن الله قد أوحى بكلامه كلمة كلمة وحرفاً حرفاً وأن مثله من الكلام المحفوظ فى اللوح والذى ينزل به الملك على رسوله المختار ، يجب أن يكون على شكل واحد وبلفظ واحد . وقد عالج (نلدكة) هذا الموضوع بتوسع فى كتابه « تاريخ القرآن » .

ويرجع السبب فى ظهور القسم الأكبر من هذه القراءات إلى طبيعة الخط العربى ، فإن من خصائصه أن الرسم الواحد للكلمة الواحدة قد يقرأ بأشكال مختلفة تبعاً للنقط فوق الحروف أو تحتها ، كما أن عدم وجود الحركات النحوية وفقدان الشكل فى الخط العربى يمكن أن يجعل للكلمة حالات مختلفة من ناحية موقعها من الإعراب . فهذه التكميلات للرسم الكتابى ، ثم هذه الإختلافات فى الحركات والشكل — كل ذلك كان السبب الأول لظهور حركة القراءات فيما أهمل شكله أو نقطه من القرآن .

وقد ظهرت للقراءات سبع طرق ، كل طريقة منها تمثلها مدرسة معترف بها ترجع قراءتها إلى إمام وتستند فى أحاديث موثوق بها ، وعليها يجب أن يقتصر فى قراءة المصحف . ويرجع أغلب الاختلافات فى القراءات إلى رجال موثوق بهم عاشوا فى القرن الأول كابن العباس وعائشة وعثمان صاحب القراءات وابنه أبان ، وإلى قراء معترف بهم كعبد الله بن مسعود وأبى (بضم الألف وفتح الباء وياء مشددة) بن كعب ، وهؤلاء قد أثنى عليهم التابعون وغيرهم[2] .

---

(١) المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ص ٣ — ٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٦ — ٣٧ .

تدوين المصحف :

نزل القرآن منجماً (١) فى بضع وعشرين سنة . فكانت تنزل الآية أو الآيات كلما دعت الحاجة إلى ذلك . وكان بعض الصحابة يكتبون ماينزل من الآيات من تلقاء أنفسهم أو بأمر الرسول على سعف النخل والرقاع وقطع الأديم وعظام ألواح الشاة والإبل وأضلاعها .

فلما انتقل الرسول إلى جوار ربه وقامت حروب الردة وقتل فيها أكثر القراء من الصحابة وخاصة فى يوم اليمامة حيث قتل منهم زهاء سبعين ، (٢) هال هذا الأمر عمر بن الخطاب ، وكان مستشار أبى بكر وساعده الأيمن ، فذهب إلى أبى بكر وقال له : إن القتل قد كثر واستحر بقراء القرآن يوم اليمامة . وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فيذهب من القرآن الكثير ، وإنى أرى أن تأمرنى بجمع القرآن . فأمر أبو بكر زيد بن ثابت لجمعه من الرقاع والعسب وصدور الرجال (٣) . وقد ضم أبو بكر إلى زيد بن ثابت سالماً مولى أبى حذيفة ليعاونه فى جمع القرآن على أن يقوم زيد بتدوينه .

وكان زيد بن ثابت شاباً عرف برجاحة العقل وحسن السيرة . وكان يكتب الوحى للرسول . ولا ريب أن هذا العمل الجليل كان فى حد ذاته مجهوداً شاقاً يتطلب الكثير من الأناة والصبر . وقد عبر زيد عن خطورة هذا العمل فى هذه الكلمات التى تبين لنا كيف قام به وأتمه : فو الله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ماكان أثقل على منه . فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف ومن صدور الرجال . وقال أبو بكر لعمر وزيد : اقعدا على باب المسجد ، فمن جاءكما بشاهدين على كتاب الله فاكتباه . قال صاحب تاريخ القرآن (٤) : والأقرب إلى الظن أن الشاهدين إنما كانا يشهدان بأن ما أتوا به كان مما عرض

(١) يقال نجم المال تنجيما إذا أداه نجوماً أى على أقساط .

(٢) وقد قيل إنه قتل مثل هذا العدد فى غزوة بئر معونة فى عهد الرسول.

(٣) ابن الأثير ج ٣ ص ٤٦ .

(٤) أبو عبد الله الزنجانى . (تاريخ القرآن) طبع لجنة التأليف والترجمة سنة ١٩٣٥ ص ٤٢ .

على رسول الله صلى الله عليه وسلم عام وفاته العرضة الأخيرة [١] ، وكتب بين يديه . ولذلك قال زيد بن ثابت : حتى وجدت الآيتين[٢] من سورة براءة (التوبة) مع أبي خزيمة بن ثابت لم أجدهما مع غيره .

ولولا ذلك لما صح معنى عدم وجدانهم هذه الآية ، لأن زيداً كان قد جمع القرآن وحفظه وأخذه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقبل قول أبي خزيمة ، لأن النبي جعل شهادته شهادة رجلين .

وكان هذا الجمع عبارة عن جمع الآيات المكتوبة فى الأكتاف والعسب واللخاف ، ونسخها فى الأديم وهو الجلد المدبوغ . قال ابن حجر فى رواية عبادة بن غزية أن زيد بن ثابت قال : فأمرنى أبو بكر فكتبته فى قطع الأديم .

وقد حفظت هذه الصحف عند أبي بكر ثم عند عمر حتى مات ، فحفظت عند ابنته حفصة بنت عمر . وقد لاحظ حذيفة بن اليمان قائد عثمان فى غزو أذربيجان اختلاف المسلمين فى قراءة القرآن ، فأشار على عثمان بتدوين مصحف يقرؤه المسلمون . قال ابن الأثير (جـ ٣ ص ٤٥ — ٤٦) : فلما عاد حذيفة قال لسعيد بن العاص : لقد رأيت فى سفرتى هذه أمراً ، لئن ترك الناس ليختلفن فى القرآن ثم لا يقومون عليه أبداً . قال : ماذاك ؟ قال : رأيت أناساً من أهل حمص يزعمون أن قراءتهم خير من قراءة غيرهم وأنهم أخذوا القرآن عن المقداد (ابن الأسود) ، ورأيت أهل دمشق يقولون إن قراءتهم خير من قراءة غيرهم ، ورأيت أهل الكوفة يقولون مثل ذلك ، وأنهم قرءوا على ابن مسعود ، وأهل البصرة يقولون مثل ذلك وأنهم قرءوا على أبي موسى ويسمون مصحفه

---

(١) جمع القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فى آخر سنة من حياته . ولكن لم يضم بعضه إلى بعض . وإنما علمهم النبي ترتيب آياته والناسخ منها والمنسوخ . وقد عقد المؤلف فصلا فى كتابه تاريخ القرآن ذكر فيه من جمعوا القرآن على عهد النبي : وفيه ذكر محمد بن إسحاق فى الفهرست أن الجماع للقرآن على عهد النبي هم على بن أبي طالب ، وسعد بن عبيد بن نعمان وأبو الدرداء عويمر بن زيد ، ومعاذ بن جبل بن أوس ، وأبو زيد ثابت بن زيد ، وأبي كعب بن قيس .

(٢) هاتان الآيتان هما (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) سورة التوبة ٩ : ١٢٧ .

« لباب القلوب » . فلما وصلوا إلى الكوفة أخبر حذيفة الناس بذلك وحذرهم مايخاف ، فوافقه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكثير من التابعين ، وقال له أصحاب ابن مسعود : ماننكر ؟ ألسنا نقرؤه على قراءة ابن مسعود ؟ فغضب حذيفة ومن وافقه ، وقالوا : إنما أنتم أعراب ، فاسكتوا فإنكم على خطأ : وقال حذيفة : والله لئن عشت لآتين أمير المؤمنين ولأشيرن عليه أن يحول بين الناس وبين ذلك . فأغلظ له ابن مسعود فغضب سعيد وقام ، وتفرق الناس ، وغضب حذيفة وسار إلى عثمان فأخبره بالذى رأى وقال : أنا النذير العريان فأدركوا الأمة . فجمع عثمان الصحابة وأخبرهم الخبر فأعظموه ورأوا جميعاً مارأى حذيفة ، فأرسل عثمان إلى حفصة بنت عمر أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها . وكادت هذه الصحف هى التى كتبت فى أيام أبى بكر » .

فلا عجب إذا لاقت هذه الفكرة قبولا فى نفس عثمان ، فعول على نسخ المصحف تلافياً لما قد يجر إليه التهاون فى هذا الأمر الخطير من العواقب السيئة . وسرعان ما أرسلت حفصة بنت عمر الصحف إلى عثمان لتنسخ منها عدة نسخ لإرسالها إلى الأمصار ، وقام بهذا العمل زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وأمرهم عثمان بأن يكتبوا مايختلفون فيه بلسان قريش .

وقد أشار أبو عمرو عثمان بن سعيد الدانى (ت ٤٤٤ ه) إلى سبب اختيار زيد ابن ثابت لهذا العمل الجليل فى كتابه « المقنع » فى رسم مصاحف الأمصار الذى نشره « برتزل » حديثاً مع كتاب النقط : فإن قيل فلم خص زيد (بن ثابت) بأمر المصاحف ، وقد كان فى الصحابة من هو أكبر منه كابن مسعود وأبى موسى الأشعرى وغيرهما من متقدمى الصحابة ، قلت : إنما كان ذلك لأشياء كانت فيه ومناقب اجتمعت له لم تجتمع لغيره ، منها أنه كتب الوحى للنبى صلى الله عليه وسلم ، وأنه جمع القرآن كله على عهد رسول الله ، وأن قراءته كانت على آخر عرضة عرضها النبى على جبريل عليهما السلام . وهذه الأشياء توجب تقديمه لذلك وتخصيصه به ، لامتناع اجتماعها فى غيره ، وإن كان كل واحد من الصحابة رضوان الله عليهم له فضله وسابقته ، فلذلك قدمه أبو بكر لكتابة المصاحف

وخصه بها دون غيره من سائر المهاجرين والأنصار ، ثم سلك عثمان رضى الله عنه طريق أبى بكر فى ذلك إذ لم يسعه غيره ، وإذ كان النبى صلى الله عليه وسلم قد قال اقتدوا بالذين من بعدى : أبى بكر وعمر . فولاه ذلك أيضاً وجعل معه النفر من القرشيين ليكون القرآن مجموعاً على لغتهم ، ويكون مافيه من لغات ووجوه على مذهبهم دون مالايصح من اللغات ولا يثبت من القراءات[1] » .

أمر عثمان بإحراق المصاحف الأخرى ، فعاب عليه ذلك بعض ذوى الأغراض السيئة وبخاصة أهل الكوفة . فلما نسخوا الصحف ردها عثمان إلى حفصة وأرسل إلى كل مصر من الأمصار بمصحف وحرق ما سوى ذلك ، وأمر أن يعتمدوا عليها ويدعوا غيرها من المصاحف . وقد عرف الناس جميعاً فضل هذا العمل إلا ما كان من أهل الكوفة ، فإن المصحف لما قدم عليهم فرح به أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، وامتنع أصحاب عبدالله بن مسعود . ولما قدم على الكوفة قام إليه رجل فعاب عثمان بجمع الناس على المصحف ، فصاح وقال : اسكت ! فمن ملأ منا ذلك ؛ فلو وليت منه ما ولى عثمان لسلكت سبيله[2] .

مما تقدم يتبين أن القصد من التدوين الأول إنما هو جمع القرآن وحفظه من الضياع ، كما كان التدوين الثانى يرمى إلى غرض واحد ، هو جمع الناس على وجه واحد فى قراءة القرآن خشية ماقد يقع بينهم من خلاف مصدره التحريف الذى يفتح الباب على مصراعيه للزيادة والنقصان فى كلام الله سبحانه ، ولا سيما أن العرب أخذوا يختلطون بأهالى البلاد المفتوحة الذين اختلفت لغاتهم وتباينت لهجاتهم . وعندنا أن عثمان أحسن كل الإحسان إلى المسلمين ، وأن عمله هذا يستحق الثناء والتقدير لا اللوم والتعنيف . وإن أثر عمر بن الخطاب فى حفظ القرآن لايقل عن أثر عثمان ، إذ لو لم يتدارك هذا الأمر بحكمته وبعد نظره ، لنال القرآن من التبديل والتحريف أكثر مما ناله غيره الكتب السماوية الأخرى فيضيع إعجازه ويتلاشى بيانه .

---

(١) راجع مقدمة الأستاذ محمد كرد على فى مجلة الرسالة عـدد ١٠٨ فى ٢٩ يولية سنة ١٩٣٥ .

(٢) ابن الأثير ج ٣ ص ٤٦ .

وصفوة القول أن الله سبحانه شاء ألا تعبث بالقرآن يد التحريف والتبديل فقال فى كتابه العزيز : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ (سورة الحجر ١٥ : ٩) وقال : ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾(١) (سورة فصلت ٤١ : ٤٢) .

٢ — التفسير :

ومن العلوم النقلية التى اشتغل بها المسلمون لفهم معانى القرآن الكريم « علم التفسير » . وقد روى عن عائشة أنها قالت : « لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم يفسر شيئاً من القرآن إلا آيات تعد علمهن إياه جبريل » . فلما اتسعت الدولة العربية ودخل العجم فى الإسلام ، دعت الحاجة إلى فهم آيات القرآن ، وأخذ بعض كبار الصحابة ، من أمثال على بن أبى طالب وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وأبى بن كعب ، يفسرون القرآن اعتمادا على ماسمعوه من الرسول أو بحسب ما وصل إليه فهمهم . ويعتبر هؤلاء الصحابة مؤسسى مدرسة التفسير فى الإسلام ، وحذا حذوهم فى ذلك التابعون مثل سعيد ابن جبير وغيره .

وقد نظر بعض الأتقياء من المسلمين إلى القرآن الكريم نظرة إجلال وتقديس ، حتى لقد عدوا البحث فى تفسيره ضربا من الخرق فى الدين . وكان عمر بن الخطاب يكره البحث عن غوامض الآيات القرآنية ، حتى إنه ضرب رجلا كان يسأل عن متشابه القرآن حتى أدمى رأسه ، وأمر ألا يجالسه أحد من المسلمين . ويقول جولد تسيهر(٢) ، اعتماداً على بعض المصادر العربية وغيرها : وقد نظر الأتقياء فى عصر بنى أمية إلى التفسير مثل هذه النظرة . كان شقيق بن سلمة الأسدى — وكان معاصراً لزياد بن أبيه والحجاج — إذا سئل عن شىء من القرآن قال : « وقد أصاب الله الذى به أراد » ، يعنى بذلك أنه لايريد أن يبحث عن المعنى . وقد سئل عبيدة بن قيس الكوفى (المتوفى سنة ٧٢ هـ) ، من أصحاب ابن مسعود عن سبب نزول بعض آيات القرآن ، فقال : « عليك باتقاء الله والسداد ، فقد ذهب الذين كانوا يعلمون فيم أنزل القرآن » .

---

(١) أنظر وليام ميور The Life of Muhammad, pp. xiv-xxiv.

(٢) المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ترجمة ص ٥٤ — ٥٥ .

وفى هذا العصر حكى أن رجلا طلب إلى سعيد بن جبير (المتوفى سنة ٩٥ هـ) الذى قتله الحجاج ، أن يفسر له آيات القرآن فقال له : « لأن تقع بعض جوانبى خير لى من ذلك » . وقيل : إن الأصمعى اللغوى المعروف (المتوفى سنة ٢١٦ هـ) كان — ورعاً منه وخشية — لايفسر القرآن . وقد رويت عن أحمد بن حنبل هذه الكلمة فى تفسير القرآن : « ثلاثة أشياء لا أصل لها : التفسير ، والملاحم ، والمغازى » .

وعلى الرغم من تخوف الأتقياء من تفسير القرآن ، أثر عن كثير من الصحابة وعلماء المسلمين أنهم فسروا القرآن : فهذا عبد الله بن عباس قال فيه تلميذه مجاهد : إنه إذا فسر الشيء رأيت عليه النور[١] .

اتجه المفسرون فى تفسير القرآن اتجاهين : يعرف أولهما باسم التفسير بالمأثور ، وهو ما أثر عن الرسول وكبار الصحابة ؛ ويعرف ثانيهما باسم التفسير بالرأى وهو ما كان يعتمد على العقل أكثر من اعتماده على النقل .

على أن النوع الأول من التفسير ، وهو التفسير بالمأثور ، قد اتسع على مر الزمن ، بما أدخل عليه من آراء أهل الكتاب الذين دخلوا فى الإسلام ، والذين كانت لهم آراء أخذوها عن التوراة والإنجيل مثل كعب الأحبار اليهودى وعبد الله ابن سلام وابن جريج . « وكان إسلام هؤلاء فوق التهمة والكذب ، ورفعوا إلى درجة أهل العلم الموثوق بهم » . كما كانوا يتخذون الشعر مرجعاً للتفسير فى استعمالاته اللغوية . وقد أثر عن ابن عباس أنه قال : إذا تعاجم شيء من القرآن فانظروا فى الشعر فإن الشعر عربى ، حتى لقد كان يفسر كثيراً من الآيات القرآنية بألفاظ وردت فى الشعر الجاهلى[٢] .

ولما كان الحديث يشغل كل عناية المسلمين فى صدر الإسلام ، اعتبر التفسير جزءاً من الحديث ، أو فرعاً من فروعه ، حتى إن التفسير فى ذلك العهد كان تفسيراً لآيات مبعثرة غير مرتبة حسب ترتيب السور والآيات ، إلا تفسير ابن عباس ، ولو أن كثيرين يشكون فى نسبته إليه . أما الطريقة المنظمة فى تفسير القرآن فإنها لم تحدث إلا فى العصر العباسى .

---

(١) المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ص ٦٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٦٦ ، ٦٨ — ٦٩ .

ومن أشهر المفسرين بعد عبد الله بن عباس ، ابن جريج ، وكان يجمع كل ماوصل إليه دون تحرى الدقة فى التفسير ، والسدى المتوفى سنة ١٢٧ ﻫ ، وقد اعتمد فى تفسيره على ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة ، ومقاتل ابن سليمان المتوفى سنة ١٥٠ ﻫ ، وقد تأثر بتفسير التوراة الذى اتخذه عن اليهود ، حتى إن الإمام أبا حنيفة اتهمه بالكذب ، وتفسير محمد بن إسحاق الذى أخذ كثيراً من آرائه عن اليهودية والنصرانية وعن وهب بن منبه وكعب الأحبار . على أن هذه التفاسير قد ضاعت ولم يصل إلينا شىء منها إلا عن محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ ﻫ .

٣ — الحديث :

ومن مصادر التشريع الإسلامى « الحديث » ، وهو ما أثر عن النبى من قول أو فعل أو تقرير لشىء رآه ، ويأتى فى الأهمية بعد القرآن . وقد جمع البخارى ، على مانعلم ، نحو ٧٢٧٥ حديثاً بما فيها الأحاديث المكررة . فإذا حذفنا المكرر منها أصبح عددها نحو أربعة آلاف . وقد اختارها البخارى — على ماقيل — من ثلثمائة ألف حديث . ومن ذلك يتبين لنا مبلغ ما وصل إليه التحريف فى الحديث .

وكانت هذه الأحاديث التى وصلت إلى أيدينا موضعاً للجدل العنيف بين فقهاء المسلمين : ذلك أنه عند وفاة الرسول ، لم يكن السواد الأعظم من العرب يستطيعون القراءة والكتابة ، حتى إن تاريخ هذه الأمة لم يدون إلا بعد زمن طويل . وقد روى العرب الأحاديث النبوية بعضهم عن بعض ، فتأثرت بشىء غير قليل من التبديل والتحريف مما أدى بها إلى الغموض والإبهام ، فشوهت معانيها والظروف التى أحاطت بوقوعها وقولها .

حتى إذا جاء القرن الثانى للهجرة أخذ العرب يدونون الأحاديث النبوية ، وأتاحوا الفرصة لظهور طائفة من أئمة الحديث الذين ظهروا فى العصر العباسى . ومن أشهر المحدثين فى العصر الأموى أبو بكر محمد بن مسلم ابن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهرى المتوفى ١٢٣ ﻫ .

٤ — النحو :

نشأ علم النحو فى البصرة والكوفة اللتين صارتا من أهم مراكز الثقافة فى القرن الأول الهجرى ، وفيهما وضعت علوم العقائد والفقه ، ونشأت مدرسة النحويين واللغويين . وكان يقيم فى هاتين المدينتين جالية تنسب إلى قبائل عربية مختلفة ذات لهجات متعددة ، وآلاف من الصناع والموالى الذين كانوا يتكلمون الفارسية . ومن ثم تعرضت العبارات العربية السليمة إلى شىء غير قليل من الفساد ، ودعت الضرورة إلى تقويم اللسان العربى حتى لا يتعرض للقرآن الكريم للتحريف . وكان أبو الأسود الدؤلى أول من اشتغل بالنحو فى عهد الأمويين . وقد قيل أنه تلقى أصول هذا العلم عن على بن أبى طالب (١) .

وكان أبو الأسود أول من وضع مدرسة البصرة التى تعتبر أقدم من مدرسة الكوفة وأشهر منها . ولا غرو فقد تأثرت هذه المدرسة بالمنطق أكثر من منافستها مدرسة الكوفة ، حتى سمى نحاة البصرة « أهل المنطق » أو « أهل القياس تمييزاً لهم عن نحاة الكوفة . وكانت مصطلحاتهم النحوية مباينة بعض المباينة لنظائرها عند الكوفيين . وسبق أهل البصرة إلى الانتفاع بالمنطق لم يكن محض إتفاق ، لأن تأثير المذاهب الفلسفية ظهر فى البصرة قبل ظهوره فى غيرها . وكان من نحاة البصرة كثير من الشيعة والمعتزلة الذين أفسحوا السبيل للحكمة الأجنبية كى تؤثر فى مذاهبهم الكلامية (٢) .

ومن علماء البصرة المبرزين أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٣ ﻫ (٧٧٠م) الذى اشتهر بالتفسير ، والخليل بن احمد واضع علم العروض ، وصاحب كتاب « العين » الذى يعتبر أول معجم وضع فى اللغة العربية .

٥ — الأدب :

(ا) النظم

لم يكن للأدب حظ فى صدر الإسلام ، لاشتغال العرب بالفتوح وتنظيم دولتهم التى اتسعت أرجاؤها ، ثم لاشتغالهم بالحروب الأهلية التى استنفدت كل مجهوداتهم .

---

(١) ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٦٠ — ٦١ .

(٢) دى بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ٣٨ — ٣٩ .

وقد حافظت الروح الأدبية فى هذا العهد على ما كانت عليه فى الجاهلية ، فلم يتعد الأدب دائرة الشعر تقريباً ، إذ أصبح يمثل بعض مظاهر السلطة . وقد ظن بعض المستشرقين أن الدين قلل من أهميـة الشعر حتى لا يطغى على القرآن . وهذا الزعم لا أساس له ، لأن القرآن ليس من الشعر فى شىء ، ولا يصح أن يكون نموذجاً له . ولو أن القرآن الكريم قد غض من شأن بعض الشعراء ، فلأنهم كانوا من أعداء الإصلاح ومن دعاة الفوضى . قال تعالى : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون ﴾ ؟ (سورة الشعراء ٢٤ : ٢٢٥ — ٢٢٦) .

على أن الشعر قد أعلى من قدر هؤلاء الذين قاموا بنصرة المبادىء القويمة ودافعوا عنها فأحلهم المحل اللائق بهم من الشرف ، كما شجعهم الرسول وأجزل لهم العطايا ، واعتبر هذا نوعاً من الجهاد فى سبيل الله والانتصار للحق . وأحسن مثل لذلك الشاعر المخضرم حسان بن ثابت الذى قربه الرسول إليه . وليس أدل على احترام الإسلام للشعر من قوله عليه الصلاة والسلام : « إن من البيان لسحراً وإن من السحر لحكمة » .

وكان شعراء هذا العصر لا يزالون على ما كان عليه من سبقهم فى الجاهلية برغم تأثرهم بالقرآن وأسلوبه . فإذا قرأت قصيدة لشاعر من أنصار الدعوة فى مدح الرسول أو هجاء المشركين ، أو قصيدة لشاعر من الذين شايعوا قريشاً فى مدح أحد زعمائها أو رثاء قتلاها ، أو فى هجاء المسلمين ، ألفيت هذه القصيدة أو تلك لا تـكاد تخرج عما كان يمدح به الشعراء شيوخ القبائل فى الجاهلية أو يهجونهم به ، ولو أنه قد كثر فيها الحديث عن الجنة والنـار ، والحساب والعذاب ، والبعث والنشور ، وما إلى ذلك من الأمور الدينية التى لم يعن بها العرب الجاهليون فى أشعارهم .

ومما هو جدير بالملاحظة أن الشعراء الذين ناهضوا الرسول وقاوموا الدعوة لم يكونوا أقل من الشعراء المسلمين تأثراً بالقرآن وما جاء به من المعانى الدينية . فقد كانوا يقرءون القرآن ويعنون به ، لا لإيمانهم بما فيه ، ولـكن للرد على ما جاءهم به ومناقشته فى تلك المبادىء الجديدة التى جاء بهـا .

كما كان يوجه هؤلاء الشعراء اهتمامهم — إذا أرادوا هجاء الرسول أو الغض من شأنه — إلى تعرف أقوال المسلمين ومعتقداتهم ، وما يقابل ذلك فى دينهم القديم ليستطيعوا دفع هجمات الرسول عن معبوداتهم وسخريته من نظمهم الدينية وأوضاعهم الاجتماعية . لذلك نالت هذه الناحية شيئاً من اهتمام الخطباء والشعراء والمجادلين ، وكثر ورودها على ألسنتهم بعد أن كانت من الأمور التى لايعرض لها العربى فى حياته العادية ويلم بها إلا إلماماً يسيراً .

ومن هنا نشأت معارضة القرآن « وهى الإتيان بكلام يشبهه فى بلاغته وخصائصه الفنية . وكان القرآن أولى معجزات الرسول وأقواها فى الدلالة على أنه رسول من عند الله ، لأنه أتى بكلام لايستطيع أى إنسان أن يأتى بمثله . وقد تحدى الرسول والقرآن العرب جميعاً برغم فصاحتهم وتفننهم فى أساليب الكلام أن يأتوا بقرآن مثله فعجزوا . ثم تحداهم بعد ذلك أن يأتوا بعشر سور فقط فعجزوا أيضاً . قال تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه،قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ (سورة هود ١١ : ١٣) . ثم تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة ، قال تعالى : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعو شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ (سورة البقرة ٢ : ٢٣) قال تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ (سورة الإسراء ١٧ : ٨٨) .

وقد اشتهر من شعراء المسلمين حسان بن ثابت ، وعبد الله بن مالك ، وكعب بن مالك ، وكعب بن زهير ؛ واشتهر من شعراء المشركين عبد الله بن الزبعرى ، وضرار بن الخطاب ، وكعب بن الأشرف وغير هؤلاء وهؤلاء .

هذا هو حال الأدب فى عهد الرسول وفى عهد الخلفاء الراشدين . أما فى عهد بنى أمية فقد تغيرت الحال تغيراً ظاهراً . فقد ظهرت أحزاب مختلفة كلها يطاحن ويناضل بالقول والسيف للوصول إلى السيادة والحكم ، واتسعت صدور الخلفاء للشعراء المادحين والمشيدين بعظمة الملك وسطوة الخلفاء ، وقلدهم فى ذلك

الحكام والولاة فى الأقاليم المختلفة . كما تغيرت الحال الاجتماعية بما أفاء الله على العرب من أسلاب الجيوش فى البلاد المفتوحة ، فارتقت بذلك الحياة العربية وارتفع مستوى الحضارة والتمدن فى البيت العربى وتعددت مرافقه وضرورياته . وكان للإماء الأعجميات أعمق الأثر وأبلغه فى الانتقال بالبيت من خشونة البداوة وشظفها إلى لين الحضارة ونضارتها ، فنشأت فى ظل هذه البيئة الجديدة فنون من الشعر لم تكن معروفة من قبل .

كما تطورت الإدارة الحكومية وتعددت حاجاتها مما دعا إلى إنشاء الدواوين . ومن هذه الدواوين وأقربها اتصالا بالحياة الادبية ، ديوان الإنشاء والرسائل الذى أوجد نوعاً من النثر لم يكن للعرب به عهد . هذا ما يسمى بالنثر الفنى ، ويقصدون به تلك الرسائل التى كانت تحرر باسم الخليفة وتصدر إلى ولاته وعماله فى الأقاليم . وقد بدأ هذا النوع من النثر فى ذلك العصر ونما ، حتى ظهر فى آخر عهد الدولة الأموية عبد الحميد الكاتب الذى يعد بحق مؤسس الكتابة الفنية وواضع أصولها وقواعدها (١) .

وكان للفتوح الإسلامية أكبر الأثر فى ظهور طبقة أرستقراطية بما كان من رخاء الأمة المادى وخاصة فى بلاد الحجاز . وقد تجلت مظاهر هذا الرخاء فى حياة الأثرياء . وكان لتلك المظاهر أثر محسوس فى الحركة الفكرية ، ولا سيما فى فنى الغناء والموسيقى وفى تهذيب الشعر . وليس معنى ذلك أن هذه الأنواع من الفنون الجميلة لم تكن مألوفة عند العرب قبل الإسلام ، فقد أدخلتها مغنيات من غير العرب وخاصة من الفرس .

على أنه قد ظهر فى القرن الأول للهجرة مغنون من العرب فى مكة والمدينة نظموا قطعاً من الشعر ولحنوها . ونبغ فى الموسيقى كثيرون من أمثال معبد وابن شريح وطويس . ثم اشتغلت هذه الطبقة بالشعر العربى ، فنبغ منهم كثيرون فى الغزل مثل عمرو بن أبى ربيعة القرشى . واعتقد كثير من العرب أن أشعاره كانت أبشع جناية اقترفت على الدين . وزعم بعض أن كثيراً من الشعر

---

(١) انظر ما ذكره الجهشيارى عن عبد الحميد الكاتب فى كتاب الوزراء والكتاب ص ٧٢ — ٧٩ .

الغزلى منسوب خطأ بعض الشعراء كالأشعار التى تنسب إلى مجنون ليلى، حتى شك بعض فى وجود رجل بهذا الاسم . وإن صح ذلك لا يبعد أن يكون كثيراً من الشعر المنسوب إليه من شعر غيره . وممن نبغ فى الشعر الغزلى جميل صاحب القصائد المشهورة فى الغزل التى نظمها فى محبوبته بثينة (١) .

ومهما يكن من شىء فقد كانت نزعة الأمويين جاهلية لا تميل إلى الفلسفة، بل يؤثر فيهم الشعر الجيد والخطبة البليغة، فأجاد بعض خلفاؤهم نظم الشعر؛ كيزيد بن معاوية حتى قالوا : « بدىء الشعر بملك وختم بملك » ، يعنون امرأ القيس ويزيد . وكان عبد الملك بن مروان شاعراً فصيحاً .

وقد وجدت فى خارج الحجاز ضروب أخرى من الشعر . فنبغ فى عهد الأمويين الفرزدق، وجرير، والأخطل، وكلهم من أهل العراق مولداً ومنشأ . ونزحت العناصر النشيطة منذ الفتح الإسلامى إلى الأقاليم العربية كالعراق والشام فخلت منهم جزيرة العرب . وبلغت المنافسة أشدها بين جرير والفرزدق، حتى إنك لترى ذلك فى ثنايا شعرهما المسمى بالنقائض الذى امتاز بالهجاء العنيف المقذع، وإن كان قد بلغ درجة عظيمة من الإتقان والجودة، وأصبح المعين الذى نغترف منه اللغة العربية فى عصرها الجديد .

وكان لكل من جرير والفرزدق أنصار يتعصبون له ولشعره . وليس أدل على ذلك من انقسام جند المهلب بن أبى صفرة والى خراسان عند مسيرة لحرب الأزارقة من الخوارج إلى فريقين : فريق يحبذ جريراً، وآخر يفضل الفرزدق .

وانضم الأخطل إلى هذا العراك — وكان مسيحياً هواه مع الفرزدق — واتخذه الأمويين كبير شعرائهم وأعظم مؤيديهم . وكان من المقربين إلى عبد الملك بن مروان، فكان يدخل عليه بلا استئذان وهو مرتد أفخر الملابس الحريرية، وعليه صليب من ذهب متدل من رقبته بسلسلة ذهبية .

كما كان للأحزاب السياسية الأخرى شعراء أبلوا بلاء حسنا فى نصرتهم وتأييد مذاهبهم وآرائهم والدفاع عنها والدعوة إليها . نذكر منهم عمران بن حطان وقطرى بن الفجاءة من الخوارج، وعبد الله بن قيس الرقيات من الزبريين، والكميت بن زيد الاسدى من الشيعة .

---

(١) Nicholson, pp. 237 - 238

(ب) العلوم العقلية :

أما اشتغال المسلمين بالعلوم العقلية ، فإنهم استمدوا آراءهم وعلومهم من الثقافة اليونانية التى كانت منتشرة منذ فتوحات الإسكندر فى مصر وسورية وغربى آسيا . فإنه لما اضمحلت مدرسة الرّها فى أواخر القرن الخامس الميلادى بسبب قيام الخلافات المذهبية ، لجأ علماؤها الذين طردوا إلى بلاد الفرس ، واحتموا ببلاط كسرى أنو شروان (٥٣١ — ٥٧٨ م) ، وكان قد رحب بفلاسفة مدرسة الأفلاطونية الحديثة الذين نفاهم الإمبراطور جستنيان من أثينا لوثنيتهم ، وأسس فى جنديسابور من أعمال خوزستان داراً للعلم قام فيها هؤلاء العلماء بتدريس الطب والفلسفة ، وبقى أثرها فى تلك البلاد حتى ظهرت الدولة العباسية . كما غدت حران مركزاً من مراكز الثقافة اليونانية ببلاد العراق. وتكلم أهل حران ، وهم الصابئة ، اللغة العربية فى سهولة ويسر ، وساعدوا إلى حد كبير على نشر الثقافة اليونانية بين المسلمين ، وإليهم يرجع الفضل فى ترجمة كثير من الكتب عن اللغات الأجنبية .

ولم يكن لترجمة الكتب العربية حظ كبير فى عهد بنى أمية ، وكان خالد ابن يزيد بن معاوية أول من عنى بنقل علوم الطب والكيمياء إلى العربية ، فدعا جماعة من اليونانيين المقيمين فى مصر وطلب إليهم أن ينقلوا له كثيراً من الكتب اليونانية والقبطية التى تناولت البحث فى صناعة الكيمياء العملية ، وعمل على الحصول على الذهب عن طريق الكيمياء ، وكذلك عربت الدواوين منذ عهد عبد الملك بن مروان بعد أن كانت بالفارسية فى العراق [1] ، واليونانية فى مصر والشام ، ونقل ديوان مصر من اليونانية والقبطية إلى العربية فى عهد الوليد بن عبد الملك .

وكانت المساجد تعد من أكبر معاهد الثقافة لدراسة القرآن والحديث والفقه واللغة وأصبح كثير منها مراكز هامة للحركة العلمية . وأحسن مثل

---

(١) الجهشيارى : كتاب الوزراء والكتاب ص ٣٨ .

لذلك مسجد البصرة ، الذى كان فيه حلقة قوم من أهل الجدل يتصايحون فى المقالات ، وبجانبهم حلقة للشعر والأدب . وكان الذين يحضرون هذه الحلقات من شعوب وديانات مختلفة . وهكذا أخذت الثقافات التى كان للاسلام أثر كبير فى مزجها ، تلتقى فى تلك المراكز على مر السنين حتى امتزج بعضها ببعض . فإن من اعتنق هذا الدين من غير العرب كان يرى لزاما عليه أن يتعلم العربية وآدابها حتى يتيسر له قراءة القرآن ودراسته . وبذلك يجمع بين ثقافته القومية والثقافة العربية .

وكانت النفقات التى خصصت لدور العلم فى صدر الإسلام قليلة ، وذلك يرجع إلى زهد المدرسين واكتفائهم بما كانوا يصيبونه من الفيء والصدقة . وقد اقتصرت نفقات دور العلم على المساعدات المالية التى كان يقدمها الخلفاء إلى الزهاد الذين حبسوا أنفسهم فى المساجد للعبادة .

وقد أثر عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى والى حمص : انظر إلى القوم الذين نصبوا أنفسهم للفقه وحبسوها فى المسجد عن طلب الدنيا ، فاعط كل رجل منهم مائة دينار يستعينون بها على ماهم عليه من بيت المال حين يأتيك كتابى هذا ، فإن خير الخير أعجله والسلام !

١ — الكيمياء والطب :

اشتغل المسلمون فى عهد الأمويين بالعلوم الطبية ولاسيما الكيمياء التى لايبعد أن يكونوا قد أخذوها عن اليونان .

وكان خالد بن يزيد أول من عنى بنقل الطب والكيمياء إلى العربية ، فدعا جماعة من اليونانيين من مدرسة الاسكندرية حيث راجت صناعة الكيمياء ، وطلب إليهم أن ينقلوا له كثيراً من الكتب اليونانية والقبطية التى تناولت البحث فى صناعة الكيمياء العملية . وعمل على الحصول على الذهب عن طريق الكيمياء كما تقدم[١] ، كما طلب إليهم أن يترجموا كتب جالينوس فى الطب ، ووضع بذلك أساس التعاليم الطبية .

---

(١) Hell, The Arab Civilissation, p, 60.

وقد أنفق خالد بن يزيد الأموال الضخمة فى طلب الذهب واستحضار آلاته . ولعلهم ترجموا له شيئاً لم يصلنا خبره . وقد ذكر الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » أن خالداً كان خطيباً شاعراً فصيحاً جامعاً جيد الرأى كثير الأدب .

ويعتبر لقمان الحكيم أقدم أطباء العرب . وكان الحارث بن كلدة الذى ولد فى الطائف فى القرن السادس الميلادى أشهر أطباء عصره . وقد درس الطب بمارستان جنديسابور ببلاد الفرس ، ثم أصبح طبيب خسرويه كسرى فارس . وقد تخصص الحارث فى علم الصحة وأوصى بعدم الإفراط فى الطعام وعدم الاستحمام بعد تناوله ، كما أوصى بالحجامة والحقن . ولما ظهر الإسلام قربه الرسول إليه ، وظل محل ثقة العرب حتى مات فى سنة ٣٣ ﻫ . وقد تلقى النضر الطب عن أبيه الحارث وذاعت شهرته ، واخترع حبوبا مسهلة نسبت إليه ، وكانت تستعمل فى أمراض الصفراء . واشتغل ابن أبى رمثه التميمى بعلم التشريح .

وقد عنى المسلمون بنشر الثقافة الطبية بترجمة ماخلفه الأقدمون ، وأسسوا المعاهد العلمية لتخريج الأطباء . وكان هناك نوعان من الكليات الطبية هما : البيمارستانات ، أو الكليات العملية للطب ، والمدارس النظرية .

وقد قيل إن أول بيمارستان فى الإسلام هو تلك الخيمة التى ضربها الرسول فى المدينة يوم « الخندق » . وجعل فيها امرأة تدعى رفيدة تقوم بخدمة الجرحى . وذهب المقريزى إلى أن الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ ﻫ) كان أول من بنى البيمارستان فى الإسلام ، وذلك فى سنة ٨٨ ﻫ (٧٠٦ م) ، وجعل فيه الأطباء ، وأجرى عليهم الأرزاق ، وأمر بمنع المجذومين عن سؤال الناس ، وخصص لهم الأعطيات ، كما أعطى كل مقعد خادما يهتم بأمره ، وكل ضرير قائداً يسهر على راحته .

كما استعان الأمويون بالأطباء الذين كانوا يعملون فى بيمارستان جنديسابور بخوزستان الذى أسسه كسرى أنو شروان ، وجلب إليه الأطباء من بلاد اليونان . وقد تخرج فى هذا المعهد : الحارث بن كلدة وابنه النضر . كما استعان الأمويون ببعض الأطباء الذين كانوا يعملون فى هذا المعهد الطبى ، كابن أثال الطبيب النصرانى الجنديسابورى الذى اتخذه معاوية بن أبى سفيان طبيباً له ، وحكم الدمشقى ، وتيادوق وغيرهم .

وذكر المسعودي[1] أن عبد الملك بن مروان كان مولعاً بعلم النجوم ، حتى إنه كان يصحب معه بعض المنجمين فى حروبه . فإنه لما بلغه قدوم إبراهيم ابن الأشتر النخعى لحرب أخيه محمد بن مروان ، بعث عبد الملك إلى أخيه يأمره ألا يقابله فى ذلك اليوم . وكان مع عبد الملك منجم مقدم على غيره . وقد أشار على هذا الخليفة بألا تشتبك خيله فى حرب فى ذلك اليوم ، لأنه من أيام النحس ، وأن يحارب بعد ثلاثة أيام حيث يكتب له النصر . ولكن أخاه محمداً لم يعبأ بنبوءة ذلك المنجم وواصل القتال وأحل الهزيمة بابن الأشتر .

٢ — السير والمغازى :

وكذلك اشتغل المسلمون فى ذلك العصر بتدوين السير والفتوح الإسلامية . وكان عبيد بن شرية اليمنى أول من ألبس هذا النوع من القصص ثوب التاريخ ، ثم جاء وهب بن منبه ، فتصدى للمغازى وهى الفتوح الإسلامية ، ووضع أساسها وعنه روى المؤرخون المتقدمون .

وقد روى أن عروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٤ هـ أقدم من ألف فى السيرة النبوية . وكذلك كان أبان بن عثمان بن عفان المتوفى سنة ١٠٥ هـ . فقد جمع له تلميذه عبد الرحمن بن المغيرة كتابه فى سيرة الرسول ، وجمع كل من ابن شهاب الزهرى المتوفى سنة ١٢٤ هـ ، وموسى بن عقبة المتوفى سنة ١٣١ هـ كتاباً فى المغازى . وممن اشتغل بالمغازى ابن إسحاق المتوفى سنة ١٥١ هـ ، وتلميذه ابن هشام المتوفى سنة ٢١٨ هـ ، صاحب سيرة النبى صلى الله عليه وسلم . ومع ذلك لم يشجع الخلفاء الأمويون هؤلاء الكتاب على تدوين أخبار الإسلام ، لأنهم كانوا يفضلون عليها قراءة القرآن . فقد قيل إن عبد الملك بن مروان رأى كتاباً لوهب بن منبه فى يد شخص ، فأمر بالكتاب فأحرق ، ثم أمر بقراءة القرآن بدلا منه . ومع ذلك كان معاوية بن أبى سفيان مشغوفا بقراءة الأخبار والسير والآثار كما تقدم .

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ١١٩ — ١٢٠ .

٢ — الفن

تمهيد :

كان يغلب على الجماعة الإسلامية فى عصر الرسول والخلفاء الراشدين من بعده البساطة وخشونة العيش والجهاد فى سبيل الله . فلم يكن المجتمع الإسلامى حينئذ مرتعاً خصيباً للفنون الجميلة بأنواعها[١] : وفى ذلك يقول ابن خلدون[٢] : « فكان الدين أول الأمر مانعاً من المغالاة أو البنيان والإسراف فى غير القصد » .

ولما اتسعت فتوح العرب واختلطوا بغيرهم من الأمم الأخرى جمعوا شتى الأساليب الفنية القديمة وطبعوها بطابع دينهم الجديد[٣] . واتسع أفق الفن فى أعينهم ، واستطاعوا أن يخرجوا صوراً فنية جديدة لا تخرج عما رسمه الدين الإسلامى . على أن الأمر الذى يسترعى النظر ، أن العرب لم يعنوا بفن النحت والتصوير المجسم عنايتهم بالبناء والزخرفة ، لأنهم رأوا فى ذلك تشبهاً بعبدة الأوثان . لهذا كان العنصر الأساسى فى زخرفتهم الرسوم النباتية والهندسية[٤] .

وقد اتخذ العرب بعد استيلائهم على بلاد الشام وفارس طرازاً خاصاً للعمارة يتناسب مع حالة معيشتهم ، فامتازت مبانيهم بطرز خاصة من الأعمدة والأقواس أو العقود والقباب ، والمقرنصات أو الدلايات . وهى زخارف بارزة تشبه خلايا النحل ، وتجدها فى طبقات ، مصفوفاً بعضها فوق بعض فى وجهات المساجد وفى المآذن ، وتحت شرفات البناء ، أو فى تيجان بعض الأعمدة ، أو فى القباب بين القاعدة المربعة والسطح الدائر . وقد استخدمت المقرنصات للزخرفة فى السقوف الخشبية فضلا عن الأبنية الحجرية[٥] .

---

(١) زكى محمد حسن : فنون الإسلام ص ١٠ .

(٢) راجع ماذكره ابن خلدون فى مقدمته فى الفصل الثامن « فى أن المبانى والمصانع قليلة بالنسبة إلى قدرتها وإلى من كان قبلها من الدول » ص (٣١٢ — ٣١٣) .

(٣) زكى محمد حسن : فنون الإسلام ص ١ .

(٤) المصدر نفسه ص ٨ و ٢٥ ـ ٤٣ .

(٥) زكى محمد حسن : فنون الإسلام . ص ٩
Zaky M. Hassan : The Attitude of Islam towards Painting (Bulletin of the Faculty of Arts, University of Cairo, Vol. vii, July, 1944), pp. 1—16.

وعلى الرغم من أن العرب استعانوا بمهرة الصناع فى البلاد التى دخلت تحت سلطانهم احتفظت العمارة الإسلامية بطابعها الجديد ، وأصبحت تمتاز بمزايا خاصة بها وقد تمثلت العمارة العربية أول الأمر فى المساجد . وكان مسجد قباء الذى أسسه الرسول عليه الصلاة والسلام ، النموذج الأول لسائر المساجد الإسلامية من حيث الشكل العام . ومما لاشك فيه أن اختلاف الحجاج إلى مكة المكرمة وإلى المدينة المنورة فى كل عام ، وأداءهم الصلاة فى المدن والقرى التى كانوا يمرون بها ، قد ساعد على محاكاة مساجد الحجاز .

وقد أدخلت المقصورة فى بناء المساجد لينتظر فيها الإمام حتى يحين وقت الصلاة . وكان أول من اتخذها معاوية بن أبى سفيان حين خشى على نفسه أن يحل به ما حل بعمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب ، واقتدى به الخلفاء من بعده . كذلك دخلت فى عمارة المساجد زيادات ، منها المآذن والمحراب الذى يدل على جهة القبلة [١] ، والإيوانات ، وهى أروقة تحيط بالصحن ذات أقواس مقامة على أعمدة أو دعائم ، واستمر ذلك إلى العصر العباسى الأول .

وقد تقدم فن الزخرفة الإسلامية فى عهد الخلفاء الأمويين والعباسيين . ومن مميزاته الظاهرة استعمال النقوش الخطية العربية . فكثيراً ما نرى آية من آيات القرآن الكريم أو بيتاً من الشعر أو عبارة من عبارات التحية والتهنئة ، تدور حول حافة التحف الأثرية ، أو تكون شريطاً زخرفياً على أثر من الآثار .

وقد ازدهر فى عهد الأمويين فن النقش على الجدران ، ولا يزال بعض بقاياه ماثلا فى « قصير عمرة » ، وهو قصر صغير للصيد شرقى البحر الميت على بعد خمسين ميلا شرقى عمان ، ويتجلى فى طرازه مزيج من الفنون الشرقية واليونانية . ويذهب علماء الآثار إلى أنه شيد فى عهد الوليد بن عبد الملك الأموى [٢] ، ويشتمل على قاعة استقبال مستطيلة الشكل ذات عقدين يقسمانها إلى ثلاثة أروقة لكل رواق منها سقف من قبو نصف دائرى .

---

(١) Creswell: Early Muslim Architecture, Vol. I. pp. 3—9.

(٢) كتاب التصوير عند العرب تأليف المغفور له أحمد تيمور باشا ، أخرجه وزاد عليه الدراسات الفنية والتعليقات الدكتور زكى محمد حسن ص ١٥٠ ، ١٥١ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ . انظر كتاب فنون الإسلام للمؤلف نفسه ص ٤٤ .

العمارة :

١ — المدن :

تنقسم العمارة الإسلامية ثلاثة أقسام : عمارة مدنية تتمثل فى المدن وفى بيوت الخاصة ، ودينية تتمثل فى المساجد ، وحربية تتمثل فى الحصون والقلاع .

وكانت مبانى العرب فى غاية البساطة . ولم يكن فى مكة إلا مبان قليلة أهمها « الكعبة » . وكانت دور الأغنياء تبنى بالحجارة ، على حين كانت معظم مبانى المدينة تبنى من اللبن .

وكانت الدور فى الغالب من طبقة واحدة ، ولها فناء ، وفى وسطها بئر ، فلما اتسعت الفتوح الإسلامية فى عهد عمر بن الخطاب وكثرت الأموال فى الحجاز ، توافد على المدينة كثير من الخبراء فى العمارة من الأجانب؛ فارتقى فن العمارة فيها ، وشيد كبراء العرب فى مكة والمدينة القصور الواسعة من الحجارة والرخام . ويقال أن الدار التى بناها عثمان بن عفان كانت غاية فى العظمة والبهاء .

ويقول المسعودى إن الصحابة فى عهد عثمان أقاموا لأنفسهم دوراً فخمة ، فشيد الزبير بن العوام دوراً فخمة فى المدينة والكوفة والفسطاط والاسكندرية . وكان لسعد بن أبى وقاص قصر فخم فى وادى العقيق بالمدينة .

ولما استولى العرب على بلاد الشام وفارس اتخذوا طرازاً للعمارة خاصاً بهم يتناسب مع طبيعتهم وحالة معيشتهم . وكان لهذا الطراز طابع جديد بما أدخل فيه من عناصر فنية مختلفة .

وتمتاز العمارة العربية بالقباب والمآذن والأعمدة والمنحنيات ، وهذه تشبه من بعض الوجوه صورة النخيل المحبب إليهم ، لأنه من أعظم أغذيتهم ومن مصادر ثرواتهم .

وكانت المدن تحاط بأسوار منيعة للدفاع عنها ، كما كان لأصحاب كل حرفة حى خاص من أحياء المدينة يعرف بهم . وقد عرف العرب بعضهم للنظام المركزى ، فكانوا أينما حلوا يتكتلون قبائل وفرقاً متميزاً بعضها عن بعض ، ولكل حى أو قسم من المدينة أبواب منيعة تفصله عن سائر الأقسام والأحياء ،

ويقوم الحراس على حراسة هذه الأبواب التي تغلق إذا قامت ثورة في المدينة ، فينقطع الاتصال بين أجزائها المختلفة .

(ا) تأسيس البصرة :

لم يطب للعرب المقام في « المدائن » قاعدة بلاد الفرس ، لعدم تعودهم معيشة المدن الكبيرة ، لأنهم فطروا على حب الصحراء ذات الفضاء الواسع والهواء النقي والكلأ والمراعي لماشيتهم التي هي أعز أموالهم ، ولأن الخليفة عمر أراد أن لا يحول بينه وبين المسلمين بحر إذا أراد أن يمدهم بالجند . لذلك شرع العرب في بناء البصرة ثم الكوفة ، فاختط عتبة بن غزوان البصرة في ربيع سنة ١٦ هـ .

وكانت البصرة في مبدأ أمرها أشبه بالقرية منها بالمدينة . فأنشيء بها أولا المسجد (٢) ، وبنى بجواره دار الإمارة ، وحولها خطط ، لكل قبيلة منها خطة ومسجد ومقبرة ، وقد اتخذت الدور من الغاب أولا . ولما وجدوا أن الغاب لا يقوى على مقاومة النار بنوا الدور باللبن ثم بنوها بالآجر والحجارة بعد أن اتسعت ثروتهم .

ولم يكد يمضي على تأسيس البصرة عشرون سنة حتى أصبحت من أهم المراكز التجارية في العالم الإسلامي وخاصة في التجارة بين الهند والصين بحراً . وبذلك حلت محل الأُبلة على الخليج الفارسي (٣) ، ولم تلبث أن أصبحت مقصد القوافل ومحط رحال الشرق والغرب من مجاهل الصين إلى مفاوز الصحراء الكبرى .

وكان معظم سكان البصرة من ربيعة ومضر ، ثم وفدت إليها جاليات من الهند والسند والصين ، كما تردد عليها كثير من العرب للتجارة . وكان من أثر ذلك أن ظهرت فيها حياة أدبية جديدة وتأثرت الحركة الإسلامية بالفلسفة اليونانية القديمة كما تقدم .

(ب) تأسيس الكوفة :

ولكن العرب استوخموا مدينة البصرة لكثرة مياهها ومستنقعاتها ،

---

(١) بني أولا باللبن والطين وسقف بالعشب ، ثم جدده زياد بن أبيه سنة ٤٤ هـ ، فبناه بالآجر والجبس وسقفه بخشب الساج .

(٢) الطبري ج ٤ ص ١٤٨ ، ١٥٠ — ١٥٨ .

ففكروا فى تأسيس مدينة أخرى أصح منها هواء وأبعد عن الرطوبات ، فاختطوا الكوفة . فبعث سعد بن أبى وقاص سلمان الفارسى وحذيفة بن اليمان يرتادان له موضعاً تتوافر فيه هذه الشروط ، فوقع اختيارهما على مكان غربى الفرات على مقربة من الحيرة .

ولما أقر الخليفة عمر هذا الاختيار غادر سعد المدائن ونزل بجنده فى الكوفة فى المحرم سنة ١٧ هـ (يناير سنة ٦٣٨ م) ، وعسكر جند العرب — وعددهم أربعون ألفاً — فى الخيام أولا ثم بنوا بيوتاً من القصب . وسرعان ما أتت عليها النار ، فأمر عمر بأن تبنى الدور باللبن ، فاختط أبو الهياج بن مالك الأسدى شوارعها وأزقتها ، وأسس بها جامعاً وبنى فى مقدمته ظلة مقامة على أساطين من الرخام . وجعل العرب المسجد فى وسط المدينة حيث تفرعت الطرق والدروب ، وبنى فى نهاية أحد هذه الطرق دار سعد بن أبى وقاص ، وتبعد عن المسجد بمائتى ذراع ، واتخذ فيها بيت المال . وقام ببناء المسجد ودار الإمارة بناءون من الفرس على مثال مبانى الأكاسرة . وكانت الطرق فسيحة رحبة حتى لا يحتجب عن العرب هواء البادية الذى ألفوه .

وسرعان ما زادت أهمية البصرة والكوفة حتى أصبحتا من أعظم مراكز العلم والسياسية والحرب فى البلاد الإسلامية ، وغدت الكوفة قصبة العراق الأعلى . فكان والى الكوفة يعين من قبله الولاة على الباب وأذربيجان وهمذان والرى وأصبهان والموصل وقرقيسيا . ولكن أكثر من نزل الكوفة من عرب اليمن .

ولما ولى على بن أبى طالب الخلافة ترك المدينة واتخذ الكوفه حاضرة لخلافته لأن بها شيعته وأنصاره ، ثم لخصوبة أرضها وكثرة خيراتها ، ووقوعها فى مكان متوسط سهل الاتصال بأجزاء الدولة الإسلامية . ومما دعا علياً إلى هذا الاختيار ما عول عليه من حرب معاوية الذى امتنع عن بيعته . ولكن الأيام برهنت على أن علياً لم يوفق فى اختيار تلك الحاضرة الجديدة . فإن تركه المدينة هدم التوازن الذى كان بين القبائل العربية فى عهد الخلفاء من قبله . وقد تبين له بعد فوات الفرصة أن اعتماده على أهل الكوفة لم يكن إلا سراباً ،

فإنه لم يستطع أن يقر هذا النظام فى حاضرة ملكه الجديدة . وكان على يحب الكوفة ويؤثرها على المدينة حتى قال فيها : « الكوفة كنز الإيمان وحجة الإسلام وسيف الله ورمحه يضعه حيث يشاء : « والذى نفسى بيده لينتصرن الله بأهلها فى شرق الأرض وغربها كما انتصر بالحجاز » . وكان إذا أشرف عليها قال : « ياحبذا مقامنا بالكوفة تعرفها جمالنا الملوفة أرض سوداء سهلة معروفة »[1] .

(ح) تأسيس الفسطاط :

وبعد أن تم لعمرو بن العاص فتح الإسكندرية وإجلاء الروم عنها وطردهم من مصر ، أراد أن يجعلها مقراً لولايته لما فيها من عمران وأبنية ، وكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب ، فسأل عمر رسول عمرو ، : « هل يحول بينى وبين المسلمين ماء ؟ قال : نعم ياأمير المؤمنين إذاجرى النيل . فكتب إلى عمرو : إنى لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف ؛ فلا تجعلوا بينى وبينكم ماء ، متى أردت أن أركب إليكم راحلتى حتى أقدم عليكم قدمت » .

ولاشك أن مدينة الإسكندرية لم تعد صالحة لأن تكون حاضرة مصر كما كانت منذ أيام الإسكندر . فلم يكن بد من أن تكون الحاضرة — على أثر انتقال مركز السيادة على مصر إلى بلاد العرب — إما على البحر الأحمر ، وإما على نقطة تسهل منها المواصلات البرية . ولما لم تكن العرب أمة بحرية ، لم يكن بد من أن يتخذوا حاضرتهم الجديدة فى نقطة برية سهلة الاتصال ببلاد العرب . أضف إلى ذلك حكمة عمرو فى اختيار موقع الفسطاط ، لأنه كان يستطيع فيه أن يشرف على قسمى الديار المصرية شمالا وجنوباً ، ثم لقربه من الطريق إلى بلاد العرب .

وكان موضع الفسطاط فضاء ومزارع بين النيل والمقطم . ولم يكن فى هذا المكان من البناء سوى حصن بابليون حيث كانت ترابط الحامية الرومية . وكان إلى الشمال والشرق من هذا الحصن أشجار ونخيل وكروم ، وبين الحصن والجبل عدة كنائس وأديرة . وكانت تقع فى المنطقة التى حول جامع عمرو ، وتمتد شرقاً

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ١٤١ .

حتى قرب سفح جبل المقطم ، وشمالا حتى جهة فم الخليج وقناطر السباع وجبل يشكر ، وغرباً حتى النيل ، وجنوباً حتى ساحل أثر النبي .

وقد قيل فى تسمية الفسطاط بهذا الإسم أقوال كثيرة ، فقال بعضهم إن عمرو ابن العاص لما أراد المسير إلى الإسكندرية أمر بفسطاطه أن يرفع ؛ فإذا بيمامة قد باضت فى أعلاه فقال : لقد تحرمت بجوارنا ، أقروا الفسطاط حتى يطير فراخها ، فأقر فى موضعه ، فبذلك سميت الفسطاط . وذكر ابن قتيبة أن العرب تقول لكل مدينة فسطاط . أما « بطلر » فيقول إن مدينة الفسطاط مأخوذة من لفظ Fossatum ومعناه « مدينة حصينة » . أخذه العرب عن الروم فى أثناء حربهم فى الشام . وربما كان هذا أرجح الأقوال .

لما عزم عمرو على تخطيط الفسطاط ولى الخطط أربعة من قواد المسلمين أنزلوا الناس وفصلوا بين القبائل . لذلك لايبعد أن يكون هؤلاء قد اختاروا النزول فى المكان الذى نزلوا فيه أولا لصلاحه وقربه من النيل .

وكانت بيوت الصحابة بمدينة الفسطاط فى بادىء الأمر طبقة واحدة ، ثم أخذت الدور تتسع وتعلو شيئاً فشيئاً ، حتى صار ارتفاع أغلب الدور خمس طبقات وستاً وسبعاً وثمانياً ، وأصبح يسكنها المائتان من الناس بعد أن كان لايسكنها إلا أسرة قليلة العدد .

وقد ظلت مدينة الفسطاط قاعدة الديار المصرية ومقراً للإمارة حتى بنيت مدينة العسكر سنة ١٣٢ هـ ، فنزل فيها أمراء مصر وسكنوها .

(د) دمشق :

كانت دمشق قبل الفتح العربى مقر حكام الروم . وقد أصبحت حاضرة الدولة الإسلامية منذ خلافة معاوية بن أبى سفيان . وغدت أكبر المدن الإسلامية فى ذلك العصر وأفخمها فى الأبهة والعمارة ، كما امتازت على غيرها من المدن بكثرة الأنهار والينابيع . وقد قيل إن دمشق سميت بذلك الاسم من الدمقس وهو ضرب من الحرير الذى اشتهرت به قبل الإسلام بزمن طويل .

وقد ذكر ياقوت أن دمشق كانت حصينة ، أقيمت حولها أسوار منيعة يبلغ ارتفاعها ثمانية أمتار وعرضها خمسة عشر قدماً .

وكان لدمشق سبعة أبواب ، يرى أبراجها العالية القادم إليها من بعد عظيم . وقد شيد بها معاوية قصر الخضراء ؛ وقد سمى بهذا الاسم للون نقوشه وطلائه . ولما ولى الوليد الخلافة جمل دمشق وضواحيها بالمبانى العامة . وقد سارت كلفة الوليد بالعمارة سير الأمثال . قيل « إن الناس فى دمشق كانوا فى عهده يتكلمون عن العمارات وجمالها ، وفى عهد سليمان عن الطعام والنساء ، وفى عهد عمر ابن عبد العزيز عن الدين والقرآن » .

ومن آثار الأمويين الخالدة فى دمشق مجارى مياهها ، ولا يزال نهر بردى يجلب الماء إلى المدينة . وبلغ نظام مجارى الماء من الدقة بحيث أصبح لكل دار فى دمشق نافورة خاصة بها ، وذلك بفضل القنوات السبع الرئيسية التى شقها الأمويون لتوصيل الماء إلى أنحاء المدينة ، والقناطر الكثيرة المقامة على الأعمدة التى شيدوها لتوصيل ماء الشرب إلى الدور .

(هـ) تأسيس القيروان :

ومن المدن التى أسسها المسلمون فى ذلك العصر مدينة القيروان . ذلك أن معاوية بن أبى سفيان ولى عقبة بن نافع الفهرى إفريقية سنة ٤٨ هـ ، وكان إذ ذاك يقيم بنواحى برقة ، فدعا إليه من أسلم من البربر وضمهم إلى الجيش الذى بعث به معاوية ، وسار إلى إفريقية ، ونازل مدنها ، فافتتحها عنوة ، وأسلم على يده كثير من البربر .

وقد رأى عقبة على أثر انتصاره على البربر أن يتخذ مدينة تحمى جند المسلمين وأموالهم من عدوان أهالى هذه البلاد عليهم ، فاختار موقع القيروان لبعده عن ساحل البحر حتى يكون المسلمون بمأمن من غارات الروم . واختط عقبة فى ذلك الموضع داراً للإمارة ، واختط الناس حولها الخطط والدور كما بنى بها المسجد الجامع . وكان يسكن القيروان أخلاط من الناس ، من قريش ومن سائر بطون العرب من مضر وربيعة وقحطان ، وبها فريق من الفرس من أهالى خراسان كما أقام بها البربر والروم . وكان يحيط بالقيروان سور مبنى باللبن والطين ، بناه القائد العباسى محمد بن الأشعث الخزاعى سنة ١٤٤ هـ وقد هدم زيارة الله إبراهيم بن الأغلب هذا السور فى سنة ٢٠٩ هـ بعد أن خرج عليه أهل القيروان بزعامة المنصور

المعروف بالطنبدى ، ثم أعاد بناءه المعز بن باديس بن منصور الصنهاجى سنة ٤٤٤ هـ(١)

وقد ذكر ابن خلدون عند كلامه على ما « يجب مراعاته فى أوضاع المدن وما يحدث إذا غفل عن المراعاة » أنه يجب أن تحاط المدينة بالأسوار وأن تبنى إما على هضبة متوعرة من الجبل ، وإما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة . كما يجب أن يراعى عند اختيار موضعها طيب الهواء للسلامة من الأمراض . فإن الهواء إذا كان راكداً أو مجاوراً للمياه الفاسدة أو مناقع متعفنة أو مروج خبيثة ، أسرع إليها العفن فأسرع المرض للإنسان والحيوان وتفشت الحميات ، وقرب الزرع منها فيحصل النـــاس على الأقوات ، وقربها من البحر ليحصل الناس على حاجاتهم من البلاد النائية . وختم ابن خلدون كلامه بقوله إن العرب لم يراعوا هذه الشروط فى اختيار مواقع المدن التى أسسوهـا كالبصرة والكوفة والقيروان وغيرها ، وأنها كانت أقرب إلى الخراب إذ لم تراع فيها الأمور الطبيعية .

على أن كلام ابن خلدون لا ينطبق على جميع المدن التى أسسها العرب ، بل ينطبق على بعضها . فإن الفسطاط مثلا روعى عنـــد تأسيسها الأمور الطبيعية والسياسية ، لأن النيل يحدها شرقاً والجبل غرباً ، وتقع المزارع بينها وبين الجبل من جهة وبين جبل يشكر من جهة أخرى . أضف إلى ذلك وقوعها على رأس الدلتا ليسهل الإشراف على الوجهين البحرى والقبلى . ولما لم يكن العرب أمة بحرية لم يكن ثمة ما يدعو لاتخاذ الحاضرة على البحر الأحمر ، حتى لا يحول بينها وبين العرب ماء كما رأى عمر بن الخطاب .

٢ — المساجد :

(ا) الحرم النبوى الشريف :

لما وصل الرسول إلى المدينة بنى مسجده الذى دفن فيه . وكانت الأرض التى بنى عليها المسجد لغلامين يتيمين فى حجر أسعد بن زُرارة ، وكانت مربداً للتمر . وقد أراد أن يهبها لله وللرسول ، فأبى الرسول إلا أن يشتريها بالثمن ، وأمر بتسوية حفره وقطع ما به من النخل . وشرع الرسول فى بناء مسجده من اللبن

(١) أبو عبيد البكرى : المغرب فى بلاد أفريقية والمغرب ص ٢٤ — ٢٥ .

وكان يبنى فيه بنفسه . وكان سقفه من الجريد وأعمدته من خشب النخل وارتفاعه قدر قامة . وجعلت قبلته لبيت المقدس إلى أن حولت إلى الكعبة . وبنى الصُّفّة وهى موضع مظلل من المسجد ليأوى إليها فقراء المسلمين ، وجعل للمسجد بابين: باب عائشة ، والباب الذى يقال له باب عاتكة ، وباباً فى مؤخر المسجد يقال له باب مليكة . وبنى بجواره بيوتاً باللبن وسقفها بجذوع من النخل . ثم زاد الرسول فى المسجد بعد فتح خيبر لازدياد عدد المسلمين .

ولما ولى عمر الخلافة أراد أن يشترى دار العباس بن عبد المطلب عم الرسول ليدخلها فى المسجد ، فوهبها العباس لله وللمسلمين ، فأدخلها عمر فيه وجعل طوله مائة وأربعين ذراعاً وارتفاعه أحد عشر ذراعاً ، وجعل له ستة أبواب وحصنه (١٧ هـ) . ثم بناه عثمان بن عفان بالحجارة المنقوشة والقصة ، وجعل عمده من الحجارة المنقوشة أيضاً ، وسقفه بالسياج وزاد فيه زيادة كبيرة ونقل إليه الحصباء من العقيق (٢٩ — ٣٠ هـ) .

وقد أمر الوليد بن عبد الملك الأموى عمر بن عبد العزيز عامله على المدينة بإدخال حجرات زوجات الرسول فى المسجد ؛ فأصبحت مساحته مائتى ذراع فى مثلها . وكتب إلى امبراطور الروم يطلب منه العمال لعمارة مسجد الرسول ، فبعث إليه أربعين رجلا من الروم وأربعين من القبط . كما أرسل إليه أربعين ألف مثقال من الذهب وأحمالا من الفسيفساء ، فبنوا الأساس والجدار والأساطين بالحجارة ، وجعلوا عمد المسجد من الحجارة المحشوة بعمد الحديد والرصاص ، وجعل المحراب والمقصورة من الساج ؛ ثم تولى أمراء المسلمين مسجد الرسول بالعمارة والتجديد[1] .

وكانت شئون الدولة العامة تدار فى المساجد قبل إنشاء الأبنية الخاصة بدور الحكومة ، ويتضح ذلك مما يقوله سير توماس أرنولد[2] : « لم يكن المسجد مكاناً للعبادة وحدها ، بل كان أيضا مركز الحياة السياسية والاجتماعية . فكان النبى يستقبل فى المسجد السفراء ويدير شئون الدولة ، ويخطب جماعة المسلمين من على

(١) أنظر لفظ يثرب فى معجم البلدان لياقوت .
(٢) The Caliphate, pp. 36—38.

المنبر فى الأمور السياسية والدينية . . فمن فوق منبر المدينة أعلن عمر تقهقر جيوش المسلمين فى العراق واستحث قومه إلى السير إلى هذه البلاد . ومن على المنبر أيضاً وقف عثمان يدافع عن نفسه ، كما كان الخليفة يلقى بعد بيعته من فوق المنبر خطبته الأولى التى هى بمثابة بيان لسياسته فى الحكم . فكان المنبر بذلك أشبه بالعرش الذى يلقى من فوقه بيان سياسة الدولة فى الأمم الدستورية » .

ونستطيع أن نضيف إلى ما تقدم أن المساجد كانت تستخدم لاجتماع العلماء فيها ، كما اتخذها علماء التفسير والحديث مقراً لهم . ثم استخدمت معاهد للتعليم يتلقى فيها الأطفال اللغة العربية وأصول الدين ، كما اتخذها القضاة مكاناً لعقد جلساتهم . وصفوة القول أنه لما لم يكن الفصل بين السياسة والدين ، كان المسجد المكان الذى تذاع فيه الأخبار الهامة التى تتعلق بالمصالح العامة .

ويقول سير توماس أرنولد أيضاً إن المساجد لم تلبث أن فقدت أهميتها السياسية والاجتماعية ، فلم تعد تمثل عرش الخليفة أو كرسى الوالى أو منصة القاضى ، وغدا المسجد مقصوراً على إقامة الخطبة الدينية ، يمجد فيها الله ويصلى على النبى ويترحم على الصحابة ويدعى للخليفة باعتباره نائباً عن رسول الله فى المحافظة على الدين . ولم يبق فيها من مظاهر السياسة إلا ذكر اسم الخليفة فى الخطبة ليكون ذلك باعتراف الولايات الإسلامية بسلطة الخلفاء الاسمية .

(ب) تأسيس الجامع العتيق[1] .

أسس هذا الجامع عمرو بن العاص سنة إحدى وعشرين من الهجرة . وكان على الأرض التى بنى عليها مسجد لقيسبة بن كلثوم التجيبى . وقد سأل عمرو حين عاد المسلمون من الإسكندرية قيسبة أن ينزل عن داره ، وكانت تقع إلى الشمال من حصن بابليون ، ليجعل مكانها مسجداً ، فأجابه إلى طلبه وتصدق بها على المسلمين . ومن ثم شرع عمرو فى بنائه ، فكان طوله خمسين ذراعاً وعرضه ثلاثين. ومن هنا يتضح أن هذا الجامع كان فى مبدأ أمره أصغر بكثير مما هو عليه الآن .

ولم يكن للمسجد الذى بناه عمرو محراب مجوف . وأول من بناه قرة

---

(١) يطلق على هذا الجامع أيضاً جامع عمرو، وتاج الجوامع،والمسجد الجامع (ابن دقاق ج ٤ ص ٥٩) .

ابن شريك والى مصر من قبل الوليد بن عبد الملك (٨٦ — ٩٦) . وكان للمسجد بابان أمام دار عمرو وبابان فى الشمال وبابان فى الغرب . وكان الخارج من زقاق القناديل[1] يلقى ركن الجامع الشرقى محاذياً ركن جامع عمرو الغربى . وكان سقفه منخفضاً جداً ، كما لم يكن للمسجد صحن . وقد اتخذ عمرو منبراً فى المسجد ، فكتب إليه عمر بن الخطاب : « أما بحسبك أن تقوم قائماً والمسلمون جلوس تحت عقبيك » ؟ فكسره عمرو .

هذا هو أقدم جامع إسلامى بنى فى مصر ، وترجع أهميته التاريخية إلى موضعه القديم الذى بناه فيه عمرو بن العاص .

(ح) مسجد دمشق :

ويضرب بمسجد دمشق المثل فى جماله وحسن نظامه . وأول من اختطه أبو عبيدة بن الجراح ، ثم بناه الوليد بن عبد الملك بين سنتى ٨٨ ، ٩٦ هـ . وكان الوليد كلفاً بالعمارة وخاصة عمارة المساجد . ولما عزم على بناء مسجده جمع زعماء النصارى فى دمشق وعرض عليهم رغبته فى إدماج كنيسة القديس يوحنا فى مسجد المسلمين واستعداده لأن يعوضهم عنها بكنيسة أخرى فى أى مكان شاءوا ، وأن يدفع إليهم ثمنها مضاعفاً ، فأبوا واحتجوا بالعهد الذى أخذه المسلمون على أنفسهم بأن لا يتعرضوا لكنائس النصارى بسوء .

ولكن الوليد لم يأبه لقولهم وسارع إلى هدم الكنيسة وبنى مكانها مسجد دمشق . وقد تأنق هذا الخليفة فى بناء هذا المسجد ، حتى قيل أنه أنفق على عمارته خراج دولته سبع سنين تقرباً إلى الله بهذا العمل الدينى الجليل . قال المسعودى (مروج ج ٢ ص ١٥٢) : وحكى عثمان بن مرة الخولانى قال : لما ابتدأ الوليد ببناء مسجد دمشق وجد فى حائط المسجد لوح من حجارة فيه كتابة باليونانية ، فعرض على جماعة من أهل الكتاب فلم يقدروا على قراءته ، فوجه به إلى وهب بن منبه فقال : هذا مكتوب فى أيام سليمان بن داود عليهما

(١) دعى بهذا الاسم لأنه كان منازل الأشراف ، وكان على أبوابهم القناديل . وإنما قيل له ذقاق القناديل ، لأنه كان برسمه قنديل يوقد على باب عمر ، وهو من الخطط القديمة وله أربعة مسالك .

السلام ، فقرأه فإذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، يا آدم ، لو عاينت ما بقى من يسير أجلك لزهدت فيما بقى من طول أملك ، وقصرت عن رغبتك وحيلك ، وإنما تلقى ندمك إذا زلت بك قدمك ، وأسلمك أملك ، وانصرف عنك الحبيب وودعك القريب ، ثم صرت تدعى فلا تجيب . فلا أنت إلى أملك عائد ولا فى عملك زائد : فاغتنم الحياة قبل الموت والقوة قبل الفوت ، وقبل أن يأخذ منك بالكظم ويحال بينك وبين العمل ، وكتب زمن سليمان بن داود ؛ فأمر الوليد أن يكتب بالذهب على اللازوردى فى حائط المسجد : ربنا الله لا نعبد إلا الله . أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التى كانت فيه عبد الله الوليد أمير المؤمنين فى ذى الحجة سنة سبع وثمانين . وهذا الكلام مكتوب بالذهب فى مسجد دمشق إلى وقتنا هذا وهو فى سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة » .

وقيل أن السجلات التى اشتملت على نفقات البناء نقلت إلى قصر الوليد على ثمانية عشر بعيراً لبحثها وإقرارها ، فأقرها الخليفة الأموى دون بحث أو مراجعة وقال : هو شىء أخرجناه لله ولا نرجو من ورائه شيئاً .

وفى الحق أن مسجد دمشق الذى يعرف الآن بالمسجد الاموى آية من آيات الفن العربى والبيزنطى ، ولا يزال حافظاً لرونقه وبهائه إلى اليوم . وإن فى هذا الوصف الذى وصفه به أحد أهالى دمشق لمثلا حياً وبرهاناً ناطقا على ما بلغه هذا المسجد من الرواء والإتقان ؛ هو جامع المحاسن كامل الغرائب ، معدود من إحدى العجائب ، قد أزر بعض فرشه بالرخام وألف على أحسن تركيب ونظام .

وقد غلا الوليد فى بناء المسجد . فقد كان محرابه مرصعاً بالجواهر الثمينة عليه قناديل الذهب والفضة ، ومحلى بالفسيفساء والسلاسل الذهبية ، حتى إن الناس أخذوا يرمونه بقصر النظر والتبذير ، وأنه بناه من بيت مال المسلمين من غير فائدة تعود عليهم من وراء هذا الإسراف . وسرعان ما وصلت هذه الأقوال إلى مسامع الوليد ، فخطبهم فى المسجد فقال : بلغنى أنكم تقولون وتقولون وفى بيت ما لكم عطاء ثمانى عشرة سنة إذا لم يدخل لكم فيها حبة قمح » . وقد

قيل : عجائب الدنيا أربع : قنطرة سنجة ، ومنارة الإسكندرية ، وكنيسة الرهاء ، ومسجد دمشق .

ولما رأى عمر بن عبد العزيز أن المال الذى أنفق على بناء المسجد الأموى لم يكن فى موضعه ، وأن بيت المال قد تأثر من جراء ذلك ، عول على أن يتدارك هذه الخسائر ، فينزع الفسيفساء ويستغنى بالحبال عن السلاسل الذهبية التى علقت فيها المصابيح .

وقد اتفق أن وصل إلى دمشق سفراء من قبل إمبراطور الروم ورغبوا فى زيارة مسجد دمشق ، فسمح لهم عمر ، ووكل بهم رجلا يعرف لغتهم . فلما مروا بصحن المسجد واستقبلوا القبلة رفعوا رءوسهم إلى المسجد . وقد نكس رئيس الوفد رأسه واصفر وجهه ، فسأله من معه ؟ فقال : إنا معشر أهل رومة نقول إن بقاء العرب قليل ، فلما رأيت مابنوا علمت أن لهم مدة لابد أن يبلغوها . ولما اتصل هذا بمسامع عمر قال : إنى أرى أن مسجدكم هذا غيظ على الكفار ، وترك ماعزم عليه (١) .

(د) مسجد القيروان :

ومن المساجد التى بنيت فى هذا العصر مسجد القيروان ، بناه عقبة بن نافع بعد أن اختط دار الإمارة فى القيروان . على أن عامل هشام بن عبد الملك رأى أن هذا المسجد يضيق بالمصلين ، وكتب بذلك إلى الخليفة ، فأمره بشراء الأرض التى كانت بجانب المسجد .

وفى عهد إمارة يزيد بن حاتم على إفريقية أعيد بناء هذا المسجد سنة ١٠٠ هـ ثم عزم زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب على هدمه وتجديد بنائه وإزالة كل أثر لغيره فيه ، فنصح له بعض أن يعدل عن هدم المحراب ، لأن من تقدمه من الولاة توقفوا عن ذلك حين علموا أن عقبة بن نافع هو الذى أقامه ، وأشار عليه بعض البنائين بأن يدخل المحراب بين حائطين ، وبذلك لايظهر أى أثر لغيره ، فأعجب زيادة الله بذلك الرأى وشرع فى تجديد بناء مسجد القيروان . ولما آلت ولاية إفريقية إلى إبراهيم بن أحمد بن الأغلب ، زاد فى هذا الجامع وأدخل على بنائه

(١) أنظر لفظ دمشق فى معجم البلدان .

عدة تحسينات وبنى القبة المعروفة بقبة البهو [١] .

ولد فن العمارة الإسلامية فى عصر بنى أمية . ولكنه سرعان مانما وترعرع ، فكانت من آثار الطراز الأموى عمائر يبدو فيها أن المسلمين أفادوا من فتوحاتهم ووجدوا كثيراً من العناصر الفنية فى أجزاء دولتهم وألفوا منها طرازاً ممتازاً [٢] .

(١) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٢٢ — ٢٤ .
(٢) زكى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٤٣ .

الباب التاسع

الحالة الاجتماعية

١ — طبقات الشعب :

يقصد بالحالة الاجتماعية فى بلد من البلاد ، ذكر طبقات المجتمع فى هذا البلد من حيث الجنس والدين ، وعلاقة كل من هذه الطبقات بعضها ببعض ، ثم بحث نظام الأسرة وحياة أفرادها وما يتمتع به كل منهم من الحرية ، ثم وصف البلاط ومجالس الخلفاء ، والأعياد والمواسم والولائم والحفلات ، وأماكن النزهة ، ووصف المنازل وما فيها من أثاث وطعام وشراب ولباس ، وما إلى ذلك من مظاهر المجتمع .

كان الخلفاء الراشدون والأمويون من بعدهم يعتمدون على العنصر العربى فى إدارة شئون الدولة العربية التى امتدت فتوحها من أسوار بلاد الصين شرقا إلى المحيط الأطلسى غرباً ، على الرغم من أن الدين الإسلامى قام على أساس المساواة بين المسلمين كافة ، لافرق فى ذلك بين عربى وعجمى . يؤيد ذلك ماورد فى القرآن الكريم من الآيات البينات التى تجعل التقوى أساس الحكم بين المؤمنين ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ ﴿ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ﴾ . وما أثر عن الرسول أنه قال : « لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

وقد تعصب الأمويون للعرب ونظروا إلى الموالى نظر السيد المسود مما أثار روح القومية فى نفوس هؤلاء الموالى ، فثاروا على الحكم الأموى وانضموا إلى الخارجين على بنى أمية ، وأخذوا يتلمسون الفرص لإزالة دولتهم ، فانضموا إلى المختار ، ثم إلى الخوارج ، كما اشتركوا فى فتنة عبد الرحمن بن الأشعث ، وفى فتنة يزيد بن المهلب ، وفى غيرها من الثورات التى كانت ترمى إلى القضاء على بنى أمية .

هذا إلى أن العنصر العربى نفسه لم يكن متحد الكلمة بسبب اشتعال العصبية القبلية التى حاول الإسلام القضاء عليها . وكان تفاقم روح العصبية فى خراسان خاصة من أهم العوامل التى ساعدت على نجاح الدعوة العباسية على أيدى الموالى الذين سخطوا على الحكم العربى ، كما ساعد اشتعال العصبية فى الأندلس على قيام الدولة الأموية على يد عبد الرحمن الداخل الأموى فى هذه البلاد .

ومهما يكن من شىء فقد تمتع أهل الذمة ، وهم النصارى واليهود ، بالحرية الدينية . فقد تركهم العرب يدينون بما رضوا لأنفسهم من دين على أن يدفعوا الجزية للمسلمين . ففى فارس نجد سكان المدن ، وبخاصة الصناع وأصحاب الحرف يرحبون بالدين الإسلامى . وقد عامل العرب من ظل من الفرس على مذهبه القديم معاملة حسنة ، ولم يتعرضوا لأماكن عبادتهم .

وكذلك كانت الحال فى بلاد الشام ومصر : فقد خير العرب أهل الذمة بين الإسلام والبقاء على دينهم . فمن أسلم منهم تمتع بما يتمتع به المسلمون ، ومن بقى على دينه فرضت عليه الجزية كفاء حمايته وتأمينه على نفسه وعلى أولاده وأمواله . كما أحسن العرب معاملة أهل الذمة فى بلاد الأندلس ، فسمحوا لليهود الذين ذاقوا كثيراً من ألوان العسف فى عهد القوط بمزاولة التجارة وأمنوهم على أنفسهم وأولادهم وأموالهم ، وأحسنوا معاملة المسيحيين الذين تمسكوا بدينهم . وكان لسياسة التسامح الدينى التى أظهرها العرب نحو أهالى هذه البلاد وغيرها أثر كبير فى تحول كثير منهم إلى الإسلام .

أما فى مصر فإن العرب لما فتحوا هذه البلاد أصبح فيها ثلاثة عناصر من السكان : القبط وهم أهل البلاد الأصليون ، وكانوا يكونون السواد الأعظم من السكان ، والروم . وهم بقايا الحكم الرومانى الذى قضى عليه العرب . وكان الروم واليهود يكونون أقلية ضئيلة من السكان . أما العنصر الثالث وهو العنصر العربى ، فكان يتألف بعد الفتح من الجند العربى ومن القبائل العربية التى سحرتها طبيعة هذه البلاد .

وقد بلغ جند العرب فى مصر فى عهد معاوية بن أبى سفيان أربعين ألفاً ، ثم أخذ هذا العدد يزداد بسبب وفود نساء هؤلاء الجند وأولادهم ، واتخاذهم مصر

وطناً ثانياً ، أضف إلى ذلك اندماج هؤلاء العرب فى أهالى البلاد الأصليين بالمصاهرة . على أنه برغم هذه الزيادة المطردة فى العرب النازحين إلى مصر ، طلب عبيد الله بن الحبحاب عامل الخراج من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك الأموى ، أن يأذن له فى إسكان العرب من قبائل قيس فى أرض الحوف الشرقى جهة بلبيس حيث يقيم نفر من جديلة ، وسرعان ما بلغ عدد هؤلاء القيسيين خمسة آلاف ، كما وفد إليها أولاد الكنز الذين يرجع نسبهم إلى ربيعة ابن معد بن عدنان من عرب الشمال ، ونزلت طائفة منهم بأعالى الصعيد ، أى بإقليم إسوان وغيره .

وقد اشتغل العرب باستثمار الأرض وتاجروا فى الإبل والخيل ، وحملوا عليها غلات أرضهم إلى القلزم (وهى مدينة السويس الآن) حيث كانت تنقل إلى بلاد العرب . على أن اندماج العرب فى المصريين اندماجاً فعلياً زاد زيادة واضحة بعد أن أسقط المعتصم العباسى أسماء العرب من ديوان العطاء ، واعتمد على الأتراك ، فانتشر العرب فى الريف ، واحترفوا الزراعة وغيرها طلباً للرزق ، وأخذ العنصر العربى يضعف شيئاً فشيئاً .

وكان الشعب فى بلاد الأندلس يتألف من عدة عناصر ، من بينها المسلمون من العرب والبربر الذين ساهموا فى فتح هذا هذه البلاد بقيادة طارق بن زياد وموسى ابن نصير ، ومن مسيحيى الأندلس من الأسبان الذين دخلوا فى الإسلام .

أما العرب فقد نزل كثير من القبائل الجنوبية أو اليمنيين والقبائل الشمالية أو المضريين فى أماكن كثيرة ، ونزل فريق من المضريين فى طليطلة وسرقسطة وإشبيلية وبلنسية وغيرها . كما نزل اليمنيون فى غرناطة وقرطبة وإشبيلية ومرسية وبطليوس . وقام العرب بدور هام فى الأندلس . وكان للنزاع الذى قام بين هذه القبائل أثر كبير فى إضعاف الحكم الإسلامى فى هذه البلاد .

وعلى الرغم من أن البربر بقيادة طارق بن زياد أبلوا البلاء الحسن فى فتح بلاد الأندلس وتحملوا أكثر أعباء هذا الفتح ، نرى العرب يحرمونهم ثمار فتوحهم وينزلونهم الأقاليم الجبلية الوعرة المجدبة فى الشمال ، حيث استهدفوا لحملات المسيحيين الذين أقاموا فى الأماكن الحصينة ، على حين نعم العرب بالوديان الخصبة البعيدة عن خطر عصابات المسيحيين . لهذا ثارت ثائرة البربر واستعرت حفائظهم

على العرب وأخذوا يناصبونهم العداء ، كما كانوا يناصبون العرب والروم من قبلهم فى بلاد المغرب .

٢ — مجالس الغناء والطرب :

لم يكن الغناء والموسيقى شيئاً مستحدثاً عند العرب قبل ظهور الإسلام ، فقد كان لتردد أشرافهم على بلاط كسرى وقيصر أثر بعيد فى حياتهم الاجتماعية ، فنعموا بسماع الموسيقى والغناء . وكان لطبيعة بلادهم أثر واضح فى تقدم فن الغناء ، فقد كان حداة الإبل يغنون الرجز ليخففوا عن أنفسهم مشقة الطريق ووعورة السبيل .

فلما ظهر الإسلام لم يغفل العرب أثر الصوت الجميل فى تلاوة القرآن الكريم وفى آذان الصلاة : فقد أثرعن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه طلب إلى بلال أن يأذن للصلاة لأنه كان ندى الصوت . واستمر الحال على ذلك فى عهد الخلفاء الراشدين الذين انصرفوا إلى الجهاد فى سبيل إعلاء كلمة الإسلام ، حتى تحولت الخلافة إلى الأمويين ، وانتشر شعراء الغزل فى الحجاز من أمثال عمر ابن أبى ربيعة ، وقيس بن دريج ، وكثير عزة ، وجميل بثينة ، ومال الناس إلى أشعارهم وتغنوا بها .

وقد أخذ الأمويين كما أخذ العباسيون من بعدهم ، نظام مجالسهم عن الفرس . وقد وصف الجاحظ فى كتابه التاج فى أخلاق الملوك فى باب المنادمة ، هذه المجالس فى عهد أردشير بن بابك ، فقال إنه كان أول من رتب الندماء ، فجعلهم ثلاث طبقات .

فكانت الأساورة [1] وأبناء الملوك فى الطبقة الأولى ، وكان مجلس هذه الطبقة من الملك على عشرة أذرع من الستارة .

ثم الطبقة الثانية ، وكان مجلسها من هذه الطبقة على عشرة أذرع ، وهى بطانة الملك وندماؤه ومحدثوه من أهل الشرف والعلم .

ثم الطبقة الثالثة ، وكان مجلسهم على عشرة أذرع من الثانية ، وهم المضحكون

---

(١) : الأسوار : جمعها أساورة وهم الفرسان .

وأهل الهزل والبطالة . غير أنه لم يكن فى هذه الطبقة الثالثة خسيس الأصل ولا وضيعه ، ولا ناقص الجوارح ولا فاحش الطول أو القصر ، ولا مؤوف (مصاب بآفة) ولا مرمى بأبنة (عيب) ، ولا مجهول الأبوين ، ولا ابن صناعة دنيئة كابن حائك أو حجام ، ولو كان يعلم الغيب مثلا .

وكان الذى يقابل الطبقة الأولى من الأساورة وأبناء الملوك أهل الحذاقة بالموسيقيات والأغانى ، فكانوا بإزاء هؤلاء نصب خط الاستواء .

ويقابل الطبقة الثانية من ندماء الملك وبطانته الطبقة الثانية من أصحاب الموسيقيات .

ويقابل الطبقة الثالثة من أصحاب الفكاهات والمضحكين ، أصحاب الونج والمعازف والطنابير . وكان لايرمز الحاذق من الزامرين إلا على الحاذق من المغنين ، وإن أمره بذلك راجعه واحتج عليه [1] .

وكان الخلفاء الأول يستمعون فى أوقات فراغهم لقصائد الشعراء . ولم يلبث الغناء أن حل محل الشعر ، فكان معاوية ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان وهشام ومروان بن محمد لايظهرون للندماء ، بل كان بينهم حجاب ، حتى لا يطلع الندماء على مايفعله الخليفة إذا طرب . فقد تأخذ نشوة الطرب بلبه فيقوم بحركات لايطلع عليها إلا خواص جواريه . وإذا ارتفع من خلف الستارة صوت أو حركة غريبة صاح صاحب الستارة : « حسبك ياجارية ! كفى ! انتهى ! أقصرى ! » ، موهما الندماء أن الفاعل لتلك الحركات هو بعض الجوارى .

وكان بعض خلفاء بنى أمية يظهرون للندماء والمغنين ، ولا يحفلون بإتيان حركات تثيرها نشوة الطرب فى نفوسهم [2] . وكان يزيد بن عبد الملك يبالغ فى المجون بحضرة الندماء ، كما سوى بين الطبقة العليا والسفلى ، وأذن للندماء فى الكلام والضحك والهزل فى مجلسه . فلم يتورعوا فى الرد عليه . وحذا حذوه فى ذلك الوليد بن يزيد [3] .

---

(١) الجاحظ : التاج فى أخلاق الملوك ص ٢٥ — ٢٦ : انظر أيضاً المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ١٥١ . وما يليها .

(٢) الجاحظ : التاج فى أخلاق الملوك ص ٣٢ .

(٣) الجاحظ : كتاب التاج ص ٣١ — ٣٢ .

وفى عهد الوليد الثانى كلف الناس بالموسيقى والغناء ، وكانوا يسرفون فى ذلك كل الإسراف ، وينفقون ببذخ على المغنين المشهورين والموسيقيين الذين كان الخليفة يدعوهم إلى دمشق من أقاصى البلاد . وليس أدل على كلف الأمويين بالمغنين والإنفاق عليهم عن سعة مما ذكره الطبرى إذ قال : « حج يزيد بن عبد الملك فى خلافة سليمان بن عبد الملك ، فاشترى حبابة — وكان اسمها العالية — بأربعة آلاف دينار ، فقال سليمان : هممت أن أحجر على يزيد ، فرد يزيد حبابة فاشتراها رجل من أهل مصر . فلما ولى يزيد الخلافة قالت له زوجته سعدة : يا أمير المؤمنين ! هل بقى من الدنيا شىء تتمناه بعد ؟ قال : نعم حبابة : فأرسلت سعدة رجلا فاشتراها بأربعة آلاف دينار ، فأراحتها حتى ذهب عنها كلال السفر ؛ ثم أتت بها يزيد ، فأجلستها من وراء الستر وقالت : يا أمير المؤمنين ! أبقى شىء من الدنيا تتمناه ؟ قال : ألم تسألينى عن هذا مرة فأعلمتك ؟ فرفعت الستر ، وقالت : هذه حبابة ، فحظيت سعدة عند يزيد وأكرمها وحباها . وقد أثر تدفق طبقات المغنين المحترفين على دمشق فى أخلاق النـاس ، وفى حياة المجتمع حتى دب الترف فى الدولة .

ومن أشهر المغنين فى هذا العصر « طويس » مولى بنى مخزوم ، وكان لايضرب بالعود ، وإنما كان ينقر بالدف ، عالماً بأنساب أهل المدينة . وهو أول من غنى بالمدينة غناء يدخل فى الإيقاع ، وهو بناء ألحان الغناء على موقعها وميزانها .

وكان أهل المدينة يؤثرون غناء طويس على كل غناء ، وقد سمعهم ذات مرة وهم يشيدون بغنائه ، فاستخرج دفا ثم نقر به وغناهم بشعر عمارة بن الوليد المخزومى فى خولة بنت ثابت عارضها بقصيدته فيها :

ياخليـــلى نابنى سهدى   لم تَنَم عينى ولم تـكدِ

وهو :

تناهى فيـكُمُ وجدى   وصـــدَّع حبكم كبدى
فقلبى مُصْعَرٌ حُـزْنا   بذات الخالِ فى الخـدِّ
فـما لاقى أخو عِشْقٍ   عُشَيْرَ العُشر من جَهْدِ

فأقبل عليه ابن سُرَيجْ فقال : والله هذا أحسن الناس غناء (الأغانى : جـ ٢ ص ٣٥) .

وكان طويس كثيراً ما يتغنى بالشعر الذى قيل فى الحروب التى وقعت بين الأوس والخزرج قبل هجرة الرسول إلى المدينة . فيثير ما كان بينهما من عداء وتسيل بسبب ذلك الدماء (الأغانى جـ ٣ ص ٣٩) .

وممن اشتهر بالغناء فى العصر الأموى أبو مروان الغريض ، وقد لقب بذلك لأنه كان طرى الوجه نضراً غض الشباب حسن المنظر . وكان من مولدى البربر ومن رجال الأدب ، إلا أن الغناء غلب عليه بما وضعه من الألحان . وقد أخذ الغناء عن ابن سريج الذى أضمر له الحسد لما آنسه فيه من مخايل النبوغ وطرده . وعده جرير رابع أربعة اشتهروا فى الغناء فقال : « كان المغنون بمكة أربعة : فسيد مبرز ، وتابع مسدد . . . كان السيد أبو يحيى ابن سريج والتابع أبو يزيد الغريض ، وكان هناك رجل عالم بالصناعة فقال : كان الغريض أحذق أهل زمانه بمكة بالغناء بعد ابن سريج . وما زال أصحابنا لا يفرقون بينهما لمقاربتهما بالغناء » .

وقد أبدع الغريض فى الغناء حتى توهم الناس أنه يتلقى غناءه عن الجن . وكان يعترض الحاج فيصغون إليه ، خرج مرة ووقف فى مكان لا يرى فيه ، فغنى فى شعر عمر بن أبى ربيعة :

أيها الرائح المجد ابتكارا - قد قضى من تهامة الأوطارا

فملك الطرب قلوب السامعين وقالوا : طائفة من الجن حجاج[1] .

وكان للقيان أثر ملحوظ فى تقدم الغناء فى العصر الأموى . روى المسعودى[2] أن فتى من بنى أمية كان يختلف إلى قينة لبعض القرشيين ، وكانت تحبه ، ولم تكن تحبه القوم إذ ذاك لريبة ولا فاحشة ، فقال لها الفتى وقد أراد أن يعرف مبلغ ميلها إليه : أتحسنين أن تقولى :

أحبكم حبا بكل جوارحى فهل عندكم علم بما لكم عندى ؟
أتجزون بالود المضاعف مثله فإن كريما من جزى الود بالود ؟

---

(١) الأغانى جـ ٣ ص ٣٦٢، ٣٦٣ — ٣٧٥ . (٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ١٧١ .

قالت : نعم ! وأحسن أحسن منه وقالت :

للذى ودنا المـــودة بالضعـ ـف وفضل البادى به لايجازى
لو بدا ما بنا لـكم ملأ الأر ض وأقطار شامها والحجازا

فعجب الفتى من حذقها مع حسن جوابها فازداد كلفا بها وقال :

أنت عذر الفتى إذ هتك الستـ ـر وإن كان يوسف المعصوما

وقد أقامت هذه القينة عنـــد ذلك الفتى الأموى حولا ثم ماتت ، فرثاها وقضى فى حاله تلك ، فدفنا معا ، وكان من مرثيته لها قوله .

قد تمنيت جنة الخلد للخا د فأدخلتها بلا استئهال
ثم أخرجت إذا تطعمت بالنعـ ـمة منها والموت أحمد حال

وقال أشعب الطامع : هذا سيد شهيد الهوى ، انحروا على قبره سبعين بدنة .

ويلاحظ أن أكثر المغنين والقيان فى هذا العصر كانوا من غير العرب كما كانوا فى العصر الجاهلى ، لأن العرب لم يحترفوا الغناء أو يشتهروا بالموسيقى ، وإنما برعوا فى الشعر وخاصة الفن الغزلى فى هذا العصر .

ومن الآلات الموسيقية التى استعملها المغنون والموسيقيون فى ذلك العصر : الصنج ، وبه سمى أعشى قيس صناجة العرب لجودة شعره ، والطنبور والدريج وله أوتار كالطنبور ، ويسمى الون ، والطنطنة صوت الطنبور وضربه ذى الأوتار . ومن آلات الطرب المزمار ومن أسمائه الناى واليراع[1] .

٣ — قصور الخلفاء والأمراء :

كان لاختلاط العرب بالروم وغيرهم من الأمم أثر كبير فى تغيير عاداتهم وحياتهم الاجتماعية وخاصة فى عهد الأمويين . فقد استفاد معاوية من نظم الحكم التى أدخلها الروم فى بلاد الشام ، وابتكر ابتكارات لم يسبقه إليها أحد . فهو أول من اتخذ الحشم وأقام الحجاب على بابه ، ووضع المقصورة لخوفه مما جرى لعلى كرم الله وجهه ، فإذا سجد قام الحرس على رأسه بالسيوف[2] .

وكان من أقدس واجبات الخليفة أن يؤم الناس فى صلاة الجمعة وفى الصلوات

---

(١) ابن سيدة : المخصص ج ٣ ص ١١ — ١٥ .
(٢) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٠١ .

الخمس . وقد سار على ذلك الخلفاء الراشدون ، ثم معاوية وعبد الملك وعمر ابن عبد العزيز من خلفاء بنى أمية . ولم يهتم غيرهم من الخلفاء بأن يؤموا الناس فى الصلوات الخمس ، واقتصروا على إمامتهم فى صلاة الجمعة . فكان الخليفة فى العصر الأموى يحضر إلى المسجد مرتدياً ثياباً بيضاء وعمامة بيضاء مرصعة بالجواهر ، ويرقى المنبر لإلقاء خطبة الجمعة ، وبيده الخاتم والعصا وهما شارتا الملك . وكثيراً ما كان بعض الخلفاء الأمويين لايحضرون صلاة الجمعة ، بل ينيبون عنهم رئيس الحرس أو صاحب الشرطة .

وقد وصف المسعودى[1] حياة معاوية الخاصة فقال : « كان إذا صلى الفجر جلس للقاص حتى يفرغ من قصصه ، ثم يدخل فيؤتى بمصحفه فيقرأ أجزاءه ، ثم يدخل إلى منزله فيأمر وينهى ، ثم يصلى أربع ركعات . ثم يخرج إلى مجلسه فيأذن لخاصة الخاصة فيحدثهم ويحدثونه ، ويدخل عليه وزراؤه فيكلمونه فيما يريدون من يومهم إلى العشى ، ثم يؤتى بالغداء الأصغر : وهو فضلة عشائه من جدى بارد أو فرخ أو مايشبهه ، ثم يتحدث طويلا ، ثم يدخل منزله لما أراد ثم يخرج فيقول : ياغلام ! أخرج الكرسى ، فيخرج إلى المسجد فيوضع ، فيسند ظهره إلى المقصورة ويجلس على الكرسى . ويقوم الأحداث ، فيتقدم إليه الضعيف والأعرابى والصبى والمرأة ومن لا أحد له فيقول ظلمت فيقول : أعزوه . ويقول عدى على ، فيقول : ابعثوا معه ، ويقول : صنع بى ، فيقول : انظروا فى أمره . حتى إذا لم يبق أحد دخل فجلس على السرير ، ثم يقول : ائذنوا للناس على قدر منازلهم ولايشغلنى أحد عن رد السلام ، فيقال : كيف أصبح أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ؟ فيقول : بنعمة من الله . فإذا استووا جلوساً قال : يا هؤلاء ! إنما سميتم أشرافاً لأنكم شرفتم من دونكم بهذا المجلس ، ارفعوا إلينا حوائج من لايصل إلينا ، فيقوم الرجل فيقول : استشهد فلان ؟ فيقول : افرضوا لولده ، ويقول آخر : غاب فلان عن أهله ، فيقول : تعاهدوهم ، أعطوهم ، أقضوا حوائجهم ، أخدموهم . ثم يؤتى بالغداء ويحضر الكاتب ، فيقوم عند رأسه ، ويقدم الرجل فيقول له : اجلس على المائدة ، فيجلس ، فيمد يده فيأكل

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٧٠ — ٧١ .

القمتين أو ثلاثا ، والكاتب يقرأ كتابه ، فيأمر فيه أمراً ، فيقال : يا عبد الله ! أعقب . فيقوم ويتقدم آخر حتى يأتى أصحاب الحوائج كلهم . وربما قدم عليه من أصحاب الحوائج أربعون أونحوهم على قدر الغداء . ثم يرفع الغداء ويقول للناس : أجيزوا فينصرفون فيدخل منزله ، فلا يطمع فيه طامع حتى ينادى بالظهر فيخرج فيصلى ، ثم يدخل فيصلى أربع ركعات ، ثم يجلس فيأذن لخاصة الخاصة . فإذا كان الوقت وقت شتاء أتاهم بزاد الحاج من الأخبصة اليابسة والخشكنانج والأقراص المعجونة باللبن والسكر من دقيق السميد ، والكعك المنضد والفواكه اليابسة . وإن كان وقت الصيف أتاهم بالفواكه الرطبة ، ويدخل إليه وزراؤه فيؤامرونه فيما احتاجوا إليه بقية يومهم . ويجلس إلى العصر ثم يخرج ، فيصلى العصر ثم يدخل منزله فلا يطمع فيه طامع . حتى إذا كان فى آخر أوقات العصر خرج فجلس على سريره ، ويؤذن للناس على منازلهم ، فيؤتى بالعشاء فيفرغ منه مقدار ماينادى بالمغرب . ولا ينادى له بأصحاب الحوائج . ثم يرفع العشاء وينادى بالمغرب ، فيخرج فيصليها ، ثم يصلى بعدها أربع ركعات يقرأ فى كل ركعة خمسين آية بجهر تارة ويخافت أخرى . ثم يدخل منزله ، فلا يطمع فيه طامع حتى ينادى بالعشاء الآخرة ، فيخرج فيصلى ، ثم يؤذن للخاصة وخاصة الخاصة والوزراء والحاشية ، فيؤامره الوزراء فيما أرادوا صدراً من ليلتهم . ويسمر إلى ثلث الليل فى أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها ، وسياستها لرعيتها وسائر ملوك الأمم ، وحروبها ومكايدها وسياستها لرعيتها وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة . ثم تأتيه الطرف الغريبة من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة . ثم يدخل فينام ثلث الليل ، ثم يقوم فيقعد ، فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب المكايد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون ، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها ، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات . ثم يخرج فيصلى الصبح ثم يعود فيفعل ماوصفناه كل يوم » .

وقد تشبه خلفاء بنى أمية بالملوك وأبهتهم ، فكان قصر الخليفة فى دمشق غاية فى الأبهة وقد ازدانت جدرانه بالفسيفساء وأعمدته بالرخام والذهب ، وسقوفه بالذهب المرصع بالجواهر . ولطفت جوه النافورات والمياه الجارية والحدائق الغناء

بأشجارها الظليلة الوارفة . وكان الخليفة يجلس فى البهو الكبير ، وعلى يمينه أمراء البيت المالك ، وعلى يساره كبار رجال الدولة ورجال البلاد ، ويقف أمامه من يريد التشرف بمقابلته من رسل الملوك وأعيان البلاد ورؤساء النقابات والشعراء والفقهاء وغيرهم .

وقد تحدث المسعودى عن حياة الترف وحب الظهور التى ميزت العرب المترفين فى عهد عثمان بن عفان ، فقد اقتنوا الضياع والدور وجمعوا الثروات الضخمة . ومنهم الزبير بن العوام ، بنى داره بالبصرة وهى المعروفة فى هذا الوقت — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة — تنزلها التجار وأرباب الأموال وأصحاب الجهات من البحرين وغيرهم ، وابتنى أيضاً دوراً بمصر والكوفة والإسكندرية . وما ذكره من دوره وضياعه فمعلوم غير مجهول إلى هذه الغاية : وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار ، وخلف الزبير ألف فرس وألف عبد وألف أمة ، وخططاً بحيث ذكرنا من الأمصار . وكذلك طلحة بن عبيد الله التيمى ، ابتنى داره بالكوفة المشهورة به هذا الوقت المعروفة بالكناس[1] بدار الطلحتين ، وكانت غلته من العراق كل يوم ألف دينار ، وقيل أكثر من ذلك ، وبناحية شراة[2] أكثر مما ذكرنا . وشيد داره بالمدينة وبناها بالآجر والجص والساج . وكذلك عبد الرحمن بن عوف الزهرى ابتنى داره ووسعها ، وكان على مربطه مائة فرس ، وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم ، وبلغ بعد وفاته ربع ثمن ماله أربعة وثمانين ألفاً . وابتنى سعد بن أبى وقاص داره بالعقيق ، فرفع سمكها ووسع فضاءها وجعل أعلاها شرفات . وقد ذكر سعيد بن المسيب أن زيد بن ثابت حين مات خلف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار . وابتنى المقداد داره بالمدينة فى

---

(١) بكسر أوله موضع من بلاد غنى ، عن أبى عبيدة قال جرير :

لمن الديار كأنها لم تحلل ❊ بين الكناس وبين طلح الأعزل

والكناسة بالضم هى محلة بالكوفة قتل فيها زيد بن على بن زين العابدين بن الحسن بن على .

(٢) السراة سلسلة جبال تمتد من عرفة (قرب مكة) إلى صنعاء فى الجنوب يسكنها قوم من الأزد يقال لهم أزد السراة ، وهى جبال التوائية تتخللها أخاديد وتنبت فيها الكروم وقصب السكر والفرط .

الموضع المعروف بالجرف على أميال من المدينة ، وجعل أعلاها شرفات ، وجعلها مجصصة الظاهر والباطن . ومات يعلى بن أمية وخلف خمسمائة ألف دينار وديوناً على الناس وعقارات وغير ذلك من التركة ماقيمته مائة ألف دينار . وهذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه فيمن تملك من الأموال فى أيامه (عثمان) ، ولم يكن من ذلك فى عصر عمر بن الخطاب ، بل كانت جادة واضحة وطريقة بينة [١] .

وفى مدينة الكوفة جمعت الأسرات البارزة مبالغ ضخمة مما كانت تدره عليها الغنائم والأعطيات السنوية ، حتى إن كوفياً رحل إلى الحرب ومعه أكثر من ألف جمل لحمل حاشيته ومتاعه[٢] .

ولم يكن التأنق فى حياة القصور مقصوراً على الخلفاء ، فقد تنافس الأمراء وكبار رجال الدولة فى تجميل دمشق وغيرها من المدن العظيمة . فقد شيد الحر ابن يوسف حفيد مروان بن الحكم — وكان والياً على الموصل فى عهد هشام بن عبد الملك — داراً مبنية من الرخام الخالص والمرمر ، عرفت بالمنقوشة لما تمتاز به من النقش البديع ، كما بنى خانات (فنادق) فى الموصل .

وقد رأى الحر مايعانيه أهل الموصل من المشاق فى الحصول على ماء الشرب ، فشق قناة ماتزال باقية إلى اليوم ، وغرس الأشجار على ضفتها حتى أصبحت بمثابة متنزه عام لأهل المدينة .

يقول سيد أمير على[٣] لم يتغير طراز البيوت وترتيبها فى دمشق عما كان عليه فى عهد الأمويين على الرغم من مرور مئات السنين . فترى البواب جالساً على مقعد خشبي أمام الباب كما تراه الآن فى دور الأغنياء ، وترى على باب دور الفقراء قطعة من المعدن أو الحديد تستخدم مطرقة للباب .

وفى داخل الدار فناء مستطيل على جوانبه أروقة من الأعمدة ، وأرضه من الحجارة أو الرخام ، وممشى مرصوفة بالحجارة أو الحصباء على أشكال هندسية منتظمة . وفى الفناء نافورة تحيط بها حديقة صغيرة بها الأزهار الزكية ، وتظللها

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ٤٣٤ .

(٢) الطبرى : طبعة دى غوية : ١ : ٨٠٦ .

(٣) A Short, Hist. of The Arabs, p 195.

أشجار البرتقال والليمون . وعلى جانب الفناء يقام الإيوان ، وهو عبارة عن صالة فرشت بالرخام والبلاط الملون . وتستعمل قاعة الاستقبال وقت الحر . وقبالة الباب تقام عادة كوة غير نافذة مزخرفة بالأعمدة الرخامية وفوقها الطست والإبريق للوضوء .

وكانت قصور الأغنياء من طبقتين أحياناً . وعلى يمين وشمال الأبهاء أبواب تكسوها ستور كثيفة تؤدى إلى الأبهاء والحجرات الأخرى .

وفى الشتاء تكسى أرض الإيوان الرخامية والحجرات بالطنافس الثمينة ، وتدفأ الحجرات بالمنهل (الموقد) . أما فى الصيف فكانت الناقورات والنوافذ تلطف حرارة الجو .

وكانت سقوف الدار مزدانة بنقوش على الطراز العربى مطلية بالذهب . ولم تكن هناك مقاعد ؛ فإذا كان صاحب الدار من أصحاب المراكز السامية ، وضعت الطنافس فوق بعض لتكون بمثابة مقعد مرتفع له .

٤ — الطعام :

كانت معيشة العرب فى بادىء الأمر غاية فى البساطة . فكانوا فى صدر الإسلام يكتفون بالقليل من الطعام الذى لم يجاوز لوناً أو لونين . وكان خير أدمهم اللحم . وكان سكان المدن أقرب إلى العنـــاية بالطعام والتفنن فيه من سكان البوادى .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم وكثير من الصحابة يقلون من الطعام ، لا لفقر أو شح ، ولكن زهداً فى الدنيا . روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : ماشبع عليه الصلاة والسلام ثلاثة أيام تباعاً من خبز حتى مضى لسبيله . وكانوا إذا أكلوا لا يملئون بطونهم . فهذا النبى صلى الله عليه وسلم يقول : ماملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه » .

وقد بين صاحب الفخرى مبلغ زهد الخلفاء الراشدين وتقشفهم فى هذه العبارة فقال : « اعلم أنها دولة لم تكن من طرز دول الدنيا ، وهى بالأمور النبوية والأحوال الأخروية أشبه . والحق فى هذا أن زيها قد كان زى الأنبياء وهديها هدى الأولياء ، وفتوحها فتوح الملوك الكبار . فأما زيها فهو الخشونة

فى العيش والتقلل فى المطعم والملبس . كان أحدهم يمشى فى الأسواق راجلا وعليه القميص الخلق المرقوع إلى نصف ساقه ، وفى رجله ناسومة وفى يده درة . فمن وجب عليه حد استوفاه منه . وكان طعامهم من أدنى أطعمة فقرائهم . ضرب أمير المؤمنين على عليه السلام المثل بالعسل والخبز النقى ، فقال فى بعض كلامه : ولو شئت لاهتديت إلى مصفى العسل بلباب هذا البر . واعلم أنهم لم يتقللوا فى أطعمتهم وملبوسهم فقراً ولا عجزاً عن أفضل لباس وأشهى مطعم ، ولكنهم كانوا يفعلون ذلك مواساة لفقراء رعيتهم ، وكسراً للنفس عن شهواتها ، ورياضة لها لتعتاد أفضل حالاتها . وإلا فكل واحد منهم كان صاحب ثروة ضخمة ونخل وحدائق وغير ذلك من الأسباب . ولكن أكثر خرجهم كان فى وجوه البر والقرب .

وكان العرب يراعون قواعد الصحة ، فلا يدخلون الطعام على الطعام ، ولا يسرفون فى المأكل . أثر عن الرسول قوله : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع » . كما كانوا يغسلون أيديهم قبل الطعام وبعده ، ويأكلون بأيديهم لعدم وجود الملاعق والشوك فى ذلك الوقت ، كما كانت الحال فى أوربا إلى عهد قريب . ومع ذلك ذكر الإمام أحمد أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يستعمل السكين فى قطع اللحم .

وكان العرب كرماء يجودون بطعامهم ولا سيما أهل البوادى ، حتى كانوا يوقدون النار ليلا ليهتدى بها الضيفان الغرباء ؛ يدل على ذلك قول الشاعر :

وإنى لمعط ما وجدت وقائل   لموقد نارى : ليلة الريح أوقد

وكانوا إذا أكلوا جميعاً بسطوا سماطاً على الأرض ثم جلسوا صفين من حوله كما تجلس اليوم حول المائدة [٢] .

ومن أطعمة العرب الثريد ، وهو الخبز يفت ويبل بالمرق ويوضع فوقه اللحم ، ومنه اللبزة وهو الخبز يكسر على السمن ، والكوثان ، وهو الأرز والسمك ، والأطرية ، وهو طعام كالخيوط من الدقيق ، و« الشعيرية » ،وهو

(١) الفخرى فى الأدب السلطانية ص ٧٠ — ٧١ .

(٢) ابن القيم : زاد المعاد ج ٤ ص ٣٠٨ .

طعام كالخيوط صغر فتلها فى حجم الشعير ، والربيكة وهى شىء يطبخ من بر وتمر ويعجن بسمن ، « والجشيش » ، وهو دقيق مجروش يوضع فى قدر ويلقى عليه لحم أو تمر ثم يطبخ ، « والمسكة » وهو طعام يتخذ من دقيق يعجن بسمن ثم يشوى .

ومن ألوان الطعام القديد و « الصفيف » . فإذا شرح اللحم وقدد فهو القديد ، وإذا شرح عواضاً فهو الصفيف . والشواء ، والبسيسة وهى الدقيق أو السويق يلت بالسمن أو بالزبد ثم يأ كل ولا يطبخ ، والخزير ، وهى الحساء من الدسم والدقيق . والخزيرة أيضاً أن تنصب القدر بلحم يقطع صغاراً على ماء كثير ، فإذا نضج ذر عليه الدقيق ، فإن لم يكن فيها لحم فهى عصيدة .ولا تكون الخزيرة إلا وفيها لحم (١) .

ويظهر أن الخضر لم تكن مستعملة عند العرب فى طعامهم كثيراً كما هى مستعملة فى طعامنا اليوم . لأن بلادهم ليست زراعية .

وينبغى ألا يغيب عنا أن العرب لما خالطوا الأمم الأخرى وتغيرت أطعمتهم وتعددت ألوانها ، استحدثوا فيها طرقاً غير طرقهم الأولى . ففى عهد الأمويين استعمل العرب الفوط والملاعق . وكانت الملاعق تصنع من الخشب . كما كانت تجلب ملاعق من الفخار من بلاد الصين . وكانوا يجلسون على الكراسى أمام مائدة الطعام التى يكسوها مفرش من القماش .

وكان معاوية بن أبى سفيان يكثر من الطعام حتى قيل إنه كان يأ كل فى كل يوم خمس أكلات (٢). كما اشتهر سليمان بن عبد الملك بحبه للطعام وتفننه فى اختيار ألوانه . وعرف بنهمه ؛ قيل أن الطباخ كان يأتيه بالدجاجة ، فلا يصبر حتى تبرد فيأخذها بكمه فيفصلها عن السفافيد . قال الأصمعى : ذكرت للرشيد نهم سليمان وتناوله للفراريج بكمه فقال : قاتلك الله ! فما أعلمك بأخبارهم ؟ إنه عرضت على جباب بنى أمية فنظرت إلى جبة سليمان ، وإذا كل جبة منها فى كمها أثر دهن ، فلم أدر ما ذلك حتى حدثنى بالحديث ثم قال : علىّ بجباب سليمان فأتى بها ،

(١) ابن سيدة : المخصص ج ٤ ص ١٢٠ — ١٤٨ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٦٣ . الفخرى ص ١١٦ .

فنظرنا ، فإذا تلك الآثار ظاهرة ، فكسانى منها جبة . فكان الأصمعى ربما يخرج أحياناً فيها فيقول : هذه جبة سليمان التى كسانيها الرشيد .

وكان للأكل مع الخلفاء والأمراء آداب مقررة ، فينبغى ألا ينبسط الشخص فى الطعام لأن الأكل مع الملوك للشرف لا للشبع مع ما فى الانبساط من الجرأة وسوء الأدب (١) .

٥ — الملابس :

ولم يكن الرسول ولا أبو بكر وعمر من بعده يتأنقون فى ملبسهم ، بل كان الزهد فى عرض الدنيا من أبرز صفاتهم . فقد كان أبو بكر يلبس فى خلافته الشملة والعباءة . قدم إليه ملوك اليمن وعليهم الحلل الموشاة بالذهب المحلاة بالتيجان . فلما رأوا ما عليه من الزهد والتواضع والنسك ذهبوا مذهبه ونزعوا ما كان عليهم من أفخر اللباس ، حتى إن ذا الكلاع ملك حمير رؤى يوماً فى سوق المدينة يمشى وعلى كتفه جلد شاة ، ففزعت عشيرته وقالوا له : « فضحتنا بين المهاجرين والأنصار ، قال : فأردتم أن أكون ملكا جباراً فى الجاهلية جباراً فى الإسلام ؟ لا والله لا تكون طاعة الرب إلا بالتواضع والزهد فى هذه الدنيا (٢) .

وكان عمر متواضعاً خشن الملبس . وقد اتبعه عماله فى سائر أفعاله وأخلاقه . كان يلبس الجبة الصوف المرقعة بالأديم ، ويشتمل بالعباءة ويحمل القربة على كتفه ، مع هيبة قد رزقها . وكان أكثر ركابه الإبل ، ورحله مشدودة بالليف ، وكذلك عماله مع ما فتح الله عليهم من البلاد وأوسعهم من الأموال .

وكان سلمان الفارسى عامل عمر بن الخطاب على المدائن يلبس الصوف ويركب الحمار ببرذعته بغير أكاف ويأكل خبز الشعير . وكان أبو عبيدة ابن الجراح يظهر للناس وعليه الصوف الجافى ، فلاموه على ذلك وقالوا له : إنك بالشام وحولنا الأعداء ، فغير من زيك وأصلح من شارتك فقال : ما كنت بالذى أترك ما كنت عليه فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم (٣) .

وكان لباس البدو يتكون من قباء طويل مشقوق من الوسط ومتدل إلى

---

(١) الجاحظ : التاج فى أخلاق الملوك ص ١١ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ٤١٣ . (٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٤١٨ .

العقب ومربوط من الوسط بحزام من الجلد . ولا يزال البدو من الرجال والنساء يستعملون هذا اللباس إلى اليوم .

وكانوا يرتدون العباءة فوق القباء ويصنعونها من وبر الجمل ، كما كانوا يرتدون فى الحرب أو فى ركوب الخيل أردية خاصة ؛ فيلبسون السروال عادة ورداء قصيراً بدلا من الثياب الفضفاضة المتدلية .

أما لباس الرأس فهو العمامة . وكان حجمها يختلف تبعاً للسن والمركز العلمى وغيرهما . وكانوا يلقون الطيلسان فوق العمامة ، وهو عبارة عن منديل كبير متدل إلى الكتفين ليقى الرقبة حرارة الشمس .

وكانت الأردية تختلف تبعاً لثروة الناس ومركزهم الاجتماعى ونوع عملهم . فكانت كسوة الفقيه أو الكاتب تختلف عن ثياب الجند وهكذا . وكان شيوخ القبائل وغيرهم من علية القوم يرتدون قباء يصل إلى الركبتين يعلوه جلباب فضفاض يتدلى إلى العقبين ، ويشده من الوسط حزام من الحرير ، وفوق ذلك الجبة ؛ كما كانوا يلبسون النعال أو الأحذية .

أما ثياب المرأة العربية فكانت تتكون من سروال فضفاض وقميص مشقوق عند الرقبة عليه رداء قصير ضيق يلبس عادة فى البرد ، وإذا خرجت المرأة من بيتها ارتدت الحبرة وهى ضرب من برود اليمن . وهى ملاءة طويلة تغطى جسمها وتقى ملابسها من التراب والطين ، وتلف رأسها بمنديل يربط فوق الرقبة . وكانت النساء فى الجاهلية يلبسن قميصاً مشقوقاً إلى الصدر .

وفى عهد سليمان بن عبد الملك شاع الوشى الذى كان يجلب من اليمن والكوفة والإسكندرية ، واتخذ الناس منه جلاليب وأردية وسراويل وعمائم وقلانس . وقد بلغ من ولوعه بالوشى أنه كان لايدخل عليه رجل من أهل بيته وعماله وأصحابه ورجال بلاطه إلا فى الوشى . وكان رداؤه إذا جلس أو ركب أو ارتقى المنبر من الوشى (١) .

٦ — المرأة :

كانت المرأة العربية — ولاتزال — تتمتع بقسط وافر من الحرية . وكانت

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٦٢ .

النساء فى عهد الخلفاء الراشدين يختلطان بالجمهور ويسمعن خطب الخلفاء ويحضرن المحاضرات التى كان يلقيها على بن أبى طالب وعبد الله بن العباس وغيرهما .

ويرجع اتخاذ الحريم — كما يقول فون كريمر (١) — إلى عهد الوليد الثانى الذى أدخل كثيراً من العادات البيزنطية فى البلاط ، واتخذ الخصيان أمناء فى قصره . وكان الإغريق أول من سن تلك السنة السيئة . وقد انتقد الجاحظ هذه العادة التى انتشرت فى القرن الثالث الهجرى انتقاداً مراً .

واشتهر من نساء العرب فى هذا العصر عائشة أم المؤمنين التى ضربت بسهم وافر فى الفقه ورواية الحديث والفتيا والأدب والتاريخ والنسب وقادت جند المسلمين يوم الجمل ، وأختها أسماء بنت أبى بكر وأم عبد الله بن الزبير . وقد اشتهرت برواية الحديث والشجاعة والكرم ، وعكرشة بنت الأطرش التى اشتركت فى الحرب بين على ومعاوية ، وكانت تحرض الجند على معاوية . وكانت المرأة العربية تصحب الجيش ويخصص لها مكان فى المدن الحصينة والمعسكرات .

وتظهر شهامة المرأة العربية حين سار الحجاج إلى مكة وحاصرها وضرب الكعبة بالمجانيق (٢) ، وأرغم أهلها على طلب الأمان ، وانضم إليه بعض أتباع ابن الزبير وغيرهم من ذوى قرباه . وبقى عبد الله بن الزبير فى عدد قليل من أنصاره . ولما أيقن أنه مقتول لا محالة ، دخل على أمه أسماء بنت أبى بكر فقال ياأماه ! قد خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى ، ولم يبق معى إلا اليسير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة . والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا فما رأيك؟ فقالت : « أنت أعلم بنفسك ؛ إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له ، فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك غلمان بنى أمية يلعبون بها . وإن كنت أردت الدنيا فبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك ومن قتل معك ، وإن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابى ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار

(١) Orient Under The Caliphs, pp. 171—2.

(٢) لم يرد عبد الملك بن مروان أن يحط من شأن الكعبة ، وإنما اضطر إلى قتاله ابن الزبير فحدث ما حدث عن غير قصد . وذلك أن الحجاج لما نصب المجانيق على الكعبة جعل هدفه الزيادة التى زادها ابن الزبير فى الكعبة ، إذ كان الأمويون يعتبرون ذلك بدعاً فى الدين .

ولا أهل الدين . كم خلودك فى الدنيا ؟ القتل أحسن . فقال : يا أماه ؟ أخاف إن قتلنى أهل الشام أن يمثلوا بى ويصلبونى . فقالت : يابنى إن الشاة لا تتألم بالسلخ بعد ذبحها ، فامض على بصيرتك واستعن بالله ، فقبل رأسها وقال : هذا رأيى ، فطفقت أمه تدعو له وتشجعه [(١)] » .

ومن شهيرات نساء العصر الأموى أم البنين زوجة الخليفة الوليد بن عبد الملك . وقد اشتهرت بالفصاحة والبلاغة وقوة الحجة وبعد النظر ، وكانت لها مكانة ملحوظة فى قصر الخليفة الوليـــد ، الذى يستشيرها فى مهام أمور الدولة .

وكانت السيدة سكينة بنت الحسين بن على سيدة نساء عصرها ومن أظرفهن وأحسنهن أخلاقاً . اجتمع إليها يوماً جريراً والفرزدق وكثير وجميل ونصيب ، فنقدت شعر كل منهم ، ثم أجازت كلا بألف دينار .

وكانت عائشة بنت طلحة بن عبيد الله من النساء اللاتى نبغن فى الأدب وأيام العرب والنجوم . وفدت على هشام بن عبد الملك ذات يوم فقال لها : ما أوفدك؟ قالت : حبست السماء المطر ومنع السلطان الحق . قال : إنى سأعرفه حقك ، ثم بعث إلى مشايخ بنى أمية فقال : إن عائشة عندى فأسمروا عندى الليلة ، فما تذاكروا شيئاً من أخبار العرب وأشعارهم وأيامهم إلا أفاضت معهم فيه ، وما طلع نجم ولا أغار إلا سمته ، فقال لها هشام : أما الأول فلا أنكره ، وأما النجوم فمن أين لك ؟ قالت : أخذتها عن خالتى عائشة ، فأمر لها بمائة ألف درهم وردها إلى المدينة .

وكانت حفلات الزواج فى صدر الإسلام غاية فى البساطة . وأحسن مثل لذلك زواج السيدة فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم من على ابن أبى طالب .

ذكر ابن سعد أن أبا بكر وعمر خطبا فاطمة من الرسول فاعتذر فى رفق ، وقد أشار بعض الصحابة على على أن يخطب فاطمة من أبيها ، فقال لها الرسول : إن علياً يذكرك ، وقال له : أهلا وسهلا ، وكانت هذه علامة الرضا

---

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ١٤٧ — ١٤٨ .

وكان صداق فاطمة وغيرها من بنات الرسول خمسمائة درهم أو نحو إثنى عشرة أوقية ونصف [1] . وكانت فيما جهزت به فاطمة سرير مشروط ووسادة من أدم حشوها ليف وتور [2] من أدم وقربة ومنخل ومنشفة وقدح . وقد أهدتها بعض النساء بردين من برود الأول عليها دملوجات من فضة مصفرات بزعفران [3] .

وقد تزوج على فاطمة فى شهر رجب بعد مقدم النبى المدينة بخمسة أشهر ، وبنى بها بعد أن عاد من غزوة بدر ، وكانت فى الثامنة عشرة من عمرها [4] .

وكان الزواج عند العرب يومان : يوم الإملاك وهو يوم العقد ، وفيه يجتمع ذوو الفتاة فى ساحة دارهم ، ويقدم أقارب الفتى . وإذا التأم جمعهم خطبهم ولى الفتى خطبة رقيقة ، ثم يرد عليه ولى الفتاة فى خطبة قصيرة يضمنها الرضا . ثم تنحر الجزر وتمد الموائد ويسمع الغناء من مجالس النساء . وتسمى وليمة ذلك اليوم النقيعة . واليوم الثانى يوم البناء وفيه يتبارى العرب فى الاحتفال : فيلعب الفتيان بالرماح ويتسابقون على الخيل ، ويبسطون الأنماط فى الدار ويشدونها على الجدران ؛ ويجلس النساء على النمارق وتجلى الفتاة وتلبس الحلى . ثم تسير فى حشد من أترابها . ثم يغنيها النساء مشيدات بمآثر آبائها ومحامد قومها . وإذا انقضى ذلك الحفل أخذ النساء فى الانصراف وودعن الفتاة بقولهن : باليمن والبركة وعلى خير طائر [5] .

٧ — أنواع التسلية :

وقد شغل العرب أوقات فراغهم ببعض ضروب التسلية كالصيد وسباق الخيل . وكان بعض خلفاء بنى أمية كلفين بالصيد لفوائده الكثيرة ، إذ كان الصيد يرمى — كما يقول صاحب الفخرى (ص ٥٤) — إلى تمرين العساكر على الركض والكر والعطف وتعويدهم الفروسية وإدمانهم للرمى بالنشاب والضرب بالسيف والدبوس ، واعتياد القتل والسفك وتقليل المبالاة بإراقة

---

(١) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير ج ٨ ص ١٣ .

(٢) التور : إناء يشرب منه . (٣) ابن سعد ج ٨ ص ١٥ .

(٤) المصدر نفسه ج ٨ ص ١٣ .

(٥) عبد الله عفيفى : المرأة العربية ج ١ ص ١٥٥ — ١٥٦ ، ١٦١ — ١٦٢ .

الدماء وغصب النفوس ؛ ومنها اختيار الخيول ومعرفة سبقها وصبرها على دوام الركض ؛ ومنها أن حركة الصيد حركة رياضية تعين على الهضم وتحفظ صحة المزاج ؛ ومنها فضل لحم الصيد على باقي اللحوم لأنه بقلقه من الجوارح تثور حرارته الغريزية فتزيد في حرارة الإنسان .

وكان يزيد بن معاوية من أشد الأمويين كلفاً بالصيد ، وكان يلبس كلاب الصيد الأساور من الذهب والجلاجل المنسوجة منه ، ويخصص لكل كلب عبداً يقوم على خدمته (١) .

وكان سباق الخيل أهم تسلية الشعب على اختلاف طبقاته . ويقال إن هشام بن عبد الملك كان أول من أقام حلبات السباق . وقد اشترك في السباق في عهده نحو أربعة آلاف من خيله وخيول الأمراء ، حتى إن المسعودي يقول إنه لم يسبق هذا السباق مثيل . وكانت الأميرات يتدربن على ركوب الخيل ويشتركن في السباق . وكذلك كان الوليد الثاني مغرماً بسباق الخيل وله في حفلات السباق أخبار مذكورة في كتب التاريخ كالمسعودي وغيره (٢) .

ومن أنواع التسلية عند العرب : الكرة ، وكانوا يتدافعونها بالصوالجة والقُلة والمقلاة ، وهما عودان يلعب بهما الصبيان ، فيرمي الصبي بالقلة في الهواء ثم يضربها بمقلاة في يده ، وهي خشبة طولها ذراع ، فتستمر القلة في حركتها . وإذا وقعت كان طرفاها بجافيين الأرض ، فيضرب أحد طرفيها فتستدير وترتفع ، ثم يعترضها بالمقلاة فيضربها في الهواء فتستمر ماضية (٣) .

---

(١) الفخري ص ٥٤ .

(٢) مروج الذهب ج ٣ ص ١٨٨ — ١٨٩ .

(٣) ابن سيدة : المخصص ج ٣ ص ١٧ ، ١٩ .

مصادر الكتاب

نورد فى الثبت الآتى أهم مصادر الكتاب وقد رتبت أسماء المؤلفين بحسب أحرف الهجاء مع ذكر سنة الوفاة .

ابن الأثير (١٢٣٨/٦٣٠) : على بن أحمد أبى الكرم .

١ — « الكامل فى التاريخ » ١٢ جزءاً (بولاق ١٢٧٤ هـ) .

٢ — « أسد الغابة فى معرفة الصحابة » ٦ أجزاء (القاهرة ١٢٨٠ هـ) .

آرنولد : « سير توماس و — Arnold : Sir Thomas W.

٣ — "The Preaching of Islam" 3d. edition. ed. Reynold A Nicholson,— (London, 1935)

وترجمه إلى العربية حسن إبراهيم حسن ، وعبد المجيد عابدين ، وإسماعيل النحراوى ، (الطبعة الثانية) (القاهرة ١٩٤٧) .

٤ — "The Caliphate" (Oxford, 1924)

الأزرق (٨٤٧/٢٣٣) .

٥ — « أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار » طبعة وستنفلد (جوتنجن ١٢٧٥/١٨٥٨)

الاسحاق (القرن الحادى عشر) : محمد بن عبد المعطى بن أبى الفتح بن أحمد المنوفى .

٦ — « لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من الدول » (القاهرة ١٢٧٦ هـ)

الألوسى : السيد محمود شكرى البغدادى .

٧ — « بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب » ثلاثة أجزاء (القاهرة ١٣٤٣/١٩٢٤ ،

٨ — « تفسير روح المعانى » (بولاق ١٣٠٠) .

أمير على : سيد Ameer Ali : Sayed

٩ — "A Short History of the Saracens" (London. 1954).

« مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى » ترجمة رياض رأفت (القاهرة ١٩٣٨)

أو ليرى ، دى ليسى — O'Leary, De Lacy

١٠ — "Arabia Before Muhammad" (London, 1927)

برادلى : هنرى — Bradley : Henry

١١ — "The Goths" (London, 1887)

براون : إدوارد ج — Browne : Edward G.

١٢ — "Literary History of Persia-from the Earliest Times until Firdawsi" (London, 1909)

البغدادى (٤٢٩/١٠٣٧) : أبو منصور عبد القاهر بن طاهر .

١٣ — « الفرق بين الفرق » (القاهرة ١٣٢٨/١٩١٠) .

البغدادى (القرن ١٣ هـ) : أبو الفوز محمد أمين المشهور بالسويدى .

١٤ — « سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب » (بغداد ١٢٨٠ هـ) .

بروكلمان : كارل — Brockelmann : Carl.

١٥— "Geschichte der Arabiseher Litteratur" 2 vols. (Weimar, 1898—1902).

برونو : رودلف إرنست — Brunnow : Rudolf Ernest

١٦— "Traité élémentaire de Droit Civil" (Paris, 1932)

البكرى (٤٨٧/١٠٩٧) : أبو عبيد الله بن عبد العزيز .

١٧ — « المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب » (باريس ١٩١١) .

البلاذرى (٢٧٩ / ٨٩٢) أحمد بن يحيى بن جابر .

١٨ — « فتوح البلدان » (القاهرة ١٣١٨ هـ) .

بلانيول وريبير — Blaniol et Repert

١٩— "Taité élêmentaire de Droit Civil" (Paris, 1932)

البيضاوى (٧٩١/١٣٨٩) . ناصر الدين عبد الله بن عمر .

٢٠ — « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » ومعه حاشية شيخ زاده (استانبول

بيمونت ومونو — Bement et Monod.

٢١— "Histoire de l'Europe au Moyen-Age" (395-1270A.D.) (Paris, 1921).

الثعالبى (٤٢٩/١٠٣٧) : أبو منصور عبد الملك .

٢٢ — « يتيمة الدهر » ٤ أجزاء (القاهرة ١٣٥٣/١٩٣٤) .

الجاحظ (٢٥٥ / ٨٦٩) : أبو عثمان عمرو بن بحر .

٢٣ — كتاب « التاج فى أخلاق الملوك » حققه المرحوم أحمد زكى (باشا) (القاهرة ١٣٣٣/١٩١٤) .

٢٤ — كتاب « البيان والتبيين » ٤ أجزاء (القاهرة ١٩٢٨) .

٢٥ — كتاب « التبصر بالتجارة » (الطبعة الثانية القاهرة ١٣٥٤/١٩٣٥) نشره وصححه وعلق عليه السيد حسنى عبد الوهاب التونسى (الجزائر ١٩٠٥) .

جاويش : عبد العزيز .

٢٦ — « الإسلام دين الفطرة » .

جب : سير هاملتون. ا. ر — Gibb . Sir Hamilton A.R.

٢٧— "The Arab Conquests in Central Asia" (London, 1923).

جيبون إدوارد Gibbon , Edward .

٢٨— "The History of the Decline and Fall of the Roman Empire" 7 vols. ed. by J. B. Bury.

جروهمان : أدولف — Grohman Adolf.

٢٩ — « أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية » ، ترجمه الدكتور حسن إبراهيم ، الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٥) ، الجز الثانى (القاهرة ١٩٥٦)

دى جوبينو — De Gobineau

٣٠— "Religion et Philosophie dans l'Asie Centrale" (Paris, 1865).

جولد تسيهر : أجنتس Ignaz :

٣١— "Le Dogme et la Loi de l'Islam"

ترجمه إلى الفرنسية فيلكس أران (باريس ١٩٢٠) ، وإلى العربية تحت عنوان « العقيدة والشريعة الإسلامية » الأساتذه : محمد يوسف موسى ، وعبد العزيز عبد الحق ، وعلى حسن عبد القادر (القاهرة ١٩٤٦) .

٣٢ — « المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن » ترجمه إلى العربية الدكتور على حسن عبد القادر (١٣٦٣/١٩٤٤)

الجهشيارى (٣٣١/٩٤٢ — ٩٤٣) : أبو عبد الله محمد بن عبدوس .

٣٣ — « الوزراء والكتاب » (القاهرة ١٩٣٨) ، حققه ونشره الأساتذة مصطفى السقا ، وإبراهيم الابيارى ، وعبد الحفيظ شلبى .

جويدى : Guidi : Ign

٣٤— "L'Arabie Antèislamique" (Paris, 1921).

حاجى خليفة (١٠٥٨/١٦٥٧) : مصطفى كاتب شلبى .

٣٥ — « كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون » (ليبسيك ولندن سنة ١٨٣٥ — ١٨٥٨) .

حتى : فيليب ك . — Hitti : Phillp K.

٣٦ — "History of the Arabs" Vth ed. (London, 1945).

ابن حجر (٨٥٣/١٤٤٩) : شهاب الدين بن على العسقلانى .

٣٧ — « الإصابة فى الصحابة » (القاهرة ١٣٢٣ هـ) .

٣٨ — « فتح البارى فى صحيح البخارى » (بولاق ١٣٠٠ هـ) .

ابن أبى الحديد (٤٠٤/١٠١٣) : الشريف الرضى محمد بن أبى أحمد الحسينى

٣٩ — « كتاب نهج البلاغة » أربعة مجلدات (القاهرة ١٣٢٩ هـ) .

ابن حزم (٤٥٦/١٠٦٤) : أبو محمد على بن أحمد .

٤٠ — « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » ٤ أجزاء (القاهرة سنة ١٣١٧ هـ) .

حسن إبراهيم حسن : الدكتور .

٤١ — « الفاطميون فى مصر وآعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص (بولاق ١٩٣٢) ».

الدولة الفاطمية ، مكتبة النهضة المصرية ، (القاهرة ١٩٥٨) .

٤٢ — « السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات فى عهد بنى أمية » تأليف فان فلوتن ، ترجه عن الفرنسية وعلق عليه الدكتور حسن إبراهيم ومحمد زكى إبراهيم (القاهرة ١٩٣٣) .

٤٣ — « أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية تأليف أدولف جروهمان ، ترجمه إلى العربية وعلق عليه الدكتور حسن إبراهيم حسن ، الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٤) ، الجزء الثانى (القاهرة ١٩٥٦) ، الجزءان الثالث (١٩٦٢) والرابع تحت الطبع .

٤٤ — « تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى » الجزء الثانى الطبعة السادسة (القاهرة ١٩٦٢) .

٤٥ — الجزء الثالث ، الطبعة السادسة (القاهره ١٩٦٢) .

٤٦ — « النظم الإسلامية » بالاشتراك مع الدكتور على إبراهيم حسن الطبعة الثالثة (القاهرة ١٩٦٣) .

٤٧ — «مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى» بحث مستخرج من كتاب « المجمل فى التاريخ المصرى » (القاهرة ١٩٤٢) ص ١٢٧ — ٢٢٩ .

٤٨ — « الدعوة إلى الإسلام » تأليف سير توماس أرنولد ، ترجمه إلى اللغة العربيه الدكتور حسن إبراهيم حسن بالاشتراك مع الأستاذين عبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوى . الطبعة الثانية (القاهرة ١٩٥٧) .

٤٩ — زعماء الإسلام (القاهرة ١٩٥٣) .

٥٠ — اليمن البلاد السعيدة (القاهرة ١٩٥٩) .

الحلبى (١٠٤٤ / ١٦٣٤) على بن برهان الدين .

٥١ — « إنسان العيون فى سيرة الأمين والمأمون » المعروفة بالسيرة الحلبية (القاهرة ١٣٢٠) .

حمزة الأصفهانى (٣٠٦/٩١٨) : أبو عبد الله حمزة بن الحسن الأصفهانى .

٥٢ — « تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء » (ليبزج ١٨٢٤ ، برلين ١٣٤٠ هـ)

الخضرى : الشيخ محمد (بك) .

٥٣ — « تاريخ الأمم الإسلامية » (القاهرة ١٩١٥) .

ابن خلدون (٨٠٨/١٤٠٥ — ١٤٠٦) عبد الرحمن بن محمد .

٥٤ — « مقدمة ابن خلدون » (مصر ١٣١١ هـ) .

٥٥ — « العبر وديوان المبتدأ والخبر » ٧ أجزاء (القاهرة ١٢٧٤ هـ) .

ابن خلكان(٦٨١/١٢٨١) شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبى بكر الشافعى .

٥٦ — « وفيات الأعيان » (مصر ١٣١٠ هـ) .

دحلان : أحمد زينى :

٥٧ — « السيرة النبوية والآثار المحمدية » (على هامش السيرة الحلبية ، (القاهرة ١٣٢٠ هـ) .

الدردير : أحمد بن محمد بن أحمد .

٥٨ — « الشرح الكبير » (بولاق ١٣١٩ هـ) .
درمنجم : إميل — Dermenghem : Emile
٥٩ — "La Vie de Mahomet" (Paris, 1930).
ابن دقماق (٨٠٩/١٤٠٦ـ١٤٠٧) : إبراهيم بن محمد المصرى .
٦٠ — « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » جـ ٤ ، ٥ (القاهرة ١٣٠٩/١٨٩٣) .
الدروى : الدكتور عبد العزيز .
٦١ — « مقدمة فى تاريخ صدر الإسلام » (بغداد ١٩٤٩) .
دوزى : د ب ا . — Dozy : R. P. A.
٦٢ — "Essai sur l' Histoire de l'slamisme" (trad. R. V. Chauvin, Paris, 1879).
٦٣ — "Histoire des Musulmans d'Espagne" Leyden, 1961).
٦٤ — "Dictionnaire des Noms des Vètements chez les Arabes" (Amsterdam, 1845).
٦٥ — "Supplément aux Dictionnaires Arabes" (Leyden, 1881).
ابن الديبع (٩٤٤/١٥٣٧) : عبد الرحمن بن على الشيبانى .
٦٦ — « تيسير الوصول إلى جامع الأصول لأحاديث الرسول » (القاهرة ١٣٤٦ هـ).
ابن أبى دينار (١١١٠/١٦٩٨) : محمد بن أبى القاسم بن عمر القيروانى .
٦٧ — كتاب « المونس فى أخبار إفريقية وتونس » (تونس ١٢٨٦ هـ)
الدينورى (٢٨٢/٨٩٥) : أبو حنيفة أحمد بن داود .
٦٨ — « الأخبار الطوال » جزءان (ليدن ١٨٨٨)
الذهبى (٧٨٤/١٣٤٧ـ١٣٤٨) : الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد .
٦٩ — « تذكرة الحفاظ » جزءان ، الطبعة الثانية (حيدر أباد ١٣٣٣ هـ) :
رفيق العظم .
٧٠ — « أشهر مشاهير الإسلام فى الحرب والسياسة » (القاهرة ١٣٢١ هـ)
زكى محمد حسن : الدكتور .
٧١ — « الفن الإسلامى فى مصر » الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٥) .
٧٢ — « كنوز الفاطميين » (القاهرة ١٩٣٧) .
٧٣ — « الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامى » (القاهرة ١٩٤٠) .
٧٤ — « فنون الإسلام » (القاهرة ١٩٤٨).
الزنجانى : أبو عبد الله :
٧٥ — « تاريخ القرآن » (القاهرة ١٩٣٥) .
زيدان : جرجى.
٧٦ — « تاريخ التمدن الإسلامى » خمسة أجزاء (القاهرة ١٩٠٢ — ١٩٠٦) .
سيديو : ل . ب . — Sédillot, L.B

٧٧ — "Histoire Générale des Arabs" (Paris, 1877).
الشرخسى (٤٨٣/١٠٩٠) : محمد بن أحمد بن أبى سهل الحنفى
٧٨ — « كتاب المبسوط » (القاهرة ١٣٢٤ هـ)
ابن سعد (٢٢٠/٨٣٥) : محمد .
٧٩ — « كتاب الطبقات الكبير » ٨ أجزاء (ليدن ١٣٢٢ هـ) .
ابن سعيد (٦٧٣/١٢٧٥) : على بن موسى المغربى .
٨٠ — كتاب « المغرب فى حلى المغرب والمشرق فى حلى المشرق » (ليدن ١٨٩٨ — ١٨٩٩ م) ، الجزء الأول من القسم الخاص بمصر ، نشره زكى محمد حسن ، وشوقى ضيف ، وسيدة إسماعيل كاشف (القاهرة ١٩٥٣) .
ابن سلام (٢٢٤/٨٣٨ — ٨٣٩) : أبو عبيد القاسم .
٨١ — « كتاب الأموال » (القاهرة ١٣٥٣ هـ) .
السنهورى : الدكتور عبد الرزاق أحمد — Sanhoury : Dr. A.A.
٨٢ — "Le Califat" (Paris, 1926).
ابن سيدة : (٤٥٨/١٠٦٥ — ١٠٦٦) : أبو الحسن على بن إسماعيل الأندلسى .
٨٣ — « كتاب المخصص » ٢٠ جزءاً (بولاق ١٣٢١ هـ) .
السيوطى (٩١١/١٥٠٥) : عبد الرحمن بن أبى بكر جلال الدين .
٨٤ — « تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة » (مصر ١٣٠١ هـ) .
٨٥ — « تفسير الجلالين » ٨ أجزاء (القاهرة ١٣٤٤/١٩٢٦) .
٨٦ — « حسن المحاضرة فى أخبار مصر القاهرة » (القاهرة ١٣٢٧ هـ) .
الشهرستانى (٥٤٨/١١٥٣) : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم .
٨٧ — « الملل والنحل » ٥ أجزاء (القاهرة ١٣١٧ هـ) .
ابن طباطبا (٧٠٩/١٣٠٩) : محمد بن على طباطبا المعروف بابن الطقطقى .
٨٨ — « الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية » (القاهرة ١٣٤٥/١٩٢٧) .
الطبرى (٣١٠/٩٢٣) : أبو جعفر محمد بن جرير :
٨٩ — « تاريخ الأمم والملوك » ١٢ جزءاً (القاهرة ١٣٢٦ هـ) .
الطبرى (٦٩٤/١٢٩٤ — ١٢٩٥) : محب الدين أحمد بن عبد الله :
٩٠ — « السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين » (حلب ١٣٤٦ هـ) .
طه حسين .
٩١ — « حديث الأربعاء » الجزء الثانى (القاهرة ١٣٤٤ — ١٩٢٦) .
٩٢ — « على هامش السيرة » (القاهرة ١٩٣٥) .
٩٣ — « الفتنة الكبرى » عثمان (القاهرة ١٩٤٨) .
ابن عبد الحكم (٢٥٧/٨٧٠ — ٨٧١) : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشى
٩٤ — « فتوح مصر » (القاهرة ١٩١٤) .
ابن عبد ربه (٣٤٩/٩٤٠) : شهاب الدين أحمد .

٩٥ — « العقد الفريد » ٣ أجزاء (القاهرة ١٣٤٦/١٩٢٨)
ابن عذارى (توفى أواخر القرن السابع الهجرى) : أبو محمد عبد الله محمد المراكشى .
٩٦ — « البيان المغرب فى أخبار المغرب » نشره دوزى فى ثلاثة أجزاء (١٨٤٨ — ١٨٥١ م) .
عقيق : المرحوم عبد الله (بك) .
٩٧ — «المرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها» الجزء الأول (القاهرة ١٣٣٨/١٩٢١)
على إبراهيم حسن : الدكتور .
٩٨ — « تاريخ مصر فى العصور الوسطى » الطبعة الثالثة (القاهرة ١٩٥١)
« النظم الإسلامية » بالاشتراك مع الدكتور حسن إبراهيم حسن (القاهرة ١٩٦٢) .
على عبد الرازق — الأستاذ .
٩٩ — « الإسلام وأصول الحكم » الطبعة الثانية (القاهرة ١٣٤٤/١٩٢٥) .
العينى (٨٥٥/١٤٥١) : بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد .
١٠٠ — « عمدة القارى بشرح صحيح البخارى » (بولاق) .
١٠١ — « عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان » مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة .
أبو الفدا (٧٣٢/١٣٣١) : إسماعيل بن على عماد الدين صاحب حماه :
١٠٢ — « المختصر فى أخبار البشر » ٤ أجزاء (القسطنطينية ١٢٨٦ هـ ، القاهرة ١٣٠١ هـ) .
أبو الفرج الملطى (٦٨٥/١٢٨٦) : جريجورى بارهبرايس .
١٠٣ — « مختصر الدول » ٣ أجزاء (أكسفورد ١٦٧٣) .
فلبى : هـ . ب . — Philby , H. St. J. B
١٠٤ — "The Background of Islam" (Alexandria, 1947).
فنلى : جورج — Finlay , George
١٠٥ — "History of the Byzantine Empire (716—1500) A. D. London, 1856).
فورنيل : هنرى — Fournel : Henri
١٠٦ — "Etude sur la Conquête de l'Afrique par les Arabes" Tome II (Paris, 1881).
ابن قتيبة (٢٧٦/٨٨٩) : أبو محمد عبد الله بن مسلم .
١٠٧ — « كتاب المعارف » (١٣٥٣/١٩٣٤) .
١٠٨ — « الإمامة والسياسة » (القاهرة ١٣٢٢ هـ) .
قبورة : الدكتور زاهية .

١٠٩ — « عائشة أم المؤمنين » (القاهرة ١٣٦٦/١٩٤٧) .
القفطي (٦٤٦/١٢٤٨) : جمال الدين على بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الوهاب
١١٠ — « إخبار العلماء بأخبار الحكماء (ليبسك ١٣٢٢ / ١٩٠٣)
القلقشندى (٨٢١/١٤١٨) : أبو العباس أحمد .
١١١ — «صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء» ١٤ جزءا (القاهرة ١٩١٣ـ١٩١٨) .
القلقشندى (٣٢١٠/٩٣٣) محمد بن عبد الله
١١٢ — « نهاية الأرب فى معرفة قبائل العرب » مخطوط بدار الكتب المصرية .
كاشف : دكتورة سيدة إسماعيل .
١١٣ — « مصر فى فجر الإسلام » (القاهرة ١٩٤٧) .
كريزول : ك . ا . ك . — Creswell , K. A. C.
١١٤ — "Early Muslim Architecture, 2 vols. (Oxford. 1930, 1938).
كرد على : محمد .
١١٥ — « الإسلام والحضارة العربية » الجزء الأول (القاهرة ١٣٤٩ هـ) .
كريمر : ألفرد فون — Kremer , Alfred Von
١١٦ — "Culturgeschichte des Orient unter den Chalifen" 2 vols. (Vienna, 1875), trans. by Khuda Bukhsh (Calcutta, 1920-27).
الكلبى (٢٠٤/٨١٩) أبو المنذر هشام بن محمد السائب .
١١٧ — « كتاب الأصنام » (دار الكتب المصرية ١٣٤٣/١٩٢٤) .
الكندى (٣٥٠/٩٦١) أبو عمر محمد بن يوسف .
١١٨ — « كتاب الولاة والقضاة » (نشر روفن جست) (J. W. Gibb (Memorial Series, vol. ix, 1912).
كتانى : الأمير ليونى — Caetani , Prince Leone
١١٩ — "Annali dell'Islam" 5 vols. (Milano,, 1905-13).
لا مانس : الأب هنرى Lammense : Pére Henri
١٢٠ — «Berceau de l'Islam» (Rome, 1914).
لويس : برنارد — Lewis , Bernard
١٢١ — "The Origins of Ismailism" (Cambridge, 1940)
ترجمه إلى العربية خليل أحمد جلو ، وجاسم محمد الرجب (بغداد ١٩٤٨) .
١٢٢ — The Arabs in History (London, 1950).
لى بون : جوستاف — Le Bon , Jostave
١٢٣ — «La Civilisation des Arabes» (Paris, 1884.)
لينبول : ستانلى — Lane-Poole : Stanley.
١٢٤ — «The Story of Cairo» (London, 1912).

١٢٥ — «History of Egypt in the Middle Ages» (London, 1892).

١٢٦ — «Coins and Medals» (London, 1898).

١٢٧ — «The Moors in Spain» (London, 1887).

ترجمه إلى العربية على الجارم (بك) (القاهرة ١٩٤٤) .

الماوردى (٤٥٠/١٠٥٧) : أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى .

١٢٨ — « الأحكام السلطانية » (القاهرة ١٢٩٧ هـ ، لندن ١٩٠١ م)

المبرد (٢٨٥/٩٩٨) : أبو العباس محمد بن يزيد النحوى .

١٢٩ — « كتاب الكامل » جزءان (القاهرة ١٣٢٣) .

أبو المحاسن (٨٧٤/١٤٦٩) : جمال الدين بن يوسف بن تغرى بردى .

١٣٠ — « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » (القاهرة ١٩٣٥)

محمد عبده : الإمام

١٣١ — « رسالة التوحيد » (القاهرة ١٣٢٤ هـ)

المراكشى (٦٦٩/١٢٧٠ — ١٢٧١) : محى الدين أبو محمد عبد الواحد بن على التميمى .

١٣٢ — « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب » (لندن ١٨٨١) ، ترجمه وشرحه إ . فانيان E. Fagnan (الجزائر ١٨٩٣) .

مرجليوث : د . س — Margoliouth : D. S.

١٣٣ — Mohammad and the Rise of Islam» 3rd ed. (London, 1932).

مسلم (٢٦١/٨٧٥) : أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى .

١٣٤ — « الجامع الصحيح » ٨ أجزاء (القاهرة ١٣٢٩ — ١٣٣٢)

المقرى (١٠٤١/١٦٣٣) : شهاب الدين أحمد بن محمد المقرى التلمسانى

١٣٥ — « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » أربعة أجزاء (بولاق ١٢٧٩/١٨٦٢)

المقريزى (٨٤٥/١٤٤١) : تقى الدين أحمد بن على

١٣٦ — « المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » جزآن (بولاق ١٢٧٠ هـ)

ميلن : ج . جرافتون Milne : Grafton.

١٣٧ — «History of Egypt Under Roman Rule, (London, 1913).

ميجون : ج . Migeon : G.

١٣٨ — «Manuel d' Art Musulman», 2 vols (Prais, 1920).

ميور : سير وليام تمبل — Muir : Sir William Temple

١٣٩ — «The Caliphate : Its Rise, Decline and Fall» (London, 1924).

١٤٠ — «The Life of Mohammed» (Edinburgh, 1923).

نلدكه : تيودور — Nœldeke , Theododor

١٤١ — «Historians' History of the World» 27 vols.vol.. i

١٤٢ — «أمراء غسان» ترجمه الدكتور بندلي جوزى ، والدكتور قسطنطين زريق (بيروت ١٩٣٣) .

ابن النديم (٣٨٣/٩٩٣) : محمد بن إسحاق .

١٤٣ — «كتاب الفهرست» (القاهرة ١٢٤٨ هـ)

النوبختى (٢٣٢/٨١٧) أبو محمد الحسن بن موسى .

١٤٤ — «كتاب فرق الشيعة» (استانبول ١٩٣١) .

النووى (٦٧٦/١٢٧٨) : أبو زكريا محى الدين بن شرف .

١٤٥ — «تهذيب الأسماء واللغات» جزءان (القاهرة) .

نيكلسون : ا . رينولد — Nicholson : A. Reynold

١٤٦ — «Literary History of the Arabs» (Cambribdge, 1930).

ابن هشام (٢١٨/٨٣٣) أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب المعافرى الحميرى .

١٤٧ — «كتاب سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم» ٤ أجزاء (القاهرة ١٣٣٦ — ١٣٣٧) .

١٤٨ — «التيجان فى ملوك حمير» (حيدر أباد ١٣٤٧ هـ) .

الهمدانى (٣٣٤/٩٤٦) : أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن داود .

١٤٩ — «صفة جزيرة العرب» جزءان : طبعة دافيد ميلر (ليدن ١٨٩١) .

الواقدى (٢٠٨/٨٢٢) : أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدى المدنى .

١٥٠ — «فتوح الشام» (القاهرة ١٣٠٢ هـ)

هل : يوسف — Hell : Joseph

١٥١ — «Cultur der Arabera» trans. by Khuda Bukhsh, «Arab Civilisation» (Cambridge, 1926)

هيكل : الدكتور محمد حسين .

١٥٢ — «حياة محمد» الطبعة الثالثة (القاهرة ١٣٥٨) .

١٥٣ — «الصديق أبو بكر» (القاهرة ١٣٦١ هـ) .

١٥٤ — «الفاروق عمر» جزءان (القاهرة ١٣٦٤ هـ) .

وستنفلد : ف . فون — Wustenfeld : F. von

١٥٥ — «Genealogische Tabellen der Arabischen Stamme
Und
Familien» (Gottingen, 1852-3)

١٥٦ — «Die Cechichtschreiber der Araber und Ihre Werke»
(Gottingen, 1882)

ياقوت (٦٢٦/١٢٢٩) : شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى :

١٥٧ — « معجم البلدان » ١٠ أجزاء (١٣٢٣/١٩٠٦)

١٥٨ — « إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب » E.J.W Gibb Memorial, Series
٧ أجزاء (القاهرة ١٩٠٧ — ١٩١١) .

اليعقوبى (٢٨٢/٨٩٥) : أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح

١٥٩ — « تاريخ اليعقوبى » جزءان ، طبعة M. Th. Houtsma (ليدن ١٨٨٣ م) ، طبعة النجف (العراق ١٣٥٨ هـ) .

١٦٠ — « كتاب البلدان » طبعة دى غويه (ليدن ١٨٩٢) .

أبو يوسف (١٩٢/٨٠٧ — ٨٠٨) : يعقوب بن إبراهيم .

١٦١ — « كتاب الخراج » (بولاق ١٣٠٢ هـ) و (المطبعة السلفية بمصر ١٣٤٦ هـ) .

فهارس الكتاب

١ — الأعـــلام

(أ) أسماء الرجال

(ب) أسماء النساء

(ج) الأماكن والقبائل

الأسماء التي تدل على حوادث تاريخية هامة

القاهرة

مطبعة السنة المحمدية

١٧ شارع شريف باشا الكبير — عابدين

ت ٩٠٦٠١٧

تاريخ الإسلام

السياسي والديني والثقافي والاجتماعي

الجزء الثاني

العصر العباسي الأول

في الشرق ومصر والمغرب والأندلس

١٣٢ — ٢٣٢ هـ (٧٤٩ — ٨٤٧ م)

تأليف

الدكتور حسن إبراهيم حسن

مدير جامعة أسيوط سابقا ، وأستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة بغداد

الطبعة السابعة

١٩٦٤



ملتزم النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية

لأصحابها حسن محمد وأولاده

٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

تاريخ الإسلام

السياسي والديني والثقافي والاجتماعي

الجزء الثاني

العصر العباسى الأول

فى الشرق ومصر والمغرب والأندلس

١٣٢ — ٢٣٢ هـ (٧٤٩ — ٨٤٧ م)

تأليف

الدكتور حسن إبراهيم حسن

مدير جامعة أسيوط سابقا ، وأستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة بغداد

الطبعة السابعة

١٩٦٤



ملتزم النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية

لأصحابها حسن محمد وأولاده

٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة

الطبعة الأولى . . . . . . فبراير ١٩٤٥
الطبعة الثانية . . . . . . مايو ١٩٤٨
الطبعة الثالثة . . . . . . سبتمبر ١٩٥٣
الطبعة الرابعة . . . . . . يناير ١٩٥٨
الطبعة الخامسة . . . . . . نوفمبر ١٩٥٩
الطبعة السادسة . . . . . . فبراير ١٩٦٢
الطبعة السابعة . . . . . . سبتمبر ١٩٦٤

مقدمة الطبعة السابعة

بسم الله الرحمن الرحيم

ظهرت الطبعة الأولى من الجزء الثانى من هذا الكتاب فى شهر فبراير سنة ١٩٤٥ ، والطبعة الثانية فى شهر مايو سنة ١٩٤٨ ، والثالثة فى شهر سبتمبر سنة ١٩٥٣ ، والرابعة فى شهر يناير سنة ١٩٥٨ ، والخامسة فى شهر نوفمبر سنة ١٩٥٩ . ولما نفدت الطبعة الأخيرة من هذا الكتاب ، حرصت على إعادة طبعه المرة السابعة ، فأدخلت عليه مادة جديدة فى نواحى متعددة من الكتاب ، ورجعت إلى مصادر عربية وإفرنجية أخرى ، يجدها القارىء فى الهوامش ، وفى ثبت المصادر ، وفى الفهارس .

وقد أصبحت أبواب هذا الجزء تسعة أبواب ، بحثت فى الباب الأول منها حالة الأحزاب فى آخر العصر الأموى وما كان لها من أثر فى قيام الدولة العباسية؛ وترجمت فى الباب الثانى لخلفاء العصر العباسى الأول، مبينا أهم الأحداث التاريخية التى وقعت فى عهد كل منهم . وعالجت فى الباب الثالث الحركات السياسية والدينية واتجاهاتها وما كان لها أثر فى السياسة والدين والأدب والاجتماع وغير ذلك . وبحثت فى الباب الرابع العلاقات الخارجية للدولة العباسية مع بلاد المغرب ، ومع بلاد الأندلس والفرنجة ، ومع البيزنطيين والهند . وتكلمت فى الباب الخامس على نظم الحكم السياسية والإدارية والمالية والحربية والقضائية، لأبين كيف كانت تدار الحكومة الإسلامية فى ذلك العصر . وعرضت فى الباب السادس للحالة الاقتصادية وما بلغه المسلمون من تقدم ورقى فى ميدان الزراعة والتجارة . ثم ألممت فى الباب السابع بحالة الثقافة ، فبحثت أنواع العلوم النقلية ، كعلم القراءات، والتفسير والحديث ، والفقه ، وعلم الكلام ، والنحو والأدب ، وأنواع العلوم العقلية ،

وما كان لتشجيع الخلفاء والأمراء ورجال الدولة من أثر فى ترجمة الكتب الأجنبية إلى العربية . كما تكلمت على معاهد الدرس والثقافة ، واهتمام المسلمين بالتاريخ والجغرافية وعلم النجوم والرياضيات والكيمياء والطب ، وأفردت للفن باباً خاصاً هو الباب الثامن ، فألممت فيه بتاريخ الفنون ، وخاصة فن العمارة الذى يعتبر بحق مقياساً لحضارة الأمم ونهضتها فى كل عصر . ثم تناولت فى الباب التاسع الحالة الاجتماعية ، فبحثت فى طبقات المجتمع العباسى ، ومجالس الغناء والطرب ، وقصور الخلفاء والأمراء والوزراء وغيرهم ، وألوان الطعام واللباس ، والأعياد والمواسم والحفلات وأنواع التسلية ، وما كان للمرأة من أثر فى هذا المجتمع .

وقد سرت فى هذا الجزء على النهج الذى سرت عليه فى الجزأين الأول والثالث من هذا الكتاب ، فبحثت فى هذا العصر من نواحيه المختلفة : سياسية ودينية وثقافية واجتماعية . كما يرى القارىء فى الهوامش وفى ذيل الكتاب تنبيها على المصادر لمن أراد التوسع فى مسألة من المسائل التى لم يسمح المجال بالتوسع فيها ، وذيلت الكتاب بثبت ذكرت فيه المصادر مرتبة بحسب أحرف الهجاء بالنسبة لأسماء المؤلفين ، كما ذيلته بفهرس عام يشمل أسماء الأعلام من الرجال والنساء والأماكن والحوادث التاريخية الهامة .

ومن دواعى الفخر أن أنوه فى هذا المقام أن هذا الكتاب الذى ظهرت الأجزاء الثلاثة الأولى منه قد ترجم إلى اللغة الأردية بحكومة الباكستان ، كما طلب إلى الموافقة على ترجمته إلى اللغة الأندونيسية ، وإلى اللغة الإنجليزية .

كما يسرنى أن أقدم الطبعة الأولى من الجزء الرابع الذى طال انتظاره ، بعد أن أعددته للطبع ، وأرجو أن أقدمه إلى قرائى الكرام بعد قليل . والله أسأل أن يوفقنى إلى إتمام الجزء الخامس تحقيقاً لفائدة طلاب الثقافة الإسلامية .

الجيزة فى شهر سبتمبر سنة ١٩٦٤ — حسن إبراهيم حسن

محتويات الكتاب

الموضوع | صفحة

البـاب الثالث

الحركات السياسية والدينية

الموضـوع — صفحة

البـاب الرابع

العلاقات الخارجية

الموضـوع — صفحة

الموضــوع صفحة

البـاب السابع

الثقافــة

البـاب الثامن

الفن

البـاب التاسع

الحالة الاجتماعية

الموضـوع — صفحة

ملاحق الـكتاب

الباب الأول

حالة الأحزاب فى آخر العصر الأموى

١ — الجماعية — الشيعة — الخوارج — المرجئة المعتزلة

(١) الجماعية : لما انتقل الرسول إلى جوار ربه ، وترك الأمر شورى للعرب ليختاروا من بينهم من يلى أمورهم ، اختلف المهاجرون والأنصار فيمن يولونه الخلافة ، وانتهى الأمر بتولية أبى بكر . ولكن كثيراً من العرب ، كالعباس عم النبي وطلحة والزبير ، انضموا إلى على ، وأدى ذلك إلى انقسام الأمة العربية إلى فريقين : جماعية وشيعة .

فأما الجماعية فهم الجمهرة الكبرى من أهل الإسلام ، وهم الذين رضوا خلافة الشيخين أبى بكر وعمر وعثمان من بعدهما . ولما استقر الأمر لبنى أمية دخلوا فى طاعتهم . ومن تاريخ هذه الجماعة الكبيرة يتألف تاريخ الدولة الإسلامية على الحقيقة ؛ فأما من عداها فأحزاب ثائرة أو طوائف خارجية ، لم تجتمع على واحدة منها كلمة المسلمين ، ولا كانت لها دولة جامعة ، وإن ملك بعضها ملكا واسعاً فى حقب من التاريخ .

(ب) الشيعة : وأما الشيعة فهم الذين يرون أن الخلافة يجب أن تكون فى بيت النبى ، وقد قرروا أنها حق لعلى بن أبى طالب ثم لأولاده بالوراثة من بعده . وقال الغلاة منهم إن الأئمة معصومون ، وإن صفات الله سبحانه قد حلت فيهم وتقمصت أجسامهم ، وإن من قال بغير ذلك من الفرق الإسلامية — حتى بعض فرق الشيعة — خارجون على الدين . ودللوا على صحة هذا الرأى بأن علياً كان أول من اعتنق الإسلام من الرجال ، وأن ماقام به فى سبيل رفع منـــار هذا الدين

لايستطيع أن يبذه فيه أحد من المسلمين بعد النبي[١] . ونسب الغلاة أيضاً إلى النبي أحاديث تشهد بما لآل علي من حرمة ، وبما لعلي من حق في الإمامة بعد الرسول عليه السلام .

نشر ابن سبأ مذهب الوصاية الذى أخذه عن اليهودية دينه القديم ، بمعنى أن عليا وصى محمد ، وأنه خاتم الأنبياء بعد محمد خاتم النبيين ، وأنهم ناوءوا علياً وتعدوا على حقه فى الإمامة . كما أخذ عن الفرس — الذين كانوا يحتلون فى صدر الإسلام بلاد اليمن موطنه الأصلى — نظرية الحق الإلهى، بمعنى أن علياً هو الخليفة بعد النبى ، وأنه يستمد الحكم من الله . وبذلك هيأ العقول إلى الاعتقاد بأن عثمان أخذ الخلافة بغير حق من على وصى رسول الله[٢] .

وإن الباحث فى تاريخ الشيعة فى العصر الأموى ، ليرى أن موقعة كربلاء (سنة ٥٦١ هـ) قد وحّدت صفوف الشيعة ، وأثارت فى نفوسهم الحماسة للأخذ بثأر الحسين بن على . كما أذكت مأساة كربلاء روح التشيع بعد أن كان رأياً سياسياً نظرياً لم يصل إلى قلوب الشيعة . ولكن التشيع امتزج بعد مقتل الحسين بدمائهم ، وأصبح عقيدة راسخة فى نفوسهم ، وانتشر التشيع بين الفرس الذين تربطهم بالحسين رابطة المصاهرة ، إذ كانوا يرونه أحق بالخلافة هو وأولاده من بعده ، لأنهم يجمعون بين أشرف دم عربى وأنقى دم فارسى .

وقد وجد عبد الله بن الزبير فى موقعة كربلاء فرصة سانحة لتحقيق أغراضه السياسية تحت ستار الأخذ بثأر الحسين بن علىّ ، كما تهيأت الفرصة للمختار بن أبى عبيد الثقفى الذى ادعى إمامة محمد بن الحنيفة بن أبى طالب . وكان من أثر ذلك أن انضم إليه التوابون الذين ندموا على مافرطوا فى حق الحسين وعدم إغاثتهم له حتى قتل بينهم ؛ وتابوا مما فعلوا ، ثم تحالفوا على بذل نفوسهم وأموالهم فى الأخذ بثأره ، وانضموا إلى المختار بن أبى عبيد ، وحاربوا عبيد الله بن زياد والى العراق الذى قتل الحسين بن على ، وقتلوه . وأتاحت هذه الحروب التى دارت بين جند

(١) انظر كتاب تاريخ الدولة الفاطمية للمؤلف (الطبعة الثالثة ١٩٦٤) ص ١ .
(٢) المصدر نفسه ص ٧ — ١٢ .

الأمويين وبين جيوش المختار ، الفرصة لعبد الله بن الزبير وأخيه مصعب للقضاء على المختار والاستيلاء على بلاد العراق والحجاز ومصر .

ومع أن الأمويين قد تغلبوا على ابن الزبير ، فقد فت فى عضدهم مقتل الحسين فى موقعة كربلاء وجعلهم يعضون بنان الندم .

(ج) **الخوارج** : من الأحزاب التى خرجت على الأمويين ، حزب الخوارج الذين كانوا بالأمس من أشياع على بن أبى طالب ثم خرجوا عليه بعد التحكيم . وكانوا يقولون بصحة خلافة أبى بكر وعمر وعثمان فى سنيه الأولى ، وعلى إلى أن حكم الحكمين . ويمثل هؤلاء الخوارج أو « الديمقراطيون » ، كما يسميهم فان فلوتن [1] : المبادىء الديمقراطية المتطرفة ، ويعتقدون أن الخلافة حق لكل عربى حر . على أن منهم من أدخل على نظريتهم بعض التعديل ، فشرطوا الإسلام والعدل بدل العروبة والحرية ، ولا سيما حين انضم إلى صفوفهم كثير من المسلمين من غير العرب ، حيث جعلوا حق الخلافة شائعاً بين جميع المسلمين الأحرار والأرقاء على سواء ، وخالفوا بذلك نظرية الشيعة التى تقول بحصر الخلافة فى آل بيت النبى .

وكان لسخط المسلمين على سوء تصرف بعض الخلفاء الأمويين أثر كبير فى إثارة الشيعة والخوارج والموالى من الفرس ، وأتيحت الفرصة للخوارج لنصب أنفسهم لحماية هؤلاء من نير الأمويين . وإن الناظر إلى مبادئهم ليجد أنهم غلوا جميعاً فى الحكم على مخالفيهم ، حتى ساروا بينهم وبين الكفار عبدة الأوثان . فلا عجب إذا اشتطوا فى حربهم ، وبذلوا نفوسهم فى سبيل الزود عن مبادئهم وقد ضربوا المثل فى الشجاعة النادرة والبطولة الفذة ، وشغلوا كما رأينا الحزب الأموى وغيره مدة طويلة ، حتى كلفوا الأمة الإسلامية ثمناً غالياً من الأموال والأرواح . وقد تفانوا فى آرائهم الدينية تفانيهم فى حروبهم ، حتى قيل إن أربعين رجلا من الخوارج استطاعوا أن يهزموا جيش عبيد الله بن زياد ، وكانت عدته ألفى رجل .

---

(١) السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات فى عهد أمية . ترجمة المؤلف ص ٦٩ .

وفى عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية (١٢٧ — ١٣٢ هـ) تفاقم خطر الخوارج الذين انتهزوا فرصة انقسام حزب بنى أمية على نفسه ، وثاروا بزعامة الضحاك ابن قيس الشيبانى وهددوا العراق . ولكن قتل الضحاك لم يضع حداً لثورات الخوارج فى بلاد العراق ، فقد ظهر فيهم زعيم جديد ، هو أبو حمزة الخارجى ، الذى ثار فى الحجاز وحضرموت ، ولكن مروان بن محمد هزمه وقتله . وكانت ثورة أبى حمزة آخر ثورات الخوارج فى عهد بنى أمية .

(د) المرجئة : ونستطرد الآن إلى الكلام على طائفة من الطوائف الإسلامية لا يقل أثرها خطراً فى اتجاه السياسة الإسلامية عن الشيعة أو الملكيين والخوارج أو الجهوريين ، وهو حزب المرجئة الذى ظهر فى دمشق بتأثير بعض العوامل المسيحية خلال النصف الثانى من القرن الأول الهجرى .

تخالف المرجئة الخوارج فى تكفيرهم الخلفاء الثلاثة : عثمان وعليا ومعاوية وأنصارهم ، ذاهبين إلى القول بأن كل من آمن بوحدانية الله لا يمكن الحكم عليه بالكفر ، وأن ذلك موكول إلى الله وحده يوم القيامة ، مهما كانت الذنوب التى اقترفها والمبادىء السياسية التى يدين بها . فهم يرجئون الحكم على إخوانهم فى الدين إلى الله وحده الذى « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور[١] » .

وكانت مسألة المسائل فى ذلك الحين هى موقف جديثى العهد بالاسلام . وقد قامت المرجئة بدور هام فى التوفيق بين المصالح المتعارضة بين العرب وغيرهم من المسلمين ، حين تطور النزاع بين الأحزاب والطوائف ، وحلت تلك المشكلة الاجتماعية الجديدة محل الخلاف على الإمامة . وقد ذهبت المرجئة إلى القول بأنه لا يحل للحكومة أن تعامل هؤلاء كما لو كانوا لا يزالون على كفرهم ، بعد أن أصبحوا مسلمين لهم ما للمسلمين وعليهم ماعليهم . وعلى هذا كانوا لا يتحرجون عن قتال أية حكومة تقر مثل تلك المظالم . ومن ثم لا ندهش بعد أن وقفنا على حوادث الشدة والعسف فى بلاد ماوراء النهر ، أن نرى هؤلاء يحرمون سفك

(١) سورة غافر ٤٠ : ١٩ .

الدماء البريئة ، ويجهرون بأن جميع المسلمين إخوة فى الدين . وصفوة القول أن كل ما كان ينشده هؤلاء ، إنما هو العودة إلى مبدأ المساواة بين الشعوب الذى أقره الإسلام(١) .

وكان ذلك بلا ريب شعور الجمهور الأعظم من أتباع الحارث بن سُرَيج ، الذى قام على رأس المرجئة بثورة على الأمويين فى بلاد ما وراء النهر . وطالما حارب الحكومة الأموية لاشتطاطها فى جمع الضرائب من الأهلين ، وكان يزعم أنه المهدى الذى بعثه الله لتخليص المضطهدين والأخذ بناصر المظلومين . لذلك أشعل نار الثورة على بنى أمية . وكل ما كان ترمى إليه الحارث ، الرجوع إلى القرآن والسنة ، وانتخاب حكومة ترضى عنها الأغلبية . وسرعان ما استولى على المدن الواقعة على شواطىء نهر سيحون . ثم اضطر أمام ضغط جيوش أسد بن عبد الله القسرى الذى ولى خراسان ، إلى التخلى عما فتحه من البلاد والانسحاب إلى بلاد ما وراء النهر (١١٨ هـ) . ثم عفا عنه الخليفة الوليد الثانى بتدخل نصر بن سيار والى خراسان ، ولكن الحارث عاد إلى التمرد ، فانضم إلى اليمانية ، فطرد نصر بن سيار من مرو حاضرة خراسان ، ثم دب بينه وبين اليمانية ذلك الشقاق الذى لم ينته إلا بموته فى سنة ١٢٨ هـ . ولم تكن ثورة الحارث إلا نتيجة لتذمر الموالى وعلى رأسهم المرجئة .

(هـ) المعتزلة : أما القدرية أو المعتزلة فإنها لا تقل أثراً عن تلك الطوائف الثلاث فى اتجاه السياسة الإسلامية . ويظهر أن نشأة المعتزلة كانت فى بلاد العراق التى كانت مهداً للحضارتين الفارسية والسامية ، والتى أصبحت كعبة العلم ومقر الحكومة فى عهد العباسيين . وقد سموا القدرية أيضاً لأنهم يقولون بحرية إرادة الإنسان . وتتكون عقيدة القدرية من خمسة أصول : التوحيد ، والعدل ، والوعيد . والقول بالمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

---

(١) راجع كتاب : السيادة العربية ، ترجمة المؤلف ص ٦٤ — ٦٥ .

وقد ابتدأت المعتزلة منذ نشأتها طائفة دينية لا دخل لها فى السياسة ، على عكس ما كان عليه الخوارج والشيعة والمرجئة . إلا أنها لم تلبث أن خاضت غمار السياسة ، فتكلمت فى الإمامة وشرط الإمام . وقد تأثرت المعتزلة بالشيعة فى قولهم بحرية الإرادة ، تلك العقيدة التى وضع أساسها الأئمة من بيت على ، كما يطلق المعتزلة على فقهائهم لقب الأئمة الذى كانت تطلقه الشيعة على فقهائهم .

ويبين لنا بشكل أوضح الرابطة بين عقيدة الشيعة الرئيسية ومذهب الاعتزال ما نلاحظه من تأثر الشيعة بمبادىء المعتزلة فى عقيدتهم : إن الإمام المنتظر سوف يظهر لنشر العدل والتوحيد ، وهذا هو بعينه عقيدة المعتزلة . والزيدية أكثر شبهاً بالمعتزلة فى ذلك من الإمامية ، إذ تتفق مع المعتزلة فضلا عن ذلك فى كثير من النقط والتفاصيل . كما تتفق المعتزلة مع الخوارج فى القول بأن الإمامة تجوز فى قريش وفى غيرهم من الناس ، وفى القول بعدم ضرورة نصب إمام للمسلمين ، كما يفهم ذلك من قول الخوارج « لا حكم إلا لله » . ولا غرو فطالما اتخذ الخوارج مبادىء الاعتزال ذريعة للخروج على بنى أمية وإثارة الفتن والاضطرابات ، ولاسيما فى إفريقية وبلاد المغرب ، تلك المبادىء التى كانت تتفق فى كثير من المسائل — وبخاصة فيما يتعلق منها بالعقيدة الأساسية — ميول الخوارج(١) .

من ذلك نرى أن هذه الأحزاب كان لها أثر كبير فى زوال الدولة الأموية ، وأنهم كانوا يعتقدون أن جهاد الأمويين جهاد دينى . وكانوا يستندون فى ذلك إلى سوء سيرة يزيد الأول ويزيد الثانى والوليد الثانى من الخلفاء الأمويين ، ولاسيما ما كان من هتك حرمة المدينة المنورة فى عهد يزيد واتخاذهم المقاصير لتحجب الخليفة عن الناس .

٢ — حزب بنى أمية وانقسامه على نفسه

أولا : بتأثير المنافسة بين أفراد البيت الأموى : كانت الإمامة (وهى القيادة العليا للمسلمين (أولى المسائل التى فرقت المسلمين ومزقتهم شيعاً وأحزابا . أما بنو أمية

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٩١ .

(ومقرهم بلاد الشام) فهم أهل الدولة الإسلامية لذلك الحين ، لاجتماع أكثر المسلمين عليهم ، وخاصة بعد نزول الحسن عن الخلافة لمعاوية . وكانوا يزعمون أنهم أحق الناس بالخلافة بعد الخلفاء الراشدين (أبي بكر وعمر وعثمان) ، وأنهم أصحاب الحق فى الأخذ بثأر عثمان والمطالبة بدمه لما كان يربطهم من أواصر القرابة . وكان يناوئ حكومة الأمويين :

١ — أهل المدينة ، وهم أنصار النبي ، الذين كانوا لارتباطهم باليمانيين من العرب فى نسبهم ، يكرهون بنى أمية ويعتبرونهم مغتصبين للحكم ، وخاصة بعد موقعة الحرة التى وقعت فى أيام يزيد بن معاوية .

٢ — حزب الشيعة ، وهم أنصار أهل البيت المتحمسون للدفاع عن حقوقهم فى الخلافة ولا سيما حق على .

٣ — حزب الخوارج ، وهم الجمهوريون الذين كانوا يقولون باختيار الخلفاء من بين الأكفاء أنى كانت الطبقة التى ينتمون إليها ، كما كانوا يرون أيضاً عزل الخليفة منذ اللحظة التى يفقد فيها الأغلبية .

وقد أثارت السياسة التى جرى عليها الأمويون فى تولية العهد اثنين يلى أحدهما الآخر عوامل المنافسة ، وبذرت بذور الشقاق بين أفراد البيت الأموى ، حتى قيل إن الخلافة فى عهد بنى أمية استحالت إلى ملك استبدادى يعتمد على نظام التوريث . وبذلك خرج الأمويون فى حكم الدولة الإسلامية عن نظام الشورى الذى ساد فى عهد الخلفاء الراشدين .

وكان لهذه السياسة أثرها فى ضعف الأمويين ، فإنه لم يكد يتم الأمر لأحد أبناء الخليفة المتوفى ، حتى يعمل على إقصاء الآخر من ولاية العهد وإحلال أحد أولاده مكانه . ومما زاد هذه الحالة سوءاً ، أن هذا النزاع لم يقتصر على أفراد البيت الأموى ، بل تعداهم إلى القواد والعمال ، حتى إذا ولى الثانى الخلافة انتقم من أنصار الخليفة الذى قبله وأقصاهم عن مناصب الدولة .

وكان معاوية أول من سن سنة التوريث من الخلفاء الأمويين ، كما كان مروان

بن الحكم أول من عمل على أخذ البيعة لاثنين من أولاده . واتبع عبد الملك بن مروان سنة أبيه ، فعمل على خلع أخيه عبد العزيز من ولاية العهد ، وتولية ابنيه الوليد وسليمان ، لولا أن حالت وفاة عبدالعزيز دون تحقيق هذه السياسة . وسار الوليد سيرة أبيه في هذه السياسة التي أثارت الحقد والمنافسة بين أفراد هذا البيت ، فقد عمل على خلع أخيه سليمان والبيعة بولاية العهد لابنه عبدالعزيز . فلما ولى سليمان الخلافة انتقم ممن ساعدوا الوليد على خلعه ، فانتقم من محمد بن القاسم الذي يرجع إليه الفضل في فتح بلاد السند . وكذلك فعل مع قتيبة بن مسلم الذي فتح بلاد ما وراء النهر . ومات الحجاج بن يوسف قبل أن يلي الخلافة فانتقم من آل الحجاج شر انتقام .

ثانيا : بالعصبية في الأمصار والجيش : عمل الرسول على إزالة العصبية والشعور القبلي ، وإحلال الوحدة الدينية والقومية الإسلامية محلها ، وسهل ذلك على القبائل العربية المختلفة أن تنضوي تحت لوائه وتدين له بالزعامة . فلما انتقل الرسول إلى جوار ربه تسابقت القبائل والبطون العربية على أن يكون هذا الأمر لها دون غيرها . وبذلك تجلت النفس العربية والطبيعة القبلية ، مما أدى إلى ارتداد أكثر القبائل العربية وتمردها على حكومة قريش حتى تزعزع مركز الإسلام ، لولا ما أوتيه أبو بكر الصديق من صدق العزيمة ، وما عرف عنه من حزم وغيرة على الدين ، فكانت الغلبة للجيوش الإسلامية ، وعلت كلمة الإسلام من جديد .

وإن روح العصبية التي حاول الإسلام أن يقضي عليها قد بعثت بين القبائل العربية على أثر وفاة يزيد بن معاوية . غير أنها لم تكن من القوة والشدة بحيث تؤثر في انحلال دولة الأمويين ، الذين ظلوا حافظين لكيانهم كفريق سياسي يناضل خصومه من الأحزاب الأخرى ، إلى أن كانت خلافة عمر بن عبدالعزيز ، التي تعتبر فترة انتقال بين حالة القوة والتماسك وحالة الضعف والتفكك الذي اعترى بني أمية . فقد كان عمر صالحاً عادلا ، قضى فترة خلافته في إصلاح ما أفسده من سبقه من خلفاء بني أمية حتى نال رضاء جميع العناصر الثورية ، فلم يتعصب لقبيلة دون

أخرى ، ولم يول والياً إلا لكفايته وعدالته سواءاً أكان من كلب أو قيس ، فسكنت في عهده العواصف التي كانت تنتاب الدولة وتكاد تذهب بريحها .

ولما مات معاوية بن أبي سفيان تفككت الوحدة العربية في بلاد الشام ، فمال الكلبيون إلى بني أمية ، وانضم القيسيون بزعامة الضحاك بن قيس إلى عبد الله بن الزبير الذي عمل على سلب الخلافة من الأمويين . وتعتبر موقعة مرج راهط (سنة ٦٥ هـ) صراعاً بين عرب الشمال المضريين وبين عرب الجنوب اليمنيين . وكان لهذه الموقعة أثرها في إذكاء نار العصبية بين المضرية واليمنية في سائر البلاد العربية ، وخاصة في خراسان .

ولما توفي عمر بن عبد العزيز وولي الخلافة يزيد بن عبد الملك (١٠١ — ١٠٥ هـ) ، اشتعلت نيران العصبية من جديد بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، أو بين مضر واليمن . ولم يتورع هذا الخليفة عن خوض غمار هذه الفتنة بانحيازه إلى المضريين على اليمنيين ، ذلك الصراع الذي انتهى بقتل يزيد بن المهلب بن أبي صفرة ، وقتل أهل بيته اليمنيين الذين كانوا غرة في جبين الدولة الأموية كما كان البرامكة بعد غرة في جبين الدولة العباسيين . وقد أشعل قتل آل المهلب نار العصبية في قلوب ذلك العنصر ، وأثار حقده على البيت الأموي ، وصار العنصر اليمني منذ ذلك الحين خطراً يهدد كيان بني أمية .

كذلك أثار مقتل خالد بن عبد الله القسري والي العراق في عهد هشام بن عبد الملك كراهة اليمنيين ، حتى لقد عد المؤرخون ذلك من أقوى الأسباب التي عجلت بسقوط الدولة الأموية . ذلك أن اليمنيين الذين لم ينسوا قتل آل المهلب ، والذين فوجئوا بقتل زعيمهم خالد بن عبد الله القسري ، انضووا تحت لواء ابنه يزيد بن خالد القسري وأشعلوا نار الثورة في دمشق . وتبعهم اليمنيون في فلسطين ، فثاروا في وجه الحكم الأموي ، ثم انضموا إلى سليمان بن هشام بن عبد الملك ونادوا بخلع مروان بن محمد .

هذه هي حال العصبية في الشام . وقد ساعد على قيام الثورة فيها أن أكثر أهلها كانوا من العنصر اليمني ، وربما كان ذلك هو السبب في أن مروان لم

يتخذها مقراً لملكه وانتقل إلى الجزيرة ، لأن أكثر من فيها كانوا من القيسية عماد دولته .

وهكذا أضعفت العصبية فى الأمصار والجيش بنى أمية وآذنت بزوال سلطانهم ، ولا غرو فقد كان ذلك العصر عصراً محزناً ملأ قلوب التقاة من المسلمين تشاؤماً بالمستقبل .

٣ — حزب بنى هاشم واتحاد كلمته للقضاء على بنى أمية

(١) انتقال حق الإمامة من العلويين إلى العباسيين :

أثار قتل الحسين — كما تقدم — خاصة المسلمين ، فتوحدت صفوف الشيعة ، وزادت الدعوة لآل على قوة ، واشتد العداء بين الأمويين والعلويين الذين أثاروا الفتن والثورات فى الولايات الإسلامية . ثم حدثت هذه الحادثة الهامة فى تاريخ الشيعة ، وهى انتقال حق الإمامة من بيت على إلى بيت العباس على يد أبى هاشم ابن محمد بن الحنفية زعيم الشيعة الكيسانية ، وهو ما يمكن أن يطلق عليه « ميراث الكيسانية » .

ذلك أنه فى سنة ٩٨ للهجرة استدعى الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك أبا هاشم وأكرم وفادته ، وأظهر التودد له ، ولكنه دبر أمر قتله خشية أن يدعو إلى نفسه ، فدس له من سمه وهو فى طريقه إلى الحميمة ، وهى قرية صغيرة فى أرض الشراة بين الشام والحجاز ، حيث كان يقيم محمد بن على بن عبد الله بن العباس . وقد قيل إن أبا هاشم لما شعر بدنو أجله ، قصد محمداً هذا ، وأفضى إليه بأسرار الدعوة الهاشمية ، ونزل له عن حقه فى الإمامة ، وأمده بأسماء داعى دعاته فى الكوفة ، ومن يليه من الدعاة ، كما سلمه رسائل يقدمها إليهم[١] .

بذلك تحول حق الإمامة من العلويين إلى العباسيين . وهنا يحسن بنا أن نسأل : لماذا عدل أبو هاشم عن أهل بيته من العلويين وحول حقه إلى بنى عمه من

---

(١) انظر تاريخ الدولة الفاطمية للمؤلف ص ٢٠ — ٢١ .

العباسيين ؟ ولكى يجيب عن هذا السؤال نرجع قليلا إلى الوراء فنقول : إنه منذ وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، لم يرشح المسلمون للخلافة أحداً من بنى هاشم إلا على ابن أبى طالب وأولاده ، ولم تتجه الأنظار إلى العباس عم النبى بعد وفاته لأنه لم يكن من السابقين إلى الإسلام . ومن ثم لم يرشح للخلافة هو ولا أولاده من بعده . وقد قيل إن أبا سفيان جاء العباس بعد بيعة أبى بكر فقال له : أبسط يدك أبايعك ، فأبى العباس .

وكانت العلاقة بين بنى هاشم ، علويين وعباسيين ، تقوم على الود والصفاء . وكان البيتان متحدين على العدو المشترك وهو بنو أمية ، إلى أن انتقل حق الإمامة من العلويين إلى العباسيين بنزول أبى هاشم بن محمد بن الحنفية .

ويظهر أن العباسيين كانوا فى أواخر القرن الأول الهجرى ، أكثر كفاية ونشاطاً فى الناحية السياسية من العلويين ، وأكثر تطلعاً منهم إلى النفوذ والسلطان . وقد قيل إن أبا هاشم إنما فعل ذلك لأنه لم يجد بين أفراد البيت العلوى من يستطيع النهوض بأعباء إمامة المسلمين . أضف إلى ذلك اختلاف اعتقاد الشيعة الكيسانية أنصار أبى هاشم عن اعتقاد الشيعة الإمامية أنصار أولاد فاطمة . على أن هناك مسألة جديرة بالملاحظة وهى أن نزول أبى هاشم بن محمد بن الحنفية لا يمكن أن يعتبر نزولا من العلويين جميعاً ، لأن فريقاً كبيراً منهم ظل متمسكا بعقائد الشيعة الإمامية ، بدليل قيامهم فى وجه العباسيين بعد قيام دولتهم .

وقد صور المسعودى[1] الأسباب التى ساعدت على زوال ملك بنى أمية فى هذه العبارة فقال : « سئل بعض شيوخ بنى أمية ومحصليها[2] عقب زوال الملك عنهم إلى بنى العباس : ما كان سبب زوال ملككم ؟ قال : إنا شغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا ، فظلمنا رعيتنا فيئسوا من إنصافنا وتمنوا الراحة منا ؛ وتحومل على أهل خراجنا فتخلوا عنا وخربت ضياعنا فخلت بيوت أموالنا ، ووثقنا بوزرائنا

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ١٩٤ .

(٢) أى العارفين بتاريخ هذه الدولة وأخبارها .

فآثروا مرافقهم على منافعنا وأمضوا أمورا دوننا أخفوا علمها عنا ؛ وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا ، واستدعاهم أعادينا فتظاهروا معهم على حربنا . وطلبنا أعداؤنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا ، وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا » .

(ب) تنظيم الدعوة العباسية :

رأى الإمام محمد بن على العباسى أن نقل السلطان من بيت إلى بيت لابد أن يسبقه إعداد الأفكار وتهيئة النفوس لهذا التغيير ، وأن كل محاولة فجائية قد تكون عاقبتها الإخفاق ، فرأى ببعد نظره أن الأمر يحتاج إلى شدة الحيطة ؛ فطلب من شيعته أن يدعو الناس إلى ولاية آل البيت دون تسمية أحد خوفاً عليه من بنى أمية . ووجد أن كلا من الكوفة وخراسان يصح أن يكون مركزاً لنشر الدعوة ، لأن الكوفة مهد التشيع لآل البيت منذ زمن طويل ، ولأن أهل خراسان يفهمون فكرة التشيع بسهولة ، ويعتقدون فى نظرية الحق الملكى المقدس التى كانت سائدة فى بلاد الفرس منذ أيام آل ساسان . هذا إلى ما كان يقاسيه الفرس تحت نير الأمويين ، مما سهل على العباسيين نشر دعوتهم . وقد وصف الإمام محمد ابن على العباسى الأهواء والميول التى كانت سائدة بين أهالى الولايات الإسلامية فى هذه العبارة .

« أما الكوفة وسواها فشيعة على ، وأما البصرة فعثمانية تدين بالكف ، وأما الجزيرة فحرورية(١) وأعراب كأعلاج(٢) ، ومسلمون فى أخلاق النصارى ؛ وأما أهل الشام فلا يعرفون غير معاوية وطاعة بنى أمية ، وعداوة راسخة وجهل متراكم ؛ وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهم أبو بكر وعمر . ولكن عليكم بخراسان ، فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر . وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة ، لم تتقسمها الأهواء ، ولم تتوزعها النحل ، ولم يقدح فيها فساد ، وهم جند

---

(١) هذا اللفظ مشتق من حروراء وهى قرية بظاهر الكوفة تبعد عنها بميلين ، نزل بها الخوارج الذين اعتزلوا على بن أبى طالب ، فنسبوا إليها وسموا حرورية .

(٢) العلج حمار الوحش الغليظ .

لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل ، وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة ، ولغات فخمة تخرج من أجسام منكرة . وبعد فإنى أتفاءل إلى المشرق ، وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق [١] » .

نهض محمد بن على العباسى بالدعوة نهضة قوية ، وعين النقباء والدعاة وأوصاهم ببث الدعوة سراً ، كما أوصاهم أن يتظاهروا بنشرها لآل البيت عامة تسكينا للعلويين.

وقد بدأت هذه الدعوة السرية فى أوائل القرن الثانى للهجرة من الحميمة التى اتخذها العباسيون مركزاً لنشر دعوتهم ،وذلك فى عهد عمر بن عبد العزيز.ووجه محمد بن على العباسى الدعاة إلى الولايات الإسلامية ، فوجه ميسرة إلى العراق ، كما وجه ثلاثة من الدعاة أحدهم أبو عكرمة السراج ،وعهد إليهم فى نشر الدعوة فى خراسان . وهناك أخذ هؤلاء الدعاة ينشرون الدعوة العباسية فى الخفاء ، وظاهر أمرهم التجارة أو الحج إلى مكة . واختار أبو عكرمة من الدعاة سبعين داعية من بينهم اثنا عشر نقيباً . وشمر الكل عن ساعد الجد فى بث الدعوة لبنى العباس ، ولم يبالوا بما لاقوه من ضرب وصلب وقتل وتشريد ، وكتب إليهم محمد بن على دستوراً يسيرون عليه فى نشر الدعوة ، على أن تكون « للرضا من آل محمد » . ذلك اللفظ الذى يشمل أبناء على وأبناء العباس ، إذ أن تعيين شخص المدعو إليه يثير الأمويين كما يثير العلويين على الدعوة العباسية [٢] .

ويمكن تقسيم الدعوة العباسية قسمين : —

الأول : ويبدأ فى مستهل القرن الأول للهجرة ، وينتهى بانضمام أبى مسلم الخراسانى .وكانت الدعوة فى هذا الدور خالية من أساليب العنف والشدة، إذ كان الدعاة يجوبون البلاد الإسلامية ،متظاهرين بالتجارة أو أداء فريضة الحج كما تقدم.

ويبدأ الدور الثانى بانضمام أبى مسلم الخراسانى إلى الدعوة العباسية . وهنا يدخل النزاع بين الأمويين والعباسيين فى دور العمل ، وهو دور الحروب التى انتهت بزوال الدولة الأموية .

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ج ٣ ص ٢٩٣ — ٢٩٤ .

(٢) Nicholson; Lit. Hist. of the Arsbs;p. 250.

٤ — قيام الدولة العباسية

(ا) ميل الموالى إلى بنى هاشم :

تاقت نفوس الموالى من الفرس إلى التخلص من حكم الأمويين ، لما ارتكبوه من وسائل العنف فى قمع ثورات العلويين ، ومالوا إلى نصرة بنى هاشم ، ولا سيما بعد مقتل زيد بن على وابنه يحى : فإن هؤلاء الموالى — إذا استثنينا طبقة الدهاقين ، وهم ملاك الأراضى من الفرس الذين أسند الأمويون إليهم المناصب الإدارية الهامة ، واستأثروا بجباية الخراج فتمتعوا بنفوذ كبير ، والذين أطلق عليهم العرب اسم العلوج — اعتقدوا أن اعتناقهم الإسلام لم يسوبينهم وبين العرب . ولا غرو فإن المسلمين من غير العرب قد ألحقوا بعد اعتناقهم الإسلام ببعض القبائل العربية ليكونوا موالى لتلك القبائل . ونظر العرب الذين كانوا لا يحترمون سوى مهنة الحرب إلى هؤلاء الموالى نظرة الاحتقار ، لامتهانهم طبقات العمال الذين نشأ منهم هؤلاء الموالى .

وهذا يفسر لنا أسباب تعلق الفرس بالعلويين وميلهم إليهم . وقد أوضح لنا براون (١) السبب الذى استمالهم إلى ذلك ، معتمداً على ماذكره جوبينو فى هذا الصدد حيث يقول : « إننى أعتقد أن جوبينو قد أصاب فيما قاله ، إن نظرية الحق الإلهى وحصرها فى البيت الساسانى كان لهما تأثير عظيم فى تاريخ الفرس فى العصور التى تلتها . وقد جاءت فكرة انتخاب الخليفة متمشية بطبيعتها مع ديمقراطية العرب ؛ غير أنها لا يمكن أن تظهر فى نظر الفرس إلا بمظهر ثورى غير مطابق لطبائع الأشياء . أضف إلى ذلك ما كان من نزعة السخط والكراهية التى أضمرها هؤلاء الفرس لعمر ، ثانى الخلفاء الراشدين ومقوض دعائم الإمبراطورية الفارسية . وإن هذه النزعة ، وإن تسترت بستار الدين ، فلن يفوت الباحث تفهم سرها ومراميها . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن الحسين ، وهو أصغر ولد فاطمة بنت النبى

---

(١) Lit. Hist. of Persia, Vol. I. P. 130.

وعلى ابن عمه ، قد قالوا إنه تزوج من شهر بانوه إبنه يزدجرد الثالث آخر ملوك آل ساسان . ومن هنا أصبح الأئمة من حزب الشيعة بقسميه (طائفة الاثنا عشرية الشائعة الآن فى بلاد فارس ، وطائفة السبعية أو الإسماعيلية لا يمثلون حق النبوة فقط بل يمثلون الملك أيضاً ، لأنهم من سلالة النبى محمد وآل ساسان معاً » .

ومن ذلك تولدت هذه النظرية السياسية التى يشير إليها جوبينو فى العبارة الآتية حيث يقول : « كانت هذه النظرية عقيدة سياسية غير متنازع فيها عند الفرس ، وهى أن العلويين وحدهم يملكون حق حمل التاج ، وذلك بصفتهم المزدوجة ، لكنهم وارثى آل ساسان من جهة أمهم بيبى شهر بانوه إبنة يزدجرد آخر ملوك الفرس والأئمة رؤساء هذا الدين حقاً » .

وذلك يعلل كثرة الثورات والفتن التى أثارها هؤلاء الموالى من الفرس الذين ساعدوا آل البيت ضد الأمويين . ومن أحسن الأمثلة التى تؤيد هذا الرأى تلك الثورة التى أشعل نيرانها الحارث بن سريج الذى انضوى تحت لوائه الموالى فى خراسان وبلاد ماوراء النهر . ولم تخمد حركة الموالى بموت الحارث سنة ١٢٨ هـ . فلم يكد يمضى على وفاته سنة واحدة حتى أشعل أبو مسلم على بنى أمية تلك الثورة التى قلبت عرشهم وانتهت بزوال دولتهم .

(ب) زوال الدولة الأموية .

فى أثناء وقوع هذه الحوادث مات الإمام محمد بن على العباسى سنة ١٢٥ هـ (٧٤٢) ، وكانت الدعوة العباسية قد قطعت شوطاً بعيداً . وقد أوصى محمد بالإمامة من بعده لابنه إبراهيم . وفى عهده دخل النزاع بين الأمويين والعباسيين فى طور جديد هو طور العمل ، وهو ما يمكن أن نطلق عليه العصر الثانى للدعوة العباسية ، ويبتدىء من سنة ١٢٧ هـ .

اتصل بإبراهيم الإمام شاب اتصف بالشجاعة والإقدام ، واضطلع بأعباء الدعوة العباسية فى خراسان ، وقضى على سلطان الأمويين فيها . وإليه يرجع الفضل

فى قيام الدولة العباسية . ذلك الشاب هو أبو مسلم الخراسانى . ولا بأس أن نذكر طرفا من سيرته قبل أن ينضم إلى الدعوة العباسية .

اختلف المؤرخون فى نسب أبى مسلم . فقيل إنه كان حراً يسمى إبراهيم بن عثمان ، ويكنى أبا إسحاق ، وإنه ينتسب إلى بزرجمهر . وقد ولد بأصبهان ثم رحل إلى الكوفة وهو فى السابعة من عمره . ولما اتصل بإبراهيم الإمام أمره بتغيير اسمه وقال له : « لا يتم الأمر إلا بذلك كما وجدته فى الكتب » . فسماه عبد الرحمن بن مسلم وكناه أبا مسلم ، وزوجه امرأة من طيء ، كانت تقيم مع أبيها بخراسان .

وقيل فى سبب اتصال أبى مسلم بإبراهيم الإمام أن سليمان بن كثير أحد النقباء وغيره من النقباء تركوا خراسان فى سنة ١٢٤ ﻫ متظاهرين بالحج إلى مكة . فلما دخلوا الكوفة أتوا إلى عاصم بن يونس العجلى ، وكان قد اتهم بالدعوة للعباسيين ، فحبسوه هو وعيسى وإدريس ابنى معقل العجلى ، وكان يوسف بن عمر والى العراق قد حبسهم مع من حبس من عمال خالد القسرى . وكان أبو مسلم يقوم بخدمة ابنى العجلى . ولما رأى سليمان بن كثير ومن معه أبا مسلم ، توسموا فيه مخايل الذكاء ، ودعوه إلى الانضمام إلى الدعوة العباسية .

وقد قيل إن أبا مسلم لما قوى أمره ادعى أنه ولد سليط بن عبد الله بن العباس . وكانت لسليط هذا جارية ادعى ابنها أنه من ولد عبد الله بن العباس . ولما مات سليط نازع ورثته فى ميراثه ، فسر بنو أمية ، ليتخذوا من ذلك سبباً للحط من شأن على بن عبد الله بن العباس ، فأعانوه ، وقضى له القاضى فى دمشق بالميراث ، ولما قويت شوكة أبى مسلم ادعى أنه من ولد سليط .

وقيل إن أبا مسلم كان من الرقيق ، وإن اتصاله ببنى العباس يرجع إلى بكير ابن ماهان داعى العباسيين الذى قدم الكوفة حيث حبس . فدعا أبا مسلم إلى الانضمام للدعوة واشتراه من ابنى معقل العجلى بأربعمائة درهم ؟ ولما خرجوا من السجن بعث بكير بن ماهان بأبى مسلم إلى إبراهيم الإمام ، فأنفذه إلى أبى موسى السراج .

فى سنة ١٢٨ ﻫ تسلم أبو مسلم الخراسانى مقاليد الأمور فى خراسان . وكان من أسباب سقوط الأمويين شبوب نار العصبية بين المضرية واليمانية فى خراسان وضعف قوة أمير هذه البلاد ، وخروج الخوارج فى اليمن وحضرموت .

وقد ظل أبو مسلم فى خراسان إلى أن كتب إبراهيم الإمام إلى أبى سلمة الخلال داعية العباسيين فى الكوفة ، يعلمه أنه أرسل أبا مسلم إلى خراسان ، وأنه أمر أهلها بالسمع والطاعة له ، وكتب الإمام إلى أبى مسلم كتاباً يقول فيه : « إنك رجل منا أهل البيت ، أحفظ وصيتى : أنظر إلى هذا الحى من اليمن ، فالزمهم واسكن بين أظهرهم ، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم . واتهم ربيعة فى أمرهم ، وأما مضر فإنهم العدو القريب الدار . وأقتل من شككت فيه ، وإن استطعت ألا تبقى بخراسان من يتكلم العربية فافعل . وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله ، ولا تخالف هذا الشيخ (يعنى سليمان بن كثير) ، ولا تعصه ، وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به منى » .

وقد ساعدت الاضطرابات التى انتشرت فى خراسان فى ذلك الحين أبا مسلم الخراسانى على تحقيق سياسته .

وفى عهد هشام بن عبد الملك اشتعلت نيران العصبية بين القبائل العربية فى خراسان فى عهد ولاية أسد بن عبد الله القسرى ، وكان يمانياً ضلعه مع اليمانيين ، الذين آثرهم على غيرهم من العرب وأسند إليهم مناصب الدولة . ثم ولى هذه البلاد نصر بن سيار ، وكان مضرياً ، فأقصى اليمانيين ، وأثار بذلك عوامل الشقاق بين هذين العنصرين . وكانت الحرب بين نصر بن سيار والى خراسان ، وجديع بن شبيب المعروف بالكرمانى زعيم اليمانية الذين تمت الغلبة لهم ، وطردوا والى خراسان ، وناوءوا الحكومة الأموية ، وناصروا الدعوة العباسية بعد انضمام أبى مسلم إليها . واستطاع أبو مسلم بحسن دهائه أن يضرب كل فريق بالآخر ، وتم له النصر على العرب جميعاً .

وعرف أبو مسلم ، بما أوتيه من الحذق والمهارة الحربية ، كيف يستفيد من ذلك الانقسام الذى فرق كلمة العرب فى خراسان . كما استطاع أن يرابط بجنده سبعة

أشهر فى ظاهر مدينة مرو قاعدة خراسان ، استمال خلالها اليمانيين وضمهم إلى صفوفه وبذلك تمكن من الاستيلاء على تلك البلاد دون أن يعرض جيشه الصغير للهزيمة . ولم يكد يتم له النفوذ هناك ، حتى عمد إلى التخلص من شيوخ القبائل الذين كانوا ينازعونه السيادة ، فقتلهم عن آخرهم .

وقد أدرك نصر بن سيار والى خراسان مدى خطر دعاة العباسيين فى هذه البلاد ، فأرسل إلى مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية كتابا يكشف له فيه عن قوة أبى مسلم وضعف الجند الأموى فى خراسان ، وختم كتابه بهذه الأبيات :

أرى بين الرماد وميض جمر ... فأخشى بأن يكونَ له ضرام
فإن النار بالعودَيْن تذْكى ... وإن الحرب أولُها الكلام
فقلت من التعجب : ليت شعرى ... أأيقاظٌ أمية أم نيام ؟

فعندئذ عمت الثورة التى انتهت بزوال الدولة الأموية . وإلى القارىء ما ذكره أبو حنيفة الدنيورى[1] ، لعله يبين حال الأمة العربية فى ذلك الحين ، قال : « وانجفل الناس على أبى مسلم : من هراة وجوشنج ومرو الروذ والطالقان ومرو ونسا وأبيورد وطوس وسرخس وبلخ والصغانيان وطخارستان وختلان وكش ونسف ، فتوافوا جميعاً مسودى الثياب[2] . وقد سودوا أنصاف الخشب التى كانت معهم ، وسموها « كافركوبات» وأقبلوا فرساناً وحمارة يسوقون حميرهم ويزجرونها « هر مروان » يسمونها لمروان بن محمد ، وكانوا زهاء مائة ألف رجل » .

ظل أمر العباسيين سراً لا يعلمه إلا النقباء من شيعتهم ، حتى وقع فى يد مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية . كتاب إبراهيم الإمام إلى أبى مسلم يأمره فيه بقتل كل من يتكلم العربية بخراسان ، فأدى هذا الحادث إلى القبض على إبراهيم الإمام أنه لا نجاة له ، ولى عهده أخاه أبا العباس عبد الله بن محمد ، وأوصاه بمواصلة

---

(١) الأخبار الطوال ص ٣٦٠ .

(٢) راجع ما ذكره فان فلوتن (السيادة العربية ص ١٢٤ — ١٢٦) عن اتخاذ الخلفاء العباسيين السواد شعاراً لهم .

الدعوة والمسير إلى الـكوفة . ولما قتل إبراهيم الإمام سار رسوله إلى الحميمة ، وسلم وصيته إلى أبى العباس ، فتوجه هذا إلى الـكوفة ، ومعه كبار بنى هاشم من ولد العباس ، وفيهم أخوه أبو جعفر المنصور ، وابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد ، وعمه عبد الله بن على .

بعد ذلك حلت الهزيمة بيزيد بن عمر بن هبيرة قائد الأمويين بظاهر الـكوفة ، وأرغم على السير إلى واسط ، فجاء أبو سلمة ، ونزل بجنده بمدينة الـكوفة فى أوائل سنة ١٣٢ هـ من غير أن يلقى مقاومة تذكر .

وفى أواخر هذه السنة خفق العلم الأسود شعار العباسيين فوق حصون دمشق ، بعد أن دالت فيها دولة الأمويين . ولما آلت الخلافة إلى أبى العباس عهد إلى عمه عبد الله بن على بقتال مروان بن محمد ، فتبعه إلى نهر الزاب الأصغر بالعراق ، وقتل وأغرق كثيراً من أصحابه ، من بينهم نحو ثلثمائة من بنى أمية ، منهم إبراهيم بن الوليد ابن عبد الملك المخلوع أخو يزيد الناقص (١١ جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ) . ثم مضى مروان إلى الموصل حيث هزم وفر إلى حران واتخذها داراً لإقامته ، ثم عبر الفرات ، فنزل عبد الله بن على على بابها ، واستولى على خزائن مروان ، وكان قد رحل إلى فلسطين والأردن ، فأحل به عبد الله الهزيمة . ثم سار إلى دمشق فحاصرها ، وهزم الوليد بن معاوية بن عبد الملك فى خمسين ألفاً ، وقتل عدداً كبيراً من بنى أمية وأنصارهم .

بعد ذلك لحق مروان بن محمد بمصر ، ونزل عبد الله بن على على نهر أبى فطرس بفلسطين (١٥ ذو القعدة سنة ١٣٢ هـ) . ثم رحل مروان إلى الفسطاط ، فـكتب أبو العباس إلى عمه عبد الله بن على ليولى صالح بن على العباسى قتال مروان ، فسار حتى لحق به فى قرية بوصير من أعمال الفيوم ، وهجم جند العباسيين على عسكره ، وضربوا الطبول وكبروا ونادوا : يالثارات إبراهيم ! يعنون إبراهيم الإمام الذى سمه الأمويون فى حران . وقتل مروان ليلة الأحد لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ١٣٢ هـ وأخذ رأسه وأرسل إلى السفاح فى الـكوفة ، وانتهت بذلك الدولة الأموية ، وقامت الدولة العباسية على يد أبى العباس السفاح .

خلفاء العصر العباسى الأول

هجرية		ميلادية
١٣٢	السفاح	٧٥٠
١٣٦	المنصور	٧٥٤
١٥٨	المهدى	٧٧٥
١٥٩	الهادى	٧٨٥
١٧٠	الرشيد	٧٨٦
١٩٣	الأمين	٨٠٩
١٩٨	المأمون	٨١٣
٢١٨	المعتصم	٨٣٣
٢٢٧	الواثق	٨٤٢
٢٣٢		٨٤٧

العباس
عبد الله
على
سليمان — موسى — عبد الله — محمد
محمد: ٢ المنصور — ١ السفاح — إبراهيم
٢ المنصور: ٣ المهدى
٣ المهدى: إبراهيم — المنصور — ٥ الرشيد — ٤ الهادى
٥ الرشيد: ٨ المعتصم — ٧ المأمون — ٦ الأمين
٨ المعتصم: ١٠ المتوكل — ٩ الواثق — محمد

الباب الثاني

خلفاء العصر العباسي الأول

نتكلم فى هذا الباب على خلفاء العصر العباسى الأول (١٣٢ — ٢٣٢ هـ) ، فنقصر كلامنا على ترجمة كل من هؤلاء الخلفاء ، وعلى أهم الأحداث التى وقعت فى عهده .

حكمت الدولة العباسية زهاء خمسة قرون ، من سنة ١٣٢ هـ ، وهى السنة التى ولى فيها أبو العباس السفاح الخلافة ، إلى أن زالت هذه الدولة من بغداد على أيدى التتار سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) . وفى ذلك يقول صاحب الفخرى [1] : « واعلم — علمت الخير — أن هذه الدولة من كبار الدول ، ساست العالم سياسة ممزوجة بالدين والملك ، فكان أخيار الناس وصلحاؤهم يطيعونها تديناً ، والباقون يطيعونها رهبة أو رغبة ، ثم مكثت فيها الخلافة والملك حدود ستمائة سنة » .

وقال فى موضع آخر [2] : « إلا أنها كانت دولة كثيرة المحاسن جمة المكارم ، أسواق العلوم فيها قائمة ، وبضائع الآداب فيها نافقة ، وشعائر الدين فيها معظمة ، والخيرات فيها دارة ، والدنيا عامرة ، والحرمات مرعية ، والثغور محصنة وما زالت على ذلك حتى كانت أواخرها ، فانتشر الجبر ، واضطرب الأمر وانتقلت الدولة » .

أبو العباس السفاح

(١٣٢ — ١٣٦ / ٧٥٠ — ٧٥٤)

كان أول من جلس على عرش الدولة العباسية أبو العباس عبد الله بن محمد ابن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم . وكان أبوه محمد أول من

---

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٢٥

(٢) المصدر نفسه ص ١٣٤

اضطلع بنشر الدعوة العباسية فى أواخر العصر الأموى حتى مات سنة ١٢٥ هـ . وكان قد أوصى بالإمامة من بعده لابنه إبراهيم : وفى عهد إبراهيم دخل النزاع بين بنى أمية وبنى العباس فى طور جديد هو دور العمل (١٢٧ هـ) كما تقدم .

ولما قبض على إبراهيم الإمام وحبس فى حران ثم قتل ، انتقلت أسرته إلى الكوفة (صفر سنة ١٣٢ هـ) واستتروا بضعة أسابيع ، حتى أخرجهم أتباعهم ، وسلموا على أبى العباس بالخلافة ، لأن أمه كانت عربية ، وعدلوا عن أخيه أبى جعفر مع أنه كان أكبر منه لأن أمه كانت أم ولد ، وكان ذلك فى اليوم الثالث من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين ومائة .

وفى يوم الجمعة أقام السفاح الخطبة فخطب على المنبر قائماً ، وكان بنو أمية يخطبون قعوداً فحياه الناس ، وقالوا : أحييت السنة يابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد نوه أبو العباس فى خطبته بفضل آل محمد ، وندد بالأمويين لاغتصابهم الخلافة ولما اقترفوه من آثام وذنوب ضد أهل البيت ، وأنحى باللائمة على جند الشام ، وأطنب فى مدح أهل الكوفة ، وزاد فى أعطياتهم لاخلاصهم وولائهم لبيت العباس ، وأفاض فى مدح أهل خراسان الذين ساعدوه على إقامة دولته . وختم خطبته بقوله : أنا السفاح [1] المبيح ، والثائر المبير » ، مما يشعر فى بادىء

---

(١) ناقش الأستاذ نيكلسون (p-253, note I:) لفظ السفاح فقال : « لقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن السفاح معناه الرجل الكثير العطايا أو المناح . ومع كل فإنه مما يهمنا ملاحظته أن هذا الاسم قد أطلق على بعض شيوخ القبائل فى الجاهلية . ويقول إن سلمة ابن خالد الذى قاد بنى تغلب فى موقعة يوم الكلاب الأولى سمى السفاح ، لأنه أفرغ مزاد جيشه قبل الموقعة . والذى أميل إليه أنه سمى بهذا الإسم لقوله فى أول خطاب له : « فأنا السفاح المبيح والثائر المبير » .

ونحن نميل إلى الأخذ بأن لفظ السفاح إنما أطلق وشاع عن أبى العباس بعد هذه الخطبة ، لما قام به من سفك دماء الامويين وغيرهم من الخارجين على الدولة . ولا يبعد أن يكون قصده من عبارة السفاح المناخ ، أنه يتوعد أهل الكوفة لما أظهروه فى ماضى أيامهم من تغير فى الاهواء والميول وأن يتوعد غيرهم من أعدائه ، ولا سيما الأمويين الذين صمم على التنكيل بهم لما اقترفوه من الآثام والذنوب ، وتبشيره من يقوم بنصرته بإدرار العطايا والأموال لهم . وقد ذكر السيوطى (تاريخ الخلفاء ص ١٨٠) أن النبى قال : يخرج رجل من أهل بيتى عند انقطاع من الزمان وظهور من الفتن يقال له السفاح ، فيكون إعطاؤه المال حثياً .

الرأى أنه عول على سفك دماء كل من يقف فى سبيله (١) .

ثم نزل أبو العباس ، وداود بن على أمامه حتى دخل القصر وأجلس أبا جعفر ليأخذ البيعة على الناس فى المسجد . فلم يزل يأخذها عليهم حتى صلى بهم العصر ثم صلى بهم المغرب وجنهم الليل فدخل .

ولما تمت البيعة لأبى العباس السفاح ، تحول إلى الأنبار ، غربى نهر الفرات ، وبينها وبين بغداد عشرة فراسخ : وقد أسسها سابق بن هرمز أحد ملوك الفرس ، فجاء السفاح فجددها وأقام بها القصور . ثم بنى المنصور فى جوارها قصراً فخماً اتخذه دار ملكه ، فسميت هذه المدينة « الهاشمية » نسبة إلى هاشم جد هذه الأسرة .

وقد قضى السفاح معظم عهده فى محاربة قواد العرب الذين ناصروا بنى أمية ، وقضى على أعقاب الأمويين ، حتى إنه لم يفلت منهم إلا عبد الرحمن الداخل ، الذى أسس الدولة الأموية ببلاد الأندلس . وكذلك وجه السفاح همته إلى الفتك بمن والوه وساعدوه على تأسيس دولته ، فقتل أبا سلمة الخلال ، وهم بقتل أبى مسلم لولا أن عاجلته منيته ، كما قتل ابن هبيرة أحد قواد مروان بن محمد الأموى بعد أن أعطاه الأمان .

أخلاق السفاح وصفاته :

يقول المسعودى (٢) عن أبى العباس السفاح : « إنه كان جميلا وسيما » ، ويقول صاحب الفخرى (ص ١٣٤) : إنه كان كريماً حليما وقوراً ، عاقلا كاملا ، كثير الحياء ، حسن الأخلاق » . ويقول السيوطى (٣) : « وكان السفاح أسخى الناس ، ماوعد عدة فأخرها عن وقتها ، ولا قام من مجلسه حتى يقضيها . وقال عبد الله ابن الحسن العلوى مرة : سمعت بألف ألف درهم وما رأيتها قط . فأمر بها

---

(١) انظر الملحق الأول

(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢١٥

(٣) تاريخ الخلفاء ص ١٧١

فأحضرت ، وأمر بحملها معه إلى منزله . وكان نقش خاتمة : « الله ثقة عبد الله وبه يؤمن » ويؤثر عنه قوله : إن من أدنياء الناس ووضعائهم من عد البخل حزماً والحلم ذلا ، وقوله : إذا كان الحلم مفسدة كان العفو معجزة والصبر حسن ، إلا على ما أوقع الدين وأوهن السلطان ، والأناة محمودة إلا عند إمكان الفرصة .

ويقول الطبرى (١) : كان السفاح جعد الشعر ، طويلا أبيض ، أقنى الأنف ، حسن الوجه واللحية .

وقال المسعودى (٢) : « ولم يكن أحد من الخلفاء يحب مسامرة الرجال مثل أبى العباس السفاح . وكان كثيراً مايقول : إنما العجب ممن يترك أن يزداد علماً ، ويختار أن يزداد جهلا ، فقال له أبو بكر الهذلى : ما تأويل هذا الكلام يا أمير المؤمنين ؟

قال : يترك مجالسه مثلك وأمثال أصحابك ، ويدخل إلى امرأة أو جارية ، فلا يزال يسمع سخفاً ويروى نقصاً ، فقال له الهذلى : لذلك فضلكم الله على العالمين وجعل منكم خاتم النبيين .

وكان السفاح يشجع الأدب والغناء ، ويجزل العطاء على الشعراء والمغنين ، فقد دخل عليه أبو بجيلة الشاعر ، فسلم عليه وقال : عبدك ياأمير المؤمنين وشاعرك ، أفتأذن لى فى إنشادك ؟ فقال له السفاح : لعنك الله ! ألست القائل فى مسلمة ابن عبد الملك بن مروان :

أمسلم إنى يابن كل خليفة ويافارس الهيجا وياجبل الأرض ؟

فقال الشاعر : أنا يا أمير المؤمنين الذى أقول :

فكلما قد قلتُ فى سواكا زورٌ وقد كفَّرَ هذا ذاكا
إنا انتظرنا قبلها أباكا ثم انتظرنا بعدها أخاكا
ثم انتظرناك لها إياكا فكنتَ أنت للرجاء ذاكا

---

(١) جـ ٩ ص ١٥٤
(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢١٧

فرضى السفاح عنه وأجزل له العطاء .

وكان السفاح يطرب من وراء الستر ويصيح بالمطرب له من المغنين : أحسنت والله فأعد هذا الصوت . وكان لا ينصرف عنه أحد من ندمائه ولا مطربيه إلا بصلة من مال أو كسوة ، ويقول : لا يكون سرورنا معجلا ومكافأة من سرنا وأطربنا مؤجلا . على أنه سرعان ما احتجب عن ندمائه .

وكان السفاح إذا أحضر طعامه أبسط ما يكون وجهاً ، فكان إبراهيم بن مخرمة الكندى إذا أراد أن يسأله حاجة أخرها حتى يحضر طعامه ثم يسأله . فقال له السفاح يوماً : يا إبراهيم ما دعاك إلى أن تشغلنى عن طعامى بحوائجك ؟ قال : يدعونى إلى ذلك التماس التجح لما أسأل . قال أبو العباس : إنك لحقيق بالسؤدد لحسن هذه الفطنة(1) .

ويحدثنا المسعودى(2) عن زواج السفاح قبل توليته الخلافة من أم سلمة . وكانت قد تزوجت من عبد الله بن الوليد بن المغيرة المخزومى ، فمات وتزوجت بعده من عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك الأموى فمات . فبينا هى ذات يوم ، إذ مر بها أبو العباس السفاح ، وكان جميلا وسيما ، فسألت عنه . وأرسلت له مولاة لها تعرض عليه أن يتزوجها ، وقالت لمولاتها : قولى له : هذه سبعمائة دينار أوجه بها إليك . وكانت تمتلك كثيراً من المال والحشم والجواهر . فأتته المولاة وعرضت عليه ذلك ، فقال السفاح : أنا مملق لا مال عندى ، فدفعت إليه المال ، وأقبل إلى أخيها وطلب إليه أن يزوجه منها ، فزوجه إياها ، فأصدقها خمسمائة دينار . وأهدى من يلوذ بها مائتى دينار ، وزفت إليه فى ثياب موشاة بالجواهر ، وحظيت عنده حتى أصبح لا يقطع أمراً إلا بمشورتها حتى أفضت الخلافة إليه .

فلما كان ذات يوم فى خلافته ، خلا به خالد بن صفوان ، فقال له : يا أمير المؤمنين ! إنى فكرت فى أمرك وسعة ملكك ، وقد ملكت نفسك امرأة واحدة ، فإن مرضت مرضت وإن غابت غبت وحرمت نفسك التلذذ باستطراف

---

(1) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢١٨ .

(2) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢١٥ — ٢١٧ .

الجوارى ومعرفة أخبار حالتهن والتمتع بما تشتهى منهن . فإن منهن يا أمير المؤمنين الطويلة الغيداء ، وإن منهن البضة البيضاء ، والدقيقة السمراء ، والبربرية العجزاء من مولدات المدينة تفتن بمحادثتها . وجعل خالد يجيد فى الوصف ويجد فى الإطناب بحلاوة لفظه وجودة وصفه . فلما فرغ كلامه . قال أبو العباس : ويحك يا خالد ! ما صك مسامعى والله كلام أحسن مما سمعته منك . فأعد على كلامك ، فقد وقع منى موقعاً . فأعاد عليه خالد أحسن مما ابتدأه . ثم انصرف .

وبقى السفاح مفكراً فيما سمع منه . فدخلت عليه زوجته أم سلمة ، فلما رأته مفكراً مغموماً قالت : إنى لأنكرك يا أمير المؤمنين ، فهل حدث أمر تكرهه أو أتاك خبر فارتعت له . قال : لم يكن من ذلك شىء ، قالت : فما قصتك ؟ فجعل ينزوى عنها ، فلم تزل به حتى أخبرها بحديث خالد . فقالت : فما قلت لابن الفاعلة ؟ قال لها : سبحان الله ينصحنى وتشتمينه ؟ وخرجت من عنده مغضبة وأرسلت إلى خالد جماعة من النجارية وأمرتهم ألا يتركوا منه عضواً صحيحاً . قال خالد : فانصرفت إلى منزلى وأنا على السرور بما رأيت من أمير المؤمنين وإعجابه بما ألقيت إليه ، ولم أشك أن صلته ستأتينى : فلم ألبث حتى سارا إلى أولئك النجارية وأنا قاعد على باب دارى . فلما رأيتهم قد أقبلوا نحوى ، أيقنت بالجائزة واصلة ، حتى وقفوا على فسألوا عنى ، فقلت : ها أنذا خالد ، فسبق إلى أحدهم بهراوة كانت معه . فلما أهوى بها على وثبت فدخلت منزلى وأغلقت الباب على واستترت ، ومكثت أياماً على تلك الحال لا أخرج من منزلى ، ووقع فى خلدى أنى أتيت من قبل أم سلمة ، وطلبنى السفاح طلباً شديداً ، فلم أشعر ذات يوم إلا بقوم هجموا على وقالوا : أجب أمير المؤمنين . فأيقنت بالموت ، فركبت وليس على لحم ولا دم .

فلما وصلت إلى الدار أومأ إلى بالجلوس ، ونظرت فإذا خلف ظهرى باب عليه ستور قد أرخيت ، وحركة خلفها ، فقال : يا خالد ! لم أرك منذ ثلاث ، قلت : كنت عليلا يا أمير المؤمنين ، قال : ويحك ! إنك وصفت لى فى آخر دخلة من أمر النساء والجوارى ما لم يخرق مسامعى قط كلام أحسن منه ، فأعده على ، قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، أعلمتك أن العرب اشتقت اسم الضرة من الضر ، وأن أحدهم

ما تزوج من النساء أكثر من واحدة إلا كان فى جهد ، فقال : ويحك ! لم يكن هذا فى الحديث . قلت : بلى والله يا أمير المؤمنين ، وأخبرتك أن الثلاث من النساء كأنهن القدر يغلى عليهن . قال أبو العباس : برئت من قرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم إن كنت سمعت هذا الكلام منك فى حديثك . قال : وأخبرتك أن الأربع من النساء صحيح لصاحبهن . يشيبنه ، ويهدمنه ويسقمنه . قال : ويلك ! ما سمعت هذا الكلام منك ولا من غيرك قبل هذا الوقت .

قال خالد : بلى والله ، قال : ويلك ! وتكذبنى ؟ قال : وتريد أن تقتلنى يا أمير المؤمنين ؟ قال : مر فى حديثك . قال : وأخبرتك أن أبكار الجوارى رجال ، ولكن لا خصى لهن ، قال خالد : فسمعت الضحك من وراء الستر ، فقلت : نعم وأخبرتك أيضاً أن بنى مخزوم ريحانة قريش ، وأنت عندك ريحانة من الرياحين ، وأنت تطمح نفسك إلى حرائر النساء وغيرها من الإماء . قال خالد : فقيل لى من وراء الستر : صدقت والله يا عماه وبررت ، بهذا حدثت أمير المؤمنين ، ولكنه بدل وغير ونطق عن لسانك . فقال له أبو العباس : مالك قاتلك الله وأخزاك وفعل بك وفعل ! فتركته وخرجت وقد أيقنت بالحياة ، فما شعرت إلا برسل أم سلمة قد ساروا إلى ومعهم عشرة آلاف درهم وتخت وبرذون وغلام .

بقى السفاح فى الخلافة أربع سنين وتسعة أشهر ، ومات بالجدرى فى مدينة الأنبار التى اتخذها قاعدة لخلافته ، وذلك يوم الأحد لاثنى عشرة ليلة خلت من شهر ذى الحجة سنة ١٣٦ ﻫ ، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وقيل ابن تسع وعشرين .

أبو جعفر المنصور

(١٣٦ — ١٥٨ / ٧٥٤ — ٧٧٥)

ولد أبو جعفر عبد الله بن محمد بن على العباسى سنة ١٠١ ﻫ فى الحميمة من أرض الشراة على مقربة من العقبة ، وذلك فى أواخر خلافة عمر بن عبد العزيز . وأمه سلامة البربرية (١) . وقد تربى وسط كبار الرجال من جلة بنى هاشم ، وصحب أباه

---

(١) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٤٣٦ . وقيل أن أمه سلامة بنت بشير من مولدات البصرة =

وجده فنشأ أديباً فصيحاً ، ملماً بسير الملوك والأمراء[1] . واستعان السفاح بأبى جعفر فى التخلص من أبى سلمة الخلال لأنه كان يعمل على تحويل الخلافة إلى العلويين ، وأرسله إلى خراسان لاستطلاع رأى أبى مسلم فى قتل أبى سلمة ، فتم له ما أراد . ثم وجه أبو العباس أخاه أبا جعفر إلى خراسان لأخذ البيعة له وتوليته العهد من بعده . ولكن قتل أبى مسلم سليمان بن كثير ، على الرغم من وجود أبى جعفر بخراسان ، قد أثار حفيظته وحنقه ، حتى إنه أشار على الخليفة بقتل أبى مسلم قبل أن يستفحل خطره فى الدولة . ولكن أبا العباس خاف أن يؤدى هذا القتل إلى إثارة غضب الخراسانيين على الأخذ بثاره .

كذلك استعان أبو العباس السفاح بأخيه أبى جعفر فى مقاتلة يزيد بن عمر بن هبيرة قائد مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية وزعيم العرب فى ذلك الوقت . وعلى الرغم من إعطاء أبى العباس الأمان له قتله قبل أن يجف مداد ذلك الأمان . وقد قيل إن أبا مسلم الخراسانى أرسل إلى السفاح كتاباً يشير فيه بقتل أبى هبيرة ، وختم كلامه بقوله : « إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد ، لا والله لا يصلح أمر فيه ابن هبيرة » وكان أبو جعفر يرى عدم قتله .

وفى سنة ١٣٢ هـ ولى السفاح أبا جعفر الجزيرة وأذربيجان وأرمينية[2] ، وفى سنة ١٣٦ هـ ولاه السفاح إمارة الحج . ثم توفى السفاح ، وكان قد عهد بالخلافة من بعده إلى أخيه أبى جعفر ، ثم إلى عيسى بن موسى بن محمد بن على ، وكتب بذلك العهد ، وختم عليه بخاتمه ، وشهد بذلك أهل بيته ، وسلمه إلى عيسى بن موسى بن محمد العباسى[3] .

أرسل عيسى بن موسى إلى أبى جعفر يعلمه بموت أبى العباس السفاح وأخذ

= (المسعودى التنبيه والإشراف ص ٣٤٠) وقيل أيضاً ريطة الحارثية أم السفاح ، وهذا غير صحيح .

(١) المسعودى . مروج الذهب ج ٢ ص ١٨١ .

(٢) الطبرى ج ٩ ص ١٤٧ .

(٣) المصدر نفسه ج ٩ ص ١٥٤ .

البيعة له ، فلقيه الرسول بمكان يقال له زكية . فلما جاءه الكتاب دعا الناس فبايعوه ، وبايعه أبو مسلم وقال أبو جعفر : « أين موضعنا هذا ؟ قالوا : زكية ، فقال : أمر يزكى لنا إن شاء الله تعالى[1] » .

وفى أيام المنصور حدثت أحداث خطيرة : من ذلك حرج مركز العباسيين بين الساخطين من العرب وعلى رأسهم عمه عبد الله بن على والساخطين من الفرس وعلى رأسهم أبو مسلم الخراسانى مؤسس الدولة العباسية نفسه . ولكن المنصور استطاع بحزمه وكيده أن يقهر العرب ويأسر عمه ثم يقتله . وأن يقهر الفرس ويقتل أبا مسلم ، كما استطاع المنصور أن يقهر العلويين ويقتل محمداً (النفس الزكية) بن عبد الله بن الحسن فى الحجاز ، وأخاه إبراهيم فى العراق .

خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد — البيعة للمهدى :

ومن الأحداث الخطيرة التى وقعت فى عهد أبى جعفر المنصور ، خلع عيسى بن موسى ابن محمد العباسى من ولاية العهد ، وأخذ البيعة للمهدى بن المنصور .

وقد ذكر صاحب الفخرى[2] كيفية خلع عيسى فقال : « اختلف أرباب السير فى كيفية خلعه ، فقيل إن المنصور التمس منه ذلك ، وكان يكرمه ويجلسه عن يمينه ، ويجلس المهدى عن يساره . فلما فاوضه المنصور فى خلع نفسه قال : يا أمير المؤمنين ! كيف أصنع بالأيمان التى فى رقبتى وفى رقاب الناس ، بالعتاق والطلاق والحج والصدقة ؟ ليس إلى الخلع سبيل . فتغير المنصور عليه وباعده بعض المباعدة ، وصار يأذن للمهدى قبله ، ويجلسه دون المهدى . وصار يتقصد أذاه . فكان يكون عيسى بن موسى جالساً ، فيحفر الحائط الذى يليه وينتثر التراب على رأسه ، فيقول لبنيه تنحوا . ثم يقوم هو فيصلى والتراب ينثر عليه ، ثم يؤذن له فيدخل على المنصور والتراب عليه لا ينفضه ، فيقول له المنصور : ياعيسى ! ما يدخل على أحد

---

(١) ذكر الطبرى فى رواية أخرى أن البيعة قد وردت على أبى جعفر بعد الحج فى منزل من منازل طريق مكة يقال له « صيف » فتفاءل باسمه ، وقال : صفت لنا إن شاء الله تعالى .

(٢) ص ١٥٥ — ١٥٦ .

بمثل ما تدخل أنت به من الغبار والتراب ، أفكل هذا من الشارع ؟ فيقول عيسى : أحسب ذلك ياأمير المؤمنين ، ولا يشكو .

وقيل إنه سقاه بعض ما يتلفه ، فمرض مدة ، ثم أفاق منه . فلم يزل هـذا الأذى يتكرر عليه حتى خلع نفسه وبايع . وقيل بل وضع المنصور الجند فصاروا يشتمون عيسى بن موسى إذا رأوه وينالون منه . فلما شكا ذلك إلى المنصور قال له : يابن أخى ! إنى والله أخافهم عليك وعلى نفسى ، فإنى قد أشربت قلوبهم حب ذلك الفتى ، يعنى المهدى ، فلو قدمته بين يديك . فخلع عيسى نفسه ، وبايع المهدى . ولما رآه بعض أهل الكوفة وقد جعل المهدى قدامه فى الخلافة ، وصار هو بعده ، قال هـذا الذى كان غداً فصار بعد غد . وقيل بل اشتراها المنصور منه بمال مبلغه أحد عشر ألف ألف درهم ، وقيل بل أرسل إليه خالد بن برمك فأخذ معه جماعة من أهل المنصور ، نحو ثلاثين رجلا ، ومضى إلى عيسى ، فخاطبه فى أن يخلع نفسه . فأبى . فلما أبى قال خالد للجماعة : تشهد عليه فى أنه قد خلع نفسه ، ونحقن بذلك دمه ، ولكن هذه الفتنة ، فشهدوا عليه بذلك ، فقامت البينة به ، وأنكر عيسى فلم يلتفت إليه ، وتم خلعه وبويع للمهدى .

وبعد أن أخذت البيعة للمهدى ، أوصاه أبوه المنصور وصية تكشف عن السياسة التى وضعها لابنه ، ليسير عليها فى سياسة رعيته ، مسلمهم وذميهم ، فحثه على الرأفة بهم ، والسهر على راحتهم ، وبسط العدل بينهم ، والتقرب إلى الله بحسن السيرة ، وإجلال أهل العلم والدين ، وعمارة الأرض لتخفيف الخراج ، ونشر الإسلام ، والجهاد فى سبيل إعلاء كلمته[١] .

وقد ذكر المسعودى[٢] أن عمرو بن عبيد دخل على المنصور بعد أن بايع لابنه المهدى فقال له : يا أبا عثمان ! هذا ابن أمير المؤمنين ولى عهد المسلمين . قال له عمرو : يا أمير المؤمنين ! أراك قد وطدت له الأمور ، وهى تصير إليه ، وأنت عنه مسئول ،

---

(١) أنظر الملحق الثالث .

(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٥٣ .

فابستعبر المنصور وقال له : عظنى يا عمرو ، قال : يا أمير المؤمنين ! إن الله أعطاك الدنيا بأسرها ، فاشتر نفسك منهـا ببعضها ، وإن هذا الذى فى يديك لو بقى فى يد غيرك لم يصل إليك ، فاحذر ليلة تمخض بيوم لا ليلة بعده .

أخلاق المنصور وصفاته — وفاته :

ذهب بعض المؤرخين إلى القول إن المنصور كان أعظم الخلفاء العباسيين شدة وبأساً ويقظة وحزماً وصلاحاً واهتماماً بمصالح الرعية وجداً فى بلاطه . وهو يعتبر بحق المؤسس الثانى للدولة العباسية كما كان عبدالملك بن مروان بالنسبة للدولة الأموية . ولا غرو فإن كلا الرجلين استطاع بمـا أوتيه من حزم وعزم ، أن ينتشل بلاده من عبث العـابثين وخطر الخوارج ، وأن يوطـد دعائم ملـكه على أسس قوية من النظام .

قال الطبرى[1] : « كان المنصور أسمر طويلا نحيفاً خفيف العارضين » ، وكان ميالا بطبيعته إلى النظام الذى هو أساس نجاح الأعمال . فـكان ينظر فى صدر النهار فى أمور الدولة وما يعود على الرعية من خير . فإذا صلى العصر جلس مع أهل بيته ، فإذا صلى العشاء نظر فيما يرد عليه من كتب الولايات والثغور وشاور وزيره ومن حضر من رجالات دولته فيما أراد من ذلك ، فإذا مضى ثلث الليل انصرف سماره ، وقام إلى فراشه ، فنام الثلث الثانى ، ثم يقوم من فراشه فيتوضأ . ويجلس فى محرابه حتى مطلع الفجر ، ثم يخرج فيصلى بالناس ، ثم يدخل فيجلس فى إيوانه ويبدأ عمله كعادته فى كل يوم .

اشتهر المنصور بالجد فى بلاطه ، فلم يعرف عنه ميل إلى اللهو والعبث . روى الطبرى عن حماد التركى أن المنصور سمع يوماً فى داره جلبة ، فقال : ما هذا ياحماد ؟ أنظر ! فذهب فإذا خادم له قد جلس بين الجوارى وهو يضرب لهن بالآلة الموسيقية المعروفة بالطنبور ، وهن يضحكن ، فمشى رويداً رويداً حتى أشرف عليهن . فلما رأينه تفرقن ، فأمر المنصور مولاه بأن يضرب رأس الخـادم بالطنبور ، فلم يزل

---

(١) ج ٩ ص ٢٩٩ .

يضرب به رأسه حتى كسره ، ثم أخرجه المنصور من قصره .

ويحدثنا المسعودى[1] أن المنصور بينما كان جالساً فى مجلسه ، سقط بين يديه سهم فذعر ذعراً شديداً ، ثم أخذه فجعل يقلبه ، فإذا مكتوب عليه بين الريشتين :

أنطمع فى الحياه إلى التناد[2] ... وتحسب أن مالك من نفاد ؟
ستسأل عند ذنوبك والخطايا ... وتسأل بعد ذلك عن العباد

ثم قرأ من الريشة الأولى :

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ... ولم تخف سوء ما يأتى به القدر
وساعفتك الليالى فاغتررت بها ... وعند صفو الليالى يحدث الكدر

ثم قرأ عند الريشة الأخرى :

هى المقادير تجرى فى أعنتها ... فاصبر فليس لها صبر على حال
يوماً تريك خسيس القوم ترفعه ... إلى السماء ويوماً تخفض العالى

وإذا على باب السهم مكتوب : همذان فيها رجل مظلوم فى حبسك ، فبعث المنصور من فوره بعض خاصته ليفتشوا السجون ، فوجدوا شيخاً موثقاً بالحديد ، متوجهاً نحو القبلة يرد هذه الآية « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون »[3] ، فسأله عن بلده ، فقال : همذان ، فحمل ووضع بين يدى المنصور فسأله عن قصته ، فأخبره أنه من أبناء مدينة همذان ، ومن أهل اليسار فيها ، وأن الوالى أراد أن يأخذ منه ضيعته التى تقوم بألف ألف درهم ، فامتنع عن القبول ، فكبله بالحديد ، وحمله ، وكتب إليه أنه عاص ، فكان من أمره ما كان ، وظل على ذلك أربع سنين . فأمر المنصور ففك الحديد عن هذا الرجل وأطلق من حبسه ، وردت إلية ضيعته وولاه همذان . فشكره الرجل ، وقال : يا أمير المؤمنين ! أما الضيعة فقد قبلتها ، وأما الولاية فلا أصلح لها ، وأما واليك فقد عفوت عنه . وعاد هذا الرجل معززاً مكرماً ، وصرف المنصور الوالى عن ولايته وعاقبه على فعلته .

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٣٣ .

(٢) يريد يوم التناد وهو يوم القيامة .

(٣) سورة الشعراء : ٢٢٦ : ٢٢٧ .

وكان المنصور يكره سفك الدماء إلا بالحق فقد بلغه أن عيسى بن موسى قتل رجلا من ولد نصر بن سيار والى مروان بن محمد الأموى ، كان مستخفياً فى الكوفة . فأنكر ذلك على عيسى وهم بقتله ثم عدل عن هذا العمل ، بعد أن بلغه أنه لم يقم بذلك عن سوء نية أو عن موجدة لهذا الرجل ، فكتب إليه أبو جعفر هذا الكتاب يؤنبه فيه على فعلته . ويأمره ألا يعاقب أحداً عن ريبة أو ظنة ، وإنما لثبوت التهمة عليه وتوافر الأدلة على جرمه . وهاك هذا الكتاب بنصه عن الطبرى (١) :

« أما بعد فإنه لو نظر أمير المؤمنين وإستبقاؤه ، لم يؤخرك قتل ابن نصر بن سيار ، واستبدادك به بما يقطع أطماع العمال فى مثله . فأمسك عمن ولاك أمير المؤمنين أمره من عربى وأعجمى وأحمر وأسود ، ولا تستبدن على أمير المؤمنين بإمضاء عقوبة فى أحد قبله تباعة (ظلامة) ، فإنه لا يرى أن يأخذ أحداً بظنة قد وضعها الله عنه بالتوبة ، ولا بحدث كان منه فى حرب أعقبه الله منها سلماً ، ستر به عن ذى غلة ، وحجز به عن محنة ما فى الصدور . وليس ييأس أمير المؤمنين لأحد ولا لنفسه من الله من إقبال مدبر ، كما أنه لا يأمن من إدبار مقبل إن شاء الله والسلام » .

وقد عرف المنصور بالثبات عند الشدائد . ولا شك أن هذه الصفة كانت من أبرز الصفات التى كفلت له النجاح إذا صادفته إحدى الصعوبات ، وكانت كثيرة فى عهده كما تعلم . ومما يسجل للمنصور بالفخر والإعجاب ، قيامه فى وجه من خرجوا عليه من أهل بيته وبين أبناء عمه من العلويين ، فقد تغلب عليهم بفضل هذا الثبات ، ووطد دعائم ملكه بعد أن أصبح قاب قوسين أو أدنى من الوهن والانحلال .

وروى الطبرى (٢) عن الوضين بن عطاء قال : استزارنى أبو جعفر ، وكان بينى وبينه خلالة قبل الخلافة . فصرت إلى مدينة السلام ، فخلونا يوماً . فقال لى :

---

(١) ج ٩ ص ٢٩٤ .

(٢) ج ٩ ص ٢١٢ .

يا أبا عبد الله ! مالك ؟ قلت : الخبر الذى يعرفه أمير المؤمنين ، قال : وما عليك ؟ قلت . ثلاث بنات والمرأة وخادم لهن ، فقال لى : أربع فى بيتك ؟ قلت : نعم ! قال : فو الله لردد ذلك على حتى ظننت أنه سيمولنى ، ثم رفع رأسه إلى ، فقال : أنت أيسر العرب ، أربع مغازل فى بيتك ! » .

ومما يدل على حرص المنصور فى النفقات ما رواه الطبرى[1] عن الفضل بن الربيع ، قال : « وذكر عن على بن محمد بن الفضل بن الربيع ، حدثه أن المنصور لما فرغ من بناء قصره بالمدينة دخله فطاف فيه واستحسنه واستنظفه ، وأعجبه ما رأى فيه ، غير أنه استكثر ما أنفق عليه ، ونظر إلى موضع فيه استحسنه جداً ، فقال لى : اخرج إلى الربيع فقل له : اخرج إلى المسيب فقل له يحضرنى الساعة بناء فارها ، فخرجت إلى المسيب ، فأخبرته ، فبعث إلى رئيس البنائين فدعاه ، فأدخله على أبى جعفر ، فلما وقف بين يديه قال له : كيف عملت لأصحابنا فى هذا القصر ؟ وكم أخذت من الأجرة لكل ألف آجرة ولبنة ؟ فبقى البناء لا يقدر أن يرد عليه شيئاً فخافه المسيب ، فقال له المنصور : مالك لا تتكلم ؟ فقال : لا علم لى يا أمير المؤمنين ، قال : ويحك ! قل وأنت آمن من كل ما تخاف ، قال : يا أمير المؤمنين لا والله ما أقف عليه ولا أعلمه ، فأخذ بيده وقال له : تعال لاعلمك الله خيراً ، وأدخله الحجرة التى استحسنها ، فأراه مجلساً كان فيها ، فقال له : انظر إلى هذا المجلس وابن لى بإزائه طاقاً يكون شبيهاً بالبيت ، لا تدخل فيه خشباً . قال : نعم يا أمير المؤمنين . فأقبل البناء ، وكل من معه يتعجبون من فهمه بالبناء والهندسة ، فقال له البناء : ما أحسن أن أجيء به على هذا ولا أقوم به على الذى تريد ، فقال له : فأنا أعينك عليه . قال : فأمر بالآجر والجص فجيء به ثم أقبل يحصى جميع ما دخل فى بناء الطاق من الآجر والجص : ولم يزل كذلك حتى فرغ منه فى يومه وبعض اليوم الثانى ، فدعا المسيب فقال له : ادفع أجره على حسب ما عمل معك . فحاسبه المسيب فأصابه خمسة دراهم ، فاستكثر ذلك المنصور وقال : لا أرضى إليه بذلك ،

---

(١) ج ٩ ص ٢٦٣

فلم يزل به حتى نقصه درهما ، ثم أخذ المقادير ، ونظر مقدار الطاق من الحجرة حتى عرفه . ثم أخذ الوكلاء والمسيب يحملان النفقات ، وأخذ معه الأمناء من البنائين والمهندسين حتى عرفوه قيمة ذلك ، فلم يزل يحسبه شيئاً فشيئاً ، وحملهم على ما رفع فى أجرة بناء الطاق ، فخرج على المسيب مما فى يده ستة آلاف درهم ونيف . فأخذه بها واعتقله ، فما برح من القصر حتى أداها إليه » .

وكان المنصور حريصاً على جمع المال كما كان أحرص منه على إنفاقه . وكان يغلب عليه الشح حتى ضرب المثل بشحه وحرصه ، فسمى أبا الدوانيق ، والمنصور الدوانيقى ، لتشدده فى محاسبة العمال والصناع على الحبة والدانق ، وهو مقدار لا يزيد على سدس درهم . فإنه لما بنى فى مدينة بغداد كان ينظر فى العمارة بنفسه ، فيحاسب الصناع والأجراء ، فيقول لهذا : أنت نمت القائلة ، ولهذا أنت لم تبكر إلى عملك ، ولغيره : أنت انصرفت ولم تكمل اليوم ، فيعطى كل واحد منهم بحسب ما عمل فى يومه ، فلا يكاد يعطى أجرة يوم واحد .

وقال المسعودى(١) : وكان المنصور من الحزم وصواب الرأى وحسن السياسة على ما تجاوز كل وصف . وكان يعطى الجزيل والخطير ما كان إعطاؤه حزماً ، ويمنع الحقير اليسير ما كان إعطاؤه تضييعاً ، وكان كما قال زياد : لو أن عندى ألف بعير وعندى بعير أجرب ، لقمت عليه قيام من لا يملك غيره . وخلف ستمائة ألف ألف درهم وأربعة عشر ألف ألف دينار . وكان مع هذا يضن بماله وينظر فيما لا ينظر فيه العوام . ووافق صاحب مطبخه على أن له الرءوس والأكارع والجلود وعليه الحطب والتوابل .

وقد وصف صاحب الفخرى(٢) المنصور فى هذه العبارة فقال : كان المنصور من عظماء الملوك وحزمائهم ، وعقلائهم وعلمائهم ، وذوى الآراء الصائبة منهم ، والتدبيرات السديدة ، وقوراً شديد الوقار ، حسن الخلق فى الخلوة ، من أشد الناس احتمالا لما يكون من عبث أو مزاح . فإذا لبس ثيابه وخرج إلى المجلس العام ،

---

(١) مروج الذهب ج٢ ص ٢٤٥ — ٢٤٦ .

(٢) ص ١٤١ — ١٤٢ .

تغير لونه ، واحمرت عيناه ، وانقلبت جميع أوصافه . قال يوماً لبنيه : يا بنى ! إذا رأيتمونى قد لبست ثيابى وخرجت إلى المجلس ، فلا يدنو أحد منى مخافة أن أعره بشىء . قالوا : وكان المنصور يلبس الخشن ، وربما رقع قميصه . وقيل ذلك لجعفر ابن محمد الصادق عليهما السلام ، فقال : الحمد لله الذى ابتلاه بفقر نفسه فى ملكه قالوا : ولم يكن يرى فى دار المنصور لهو ولعب أو ما يشبه اللهو واللعب .

ولى المنصور رجلا من العرب حضرموت ، فكتب إليه صاحب البريد يخبره أنه يكثر الخروج فى طلب الصيد ببزاة وكلاب قد أعدها ، فعزله وكتب إليه : ثكلتك أمك وعدمتك عشيرتك ، ما هذه العدة التى أعددتها للنكاية فى الوحش ؟ إنا إنما استكفيناك أمور المسلمين ولم نستكفك أمور الوحش . سلم ما كنت تلى من عملنا إلى فلان بن فلان والحق بأهلك ملوماً مدحوراً (١) .

وقد عرف المنصور بالفصاحة فى القول والإبانة عن مقصده . فقد روى الطبرى(٢) فى حوادث سنة ١٥٠ هـ أنه خطب ببغداد فى يوم عرفات ، فقال : أيها الناس ! إنما أنا سلطان الله فى أرضه ، أسوسكم بتوفيقه وتسديده ، وأنا خازنه على فيئه ، أعمل بمشيئته ، وأقسمه بإرادته ، وأعطيه بإذنه . فقد جعلنى الله عليه قفلا ، إذا شاء أن يفتحنى لأعطياتكم وقسم فيئكم وأرزاقكم فتحنى ، وإذا شاء أن يقفله أقفلنى فارغبوا إلى الله أيها الناس ، وسلوه فى هذا اليوم الشريف ، الذى وهب لكم فيه من فضله ما أعلمكم به فى كتابه إذ يقول تبارك وتعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » — أن يوفقنى للصواب ، ويسددنى للرشاد ، ويلهمنى الرأفة بكم والإحسان إليكم ، ويفتحنى لأعطياتكم وقسم أرزاقكم بالعدل عليكم إنه سميع قريب !

وقد خطب المنصور الناس بعد قتل أبى مسلم فقال : أيها الناس ! لا تخرجوا عن أنس الطاعة إلى وحشة المعصية ، ولا تسروا غش

---

(١) الطبرى ج ٩ ص ٢٩٧ .

(٢) ج ٩ ص ٣١٠ — ٣١١ .

الأئمـة ، فإن من أسرغش إمامه أظهر الله سريرته فى فلتات لسانه وسقطات أفعاله ، وأبداها الله لإمامه ، الذى بادر بإعزاز دينه به وإعلاء حقه بفلجه . إنا لم نبخسكم حقوقـكم ولم نبخس الدين حقه عليـكم . إنه من نازعنا هـذا القميص أوطأناه مافى هذا الغمد . وإن أبا مسلم بايعنا وبايع لنـا أنه من نـكث بيعتنا فقد أباح دمه لنا ، ثم نـكث بنا هو فحكمنا عليه لأنفسنا حـكمه على غيره لنا ، ولم تمنعنا رعاية الحق من إقامة الحق عليه (١) .

إلا أنه يؤخذ على المنصور ميله لسفك الدماء وإن لم يـكن قد بلغ فى ذلك مابلغه أخوه أبو العباس من قبله . ومما يؤخذ عليه أيضاً غدره بمن أمنه ، الأمر الذى يحط شأنه فى نظر التاريخ . فقد غدر غدرات ثلاثا : غدر بابن هبيرة وقد أعطاه الأمان ، ولم يبد منه مايدعو إلى الفتك به ، وغدر بعمه عبد الله بن على بعد أن أمنه ، وغدر بأبى مسلم بعد أن طمأنه .

ومما يدل على ميله إلى انتهاك حرمة العهود ، معاملته لزوجته ، وكان قد تعهد لها ألا يتزوج عليها ، وشهد الشهود بذلك . فلما ولى الخلافة ، أخـذ يستفتى الفقهاء والقضاة من الأمصار الإسلامية فى فسخ ذلك العقد ، لولا أن وافاها الأجل بعد عشرين سنة من خلافته . ولايخفى ماينطوى تحت هذ العمل من محاولة تعريض فقهائه لمخالفة ضمائرهم وعدم رعاية ذممهم (٢) .

روى الطبرى (٣) فى سبب وفاة المنصور ، أنه خرج سنة ١٥٨ هـ مشيعاً ابنه المهدى حين وجهه إلى الرقة ، فشج فيما بين حاجبيه وصرع من يومه . وكان المنصور يـكثر من الطعام ولا يعمل بنصيحة الأطباء ، حتى أدى ذلك إلى اشتداد علته وأودى بحياته . وقد روى على بن محمد بن سليمان النوفلى عن أبيه قال : كان المنصور لا يستمرىء طعامه ويشـكو ذلك إلى المتطببين ، ويسألهم أن يتخذوا له الجوارشنات . فـكانوا يـكرهون ذلك ويأمرونه أن يقل من الطعام ، ويخبرونه أن الجوارشنات تهضم فى الحال ، وتحدث من العـلة ماهو أشـد

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ١ ص ٢٣٦ .
(٢) الطبرى جـ ٩ ص ٣٠٩ .
(٣) جـ ٩ ص ٢٩٠ — ٢٩٢ .

منه عليه ، حتى قدم عليه طبيب من أطباء الهند ، فقال له كما قال له غيره . فكان يتخذ له سفوفاً جوارشنا يابساً ، فيه الأفاوية والأدوية الحارة . فكان يأخذه فيهضم طعامه . قال النوفلى . قال لى كثير من متطببى العراق : لايموت والله أبو جعفر أبداً إلا بالبطن ، قال : قلت له وماعلمك ؟ قال : هو يأخذ الجوارشن فيهضم طعامه ويخلق من زِئْبر معدته كل يوم شيئاً وشحم مصارينه ، فيموت ببطنه . قال لى : أضرب لذلك مثلا : أرأيت لو أنك وضعت حجراً على مَرفع ، ووضعت تحتها آجرة جديدة فقطرت ، أما كان قطرها يثقب الآجرة على طول الدهر ؟ أو ما علمت أن لكل قطرة حداً ؟ قال كثير : فمات والله أبو جعفر كما قال (يعنى النوفلى) بالبطن .

وروى الطبرى (١) فى سبب موت أبى جعفر المنصور أيضاً ، قال بعضهم : كان بدء وجعه الذى مات فيه ، حر أصابه من ركوبه فى الهواجر ، وكان رجلا محروراً على سنه ، يغلب عليه المرار الأحمر . ثم هاض بطنه ، فلم يزل كذلك حتى نزل بستان ابن عامر ، فاشتد به (أى وجعه) فرحل عنه فقصر عن مكة ، ونزل بئر ابن المرتفع ، فأقام بها يوماً وليلة ، ثم سار منها إلى بئر ميمون . وهى على بعد ستة أيام من مكة ، وهو يسأل عن دخول الحرم يوصى الربيع بما يريد أن يوصيه به . وتوفى به فى السحر أو مع طلوع الفجر ليلة السبت لست خلون من ذى الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة . واختلف المؤرخون فى مبلغ سنه حين توفى ، فقال بعض إنه كان فى الثالثة والستين ، وقال بعض إنه كان فى الرابعة والستين ، وقال بعض آخر إنه بلغ الخامسة والستين ، وذهب بعض إلى أنه بلغ الثامنة والستين (٢) .

وقد ذكر صاحب مختصر تاريخ الخلفاء (٣) (ورقة ٣٠ ب) أن المنصور لما قرب من مكة ، رأى على جدار حائط هذين البيتين وهما :

---

(١) ج ٩ ص ٢٩٢ .

(٢) المصدر نفسه ج ٩ ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .

(٣) ألف هذا الكتاب حول أواخر القرن الثامن الهجرى ولا يعرف مؤلفه إلى الآن .

أبا جعفر حانت وفاتك وانقضت سنوك وأمر الله لابد واقع
أبا جعفر هـل كاهن أو منجم لك اليوم من ريب المنية نافع (١)

ولما قرأ المنصور هذين البيتين ، أيقن بانقضاء أجـله ، فمات بعد ثلاثة أيام .

ولم يحضر عند وفاة المنصور إلا خدمه ومولاه الربيع بن يونس . يـكتم الربيع خـبر موته ، ومنع النساء وغيرهن من البـكاء والصراخ عليه . ولما أصبح الصباح وشاع نبأ موته ، حضر أهل بيته وجلسوا مجالسهم . وجاء بعض العلويين وغيرهم ، وملئوا السرادق الذى ضرب له ، ثم خرج الربيع إليهم ، وفى يده قرطاس ففضه وقرأ مافيه فإذا به : « بسم الله الرحمن الرحيم ! من عبد الله المنصور أمـير المؤمنين إلى من خلف من بنى هاشم وشيعته من أهل خراسان وعامة المسلمين » ، ثم رمى القرطاس من يده وبـكى ، فأبـكى الناس ، ثم تناول القرطاس ، وقال : قد أمكنـكم البـكاء ، ولـكن هذا عهد عهده أمير المؤمنين . ولا بد من أن نقرأه عليـكم فأنصتوا رحمـكم الله ، فسكت الناس ، ثم قرأ : أما بعد ، فإنى كتبت كتابى هـذا وأنا حى فى آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة . وأنا أقرأ عليـكم السلام ، وأسأل الله ألا يفتنـكم بعدى ولا يلبسـكم شيعاً ، ولا يذيق بعضـكم بأس بعض . يابنى هاشم ويا أهل خراسان ! ثم أخذ فى وصيتهم بالمهدى وإذكارهم البيعة له ، وحضهم على القيام بدولته والوفاء له إلى آخر الـكتاب (٢) .

عند ذلك أذن للأكابر والمسنين من أهل البيت ، ثم لعامتهم ، فأخذ الربيـع منهم البيعة للمهدى بن المنصور ، ولعيسى بن موسى من بعده . ثم دعا بالقواد فبايعوا ، وخرج موسى بن المهدى إلى مجلس العامة فبايع من بقى من القواد والوجوه . ثم توجه العباس بن محمد ومحمد بن سليمان إلى مـكة ، فبايع كثير من أهل مـكة والمدينة الذين حضروا موسم الحج .

---

(١) ورد الشطر الثانى من هذا البيت فى مروج الذهب للمسعودى (جـ ٢ ص ٢٤٥) .
يرد قضاء الله أم أنت جاهل .

(٢) الطبرى جـ ٩ ص ٣٢٣ — ٣٢٤ .

من ذلك نرى أن المهدى قد بويع البيعة الخاصة بمكة ، ثم بايعه ببغداد أفراد البيت العباسى وقواد الجيش وغيرهم من رجال الدولة البيعة العامة ، وذلك فى ١٨ ذى الحجة سنة ١٥٨ هـ .

المهدى

(١٥٨ — ١٦٩ / ٧٧٥ — ٧٨٥)

١ — المهدى منذ ولد إلى أن ولى الخلافة :

ولد محمد بن عبد الله المنصور بالحميمة سنة ١٢٦ هـ . وأمه أروى بنت منصور ابن عبد الله الحميرى ، من حمير التى ملكت اليمن زمناً طويلا . ونشأ في بيت الخلافة وعنى أبوه المنصور بتثقيفه ، وعهد به إلى المفضل الضبى ، فعلمه تعليما عربياً ، وجمع له أمثال العرب ومختار شعرهم ، فمال إلى العلم والأدب ، وعكف على حفظ أيام العرب ومكارم الأخلاق ، ودراسة الأخبار والأشعار . فنشأ فصيحاً يقول الشعر ويجيده ويحفظ كثيراً منه ومن أمثال العرب (١) .

وكان المهدى — على ماوصفه ابن طباطبا (٢) شهماً كريماً ، شديداً على أهل الإلحاد والزندقة ، لاتأخذه فى إهلاكهم لومة لائم . وكانت أيامه شبيهة بأيام أبيه فى الحوادث . وكان يجلس فى كل وقت للمظالم ، كما كان ذكياً فصيحاً بعيد الهمة سديد الرأى ، ثاقب الفكر ، قوى البيان ، فصيح اللسان ، عالماً بضروب السياسة وفنونها ، مما أهله لأن يلى أمور المسلمين . وكان أبوه يعرف فيه هذه الصفات ، فكان إذا دخل عليه فى مجلسه أتبعه ببصره ، لحبه له وإعجابه به ، وزوده بنصائحه .

كان المهدى فى العاشرة من عمره حين آلت الخلافة إلى أبيه المنصور . ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره أرسله أبوه على رأس جيش كبير للقضاء على فتنة عبد الرحمن

---

(١) الخطيب البغدادى . تاريخ بغداد جـ ٥ ص ٣٩١ .
(٢) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٦١ .

ابن عبد الجبار الأزدى والى خراسان ، وجعل فى مقدمة الجيش قائداً من أمهر قواده هو خازم بن خزيمة . ثم أرسل المهدى خازم على رأس جيش من أهل خراسان ، فقضى على ثورة الإصبهبذ والى طبرستان ، وأسر ابنته ، كما استعان أبو جعفر المنصور بابنه المهدى فى القضاء على فتنة أستاذ سيس الذى ادعى النبوة بخراسان ، وحاصره خازم فى عشرين ألف مقاتل ، وأسره وقتل سبعين ألفاً من رجاله . وفى سنة ١٥٣ ﻫ ولى المنصور إبنه المهدى إمارة الحج (١) .

ولما بويع المهدى البيعة العامة وتقبل عزاء الناس بوفاة أبيه ، وتهنئتهم له باعتلائه للعرش ، كان أبو دُلامة الشاعر أول من هنأه بالخلافة ، وعزاه بوفاة أبيه فى قصيدة رائعة . وكأن لسان حاله يقول : مات الخليفة يحيا الخليفة ، كما يقولون الآن ، مات الملك يحيا الملك . وإليك بعض أبيات من هذه القصيدة :

عيناى واحدة تُرى مسرورة	بأميرها جَذْلى ، وأخرى تذرف
تبكى وتضحك تارة ويسوؤها	ما أنكرت ويسرها ما تعرف
فيسوءها موت الخليفة محرماً	ويسرها أن قام هذا الأرأف
ملك الخليفة بال أمة أحمد	وأتاكم من بعده من يخلف
أهدى لهذا الله فضل خلافة	ولذلك جنات النعيم تزخرف

ولما تمت البيعة العامة نادى المنادى : الصلاة جامعة ! وخطب المهدى خطبة عبر فيها عن عظم المسئولية التى ألقاها موت أبيه على عاتقه ، ونعى أباه فى هذه الكلمات القصيرة فقال : إن أمير المؤمنين عبد دعى فأجاب ، وأمر فأطاع . وأغرورقت عيناه فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بكى عند فراق الأحبة . ولقد فارقت عظما وقلدت جسيما . وعند الله أحتسب أمير المؤمنين ، وبه عز وجل أستعين على خلافة المسلمين (٢) ، ثم ترقرق الدمع فى عين المهدى ، ولم يتمكن من إطالة الخطبة لما كان يشعر به من شدة الحزن على وفاة أبيه .

---

(١) الطبرى ج ٩ ص ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٨٤ .
(٢) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ج ٥ ص ٣٩٢ .

إصلاحات المهدى :

قضى المهدى فى الخلافة زهاء عشر سنين ، تعتبر فترة انتقال بين عهد الشدة والقمع الذى ساد عهد من سبقه من خلفاء بنى العباس ، وعهد الاعتدال واللين الذى امتازت به أيامه وأيام من أتى بعده . وقد ذكر المؤرخون أنه رد الأموال التى صادرها أبوه إلى أهلها . وأطلق العلويين الذين حبسهم أبوه ، وعفا عنهم ، وأدوا عليهم الأرزاق ، وبادر إلى رد نسب أبى بكرة[1] وآل زياد (بن أبيه) .

وقد بدأ المهدى عهده بسلسلة من ضروب الإصلاح ، واستعان فى ذلك بما تركه له أبوه من بيت مال عامر يكفى الدولة عشر سنين كاملة . كما وفق إلى القضاء على الزنادقة وغيرهم من الخوارج عليه وعلى الدين .

فمن أعماله أنه أمر بالإفراج عن المسجونين إلا أكثرهم شراً وفساداً ، وبنى الأبنية فى طريق مكة ، وزاد على ما كان قد بناه أبوه فى الجهات الأخرى . كما بنى الأحواض التى تملأ من الآبار لسقاية القوافل ، وأخرى على أهل السجون وعلى المجذمين حتى يمتنعوا عن السؤال ويحولوا دون انتشار الأمراض . وزاد فى المسجد الحرام ، غير أنه محا اسم الوليد بن عبدالملك من حائط الحرم ، وكتب اسمه بدله وجدد الأميال وأقام البريد بين مكة والمدينة واليمن ، وأدخل عليها ضروباً من التحسين ، وعين الأمناء فى الولايات ليوافوه بأخبار الولاة ، فساد العدل وعم الرخاء جميع أرجاء الدولة :

وقد حصن المهدى المدن ، وخاصة مدينة الرصافة . وصارت بغداد فى عهده

---

(١) هو أخو زياد بن أبيه لأمه . وكنى أبا بكرة لأنه ممن نزل يوم الطائف إلى الرسول من حصن الطائف فى بكرة ، فأسلم وكنى أبا بكرة ، وأعتقه الرسول ، واتخذه مولى له . وكان أبو بكرة يقول : أنا من إخوانكم فى الدين وأنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن أبى الناس أن ينسبونى فأنا نفيع بن مسروح (ابن الاثير : أسد الغابة فى معرفة الصحابة جـ ٥ ص ١٥١)
أنظر أيضاً نسخة كتاب المهدى إلى والى البصرة فى رد آل زياد إلى نسبهم فى الطبرى (جـ ٩ ص ٣٣٥ — ٣٣٦) .

مركزاً لتجارة العالم ، وغدت الموسيقى والشعر والحكمة والأدب من مميزات هذا العصر . وسن المهدى سنة كسوة الكعبة بكسوة جديدة فى كل عام ، بعد أن كانت توضع الكسوات بعضها فوق بعض ، وسار على ذلك من جاء بعده من الخلفاء . وكان المهدى يميل إلى السنة ، فنزع المقاصير فى صلاة الجماعة ، وصير المنبر على القدر الذى كان عليه منبر الرسول .

٣ — الفتن والثورات :

وفى عهد المهدى خرج عبد الله بن مروان بن محمد الأموى ببلاد الشام سنة ١٦١ هـ ، وحلت به الهزيمة وحبس ، ثم عفا المهدى عنه ووسع عليه الأرزاق . ثم خرج فى السنة التالية عبد السلام بن هشام اليشكرى فى الجزيرة ، واشتدت شوكته ، وكثر أتباعه ، وعاث فى الأرض . ولكنه هزم وقتل فى قنسرين . كما خرج بالموصل رجل من بنى تميم يدعى ياسين ، واستولى على أكثر ديار ربيعة ومضر ، فحلت به الهزيمة . وثار أهل الحوف فى مصر (بالقرب من بلبيس) سنة ١٥٨ هـ . وقتلوا عامل المهدى الذى ندب لقتالهم الفضل بن صالح بن على العباسى ، ولكنه وصل إلى مصر بعد وفاة المهدى ، وأحل بهم الهزيمة .

وكانت أشد الثورات بأساً وأكثرها خطراً ، هذه الثورات التى أذكى نيرانها الزنادقة ، الذين تبعد تعاليمهم عن الإسلام وعقائده وتقوم على نوع من الديمقراطية الفاسدة ، التى تبيح المحرمات وتعبث بالآداب الاجتماعية والزوجية المرعية ، وتعرض الحياة السياسية والدينية للخطر .

٤ — صفات المهدى — وفاته :

قال المسعودى(١) . وكان المهدى محبباً إلى الخاص والعام ، لأنه افتتح عهده بالنظر إلى المظالم ، والكف عن القتل . وأمن الخائف ، وإنصاف المظلوم ، وبسط يده فى الإعطاء فأذهب جميع ما خلفه المنصور ، وهو ستمائة ألف ألف درهم وأربعة ألف ألف دينار . سوى ما جباه فى أيامه .

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٤٨ — ٢٤٩ .

وكان من خلق المهدى الحياء والعفو والجود والحلم ، ولم يكن يشرب النبيذ ، وإنما أجازه لجلسائه وسمارة . وكان يتأثر بالقرآن . كما اتصف بالعدل ، وجلس للمظالم بنفسه وبين يديه القضاة . وقد بلغ من حبه للعدل وميله إلى رد المظالم لأصحابها أنه كان يقول إذا جلس : أدخلوا على القضاة ، فلو لم يكن ردى المظالم إلا للحياء منهم لكفى .

ومما يدل على عدل المهدى ما قاله مسعود بن مساور ، وقد ظلمه وكيل المهدى وغصبه ضيعته ، فأتى صاحب المظالم ، وأعطاه رقعة أوصلها إلى المهدى وعنده القاضى . فأمر المهدى بإدخاله ، وسأله عن مظلمته ، فأخبره فقال القاضى : إن هذا ظلمنى فى ضيعتى ، مشيراً إلى المهدى . فقال القاضى : ما تقول يا أمير المؤمنين ؟ قال : ضيعتى فى يدى ، فقال ابن مساور : أصلح الله القاضى سله ، صارت إليه الضيعة قبل الخلافة أم بعدها ؟ فقال المهدى : بعد الخلافة ، فقضى القاضى للمدعى ، فخضع المهدى لحكم القضاة (١) .

قال صاحب الفخرى (ص ١٦٣) : فقيل إنه طرد ظبياً فى بعض متصيداته ، فدخل الظبى إلى باب خربة ، فدخل فرس المهدى خلفه ، فدقه باب الخربة فقطع ظهره ، فمات من ساعته . وقيل إن بعض جواريه جعلت سماً فى بعض المآكل لجارية أخرى ، فأكل المهدى منه وهو لا يعلم فمات ، وذلك فى سنة تسع وستين ومائة .

الهادى

(١٦٩ — ١٧٠ / ٧٨٥ — ٧٨٦)

كان موسى الهادى أكبر من أخيه هارون : وقد ولاه أبوه عهده ، وعهد لهارون بالخلافة من بعده ، ثم فكر فى تقديمه عليه ، بسبب إيثاره إياه ، ومشاركة أمه الخيزران له فى محبته . لولا أن عاجلته المنية . وكان هارون من العقل بحيث

---

(١) الطبرى ج ٩ ص ١٢ — ١٤ .

لم يتردد فى البيعة لأخيه حين سمع بوفاة أبيه . وقد قضى الهادى قبل إن يعتلى عرش الخلافة أكثر أيامه فى بلاد المشرق ، وأتته البيعة وهو يحارب فى طبرستان وجرجان .

وقد وصف المسعودى المهدى فقال إنه كان قاسى القلب شرس الأخلاق صعب المرام ، كثير الأدب محباً له . وكان شديداً شجاعاً جواداً سخياً . و لسنا نشك فى أن تربيته العربية وقضاءه أكثر أيامه فى الحرب والغزو ، كان ذا أثر كبير فى أخلاقه وآدابه . ومما يؤخذ عليه تنكيله بالعلويين ، وتمثيله بالأمويين والخوارج والزنادقة ، وأخذه أكثرهم على الظنة والريبة ، وعزمه على خلع أخيه هارون من ولاية العهد وإسرافه فى العطاء(١) .

١ — تنكيل الهادى بالخوارج والزنادقة :

ورث الهادى عن أبيه كراهيته للزنادقة وعمل على استئصال شأفتهم . وقد قام بوصية أبيه له بألا يفتر عن التنكيل بهذه الطائفة وتطهير البلاد من رجسهم وفسادهم ، فلم يأل جهداً فى الضرب على أيدى الزنادقة والخوارج الذين ثاروا فى بلاد الجزيرة ، وقتل من ظفر به منهم .

ويحدثنا المسعودى أن الهادى كان فى بستانه يوما راكباً حماراً . وقد بلغه أن رجاله ظفروا برجل من الخوارج ، فأمر بإدخاله . فلما قرب الخارجى منه ، أخذ من أحد حراسه سيفاً وأقبل عليه يريد قتله ، وتنحى عنه من كان معه من رجاله بيد أن الهادى ظل فى مكانه رابط الجأش ثابت الجنان حتى قرب منه الرجل فصاح : « اضرب عنقه » . ولم يكن خلف هذا الخارجى أحد ، وإنما أوهمه الهادى ليشغله عنه ، فالتفت الخارجى وراءه ليدرأ عن نفسه الخطر ، فانقض عليه الهادى ، ورمى به إلى الأرض وأخذ السيف من يده ، وضرب به عنقه . وقد أثر عن الهادى أنه لم يركب بعد ذلك حماراً ولم يفارق حسامه .

ولم تكن كراهة الهادى للزنادقة والخوارج بأقل منها للأمويين ، ولم يكن

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٥٥ .

يهدأ له بال لاعتقاده بأن أهل بيته لم يثأروا من الأمويين بما يشفى غليلهم ويثلج صدورهم(١) .

٢— عزم الهادى على خلع أخيه هارون :

اقتدى الهادى بما فعله جده المنصور مع عيسى بن موسى ، وعزم على خلع أخيه هارون والبيعة لابنه جعفر ، وشجعه على ذلك رجال بلاطه . بيد أن يحيى بن خالد ابن برمك نصح له بأن يعدل عن هذا الأمر لصغر سن ابنه جعفر ، واحتراما للعهد الذى أخذه على نفسه حين ولاه أبوه عهده ، ودرءاً لما عسى أن يقوم به أهل بيته من انتزاع الخلافة من ابنه إذا آلت إليه قبل بلوغه سن الرشد ، وأشار عليه بأن يتريث فى هذا الأمر حتى يكبر ابنه ويطلب من أخيه هارون النزول له عن الولاية . فاستمع إلى ما قاله يحيى البرمكى للخليفة الهادى : يا أمير المؤمنين ! إن فعلت حملت الناس على نكث الأيمان ونقض العهود ، وتجرأ الناس على مثل ذلك . ولو تركت أخاك هارون على ولاية العهد ، ثم بايعت لجعفر بعده ، كان ذلك أوكد فى بيعته . وكان من أثر هذه النصيحة أن عدل الهادى عن رأيه مدة ، ثم غلب عليه حبه لولده وإيثاره على أخيه ، فأحضر يحيى وفاوضه فى خلع أخيه ، فقال له : يا أمير المؤمنين ! لو حدث بك حادث الموت ، وقد خلعت أخاك وبايعت لابنك جعفر وهو صغير دون البلوغ ، أفترى خلافته تصح ؟ وكان مشايخ بنى هاشم يرضون ذلك ويسلمون الخلافة إليه ؟ قال : لا فقال يحيى : فدع هذا الأمر حتى تأتيه عفواً . ولو لم يكن المهدى بايع لهارون لوجب أن تبايع أنت له لئلا تخرج الخلافة من بنى أبيك(٢). إلا أن الهادى لم يحفل بهذه النصيحة ، وزج بالبرمكى فى غيابة السجن ردحاً من الزمن وهم بقتله .

أما هارون فكان يميل إلى إجابة أخيه بعد أن ضيق عليه واضطهده ، وحط رجال بلاطه من شأنه . فأشار عليه يحيى البرمكى أن يستأذن أخاه فى السفر طلباً

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٥٥ — ٢٥٦ ، ٢٥٨

(٢) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٨٠

للصيد ، فأذن له وطال غيابه حتى أخذ الهادى يلح عليه فى العودة ويبالغ فى تحقيره وإهانته ، وهو ينتحل من الأعذار ما يطيل بقاءه ، حتى أتاه نعيه والبيعة له . وقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن عزم الهادى على إخراج هارون من ولاية العهد دفع بأمه الخيزران إلى السعى فى موته ، وإن كنا نشك فى ذلك .

على أنه مما يسترعى النظر أن العداء كان مستحكما بين الهادى وأمه ، وأن هذا العداء ظل على شدته إلى يوم وفاته ، حتى ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن أمه دست بعض جواريها لقتله . ذلك أن الخيزران (بفتح الخاء وسكون الياء وضم الزاى) كانت لها الكلمة النافذة فى عهد المهدى : فكانت تأمر وتنهى ، حتى كان الناس يتوافدون على دارها ويلجئون إليها لقضاء حاجاتهم .

فلما ولى الهادى الخلافة ، وكان شديد الغيرة على النساء ، كره ذلك ، ونهى أمه عن فعله . هذا ما ذكره لنا ابن طباطبا [1] . ويزيد المسعودى [2] هذه المسألة بياناً فيقول : « إن الهادى كان كثير الطاعة لأمه ، وكان يجيبها إلى ما تسأله من قضاء الحاجات ، فسألته يوماً قضاء مسألة رجل لم يجد إلى قضائها سبيلا . فألحت فى الطلب وقامت مغضبة ، فقال لها متهدداً متوعداً : لئن بلغنى أنه وقف ببابك أحد من قوادى أو من خاصتى أو من خدمى ، لأضربن عنقه ولأقبضن ماله . فمن شاء فليلزم ذلك . ما هذه المواكب التى تغدو وتروح إلى بابك كل يوم ؟ أما لك مغزل يشغلك ، أو مصحف يذكرك ، أو بيت يصونك ؟ إياك أن تفتحى فاك فى حاجة لمسلم ولا ذمى [3] . ثم قال لأصحابه : أيما خير ، أنا وأمى ، أم أنتم وأمهاتكم ؟ قالوا : بل أنت وأمك ، قال فأيكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أمه ، فيقال فعلت أم فلان وصنعت أم فلان ؟ قالوا : لا نحب ذلك . قال : فما بالكم تأتون أمى فتتحدثوا بحديثها ؟ فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها [4] .

---

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٧٢ .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٦١ .

(٣) الطبرى ج ١٠ ص ٢٣ .

(٤) الفخرى ص ١٧٣ .

لهذا لا نعجب إذا أثار هذا القول حفيظة الخيزران وكراهتها لابنها الهادى ، فأضمرت له السوء . وكان لهذه الإهانة نتائجها ، فانقطع الناس عن سؤالها والتردد على دارها ، مما حدا بعض المؤرخين إلى القول ، إن الهادى بعث لأمه بطعام مسموم ، فلم تأكل منه وأطعمته هرة فماتت ، وإن صح ذلك جاز أن نأخذ بما ذهب إليه المؤرخون من أن موت الهادى كان بتدبير أمه ، وإن كنا نشك فى ذلك كما تقدم .

وفى رأينا أن الهادى قد أحسن فيما فعل ، صيانة لأمه ، وحفظاً لكرامتها وحسن سمعتها . وهذا بين من قوله لها حين حضرته الوفاة ، وقد بعث فى طلبها لما اشتد عليه المرض : « وقد كنت أمرتك بأشياء ونهيتك عن أخرى ، مما أوجبته سياسة الملك لا موجبات الشرع من برك . ولم أكن بك عاقاً ، بل كنت لك صائناً وباراً واصلا[1] .

٣ — أخلاق الهادي وصفاته — وفاته :

اشتهر الهادى بالإسراف فى العطاء . فقد ذكر المسعودى[2] أنه قال يوماً : كأنى بك قد تحدث نفسك بتمام الرؤيا[3] ، وتؤمل ما أنت عنه بعيد ، ومن دون ذلك خرط القتاد . فقال له هارون : يا أمير المؤمنين ! من تكبر وضع ، ومن تواضع رفع ، ومن ظلم خذل ، وإن وصل الأمر إلى وصلت من قطعت ، وبررت من حرمت ، وصيرت أولادك أعلى من أولادى ، وزوجتهم بناتى ، وقضيت بذلك حق الإمام المهدى ، وقد أثر هذا الكلام العذب فى نفس الهادى وأطفأ ثائرة غضبه ، فبرقت أسارير وجهه سروراً ، وقال لأخيه : ذلك الظن بك

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٦١

(٢) مروج الذهب : ج ص ٢٦١ — ٢٦٢ .

(٣) قيل إن المهدى رأى فى منامه كأنه دفع إلى الهادى قضيباً وإلى الرشيد قضيباً : فأما قضيب الهادى فأورق إعلاه قليلا ، وأما قضيب الرشيد فأورق من أوله إلى آخره . فلما قص الرؤيا قيل له إنهما يملكان ، فأما الهادى فتقل أيامه ، وأما الرشيد فتطول ، وتكون أحسن الأيام ودهره أزهر الدهور .

يا أبا جعفر ، أدن منى ! فقام هارون فقبل يده ، ثم ذهب ليعود إلى مجلسه ، فقال الهادى : والشيخ الجليل والملك النبيل ، لا جلست إلا معى فى صدر المجلس . ثم أمر خازن بيت المال أن يحمل إلى هارون ألف ألف دينار وخمسمائة ألف إذا وفى زمن الخراج . ولما أراد هارون الخروج ، قدمت دابته حتى وصلت إلى بساط الخليفة .

ومما يدل على إسراف الهادى فى العطاء هذه الحكاية التى يقصها علينا المسعودى ، وهى أنه أمر بسيف عمرو بن معد يكرب الصمصامة ، فوضع بين يديه ، وأتى بمكتل[1] ، وأمر حاجبه أن يأذن للشعراء فى الدخول عليه . فلما دخلوا أمرهم أن يقولوا فى هذا السيف شعراً ، فبدأ بن يامين البصرى وقال أبياتاً ، فقال له الهادى : لك السيف والمكتل ، فأخذهما ، وفرق المكتل على الشعراء ، ثم بعث إليه الهادى واشترى منه السيف بخمسين ألفاً .

ولم تطل خلافة الهادى ، فقد توفى ببغداد لاثنتى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة ١٧٠ هـ ، بعد أن ظل فى الخلافة سنة وشهراً واثنين وعشرين يوماً . ويقول ابن طباطبا[2] : والليلة التى مات فيها ، هي ليلة مات فيها خليفة ، وجلس خليفة ، وولد خليفة ، وقد كانوا يحدثون أنه سيكون ليلة كذلك . فالخليفة الذى مات هو الهادى ، والذى جلس فيها على سرير الخلافة هو الرشيد ، والذى ولد هو المأمون » .

وقد ذكر المسعودى[3] فى موت الهادى : وسنح للهادى الخروج نحو بلاد الحديثة[4] . فمرض هناك وانصرف ، وقد ثقل فى العلة ، فلم يجرؤ أحد من الناس

---

(١) المكتل شبه الزنبيل خمسة عشر صاعا والصاع أربعة أمداد ؛ والمد مكيال ، وهو رطل وثلث عند أهل الحجاز ، ورطلان عند أهل العراق .

(٢) الفخرى ص ١٧٥ .

(٣) مروج الذهب ج٢ ص ٢٦١ .

(٤) ذكر ياقوت فى معجمه أنها سميت بذلك لما أحدث بناؤها ، وهى فى عدة مواضع ، فنها حديثة الموصل وحديثة الفرات . والحديثة أيضاً من قرى غوطة دمشق ويقال لها حديثة جرش .

على الدخول عليه إلا صغار الخدم . . . ويقال إنه أوقف بين يديه رجلا من أولياء الدولة ذا أجرام كثيرة ، فجعل الهادى يذكره ذنوبه ، فقال له الرجل : يا أمير المؤمنين ! اعتذارى بما تقر عينى به رد عليك ، وإقرارى بما ذكرت يوجب ذنباً ، ولكنى أقول :

فإن كنت ترجو فى العقوبة راحة   فلا تزهدن عند المعافاة فى الأجر

هارون الرشيد

(١٧٠ — ١٩٣ / ٨٧٦ — ٨٠٩)

يعتبر هارون الرشيد أشهر خلفاء بنى العباس : بلغت بغداد فى عهده درجة لم تصل إليها من قبل ، فأصبحت مركز التجارة ، وكعبة رجال العلم والأدب . واشتهر اسم الرشيد فى بلاد الغرب ، لما كان بينه وبين شرلمان ملك الفرنجة من العلاقات السياسية وأواصر الود والصفاء . ومما زاد فى ذيوع شهرته بين أمم الغرب كتاب « ألف ليلة وليلة » الذى ترجم إلى معظم اللغات الأوربية ، حتى إنه لا تكاد تخلو منه مكتبة من مكتبات الأفراد فى أوربا وأمريكا .

ولد هارون بالرى لثلاث بقين من شهر ذى الحجة سنة ١٤٥ هـ ، وأمه أم ولد يمانية جرشية يقال لها الخيزران ، وهى أم الهادى ، وفيها يقول مروان بن أبى حفصة .

يا خيزران هناكِ ثم هناكِ   أمسى يسوس العالمين أبناكِ

وقد ولد الفضل بن يحيى البرمكى قبله بسبعة أيام ، فأرضعت أم الفضل الرشيد وأرضعت الخيزران الفضل بلبان الرشيد .

وقد ولى المهدى ابنه هارون العهد بعد أخيه الهادى . وكان يعرف فيه الذكاء والكفاية ، ففكر فى العدول عن عهده السابق ، وهم أن يرشحه للخلافة بعده مباشرة . وساعدته على ذلك أمه الخيزران ، لأنها كانت تحبه وتؤثره على أخيه الهادى ، ولولا أن حالت منية المهدى دون ذلك . وقد ولاه أبوه الصائفة فى سنة

١٦٣ و١٦٥ هـ، فأرغم أريني — وكانت وصية على ابنها قسطنطين السابع — على طلب الصلح ، الذى انتهى بعقد هدنة بين العباسيين والبيزنطيين أمدها ثلاث سنين ، وولاه أبوه بلاد المغرب سنة ١٦٤ هـ .

ولى هارون الرشيد الخلافة فى الليلة التى توفى فيها أخوه الهادى ، وهى ليلة الجمعة لأربع عشرة ليلة بقين من شهر ربيع الأول سنة سبعين ومائة(١) . ومن المسائل التى يجب دراستها فى عهد الرشيد : قيام الفتن الداخلية وخاصة فى الموصل وإفريقية وأرمينية ، وأثر البرامكة فى الدولة ونكبتهم على يد الرشيد ، على الرغم من عملهم على تقدم الحضارة الإسلامية .

١ — الفتن والثورات :

خرج الوليد بن طريف الشارى الشيبانى على هارون الرشيد سنة ١٨٧ هـ ، وانتصر على جيوشه أكثر من مرة ، فقتل والى نصيبين ، ثم مضى إلى أرمينية وأذربيجان وعاث فيهما فساداً ، ثم عاد إلى الجزيرة (١٧٩ هـ) وعبر نهر دجلة حتى وصل إلى حلوان . واشتدت شوكته وكثر أتباعه ، فبعث الرشيد يزيد بن مزيد الشيبانى ، ابن أخى معن بن زائدة الشيبانى بطل موقعة الراوندية ، كما سيأتى فى الباب الثالث . وقد رمى الوليد هارون الرشيد بالجور والظلم ، وعول على التخلص من هذا الجور والظلم حين برز لقتال يزيد بن مزيد الشيبانى وارتجز :

أنا الوليد بن طريف الشارى قسورة لا يصطلى بنارى

جوركم أخرجنى من دارى .

وسرعان ما حلت الهزيمة بجند الوليد بن طريف الشيبانى وقتل .

وفى إفريقية استمرت قبائل البربر تنازع العباسيين بين سنتى ١٧٨ و ١٨١ هـ ، كما أخذت فى التقلص عن الحكم الإسلامى ، وغدت كفة النصر ترجح فى جانبهم حيناً . وفى جانب العباسيين حيناً آخر ، حتى بعث إليهم الرشيد هرثمة بن أعين

---

(١) الطبرى ج ١٠ ص ٤٧ — ٤٨ . السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ١٨٨ .

على رأس جيش كثيف استطاع أن يقضى عليهم ويطفىء جذوة ثورتهم . على أن هرثمة رأى بثاقب نظره وطول خبرته أن فوز العباسيين على البربر لا سبيل إلى تحقيقه ، لتفاقم نار العداء التى أضرمها هؤلاء البربر ، فعول على النزول عن القيادة وعاد إلى المشرق حيث البذخ والرفاهية . ثم قامت فى هذه البلاد دولة الأغالبة على يد إبراهيم بن الأغلب ، الذى ولى هذه البلاد من قبل الرشيد لتأديب البربر . والوقوف فى وجه الأدارسة إذا أرادوا الإغارة على أراضى الدولة العباسية . ولكن هذه الدولة ما لبثت أن استقلت عن الخلافة العباسية فى بغداد ، وزال عنها سلطان العباسيين ، اللهم إلا فى الاسم فقط ، واتخذت مدينة القيروان الواقعة فى الجنوب الغربى من مدينة تونس الحالية ، حاضرة لها ، وظلت على ذلك إلى أن استولى عليها الفاطميون سنة ٢٩٦ هـ .

وفى سنة ١٧٦ هـ تحولت المنازعات القديمة بين اليمانيين والعدنانيين فى سورية إلى حرب مستعرة ، وبقيت دمشق زهاء سنتين مسرحا للانقسامات والحروب الداخلية . ولكن هذه الحالة لم تكن مما يهتم له الخليفة ، بل كان يرى على العكس من ذلك أنه قد أفاد منها ، لأنها أضعفت قوة أهالى هذه البلاد الذين ثبت عنده عدم إخلاصهم وولائهم للعباسيين[1] . على أن الحروب التى دارت بين الفريقين قد اشتعلت نارها من جديد بعد عشرة أعوام ، فرأى الرشيد ضرورة التدخل بينهم وقضى عليهم .

ويقول الطبرى[2] إن الرشيد ولى موسى بن يحيى بن خالد البرمكى بلاد الشام فأصلح بين أهلها وسكنت هذه الفتنة الجامحة .

وكانت بلاد خراسان ، التى وليها على بن عيسى بن ماهان ، مصدر الفتن والقلاقل فى عهد هارون الرشيد . فقد سار هذا الوالى على سياسة تنطوى على الظلم والعسف واغتصاب الأموال من الأهالى ، فكان يرسل إلى الخليفة كثيراً من

---

(١) Muir, The Caliphate, p. 479

(٢) جـ ١٠ ص ٦٠ .

الهدايا والطرف التى بهرته ، واستفز بعمله كبراء خراسان ، فكتبوا إلى الرشيد يستغيثون به ، فعزم على الخروج لمحاربة على بن عيسى ، وعسكر فى الرى .

فلما بلغ ذلك علياً قابل الرشيد بهدايا أنفس من الهدايا الأولى ، ووزع مثلها على رجال بلاطه ، فاطمأن الرشيد من جانبه ، ثم عاد هذا الوالى إلى سيرته الأولى فى ظلمه واستبداده ، وغلا فى نكايته بمن استغاثوا بالخليفة .

واتفق أن حدث فى ذلك الوقت أن رجلا من أهالى سمرقند ، يدعى رافع بن ليث بن نصر بن سيار ، قاد امرأة من ذوى اليسار إلى الكفر ، تخلصاً من زوجها الذى طالت غيبته ، ورغبة فى التزوج بها . فلما بلغ الرشيد ذلك أرسل من فوره إلى على بن عيسى يأمره أن يفرق بين رافع وزوجته وأن يعاتبه على فعلته . فقام كل من والى خراسان وعامل سمرقند تنفيذ أوامر الرشيد ، وحبس رافع ، ولكنه فر من سجنه ، واستغاث بولد على بن عيسى ، فتوسط له عند أبيه ، فأمنه ورده إلى بلده ، فثأر لنفسه من عامل هذه المدينة وقتله ، واتبعه كثير من أهالى سمرقند وبلاد ما وراء النهر ، فأرسل إليه على ابن عيسى ابنه عيسى ، فقتله رافع فى بلخ .

وقد قيل إن على بن عيسى جمع فى قصره أموالا ضخمة ، وأن الناس هجموا على هذا القصر واستولوا على ما فيه . فلما بلغ الرشيد ذلك تحقق من استبداد على ، لما كان من استفزازه شعور الأهلين ، فقرر عزله ، وأرسل إليه هرثمة بن أعين يحمل إليه كتابا بخطه ، فقبض هرثمة على على وأتباعه ، وصادر أموالهم ، وبعث بهم إلى الرشيد ، وأخذ الفرح من الناس كل مأخذ بلقائهم هرثمة وتخليصهم من عسف هذا الوالى وظلمه . غير أن رافعا لم يكن قد هدأ أمره ، فخرج الرشيد بنفسه لحربه ، إلا أن المنية أدركته وهو فى طريقه ، وظل رافع على حاله حتى أيام المأمون (١) .

٢ — البرامكة :

كان برمك جد الأسرة البرمكية سادن بيت النار ببلخ : فكان يقوم بالإشراف

---

(١) أنظر ما كتبه الطبرى عن على بن عيسى (ج ١٠ ص ١١٠ — ١٠٨) .

على هذا البيت ، كما كان يقوم قصى وأولاده من بعده بسدانة الكعبة في الجاهلية . وكان برمك وأسرته يدينون بالمجوسية دين الفرس القديم . ولما ظهر الإسلام ، أسلم بعضهم ، وظهر منهم في أوائل الدولة العباسية خالد بن برمك ، الذى تقلد الوزارة في عهد السفاح والمنصور . واتخذ هارون الرشيد يحيى بن خالد قبل أن يلى الخلافة كاتباً له يرجع إلى رأيه وتدبيره ، كما يرجع الخليفة إلى رأى الوزير وتدبيره . ولما ولى الرشيد الخلافة استوزر يحيى ، فعلا شأنه وبعد صيته ، وأصبح هو وأولاده كعبة الآمال وغدت تشد إليهم الرحال . وفي ذلك يقول ابن طباطبا (١) :

« اعلم أن هذه الدولة كانت غرة في جبهة الدهر ، وتاجاً على مفرق العصر ، ضربت بمكارمها الأمثال ، وشدت إليها الرحال ، ونيطت بها الآمال ، وبذلت لها الدنيا أفلاذ أكبادها ، ومنحتها أوفر إسعادها . فكان يحيى وبنوه كالنجوم زاهره ، والبحور زاخرة ، والسيول دافعة ، والغيوث ماطرة : أسواق الآداب عندهم نافقة ، ومراتب ذوى الحرمات عندهم عالية ، والدنيا في أيامهم عامرة ، وأبهة المملكة ظاهرة : وهم ملجأ اللهف ، ومعتصم الطريد ، ولهم يقول أبو نواس .

سلامٌ على الدنيا إذا ما فقدتم بنى برمك من رائحين وغاد »

كان خالد بن برمك فاضلا جليلا كريماً حازماً يقظاً ، قربه السفاح إليه وأولاه ثقته ، وأحله من نفسه محل التعظيم والتكريم . ولكنه لم يغتر بهذا التعظيم والتكريم ، وأبى إلا أن يظهر أمام مولاه بمظهر الإخلاص والتواضع ، وتجنب أن يسمى وزيراً على رغم أنه كان يعمل عمل الوزراء ، خشية أن يحل به ما حل بأبى سلمة الخلال وزير آل محمد الذى قتله أبو العباس السفاح . وقد قيل إن كل من استوزر بعد أبى سلمة كان يتجنب أن يسمى وزيراً ، تطيراً مما جرى على أبى سلمة ، حتى قال أحد الشعراء :

إن الوزير وزير آل محمد أودى ، فمن يشناك كان وزيرا

---

(١) الفخرى ١٧٣ .

نعم ! كان خالد عظيم المنزلة جليل القدر عند الخلفاء . قيل إن السفاح قال له يوماً : يا خالد ! ما رضيت حتى استخدمتنى ! ففزع خالد ، وقال : كيف يا أمير المؤمنين وأنا عبدك وخادمك؟ فضحك السفاح وقال : إن ريطة إبنتى تنام مع إبنتك فى مكان واحد، فأقوم بالليل فأجدهما قد سرح الغطاء عنهما . فأرده عليهما ، فقبل خالد يده وقال : مولى يكتسب الأجر فى عبده وأمته .

اشتهر خالد بن برمك برجاحة العقل وبعد النظر . يدل على صحة هذا الرأى ، أن المنصور لما شرع فى بناء مدينة بغداد ، ورأى أن مواد البناء تكلفه كثيراً من النفقات أشار عليه بعضهم بهدم إيوان كسرى واستعمال أنقاضه ، فاستشار المنصور خالد بن برمك فى ذلك ، فقال : لا تفعل يا أمير المؤمنين ، فإنه آية الإسلام ، فإذا رآه الناس علموا أن مثل هذا البناء لا يزيله إلا أمر سماوى . وهو مع ذلك مصلى على بن أبى طالب عليه السلام ، والمئونة فى نقضه أكثر من نفعه ، فقال له المنصور : أبيت يا خالد إلا ميلاً إلى العجمية ، ثم أمر بهدمه ، فهدمت منه ثلمة ، فبلغت النفقة عليها أكثر مما حصل منها . فأمسك المنصور عن هدمه وقال : يا خالد ! قد صرنا إلى رأيك وتركنا هدم الإيوان ، فقال يا أمير المؤمنين ! أنا الآن أشير بهدمه لئلا يتحدث الناس أنك عجزت عن هدم بناء غيرك .

وكان يحيى بن خالد البرمكى أشهر رجال عصره علماً وأدباً وفضلا وجوداً ونبلا . وكان فى الثانية عشرة من عمره حين قامت الدولة العباسية ، فتربى فى كنفها وشمله الخليفة المنصور بعطفه ، فولاه أذربيجان سنة ١٥٨ هـ . واختاره المهدى كاتباً ونائباً لابنه هارون ، فخرج معه فى الصائفة لغزو البيزنطيين . ولما تولى هارون بلاد المغرب ، ساعده يحيى على النهوض بأعبائها ، وأخلص له الإخلاص كله . ولما أراد الهادى أن يخلع أخاه هارون من ولاية العهد ، نصح له بالعدول عن هذا الرأى كما تقدم .

ولهذا قلد هارون كاتبه الوفى المخلص الوزارة بعد اعتلائه العرش ، وفوض إليه أمور دولته واستعان بأولاده الأربعة ، وهم جعفر والفضل ومحمد وموسى . ونهض

يحي ، كما يقول صاحب الفخرى (ص ١٧٩ — ١٨٠) ، بأعباء الدولة أتم نهوض وسد الثغور ، وتدارك الخلل ، وجبى الأموال ، وعمر الأطراف ، وأظهر رونق الخلافة، وتصدى لمهمات المملكة . وكان كاتباً بليغاً لبيباً ، أديباً سديداً ، صائب الآراء حسن التدبير ، ضابطاً لما تحت يده ، قوياً على الأمور ، جواداً يبارى الريح كرماً وجوداً ، ممدحا بكل لسان ، حليما عفيفاً ، وقوراً مهيباً .

وكان الفضل أكبر أولاد يحي من كرام أهل عصره ، وكان عضد أبيه ، ينوب عنه فى جلال أعماله . وقد أرضعته أم الرشيد ، كما أرضعت أم يحي الرشيد كما تقدم .

ولما ولد الأمين عهد الرشيد إلى الفضل بتربيته . وفى سنة ١٧٦ هـ ندبه لحرب يحي بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على الذى ثار فى بلاد الديلم . وفى سنة ١٧٨ هـ ولاه هارون الرشيد بلاد خراسان ، فقضى على الفتنة التى قامت بها ، وأحسن معاملة أهلها ، وبنى بها المساجد ، ثم عاد إلى بغداد بعد سنه .

قيل إن محمد بن إبراهيم الإمام (بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس) ، حضر يوما عند الفضل بن يحي ومعه سفط فيه جوهر ، وقال له : إن حاصلى قد قصر مما احتاج إليه وقد علانى دين مبلغه ألف ألف درهم . وإنى استحي أن أعلم أحداً بذلك ، وآنف أن أسأل أحداً من التجار أن يقرضنى ذلك ، وإن كان معى رهن يفى بالقيمة . وأنت — أبقاك الله ! — لك تجار يعاملونك ، وأنا أسألك أن تقترض لى من أحدهم هذا المبلغ وتعطيه هذا الرهن ، فقال له الفضل : السمع والطاعة ! ولكن نجح هذه الحاجة أن تقيم عندى هذا اليوم ، فأقام عنده . ثم أخذ الفضل السفط منه وهو مختوم بختمه ، وأرسل معه ألف ألف درهم ، وأنفذ الدراهم والسفط إلى منزله ، وأخذ خط وكيله بقبضه . وأقام محمد فى دار الفضل إلى آخر النهار ، ثم انصرف إلى داره . فوجد السفط ومعه ألف ألف درهم ، فسر بذلك سروراً عظيما . فلما جاء الغد بكر محمد إلى الفضل ليشكره على ذلك ، فوجده قد بكر إلى دار الرشيد ، فمضى محمد إليها . فلما علم الفضل بذلك ، خرج من باب

آخر ومضى إلى دار أبيه فمضى محمد إليه . فلما علم بذلك خرج من باب آخر ، ومضى إلى داره ، فمضى محمد إليه واجتمع به ، وشكره وقال له : إنى بكرت إليك لأشكرك على إحسانك ، فقال الفضل : إنى فكرت فى أمرك فرأيت أن هذه الألف ألف التى حملتها أمس إليك ، تقضى بها دينك ، ثم تحتاج فتقترض ، فبعد قليل يعلومثلها . فبكرت اليوم إلى أميرالمؤمنين ، وعرضت عليه حالك ، وأخذت لك مائة ألف ألف درهم أخرى ، ولما حضرت إلى أمير المؤمنين ، خرجت أنا من باب آخر ، وكذلك فعلت لما حضرت إلى باب أبى ، لأبى ما كنت أوثر أن ألقاك حتى يحمل المال إلى منزلك ، وقد حمل ، فقال له محمد : بأى شىء أجازيك على هذا الإحسان ؟ ما عندى شىء أجازيك به ، إلا أنى ألتزم بالأيمان المؤكدة وبالطلاق والعتاق ، أنى ما أقف على باب غيرك ولا أسأل سواك . فلما ذهبت دولة البرامكة ، وتولى الفضل بن الربيع الوزارة بعدهم ، احتاج محمد ، فقالوا له : لوركبت إلى الفضل بن الربيع ، فلم يقبل ، والتزم باليمين ، فلم يركب إلى أحد ، ولم يقف على باب أحد حتى مات [1] .

أما جعفر بن يحى فقد اشتهر بالفصاحة والفطنة والحلم والكرم ، وكان الرشيد يأنس به لسهولة أخلاقه ، ويؤثره على أخيه الفضل لشراشة أخلاقه ، ولذلك عمل على التخلص منه حتى قيل إن الرشيد قال يوماً ليحى : يا أبى ! ما بال الناس يسمون الفضل الوزير الصغير ولا يسمون جعفراً بذلك ؟ فقال يحى : لأن الفضل يخلفنى . قال : فضم إلى جعفر أعمالا كأعمال الفضل ، فقال يحى : إن خدمتك ومنادمتك يشغلانه عن ذلك ، فجعل إليه أمر دار الرشيد ، فسمى بالوزير الصغير أيضاً .

ولكن الرشيد كان يؤثر جعفراً على أخيه الفضل ، لعلو منزلته عنده ومحبته إياه ، وأبى إلا أن ينقل ديوان الخاتم من الفضل إلى جعفر ، وطلب من يحى أن يكتب إلى أبنه الفضل بذلك ، فكتب إليه : « قد أمر أمير المؤمنين — أعلى الله

---

(١) الفخرى ص ١٨٥ — ١٨٦ . انظر أيضاً . الجهشيارى : كتاب الوزراء والكتاب ص ٢٨٧ وما يليها .

أمره ! — أن تحول الخاتم من يمينك إلى شمالك » فأجابه الفضل « قد سمعت لما أمر به أمير المؤمنين فى أخى ، وما انتقلت منى نعمة صارت إليه ولا غربت عنى رتبة طلعت عليه » ، فقال جعفر : « لله در أخى ، ما أكيس نفسه وأظهر دلائل الفضل عليه ، وأقوى منه العقل عنده ، وأوضع فى البلاغة ذرعه ! » .

ولم يقتصر إيثار الرشيد وحبه جعفر بن يحيى على ما ذكرنا ، فقد ولاه مصر فى سنة ١٧٦ هـ . وفى سنة ١٨٦ أرسله إلى بلاد الشام حين أثار أهلها الفتن والقلاقل ، فأزال أسباب التذمر واطمأنت خواطر الأهلين ، فعلت منزلته عند الرشيد . فأسند إليه فى هذه السنة ولاية خراسان ، ثم ولاه حراسة الجيش .

ومما يدل على علو مكانة جعفر عند الرشيد وخطر مركزه فى الدولة العباسية ، أن جعفر بن يحيى البرمكى جلس يوماً للشرب ، وأحب الخلوة ، فأحضر ندماءه الذين يأنس إليهم ، وجلس معهم ، وقد هيئ المجلس ولبسوا الثياب المصبغة . وكانوا إذا جلسوا فى مجلس الشراب واللهو ، لبسوا الثياب الحمر والصفر والخضر . وقد أمر جعفر بن يحيى الحاجب ألا يأذن لأحد بالدخول عليه سوى رجل من الندماء كان قد تأخر عنهم ، يدعى عبد الملك بن صالح . ثم أخذوا يشربون ، ودارت الكاسات وخفقت العيدان . وكان أحد أقارب الخليفة يدعى عبد الملك ابن صالح بن على بن عبد الله بن العباس ، وكان شديد الوقار والدين والحشمة . وكان الرشيد قد طلب منه أن ينادمه ، فلم يفعل . فاتفق أن حضر عبد الملك ابن صالح المذكور إلى باب يحيى بن جعفر البرمكى ليخاطبه فى حوائج له ، فظن الحاجب أنه عبد الملك بن صالح الذى آثره جعفر بن يحيى البرمكى وأمر بألا يدخل عليه أحد سواه . فأذن الحاجب له ، فدخل على جعفر بن يحيى . فلما رآه كاد عقله يذهب حياء ، وفطن أن المسألة اشتبهت على الحاجب لاشتباه الاسم . وفطن عبد الملك بن صالح للقصة ، وظهر الخجل على وجهه

جعفر بن يحيي ، ولكن عبد الله بدا على وجهه السرور والانشراح وقال : لا بأس عليكم ، أحضروا لنا من هذه الثياب المصبغة . فأحضر له قميص مصبوغ فلبسه ، وجلس يباسط جعفر بن يحيي ويمازحه ، وقال : أسقونا من شرابكم ، فسقوه ، فقال : أرفقوا بنا فليس من عادتنا الإكثار من الشراب . ثم أخذ يمازحهم حتى زال انقباض جعفر بن يحيي وخجله وفرح جعفر بذلك فرحاً شديداً وقال لعبد الملك : ماحاجتك ؟ قال : جئت أصلحك الله ! — في ثلاث حوائج ، أريد أن تخاطب الخليفة فيها : أولها أن على ديناً مبلغه ألف ألف درهم أريد قضاءه ، وثانيها أريد ولاية لابني يشرف بها قدره ، وثالثها أريد أن تزوج ولدى بابنة الخليفة ، فإنها بنت عمه وهو كفء لها . فقال له جعفر بن يحيي : قد قضى الله هذه الحوائج الثلاث : أما المال ففي هذه الساعة يحمل إلى منزلك ، وأما الولاية فقد وليت ابنك مصر ، أما الزواج فقد زوجته فلانة ابنة مولانا أمير المؤمنين ، على صداق مبلغه كذا وكذا ، فانصرف في أمان الله [١] .

وإنما فعل جعفر ما فعل لشدة ثقته بنفسه عند الرشيد ، فإن عبد الملك لما عاد إلى منزله وجد أن المال قد سبقه . ولما كان من الغد حضر جعفر عند الرشيد وأعلمه بما جرى ، فأقره الرشيد على تصرفه ، ولم يخرج جعفر حتى كتب لابن عبد الملك تقليد بولاية مصر ، وعقد عقده على ابنة الرشيد .

أما موسى فكان أشد أبناء يحيي البرمكي بأساً ، كما كان كاملا سرياً وقائداً محنكا . ولاه الرشيد بلاد الشام سنة ١٧٦ هـ ، فأصبح أمورها وهدأت على يديه أحوالها . وقد أوقع به على بن عيسى والى خراسان عند الرشيد ، ورماه بتهمة إثارة الاضطرابات فيها والخروج على الخلافة . واتفق ان اختفى موسى بسبب دين عليه ، فازداد الرشيد اعتقاداً بصدق هذه الوشايات ، وأمر به فحبس في الكوفة . ولم يطلق سراحه إلا بوساطة أمه وضمان بيه له ، ثم عفا الرشيد عنه وخلع عليه . أما محمد بن يحيي فكان سرياً بعيد الهمة ، ولم يكن له من الشهرة ما كان لأخوته .

---

(١) ابن طباطبا ص ١٨٧ — ١٨٨ .

ومن ذلك نستطيع أن نقف على مبلغ خطر مركز الأسرة البرمكية فى أيام هارون الرشيد الذى وثق بهم ، وفوض إليهم أمور دولته . ولا تعجب إذا انصرف الناس إليهم ونظموا القصائد الرائعة فى مدحهم والتغنى بكرمهم وجـودهم الذى كان مضرب الأمثال .

وقد قيل إن الرشيد حج ومعه يحيى بن خالد بن برمك وأبناه الفضل وجعفر . فلما وصلوا إلى المدينة المنورة ، جلس الرشيد ومعه يحيى فأعطيا الناس ، وجلس الأمين ومعه الفضل بن يحيى فأعطيا الناس ، وجلس المأمون ومعه جعفر فأعطيا الناس . وقد ضربت الأمثال بكثرة هذه الأعطيات الثلاث ، حتى كانوا يسمون هذا العام عام الأعطيات الثلاث .

وقد بلغ من جود يحي وكرمه ، أنه كان إذا ركب أعد صرراً فى كل منها مائتا درهم يدفعها إلى الذين يقفون فى طريقه ويلتمسون معونته : لهذا لانعجب إذا تلمس الوشاة وعمال السوء أسباب الإيقاع بالبرامكة الذين بلغوا أوج عظمتهم وذروة عزهم ، وقصدهم الرائح والغادى والحقير والنبيل .

٣ — صفات الرشيد وأخلاقه — وفاته :

« كان هارون أبيض طويلا مسمناً جميلا » [١] . « وكانت دولة الرشيد » كما يقول ابن طباطبا [٢] : « من أحسن الدول وأكثرها وقاراً ورونقاً وخيراً ، وأوسعها رقعة مملكة . جبى الرشيد معظم الدنيا . . . ولم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقراء والقضاة والكتاب والندماء والمغنين ما اجتمع على باب الرشيد . وكان يصل كل واحد منهم أجزل صلة ويرفعه إلى أعلى درجة . وكان فاضلا شاعراً راوية للأخبار والآثار والأشعار ، صحيح الذوق والتمييز ، مهيباً عند الخاصة والعامة » .

---

(١) الخطيب البغدادى : كتاب تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٥ .

(٢) الفخرى ص١٧٧ — ١٧٨ .

كان الرشيد من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم وكرمائهم . كان يحج سنة ويغزو سنة مــدة خلافته إلا سنين قليلة . وكان يصلى كل يوم مائة ركعة ، وحج ماشياً ، ولم يحج خليفة ماشياً غــيره . وكان إذا حج حج معــه مائة ألف من الفقهاء وأبناؤهم ، وإذا لم يحج أحج ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة والـكسوة الظاهرة وكان يتشبه فى أفعاله بالمنصور إلا فى بذل المــال ، فإنه لم ير خليفة أسمح منه بالمال ، وكان لايضيع عنده إحسان محسن ولا يؤخر . وكان يحب الشعر والشعراء ويميل إلى أهل الأدب والفقة ، ويـكره المراء فى الدين .

قال الأصمعى : صنع الرشيد طعاماً ، وزخرف مجلسه ، وأحضر أبا العتاهية وقال له : صف لنا مانحن فيه من نعيم هذه الدنيا ، فقال أبو العتاهية :

عش مابدا لك سالمــاً في ظل شاهقة القصــور

فقال الرشيد . أحسنت ، ثم ماذا ؟ فقال :

فإذا النفوس تقعقعت فى ظل حشرجة الصــدور
فهنــاك تعــلم موقناً ما كنت إلا فى غرور

فبــكى الرشيد ، فقال الفضل بن يحيى : بعث إليك أمير المؤمنين لتسره فحزنته ، فقال الرشيد : دعه ، فإنه رآنا فى عمى فــكره أن يزيدنا منه .

اشتهر الرشيد بحسن معاملة العلماء . قال أبو معاوية الضرير أحــد علماء عصره : أكلت مع الرشيد يوماً ، فصب على يدى الماء رجل ، فقال لى : يا أبا معاوية ! أتدرى من صب الماء على يدك ؟ فقلت لا ياأمير المؤمنين ، فقال : أنا ، فقلت : يا أمير المؤمنين ! أنت تفعل هذا إجلالا للعلم ، قال : نعم (١) .

قال الخطيب البغدادى (٢) : « اجتمع للرشيد مالم يجامع لأحد من جد وهزل : وزراؤه البرامــكة ، لم ير مثلهم سخاء وسروراً ، وقاضيه أبو يوسف ، وشاعره

(١) الفخرى ص ١٧٥ — ١٧٦ .

(٢) تاريخ بغداد جـ ١٤ ص ١١ .

مروان بن أبي حفصة ، كان في عصره كجرير في عصره ، ونديمه عم أبيه العباس ابن محمد صاحب العباسية ، وحاجبه الفضل بن الربيع ، أتية الناس وأشدهم تعاظماً ، ومغنيه إبراهيم الموصلي واحد عصره في صناعته ، وضاربه زلزل ، وزامره برسوماً وزوجته أم جعفر ، أرغب الناس في خير ، وأسرعهم إلى كل بر ، وهي أسرع الناس في معروف . أدخلت المـاء الحرم بعـد امتناعه من ذلك إلى أشياء من المعروف » .

وفي عهـد الرشيد مات من أعلام الإسلام الإمام مالك بن أنس ، والليث بن سعد الفقيه المصري ، والفقيه أبو يوسف صاحب كتاب الخراج ، وسيبويه إمام العربية ، ومروان بن أبي حفصة الشاعر ، والمفضل بن فضالة قاضي مصر . وموسى الـكاظم ، وهو الإمام السابع عند طائفة الإمامية الإثنا عشرية ، والعباس بن الأحنف الشاعر [1] .

بلغت بغداد في عهد الرشيد درجة عالية من الحضارة والعمران ، فبنيت فيها القصور الشاهقة ، وزادت موارد ثروتها ، وكانت تصـل إليها التجارة من أقصى البلدان . ذكر المؤرخون أن الرشيد أراد أن يوصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر ممـا يلي الفرما ، فقال له يحي بن خالد البرمـكي : كان يختطف الروم الناس من المسجد الحرام وتدخل مراكبهم إلى الحجاز ، فعدل عن هذا الرأي . [2]

وكانت خزائن الرشيد تفيض بالأموال التي كانت تجبي من الضرائب ، وحتى بلغت في عهده مايقرب من اثنين وسبعين مليون دينار ، عدا الضريبة العينية التي كانت تؤخذ ممـا تنتجه الأرض من الحبوب ، حتى إن الرشيد كان يستلقي على ظهره وينظر إلى السحابة المارة ويقول : اذهبي حيث شئت يأتني خراجك [3] . وصفوة القول أن « أيام الرشيد كانت — كما يقول السيوطي [4] — كلها أيام خير كأنها في حسنها أعراس » .

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ١٩٠

(٢) المصدر نفسه ص ١٨٩ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٢ ص ٢٧٠

(٤) تاريخ الخلفاء ص ١٨٩ .

اشتدت علة الرشيد وهو بطوس فى أضيعة تعرف بسناباذ ، فدعا من كان بعسكره من بنى هاشم ، وأوصاهم بثلاث : الحفظ لأمانتكم ، والنصيحة لأئمتكم ، واجتماع كلمتكم ، وانظروا محمداً (الأمين) وعبد الله (المأمون) ، فمن بغى منهما على صاحبه فردوه عن بغيه وقبحوا له بغيه ونكثه .

ولما اشتدت علة الرشيد هون عليه الأطباء علته ، فأرسل إلى طبيب فارسى كان هناك ، فأراه ماءه مع قوارير شتى . فلما انتهى إلى قارورته قال : عرفوا صاحب هذا الماء أنه هالك ، فليوص ، فإنه لا برء له من هذه العلة ، فبكى الرشيد ، وجعل يردد هذين البيتين :

إن الطبيب بطبه ودوائه لا يستطيع دفاع محذور أتى
ما للطبيب يموت بالداء الذى قد كان يبرئ نفسه فيما مضى ؟ (١)

عهد الرشيد بالخلافة لأبنائه الأمين ثم المأمون ثم المؤتمن ، وكتب بذلك صحيفة أشهد فيها القضاة والفقهاء وأكابر بنى هاشم ، وعلقت فى الكعبة . ثم مات يوم السبت لأربع ليال خلون من شهر جمادى الآخرة سنة ١٩٣ هـ ، فكانت ولايته ثلاثا وعشرين سنة وستة أشهر ، ومات وهو ابن أربع وأربعين سنة وأربعة أشهر (٢) .

الأمين

(١٩٣ — ١٩٨ / ٨٠٨ — ٨١٣)

ولد أبو عبد الله محمد الأمين سنة ١٧٠ هـ ، وهى السنة التى ولى فيها أبوه الرشيد الخلافة ، وذلك بعد مولد أخيه عبدالله المأمون بستة أشهر . وأمه أم جعفر زبيدة ابنة جعفر بن المنصور ، وليس فى خلفاء بنى العباس من أبوه وأمه هاشميان سواه . ولما مات الرشيد بطوس ، أحضر إليه رجاء الخادم وهو ببغداد البردة والقضيب والخاتم ، وهى شارات الخلافة .

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ١٨١ .
(٢) الطبرى ج ١٠ ص ١١٢ .

وقد وصف الطبرى (١) محمد الأمين فى هـذه العبارة فقال : « وكان سبطا أنزع أبيض ، صغير العينين أقنى جميلا عظيم الكراديس ، بعيد ما بين المنكبين » ، ووصفه السيوطى (٢) بقوله : وكان من أحسن الشباب صورة ، أبيض طويلا ، ذا قوة مفرطة وبطش وشجاعة معروفة ، يقال إنه قتل مرة أسداً بيده . وله فصاحة وبلاغة وأدب وفضيلة ، لكن كان سيء التدبير كثير التبذير ضعيف الرأى أرعن، لا يصلح للإمارة » .

كان عهد الأمين مليئاً بالفتن والاضطرابات ، وفى الوقت الذى قامت هذه الفتنة بينه وبين أخيه المأمون ، اشتعلت نار الثورة فى بلاد الشام على يد على بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية ، المعروف بالسفيانى ، الذى دعا إلى نفسه ، واحتل دمشق وما يليها بعد أن طرد عامل الأمين . وكاد يتم له الاستقلال بهذه البلاد ، لولا أن قام بين اليمنيين والمضريين نزاع خطير حال دون تحقيق أمانيه . وقد أرسل الأمين الجيوش لقمع هذه الفتن بقيادة الحسين بن على بن عيسى بن ماهان ، ثم عبد الله بن صالح بن على العباسى . ولكن سوء الحالة فى بغداد حال دون القيام بعمل جدى ضد هذا السفيانى . وهكذا أصبحت بلاد الشام مسرحاً للفوضى سنتين أو أكثر . هذا إلى أن الحسين بن على بن عيسى قد أثار عداء جنوده الشاميين بتحيزه لجنده الخراسانيين ، ومن ثم عاد هذا القائد فجأة إلى بغداد (٣) .

روى السيوطى (٤) عن اسحاق الموصلى قال : « اجتمعت فى الأمين خصائل لم تكن فى غيره : كان أحسن الناس وجهاً وأسخاهم ، وأشرف الخلفاء أباً وأماً ، حسن الأدب عالماً بالشعر ، لكن غلب عليه الهوى واللعب . وكان مع سخائه بالمال بخيلا بالطعام جداً . وقال أبو الحسن الأحمر : كنت ربما أنسيت البيت الذى

---

(١) جـ ١٠ ص ٢٠٩ .

(٢) تاريخ الخلفاء ص ١٩٧ .

(٣) الطبرى جـ ١٠ ص ١٦٥

(٤) تاريخ الخلفاء ص ٢٠٢ .

يستشهد به فى النحو ، فينشدنيه الأمين . وما رأيت فى أولاد الملوك أذكى منه ومن المأمون . « وكان الأمين يجيد الشعر (١) ، ويميل إلى اللهو واللعب والتبذير ، وبنى مجالس للتنزه ، وفى ذلك يقول الطبرى (٢) :

« ولما ملك محمد ، وجه إلى جميع البلدان فى طلب الملهين ، وضمهم إليه ، وأجرى لهم الأرزاق ، ونافس فى ابتياع فره الدواب ، وأخذ الوحوش والسباع والطير وغير ذلك ، واحتجب على إخوته وأهل بيته وقواده ، واستخف بهم ، وقسم مافى بيوت الأموال وماحضرته من الجواهر فى خصيانه وجلسائه ومحدثيه . وحمل إليهم ما كان فى الرقة من الجوهر والخزائن والسلاح . وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ، ومواضع خلوته ولهوه ولعبه ، بقصر الخلد والخيزرانية وبستان موسى وقصر عبدوية وقصر المعلى ورقة كلواذى وباب الأنبار ونبارى والهوب . وأمر بعمل حراقات فى دجلة على خلقة الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس ، وأنفق فى عملها مالا عظيما » .

ولم يعمر الأمين طويلا ، فقد قتل بعد أن جلس على عرش الخلافة أربع سنين وثمانية أشهر وخمسة أيام ، وذلك فى شهر ربيع الأول سنة ١٩٨ هـ ، وكان فى الثامنة والعشرين من عمره . وقد ذهب الأمين ضحية هذه الفتنة التى قامت بينه وبين أخيه المأمون ، بسبب خلعه أخاه ، وتوليته ابنه موسى العهد من بعده ، ونكث العهد والميثاق الذى أخذه عليه أبوه الرشيد وعلقه فى الكعبة . وقد ساد عهده هذه الفتنة الهوجاء التى فرقت المسلمين وأضعفت قوتهم وقوضت كثيراً من معالم مدينة بغداد حاضرة العباسيين ، وكعبة العلوم والآداب ، ومركز التجارة ، وحاضرة الإسلام .

ولما قتل الأمين أرسل عبد الله بن طاهر رأسه إلى المأمون ، الذى صفا له الجو واستقرت له الأمور ، وكتب إلى الأمصار الإسلامية كتاباً جاء فيه :

---

(١) السيوطى . تاريخ الخلفاء ص ٢٠٢

(٢) جـ ١٠ ص ٢١٥ ، ٢١٦ .

« أما بعد فإن المخلوع كان قسيم أمير المؤمنين فى النسب واللحمة . وقد فرق الله بينه وبينه فى الولاية والحرمة ، بمفارقته عصم الدين ، وخروجه من الأمر الجامع للمسلمين . يقول الله عز وجل حين اقتص علينا نبأ نوح (إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح) ، فلا طاعة لأحد فى معصية الله ، ولا قطيعة إذا كانت القطيعة فى جنب الله . وكتابى إلى أمير المؤمنين وقد قتل الله المخلوع ورداه رداء نكسه وأحصد لأمير المؤمنين أمره وأنجز له وعده ، وما ينتظر من صادق وعده حين رد به الألفة بعد فرقتها ، وجمع الأمة بعد شتاتها ، وأحيا به أعلام الإسلام بعد دروسها [1] » .

وقد أصاب ابن الأثير فى وصف الأمين بقوله : « لم نجد للأمين من سيرته ما نستحسنه فنذكره » .

المأمون

(١٩٨ — ٢١٨ / ٨١٣ — ٨٣٣ م)

ولد عبد الله أبو العباس المأمون بن الرشيد سنة ١٧٠ هـ ، فى الليلة التى مات فيها عمه الخليفة الهادى . وأمه أم ولد تسمى مراجل ، وقد ولاه أبوه العهد وهو فى الثالثة عشرة من عمره بعد أخيه الأمين ، وأسند إليه ولاية خراسان وما يتصل بها إلى همذان . ولما توفى أبوه لم يف له أخوه الأمين بعهده ، كما تقدم ، بل عول على أن يقدم عليه ابنه موسى فى ولاية العهد ، فأبى المأمون ذلك ، ونشبت بينهما تلك الحروب التى انتهت بقتل الأمين ٢٥ من المحرم سنة ١٩٨ هـ .

بويع المأمون بالخلافة وهو فى الرى ، وظل بخراسان حتى قدم بغداد فى منتصف شهر صفر سنة ٢٠٤ . وقد وصفه ابن طباطبا [2] فقال : واعلم أن المأمون كان من عظماء الخلفاء ومن عقلاء الرجال . وله اختراعات كثيرة فى مملكته .

---

(١) الطبرى ج ١٠ ص ٢١٤ — ٢١٥ .

(٢) الفخرى ص ١٩٧ — ١٩٨ .

منها أنه أول من فحص منهم علوم الحكمة وحصل كتبها وأمر بنقلها إلى العربية وشهرها ، وحل إقليدس ونظر فى علوم الأوائل ، وتكلم فى الطب وقرب أهل الحكمة . ومن اختراعاته مقاسمته أهل السواد بالخمسين . وكانت المقاسمة المعهودة النصف . ومن اختراعاته إلزام الناس أن يقولوا بخلق القرآن . وفى أيامه نشأت هذه المقالة . ونظر فيها أحمد بن حنبل وغيره . ولما مات المأمون أوصى أخاه المعتصم بها . فلما ولى المعتصم تكلم فيها ، وضرب أحمد بن حنبل . ومن اختراعاته أيضاً نقل الدولة من بنى العباس إلى على عليه السلام ، وتغيير الناس السواد بلباس الخضرة ، وقالوا هو لباس أهل الجنة .

الأحوال الداخلية :

مال المأمون أول الأمر إلى العلويين ، واتخذ الخضرة شعارهم ، وصاهر علياً الرضا وولاه عهده ، وأنزل العلويين منازل العز والكرم ، وظل على ذلك حتى عزم على المسير إلى بغداد . ومات على الرضا وهو فى طريقه إليها على ما سيأتى . ومع ذلك لم يغير المأمون سياسته نحو العلويين بعد أن رجع إلى السواد شعار العباسيين ، إلى أن أقام باليمن عبد الرحمن بن عبد الله العلوى سنة ٢٠٧ ﻫ ، فبعث إليه المأمون أحد رجاله ، فأمنه وألبسه السواد .

وفى سنة ٢٠٣ ﻫ ، ولى المأمون محمداً الزيادى بلاد تهامة ليقضى على المتشيعين فيها ، فاختط مدينة زبيد ، وأصبح أشبه بملك مستقل . إلا أنه كان يخطب للعباسين ويؤدى لهم الخراج ، وظل الملك فى أعقابه إلى سنة ٥٥٣ ﻫ . وبذلك انسلخت هذه البلاد عن الدولة العباسية . وكانت الدولة الزيادية أول دولة استقلت باليمن ، كما كانت الحال بالنسبة إلى دولة الأغالبة التى أسسها الرشيد سنة ١٨٤ ﻫ ، لتكون حاجزاً بين بلاده وبلاد الأدارسة ، فاعتز ملكهم وقويت شوكتهم إلى أن أزال الفاطميون دولتهم . وقد انسلخت هاتان الدولتان عن الدولة العباسية . وكان السبب فى تكوينها خوف العباسيين من أن يمتد نفوذ العلويين إلى بلادهم .

وقد ثار أهل بغداد وولوا إبراهيم بن المهدى الخلافة حين كان المأمون بمرو . فلما أحس الناس بقدوم المأمون خلعوا إبراهيم ، فاختفى ثم قبض عليه ، فعفا عنه المأمون ، وقربه إليه . وقد قبض على إبراهيم فى سنة ٢١٠ هـ ، عقب اكتشاف مؤامرة بزعامة إبراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام المعروف بابن عائشة ، ترمى إلى اغتيال المأمون وتولية إبراهيم بن المهدى الخلافة . أما ابن عائشة فقد أمر المأمون بأن يقام ثلاثة أيام فى الشمس ، ثم ضرب بالسياط وحبس ثم قتل وصلب . وأعقب ذلك القبض على إبراهيم بن المهدى وهو متزى بزى امرأة . يقول الطبرى[1] : أخذ إبراهيم . . . وهو متنقب مع امرأتين فى زى امرأة ، أخذه حارس أسود ليلا ، فقال : من أنتن ، وأين تردن فى هذا الوقت ؟ فأعطاه إبراهيم فيما ذكر خاتم ياقوت كان فى يده ، له قدر عظيم ليخليهن ولا يسألهن . فلما نظر الحارس إلى الخاتم استراب بهن وقال : هذا خاتم رجل له شأن ، فرفعهن إلى صاحب المسلحة ، فأمرهن أن يسافرن ، فتمنع إبراهيم . فجذبه صاحب المسلحة . فبدت لحيته ، فرفعه إلى صاحب الجسر فعرفه ، فذهب به إلى باب المأمون ، فاعلم به ، فأمر بالاحتفاظ به فى الدار . فلما كان غداة الأحد أقعد فى دار المأمون ، لينظر إليه بنو هاشم والقود والجند ، وصيروا المقنعة التى كان متنقباً بها فى عنقه ، والملحفة التى كان متلحفاً بها فى صدره ، ليراه الناس ويعلموا كيف أخذ . فلما كان يوم الخميس حوله المأمون إلى منزل أحمد بن أبى خالد فحبسه عنده ، ثم أخرجه المأمون معه ، حيث خرج إلى الحسن بن سهل بواسط ، فقال الناس إن الحسن كلمه فيه ، فرضى عنه وخلى سبيله ، وسيره عند أحمد بن أبى خالد وسير معه خالد بن يحيى بن معاذ ، وخالد بن يزيد بن مزيد يحفظانه . إلا أنه موسع عليه عند أمه وعياله ، ويركب إلى دار المأمون وهؤلاء معه يحفظونه . فلما أدخل على المأمون قال له : هيه يا إبراهيم ! فقال : يا أمير المؤمنين ! ولى الثأر محكم فى القصاص ، والعفو أقرب للتقوى ، ومن تناوله الاغترار بما مد له من

---

(١) حـ ١٠ ص ٢٧٠ — ٢٧١

أسباب الشقاء ، أمكن عادية الدهر من نفسه . وقد جعلك الله فوق كل ذى ذنب ، كما جعل كل ذى ذنب دونك . فإن تعاقب فبحقك ، وإن تعف فبفضلك ، قال : بل أعفو ياإبراهيم ، فكبر ثم خر ساجداً . وقيل إن إبراهيم كتب بهذا الكلام إلى المأمون وهو مختف ، فوقع المأمون فى حاشية رقعته : القدرة تذهب الحفيظة ، والندم توبة ، وبينهما عفو الله ، وهو أكبر مانسأله » .

وفى عهد المأمون شق نصر بن شَبَث عصا الطاعة . وكان عربياً يتعصب للأمين لأنه يمثل العنصر العربى وينقم على المأمون لاتخاذه الخراسانيين دون العرب أنصاراً له . وقد تغلب نصر على ماجاوره من البلاد ، وشايعه كثير من العرب . ولما انتصر طاهر بن الحسين على الأمين واستولى على العراق ، ندبه المأمون لمحاربة نصر ، وولى الحسن بن سهل العراق ، وطلب من طاهر بن الحسين أن يسير لمحاربة نصر ، وأن يتخذ الرقة مركزاً لأعماله الحربية . ولكن طاهراً لم يجد فى حرب نصر ، لأنه كان يحقد على المأمون ووزيره الفضل بن سهل ، لانتزاعه بلاد العراق منه ، وأحرزت جيوش نصر بن شبث النصر على جيوش طاهر بن الحسين ، وأراد بعض العلويين أن يقيموا خليفة منهم ، فأبى نصر ذلك عليهم وقال : إنما هواى فى بنى العباس ، وإنما حاربتهم محاماة عن العرب ، لأنهم يقدمون عليهم العجم . ولما قدم المأمون بغداد ، استدعى طاهراً ، وولى ابنه عبد الله بن طاهر خراسان ، وكتب له كتاباً مشهوراً يوصيه فيه بمحاربة نصر ، فجد فى حربه وحاصره حتى طلب الأمان . وكان المأمون قد ندب إليه من يؤمنه ، فأجاب على ألا يطأ بساط المأمون فأبى الخليفة ، واستمرت الحرب سجالا بين الفريقين ، حتى أرغم نصر على طلب الأمان ، وسيق إلى بغداد فى شهر صفر سنة ٢١٠ هـ ، بعد أن حارب جيوش المأمون نحواً من خمس سنين (١) .

كذلك عكر الزط صفو المأمون . وهم قوم من أخلاط الناس غلبوا على طريق البصرة وعاثوا فيها ، وأفسدوا البلاد ، وهم المعرفون بالنور . وأصلهم من هنود

(١) الطبرى ج ١٠ ص ٢٥٧ وما يليها فى حوادث سنة ٢٠٥ هـ إلى سنة ٢١٠ هـ .

آسيا ، وكانوا يقيمون على سواحل الخليج الفارسى ، وانتهزوا قيام الفتنة بين الأمين والمأمون ، فاستولوا على طريق البصرة . ولما عاد المأمون إلى بغداد ندب عيسى بن يزيد الجلودى لمحاربتهم (سنة ٢٠٥ هـ) . وفى سنة ٢٠٦ هـ ولى المأمون داود بن ماسجور البصرة وكور دجلة واليمامة والبحرين ، وندبه لمحاربة الزط . فلم يكن لحربه هو ومن سبقه من القواد أثر ظاهر ، بدليل قول نصر بن شبث عن المأمون حين ألح فى أن يطأ نصر بساطه : إنه لم يقو على أربعمائة ضفدع تحت جناحه . واستمر الزط يقاتلون العباسيين إلى أيام المعتصم حيث قضى عليهم فى سنة ٢١٩ هـ .

وفى عهد المأمون ثار المصريون سنة ٢١٠ هـ ، فبعث عبد الله بن طاهر لإخماد هذه الثورة ، فاستولى على الفسطاط وأقر الأمن . ثم تفرغ لإصلاح البلاد ، وزاد فى جامع عمرو بن العاص . ولكن ولايته لم يطل أمدها ، فعاد إلى العراق ، وعادت الثورات فى مصر سيرتها الأولى ، وانتقض القبط ، وخرج فريق من عرب مصر الذين كانوا يناصرون الأمين ، فندب المأمون قائده الأفشين ، ثم جاء إلى هذه البلاد بنفسه وأعاد الأمن إلى نصابه (١) .

على أن الحسن بن سهل لم يتمكن من سياسة أهل العراق بالحزم ، كما شاع فى تلك البلاد بعد خروج طاهر بن الحسين منها ، أن الفضل بن سهل قد استبد بالأمور دون المأمون ، وأنه أنزله قصراً حجبه فيه عن أهل بيته وقواده ، مما أثار استياء بنى هاشم ووجوه الناس فى بلاد العراق . وثارت القلاقل فى الأمصار ، فقامت بضواحى الكوفة (سنة ١٩٩ هـ) فتنة بزعامة أبى السرايا ، الذى كان يدعو لأحد العلويين ، وأوقع الهزيمة بجيوش الحسن بن سهل ، مما اضطر أخاه الفضل — برغم شدة حقده على هرثمة — إلى أن يرسله على رأس جيش كبير لقمع حركة أبى السرايا الذى حلت به الهزيمة .

ولما قضى هرثمة على ثورة أبى السرايا ، ولاه الخليفة بلاد الشام والحجاز ،

---

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٤٩٢

لكنه اعتذر عن قبول هذا المنصب قبل أن يطلع المأمون بنفسه على حقيقة الحال فى العراق وما يليه غرباً ويوجه نظره إلى الخطر المحدق به . فلما بلغ هرثمة مرو حاضرة خراسان ، خشى أن يخفى الفضل بن سهل خبر قدومه عن الخليفة ، فضرب الطبول ، ومالبث أن مثل بين يديه ، وأفضى إليه بحقيقة الحال فى الدولة الإسلامية ، فجازاه على عمله هذا بحبسه ، ولم يزل فى سجنه حتى قتل .

على أن قتل هرثمة أثار غضب رجال الجيش فى بغداد ، وانتشرت الفوضى من جديد . فتألب أهلها على الحسن بن سهل ، وأقاموا المنصور بن المهدى أميراً عليهم . بعد أن تنحى عن قبول الخلافة .

وقد أثار مبايعة على الرضا بولاية العهد غضب العباسيين ، فنادوا بخلع المأمون ، وبايعوا إبراهيم بن المهدى بالخلافة كما تقدم ، ولقبوه المبارك . فتصدى لهم الحسن بن سهل واليه على العراق ، غير أنه عجز عن إخماد هذه الفتنة ، وظل إبراهيم بن المهدى خليفة ببغداد مدة سنتين .

ولما علم المأمون بما وصلت إليه الحال فى بغداد من الاضطراب ، عول على الرحيل إليها . وبينما كان فى طريقه إلى تلك المدينة ، دس لوزيره الفضل بن سهل من قتله ، فتفرق عنه أنصاره ولما وصل إلى طوس حدثت حادثة أخرى ، هى وفاة على الرضا ، وقد اتهم المأمون بقتله تقرباً إلى العباسيين .

قدم المأمون بغداد ، فازدحمت جموع أهلها فى الطرقات ، وتهللت وجوههم فرحاً واستبشاراً بعودة الخليفة إلى حاضرة ملكه . وبعد أن استقر الأمر للمأمون فى بغداد أسند الوزارة إلى الحسن بن سهل وطلب الزواج من ابنته بوران ، فرحب الوزير بهذه المصاهرة ، وبذل على زفافها كثيراً من الأموال ، حتى لقد قدر بعض المؤرخين نفقات الزواج بخمسين مليون درهم .

ولما عرضت للحسن بن سهل علته التى أودت بحياته ، انقطع بداره ، واحتجب عن الناس ، فاستوزر المأمون أحمد بن أبى خالد ، وكان على جانب كبير من رجاحة العقل ، كما كان كاتباً فصيحاً بصيراً بعواقب الأمور . وقد استشاره

المأمون فى تولية طاهر بن الحسين على خراسان ، فصوب هذا الرأى . على أن طاهراً لم يلبث أن قطع الخطبة للخليفة ، ووضع نواة الدولة الطاهرية ، فهدد المأمون وزيره وصمم على قتله إذا لم يعمل على التخلص من هذا الخارج ، فارسل الوزير إلى طاهر هدية فيها كوامخ مسمومة ، فأكل منها ومات لساعته .

استشار المأمون الحسن بن سهل فيمن يوليه الوزارة بعد أحمد بن أبى خالد ، فأشار عليه بتولية أحمد بن يوسف وأبى عباد بن يحيى وقال : هما أعرف الناس بطبع أمير المؤمنين : فقال له اختر لى أحدهما ، فاختار أحمد بن يوسف فاستوزره .

وكان أحمد بن يوسف كاتباً أديباً وشاعراً ، عالماً بأمور الدولة وآداب الملوك . استشاره المأمون فى رجل كان يكرهه أحمد ، فوصفه وذكر محاسنه ، فقال له المأمون : يا أحمد ! لقد مدحته على سوء رأيك فيه ومعاداته لك ، فقال : لأنى لك كما قال الشاعر :

كفى ثمناً عما أسديت أنى	صدقتك فى الصديق وفى عدائى
وأنى حين تندبنى لأمر	يكون هداك أغلب من هوائى

٢ — صفات المأمون وأخلاقه — وفاته :

كان المأمون يتحلى بكثير من الصفات التى امتاز بها عن سائر الخلفاء العباسيين . من ذلك ميله إلى العفو وكراهته للانتقام . وليس أدل على ظهور هذه الصفة فيه من عفوه عن إبراهيم بن المهدى الذى تربع فى كرسى الخلافة نحواً من سنتين ، وعن الفضل بن الربيع الذى حرمه من السلاح والعتاد الذى كان أبوه الرشيد قد أوصى بتسليمه إليه بعد وفاته ، فإنه مع ذلك لم يعمل على التخلص منه وقال : أما القتل فلا أقتله ، ولكن أجعله بحيث إذا قال لم يطع وإذا دعا لم يجب . وهذا أقل ما كان ينتظر من المأمون ، ولا سيما بعد أن بلغه ما كان من تنازع الفضل بن الربيع مع على بن عيسى ، وتوجيهه معه قيدا من الفضة ، بعد أن تنازعا فى الفضة والحديد ليقيده بها .

وقد تحلى المأمون بكثير من الصفات التى ترجح كفة الحكم له فى نظر

المؤرخ ، على الرغم مما ظهر به من القسوة فى إخماد الثورة التى قامت فى مصر فى سنتى ٢١٢ ، ٢١٦ هـ ، وكذلك فى معاملة يحى بن أكثم وأبى دلف حين غضب عليهم .

وقد فاق المأمون الخلفاء العباسيين قاطبة فى كرمه . يدل على ذلك ما أنفقه على زواجه من بوران بنت الحسن بن سهل ، فقد أمر عند انصراف الحسن من فم الصلح[١] بعشرة آلاف ألف درهم ، كما أقطعه فم الصلح ، وأطلق له خراج فارس وكور الأهواز مدة سنة . ويحدثنا ابن طباطبا[٢] أنه لما وصل إلى دمشق قل المال عنده ، فشكا ذلك إلى أخيه المعتصم (وكان يلى بعض أعمال الدولة) . فلم يمض أسبوع واحد حتى وافاه من المال ثلاثون ألف ألف ألف درهم (الألف مكررة ثلاث مرات) ، فقال المأمون لقاضيه يحى بن أكثم : أخرج بنا للنظر إلى هذا المال ، فخرج وخرج الناس معه ، وقد زين الحمل وزخرف ، فقال المأمون : إن انصرافنا إلى منازلنا بهذا المال وانصراف الناس خائبين لؤم ، ثم أمر كاتبه أن يعطى بعض خاصته ألف ألف ، والبعض الآخر أكثر من ذلك ، حتى فرق أربعة وعشرين ألف ألف ألف ، ثم أمر فحول الباقى على الجيش ومصالحه .

وكان المأمون حاضر البديهة سريع الجواب . روى أن امرأة جاءته وهو فى مجلس من العلماء وقالت له : يا أمير المؤمنين ! مات أخى وخلف ستمائة دينار ، أعطونى ديناراً . فأخذ المأمون يحسب ثم قال لها : هذا نصيبك ، فقال له العلماء : كيف علمت يا أمير المؤمنين ؟ فقال : هذا الرجل خلف ابنتين ، قالت : نعم ، قال : فلهن الثلثان أربعمائة ، وخلف والدة ، فلها السدس مائة ، وخلف زوجة فلها الثمن خمسة وسبعون ، وبالله ألك اثنا عشر أخا ؟ قالت : نعم ! قال : أصابهم ديناران وأصابك دينار .

---

(١) هو إقليم على قناة كبيرة تعرف بهذا الاسم ، تأخذ من دجلة فوق واسط ، وتقع بين هذه المدينة وتل تقع عليه عدة مدن صغيرة ، زوج فى أحدها الوزير الحسن بن سهل ابنته بوران للمأمون . انظر لفظ فم الصلح فى معجم البلدان لياقوت .

(٢) الفخرى ص ١٧٩ .

وقد أثر عن المأمون كثير من الأحاديث التى أصبحت أقرب إلى الحكم ، من ذلك قوله : الناس ثلاثة : فمنهم مثل الغذاء لابد منه على كل حال ، ومنهم كالدواء يحتاج إليه فى حال المرض ، ومنهم كالداء مكروه على كل حال .

وكان المأمون يقرب منه الشعراء ، كما حذق هو نفسه الشعر ، حتى نفقت سوقه ، وكثر الشعراء والمغنون وعلماء الكلام فى عهده .

وكان المأمون يميل إلى الإقناع فى الجدل والمناقشة « واحتمال آراء المتناظرين إذا لم تتفق مع آرائه وميوله ، والعمل على قطع دابر الرياء والنفاق وغيرهما من الرذائل التى كانت متفشية بين قواده وجنده » .

وتوفى المأمون فى آخر غزواته ببلاد الدولة البيزنطية ، فقد أصابته الحمى وهو فى شمالى مدينة طوس ، وتوفى فى الثامنة والأربعين من عمره ، وكان قد عهد بالخلافة من بعده إلى أخيه أبى إسحاق بن الرشيد ، وأحسن بذلك إلى أسرته وإلى نفسه .

المعتصم

(٢١٨ — ٢٢١ / ٨٣٣ — ٨٤٢)

ولد أبو إسحاق محمد المعتصم سنة ١٧٨ هـ . وأمه أم ولد تسمى ماردة[1] ، وأبوه الرشيد . وكان يلى بلاد الشام ومصر فى عهد أخيه المأمون . ولما مرض المأمون عهد إليه بالخلافة وعدل عن تولية ابنه العباس الذى كان يتمتع بشهرة واسعة بين جند العرب . ولعل السبب الذى حمله على ذلك هو أنه رأى فى شكيمة المعتصم ومتانة خلقه ما يضمن له تنفيذ السياسة التى رسمها لدولته .

وقد أوصى المأمون أخاه المعتصم وصية جاء فيها : « يا أبا إسحاق ! أدن منى ، واتعظ بما ترى ، وخذ بسيرة أخيك فى القرآن ، وأعمل فى الخلافة إذا طوقكها الله عمل المريد لله ، الخائف من عقابه وعذابه . ولا تغتر بالله ومهلته ، فكأن قد نزل بك

---

(١) ذكرها المسعودى (مروج الذهب ج٢ ص٣٤٥) مارية ، وذكرها الطبرى (ج١١ ص٩) ، والسيوطى (ص ٢٢٢) ماردة .

الموت ، ولا تغفل أمر الرعية ، الرعية الرعية ، العوام العوام ، فإن الملك بهم ، وبتعهدك المسلمين والمنفعة لهم ، الله الله فيهم وفي غيرهم من المسلمين . ولا ينهين إليك أمر فيه صلاح للمسلمين ومنفعة لهم إلا قدمته وآثرته على غيره من هواك . وخذ من أقويائهم لضعفائهم ، ولا تحمل عليهم في شيء ، وانصف بعضهم من بعض بالحق بينهم ، وقربهم وتأمنهم . وعجل الرحلة عني والقدوم إلى دار ملكك بالعراق . وانظر هؤلاء القوم الذين أنت بساحتهم ، ولا تغفل عنهم في كل وقت . والخرمية فاغزهم ذا حزامة وصرامة واكنفه بالأموال والسلاح والجنود من الفرسان والرجالة . فإن طالت مدتهم ، فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك ، واعمل في ذلك مقدم النية فيه ، راجياً ثواب الله عليه »[1] .

بويع المعتصم يوم وفاة أخيه المأمون في التاسع عشر من شهر رجب سنة ٢١٨ هـ ، ورفض الجند أن يدخلوا في طاعته في مبدأ الأمر ، وأرادوا تولية العباس ابن المأمون ، ولكنه أسرع إلى مبايعة عمه بالخلافة احتراما لوصية أبيه ، فحذا الجيش حذوه[2] .

وقد وصف ابن طباطبا[3] المعتصم وقال إنه كان سديد الرأي ، شديد المنة ، يحمل ألف رطل ويمشي بها خطوات . وكان موصوفا بالشجاعة ، وسمي المثمن من أحد عشر وجهاً : هو الثامن من ولد العباس ، والثامن من الخلفاء ، وتولى الخلافة وعمره ثماني عشرة سنة ، وكانت خلافته ثماني سنين وثمانية أشهر ، وتوفي وله ثماني وأربعون سنة ، وولد في شعبان وهو الشهر الثامن . وخلف ثمانية ذكور ، وثمانية بنات ، وغزا ثماني غزوات ، وخلف ثمانية ألف ألف درهم .

١ — الفتن والثورات :

اتبع المعتصم وصية أخيه المأمون في حمل الناس على القول بخلق القرآن ، مع

---

(١) الطبري ج ١٠ ص ٢٩٤

(٢) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٣٠٤

(٣) الفخري ص ٢٠٩ — ٢١٠ .

أنه لم يكن له حظ من العلم يجعله ذا رأى فى مثل هذه المسألة . وإنما كان ينفذ وصية المأمون ، وزاد عليه فى إلحاق الأذى بكل من لا يعترف بذلك من العلماء وأهل الرأى : فأهان أحمد بن حنبل إهانة بالغة وسجنه ، وأصبح كل عالم أو قاض هدفاً لخطر الضرب بالسياط والتعذيب إذا لم يأخذ برأى المعتزلة فى القول بخلق القرآن .

ولم تكن سياسة المعتصم نحو العلويين أقل شدة من سياسة الخلفاء العباسيين قبله ، إلا إذا استثنينا المأمون . فقد ذكر المسعودى[1] أن المعتصم تخلص من محمد الجواد بن على الرضا ، الذى كان المأمون قد زوجه ابنته أم الفضل ، ولكنه مات بعد وصوله إلى بغداد فى سنة **٢١٩** هـ ، فاتهمت زوجته بدس السم له . وقد يكون ذلك بإيعاز المعتصم نفسه خشية أن تحدثه نفسه بالمطالبة بالخلافة ، لأن أولاده من سلالة المأمون ، ولأن أباه علياً الرضا قد ولاه المأمون العهد قبل وفاته ، حتى تئول الخلافة إلى أبيه ثم إليه من بعده .

كذلك خرج على المعتصم محمد بن القاسم بن على بن عمر بن على بن الحسين ابن على . فقد أثار فى نفس المعتصم المخاوف التى أثارها محمد بن على الرضا من قبل ، ولكنه رحل عن الكوفة إلى خراسان فراراً من بطش المعتصم به ، وانضم إليه كثير من أهلها ، وحارب جيوش الخليفة العباسى فى كثير من المواقع ، حتى حمله عبد الله ابن طاهر إلى المعتصم ، فحبسه بسامرا . وقد اختلف الناس فى وفاته : فمنهم من قال إنه مات مسموماً . ومنهم من قال إن بعض شيعته أخرجوه من مكانه وذهبوا به إلى مكان ما ، ومنهم من زعم أنه حى لم يمت وأنه المهدى المنتظر ، وأكثرهم بناحية الكوفة وبلاد طبرستان وجبال الديلم .

ومن المصاعب التى واجهت المعتصم فى خلافته وهددت مرافق دولته ، فتنة الهنود المعروفين بالزط ، الذين استولوا على طريق البصرة ، وفرضوا المكوس الجائرة على السفن ، ثم حالوا دون وصول المؤن والأقوات إلى بغداد .

وقد ندب المعتصم لقتالهم عجيف بن عنبسة أحد القواد من العرب ،

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٤٨ — ٣٤٩ .

فعسكر بالقرب من واسط ، وسد الأنهار عليهم وأحاط بهم من كل جانب ، وقاتلهم تسعة أشهر ، ثم أرغمهم على طلب الأمان . وكان عددهم سبعة وعشرين ألفاً بين رجال ونساء وأطفال . فحملهم عجيف فى السفن ، ودخل بهم بغداد يوم عاشوراء من سنة ٢٢٠ هـ ، فشاهدهم المعتصم ورجال دولته ، ثم أمر بهم فنفوا إلى آسيا الصغرى ، وظلوا هناك إلى أن أسرهم البيزنطيون سنة ٢٤١ هـ . ومن ثم وجدوا طريقاً إلى أوربا ، وعرفوا هنـاك باسم Gypsies أو النور ، ويقيمون عادة فى خارج المدن (١) .

وكان من أثر السياسة التى سار عليها المعتصم فى الاستعانة بالأتراك ، وإجزاله الهبات والعطايا لهم دون غيرهم ، أن دب فى نفوس العـرب دبيب الغيرة والحسد لهؤلاء الأتراك . وقام عجيف ، ذلك القائد العربى الذى أبلى بلاء حسناً فى محاربة الزط ، بثورة على قواد الترك الذين أساءوا معاملة العرب ، بل عزم على التخلص من المعتصم نفسه ، فأغرى العباس بن المأمون بالخروج على عمه والمطالبة بعرشه . ودخل قواد العرب فى حلبة هذه المؤامرة ، واتفقوا على قتل المعتصم والأفشين وآشناس إذا تم توزيع الغنائم التى استولى عليها المسلمون من البيزنطيين فى موقعة عمورية المشهورة .

على أن خبر هذه المؤامرة قد تسرب إلى المعتصم ، فقد لعبت الخمر يوماً بلب العباس وبلب بعض المتآمرين ، فأفضوا بسر المؤامرة إلى المعتصم ، فمنع المـاء عن العباس حتى مات ولحق به عجيف .

وبذلك قضى المعتصم على هـذه المحاولة فى مهدها ، ولـكنه لم يتخلص من سوء أثرها ، فقد أوقعته فى أيدى قواده الأتراك ، ، وأدت إلى أقصاء قواد العرب والفرس تدريجياً وإسقاطهم من ديوان العطاء . يقول ميور (٢) : « ومما زاد هذه الحالة سوءاً أن الأتراك أنفسهم لم يكونوا جادين فى إخلاصهم للخليفة . فقد تغلب

---

(١) الطبرى ج ١٠ ص ٢٥٦ .

(٢) Muir; The Caliphate, p .514 Ibid p . 517.

على نفوسهم عوامل الرغبة فى انتزاع السلطة ، وغدا الخلفاء فى أثناء وجود البلاط العباسى فى سامرا ألاعيب فى أيدى القواد الأتراك » .

ومن الحوادث الهامة التى وقعت فى عهد المعتصم ، فتح عمورية وهدمها ، والثورات التى أشعلها بابك الخرمى ومازيار والأفشين — على ما سيأتى فى الباب الثالث — وتأسيس مدينة سامرا التى اتخذها حاضرة لدولته (أنظر الباب الثالث) .

وكان لاعتماد المعتصم على الأتراك أثر سىء فى نفوس العرب كما رأينا ، فثاروا فى بلاد الشام تحت زعامة أبى حرب المترقع اليمانى ، الذى أشعل نار الفتنة فى فلسطين قبل موت المعتصم بقليل ، بسبب دخول أحد الجند فى داره وهو غائب . فلما عاد وعلم بالخبر قتل هذا الجندى ، وخاف على نفسه ، فلبس برقعاً وهرب إلى بلاد الأردن ، حيث أخذ يحرض الناس على الخليفة المعتصم . وكان يزعم أنه أموى ، فقال الذين استجابوا له : هذا هو السفيانى . فالتف حوله كثير من أهالى هذه البلاد ، وخاصة اليمانية ، فأرسل إليه المعتصم جيشاً يزيد على مائة ألف من الجند . فلما سار هذا القائد إليه وجد أنه فى زهاء مائة ألف . فكره حربه وعسكر بحذائه ، وطاوله حتى كان أول حراثة الناس للأرض ، وانصرف الحراثون إلى الحراثة ، وأرباب الأرض ، إلى أرضهم ، وبقى هذا القائد فى نفر قليل ، فأحل به قائد المعتصم الهزيمة وأسره وجاء به إلى سامرا [١] .

كذلك أثار الأكراد الفتنة فى بلاد الموصل على يد جعفر الكردى ، فبعث إليهم المعتصم إيتاخ أحد قواد الأتراك فقاتله (المحرم سنة ٢٢٧ هـ) ، ثم وثب أحد أصحاب جعفر به فقتله ، وذلك فى أوائل خلافة الواثق .

٣ — صفات المعتصم :

حكم المعتصم الدولة العباسية حكماً استبدادياً مقروناً بشىء من العطف وحسن

(١) الطبرى ج ١١ ص ٦ .

التدبير ، حتى وصفه المسعودى (١) بحسن السيرة واستقامة الطريقة .

وكان المعتصم شفيقاً بالفقراء والضعفاء محباً للبذل . رأى شيخاً ضعيفاً فى يوم مطير قد غاص حماره فى الوحل وسقط ما عليه من الشوك الذى يستعمله أهل العراق فى التدفئة ، فاخرج الحمار من الطين وحمل الشوك فوضعه عليه ، ثم غسل يديه فى غدير ، واستوى على دابته ولحق به حرسه بخيولهم ، بعد أن أمر بعض خاصته أن يعطى هذا الشيخ أربعة آلاف درهم .

وقد علق ميور (٢) على هذه الحكاية ، موازناً بين ما فعله المعتصم فى هذه الحادثة ، وما فعله فى مدينة عمورية التى انتصر فيها على البيزنطيين ، فقال : « ولقد رأى المعتصم من الشرف أن يضحى بمدينة زاهرة يبلغ سكانها مائتى ألف نسمة ، وتقدر ثرواتها بالملايين . ومع ذلك فقد نزل هذا الخليفة عن صهوة جواده ، ولوث رداءه ، ليخلص شيخاً ضعيفاً وقع حماره فى حفرة من الطين ، وأى هذه الأفعال قد ذكرها بالسرور والغبطة حين ناداه ملك الموت ؟ » .

أصيب المعتصم فى آخر أيامه بمرض قضى عليه لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة ٢٢٧ هـ ، فرثاه وزيره محمد بن عبد الملك الزيات بقوله :

قد قلتُ : إذ غيبوكَ واصطفقتْ ... عليك أيد بالتُّربِ والطين
اذهبْ ، فنعم الحفيظُ كنتَ على الدنيا ونعم الظهير للدين

الواثق

(٢٢٧ — ٢٣٢ / ٨٤٢ — ٨٤٧)

ولد هارون الواثق بالله بن المعتصم فى شهر شعبان سنة ١٨٦ هـ ، وأمه أم ولد رومية يقال لها قراطيس . وكان الواثق منذ حداثته راجح العقل ، بصيراً بتصريف الأمور ، سياسياً ماهراً ، موصوفاً بكثير من الخلال التى جعلت أباه يعتمد عليه فى

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٥٦

(٢) The Caliphate, p. 519.

أثناء غيابه حتى مقر خلافته ، فتركه فى بغداد سنة ٢٢٠ ﻫ حين سار لبناء مدينة سامرا، التى اتخذها قاعدة لخلافته ، كما أنابه عنه سنة ٢٢٣ ﻫ فى استقبال الأفشين بعد رجوعه منتصراً فى حرب بابك الخرمى ، وعهد إليه بفتح عمورية .

ولى المعتصم أبنه الواثق عهده ، فولى الخلافة فى شهر ربيع الأول سنة ٢٢٧ ﻫ واقتدى بأبيه فى الاعتماد على الأتراك الذين كثر عددهم وشغلوا المناصب العالية فى الدولة. فولى آشناس التركى السلطة ، وتوجه بتاج مرصع بالجواهر . وقد علق السيوطى (١) على ذلك بقوله : « وأظن أنه أول خليفة استخلف سلطاناً ، فإن الترك إنما كثروا فى عهد أبيه » .

١ — الأحوال الداخلية :

وفى أوائل عهدالواثق ثارت القيسية بدمشق وحاصروا إليها ، فأرسل إليهم جيشاً بقيادة رجاء بن أيوب ، فانتصر عليهم فى مرج راهط وقتل منهم نحو ألف وخمسمائة ، وانهزم الباقون وعاد إلى نصابه .

ذكر الطبرى أن بنى سليم وغيرهم من البدو عاثوا فى بلاد الحجاز ، فنهبوا الأسواق ، وامتد أذاهم إلى كثير من الناس ، وقطعوا الطرق ، وأوقعوا بجند والى المدينة المنورة . فأرسل إليهم الواثق فى شهر شعبان سنة ٢٣٠ ﻫ جيشاً بقيادة بغا الكبير أحد قواد الأتراك ، فقتل منهم نحو خمسين رجلا وأسر مثلهم ، وقبض على نحو ألف رجل منهم ممن عرفوا بالشر والفساد وحبسهم بالمدينة . ثم سار لإخضاع بنى مرة بعدن ، فحاول هؤلاء الخروج من حبسهم وثاروا فى المدينة ، فأحاط بهم أهلها وقتلوهم عن آخرهم . ثم عاد بغا إلى سامرا بعد أن أقر الأمن فى جزيرة العرب الشمالية ، واشتبك على غير جدوى فى عدة حروب مع القبائل المناوئة للخلافة فى أواسط هذه البلاد وجنوبها .

وقد سار الواثق على سياسة أبيه المعتصم فى الانتصار للمعتزلة ، وتشدد فى فرض آرائه الدينية على الناس ، مما أدى إلى إثارة خواطر أهل بغداد فتآمروا

(١) تاريخ الخلفاء ص ٢٢٦

عليه ، وكان أحمد بن نصر رأس هؤلاء الساخطين الذين أنكروا القول بخلق القرآن ، وحملوا على الواثق حملة شعواء ، ودعوا إلى عزله ، فالتف حوله كثير من أنصاره ، وعينوا يوماً ينفذون فيه مؤامراتهم ، على أن يضربوا الطبول فى الليلة السابقة لذلك اليوم بيد أن الرجلين اللذين عهد إليهما تنفيذ ذلك الأمر أكثرا من شرب الخمر فى تلك الليلة ، وأخذ الفريق الذى رابط على الجانب الشرقى يدق الطبول ، فلم يجبهم أصحابهم الذين رابطوا فى الجانب الغربى. وكشفت المؤامرة قبل أن يستفحل خطرها ، وقبض على أحمد بن نصر وأعوانه ، وسيقوا إلى الخليفة الواثق بسامرا قاعدة خلافته ، فعقد لهم مجلساً للمناظرة ، وطرحت مسألة الشغب والخروج على الخلافة جانباً ، وناظر الخليفة أحمد بن نصر فى مسألة خلق القرآن فقال له :

« يا أحمد ما تقول فى القرآن ؟ قال : كلام الله ، قال : أمخلوق هو ؟ قال : هو كلام الله ، قال : فما تقول فى ربك أتراه يوم القيامة ؟ قال : يا أمير المؤمنين جاءت الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر لا تضامون فى رؤيته ، فنحن على الخبر . فقال الواثق لمن حوله : ما تقولون فيه ؟ فقال القاضى عبد الرحمن بن اسحاق : هو حلال الدم ، وقال غيره إسقنى دمه يا أمير المؤمنين ، ووافقه الحاضرون إلا ابن أبى دؤاد قاضى القضاة فإنه قال : يا أمير المؤمنين ! كافر يستتاب لعل به عاهة أو تغير عقل . فقال الواثق : إذا رأيتمونى قد قمت إليه ، فلا يقومن أحد معى فإنى أحتسب خطاى إليه . ودعا بالصمصامة ، سيف عمرو بن معد يكرب الزبيدى ، ذلك الفارس العربى الذى ذاع صيت سيفه ، وكان قد أهدى إلى الخليفة الهادى العباسى وورثه خلفاؤه ، وضربه على عنقه ورأسه ، وضربه أحد خاصته فقطع عنقه وجز رأسه . وحمل إلى بغداد وصلب فى الجانب الغربى أياماً ، وفى الشرقى أخرى ، ووضع فى أذنه رقعة فيها : هذا رأس الكافر المشرك الضال أحمد بن نصر بن مالك ، ممن قتله الله تعالى على يدى عبد الله بن مروان ، الإمام الواثق بالله أمير المؤمنين ، بعد أن أقام عليه الحجة فى خلق القرآن ونفى التشبيه وعرض عليه التوبة ، ومكنه من الرجوع إلى

الحق ، فأبى إلا المعاندة والتصريح ، والحمد لله الذى عجل به إلى ناره وأليم عقابه » (١) .

وقد تمتع ولاة الأقاليم فى عهد الواثق بنفوذ كبير : فكان عبد الله بن طاهر بن الحسين يدير شئون ولاية خراسان وطبرستان وكرمان . وأسند هذا الخليفة لأشناس التركى أعمال الجزيرة والشام ومصر والمغرب ، فولى عليها ولاة من قبله وأقاموا بسامرا بمركز الخلافة .

وكان الضعف والتحكم يشوب إدارة الواثق ، فقد سأل أحد جلسائه ليلة أن يقص عليه قصة نكبة البرامكة على يد جده الرشيد ، فلما سمع القصة وعرف كيف انتزع الرشيد منهم الأموال قال : صدق والله جدى . إنما العاجز من لا يستبد . ولم يمض أسبوع واحد ، حتى أوقع بكتابه ، وأخذ من كل منهم مبلغاً يتراوح بين أربعة عشر ألفاً وألف ألف دينار . ومن هنا نقف على مبلغ تفشى الرشوة والفساد بين رجال الدولة فى ذلك العهد (٢) .

وقد ذكر المسعودى(٣) أن احمد بن أبى دؤاد المعتزلى ومحمد بن عبد الملك الزيات الوزير غلبا على الواثق حتى كان لا يصدر إلا عن رأيهما ، وقلدهما الأمر وفوض إليهما ملكه » . كذلك ذكر المسعودى وصف أحد الأعراب رجال الدولة فى عهد الواثق فقال : « ذكر أبو تمام حبيب بن أوس الطائى الجاسمى (نسبة إلى جاسم وهى قرية من أعمال دمشق بين بلاد الأردن ودمشق بموضع يعرف بجاسم على أميال من الجابية) قال : خرجت فى أيام الواثق إلى سر من رأى ، فلما قربت منها لقينى أعرابى ، فأردت أن أعلم خبر العسكر منه فقلت : يا أعرابى ! ممن أنت ؟ قال من بنى عامر ، قلت : كيف علمك بعسكر أمير المؤمنين ؟ قال : قيل أرضا عالمها ، قلت : ما تقول فى أمير المؤمنين ؟ قال : وثق بالله فكفاه ، أشجى القاصية وقصم العادية ورغب عن كل ذى جناية ، فقلت : فما تقول فى أحمد بن أبى دؤاد ؟ قال : هضبة

---

(١) الطبرى ج ١٢ ص ١٧ — ١٨ .

(٢) المصدر نفسه ج ١١ ص ١٠ — ١٢ .

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٥٦ — ٣٥٧ .

لا ترام وجبل لا يضام ، تشحذ له المدى وتنصب له الحبائل ، حتى إذا أقبل كان قد وثب وثبة الذئب وختل ختلة الضب . قلت : فما تقول فى محمد بن عبد الملك الزيات ؟ قال : وسع الدانى شره ووصل إلى البعيد ضره ، له فى كل يوم صريع لا يرى فيه أثر ناب ولا مخلب ، قلت : فما تقول فى عمرو بن فرج ؟ قال ضخم نهم ، استعذب الدم بنصبه اللوم وسنا الدعاء . قلت : فما تقول فى الفضل بن مروان ؟ قال : رجل نبش بعد ماقبر ، ليس تعد له حياة فى الأحياء ، وعليه خفة الموتى . قلت فما تقول فى الوزير ... ؟ قال : تخاله كبش الزنادقة ، أما تراه إذا أحمله الخليفة سمن ورتع ؟ وإذا هزه لمطر فأمرع ؟ قلت : فما تقول فى أحمد بن الخصيب ؟ قال : ذاك أكل أكلة نهم فزرق زرقة بشم . قلت : فما تقول فى إبراهيم أخيه ؟ قال: أموات غير أحياء ، وما يشعرون أيان يبعثون. قلت : فما تقول فى أحمد بن إسرائيل ؟ قال : لله دره ، أى فاعل هو ؟ وأى صابر هو ؟ أعد الصبر دثاراً أو الجود شعاراً ، وأهون عليه بهم . قلت : فما تقول فى المعلى بن أيوب ؟ قال : ذاك رجل خير ، نصيح السلطان ، عفيف اللسان ، مسلم من القوم وسلموا منه . قلت : فما تقول فى إبراهيم بن رباح ؟ قال : ذاك رجل أوثقه كرمه ، وأسلمه فضله ، وله دعاء لا يسلمه ورب لا يخذله ، وفوقه خليفة لا يظلمه . قلت : فما تقول فى الحسن ابنه ؟ قال : ذاك عود نضار غرس فى منابت الكرم ، حتى إذا اهتز حصدوه . قلت : فما تقول فى نجاح بن سلمة ؟ قال : لله دره ، أى طالب وتر ومدرك ثأر يلتهب كأنه شعلة نار . له من الخليفة فى الأحيان جلسة تزيل نعماً ، وتحل نقماً . قلت : يا أعرابى ! أين منزلك حتى آتيك ؟ قال : اللهم عفواً مالى منزل ، أنا أشتغل النهار والتف الليل ، فحينما أدركنى الرقاد رقدت . قلت : فكيف رضاك عن أهل العسكر ؟ قال : إن أعطونى لم أحمدهم ، وإن ضيعونى لم أذممهم ، وإنى كما قال هذا الغلام الطائى :

وما أبالى وخير القول أصدقه ... حقنت لى ماء وجهى أو حقنت دمى

قلت : فأنا قائل هذا الشعر ، قال أإنك أنت الطائى ؟ قلت : نعم ! قال لله أبوك ، وأنت القائل :

ما جود كفك إن جادت وإن بخلت ... من ماء وجهى وقد أخلقته عرض »

٢ — صفات الواثق :

كان الواثق لا يبارى فى علمه وأدبه حتى سمى المأمون الأصغر لأدبه وفضله . وقد شغف بالوقوف على آراء العلماء والحكماء ، فطلب من حنين بن إسحاق أن يؤلف كتاباً يذكر فيه الفرق بين الغذاء والدواء ، والمسهل وآلات الجسد ، فألفه وسماه « كتاب المسائل الطبيعية » .

وقد أفرد الواثق مجلساً للمناظرة فى قصره ، مقتفياً فى ذلك أثر عمه المأمون . سأل الواثق العلماء مرة فى الزهد ، فأفاضوا القول فيه ، ثم طلب إليهم أن يخبره كل منهم عن أحسن ما سمع من أقوال الحكماء الذين حضروا وفاة الإسكندر ، فقال أحدهم : يا أمير المؤمنين ! كل ما ذكروه حسن ، وأحسن ما نطق به من حضر ذلك المشهد من الحكماء « دوجانس » ، فقال : إن الإسكندر أمس أنطق منه اليوم وهو اليوم أوعظ منه أمس . وقد نظم أبو العتاهية شعراً تتمثل فيه هذه الحكمة ، فقال :

كفى حزناً بدفنك ثم أنى ‏ ‏ نفضت تراب قبرك من يديا

وكانت فى حياتك لى عظات ‏ ‏ وأنت اليوم أوعظ منك حيّا

وكان الواثق شاعراً يقول الشعر ، ويجزل العطاء للشعراء الذين زخر عصره بكثير منهم . ومن هؤلاء أبو تمام الذى مهد طريق الحكم والأمثال لأبى الطيب المتنبى وأبى العلاء المعرى .

حكم الواثق الدولة العباسية أقل من ست سنين ، ولم يول عهده أحداً . وسئل فى مرض الموت أن يوصى بالخلافة لولده ، فلم يقبل وقال : « لا أتحمل أمركم حياً وميتاً » . وتوفى الواثق فى شهر ذى الحجة سنة ٢٣٢ هـ . وبموته انتهى العصر الذهبى للدولة العباسية . وذلك نتيجة طبيعية لهذه السياسة التى سار عليها أبوه المعتصم ، الذى اعتمد على الأتراك ، وأحلهم محل العرب ، وما جره هؤلاء من إثارة خواطر الأهلين بسبب تمسكهم بالبدع الدينية .

الباب الثالث

الحركات السياسية والدينية

١ — حالة الأحزاب السياسية عقب قيام الدولة العباسية

(ا) تمثيل العباسيين ببنى أمية :

تتبع السفاح البقية الباقية من بنى أمية وأنصارهم . ويخيل إلينا أنه إنما لجأ إلى هذه السياسية ، لما كان يضمره بنو هاشم لبنى أمية من عداء منذ أيام الجاهلية والعداء بين بنى أمية وبنى هاشم باقى الأثر ، لم يزده الإسلام إلا تفاقماً وازدياداً . أضف إلى ذلك ما كان من تأثير الشعراء ورجال البلاط فى إذكاء نيران هذا العداء ، وما قام به بنو أمية من سفك دماء أهل البيت حين كان لهم السلطان .

وذكر المؤرخون أن العباسيين أخذوا بثأر إبراهيم الإمام ، قتيل حران فى عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، فقتل عبد الله بن على عم السفاح نحو ثلثمائة من بنى أمية ، منهم إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك أخو يزيد الناقص . وذلك فى شهر جمادى الآخر سنة ١٣٢ ﻫ . ثم قبض على يزيد بن معاوية بن عبد الملك ، وعبد الجبار بن يزيد بن عبد الملك وبعث بهما إلى أبى العباس ، فقتلهما وصلبهما . ثم قتل ، وهو على نهر أبى فطرس بفلسطين خلقاً كثيراً من بنى أمية ، وقتل سليمان بن زيد بن عبد الملك بالبلقاء ، وحمل رأسه إلى عبد الله بن على ، كما قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية(١) .

ولما أتى لأبى العباس برأس مروان ووضع بين يديه ، سجد فأطال ثم رفع رأسه فقال : الحمد لله الذى لم يبق ثأرى قبلك وقبل رهطك ، الحمد لله الذى أظفرنى بك وأظهرنى عليك ، ثم قال : ما أبالى متى طرقنى الموت . فقد قتلت

(١) انظر الملحق الرابع .

بالحسين وبنى أبيه من بنى أمية مائتين ، وأحرقت شلو (١) هشام بابن عمى زيد ابن على ، وقتلت مروان بأخى إبراهيم ، وتمثل بقول الشاعر :

لو يشربون دمى لم يرو شاربهم ولا دماؤهم للغيظ ترويني

ثم حول وجهه إلى القبلة فأطال السجود ، ثم جلس وقد أسفر وجهه ، وتمثل بقول العباس بن عبد المطلب من أبيات له :

أبى قومنا أن ينصفونا فأنصفت قواطع فى أيماننا تقطر الدما
تورثن من أشياخ صدق تقربوا بهن إلى يوم الوغى فتقدما
إذا خالطت هام الرجال تركتها كبيض نعام فى الوغى متحطما (٢)

نعم ! كان للشعراء ورجال البلاط أثر كبير فى إشعال نيران العداء ضد بنى أمية . فإن السفاح كان جالساً فى مجلس الخلافة ، وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وقد أكرمه السفاح ، فدخل عليه سديف الشاعر فأنشده :

لايغرنك ماترى من رجال إن تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى لاترى فوق ظهرها أمويا

فالتفت سليمان وقال : قتلتنى ياشيخ ! ثم دخل السفاح وأخذ سليمان فقتل . ودخل على أبى العباس شاعر آخر ، وقد قدم الطعام ، وعنده نحو سبعين رجلا من بنى أمية فأنشده :

أصبح الملك ثابت الآساس بالبهاليل من بنى العباس
طلبوا وتر هاشم فشفوها بعد ميل من الزمان وياس
لا تقيلن عبد شمس عثارا واقطعن كل رقلة (٣) وغراس (٤)
ذلها أظهر التودد منها وبها منكم كحز المواسى
ولقد غاظنى وغاظ سوائى قربهم من نمارق وكراسى

---

(١) الشلو من كل شىء : الجسد وهو المراد هنا ، والشلو العضو جمعه أشلاء .
(٢) مروج الذهب ج ٧ ص ٢١٣ .
(٣) الرقل : جمع رقلة وهى النخلة التى فاتت اليد سموقا .
(٤) مايغرس من صغار النخل .

انزلوها بحيث أنزلها الله بدار الهوان والإتعاس
واذكروا مصرع الحسين وزيد وقتيلا بجانب المهراس[١]
والقتيل الذى بحران أضحى[٢] ثاوياً بين غربة وتناسى[٣]

أجل ! لقد أعاد إنشاد هذين الشاعرين ذكرى الماضى ، وما جره الأمويون على أنفسهم من سخط الناس لتمثيلهم بأهل البيت . ولا زالت مأساة إبراهيم الإمام عالقة ببال الخليفة العباسى . فماذا كان من أمر هؤلاء الأمويين بعد هذه الذكريات المؤلمة التى أعادها إلى ذاكرة السفاح شعراء دولته ؟ أمر السفاح بسليمان بن هشام فقتل ، ثم أمر بمن كان فى داره من بنى أميـة فضربوا بالسياط ، وبسط النطوع ، وجلس فوقهم ، فأكل الطعام وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً .

وقد بالغ العباسيون فى التنكيل ببنى أمية وعولوا على استئصال شأفتهم ، فتعقبهم أخوه وأعمامه فى البصرة والكوفة والشام ، ونبشوا قبر معاوية بن أبى سفيان ، فلم يجدوا فيه إلا خيطاً مثـل الهباء ، ونبشوا قبر زيد بن معاوية فوجدوا فيه حطاماً كأنه الرماد .

على أن روح الانتقـام الذى أضمره العباسيون لبنى أمية لم ينته بوفاة السفاح ، بل استمر طوال العصر العباسى الأول . يقول ابن دأب ، وكان من خواص الخليفة الهـادى . « دعانى فى وقت من الليل لم تجر العادة أنه يدعونى فى مثله . فدخلت إليه ، فإذا هو جالس فى بيت صغير شتوى وقدامه جزء ينظر فيه ، فقـال لى : يا عيسى ! قلت : لبيك يا أمير المؤمنين . قال : إنى أرقت فى هـذه الليلة وتداعت إلى الخواطر واشتملت على الهموم ، وهاج لى ما جرت إليه بنى أمية من بنى حرب وبنى مروان فى سفك دمائنا . فقلت ! يا أمير المؤمنين ! هذا عبد الله بن على قد قتل منهم على نهر أبى فطرس فلاناً وفلاناً ، حتى أتيت على تسمية من قتل منهم ،

---

(١) ماء بجبل أحد قتل عند حمزة بن عبد المطلب ودفن .
(٢) هو إبراهيم الإمام بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس
(٣) ابن الأثير ج ٥ ص ١٧٤ .

وهذا عبد الصمد بن على قد قتل منهم بالحجار فى وقت واحد نحو ما قتل عبد الله بن على . . . » . قال ابن دأب : فسرّ والله الهادى[1] .

وهكذا اشتد العداء بين بنى أمية وبنى هاشم جاهلية وإسلاماً . وقد نهج المأمون نهج من سبقه من الخلفاء فى الحط من شأن الأمويين ، حتى إنه أمر بلعن معاوية على المنابر فى كافة الأمصار الإسلامية .

من ذلك نرى أن العباسيين لم يقفوا فى معاملة بنى أمية وأنصارهم عند حد التمثيل بالموتى ولعن بعض خلفائهم على المنابر ، بل إنهم قتلوا الأحياء واستصفوا أموالهم ، وأثاروا كراهة العرب بتقريب الفرس إليهم . فلا عجب إذا انصرف العرب عن العباسيين ، ودب فى نفوسهم دبيب الكراهة لهم وللفرس الذين استأثروا بالسلطة دونهم ، لمالأة العباسيين لهم واعتمادهم على ولائهم ، فقامت الفتن والثورات فى البلاد الإسلامية .

(ب) ميل العباسيين إلى الفرس وإيثارهم بالمناصب المدنية والعسكرية — طمع الفرس فى السلطان واستئنافهم الدعوة لآل على :

قام الدين الإسلامى على أساس المساواة بين المسلمين كافة ، عربهم وعجمهم ، وأيد هذه النظرية بعض أحاديث أثرت عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وآيات وردت فى القرآن الكريم مثل قوله تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)[2] (إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم)[3] ، ومثل قوله عليه الصلاة والسلام : « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » . على أن الحكم ظل فى حقيقة الأمر فى يد العرب دون غيرهم من المسلمين ، وذلك فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين ، حتى إذا قامت هذه الثورة التى انتقل بها الحكم إلى العباسيين على أيدى الفرس ، وخاصة الخراسانيين ، سنحت الفرصة لهؤلاء بالاستئثار بالسلطة وتولى الحكم ، وساعد على ذلك شدة ميل العباسيين إلى الفرس ، وإيثارهم بالمناصب المدنية والعسكرية .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٥٨ .
(٢) سورة الحجرات ٤٩ — ١٣
(٣) سورة الحجرات ٤٩ — ١٠

كما أن إسراف العباسيين فى التمثيل ببنى أمية صرف عنهم العرب كما تقدم .

قامت الدولة العباسية باسم الدين ، وعمل العباسيون على التأثير فى عقول الناس عن طريق إعادة الأمر إلى آل محمد وإزالة سلطان بنى أمية المغتصبين هـذا الأمر منهم وهو الخلافة ، وقد اختار الأئمة من ولد عباس لنشر دعوتهم فى الـكوفة وخراسان اللتين كانتا مهد التشيع من قديم ، لأن الفرس الذين دخلوا فى الإسـلام كانوا أقرب إلى غيرهم من التأثر بآراء الشيعة ، لأنهم لا يفرقون بين الخـلافة والملك ، ومن ثم ناصروا العلويين . هـذا إلى أن الفرس ، الذين كانت بلادهم ذات تاريخ عظيم من أقدم العصور ، والذين فرضوا سيادتهم على بعض بلاد العرب ، قد وجـدوا فى نشر الدعوة لآل محمد فرصة يتخلصون بها من نير الأمويين ، ويستردون شيئاً مما كان لهم من نفوذ وسلطان : لذلك رأوا أنهم بمساعدتهم هذه الدولة الجديدة يصبحون أصحاب الـكلمة المسموعة فيها . ومن ثم غدا هـذا النزاع فى حقيقة الأمر نزاعاً بين العرب والفرس ، بعد أن كان نزاعاً بين بنى أمية وبنى العباس .

على أن نفوذ العرب قد تقلص تدريجيـاً ، حتى إن الفتنة التى قامت بين الأمين والمأمون لم تـكن فى حقيقة الأمر إلا جهاداً حزبياً بين العلويين والعباسيين من ناحية ، وبين العرب والفرس من ناحية أخرى. ولم يكن انتصار المأمون على الأمين إلا انتصاراً للفرس على العرب وزوال حـكم العرب زوالا لا رجعة بعده .

وكان من أثر ذلك الميل الذى أبداه العباسيون نحو الفرس وتلك الرعاية التى حاطوهم بها ، أن أصبح نظام الحـكم عند العباسيين مماثلا لما كان عليه فى بلاد الفرس أيام آل ساسان . قال بالمر فى كتابه هارون الرشيد[1] : « ولما كان العباسيون يدينون بقيام دولتهم للنفوذ الفارسى ، كان طبيعياً أن تسيطر الآراء الفارسية . ولهذا نجد وزيراً من أصل فارسى على رأس الحـكومة ، كما نجد أيضاً أن الخلافة تدار بنفس النظام الذى كانت تدار به إمبراطورية آل ساسان » .

---

(١) Palmer : Haroun al'Raschid, pp 37-38

أجل ! لقد اتخذ الخلفاء الموالى من الخراسانيين حرساً لهم ، لاعتمادهم على ولائهم وإخلاصهم ، واستبد هؤلاء الخلفاء بالسلطة وتسلطوا على أرواح الرعية كما كان يفعل ملوك آل ساسان من قبل . وظهرت الأزياء الفارسية فى البلاط العباسى ، واحتجب الخليفة عن رعيته ، واتخذ الوزير والحاجب والكاتب . ودخلت مظاهر السلطان الفارسية قبل ظهور الاسلام بوقت طويل فى بلاد الروم ، وقضت باحتجاب أباطرة الروم عن الشعب وإحاطتهم برجال البلاط .

وطبعى أن يميل العباسيون إلى الفرس ، الذين ساعدوهم على تأسيس دولتهم ، وقاموا فى وجه أعدائهم الأمويين وإن مثل هذا الميل إلى الفرس ، وتلك الكراهة التى أضمرها العباسيون للأمويين ، لتتمثل فى تلك الخطب التى ألقاها داود بن على وأبو جعفر المنصور وغيرهما ، يشيدون فيها بمآثر الفرس وما بذلوه من جهود فى سبيل قيام الدولة العباسية ، ويتوعدون الأمويين لما اقترفوه من ذنوب ، ويمنون الفرس ، وبخاصة الخراسانيين . بإجزال العطاء وإدرار الأموال . من ذلك قول داود بن على : « يا أهل الكوفة ! إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا ، حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان ، فأحيابهم حقنا وأفلج بهم حجتنا وأظهر بهم دولتنا[1] » ، وقول أبى جعفر المنصور : « يا أهل خراسان ! أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دعوتنا[2] » ، كما أوصى المنصور ابنه المهدى بالخراسانيين خيراً فقال : « وأوصيك بأهل خراسان خيراً ، فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم فى دولتك ودماءهم دونك ، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ، وأن تحسن إليهم وتتجاوز عن مسيئهم ، وتكافئهم على ما كان منهم ، وتخلف من مات منهم فى أهله وولده[3] » .

كذلك يتمثل ميل العباسيين إلى الفرس فى تلك الخطبة التى ألقاها أبو جعفر المنصور فى أهل خراسان ، بعد أن قبض على عبد الله بن الحسن العلوى . وهى تبين

---

(١) الطبرى جـ ٩ ص ١٢٧
(٢) المسعودى — مروج الذهب — جـ ٢ ص ٢٤١
(٣) الطبرى جـ ٩ ص ٣١٩

لنا مبلغ عداء العباسيين للعلويين وأشياعهم ولأنصار الأمويين ، وكيف آثروا الفرس عليهم واعتمدوا عليهم فى تأسيس دولتهم ، وكيف عولوا على إسناد مناصب الدولة إلى الفرس .

ولما أخذ المنصور عبد الله بن الحسن وآل بيته ، صعد المنبر بالهاشمية ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : « يا أهل خراسان ! أنتم أنصارنا وأهل دعوتنا ، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا خيراً منا . إن ولد ابن أبى طالب تركناهم ، والذى لا إله إلا هو والخلافة ، لم نعرض لهم بقليل ولا بكثير ، فقام فيها على بن أبى طالب فما أفلح وحكم الحكمين ، فاختلفت عليه الأمة وافترقت الكلمة . ثم وثب عليه شيعته وأنصاره وثقاته فقتلوه . ثم قام بعده الحسن بن على رضى الله عنه ، فو الله ما كان برجل . عرضت عليه الأموال فقبلها ، ودس إليه معاوية إنى أجعلك ولى عهدى فخلعه ، وانسلخ له مما كان فيه وسلمه إليه ... فلم يزل كذلك حتى مات على فراشه . ثم قام من بعده الحسين بن على رضى الله عنه ، فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة ... فأسلموه حتى قتل . ثم قام بعده زيد بن على فخدعه أهل الكوفة وغروه ، فلما أظهروه وأخرجوه أسلموه . وقد كان أبى محمد بن على ناشده الله فى الخروج ، وقال له : لا تقبل أقاويل أهل الكوفة ، فإنا نجد فى علمنا أن بعض أهل بيتنا يصلب بالكناسة ، وأخشى أن تكون ذلك المصلوب . وناشده الله بذلك عمى داود وحذره رحمه الله عن زاهد الكوفة فلم يقبل ... وقتل وصلب بالكناسة . ثم وثب بنو أمية علينا ، فأماتوا شرفنا وأذهبوا عزنا . والله ما كان لهم عندنا ترة (ثأر) يطلبونها ، وما كان ذلك كله إلا فيهم وبسبب خروجهم ، فنفونا عن البلاد ، فصرنا مرة بالطائف — ومرة بالشام — ومرة بالشراة ، حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصاراً ، فأحيا الله شرفنا وأعزنا بكم ، وأظهر لنا حقنا . وأصار إلينا ميراثنا من نبينا صلى الله عليه وسلم ، فقر الحق فى قراره ، وأظهر الله مناره وأعز أنصاره وقطع دابر القوم الذين ظلموا [1] » .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤١ — ٢٤٢ .

على أن الفرس ، على الرغم مما أظهره العباسيون من ميل ظاهر نحوهم حتى آثروهم على العرب فأسندوا إليهم مناصب الدولة مدنية كانت أو عسكرية ، وعلى الرغم من تأثر العباسيين بهم فى اقتباس نظم الحكم عنهم ، والاقتداء بهم فى مظاهر البلاط ، وفى اللباس وفى الاحتفال بالأعياد والمواسم — على الرغم من هذا كله كانوا لا يقنعون بما نالوه من عطف وميل ، وما وصلوا إليه من نفوذ وسلطان فعملوا على التخلص من العباسيين وتحويل الخلافة إلى العلويين . وإن ميل الفرس إلى العلويين قديم ، كما نعلم . يرجع إلى أيام الحسين بن على .

ولا غرو فقد شايع الفرس العلويين ، لما كانوا يعتقدونه من أنهم وحدهم يملكون حق حمل التاج ، لكونهم وارثى آل ساسان من جهة أمهم شهربانوه إبنة يزدجرد الثالث آخر ملوك هذه الأسرة ، ولأنهم الأئمة رؤساء الدين حقاً . وذلك يتفق مع معتقداتهم الدينية ، إذ كانوا ينظرون إلى ملوكهم نظرة تقديس وإكبار ، ويعتقدون أنهم ظل الله فى الأرض ، كما كانوا يعتقدون أن العلويين ، وبخاصة أبناء الحسين بن على يمثلون حق النبوة والملك ، لأنهم من سلالة النبي وآل ساسان . وهذا يفسر لنا سبب ميل الفرس إلى العلويين وعملهم على تحويل الخلافة إليهم . وقد اضطلع بهذا الأمر أحد زعماء الفرس ، وهو أبو سلمة الخلال .

كان حفص بن سليمان ، ويكنى أبا سلمة الخلال(١) ، مولى لبنى الحارث بن كعب ، من أهل اليسار فى الكوفة : اشتهر بالكروم وكثرة البذل لرجال الدعوة العباسية ، كما كان فصيحاً عالماً بالأشعار والسير والجدل والتفسير . وقد اتصل بالعباسيين عن طريق صهره بكير بن ماهان كاتب إبراهيم الإمام . فلما حانت وفاة بكير ، أوصى الإمام بأن يعهد إلى أبى سلمة بالقيام بأمر الدعوة مكانه ، فكتب

---

(١) قيل فى تلقيبه بالخلال ثلاثة أوجه :

(ا) لأن منزله كان قريباً من محلة الخلالين — وكان يجالسهم — فنسب إليهم ، كما نسب الغزالى إلى الغزالين لأنه كان يجالسهم كثيراً .

(ب) أو لأنه كانت له حوانيت يعمل فيها الخل فنسب إلى ذلك .

(ح) وقيل أيضاً إنه نسب إلى خلل السيوف وهى أغمادها .

إليه الإمام بذلك : فأخلص أبو سلمة للدعوة العباسية وبذل جهده للقيام بنصرتها . وقد اتفق المؤرخون على أنه لما سبر أحوال بنى العباس ، عزم على العدول عنهم إلى أولاد على بن أبى طالب . ولما عزم على تنفيذ رغبته فى نقل الخلافة إلى العلويين أرسل مع رجل من شيعة العلويين كتاباً ، وأمره أن يقصد جعفراً الصادق بن محمد الباقر ابن على زين العابدين بن الحسين بن على فإن أجاب أبطل الكتابين الآخرين ، وإن لم يجب لقى عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن على ، فإن أجاب أبطل كتاب عمر الأشرف بن على زين العابدين ، وإن لم يجب قصد عمر . فذهب الرسول إلى جعفر الصادق ودفع إليه كتاب أبى سلمة ، فلم يقم له وزناً ولم يحفل بما قدمه رجل الشيعة بخراسان للعلويين حيث قال : « مالى ولأبى سلمة وهو شيعة لغيرى ؟ » ثم وضع الكتاب على السراج فاحترق ، فسأله الرسول عن رد كتاب أبى سلمة فقال له : قد رأيت الجواب .

مضى الرسول بعد ذلك إلى عبد الله المحض ، فسر بالكتاب ، وركب غداة ذلك اليوم إلى جعفر الصادق وقال له : « هذا كتاب أبى سلمة يدعونى فيه إلى الخلافة ، وقد وصل على يد بعض شيعتنا من أهل خراسان » . فقال له جعفر الصادق كلاماً يؤيد ما ذهبنا إليه من أن الفرس ، أو الكثيرين منهم على الأقل ، لم يكونوا فى ذلك الوقت شيعة للعلويين خاصة . « ومتى صار أهل خراسان شيعتك ؟ أ أنت وجهت إليهم أبا مسلم ؟ هل تعرف أحداً منهم باسمه أو بصورته ؟ كيف يكونون شيعتك وأنت لا تعرفهم وهم لا يعرفونك ؟ » وهذا كلام رجل من كبار العلويين وأعيانهم فى ذلك الزمان . وقف على مبلغ الثقة من رجال الشيعة . وإن لم يكن عبد الله المحض قد وثق منه . بل شك فى نصحه . ولم يحفل بما سمع عن الكتاب الذى جاءه قبله . وأما عمر ابن على زين العابدين فلم يكن منه إلا أن رد الكتاب وقال : « أنا لا أعرف صاحبه فأجيبه » (١) .

من هذا كله نرى أن العلويين لم يكن لهم من القوة وكثرة الأنصار ما يعيد

---

(١) الفخرى ص ١٣٧ — ١٣٩ .

لهم سبيل الوصول إلى الخلافة ، فلم يروا بدأ من الاستكانة حتى تتهيأ لهم الأحوال فيمتشقون الحسام ويقومون بطلبها . ومن هذا لا نعجب إذا فتّ رفض هؤلاء العلويين فى عضد أبى سلمة ، وأدى إلى قتله على يد السفاح بعد أن وقف على ما دبره ولأسرته .

ويحكى لنا التاريخ أن السفاح لما بويع بالخلافة ، استوزر أبا سلمة على كره منه لمكانته من الخراسانيين ، وهم عصب الدولة ومصدر قوتها . ولقبه وزير آل محمد . إلا أن هذا كله لم يكن مصدره حسن النية من جانب السفاح . إذ خاف على نفسه إن هو قتله ، قام أهل خراسان يثأرون له ، فعمل على أن يتم هذا الأمر على يد أبى مسلم وكتب إليه مع أخيه المنصور كتاباً يخبره فيه : أن أبا سلمة يعمل على تحويل الخلافة إلى العلويين ، وعهد له بمعاقبته . وباطن الكتاب يشعر بتصويب قتله . فأرسل أبو مسلم رجالا من أهل خراسان فقتلوه ، وتخلص منه السفاح وأبو مسلم الذى كان يكرهه ويحقدعليه مقامه . وبذلك هيأ أبومسلم سبيل قتله بنفسه ، فقدعول السفاح على التخلص منه ، إلا أن منيته حالت دون ذلك .

ولكن ميل الفرس إلى العلويين لم يخمد بقتل أبى سلمة الخلال ، فقد كانوا يناصرون كل علوى يعمل على الخروج على العباسيين . ومن أحسن الأمثلة التى تؤيد هذا الرأى محاولة جعفر بن يحي البرمكى تخليص يحي بن عبدالله العلوى فى عهد هارون الرشيد ، وما قام به الفضل بن سهل وزير المأمون فى خراسان من تحويل الخلافة من العباسيين إلى العلويين ، حيث حمل المأمون على أن يولى عهده على الرضا ، وأن يتخذ الخضرة شعار العلويين بدل السواد شعار العباسيين شعاراً رسمياً لدولته .

(ج) حرج مركز العباسيين أيام المنصور بين الساخطين من العرب وعلى رأسهم عم المنصور عبد الله بن على والساخطين من الفرس وعلى رأسهم أبو مسلم الخراسانى :

عمل العباسيون فى مستهل دولتهم على التخلص من بنى أمية ، فأسرفوا فى

قتلهم والتمثيل بهم ، مدفوعين فى ذلك بما أضمروه للأمويين من ذلك العداء القديم الذى بقيت آثاره بعد ظهور الإسلام . ومال العباسيون إلى الفرس ميلا شديداً ، فقربوهم إليهم وآثروهم على العرب بالمناصب المدنية والعسكرية ، مما أوغر صدور العرب من ناحية العباسيين . على أن الفرس لم يقنعوا بما نالوه من أثره ، (بفتح الألف والثاء والراء) وما تمتعوا به من نفوذ وسلطان فى ظل العباسيين الذين أنقذوهم من نير الأمويين ومالوا إلى آل على ، لأنهم يجمعون ، كما نعلم ، بين أشرف دم عربى وأشرف دم فارسى . هذا إلى مناوأة عبد الله بن على عم المنصور الذى بدأ يناوئه السلطان ، ويؤلب الناس عليه ، ويعمل على اغتصاب الخلافة منه .

لذلك ساء موقف المنصور بين الساخطين من العرب وعلى رأسهم عمه عبد الله ابن على ، والساخطين من الفرس وعلى رأسهم أبو مسلم الخراسانى . أضف إلى ذلك خروج العلويين وعلى رأسهم محمد النفس الزكية وأخوه إبراهيم فى الحجاز والعراق كما سيأتى .

وذلك أنه لما مات أبو العباس السفاح ولى الخلافة أبو جعفر المنصور . ولما اتصل بعمه عبد الله بن على خبر وفاة أبى العباس ، أمر منادياً فنادى فى الجند : الصلاة جامعة . فاجتمع إليه القواد والجند ، وقرأ عليهم كتاب عيسى بن موسى الذى ولاه السفاح عهده بعد أبى جعفر ، ودعا إلى نفسه ، وادعى أن أبا العباس لما أراد توجيه الجند لقتال مروان بن محمد قال لهم : « من انتدب منكم للمسير إليه فهو ولى عهدى وأنه لم ينتدب لهذا الأمر أحد غيرى » . ويقال إن القواد بايعوا عبد الله ، وكان بموضع يقال له دلوك بنواحى حلب ، وأنه رحل إلى حران على طريق الموصل والشام ، وطلب إلى واليها مبايعته فأبى ، فهزمه وقتله .

ولما بلغ أبا جعفر أن عبد الله شق عصا الطاعة ، ندب أبا مسلم لقتاله فقال له : لا تخفه فأنا أكفيكه إن شاء الله ، إنما عامة جنده من أهل خراسان ، وهم لا يعصوننى . وقد ضم أبو جعفر إلى أبى مسلم نخبة من مشهورى قواد العرب كالحسن وحميد ابنى

قحطبة . ويقول اليعقوبى (١) : إن حَميد بن قُحطبة كان مع عبد الله بن على ، وإن هذا تخوف منه واحتال فى التخلص منه ، فأرسل معه إلى والى حلب كتاباً أمره فيه بقتله . ولما قطع ابن قحطبة نحو نصف الطريق ، ارتاب فى أمر هذا الكتاب ، وتوجس خيفة من ناحية عبد الله بن على . ولما فك الطومار وقرأ الكتاب ، جمع خاصته وأعلمهم بما فيه ، وسار إلى الرصافة وانضم بجنده إلى أبى مسلم ، فقوى بانضمامه إليه وضعف جند عبد الله بن على .

وهناك حادثة أخرى جعلت موقف عبدالله أشد حرجاً ، هى أنه هم بقتل مَن فى جنده من الخراسانيين ، وكانوا زهاء سبعة عشر ألفاً ، خشية انضمامهم إلى أبى مسلم . وقد كتب أبو مسلم إلى عبد الله كتاباً يقول فيه : « إنى لم أؤمر بقتالك ولم أوجه إليك . ولكن أمير المؤمنين ولانى الشام ، فأنا أريدها » . وبذلك خدع أبو مسلم جند عبد الله من أهل الشام الذين خافوا على بلادهم وذراريهم وأبوا إلا المسير نحو بلادهم . فلم ير عبدالله بداً من التوجه نحو بلاد الشام وحارب خمسة أشهر حلت بعدها الهزيمة بجنده ، وذلك فى شهر جمادى الثانية سنة ١٣٦ ، وفر من ميدان القتال حتى وصل إلى البصرة ، واختفى عند أخيه سليمان ابن على ، وكان قد وليها من قبل المنصور ، واستولى أبو مسلم على ما فى معسكر عبد الله من مال وعتاد (٢) .

من ذلك نرى أن عبد الله بن على قد أخطأ بعمله على التخلص من حميد بن قحطبة الذى كان يعد من أعظم قواد الدولة العباسية فى ذلك الحين ، ثم بقتله من كان فى جيشه من الخراسانيين ، مما أضعف قوته وأثار حفيظة من بقى معه من الجند ، فلم يخلصوا له ولدعوته .

ويقول الطبرى (٣) : إن عبد الله بن على بايع أبا جعفر المنصور سنة ١٣٨ هـ ،

---

(١) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٤٣٩ .
(٢) الطبرى ج ٩ ص ١٥٨ — ١٥٩ .
(٣) المصدر نفسه ج ٩ ص ١٧٢ .

حين كان أخوه سليمان لا يزال على ولاية البصرة ، وأن سليمان لما عزل اختفى عبد الله خوفاً على حياته ، ثم ألح المنصور على سليمان بن على وعيسى بن موسى بإحضار عبد الله ، وأعطاها الأمان على ألا يسيء إليه . ولكنه أمر بحبسه ، وقتل بعض أصحابه ، ثم قتله سنة ١٤٩ ﻫ بعد أن حبسه تسع سنين (١) ، وأمن بذلك شر أبي مسلم ومحمد النفس الزكية وإبراهيم بن عبد الله بن الحسن العلوى وعمه عبد الله بن على ، كما عمل أبو جعفر على التخلص من عيسى بن موسى ليصفو الجو لابنه المهدى كما تقدم .

تفاقم العداء بين أبي مسلم وأبي جعفر المنصور منذ أيام السفاح ، الذى بعث أخاه أبا جعفر إلى أبي مسلم ، وكان بنيسابور ، ومعه كتاب بتوليته على خراسان ، وطلب منه أن يبايع أخاه أبا جعفر من بعده . وعلى الرغم من أبا مسلم أجاب الخليفة إلى ما طلب وأخذ له ولأخيه البيعة من أهل خراسان ، حنق عليه أبو جعفر لاستخفافه به وأوغر صدر الخليفة عليه وحثه على قتله وخوفه من خروجه عليه ، وقال له : « أطعني واقتل أبا مسلم فو الله إن فى رأسه لغدرة » . ولكن أبا العباس لم يجب أخاه إلى ماطلب ، لما قام به أبو مسلم من جهود فى سبيل الدولة العباسية ، ولما كان يتمتع به من نفوذ فى نفوس أهل خراسان .

ثم حدثت بين أبي جعفر وأبي مسلم أحداث أدت إلى إثارة عوامل الحقد والكراهة بين الرجلين . ذلك أن أبا مسلم أراد أن يحج بيت الله ، فولى الخليفة أبا جعفر إمارة الحج فغضب أبو مسلم وقال : « أما وجد أبو جعفر عاماً يحج فيه غير هذا ؟ » وعمل أبو مسلم على الحط من هيبة أبي جعفر ، بإنفاقه الأموال الضخمة فى الترفيه عن العرب وإصلاح الطرق ثم بتقدمه عليه فى الطريق بعد أداء فريضة الحج .

عند ذلك أتى أبا مسلم نعى أبي العباس السفاح ، فكتب إلى أبي جعفر يعزيه فى وفاته أخيه ، ولم يهنئه بالخلافة أو يبعث إليه بالبيعة ، أو يقف فى طريقه حتى

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤٤ .

يلحق به الخليفة الجديد ، ثم بايعه بعد مماطلة قليلة ليدخل فى روعة القلق من ناحيته . ولما وصل المنصور إلى الكوفة ، ندب أبا مسلم لمحاربة عمه عبد الله بن على لخروجه عليه . ولما علم المنصور بانتصار أبى مسلم على عمه ، أرسل إليه رسولا من قبله ليحصى الغنائم ، فغضب أبو مسلم وهم بقتل الرسول وقال : أمين على الدماء خائن فى الأموال ؟ » .

ولما عاد رسول أبى جعفر أخبره بما رآه ، فخاف أن يعود أبو مسلم إلى خراسان فيؤلب عليه أهلها ويستقل بحكمها ، فعمل على إبعاده عنها ، وولاه مصر والشام ، فغضب أبو مسلم وقال : « هو يوليني الشام ومصر وخراسان لى » ، وعول على السير إلى خراسان . عند ذلك أوجس المنصور خيفة من ناحية أبى مسلم وخشى خروجه عليه ، وعول على التخلص منه قبل أن يستفحل شره ، فكتب إليه كتاباً يأمره فيه بالرجوع إليه ، فرد عليه أبو مسلم : « أنه لم يبقَ لأمير المؤمنين — أكرمه الله ! — عدو إلا أمكنه الله منه . وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان ، أن أخوف مايكون الوزراء إذا سكنت الدهماء . فنحن نافرون من قربك حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت ، حريون بالسمع والطاعة ، غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة . فإن أرضاك ذاك فأنا كأحسن عبيدك ، فإن أبيت إلا أن تعطى النفس إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضناً بنفسى (١) » .

وفى هذا الكتاب عبر أبو مسلم عما يجيش فى صدره من حقد لأبى جعفر وما يخشاه على حياته إذا هو أطاع أمره . ولكن أبا جعفر أراد أن يسلك مع قائده العظيم سبيل اللين والمسالمة . فكتب إليه كتاباً يقول فيه : « قد فهمت كتابك ، وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم ، فإنما راحتهم فى انتشار نظام الجماعة . فلم سويت نفسك بهم ؟ فأنت فى طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ماأنت به ، وليس مع الشريطة الأخرى التى أوجبت منك سماع ولا

---

(١) الطبرى ج ٩ ص ١٦١ .

طاعة . وحمل إليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالة لتسكن إليها إن أصغيت إليها وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزعاته وبينك ، فإنه لم يجد باباً يفسد به نيتك أوكد عنده وأقرب من طبه من الباب الذى فتحه عليك (١) » .

أرسل أبو جعفر هذا الكتاب إلى أبى مسلم مع أبى حميد المروروذى ، وأمره أن يتلطف معه فى القول حتى يلين ، وأن يمنيه الأمانى ، فإن أبى هدده بالويل والثبور وعظائم الأمور ، وأكد له أن الخليفة قد عول على القضاء عليه ، ولو خاض البحر واقتحم النار حتى يقتله أو يموت . فأوجس أبو مسلم خيفة وساورته الظنون وتملكه القلق ، ولا سيما بعد أن علم أن أبا جعفر أرسل إلى نائب أبى مسلم بخراسان كتاباً يمنيه فيه بولايتها إذا هو قطع صلته به وحال دون وصوله إليها . كما ازداد قلق أبى مسلم حين بلغه كتاب نائبه فى خراسان يقول : « إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم ، فلا تخالفن إمامك ولا ترجعن إلا بإذنه » . وكان تهديد أبى حميد نائب أبى مسلم فى خراسان كافياً لعدوله عن رأيه ، ولكن بعض نصحائه لم يطمئن إلى وعود أبى جعفر ورسله ، وحذروه من الرجوع إليه .

ولما علم أبوجعفر بقرب أبى مسلم من المدائن ، دبر أمر اغتياله ، وأمر فى الوقت نفسه رجالات دولته وأفراد البيت الهاشمى بلقائه . ثم مثل أبومسلم بين يدى الخليفة ، فقال له : انصرف ياعبد الرحمن فأرح نفسك وادخل الحمام ، فإن للسفر عناء ، إحضر غداً . وأرسل الخليفة إلى عثمان بن نهيك رئيس حرسه ، ودبر معه طريقة قتله ، وهى أن يحضر أربعة من الحراس الذين يثق بهم ، وأن يكونوا خلف الرواق ، على أن يخرجوا إذا صفق بيديه ويقتلوا أبا مسلم .

ثم أصبح الصباح وجاء أبو مسلم ومثل بين يدى أبى جعفر الذى أخذ يحدثه ويقول له (٢) : « أخبرنى عن نصلين أصبتهما فى متاع عبدالله بن على ، قال : هذا

---

(١) الطبرى ج ٩ ص ١٦٦ — ١٦٧ .
(٢) المصدر نفسه ج ٩ ص ١٦٦ — ١٦٧ .

أحدها الذى علىّ قال أرنيه ، فانتضاه ، فناوله فهزه أبو جعفر ثم وضعه تحت فراشه ، وأقبل عليه يعاتبه ، فقال : « أخبرنى عن كتابك إلى العباس تنهاه عن الموات (١) أردت أن تعلمنا الدين ؟ قال : ظننت أخذه لايحل ، فكتب إلى ، فلما أتانى كتابه علمت أن أمير المؤمنين وأهل بيته معدن العلم . قال : أخبرنى عن تقدمك إياى فى الطريق ، قال : كرهت اجتماعنا على الماء فيضر ذلك بالناس ، فتقدمتك التماس المرفق . قال : فقولك حين أتاك الخبر بموت أبى العباس لمن أشار عليك أن تنصرف إلى . تقدم فترى من رأينا ، ومضيت ، فلا أنت أقمت حتى نلحقك ولا أنت رجعت إلى ، قال : منعنى من ذلك ما أخبرتك من طلب المرفق بالناس ، وقلت نقدم الكوفة فليس عليه منى خلاف . قال : فجارية عبد الله بن على أردت أن تتخذها ، قال : لا ، ولكنى خفت أن تضيع فحملتها فى قبة ووكلت بها من يحفظها ، قال فمراغمتك وخروجك إلى خراسان ، قال : خفت أن يكون قد دخلك منى شىء ، فقلت آتانى خراسان فأكتب إليك بعذرى ، وإلى ذاك ماقد ذهب مافى نفسك على . قال تالله مارأيت كاليوم قط ، والله مازدتنى إلا غضباً . ثم أقبل يعاتبه : ألست الكاتب تبدأ بنفسك ، والكاتب إلى تخطب أمينة بنت على ، وتزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن عباس ؟ مادعاك إلى قتل سليمان بن كثير مع أثره فى دعوتنا ، وهو أحد نقبائنا قبل أن ندخلك فى شىء من هذا الأمر ؟ قال : أراد الخلاف وعصانى فقتلته (٢). فقال المنصور: وحاله عندنا

---

(١) الموات . مالا روح فيه أو هو الأرض التى لامالك لها .

(٢) نقل فان فلوتن عن كتاب المقفى الكبير للمقريزى (مخطوط ، المكتبة الأهلية بباريس ، ورقة ٨٠ ب) شذرات خاصة بمقتل سليمان بن كثير فقال : وكان سليمان بن كثير الخزاعى من النقباء ، فلما قدم أبو جعفر أخو أبى العباس على أبى مسلم قال له : إنا كنا نحب تمام أمركم ، وقد تم بحمد الله ونعمته ، فإذا شئتم قلبناها عليه . وكان محمد بن سليمان بن كثير خداشيا ، فكره تسليم أبيه الأمر إلى أبى مسلم . فلما ظهر أبو مسلم وغلب على الأمر قتل محمداً ، ثم أتى سليمان الكفية ، وهم الذين بايعوا على أن لايأخذوا مالا وأن تؤخذ أموالهم إن احتيج إليها ويدخلون الجنة . ويقال إنهم أعطوا كفا من الحنطة فسموا الكفية ، وقال لهم : حفرنا نهراً بأيدينا فجاء غيرنا فأجرى فيه الماء ، يعنى أبا مسلم ، فبلغ قوله أبا مسلم ، فاستوحش منه ، =

حاله فقتلته ، وتعصينى وأنت مخالف علىّ ، قتلنى الله إن لم أقتلك . فضربه بعمود وخرج عثمان بن نهيك وشبيب وحرب فقتلوه ، وذلك لخمس ليال بقين من شعبان سنة ١٣٧ هـ فقال المنصور :

زعمت أن الدّين لاينقضى فاستوفِ بالكيل أبا مجرم
سقيت كاساً كنت تسقى بها أمرّ فى الحلق من العلقم

وكان أبو مسلم قد قتل فى دولته وحروبه ستمائة ألف صبراً . وقيل إن أبا جعفر لما عاتبه قال : فعلت وفعلت ، قال أبو مسلم : ليس يقال هذا إلى بعد بلائى وما كان منى فقال : « يا ابن الخبيثة ! والله لو كانت أمة مكانك لأجزت ناصيتها ، إنما عملت ماعملت فى دولتنا وبريحنا ، ولو كان ذلك إليك ماقطعت فتيلا » .

وقد كان أبو مسلم قال — فيم قيل — عند أول ضربة أصابته : يا أمير المؤمنين ! استبقنى لعدوك ، فقال : لا أبقانى الله إذاً ، وأى عدو لى أعدى منك ؟ وقيل إن عيسى بن موسى دخل بعد ماقتل أبو مسلم ، فقال يا أمير المؤمنين ! أين أبو مسلم ؟ فقال : قد كان ههنا آنفاً ، فقال عيسى : يا أمير المؤمنين ، قد عرفت طاعته ونصيحته ورأى الإمام إبراهيم كان فيه فقال : ياأنوك ، والله ما أعلم فى الأرض عدواً أعدى لك منه ، ها هو ذاك فى البساك . فقال عيسى : إنا لله وإنا إليه راجعون . وكان لعيسى رأى فى أبى مسلم ، فقال له المنصور : خلع الله قلبك ، وهل كان لكم ملك أو سلطان أو أمر أو نهى مع أبى مسلم ؟ ثم دعا أبو جعفر بجعفر بن حنظلة ، فدخل عليه فقال : ما تقول فى أبى مسلم ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ! إن كنت أخذت شعرة من رأسه فقتل ثم اقتل ثم اقتل ، فقال

= وشهد عليه أبو تراب الداعية ومحمد بن علوان المروروذى وغيرهما فى وجهه ، بأنه أخذ عنقود عنب وقال : اللهم سود وجه أبى مسلم كما سودت هذا العنقود واسق دمه . وشهدوا أن ابنه كان خداشياً ، وأنه بال على كتاب الإمام ، فقال أبو مسلم لبعضهم : خذ به وألحقه بخوارزم ، وكذلك كان يقول لمن أراد قتله ، فقتل سليمان بن كثير (السيادة العربية — ترجمة المؤلف ص ١٤٦ — ١٤٧) .

المنصور : وفقك الله ، ثم أمره بالقيام والنظر إلى أبى مسلم مقتولا : فقال : يا أمير المؤمنين : عُدَّ من هذا اليوم لخلافتك» (١).

ثم خطب المنصور فى الناس خطبة قال فيها : أيها الناس ! لاتخرجوا عن أنس الطاعة إلى وحشية المعصية ، ولاتسروا غش الأئمة ، فإنه لم يسر أحد قط منكرة إلا ظهرت فى آثار يده أو فلتات لسانه ، وأبداها الله لإمامه بإعزازه دينه وإعلاء حقه ، إنا لن نبخسكم حقوقكم ، ولن نبخس الذى بادر بإعزاز دينه وإعلاء حقه بفلجه . إنه من نازعنا هذا القميص أجزرناه خبى هذا الغمد . وإن أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا ، على أنه من نكث بنا فقد أباح دمه ، ثم نكث بنا فحكمنا عليه حكمه على غيره لنا . ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه » . ثم أعطى المنصور الجوائز لقواد أبى مسلم وجنده حتى رضوا ، ورجع أصحابه وهم يقولون : « بعنا مولانا بالدراهم (٢) » .

ولكن قتل أبى مسلم لم يرض أهل خراسان ولم يرض أنصاره ، فخرج رجل منهم اسمه سنباذ يطلب الأخذ بثأره . وكان مجوسياً من بعض قرى نيسابور ، وقد كثر أشياعه ، وأطاعه كثير من أهل خراسان ، وبخاصة أهل الجبال (٣) . فلما بلغ المنصور خبر سنباذ أرسل إليه عشرة آلاف فارس أحلوا به الهزيمة . وخرج غير سنباذ كثيرون طلباً لثأر أبى مسلم ، وكان المقنع الخرسانى أشدهم خطراً . واعتقد بعضهم أنه حى لم يمت ، فزعموا أنه « أوشيدرباى » (بكسر الشين والدال) أو « أوشيدرما » أحد أعقاب زرادشت (بفتح الزاى وضم الدال وسكون الشين) الذى ينتظر المجوس ظهوره كما ينتظر المسلمون ظهور المهدى ، حتى إن تلك الطوائف لم تعتقد بموت أبى مسلم ، بل كانوا ينتظرون رجعته ليملأ الأرض عدلا ، على حين حول بعض أشياعه الإمامة إلى ابنته فاطمة (٤) .

---

(١) الطبرى ج ٩ ص ١٦٧ .

(٢) الطبرى ج ٩ ص ٣١٣

(٣) أى الجبال الواقعة جنوب بحر قزوين أو بحر طبرستان ، وسمى بذلك لأن طبرستان أشهر البلاد الواقعة عليه .

(٤) البلاد العربية ترجمة المؤلف ص ١٣٤ .

ويقول نظام الملك (١) : كان أول ما يتكلمون به فى دعواتهم ، ترحمهم على أبى مسلم الخراسانى والمهدى وفيروز حفيد أبى مسلم وابن بنته فاطمة . وذهب «كازانوفا» إلى القول بأن هؤلاء الأشياع كانوا يسمون الفاطميين نسبة إلى فاطمة بنت أبى مسلم ، وهؤلاء هم طائفة الخرمية التى سيأتى الكلام عليها .

وفى رأينا أن المنصور إنما قام بهذا العمل مدفوعاً بما كان بينه وبين أبى مسلم من حزازات شخصية قديمة . وقد زاد أبو مسلم النار اشتعالا ، بتماديه فى زهوه وإعجابه بنفسه وإسرافه فى قتل النفوس البريئة بغير شفقة أو رحمة . ومما يؤخذ عليه قتله سليمان بن كثير .

أما إخلاص هذا الرجل وتفانيه فى نصرة العباسيين ، فأمر لم يقم الدليل بعد على إضعافه أو دحضه . وإن أبا جعفر إنما قام بهذا العمل ، مدفوعاً بعوامل الغيرة من أبى مسلم ، متأثراً بهذه الهواجس التى استولت عليه ، فظن به الظنون وخامرته الريب فى إخلاصه وولائه . وعندنا أن أبا مسلم إن كان يستحق القتل على يد أحد من الناس ، فيصح أن يكون بعيداً عن بيت العباس .

وقد دلت الحوادث على أن من أسس دولة لا يستمتع بها فى أغلب الأحيان . قال عليه الصلاة والسلام : « لاتتمنوا الدول فتحرموها » . ويقول صاحب الفخرى (ص ١٣٨) : « وكأن المخترع للدولة يكون عنده من الدالة والتبسط ما تأنف من احتماله نفوس الملوك ، كلما زاد تبسطه زادت الأنفة عندهم حتى يوقعوا به » .
والتاريخ يعيد نفسه كما يقولون ، فقد كانت خاتمة أبى عبدالله الشيعى الذى تدين له الدولة الفاطمية بظهورها ووجودها فى الدولة المستقلة ، خاتمة أبى مسلم الخرسانى ، مع ما عرف من غيرته وانتصاره للدعوة العباسية.

وقد استطاع أبو جعفر المنصور بما أوتيه من دهاء وحزم ، أن يقهر أعداءه من العرب ويأسر عمه عبد الله بن على ثم يقتله ، وأن يقهر أعداءه من الفرس ويقتل أبا مسلم الخراسانى مؤسس الدولة العباسية .

---

(١) Siassett, Nameh: tome ii. p. 290.

(و) حركات الموالى :

١ — الراوندية :

لم يكد المنصور ينتهى من قتل أبى مسلم الخراسانى حتى فوجىء بتعاليم جديدة يدعو إليها أهل فارس ، وكانوا قبل الفتح الإسلامى يقدسون ملوكهم فيجعلونهم فى مصاف الآلهة ، وهؤلاء هم الراوندية (١) .

كانت الكوفة التى ظهر منها الدعاة العباسية فى مستهل القرن الثانى للهجرة مهداً لتشيع متطرف غير إسلامى . وهكذا لم يلبث الإسلام أن أصبح خليطاً من مذاهب ونحل شتى على أثر اتصاله بالديانات والعقائد التى كانت سائدة فى بلاد العراق قبل ظهور الإسلام (كديانة الفرس القدماء) Parsees والمانوية والصائبة وغيرها ، وذلك للتوفيق بينه (أى الإسلام) وبين تلك الديانات المختلفة . وكان الدعاة يقومون بنشر الدين الإسلامى بين الناس بحماسة وحمية ، برغم هذا التغيير الذى طرأ عليه فى ذلك الحين ، ويدافعون عنه بإخلاص وغيرة ، حتى كان يحكم على الكثيرين من الغلاة والمبتدعين منذ أيام على بن أبى طالب إلى عهد المنصور العباسى (حين أصبحت بغداد حاضرة الدولة الإسلامية) ، وذلك لجرأتهم على الابتداع فى الإسلام وإدخالهم فيه ماليس منه . وإلى القارىء ما ذكره المدائنى المؤرخ المتوفى سنة ٢١٤ هـ عن عقيدة الراوندية ، قال « إن رجلا من الراوندية كان يقال له الأبلق ، وكان أبرص ، فتكلم بالغلو ودعا بالراوندية ، فزعم أن الروح التى كانت فى عيسى بن مريم صارت فى على بن أبى طالب ، ثم فى الأئمة واحداً بعد واحد ، إلى إبراهيم بن محمد (سبط العباس عم النبى) ، وأنهم آلهة ، كما استحلوا الحرمات . فكان كل رجل منهم يدعو الجماعة

---

(١) نسبة إلى مدينة راوند (بفتح الواو) القريبة من أصفهان وكانت مهد دعوتهم .

منهم إلى منزله ، فيطعمهم ويسقيهم ويبيح لهم الحرمات . فبلغ ذلك أسد بن عبد الله (القسرى) فقتلهم وصلبهم ، فلم يزل ذلك فيهم إلى اليوم ، فعبدوا أبا جعفر المنصور ، وصعدوا إلى الخضراء[١] ، فألقوا أنفسهم كأنهم يطيرون[٢] . وخرج جماعتهم على الناس بالسلاح ، فأقبلوا يصيحون بأبى جعفر : أنت أنت ! (يعنون أنت الله !) ، فخرج إليهم بنفسه فقاتلهم ، فأقبلوا يقولون : أنت أنت ![٣] » .

لم ير المنصور بداً من أن يضرب على أيدى هؤلاء ، لأنه لم يكن يستطيع أن يوافقهم على قولهم ، لخروجهم على الدين والدولة ، ولأن ذلك من شأنه أن يثير العرب عامة .

وقد حبس المنصور من زعماء الراوندية مائتى رجل ، فأثار هذا نفوس أنصارهم فاجتمعوا وفتحوا السجون وأخرجوا الرؤساء ، ثم قصدوا المنصور وحاربوه ، فخرج إليهم ماشياً ، فتكاثروا عليه وكادوا يقتلونه ، لولا أن أغاثه معن بن زائدة الشيبانى ، أحد قواد الأمويين الذين حاربوا العباسيين تحت إمرة ابن هبيرة والى العراق . وقد ظهر معن ، وقاتل دون الخليفة العباسى ، فأبلى بلاء حسناً ، فظفر بالراوندية وكوفىء بولاية اليمن ، وكان قد اختفى بعد واقعة واسط إلى هذه الساعة .

وكان أبو جعفر المنصور ينظر إلى الراوندية كأعداء سياسيين ، لأنهم من أتباع عدوه أبى مسلم الخراسانى ، الذين يعملون على تحويل الخلافة إلى ملك كسروى كما كان ينظر إليهم باعتبارهم زنادقة ، يريدون أن تعود المجوسية أو شكل من أشكالها ، كالزرادشتية أو المانوية أو المزدكية أو غيرها . فعاملهم كما عامل أبامسلم وقتلهم شر قتلة إلا أنه مع ذلك لم يستطع أن يقضى عليهم قضاء تاماً ، فظهروا فى صور مختلفة نراها فى مثل ثورات المقنع الخراسانى وبابك الخرمى وغيرها .

---

(١) هى القبة التى بناها المنصور ببغداد .

(٢) لا يزال يعزى إلى طائفة النصيرية من الفرس القدرة على الطير فى الهواء حتى اليوم كما يعزى مثل ذلك أيضاً إلى بعض البوذيين .

(٣) راجع الطبرى ج ٩ ص ٣٠٧ فإن فلوتن السيادة العربية ، ترجمة المؤلف ص ٨٢ و٩٦ .

٢ — المقنعية :

وفى عهد الخليفة المهدى (١٥٨ — ١٦٩ هـ) ظهر المقنع (بضم الميم وفتح القاف وفتح النون مع التشديد) بخراسان . وكان رجلا قبيح الخلقة أعور قصيراً ، من أهل مرو . عمل وجهاً من ذهب وركبه على وجهه ، وادعى الألوهية . وكان يقول : الله خلق آدم فتحول فى صورته . ثم فى صورة نوح ، ثم إلى صورة إبراهيم ، ثم إلى صورة واحد فواحد من الأنبياء والحكماء ، ثم فى صورة محمد ، ثم تحول بعده فى صورة على ابن أبى طالب ، ثم انتقل فى صورة أولاده ، حتى حصل فى صورة أبى مسلم الخراسانى . ثم زعم أنه انتقل منه إليه ، وقال : إنى أنتقل فى الصور لأن عبادى لا يطيقون رؤيتى فى صورتى التى أنا عليها . ومن رآنى احترق بنورى . وأسقط الصلاة والزكاة والصوم والحج ، وأباح للناس الأموال والنساء . كما أباح لهم تعاليم مزدك ، فعبده الناس وسجدوا له .

وقد أظهر المقنع قمراً يطلع ويراه الناس على مسيرة شهر ثم يأفل . وفى ذلك يقول أبو العلاء المعرى [١] :

أفِقْ إنما البدر المقنع [٢] رأسه ضلالٌ وغىٌ مثل بدر المقنع

وإلى ذلك يشير أبو القاسم هبة الله بن سناء الملك فى إحدى قصائده :

إليك فما بدرُ المقنع طالعاً بأسحر من ألفاظ بدر المعمم [٣]

---

(١) شرح التنوير فى كتاب سقط الزند لأبى العلاء المعرى (القاهرة سنة ١٢٨٦ هـ) جـ ٢ ص ١٠٣ .

(٢) يريد بالبدر المقنع رأس امرأة مقنعة تشبه بحسنها البدر . والمراد بالمقنع رجل من المنخرقين تنبأ ببلاد ما وراء النهر فى ناحية كش (بضم الكاف) وأخرى بمعرفته كثيراً من الناس . وادعى أنه يطلع بدراً فى السماء » فأنبط بئراً واسعة فى بعض جبال تلك الناحية ، فطرح فيها الزئبق الكثير فوق الماء ، فكان شعاعه يظهر فى الجو كأنه بدر . وأقام بذلك مدة يغرى الناس ويضلهم بأباطيله ويقول : أفق من سكرة الهوى ودعوى محبة النساء . فإن المرأة المقنعة التى تحسبها بدراً مقناً حسناً وبهاء ، حبها والاغترار بها غواية وضلالة كالاغترار ببدر المقنع الذى أظهره تمويهاً وتغريراً .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤٥٣ .

وكان المقنع فى مبدأ أمره ينتحل مذهب الرزامية (أتباع رزّام وكانوا كيسانية فى الأصل) ، الذين ساقوا الإمامة إلى محمد بن الحنفية ، ثم إلى إبنه أبى هاشم ، ثم إلى على بن عبد الله بن عباس ، ثم إلى ابنه محمد ، ثم إلى ابنه إبراهيم الإمام ، ثم إلى أخيه أبى العباس السفاح ، ثم انتقلت إلى أبى مسلم الخراسانى . وقد ظهروا بخراسان واتخذوا مرو مركزاً لنشر دعوتهم ، واعتقـدوا أن روح الله قد حل فى أبى مسلم ، وأنه أيده وأعانه على بنى أمية فقتلهم عن آخرهم . كما قالوا بتناسخ الأرواح . واعتقدت طائفة منهم أن أبا مسلم صار إلهاً بحلول روح الله فيه . وأنه حى لم يمت . وينتظرون عودته ، قالوا إن الذى قتله المنصور كان شيطاناً تصور للناس فى صورة أبى مسلم ، وهؤلاء بمرو وهراة يعرفون بالبركوكية (١) .

ولمـا قوى أمر المقنع وكثر أنصاره ، انضم إليـه أهل بخارى وسمرقند والأتراك الذين كانوا يقيمون حول بحر قزوين . واعتصم بقلعة حصينة بكش ، وأرسـل إليه الخليفة المهدى سبعين ألف مقاتل بقيادة معـاذ بن مسلم ، الذى طاوله حتى ضجر هو وأصحابه ، فطلب أكبرهم الأمان ، وبقى هو فى القلعة مع نفر يسير من أصحابه . ولما شعر المقنع بالهزيمة ، أشعل النار فى القلعة . وأحرق كل ما فيها من دواب وثياب ومتاع . وأذاب النحاس والسكر فى تنور ، وجمع نساءه وأولاده وطلب ممن أحب من أصحابه أن يلقوا بأنفسهم فى النار ليرتفعوا إلى السماء ، وقال « أنا صاعد إلى السماء ، فمن أراد أن يصحبنى فليشرب من هذا الشراب » . وسقاهم شراباً مسموماً شرب هو منه ، فماتوا جميعاً ، وألقى نساءه وأولاده فى النار ، ثم ألقى بنفسه فيها خوفاً من أن يظفر أعداؤه بجثته أو جثث نسائه ، وذلك سنة ١٦٩ هـ . واطمأن المهدى من ناحية المقنـع وأمن الناس من شر مبادئه .

ولـكن موت المقنع لم يضع حـداً لتعاليمه التى اعتنقها نفر من بلاد ما وراء

---

(١) النوبختى : فرق الشيعة ص ٤٢ — ٤٣ . الشهرستانى الملل والنحـل ج ١ ص ٢٠٥ — ٢٠٧ .

النهر ، أصبحوا يعرفون باسم « المقنعية المبيضة » وقد زعموا أن المقنع كان إلهاً ، وأنه تصور فى كل زمان بصورة خاصة[١] . وأصبح له أشياع فى بلاد ما وراء النهر وفى تركستان ، حيث اتخذوا فى كل قرية مسجداً يصلون فيه ويستحلون الميتة والخنزير ، ويبيحون النساء ، وإن ظفروا بمسلم لم يره مؤذن مسجدهم قتلوه وأخذوا جثته .

٣ — الخرمية :

(ا) بابك الخرمى :

كانت بلاد الفرس التى نشأ فيها بابك الخرمى كثيرة المعتقدات والبدع ، سواء أ كان ذلك قبل الإسلام أم بعده . ولهذا ظهرت فيها الطوائف الدينية على اختلافها ومنها طائفة الخرمية[٢] (بضم الخاء وفتح الراء مع التشديد وكسر الميم) التى أسسها مزدك (بفتح الميم والذال وسكون الراء) فى أيام قباذ (بضم القاف) أبى كسرى الأول المعروف بأنو شروان . وقد نشأت من طائفة الخرمية المزدكية[٣] طائفة الخرمية البابكية التى تنسب إلى بابك (بفتح البائين) ، الذى ادعى الألوهية ، وعكر صفو الدولة العباسية فى أيام المأمون ، وأخذ أمره يتفاقم إلى أيام المعتصم .

ويرى بعض المؤرخين أن بابك الخرمى من سلالة أبى مسلم الخراسانى . وأنه ثار فى وجه العباسيين لينتقم لأبى مسلم ، وأن حركته استمرار لحركة المقنع الخراسانى والراوندية وغيرهم . ويقول أبو حنيفة الدينورى[٤] : « والذى صح عندنا وثبت أنه ، كان من ولد مطهر بن فاطمة بنت أبى مسلم هذه ، التى تنسب إليها الفاطميّة من الخرمية لا إلى فاطمة بنت رسول الله » .

وكان بابك يقوم بخدمة جاويدان أحد رؤساء الخرمية . ولما توفى جاويدان

---

(١) البغدادى ، الفرق بين الفرق ص ٢١٥ .

(٢) قيل إنهم سموا خرمية نسبة إلى خرما امرأة مزدك التى اضطلعت بنشر عقائد هذا المذهب بعد قتل زوجها

(٣) وهؤلاء يسمون الخرمية الأول ، لتمييزهم عن الخرمية الثانية الذين نبع منهم البابكية أتباع بابك الخرمى فى عهد المأمون والمعتصم .

(٤) الأخبار الطوال (طبعة ليدن) ص ٢٩٧ .

أقامت امرأته بابك مكانه ، وادعت أن روحه حلت فى جسده ، وأوزعت إلى رجاله بوجوب طاعته . ثم تزوجت منه ، فأخذ بابك فى إفساد عقول الناس حتى كان المأمون بمرو .

وفى عهد المعتصم تفاقم قلق أهل بغداد من بابك الخرمى ، ودخلت أذربيجان تحت حوزته ، وأعانه ملك أرمينية وإمبراطور الدولة البيزنطية . وانتشرت جيوشه ، وأدخل الرعب فى نفوس أهالى البلاد الواقعة بين أذربيجان وإيران التى كانت ، ولا تزال ، تموج بالمذاهب المختلفة : فهناك الزرادشتية والمانوية والمزدكية والأبومسلمية (أتباع أبى مسلم الخراسانى) . وكل هذه العقائد مجتمعة تكون عقائد الخرمية .

ويقول البلخى [١] : « وانضوى إليه القطاع والحراب والدعار وأصحاب الفتن وأرباب النحل الزائفة ، وتكاثفت جموعه حتى بلغ فرسان رجاله عشرين ألف فارس سوى الرجالة . واحتوى على مدن وقرى ، وأخذ بالتمثيل بالناس والتحريق بالنار والانهماك فى الفساد وقلة الرحمة والمبالاة . وهزم جيوشاً كثيرة للسلطان وقتل عدة قواد . وذكر فى بعض الكتب أنه قتل فيما حفظ ألف ألف إنسان من بين رجل وامرأة وصبى [٢] » .

مبادئ الخرمية :

ومبادئ الخرمية جديرة بالبحث لما كان لها من الأثر فى تاريخ العصر العباسى ، وبخاصة فى علاقة الموالى بالعباسيين . فمن مبادئهم الأساسية تحويل الملك من العرب المسلمين إلى الفرس والمجوس ، وهم بذلك قد أثاروا حرباً شعواء على الإسلام والعرب يؤيد هذا ما ذكره البلخى [٣] : فإن الخرمية

---

(١) كتاب البدء والتاريخ ج ٦ ص ١١٥ — ١١٦ . انظر ما كتبه نظام الملك عن ثورة بابك (سياسة نامة ج ٢ ص ٢٩٢ — ٢٩٨) .

(٢) أنظر الملحق الخامس حيث أوردنا ما ذكره المسعودى عن نهاية بابك الخرمى .

(٣) كتاب البدء والتاريخ — ج ٥ ص ١٣٤ .

احتالوا فى إزالة الملك إلى العجم ، فموهوا هذه النحلة ، وزينوها للجهال ، ودعوا إليها فى السر . ومحصول أمرهم التعطيل والإلحاد » . ومن مبادئهم تأليه البشر ، فقد ادعى بابك أن روح جاويدان حلت فيه . حتى جعل الخرمية يقولون : « آمنا بك ياروح بابك كما آمنا بك ياروح جاويدان » . كما كان من مبادىء الخرمية مبدأ الرجعة التى قال بها غلاة المتشيعين .

ويقول البلخى(١) عن مبادىء الخرمية : « هم فرق وأصناف ، غير أنهم يجمعهم القول بالرجعة ، ويقولون بتغيير الاسم وتبديل الجسم (يعنى القول بالتناسخ) ، ويزعمون أن الرسل كلهم على اختلاف شرائعهم وأديانهم يحصلون على روح واحدة ، وأن الوحى لا ينقطع أبداً . وكل ذى دين مصيب عندهم إذا كان راجى ثواب وخاشى عقاب . ولا يرون تهجينه (أى تحقيره) والتخطى إليه بالمكروه ما لم يرم كيد نحلتهم وخسف مذهبهم ... ويعظمون أمر أبى مسلم ، ويلعنون أبا جعفر على قتله ، ويكثرون الصلاة على فيروز لأنه من ولد فاطمة بنت أبى مسلم ، ولهم أئمة يرجعون إليهم فى فى الأحكام ، ورسل يدورون بينهم ويسمونهم « فريشتكان » . ولا يتبركون بشىء مثل تبركهم بالخمور والأشربة . وأصل دينهم القول بالنور والظلمة . . . ووجدنا منهم من يقول بإباحة النساء . . . وإباحة كل ما يستلذ النفس وينزع إليه الطبع » .

ويؤيد هذا ما ذكره نظام الملك (٢) من أنهم رفضوا جميع الفروض الدينية كالصلاة والصوم والحج والزكاة . وأباحوا شرب الخمر ، ونادوا بإباحة المحرمات والاشتراكية فى النساء ويعتقد الإنسان أن هذه المبادىء هى مبادىء مزدك . ويبذلون كل ما يستطيعون من جهد للقضاء على الإسلام قضاء مبرماً ، كما أنهم لم يشعروا بأى ميل أو عاطفة إزاء أحد من أهل البيت ، وإن كانوا قد اتخذوا من أسمائهم سبيلا إلى جذب الأنصار إليهم ، لنشر

---

(١) البدء والتاريخ : ج ٤ ص ٣٠ ـ ٣١

(٢) سياسة تامة : ص ٢٩٨ وما يليها .

دعوتهم التى ترمى إلى هدم العقائد الإسلامية . ويقول نظام الملك إن الخرمية والباطنية سواء .

ويرى بعض الباحثين كما يقول فان فلوتن[١] أن هناك صلة بين اسم الخرمية الذى قد يكون مشتقاً من خرم (اسم لمدينة ببلاد ميديا) أو من كلمة خرم ومعناها « لذيذ » . فإذا ماتكلمنا عن « خرم دينياً » ، فلكى نبين أن هؤلاء كانوا لا يعرفون ديناً غير اللذة . ومن هنا يتبين أن هذه الطوائف ، وإن كانت قد جعلت للنساء مكانة أرقى من المكانة التى لهن فى البلاد الشرقية وأباحت لهن الظهور فى المجتمعات الدينية ، فإن ذلك لم يكن إلا بقصد الاستمتاع بظهورهن فى تلك المجتمعات .

على أن ما ذهبت إليه هذه الطائفة من الاستمتاع باللذة التى لا حد لها لم يكن العامل الوحيد فيما يكنه أهل السنة من البغض لهذه الطوائف ، وإن كنا لا نستطيع فى الوقت نفسه أن ننكر أنه كان لغلو بعض المتطرفين من أهل هذه الطوائف أثر كبير فى بعض السنيين لطائفة الخرمية .

(ب) الأفشين والمازيار :

ولم يكد المعتصم ينتهى من ثورة بابك التى هددت ملكه وأقلقت باله وأفنت كثيراً من جنده ، وأضاعت أمواله وأهلكت الحرث والنسل ، حتى فوجىء بثورة الأفشين ، أو بمؤامرته التى دبرها بالاشتراك مع المازيار ، وكان رئيساً للمحمرة ، وهم فرقة من الخرمية أتباع بابك الخرمى . وقد تألق نجم المازيار فى أيام المأمون ، فوثق به وولاه جبال شروين فى أطراف بلاد طبرستان ، وسماه محمداً ، وسمح له بأن يحتفظ بلقب الإصبهبذ الذى كان يطلق على كل من يلى هذه الجهات .

ولما مات المأمون وولى أخوه المعتصم الخلافة كشف المازيار عن ميوله الثورية ،

---

(١) السيادة العربية ، ترجمة المؤلف ص ٩٩ — ١٠٠ .

ودارت المراسلات بينه وبين بابك الذى كان يدين بمبادئ الخرمية كما ذكرنا ، وعرض عليه مساعدته فى ثورته على الخليفة العباسى . ويقول الطبرى[١] إن المازيار لما عزم على الخلاف دعا الناس إلى البيعة ، فبايعوه كرها ، وأخذ منهم الرهائن ، فحبسهم فى برج الأصبهبذ ، وأمر أكرة الضياع بالوثوب بأرباب الضياع وانتهابهم . ومما يؤيد اتصال المازيار ببابك واتفاقه معه على الشقاق ، ما ذكره البغدادى [٢] : « وكانت فتنة ما زيار قد عظمت فى ناحيته إلى أن أخذ فى أيام المعتصم . . . وصلب بسر من رأى بحذاء بابك الخرمى ، وأتباع مازيار اليوم فى جبلهم أكرة [٣] يظهرون الإسلام ويضمرون خلافه » . كان المازيار من دهاقين الفرس ، يخضع مباشرة للخليفة العباسى دون ولاة خراسان من آل طاهر ، وانتهز فرصة انشغال الدولة العباسية بحرب بابك الخرمى ، فاتصل به وبالأفشين سراً ، وعمل ثلاثتهم على محو الإسلام من بلادهم والتخلص من حكم العرب . فهذه الثورة وأمثالها كانت فى الواقع ثورة دينية سياسية معاً ، يراد بها الاستقلال عن الدولة العباسية ، وهى فى الوقت نفسه حركة شعوبية تعمل على حط شأن العرب وإزالة دينهم ودولتهم .

وكان الأفشين من بلاد أشروسنة (بسكون الشين وفتح السين) ببلاد ماوراء النهر الواقعة بين أقاليم فرغانة شرقا وسمرقند غرباً والشاس شمالا . وكان هو وأبوه فى خدمة الخليفة المعتصم ، فولاه قيادة إحدى الفرق التى سيرها لغزو عمورية ، فاشتهر فى حروبه حتى وثق به المعتصم ، وقربه إليه ، وولاه حرب بابك الخرمى .

لكن الأفشين عرف بالتعصب لبلاده ، حتى إنه لم يصله وهو يحارب بابك مال أو هدية إلا أرسلها إليها . وقد قيل إن عبد الله بن طاهر قبض على كثير من هذه الأموال وهى فى طريقها إلى أشروشنة [٤] . وكان الأفشين — كما كان بابك

---

(١) ج ١٠ ص ٣٤٩ .

(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٥٠ — ٢٥٢

(٣) الأكرة هم عمال الأراضى

(٤) الطبرى ج ١٠ ص ٢٦٣ .

والمازيار من قبله — يسعى إلى الاستقلال ببلاده والخروج على الإسلام والدولة العباسية معاً ، كما كان يعتقد أنه لاسبيل إلى نصرة المجوسية إلا على أيديهم . ويقول براون (١) « إن الأفشين لم يكن فى ميوله ونشأته الفارسية أقل وطنية وعطفاً على الفرس من هذين الرجلين اللذين صحباه فى نهايته المحزنة » ، حتى قيل إنهم وجدوا فى داره أصناماً زعموا أنها كانت قد حملت إليه (٢) ، وأنه كان يعبدها ، كما وجدوا عنده كتباً للزنادقة . ومما يدل على أنه كان يكره العرب ويظهر الإسلام ويبطن الكفر قوله : « إنى قد دخلت لهؤلاء القوم (العرب) فى كل شىء أكرهه ، حتى أكلت منهم الزيت ، وركبت الجمل ، ولبست النعل . غير أنى إلى هذه الغاية » ، يعنى لم يطل (٣) ولم يختتن . وقد عبّر أبو تمام عن عقيدة الأفشين فى هذه الأبيات :

قد كان بوأه الخليفة جانباً ... من قلبه حرماً على الأقدار

فإذا ابن كافرة يسر بكفره ... وجْداً كوجْد فرزدق بنوار (٤)

مازال سرُّ الكفر بين ضلوعه ... حتى اصطلى شرَّ الزناد الوارى

صلى لها حياً وكان وَقودها ... مَيْتاً ، ويدخلها مع الفجار

كما أباح الأفشين لنفسه أكل المنخنقة من الحيوانات بحجة أن لحمها أرطب من لحم المذبوح . وكان لايذبح على طريقة المسلمين ، فيأتى كل يوم أربعاء وينصف شاة بسيفه ، ويمر وسطها ، ثم يأكل لحمها جرياً على عادة قومه . وكان ، كالمقنع الخراسانى ، حين يكاتب قومه يبدأ بقوله : « من إله الآلهة إلى عبده فلان » .

وقد ذكر المسعودى (٥) أن المازيار بعد أن قبض عليه ، « أقر على الأفشين أنه

---

(١) Lit Hist. of Persia, vol. I. p. 330.

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٥٤ .

(٣) أى لم يزل شعره بالنورة (مادة لإزالة الشعر) .

(٤) نوار زوجة الفرزدق وكان قد طلقها فندم على ذلك وقال :

ندمت ندامة الكسعى لما ... غدت منى مطلقة نوار

وبت كفاقد عينيه عمداً ... فأصبح مايضىء له نهار

(٥) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٥٤ .

بعثه على الخروج والعصيان ، لمذهب كانوا اجتمعوا عليه ودين اتفقوا عليه من مذاهب الثنوية والمجوس » .

ومن محاكمة المعتصم للأفشين ، يتبين مبلغ تعصب الأفشين لدينه ووطنه ، وتتكشف سلسلة التهم التى رمى بها ، كما نتبين اهتمام المعتصم بكشف غوامض هذه المؤامرة الخطيرة التى دبرها الأفشين وأنصاره . لذلك نراه يعقد لمحاكمته مجلساً برياسته ، ومعه وزيره محمد بن عبد الملك الزيات وقاضيه أبى دؤاد وكثير من رجالات الدولة [١] .

ولكن خاتمة الأفشين لم تكن كخاتمة بابك ، فإنه أودع السجن ومات مسموماً ثم أخرجت جثته فصلبت ، وأحرقت مع الأصنام التى وجدت فى داره ، وذلك فى سنة ٢٢٦ هـ .

وقد علق ميور [٢] على محاكمة الأفشين بقوله : « إنها تبين بجلاء كيف كان تمسك أهالى ولايات الدولة العباسية الشرقية بدينهم الوثنى ، وذلك لبعدهم عن مركز هذه الدولة ، ولأن الإسلام لم يكن قد وصل إلى قلوبهم ، ثم لتحصنهم فى بلادهم المنيعة وقربهم من الأتراك الوثنيين . وقد خاص ميور من ذلك بهذا الرأى ، وهو أن إسلام بعض أهالى فارس إنما كان إسلاماً ظاهرياً ، وأنهم كانوا لايزالون متمسكين بعقائدهم المجوسية القديمة ، وأنهم كانوا ينتهزون الفرصة المواتية ليرتدوا عن الإسلام ويعودوا إلى دينهم القديم . ومصداق ذلك مارأيناه من ظهور هذه الحركات التى أشعل نيرانها سنباذ المجوسى وأنصار أبى مسلم الخراسانى وبابك الخرمى .

٥ — الزنادقة :

كان أشد الثورات بأساً وأكثرها خطراً فى العصر العباسى الأول ، تلك الثورات التى أذكى نيرانها الزنادقة ، الذين تبعد تعاليمهم عن تعاليم الإسلام

---

(١) أنظر الملحق السادس الخاص بمحاكمة الأفشين .

(٢) The Caliphate, pp 518—519

وعقائده ، وتقوم على نوع من الديمقراطية الفاسدة التى تبيح المحرمات وتعبث بالآداب الاجتماعية ، وتعرض الحياة السياسية والاجتماعية للخطر .

وللزندقة عدة معان تختلف باختلاف العصور : فقد كان العرب يطلقون لفظ « زنديق » على من ينفى وجود الله سبحانه ، أو يقول إن له شريكا (١) .

وقيل : إن الزنديق من يبطن الكفر ويظهر الإيمان ، وفى ذلك يقول الشاعر :

بغـــدادُ دارٌ لأهل المال طيبةٌ ... وللمفاليس دارُ الضنك والضيق
ظللت حَيْرانَ أمشي فى أزقتها ... كأننى مصحفٌ فى بيت زنديق (٢)

وكان لفظ زنديق يطلق أول الأمر على كل من يتأثر بالفرس فى عاداتهم ويسرف فى العبث والمجون ، ثم صار يطلق بعد ذلك على كل من يتخذ عقائد المانوية شعاراً له ، ويتمسك بعقيدة الثنوية ، وعبادة إلهين اثنين ، واتباع تعاليم مانى . ثم توسعوا فى العصر العباسى فى إطلاق لفظ الزندقة ، فأصبح يطلق على من ينكر الألوهية ، أو يتظاهر بالظرف .

ويرجع تاريخ الزندقة إلى أواخر العصر الأموى : فقد كان عبد الصمد بن عبد الأعلى مربى الخليفة الأموى الوليد بن يزيد بن عبد الملك ومؤدبه زنديقاً (٣) كما كان الجعد بن درهم ، الذى ينسب إليه مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية فيقال مروان الجعدى ، زنديقاً .

وذكر ابن النديم (٤) أن الجعد كان مؤدباً لمروان ولولده وأنه أدخله فى الزندقة وكان خالد بن عبدالله القسرى ، على الرغم من اتهامه بالزندقة ، شديداً على الزنادقة ، حتى إنه حبس الجعد بن درهم وقتله يوم عيد الأضحى ، وجعله بدلا من الأضحية بعد أن أعلن ذلك على المنبر فى عهد هشام بن عبد الملك الأموى .

ولم تقو الزندقة على الظهور إلا بعد قيام الدولة العباسية ، حيث انتشرت فى

---

(١) الغزالى : كتاب فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة ص ٣٢ .
(٢) انظر لفظ بغداد فى معجم البلدان لياقوت .
(٣) الأغانى ج ٦ ص ١٣٢ .
(٤) كتاب الفهرست ص ٤٧٢ .

الكوفة . وتكلم الجاحظ الذى عاش فى عصر المأمون على كتب الزنادقة فوصفها لنا وصفاً دقيقاً . وإن ماذكره عن هذه الكتب يطابق ماوصل إلينا عن كتب المانوية . وجاء أبو الفرج الأصفهانى (ت ٣٤٨ ﻫ) بعده فقال عن الزنادقة [1] إنهم كانوا يعرفون بالثنوية ، وعبادة إلهين اثنين ، واتباع تعاليم مانى .

ومن الأسباب التى أدت إلى انتشار الزندقة ، أنها كانت وسطاً بين النصرانية والزرادشتية أتباع زرادشت أحد أنبياء الفرس (وأشهرهم زرادشت ومانى ومزدك) ، وأن ذلك كان سبباً فى تأثير الزندقة فى أهل هذه النحل . كما أن شعائرها كانت قريبة الشبه بشعائر الإسلام ، فإن المانوى ، كالمسلم ، له عدد من الصلوات فى اليوم والليلة (أربع أو سبع) ، كما كانت لهم طهارة قبل الصلاة كالوضوء عند المسلمين .

اضطهد بعض الخلفاء العباسيين أشياع هذه التعاليم ، فتعقبهم المهدى ، وأنشأ ديواناً عهد به إلى رجل أطلق عليه « صاحب الزنادقة » ، ومهنته القضاء عليهم وعلى تعاليمهم . وكان المهدى يقتل على الظنة كل من رمى عنده بالزندقة . ولما وصل إلى حلب ، أمر بتتبع الزنادقة وقتلهم ، ومزق أجسادهم شر ممزق .

ويقول صاحب الأغانى [2] إن المهدى لما نزل البصرة ، دفع بشاراً إلى حمدويه صاحب الزنادقة وقال له : اضربه ضرب التلف . وقال المسعودى [3] إن هذا الخليفة أسرف فى قتل الملحدين ، وإنه أنشأ هذا الديوان الذى عهد به إلى صاحب الزندقة للبحث عن الزنادقة ومحاكمتهم ، كما ألف هيئة علمية لمناظرتهم ووضع الكتب للرد عليهم . وليس أدل على اهتمام المهدى بأمر الزنادقة وعمله على التنكيل بهم والقضاء عليهم ، من وصيته ابنه الذى اعتلى عرش الخلافة العباسية من بعده وتلقب بالهادى

---

(١) الأغانى ج ٣ ص ٧٣ : ٨٦ .

(٢) ج ٣ ص ٧٣ .

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٤٠١ .

فقد ذكر المؤرخون أن المهدى قال لموسى يوماً ، وقد قدم إليه زنديق فاستتابه ، فأبى أن يتوب ، فضرب عنقه وأمر بصلبه : يا بنى ! إن صار لك هذا الأمر ، فتجرد لهذه العصابة — يعنى أصحاب مانى — فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن ، كاجتناب الفواحش والزهد فى الدنيا والعمل للآخرة ، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومس الماء والطهور وترك قتل الهوام تحرجاً وتحوباً ، ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين : أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات ، والاغتسال بالبول ، وسرقة الأطفال من الطرق ، لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور . فارفع فيها الخشب ، وجرد فيها السيف ، وتقرب بأمرها إلى الله لا شريك له ، فإنى رأيت جدك العباس فى المنام قلدنى سيفين وأمرنى بقتل أصحاب الإثنين (١) .

انتشرت الزندقة حتى سرت إلى بيوت الوزراء والشعراء ، فيحدثنا ابن طباطبا (٢) أن الربيع بن يونس حاجب الخليفة المهدى اتهم ابن معاوية بن يسار الذى وزر للخليفة بسبب منافسته للوزير ، فبعث إليه المهدى ، « فسأله عن شىء من القرآن العزيز ، فلم يعرف ، فقال لأبيه ، وكان حاضراً : ألم تخبرنى أن ابنك يحفظ القرآن ؟ قال : بلى يا أمير المؤمنين ، ولكن فارقنى منذ مدة فنسيه ، فقال له : قم فتقرب إلى الله بدمه ، فقام أبو عبيد الله (معاوية بن يسار) ، فعثر ووقع وارتعد ، فقال العباس بن محمد عم المهدى : يا أمير المؤمنين ! إن رأيت أن تعفى الشيخ من قتل ولده ويتولى ذلك غيره ، فأمر المهدى بعض من كان حاضراً بقتله ، فضرب عنقه » ، ثم احتجب الوزير وانقطع بداره حتى مات سنة ١٧٠ هـ .

ولما ولى الهادى الخلافة اشتد على الزنادقة ، فقتل منهم جماعة كبيرة . وقد أثر عنه أنه قال : لئن عشت لأقتلن هذه الفرقة كلها حتى لا أترك منها

---

(١) الطبرى ج ١٠ ص ٤٢٠

(٢) الفخرى ص ١٦٣ — ١٦٦

عيناً تطرف . ويقال إنه أمر أن يهيأ له ألف جذع فقال : هذا فى شهر كذا ومات بعد شهر .

وصار القضاء على أتباع هذه الطائفة ديدن المهدى وشغله الشاغل ، وجاء ابنه الهادى فسار فى ذلك سيرة أبيه . كما عين الرشيد رجلا عرف بصاحب الزنادقة ، فكان يمتحن كل من يتهم بالزندقة ويعاقب من تثبت عليه بكل أنواع العقوبة . ولم تقتصر هذه العقوبة على الفرس وحدهم ، بل كان هناك كثير من العرب ، من أمثال صالح بن عبد القدوس ، ومطيع ابن إياس الشاعر الذى عاش فى عهد المنصور والمهدى . وقد جىء بابنته أمام الرشيد ، واعترفت بأن أباها لقنها تعاليم الزنادقة ، وأنها قرأت كتاب المانوية [١] . ويقول ابن النديم [٢] إن أكثر البرامكة كانوا زنادقة ، حتى زعم بعض أن ذلك كان من أهم أسباب نكبتهم [٣] . وذكر ابن قتيبة [٤] أن الأصمعى رماهم بالكفر فقال :

إذا ذُكر الشرك فى مجلس أضاءت وجوه بنى برمك
وإن تليت عندهم آية أتوا بالحديث عن مزدك

وكانت الزندقة فى العصر العباسى الأول ضرباً من ضروب الظرف والتثقف ، يدل على ذلك ما قاله أحد الشعراء المسلمين لصديق له يصفه بالظرف :

يابن زياد أبا جعفر أظهرت ديناً غير ما تخفى
مزندق الظاهر باللفظ فى باطن إسلام فتى عف
لست بزنديق ولكنما أردت أن توسم بالظرف

ويكاد يصور لنا هذه الحالة بأجلى بيان أبو نواس فى قوله يذم آبان بن عبد الحميد اللاحقى ، وكان زنديقاً :

---

(١) الأغانى ج ١٣ ص ٨٥
(٢) الفهرست ص ٤٧٣
(٣) الطبرى ج ١٠ ص ٣٢٠
(٤) المعارف ص ١٤٨

جالستُ يوماً أبانا	لا در در أبان
ونحن حضر رواق الـ	أمـير بالهروان
حتى إذا ما صلاةُ الـ	أولى دنت لأوان
فقام ثم بها ذو	فصـاحـة وبيان
فكل ما قال قلنا	إلى انقضاء الأذان
فقال : كيف شهدتم	بذا بغير عيـان ؟
لا أشهد الدهر حتى	تعـايـن العينان
فقلت : سبحان ربى	فقـال : سبحان مانى
فقلت : موسى نجى الـ	ـمهيمن المنـان
فقـال : ربُك ذو مقـ	ـالة ولسان
أنفسـه خلقـته	أم مَن؟ فقمت مكانى
وقمتُ أسحب ذيلى	عن هاذلٍ بالقران
عن كافر يتمارى	بالـكفر بالرحمن
يريد أن يتساوى	بالعصبة المجـان
بعجرد وعبـاد	والوالبى الهجـان
وابن الإياس الذى نا	ح نخلتى حلوان
وابن الخليل علىٍّ	ريحانة النـدمان(١)

بقيت الزندقة بعد عصر الرشيد حتى تسربت إلى بلاط المعتصم الذى كان قائده الأفشين يدين بعقائد المانوية . ولا نظن أنها زالت بموته ، بل لابد أنها سارت شوطاً بعيداً بعد تغلب الأتراك على الدولة العباسية .

وللزنادقة أبحاث فى العلم والأدب والسياسة ، إذ تأثر بها الأدباء والمفكرون حتى إن طائفة كبيرة من أدباء هذا العصر ومفكريه بذلوا هذا الجهد فى مكافحة

---

(١) الجاحظ : كتاب الحيوان جـ ٤ ص ١٤٣ — ١٤٤.
ذكر ابن النـديم (الفهرست ص ٤٧٣) طائفة من الشعراء الزنادقة : منهم بشار بن برد ، إسحاق بن خلف ، وسلم الخاسر ، وعلى بن الخليل ، وعلى بن ثابت .

الزندقة والرد على الزنادقة ، ومن ثم نشأ علم الكلام . وكان واصل بن عطاء أول من تصدى للرد عليهم وأنكر على بشار بن برد الزندقة والإلحاد لقوله :

إبليس أفضل من أبيكم آدم فتبينوا يامعشرَ الأشرار
النار عنصره وآدم طينه والطين لا يسمو سمو النار[١]
الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار[٢]

وبهذا البيت الأخير وجد واصل بن عطاء السبيل إلى زندقة بشار وتكفيره ، فقال فيه : « أما لهذا الملحد الأعمى المشنف المكتنى بأبى معاذ من يقتله ؟ أما والله لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية [٣] ، لبعثت إليه من يبعج بطنه ويقتله فى جوف منزله [٤] » . ويقال إن بشاراً كان كثير المدح لواصل بن عطاء قبل أن يدين بالرجعة ويكفر جميع الأئمة ، فلما قال فيه واصل ما قال ، هجاه بقوله :

مالى أشايع غزالا له عنقٌ كنقنق الدو [٥] إن ولا وإن مثلا
عنق الزرافة ما بالى وبالكم تكفرُّون رجالا كفروا رجلا

وكان لأبى الهذيل العلاف مناظرات طويلة مع الزنادقة ، وقد قيل إنه ناظر يوماً صالح بن عبد القدوس — وكان ثنوياً معروفاً — فقال : « على أى شىء تعزم يا صالح ؟ قال أستخير الله وأقول بالإثنين ، فقال أبو الهذيل : فأيهما استخرت لا أم لك ؟ مات لصالح ابن ، فذهب إليه أبو الهذيل ومعه النظام ، وهو غلام حدث ، فرآه حزيناً ، فقال : لا أعرف لجزعك وجهاً ، فقال : أجزع لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك ، قال : وما كتاب الشكوك ؟ قال : كتاب وضعته ، من قرأ فيه شك حتى يتوهم أنه لم يكن حتى يظن أنه قد كان ، قال أبو الهذيل : فشك أنت فى موت ابنك واعمل على أنه لم يمت ، وإن كان قد مات ، فشك أنه قد قرأ ذلك الكتاب وإن لم يقرأه » .

---

(١) أبو العلاء المعرى — رسالة الغفران جـ ١ ص ١٧٦ .
(٢) الأغانى جـ ٣ ص ٢٤
(٣) هم الزنادقة الخناقون من المغيرية والمنصورية وقد ظهروا فى أواخر الدولة الأموية .
(٤) الجاحظ من كتاب البيان والتبيين جـ ١ ص ١٠
(٥) النقنق (الصوت ، والدلو) المفازة .

وهكذا كانت مناظرات أبى الهذيل الذى حول عدداً كبيراً من المجوس الثنوية إلى الإسلام[١] . كذلك فعل عمرو بن عبيد بجرير بن حازم الأزدى السمنى فى البصرة[٢]. ثم ظهر النظام[٣] ، وهو أحذق من تكلم فى الإشراق[٤] ، ولم يزل يشن الغارة على الثنوية وغيرهم من الفرق الأخرى .

ولا غرو فقد تصدى المتكلمون للرد على الزنادقة . ولكن كثيراً منهم ظل ، على الرغم من إفحامه ، متمسكا بعقائد الزندقة . فقد ذكر ابن النديم[٥] عند كلامه على يزدان بخت ، وهو الذى أحضره المأمون من الرى بعد أن أمنه ، فقطعه المتكلمون ، فقال له المأمون : أسلم يا يزدان بخت : فلولا ما أعطيناك إياه من الأمان لكان لنا ولك شأن ، فقال له يزدان بخت : نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة وقولك مقبول ، ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم ، فقال المأمون : أجل .

٢ — ظهور الحزب العلوى فى ميدان السياسة واعتماده على السيف

(١) ثورة محمد وابراهيم فى الحجاز والعراق :

لم ينس العلويون حقهم فى الخلافة منذ مقتل الحسين بن على فى كربلاء ، بل كان ذلك شغلهم الشاغل . فإنهم ما فتئوا فى كل أدوار حياتهم يتذرعون إلى نيل حقهم بكل وسيلة ، فإذا وجدوا الفرصة سانحة لأعمال القوة وتجريد السيف ، اغتنموها ولم يدعوها تمر ، وإذا أنسوا من أنفسهم ضعفاً استكانوا ، مكتفين بلقب الإمامة وقرابتهم من النبى ، وآثروا المعيشة الهادئة والاشتغال بالتجارة

(١) الخياط : الانتصار فى الرد على ابن الراوندى ص ٨١ .
(٢) طبقات المعتزلة ص ٢٨ .
(٣) الأغانى ج ٣ ص ٢٤
(٤) الانتصار فى الرد على ابن الراوندى ص ٤٨ — ٥٠ . أنظر كتاب السيادة العربية « ترجمة المؤلف » ص ٧٥ — ٨٦
(٥) كتاب الفهرست ؛ ص ٤٧٣ . وذكر ابن النديم اتهام المأمون بالزندقة فقال : « قرأت بخط بعض أهل المذهب أن المأمون كان منهم (أى من الزنادقة) وكذب فى ذلك » .

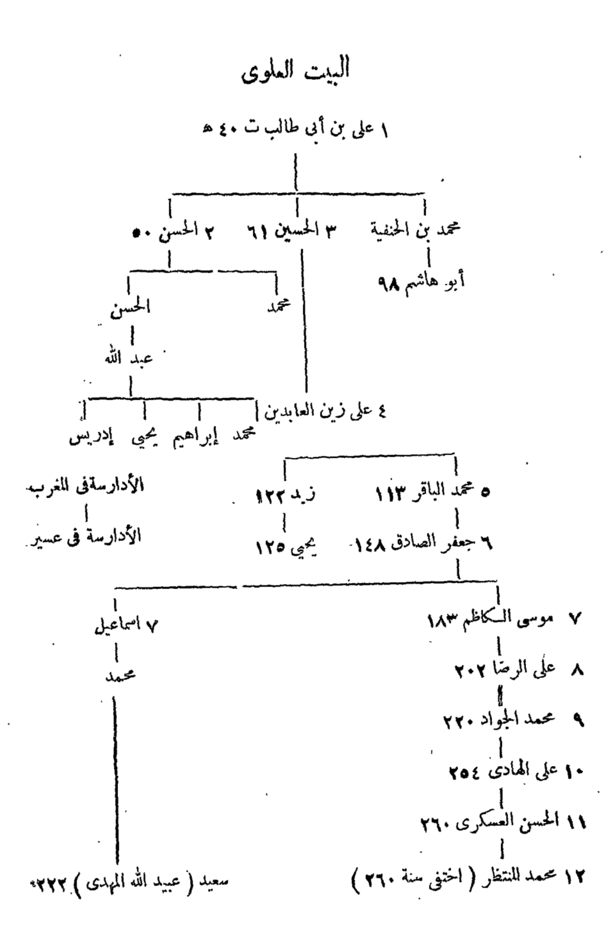
والانصراف إلى الدين على الاشتغال بالسياسة والحرب ، اللهم إلا فى أواخر أيام الدولة الأموية ، حين قام زيد بن على بن الحسين وابنه يحي فى عهد هشام بن عبد الملك .

نعم ! عاش العلويون عيشة هادئة إلى أن ظهرت الدعوة لآل البيت على أيدى العباسيين ، فلم يزجوا بأنفسهم فيها ، بل تركوا الأمور تجرى فى مجراها الطبيعى ، حتى كونوا لهم عصبية قوية بالمصاهرة وكسبوا رضاء أهل المدينة ، فأولوهم عطفهم واحترامهم وأظهروا استعدادهم إلى الانضمام إليهم وإلى دعوتهم .

وكانت الدعوة فى ذلك الوقت إلى الرضا من آل محمد ، وكان الناس لا يبالون كثيراً أن يتولى أمرهم علوى أو عباسى ، وربما كان ذلك راجعاً إلى انشغالهم بحرب بنى أمية وعملهم على القضاء على دعوتهم . ولما غلب الدعاة على الكوفة ، وجدوا أبا العباس السفاح بينهم ، وقد عهد إليه أخوه إبراهيم الإمام ، ولم يجدوا بين آل على من يستطيع أن يحولهم عن بنى العباس ، إذ لم يكن للعلويين فى ذلك الوقت من القوة وكثرة الأنصار ما يساعدهم على الوصول إلى الخلافة ، فلم يروا بدأ من الهدوء حتى تتهيأ لهم الأحوال فيقومون بطلبها .

فلما ظفر العباسيون بالخلافة وأقاموا دولتهم على أنقاض دولة بنى أمية ، لم يرق ذلك فى نظر العلويين ، ولم تطلب بذلك نفوسهم ، على الرغم من أن الجميع من أولاد هاشم ، وعلى الرغم من كونهم يداً واحدة على بنى أمية ، واشتراكهم فى العمل على إزالة دولتهم ، إذ أدركوا أن العباسيين قد خدعوهم واستأثروا بالخلافة دونهم مع أنهم أحق بها منهم ، فنابذوهم العداء ونظروا إليهم كما كانوا ينظرون إلى الأمويين من قبل ، فظلوا يناضلون ويكافحون ابتغاء الوصول إلى حقهم فى الخلافة ، وكانوا فى هذا الدور يعملون فى طى الخفاء بما مهروا فيه من فنون الدعوة والمكايد والخدع .

البيت العلوى



١ — ثورة محمد فى الحجاز :

وأول الخارجين من العلويين فى أيام العباسيين : محمد بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن على بن أبى طالب وأخوه إبراهيم . واشتهر من أولاد الحسين فى ذلك الوقت جعفر الصادق بن محمد الباقر إمام الشيعة الإمامية ، ولكنه لم يحرك ساكناً ، وأوصى أصحابه بالخلود إلى السكينة حتى تحين الفرصة للخروج .

وكان محمد النفس الزكية أول المتطلعين إلى الخلافة من العلويين ، على الرغم مما بذله العباسيون فى سبيل استرضائهم . فمن إجزال للعطايا ، إلى لين فى القول ؛ غير أن ذلك لم يجدهم نفعاً ، فقد كان محمد هذا يرى أنه أحق بالخلافة . هذا إلى دعواهم الأساسية من أنهم أولاد على ، وهو الوصى والإمام ، كما ذكره محمد إلى أبى جعفر فى المكاتبات التى دارت بينهما .

وقد وصف ابن طباطبا(١) مبايعة بنى هاشم لمحمد النفس الزكية فى أواخر أيام بنى أمية . فقال إن بنى هاشم من العلويين والعباسيين اجتمعوا فى أواخر الدولة الأموية ، وتذاكروا حالهم وما تعرضوا له من الاضطهاد ، وما قد آل إليه أمر بنى أمية من الاضطراب ، وميل الناس إليهم ورغبتهم فى أن تكون لهم دعوة . واتفقوا على أن يدعوا الناس سراً ، ثم قالوا لا بد لنا من رئيس نبايعه ، فاتفقوا على مبايعة محمد النفس الزكية بن عبد الله بن الحسين بن على بن أبى طالب . وكان محمد من سادات بنى هاشم ورجالهم فضلا وشرفاً وعلماً . وقد حضر هذا المجلس أعيان بنى هاشم علويهم وعباسيهم : فحضره من أعيان الطالبيين جعفر الصادق وعبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، وابناه محمد النفس الزكية وإبراهيم قتيل باخمرى ، ومن أعيان العباسيين السفاح والمنصور وغيرهما . فاتفق الجميع على مبايعة محمد النفس الزكية ، إلا جعفر بن محمد الصادق الذى قال لأبيه عبد الله المحض إن ابنك لا ينالها (يعنى الخلافة) ولن ينالها إلا صاحب القباء الأصفر (يعنى

---

(١) الفخرى ص ١٤٧ — ١٤٨ .

أبا جعفر المنصور)[1] . وكان المنصور حينئذ يرتدى قباء أصفر . قال المنصور : فرتبت العمال فى نفسى من تلك الساعة ، ثم اتفقوا على مبايعة النفس الزكية فبايعوه .

امتنع محمد عن مبايعة السفاح ، وكان أخوه أبو جعفر يأخذ الدعوة له فى الحجاز ، وكذلك تخلف هو وأخوه إبراهيم عن البيعة للمنصور . فلما ولى المنصور الخلافة ، رأى فى بقاء محمد وأخيه خطراً يهدد كيان دولته ، فعمل على التخلص منهم كما تخلص من منافسيه عبد الله بن على وأبى مسلم الخراسانى من قبل . وقد بعث المنصور فى طلب بنى هاشم وسألهم عن مكان محمد ، فهون بعض الأمر عليه بهذه الكلمات : « يا أمير المؤمنين ! قد علم أنك قد عرفته يطلب هذا الشأن قبل اليوم ، فهو يخافك على نفسه ، وهو لا يريد لك خلافا ولا يحب لك معصية » ، وقال بعض آخر : والله ما آمن وثوبه عليك ، فإنه للذى لا ينام عنك ، فر رأيك[2] .

ومهما يكن من شىء ، فقد خاف المنصور على نفسه من العلويين ، ورأى أنه لن تقوم لخلافته قائمة إلا إذا ظفر بمحمد وأخيه ، وأعمل الحيل فى سبيل الظفر بهما ، « فاشترى أبو جعفر رقيقاً من رقيق الأعراب ، ثم أعطى الرجل منهم البعير والرجل البعيرين . والرجل الذود[3] ، وفرقهم فى طلب محمد فى ظهر المدينة ، فكان الرجل منهم يرد الماء كالمار والضال فيفرون عنه ويتجسسون »[4] .

تعهد زياد بن عبد الله عامل المنصور على المدينة أن يجد فى طلب محمد وأخيه إبراهيم . على أنه ما لبث أن تهاون فى طلبهما ، واتصل بمحمد سراً وساعده على الهرب من المدينة ، فذهب إلى عدن ثم إلى السند فالكوفة ، وعاد أخيراً إلى

(١) يظهر أن هذا من وضع الشيعة فإنهم ينسبون إلى أئمتهم العلم بالغيب مبالغة فى احترامهم .

(٢) الطبرى ج ٩ ص ١٨٠ .

(٣) الذود من الإبل ما بين الثلاث إلى العاشر . وهى مؤنثة لا واحد لها من لفظها وجمعها أذواد .

(٤) الطبرى ج ٩ ص ١٨١ .

المدينة . وقد قسا المنصور على زياد فعزله وكبله بالحديد ، وصادر أمواله وحبسه وولى مكانه محمد بن خالد القسرى [١] .

وسرعان ماعزل المنصور محمد بن خالد ، لأنه استبطأه فى طلب محمد النفس الزكية ، واتهمه بالتهاون والتفريط فى ذلك ، فأرسل رياح بن عثمان بن حيان عم مسلمة بن عقبة المرى قائد الحرة فى عهد يزيد بن معاوية . وقد قدم عثمان المدينة سنة ١٤١ هـ ، واعتلى المنبر ، وخطب الناس خطبة لاتختلف فى معناها عن خطبة الحجاج ابن يوسف فى مسجد الكوفة ، ننقل منها مايلى : « ياأهل المدينة ! أنا الأفعى بن الأفعى ، عثمان بن حيان ، وابن عم مسلمة بن عقبة ، المبيد خضراءكم المفنى رجالكم . والله لأدعنها بلقعاً لاينبح فيها كلب [٢] .

بيد أن شعور أهل المدينة كان يتدفق حماسة نحو آل على ، فإن هذا الوالى لما فرغ من كلامه ، انبرى له قوم منهم ، وفاجئوه بهذه الكلمات المملوءة حنقاً على العباسيين فقالوا : « يا ابن المجلود حدين ، ليكفن أو لنكفينك عن أنفسنا » . ولم يكن بد من أن يكتب هذا الوالى إلى المنصور عن سوء طاعة أهل المدينة ، فبعث إليه رسولا من قبله يحمل كتابه إلى أهلها : « ياأهل المدينة ! فإن واليكم كتب إلى يذكر غشكم وخلافكم وسوء رأيكم واستمالتكم على بيعة أمير المؤمنين . وأمير المؤمنين يقسم بالله ، لئن لم تنزعوا ، ليبدلنكم بعد أمنكم خوفاً ، وليقطعن البر والبحر عنكم ، وليبعثن عليكم رجالا غلاظ الأكباد بعاد الأرحام [٣] » .

على أن هذا الكتاب لم يكن له أثر فى نفوس أهل المدينة ، الذين أجمعوا على الخلاف وأبوا إلا خذلان العباسيين وتحويل الخلافة إلى العلويين ، وصاحوا بعامل المنصور من كل جانب ، ورموه بالحصى ، واضطروه إلى الالتجاء إلى المقصورة ، وإغلاقها عليه والهرب من شرهم .

---

(١) الطبرى ج ٩ ص ١٨١ — ١٨٧ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٤٦١ .

(٣) اليعقوبى ج ٢ ص ٤٥٠ .

ولم يكن رياح بالذى يتراجع عن تنفيذ سياسة المنصور مهما لاقى فى سبيل ذلك من محن وخطوب . لذلك نراه يأتى عبد الله بن الحسن أبا محمد النفس الزكية وهو فى محبسه ، ويأخذه بالتهديد والوعيد إذا لم يأته بابنيه محمد وإبراهيم .

هنا بدأ اضطهاد العلويين الحقيقى ، فقد حبس رياح إخوة عبد الله بن الحسن ابن الحسن وغيرهم من ذوى قرباه ، وأعلن سب ابنيه محمد النفس الزكية وإبراهيم ومن ناصرهما من أهل المدينة ، فرماه هؤلاء بالحصى ، وأنزلوه من على المنبر قهراً حتى استتر خوفاً على حياته .

وكان محمد فى ذلك الوقت مستخفياً فى المدينة ، فلما سمع بما حل بأبيه وأعمامه وغيرهم من ذوى قرباه أتى أمه هنداً وقال لها : « قد حملت أبى وعمومتى مالا طاقة لهم به ، ولقد هممت أن أضع يدى فى أيديهم فعسى أن يخلى عنهم » .

ويحدثنا اليعقوبى (١) والمسعودى (٢) أن هنداً ذهبت إلى السجن فى زى رسول ، وطلبت مقابلة عبد الله ، ونقلت إليه قول ابنه محمد لتستطلع رأيه فى هذا الأمر . بيد أن عبد الله لم يكن بالرجل الذى تلين قناته ، بل كان يعتقد فى أحقية ابنه بالخلافة دون المنصور والسفاح من قبله ، وكان يرى مواصلة العمل وعدم التراخى والتهاون فقال لها : إنى لأرجو أن يفتح الله به خيراً ويصبر حتى يأتى الله بالفرج ، وقولى له فليدع لى أمره وليجد فيه » . ومضى محمد فى نشر دعوته وبنو الحسن بن الحسن مسجونين فى المدينة ، إلى أن حج المنصور فى سنة ١٤٤ هـ ، فتلقاه رياح عامل المدينة بالربذة ، فأمره الخليفة بالعودة إلى المدينة وإشخاص العلويين . فلما مثلوا بين يديه وهم مكبلون بالقيود والأغلال ، سألهم عن مقام محمد بن عبدالله ، فلم يظفر بشىء . فأخذ يعنفهم ونكل ببعضهم ، ثم بعث بهم إلى الكوفة على

---

(١) المصدر نفسه والجزء والصفحة .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤٠ .

أقتاب (١) بغير وطاء (٢) ، وحبسوا فى سرداب تحت الأرض لا يفرقون بين ضياء النهار وسواد الليل » (٣) ، وغلا المنصور فى التنكيل بهم حتى مات أكثرهم .

وفى سنة ١٤٥ هـ (٧٦٢ م) لم ير محمد بدأ من الظهور ، بعد أن دعا إلى نفسه سراً وعاش فى الخفاء دهراً ، أخذ فيه أشياعه من أهل بيته وغيرهم يقيمون له الدعوة حتى اعترف الناس بإمامته فى مكة والمدينة وتلقب بأمير المؤمنين . وكان محمد بن عبدالله — كما وصفه ابن طباطبا (٤) — « من سادات بنى هاشم ورجالهم فضلا وشرفاً وعلماً » . وكان متحلياً بالصفات الحميدة والخصال الكريمة ، فذاع صيته وعظم احترام الناس له . ولم يكن يميل إلى سفك الدماء والظلم ، وإنما اشتهر بحبه للعفو ، وكان زاهداً وناسكا ، لذلك سمى بالنفس الزكية وبالمهدى .

ويبدو أن وقت ظهور محمد النفس الزكية لم يكن قد آن أوانه ، وإنما اضطر إلى ذاك اضطراراً . دخل جماعة على محمد وقد اشتد بهم البلاء ، فقالوا له : ماتنتظر بالخروج ؟ ما نجد فى هذه الأمة أحداً أشأم عليها منك . ما الذى يمنعك من أن تخرج وحدك ؟ فلم ير بدأ من الخروج ، وكان ذلك لليلتين بقيتا من شهر جمادى الآخرة من هذه السنة (١٤٥ هـ) (٥) .

وقد ظن محمد أن الناس أجمعوا على نصرته ، وأنهم كانوا شديدى الميل إليه ، إذ كانوا يعتقدون فيه الفضل والشرف والرياسة . وساعده على ذلك إفتاء الإمام مالك بنقض بيعة المنصور ، حيث قال أهل المدينة : « إنما بايعتم مكرهين ، وليس على مكره يمين (٦) » ، وتلك الكتب التى كانت تأتيه من الولايات الإسلامية

(١) جمع قتب (بفتح القاف) أو قتب (بضم القاف) وهو الإكاف أو الاكاف . الصغير على قدر سنام البعير ، وإكاف الحمار هو البردعة .
(٢) بالكسر ضد الغطاء أى بغير برادع ولا غطاء .
(٣) الطبرى ج ٩ ص ١٩٨ — ٢٠١ .
(٤) الفخرى ص ١٤٧ .
(٥) المسعودى : التنبيه والاشراف ص ٣٤٠ .
(٦) الطبرى ج ٩ ص ٢٠٦ .

بتأييد الناس له وانتظار خروجه . ولم يكن يدرى أن هذه حيلة دبرها له المنصور على ألسنة قواده .

أرسل محمد النفس الزكية أخاه إبراهيم إلى البصرة لنشر دعوته . وقد أجمع المؤرخون على أن محمداً خرج فى مائتين وخمسين رجلا ، وأنه توجه إلى السجن وأخرج من كان فيه ، وأمر بحبس عامل المنصور فى المدينة ، ثم صعد المنبر وخطب الناس هذه الخطبة (١) : « أما بعد أيها الناس ! فإنه كان من أمر هـذا الطاغية عدو الله أبى جعفر ما لم يخف عليكم ، من بنائه القبة الخضراء التى بناها ، معانداً الله فى ملكه ، وتصغيراً للكعبة الحرام . وإنما أخذ الله فرعون حين قال أنا ربكم الأعلى . وإن أحق الناس بالقيام بهـذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأنصار المواسين . اللهم إنهم قد أحلوا حرامك وحرموا حلالك ، وآمنوا من أخفت وأخافوا من آمنت . اللهم فاحصهم عـدداً واقتلهم بددا ، ولا تغادر منهم أحـداً . أيها الناس ! إنى والله ما خرجت من بين أظهركم ، وأنتم عندى أهل قوة ولا شدة ولكنى اخترتكم لنفسى ، والله ماجئت هذه وفى الأرض مصر يعبد الله فيه إلا قد أخذ لى فيه البيعة » .

وإن الناظر فى هذه الخطبة ليقف على أن محمد كان مدفوعاً فى خروجه بعدة عوامل: فقد كان ينشد الخلافة ويرى أنه أحق الناس بها ، كما كان يحقد على المنصور لاعتلائه عرش الخلافة ، وتعذيبه أهل بيته حتى مات أكثرهم فى السجن . وساعد على ذلك موالاة الناس له ، ولا سيما بعد أن أفتى مالك بجواز بيعته ، واعتقاده أنه قد أصبح أقوى من المنصور .

٢ — ظهور إبراهيم فى العراق :

ولما شدد المنصور فى طلب إبراهيم بن عبد الله ، خرج من المدينة قاصداً الكوفة وأن أهلها لن يترددوا فى الخروج معه . واتصل نبأ قدومه بالمنصور ، فوضع الأرصاد والجواسيس للقبض عليه والحيلولة دون هربه . ولم ير إبراهيم بدأ من إعمال

---

(١) الطبرى ج ٩ ص ٢٠٤ — ٢٠٥

الحيلة . ويحدثنا اليعقوبى (١) أن إبراهيم أرسل رجلا من أشياعه يسمى سفيان بن يزيد إلى المنصور ، فقال له: ياأمير المؤمنين ! تؤمننى وأدلك على إبراهيم بعد أن أدفعه إليك ؟ فقال : أنت آمن ، وأين هو ؟ قال بالبصرة ، فوجه معى برجل تثق به ، واحملنى على دواب البريد ، واكتب إلى عامل البصرة حتى أدله عليه فيقبض عليه ، فوجه معه أبا سويد » .

وخرج سفيان بن يزيد ومعه غلام عليه جبة من الصوف وعلى عنقه سفرة فيها طعام ، وركب معه على خيل البريد أبو سويد وذلك الغلام. فلما وصل البريد إلى البصرة ، قال سفيان لأبى سويد : انتظرنى حتى أعرف خبر الرجل ، ومضى ولم يعد . وكان الغلام الذى عليه الجبة الصوف ، هو إبراهيم بن عبد الله بن الحسن . ومن ذلك الوقت أخذ إبراهيم يبث الدعوة لأخيه محمد .

ظهر إبراهيم بن عبد الله فى البصرة ، واستولى على دار الإمارة(٢) ، وهزم قوات الخليفة المنصور ، وشد أزره فقهاء البصرة وغيرهم من ذوى الرأى والجاه ، وانضوت المعتزلة والزيدية تحت لوائه ، وعاونه الإمام أبو حنيفة وراسله سراً ، كما عاون الإمام مالك أخاه محمداً بالمدينة ، وبهذا كله تمكن إبراهيم من إدخال أهالى واسط والأهواز وفارس فى دعوته . ولم يزل إبراهيم يوالى انتصاراته ، حتى أتاه خبر مقتل أخيه محمد قبل عيد الفطر سنة ١٤٥ هـ بثلاثة أيام ، فصلى بالناس يوم العيد . وقد علا وجهه الحزن ودب إلى قلبه اليأس ، ونعى أخاه للناس ، فازدادوا حماسة فى نصرة العلويين وبايعوا إبراهيم على إمارتهم .

وفى تلك السنة وضع المنصور أساس مدينة بغداد ، وأخذت العمال فى العمل حتى بلغ ارتفاع السور قامة . على أن خروج محمد بن عبد الله قد حال دون إتمام بناء قاعدة العباسيين الجديدة ، وتحولت بذلك عناية المنصور إلى القضاء على العلويين

---

(١) جـ ٢ ص ٤٥٣ ـ ٤٥٤ .

(٢) ذكر الطبرى (جـ ٩ ص ٢٥١) أن إبراهيم استولى على دار الإمارة وقبض على سفيان ابن معاوية والى البصرة وحبسه، ثم انتقل إلى بيت المال فاستولى على مافيه وأعطى كل رجل من جنده خمسين درهما .

وأظهر من الحنكة السياسية ما أتاح له النصر والظفر ، مستعيناً فى ذلك بذوى الرأى من رجالات دولته .

ولما ظهر محمد بن عبد الله بالمدينة ، دعا المنصور أبا مسلم العقيلى . وكان شيخاً ذا رأى وتجربة ، فقال له : أشر علىَّ فى خارجى خرج علىَّ ، قال صف لى الرجل ، قال : رجل من ولد فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذو علم وزهد وورع ، قال : فمن تبعه ؟ قال : ولد على وولد جعفر وعقيل ، وولد عمر ابن الخطاب ، وولد الزبير وسائر قريش وأولاد الأنصار ، قال له : صف لى البلد الذى قام به ، قال : بلد ليس به زرع ولا ضرع ولا تجارة واسعة . ففكر ساعة ثم قال : اشحن يا أمير المؤمنين البصرة بالرجال ، فقال المنصور فى نفسه قد خرف الرجل ، اسأله عن خارجى خرج بالمدينة يقول لى اشحن البصرة بالرجال ؟ فقال له : انصرف ياشيخ ! ولم يمض غير قليل حتى ورد الخبر بأن إبراهيم بن عبد الله العلوى قد ظهر بالبصرة ، فقال أبو جعفر المنصور : على بالعقيلى . فلما دخل عليه أدناه ثم قال له : إنى كنت قد شاورتك فى خارجى خرج بالمدينة ، فأشرت على أن أشحن البصرة ، أو كان عندك من البصرة علم ؟ قال : لا ، ولكن ذكرت لى خروج رجل إذا خرج مثله لم يتخلف عنه أحد . ثم ذكرت لى البلد الذى هو فيه فإذا هو ضيق لا يحتمل الجيوش ، فقلت إنه رجل سيطلب غير موضعه . ففكرت فى مصر فوجدتها مضبوطة ، والشام والكوفة كذلك ، وفكرت فى البصرة فخفت عليها منه ، فأشرت بشحنها ، فقال له المنصور : أحسنت ، وقد خرج بها أخوه فما الرأى فى صاحب المدينة ؟ قال : نرميه ، بمثله إذا قال : أنا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال هذا . وأنا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال المنصور لعيسى ابن موسى : « إما أن تخرج إليه وأقيم أنا أمدك بالجيوش ، وإما أن تكفينى ما أخلف ورائى وأخرج أنا إليه ، فقال عيسى : بل أفيك أنا يا أمير المؤمنين وأكون أنا الذى يخرج إليه . فأخرجه إليه من الكوفة فى أربعة آلاف فارس وألفى راجل ، وتبعه محمد بن قحطبة فى جيش كثيف ، فقاتلوا محمداً النفس الزكية بالمدينة حتى قتل وهو ابن خمس وأربعين سنة [١] .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٣٧ — ٢٣٨ .

تحقق المنصور من صدق نبوءة أبي مسلم العقيلي بعد أن علم بظهور إبراهيم بن عبد الله بالبصرة. ولم يكتف المنصور باستشارة العقيلي، إذ لم يقتنع بوجاهة رأيه أول الأمر، ففكر في استشارة غيره، فلجأ إلى رجل من أهل بيته، هو عمه عبد الله ابن على، وكان في حبسه، فأشار عليه بأن يغدق لجنده، وأن يستحث أهل النجدة والقوة من أهل الشام، ويسد منافذ الكوفة حتى يحول دون قيام الشيعة في وجهه، وأرسل إلى عبد الله: ارتحل الساعة حتى تأتى الكوفة، فاجثم على أكبادهم، فإنهم شيعة أهل هذا البيت وأنصارهم. ثم احففها بالمسالح، فمن خرج منها إلى وجه من الوجوه أو أتاها من وجه من الوجوه فاضرب عنقه، وابعث إلى سلم بن قتيبة ينحدر عليك (وكان بالرى). واكتب إلى أهل الشام، فمرهم أن يحملوا إليك من أهل البأس والنجدة ما يحمل البريد، فأحسن جوائزهم ووجههم مع سلم، فقبل [1].

على أن المنصور كان — على الرغم من هذا كله — متخوفاً من ناحية محمد ابن عبد الله أشد الخوف. لذلك نراه يلجأ إلى إنتهاج سبيل الحيلة مع محمد، فكتب إليه كتاباً بعث به مع رسول من قبله، رغبة منه في أن تفعل سياسة اللين والمسالمة ما لا تفعله سياسة العداء والحرب، تلك السياسة التى كان المنصور متخوفاً من سوء مغبتها أشد الخوف.

على أن هذا الكتاب لم يكن له أى أثر في نفس محمد بن عبد الله الذى لم يعبأ بهذه الوعود الخلابة، إذ كان يعتقد بأحقيته بالخلافة، وأن المنصور قد سلبه هذه الخلافة. لذلك نراه يرد على المنصور ويلومه، لتنكيله بأهل بيته وخروجه على أصحاب الحق من آل على وسلبهم الخلافة، ويفخر عليه بانتمائه إلى الرسول وإلى على وفاطمة، وما أصابوه من البلاء في نصرة الدين، ثم يوازن بينه وبين المنصور من جهة الأم، ويسخر من الأمان الذى أعطاه إياه، إذ لم يكن يثق به بعد ما حنث في يمينه مع ابن هبيرة، ومع عمه عبد الله بن على، ثم مع أبى مسلم الخراسانى [2].

---

(١) انظر كتاب أبى جعفر المنصور إلى محمد النفس الزكية في الملحق السابع.

(٢) انظر رد محمد النفس الزكية على أبى جعفر المنصور في الملحق الثامن.

ولما قرأ المنصور كتاب محمد ، ثارت ثائرته وأبى إلا أن يجيبه بنفسه ، فقد روى الطبرى (ج ٩ ص ٢٠٩) أن أبا أيوب الوريانى قال للمنصور : « دعنى أجبه عنها » ، فقال له : « لا ! بل أنا أجيبه عنها إذ تقارعنا على الأحساب ، فدعنى وإياه [١] » .

(ب) إخفاق هذه الثورة وأسبابه — تأثير مصر فى ذلك :

ومهما يكن من شىء فقد أخطأ محمد بن عبد الله وأخوه إبراهيم فى خروجهما على المنصور بعد أن بايعه عامة المسلمين ، واعتمدوا على العدد القليل من الأنصار ، مع أن خصمهما قوى لا يتوانى عن إتيان كل أنواع المكايد والخدع للقضاء عليهما .

وقد ندب المنصور لحربهما عمه وولى عهده عيسى بن موسى بن محمد كما تقدم ، وأراد أن يضرب عصفورين بحجر واحد كما يقولون . فإن قتل عيسى ، حول الخلافة إلى ابنه المهدى . ذكر الطبرى[٢] أن المنصور قال بعد أن سار عيسى لحرب محمد ابن عبد الله : « لا أبالى أيهما قتل صاحبه » . ولما أمر أبو جعفر عيسى بن موسى بالشخوص قال : شاور عمومتك ، فقال له : امض أيها الرجل ، فو الله ما يراد غيرى وغيرك ، وما هو إلا أن تشخص أو أشخص .

سار عيسى إلى المدينة لحرب محمد ، وكان قد تغلب عليها وعلى مكة . ولما وصل الجيش إلى قيد ، أرسل عيسى إلى أهل المدينة كتباً يمنيهم فيها الأمانى الطيبة ، فكف كثير منهم عن مساعدة العلويين .

ويظهر أن النفس الزكية قد هاله عظم جيش عيسى بن موسى ، وأحزنه تفرق أكثر رجاله عنه ، وشك فى قوته وتردد فى منازلة خصمه ، واستشار أصحابه فيما يصنع . أينازلهم فى المدينة كما حارب الرسول الأحزاب ؟ أم يخرج إلى بلد آخر تتاح له فيه الفرصة لمحاربتهم ؟ وقد أشار عليه بعضهم بالخروج إلى مصر ، لأن فيها

---

(١) انظر رد أبى جعفر المنصور على محمد النفس الزكية فى الملحق التاسع .

(٢) ج ٩ ص ٢١٦

من الاستعداد والقوة ما لم يكن فى المدينة المنـورة وقالوا له : « ألست تعلم أنك بأقل بلاد الله فرساً وطعاماً وسلاحاً وأضعفها رجالا ؟ ألست تعلم أنك تقاتل أشـد بلاد الله رجالا وأكثرها مالا وسـلاحاً ؟ . . . فالرأى أن تسير بمن معك حتى تأتى مصر . فو الله لا يردك راد ، فتقاتل الرجل بمثل سلاحه وكراعه ورجاله وماله . فصاح حنين ابن عبد الله : أعوذ بالله أن تخرج من المدينة ، وحدثه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : رأيتنى فى درع حصينة فأولتها المدينة[١] » .

لم ير محمد بدأ من النزول على رأى القائلين بالبقاء فى المدينة على كره منه ، وأخذ اليأس يدب إلى نفسه ، ولا سيما بعـد أن تبين له ضعف حماسة ذلك الفريق الذى كان يرى الخروج إلى مصر وتثاقله عن نصرته . فلم يطمئن إليهم ، ورأى أن لا فائدة من الاعتماد عليهم ، فخطبهم خطبة قال فيها : « يا أيهـا الناس ؟ إنا قد جمعنا كم للقتال ، وأخذنا عليـكم المناقب . وإن هذا العدو منـكم قريب ، وهو فى عدد كثير ، والنصر من الله والأمر بيده . وإنه قد بدا لى أن آذن لـكم وأفرج عنـكم المناقب . فمن أحب أن يقيم أقام ، ومن أحب أن يظعن ظعن[٢] » .

وكانت هذه الخطبة مقياساً لمعرفة عدد المخلصين من أنصار محمد النفس الزكية ، الذين قاربوا مائة ألف أول الأمر . فقـد تسالل أكثرهم وبقى هو فى شرذمة قليلة ، قاتل بهـا عيسى بن موسى وجنـده . وقتل محمد بن عبـد الله واحتز رأسه ، وأرسل إلى عيسى بن موسى ، وكان ذلك يوم الإثنين ١٤ رمضان سنة ١٤٥ هـ[٣] .

هـكذا ختم أول فصول هذه المأساة . ولم يبق أمام المنصور إلا القضـاء على منافسـه الجديد إبراهيم بن عبـد الله فى العراق ، وكان قد تغلب على البصرة والأهواز وفارس ، وتفاقم خطره ، وكثر عدد جنـده حتى بلغ مائة ألف ، وعرف ذلك الخليفة المنصـور ، فاستعد لدرء خطر إبراهيم أتم استعداد ، وشمر

---

(١) الطبرى جـ ٩ ص ٢١٨

(٢) المصدر نفسه جـ ٩ ص ٢١٩

(٣) المصدر نفسه جـ ٩ ص ٢١٩ — ٢٢٠

الذود عن حياض خلافته ، وأبى أن يخلع ثيابه حتى يظفر بالعلويين فى الحجاز والعراق ، على حين تزوج إبراهيم بابنة عمر بن سلمة ، « فكانت تأتيه فى مصبغاتها وألوان ثيابها »(١) .

وسرعان ما أنفذ أبو جعفر المنصور عيسى بن موسى — وقد عجم عوده وخبر مهارته الحربية فى حرب محمد بالحجاز — لمحاربة أخيه إبراهيم فى العراق . ودارت رحى الحرب بين الفريقين فى باخمرى بين الكوفة وواسط(٢) ، وانهزم حميد ابن قحطبة أحد قواد عيسى ، وكانت الهزيمة تلحق بجيش المنصور ، لولا أن ثبت عيسى وأبى أن يتحول عن مكانه حتى يقتل أو يفتح الله عليه(٣) . وما زال الفريقان يقتتلان ، حتى انهزم جند إبراهيم وولى أكثرهم الأدبار . وثبت هو فى عدد قليل من أنصاره ، حتى أصيب بسهم فى حلقه ، احتز ابن قحطبة رأسه ، وأرسله إلى عيسى ابن موسى ، فسجد شكراً لله ، وذلك يوم الإثنين لخمس بقين من ذى القعدة سنة ١٤٥ هـ . ولما رأى المنصور رأس إبراهيم تمثل بقول الشاعر :

فألقتْ عصاها واستقرت بها النوى ... كما قرَّ عيناً بالإيابِ المسافرُ(٤)

ولاشك أن هزيمة العلويين قد أحزنت أشياعهم المخلصين ، فندبوا حظهم العاثر ، وبكوا ما حل بهم من الكروب والويلات ورثاهم شعراؤهم أجمل رثاء .

ولم تقتصر هذه المصائب على محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم ، فقد استعان محمد ببعض أهل بيته للدعوة إلى إمامته فى الولايات الإسلامية . فبعث ابنه عبد الله إلى خراسان ثم إلى السند فقتل بها ، وبعث ابنه الحسن إلى اليمن فحبس ومات فى الحبس ، وسار أخوه موسى إلى الجزيرة ، ومضى أخوه يحى إلى الرى وطبرستان ، وسار أخوه إدريس إلى بلاد المغرب ، وبعث إبنه محمد إلى مصر .

---

(١) الطبرى ج ٩ ص ٢٥٥ .

(٢) أقرب إلى الكوفة منها واسط وتبعد عن الأولى بسبعة عشر فرسخاً .

(٣) الطبرى ج ٢ ص ٢٥٧ — ٢٥٨ . المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٣٨ .

(٤) اليعقوبى ج ٢ ص ٤٥٦ . الطبرى ج ٩ ص ٢٥٩

وقد ذكر الكندى[١] والقريزى[٢] أن محمداً أرسل إبنه علياً إلى مصر لبث الدعوة له غير أن والى المنصور فيها استطاع أن يحبط أعماله وأعمال من ناصروه . وظل على ذلك حتى قدمت النعاة إلى مصر بخبر وفاه إبراهيم ، فسقط فى يد الشيعة ، وانطفأت جذوة الثورة فى هذه البلاد . ولا يعلم المؤرخون ما آل إليه أمر على بن محمد .

أما وقد بينا كيف أخفق محمد وإبراهيم فى هـذه الثورة ، وجب أن نبين العوامل التى أدت إلى ذلك .

ذكر المؤرخون أن جيش محمد فى المدينة قارب مائة ألف ، وكذلك جيش أخيه إبراهيم فى العراق ، وأن أنصارهما قد انتشروا فى طول بلاد الدولة العباسية وعرضها ، حتى إننا نسمع عنهم فى الحجاز ، وفى العراق ، وفى خراسان ومصر وغيرها . فما سبب خذلانهم وقت كانت الدولة العباسية لا تزال فى دور إنشائها ؟ وفى وقت كانت قلوب المسلمين — وخاصة قلوب أهل فارس — مع العلويين ، حتى لقد ذهب كثير من أهل خراسان ، كأبى سلمة الخلال وأبى مسلم الخراسانى ، ضحية هـذه الميول والأهواء ، لا شك أن هذا الإخفاق يرجع إلى عدة أسباب . ولا شك أيضاً أن المنصور يرجع إليه الفضل الأكبر فى إحباط هذه الثورة ، على الرغم من أن تنكيله بالعلويين آثار سخط المسلمين ، وخاصة أهل خراسان وعلى الرغم مما لاقته دعوة العلويين من عطف كثير من الشعوب الإسلامية وتأييد فقهاء ذلك العصر وعلى رأسهم الإمامان مالك وأبو حنيفة . وعلى الرغم أيضاً مما اتصف به محمد ابن عبد الله من كريم الخصال والسجايا التى رفعته فى أعين الناس — فإن ذلك كله لم يكن له من أثر أمام قوة شكيمة المنصور وشدة دهائه وعظم جيوشه وكثرة آلاته الحربية .

عرف المنصور ميل الخراسانيين إلى آل على ، فقد كتب إليه عامله على خراسان يخبره أن أهلها طلبوا شخوص محمد بن عبد الله لنصرته والخروج فى وجه

---

(١) كتاب الولاة ص ١١٤ .

(٢) خطط ج ٢ ص ٣٣٨ .

العباسيين تحت لوائه . ورأى المنصور بدهائه أن يداهن الخراسانيين ويثنيهم عن عزمهم ، فأرسل إليهم رأس محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان أخى عبد الله بن الحسن بن الحسن لأمه فاطمة ابنة الحسين بن على ، وأوهمهم أنها رأس محمد بن عبد الله .

ولا شك أن المنصور قد حال بحيلته هذه دون قيام الفتن والاضطرابات فى خراسان التى كان أهلها يميلون إلى العلويين لما كان بينهم من صلة النسب ، ولم يحمل الدولة أعباء مقاومة هذه الفتن وما يتبعها من فقد النفوس والأرواح .

ظن محمد النفس الزكية أن قلوب الناس معه ، وأنه غدا بذلك أقوى من المنصور ، وزاد فى هذا الظن هذه الكتب التى كانت ترد عليه من الولايات الإسلامية بتأييد أهلها له وانتظار خروجه ، ولم يفطن إلى أن أكثر الناس لا يعلمون من أمر الدعوة العلوية شيئاً ، وأن أبا جعفر هو الذى دبر هذه الحيلة على ألسنة قواده ، وساعده على زهوه بنفسه إفتاء الإمام مالك ببطلان بيعة المنصور .

ولقد أخطأ محمد فى اختيار مركزه الحربى ، لأن المدينة ، كما وصفها المسعودى[1] ، « بلد ليس به زرع ولا ضرع ولا تجارة واسعة » كما أن مركزه الحربى لم يكن مركزاً طبيعياً للقتال . فلو حوصرت المدينة لما وصلت إليها الميرة ولمات أهلها جوعاً وعطشاً . هذا إلى أن النفس الزكية لم يقف على مبلغ استعداد أهل الحجاز لنصرته ، حتى تفرقوا عنه فى الساعة الأخيرة وتركوه فى هذه الشرذمة القليلة حتى قتل ، ولم يدر أن المنصور كان يستشير ذوى الرأى والحجا من رجالات دولته ، ولم يدخر وسعاً فى تنظيم جنده وإمداده بالسلاح والمؤن ، وأنه أمر عليهم نخبة من مشهورى قواده مما كفل له النصر . أما جند العلويين ، فإنه برغم كثرته ، لم ينظم ولم يرتب على أحدث النظم فى ذلك العصر . فنرى إبراهيم يحارب عدوه بجيشه الذى قسمه إلى كراديس ، يقدم منها إلى الحرب كردوساً ، فإذا انهزم تقدم

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٣٧ .

الآخر وهكذا . وأبى إبراهيم أن يقاتل جنده صفاً واحداً ، فيكونوا كالبنيان المرصوص كقوله تعالى : (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص)(١) ، مع أنهم كانوا أكثر عدداً من جند عيسى بن موسى .

ثم لعل من أقوى أسباب إخفاق هذه الثورة عدم تنفيذ الخطة التى رسمها محمد وإبراهيم ، وكانت تقضى بأن يخرجا فى وقت واحد . ويرجع ذلك إلى تأخر خروج إبراهيم لمرضه ، أو بسبب تعجل محمد للحرب ولو خرج هذان الأخوان فى وقت واحد لما استطاع المنصور الوقوف أمامهما(٢) .

(ج) موقف الحزب العلوى بعد ثورة محمد وإبراهيم

١ — ثورة الحسين بن على :

من ذلك يتبين أن العلويين لم يعولوا فى دعواهم فى الخلافة على الكيد وحده ، بل ظلوا ينازلون أعداءهم فى ميدان القتال كلما سنحت لهم الفرص وتهيأت لهم الأحوال . وفى الحق أن أمر العلويين قد ضعف بعد مقتل محمد وإبراهيم ابنى عبد الله ، غير أنهم ما فتئوا يتطلعون للخلافة ، على الرغم من أنهم أصبحوا من الضعف بحيث لم يعد الخليفة العباسى بحاجة إلى التخوف من ناحيتهم ، وإنما اكتفى بأن وضع كبارهم تحت نظره ببغداد ، وبمراقبة عامله على المدينة المنورة لهم . ومن ثم نراهم يلجئون إلى الاستكانة ، ويتجنبون الفرص لشن الغارة على الخلافة العباسية من جديد .

خرج العلويون فى عهد الهادى بمكة والمدينة بزعامة الحسين بن على بن الحسن ابن الحسن بن الحسن بن على ، الذى دعا إلى نفسه بالمدينة فى ذى القعدة

---

(١) سورة الصف ٦١ : ٤ .

(٢) كان خروج محمد بالمدينة فى أول رجب سنة ١٤٥ هـ ، وكان ظهور إبراهيم بالبصرة فى أول رمضان من هذه السنة . ويظهر أن الاتفاق على زمن خروج محمد وإبراهيم كان أمراً متفقاً عليه بينهما ، وأن محمداً تعجل الخروج بسبب حث الناس له .

سنة ١٦٩ هـ . ويعزو المؤرخون خروج الحسين إلى سوء معاملة عامل الهادى على المدينة لهم ، وبخاصة الحسن بن محمد النفس الزكية ، واتهامهم بشرب النبيذ ، وقبضه عليهم والتشهير بهم بين أهـل المدينة ، مما أثار سخط الشيعة وحفزهم على الانضمام إلى العلويين . ويظهر أن العلويين قد عزموا على الخروج قبل ذلك بزعامة الحسين ، وأنهم اتخذوا من سوء معاملة عامل المدينة لهم ، فرصة سانحة لإثارة شعور أهـل المدينة نحو العباسيين . فقـد صار الحسين بن على إلى عامل المدينة ، واعترض على التشهير بأهل بيته والحط من كرامتهم .

يقول ابن طباطبا [١] : كان الحسين بن على من رجال بنى هاشم وسادتهم وفضلائهم ، وكان قد عزم على الخروج ، واتفق معه جماعة من أعيان أهـل بيته . ثم وقع من عامل المدينة تهضم لبعض آل على عليه السلام ، فثار آل أبى طالب بسبب ذلك واجتمع إليهم ناس كثيرون وقصدوا دار الإمارة ، فتحصن عنهم عاملها ، فـكسروا السجون وأخرجوا من فيها ، وبويع الحسين بن على .

أقام الحسين بعد خروجه بالمدينة أحـد عشر يوماً ، ثم قصد مكة ، فلقيه جيش العباسيين بفخ ، وهو واد فى طريق مـكة يبعد عنها بستة أميال . وفى هذا المـكان تقرر مصير العلويين ، حيث قتـل الحسين بن على بعد أن أبلى بلاء شديداً ، وقتل معه بعض أهل بيته . وكانت هذه الموقعة من الشدة بحيث قيل : لم تـكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأفجع من فخ . وقد كثر شعر الشيعة فى رثاء قتلاهم ، ومن ذلك قول أحدهم :

فلأبـكين على الحسـين ... بعـولة وعلى الحسن

وعلى ابن عاتـكة [٢] الذى ... واروه ليس بذى كفن

تركوا بفخ غـدوة ... فى غـير منزلة الوطن

كانوا كراماً هيّجوا ... لا طائشين ولا جُبن

---

(١) الفخرى ص ١٧٢ — ١٧٣ .

(٢) هو الحسن بن على بن الحسن بن الحسن بن على قتيل فخ .

غسلوا المذلة عنهم   غَسْلَ الثياب من الدرن [1]
هُدِىَ العباد بجدهم   فلهم على الناس المنن [2]

من ذلك يتضح أن العلويين لم يعدلوا عن اعتقادهم الراسخ أنهم أحق بالخلافة من أبناء عمهم العباسيين ، وأنهم كانوا يثورون فى وجه الدولة الحاكمة كلما سنحت لهم الفرص وتهيأت لهم الأسباب . ولم يكن العباسيون يتعمدون إساءة العلويين ، وإنما كانوا يتنكلون بهم لقيامهم فى وجه النظام القائم كما يقولون . كما أنهم كانوا يرغبونهم بكل أنواع الترغيب ، فلم يثنهم ذلك عن عزمهم فى طلب الخلافة . ولم يكن العباسيون ينسون فى كل أطوار علاقتهم مع العلويين أنهم أولاد عمهم ، وأن لهم عليهم حرمة القرابة القريبة من الرسول ، حتى فى الوقت الذى كانوا يخرجون فيه عليهم ويعملون على استخلاص الخلافة منهم وتحويلها إليهم . وفى ذلك يقول المسعودى [3] : وأخذ لعبد الله بن الحسن بن على وللحسين ابن على الأمان ، فحبسا عند جعفر بن يحى بن خالد بن برمك ، وقتلا بعد ذلك ، فسخط الهادى على موسى بن عيسى بن محمد بن عبد الله بن العباس ، لقتل الحسين ابن على بن الحسن بن الحسن ، وترك المصير به إليه ليحكم فيه بما يرى ، وقبض أموال موسى (بن عيسى) ، وأظهر الذين أتوا بالرأس الاستبشار ، فبكى الهادى وزجرهم وقال : أتيتمونى مستبشرين كأنكم أتيتمونى برأس رجل من الترك أو الديلم . إنه رأس رجل من عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ألا إن أقل جزائكم عندى ألا أثيبكم شيئاً .

٢ — ثورة يحيى وادريس ابنى عبد الله :

وكانت موقعة فخ بعيدة الأثر ، فقد هرب منها رجلان كانا شجا فى حلق العباسيين : هما يحيى بن عبد الله صاحب الديلم ، وأخوه إدريس الذى فر إلى بلاد العرب .

---

(١) الدرن . القذارة .
(٢) المسعودى : مروج الذهب جـ ١٢ ص ٢٥٧ .
(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٥٧ .

وقد أراد الرشيد أن يستميل إليه العلويين ، ففك الحجر عن كثير ممن كان منهم ببغداد . ولكن أفراد البيت العلوى لم يعدلوا عن اعتقادهم الراسخ فى استحقاق الخلافة ومناضلتهم فى سبيل الوصول إليها . وقد فر يحيى وإدريس إبنا عبد الله بن الحسن العلوى من موقعة فخ ، وكان لهما شأن فى أيام الرشيد . أما يحيى فقد مضى إلى بلاد الديلم ، فاعتقد أهلها أحقيته بالإمامة وبايعوه ، وغدا أمره من الخطر بحيث هدد سلامة الدولة العباسية وأقلق بال الرشيد ، وحداه على إعمال الحيلة للقضاء عليه وعلى دعوته ، فولى الفضل بن يحيى البرمكى بلاد جرجان وطبرستان والرى ، وسيره فى خمسين ألف جندى لمحاربة هذا العلوى .

ولكن الفضل أتى — بما عرف عنه من الذكاء — يحيى بن عبد الله من ناحية غير ناحية الحرب ، فأخذ يحذره ويخوفه حيناً ويمنّيه ويرغبه حيناً آخر ، حتى مال إلى الصلح ، على أن يكتب له الرشيد أماناً بخطه ، وأن يشهد فيه القضاء والفقهاء وكبار بنى هاشم . فأجابه الرشيد إلى ما كتب ، وأرسل الأمان إليه مع الهدايا والتحف . ثم قدم يحيى مع الفضل ، فقابله الرشيد بالحفاوة والإكرام ، ولكنه لم يلبث أن حبسه فى داره ، واستفتى الفقهاء فى نقض الأمان . ويحدثنا ابن طباطبا[1] أن منهم من أفتى بصحته ، ومنهم من أفتى ببطلانه فأبطله . على أن أموراً دعت الرشيد إلى نقض هذا الأمان والتخلص من يحيى ، وذلك لسعاية رجل من أولاد الزبير بن العوام بيحيى بن عبد الله عند الرشيد ، واتهامه بأنه أخذ يدعو إلى نفسه بعد إعطائه الأمان .

وأما إدريس بن عبد الله أخو يحيى ، فقد فر إلى مصر سنة ١٧٢ هـ ، ثم توجه إلى بلاد المغرب الأقصى حيث التف حوله البربر . ورأى الرشيد أنه لا طاقة له بإخضاعه بحد السيف ، ففكر فى بلوغ غايته من طريق المكايد والخدع ، فأرسل إليه رجلا معروفاً بالدهاء ، وأمره أن يتقرب إليه ، وأن يظهر أمامه بمظهر السخط على العباسيين وعلى حكمهم . ولما وصل هذا الرجل إلى بلاد المغرب ، تقرب من

---

(١) الفخرى ص ١٧٦ — ١٧٧ .

إدريس ، ثم دس له السم فمات سنة ١٧٧ هـ دون أن يترك ولداً يؤول إليه الأمر من بعده . فانتظر أتباعه أمة له كانت حاملا ، فوضعت ولداً سموه إدريس وبايعوه بالخلافة . وإليه تنسب دولة الأدارسة ببلاد المغرب .

وقد زاد خطر الأدارسة بحيث أصبح الرشيد يخاف العلويين كافة ويعمل على استئصالهم . وكان من أثر ذلك أن أقطع الرشيد إبراهيم بن الأغلب بلاد إفريقية (تونس) ليقف فى وجه الأدارسة كما سيأتى .

٣ — خروج محمد بن جعفر والقاسم بن ابراهيم :

خلف جعفر الصادق من الأولاد غير موسى وإسماعيل أبناء آخرون نخص بالذكر منهم : عبد الله الأفطح وإسحاق ومحمد الديباج . وقد ذكر أبو الحسن النوبختى[1] ، أن فريقاً من الشيعة ذهب إلى الإمام بعد جعفر الصادق ابنه محمد (أخو موسى وإسحاق من أم ولد يقال لها حميدة) ، وقالوا إن محمداً « دخل على أبيه جعفر يوماً وهو صبي ، فعدا عليه ، فكبا فى قميصه ووقع لحر وجهه ، فقام إليه جعفر وقبله ومسح التراب عن وجهه ووضعه على صدره ، وقال : سمعت أبى يقول : إذا ولد لك ولد يشبهنى ، فسمه باسمى ، فهو شبيهى وشبيه رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى سنته ، فجعل هؤلاء الإمامة فى محمد بن جعفر وولده من بعده . وهذه الفرقة تسمى السمطية التى تنسب إلى رئيس لهم يقال له يحيى بن أبى السميط .

من هذا نرى أن الامامة بعد جعفر بن الصادق لم تكن فى موسى الكاظم ولا إسماعيل أو ابنه محمد ، بل ذهب بعض الشيعة إلى أن محمد بن جعفر أحق أولاد جعفر بها ، وذهب بعض آخر إلى إمامة أخيه عبد الله الأفطح . على أن إمامة عبد الله هذا لم يطل أمدها ، لوفاته دون أن يخلف ولداً ذكراً ، فعاد عامة أشياعه وقالوا بإمامة أخيه موسى الكاظم .

---

(١) كتاب فرق الشيعة ص ٦٤ — ٦٥ ، ٧٢ ، ٩٠ .

خرج محمد الديباج بن جعفر الصادق فى خلافة المأمون . ويظهر أن خروجه قد حدث قبل أن يولى المأمون علياً الرضا بن موسى الكاظم عهده ، أو أن ذلك كان سبب الاختلاف بين عقائد الشيعة الإمامية أصحاب موسى الكاظم ، وبين أشياع أخيه محمد الديباج الذين لم تكن الصلة بينهم وبين أشياع محمد على شىء من الصفاء . ومن ثم كان خروجهم على المأمون خروجاً على من خالفوهم فى العقيدة من أشياع موسى الكاظم .

وفى خلافة المأمون خرج محمد بن جعفر الصادق بمكة ، وبويع بالخلافة ، وتلقب بلقب أمير المؤمنين ، وكان بعض أهل بيته قد حسن له ذلك حين رأى كثرة الاختلاف ببغداد وما بها من الفتن وخروج الخوارج . وكان محمد بن جعفر من شيوخ آل أبى طالب يقرأ عليه العلم . وقد روى عن أبيه ، فأقام بمكة مدة ، وكان الغالب على أمره ابنه وبعض بنى عمه ، فلم يحمد سيرتهما ، وأرسل المأمون إليهم عسكراً ، فكانت الغلبة للمأمون ، وظفر به وعفا عنه [1] .

ولم يكن خروج محمد الديباج كل ما قام به العلويون فى وجه المأمون ، فقد ذكر لنا المؤرخون أن أبا السرايا خرج فى أيامه وقويت شوكته ودعا إلى بعض أهل البيت ، وأن الحسن بن سهل قاتل أشياع العلويين وغلبهم على أمرهم وقتل أبا السرايا . كما خرج على المأمون رجل من العلويين من بيت الحسن بن على ، هو القاسم بن إبراهيم ابن إسماعيل ، بعد أن غاب فى الخفاء دهراً طويلا .

ولقد أورد لنا يحي بن الحسين المتوفى سنة ٣٦٩ هـ (٩٧١) فى كتابه « الإفادة فى تاريخ الأئمة السادة على مذهب الزيدية » ، أن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب استتر فى مصر فى خلافة المأمون العباسى ، وأنه دعا إلى نفسه حين بلغه موت أخيه محمد . وقد بث دعاته وهو على حال استتاره زهاء عشر سنين ، فبايعه أهل مكة والمدينة

---

(١) الفخرى ص ٢٠١ .

والكوفة والرى وقزوين وطبرستان وبلاد الديلم ، وكاتبه أهل البصرة والأهواز وحثوه على الظهور ، فاتصل خبره بمسامع الخليفة ، فأمر بالتشدد فى طلبه . فلم يطب للقاسم المقام فى مصر ، فعاد إلى الحجاز ومنها إلى تهامة ، ولحق به جماعة من بنى عمه وغيرهم ، فبثوا الدعوة باسمه فى بلخ (١) والطالقان (٢) ومرو وغيرها ، فذاع خبره ، وبعث الخليفة إلى بلاد اليمن جنداً يطلبونه ، فاختفى فى حى البدو . ولما ولى المعتصم الخلافة شدد فى طلب القاسم ، وبعث بغا الكبير وآشناس فى جند كثيف ، فانتقض عليه أمره ، وذلك سنة ٢٢٠ هـ .

وقد روى هذا المؤرخ عن خادم القاسم بمصر تلك الحكاية قال : « ضاقت بالإمام القاسم المسالك واشتد الطلب ، ونحن مختفون معه خلف حانوت إسكاف .. فنودى نداء يبلغنا صوته : برئت الذمة ممن آوى القاسم بن إبراهيم وممن لا يدل عليه ، ومن دل عليه فله ألف دينار ومن البز كذا وكذا ، والإسكاف مطرق يسمع ويعمل . ولا يرفع صوته . فلما جاءنا قلنا له : أما ارتعت ؟ قال : من لى ! ما ارتياعى منهم ولو قرضت بالمقاريض بعد إرضاء رسول الله حق فى وقايتى لولده بنفسى ؟ (٣) .

---

(١) مدينة مشهورة بخراسان ومن أجل مدائنها وأكثرها خيراً . افتتحها الأحنف بن قيس من قبل عبد الله بن عامر فى خلافة عثمان بن عفان ، وإليها ينتسب كثيرون من أهل الأدب وعلماء الكلام والحفاظ .

(٢) الطالقان (بفتح اللام) بلدتان إحداهما بخراسان بين مرو الروذ وبلخ . بينهما وبين مرو الروذ ثلاث مراحل . ذكر الأصطخرى أن طالقان أكبر مدن طخارستان ، وتقع فى مستوى من الأرض يجرى فيها نهر كبير : وتبلغ فى الاتساع ثلث ماتبلغه مدينة بلخ ، والأخرى بلدة وكورة بين قزوين وأبهر (مدينة مشهورة بين قزوين وزنجان وهمزان من نواحى الجبل ، والفرس يسمونها أوهر ، فتحت فى أيام عثمان بن عفان ، وبينها وبين زنجان خمسة عشر فرسخاً ، وبينها وبين قزوين اثنا عشر فرسخاً) ، وبها عدة قرى تعرف كلها بهذا الاسم .

(٣) ليدن مخطوط رقم ١٩٧٤ ، ورقة ١٣٤ — ٣٥ ب . انظر كتاب (تاريخ الدولة الفاطمية) للمؤلف ص ٣٤ — ٣٥ .

٣ — الجهاد النظرى بين الحزبين العلوى والعباسى

(ا) فى الشعر

١ — الشعراء العلويون :

ذكرنا أن العلويين لم ينسوا حقهم فى الخلافة منذ مقتل الحسين بن على ، وأنهم عملوا للوصول إلى حقهم بكل وسيلة ممكنة . فإذا وجدوا الفرصة سانحة لأعمال القوة اغتنموها ولم يدعوها تمر ، وإذا أنسوا من أنفسهم ضعفاً استكانوا مكتفين بلقب الإمامة وقرابتهم من الرسول . ولما ظهرت الدعوة لآل البيت فى أواخر الدولة الأموية تركوا الأمور تجرى فى مجراها الطبيعى . فلما ظفر العباسيون بالخلافة ، أدرك العلويون أنهم قد خدعوهم واستأثروا بالخلافة دونهم مع أنهم أحق بها منهم ، فنابذوا العباسيين العداء ، وظلوا يناضلونهم ابتغاء الوصول إلى الخلافة بالسيف تارة ، وبالمكيدة والدهاء تارة ، وبالكلام والشعر تارة أخرى . ومن ثم قامت هذه الثورات التى أشعل نيرانها العلويون . كثورات محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم فى عهد المنصور ، وثورة الحسين بن على بن الحسن فى عهد الهادى ، وثورة يحيى وإدريس ابنى عبد الله بن الحسن فى عهد الرشيد ، وثورة محمد الديباج ابن جعفر الصادق فى عهد المأمون .

ولم يكن انتصار هؤلاء الأشياع للعلويين راجعاً إلى السيف وحده ، بل عمد كثير من الشعراء الموالين لهم إلى نشر دعوتهم وتأييد حقهم فى الخلافة . وكان طبيعياً أن يناصر العباسيين جماعة من الشعراء ينتصرون لهم ويقارعون شعراء أعدائهم العلويين ، مدفوعين فى ذلك بالعطايا والأموال ، أو لاعتقادهم بأحقية العباسيين بهذا الأمر دون أبناء عمهم العلويين . ويمكن أن تعتبر هذه المساجلات الشعرية ناحية من نواحى الجهاد النظرى الذى قام بين الحزبين العلوى والعباسى . وثمة نواح أخرى من هذه المساجلات ، تراها تظهر ظهوراً جلياً فى العلم والكلام بنوع خاص ، كما تظهر فى السياسة ، حتى إن كثيرين من الوزراء كانوا ينغمسون فى هذا الصراع بموالاتهم للعلويين ، فيعرضون أنفسهم لسخط العباسيين وكراهتهم .

والآن نعرض للكلام على الجهاد النظرى بين العلويين والعباسيين كما يظهر من ثنايا أقوال الشعراء الموالين لكل من هذين الحزبين : فمن شعراء العلويين كثير عزة (ت ١٠٥ هـ) ، والكميت (ت ١٢٦ هـ) فى العصر الأموى ، والسيد الحميرى (١٧٣ هـ) ودعبل بن على الخزاعى فى العصر العباسى الأول .

كان إسماعيل بن محمد المعروف بالسيد الحميرى يعتنق مذهب الكيسانية ، الذى يعتقد أنصاره أن محمد بن الحنفية بن على ورث الإمامة عن أبيه على مباشرة ، أو عن طريق أخويه الحسن والحسين ، كما يعتقد برجعته . ويقول السيد الحميرى[1] .

سنينَ وأشهراً ويُرى برضْوى بشعبٍ بين أنمار وأسْد
مقيم بين آرام وعين وحفانٍ تروحُ خلال رُبْد
تراعيها السباع وليس منها ملاقيهنَّ مفترساً بحد
أمِنَّ به الردى فرتعن طوراً بلا خوف لدى مرعى وورد

وإن هذه الأبيات لتمثل عقيدة السيد الحميرى فى محمد بن الحنفية ، من أنه قام بشعب من شعاب رضوى سنين وأشهراً كثيرة ، ومن حوله الأنمار والآساد والظباء وبقر الوحش وأنواع الشاء ، من غير أن يعدو عليها أسد بظفر أو بناب لاحترامها إياه وتقديسها له .

ويظهر أن السيد الحميرى قد غلا فى ميله إلى العلويين ، فكان يعبر عن هذا الميل وذلك الإخلاص بقصائد يبكى فيها ما حل بهم من عنت واضطهاد وقتل . فمن ذلك هذه القصيدة التى نظمها فى قبر الحسين بن على :

أمررْ على جَدَث الحسين فقل لأعظُمِهِ الزكيه
آ أعظماً لا زلتِ من وطفاء ساكبة رويه
وإذا مررتَ بقبره فأطِل به وقفَ المطيه
وابكِ المطهر للمطهر والمطهرة النقيه
كبكاء معولةٍ أتت يوماً لواحدها المنيه

(١) أنظر كتاب تاريخ الدولة الفاطمية للمؤلف ص ١٨ — ١٩ .

على أن إسراف السيد الحميرى فى مدح العلويين وذم السنيين ، وبخاصة كبار الصحابة كأبى بكر وعمر وعثمان ، قد حمل الناس على نبذ شعره لما تضمنه من سب أصحاب رسول الله والطعن فيهم . يؤيد ذلك هذه القصيدة التى بعث بها إلى الخليفة المهدى يطلب إليه أن يحرم آل أبى بكر وعمر مايستحقونه من مال الدولة ، ومن هذه القصيدة :

قلْ لابنْ عباسٍ سَمِىٍّ محمدِ ... لاتعطينٌّ بنى عَدِىٍّ درهما
إحرم بنى تيم بن مرة إنهم ... شرُّ البرية آخراً ومقدماً
إن تعطهم لن يشكروا لك نعمةً ... ويكافئون بأن تذمَ وتشتما

ومما يدل على مبلغ تشيع السيد الحميرى وحبه لعلى بن أبى طالب وأولاده من بعده ، هذه القصيدة التى نظمها فى يوم غدير خم ، حيث نزل الرسول وآخى على ابن أبى طالب ، وقد أثر عنه أنه قال : « على منى بمنزلة هارون من موسى ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وانصر من نصره وأخذل من خذله » . ومن ذلك أصبح يوم غدير خم عيداً يعنى به الشيعيون عناية عظيمة . ويروى الشيعون هذا الحديث عن النبي ويقولون إنه قاله فى السنة العاشرة للهجرة ، وهو العام المعروف بحجة الوداع [١] . ويعتقد الشيعة أن على بن أبى طالب أحق بالخلافة بعد الرسول ، وأن أبا بكر وعمر وعثمان اغتصبوا الخلافة منه . ومن هذه القصيدة :

من كنتُ مولاه فهذا له ... مولى فلم يرضوا ولم يقنعوا
وظلَّ قومٌ غاظهم قولُه ... كأنما آنافُهم تُجدع
حتى إذا واروه فى لحده ... وانصرفوا عن دفنه ضيعوا [٢]

وكان السيد الحميرى مع إسرافه فى حب العلويين لايتورع عن مدح خصومهم العباسيين ، مدفوعاً فى ذلك بخوفه من بطش العباسيين ورغبته فى الحصول على أموالهم . من ذلك قوله يمدح أبا العباس السفاح :

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٣٦ .
(٢) الأغانى ج ٧ ص ٣ .

دونكموها يابنى هاشم فجددوا من عهدها الدارسا
دونكموها فالبسوا تاجها لاتعدموا منكم له لابسا
لو خُيّر المنبر فرسانه ما اختار إلا منكم فارسا
قد ساسها قبلكم ساسةٌ لم يتركوا رطبا ولا يابسا

ويعتبر دعبل بن على الخزاعى من أكثر الشعراء العلويين تعصباً للمذهب الشيعى، وتفانياً فى حب على وأولاده ، حتى لقد وقف من العباسيين موقفاً عدائياً ظاهراً ، فأخذ يهجو خلفاءهم ووزراءهم وولاتهم. وكبار رجال دولتهم . فلم يسلم من هجائه الرشيد والمأمون والمعتصم ، ومدح العلويين بقصائد رائعة أشاد فيها بمناقبهم . وقد عبر عن حزنه لقتل العلويين وتشتت أشلائهم فى مختلف الأقطار الإسلامية ، فى قصيدة طويلة أنشدها بعد أن حلت الهزيمة بمحمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم . ومما جاء فى هذه القصيدة :

ذكرتُ محلَّ الربع (١) من عرفاتِ فأسلبتُ دمع العين بالعبرات
مدارسُ آيات خلتْ من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات (٢)
ديارٌ عفاها جور كل منابذ ولم تعف بالأيام والسنوات
قبورٌ بكوفان وأخرى بطيبة وأخرى بفخ مالها صلوات
وأخرى بأرض الجوزجان محلها وقبر بيا خمرى لدى العربات
هم أهل ميراث النبى إذا اعتزوا وهم خير قادات وخير حماة (٣)

وقد ذكر الطبرى(٤) أن دعبل بن على الخزاعى هجا الخلفاء العباسيين كما تقدم ، ولم يسلم من هجائه كبار رجال الدولة وأمراؤها وخواصها ، كما هجا الخليفة المعتصم الذى هدده بقتله ، فخاف وهرب إلى مصر ثم إلى بلاد المغرب ، وهاك تلك الأبيات التى هجاه بها :

---

(١) الربع : بتشديد الراء مطلق مكان .
(٢) عرصة الدار : ساحتها وهى البقعة الواسعة التى ليس فيها بناء .
(٣) محمد بن النعمان : مكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط رقم ١٦٤٧ ورقة ٢٢٧ ب — ٢٢٩ ب .
(٤) ج ١٠ ص ٣٠١ .

ملوك بنى العباس فى الكتْب سبعةٌ ولم يأتنا فى ثامنٍ منهم الكتب
كذلك أهل الكهف فى الكهف سبعةٌ غداةَ ثووا فيها وثامنهم كلب
لقد ضاع أمر الناس حيث يسوسهم وصيف وأشناسٌ وقد عظم الخطب
وهمك تركى عليه مهابة فأنت له أم وأنت له أب (١)

ولم يسلم الواثق من هجاء دعبل ، فقد ذكر الخطيب البغدادى (٢) أن الواثق لما ولى الخلافة كتب دعبل بن على الخزاعى أبياتاً ، ثم أتى بها الحاجب فقال : أبلغ أمير المؤمنين السلام ، وقل : مديح لدعبل : فأخذ الحاجب الطومار ، فأدخله إلى الواثق ففضه ، فإذا فيه :

الحمدُ لله لاصبرٌ ولا جلدٌ ولا رقاد إذا أهلُ الهوى رقدوا
خليفةٌ مات لم يحزن له أحدٌ وآخر قام لم يفرح به أحد
فمر هذا ، ومر الشؤم يتبعه وقام هذا ، وقام الويل والنكد

فطلب فلم يوجد » .

٢ — الشعراء العباسيون :

وكان مروان بن أبى حفصة يخالف السيد الحميرى ودعبلا فى تشيعهما للعلويين . وكان من أنصار الأمويين ، حتى قربه إليه مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، وأصبح من خاصته المقربين إليه ، وشهد معه جميع مواقعه السياسية والحربية ، كما كان ساعده الأيمن فى الأعمال التى تولاها قبل وصوله إلى عرش الخلافة وبعده .

على أن مروان كان كثير التلون والتذبذب فى ميوله وأهوائه ، فلم يستمر على ولائه للأمويين بعد أن دالت دولتهم وقامت على أنقاضها دولة العباسيين وسرعان ماغدا من شعرائهم البارزين يؤيدون أحقيتهم فى الخلافة ، وناوأ العلويين وشعراءهم فى مسألة الخلافة حتى قال :

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .
(٢) تاريخ بغداد : ج ١٤ ص ١٦ — ١٧ .

يابن الذى ورث النبى محمداً ... دون الأقارب من ذوى الأرحام
الوحى بين بنى البنات وبينكم ... قطع الخصام فلات حين خصام
ما للنساء مع الرجال فريضة ... نزلت بذلك سورة الأنعام
أنى يكون وليس ذاك بكائن ... لبنى البنات وراثه الأعمام ؟

وقد أثار هذا البيت الأخير حفيظة الشيعة ، فلعنوا مروان بن أبى حفصة وردوا على قصيدته بقصيدة أخرى على وزنها ورويها ، ثم قتلوه ، ومما جاء فيها :

لِمْ لا يكونُ ، وإنَّ ذاك لكائن ... لبنى البنات وراثة الأعمام ؟
للبنت نصف كامل من ماله ... والعم متروك بغير سهام
ما للطليق وللتراث وإنما ... صلى الطليق مخافة الصمصام (١)

وكان مروان بن أبى حفصة شاعر بنى العباس فى عهد المهدى والهادى والرشيد ، قد أنشد فى حضرة المهدى قصيدة أشاد فيها بفضائل العباسيين وأحقيتهم بالخلافة وذم العلويين . فمن ذلك قوله :

هل تطمسون من السماء نجومَها ... بأكفكم أو تسترون هلالها ؟
أو تجحدون مقالةً عن ربكم ... جبريل بلغها النبى فقالها ؟
شهدتْ من الأنفال آخرَ آية ... بتراثهم فأردتم إبطالها

ولكن مروان بن أبى حفصة كان — كما ذكرنا — نفعياً يسير فى ركاب صاحب السلطان ويشيد بمديحه ويهجو أعداءه فى سبيل الحصول على المال . ولا عجب فهو القائل فى مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية :

مروانَ يابن محمدٍ أنت الذى ... زيدت به شرفاً بنو مروان

(ب) فى العلم والكلام بنوع خاص

١ — الشيعة :

كان لكل من العلويين والعباسيين وجهة نظر تذرع بها لتأييد دعواه فى

(١) يريد العباس بن عبد المطلب ، لقبه الطليق لأنه كان مع المشركين يوم بدر ثم افتدى نفسه بعد أن أسره المسلمون.

الخلافة ، فأما وجهة نظر العلويين فترجع إلى ما كانوا يعتقدون من أنهم أحق بالخلافة من أبناء عمهم العباس ، الذى اعترف بأحقية على بن أبى طالب ، وامتنع هو وكثير من علية العرب عن مبايعة أبى بكر واتحدوا مع على[1] ، وحذا أولاد العباس فى ذلك حذو أبيهم ، حتى جاء أبو هاشم بن محمد بن الحنفية ، فنزل عن حقه فى الإمامة إلى محمد بن على بن عبد الله بن العباس . أضف إلى ذلك أن محمداً النفس الزكية كان قد بويع فى أواخر الدولة الأموية ، فى ذلك الاجتماع الذى حضره رجالات بنى هاشم : فحضره من العلويين جعفر الصادق وعبد الله بن الحسن وابناء محمد النفس الزكية وإبراهيم ، ومن العباسيين السفاح والمنصور وغيرهما ، واتفقوا جميعاً على أن يدعو الناس سراً ، وبايعوا النفس الزكية إلا جعفراً الصادق . هذا إلى ما يعتقده العلويون من أنهم وحدهم أحق المسلمين بالخلافة ، وأن أبا بكر وعمر وعثمان ، وكذا الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس انتزعوا حق الإمامة من على ، الذى يعتقد أشياعه أن الإمامة فى بيته ، لأنه كان أول من دخل فى الإسلام من الصبيان ، ولما له من البلاء الحسن فى نصرة هذا الدين ، ولأنه ابن عم الرسول وزوج ابنته فاطمة .

*

فهل نقض العباسيون هذه البيعة فنازعوا العلويين حقهم فى الخلافة ، أو أنهم كانوا يرون أنهم أصحاب هـذا الحق وأولى به من بنى عمهم ؟ إن كتاب المنصور إلى محمـد النفس الزكية لايترك مجالا للشك فى أن العباسيين قد أصبحوا منذ أواخر الدولة الأموية — على الأقل — يعتقدون أنهم وحدهم أحق بهذا الأمر دون أبناء أعمامهم العلويين لأنهم أولاد فاطمة بنت الرسول . وهى « لاتحوز الميراث ، ولا ترث الولاية ، ولا تجوز لهـا الإمامة » ، على حين أن العباسيين أولاد العبـاس عم رسول الله ، والوارث له يوم وفاته[2] ، ولأن العباس كانت إليه ولاية زمزم

---

(١) ابن هشام (طبعة أوربا) ج ص ١٠١٣ .

(٢) السرفى أن الشيعة يورثون البنت كل المـال ويجعلونها حاجبة للأعمام أمران : الأول ، أن أبا بكر أخذ فدك « قرية بخيبر » من يد فاطمة ، وكان رسول الله قد أعطاها تلك الضيعة للارتفاق بهـا ؛ فادعت أنها ترث ذلك ؛ فاحتج أبو بكر بأن الأنبياء لا يورثون ؛ واستدل=

وسقاية الحجيج فى الجاهلية دون إخوته ، حتى نازعه فيها على بن أبى طالب فقضى عمر للعباس ، فلم يزل العباسيون يلونها فى الجاهلية والإسلام .

ويستند العباسيون فى دعواهم إلى مذهب أهل السنة الذى يورث العم دون البنت أو ابن العم ، كما يتبين ذلك من قول المنصور فى نهاية كتابه إلى محمد بن عبد الله يفخر عليه بشرف العباسيين على العلويين : « ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بنى عبد المطلب بعد النبى صلى الله عليه وسلم غيره (أى العباس) ، فكان وارثه من عمومته . ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بنى هاشم ، فلم ينله إلا ولده : فالسقاية سقايته ، وميراث النبى له ، والخلافة فى ولده . فلم يبق شرف ولا فضل ، ولا إسلام فى دنيا ولا آخرة ، إلا والعباس وارثه ومورثه . : فكيف تفخر علينا وقد علنا كم فى الكفر ، وفديناكم من الأسر ، وحزنا عليكم مكارم الآباء ، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء ، وطلبنا بثأركم ، فأدركنا منه ما عجزتم عنه ، ولم تدركوا لأنفسكم ؟ » (١) .

من هذا نرى أن العباسيين إنما تحولوا إلى جانب العلويين ، ليطلبوا بثأرهم ويتخذوهم تكأة للوصول إلى الخلافة : فظن العلويون أن العباسيين فضلوا علياً على العباس . هذا إلى ما قرره المنصور من أن العلويين لم يعد لهم حق فى الخلافة بعد أن نزل عنها الحسن بن على لمعاوية ابن أبى سفيان على الأقل .

وقد رأى المنصور ضرورة محاربة محمد وأخيه إبراهيم والقضاء عليهما باعتبارهما خارجين على الدولة ، لأنه أصبح بحكم البيعة له خليفة المسلمين ، فلا ينبغى له أن يفرط فى مقاومة العلويين ، الذين يعملون على قلب نظام الدولة العباسية وتحويل

= بحديث سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك . الثانى ، أن بنى العباس يدعون أيلولة ميراث الرسول من إمامة المسلمين لهم ، لأنه عم رسول الله ، والوارث له يوم وفاته ، لأن ابنته فاطمة لا تحوز كل المال ، وعلى أنزل من العباس ، فقالوا هم إنها تحوز كل الميراث ليمنعوا بنى العباس من دعواهم . وإلى ذلك يشير شاعر بنى العباس بقوله :

أنى يكون وليس بكائن   لبنى البنات وراثة الأعمام ؟

أنظر كتاب « تاريخ الدولة الفاطمية » للمؤلف ص ٣١٦ .

(١) الطبرى ج ٩ ص ٢١٢ — ٢١٣ .

الخلافة إليهم بعد أن جاهد العباسيون فى سبيل الوصول إليها . وكان العباسيون يرون أنهم أولو الأمر وأحق من بنى عمهم بالخلافة . على أن من العدل والإنصاف أن نقول ، إن العباسيين كان يجدر بهم أن يجدوا سبيلا للتوفيق بين وجهة نظرهم ووجهة نظر آل بيت على ، لإزالة أسباب الخلاف ، وإعطاء العلويين نصيبهم من هذا الأمر الذى كانوا يرون أنهم أحق به من غيرهم ، ولا سيما بعد أن قعد العباسيون عن المطالبة بدعواهم فى الخلافة ، منذ انتقل الرسول إلى جوار ربه إلى أن أشرفت الدولة الأموية على الزوال .

طائفة الإمامية :

خرجت بلاد المغرب الأقصى عن سلطان الرشيد على يد إدريس بن عبد الله بن الحسن ، كما خرجت بلاد الأندلس على يد عبد الرحمن الداخل الأموى ، وأصبح الرشيد يخاف العلويين أشد الخوف ويوقع أشد أنواع العقاب بكل من اتهم بالميل إليهم . ووجد سعاة السوء ، حتى من العلويين أنفسهم ، سبيلا للايقاع بآل بيتهم عند الرشيد . وكان موسى الكاظم بن جعفر الصادق ضحية هؤلاء السعاة ؟ فقد وجد حساده والناقمون عليه ، السبيل معبدة للايقاع به عند الرشيد وإثارة مخاوفه من اعتقاد الناس بإمامته حتى أخذوا يحملون إليه خمس أموالهم ، ومن اعتزامه الخروج عليه ، مما أقلق باله ودفعه إلى العمل على التخلص منه .

وكان بعض حساد موسى بن جعفر من أقاربه قد وشى به إلى الرشيد ، وقال له إن الناس يحملون إلى موسى خمس أموالهم ، ويعتقدون إمامته ، وأنه على عزم الخروج عليك ، وكثر فى القول . فوقع ذلك عند الرشيد بموقع أهمه وأقلقه ، ثم أعطى الواشى مالا أحاله به على البلاد ، فلم يستمتع به ، وما أن وصل المال من البلاد حتى مرض مرضاً شديداً ومات .

حج الرشيد سنه ١٧٩ هـ ، ولما وصل إلى المدينة قبض على موسى بن جعفر

---

(١) الفخرى ص ١٧٨ .

الصادق ، وحمله إلى بغداد حيث حبس ، ثم قتل ، وأدخل عليه جماعة من العدول شهدوا أنه مات حتف أنفه .

على أن الأمر الذى يسترعى النظر فى هذه المسألة ، هو وشاية بعض آل على بموسى الكاظم عند الرشيد ، مما يدل على أن الخلاف قد دب بين العلويين ، فما السبب إذاً ؟ يرجع السبب فى ذلك إلى معتقدات الإمامية التى تنص على أن الإمام يكتسب الإمامة بطريق الوراثة ، وأنه يجب أن يكون أكبر أبناء أبيه سناً .

وإن خروج فريق من هذه الطائفة على هذه القاعدة بعد موت جعفر الصادق فى سنة ١٤٨ هـ ، قد جر إلى انقسام الإمامية إلى طائفتين : الإمامية ، وهم الذين أطلق عليهم فيما بعد الإمامة الاثناعشرية ، وقد قالوا بإمامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، وهو عندهم الإمام السابع ، والاسماعيلية ، وقد قالوا بإمامة إسماعيل بن جعفر ، وكان أكبر أولاد أبيه ، على الرغم من أن وفاته كانت فى حياة أبيه .

ويقال إن جعفر الصادق حول الامامة من ابنه إسماعيل إلى ابنه موسى الكاظم بسبب اتهام إسماعيل بشرب الخمر . على أن فريقاً من الشيعة يقول إن شرب إسماعيل الخمر لا يعد دليلا على عدم تقواه ، وأيدوا دعواهم بأن بعض الشيعة فى العراق كان يشرب الخمر . وبذلك ظهرت طائفة الإسماعيلية الذين يقولون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق ، وهو الإمام السابع عندهم[1]

ويحدثنا الحسن النوبختى فى كتابه « فرق الشيعة [2] » أن طائفة الاسماعيلية التى ذهبت إلى أن الإمام بعد جعفر ابنه إسماعيل ، لا ابنه موسى الكاظم . وقد أنكرت موت إسماعيل فى حياة أبيه ، وقالت إنه تغيب « ولا يموت حتى يملك الأرض ويقوم بأمر الناس » . كما قالت بعدم جواز تحويل الخلافة إلى موسى بعد وفاة أخيه إسماعيل ، « لأنها لا تنتقل من أخ إلى أخ بعد الحسن والحسين عليهما

---

(١) يقول أنصار إسماعيل إنه وإن كان قد أبعد عن الامامة فقد تحولت إلى ابنه محمد بن إسماعيل ، وهو الامام السابع عندهم . المقريزى : خطط ج ٢ ص ٣٩٠ — ٣٩٧ .

(٢) ص ٥٧ — ٥٨ ، ٧٢ ، ٩٠ .

السلام ، ولا تكون إلا فى الأعقاب . ولم يكن لأخوى إسماعيل ، عبد الله وموسى ، فى الإمامة حق كما لم يكن لمحمد بن الحنفية حق مع على بن الحسين . وأصحاب هذا القول يسمون « المباركية » نسبة إلى رئيسهم المبارك مولى إسماعيل ابن جعفر » .

وبديهى أن الخلاف بين العلويين على اختلاف طوائفهم وبين العباسيين لم يكن أقل أثراً منه بين طائفتى الإمامية الاثنا عشرية والإمامية الإسماعيلية ، مما يحملنا على الظن أن حساد موسى الكاظم كانوا من أهل بيته ، وأنهم أوقعوا به عند الرشيد ، فقبض عليه وحبسه فى بغداد ، فظل فيها إلى أن كانت نهايته سنه ١٨٣ هـ وهو فى الرابعة والخمسين . ولا يزال قبره يزار إلى الآن فى حى « الكاظمية المشهور بالكرخ ، فى الجانب الغربى ، وهو موطن الشيعة .

ويحدثنا أبو الفدا[١] عن ورع موسى وزهده فيقول : « وتولى خدمته فى الحبس أخت السندى . وحكت عن موسى المذكور أنه كان إذا صلى العتمة ، حمد الله ومجده ، ودعا إلى أن يزول الليل ، ثم يقوم يصلى حتى يطلع الصبح ، فيصلى الصبح ، ثم يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس ، ثم يقعد إلى ارتفاع الضحى ، ثم يرقد ويستيقظ قبل الزوال ، ثم يتوضأ ويصلى العصر ، ثم يذكر الله تعالى حتى يصلى المغرب ، ثم يصلى ما بين المغرب والعتمة . فكان هذا دأبه إلى أن مات رحمة الله عليه . وكان يلقب الكاظم لأنه كان يحسن إلى من يسىء إليه » .

وقد فطن المأمون إلى مغبة هذه السياسة التى سار عليها الخلفاء العباسيون فى معاملة العلويين ، فولى عهده رجلا من آل على الرضا . ولولا موته مسموما وهو فى طريقه إلى بغداد لتحولت الخلافة من العباسيين إلى العلويين .

٢ — المعتزلة :

تكلمنا فى الباب الأول عن المعتزلة أو القدرية من حيث أثرها فى اتجاه السياسة

---

(١) المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ١٥ — ١٦ .

الإسلامية فى العصر الأموى ، وقلنا إن عقيدتهم الأساسية تتكون من خمسة أصول ، وهى القول بالتوحيد ، وهو أن الله واحد لا شريك له ، والقول بالعدل وهو أن الله لا يحب الشر والفساد ، والقول بالوعد والوعيد ، وهو أن الله صادق فى وعده ووعيده لا يغفر لمرتكب الكبيرة إلا بعد التوبة ، والقول بالمنزلة بين المنزلتين ، وهو أن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر لكنه فاسق ، والقول بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو تكليف المؤمنين بالجهاد وإقامة حكم الله على كل من خالف أمره أو نهيه ، سواء أكان كافراً أم فاسقاً(١) .

وقد ابتدأت المعتزلة منذ نشأتها طائفة دينية لا علاقة لها بالسياسة ، بخلاف ما كان عليه الشيعة والخوارج والمرجئة . إلا أنها سرعان ما تدخلت فى الأمور السياسية الهامة ، فبحثت مسألة الإمامة ووضعت الشروط التى يجب أن تتوافر فى الأئمة ، كما بينا ما هنالك من علاقة بين مبادىء المعتزلة ومبادىء الشيعة ، حتى كانت تسمى نفسها « أهل العدل » كالمعتزلة سواء بسواء . كما قالت المعتزلة بحرية الإرادة ، التى وضع أساسها على بن أبى طالب . كذلك كان المعتزلة يلقبون فقهاءهم بلقب « إمام » ، ذلك اللقب الذى يقدسه الشيعة . أضف إلى ذلك تأثر الشيعة بمبادىء المعتزلة فى عقيدتهم القائلة إن الإمام المنتظر سوف يظهر لنشر العدل والتوحيد .. وهذا نفس ما يقوله المعتزلة . والزيدية أكثر شبهاً فى ذلك بالمعتزلة من الإمامية : وهكذا تأثر كل من الشيعة والمعتزلة بعضها ببعض ، حتى لقد اختلط الأمر على المؤرخين ، فلم يستطيعوا التمييز بين كتب الشيعة وكتب المعتزلة فى التوحيد خاصة .

ولا غرو ، فقد نسبت المعتزلة عقائدها إلى على بن أبى طالب . وقلما نجد كتاباً من كتبهم ، وعلى الأخص كتب المتأخرين منهم ، إلا ادعوا فيه أنه ليس ثمة مؤسس لمذهب الاعتزال وعلم الكلام غير الإمام على . ويقول ابن أبى الحديد(٢) .

---

(١) الخياط المعتزلى : كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندى : ص ٥٠ — ٥١ .
المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٩٠ — ١٩١ .
(٢) شرح نهج البلاغة ج ٢ ص ١٢٨ — ١٢٩ .

« وأما الحكمة والبحث فى الأمور الإلهية فلم يكن من فن أحد من العرب ، ولا نقل فى جهاز أكابرهم وأصاغرهم شىء من ذلك أصلا . وهذا فن كانت اليونان وأوائل الحكماء وأساطين الحكمة ينفردون به . وأول من خاض فيه من العرب على عليه السلام . ولهذا نجد المباحث الدقيقة فى التوحيد والعدل مبثوثة عنه فى فرش كلامه وخطبه ، ولا نجد فى كلام أحد من الصحابة والتابعين كلمة واحدة من ذلك ، ولا يتصورونه ، ولو فهموه لم يفهموه ، وأنى للعرب ذلك . ولهذا انتسب المتكلمون الذين لججوا فى بحار المعقولات إليه خاصة دون غيره ، وسموه أستاذهم ورئيسهم ، واجتذبته كل فرقة من الفرق إلى نفسها . ألا ترى أن أصحابنا ينتمون إلى واصل بن عطاء ، وواصل تلميذ أبى هاشم بن الحنفية ، وأبو هاشم تلميذ أبيه محمد ، ومحمد تلميذ أبيه على عليه السلام ؟ » .

كذلك ذكر المعتزلة الإمام على فى الطبقة الأولى من طبقاتهم . كما ذكروا قصة الشيخ الذى سأله عند انصرافه من صفين : أكان المسير بقضاء الله وقدره ؟ فقال عليه السلام : والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ما هبطنا وادياً ولا علونا تلعة إلا بقضاء وقدر . فقال الشيخ . عند الله أحتسب عنائى ، مالى من الأجر شىء ، فقال : بل أيها الشيخ عظم الله لكم الأجر فى مسيركم وأنتم سائرون ، وفى منقلبكم وأنتم منقلبون ، ولم تكونوا فى شىء من حالاتكم مكرهين ولا إليها مضطرين ، فقال الشيخ : فكيف ذلك والقضاء والقدر ساقانا ، وعنهما كان مسيرنا ؟ فقال عليه السلام : لعلك تظن قضاء واجباً وقدراً حتما ، ولو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد ، ولما كانت تأتى من الله لائمة لمذنب ولا محمدة لمحسن ، ولا كان المحسن بثواب الإحسان أولى من المسىء ، ولا المسىء بعقوبة المذنب أولى من المحسن . تلك مقالة إخوان الشياطين ، وعبدة الأوثان ، وخصماء الرحمن ، وشهود الزور ، وأهل العماء عن الصواب فى الأمور . هم قدرية هذه الأمة ومجوسها . إن الله تعالى أمر تخييراً ، ونهى تحذيراً . ولم يكلف جبراً ولا بعث الأنبياء عبثاً . ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للكافرين من النار : فقال الشيخ . وما ذلك القضاء والقدر اللذان ساقانا ؟ فقال : أمر الله بذلك وإرادته ثم تلا (وقضى

ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً) ، فنهض الشيخ مسروراً بما سمع وأنشد يقول :

أنتَ الإمامُ الذى نرجو بطاعته يومَ النشور من الرحمن رضوانا
أوضَحتَ من ديننا ما كان ملتبساً جزاك ربك بالإحسان إحساناً[1]

كذلك ذكروا فى الطبقة الثانية الحسين ؛ وعلى بن الحسين ، ومحمد بن على وكان محمد هذا (بن الحنفية) هو الذى ربى واصل بن عطاء كما تقدم . وكان أبو هاشم إذا سئل عن مبلغ علم محمد بن الحنفية يقول : إذا أردتم معرفة ذلك فانظروا إلى أثره فى واصل بن عطاء . وكذلك أخذ واصل عن أبى هاشم الذى كان معه فى المكتب ، فأخذ عنه وعن أبيه[2] . هذه بعض الصلات التى ظهرت منذ ظهور المعتزلة . ومنها نرى أثر آل البيت فى ظهور الاعتزال ، ومقدار تأثر رؤساء المعتزلة بالبيت النبوى .

ولما كان الشيعة فيما بعد طوائف مختلفة ، لم تسكن المعتزلة مع كل هذه الطوائف على علاقة متساوية ، فخاصمت بعضها ، واتصلت بالبعض الآخر اتصالا يختلف شدة وضعفاً ، وحسبما يذهب إليه كل منها فى عقائده . ولبيان هذا نقول أن الشيعة تنقسم بحسب اعتقادها ثلاثة أقسام : غالية ورافضة وزيدية . أما الغالية فهم الذين غلوا فى على وقالوا فيه قولا عظيما ، وهم فرق كثيرة كالسبئية[3] .

لذلك قيل إن المعتزلة وضعت الأصل الأول من أصولها الخمسة وهو التوحيد ، للرد على غلاة الشيعة ، والرافضة هم الذين قالوا إن الله قدٌ وصورة ، وإنه جسم ذو أعضاء . وإذا نظرنا إلى الرافضة وعلاقتها بالمعتزلة فإننا نرى أن المتقدمين منهم ، مثل هشام بن الحكم وهشام بن سالم الجواليقى وشيطان الطاق وغيرهم من متقدمى الرافضة، كانوا كذلك خصوماً للمعتزلة ، لقولهم بالتشبيه والرجعة وغير ذلك .

---

(١) كتاب طبقات المعتزلة ص٧.
(٢) المصدر نفسه ص ١١ .
(٣) المصدر نفسه ص ٨ .

يقول الخياط المعتزلى [١] : « فهل كان على الأرض رافضى إلا وهو يقول : إن الله صورة ، ويروى فى ذلك الروايات ، ويحتج فيه بالأحاديث عن أئمتهم ، إلا من صحب المعتزلة منهم قديماً فقال بالتوحيد ، فنفته الرافضة عنها ولم تقربه ؟ .

أما الزيدية أتباع زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على ، فقد كانت صلة المعتزلة بهم أقوى منها بغيرهم من الشيعة . وترجع هذه الصلة إلى أيام زيد بن على الذى تتلمذ لواصل بن عطاء الغزال رأس المعتزلة واقتبس منه أصول الاعتزال وأصبح جميع أنصاره معتزلة إلا من خرج عليه منهم . وقد اشترك المعتزلة من بنى هاشم فى مبايعة محمد النفس الزكية وإبراهيم ابنى عبد الله بن الحسن بمكة فى أواخر عهد بنى أمية ، ثم شاركوا الشيعة فى سخطهم على العباسيين بعد أن آلت الخلافة إليهم ، وانضوى المعتزلة والزيدية بزعامة عيسى بن زيد بن على تحت لواء إبراهيم بن عبد الله فى العراق فى محاربة أبى جعفر المنصور ، وظلوا على ولائهم لإبراهيم حتى قتل وقتلت المعتزلة بين يديه [٢] .

ولم تبلغ تعاليم المعتزلة مبلغها من الانتشار والقوة إلا فى العصر العباسى الأول ، وخاصة فى عهد المأمون (١٩٨ — ٢١٨ هـ) الذى عمل على عقد مجالس للمناظرة بقصره ، وأباح للمتناظرين الكلام فى مختلف الموضوعات : فقد تناظر فى مجلسه إثنان فى موضوع الإمامة ، فانتصر أحدهما لطائفة الإمامية الاثنا عشرية ، وانتصر الثانى لطائفة الإمامية الزيدية . ولو أخذ بأحد هذين الرأيين ، لأضعف ذلك من حجة العباسين بأحقيتهم بالخلافة ، وولى العلويين .

وكان المأمون يرى أن مجلس المناظرة تساعد على إزالة أسباب الخلاف بين العلماء ، فقد روى عن القاضى يحى بن أكثم أنه قال : أمرنى المأمون عند دخوله بغداد أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من أهل بغداد ، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلا وأحضرتهم . وجلس لهم المأمون ، فسأل عن مسائل وأفاض فى

---

(١) كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندى ص ١٤٤ .

(٢) مقالات الإسلاميين ج ١ ص ١٧٩ .

فنون الحديث والعلم فلما انفض ذلك المجلس الذى جعلناه للنظر فى أمر الدين قال المأمون : يا أبا محمد ! إنى لأرجو أن يكون مجلسنا هـذا بتوفيق الله وتأييده على إتمامه سبباً لاجتماع هذه الطوائف على ما هو أرضى وأصلح للدين : إما شاك فيتبين ويتثبت فينقاد طوعاً ، وإما معاند فيرد بالفعل كرهاً » .

وقد ظهر فى عهد المأمون جماعة من كبار العلماء والمتكلمين الذين تأولوا أصول الدين والعقائد وحكموا عقولهم فى البحث . ونشأت بسبب ذلك اعتقادات عامة المسلمين وجمهور علمائهم المعروفين بأهل الحديث .

وكان المأمون يميل إلى الأخذ بمذهب المعتزلة ، أكثر حرية واعتماداً على العقل ، فقرب أتباع هـذا المذهب إليه ، ومن ثم أصبحوا ذوى نفوذ كبير فى قصر الخلافة ببغداد . يقول الأستاذ براون (١) : « وأما العقيدة القائلة بأن القرآن غير مخلوق ، فقد كان المعتزلة يمقتونها أشد المقت . ففى سنة ٢٢١ هـ (٨٢٦ م) كاد المأمون أن يثير حرباً داخلية ، مدفوعاً إلى ذلك بميول الشيعة ، وخاصة عندما عهد بالخلافة من بعده لعلى الرضا الامام الثامن من أئمة الشيعة الاثنا عشرية » .

وقد وافق المأمون المعتزلة فيما ذهبوا إليه من أن القرآن مخلوق ، وعمد إلى تسخير قوة الدولة لحمل الناس على القول بخلق كتاب الله ، فأرسل فى سنة ٢١٨ هـ كتاباً إلى والى بغداد إسحاق بن ابراهيم بن مصعب ، يطلب منه امتحان القضاة والمحدثين فى مسألة القرآن ، كما أمره أن يأخذ على القضاة عهداً بألا يقبلوا شهادة من لا يقول بخلق القرآن ، وأن يعاقب من لم يقل بهـــذا الرأى . ومما جاء فى هذا الكتاب . وقد عرف أمـير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشوة الرعية وسفلة العامة ، ممن لا نظر له ولا روية ولا استضاءة بنور العلم وبرهانه ، أهل جهالة بالله ، وعمى عنه ، وضلالة عن حقيقة دينه وقصور ، أن يقدروا الله حق قدره ويعرفوه كنه معرفته ، ويفرقوا بينه وبين خلقه . ذلك أنهم ساروا بين الله وبين خلقه وبين ما أنزل من القرآن ، فأطبقوا ، على أنه قديم

(١) Lit. Hist. of, Persia, vol i. p. 284

لم يخلقه ولم يخترعه . وقد قال تعالى (إنا أنزلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون) (١) فكل ماجعله الله قد خلقه ، كما قال تعالى (وجعل الظلمات والنور (٢)) ، وقال (وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ماثبت به فؤادك (٣)) ، والله محكم كتابه ومفصله ، فهو خالقه ومبتدعه . فاجمع من بحضرتك من القضاة ، واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين ، وامتحنهم فيما يقولون ، واكشفهم عما يعتقدون فى خلق الله تعالى القرآن وأحداثه ، وأعلمهم أنى غير مستعين فى عملى ولا أثق بمن لا يوثق بدينه » (٤) .

وقد سار المعتصم على سياسة أخيه المأمون فى حمل الناس على القول بخلق القرآن ، مع أنه لم يكن له حظ من العلم يجعله ذا رأى فى هذه المسألة : وإنما كان ينفذ وصية المأمون ، وزاد عليه فى إلحاق الأذى بكل من يعترف بذلك من العلماء وأهل الرأى ، فأهان أحمد بن حنبل إهانة بالغة وسجنه ، وأصبح كل عالم أو قاض هدفاً لخطر الضرب بالسياط والتعذيب إذا لم يأخذ برأى المعتزلة فى القول بخلق القرآن .

وكذلك اقتدى الواثق بأبيه المعتصم فى انتصاره للمعتزلة ، وتشدد فى فرض آرائه الدينية على الناس مما أدى إلى إثارة خواطر أهل بغداد . وكان أحمد بن نصر رأس هؤلاء الساخطين الذين أنكروا القول بخلق القرآن ، ودعوا إلى عزل الواثق ، لكنه مالبث أن قبض عليه وعلى أعوانه ، وسيقوا إلى الخليفة بسامرا قاعدة خلافته ، فعقد لهم مجلساً للمناظرة ، وناظر الواثق أحمد بن نصر فى مسألة خلق القرآن ، فقال له : ياأحمد ! ماتقول فى القرآن ؟ قال : كلام الله ، قال أمخلوق هو ؟ قال : هو كلام الله . قال فما تقول فى ربك ؟ أتراه يوم القيامة ؟ قال : ياأمير المؤمنين ! جاءت الآثار عن رسول الله صلى عليه وسلم أنه قال : ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ، فقال الواثق لمن حوله ، ماتقولون فيه ؟ فقال القاضى عبد الرحمن بن إسحاق وقال غيره : إسقنى دمه يا أمير المؤمنين ، فوافقه الحاضرون إلا ابن أبى دؤاد قاضى القضاة ، فإنه قال : يا أمير المؤمنين كافر

(١) سورة يوسف ٢ : ٢ .
(٢) سورة الأنعام ٦ : ١ .
(٣) سورة هود ١١ : ٢ .
(٤) الطبرى ج ١٠ ص ٢٨٤ — ٢٨٥ .

يستتاب لعل به عاهة أو تغير عقل . وما لبث أحمد بن نصر أن لقى حتفه على يد هـذا الخليفة .

وقد غلا الواثق فى معاملة القائلين بعـدم خلق القرآن . فقد طلب عندما تبودلت الأسرى بين المسلمين والبيزنطيين أن يسأل كل أسير من أسرى المسلمين عن رأيه فى القرآن ، وكان نصيب كل من قال بعدم خلق القرآن أن يرد إلى أسره باعتباره خارجاً على الإسلام (١) .

٣ — أهل السنة :

دخـل فى الإسلام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم كثير من الشعوب كالفرس والشاميين والمصريين وغيرهم ، واتسعت رقعة الدولة الإسلامية خارج جزيرة العرب . وكان لهذه الشعوب أديان وتقاليد ونظم ، ولم يـكن فى استطاعتهم تطبيق عقائد الإسلام التى ذكرت فى القرآن عليها . ومن ثم اتجه نظرهم إلى مصدر آخر من مصادر التشريع الإسلامى هو « السنة » ، أى ما أثر عن الرسول من قول أو فعل أى شىء رآه . وكانت المدينة المنورة مركز أهل السنة أول الأمر . وينبغى أن نميز بين أهل الحديث الذين يتمسكون بأقوال الرسول خاصة ، وأهل السنة وهم الذين يتمسكون بأقوال الرسول وأفعاله وعاداته وغيرها (٢) .

ولم يطلق اسم « أهل السنة » إلا فى العصر العباسى الأول فى الوقت الذى تطور فيه مذهب المعتزلة ، حتى أصبح يطلق اسم « أهل السنة » على كل من يتمسك بالـكتاب والسنة ، واسم « المعتزلة » على كل من يأخذ بالـكلام والنظر . أما فى صدر الإسلام فـكان يطلق على كل من يتمسك بالـكتاب والسنة اسم « الصحابة » ، لأنهم اجتمعوا مع الرسول وناصروه . كما أطلق على من أتى

---

(١) الطبرى : جـ ١١ ص ١٩

(٢) قيل عن سفيان الثورى إنه إمام فى السنة وليس بإمام فى الحديث ، وأن الأوزاعى إمام فى الحديث وليس بإمام فى السنة ، وأن مالك بن أنس كان إماماً فى السنة والحديث معاً . وقد بقى هذا التمييز طويلا حتى اصطلح المتأخرون على جعلهما شيئاً واحداً .

بعدهم الأتباع وأتباع الأتباع . وظلت الحال كذلك إلى أن انتصر أبو الحسن الأشعرى وأتباعه على المعتزلة ، واضمحلت أكثر الفرق الإسلامية الأخرى ، فلم يعد هناك سوى الشيعة وأهل السنة ، فيقال هذا شيعى وذاك سنى ، واستمرت هذه التسمية إلى الوقت الحاضر .

وقد مر مذهب أهل السنة بأدوار مختلفة ، وقام الصراع بينهم وبين المعتزلة ، واصطدم زعماء أهل السنة مع العباسيين أنفسهم . فكان من مبادىء أهل السنة تمسكهم بنصوص الكتاب والسنة ، وذهبوا إلى أن الإيمان ليس بحاجة إلى غيرهما . كما ذهبوا إلى القول بأن الاعتماد على النظر والعقل قد يوصل إلى الإلحاد مخالفين بذلك مبادىء المعتزلة ، مما أدى إلى وقوع ذلك النزاع بين أصحاب المذهبين . وآية ذلك ما رأيناه فى عهد المأمون من وقوع الصراع العنيف فى مسألة خلق القرآن بين أهل «السنة والجماعة» وبين « المعتزلة » الذين سادت مبادئهم فى بلاط الخلفاء وأصبحت لهم الكلمة النافذة فى ذلك الوقت .

على أن أهل السنة لم يقصروا كلامهم على الأمور النظرية ، بل كثيراً ما تعرضوا للمسائل السياسية كمسألة الإمامة . فقد نقم أبو حنيفة على العباسيين سطوتهم وشدتهم ، ومال إلى العلويين فى الفتنة التى قامت بين أبى جعفر المنصور ومحمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم . وقد روى أن المنصور استقدم أبا حنيفة من الكوفة لاتهامه بمناصرة إبراهيم بن عبد الله العلوى ، فظل ببغداد خمسة عشر يوماً ، ثم دس له السم فمات . كما كان مالك بن أنس يفتى الناس بأنه « ليس على مكره يمين » . ولم تكن هذه الفتوى تعجب العباسيين ، لأن هذا معناه أن من بايع العباسيين مكرها فله أن يتحلل من بيعته ، وله أن يبايع محمداً النفس الزكية . وقد نهى المنصور مالكا عن التحدث بهذا الحديث ثم ضربه بالسياط لما علم أنه ما زال يحدث به(١) .

---

(١) أنظر الملحق العاشر .

(ج) فى السياسة

أثر الوزراء العباسيين والبرامكة خاصة فى النزاع

اعتنق الفرس الدين الإسلامى فوجدوا فيه المساواة التى كانوا ينشدونها ، لأن هذا الدين يقوم على أساس المساواة بين المسلمين كافة ، لا فرق فى ذلك بين عربى وعجمى . وتمتع الفرس بمبدأ المساواة فى عهد الخلفاء الراشدين . فلما انتقل الحكم إلى الأمويين آثروا العرب على الفرس ولم يساووا بين هؤلاء وأولئك فى الحقوق المدنية والعسكرية ، وأثاروا بذلك كراهة الموالى ، الذين عملوا على التخلص من نيرهم ، وانضموا إلى بنى هاشم طمعاً فى نيل حقوقهم وإعادة مجد بلادهم .

وقد قامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس ، كما نعلم ، ولكن العباسيين ، وإن كانوا قد اعترفوا بمساعدة الفرس لهم فى تأسيس دولتهم ، لم ينسوا عربيتهم وحبهم للملك ، فلم يسمحوا لمواليهم وأنصارهم أن يزاحموهم فى سلطانهم أو يعملوا على تحويل الأمر إلى أعدائهم العلويين . ومن ثم رأينا الخلفاء العباسيين ينكلون بوزرائهم ، الذين مالوا إلى العلويين . فنكل السفاح بأبى سلمة ، والمهدى بيعقوب بن داود ، والرشيد بالبرامكة ، والمأمون بالفضل بن سهل .

اتصل أبو سلمة الخلال الذى كان من أهم العوامل التى ساعدت على تأسيس الدولة العباسية ، ببنى العباس بتزكية صهره بُكَير بن ماهان كاتب إبراهيم الإمام . ولما مات إبراهيم وخلفه فى الدعوة أخوه أبو العباس ، حامت الشكوك حول إخلاص أبى سلمة للدعوة العباسية ، واتهم بأنه أخذ يعمل على العدول عنهم وتحويل الخلافة إلى العلويين ، كما أنه لم يهتم بأبى العباس وأهل بيته بعد أن هاجروا من الحميمة إلى الكوفة ، حتى إنه أبى أن يدفع أجرة الحمالين الذين تولوا نقلهم ونقل أمتعتهم ، وأخفى أمرهم وأمر بمراقبتهم . ولما قامت الدولة العباسية أرسل أبو سلمة إلى زعماء العلويين بالحجاز ، وهم جعفر الصادق ، وعبد الله المحض بن

الحسن بن الحسن بن على ، وعمر الأشرف بن على زين العابدين يدعوهم إلى قبول الخلافة كما تقدم .

وقد قيل إن أبا العباس السفاح استوزر أبا سلمة على كره منه ، لما كان يتمتع به من مكانة سامية ونفوذ كبير فى نفوس الخراسانيين ، وهم أعضال الدولة العباسية ومصدر قوتها ، وفوض إليه أمور هذه الدولة ، ولقبه وزير آل محمد ، وخشى إذا قتله أن يقوم أهل خراسان فى وجهه ويثأروا له . وبذلك عمل أبو العباس على أن يتم هذا الأمر على يد أبى مسلم الخراسانى ، لأنه كان يكرهه ويحقد عليه لغلو منزلته فى الدولة .

ولم يكن للوزراء من الفرس أثر فى هذا النزاع الذى قام بين العلويين والعباسيين فى عهد أبى جعفر المنصور ، لضعف هؤلاء الوزراء فى عهده ، بسبب استبداده بأمور دولته ، وشدة حرصه على سلطانه ، حتى كانوا معرضين للقتل لأتفه الأسباب . فلما ولى المهدى الخلافة وأمر بحجب وزيره أبى عبيدة الله معاوية بن يسار بعد أن قتل ابنه الذى اتهم بانتحال مذهب الزنادقة ، استوزر أبا عبد الله يعقوب بن داود وكان من الخراسانيين . وكان أبوه وأعمامه يتولون الكتابة لنصر بن سيار والى خراسان فى أواخر أيام بنى أمية ، لنبوغهم فى العلم والأدب والشعر والسير . فلما انتقل الحكم إلى العباسيين لم ينتفعوا بمواهب آل داود لاتصالهم ببنى أمية من قبل . وقد قيل إن يعقوب بن داود انتحل عقائد الزيدية ، ثم مال إلى أولاد عبد الله بن الحسن العلوى وتقرب إليهم . وأخذ هو وأهل بيته ينشرون الدعوة لمحمد النفس الزكية ، وانضووا تحت لواء أخيه إبراهيم فى العراق . فلما قتل إبراهيم اختفوا حتى ظفر بهم المنصور ، فحبسهم إلى أن ولى المهدى الخلافة ، فأطلقهم واستوزر يعقوب ابن داود وفوض إليه كافة أمور دولته ، وانصرف إلى اللهو وسماع الغناء والشراب ، فقال بشار بن برد :

بنى أميةَ هُبوا طال نومُكُم	إنّ الخليفةَ يعقوب بن داود
ضاعتْ خلافتكم ياقوم فالتمسوا	خلافةَ الله بين النايِ والعود

وقد ذكر ابن طباطبا[١] أن الخليفة المهدى طلب من وزيره يعقوب بن داود أن يكفيه أحد العلويين لأنه خاف خروجه عليه ، واستحلفه على ذلك ، ولكن يعقوب رق لحال العلوى وأطلقه . وكانت عند هذا الوزير جارية أهداها له المهدى فدست إليه من أعلمه بحقيقة الحال ، فبث العيون والأرصاد حتى أتوه بذلك العلوى وجعله فى بيت قريب من مجلسه . ثم استدعى الوزير وسأله عما آل إليه أمر العلوى فقال : قد أراح الله منه أمير المؤمنين . قال : مات ؟ قال : نعم ؟ قال : بالله ؟ إى والله ، قال فضع يدك على رأسى واحلف به ، قال يعقوب : فوضعت يدى على رأسه وحلفت به ، فقال (المهدى) لبعض الخدم : أخرج إلينا من فى هذا البيت ، فلما رآه يعقوب امتنع الكلام عليه وتحير فى أمره . فقال المهدى : يا يعقوب ! قد حل لى دمك . قال يعقوب : « فدليت بحبل فى بئر مظلمة لا أرى فيها الضوء » . فظل فى حبسه إلى أن أطلقه الرشيد وقد فقد بصره ورقت حاله ، وسمح له بأن يقضى البقية الباقية من حياته فى مكة ، فلم تطل أيامه بعد ذلك ومات سنة ١٦٧ هـ .

ولم يعمر الهادى فى الخلافة ، وخلفه أخوه هارون الرشيد ، فاستوزر البرامكة الذين كان لهم شأن عظيم فى الدولة العباسية ، ولا سيما فى عهد الرشيد الذى أوقع بهم لأسباب كثيرة ، أهمها ميلهم إلى العلويين ، كما أوقع السفاح بوزيره أبى سلمة الخلال ، والمهدى بوزيره يعقوب بن دواد كما تقدم . ويحسن بنا أن نفحص عن العوامل التى أدت إلى نكبة البرامكة على يد الرشيد ، تلك النكبة التى تعتبر بحق من أمهات الحوادث التى وقعت فى عهد الرشيد خاصة وفى العصر العباسى الأول عامة .

اختلفت كلمة المؤرخين وأصحاب السير فى السبب الذى دفع هارون الرشيد إلى نكبة البرامكة ، مع أنه شب فى حجر يحيى بن خالد البرمكى حتى كان يدعوه يا أبت . فبعضهم يرى أن الرشيد غضب عليهم لوجود علاقات بين جعفر بن يحيى

---

(١) كتاب الفخرى ١٦٧ — ١٦٩ .

وبين أخته العباسة ، وبعضهم يقول إن ذلك كان بسبب إطلاق جعفر البرمكي يحيى ابن عبد الله العلوى بعد أن أمره الرشيد بحبسه ، وبعضهم يقول إن استبداد البرامكة بالملك وجمعهم الأموال استمال الناس إليهم ؛ وأن ذلك أوغر صدر الرشيد عليهم وحمله على الإيقاع بهم .

أضف إلى ذلك ما أظهره البرامكة من الدالة على الرشيد مما لا تحمله نفوس الملوك ، وسعاية أعداء البرامكة وبخاصة الفضل بن الربيع بهم عند الرشيد . ومما يدل على تأثير هذه السعايات فى نفس الرشيد ما رواه ابن طباطبا [١] عن بختيشوع الطبيب قال : دخلت يوماً على الرشيد وهو جالس فى قصر الخلد . وكان البرامكة يسكنون بحذائه من الجانب الآخر ، وبينهم وبينه عرض دجلة ، فنظر الرشيد فرأى اعتراك الخيول وازدحام الناس على باب يحيى بن خالد فقال : جزى الله يحيى خيراً تصدى للأمور وأراحنى من الكد ووفر أوقاتى على اللذة ، ثم دخلت عليه بعد أوقات وقد شرع يتغير عليهم ، فنظر فرأى الخيول كما رآها تلك المرة فقال : استبد يحيى بالأمور دونى ، فالخلافة على الحقيقة له ، وليس لى منها إلا اسمها ، فقلت إنه سينكبهم فنكبهم عقيب ذلك » .

ذكر بختيشوع الطبيب أنه بينما كان جالساً فى مجلس الرشيد إذ دخل يحيى ابن خالد ، وكان من عادته أن يدخل بلا إذن . فلما دخل وسلم على الرشيد ، رد عليه رداً ضعيفاً . فعلم يحيى أن الرشيد قد تغير عليه . ثم عبر الرشيد عن استيائه لدخول يحيى البرمكى عليه دون إذن . فقام يحيى ! فقال : ياأمير المؤمنين ! قدمنى الله إليك ، والله ما ابتدأت ذلك الساعة وما هو إلا شىء كان قد خصنى به أمير المؤمنين ورفع به ذكرى ، حتى إن كنت لا أدخل وهو فى فراشه مجرداً حيناً وحيناً فى بعض إزاره . وما علمت أن أمير المؤمنين كره ما كان يحب ، وإذا قد علمت فإنى أكون عنده فى الطبقة الثانية من أهل الإذن أو الثالثة إن أمرنى سيدى بذلك : فاستحيى الرشيد ، وكان من أرق الخلفاء وجهاً وقال : ما أردت ماتكره ، ولكن الناس يتقولون [١] .

---

(١) الفخرى ص ١٩٠ .

كذلك روى الطبرى (١) هذه العبارة التى تدلنا على مبلغ حقد الرشيد على البرامكة وعمله على الغض من شأنهم ، حتى إنه أمر غلمانه بالإعراض عنهم والاستهتار بهم إذا دخلوا قصره . دخل يحيى بن خالد بعد ذلك على الرشيد فقام الغلمان إليه فقال الرشيد لمسرور الخادم : مر الغلمان ألا يقوموا ليحيى إذا دخل الدار قال : فدخل فلم يحيه أحد ، فاربدّ لونه ، وكان الغلمان والحجاب إذا رأوه أعرضوا عنه .

أضف إلى ذلك ماذكره ابن عبد ربه فى محاورة الأصمعى للرشيد وللفضل بن يحيى وغيرهم ، وذلك أن أعداء البرامكة من بطانة الرشيد دسوا للمغنين شعراً يثير عامل المنافسة والحقد فى نفسه . وكذلك ماتحيل به أعداؤهم من البطانة فيما دسوه للمغنين من الشعر احتيالا على سماعه للخليفة وتحريك حفائظه لهم (٢) . فانظر كيف كان حال الرشيد من البرامكة عندما سمع هذين البيتين :

ليتَ هنداً أنجزتْنا ماتَعِدْ ... وشفَتْ أنفُسنا ممــا تجدْ

واستبدَّتْ مرةً واحدةً ... إنمــا العاجزُ من لا يستبد

أجل ! لقد نجح أعداء البرامكة ومنافسوهم فى حيلتهم ، فإن الرشيد لما سمع هذين البيتين قال : « إى والله إنى عاجز » ، وسلط عليهم سيف انتقامه .

ويعزو بعض المؤرخين نكبة هذه الأسرة إلى حوادث ليست فجائية كالتى تقدمت ، وإنما هى أمور جاءت متتابعة : منها أن الرشيد كان يميل كثيراً إلى تولية الفضل بن الربيع بعض أمور الدولة ، فكانت الخيزران أم الرشيد تحول

---

(١) ج ١٠ ص ٧٩ — ٨٠ .

(٢) ابن خلدون : مقدمة ص ١٥ .

دون ذلك ، وكان الفضل يظن أى الذى حملها على ذلك إنما هو جعفر البرمكى فلما ماتت الخيزران ، ولى الرشيد الفضل الخاتم وغيره مما كان فى يد جعفر (١٨٤ هـ) .

وأعقب ذلك إطلاق يحيى بن عبد الله بن الحسن بن العلوى الذى خرج على الرشيد فى بلاد الديلم ، فبعث إليه الفضل بن يحيى البرمكى فى خمسين ألف مقاتل ، فما زال به حتى مال إلى الصلح وطلب أماناً بخط الرشيد ، فكتب إليه الأمان بخطه ، وشهد عليه فيه القضاة والفقهاء وكبار بنى هاشم . ولما قدم يحيى تلقاه الرشيد بالحفاوة والإكرام ، ولكنه لم يلبث أن حبسه إذ علم أنه يعمل لخلعه ، واستفتى الفقهاء فى نقض الأمان الذى أعطاه يحيى ، ثم سلمه لجعفر بن يحيى البرمكى فأطلقه (١) .
فكان ذلك من أهم أسباب نكبة البرامكة . وفى ذلك يقول الطبرى (٢) .

« وذلك أن الرشيد دفع يحيى إلى جعفر فحبسه ، ثم دعا به ليلة من الليالى ، فسأله عن شىء من أمره ، فأجابه إلى أن قال : اتق الله فى أمرى ، ولا تتعرض أن يكون خصمك غداً محمد صلى الله عليه وسلم ، فوالله ما أحدثت حدثاً ولا آويت محدثاً ، فرق عليه ، وقال له : اذهب حيث شئت من بلاد الله . قال : وكيف أذهب ولا آمن أن أوخذ بعد قليل ، فأرد إليك أو إلى غيرك ؟ فوجه معه من أداه إلى مأمنه . وبلغ الخبر الفضل بن الربيع من عين كانت له عليه من خاص خدمه ، فعلا الأمر فوجده حقاً ، وانكشفت عنده ، فدخل على الرشيد وأخبره ، فأراه أنه لا يعبأ بخبره وقال : وما أنت وهذا لا أم لك ، فلعل ذلك عن أمرى . فانكسر الفضل ، وجاءه جعفر فدعا بالغداء فأكلا ، وجعل يلقمه ويحادثه إلى أن كان آخر مادار بينهما أن قال : ما فعل يحيى بن عبد الله ؟ قال : بحاله يا أمير المؤمنين فى الحبس الضيق والأكبال ، قال بحياتى ؟ فأحجم جعفر ، وكان من أدق الخلق ذهناً وأصحهم فكراً ، فهجس فى نفسه أنه قد علم بشىء من أمره ، وقال :

---

(١) الجهشيارى : كتاب الوزراء والكتاب ص ١٨٩ — ١٩٠
(٢) ج ١٠ ص ٨٠ — ٨١

لا وحياتك ياسيدى ، ولكن أطلقته وعلمت أنه لاخيانة به ولا مكروه عنده » قال : نعم مافعلت ، ماعدوت ما كان فى نفسى . فلما خرج أتبعه بصره حتى كاد أن يتوارى عن وجهه ، ثم قال : قتلنى الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك فكان من أمره ما كان » .

لذلك لانعجب إذا ساءت العلاقة بين البرامكة وبين الرشيد ، وساعد على إشعال هذه النيران سعاية الفضل بن الربيع وغيره ، وكراهة زبيدة أم الأمين للبرامكة ، إذ كانت تظن أن الرشيد قد عهد إلى ابنه المأمون دون الأمين بتأثير يحيى البرمكى . أضف إلى ذلك ما اتصل بعلم الرشيد من أن عبد الملك بن صالح العباسى كان يدعو إلى نفسه ، وأن البرامكة كانوا يساعدونه ، فغضب الرشيد عليهم، وحبس عبد الملك معهم .

ولم يكن جعفر البرمكى وحده هو الذى اتهم بالتقرب إلى العلويين ، بل شاركه فى ذلك أخوه موسى بن يحيى البرمكى . فقد رماه أعداؤه بأنه ينشر الدعوة إلى العلويين. ويعمل على تحويل الخلافة إليهم بين أهالى خراسان .

أما قصة العباسة مع جعفر بن يحيى البرمكى ، وتتلخص فى أن هارون الرشيد لكلفه بمكانة جعفر وأخته العباسة وحرصه على حضورهما مجلسه ، أذن لهما فى عقد الزواج دون الخلوة ، وأن الرشيد غضب على جعفر لعدم تنفيذ هذا الشرط ، فأمر نستبعده كل البعد ، مع مانعرفه من نسب العباسة وحسبها ودينها . فهى بنت الخليفة المهدى بن المنصور ، وهى كما يقول ابن خلدون [1] : « قريبة عهد ببداوة العروبة وسذاجة الدين ، البعيدة عن عوائد الترف وموقع الفواحش . فأين يطلب الصون والعفاف إذا ذهب عنها ؟ أو أين توجد الطهارة والذكاء إذا فقدوا من بيتها ؟ أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربى بمولى من موالى العجم ؟ ... وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر إلى موالى الأعاجم على بعد همته وعظم آبائه ؟ ولو نظر المتأمل فى ذلك نظر النصف ، وقاس العباسة بابنة

---

(١) مقدمة ص ١٤

ملك من ملوك زمانه ، لا استنكف لها عن مثله مع مولى من موالى دولتها ، وفى سلطان قومها ، واستنكره ولج فى تكذيبه ، وأين قدر العباسة والرشيد من الناس ؟ » .

ومما يؤيد بطلان هذا الرأى ما نعلمه من أنفة العباسيين عن مصاهرة الموالى . وليست حكاية أبى مسلم الخراسانى مع زوجة عبد الله بن على العباسى التى زادت حنق المنصور عليه وساعدت على الفتك به بعيدة عن أذهاننا .

ونحن نميل إلى القول بأن الرشيد نكب البرامكة لما كان من استبدادهم بالأمور دونه . وفى ذلك يقول ابن خلدون (١) : « وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة ، واحتجانهم أموال الجباية ، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه ، فغلبوه على أمره وشاركوه فى سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف فى أمور ملكه ، فعظمت آثارهم وبعد صيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء عن ولدهم وصنائعهم ، واحتازوها عمن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم ، فتوجه الإيثار من السلطان إليهم وعظمت الدالة منهم ، وانبسط الجاه عندهم ، وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب ، وقصرت عليهم الآمال ، ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم وأسنوا لعفاتهم الجوائز والصلات ، واستولوا على القرى والضياع ، من الضواحى والأمصار فى سائر الممالك ، حتى آسفوا البطانة وأحقدوا الخاصة ، وأغضوا أهل الولاية ، فكشف لهم وجوه المنافسة والحسد ، ودبت إلى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية » .

عاش البرامكة عيشة قوامها البذخ والإسراف وحب الظهور ، وأغدقوا الأموال على الشعراء والعلماء ، ولم يردوا قاصداً . قيل إن يحيى البرمكى أنفق على بناء داره عشرين ألف ألف درهم ، وهو — كما يبدو — مبلغ ضخم لا يقل عن مليون وستمائة وخمسة وستين ألف دينار ، غير ما يحتاج إليه هذا البناء من أثاث ورياش وخدم وحشم ، وما إلى ذلك من أسباب البذخ وألوان الترف التى تثير

---

(١) مقدمة ص ١٤

عوامل الغيرة فى نفوس أعدائهم وحسادهم وتهيء لهم السبيل للايقاع بهم عند الخليفة .
بهذا تنبأ إبراهيم بن المهدى ووجد أن نكبة البرامكة آتية لا ريب فيها . وهو يقص علينا هذه العبارة التى نقلها عن الطبرى [١] قال : « أتيت جعفر بن يحيى فى داره التى ابتناها فقال لى : أما تعجب من منصور بن زياد ؟ قلت : فماذا ؟ قال سألته هل ترى فى دارى عيباً ؟ قال نعم ليس فيها لبنة ولا صنوبرة ، قال إبراهيم : فقلت الذى يعيبها أنك أنفقت عليها نحواً من عشرين ألف ألف درهم ، وهو شيء لا آمنه عليك غداً بين يدى أمير المؤمنين . قال : هو يعلم أنه قد وصلنى بأكثر من ذلك وضعف ذلك سوى ما عرضنى له . قال : قلت إن العدو إنما يأتيه فى هذا من جهة أن يقول يا أمير المؤمنين ! إذا أنفق على دار عشرين ألف ألف درهم : فأين نفقاته وأين صلاته وأين النوائب التى تنوبه ؟ وما ظنك يا أمير المؤمنين بما وراء ذلك ؟ وهذه جملة سريعة إلى القلب والموقف على الحاصل منها صعب . قال : إن سمع منى قلت إن لأمير المؤمنين نعماً على قوم قد كفروها بالستر لها أو بإظهار القليل من كثيرها ، وأنا رجل نظرت إلى نعمته عندى فوضعتها فى رأس جبل ثم قلت للناس تعالوا وانظروا » .

ويتهم البغدادى [٢] البرامكة ، فيرميهم بالزندقة والميل إلى مذاهب المجوس ، فيقول عند كلامه على الباطنية : « ولم يمكنهم (الباطنية) إظهار عبادة النيران ، فاحتالوا بأن قالوا للمسلمين : ينبغى أن تجمر المساجد كلها ، وأن تكون فى كل مسجد مجمرة [٣] يوضع عليها الند (الطيب) والعود فى كل حال . وكان البرامكة قد بينوا للرشيد أن يتخذ فى جوف الكعبة مجمرة يتبخر عليها العود أبداً . فعلم الرشيد أنهم أرادوا من ذلك عبادة النار فى الكعبة وأن تصير الكعبة بيت نار ، فكان ذلك أحد أسباب قبض الرشيد على البرامكة » . وذكر ابن النديم [٤] أن

---

(١) جـ ١٠ ص ٨٨

(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٧٢

(٣) المجمرة كالموقد عندنا اليوم يوضع فيها البخور .

(٤) الفهرست ص ٤٧٣

« البرامكة بأسرها — إلا محمد بن خالد بن برمك — كانت زنادقة » .

وصفوة القول أن سقوط أسرة البرامكة كان نتيجة حوادث متتابعة ، دفعت الرشيد ، لا إلى الحد من نفوذ هذه الأسرة فحسب ، بل إلى القضاء عليها وإعفاء آثارها : فانظر كيف قضى الرشيد على هذه الأسرة . « لما عاد الرشيد من الحج ، سار من الحيرة إلى الأنبار فى السفن ، وركب جعفر بن يحيى إلى الصيد ، وجعل يشرب تارة ويلهو أخرى ، وتحف الرشيد وهداياه تأتيه . وعنده بختيشوع الطبيب وأبو زكار الأعمى يغنيه . فلما ظل المساء دعا الرشيد مسرور الخادم ، وكان مبغضاً لجعفر ، وقال : اذهب فجئنى برأس جعفر ولا تراجعنى ، فوافاه مسرور بغير إذن وهجم عليه وأبو ذكار يغنيه :

فلا تبعد فكل فتى سيأتى عليه الموت يطرق أو ينادى

فلما دخل مسرور قال جعفر بن يحيى البرمكى : لقد سررتنى بمجيئك وسؤتنى بدخولك على بغير إذن ، فقال الذى جئت له أعظم ، أجب أمير المؤمنين إلى ما يريد بك ، فوقع على رجليه فقبلهما وقال له : عاود أمير المؤمنين فإن الشراب قد حمله على ذلك . وقال : دعنى أدخل دارى فأوصى فقال : الدخول لاسبيل إليه ، وأما الوصية فأوصى بما بدا لك ، فأوصى ، ثم حمله إلى منزل الرشيد وعدل به إلى قبة وضرب عنقه ، وأتى برأسه على ترس إلى الرشيد ، وبدنه فى نطع ، ووجه الرشيد فقبض على أبيه وإخوته وأهله وأصحابه بالرقة واستأصل شأفتهم » .

وكان قتل جعفر البرمكى فى ليلة السبت أول ليلة من شهر صفر سنة ١٧٧ هـ ، وهو فى السابعة والثلاثين من عمره .

وهكذا عفى الدهر هذه الأسرة التى كان لها أكبر الأثر فى تقدم الحضارة الإسلامية فى العلوم والآداب وفى الزراعة والصناعة والتجارة وغيرها .

كذلك ذهب الفضل بن سهل وزير المأمون ضحية ميله إلى العلويين وعمله على تحويل الخلافة إليهم .

كان الفضل من أولاد ملوك الفرس ، وكان أبوه مجوسياً من ذوى اليسار ،

أسلم فى أيام هارون الرشيد ، واتصل هو وابنه الفضل بيحيي بن خالد البرمكى الذى اتخذه الفضل قهرماناً له (أى رئيساً للخدم) . ثم اتخذه الرشيد ليكون فى خدمة ابنه المأمون . ويقول الجهشيارى[١] : إن جعفر بن يحيي لما عزم على استخدام الفضل بن سهل للمأمون ، قرظه يحيي بن خالد بحضرة الرشيد فقال له الرشيد : أوصله إلى . فلما وصل إليه أدركته حيرة فسكت ، فنظر إلى يحيي نظرة منكر لاختياره ، فقال له الفضل : يا أمير المؤمنين ! إن أعدل الشواهد على فراهة المملوك ، أن تملك قلبه هيبة سيده ، فقال له الرشيد : لئن كنت سكت لتصوغ هذا الكلام ، لقد أحسنت ، ولئن كان بديهة لهو أحسن . ولم يسأله بعد ذلك عن شىء إلا أجابه بما يصدق تقريظ يحيي له .

ويقال إن الفضل بن سهل لما رأى نجابة المأمون فى صباه ونظر فى طالعه ، وكان خبيراً بعلم النجوم فدلته النجوم على أنه سيصير خليفة ، لزم ناحيته وخدمه ، ودبر أموره حتى أفضت الخلافة إليه فاستوزره .

استوزر المأمون الفضل بن سهل الذى سمى (ذا الرياستين) لجمعه بين السيف والقلم ، كما كان يقال له (الوزير الأمير) . وكان الفضل بن سهل — كما يقول ابن طباطبا[٢] — سخياً كريماً ، يجارى البرامكة فى سخائه وكرمه : كما كان حليما بليغاً ، عالماً بآداب الملوك ، بصيراً بالحيل ، جيد الحدس ، شديد العقوبة ، وفيه يقول الشاعر :

للفضلِ بنِ سهلٍ يدٌ يَقصُرُ عنها المثَلْ
فباطنُها للندى وظاهرها للقُبَلْ
وبَسطَتُها للغنى وسطوتُها للأجَلْ

ولكن الفضل بن سهل كان — كغيره من الفرس — يتعصب للعنصر الفارسى ، ويعتقد أن العلويين أحق بحمل التاج ، لأنهم يجمعون بين أشرف دم

---

(١) كتاب الوزراء والكتاب ص ٢٣١ .

(٢) كتاب الفخرى ص ٢٠١ — ٢٠٢ .

عربى ، وهو دم النبوة ، وأشرف دم فارسى ، وهو دم الأكاسرة ، وعمل على أن تكون السيادة للعنصر الفارسى . وكان يتشبه بوزراء الأكاسرة ليعيد مجد الفرس القديم .

يقول الجهشيارى (١) : « إن الفضل بن سهل بن زادا نفروخ كان يجلس على كرسى مجنح ، ويحمل فيه إذا أراد الدخول على المأمون ، فلا يزال يحمل حتى تقع عينا المأمون عليه . فإذا وقعت وضع الكرسى ونزل عنه فمشى ، وحمل الكرسى حتى يوضع بين يدى المأمون ، ثم يسلم ذو الرياستين ، فيعود ويعقد عليه . وإنما ذهب ذو الرياستين إلى مذهب الأكاسرة » .

وكان الفضل بن سهل وزير المأمون يمثل العنصر الفارسى فى الفتنة التى قامت بين الأمين والمأمون ، كما كان الفضل بن الربيع وزير الأمين يمثل العنصر العربى ، حتى كان هذا النزاع فى الواقع نزاعاً حزبياً بين الفرس من ناحية وبين العرب من ناحية أخرى . ولا غرو فقد أوغر الفضل بن سهل قلب المأمون على أخيه الأمين ، وإليه يرجع الفضل فى تولية المأمون عليا الرضا عهده ، وتحويل الخلافة إلى آل على الذين يؤثرهم الفرس على سائر بنى هاشم . وكان المأمون قد جد فى تجديد العهد لعلى بن موسى بن جعفر ، وتقدم إلى الفضل بأخذ البيعة على الناس ، وأرسل الكتب إلى عمال الأقاليم يأمرهم بإبطال لبس السواد ولبس الخضرة وجعل الأعلام والقلانس خضر (٢) .

على أن المأمون أدرك أن الفضل بن سهل أثار بعمله هذا أهل بغداد وأفراد البيت العباسى ، حتى إنهم ولوا إبراهيم بن المهدى الخلافة وعولوا على الوقوف فى وجه المأمون، فعمل على التخلص من على الرضا والفضل بن سهل ليصفو الجو له ، فلما دخل بغداد لم يقف أهلها فى وجهه .

---

(١) كتاب الوزراء والكتاب ص ٤٠١ — ٤٠٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣١٢ .

٤ ـ تطور موقف الحزبين العلوي والعباسي بعد نكبة البرامكة

(ا) قوة الحزب العباسي بعد نكبة البرامكة

١ — تولية الرشيد أولاده العهد وتقويتها للحزب العلوى :

ذكرنا فى كلامنا على أثر الوزراء العباسيين والبرامكة خاصة فى النزاع الذى قام بين العلويين والعباسيين ، أن العباسيين ، وإن كانوا قد أشادوا بمساعدة الفرس لهم فى تأسيس دولتهم ، لم ينسوا عربيتهم وحبهم للملك ، فلم يسمحوا لمواليهم وأنصارهم أن يزاحموهم فى سلطانهم ، أو يعملوا على تحويل الأمر إلى أعدائهم العلويين . ومن ثم رأينا الخلفاء العباسيين ينكلون بوزرائهم الذين مالوا إلى العلويين : فينكل السفاح بأبى سلمة ، والمهدى بيعقوب بن داود ، والرشيد بالبرامكة ، والمأمون بالفضل بن سهل . وقد وقعت نكبة البرامكة إثر وقوع حوادث جاءت متتابعة ، ووجد أعداء البرامكة من بطانة الرشيد من العرب وخاصة الفضل ابن الربيع ، من استئثار البرامكة بالنفوذ واستمالتهم الناس إليهم ، ما أوغر صدر الرشيد عليهم ، وحمله على الإيقاع بهم ، وقام الشعراء بدور هام فى إثارة حقد الرشيد على البرامكة .

ولا غرو فإن نكبة البرامكة معناها ضعف نفوذ الفرس وانتصار الحزب العباسى ، لولا وقوع هذه الحادثة التاريخية التى أضعفت من نفوذ هذا الحزب وزادت فى نفوذ الحزب العلوى ، وهى تولية الرشيد العهد أولاده الثلاثة : الأمين والمأمون والمؤتمن .

ذلك أن الفضل بن يحيى البرمكى حسن للرشيد تولية ابنه محمد العهد ، وتعهد بأخذ البيعة له فى خراسان ، فبايعه وسماه الأمين ، وكتب بذلك إلى الأمصار الإسلامية فبايعه الناس . وقد ولى الرشيد الأمين عهده فى سنة ١٧٣ هـ ، وضم إليه الشام والعراق فى سنة ١٧٥ هـ . واختلف العباسيون فى هذه البيعة : فبعضهم كان يميل إليها لأن الأمين ابن السيدة زبيدة وهى عربية عباسية ، وبعضهم

لم يعجبه هذا العمل لأنه كان يتطلع إلى الخلافة بعد الرشيد لصغر سن الأمين ، وبعضهم كان لا يميل إلى المأمون لأن أمه كانت أم ولد من خراسان .

ولكن الرشيد أحس أنه أخطأ بتولية ابنه الأمين عهده وهو أصغر من أخيه عبد الله (المأمون) ، وأنه فعل ذلك بتأثير زوجه زبيدة أم الأمين وميل بنى هاشم إلى الأمين ، لأن أمه هاشمية ، مع أنه لم يكن يصلح للخلافة ، لما عرف به من سوء التصرف والتبذير ، ثم ميله إلى مشاركة النساء فى الرأى ، مع ما عرف عن أخيه المأمون من الاستقامة وحسن التدبير وبعد النظر ، وما تحلى به « من عزم المنصور ونسك المهدى وعزة نفس الهادى » (١) . ويظهر أن الرشيد أحس أنه تعجل بتوليته ابنه الأمين دون عبد الله ، وأخذ يفكر فى العدول عن هذا الرأى وتحويل هذه البيعة إلى عبد الله ، فبايع له فى سنة ١٨٣ هـ وسماه المأمون ، وولاه من حد همذان إلى آخر الشرق .

روى المسعودى عن الأصمعى (٢) إنه قال : « بينما أنا أسامر الرشيد ذات ليلة ، إذ رأيته قد قلق قلقاً شديداً ، فكان يقعد مرة ، ويضطجع مرة ويبكى ثم أنشأ يقول :

قلدْ أمورَ الله ذا ثقةٍ ... مُوحَّدَ الرأى لا نكس ولا برم
واترك مقالة أقوام ذى خطَلٍ ... لا يفهمون إذا ما معشرٌ فهموا

فلما سمعت ذلك علمتُ أنه يريد أمراً عظيما . ثم قال لمروان الخادم : « علىَّ بيحيى ، فما لبث أن قال يا أبا الفضل ! إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات فى غير وصية ، والإسلام جذع ، والإيمان جديد ، وكلمة العرب مجتمعة ، قد آمنها الله تعالى بعد الخوف وأعزها بعد الذل . فما لبث أن ارتد عامة العرب على أبى بكر ، وكان من خبره ما قد علمت ، وأن أبا بكر صير الأمر إلى عمر فسلمت الأمة له ورضيت بخلافته ثم صيرها عمر شورى ، فكان بعده ما قد بلغك من الفتن حتى

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٧٢ .

(٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٢٧٢ — ٢٧٣

سارت إلى غير أهلها . وقد عنيت بتصحيح هذا العهد وتصييره إلى من أرضى سيرته ، وأحمد طريقته ، وأثق بحسن سياسته ، وآمن ضعفه ووهنه ، وهو عبد الله ، وبنو هاشم مائلون إلى محمد بأهوائهم ، وفيه مافيه من الانقياد لهواه والتصرف مع طويته ، والتبذير لما حوته يده ، ومشاركة النساء والإماء فى رأيه . وعبد الله ، المرضى الطريقة الأصيل الرأى الموثوق به فى الأمر العظيم . فإن ملت إلى عبد الله أسخطت بنى هاشم ، وإن أفردت محمداً بالأمر لم آمن تخليطه على الرعية . فأشر على فى هذا الأمر برأيك مشورة يعم فضلها ونفعها ، فإنك بحمد الله مبارك الرأى لطيف النظر . فقال : ياأمير المؤمنين! إن كل زلة مستقالة ، وكل رأى يتلافى خلا هذا العهد ، فإن الخطأ فيه غير مأمون ، والزلة فيه لا تستدرك ، وللنظر فيه مجلس غير هذا . فعلم الرشيد أنه يريد الخلوة ، فأمرنى بالتنحى ، فقمت وقعدت ناحية بحيث أسمع كلامهما ، فما زال فى مناجاة ومناظرة طويلة حتى مضى الليل ، وافترقا على أن عقد الأمر لعبد الله بعد محمد » .

هكذا ولى الرشيد عهده ابنيه الأمين والمأمون . وفى سنة ١٨٦ هـ حج الرشيد بيت الله مع ولى عهده وعلق الشرطين فى الكعبة (١) .

ولم يقتصر الرشيد على تولية ابنيه الأمين والمأمون العهد ، بل تعدى الأمر إلى ابنه القاسم ، الذى ولاه عهده بعد الأمين والمأمون ، وسماه المؤتمن ، وولاه الجزيرة والثغور والعواصم . وهكذا قسم الرشيد الدولة العباسية بين أبنائه الثلاثة ، وهيأ بذلك عوامل المنافسة والحسد بينهم ، وألقى بذور الفتنة التى قامت بين الأمين والمأمون ، وأضعفت الحزب العباسى ، وهيأت السبيل لتقوية الحزب العلوى فى عهد المأمون كما سيأتى . وقد وصف الطبرى شعور الناس على اختلافهم فى تولية الرشيد عهده فقال : ولما قسم الرشيد دولته بين أولاده الثلاثة ، قال بعض العامة : قد أحكم أمر الملك ، وقال بعضهم ألقى بأسهم بينهم وعاقبة ما صنع فى ذلك مخوفة على الرعية .

---

(١) راجع نسخة الشرط الذى كتبه عبد الله ابن أمير المؤمنين بخط يده فى الكعبة فى الطبرى ج ١٠ ص ٧٦ — ٧٧ الملحق الحادى عشر

٣ — الفتنة بين الأمين والمأمون : كيف كانت هذه الفتنة جهاداً حزبيا بين الفرس أنصار المأمون من ناحية ، وبين العرب أنصار الأمين من ناحية أخرى :

قامت ببغداد فى خلافة الأمين (١٩٣ — ١٩٨ هـ) فتنة جامحة ، حين عزم على خلع أخيه المأمون من ولاية العهد ، وشجعه على ذلك وزيره الفضل بن الربيع ، لأنه كان يخاف المأمون لما فعله عند وفاة الرشيد من إحضاره جميع عسكره إلى الأمين ، وكان الرشيد قد أوصى به للمأمون . لذلك حسن الفضل بن سهل للأمين خلع أخيه والبيعة لابنه موسى ، ووافق الفضل فى رأيه بعض الناس . فمال الأمين إلى أقوالهم ، على حين نهاه أصحابه وذوو الرأى فى بغداد عن ذلك ، وحذره عاقبة البغى ونكث العهود والمواثيق ، وقالوا له « لا تجرىء القواد على النكث للإيمان وعلى الخلع فيخلعوك » [١] . فلم يلتفت الأمين إليهم ومال إلى رأى الفضل بن الربيع ، وولى عهده ابنه موسى ، وسماه الناطق بالحق . وبذلك نكث الأمين العهد والميثاق الذى أخذه على نفسه ، فأغضب الخراسانيين وغيرهم من أهالى الأمصار الإسلامية ، وبخاصة أهالى الحجاز ، فقاموا فى وجهه واشتعلت نيران الفتنة التى أودت بخلافته .

على أن الأمين لما شرع فى خلع المأمون دعاه للحضور إلى بغداد ليقر على نفسه بالخلع . ولكن المأمون اعتذر عن الحضور ، وكثرت الكتب بينهما ، ورق الأمين فى مراسلاته إلى أخيه حتى كاد ينخدع ويوافق على خلع نفسه من ولاية العهد ومبايعة موسى بن الأمين . إلا أن الفضل بن سهل وزير المأمون شجعه على الامتناع وضمن له الخلافة : فقد اشتهر المأمون فى أثناء مقامه بخراسان بالورع والتقوى ، فحسنت سيرته وتمدح الناس بذكره ، على حين انصرف الأمين بعد اعتلائه عرش الخلافة إلى اللهو والمجون . فلما ظهرت بوادر الفتنة ، استمال الفضل

---

(١) أنظر نصيحة خزيمة بن خازم للأمين فى كتاب الخلفاء للسيوطى ص ١٩٨ .

ابن سهل الناس إلى المأمون ، وضبط الثغور ، وقام بتفتيش الكتب الواردة إلى خراسان ، وقبض على أعوان الأمين ، كما قطع الأمين خطبة المأمون من بغداد .

قامت الفتنة بين الأخوين ، وهي في الواقع نزاع حزبي بين الفرس أنصار المأمون من ناحية ، وبين العرب أنصار الأمين من ناحية أخرى . وقد قاد أمر هذا النزاع الفضل بن سهل وزير المأمون وكان فارسياً ، والفضل بن الربيع وزير الأمين وكان عربياً . وسرعان ما تغلب طاهر بن الحسين قائد المأمون على جند على بن عيسى بن ماهان قائد الأمين وقتله بظاهر الري . ومما زاد مركز الأمين حرجاً شغب الحسين بن على بن عيسى عليه وخلعه وحبسه ، وانتصار كثير من الجند له ، مما أدى إلى قيام الحروب بين جند الأمين أنفسهم (١) .

وقد وضع حصار بغداد وسقوطها على أيدي طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين وزهير بن المسيب ، حداً لهذا النزاع الذي انتهى بقتل الأمين ، فقد نزل زهير رقة كلواذى ، وحفر الخنادق ، ونصب المجانيق ، ورمى جند الأمين بالعرادات ، وأخذ عشر أموال التجار ، وجبى الضرائب على السفن . ونزل هرثمة نهر « بين » ، وجعل عليه حائطاً وخندقاً ، وأعد المجانيق ، ونزل طاهر البستان القريب من باب الأنبار . وكان من أثر هذا الحصار أن ضاق الأمين ذرعاً ، ونفدت أمواله واضطر لبيع كل ما في الخزائن والأمتعة ، وضرب ما في قصوره من آنية الذهب والفضة دنانير ودراهم لينفق منها على الجند . ثم استولى طاهر على بعض أرباض بغداد مدينة المنصور الشرقية وأسواق الكرخ ، وعلى قصر الخلد ، عدا أهل السجون والأوباش (٢) .

ويظهر أن الأمين لم يقدر الظروف السيئة التي أحاطت به وبدولته . فقد أقبل برغم ذلك على اللهو والشراب ، واعتمد على قواده ، وعاث اللصوص وقطاع الطرق

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٣٠٤ .

(٢) الطبري ج ١٠ ص ١٧٤ . انظر ماورد في الباب الثامن عن بناء مدينة بغداد .

فى الأرض فساداً ، فتطاولوا على الرجال والنساء والضعفاء ، فى الوقت الذى أحكم طاهر بن الحسين خطته لفتح بغداد ، وأمر جنده بحسن معاملة الضعفاء والنساء مما كان له أثر يذكر فى تحول كثير من رعايا الأمين إلى جانب قائد المأمون ، وعلى رأسهم محمد بن عيسى صاحب شرطة الأمين ، وعبد الله بن حميد بن قحطبة ، ويحيى ابن على بن ماهان .

انتصر جند الأمين على جند طاهر بن الحسين فى موقعة « درب الحجارة » التى قتل فيها خلق كثير ، وهزم هرثمة فى موقعة « باب الشماسية » على يد رجل من العراة ، لولا أن حمل بعض أصحاب هرثمة على هذا الرجل وقطع يده وخلصه ، فمر منهزماً وبلغ خبره أهل عسكره ، فدب إلى نفوسهم اليأس وفروا نحو حلوان لايلوون على شىء ، وقويت بذلك الغزاة واشتد خطرهم ، وأصبح طاهر بين نارين : إما أن يفر فيلحق به عار الهزيمة ، وإما أن يحارب حتى يكتب له النصر ، ثم أمر طاهر بإحراق مدينة بغداد وهدمها .

يقول الطبرى (١) إن طاهر بن الحسين هدم « دور من خالفه ما بين دجلة ودار الرقيق وباب الشام وباب الكوفة إلى الصراة ، وأرحاء أبى جعفر وربض حميد ونهر كرخايا والكناسة ، وجعل يبايت أصحاب محمد (الأمين) ويدالجهم ، ويحوى فى كل يوم ناحية من بعد ناحية ويخندق عليها المراصد من المقاتلة . وجعل أصحاب محمد ينقصون ويزيدون ، حتى لقد كان أصحاب طاهر يهدمون الدار وينصرفون ، فتقلع أبوابها وسقوفها أصحاب محمد ، ويكونون أضر على أصحابهم من أصحاب طاهر تعدياً » .

ولكن أهل هذه الجهات لم يحفلوا بما حل بهم من القتل وبيلدهم من التخريب والإحراق ، ولم ير طاهر بداً من التضييق عليهم ، فحال دون وصول متاجرهم ، واحتكر الدقيق فغلت الأسعار واشتد البلاء .

ضعف أمر الأمين وتركه بعض قواده ، وانحازوا مع بعض تجار الكرخ

---

(١) جـ ١٠ ص ١٨٤ .

ووجوهها إلى طاهر بن الحسين ، وطلب الجند أرزاقهم ، فأمر الأمين ببيع ما بقى من التحف فى خزائنه ، وغدا مركزه من أحرج المراكز ، حتى إنه لم يعد يثق بأشد الناس اتصالا به ، وعبر عن سخطه وسوء حاله فى هذه الكلمات : « وددت أن الله عز وجل قتل الفريقين جميعاً وأراح الناس منهم : فما منهم إلا عدو ممن معنا وممن علينا : أما هؤلاء فيريدون مالى وأما أولئك فيريدون نفسى » .

اشتد البلاء على بغداد ، وأيقن قواد الأمين أنه لاقبل لهم بمقاومة الحصار ، فخشوا سوء مصيرهم ، وأشار عليه جماعة منهم بالهرب إلى الجزيرة والشام وطلب النجدة من أهلها ، وصادف هذا الرأى قبولا منه . ولكن طاهر بن الحسين كتب إلى سليمان ابن جعفر ، وإلى محمد بن عيسى ، وإلى السندى بن شاهك : « والله لئن لم تقروه وتردوه عن هذا الرأى لاتركت لكم ضيعة إلا قبضتها ، ولا تكون لى همة إلا أنفسكم ، فدخلوا على محمد (الأمين) فقالوا : لقد بلغنا الذى عزمت عليه ، فنحن نذكرك الله فى نفسك : إن هؤلاء صعاليك ، وقد بلغ الأمر إلى ماترى من الحصار ، وضاق عليهم المذهب ، وهم يرون ألا أمان لهم على أنفسهم وأموالهم عند أخيك وعند طاهر وهرثمة ، لما انتشر عنهم من مباشرة الحرب والجد فيها . ولسنا نأمن إذ إبرزوا بك وحصلت فى أيديهم ، أن يأخذوك أسيراً ، ويأخذوا رأسك ، فيتقربوا بك ويجعلوك سبب أمانهم ، وضربوا له فيه الأمثال » (١) .

واختلف أصحاب الأمين فى الرأى : فطلب من هرثمة أن يتوسط فى إصلاح ذات البين بينه وبين أخيه المأمون على أن ينزل له عن الخلافة ، فكتب إليه كتاباً يقول فيه : « قد كان ينبغى لك أن تدعو إلى ذلك قبل أن يتفاقم الأمر ، أما الآن فقد جاوز السيل الزبى ، وشغل الحلى أهله أن يعار . ومع ذلك . . . فإنى لا آلو جهداً فى كل ماعاد بصلاح حالك وقربك إلى أمير المؤمنين » . فلما سمع الأمين ذلك استشار أصحابه ، فأشاروا عليه بالقبول طمعاً فى الإبقاء عليه فلما جن

---

(١) الطبرى ج ١٠ ص ١٩٠ — ١٩٦ .

الليل لبس لباس الخلافة ، وسار فى الحراقة إلى هرثمة ، فخرج طاهر وأصحابه فرموا الحراقة بالسهام ، فألقى الأمين بنفسه فى الماء ، وركض إلى الشاطىء فحمل عليه بعض رجال المأمون وقتلوه وأخذوا رأسه ، فبعث به طاهر بن الحسين إلى المأمون مع البردة والقضيب والسيف (١) .

على أننا إذا دققنا النظر فى هذه الفتنة رأينا أن الرشيد كان السبب فى هذه النكبات كلها لأنه :

أولا — ولى الأمين دون المأمون مع أنه أكبر منه سناً .

ثانياً — أعطى المأمون امتيازاً كبيراً فيما أقطعه إياه ، فاستطاع أن يناوىء الأمين ويتغلب عليه . فقد تولى الأمين العراق والشام ، وتولى المأمون بلاد الفرس ، وتولى المؤتمن بلاد المغرب ومصر .

ثالثاً — أن الأمين مال إلى تولية ابنه دون أخيه .

أما الأمين فإن خلعه وقتله يرجع إلى نكثه العهد والميثاق ، وإخراجه أخاه المأمون من ولاية العهد ، ونقضه العهدين اللذين تركهما أبوه ، وفى ذلك مافيه من انتهاك حرمة البيت المقدس . أضف إلى ذلك تولية عيسى بن على بن عيسى الحرب فى خراسان ، مع ماعرف عنه من القسوة فى معاملة الأهلين ، مما ساعد على ثورة الناس عليه ، وانصراف الأمين عن أمور الخلافة واشتغاله باللهو والغناء .

٣ — تولية المأمون علياً الرضا عهده :

إن العوامل التى حملت الخليفة المأمون على أن يولى عهده علياً الرضا بن موسى الكاظم ، وهو الإمام الثامن عند طائفة الإمامية الإثنا عشرية ، ثم ماكان من موت ذلك العلوى بتدبير المأمون — على ماورد فى المصادر الشعبية —

---

(١) أنظر الطبرى (ج ١٠ ص ١٩٢ — ٢٠٨) للوقوف على ماذكره عن الفتنة التى قامت بين الأمين والمأمون .

جديرة بالبحث ، لما لها من العلاقة الوثيقة بتاريخ الشيعة من ناحية ، ثم بتاريخ الخليفة المأمون العباسى من ناحية أخرى .

اتفق جمهور المؤرخين — من الشيعيين والسنيين — على ثلاث نقط أساسية لاشك فى صحتها ، وهى أن المأمون ولى عهده عليا الرضا ، وأنه لبس الخضرة شعار العلويين وأنه زوجه ابنته أم حبيب سنة ٢٠٢ هـ .

ولد على الرضا سنة ١٥٠ هـ ، وكان على جانب عظيم من العلم والورع . وقد قيل لأبى نواس : « علام تركتَ مدح على بن موسى والخصال التى تجمعن فيه ؟ » فقال : لا أستطيع مدح إمام كان جبريل خادماً لأبيه ، والله ماتركت ذلك إلا إعظاماً له ، وليس قدر مثلى أن يقول فى مثله :

قيل لى أنت أحسنُ الناسِ طراً ... فى فنونٍ من الكلام النبيه
لك من جيد القريض مديحٌ ... يُثمر الدر فى يدَىْ مجتليه
فعلامَ تركتَ مدحَ ابنِ موسى ... والخصالَ التى تجمّعن فيه ؟
قلت : لا أستطيع مدحَ إمامٍ ... كان جبريلُ خادماً لأبيه [١]

ويجمل بنا أن نسأل أى الغرضين أرجح : أكان شعور المأمون نحو على الرضا شعوراً دينياً بحتاً الباعث عليه اقتناعه بأن بيت على أحق بالخلافة من بيت العباس ؟ أم كان ذلك الشعور الدينى يحمل بين ثناياه مشروعاً سياسياً يرمى إلى اكتساب المأمون ولاء الخراسانيين الذين أشربت قلوبهم حب العقائد الشيعية ، متأثراً بميوله الفارسية ، إذ كانت أمه وزوجه فارسيتين ، فشب على التشيع متأثراً بالفرس ؟ .

أما الجواب عن السؤال الأول ، فإن بعض المصادر تؤيد القول بأن المأمون كان مخلصاً فى توودده للعلويين جاداً فى تولية على الرضا عهده ، وأن الذى حمله على ذلك هو إفراطه فى التشيع حتى قيل إنه همّ بخلع نفسه وتفويض الأمر إليه ،

---

(١) ابن خلكان : كتاب وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٢١ — ٣٢٢ .

وضرب الدراهم باسمه ، وخطب له مع الخليفة على المنابر ، وزوجه ابنته . من ذلك ما ذكره محمد بن النعمان من أن المأمون أرسل الجلودى إلى المدينة ، وطلب إليه أن يحث أفراد البيت العلوى على الرحيل معه إلى مرو حاضرة خراسان ، فلبى الجلودى أوامر الخليفة ونهض بالأمر . فلما قدموا مرو استقبلهم المأمون فى قصره ، واحتفل بهم ، وخص عليا الرضا برعايته وعطفه وأفرد له منزلا خاصاً به[1] .

ثم بعث المأمون فى طلب الحسن والفضل ابنى سهل وأسرّ إليهما عزمه على تولية الرضا عهده . وقد اختلف الأخوان فى الرأى ، فقاوم الحسن الفكرة أشد مقاومة ، وحذر المأمون مغبة الأخذ بهذه السياسة لما فيها من تحويل الخلافة إلى بيت على ، فقال له المأمون : « إنى عاهدت الله إن ظفرت بالمخلوع (يعنى أخاه الأمين) أخرجت الخلافة إلى أفضل آل أبى طالب . وما أعلم أحداً أفضل من هذا الرجل على وجه الأرض[2] » .

وكان الفضل يطمح إلى الاستئثار بالنفوذ فى دولة المأمون ، غير أنه لما رأى أن هذا الأمر لا يتم له والعراق فى أيدى طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين ، عمل على إقصائهما عما كانا يليانه من البلاد حتى يضعف بذلك نفوذهما ، وولى أخاه الحسن بن سهل بلاد العراق .

وقد عضد الفضل بن سهل فكرة تحويل الخلافة إلى بيت على . يدل على ذلك ما كان من تدبير المأمون اغتياله بمرو قبل رحيله إلى بغداد ، ثم ما كان من قتله الرضا بالسم وهو فى طريقه إليها .

وقد ذكر الطبرى[3] أن عليا الرضا لما قدم مرو ، أحسن المأمون وفادته ، وجمع رجال دولته وأخبرهم أنه قلب نظره فى أولاد العباس وأولاد على بن

---

(١) محمد بن النعمان : كتاب الإرشاد ، مكتبة الجامعة بلندن ، مخطوط رقم ١٦٤٧ ، ورقة رقم ٢٢٧ (ا) .

(٢) النسيبى كتاب مطالب السول فى غزوات الرسول ، ليدن ؛ مخطوط رقم ١٩٧٩ ، ورقة رقم ٢٢٢ (ا) .

(٣) ج ١٠ ص ٤٣ .

أبى طالب ، فلم يجد أحداً أفضل ولا أروع ولا أعلم منه . فولاه عهده ولقبه « الرضا من آل محمد » ، وأمر جنده بطرح السواد شعار العباسيين ، وكتب بذلك إلى الآفاق (وذلك لليلتين خلتا من رمضان سنة ٢٠١ هـ) .

فأحفظ ذلك بنى العباس ، ولا سيما منصور وإبراهيم ابنى المهدى ، وامتنع أهل بغداد عن البيعة للرضا ، ثم خاض الناس فى خلع المأمون وأخذالبيعة لإبراهيم بن المهدى. وكان فى جانب المأمون رجال كرهوا تولية على الرضا العهد ، وخافوا خروج الخلافة عن بيت العباس وعودها إلى بنى فاطمة .

وفى مجمع حافل يضم الأشراف والأمراء ورجال الدولة ، أعلن الفضل بن سهل بالنيابة عن الخليفة ولاية عهد على بن موسى الكاظم بعد المأمون . وبعد أسبوع أقيم احتفال كبير أقر فيه المأمون وابنه العباس بيعة الرضا ، ثم وزعت الجوائز والخلع على كبار رجال الدولة وعلى الشعراء الذين شادوا بفضائل الرضا وامتدحوا المأمون .

ومنح المأمون كبار عمال الدولة عطاء سنة ، وأجاز دعبل بن على الخزاعى الشاعر المتشيع المشهور بخمسين ألف درهم ، وأجزل الوزير عطاءه . ومن هذه القصيدة التى أذاعت ذكر دعبل بين شعراء عصره :

ذكرتُ محلَّة الربع من عرفات ... فأسبلتُ دمع العين بالعبرات

ويرى بعض المؤرخين أن علياً أفضل الخلفاء الراشدين ، ويعزو بعض آخر ذلك إلى عوامل سياسية : ذلك أن الفرس كانوا يعتقدون أن العلويين هم وحدهم أحق بحمل التاج لصفتهم المشتركة من آل ساسان وآل على ، لأن أولاد الحسين ابن على من ابنة يزدجرد الثالث . وقد كتب المأمون بذلك إلى الأمصار الإسلامية ، وأمر المسلمين بلبس الخضرة شعار العلويين بدل السواد شعار العباسيين .

وليس من عجب فى ذلك ، فقد كان المأمون نفسه متأثراً بالعقائد الفارسية ، لأن أمه كانت خراسانية ، ولأنه بعمله هذا يستطيع أن يكتسب رضاء الفرس

وإخلاصهم ، لذلك يمكن أن يعد عمله هذا سياسياً أكثر منه دينياً . يدل على ذلك أن الناس ببغداد هاجوا ، وبايعوا إبراهيم بن المهدى بالخلافة ، فبقى فيها سنتين تقريباً (٢٠٢ — ٢٠٤) حتى دخل المأمون بغداد .

أما عن السؤال الثانى ، وهو : هل كان ذلك الشعور الدينى يحمل بين ثناياه مشروعاً سياسياً يرمى إلى اكتساب ولاء الخراسانيين المتشيعين ؟ فالجواب عنه أن بعض مؤلفى المصادر الشيعية والسنية يرى أن تولية المأمون علياً الرضا ولاية العهد لم تكن إلا سياسة منه لاستمالة قلوب الخراسانيين ، فإن العلاقة التى بين المأمون وعلى الرضا ، والتى كان ظاهرها الإخلاص والمحبة ، لم تلبث أن تغيرت ، لما كان يراه المأمون من التفاف الخراسانيين حول على الرضا ، وما كان يخشاه من تحول الخلافة عنه إلى العلويين إذا هو تورط فى هذه السياسة . يدل على ذلك هذه العبارة[1] « ومما تلقته الأسماع ونقلته الألسن فى بقاع الأصقاع ، أن الخليفة المأمون وجد فى يوم عيد انحراف مزاج أحدث عنه ثقلا عن الخروج إلى الصلاة بالناس ، فانتدب أبا الحسن علياً الرضا للصلاة بالناس ، فخرج وعليه قميص قصير أبيض وعمامة بيضاء ، وهى من قطن ، وفى يده قضيب . فأقبل ماشياً يؤم المصلى وهو يقول : السلام على أبوى آدم ونوح ! السلام على أبوى إسماعيل وإبراهيم ! السلام على أبوى محمد وعلى ! السلام على عباد الله الصالحين ! فلما رآه الناس هرعوا إليه وانثالوا عليه لتقبيل يده ، فأسرع بعض الحاشية إلى الخليفة المأمون وقال : يا أمير المؤمنين ! تدارك الناس واخرج وصل بهم ، وإلا خرجت الخلافة منك الآن[2] . فحمله هذا الأمر على الخروج بنفسه ، وجاء مسرعا والرضا لم يخلص إلى المصلى لكثرة ازدحام الناس عليه ، فتقدم المأمون وصلى بالناس » .

وإذا رجعنا إلى بعض المصادر الشيعية ، فإننا نقف منها على أن العلاقة بين المأمون وعلى الرضا لم تكن على شىء من الصفاء . فقد كان الرضا يكثر من

---

(١) النسيبى : مطالب السول : ورقة ١٢٤ ب .

(٢) وقد ذكر محمد بن النعمان (مخطوط رقم ١٦٤٧ ورقة ١٣٠ (ا) أن الفضل بن سهل الوزير هو الذى أسرع إلى المأمون وأخبره بخطورة المركز وما كان من شغب الناس .

وعظ المأمون إذا خلا به ويخوفه غضب الله عز وجل ويقبح ما يرتكبه من خلافه ، والمأمون يظهر قبول ذلك منه ويبطن كراهيته للرضا . على أننا لا نستطيع الجزم بأن ما ذكرناه مستمد من جميع المصادر الشيعية التي رجعنا إليها ، لأن بعض المؤرخين لم يذكر شيئاً عن سوء العلاقة بين المأمون والرضا ، وإنما اقتصروا على القول بأن المأمون هو الذي دبر موته .

قال ابن القفطي[1] : « قال عبد الله بن سهل بن نوبخت المنجم ، وهو منجم مأموني كبير القدر في صناعته يعلم المأمون قدره في ذلك — وكان لا يقدم إلا عالماً مشهوداً له بعد الاختبار — وكان المأمون قد رأى آل أمير المؤمنين على بن أبي طالب متخشين متخفين من خوف المنصور ومن جاء بعده من بني العباس ، ورأى العوام قد خفيت عنهم أمورهم بالاختفاء ، فظنوا بهم ما يظنون من الأنبياء ، ويتفوهون في صفتهم بما يخرجهم عن الشريعة من التغالي . فأراد معاقبة العامة على هذا الفعل ، ثم فكر أنه إذا فعل هذا بالعوام زادهم إغراء به ، فنظر في هذا الأمر نظراً دقيقاً وقال : لو ظهروا للناس ورأوا فسق الفاسق منهم وظلم الظالم ، لسقطوا من أعينهم ولانقلب شكرهم لهم ذماً ، ثم قال : إذا أمرناهم بالظهور خافوا واستتروا وظنوا بنا سوءاً . وإنما الرأي أن نقدم أحدهم ونظهر لهم إماماً . فإذا رأوا هذا أنسوا وظهروا وأظهروا ما عندهم من الحركات الموجودة في الآدميين ، ويتحقق للعوام حالهم وما هم عليه مما خفي بالاختفاء . فإذا تحقق ذلك أزلت من أقمته ورددت الأمر إلى حالته الأولى . وقوى هذا الرأي عنده ، وكتم باطنه عن خواصه ، وأظهر للفضل بن سهل أنه يريد أن يقيم إماماً من آل أمير المؤمنين (على بن أبي طالب) صلوات الله عليه ! وأفكر هو وهو فيمن يصلح ، فوقع إجماعهما على الرضا ، فإذا الفضل بن سهل بن سهل في تقرير ذلك وترتيبه ، وهو لا يعلم باطن الأمر . وأخذ في اختيار وقت لبيعة الرضا ، فاختار طالع السرطان وفيه المشترى . قال عبد الله بن سهل نوبخت هذا : أردت أن أعلم نية المأمون في هذه البيعة ،

---

(١) إختبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢٢١ — ٢٢٣ .

وأن باطنه كظاهره أم لا ، لأن الأمر عظيم ، فأنفذت إليه فى هـذه قبل العقد رقعة مع ثقة من خدمه — وكان يجىء فى مهم أمره — وقلت له : إن هـذه البيعة فى الوقت الذى اختاره ذو الرياستين لا تتم بل تنقص ، لأن المشترى ، وإن كان فى الطالع فى بيت شرفه ، فإن السرطان برج منقلب . وفى الرابع — وهو بيت العاقبة المريخ ، وهو نحس ، وقد أغفل ذو الرياستين هذا ، فكتب المأمون إلى : قد وقفت على ذلك ، أحسن الله جزاءك ! فاحذر كل الحذر أن تنبه ذا الرياستين على هـذا ، فإنه إن زال عن رأيه علمت أنك أنت المنبه له . فهم ذو الرياستين بذلك ، فما زلت أصوب رأيه الأول خوفاً من اتهام المأمون لى ، وما أغفلت أمرى حتى مضى أمر البيعة ، فسلمت من المأمون » .

وإذا صح ماقيل أن شعور المأمون نحو آل على كان شعوراً دينياً يحمل بين ثناياه مشروعاً سياسياً يرمى إلى اكتساب ولاء الخراسانيين الذين أشربت قلوبهم حب العلويين ، إذا صح ذلك تبين لنا أن المأمون لم يرد بهذا العمل إلى اكتساب رضاء العنصر الخراسانى وضم العلويين إلى صفه وتهدئة الخواطر ، وأنه لم يكن مخلصاً فى تحويل الخلافة إلى العلويين ، وأن هذا لم يكن إلا سياسة دعت إليها الضرورة وسياسة الملك . ولا أدل على ذلك من نقضه كل ما أبرم من تولية الرضا عهده حيناً أمكنته الفرصة .

وانتهى الأمر بتلك المأساة التاريخية ، وهى اغتيال كل من الفضل بن سهل وعلى الرضا ، فقد هاج الناس ببغداد وماجوا ، وغرقت حاضرة العباسيين فى لجج الفوضى ، وخاض الناس فى خلع المأمون ، وفكروا فى تولية إبراهيم بن المهدى — كما تقدم — ولقبوه المبارك . وكتب الحسن بن سهل إلى أخيه الفضل — وقد أحسن بما أضمره المأمون له من الشر — ينصح بأن يحتاط لنفسه خشية الاغتيال وقال فى كتابه : « إنى نظرت فى تحويل السنة ، فوجدت فيه أنك تذوق فى شهر كذا يوم الأربعاء حر الحديد وحر النار ، وأرى أن تحجم أنت وأمير المؤمنين والرضا من دخول الحمام فى هـذا اليوم ليزول عنك نحسك » ودخل الفضل الحمام

فى يوم الأربعاء الذى حذره منه أخوه ، قبض عليه جماعة من الرجال واغتالوه (١) .

ويظهر أن كتاب الحسن بن سهل لم يصل إلى أخيه الفضل قبل يوم الأربعاء المشئوم ، أو أنه أرغم على دخول الحمام بعد أن وصل إليه الكتاب . وإن صحت هذه الرواية ، فقد لهج الحسن بن سهل بما كان سائداً بين أفراد البيت العباسى ببغداد ، وبما كان من هياجهم على المأمون لتوليته رجلا من العلويين ، وعملهم على التخلص من المأمون والرضا والفضل .

وكان للفضل بن سهل شيعة قوية تؤيده وتنصره . فلما رأوا ما حل به ، اتهموا المأمون ورموه بالاشتراك فى المؤامرة ، وشغب قواد خراسان وجنودهم وغيرهم من أنصار الفضل على الخليفة ، وتجمعوا ببابه وهموا بإحراقه . ولما رأى المأمون أن حياته مهددة بالخطر ، طلب إلى على الرضا أن يركب إلى الثوار ويصرفهم . وكان الرضا هو الوسيلة الوحيدة لنجاة الخليفة وتهدئة الخواطر . لمحبة أهل خراسان له وصدقهم فى الإخلاص لطاعته . ولا غرو فإن إشارة واحدة منه كانت كفيلة بتهدئة خواطر الثائرين وعدولهم عن رأيهم .

هكذا مات الفضل بن سهل وتفرق أنصاره ، ونجا الخليفة مما كان يتهدده من الخطر فى ذلك الظرف العصيب . وبموت الفضل بن سهل لم يبق أمام المأمون إلا على الرضا ، فلننظر كيف تخلص منه .

اختلفت كلمة المؤرخين فى كيفية قتل الرضا : فمنهم من ذكر أن المأمون دس له السم فى عنقود من العنب أو فى بعض الأشربة . وذكر محمد ابن النعمان (٢) أن المأمون أمر أحد رجاله أن يطيل أظفاره وألا يطلع أحداً على ذلك . ثم استدعاه فأخرج إليه شيئاً يشبه التمر هندى وقال له : « إعجن هذا بيديك جميعاً » ، ففعل ثم دخل على الرضا ، فكلم المأمون بما أغضبه ، فصاح المأمون بأحد غلمانه . وأمره أن يقدم إلى الرضا ماء الرمان (أو عصير

---

(١) محمد بن النعمان : كتاب الإرشاد ورقة ٢٣٠ ب
(٢) ورقة ٢٣١ ب — ٢٣٢ ا .

التمرهندى على الأصح ، ثم قدمه المأمون للرضا ، فمات بعد يومين . وقد ذكر بن أبى الصلت ، الذى روى محمد بن النعمان هذه الحكاية عنه ، أنه دخل على الرضا وقد خرج المأمون من عنده فقال : يا أبا الصلت ! لقد فعلوها والله ، وجعل يوحد الله . وقد روى هذا المؤرخ نفسه رواية أخرى عن كيفية موت الرضا ، فذكر أنه كان يحب العنب ، فأخذ له شىء منه ، فجعل فى موضع أقماعه الإبر أياماً ، ثم نزعت وجىء به إليه ، فأكل منه وهو فى علته التى ذكرناها فقتله .

ومن الواضح أن هذه الروايات متهمة لأنها جاءت من مصدر شيعى ، على حين سكت معظم المصادر الموثوق بها عن ذكرها .

وقد اتفق المؤرخون على أن المأمون أظهر عند وفاة الرضا أعمق مظاهر الحزن . وهكذا نجحت سياسة المأمون ، فاغتيل الفضل بن سهل وقتل على الرضا بالسم ، ودفن فى سناباذ من أعمال طوس التى دفن فيها الرشيد ، وحرم ابنه محمد ولاية العهد بعد أبيه ، وعاد المأمون ثانية إلى السواد شعار العباسيين .

كانت سياسة المأمون نحو العلويين تنطوى على كثير من العطف والتسامح . ويظهر ذلك مما رواه ابن طباطبا [١] عن خروج محمد بن جعفر الصادق على المأمون فقال : وفى أيامه خرج محمد بن جعفر الصادق عليهما السلام بمكة ، وبويع بالخلافة وسموه أمير المؤمنين . وكان بعض أهله قد حسن له ذلك ، حين رأى كثرة الاختلاف ببغداد وما بها من الفتن وخروج الخوارج . وكان محمد بن جعفر شيخاً من شيوخ آل أبى طالب ، يقرأ عليه العلم . وكان (قد) روى عن أبيه عليه السلام علماً جماً ، فمكث بمكة مدة . وكان الغالب على أمره ابنه وبعض بنى عمه ، فلم تحمد سيرتهما ، وأرسل المأمون عسكراً فكانت الغلبة له ، وظفر به المأمون وعفا عنه [٢] .

---

(١) الفخرى ص ٢٠١ .

(٢) انظر مقالة المؤلف «المأمون وعلى الرضا » بحث مستخرج من مجلة كلية الاداب ، جامعة القاهرة المجلد الأول الجزء الأول ، مايو ١٩٣٣ .

ومهما يكن من شيء ، فقد أجمعت المصادر الشيعية والسنية على أن المأمون كان يعطف على العلويين ويرى أن الخلافة قد اغتصبت منهم ، وكان يعترف بحسن معاملة العلويين لأبناء عمهم العباسيين . فقد روى السيوطي (١) أن المأمون قال يوماً وقد سئل عن سبب بره بالعلويين : « وإنما فعلت ما فعلت لأن أبا بكر لما ولي لم يول أحداً من بني هاشم شيئاً ، ثم عمر ثم عثمان كذلك . ثم ولي علي فولى عبد الله بن عباس البصرة ، وعبيد الله اليمن ، ومعبداً مكة ، وقثم البحرين ، وما ترك أحداً منهم حتى ولاه شيئاً ، فكانت هذه في أعناقنا حتى كافأته في ولده بما فعلت » .

وليس أدل على حب المأمون لأولاد علي بن أبي طالب من هذه الوصية التي أوصى بها أخاه المعتصم قبل وفاته : « وهؤلاء بنو عمك من ولد أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب رضي الله عنه ، فأحسن صحبتهم وتجاوز عن مسيئهم ، وأقبل من محسنهم ، وصلاتهم فلا تغفلها في كل سنة من محلها ، فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى » (٢) .

وقد ظل المأمون يعامل العلويين معاملة تتفق وما كان يعتقده في فضل علي ابن أبي طالب ، إلى أن خرج في سنة ٢٠٧ هـ ببلاد اليمن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب ، فبعث إليه المأمون أحد رجاله في جيش كثيف فأمنه وعاد به إلى المأمون ، فأمر المأمون بمنع العلويين من الدخول عليه وحتم عليهم لبس السواد .

٥ — ظهور العنصر التركي :

اعتمد الأمويون على العنصر العربي فأسندوا إليهم أهم مناصب الدولة ، كما اعتمدوا عليهم في الشئون الحربية ، ولم يساووا بينهم وبين العجم وخاصة الموالي

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٢٠٥

(٢) الطبري ج ١٠ ص ٢٩٥

من الفرس الذين عملوا على التخلص من الأمويين وأخذوا ينضمون إلى الثائرين عليهم ، وكانوا من أقوى العوامل فى القضاء على الأمويين كما رأينا . ولما آل الأمر إلى العباسيين ، اعتمدوا على هؤلاء الموالى الذين قامت دولتهم على أكتافهم ، وأخذوا عنهم كثيراً من نظم الحكم التى كانت سائدة فى العهد الساسانى ، وأهملوا العنصر العربى إهمالا ظهر أثره فى بعض الحركات التى كانت نتيجة سخط العنصر العربى على العنصر الفارسى . ومن أقوى الأمثلة على ذلك تآمر الفضل بن الربيع على البرامكة . ثم قامت الفتنة بين الأمين والمأمون ، فكانت فى الواقع انتصاراً للفرس على العرب ، وذلك نتيجة للعداء القديم الذى قام بين العرب والفرس .

ولما ولى المعتصم الخلافة ، وكانت أمه تركية ، أهمل العنصر العربى والفارسى واعتمد على الأتراك الذين اتخذهم حرساً له ، وأسند إليهم مناصب الدولة كما فعل أخوه المأمون مع الخراسانيين . وكان المعتصم بذلك أول خليفة عباسى استعان بالأتراك وأسند إليهم مناصب الدولة . وقد عنى المعتصم باقتناء الترك ، فبعث فى شرائهم إلى سمرقند وفرغانة وغيرهما من النواحى ، وبذل فى سبيل ذلك الأموال وألبسهم أنواع الديباج ومناطق الذهب[١] .

وكان المعتصم يرى أن دولته الواسعة لابد أن يقوم بحراستها جيش قوى ، فاستكثر من الأتراك لأن أمه كانت تركية كما تقدم . وكانوا يجلبون من أسواق الرقيق فى بلاد ما وراء النهر ، واتخذ من حسن هندامهم وجمال منظرهم وشجاعتهم وتمسكهم بأهداب الإسلام سبباً للاعتماد عليهم ، فولاهم حراسة قصره . وأسند إليهم أعلى المناصب ، وقلدهم الولايات الكبيرة ، وأدر عليهم الهبات والأرزاق وآثرهم على الفرس والعرب فى كل شىء[٢] .

وما لبث أن تفاقم نفوذ هؤلاء الأتراك وزاد عددهم حتى أربى على الخمسين ألفاً كما يقول جبون[٣] . وكان هؤلاء الأتراك يرسلون إلى الخلفاء العباسيين

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٢٣ .

(٢) النظم الإسلامية للمؤلف الطبعة الثالثة ص ١٨٤ .

(٣) Decline and Fall of the Roman Empire, vol. IV. p. 47.

مع الهدايا التى كان يبعث بها الولاة من بلاد ما وراء النهر . ومن هؤلاء الأتراك طولون أبو أحمد بن طولون الذى أهداه والى هذه البلاد إلى الخليفة المأمون . وكان هؤلاء الأتراك يتدفقون سنة بعد سنة على أسواق بغداد ، حتى كثر عددهم ، واستطاعوا أن يصلوا من هذه الأسواق إلى بلاط الخلفاء أولا ثم إلى الجيش أخيراً .

وكان الشاب التركى يحصل على حريته إذا ما أخلص فى خدمة مولاه . وقد جرت العادة أن يصل إلى المناصب الكبيرة فى البلاط العباسى . وأخذ هؤلاء الأتراك الذين كانوا بعيدين عن الحضارة والعلم يندمجون فى طبقات الأمراء المثقفين ، فاعتنقوا الإسلام وتأدبوا بآدابه ، وتعلموا العربية ووقفوا على أحكام القرآن ، ودرسوا العلوم الطبيعية والسياسية . حتى إذا ما أصبح أحدهم ذا كفاية تؤهله للاضطلاع بشئون الدولة أو القيام بأعباء المناصب العالية فى البلاط ، تحرر من عبوديته وتولى المنصب الذى يتناسب مع كفاءته ومواهبه . ومن ثم رشحوا للمناصب على اختلافها ووصلوا إلى أعلى مراتبها ، من الاندماج فى سلك البلاط إلى تقلد أكبر الولايات .

وقد بلغ من نفوذ هؤلاء الأتراك أن أخذ الخلفاء يقطعونهم الولايات الإسلامية ، على أن يؤدوا لدار الخلافة جزية معينة على نحو ما كان متبعاً فى نظام الإقطاع الذى ذاع فى أوربا فى القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين .

وقد جرت العادة أن يستخلف هؤلاء الأتراك نواباً عنهم يحكمون هذه البلاد باسمهم ، فكانوا يدعون لهم بعد الخليفة وينقشون اسمهم على السكة . وكان هؤلاء الأتراك من كبار رجال البلاط العباسى . ولم يكن من السهل أن يتركوا دار الخلافة فى بغداد أو سامرا وما فيها من نعيم وترف ، ثم يأتون إلى هذه الولايات للإقامة فيها . يقول لينبول (١) : « إن هذا الانقلاب من الحكم العربى

---

(١) History of Egypt in the Middle Ages, p. 29.

إلى الحكم التركى كان مظهراً من مظاهر الثورة التى أحس بها معظم أجزاء الخلافة ، وأدت إلى إضعاف سلطة الخليفة وزوالها فى النهاية » . ومن ذلك الوقت الذى التحم فيه العرب بالأتراك على ضفاف نهر سيحون ، وأضحى هؤلاء تحت النفوذ العربى ، سار لهؤلاء الأسرى مجال فسيح فى الأسر الإسلامية : فقوة أبدانهم وجمال طلعتهم ، وشجاعتهم وأمانتهم — كل هذه الصفات أكسبتهم ثقة كبار الأمراء من العرب وخاصة الخلفاء ، الذين اعتقدوا أنهم باعتمادهم على أمانة هؤلاء الأجانب الذين اشتروهم بالمال ، يكونون أكثر طمأنينة على أنفسهم من اعتمادهم على أبناء جلدتهم من العرب الذين عرفوا بالغيرة والحسد ، أو على الفرس الذين تفاقم نفوذهم حتى عده الخلفاء العباسيون مهدداً لكيان دولتهم وسلامتها . وكان لهم إلى ذلك الوقت نصيب كبير فى إدارة شئون الدولة العربية .

ولم يلبث الأتراك أن أصبحوا آفة على أهل بغداد الذين عانوا من عنتهم وجورهم شيئاً كثيراً . وفى ذلك يقول المسعودى (١) « إن الأتراك كانوا يؤذون العوام بمدينة السلام ، بجريها بالخيول فى الأسواق ، وإلحاق الأذى بالضعفاء والصبيان . فكان أهل بغداد يثورون على بعضهم فيقتلونهم إذا صدموا امرأة أو شيخاً كبيراً أو صبياً أو ضريراً » . وقد زاد الطبرى (٢) هذه المسألة بياناً فقال : « إن غلمانه الأتراك كانوا لا يزالون يجدون الواحد بعد الواحد منهم قتيلا فى أرباضها ، وذلك أنهم كانوا عجماً جفاة ، يركبون الدواب فيتراكضون فى طريق بغداد وشوارعها فيصدمون الرجل والمرأة ، ويطئون الصبى فيأخذهم الأبناء (٣) ، فينكسونهم عن دوابهم ويجرحون بعضهم ، فربما هلك من الجراح بعضهم ، فشكت الأتراك ذلك إلى المعتصم وتأذت بهم العامة ، فذكر أنه رأى المعتصم راكباً منصرفاً من المصلى فى يوم عيد أضحى أو فطر . فلما صار فى مربعة الحرشى ، نظر إلى شيخ قد قام إليه

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٤٩ .

(٢) ج ١٠ ص ٣١١ .

(٣) الأبناء هم البقية الباقية من الفرس الذين طردوا الأحباش من اليمن أيام سيف بن ذى يزن الذى استنجد بكسرى أنوشروان فأرسل معه قائده وهرز .

فقال له : يا أبا إسحاق ! فابتدره الجند ليضربوه ، فأشار إليهم المعتصم فكفهم عنه ، فقال للشيخ : مالك ؟ قال : « لا جزاك الله عن الجوار خيراً ، جاورتنا وجئت بهؤلاء العلوج (١) فأسكنتهم بين أظهرنا ، فأيتمت بهم صبياننا وأرملت بهم نسواننا وقتلت بهم رجالنا ، والمعتصم يسمع ذلك كله » .

وكان من أثر ازدياد نفوذ الأتراك أن حقد عليهم العرب وتآمروا على المعتصم والأفشين وأشناس (٢) وغيرهم من قواد الأتراك ، وأثار عجيف بن عنبسة القائد العربي العباس بن المأمون على عمه المعتصم . ولكن المعتصم ، وإن كان قد قضى على العباس وعجيف ، وأقصى العرب من مناصب الدولة المدنية والعسكرية ومن ديوان العطاء ، أتاح بذلك الفرصة للأتراك فزاد من نفوذهم ، حتى أصبحوا خطراً على الخلفاء العباسيين وعلى الدولة العباسية .

وقد استفحل خطر هؤلاء الأتراك حتى قيل إن المعتصم نفسه شكا من قوادهم في أواخر أيامه ، ولو أنه استعان بقواد العرب لأتيح له استعادة سلطان الخلافة ، وقد عبر المعتصم عن أسفه لاعتماده على هؤلاء الأتراك في هذه العبارة التي خاطب فيها أحد جلسائه فقال : « في قلبي أمر أنا مفكر فيه منذ مدة طويلة : نظرت إلى أخي المأمون وقد اصطنع أربعة أنجبوا ، واصطنعت أنا أربعة لم يفلح أحد منهم ، قلت ومن الذين اصطنعهم أخوك ؟ قال : طاهر بن الحسين فقد رأيت وسمعت ، وعبد الله بن طاهر فهو الرجل الذي لم ير مثله ، وأنت ، فأنت والله الذي لا يعتاض السلطان منك أبداً ، وأخوك محمد بن إبراهيم وأين مثل محمد ؟ وأنا فاصطنعت الأفشين ، فقد رأيت إلى ما صار أمره . وأشناس ففشل رأيه ،

---

(١) العلج حمار الوحش الغليظ ، ورجل علج أي شديد .

(٢) ذكر الطبري (ج ١٠ ص ٣٠٧) نفراً من هؤلاء الأتراك ورد ذكرهم في قصيدة أحد الزط نقل منها هذين البيتين .

فاستنصروا العبد من أبناء دولتكم ... من با زمان ومن بلج ومن توز

ومن شناس وأفشين ومن فرج ... الململين بديباج وإبريز

وإيتاخ فلا شيء ، ووصيف فلا مغنى فيه . فقلت : يا أمير المؤمنين أعزك الله ! نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها فأنجبت فروعها ، واستعمل أمير المؤمنين فروعاً لم تنجب إذ لا أصول لها . قال : يا اسحق ! لمقاساة ما مر بى فى طول هذه المدة أسهل على من هذا الجواب »[1] .

على أن قوة شكيمة المعتصم قد حدت من نفوذ الأتراك . فلما مات وولى الخلافة بعده ابنه الواثق ، أخذ هؤلاء يتدخلون فى أمور الدولة ، حتى أصبح مكتوف الأيدى مسلوب السلطة . ولما ولى المتوكل الخلافة حاول أن يكف أيديهم فقتلوه ، وصار ابنه المنتصر الذى اشترك معهم فى قتله ، طوع بنانهم ، وأصبحت الدولة العباسية ميداناً للفوضى والدسائس وغدا فى أيدى هؤلاء الأتراك أمر تولية الخليفة وعزله أو حبسه وقتله .

على أن ظهور العنصر التركى قد أدى إلى إخماد نار الخصومة بين الفرس والعرب حيناً وبين العلويين والعباسيين حيناً آخر ، لأنه استأثر بالأمر دون الفريقين ، ولم يكن يحفل بأولئك أو هؤلاء . ومن هنا بدأ ظهور الدول المستقلة وشبه المستقلة فى أطراف الدولة العباسية : كالصفارية والسامانية والغزنوية ، والعلوية بطبرستان والأغلبية بتونس ، والفاطمية ببلاد المغرب ، والطولونية ، والإخشيدية بمصر ، وبنى أمية بالأندلس ، والزيدية باليمن .

---

(١) الطبرى ج ١١ ص ٨ — ٩ .

الباب الرابع

العلاقات الخارجية

١ — مع مصر :

وضع الرسول صلى الله عليه وسلم أساس السياسة الخارجية للعرب : فبعث فى السنة السادسة للهجرة أصحابه إلى هرقل إمبراطور الدولة البيزنطية ، وإلى كسرى فارس ، وإلى نجاشى الحبشة ، وإلى المقوقس حاكم مصر من قبل هرقل ، وإلى أمير اليمامة ، وإلى أمير الغسانيين . فمنهم من تلطف فى الرد ومنهم من أساء معاملة رسل النبى .

وقد أعد الرسول قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى جيشاً لغزو أطراف الشام بقيادة أسامة بن زيد ، غير أن وفاته حالت دون إرسال هذا الجيش . فلما ولى أبو بكر الخلافة أمر أسامة بغزو بلاد الروم . وما كاد ينتهى من حروب الردة ، حتى دعا المقاتلين من أرجاء الجزيرة العربية للجهاد فى سبيل الله ، وأنفذهم لغزو دولتى الفرس والروم فى وقت واحد ، مع ما كان لكل من هاتين الدولتين من سعة الملك وبسطة السلطان ووفرة الثروة . وبذلك وضع المسلمون أساس السياسة الخارجية ، ثم توجهت همتهم فى عهد الدولة الأموية نحو الشمال والغرب ، حيث الدولة الرومانية الشرقية التى كانت تغير على البلاد الإسلامية المجاورة لها ، وحاول العرب فتح القسطنطينية غير مرة . ولما تحول الحكم إلى العباسيين زادت علاقات المسلمين بغيرهم ، ولا سيما بمصر والمغرب ، والأندلس والفرنجة ، وبالدولة البيزنطية وبلاد الهند .

وكان من أثر تحول الخلافة من الأمويين إلى العباسيين أن قامت فى مصر حاضرة جديدة حلت محل الفسطاط ، هى مدينة العسكر . فقد رأى صالح بن على

العباسى (المحرم سنة ١٣٢ — شعبان سنة ١٣٣ ، ١٣٧ — ١٣٧ هـ) أن مدينة الفسطاط تضيق بعسكره ، فاختار الموضع الذى كان يعرف بالحمراء القصوى (١) .

ولما خلف أبو عون صالح بن على ولاية مصر ، أمر أصحابه بالبناء . ثم بنى الفضل بن صالح بن على العباسى (١٦٩ — ١٦٩ هـ) فى مدينة العسكر جامعاً عرف بجامع العسكر ، وأخذ الناس فى عمارة الدور حتى اتصلت هذه الحاضرة الجديدة بمدينة الفسطاط .

وقد قام الجند العربى فى مصر ، كما قام القبط الذين كانوا يسكونون السواد الأعظم من أهالى هذه البلاد ، بدور هام فى السياسة فى العصر العباسى الأول . فقد اشتركوا فى فتنة محمد النفس الزكية بن عبد الله بن الحسن العلوى الذى ظهرت دعوته فى هذه البلاد حيث نشر ابنه على بن محمد الدعوة له فيها . غير أن والى أبى جعفر المصور على مصر استطاع أن يحبط ثورة أنصار على ، وانطفأت جذوة هذه الثورة بعد أن اتصل بهم نبأ وفاة ابراهيم بن عبد الله (٢) .

وفى عهد الخليفة المهدى (١٥٨ — ١٦٩ هـ) خرج فى مصر دِحية (بكسر الدال وسكون الحاء وفتح الياء) بن مصعب (بن الإصبع بن عبد العزيز بن مروان) فى ولاية ابراهيم بن صالح بن على العباسى (١٦٥ — ١٦٧ هـ) ، وتغلب على أكثر بلاد الصعيد ، وكاد نفوذ العباسيين يذهب من هذه البلاد . فلما علم الخليفة المهدى بذلك نقم على هذا الوالى وعزله (٣) .

وقد حاول موسى بن مصعب بن الربيع الخشعمى (١٦٧ — ١٦٨ هـ) الذى ولى مصر بعد ابراهيم بن صالح ، أن يقضى على فتنة دحية الأموى ، ولكنه لم يلبث أن قتل . وشدد هذا الوالى فى جمع الخراج ، وزاد على كل فدان مثل ما كان يؤخذ عليه من قبل . وارتشى هذا الوالى ، وجعل خراجاً على أهل الأسواق وعلى

---

(١) تخربت هذه الحمراء قبل قدوم مروان بن محمد الأموى إلى مصر واستحالت صحراء .
(٢) المقريزى : خطط جـ ٢ ص ٣٣٨ .
(٣) الكندى : كتاب الولاة ص ١٢٤ — ١٢٦ .

الدواب ، فكرهه الجند والأهالى ونابذوه العداء . وقامت الفتن فى البلاد واشتدت وطأتها فى الصعيد وكورة الحوف ؛ فأرسل موسى جيشاً لقتال الثائرين فى الصعيد وسار هو على رأس جيش آخر لقتال أهل الحرف ، فتخلى عنه الجند وأسلموه إلى الأهالى فقتلوه (١) .

بيد أن ثورة دحية فى الصعيد لم تنته بقتل هذا الوالى ، بل استمرت فى عهد خلفه عسامة بن عمرو المعافرى ، ولم تخمد جذوتها إلا فى عهد الفضل بن صالح (١٦٩ — ١٦٩ هـ) الذى ولى مصر من قبل الخليفة الهادى ، فهزم دحية زعيم الثائرين فى الصعيد وأمر به فضربت عنقه وصلب . على أن الفضل لم يجن ثمار انتصاره ، إذ عزل فى نفس السنة التى ولى فيها هذه البلاد .

ومن ولاة العصر العباسى الأول فى مصر موسى بن عيسى الذى ولى هذه البلاد ثلاث مرات (١٧١ ، ١٧٥ ، ١٧٩ هـ) . وقد اشتهر بالعدل وحسن الإدارة ، واكتسب محبة الأهلين ، وتحبب إلى النصارى ، فأذن لهم ببناء الكنائس التى هدمها سلفه ، وأشار عليه بذلك قاضياه الليث بن سعد ، وعبد الله بن لهيعة (بفتح اللام) ، بحجة أن إعادة الكنائس المستحدثة من عمارة البلاد ، كما زاد فى جامع عمرو بن العاص .

كذلك كان للجند العربى فى مصر نصيب كبير فى الفتنة التى قامت بين الأمين وأخيه المأمون ، شأنهم فى الفتن الخارجية التى قامت بين الخلفاء والخارجين عليهم أو المنافسين لهم ، وغدا اشتراك هؤلاء الجند فى الثورات مألوفاً لديهم ، حتى فى الحالات التى لم يكن ثمة مايدعو المصريين إلى الاشتراك فيها .

ولسنا ندرى الباعث الحقيقى الذى دفع هؤلاء الجند إلى الزج بأنفسهم فى غمار هذه الثورات التى لم يكن لها علاقة بالعصبية العربية التى جاء الإسلام معفياً لها ، وإن كانت هذه الثورات قد ظهرت بعد وفاة الرسول من حين إلى حين . ويظهر أن الجند العربى كان لايزال مرتبطاً بدار الخلافة برابطة الدم أكثر من ارتباطه

---

(١) الكندى ص ١٢٥ المقريزى ج ١ ص ٣٠٨ .

بمصر نفسها ، إذ لم تكن القومية المصرية قد شملت بعد المصريين جميعاً . غير أن الأمر الذى يسترعى النظر أن مصر كانت ، على مارواه الكندى (١) ، حين قام النزاع بين الأمين والمأمون — فى أمن ودعة ، وكانت راضية عن واليها جابر ابن الأشعث الطائى وعن حكمه ، وأن هذا الوالى كان محبباً إلى الخاصة والعامة فى هذه البلاد .

احتدم النزاع بين الأمين والمأمون بسبب خلع الأمين أخاه المأمون وترك الدعاء له على المنابر وتوليته ابنه موسى العهد بدلا منه . فغضب العرب فى مصر وفى غيرها من الولايات الإسلامية وعولوا على خلع الأمين ، لنكثه العهد الذى تركه أبوه الرشيد وأودعه الكعبة وهذا وحده كان كافياً لإثارة سخط الناس عليه . وظهر فى مصر السَّرى بن الحكم الذى استغل هذه الفرصة لمصلحته الشخصية لإعلاء شأنه ورفع ذكره ، إذ كان منذ أتى إلى مصر فى أيام الرشيد خملا لا حيثية له ، فدعا إلى المأمون ، فبايعه نفر يسير . ولكنه ظل على نشاطه فى نشر الدعوة حتى دعا المأمون أشراف مصر إلى بيعته ، فأجابوه سراً . وأتى كتاب هرثمة بن أعين أحد قواد المأمون المعدودين إلى عباد بن حيان وكيله على ضياعه فى مصر ، فقرأ هذا الكتاب على الجند فى المسجد ودعاهم إلى خلع الأمين ، فأجابه أكثرهم وخلعوه (جمادى الآخر سنة ١٦٦ هـ) ، وأخرجوا واليه من الفسطاط وبايعوا عباداً فأقره المأمون على ولاية مصر .

ولما علم الأمين بما حدث فى مصر من خلعه وإخراج عامله ، كتب إلى ربيعة ابن قيس ، وكان زعيم قبيلة قيس بالحوف ، بولايته على مصر ، وطلب إلى اليمانية أن يقوموا بمساعدته ، فأظهروا دعوة الأمين وخلعوا المأمون وخرجوا إلى الفسطاط ، ودارت بين الفريقين مناوشات وحروب ، عقد لواء النصر فيها لأنصار المأمون . ولما بلغ قيساً قتل الأمين (المحرم سنة ١٩٨ هـ) وبيعة المأمون تفرقوا (١) .

---

(١) كتاب الولاة ص ١٤٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٤٨ — ١٥٠ .

تطور الاضطراب بمصر فى عهد المأمون إلى نزاع بين بعض القواد الذين عمل كل منهم على الاستئثار بالسلطة والاستقلال عن الخلافة . وليس أدل على ذلك من أن الشرطة قد تقلدها خمسة فى بضعة أسابيع ، كما أخذت سلطة الخليفة تضعف تدريجياً عن هذه البلاد التى أصبحت فى وسط هذه الفوضى غنيمة لمن غلب [١] . ويذكر « ساويرس » نقلا عن الوثائق المعاصرة أن الثوار استطالوا على مصر لاضطراب الأمور فى بغداد ، وقام الخارجون بجباية الضرائب لأنفسهم . ومن هؤلاء الخارجين ، عبد العزيز الجروى الذى استولى على شرقى الدلتا من شطنوف إلى الفرما ، والسرى بن الحكم الذى استولى على الوجه القبلى من مصر إلى أسوان . أما غربى الدلتا ، وفى ذلك الإسكندرية وأعمالها ومريوط والبحيرة جميعها ، فقد ملكها قبيلتا لخم وجذام [٢] .

ندب المأمون عبد الله بن طاهر بن الحسين ، وكان فى الشام ، ليقضى على هذه الاضطرابات التى سادت فى مصر نحواً من إحدى عشرة سنة كادت فيها تستقل عن الخلافة ، حتى إنها لم تعد ترسل إليها الخراج ، أو تذعن لأوامر الخليفة ، أو تعترف بسلطة الولاة الذين يوليهم ، كما تغلب على كل ناحية قائد أو زعيم . وقد استولى طاهر على الفسطاط وأقر الأمن فى نصابه [٣] . ثم تفرغ لإصلاح البلاد وزاد فى جامع عمرو . ولكن ولايته لم يطل أمرها ، فعاد إلى العراق ، وعادت الثورات فى مصر سيرتها الأولى . وانتقض القبط ، وخرج فريق من عرب مصر الذين كانوا يناصرون الأمين ، فندب المأمون قائده الأفشين ، ثم جاء هو نفسه إلى هذه البلاد وعاد الأمن إلى نصابه .

ولما ولى المعتصم الخلافة فى سنة ٢١٨ هـ تحول النفوذ من العنصر العربى إلى الأتراك ، واندمج العرب فى المصريين بعد أن أسقط المعتصم أسماء العرب من

---

(١) سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى فجر الأسلام ص ص ١٩٣ ـ ١٩٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٦٥ ـ ١٦٦ ، نقلا عن كتاب سير الآباء البطاركة ص ٤٢٨ .

(٣) الكندى ص ١٨٠ ـ ١٨٢ .

ديوان العطاء . واعتمد على الأتراك ، فانتشر العرب فى الريف ، واحترفوا الزراعة وغيرها . وبدأ ظل الولاة من العرب يزول بإحلال ولاة من الأتراك محلهم ، ولم يحكم مصر وال من العرب بعد ذلك إلا عنبسة بن إسحاق (٢٣٨ — ٢٤٤ هـ) .

كما كان لمحنة خلق القرآن التى ظهرت فى أيام المأمون أثر بعيد فى علاقة مصر بالخلافة : فإن المأمون لم يعاقب القضاة والفقهاء والمحدثين الذين لم يقروا بخلق القرآن قبل وفاته سنة ٢١٧ هـ بأربعة أشهر . ثم جاء أخوه المعتصم (٢١٨ — ٢٢٧ هـ) فعذب الذين امتنعوا عن القول بخلق القرآن ، وأرسل إلى واليه على مصر ، كيدر بن نصر بن عبد الله (٢١٧ — ٢١٩ هـ) ، كتاباً يأمره فيه أن يحمل الناس على القول بخلق القرآن ، وأن يمتحن قاضى مصر هارون بن عبد الله الزهرى ، كما يمتحن الفقهاء والمحدثين والشهود ، ويعزل القاضى إذا لم يقر بأن القرآن مخلوق ، وأن لا يأذن لأحد فى حديث أو فتوى أو شهادة إلا إذا أقر بخلق القرآن .

ولكن مصر لم تتعرض لما تعرضت له العراق . فقد أقر هذا القاضى بخلق القرآن كما أجاب أكثر الفقهاء ، وهرب من هذه البلاد من لم يوافق الخليفة فيما ذهب إليه فى هذه المسألة [١] .

ولما ولى الواثق (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ) الخلافة ، بعث إلى قاضى مصر محمد بن أبى الليث يأمره بامتحان الناس فى خلق القرآن ، وتشدد فى حمل الناس على قبول هذه الآراء ، حتى إنه حبس كثيراً ممن عارضوه ، وأمر أن يكتب على المساجد : لا إله إلا الله رب القرآن المخلوق . كما منع الفقهاء من أصحاب مالك والشافعى من الجلوس فى المسجد ، وأمرهم أن لا يقربوه . ولم يكن للمذاهب الأخرى أتباع فى مصر إذ ذاك . فلما ولى المتوكل الخلافة ترك القول بخلق القرآن الذى أدى إلى تفريق كلمة المسلمين [٢] .

---

(١) الكندى : ص ٤٤٥ — ٤٤٧

(٢) المقريزى : خطط ج ١ ص ٣١٢

مع بلاد النوبة :

ذكرنا فى الجزء الأول من هذا الكتاب (ص ٢٦٢) أن مملكة النوبة المسيحية وقفت فى طريق العرب فاتحين أو مهاجرين وأن ملكها عقد مع المسلمين صلحاً أشبه بمعاهدة اقتصادية . غير أن أهل النوبة لم يحافظوا على هذا الصلح ونقضوا ما كان بينهم وبين المسلمين من عهد حتى غزا بلادهم عبد الله بن سعد بن أبى سرح سنة ٣١ هـ وتغلب عليهم وأرغم ملكهم على طلب الصلح ، وكتب بينه وبين المسلمين عهداً يقوم على التسامح الدينى وحسن الجوار وتبادل المنافع الاقتصادية : فمصر تمد النوبة بالحبوب والثياب والخيل ، والنوبة تمد مصر بالماشية والرقيق لفلاحة الأرض لينصرف المسلمون للجهاد (١) .

وفى أواخر القرن الأول للهجرة تجمع لعبيد الله بن الحبحاب (بفتح الحاء الأولى وسكون الباء) . البجة (بضم الباء وفتح الجيم) أو البجاه (بضم الباء) وكانوا يقيمون على مقربة من عيذاب (بفتح العين وسكون الياء) على البحر الأحمر ، وانتشروا فى بلاد النوبة وغيرها ، ولاسيما بين النيل النوبى والبحر الأحمر فى الأراضى الممتدة بين دنقلة وأسوان تقريباً . ولكن ابن الحبحاب تركهم وهادنهم .

وبهذا يكون العرب قد اتصلوا بالنوبة والبجة اتصال تعاهد ومرور وانتقال ، وأن بلاد السودان قد عرفت اللاجئين السياسيين من العرب كبنى أمية الذين فروا من وجه العباسيين إلى بلاد النوبة أو إلى شرقى السودان واستقروا فى أرض الجزيرة . ويبدو أن العرب اتصلوا اتصالا وثيقاً بالبجة فى القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) عن طريق البحر الأحمر وعن طريق وادى النيل ، وخاصة من إقليم أسوان ، فرحلوا إليهم تجاراً واجتازوا من مصر إلى بلادهم حاجين ، وهاجروا إلى مفاوز الذهب والزمرد منقبين ومستخرجين . ويظهر أيضاً أن جماعة من العرب المسلمين كانوا أول من استقر هناك وبنوا مساجد لهم . فهذه

---

(١) المقريزى ج ١ ص ٢٠٠ .

كلها عوامل مهدت للعرب سبيل الاختلاط أول الأمر بالبجة فى شرقى السودان وساعدت على تعريب هذه المنطقة .

غير أن البجة لم يحافظوا على العهد الذى قطعوه على أنفسهم مع عبيد الله بن الحبحاب، فكثرت غاراتهم على جهات أسوان ، واشتد إيذاؤهم المسلمين فيها ، فرفع أمرهم إلى الخليفة المأمون العباسى (٢١٦ / ٨٣١) ، فكانت له معهم وقائع انتهت بموادعتهم وإبرام عهد جديد بينه وبين كنون (بفتح الكاف وضم النون مع التشديد) بن عبد العزيز زعيم البجة . ومن أهم شروط هذا العهد التى تبين لنا مدى اتصال العرب بمنطقة شرقى السودان :

١ — أن تكون بلاد البجة من حدود أسوان إلى البلاد التى تمتد بين دَهلك (بفتح الدال واللام وسكون الهاء) وباضع ملكا للخليفة ، وأن يكون كنون ملكا على البجة . وهذه أول مرة تكون فيها منطقة السودان ملكا للخليفة ، فقد كانت المناطق المعروفة للعرب يومئذ مستقلة قائمة بذاتها يربطها عهد بأمير المؤمنين أو بولاته .

٢ - أن يكون ملك البجة كل عام الخراج أو « البقط[1] » (بفتح الباء وسكون القاف) على ما كان أسلافه مائة من الإبل أو ثلثمائة دينار .

---

(١) قال المقريزى (خطط جـ ١ ص ١٩٩ — ٢٠٠) : « البقط ما يقبض من سبى النوبة فى كل عام ضريبة عليهم . فإن كانت هذه الكلمة عربية فهى إما من قولهم فى الأرض بقط من بقل وعشب أى نبذة من مرعى ، فيكون معناه على هذا نبذة من المال ، أو يكون من قولهم إن فى بنى تميم بقطاً من ربيعة أى فرقة أو قطعة ، فيكون معناه على هذا فرقة من المال أو قطعة منه . ومنه بقط الأرض فرقة منها ، وبقط الشىء فرقة : والبقط أن تعطى الجنة على الثلث أو الربع ، والبقط أيضاً ماسقط من التمر إذا قطع . . . فيكون معناه على هذا بعض مافى أيدى النوبة . وكان يؤخذ منهم فى قرية يقال لها القصر ، مسافتها من أسوان خمسة أميال . . . وأول ماتقرر هذا البقط على النوبة فى إمارة عمرو بن العاص » : ولعل معنى بقط عهد (Pact) . وقد أورد المقريزى (خطط جـ ١ ص ٢٠١) ما كان يدفعه أهل النوبة للمسلمين ، وهى ٣٦٠ رأساً من الغنم ، لبيت المال ؛ ولوالى مصر أربعون رأساً ؛ ويدفع المسلمون ألف إردب من القمح وثلاث مئة إردب أخرى لرسل ملك النوبة . وكذلك من الشعير ، عدا فرسين ومائة ثوب وأربعة أثواب من القباطى عدا أنواع أخرى من الأثواب . »

٣ — أن يحترم البجة الإسلام وألا يذكروه بسوء ولا يعينوا أحداً على أهله .

٤ — ألا يمنعوا أحداً من المسلمين من الدخول فى بلادهم والتجارة فيها براً وبحراً .

٥ — ألا يمنعوا أحداً من المسلمين تاجراً أو مقيما مجتازاً أو حاجاً ، فهو آمن حتى يخرج من بلادهم . وهذا الشرط يدل على أن العرب المسلمين كانوا يذهبون إلى شرقى السودان للتجارة أو للإقامة أو المرور ، أو للحج ، مما يدعو إلى الاستقرار أو البقاء فى تلك المنطقة .

٦ — إذا نزل البجة صعيدمصر مجتازين أو تجاراً فلايظهرون سلاحاً ولا يدخلون المدن والقرى بحال (١) .

وتدل هذه الشروط على أن العرب المسلمين كانوا يترددون على شرقى السودان تجاراً ومقيمين ومجتازين وحجاجاً ، وأن من البجة من أسلم ، وأنه كان للمسلمين بها مساجد معمورة فى أكثر من بلد ، وأن عمال الخليفة كانوا يغشونها لقبض الجزية . فهذه المنطقة إذن أسبق مناطق السودان إلى الدخول فى الإسلام .

وكان هناك اتصال بين ملك النوبة والخليفة العباسى المعتصم (٢١٨ — ٢٢٧ هـ) بسبب العهد الذى أبرم بين ملك النوبة والمسلمين . فقد أرسل السفراء ليجددوا هذا العهد ، وزار ملك النوبة قاعدة مصر حيث قوبل بمظاهر الاحترام والتكريم وعاد إلى بلاده يحمل الهدايا . وفى عهد الخليفة المتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) نقض البجة هذا العهد ، وامتنعوا عن أداء الجزية التى كانت مقررة عليهم ، وتعرضوا لمن كان فى مناجم الذهب من العمال والحفارين ، وامتدت غاراتهم على أعالى الصعيد ، ونهبوا بعض المدن المصرية كإسنا وأسوان ، مما أدى إلى قيام الحرب بينهم وبين المسلمين على ما سيأتى فى الجزء الثالث من هذا الكتاب (٢) .

---

(١) المقريزى : (خطط ج ١ ص ٢٩٥ — ٢٩٦) .

(٢) أنظر كتاب انتشار الإسلام فى القارة الافريقية للمؤلف ص ١٤١ — ١٤٤ .

٣ — مع بلاد المغرب :

كان تأسيس مدينة القيروان فى إفريقية (بلاد تونس الآن) ، على يد عقبة بن نافع سنة ٥١ هـ (٦٧٠ م) تمكيناً للعرب بمركز حصين اتخذوه قاعدة لأعمالهم الحربية. وكان نجاح عقبة فى تحويل البربر إلى الإسلام بطيئاً . ثم واصل ولاة العرب الذين تولوا هذه البلاد فى القرن الثانى للهجرة جهودهم فى سبيل تحويل هؤلاء البربر إلى الإسلام ، كما عملوا على إدماجهم فى جيوشهم وانضوائهم تحت لوائهم ، وبذلك استطاعوا أن يجذبوهم إلى اعتناق الإسلام .

وقد كون البربر فى شمالى إفريقية نواة الجيوش الإسلامية التى أتمت فتح بلاد المغرب بقيادة قواد من العرب بل من البربر كطارق بن زياد ، وفى أقل من نصف قرن تم لهم فتح بلاد الأندلس .

على أن صلات الصداقة بين العرب والبربر لم تدم طويلا ، لأن البربر رأوا أنهم لم يكافئوا على ما قدموه من خدمات كما كانوا يؤملون . ومع اعتناقهم الإسلام لم يعاملهم العرب معاملة النظير للنظير بل معاملة السيد للمسود . وكان من أثر هذه المعاملة أن انتحل البربر مذهب الخوارج لأنه كان يلائم نزعاتهم الديمقراطية ، وأخذوا يثيرون الفتن والقلاقل فى وجه العرب ، حتى إننا إذا تتبعنا حوادث سنة ١٣٠ هـ تبين لنا ضعف نفوذ الخليفة الأموى فى هذه البلاد .

لهذا لا نعجب إذا غدت إفريقية مسرحا للفتن والقلاقل فى العصر العباسى ، وذلك لبعدها عن السلطة المركزية فى بغداد ، ولجهل البربر فى ذلك العصر ، وعدم استعدادهم لقبول الحضارة الإسلامية ، وبغضهم ولاتهم من العرب لفرضهم الضرائب الفادحة عليهم .

أما بعد بلاد المغرب عن السلطة المركزية فى بغداد ، فقد ساعدت الأدارسة على تأسيس دولتهم بالمغرب الأقصى سنة ١٧٢ هـ ، كما ساعدت الأغالبة فى تونس على تأسيس دولتهم : وكان الرشيد قد أقطع إبراهيم بن الأغلب تونس فى سنة ١٨٤ هـ . وأما عن جهل البربر وعدم استعدادهم للحضارة الإسلامية ، فكان من آثاره أن

الإسلام لم يتوطد بين البربر وبين العرب النازلين فى بلادهم منــذ امتدت الفتوح الإسلامية إلى هذه البلاد . وهذا يفسر لنا انتشار مذهبى الخوارج والشيعة فى بلاد المغرب وقيام البربر فى وجــه العباسيين بين حين وحين . وأما عن بغض البربر لولاتهم من العرب فيرجع إلى فــداحة الضرائب التى أثقلت كاهل الأهلين . وفى الحق أن قيام الخوارج من البربر فى وجه العباسيين لم يكن خروجاً على الدين ، بل كان خروجا على السلطة الحاكمة ، لظلم الولاة لهم وفرضهم عليهم ضرائب فادحة[١] .

وقد ذكر ابن الأثير[٢] أن محمد بن الأشعث والى إفريقية خرج على أبى جعفر المنصور ، فولى هذه البلاد الأغلب بن سالم[٣] أبا إبراهيم بن الأغلب مؤسس دولة الأغالبة ، فقدم القيروان سنة ١٤٧ هـ . وسرعان ما ثار عليه البربر بزعامة قواد من العرب ، وقتل الأغلب على أبواب مدينة القيروان سنة ١٥٠ هـ ، وقبره هناك يعرف بقبر الشهيد . ويقول ميور[٤] : إن إفريقية كادت تخرج عن طاعة العباسيين فى معظم عهد المنصور ، وأن البربر والعرب النازلين فيها مالوا إلى مبادىء الخوارج ، وخلعوا طاعة العباسيين الذين أخذوا يرسلون إليهم الجيوش تلو الجيوش لإخضاعهم ، ولــكن بدون جدوى . واستمرت مدينة القيروان تسقط فى أيدى الثوار حيناً وفى أيدى العباسيين حيناً آخر إلى قبيل نهاية خلافة المنصور .

ولما بلغ الخليفة المنصور نبأ مقتل الأغلب ، ولى إفريقية أبا جعفر عمر بن حفص من ولد قبيصة أخى المهلب بن أبى صفرة ، فوصل إلى القيروان — وكان جنــد الأغلب قد استولوا عليها بعد وفاته (صفر سنة ١٥١ هـ) ، وأقر الأمن فى هــذه البلاد نحو ثلاث سنين . ثم ثار إلى ناحية الزاب لبنــاء مدينة طُبْنة ،

---

(١) تاريخ الدولة الفاطمية للمؤلف ص ٤٤ — ٤٥ .

(٢) جـ ٥ ص ٢٣٦ — ٢٣٧ .

(٣) ذكر ابن الأثير أن الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمى كان ممن قام مع أبى مسلم الخراسانى ثم قدم إفريقية مع محمد بن الأشعث .

(٤) Muir, The Caliphate. p 461.

فانتهز البربر من الإباضية والصفرية وغيرهم فرصة تغيب عمر بن حفص عن إفريقية وانقضوا على هذا الوالى وهاجموا مدينة القيروان ، « وانتقضت إفريقية من كل ناحية ، ومضوا إلى طبنة فأحاطوا بها فى اثنى عشر عسكراً ، منهم أبو قرة الصفرى فى أربعين ألفاً ، وعبد الرحمن بن رستم فى خمسة عشر ألفاً ، وأبو حاتم فى عسكر كثير ، وعاصم السدرانى الإباضى فى ستة آلاف فارس ، والمسعودى الزناتى الإباضى فى عشر آلاف فارس ، وغير من ذكرنا » . واستطاع عمر بن حفص بما بذل من الأموال أن يفك حصار طبنة بإرشاد بعض المحاصرين من الخوارج ، فترك هؤلاء حصار طبنة وحاصروا القيروان . فلما اشتد الضيق بأهلها قصدهم عمر بن حفص وأعمل الحيلة حتى دخلها .

ولما علم أبو جعفر المنصور بما حل بجند عمر بن حفص ، بعث يزيد بن حاتم ابن قبيصة بن أبى صفرة فى ستين ألف فارس ، فوصل إلى إفريقية سنة ١٥٤ هـ . فبادر أبو حاتم الخارجين إلى لقائه . ولكن الهزيمة حلت به ، وقتل هو وجنده من البربر فى شهر ربيع الأول ١٥٥ هـ . وجعل آل المهلب يقتلون الخوارج ويقولون . « يالثارات عمر بن حفص . وأقام شهراً يقتل الخوارج ، ثم رحل إلى القيروان » .

ويقول ميور (ص ٤٦١) : إن أبا جعفر المنصور لما تخلص من خصومه الآخرين ، أصبح من القوة بحيث استطاع أن يرسل إلى بلاد المغرب جيشاً جراراً أقر الأمن فى جميع أرجاء هـذه البلاد حيناً من الدهر . ولا غرو فقد اشتعلت نيران الثورة فى بلاد المغرب وأقلقت بال العباسيين ، حتى قيل إنه : «كان بين الخوارج والجنود (العباسيين) من لدن قاتلوا عمر بن حفص إلى انقضاء أمرهم ثلثمائة وخمس وسبعون وقعة » . وقد بذلت الدولة العباسية جهوداً متصلة وتضحيات عظيمة ونفقات طائلة .

استمرت قبائل البربر فى إفريقية تناوىء سلطان العباسيين بين سنتى ١٧٨ و ١٨١ هـ ، وأخذت فى الخروج على حكم العباسيين ، وغدت كفة النصر ترجح فى جانبهم حيناً وفى جانب العباسيين حيناً آخر ، حتى بعث إليهم الرشيد هرثمة ابن أعين على رأس جيش كثيف ، فوصل إليها فى شهر ربيع الأول سنة ١٧٩ هـ

واستطاع أن يضعف قوتهم . على أن هرثمة رأى بثاقب نظره وطول خبرته تأصل العداء فى نفوس البربر واستحالة فوز العباسيين عليهم ، فعول على النزول عن القيادة وعاد إلى الشرق حيث البذخ والرفاهية . ولما رأى هرثمة الاختلاف الذى ساد إفريقية ، بعث بكتبه إلى الرشيد يعتذر عن بقائه ، فأمره بالقدوم إلى العراق ، فسار عن إفريقية فى رمضان سنة إحدى وثمانين ومائة بعد أن ولى هذه البلاد سنتين ونصف سنة .

ثم ولى الرشيد محمد بن مقاتل بن حكيم العكى ، فأساءمعاملة الأهلين ، فتجددت ثورات البربر والعرب ودخلوا القيروان . فجمع إبراهيم بن الأغلب ، وكان يلى بعض نواحى الزاب ، جيشاً كبيراً طرد به هؤلاء الثوار وأعاد والى الرشيد إلى ولايته(١) .

وكان من أثر هذا العداء الذى أضمره البربر للأمويين والعباسيين ، وانضمام بعض العرب النازلين فى هذه البلاد إليهم ، وميل هؤلاء وأولئك إلى مذهب الخوارج ، أن قامت الفتن والقلاقل فى هذه البلاد . وعمل بعض زعمائهم على الاستقلال عن الدولة العباسية ، فتأسست ولايات من البربر على يد زعماء من سلالة العرب استقلت استقلالا يكاد يكون تاما . ومن هذه الولايات تاهرت التى أسسها عبد الرحمن بن رستم بمساعدة الإباضية من الخوارج (تافيلالت الحالية) (١٣٧ — ٢٩٧ هـ) ، وولاية سجلماسة (تافيلالت الحالية) التى أسسها بنو مدرار بمساعدة الصفرية الزناتيين (١٦٧ — ٢٥٧ هـ) وولاية تلمسان التى أسسها بنو قرة الصنهاجيون ، ودولة برغواطة (بضم الباء والعين وسكون الراء) فى تامسنا (الشاوية الحالية) على ساحل المحيط الأطلسى ، ودولة الأغالبة التى أسسها إبراهيم ابن الأغلب فى تونس (١٨٤ — ٢٩٦ هـ) ودولة الأدارسة التى أسسها إدريس ابن عبد الله بن الحسن فى المغرب الأقصى (١٧٢ — ٣١٣ هـ) .

---

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ٢٤١ — ٢٤٢ ، ج ٦ ص ٥٠ ، ٥٥ .

دولة الأغالبـة [١]

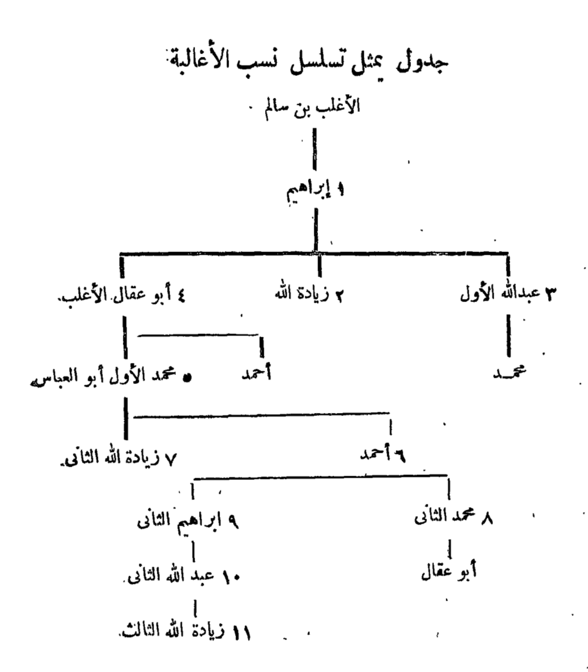
فى تونس وغـيرها

١٨٤ — ٢٩٦ / ٨٠٠ — ٩٠٩

اسم الوالى	هجرية	ميلادية	اسم الوالى	هجرية	ميلادية
١ إبراهيم الأول	١٨٤	٨٠٠	٦ أحمـد	٢٤٢	٨٥٦
٢ عبد الله الأول	١٩٦	٨١١	٧ زيادة الله الثانى	٢٤٩	٨٦٣
٣ زيادة الله الأول	٢٠١	٨١٦	٨ محمد الثانى	٢٥٠	٨٦٤
٤ أبو عقل الأغلب	٢٢٣	٨٣٧	٩ ابراهيم الثانى	٢٦١	٨٧٤
٥ محمد الأول أبو العباس	٢٢٦	٨٤٠	١٠ عبد الله الثانى	٢٨٩	٩٠٢
			١١ زيادة الله الثالث	٢٩٠	٩٠٣
				٢٩٦	٩٠٩

(الفاطميون)

Lane-Poole : Muhmmadan Dynasties pp. 37- 38. (١)



ابراهيم بن الأغلب (١٨٤ — ١٩٦ هـ) :

كان قيام دولة الأغالبة فى تونس نتيجة هذه السياسة التى سار عليها الرشيد فى تأديب البربر وغيرهم من الثوار والوقوف فى وجه الأدارسة إذا أرادوا الإغارة على أراضى الدولةالعباسية . وقد طلب ابراهيم ، وكان يلى بعض نواحى الزاب على ماتقدم ، إلى الرشيد أن يوليه إفريقية ، على أن ينزل عن المطالبة بما كانت ترسله مصر من الأموال التى اعتادت أن ترسلها إليها فى كل سنة ، ومقدارها مائة ألف دينار ، كما تعهد بأن يرسل إلى بيت المال فى بغداد أربعين ألف دينار . وأشار هرثمة بن أعين على

الرشيد بتولية إبراهيم بن الأغلب هذه البلاد لما رآه من عقله وكفايته (١) ، فولاه الرشيد إياها فى شهر المحرم من سنة ١٨٤ هـ .

وكان ابراهيم بن الأغلب على جانب عظيم من الشجاعة ورجاحة العقل ، وقد آنس فيه الذكاء أستاذه الليث بن سعد ، وكان إمام أهل مصر فى الفقه والحديث فقال : « ليكونن لهذا الفتى شأن (٢) » ، وقال الشافعى رضى الله عنه إنه أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به (٣) ، أى أن تلاميذه لم ينشروا مذهبه كما فعل أهل العراق مثلا بمذهب أبى حنيفة . وقد صدقت نبوءة الليث ، فإن إبراهيم لما آلت إليه مقاليد الحكم فى إفريقية ضبط أمورها ، وبنى فى سنة ١٨٥ هـ مدينة على بعد ثلاثة أميال من القيروان (٤) ، ونقل إليها أهله وعبيده وأهل ثقته . ويظهر أنه اتخذ هذه التسمية لإظهار ولائه للخليفة العباسى والاعتراف بسلطان الدولة العباسية عليه .

على أن الثورات فى بلاد المغرب لم تلبث أن سارت سيرتها الأولى ، فخرج على إبراهيم بن الأغلب فى سنة ١٨٢ هـ حمديس ، وكان من العرب النازلين بمدينة تونس ، فبعث إليه ابن الأغلب عمران بن مخلد فى جيش كبير ، فأحل الهزيمة بحمديس وجنده ، وقتل منهم عشرة آلاف رجل ودخل تونس (٥) .

وفى سنة ١٨٩ هـ انتشرت الثورة فى طرابس وكانت تابعة لأمير إفريقية ، لبغض أهلها لولاتهم وعزمهم على إخراج واليهم سفيان بن المضاء ، وكان قد ولى هذه البلاد للمرة الرابعة ، وأخرجوه من داره وطاردوه إلى المسجد وقتلوا أصحابه

---

(١) ابن الأثير جـ ٦ ص ٥٦ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار المغرب جـ ١ ص ٨٤ .

(٣) ابن خلكان جـ ١ ص ٤٣٨ .

(٤) سمى ابن عذارى (جـ ١ ص ٨٤) هذه المدينة القصر القديم ، وسماها ابن الأثير (جـ ٦ ص ٥) العباسية .

(٥) ابن الأثير (جـ ٦ ص ٥٦) ابن عذارى (البيان المغرب جـ ١ ص ٨٤) .

فيه ، وأرغموه على العودة إلى القيروان ولما يمض على ولايته سبعة وعشرين يوماً ،
وولوا عليهم إبراهيم بن سفيان التميمي . ولكنه لم يستطيع أن يقر الأمور بسبب
قيام النزاع بين العرب والأبناء [١]. فأرسل إبراهيم إليهم جيشاً أحضرهم إلى القيروان ،
ولكنه عفا عنهم .

على أن الفتن والثورات لم تخمد فى طرابلس ، فيحدثنا ابن الأثير أن أبا عصام
ثار على رأس جماعة كبيرة ، وأن إبراهيم بن الأغلب ظفر بهم ، وولى هذه البلاد
ابنه عبد الله الذى لقى كثيراً من الشدائد من ناحية البربر أول الأمر ، حتى
أرغموه على الخروج من المدينة ، ولكنه استطاع أن يستميلهم إليه بما أغدق
عليهم من الأموال والعطايا . وعلى الرغم من دخول عبدالله مدينة طرابلس لم يأمن
أبوه بقاءه فيها ، فولى سفيان بن المضاء هذه البلاد للمرة الخامسة ، فثارت قبيلة
هوارة (بفتح الهاء وتشديد الواو مع الفتح) عليه ودخلوا مدينة طرابلس وهدموا
أسوارها ، فأرسل إليهم إبراهيم بن الأغلب ابنه عبد الله على رأس ثلاثة عشر ألف
فارس ، فهزم البربر وقتل كثيراً منهم ودخل طرابلس وأعاد بناء سورها . ولكن
عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم جمع البربر وحرضهم على قتال الأغالبة ،
وحاربهم إلى أن توفى أبوه إبراهيم ، وآلت إمارة الأغالبة إليه ، فاضطر إلى
مصالحتهم « على أن يكون البلد والبحر لعبد الله وما كان خارجاً عن ذلك يكون
لعبد الوهاب » [٢] .

وكما كان إبراهيم بن الأغلب يخشى شر أهالى طرابلس الذين تألبوا عليه
وثاروا فى وجهه ، كذلك عمل على القضاء على الأدارسة فى بلاد المغرب ليأمن
جانبهم . وقد بلغه أن إدريس بن إدريس قد كثر جمعه ، فأراد قصده ، ولكن
أصحابه نصحوا له بالعدول عن رأيه وقالوا : اتركه ما تركك . وكتب إليه إدريس
يستعطفه ويسأله أن يعدل عن مناصبته العداء وتفريق أنصاره ويذكر له قرابته من
الرسول عليه الصلاة والسلام فكف عنه .

---

(١) يقصد بذلك الذين يجمعون بين الدم العربى والدم البربرى .

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٦٩، ٩٧ — ٩٨ .

وقد ذكر الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب (١) أن إبراهيم بن الأغلب استقبل سفراء شرلمان فى العباسية حاضرة ولايته (٢) . ويظهر أن منزلته قد علت حتى إن شرلمان لجأ إليه مباشرة دون الرجوع إلى الخليفة العباسى .

كان إبراهيم بن اغلب — على ما وصفه بن عذارى — « فقيهاً أديباً وشاعراً خطيباً ، ذا رأى ونجدة وبأس وحزم ، وعلم بالحروب ومكايدها ، جرىء الجنان طويل اللسان ، لم يل إفريقية أحسن سيرة ولا سياسة ، ولا أرأف بالرعية ، ولا أوفى بعهد ولا أرعى لحرمة منه ، فطاعت له قبائل البربر وتمهدت إفريقية فى أيامه ، واستقامت الأحوال بها » .

عبد الله الأول (١٩٦ — ٢٠١ هـ) :

ولى إبراهيم بن الأغلب ابنه أبا العباس عبد الله العهد من بعده ، فلما مات فى سنة ١٩٦ هـ كان عبد الله يحارب ابن رستم فى طرابلس كما تقدم ، فقام أخوه زيادة الله بالأمر ، وأخذ له البيعة على نفسه وعلى أهل بيته وجمع رجاله وخدمه ، وبعث إليه بذلك . ولكن عبد الله لم يعد إلى إفريقية إلا فى سنة ١٩٧ هـ حيث سلم إليه أخوه زيادة الله مقاليد الأمور . ولما قتل الخليفة الأمين فى سنة ١٩٨ هـ وولى الخلافة بعده أخوه المأمون أقر عبد الله بن إبراهيم على إفريقية (٣) .

وكان عبد الله سيىء السيرة حتى مع أهل بيته . يقول ابن عذارى إنه لما عاد من طرابلس تلقاه أخوه زيادة الله وسلم الأمر إليه . ولكنه أساء معاملته ، وكان يأمر رجال بلاطه بإطلاق ألسنتهم فيه ، وزيادة الله يظهر له التعظيم والإكبار ولا يظهر له تغيراً أو كراهة ، كما اشتط فى جمع الضرائب حتى قيل إنه فرض على كل

---

(١) خلاصة تاريخ تونس (طبعة سنة ١٣٤٤ هـ) ص ٥٩ .

(٢) قيل إن سبب قدوم هؤلاء السفراء يرجع إلى طلب شرلمان نقل رفات أحد القديسين فى قرطاجنة إلى إكس لا شابل حاضرة الفرنجة وإن إبراهيم بن الأغلب أجابه إلى طلبه .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ٨٣ ، ٨٦ .

فدان ثمانية عشر ديناراً فى كل سنة ، وكانت معاملته للأهلين تنطوى على كثير من العنت والجور . ولم يصغ إلى نصائح أهـل الورع والدين ، حتى قيل إنه « لما قدم حفص بن حميد الصالح على إفريقية ومعه قوم صالحون من الجزيرة ، قصدوا إليه ، فوعظوه فى أمر الدين ومصالح المسلمين ، فتهاون بهم ، فخرجوا مغمومين [١] يريدون القيروان ، وكان هو فى القصر القديم (يعنى العباسية) . فلما وصلوا وادى القصارين قال لهم حفص بن حميد : قد يئسنا من المخلوق فلا نيأس من الخالق ، فاسألوا المولى واضرعوا إليه فى زوال ظلمه عن المسلمين ، فإن فتح فى الدعاء فقد أذن فى الإجابة ، فتوضئوا وساروا إلى كدية روح [٢] ، فصلى بهم حفص ركعتين، ودعوا الله أن يكف عن المسلمين جور أبى العبـاس (عبد الله) ويريحهم منه . وقد قيل إنه أصيب بقرحة تحت أذنه فقتلته فى اليوم السادس من دعاء القوم . وقال من حضر غسله : إنه لما كشف عنه ثيابه « ظن أنه عبد أسود بعد جماله ، وذلك بسوء فعاله [٣] » . وكان ذلك فى سنة ٢٠١ هـ بعد أن حكم خمس سنين وشهرين .

يتبين من هذه القصة التى تكاد تكون قصة خيالية تنطوى على شىء كثير من المبالغة ، أن سيرة هذا الوالى قد أثارت عليه حنق أهل بيته ، فاتخذ المؤرخون من سوء سيرته مصدراً لتأليف القصص حول حياته .

زيادة الله الأول (٢٠١—٢٢٣) هـ :

كان زيادة الله من أطوال الأغالبة عهداً بالحكم ، وكان — كأخيه عبد الله — يميل إلى الظلم والجور ويمتاز عهده بقيام بعض الثورات ومحاولة فتح جزيرتى سردينية وصقلية فى البحر الأبيض المتوسط .

وقد قضى زيادة الله ست السنوات الأولى من عهـده آمناً مطمئناً ، حتى خرج

---

(١) مقصورين فى الأصل ولعل الكلمة « مغمورين » .
(٢) الكدية : الأرض الصلبة
(٣) ابن عذارى ج ١ ص٨٧ . ابن الأثير ج ٦ ص١٢١ .

عليه (سنة ٢٠٧ هـ) زياد بن سهل المعروف بابن الصقلبية ، ولكن الهزيمة حلت به هو وأنصاره . وفي السنة التالية خرج بتونس منصور بن نصير الطنبذي ، فسير إليه زيادة الله جيشاً بقيادة محمد بن حمزة ، فهزمه منصور وقتل إسماعيل بن سالم بن سفيان بن عقال وابنه محمد ، وكانا من أقارب زيادة الله . فلما سمع زيادة الله بذلك أرسل وزيره الأغلب بن عبد الله بن الأغلب على رأس جيش كثيف ، ثم شيع هذا الجيش ، وهدد قائده وجنده بالقتل إذا حلت بهم الهزيمة ، وأفلت المنصور من أيديهم . ولكن تهديد زيادة الله لم يحل دون إلحاق الهزيمة بجنده ، الذين خشوا سوء العاقبة وعولوا على عدم العودة إلى العباسية ، فتقلبت بهم الأحوال ، وخلعوا طاعته وانضموا إلى المنصور ، واستولوا على كثير من المدن مثل باجة وصطفورة والأربس .

وقد اضطربت أحوال إفريقية وكادت تخرج من يد زيادة الله الذي أثار كراهة أهلها بسوء سيرته وقسوته . وقد تفاقم خطر منصور ، فسار إلى القيروان وحاصرها وحارب زيادة الله في كثير من المواقع التي انتهت بهزيمة منصور وهربه في (جمادى الآخرة سنة ٢٠٨ هـ) . وعزم زيادة الله على إنزال العقاب بأهل القيروان فنصحه أهل العلم والدين فعدل عن رأيه ، ولكنه هدم سور المدينة . ثم أرسل ابن أخيه محمد إلى مدينة سبيبة ، فحلت به الهزيمة . وقد أثار هذا الانتصار شجاعة منصور ، فحاصر القيروان من جديد وأقلق بال زيادة الله الذي ضعف أمره وتضاءلت ولايته ، حتى إنه لم يبق بيده سنة ٢٠٩ هـ غير قابس والساحل ونفزاوة وطرابلس [١] . وضرب منصور الطنبذي السكة باسمه .

ولم تنته هذه الثورة التي كادت تودي بدولة الأغالبة إلا في سنة ٢١١ هـ ، وذلك يرجع إلى قيام النزاع بين منصور الطنبذي وقائده عامر بن نافع الذي هاله ازدياد نفوذه واتساع رقعة البلاد التي دخلت في حوزته ، وأرغمه على الهرب إلى

---

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ١٢٣ .

الشرق ، ولم يلبث أن قبض عليه وحبسه ، ثم قتله واستولى على بلاده . على أن النزاع الذى قام بين أنصار منصور الطنبذى لم يقف عند هذا الحد ، بل لقد ازداد سوءاً بعد مقتل منصور ، حتى مات عامر بن نافع فى سنة ٢١٣ هـ واطمأن زيادة الله بن الأغلب من ناحية هؤلاء الثوار ، وعبر عن اغتباطه حين علم بوفاة عامر بقوله : « اليوم وضعت الحرب أوزارها » (١) .

فتح جزيرة صقلية :

فتحت جزيرة صقلية على يد زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب فى سنة ٢١٢ هـ ، وذلك فى عهد الخليفة المأمون . على أن اهتمام المسلمين بفتح هذه الجزيرة يرجع إلى عهد معاوية بن أبى سفيان حيث غزاها عبد الله بن قيس الفزارى من قبل معاوية ابن حديج والى إفريقية ، ولكن أقدام المسلمين لم تثبت فى هذه الجزيرة (٢) . ويقول النويرى (٣) إن محمد بن إدريس الأنصارى فتحها فى أيام يزيد بن عبد الملك وغنم منها غنائم كثيرة ، ثم غزاها بشر بن صفوان الكلبى فى أيام هشام بن عبد الملك (١٠٩ هـ) ، كما غزاها حبيب بن أبى عبيدة فى سنة ١٢٢ هـ ، واستولى على سرقوسة على الساحل الشرقى للجزيرة ، ثم عاد إلى إفريقية محملا بالغنائم . ثم غزاها عبد الرحمن فى سنة ١٣٠ هـ ، غير أن أقدام المسلمين لم تكد تثبت إلا فى عهد الأغالبة .

روى المؤرخون الذين تناولوا الكلام على فتح صقلية أن السبب المباشر لفتحها فى عهد زيادة الله بن الأغلب على إفريقية ، أن امبراطور القسطنطينية ميخائيل الثانى ولى عليها قسطنطين البطريق ، فأرسل يوفيميوس (Euphemius) فى أسطول نهب ساحل إفريقية ، ثم غضب عليه الإمبراطور إذ نمى إليه أنه اختطف راهبة من هناك ، ففر إلى سرقوسة الواقعة على ساحل صقلية الشرقى وثار فى

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب : جـ ١ ص ٩٤ — ٩٥

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٤٤

(٣) المكتبة الصقلية جـ ١ ص ٤٢٦ .

وجه حاكم الجزيرة . ولما رأى أنه لاطاقة له بجيوش الإمبراطور وأساطيله ، لجأ إلى زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقية ، واستغاث به وهون عليه فتحها ، فجهز زيادة الله جيشاً وأسطولا يتألف من مائة مركب بقيادة أسد ابن الفرات قاضى القيروان [1] .

ولما وصل جيش زيادة الله إلى صقلية ، قامت الحرب بين المسلمين ويوفيميوس من ناحية وبينهم وبين حاكم الجزيرة من ناحية أخرى ، وانتهت هذه المعارك بهزيمة الروم . وعلى الرغم مما لحق المسلمين من الهزائم ووفاة أسد بن الفرات وهو على حصار مدينة سرقوسة فى سنة ٢١٣ هـ ، ولى المحاربون عليهم محمد بن أبى الجوارى ، واستطاع المسلمون أن يستولوا على كثير من الحصون كحصن ميناو وجرجنت . أما يوفيميوس فقد سار إلى مدينة قصريانة وانقلب على المسلمين فيها ، فثاروا عليه وقتلوه . ولكن المسلمين لم يستطيعوا التوغل فى هذه الجزيرة حتى جاءتهم سفن من الأندلس كانت متجهة نحو بلاد الروم بقيادة قرغلوش ، فطلب المسلمون منه المعونة . فأجابهم إلى طلبهم ، واستولوا على مدينة ميناو ، ولكنهم اضطروا إلى الرحيل عنها ، وانتشر الوباء فيهم ، ومات القائد الأندلسى وكثير من جند المسلمين ، وعاد الأندلسيون إلى بلادهم (سنة ٢١٥ هـ) [2] .

وقد طال حصار المسلمين لمدينة بلرم ، فبدأ فى شهر جمادى الآخرة سنة ٢١٥ هـ وانتهى بفتحها سنة ٢١٦ هـ . وفى سنة ٢١٩ هـ سار المسلمون إلى قصريانة ، ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليها ، وكانوا يعودون إليها مرة بعد أخرى ، ثم يرتدون عنها فيحاولون الاستيلاء على غيرها من المدن مثل طبرمين وقسطلياسة ، وعلى بعض الحصون المحيطة بجبل النار وغيرها ، وظلوا على ذلك إلى أن مات زيادة الله بن الأغلب سنة ٢٢٣ هـ [3] . ولم يستطع المسلمون الاستيلاء

---

(١) المكتبة الصقلية ج ٢ ص ٤٢٧ — ٤٢٩ عن كتاب نهاية الأرب للنويرى .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٩٦ — ٩٧ .

(٣) ابن الأثير ج ٦ ص ١٢٤ — ١٢٥ ، ١٢٧ .

على الجزيرة كلها برغم ما كان يصلهم من الأمداد من إفريقية . وكانت سرقوسة آخر معقل وقع فى أيديهم فى عهد إبراهيم الثانى الأغلبى سنة ٢٦٤ ﻫ .

محمد الأول (٢٢٦ — ٢٤٢ ﻫ) .

ولما مات زيادة الله الأول سنة ٢٢٣ خلفه أخوه أبو عقال ، وكان ثالث أبناء إبراهيم بن الأغلب الذين ولوا إمارة الأغالبة بعده على التوالى . وكان أبو عقال أحسن سيرة من أخويه ، لأنه « أجزل على العمال أرزاقا واسعة وصلات جزلة ، وقبض أيديهم عن الرعية ، فقطع النبيذ عن القيروان ، وعاقب على بيعه وشربه » . ولم يحدث فى عهده مايستحق الذكر إلا هذه الثورة التى أذكت نيرانها قبائل لواتة ومكناسة وزواغة من البربر ، فقضى عليهم عيسى بن ريعان الأزدى قائد الأغالبة ، وانتصر عليهم فى موقعة حاسمة بين قفصة وقسطيلية . وتوفى أبو عقال فى شهر ربيع الآخر سنة ٢٢٦ ﻫ بعد أن حكم سنتين وتسعة أشهر وأياماً ، وهو فى الثالثة والخمسين من عمره ، فخلفه ابنه أبو العباس محمد الأول .

كان أبو العباس (٢٢٦ — ٢٤٢ ﻫ) من أطول أمراء الأغالبة عهداً . وقد تخللت عهده حوادث كثيرة كان أشدها خطراً اغتصاب أخيه أحمد الإمارة منه ، وذلك أن أحمد تواعد مع جملة من الموالى إلى موضع ، فتوافوا هناك وقت الظهيرة فقصدوا إلى مدينة القصر القديم ، وقد خلا الباب من الرجال ، فدخلوا منه وأغلقوه ثم أغلقوا الأبواب الأخرى ، وهجموا على أبى عبد الله بن على بن حميد الوزير فأمر أحمد بن الأغلب فضربت عنقه . ووقع القتال بين رجال محمد بن الأغلب ورجال أخيه أحمد ، وجعل أصحاب أحمد يقولون لأصحاب محمد : مالكم تقاتلوننا ؟ نحن فى طاعة محمد بن الأغلب ، إنما قمنا عن أولاد على بن حميد الذين أفقروكم واستولوا على أموال مولاكم دونكم ، وأما نحن ففى الطاعة . فلما سمعوا ذلك عدلوا عن القتال . ولما نظر محمد مادهمه من غير استعداد ، قعد فى مجلسه الذى يقعد فيه للعامة ، وأذن لأخيه أحمد ومن معه فى الدخول عليه فدخلوا بسلاحهم فكانت بينهم معاتبة ، ثم حلف كل منهما على ألا يغدر بصاحبه ،

واصطلحا . واستقامت الأمور لأحمد بن الأغلب إلا اسم الإمارة فقط .

وقبض أحمد على من شاء ، واصطفى من أراد ، وعذب من أحب ، وأعطى الرجال وجبى الأموال ، واستوزر نصر بن حمزة . وفى سنة ٢٣٢ هـ ظفر محمد ابن الأغلب بأخيه أحمد وحبسه ، واسترد سلطانه بمساعدة جماعة من بنى عمه ومواليه . ثم دخل المدينة ، وحارب أخاه ، وأطلق من كان فى حبسه واستعان بهم ، ووصل أهل القيروان بالأموال والكسى ، ثم نفى أخاه أحمد (١) إلى المشرق فمات بالعراق (٢) .

من ذلك نرى أن قبض أحمد بن أبى عقال الأغلب على أخيه محمد الذى ولى الإمارة بعد أبيه ، لم يكن مصدره سخطه على الوزير ابن حميد والحد من نفوذه ، وإنما كان ذلك راجعاً إلى طمع أحمد وميله إلى الانفراد بالسلطة دون أخيه . ولولا انتصار محمد عليه لتحولت السلطة إلى أخيه بعد أن اغتصبها منه أكثر من سنة (٢٣١ — ٢٣٢ هـ) .

على أن محمداً الأول لم يكد ينتهى من ثورة أخيه أحمد عليه ، حتى فوجىء فى السنة التالية بثورة سالم بن غلبون أمير الزاب ، وكان قد عزله عن إمارتها ، فأضمر له الخلاف ، وقصد القيروان ، وقامت الحرب بينه وبين محمد الأول ، ودارت الدائرة على سالم وقتل . وفى سنة ٢٣٤ هـ خرج على محمد الأول عمر بن سليم التجيبى الذى تفاقم شره ، ولم يستطيع ابن الأغلب القضاء عليه إلا فى سنة ٢٣٦ هـ ، وقتله ، ودخل مدينة تونس واستولى عليها من أنصار التجيبى (٣) :

ولما فرغ محمد الأول من هذه الثورات تفرغ للاستيلاء على جزيرة صقلية ، واهتم بهذه الحرب اهتماماً جعله فى مرتبة الجهاد ضد الروم ، فولى العباس بن الفضل

---

(١) يلاحظ أن أحمد هذا الذى مات فى العراق هو أحمد بن أبى عقال الأغلب ، وهو غير أحمد ابن محمد الأول الذى ولد بعد أبيه محمد الأول .

(٢) ابن عذارى ج ١ ص ١٠١ — ١٠٢ .

(٣) بن الأثير ج ٧ ص ١٥ — ١٦ .

الفزارى تتمة الفتح : ففتح بين سنتى ٢٣٧ ، ٢٤٧ هـ قصريانة [١] وقطانية وسرقوسة ويظهر أن المسلمين كانوا يستولون على هذه المدن ثم لايلبثون أن يتخلوا عنهـا تحت ضغط الروم ، فكانت حرب المسلمين فى هذه الجزيرة ، كما يقولون ، حرباً مائعة غير ثابتة [٢] .

وفى سنة ٢٤٢ هـ توفى أبو العباس محمد بن الأغلب بعد أن حكم خمس عشرة سنة وثمانية أشهر واثنى عشر يوماً ، فخلفه ابنه إبراهيم (٢٤٢—٢٤٩ هـ) .

هكذا تأسست دولة الأغالبة فى إفريقية على يد إبراهيم بن الأغلب الذى اتخـذ مدينة القيروان حاضرة لدولته ، وتمتعت هذه الدولة باستقلال اسمى ، ولكنها مالبثت أن استقلت على مر الزمن استقلالا يكاد يكون تاماً ، بحيث لم يبق للخليفة العباسى سوى ذكر اسمه فى الخطبة ونقشه على السكة ، وظلت على ذلك إلى أن استولى الفاطميون عليها سنة ٢٩٦ هـ .

---

(١) قال أبو الفدا (المختصر فى أخبار البشر جـ ٢ ص ٣٨) إن قصريانة هى المدينة التى بهـا دار الملك بصقلية ، وكان الملك قبلها يسكن مرقوسة « يقصد سرقوسة » ، فلما أخذ المسلمون بعض الجزيره انتقل الملك إلى قصريانة لحصانتها ، ففتحها العباس فى سنة ٢٣٧ هـ . . وبنى بهـا مسجداً فى الحال ونصب فيها منبراً ، وخطب وصلى فيها الجمعة .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ، المكتبة الصقلية جـ ٤٣١ ـ ٤٣٣ .

دولة الأدارسة

فى مراكش

١٧٢ — ٣٧٥ / ٧٨٨ — ٩٨٥

أمراء الأدارسة[1]

	هجرية	ميلادية
إدريس	١٧٢	٧٨٨
إدريس الثانى	١٧٧	٧٩٣
محمد بن إدريس	٢١٣	٨٢٨
على بن محمد	٢٢١	٨٣٦
يحي الأول بن محمد	٢٣٤	٨٤٩
يحي الثانى بن محمد		
على الثانى بن عمر بن إدريس الثانى		
يحي الثالث بن القاسم بن إدريس الثانى		
يحي الرابع بن إدريس بن عمر	٢٩٢	٩٠٤
الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس	٣١٠	٩٢٢

(بربر مكناسة)

---

(١) Lane-Poole, Muhammadan Dynasties, p. 35

إدريس بن عبد الله (١٧٢ — ١٧٧ هـ) :

كانت موقعة فخ التى وقعت فى عهد الخليفة العباسى الهادى سنة ١٦٩ هـ بعيدة الأثر فى تاريخ العلويين ، فقد هرب منها رجلان كانا كالشجا فى حلق العباسيين : أولهما يحى بن عبد الله بن الحسن بن على الذى ثار فى بلاد الديلم فى عهد هارون الرشيد ، وثانيهما أخوه إدريس بن عبد الله الذى نجح فى إثارة أهالى المغرب الأقصى على العباسيين .

وفى سنة ١٧٢ هـ قامت دولة الأدارسة على يد المولى إدريس بن عبد الله العلوى الذى سار إلى بلاد المغرب الأقصى مع مولاه راشد بعد أن بطش العباسيون بأهل البيت العلوى فى موقعة فخ . وقد استقبلته قبيلة أوربه (بفتح الألف وسكون الواو وفتح الراء والباء) البربرية التى لقى منها العون والتأييد فى تأسيس دولة الأدارسة التى كانت أول دولة مستقلة عملت جهدها على نشر الإسلام فى ربوع هذه البلاد . ثم وفدت على إدريس قبائل زناتة وزواغة ومكناسة وغيرها ودخلوا فى طاعته ، فقويت شوكته ، وامتدت رقعة بلاده حتى شملت الأراضى التى تقيم فيها قبائل زناتة وغيرها من القبائل المنتشرة من القيروان وتمتد إلى المحيط الاطلسى[٢] .

وقد خشى هارون الرشيد تفاقم خطر إدريس ومحبة الناس له ، واتصل به أنه عزم على غزو إفريقية ، فعمل على التخلص منه ، وفكر فى إنفاذ جيش كثيف للقضاء عليه . ولكنه عدل عن ذلك لبعد الشقة ووعورة الطريق ، فأشار عليه يحى البرمكى بأن يبعث إليه برجل معروف بالدهاء يحتال لاغتياله . فبعث الرشيد سليمان بن جرير ، ويعرف بالشماخ ، وكان من موالى المهدى ، وزوده بكتاب إلى واليه على إفريقية . فأذن له هذا الوالى باجتياز حدود ولايته والمسير إلى المغرب الأقصى حيث التقى بإدريس ، وذكر له أنه متطبب ، وتظاهر بالتشيع لآل

---

(١) على جبل زرهون بقرب مكناس ، وكانت مدينة حصينة كثيرة الأشجار والزيتون ولها سور عظيم (السلاوى ج ١ ص ٦٨) .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٦٧ — ٦٩ .

البيت ، فأكرمه وقربه إليه . ثم تحين الشماخ الفرصة لقتل إدريس ، وقد قيل إنه دس له السم فى قارورة ملأى بالطيب ، وقيل إنه سمه فى مسواك قدمه إليه ، وكان إدريس يشكو من ألم فى أسنانه ولثته . وقيل إنه قدم له عنباً مسموما . ولما تحقق الشماخ من الغرض الذى أتى من أجله ، هرب وقدم على إبراهيم بن الأغلب ، فأخبره بما فعل ، وجاءته بعد مقدمه الأخبار بموت إدريس ، فكتب ابن الأغلب إلى الرشيد بذلك ، فولى الشماخ بريد مصر وأخبارها(١) .

إدريس الثانى (١٧٧ — ٢١٣ هـ) :

وكان لإدريس أمة بربرية حامل تدعى كنزة ، فانتظر أشياعه حتى وضعت بعد موته بشهرين ولداً ذكراً أسموه إدريساً . وهو إديس الثانى مؤسس مدينة فاس ويعتبر المؤسس الحقيقى لدولة الأدارسة .

ولما بلغ إدريس الثانى الحادية عشرة من عمره ، بايعه البربر فى غرة ربيع الأول سنة ١٨٨ هـ بمدينة وليلى ، فخطب الناس فقبلوا يده وبايعوه ، ثم بايعته كافة قبائل المغرب ، ومن بينها زناتة وأوربة وصنهاجة والمصامدة . ثم شرع فى بناء مدينة فارس سنة ١٩٢ هـ ، فتم بناؤها فى السنة التالية واتخذها إدريس حاضرة لدولته .

وقد وجه إدريس همه لمحاربة الصفرية من الخوارج ، وأحل بهم الهزيمة(٢) وضرب السكة باسمه . ويقول ابن الأثير (ج ٦ ص ٥٦) إن إبراهيم بن الأغلب أراد قتال إدريس ، فنهاه أصحابه وقالوا له : أتركه ما تركك ، فكتب إليه إدريس يذكر له قرابته من رسول الله ، فكف عنه .

توفى إدريس الثانى فى شهر جمادى الآخر سنة ٢١٣ هـ وهو فى السادسة والثلاثين من عمره ، فخلفه ابنه محمد بن إدريس . وفى عهده انقسم أمراء هذا البيت

---

(١) الطبرى ج ١٠ ص ٢٩ .
أنظر ما ذكرناه فى ١٤١ — ١٤٢ .
(٢) السلاوى : ج ١ ص ٧١ — ٧٤ .

على أنفسهم ، فخرج عليه عيسى بن إدريس بمدينة آزمور ونبذ طاعته ودعا لنفسه ، فاستعان محمد بأخيه القاسم صاحب طنجة فأبى ، فكتب إلى أخيه الثانى عمر صاحب مكناس ، فامتثل أمره ، وسار لقتال عيسى على رأس جيش من البربر ، وأوقع به الهزيمة وطرده وأقره على عمل أخيه ، وأمره بقتال أخيه القاسم ، فزحف إلى ظاهر طنجة ، وأحل به الهزيمة واستولى على ما بيده من البلاد الممتدة على ساحل البحر حتى مدينة طنجة .

ولم يلبث أن توفى محمد فى شهر ربيع الثانى سنه ٢٢١ هـ ، فخلفه ابنه على بن محمد (٢٢١ — ٢٣٤ هـ) ، وكان فى التاسعة من عمره ، ولقب حيدرة ، وهو لقب على بن أبى طالب . ولم يذكر لنا المؤرخون كثيراً عن دولة الأدارسة فى عهد على ابن محمد الذى توفى فى شهر رجب سنة ٢٣٤ هـ ، وخلفه أخوه يحى بن محمد الذى يذكر ابن خلدون[١] أنه قام بالأمر ، وامتد سلطانه ، وعظمت دولته ، وحسنت آثاره ، واستبحر عمران فاس فى عهده ، وبنيت بها الحمامات والفنادق ، وبنيت خارجها الأرباض ، ورحل إليها الناس من البلاد المغربية . وسنوالى الكلام على الأدارسة التى زالت دولتهم على أيدى الفاطميين فى القرن الرابع الهجرى فى الجزء الثالث من هذا الكتاب

وقد قامت دولة الأدارسة بدور هام فى نشر الإسلام فى ربوع المغرب . وكان لانتسابهم إلى الرسول الكريم أثر كبير فى توحيد القبائل المتعادية وتأييد الأهلين لهم بعد أن كادت فتن الخوارج تمزق شملهم . واستطاع المولى إدريس لأول مرة أن يوحد بين إقليم السهول الساحلية (المغرب الأقصى) وإقليم المراعى ، أى بين إقليم الحضارات القديمة وإقليم البداوة ، كما استطاع الأدارسة بفضل هذه الوحدة أن يوجهوا أنظارهم إلى حركة جهاد مقدس بقصد إتمام نشر الإسلام فى البلاد ومحاربة العقائد الشاذة والقضاء على بقايا اليهودية والنصرانية بين قبائل المغرب . وقد جاوز نفوذ الأدارسة منطقة المغرب الأقصى إلى الصحراء الكبرى التى تفصل بلاد المغرب عن إقليم السودان[٢] .

---

(١) العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٤ ص ١٥ .

(٢) الجزنائى : زهرة الآس فى بناء مدينة فاس (فاس ١٩٢٢) ص ٢٢ .

٤ — مع بلاد الأندلس [١] :

(١٣٨ — ٤٢٢ / ٧٥٦ — ١٠٣١)

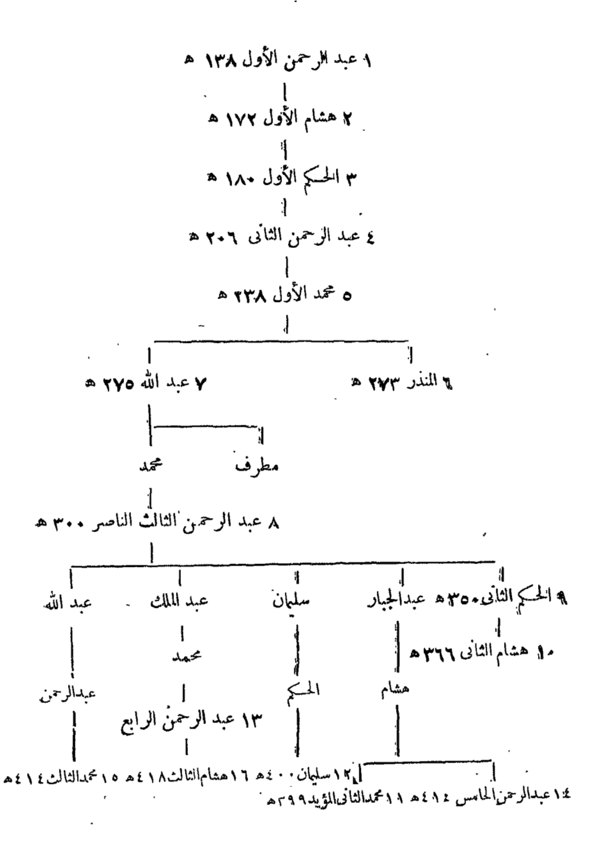
هجرية	ميلادية		هجرية	ميلادية	
١٣٨	٧٥٦	١ عبد الرحمن الأول	٤٠٠	١٠١٠	١٤ محمد الثانى (للمرة الثانية)
١٧٢	٧٨٨	٢ هشام الأول	٤٠٣	١٠١٣	١٥ سليمان (للمرة الثانية)
١٨٠	٧٩٦	٣ الحكم الأول	٤٠٧	١٠١٦	١٦ على بن حمود [٢]
٢٠٦	٨٢٢	٤ عبد الرحمن الثانى	٤٠٨	١٠١٨	١٧ عبدالرحمن الرابع المرتضى
٢٣٨	٨٥٢	٥ محمد الأول	٤٠٨	١٠١٨	١٨ القاسم بن حمود
٢٧٣	٨٨٦	٦ المنذر	٤١٢	١٠٢١	١٩ يحي بن على
٢٧٥	٨٨٨	٧ عبد الله	٤١٣	١٠٢٢	٢٠ القاسم (للمرة الثانية)
٣٠٠	٩١٢	٨ عبد الرحمن الثالث	٤١٤	١٠٢٣	٢١ عبدالرحمن الخامس المستظهر
		(الخليفة الناصر)	٤١٤	١٠٢٤	٢٢ محمد الثالث المستكفى
٣٥٠	٩٦١	٩ الحكم الثانى المستنصر	٤١٦	١٠٢٥	٢٣ يحي (للمرة الثانية)
٣٦٦	٩٧٦	١٠ هشام الثانى المؤيد	٤١٨	١٠٢٧	٢٤ هشام الثالث المعتمد
٣٩٩	١٠٠٩	١١ محمد الثانى المؤيد	٤٢٢	١٠٣١	
٤٠٠	١٠٠٩	١٢ سليمان المستعين			

(دول صغيرة)

(١) Lane-Poole : Muhammadan Dynasties, pp. 21—22, 23.

(٢) من أسرة الحموديين فى سبتة ، راجع المصدر نفسه ص ٢٣

جدول يمثل نسب الأمويين فى قرطبة



عبد الرحمن الداخل (١٣٨ — ١٧٢ هـ) :

أخذ سلطان العباسيين يتقلص عن بلاد الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية فى دمشق . وقد قام النزاع بين المضرية واليمنية فى هذه البلاد ، فتولى أبو الخطار عليها فى سنة ١٢٥ هـ ، فقام فى وجهه الصُّميل (بضم الصاد مع التشديد وفتح الميم وسكون الياء) بن حاتم ، وكان مضرياً ، وخلعه وأسره وولى عليهم واحداً منهم (سنة ١٢٧ هـ) . ولكن هذا الوالى الجديد ، أو الثائر بعبارة أدق ، توفى بعد سنتين ، فأراد أهل اليمن إعادة أبى الخطار ، وافترقت الكلمة : فأقامت الأندلس أربعة أشهر بغير أمير . فلما تفاقم الأمر ، اتفق رأيهم على يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة الفهرى ، وكان مضريا ، فولها سنة ١٣٩ هـ . فاستقر بينهم الأمر على أن يلى سنة ، ثم يرد الأمر إلى اليمن ، فيولون من أحبوا من قومهم . فلما انقضت السنة أراد أهل اليمن أن يولوا رجلا منهم ، فهم الصميل فقتل منهم خلقاً كثيراً ، واجتمع الناس على يوسف ، ولم يعترض أحد . وظل يوسف على ولاية الأندلس إلى أن غلب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام .

ظلت الحال على ذلك حتى زالت الدولة الأموية ، وتعقب العباسيون أفراد البيت الأموى ومثلوا بهم ، فأتيحت الفرصة لأحد أمراء هذا البيت ، وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، الذى أفلت من أيدى العباسيين ، وهرب إلى بلاد الأندلس حيث أسس فيها الدولة الأموية التى أصبحت حضارتها منبعاً لحضارة أوربا الحديثة .

وقد وصف عبد الرحمن كيفية نجاته من العباسيين وهربه إلى الأندلس فقال : « لما أعطينا الأمان ، ثم نكس بنا بنهر أبى فطرس ، وأبيحت دماؤنا ، أتانا الخبر . وكنت منتبذاً من الناس ، فرجعت إلى منزلى آيساً ونظرت فيما يصلحنى وأهلى وخرجت خائفاً حتى صرت إلى قرية على الفرات ذات شجر وغياض . فبينا أنا ذات يوم بها ، وولدى سليمان يلعب بين يدى ، وهو يومئذ ابن أربع سنين ، فخرج عنى ، ثم دخل الصبى من باب البيت باكياً فزعا ، وجلعت أدفعه وهو يتعلق

بى . فخرجت لأنظر ، وإذا بالخوف قد نزل بالقرية ، وإذا بالرايات السود منحطة عليها ، وأخ لى حدث السن يقول لى النجاء النجاء ! فهذه رايات المسودة . فأخذت دنانير معى ونجوت بنفسى وأخى ، وأعلمت إخوتى بمتوجهى ، فأمرتهن أن يلحقنى مولاى بدر . وأحاطت الخيل بالقرية فلم يجدوا لى أثراً . فأتيت رجلا من معارفى ، وأمرته فاشترى لى دواب وما يصلحنى ، فدل على عبد الله العامل فأقبل فى خيل له يطلبنى . فخرجنا على أرجلنا هرابا ، والخيل تبصرنا ، فدخلنا فى بساتين على الفرات ، فسبقنا الخيل على الفرات فسبحنا . فأما أنا فنجوت ، والخيل ينادوننا بالأمان ولا أرجع ، وأما أخى فإنه عجز عن السباحة فى نصف الفرات ، فرجع إليهم بالأمان وأخذوه فقتلوه ، وأنا أنظر إليه ، وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، فاحتملت فيه ثكلا ومضيت لوجهى ، فتواريت فى غيضة أشبه ، حتى انقطع الطلب عنى ، وخرجت فقصدت المغرب فبلغت إفريقية » (١) .

لقى عبد الرحمن كثيراً من الصعاب فى طريقه إلى الأندلس ، فقد اشتد فى طلبه عبد الرحمن بن حبيب الفهرى والى إفريقية وأبو يوسف الفهرى أمير بلاد الأندلس ، فهرب إلى مكناسة إحدى قبائل البربر ، فلقى منهم كثيراً من الشدائد ، فتسلل جماعة من زناتة فأحسنوا إليه ، وقيل إنه قصد أخواله فى نفزاوة فأكرموه ، ثم أخذ يراسل الأمويين فى الأندلس ويدعوهم إلى نفسه ويمنيهم الأمانى الطيبة ، واستعان فى ذلك بغلامه بدر . واستغل عبد الرحمن سوء حال بلاد الأندلس التى مزقتها الانقسامات والقحط ؛ فأوقع بين المضرية واليمنية فيها ، واستطاع أن يدخل هذه البلاد فى شهر ربيع الأول سنة ١٣٨ هـ . كما استطاع بعد قليل أن يجذب إليه قبائل اليمن ، وكانت تحنق على يوسف الفهرى . وما زال يستولى على بلاد الأندلس مدينة تلو مدينة حتى دخل قرطبة وقضى على نفوذ واليها يوسف الفهرى(٢) .

ولكن أبا جعفر المنصور لم يهدأ باله من ناحية عبد الرحمن الداخل ، فعمل

---

(١) ابن الأثير : ج ٥ ص ١٩٨ — ١٩٩ .

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٥٥ — ١٥٦ .

على القضاء عليـه . ويقول ابن الأثير (١) عند كلامه على حوادث سنة ١٤٦ هـ : إن العلاء بن مغيث اليحصبي (بفتح اليـاء الأولى وسكون الحاء وضم الصاد) صار من إفريقية إلى إحدى مدن الأندلس ، ولبس السواد ، واجتمع إليه خلق كثير . فخرج إليه عبد الرحمن الداخـل الأموى ، فالتقيا بنواحى إشبيلية ، فانهزم العلاء وأصحابه ، وقتـل هو وسبعة آلاف . وأمر عبـد الرحمن بعض التجار بحمـل رأسه ورءوس جماعة من مشاهير أصحابه إلى القيروان وإلى مـكة ، وكان بها أبو جعفر المنصور .

ولا شك أن انسلاخ بلاد الأندلس عن الدولة العباسية قد فت فى عضـدها . ولم يتمـكن أبو جعفر المنصور من إعادة سلطان العباسيين إلى هـذه البلاد ، فعمل على استمالة عبد الرحمن وأرسل إليه الرسل . وكثيراً ما كان يظهر إعجابه به وبمقدرته ، وبعزيمته التى جعلته وهو شريد طريد يستطيع أن يؤسس هـذا الملك الواسع فى تلك البلاد البعيدة .

وقد ذكر المؤرخون أن أبا جعفر المنصور قال لأصحابه : « أخبرونى عن صقر قريش من هو ؟ قالوا : أمير المؤمنين الذى راض الملك وسكن الزلازل وحسم الأدواء وأباء الأعداء . قال : ما صنعتم شيئاً ، قالوا : فمعاوية . قال : ولا هذا . قالوا : فعبد الملك بن مروان ، قال : ولا هذا ، قالوا فمن يا أمير المؤمنين ؟ قال : عبد الرحمن ابن معـاوية الذى عبر البحر ، وقطع القفر ، ودخـل بلداً أعجمياً مفرداً ، فمصر الأمصار ، وجند الأجناد ، ودون الدواوين ، وأقام ملـكاً بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمته . إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذللا صعبه ، وعبد الملك ببيعة تقوم لها عقدها ، وأمير المؤمنين يطلب غيره واجتماع شيعته ، وعبد الرحمن منفرد بنفسه ، مؤيد برأيه ، مستصحب لعزمه » (٢) .

وكثيراً ما كان أبو جعفر المنصور يشيد بذكر عبد الرحمن الداخـل ويعدله بنفسه ويقول : « لا تعجبوا لامتـداد أمرنا مع طول مراسه وقوة أسبابه :

---

(١) الـكامل فى التاريخ ج ٥ ص ٢٢٣ .
(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٠١ — ٢٠٢ .

فالشأن فى أمر فتى قريش الأحوذى الفذ فى جميع شئونه ، وعدمه لأهله ونسبه ، وتسليه عن جميع ذلك ببعد مرهقى همته ومضاء عزيمته ، حتى قذف نفسه فى لجج المهالك لابتناء مجده ، فاقتحم جزيرة شاسعة المحل ، نائية المطمع ، عصبية الجند . ضرب بين جندها بخصوصيته ، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته ، واستمال قلوب رعيتها بقضية سياسته ، حتى انقاد له عصيهم وذل له أبيهم . فاستولى فيها على أريكته ، ملكاً على قطيعته، قاهراً لأعدائه ، حامياً لذماره ، مانعاً لحوزته ، خالطاً الرغبة إليه بالرهبة منه . إن ذلك لهو الفتى كل الفتى لا يكذب مادحه »(١) .

ولما لم يظفر المنصور بشىء من وراء هذه السياسة ، طرق باب « ببين » ملك الفرنجة رغبة فى مساعدته على عبد الرحمن الداخل ، فأرسل إليه سفراء أقاموا فى بلاطه عدة سنين ، ثم عادوا إلى المنصور يصحبهم سفراء الفرنجة . ثم عاد هؤلاء إلى ببين محملين بهدايا الشرق النفيسة ، دون أن تؤدى هذه المفاوضات إلى شىء سوى ما ولدته فى نفس عبد الرحمن الداخل من خوف هجوم الفرنجة على بلاده (٢) . وبذلك لم يحاول إظهار عدائه الحربى للخليفة العباسى . لذلك نرى المنصور ، وإن كان لم ينجح فى القضاء على عبد الرحمن الداخل فى الناحية الحربية ، قد نجح إلى حد بعيد فى الناحية السياسية ، ووضع أساس هذه السياسة التى سار عليها أبناؤه من بعده .

وكانت الدول تهاب الدولة الإسلامية فى عهد المهدى العباسى لعظمتها وقوة سلطانها ، إلا ما كان بين العباسيين والأمويين فى الأندلس . فقد كان المهدى يضمر العداء لعبد الرحمن الداخل كما كان أبوه المنصور من قبل ويود إزالة دولته . ولكنه كان يحجم عن تجريد الجيوش إلى بلاده ، لبعد الشقة ووعورة الطريق ، وإتعاب جنده بالمسير فى صحراء إفريقية ، وقوة عبد الرحمن الذى فكر فى انتزاع بلاد الشام من العباسيين ، لولا أن الحالة الداخلية فى بلاده تطلبت العدول

---

(١) المقريزى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٥٧ .

(٢) Muir, The Caliphate, pp. 460—461.

عن تحقيق هذه السياسة ، فاكتفى كل من الرجلين بمعاداة الآخر . وقد وجه الخليفة العباسى المهدى، عبد الرحمن بن حبيب الفهرى إلى بلاد الأندلس ، فسار من إفريقية ، وعبر البحر ، وكتب إلى سليمان بن يقظان ببرشلونة يحثه على الدخول فى طاعة العباسيين ، فلم يجب سليمان طلبه ، فثارت ثائرة الفهرى ، وأغار على بلده بجند كثيف من البربر . ولكن سليمان هزم الفهرى ، وطرد عبد الرحمن الداخل الفالة من جنده ، وأحرق سفنه ليحول بذلك دون هربه . على أن قائد المهدى تحصن بناحية بلنسية ، وصمد للأمويين وأوقع الرعب فى قلوبهم ، وبذل عبد الرحمن الداخل ألف دينار لمن يأتيه برأسه ، فاقتفى أثره رجل من البربر ، وتتبع خطواته حتى عثر عليه وقتله غيلة ، وحمل رأسه إلى أمير بلاد الأندلس . ولم تنجح سياسة المهدى فى إعادة هذه البلاد إلى الدولة العباسية (١) .

استقر عبد الرحمن بقرطبة ، وبنى بها القصر والمسجد الجامع ، وقطع الدعوة للعباسيين من منابر الأندلس ، وأثل بها ذلك الملك العظيم ، وجدد ما طمس لهم بالمشرق من معالم الخلافة وآثارها . وكان عبد الرحمن ينظر فى المظالم بنفسه وينصف الضعيف من القوى ، وكان إذا جاء وقت الطعام دعا إلى مائدته أصحابه ومن قصده من أصحاب الحاجات (٢) .

حكم عبد الرحمن بلاد الأندلس ثلاثاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر ، ومات فى سنة ١٧٢ هـ ، وخلف من الولد عشرين منهم أحد عشر ذكراً وتسع إناث ، وعاصر من الخلفاء العباسيين : المنصور ، والهادى ، والرشيد .

هشام الأول — الحكم الأول :

خلف عبد الرحمن ابنه هشام الأول (١٧٢ — ١٨٠ هـ) ، وأمه أم ولد تسمى حلل . وكان أبوه قد عهد إليه بالإمارة من بعده ، وولاه ماردة ، وأعده للحكم . وكان يأنس فيه الحزم ويثق به .

---

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ٢٢ — ٢٣ .

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٥٦ — ١٥٧ .

وقد شبهه المقرى (١) بعمر بن عبد العزيز فى عدله واهتمامه بشئون المسلمين ، حتى إنه قرب إلى الفقهاء الذين تمتعوا فى عهده بنفوذ عظيم وأصبحت له مكانة كبيرة فى الدولة . ومن أشهر هؤلاء الفقهاء يحيى بن يحيى الليثى الذى ينتسب إلى قبيلة المصامدة من البربر . وقد رحل إلى المشرق ، وأخذ العلم عن الإمام مالك بن أنس ، وروى عنه كتابه الموطأ ، وانتهت إليه الرياسة فى الفقه والحديث (٢) .

وكان هشام يبعث بثقاته إلى الكور يسألون الناس عن سير عماله ، فإذا انتهى إليه أن أحدهم ظلم أحداً عزله عن عمله وأنصف المظلوم . كما عين فى المدن عسسا لمنع الشجار وارتكاب الجرائم ، ورأى أن تقسم الغرامات المفروضة على الأشرار بين الأتقياء الذين لا يمنعهم مطر أو برد من غشيان المساجد . وكان يعود المرضى ، ويقود جيوشه بنفسه لمحاربة نصارى الشمال ، ولقبه الناس بالشفيق والعادل (٣) .

وكان هشام تقياً صالحاً ، صرف عهده فيما يعود على بلاده بالخير والرفاهية ، فجمّل مدينة قرطبة وزينها بالمبانى الفخمة والبساتين النضرة،وجدد القنطرة التى بناها السمح ابن مالك الخولانى عامل عمر بن عبد العزيز ببلاد الأندلس ، وأحكم هشام بناءها حتى أصبحت مضرب المثل فى إحكام البناء (٤) . كما أتم المسجد الذى أسسه أبوه ، وشيد غيره من المساجد فى أنحاء البلاد . وعنى بنشر اللغة العربية حتى أصبحت تدرس فى مدارس اليهود . وبلغ من تواضعه أنه كان يطوف فى شوارع قرطبة ، ويختلط برعيته ، وينظر فى المظالم بنفسه ، ويشهد الجنائز (٥) .

توفى هشام سنة ١٨٠ هـ ، بعد أن حكم سبع سنين وتسعة أشهر (وقيل ثمانى سنين) . « وكان — كما وصفه المقرى (٦) — من أهل الخير والصلاح ، كثير الغزو والجهاد » .

---

(١) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٦٠ .
(٢) المصدر نفسه جـ ١ ص ٣٣٢ — ٣٣٤ .
(٣) راجع : لينبول — ترجمة على الجارم ص ٦٧ .
(٤) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٠ .
(٥) Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, p. 242
(٦) نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٩ .

وولى الحكم الأول (١٨٠ — ٢٠٦ هـ) بعد أبيه هشام . وكان يختلف عن أبيه اختلافاً كبيراً ، فقد كانت سياسته ترمى إلى إقصاء الفقهاء عن التدخل فى شئون الدولة ، وقصر عملهم على إقامة الشعائر الدينية والفصل فى القضايا . فثارت ثائرتهم وأخذوا يسبونه ، وحرضوا العامة على العصيان . وزاد فى حنقهم اتخاذ الحكم المماليك المرتزقة حرساً له . فعاثوا فى الطرقات ، وثار المولدون والأسبان الذين اعتنقوا الإسلام فى قرطبة وطليطلة . وقاد ثورة قرطبة الفقهاء ، وعلى رأسهم يحى بن يحى الليثى ، وطالوت الفقيه ، فخلعوه وبايعوا أحد أفراد أسرته ، وكانوا بالربض الغربى من قرطبة ، فقاتلهم وأوقع بهم . ولذلك سمى « الحكم الربضى » . وهدم الحكم دورهم ومساجدهم ، فلحقوا بفاس من أرض العدوة ، وبالإسكندرية حيث نزل جمع منهم ، ثم ثاروا بها ، فسار إليهم عبد الله بن طاهر والى مصر من قبل المأمون وغلبهم ، وأجازهم إلى جزيرة إقريطش ، فلم يزالوا بها إلى أن ملكها الفرنجة (١) .

ويقص علينا المقرى (٢) هذه القصة الطريفة التى أدت إلى موقعة وادى الحجارة ، فيقول إن العباس الشاعر نزل بوادى الحجارة ، فسمع امرأة تقول : واغوثاه بك ياحكم ! لقد أهملتنا حتى كلب العدو علينا فأيمنا وأيتمنا ، فسألها عن ظلامتها فقالت : كنت مقبلة من البادية فى رفقة ، فخرجت علينا خيل عدو فقتلت وأسرت ، فنظم عباس بن ناصح الجزيرى قصيدته التى قال فى أولها :

تململتُ فى وادى الحجارة مسهداً ... أراعى نجوماً مايرون تغيرا
إليكَ أبا العاصى نضيتُ مطيق ... تسير بهم سارباً ومهجرا
تداركْ نساءَ العالمين بنصرة ... فإنك أحرى أنْ تغيثَ وتنصرا

فلما دخل العباس على الحكم أنشده هذه القصيدة ووصف ماساد هذه الأرجاء من خوف وهلع واستنجاد هذه المرأة به . فنادى بالجهاد ، وخرج بعد ثلاثة أيام إلى وادى الحجارة ومعه العباس الشاعر ، وسأل عن مكان العدو ، وغزاه وفتح

---

(١) المصدر نفسه والجزء والصفحة .

(٢) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٨٢ .

حصونه ، وخرب بلاده ، وقتل كثيراً من أهـــله ، ثم عاد إلى وادى الحجارة وأمر بإحضار الأسرى فقطعت رءوسهم ، ثم بعث فى طلب المرأة التى استغاثت به ، وقال للعباس الشاعر : سلها هل أغاثها الحـكم ؟ فقالت المرأة : والله لقـد شفى الصدور وأنـكى العدو ، وأغاث الملهوف ، فأغاثه الله ، وأعز نصره . فارتاح إلى قولها وظهر على وجهه البشر والسرور وقال :

ألم ترَ ياعباسُ أنّى أجبتها على البُـعْـدِ أقتادُ الخميسَ المظفرا ؟
فأدركتُ أوطاراً وبردت غُلة ونفست مكروبا وأغنيت مُعْسِرا

قال العباس : نعم ! جزاك الله خيراً عن المسلمين وقبل يده .

وقد خرج على الحـكم عماه واستوليا على طليطلة وبلنسية ، واستعان أحدهما بشرلمان ، فحاربهم الحـكم ، واسترد البـلاد التى استولوا عليها . واتخذ الأمراء المسيحيون فى الشمال من هذه الحروب الأهلية التى وقعت بين المسلمين فى بلاد الأندلس فرصة للاغارة على ولاية أرغونة . ولـكن الحـكم حاربهم وردهم على أعقابهم . كما ثار والى برشلونة أكبر معاقل المسلمين فى هذه البلاد واستعان بشرلمان ، فأرسل الحـكم جيشاً استردها .

ذكر ابن خلدون [1] أن الحـكم أول من جند بالأندلس الأجناد المرتزقة ، وجمع الأسلحة والعدد ، واستـكثر من الحشم والحواشى ، وارتبط الخيول على بابه ، واتخذ المماليك ، وكان يسميهم الخرس لعجمتهم ، وبلغت عدتهم خمسة آلاف . وكان يباشر الأمور بنفسه . وكان له عيون يطالعونه بأحوال الناس . وكان يقرب الفقهاء والعلماء والصالحين ، وهو الذى وطأ الملك لعقبة بالأندلس .

وقد أفاد « شارل مارتل » ملك الفرنجة من الخلاف الذى ساد بين العباسيين فى الشرق والأمويين فى بلاد الأندلس ، فتقرب إلى الخليفة المهـدى العباسى ليـكسب شيئاً من النفوذ فى بلاده ، ويهـدد بذلك منافسة إمبراطور الدولة البيزنطية . وقد جنى شرلمـان ثمار هذه السياسة فاكتسب محبة هارون الرشيد .

---

(١) العبر ج ٤ ص ١٢٧ .

وكانت العلاقة بينه وبين امبراطور الفرنجة تقوم على الود والصفاء ، بخلاف ما كانت عليه مع إمبراطور الدولة البيزنطية . فخطب شرلمان ود الرشيد ، وأرسل إليه وفداً مؤلفاً من رجلين من النصارى ورجل من اليهود ، لتسهيل سبيل الحج إلى بيت المقدس ، ونشر التجارة بين البلدين ، والحصول على علوم الشرق . كما رغب الرشيد فى محالفة شرلمان على امبراطور القسطنطينية وأمير الأندلس الأموى .

على أن هؤلاء السفراء وتلك الكتب لم تؤد إلى غرض مادى يذكر ، اللهم إلا ما كان من إرسال مفاتيح كنيسة بيت المقدس إلى شرلمان وتبادل الهدايا بينه وبين الرشيد . ولا غرو فقد أصبح شرلمان حامى المسيحيين الذين يفدون إلى هـذه البلاد لأداء فريضة الحج . ومع أنه لم ينظر إلى هذا الأمر بعين الاعتبار ، فقـد أدى ذلك إلى نتائج خطيرة فى المستقبل ، لأنه أكسب ملك الفرنجة حق حماية الأماكن المقدسة فى فلسطين .

وكان من بين الهدايا التى أرسلها الرشيد إلى شرلمان وأثارت إعجاب الناس فى بلاد الفرنجة ، ذلك الفيل الذى وصل إلى إكس لا شابل حاضرة إمبراطورية شرلمان ، وكان يسمى أبا العباس ، وتلك الساعة المائية الدقاقة التى ظنوا أنها آلة سحرية ، وغيرها من هدايا المشرق النادرة .

عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ — ٢٣٨ هـ) :

مات الحكم فى سنة ٢٠٦ هـ بعـد أن حـكم سبعا وعشرين سنة ، فخلفه إبنه عبد الرحمن الثانى . وقد ولد بطليطلة فى شهر شعبان سنة ١٧٦ هـ ، وعنى أبوه بتنشئته وتثقيفه ، فحذق علوم الشريعة والفلسفة . وسمى « الأوسط » لأن الأول هو عبد الرحمن الداخل ، والثالث عبد الرحمن الناصر . وامتاز عهده بالهـدوء والسكينة ، وكثرت الأموال فى خزائنه ، واتخـذ القصور والمتنزهات ، وجلب إلى قرطبة الميـاه من الجبال ، وأقام الجسور ، ونظم شوارع قرطبة ، وزاد فى بنـاء جامعها . كما أنشأ المساجد فى أكثر مدن الأندلس ، وجعل إلى جانب كل مسجد

مدرسه ومستشفى ، وأصلح الطرق الرومانية القديمة ، كما شجع العلوم والآداب والفلسفة ، فظهر فى بلاد الأندلس فى أيامه نوابغ العلماء من كل فن .

ولما استتب لعبد الرحمن الأوسط الأمر بالأندلس تفرغ لإصلاح البلاد ، فنمت ثروتها حتى نافست الدولة العباسية فى العظمة والنهضة العلمية . وقد انتقل كثير من التراث اليونانى والفارسى الذى استحوذ عليه العباسيون إلى قرطبة بفضل جهود عبد الرحمن الأوسط . وكان عبد الرحمن من أكثر أمراء الأندلس أبهة فى بلاطه . وقد امتازت حاشيته بكثير من الصفات العربية الكريمة . ويرجع الفضل فى ذلك إلى زرياب الذى قدم عليه من العراق فى سنة ٢٠٦ هـ وقد رحب به عبد الرحمن وبالغ فى إكرامه وأغدق عليه وأنزله داراً فخمة .

منح عبد الرحمن ومن جاء قبله من الأمراء الأمويين أهل بلاد الأندلس الحرية لإقامة شعائرهم الدينية . وكثيراً ما حارب المسيحيون مع المسلمين جنباً إلى جنب ، كما كانوا يعينون فى أرقى المناصب الحربية والسياسية . ومن ثم اعتنق كثير منهم الإسلام . وعلى الرغم من هذا التسامح الدينى الذى تمتع به أهل بلاد الأندلس ، أثار بعض القسس الفتنة فى أواخر عهد عبد الرحمن ، فحرضوا المسيحيين على سب النبى صلى الله عليه وسلم . ولما كان سب الدين جريمة يعاقب مرتكبها بالقتل ، أمر عبد الرحمن بقتل كثير من القسس وغيرهم . ومن هؤلاء يولوجيوس الذى أثار روح التضحية بين النصارى ، وساعده شاب غنى من أهل قرطبة يدعى ألفارو ، وقسيس آخر يدعى برفكتوس ، وغيره من متحمسى القسيسين والرهبان والنساء مثل فلورا (Flora) ، وكان أبوها مسلماً وأمها نصرانية [١] .

يقول لينبول [٢] « إن المسيحية لاتعلم دعاتها أن يطوحوا بحياتهم هدراً لمحض التمتع بالتعذيب والقتل . على أن نصارى الأندلس لم يضطهدوا ، ولم يحل بينهم وبين شعائر دينهم حائل . ولم يكن المسلمون يجهلون المسيحية أو يحتاجون

---

(١) راجع هذه الحوادث فى : Dozy, The Moslems iu Spain, pp, 278—281

(٢) ترجمة على الجارم ص ٧٧ .

إلى من يلقنهم تعاليمها ، فقد كانوا يعرفون من الكتاب المقدس أكثر من نصارى الأندلس أنفسهم . وكانوا لا يذكرون اسم عيسى من غير أن يتبعوه بالصلاة والتسليم ، لأن قدسية المسيح وإحاطة اسمه بالإجلال والتبجيل من أظهر مبادىء الإسلام .

ولما خشى رجال الكنيسة أن تنقلب هذه الحركة إلى اضطهاد حقيقى ، عقدوا مؤتمراً أصدر قراراً يحرم المجاهرة بسب النبى أو القرآن ، فهدأت الأحوال .

وكان المسيحيون يتكلمون العربية ويصنفون بها الكتب وينظمون بها الشعر ، كما تخلقوا بأخلاق العرب وعاداتهم . وقد ندد يولوجيوس نفسه بهذه الحال ، فقال إن النصارى نسوا لغتهم حتى إنه لم يوجد واحد فى كل ألف يكتب كلمة لاتينية صحيحة .

وفى عهد عبد الرحمن الأوسط أغار الفونس أمير ليون(١) ، كما أغار غيره من مسيحيي الشمال على البلاد الإسلامية الشمالية ، فأرسل عبد الرحمن إليهم جيوشاً خربت بلادهم وأرغمتهم على دفع الجزية . وبلغ من قوة المسلمين فى الأندلس فى عهد عبد الرحمن أن وفدت عليه فى سنة ٢٢٢ هـ (٨٣٦ م) رسل إمبراطور القسطنطينية بالهدايا وطلبوا إليه عقد معاهدة ، ورغبوه فى ملك آبائه بالمشرق . وكانت الدولة العباسية فى حلف مع شرلمان ثم مع ابنه لويس التقى . ومما يدل على حسن سياسة عبد الرحمن تحالفه مع مقاطعة نافار الواقعة شمالى البرانس لتكون حاجزاً بين بلاده وبلاد الفرنجة .

وكان عبد الرحمن الأوسط — كما وصفه لينبول(٢) — نقى الذوق لين الخلق سهل القياد ، ملك زمامه طول حياته أربعة نالوا عنده الحظوة الكاملة وهم : مغن ، وفقيه ، وامرأة ، وعبد أسود . وكان أشد هؤلاء تسلطاً عليه الفقيه يحيى بن يحيى الليثى(٣) ، وهو هو نفسه الذى أثار الفقهاء على أبيه الحكم ، ولكنه

---

(١) أو أستوريش فى شمال غربى الأندلس .

(٢) ترجمة على الجارم ص ٧٢ .

(٣) Dozy, The Moslems in Spain, p. 260

أصبح اليوم صاحب التأثير المطلق والكلمة التي لا ترد لدى الأمير الجديد . وكانت للأميرة « طروب » وعبده « نصر » سلطة نافذة في شئون الملك . أما « زرياب » المغني فإنه استغل حظوته عند عبد الرحمن في إنهاض الفنون والثقافة ، وأبى أن يزج بنفسه في أمور الدولة التي قد تكون سيئة المغبة .

ذكر الطبري[1] في حوادث سنة ٢١٠ هـ ، أن عبد الله بن طاهر طرد جماعة من الأندلس اتخذوا من وقوع الاضطرابات في مصر فرصة سانحة لهم ، فنزلوا الإسكندرية واستقروا فيها . فلما دخل عبد الله بن طاهر بن الحسين مصر ، أرسل إلى من كان بها من الأندلسيين ، وإلى من كان انضوى إليهم ، يؤذنهم بالحرب إن هم لم يدخلوا في الطاعة ، فأخبروه أنهم أجابوه إلى الطاعة وسألوه الأمان على أن يرتحلوا من الإسكندرية إلى بعض أطراف الروم التي ليست من بلاد الإسلام ، فأعطاهم الأمان على ذلك ، وأنهم رحلوا عنها ، فنزلوا جزيرة من جزائر البحر يقال لها إقريطش ، فاستوطنوها وأقاموا بها ، بقايا أولادهم إلى اليوم » .

ولكن فكرة فتح بلاد الأندلس وإعادتها إلى سلطان العباسيين قد شغلت خلفاءهم ، حتى إن المعتصم عزم على المسير إلى أقصى المغرب ، ليملك البلاد التي لم تدخل في ملك بني العباس لاستيلاء الأمويين عليها[2] .

وكان عبد الرحمن الأوسط نصيراً للعلوم والآداب والفنون ، وكان مولعا بالفلك والتنجيم . وقد أحاط نفسه بنخبة من علماء الفلك ، وأدر عليهم الأرزاق والمنح . وقد بعث في بداية عهده عباس بن نصيح (بضم النون وفتح الصاد وسكون الياء) إلى الشرق الإسلامي لينقل إليه الكتب التي استحوذ عليها المسلمون . وكان هذا الأمير مشغوفا بمطالعة الطب والفلسفة القديمة .

وقد حرص الأمويون منذ عهده على إحياء الدولة الأموية في الأندلس ، فأسس عبد الرحمن الداخل دولته وبنى مجتمعه وشجع التقاليد الإسلامية على غرار الدولة الأموية في سورية . وقد شجعه على بلوغ أمانيه ، ذلك التشابه الجغرافي بين الدولة

---

(١) ج ١٠ ص ٢٧٥ .

(٢) السيوطي تاريخ الخلفاء ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .

الأموية القديمة فى طرف البحر الأبيض المتوسط الشرقى ، والدولة الأموية الجديدة فى الطرف الغربى لهذا البحر . كما وجد الشعراء ذلك التشابه العظيم بين سهول الأندلس اليانعة وغوطة دمشق النضرة .

واحتفظ مسلموا الشرق الذين استوطنوا الأندلس بتقاليد أجدادهم ، ثم أخذت هذه التقاليد تتوائم مع عوامل البيئة الجديدة . بسبب اعتناق أهل الأندلس الإسلام واندماجهم مع العرب المسلمين عن طريق المصاهرة . وقد تكونت من الجماعات العربية التى جاءت لإحياء الخلافة الأموية ، طبقة الشاميين ثم طبقة العرب الذين حضروا الفتح أو جاءوا بعده مباشرة وكونوا طبقة البلديين (القوميين) .

وقد عاش هؤلاء المحاربون الذين ينتمون إلى أصل عربى فى أراضيهم الشاسعة التى قام على زراعتها السكان الأصليون الذين اعتنقوا الإسلام بعد قليل . وكان السواد الأعظم من هؤلاء الجند سوريا . لذلك أطلقوا على أحيائهم وقصورهم أسماء سورية . فنجد مثلا حى الرصافة الذى يذكرنا بقصر الرصافة فى صحراء تدمر .

وكان عهد الحكم الأول بن عبد الرحمن الداخل فترة هدوء سياسى لم يقع فيها من الأحداث السياسية مايستحق الذكر . وقد ساعد ذلك الهدوء على خلق نهضة علمية ، ولاسيما فى عهد عبد الرحمن الأوسط الذى يعتبر عهده عهد يسر ورخاء وازدهار ثقافى ، وذلك لتأثير الشرق الإسلامى فى العصر العباسى .

نعم إن العباسيين المعاصرين فى الشرق لم ينسوا ضياع هذا الإقليم المزدهر من أيديهم ، ولم يستطيعوا أن يؤثروا فيه سياسياً ، ولكنهم مع ذلك استطاعوا أن يؤثروا فيه اقتصادياً وثقافياً : فنجد نظام الحكم فى الأندلس يسير إلى حد كبير على وفق نظام الحكم الذى أخذه العباسيون عن الساسانيين فى بلاد الفرس ، ونجد بلاط الأمير الأموى فى الأندلس يتبع تقاليد البلاط العباسى الذى يتمشى مع تقاليد الأسرة الساسانية ، كما نجد هذا الأمير يتخذ بيت المال وديوان الخاتم وديوان الطراز على غرار نظام المسلمين فى الشرق . ونراه أيضاً يؤسس المصانع التى تنتج المنسوجات التى أصبحت تحاكى منسوجات العباسيين ، إلى غير ذلك من التقاليد التى صار عليها خلفاؤه من بعده ، وأدخلوا عليها بعض التعديلات التى اكسبتها طابعها الاسبانى .

ويصف المؤرخ الأندلسى أحمد الرازى فى مخطوطه ليفى بروفينسال عصر الحكم الأول وعبد الرحمن الأوسط ، فيذكر أن عبد الرحمن الأوسط قسم وقته بين رعاية تعمير قرطبة وتجميلها وبين الصيد بالباز فى سهول الوادى الكبير ، وبين المجتمعات الأدبية والموسيقية ، مما يدل دلالة قاطعة على أنه وضع نظام الدولة الأموية فى الأندلس قبل عبد الرحمن الثالث الناصر بنحو قرن ، وكان يرسل رسله إلى الشرق الإسلامى فيصفون له نظام الحكم عند العباسيين ، فلا يتردد فى قبوله برغم ذلك العداء التقليدى الذى قام بين بنى أمية وبنى هاشم منذ أيام الجاهلية ولم يزده الإسلام إلا تفاقماً وازدياداً (١) .

٤ — مع البيزنطيين :

لم تنقطع الحرب بين العرب والروم منذ ظهور الإسلام . فقد حاول العرب الاستيلاء على القسطنطينية ثلاث مرات : المرة الأولى فى عهد عثمان بن عفان ، والثانية فى عهد معاوية بن أبى سفيان ، والثالثة فى عهد سليمان بن عبد الملك .

وقد أضعفت الحروب الأهلية قوة العرب فى أواخر الدولة الأموية ؛ فاتخذ قسطنطين الرابع إمبراطور الدولة البيزنطية من هذه الاضطرابات فرصة سانحة لشن الغارة على البلاد الإسلامية المتاخمة لبلاده .

ولما انتقل الحكم إلى العباسيين تغيرت وجهة الحرب بين العرب والبيزنطيين ، وأصبحت عبارة عن غارات الغرض منها الهدم والتخريب وإتلاف النفس والمال . وهذا يخالف ما كانت عليه الحال فى أيام الأمويين الذين كانت لهم سياسة مرسومة لمحاربة البيزنطيين ابتغاء احتلال القسطنطينية ، ولاشك أن السبب فى ذلك يرجع إلى عاملين هامين :

أولهما : مناوأة أهالى بلاد الشام للعباسيين ، لأنهم كانوا لايزالون على ولائهم للأمويين ، حتى إن عبد الرحمن الداخل فكر فى إعادة هذه البلاد إلى سلطان الأمويين ، واعتمد فى تحقيق سياسته على ولاء أهالى الشام لبنى أمية .

---

(١) بروفنسال الشرق الإسلامى والحضارة العربية ص ١٨ — ١٩ .

وثانيهما : عدم اهتمام العباسيين بإنشاء أسطول قوى فى البحر الأبيض المتوسط يضارع أسطول الأمويين من قبل ، واعتمادهم على الجيوش البرية دون القوات البحرية

وقد بدأ البيزنطيون يشنون إغاراتهم على أراضى الدولة العباسية فى عهد أبى جعفر المنصور. فغزا قسطنطين الرابع بعض أراضى الشام سنة ١٣٧ هـ ، واستولى على ملطية وخرب حصونها . غير أن العرب تمكنوا من استردادها فى السنة التالية ورمموا حصونها وأقاموا فيها حامية كبيرة . ويقول ابن الأثير[١] عند كلامه على حوادث سنة ١٣٩ هـ : وغزا مع صالح بن على (العباسى) أختـــاه أم عيسى ولبابة [٢] بنتا على ، وكانتا نذرتا إن زال ملك بنى أمية تجاهدا فى سبيل الله . . . وكان الفداء بين المنصور وملك الروم ، فاستفدى المنصور أسرى قاليقلا وغيرهم من الروم ، وبناها وعمرها ، ورد إليها أهلها وندب إليها جنداً من أهل الجزيرة ، فأقاموا بها وحموها . ولم يكن بعد ذلك صائفة [٣] فيما قيل إلا سنة ست وأربعين (ومائة) لاشتغال المنصور بابنى عبد الله بن الحسن بن على .

وكانت الحرب بين العباسيين والبيزنطيين تشتعل من حين إلى حين حتى سنة ١٥٥ هـ ، حين طلب الإمبراطور قسطنطين الرابع الصلح مع العباسيين على أن يؤدى لهم جزية سنوية . ونقرأ فى الطبرى[٤] عن الصوائف فى سنى ١٥٦ و ١٥٧ و ١٥٨ هـ وذلك فى أواخر عهد الخليفة المنصور .

وفى سنة ١٥٩ هـ خرج الخليفة المهدى على رأس جيش كثيف لغزو بلاد الروم ، ووصل إلى البردان وعسكر به ، وأرسل العباس بن محمد فبلغ أنقره[٥] . وفى سنة ١٦١ هـ تولى قيادة الصائفة ثمامة بن الوليد الذى سار بجيشه حتى نزل دابق ، والتقى بجيش الروم الذى بلغ عدده ثمانين ألفاً ، فلم يحفل به ثمامة اعتزازاً

---

(١) كتاب الكامل فى التاريخ ج ٦ ص ٢٢ .

(٢) بفتح اللام وتشديد الباء .

(٣) الصائفة غزوة الروم لأنهم كانوا يغزون صيفاً لمكان البرد والثلج (القاموس المحيط) ، وجمعها صوائف ، وهى تختلف عن الشواتى وهى الحروب مع الروم فى الشتاء .

(٤) ج ٩ ص ٢٨٦ .

(٥) المصدر نفسه ج ٩ ص ٢٨٨ .

بقوته وكثرة جنده ، وهزم الروم على مقربة من مرعش التى حاصرها ، ولكن الدائرة دارت عليه وقتل كثير من جنده .

وقد قوى الروم بهذا الانتصار ، فأغاروا على «الحدث» فى سنة ١٦٢ هـ وهدموا سورها . فولى المهدى أمر الصائفة قائده الحسن بن قحطبة الذى لم يستطع إحراز النصر على الروم وعاد أدراجه . وفى سنة ١٦٣ هـ أغار الروم على حدود الدولة العباسية واستولوا على مرعش وأحرقوها ، فأرسل المهدى جيشاً بقيادة الحسن بن قحطبة . غير أن الروم عادوا إلى بلادهم ، ثم أغاروا على حدود العباسيين من جديد ، فخرج المهدى على رأس جيش يبلغ مائة وخمسين ألفاً ، واستخلف ابنه موسى (الهادى) على بغداد ، واتخذ مدينة حلب مركزاً لأعماله الحربية ، ووجه ابنه هارون على رأس جيش كثيف يضم نخبة من أشهر رجال الدولة العباسية ، منهم يحيى بن خالد البرمكى ، وعبد الملك بن صالح ، وعيسى بن موسى ، والحسن بن قحطبة ، وخرج المهدى مشيعاً ابنه هارون حتى وصل إلى جيحان وارتاد بها مدينة تسمى المهدية (١) .

زحف هارون إلى بلاد الروم حتى وصل إلى حصن سمالو ، ونصب عليه المنجنيق وخربه واستولى عليه . وقد تعهد الروم بدفع غرامة حربية فداء لأسرهم (٢) .

وقد نقض الروم شروط الصلح وعادت إغاراتهم على أملاك الدولة العباسية سيرتها الأولى ، فندب المهدى ابنه هارون لحربهم وغزوا بلادهم من جديد ، وولاه « الصائفة » ، وضم إليه مولاه الربيع بن يونس .

وفى سنة ١٦٥ هـ أعاد المهدى الكرة على بلاد الدولة البيزنطية ، فجمع جيشاً يقرب من مائة ألف جندى وعبر الفرات ، ثم أمر عليه ابنه هارون ، فوصل هذا الجيش إلى سواحل البسفور ، وأرغم الملكة أيرينى أرملة ليو الرابع ، وكانت وصية على ابنها قسطنطين السادس ، على أن تدفع للمسلمين تسعين ألف دينار

---

(١) الطبرى ج ٩ ص ٣٢٦ ، ٣٤٢ .
(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٢٢ .

جزية سنوية تقضى على دفعتين ، وأن تقيم لهم الأسواق والأدلاء فى الطريق عند عودتهم إلى بلادهم ، وأن تسلم أسرى المسلمين . وانتهت هذه الغزوة بعقد هدنة بين الفريقين أمدها ثلاث سنين . وبلغت هذه الحروب من الشدة بحيث ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن عدد قتلى البيزنطيين بلغ ٥٤٠٠٠ والأسرى ٥٠٠٠[1]

وكان من أثر هذه الانتصارات التى أحرزها المهدى أن هابه الملوك . وقد أرسل إليهم رسلا يدعونهم إلى الطاعة ، فدخل أكثرهم فى طاعته . ومنهم ملك كابل ، وملك طبرستان ، وملك السند ، وملك طخارستان ، وملك فرغانة ، وملك أشروسنة ، وملك سجستان ، وملك الترك ، وملك التبت ، وملك السند ، وملك الصين ، وملك الهند[2] .

وعلى الجملة فقد امتاز عهد المهدى بكثرة حروبه مع البيزنطيين ، ومما يسترعى النظر فى هذه الحروب أن النصر كان كثيراً فى جانب المسلمين .

ولما ولى هارون الرشيد الخلافة وجه اهتمامه إلى توطيد دعائم السلام فى أراضى الدولة العباسية المتاخمة لحدود الدولة البيزنطية ، ثم سار بنفسه فى سنة ١٨١ هـ على رأس جيش كبير إلى آسيا الصغرى ، فانتصر على البيزنطيين فى كثير من المعارك ، وظل يتابع فتوحه حتى وصل إلى القسطنطينية .

وكان من أثر الانتصارات التى أحرزها المسلمون على البيزنطيين أن سارعت الإمبراطورة أيرينى إلى طلب الهدنة مقابل دفعها الجزية . غير أن نقفور الذى اعتلى العرش بعد أيرينى أرسل إلى الرشيد فى ١٨٧ هـ كتاباً نقض فيه الهدنة ، وألح فى طلب الجزية التى دفعتها إليه أيرينى ، وإليك نص هذا الكتاب : « من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب . أما بعد ، فإن الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ ، وأقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً

(1) Finlay, Histoy of the Byzantine Empire, pp.104—7.
وقد أتى الطبرى (٩ : ٢٤٧) بنص شروط الصلح الذى أبرم بين المسلمين والروم .

(2) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٤٢٩ .

يحمل أمثالها إليها . ولكن ذلك ضعف النساء وحمقهن . فإذا قرأت كتابي ، فاردد ما حصل قبلك من أموالها ، وافتد نفسك بما تقع به المصادرة لك ، وإلا فالسيف بيننا وبينك » .

فلما قرأ الرشيد هذا الكتاب استفزه الغضب ، وتفرق جلساؤه من الخوف ، واستعجم الرأى على الوزير . ودعا الرشيد من فوره بدواة ورد على إمبراطور الروم بهذه الكلمات : « بسم الله الرحمن الرحيم ! من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم ، قد قرأت كتابك ، والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام » . ثم خرج لمحاربته ، فسار إليه بجيوشه الجرارة مخترقا آسيا الصغرى ، وظل يتابع حروبه حتى استولى على هرقلة قبل أن يتمكن الإمبراطور من رده لانشغاله بإخماد الفتنة التى قامت فى بلاده . وانتهى بذلك كبرياء هذا الإمبراطور وصالحه بعقد صلح أرغم فيه على دفع الجزية من جديد [١] . وقد اتخذ الشعراء من نقض نقفور شروط الصلح وما أبلاه هارون الرشيد فى حروبه مع الروم موضوعا لقصائدهم.

على أن البيزنطيين لم يلبثوا أن نقضوا هذه الهدنة من جديد وأخذوا يتقدمون نحو بلاد الدولة العباسية فى السنة التالية ، وأوقعوا بالمسلمين جنوبى آسيا الصغرى ، وعلى الأخص فى مرعش وطرسوس . وساعدهم على إحراز هذا النصر اشتغال الرشيد بقمع الثورات الداخلية . ولكنه عاد إلى بلاد الروم على رأس جيش يبلغ مائة وخمسة وثلاثين ألف رجل ، وأوقع بهم ، واستولى على هرقلة وطوانة وغيرهما من أمهات مدن الروم ، وأسر عشرة آلاف ، كما أخذ جزية قدرها عشرون ألف قطعة من العملة الذهبية [٢] .

يقول الطبرى [٣] : « وكان نقفور اشترط ألا يخرب (الرشيد) ذا الكلاع ولا سملة ولا حصن سنان ، واشترط الرشيد عليه ألا يعمر هرقلة ، وعلى أن يحمل نقفور ثلثمائة ألف دينار » .

---

(١) الطبرى ج ١٠ ص ٩٢ — ٩٣ .

(٢) Muir, The Caliphete p. 488.

(٣) ج ١٠ ص ٩٩ .

ولم تقتصر حروب هارون الرشيد مع الروم على آسيا الصغرى ، بل تعدتها إلى البحر الأبيض المتوسط . ففى سنة ١٩٠ هـ غزا العباسيون جزيرة قبرص وأسروا منها ستة عشر ألف نفس ، ومن بينهم أسقف هذه الجزيرة .

وفى عهد الخليفة الأمين لم تقع حروب بين هاتين الدولتين ، لانشغاله بالفتنة التى قامت بينه وبين أخيه المأمون . وفى عهد المأمون عاد الصراع بين الدولتين سيرته الأولى ؛ فقد شجع المأمون توماس الصقلبى الذى ثار فى آسيا الصغرى على الإمبراطور تيوفيلس ، وأمده بالمال والرجال ، وعمل على تتويجه إمبراطوراً على الدولة البيزنطية نفسها . ولكن سرعان ما انكشفت حيلته ولم يتم له ما أراد .

واتبع الإمبراطور البيزنطى هذه السياسة نفسها نحو الخليفة العباسى ، فجعل بلاد الروم موئلا للخرمية أتباع بابك الخرمى الفارسى الذى ثار فى سنة ٢٠١ هـ على المأمون ، واعتصم بالأقاليم الجبلية الشمالية الشرقية فى منطقة حرّان ، واستقل عن الدولة العباسية اثنتين وعشرين سنة (٢٠١ — ٢٢٣ هـ) ، نشر خلالها مذهبه فى الإباحية إلا أن إمبراطور الروم سئم فى النهاية ، وعرض الصلح على المأمون وكتب إليه : « أما بعد فإن اجتماع المختلفين على حظهما أولى بهما فى الرأى مما عاد بالضرر عليهما . ولست حريا أن تضع لحظ يصل إلى غيرك حظاً تحوزه إلى نفسك . وفى علمك كاف عن أخبارك ، وقد كنت كتبت إليك داعياً إلى المسالمة راغباً فى فضيلة المهادنة لتضع أوزار الحرب عنا ، ولنكون كل واحد لكل واحد ولياً وحزبا ، مع اتصال المرافق والفسح فى المتاجر وفك المستأسر وأمن الطرق والبيضة . فإن أبيت فلا أدب لك (فى) الخمر ولا أزخرف لك فى القول ، فإنى لخائض إليك غمارها ، آخذ عليك أسدادها ، شان خيلها ورجالها ، وإن أفعل فبعد أن قدمت المعذرة وأقمت بينى وبينك علم الحجة والسلام » .

ولكن كتاب إمبراطور الروم أثار غضب المأمون ، لأنه كان يجمع بين اللين والشدة ، ولأن المأمون كان يرغب فى فتح القسطنطينية . لذلك رفض الصلح مع الروم ، ورد على تيوفيلس بهذا الكتاب :

« أما بعد ، فقد بلغنى كتابك فيما سألت من الهدنة ودعوت إليه من الموادعة ، وخلطت فيه بين اللين والشدة ، مما استعطفت به من شرح المتاجر واتصال المرافق ، وفك الأساوى ورفع القتل والقتال . فلولا مارجعت إليه من أعمال التؤدة والأخذ بالحظ فى تقليب الفكرة ، وألا أعتقد الرأى فى مستقبله إلا فى استصلاح ما أوثره فى معتقبه ، لجعلت جواب كتابك خيلا تحمل رجالا من أهل البأس والنجدة والبصيرة ، ينازعونكم عن ثكلكم ويتقربون إلى الله بدمائكم ، ويستقلون فى ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم . ثم أوصل إليهم من الأمداد ، وأبلغ لهم كافياً من العدة والعتاد هم أظمأ إلى موارد المنايا منكم إلى السلامة من مخوف معرتهم عليكم ، موعدهم إحدى الحسنيين : عاجل غلبة أو كريم منقلب . غير أنى رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة التى يثبت الله بها عليك الحجة من الدعاء لك ولمن معك، إلى الوحدانية والشريعة الحنيفية . فإن أبيت ففدية توجب ذمة وتثبت نظرة ، وإن تركت ذلك ففى يقين المعاينة لنعوتنا مايغنى عن الإبلاغ فى القول والإغراق فى الصفة ، والسلام على من اتبع الهدى » [1] .

وفى سنة ٢١٨ هـ خرج المأمون لقتال الروم ، ولكن المنية وافته ودفن فى طرسوس . وفى زمن المعتصم (٢١٨ — ٢٢٧ هـ) أصبحت العلاقات بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية أسوأ مما كانت عليه . ولكن المعتصم كان بعيد النظر ، فوجه كل همه للقضاء على فتنة بابك الخرمى أولا . فانتهز الإمبراطور البيزنطى تلك الفرصة وأغار على مدينة زبطرة وأحرقها وأسر من فيها من المسلمين . وكان الإمبراطور يرمى من وراء ذلك إلى إنقاذ بابك ؛ فخرج تيوفيلس فى مائة ألف .. وسبى المسلمات ومثل بمن صار فى يده من المسلمين ، وسمل أعينهم وقطع أنوفهم وآذانهم ، فخرج إليهم أهل الثغور من الشام والجزيرة .

وقد ذكر ابن الأثير [2] أن ملك الروم لما خرج وفعل فى بلاد الإسلام ما فعل ، بلغ الخبر المعتصم . فلما بلغه ذلك استعظمه ، وكبر لديه . وبلغه أن امرأة

---

(١) الطبرى ج ١٠ ص ٢٨٣ — ٢٨٤ .

(٢) كتاب الكامل فى التاريخ ج ٦ ص ١٧٦ .

هاشمية صاحت وهى أسيرة فى أيدى الروم : وامعتصماه ! فأجابها وهو جالس على سريره : لبيك لبيك ! ونهض من ساعته ، وصاح فى قصره ، النفير ! النفير ! ثم ركب دابته .

وكان المعتصم إذ ذاك قد قضى على بابك ؛ فسار من فوره إلى أنقرة فى جيش ضخم ، وهزم الإمبراطور البيزنطى واستولى على أنقره . ثم عزم على تخريب عمورية التى نشأ فيها الإمبراطور تيوفيلس . فعسكر غربى دجلة حيث التف حوله جنده ، وعلى رأسهم نخبة من مشاهير قواده كالأفشين وأشناس وبغا الكبير ، ومن العرب أمثال عجيف بن عنبسة ومحمد بن إبراهيم .

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن جند المعتصم بلغ خمسمائة ألف ، وذكر بعض آخر ممن لا يميلون إلى المبالغة أنه بلغ مائتى ألف . وخرج المعتصم على رأس هذا الجيش ، وتابع المسير فى أراضى آسيا الصغرى حتى وصل إلى عمورية ، فحاصرها وأسرف فى قتل الأهلين ، حتى قيل إنه قتل ثلاثين ألفاً من سكانها ، وتركها للنهب والتدمير والإحراق أربعة أيام كاملة ، وافتدى أشرافها ونبلاؤها أنفسهم بأموال كثيرة .

ولما عاد المعتصم إلى سامرا بعد ذلك النصر المؤزر الذى أحرزه على البيزنطيين فى عمورية الشهيرة (سنة ٢٢٣ ﻫ) التى انتصر فيها المعتصم على الروم انتصاراً حاسما احتفل باستقباله احتفالا باهراً يتمثل فى قصيدة أبى تمام المعروفة التى تغنى فيها بالمنجمين ومجد إقدام الخليفة المعتصم فقال فى مطلع قصيدته .

السيفُ أصدق أنباء من الكتب   فى حَدِّه الحَدُّ بين الجِدِّ واللَّعِب
يا يومَ وقعةَ عمورية انصرفتْ   عنكِ المُنى حُفَّلاً معسولةَ الحَلَبِ

٥ — مع الهند :

ترجع حملات المسلمين على بلاد الهند إلى عهد بعيد ؛ فقد أرسلوا أولى حملاتهم بعد أن انتقل الرسول إلى جوار ربه بخمس عشرة سنة ومن ثم أخذ سيل العرب



الأفغان
الغور
كشمير
التبت
الدولة الغزنوية
البنجاب
الدولة الغورية
السند
راجبوتانا
مالوا
بنغالة
جوجرات
خانديش
أريسه
بحر العرب
خليج بنغالة
ميسور
سيلان
الدول الإسلامية في الهند
١٠٠١ - ١٧٥٧ م
لبيان انتشار الإسلام

يتدفق على هذه البلاد إلى القرن الثامن عشر الميلادى ، واستقر بعضهم فيها ، وكونوا ممالك كان لها أثر يذكر فى تقدم الحضارة الإسلامية .

وفى عهد معاوية بن أبى سفيان غزا المهلب بن أبى صفرة بلاد السند سنة ٤٤ هـ ، وامتدت فتوحه إلى الأراضى الواقعة بين كابل والمُلتان . ثم امتدت فتوح المسلمين فى هذه البلاد ، فشملت البوقان والقيقان والديبل . ثم واصل محمد بن القاسم فتوحه فى هذه البلاد حتى بلغ نهر السند ، وكان يعرف إذ ذلك بنهر مهران . وهناك التقى بداهر ملك السند ، وكان هو وجنده يقاتلون على ظهور الفيلة ، فاقتتلوا قتالا شديداً انتهى بقتل داهر وهزيمة أصحابه [1] .

ولما قامت الدولة العباسية ولى أبو جعفر المنصور (١٣٦ — ١٥٨هـ) هشام ابن عمرو التغلبى بلاد السند . وفى عهده فتحت بلاد كشمير ، وكانت قد انتقضت ، وهدم البُـد وهو مكان عبادتهم ، ويشبه كنائس النصارى وبيع اليهود ، وبنى فى موضعه مسجداً ؛ وقد تقدمت هذه البلاد فى عهد ولايته واستقر بها الأمن وتوطدت أركانه [2] . يقول البلاذرى [3] .

« وكان بد الملتان بدأ تهدى إليه الأموال وتنذر له النذور ، ويحج إليه أهل السند ، فيطوفون به ويحلقون رءوسهم ولحاهم عنده ، ويزعمون أن صنما فيه هو أيوب النبى صلى الله عليه وسلم » . والمولتان أو الملتان مركز مشهور للحجاج من الهنود فى بلاد البنجاب . قال ياقوت [4] : « وبها صنم يعظمه الهند وتحج إليه من أقصى بلدانها ، ويتقرب إلى الصنم فى كل عام بمال عظيم ينفق على بيت الصنم والمعتكفين عليه منهم ، سمى المولتان بهذا الصنم . وقد ألبس جميع بدنه جلدا يشبه السختيان الأحمر لا يبين من جثته شىء إلا عيناه . وعيناه جوهرتان ، وعلى رأسه إكليل ذهب ، هو متربع على ذلك السرير ، وقد مد ذراعيه على ركبتيه . ويسمى

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٤٣ — ٤٤٥ .

(٢) البلاذرى : ص ٤٤٩ — ٤٥٠ .

(٣) المصدر نفسه ص ٤٤٥ .

(٤) أنظر لفظ المولتان فى معجم البلدان لياقوت .

العرب المولتان فرج بيت الذهب ، لأنها فتحت فى أول الإسلام ، وكان بها ضيق وقحط ، فوجدوا فيها ذهباً كبيراً فاتسعوا به » .

وفى عهد الخليفة المهدى (١٥٨ — ١٦٩ هـ) غزا المسلمون بلاد الهند فى سنة ١٥٩ هـ ، وحاصروا مدينة باربد بالمنجنيق وفتحوها عنوة ، وأشعلوا النار فى تمثال بوذا . على أن هذه الغزوة كانت كارثة على جند العباسيين ؛ فقد فشا الموت فيها حتى مات منهم أكثر من ألف ، ودمرت الزوابع سفنهم فى الخليج الفارسى ، وغرق كثير من الجند . وما زالت فتوح المسلمين تتسع فى السند والهند فى عهد الخليفة المأمون (١٩٨ — ٢١٨ هـ) . وفى عهد أخيه المعتصم (٢١٨ — ٢٢٧ هـ) انتشر الإسلام فى البلاد الواقعة بين كابل وكشمير والملتان .

ويقول البلاذرى [١] : إن بلداً يدعى العيسفان بين قشمير والملتان وكابل كان له ملك عاقل ، وكان أهل ذلك البلد يعبدون صنما قد بنى عليه بيت وأبدوه . فمرض ابن الملك فدعى سدنة ذلك البيت فقال لهم : ادعوا الصنم أن يبرىء ابنى ، فغابوا عنه ساعة ، ثم أتوه فقالوا : قد دعوناه ، وقد أجابنا إلى ما سألناه . فلم يلبث الغلام أن مات ، فوثب الملك على البيت فهدمه وعلى الصنم فكسره ، وعلى السدنة فقتلهم . ثم دعا قوماً من تجار المسلمين فعرضوا عليه التوحيد ، فوحد وأسلم . وكان ذلك فى خلافة أمير المؤمنين المعتصم بالله رحمه الله » .

---

(١) فتوح البلدان ص ٤٥١ . ابن الأثير ج ٦ ص ١٧ ، انظر مقال المؤلف فى مجلة كلية الآداب ، المجلد السابع ، يوليه سنة ١٩٤٤ ؛ انتشار الإسلام فى الهند فى صحيفة الجامعة المصرية (مايو ١٩٣٣) بقلم حسن إبراهيم حسن ص ٣ ، ٥ — ٧ .

الباب الخامس

نظم الحكم

١ — النظام السياسى

(ا) الخلافة :

وضع أبو جعفر المنصور أساس النظام السياسى الذى سارت عليه الدولة العباسية فى العصر العباسى الأول ، وهو النظام الذى كان منتشراً فى الشرق ، وكان مألوفا عند الفرس منذ أيام إكزرسيس Xerxes . وبذلك تمكن العباسيون من أن يحكموا البلاد على النحو الذى كان يحكم به آل ساسان من قبل .

وبقيام الدولة العباسية تطور نظام الخلافة : فإن تلك الدولة قد قامت على كواهل الفرس الذين سخطوا على الأمويين لعدم مساواتهم بالعرب فى الحقوق السياسية والاجتماعية مع منافاة ذلك لحق المساواة الذى أقره القرآن والسنة بين البشر . وحذا العباسيون حذو الأمويين فى تولية العهد أبناءهم . وكان الفرس يقولون بنظرية الحق الملكى المقدس ، بمعنى أن كل رجل لاينتسب إلى البيت المالك ويتولى الملك يعتبر مغتصباً لحق غيره . لذلك أصبح الخليفة العباسى فى نظرهم يحكم بتفويض من الله لا من الشعب ، كما يتجلى ذلك فى قول أبى جعفر المنصور . « إنما أنا سلطان الله فى أرضه » ، وذلك يخالف ما كانت عليه الخلافة فى عهد الخلفاء الراشدين الذين استمدوا سلطانهم من الشعب . يدل على ذلك قول أبى بكر بعد توليته الخلافة : « فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى » ، وقول عمر ابن عبد العزيز : « لست بخير من أحدكم ولكنى أثقلكم حملا » .

وقد أقام العباسيون حقهم فى الملك على أساس أنهم وارثو بيت الرسول ،

وعملوا على الاحتفاظ بالخلافة فى دولة تيوقراطية أساس السيادة فيها لزعماء الدين ليظهروا بذلك الفرق بين السلطتين فى عهدهم وفى عهد الأمويين من قبلهم[١] . وقد حرصوا على الاحتفاظ بهذا المظهر ، لأن حقهم يقوم عليه . وعلى هذا لم يقبلوا أن يكونوا ملوكا فحسب ، بل أرادوا أولا أن ينظر إليهم على أنهم أمراء دينيون ، وأن يدرك الناس أن حكومتهم حكومة دينية ، فقد حل محل الأمويين ، الذين حكم عليهم الأتقياء بأنهم أهل دنيا ، والذين اعتمدوا فى بلاطهم بدمشق وفى قصورهم فى الصحراء بالتقاليد والنظم العربية القديمة ، سلطة ربانية ذات مظاهر دينية[٢].

وقد ظل نظام الحكم فى الدولة العباسية استبداديا إلى عهد الرشيد ، على الرغم من أن أصحاب الدواوين أو البارزين من أصحاب البيت العباسى كانوا بمثابة مستشارين غير رسميين . أما الخليفة فكان مصدر كل قوة كما كان مرجعاً لكل الأوامر المتعلقة بإدارة الدولة[٣] .

وكان من أثر ميل الخلفاء العباسيين إلى الفرس أن أصبح نظام الحكم فى عهدهم مماثلا لما كان عليه فى بلاد الفرس أيام آل ساسان . يقول بالمر[٤] : « لما كان العباسيون يدينون بقيام دولتهم للنفوذ الفارسى ، كان طبعياً أن تسيطر الآراء الفارسية . ولهذا نجد وزيراً من أصل فارسى على رأس الحكومة ، كما نجد الخلافة تدار بنفس النظام الذى كانت تدار به إمبراطورية آل ساسان . واحتجب الخليفة عن رعيته واتخذ الوزير والسياف ، فأحيط شخصه بالقداسة والرهبة . وظهرت الأزياء الفارسية فى البلاط العباسى . واحتفل بالنيروز والمهرجان والرام[٥] وغيرها من الأعياد الفارسية القديمة . لهذا لانعجب إذا أصبح الخليفة العباسى يعيش

---

(١) Sanhonry, Le Califat, pp. 303-304.

(٢) جولد تسيهر : العقيدة والشريعة فى الإسلام ، ترجمة محمد يوسف موسى وعبد العزيز عبد الحق وعلى حسن عبد القادر ص ٤٨ بتصرف :

(٣) Ameer Ali, A Short Hist. of the Saracens, pp.405-406

(٤) Palmer, Haroun al-Rachid, pp. 37-38.

(٥) هو عيد لهم فى اليوم الحادى والعشرين من كل شهر من شهور الفرس ، ومعناه الراحة والفرح .

عيشة الأكاسرة ، تحوطه الأبهة والعظمة ، وينحنى أمامه الداخل عليه ، ويقبل الأرض بين يديه ، وإذا قرب منه قبل رداءه ، وهو شرف لايناله إلا رجال الدولة البارزون » .

وقد ظلت الحكومة الإسلامية ملكية وراثية استبدادية . فولاية العهد استمرت من الناحية العملية للاحتفاظ بالخلافة فى البيت العباسى ، وبظاهر الأبهة التى أحاطت بالخلفاء العباسيين ، والتى كانت تختلف عن البساطة العربية التى امتاز بها البيت الأموى ، قد بعثنا من جديد بصورة واضحة ، ذلك الطابع الاستبدادى للحكومة الذى تجلى فى عهد خلفاء السفاح ، وثمة اختلاف آخر بين البيتين الأموى والعباسى : فإن العنصر العربى فى عهد الأمويين كانت له السيادة ، على حين ساد فى عهد الخلفاء العباسيين (الأوائل) نفوذ العنصر الفارسى . ويرجع قيام الدولة العباسية إلى مساعدة الفرس ، لذلك أصبح نفوذ هذا العنصر ظاهر الأثر منذ بداية حكم العباسيين . وإن سقوط البرامكة ، تلك الأسرة الفارسية القوية التى تمتعت منذ عهد المنصور بنفوذ كبير بلغ ذروته فى عهد الرشيد ، كان مفاجئاً وعلى غير انتظار . وكان المأمون الخليفة السابع من أم فارسية ، كما تزوج هو بسيدة فارسية أيضاً . وبذلك يمكن القول إن ظهور العباسيين كان أشبه بثورة تمخضت عن بعث جديد لحكم الأكاسرة ، وأن بغداد قد أصبحت أشبه بحاضرة لهذه النهضة الفارسية.

وكذلك نجد الخلفاء العباسيين لا يؤمون الناس فى الصلاة ولا يقيمون خطبة الجمعة كما كان يفعل الخلفاء الراشدون وبعض الخلفاء الأمويين . وإن ذلك المظهر الخارجى الذى أحاط بالخلفاء العباسيين ليختلف عن تلك البساطة الأولى التى امتاز بها الإسلام ، ويعيد إلى الذاكرة مظاهر الأبهة التى تجلت البلاط الساسانى[1] .

أضف إلى ذلك ارتداء الخليفة بردة النبى صلى الله عليه وسلم عند توليته الخلافة أو حضوره الحفلات الدينية باعتباره نائباً عنه فى حكم المسلمين . كذلك

Sanhoury, Le Califat. pp. 301-302, 304. (١)

نجد الخليفة العباسى يتلقب بلقب « إمام » ، توكيداً للمعنى الدينى فى خلافة العباسيين ، أى أنهم أصبحوا أئمة الناس ، بعد أن كان هـذا اللقب يطلق فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين على من يؤم الناس فى الصلاة ، على حين كان الشيعيون يطلقونه على أفراد البيت العلوى الذين كانوا يعتقدون أنهم أحق بالخلافة من سواهم . وبعد أن صارت الخلافة العباسية تستند إلى نظرية التفويض الإلهى ، قرب الخلفاء إليهم العلماء ورجال الدين لينشروا بين الناس هـذه النظرية التى أصبح لها شأن فى الحياة السياسية فى الدولة العباسية (١) .

وقد سار العباسيون على نظام تولية العهد أكثر من واحد وغلوا فى ذلك . وقد عهد السفاح (١٣٢ — ١٣٦ هـ) بالخلافة إلى أخيه أبى جعفر المنصور (١٣٦ — ١٥٨ هـ) ثم إلى ابن أخيه عيسى بن موسى بن على بن عبد الله ابن عباس . فلما آلت الخلافة إلى المنصور ، خلع عيسى بن موسى ، وبايع ابنه المهدى ، وجعل عيسى من بعده . ولما ولى المهدى (١٥٨ — ١٦٩ هـ) الخلافة خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد ، وولى ولديه الهادى ثم هارون الرشيد ، كذلك عول الهادى (١٦٩ — ١٧٠ هـ) على خلع أخيه هارون والبيعة لابنه جعفر ، مقتديا فى ذلك بما فعله أبوه مع عيسى بن موسى . ولم يحترم العهد الذى أخذه على نفسه حين ولاه أبوه عهده ، وضيق على أخيه هارون ، وحط رجال بلاطه من شأنه حتى مال إلى النزول عن حقه لولا وفاة الهادى .

جاء هارون الرشيد (١٧٠ — ١٩٣ هـ) ، فولى عهده أولاده الثلاثة : الأمين والمأمون والمؤتمن ، وقسم البلاد بينهم ، وأعطى كلا منهم الفرصة للدفاع عن حقه (٢) ، مما أدى إلى قيام الفتن والحروب الداخلية . على أن الواثق (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ) خرج على هذا النظام ، فلم يعهد لابنه محمد . وقد سئل وهو فى مرضه الأخير أن يوصى بالخلافة لولده ، فقال كلمته المأثورة : « لايرانى الله أتقلدها حياً وميتاً » ، مقتفياً فى ذلك أثر عمر بن الخطاب ومعاوية الثانى .

---

(١) انظر كتاب النظم الإسلامية للمؤلف ، الطبعة الثالثة ص ٥٠ — ٥١ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٣ .

ولا يخفى ماجرته هذه السياسة من إثارة البغضاء والعداوة بين أفراد البيت المالك . فإنه لم يكد الأمر يتم لأحد المتنافسين ، حتى يعمل على التنكيل بمن ساعد خصمه على إقصائه من ولاية العهد . وهكذا تطورت المنافسة بين أفراد البيت المالك تطوراً غريباً ، وأصبحت خطراً على كيان الدولة العباسية .

(ب) الوزارة :

لما انتقلت الخلافة إلى العباسيين ، اتخذوا نظم الحكم عن الفرس — كما تقدم — ومنها الوزارة ، وإن كانت سلطاتها لم تتحدد بصورة واضحة فى عهد أبى سلمة الخلال أول وزراء العباسيين ، ثم نمت وتدرجت حتى اتخذت شكلها النهائى فى أواخر العصر العباسى الأول . وكان الوزير ساعد الخليفة الأيمن ، ينوب عنه فى حكم البلاد ، وينصب العمال ويشرف على الضرائب ، ويجمع فى شخصه السلطتين المدنية والحربية بجانب الواجبات العادية من نصح الخليفة ومساعدته[1].

وكان الوزراء فى العصر العباسى الأول يخافون على أنفسهم من بطش الخلفاء بهم . فكان كل منهم يتجنب أن يسمى وزيراً بعد أن مات أبو الجهم على يد المنصور . وكان خالد بن برمك يعمل عمل الوزراء ، ويأبى أن يسمى وزيراً ، على الرغم من منزلته عند الخلفاء .

وهكذا كان حال الوزارة فى أيام المنصور بل فى الصدر الأول من هذا العصر. استوزر الخليفة المنصور بعد خالد البرمكى أبا أيوب الموريانى ، وكان من أهل موريان[2] . اشتراه المنصور صبياً قبل أن يلى الخلافة ؛ فثقَّفه وعلمه . واتفق أن أرسله مرة إلى أخيه الخليفة السفاح ومعه هدية له ، فلما رآه أعجب بهيئته وفصاحته ؛ فأبقاه وأعتقه ، وجعله من أخص رجاله المقربين إليه ، وأدر عليه عطاءه

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٧ .

(٢) قرية من نواحى خوزستان ، انظر معجم البلدان لياقوت .

وصلاته ، وظل على ذلك حتى ولى المنصور الخلافة فقلده الوزارة ، وكان نصيبه نصيب من سبقه من الوزراء إلا خالد بن برمك[١] .

وبعد قتل هذا الوزير المنكود الطالع ، استوزر أبو جعفر المنصور الربيع بن يونس الذى شارك سلمه فى سوء طالعه أيام الهادى : « وكان نبيلا حازماً ، عاقلا فطناً ، خبيراً بالأمور الحسابية ، ملماً بشئون الدولة ، محباً لفعل الخير ، عارفاً بآداب الملوك » . رأى المنصور يوماً فى بستانه شجيرة من شجر يسمى الخلاف ، فلم يدر ماهى ؛ فقال يا ربيع ! ما هذه الشجيرة ؟ فقال الربيع : إجماع ووفاق ، وكره أن يقول خلاف » .

ولم يزل الربيع حائزاً ثقة المنصور إلى أن مات ؛ فقام بأخذ البيعة لابنه المهدى ، وظل على ذلك إلى أن قتله الهادى فى خلافته .

وكانت أعمال الوزارة فى عهد المهدى أوضح ، ويد أصحابها أكثر عملا مما كانت عليه أيام المنصور ؛ لأن المهدى كان يعتمد على وزرائه بسبب كفايتهم وانشغاله هو باللهو . وكان أول هؤلاء الوزراء أبو عبيدة الله معاوية بن يسار الذى تقلد الكتابة للمهدى قبل أن يلى الخلافة . وقد عرف له المنصور فضله ، وعزم على أن يستوزره لنفسه ، ولكنه آثر ابنه المهدى ، ونصح له أن يعمل برأيه ويتبع مشورته . ولما ولى المهدى الخلافة ، فوض إليه الأمور وسلمه الدواوين .

ولكن معاوية كان متكبراً ، وكان الربيع بن يونس الحاجب يضمر له الكراهة والبغضاء لتكبره عليه وعدم اكتراثه به ، وأخذ يدس له عند الخليفة[٢] ، فأوغر صدره على ابنه الذى رمى بالزندقة ، وقتل بسبب ذلك . ثم أمر المهدى بوزيره فحجب عنه ، وزالت سلطته ، واعتزل بداره حتى ماته سنة ١٧٩ هـ[٣] .

---

(١) انظر كتاب النظم الإسلامية للمؤلف ص ١١٧ .
(٢) الفخرى ص ١٣٤ — ١٣٥ .
(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٨٤ .

استوزر المهدى بعد أبي عبيد الله معاوية بن يسار ، أبا عبد الله يعقوب بن داود ؛ ولكن هذا الخليفة نكبه وأودعه السجن ، حيث قضى بقية عهد المهدى والهادى وردحاً من أيام هارون الرشيد . ويعزو المؤرخون سبب نكبته إلى تشيعه وميله إلى أولاد عبد الله بن الحسن العلوى على ما تقدم .

واستوزر المهدى بعده الفيض بن صالح ، وكان من أهل نيسابور . وكان نصرانياً فأسلم فى أوائل الدولة العباسية ، وأخذ من الأدب وعلو الهمة والبراعة بأوفى نصيب . كما اشتهر بالسخاء والجود ، حتى كان يحيى بن خالد بن برمك يقول إذا استعظم أحد كرمه وجوده : « لو رأيتم الفيض لصغر عندكم أمرى » . ومما يؤخذ عليه ما كان يظهره من الكبر والتيه ، حتى نحا بعض الشعراء عليه باللائمة وحطوا من شأنه لزهوه وإعجابه . وظل الفيض مترسماً فى دست الوزارة حتى مات المهدى وولى الهادى الخلافة ، فلم يستوزره ، ومات سنة ١٧٣ هـ .

استوزر الهادى فى مبدأ خلافته الربيع بن يونس ، واستوزر بعده إبراهيم ابن دكوان الحرانى . وكان اتصاله به لأول مرة عن طرق معلمه الخاص ، إذ كان يصحبه عند ذهابه إليه . فخف على قلب الأمير الصغير ، وألفه حتى إنه لم يكن يصبر على فراقه . وقد اشتدت بابن دكوان السعاية إلى المهدى ، فنهى ابنه عن صحبته وهدده بالخلع ، وهدد الحرانى بالقتل . ولما أعيته الحيل فى إبعاده عنه ، أمر المهدى بإحضاره إليه . فحضر وهو على أهبة الركوب إلى الصيد ، فلما رآه حلف بالله ثلاثاً ليقتلنه عند عودته وأمر بحبسه . وأقبل ابن دكوان على الدعاء والتضرع ومات المهدى فى أثناء غيابه ، وولى الخلافة من بعده ابنه الهادى فاستوزره ، فلم يعمر فى الوزارة طويلا لوفاة الهادى بعد قليل[1] .

وقد ذكر الماوردى[2] الفرق بين وزارة التفويض ووزارة التنفيذ فقال : « ويكون الفرق بين هاتين الوزارتين بحسب الفرق بينهما فى النظرين ، وذلك من أربعة أوجه :

---

(١) الفخرى ص١٤٢ — ١٤٣ .

(٢) الأحكام السلطانية ص ٢٦ .

أحدها : أنه يجوز لوزير التفويض مباشرة الحكم والنظر فى المظالم ، وليس ذلك لوزير التنفيذ .

والثانى : أنه يجوز لوزير التفويض أن يستبد بتفويض الولاة ، وليس ذلك لوزير التنفيذ .

والثالث : أنه يجوز لوزير التفويض أن ينفرد بتيسير الجيوش وتدبير الحروب وليس ذلك لوزير التنفيذ .

والرابع : أنه يجوز لوزير التفويض أن يتصرف فى أموال بيت المال بقبض ما يستحق له ويدفع ما يجب فيه ، وليس ذلك لوزير التنفيذ .

وليس فيما عدا هذه الأربعة ما يمنع أهل الذمة منها . . . ولهذه الفروق الأربعة بين النظرين افترق فى أربعة من شروط الوزارتين :

أحدها : أن الحرية معتبرة فى وزارة التفويض وغير معتبرة فى وزارة التنفيذ .

والثانى : أن الإسلام معتبر فى وزارة التفويض وغير معتبر فى وزارة التنفيذ .

والثالث : أن العالم بالأحكام الشرعية معتبر فى وزارة التفويض وغير معتبر فى وزارة التنفيذ .

والرابع : أن المعرفة بأمرى الحرب والخراج معتبرة فى وزارة التفويض وغير معتبرة فى وزارة التنفيذ . فافترقا فى شروط التقليد من أربعة أوجه ، كما افترقا فى حقوق النظر من أربعة أوجه ، واستويا فيما عداها من حقوق وشروط » .

ومن أشهر وزراء التفويض فى العصر العباسى الأول « آل برمك » ، فقد اتخذ الرشيد يحيى بن خالد البرمكى وزيراً له وقال له : «قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقى إليك . فاحكم فى ذلك بما ترى من الصواب ، واستعمل من رأيت ، واعزل من رأيت . وامض الأمور على ما ترى » . ودفع إليه خاتمه الخاص ، ثم سلمه خاتم الخلافة حتى صار بيده الحل والعقد فى كل شئون الدولة ، وخلفه ابنه جعفر بن يحيى بن خالد ، فقبض البرامكة على زمام أموال الدولة فى أيديهم . . فعظمت آثارهم وبعد صيتهم ، وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم

وصنائعهم ، واحتازوها لأنفسهم عمن سواهم من وزارة وقيادة وكتابة » .

استوزر المأمون الفضل بن سهل الذى سمى ذا الرياستين والوزير والأمير ؛ ثم استوزر أخاه الحسن بن سهل ، وتزوج ابنته بوران . « وإن كانت دولة بنى فضل - على ماقاله صاحب الفخرى[1] - فى جبهة الدهر غرة وفى مفرق العصر درة ، وكانت مختصر الدولة البرمكية ، وهم صنائع البرامكة . ثم استوزر أحمد بن أبى دؤاد ، وكان من خيرة الكتاب وأجودهم خطاً . ثم جاء بعده وزراء اشتهر بعضهم بالتفقه فى الدين والحديث ومنهم من برع فى الخط . غير أن الوزراء الذين استوزرهم المأمون بعد بنى سهل لم يكونوا وزراء تفويض ، وإنما كانوا وزراء تنفيذ ، بمعنى أنه لم يكن لهم استقلال بالأمور ، إذ كان المأمون يدبر أمر دولته بنفسه لئلا يستفحل نفوذ الوزراء ، كما حدث فى عهد أبيه الرشيد مع البرامكة ، وفى عهد أخيه الأمين مع الفضل بن الربيع ، وفى عهده مع بنى سهل .

ومن أشهر وزراء التنفيذ فى عهد المأمون ومن جاء بعده من خلفاء العصر العباسى الأول ، أحمد بن أبى خالد . وكان من الموالى ، على جانب كبير من رجاحة العقل ، كما كان كاتباً فصيحاً بصيراً بالأمور . وقد استشاره المأمون فى تولية طاهر ابن الحسين على خراسان . فصوب هذا الرأى وضمن هذا التعيين . على أن طاهراً مالبث أن قطع الخطبة للمأمون لأمور أنكرها عليه الخليفة ، فهدد المأمون وزيره لأنه أشار عليه بتولية طاهر ، وصمم على قطع رقبته إذا هو لم يعمل على التخلص من هذا الخارج ، فأرسل الوزير إلى طاهر هدية فيها كوامخ مسمومة ، فأكل منها ومات لساعته . أما أحمد بن أبى خالد ، فكانت وفاته سنة ٢١٠ هـ فى أيام المأمون.

ومنهم أحمد بن يوسف ، وكان من الموالى كذلك ، كما كان كاتباً أديباً ، شاعراً ، عالماً بأمور الدولة وآداب الملوك . استشاره المأمون فى رجل كان يكرهه أحمد ، فوصفه وذكر محاسنه ، فقال له المأمون : يا أحمد ! لقد مدحته على سوء رأيك فيه ومعاداته لك ، فقال : لأنى لك كما قال الشاعر :

كفى ثمناً بما أسديت أنى صدقتك فى الصديق وفى عداتى

---

(١) الفخرى ص ١٦٥ — ١٦٦ .

وأنى حين تنـــدبنى لأمرٍ يكون هواكَ أغلبَ من هوائى

وقد اتخذ الواثق محمد بن عبد الملك الزيات وزير أبيه ، وكان منحرفاً عنه قبل توليته الخلافة ، لكنه لما استخلف لم يجد بين رجاله من يقوم مقام هذا الوزير ، فاعتمد عليه فى إدارة شئون دولته . وقد ذكر صاحب كتاب الفخرى[1] ، السبب الذى من أجله انحرف الواثق قبل خلافته على ابن الزيات ، وكيف اضطر هذا الخليفة إلى اتخاذه كاتباً له ووزيراً فقال : « كان المعتصم قد أمر لابنه الواثق بمال وأحال به على ابن الزيات ، فمنعه وأشار على المعتصم ألا يعطيه شيئاً . فقبل المعتصم قوله ، ورجع فيما كان أمر به للواثق من ذلك ، فكتب بخطه كتاباً بالحج والعتق والصدقة أنه إن ولى الخلافة ليقتلن ابن الزيات شر قتلة . فلما مات المعتصم وجلس الواثق على سرير الخلافة ، ذكر حديث ابن الزيات فأراد أن يعالجه ، فخاف ألا يجد مثله ، فقال للحاجب : أدخل إلى عشرة من الكتاب . فلما دخلوا عليه اختبرهم ، فما كان فيهم من أرضاه ، فقال للحاجب : أدخل من الملك محتاج إليه محمد بن الزيات ، فأدخله ، فوقف بين يديه خائفاً ، فقال للخادم : أحضر إلى المكتوب الفلانى ، فأحضر له الكتاب الذى كان كتبه ، وحلف فيه ليقتلن ابن الزيات ، فدفعه إلى ابن الزيات وقال : اقرأه ! فلما قرأه قال : ياأمير المؤمنين ! أنا عبد إن عاقبته فأنت حاكم فيه ، وإن كفرت عن يمينك واستبقيته كان أشبه بك ، فقال الواثق : والله ما أبقيتك إلا خوفاً من خلو الدولة من مثلك . وسأكفر عن يمينى ، فإنى أجد من المال عوضاً ولا أجد عن مثلك عوضاً ، ثم كفر عن يمينه واستوزره » ، وما لبث ابن الزيات حتى أصبح صاحب الأمر والنهى أكثر مما كان فى عهد المعتصم .

ولم يكن إطلاق لفظ الوزارة فى الدولة الأموية بالأندلس شائعاً كما كان فى الدولة العباسية فى المشرق والدولة الفاطمية فى مصر . فكان يطلق على من يضطلع بأعباء الوزارة فى الأندلس اسم الحاجب تارة واسم الوزير أو ذى

---

(١) الفخرى ص ١٧٥ — ١٧٦ .

الوزارتين تارة أخرى . ولهذا نرى أن الحاجب فى الدولة الأموية بالأندلس لم يقصد به ذلك الموظف الذى يحجب السلطان عن الخاصة والعامة كما كانت الحال عندالخلفاء الأمويين والعباسيين والفاطميين ، وإنما قصد به هنا من يتولى الوزارة بمعناها المعروف(١) .

وقد ألقى ابن خلدون(٢) ضوءاً على نظام الوزارة فى الدولة الأموية بالأندلس ، فبين أن الحاجب كان يقوم بعمل الوزير فى الدولتين العباسيين والفاطمية ويشرف على أعمال أصحاب الدواوين الذين يطلق على كل منهم اسم الوزير . فكان الحاجب يقوم بعمل رئيس الوزراء اليوم ، ويتولى رياسة مجلس الوزراء الذى يشرف على شئون الدولة .

ولم يكن مجلس الحاجب ، أو بالأحرى مجلس الوزراء ، هو وحده الذى يدير شئون الدولة ، بل كان إلى جانبه مجلس آخر يسمى « مجلس الشورى » يرأسه الأمير أو الخليفة ، ويضم كبار رجال الدولة وبعض الأمراء من أفراد البيت الأموى .

(ج) الكتابة :

لما كثرت أعمال الوزراء فى العصر العباسى الأول ، أصبح من الضرورى تعيين موظفين يعاونون الوزير للاشراف على الدواوين المختلفة وإدارة شئونها . ومن أشهر الكتاب فى هذا العصر كاتب الرسائل ، وكاتب الخراج ، وكاتب الجند ، وكاتب الشرطة ، وكاتب القاضى .

ومهنة كاتب الرسائل إذاعة المراسيم والبراءات وتحرير الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة بعد اعتمادها من الخليفة ، ومراجعة الرسائل الرسمية ووضعها فى الصيغة النهائية وختمها بخاتمه ؛ كما كان يجلس مع الخليفة فى مجلس القضاء

---

(١) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٠٢ .
(٢) مقدمة ص ٢٠٨ .

للنظر فى المظالم وختم الأحكام بخاتم الخليفة[1] . وكان كاتب الرسائل يتولى مكاتبة الملوك والأمراء عن الخليفة . وكثيراً ما كان الخليفة يتولى ذلك بنفسه ؛ فقد أثر عن أبى جعفر المنصور أنه لما جاءه كتاب محمد النفس الزكية همّ كاتبه أن يجيبه ، فقال له المنصور : « لا ! بل أنا أجيبه إذ تقارعنا على الأحساب فدعنى وإياه » .

وقد زخر العصر العباسى الأول بطائفة من الكتاب لم يسمح الدهر بمثلهم ؛ فقد اشتهر يحيى بن خالد البرمكى والفضل بن الربيع فى عهد هارون الرشيد ، واشتهر الفضل والحسن ابنا سهل وأحمد بن يوسف فى عهد المأمون ، واشتهر محمد ابن عبد الملك الزيات والحسن بن وهب وأحمد بن المدبر فى عهد المعتصم والواثق .

وقد حرص الخلفاء على أن تدون الرسائل بأسلوب شائق بليغ ، كما حرصوا على اختيار كتابهم من رجال الأدب من أعرق الأسر ، وممن عرفوا بسعة العلم ورصانة الأسلوب[2] .

(د) الحجابة :

كان الخلفاء الراشدون لا يمنعون أحداً من الدخول عليهم ، بل كانوا يخاطبون الناس على اختلاف مراتبهم بلا حجاب . فلما انتقل الحكم إلى بنى أمية اتخذ معاوية بن أبى سفيان ومن جاء بعده من الخلفاء الحجاب بعد حادثة الخوارج مع على ومعاوية وعمرو بن العاص ، وذلك خوفا على أنفسهم من شر الناس ، وتلافياً لازدحامهم على أبوابهم ، وشغلهم عن النظر فى مهام الدولة .

والحاجب موظف كبير يشبه كبير الأمناء فى أيامنا ، وكان يشغل منصباً سامياً فى القصر . ومهنته إدخال الناس على الخليفة مراعيا فى ذلك مقامهم وأهمية أعمالهم .

وقد اقتدى الخلفاء العباسيون ببنى أمية ، فاتخذوا الحجاب ، وزادوا فى منع

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .

(٢) الجهشيارى : كتاب الوزراء والكتاب ص ٣ .

الناس عن ملاقاتهم إلا فى الأمور الهامة ، وهذا ما يسميه ابن خلدون بالحجاب الثانى . فصار بين الناس وبين الخليفة داران : دار الخاصة ودار العامة ، يقابل كل طائفة فى كل مكان معين على مايراه الحجاب ، ثم تطرقوا عند انحطاط الدولة إلى حجاب ثالث أشد من الأولين .

وقد علت مرتبة الحاجب بارتقاء الحضارة الإسلامية فى أيام العباسيين . فأصبح يستشار فى كثير من أمور الدولة ، ويستبد بالنفوذ دون الوزير ، ويلزم أصحاب الدواوين بالرجوع إليه فى كل أمور الدولة ، ويحتم عليهم ألا يفصلوا فى الأعمال إلا بعد موافقته[1] .

ومن أبرز الحجاب فى العصر العباسى الأول الفضل بن الربيع الذى أوقع بالبرامكة عند الرشيد وأشعل نار الفتنة بين الأمين وأخيه المأمون ، وإيتاخ حاجب الخليفة الواثق . ويقول البيهقى[2] : «قال الواثق لابن أبى دؤاد : من أولى الناس بالحجبة ؟ فقال : مولى شفيق يصون بطلاقة وجهه من ولاه ، ويستعبد الناس لمولاه ، فنظر الواثق إلى إيتاخ — وكان واقفاً على رأسه — فقال : قد ولاه أبو عبد الله الحجبة ، فكان إيتاخ يعرف ذلك ويتقدم بين يديه إلى أن يبلغ مرتبته » .

٢ — النظام الإدارى

(أ) الإمارة على البلدان :

كان النظام الإدارى فى العصر العباسى الأول نظاماً مركزياً ، وأصبح العمال على الأقاليم مجرد عمال لا ولاة مطلقى السلطة ، بعكس ولاة الأمويين ، كالحجاج ابن يوسف الثقفى وزياد بن أبيه ، كما أنهم لم يكونوا من الشخصيات البارزة . لذلك استحال النظام اللامركزى إلى نظام مركزى مما يشعر بتقلص نفوذ العمال : ومن أهم الموظفين فى الولايات الإسلامية فى العصر العباسى الأول : صاحب بيت المال ،

(١) Metz, The Renaissance of Islam p. 15.

(٢) كتاب المحاسن والمساوىء ج ١ ص ١٢٤ .

وصاحب البريد ، والقاضى ، واقتصر عمل الوالى على الصلاة وقيادة الجند .

ويقول سيد أمير على[١] : أما الإدارة فكانت قائمة على قواعد محددة مماثلة للنظم الحديثة فى الأمم المتحضرة ، بل قد يمكن القول إنها كانت متقدمة من بعض الوجوه عما هى عليه فى أيامنا هذه . فكانت كل مناصب الدولة ، كما كانت الحال فى الدولة العثمانية ، مفتوحة أمام كل من المسلمين واليهود والنصارى على السواء .

وكان الخليفة العباسى فى هذا العصر يختار عمال الأقاليم بنفسه لإدارة شئونها . بيد أن سلطتهم المدنية والقضائية لم تكن خالصة من كل قيد ، فلم يترك العامل فى ولايته زمناً طويلا ؛ وإذا عزل عن منصبه طلب منه أن يقدم بياناً مفصلا عن شئون ولايته . وكان أقل شك فى صدقه كافياً لمصادرة أملاكه جميعا . وفى أيام المنصور لم تكن مهمة الوالى بأى حال أكثر من وظيفة صورية .

وقد ذكر الماوردى[٢] أن الإمارة على الأقاليم كانت ثلاثة أنواع :

١ — إمارة استكفاء : وفيها يفوض الخليفة إلى الوالى إمارة بلد أو إقليم ، فيشمل نظره على سبعة أمور : أحدها النظر فى تدبير الجيوش وترتيبهم فى النواحى وتقدير أرزاقهم ، إلا أن يكون الخليفة قدرها فيدرها عليهم ، الثانى النظر فى الأحكام وتقليد القضاة والحكام ، والثالث جباية الخراج وقبض الصدقات وتقليد العمال فيهما وتفريق ما استحق منهما ، والرابع حماية الدين والذب عن الحريم ومراعاة الدين من تغيير أو تبديل ، والخامس إقامة الحدود فى حق الله وحقوق الآدميين ، والسادس الإمامة فى الجمع والجماعات حتى يؤم بها أو تستخلف عليها ، والسابع تسيير الحجيج من عمله ومن سلكه من غير أهله حتى يتوجهوا معانين عليها . فإن كان هذا الإقليم ثغراً متاخماً للعدو ، اقترن بها ثامن ، وهو جهاد من يليه من الأعداء وقسم غنائمهم فى المقاتلة وأخذ خمسها لأهل الخمس .

٢ — إمارة استيلاء : وهى أن يستولى أحد الأمراء قسراً على ولاية من الولايات ، فيضطر الخليفة إلى إقراره عليها ويفوض إليه تدبيرها وسياستها .

---

(١) A Short History of Saracens, pp.408—409

(٢) الأحكام السلطانية ص ٢٨ — ٣٤ .

٣ — إمارة خاصة ، بمعنى أن يقصر الخليفة عمل الوالى على تدبير الجيش وسياسة الرعية ، وحماية البيضة ، والذب عن الحريم ، دون التعرض للقضاء والأحكام أو لجباية الخراج والصدقات : وكانت الدولة العباسية فى عهد السفاح تنقسم سياسيا إلى عدة ولايات هى :

(١) الكوفة والسواد (٢) البصرة وإقليم دجلة والبحرين وعمان (٣) الحجاز واليمامة (٤) اليمن (٥) الأهواز ويشمل خوزستان وسستان (٦) فارس (٧) خراسان (٨) الموصل (٩) الجزيرة وأرمينية وأذربيجان (١٠) سورية (١١) مصر وإفريقية (١٢) السند .

وقد فصل السفاح فيما بعد فلسطين عن الشام ، كما فصل أرمينية وأذربيجان عن الجزيرة وجعل منهما ولايتين . وأصبحت صقلية تابعة لولاية إفريقية ، واستمرت إفريقية تحت إشراف والى مصر إلى أن استقل إبراهيم بن الأغلب بحكم هذه الولاية استقلالا فى عهد هارون الرشيد[١] .

وقد جرت العادة أن يولى الخلفاء العباسيون الولايات الإسلامية البعيدة بعض أفراد البيت العباسى وأكابر القواد . غير أن هؤلاء وأولئك آثروا البقاء فى بغداد أو فى سامرا ، وأنابوا عنهم نوابا يحكمون هذه الولايات باسمهم ، ولم يكن هذا التقليد الجديد شديد الخطر على سلامة الدولة العباسية وهى فى قوتها . على أنه لما ضعفت السلطنة المركزية ، ساءت الحالة فى هذه الولايات ، وجنح بعض نواب الولاة إلى الاستقلال ، فظهرت فى مصر الدولتان الطولونية والإخشيدية ، وظهرت فى المشرق الدول الطاهرية والصفارية والسامانية وغيرها .

وقد أورد اليعقوبى أسماء الولاة فى عهد أبى العباس السفاح :

أبو جعفر	الجزيرة وأرمينية وأذربيجان
داود بن على	الحجاز واليمن واليمامة
عبد الله بن على	بلاد الشام

(١) Von Kremer, PP. 218—129

سليمان بن على	البصرة وما يليها من البحرين وعمان
إسماعيل بن على	كور الأهواز
أبو مسلم الخراسانى	خراسان
أبو عون	مصر وشمالى إفريقية[١]

ويلاحظ أن معظم هؤلاء الولاء ، كما يقول الدكتور الدورى ، من أفراد البيت العباسى أو من كبار أنصار الدعوة العباسية[٢] .

ظل نظام الحكم فى الدولة العباسية كما وضعه المنصور إلى عهد الرشيد ، على الرغم من أن أصحاب الدواوين وأفراد البيت العباسى كانوا بمثابة مستشارين غير رسميين . أما الخليفة فكان مصدر كل قوة ، كما كان مرجع كل الأوامر المتعلقة بادارة الدولة . ولكن بتوالى الأيام ظهر أن هذه الأعباء كانت مرهقة لايستطيع القيام بها رجل واحد ؛ ومن ثم أصبح من الضرورى تعيين موظفين يعاونون الوزير فى الإشراف على الدواوين المختلفة وإدارة شئونها .

(ب) الدواوين :

وكان النظام الإدارى فى العصر العباسى الأول من حيث توزيع العمل يعادل أحسن النظم الحديثة . وهاك أهم دواوين الدولة التى كانت تشبه الوزارات فى العهد الحاضر :

ديوان الخراج ، وديوان الدية ، وديوان الزمام ، وديوان الجند وديوان الموالى والغلمان (وتسجل فيه أسماء موالى الخليفة وعبيده) ، وديوان البريد ، وديوان زمام النفقات ، وديوان الرسائل ، وكانت مهنة صاحبه إذاعة المراسيم والبراءات وتحرير الرسائل السياسة وختمها بخاتم الخلافة ، وديوان الحوائج ، وديوان الأحشام ، وديوان المنح أو المقاضاة ، وديوان الأكرة للإشراف على الترع والجسور وشئون الرى .

---

(١) تاريخ اليعقوبى ، طبعة النجف (١٩٣٩ م) ج ٣ ص ٨٨ — ٨٩ .
(٢) الدورى : العصر العباسى الأول ص ٦٣ .

وكان ديوان الأزمة أو الزمام (ويشبه ديوان المحاسبة اليوم) الذى أنشأه الخليفة المهدى من أهم دواوين الدولة . وكانت مهنة صاحب هذا الديوان جمع ضرائب بلاد العراق أغنى أقاليم الدولة العباسية وتقديم حساب للضرائب فى الأقاليم الأخرى . ومن اختصاص صاحب هذا الديوان جمع الضرائب النوعية المسماة بالمعاون ، وكانت تجمع لرجل يضبطها بزمام يكون له على كل ديوان ، فيتخذ دواوين الأزمة ويولى على كل منها رجلا . وقد أنشأ العباسيون ديوانا سموه ديوان النظر أو المكاتبات والمراجعات ، وينقسم أربعة أقسام : ديوان الجيش وفيه الإثبات والعطاء ، وديوان الأعمال ويتولى الرسوم والحقوق ، وديوان العمال ويختص بالتقليد والعزل ، وديوان بيت المال وينظر فى الدخل والخرج [١] .

وكانت هناك إدارة خاصة تنظر فى مصالح غير المسلمين يدعى رئيسها كاتب الجهباذ .

ولم تكن الحكومة العباسية تتدخل فى شئون الجماعات إلا بمقدار ، بل كانت كل بلدة أو قرية تدير شئونها الخاصة بنفسها ، ولا تتدخل الحكومة إلا فى حالة نشوب الفتن أو الامتناع عن دفع الضرائب . غير أنها — مع ذلك — كانت تقوم بالرقابة الفعالة على جميع الشئون التى تتصل بالزراعة من بناء القنوات وترميمها [٢] .

(ج) البريد :

كان للبريد ديوان كبير فى بغداد له محطات على طول الطريق . وقد ظل حمام الزاجل مستخدماً فى نقل الرسائل حتى عهد الخليفة المعتصم . وساعدت معالم الطرق التى أقامتها الدولة التجار فى أسفارهم ، كما كانت أساساً للبحوث الجغرافية . إلا أن البريد كان خاصاً بأعمال الدولة لا لنقل رسائل الجمهور ؛ ومن ثم كان مصلحة

---

(١) Ameer Aly, p. 415 Von Kremer, p. 234—8.

(٢) النظم الإسلامية للمؤلف ص ١٥٦ — ١٥٨ .

من مصالح الدولة الخاصة . فكان صاحب البريد يراقب العمال . ويتجسس على الأعداء ، ويقوم بالأعمال التي يقوم بها رئيس قلم المخابرات في وزارة الدفاع الآن . وكانت مهنة صاحب البريد أول الأمر توصيل الأخبار إلى الخليفة من عماله في الأقاليم ، ثم توسعوا فيه حتى جعلوا صاحبه عينا للخليفة ، ينقل أوامره إلى ولاته كما ينقل أخبار ولاته إليه(١) .

وقد اهتم الخلفاء العباسيون بهذا النظام واعتمدوا عليه اعتماداً كبيراً في إدارة شئون دولتهم . وكان أبو جعفر المنصور يقول : « ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر ، لا يكون على بابي أعف منهم ، فقيل له : يا أمير المؤمنين من هم ؟ قال : هم أركان الملك ، لا يصلح الملك إلا بهم ، كما أن السرير لا يصلح إلا بأربعة قوائم إن نقصت واحدة تداعى وهي : أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى ، والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية فإني من ظلمها غنى ، والرابع ثم عض على إصبعه السبابة ثلاث مرات يقول في كل مرة آه آه . قيل له : ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحب بريد يكتب إلى بخبر هؤلاء على الصحة(٢) » .

كانت عين المنصور ساهرة لا تنام عن عماله وما يأتونه في أعمالهم من خير أو شر ؛ فقد كتب إليه عامل البريد عن واليه في حضرموت أنه يكثر الخروج في طلب الصيد ، فكتب إلى هذا الوالي : « ثكلتك أمك وعدمتك عشيرتك ، ما هذه العدة التي أعدتها للنكاية في الوحش ؟ إنا إنما استكفيناك أمور المسلمين ولم نستكفك أمور الوحش ، سلم ما كنت تلي من عملنا إلى فلان بن فلان ، والحق بأهلك مذموما مدحوراً(٣) . » .

وقد استخدم المنصور عمال البريد الذين كانوا عيونا له وعونا على الإشراف على أمور دولته ، وبواسطتهم كان يقف على أعمال الولاة ، وعلى ما يصدره القضاة

---

(١) Von Kremer, p. 233 seq.

(٢) الطبرى ج ٩ ص ٢٩٧ .

(٣) الطبرى : ج ص ٣١٤ . المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٣٢ .

من الأحكام ، وما يرد بيت المال من الأموال وما إلى ذلك . كما كان ولاة البريد يوافونه بأسعار الحاجيات من قمح وحبوب وأدم ومأكولات وغيرها . وبلغ من انتظام إدارة البريد فى عهده أن عماله كانوا يوافونه بذلك مرتين فى كل يوم . فإذا صلى المغرب وافوه بما حدث طول النهار ، وإذا صلى الصبح كتبوا إليه بما جرى فى الليل من أمور . وبهذا كان يقف على كل ما يحدث فى الولايات الإسلامية . لذا كان شديد الاتصال بولاته ، فيوقف القاضى عند حده إذا ظلم ، ويرجع السعر إلى حالته الأولى إذا غلا ، وإن رأى من أحدهم تقصيرا وبخه ولامه أو عزله من عمله مهانا .

وكان على رأس كل مصلحة فى الولايات الكبيرة عامل بريد ، مهمته موافاة الخليفة بجميع الشئون الهامة ، والإشراف على أعمال الوالى ، كما كان بعبارة أخرى ، مندوبا أولته الحكومة المركزية ثقتها . وعلى الرغم من ذلك كله ، بدأ الولاة يستقلون بولاتهم شيئاً فشيئاً ، حتى أصبحت ولاية هذه الأقاليم وراثية . ولا غرو فقد كان ولاة الأقاليم الكبيرة يولون من قبلهم الولاة وسرعان ما خرجت مقاليد الأمور فى حاضرة الدولة نفسها من أيدى الخلفاء[١] .

(د) الشرطة :

ومن النظم الإدارية الهامة فى العصر العباسى الأول نظام الشرطة : « وكان أصل وضعها فى الدولة العباسية — كما يقول ابن خلدون[٢] — لمن يقيم أحكام الجرائم فى حال استبدائها أولا ، ثم الحدود بعد استيفائها ، فإن التهم التى تعرض فى الجرائم لا تنظر للشرع إلا فى استيفاء حدودها . وللسياسة النظر فى استيفاء موجباتها بإقرار يكرهه عليه الحاكم إذا احتفت به القرائن ، لما توجبه المصلحة العامة فى ذلك . فكان الذى يقوم بهذا الاستبداء وباستيفاء الحدود بعده إذا تنزه عنه القاضى يسمى صاحب الشرطة . وربما جعلوا إليه النظر فى الحدود والدماء بإطلاق .

---

(١) Orient Under the Caliphs, p. 232 seq.

(٢) مقدمة ص ٢١٨ — ٢١٩ .

وأفردها من نظر القاضى ، ونزّهوا هذه المرتبة ، وقلدوها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليهم . ولم تكون عامة التنفيذ من طبقات الناس ، وإنما كان حكمهم على الدهماء وأهل الرتب والضرب على أيدى الرعاع والفجر . ثم عظمت نباهتهم فى دولة بنى أمية بالأندلس ، ونوعت إلى شرطة كبرى وشرطة صغرى ، وكانت ولايتها للأكابر من رجالات الدولة ترشيحاً للوزارة والحجابة » .

وكان صاحب الشرطة يختار من علية القوم ومن أهل العصبية والقوة . وهو أشبه بالمحافظ فى هذا العصر ، لأنه عبارة عن رئيس الجند الذين يساعدون الوالى على استتباب الأمن وحفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين .

ولما فتح العرب مصر كانت الشرطة فى مدينة الفسطاط . ولما تأسست مدينة العسكر فى سنة ١٣٢ هـ ، أنشئت فيها دار أخرى للشرطة أطلق عليها دار الشرطة العليا ، كما أطلق على دار الشرطة فى الفسطاط دار الشرطة السفلى ، وانقسمت الشرطة بذلك قسمين :

١ — الشرطة السفلى ومقرها الفسطاط .

٢ — الشرطة العليا ومقرها العسكر . وربما سميت بهذا الإسم لأن مكان العسكر (جبل يشكر وطولون) يقع شمالى الفسطاط . ومن ثم سميت الشرطة العليا[١] . ولما فتح جوهر الصقلى مصر نقل الشرطة العليا من العسكر إلى القاهرة . وذكر ابن دقماق[٢] أن صاحب الشرطة توفى فى نفس اليوم الذى وصل فيه جوهر إلى مصر ، فأسند عمله إلى جبر . وبقيت دار الشرطة السفلى فى الفسطاط . وتقلدها عروة بن إبراهيم وشبل المَعْرِضى[٣] .

وكانت الشرطة فى بلاد الأندلس على نوعين : شرطة كبرى ، وشرطة صغرى . ويقول ابن خلدون[٤] فى بيان اختصاص كل من الشرطتين :

---

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٤٥ .
(٢) الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٤ ص ١١ .
(٣) المقريزى . اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا ص ٩٥ .
(٤) انظر ٢٤٩ من مقدمة ابن خلدون المخطوط بالمكتبة الزكية المحفوظة بدار الكتب المصرية برقم ١٠١٦ وعليها حق المؤلف .

« ثم عظمت نباهتها فى دولة بنى أمية بالأندلس ، ونوعت إلى شرطة كبرى وشرطة صغرى . وجعل حكم الكبرى على الخاصة والدهماء ، وجعل له[١] الحكم على أهل المراتب السلطانية ، والضرب على أيديهم فى الظلامات ، وعلى أيدى أقاربهم ومن إليهم من أهل الجاه . وجعل صاحب الصغرى مخصوصاً بالعامة ، ونصب لصاحب الكبرى كرسى بباب دار السلطان ، رجل[٢] يتبوءون المقاعد بين يديه ، فلا يبرحون عنها إلا فى تصريفه » .

ولما اعتلى عبد الرحمن الناصر العرش ابتدع نوعاً ثالثاً للشرطة ، أطلق عليه الشرطة الوسطى . ويظهر أن صاحبها اختص بالنظر فى جرائم الطبقة الوسطى ، وهم أعيان التجار وأصحاب المصانع وأصحاب المهن الراقية كالأساتذة والأطباء ومن فى طبقتهم . وأسند هذا المنصب إلى سعيد بن سعيد بن جدير[٣] . ويقول المقرى[٤] عن الشرطة فى الأندلس : «وأما خطة الشرطة بالأندلس فإنها مضبوطة إلى الآن معروفة بهذه السمة : ويعرف صاحبها فى ألسن العامة بصاحب المدينة وصاحب الليل . وإذا كان عظيم القدر عند السلطان كان له القتل لمن وجب عليه دون استئذان السلطان ، وذلك قليل ، ولا يكون إلا فى حضرة السلطان الأعظم ، وهو الذى يحد على الزنا وشرب الخمر ، وكثير من الأمور الشرعية راجع إليه ، قد صارت تلك عادة تقرر عليها رضا القاضى ، وكانت خطة القاضى أوقر وأتقى عندهم من ذلك » [٥] .

---

(١) كذا فى النسخ المطبوعة فى بيروت ومصر ومخطوطة المكتبة الزكية التى سبقت الإشارة إليها . وليس فى الكلام مرجع الضمير (له) . ويظهر أنه يعود على صاحب الشرطة الكبرى وهو مفهوم من السياق . ومن هذا أو ما بعده يظهر أن صاحب الشرطة الكبرى أوسع اختصاصاً من صاحب الشرطة الصغرى ، فللأول . (ا) الحكم على الخاصة والدهماء . (ب) الحكم على أهل المراتب السلطانية وأقاربهم ومن إليهم من أهل الجاه . أما صاحب الشرطة الصغرى فليس له حكم إلا على العامة ، وهم الدهماء .

(٢) كذا فى المخطوطات الثلاث المحفوظة بدار الكتب المصرية من مقدمة ابن خلدون ، والرجل اسم جمع لراجل ، وهم الرجالة أيضاً ، وفى النسخ المطبوعة : « رجال » .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار المغرب ج ٢ ص ٢١٢ .

(٤) نفح الطيب : ج ١ ص ١٠٣ .

(٥) كان صاحب الشرطة فى الدولة العباسية وفى الأندلس وفى عهد الفاطميين فى المغرب ومصر ينظر فى الجرائم ويقيم الحدود . راجع مقدمة ابن خلدون ص ١٩٣ .

ولا يختلف نظام العسس فى الأندلس عنه فى المشرق إلا فى التسمية ، حيث عرف العسس فى الأندلس بالدرابين ، لأن بلاد الأندلس لها دروب بأغلاق تغلق بعد العتمة[1] ؛ ولكل زقاق بائت فيه[2] له سراج معلق ، وكلب يسهر ، وسلاح معد ، وذلك اشطارة[3] عامتها وكثرة شرهم[4] .

٣ — النظام الحربى

بلغ عدد الجيش فى عهد الخلفاء العباسيين مئات الألوف من الجند الذين كانوا يكونون الجيش النظامى للدولة . وكانت رواتبهم تدفع لهم بانتظام . ثم قلت أرزاقهم تبعاً لقلة عددهم . ولما بلغت قوة العباسيين أشدها فى بغداد أصبح الجندى يتقاضى راتباً شهرياً قدره عشرون درهماً (والدرهم يساوى أربعة قروش تقريباً) . وبجانب الجنود النظامية طائفة أخرى من الجنود المتطوعة من البدو وطبقة الزراع وسكان المدن الذين اشتركوا فى الحروب ، مدفوعين بعوامل دينية أو مادية .

وكان تقسيم الجند تابعاً لجنسية أفراده . فنهم الحربية ، وهم الفرسان الذين كانوا يتسلحون بالرماح وهم من جند العرب ، والمشاة وكانوا من الفرس ولاسيما الخراسانيين . وكان الجند العربى حتى آخر عهد الدولة الأموية من العرب . ولما جاءت الدولة العباسية بمساعدة الفرس ، دخل فى الجيش العربى العنصر الفارسى الذى تغلغل نفوذه فى جسم الدولة .

ولم يكن اعتماد الخلفاء العباسيين على الفرس راجعاً إلى مساعدة هؤلاء لهم فى تأسيس دولتهم ، بل كان راجعاً أيضاً إلى العصبية التى كانت تشتعل نارها بين الجند العربى من حين إلى حين ، حتى إن أبا جعفر المنصور فكر فى تأسيس

---

(١) أى بعد صلاة العشاء .
(٢) بواب يعرف أهل الزقاق ويفتح لهم الباب .
(٣) الشاطر : الخبيث .
(٤) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٠٣ .

الكرخ جنوبي بغداد ، ليبعد عنه خطر جنده من اليمنيـــة والمضرية[1] . فقد تعرض عربي من عرب الشمال للخليفة المأمون مراراً وقال له . انظر لعرب الشام كما نظرت إلى عجم خراسان ، قال : أكثرت على يا أخا الشام ، والله ما أنزلت قيسا عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق فى بيت مالى درهم واحد ، وأما اليمن فوالله ما أحببتها وما أحبتنى قط . وأما قضاعة فسادتها تنتظر السفيانى وخروجه فتكون من أشياعه . وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم من مضر ، ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما شاريا أعزب فعل الله بك » .

ولما ولى المعتصم الخلافة سنة ٢١٨ هـ ، رأى أن دولته الواسعة لابد أن يقوم بحراستها جيش قوى ، فاستكثر من الأتراك ، لأن أمه كانت تركية ، فولاهم حراسة قصره ، وأسند إليهم أعلى المناصب ، وقلدهم الولايات الكبيرة ، وآثرهم على الفرس والعرب فى كل شىء ، فدبت الغيرة والحسد فى نفوس القواد ، وبخاصة العرب ، فعملوا على التخلص منهم ، وأغروا العباس بن المأمون بالمطالبة بالخلافة ، ودبروا المكايد للتخلص من المعتصم ، ولكنه قضى على هذه المؤامرة وقتل العباس كما تقدم .

وكان من أثر هذه المؤامرة أن أقصى المعتصم القواد من العرب والفرس تدريجيا ، ومحا أسماءهم من ديوان العطاء ، وزاد اعتماده على الأتراك حتى أربى عددهم على السبعين ألفاً .

من هذا نرى أن العصبية فى الجيش لم تقتصر على العصبية العربية القبلية بين اليمنية والمضرية ، بل تعدت ذلك إلى العصبية القومية التى قامت بين الترك والعرب ، تلك العصبية التى ظهرت فى عهد المعتصم وكادت تودى بحياته حين سار لمحاربة الإمبراطور البيزنطى تيوفيل . إلا أن المجال لم يتسع لها ، لأن الأتراك أقصوا العرب نهائياً ، وأصبح لهم الأمر والنهى ، فاندمجوا فى الأهلين واشتغلوا

---

(١) الطبرى ج ٩ ص ٢٨١ — ٢٨٢ .

بالزراعة والصناعة والتجارة . كما استعان المعتصم بفرق من المصريين أطلق عليهم المغاربة ، ومن الخزر ، كما استعان بالمتطوعة الذين كانوا ينضمون إلى الجيش مدفوعين بالرغبة في الجهاد أو سعيا وراء الكسب . وكان لهؤلاء أثر يذكر في حرب بابك الخرمى وفى محاربة البيزنطيين .

ونتبين وصف الآلات الحربية التى استعملها العباسيون مما ذكره المسعودى[١] عن حصار جند المأمون بغداد :

« ونصب له (هرثمة بن أعين) على بغداد المنجنيقات ، ونزل فى رقة كلواذى والجزيرة ، فتأذى الناس به ، وصعد نحوه خلق من العيارين[٢] وأهل السجون — وكانوا يقاتلون عراة فى أوساطهم التبابين[٣] والمآزر[٤] . وقد اتخذوا لرؤوسهم دواخل من الخوص سموها الخوذ ، ودرقا[٥] من الخوص والبوارى[٦] قد قيرت[٧] وحشيت بالحصى والرمل ، على كل عشرة عريف ، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب ، وعلى كل عشرة نقباء قائد ، وعلى كل عشرة قواد أمير ، ولكل ذى مرتبة من الركوب على مقدار ما تحت يده . فالعريف له أناس مركبهم غير من ذكرنا من المقاتلة . كذلك النقيب والقائد والأمير يركبون أناساً عراة قد جعل فى أعناقهم الجلاجل والصوف الأحمر والأصفر ومقاود قد اتخذت لهم ولجم من مكانس ومذاب ، فيأتى العريف وقد أركب واحد ، وقدامه عشرة من المقاتلة . . . ويأتى النقيب والقائد والأمير كذلك . فتقف النظارة ينظرون إلى

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٠٧ — ٣٠٨ .

(٢) قوم يختفون نهاراً ويظهرون ليلا ، وهم لصوص .

(٣) التبابين : جمع تبان (بالضم والتشديد) وهى سراويل صغيرة مقدار شبر تستر العورة المغلظة فقط ، تكون للملاحين والمصارعين .

(٤) المآزر : جمع مئزر وهو الملحفة ، وكل ما سترك .

(٥) الدرق : جمع درقة ، الجحفة : هى ترس من جلود ليس فيه خشب ولا عقب .

(٦) جمع بورى أو بورية ، وهو الحصير المنسوج من القنب ، فارسى معرب .

(٧) قير الشىء : طلاه بالقار وهو الزفت .

حربهم أصحاب الخيول الفره[١] والجواشن[٢] والدروع والتجافيف[٣] والرماح والدرّق التبتية »[٤] .

وكان عرض الجيش جزءاً من تدريب الجند فى أوائل عهد الدولة العباسية ، وخاصة فى عهد أبى جعفر المنصور الذى اهتم بالشئون الحربية اهتماماً كثيراً . وكان يلذ له أن يعرض جنده وهو جالس على عرشه ، لابساً خوذته . وكان الجنود تصف أمامه فى ثلاثة أقسام : عرب الشمال (مضر) ، وعرب الجنوب اليمن ، والخراسانيون . ولكى يحمى العرب أنفسهم من غارات الروم أقاموا الحصون على تخوم دولتهم وهى الثغور ، مثل طرسوس وأذنة والمصيصة ومرعش وملطية ، وكانت هذه الثغور تقع طوراً فى أيدى العرب وطوراً فى أيدى الروم . ولما ولى هارون الرشيد الخلافة حصن هذه المدن الحصينة وأطلق عليها اسم الثغور[٥] .

٤ — النظام المالى

تعمل السياسة المالية لكل دولة على تحقيق التوازن بين مواردها ومصارفها . وقد سارت الدولة الإسلامية على هذه السياسة منذ ظهورها ، فأنشئت بيتا المال يقوم على صيانته وحفظه والتصرف فيه لصالح الجماعة الإسلامية ، وهو يشبه وزارة المالية ، وصاحبه يقوم مقام وزير المالية فى الوقت الحاضر .

وأهم موارد بيت المال : الخراج ، والجزية ، والزكاة ، والفيء ، والغنيمة ، والعشور . وقد زادت الضرائب فى عهد بنى أمية على ما كانت عليه فى عهد الخلفاء الراشدين ، إذ لم يراع الخلفاء الأمويون القواعد التى قررها أسلافهم ، بل تجاوزوا حدود الضرائب التى فرضوها . وسن الأمويون نظاماً دقيقاً للإشراف على جباية الأموال . ففى عهد عبد الملك بن مروان كان يعمل تحقيق دقيق مع الجباة وموظفى الخراج عند اعتزالهم أعمالهم الإدارية . وكان للتحقيق مع هؤلاء أماكن خاصة تسمى « دار الاستخراج » . وفى العصر العباسى الأول كانت هناك ثلاثة طرق لجباية الخراج .

---

(١) الفره : جمع فاره وهو النشيط .

(٢) الجشن : مثل الزرد يلبس على الظهر ، والفرق بينه وبين الزرد أن الزرد يكون من حلقة واحدة فقط ، والجوشن حلقة تتداخل فيها صفائح رقيقة من التنك .

(٣) جمع تجفاف ، وهو ما حلل به الفرس من سلاح وآلة تقيه الجراح .

(٤) هذه النسبة إلى « تبت » بأرض الترك .

(٥) حسن إبراهيم حسن : النظم الإسلامية ص ١٨٦ — ١٨٧ .

١ — المحاسبة ، وهى إما أن تكون نقداً أو نوعا أو هما معا .

٢ — المقاسمة ، وهى ضريبة نوعية تؤخذ عن المحصول .

٣ — المقاطعة ، وهى ضريبة تجبى بمقتضى اتفاقات معينة بين الحكومة والخاصة . ويدخل فى هذا النظام معظم أراضى التاج . وكثيراً ما كان يعفى البعض من دفع الضرائب حتى فى العهود التى ساد فيها العسر والجدب . مثال ذلك أن الخليفة المعتضد العباسى (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) تجاوز عن ربع الضريبة بإرجائه السنة المالية من منتصف مارس إلى ١٧ يونيه « ربيع الأول » ثم بإرجائها مرة أخرى إلى ٢١ يولية .

وإذا ذكرنا رخاء الدولة وحسن حالة الزراع ونفاق التجارة ، فإننا لا نعجب إذا علمنا أن دخل الدولة العباسية فى عهد هارون الرشيد بلغ ٢٧٢٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم وأربعة ملايين ونصف من الدنانير فى السنة[(١)] .

وقد اهتم العباسيون بالخراج اهتماما عظيما ، وعلى الأخص فى عهد هارون الرشيد ، الذى أمر أبا يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصارى صاحب الإمام أبى حنيفة النعمان بن ثابت ومن أشهر فقهاء عصره ، أن يكتب فى الخراج كتابا جامعا « يعمل به فى جباية الخراج والعشور والصدقات والجوالى[(٢)] ، وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به ، وإنما أراد بذلك رفع الظلم عن رعيته والصلاح لأمرهم »[(٣)] . وقد بين أبو يوسف فى هذا الكتاب الطريقة المثلى لتنظيم جباية الخراج وغيره من موارد بيت المال ، فسمى كتابه « كتاب الخراج » ، وقد تناول المؤلف الكلام على ثلاثة أمور :

الأول : موارد بيت المال ، وتنقسم ثلاثة أقسام :

١ — خمس الغنائم .

---

(١) Sayed Ameer Ali, p. 426 et seq.

(٢) الجوالى هى اختيار الأحسن من كل شىء سواء أكان من الممتلكات أو من الشاء ، الهزيل منها والصغير . وربما كانت هذه وظيفة العامل فى الزكاة .

(٣) أبو يوسف : كتاب الخراج (القاهرة سنة ١٣٤٦ هـ) ص ٣ .

٢ — الخراج ويدخل تحته مايسمى وظيفة الأرض الخراجية . ثم جزية أهل الذمة ، ثم العشور . وقد أدخلت فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ؛ ومن ثم لم يرد لها ذكر فى القرآن الكريم . وحد أرض الخراج : كل أرض من أراضى الأعاجم ظهر عليها المسلمون عنوة فلم يقسمها الإمام ، وأبقاها بأيدى أهلها ، أو صالحهم عليها وصيرهم ذمة . ويخرج من ذلك أنواع من الأرض لايوضع عليها الخراج ، وإنما تكون أرضاً عشرية ، وهى كل أرض للعرب غير بنى تغلب ، وكل أراضى الأعاجم أسلم عليها أهلها طوعا ، وكذلك كل أرض من أراضى الأعاجم ظهر عليها المسلمون عنوة فقسمها الإمام بين الفاتحين .

٣ — الصدقات .

الثانى : بيان الطريقة المثلى لجباية تلك الأموال .

الثالث : بيان الواجبات التى يقوم بها بيت المال .

وقد عمل الخلفاء العباسيون على عدم إرهاق المزارعين ، وعنى البعض بوضع قواعد ثابتة لمقدار الخراج على حسب نوع المحصول وجودة الأرض ، وراعوا خفض الضرائب فى بعض الأحيان إذا قل المحصول لسبب من الأسباب .

وصفوة القول أن خزائن العباسيين كانت تفيض بالأموال التى كانت تجبى من الضرائب حتى بلغت فى أيام هارون الرشيد مايقرب من اثنين وأربعين مليون دينار ، عدا الضريبة العينية التى كانت تؤخذ مما تنتجه الأرض من الحبوب[1] . ويرجع الفضل فى ذلك إلى الإصلاحات التى أدخلها أبو جعفر المنصور على ضريبة الأرض فى السواد . وذلك أن الخراج كان يأخذ نقداً على مساحة الأرض سواء زرعت أو لم تزرع ؛ فوضع نظام المقاسمة الذى تقدمت الإشارة إليه ، والذى يقضى بأن يدفع الزارع جزءاً من غلة الأرض ويبق له مايكفيه . كما شدد الرقابة على جباة الضرائب حتى لايظلموا الناس أو يستأثروا بأموال الدولة . وليس أدل على دقة المنصور وحرصه ما كان من محاسبته البنائين وغيرهم عند بناء مدينة بغداد حتى رماه بعض المؤرخين بالبخل ولقبوه الدوانيق .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٧٠ .

وقد بلغ ماحمل إلى الرشيد من المال فى كل سنة نحو خمسمائة ألف ألف درهم من الفضة وعشرة آلاف ألف دينار من الذهب . ويقول الجهشيارى[1] إن أبا الوزير عمر بن مطرف الكاتب « عمل فى أيام الرشيد تقديراً عرضه على يحيى ابن خالد (البرمكى) لما يحمل إلى بيت المال بالحضرة من جميع النواحى من المال والأمتعة » جاء فيه :

أثمان غلات السواد : ثمانون ألف ألف ، وسبع مئة ألف ، وثمان ألف درهم .

أبواب المال بالسواد : أربعة عشر ألف ألف ، وثمانى مئة ألف درهم ، الحلل النجرانية مئتا حلة ، الطين للختم : مئتان وأربعون رطلا .

كسكر : أحد عشر ألف ألف ، وست مئة ألف درهم .

كور دجلة : عشرون ألف ألف ، وثمانى مئة ألف درهم .

حلوان : أربعة آلاف ألف ، وثمانى مئة ألف درهم .

الأهواز : خمسة وعشرون ألف ألف درهم . السكر : ثلاثون ألف رطل .

فارس : سبعة وعشرون ألف ألف درهم . ماء الزبيب الأسود : عشرون ألف رطل . الرمان والسفرجل : مائتا ألف وخمسون ألفاً ، ماء الورد : ثلاثون ألف قارورة ، الأنبجات[2] : خمسة عشر ألف رطل ، الطين السيرافى ، خمسون ألف رطل ، الزبيب — بالكر الهاشمى — ثلاثة أكوار .

كرمان : أربعة آلاف ألف ومئتا ألف درهم ، المتاع اليمنى والخبيصى[3] : خمس مئة ثوب ، التمر : عشرون ألف رطل ، الكمون : مئة رطل .

مكران : أربع مئة ألف درهم .

السند وما يليها : أحد عشر ألف ألف ، وخمسة مئة ألف درهم ، الطعام بالقفيز الكبيرج : ألف ألف قفيز ، الفيلة : ثلاثون فيلة ، الثياب الحبشية : ألفا ثوب ، الفوط : أربعة آلاف فوطة ، العود الهندى : مئة وخمسون مناً ، ومن

---

(١) كتاب الوزراء والكتاب ص ٢٨١ — ٢٨٢ .

(٢) هى مانسميه الآن (المانجو) وكانوا يتخذون منه مربى .

(٣) خبيص : بلدة بكرمان .

سائر أصناف العود : مئة وخمسة منأ ، النعال : ألفا زوج ، وذلك سوى القرنفل والجوْزبوا .

سجستان : أربعة آلاف ألف وست مئة ألف درهم ، الثياب المعينة : ثلاث مائة ثوب ، الفانيذ[1] : عشرون ألف رطل .

خراسان : ثمانية وعشرون ألف ألف درهم ، نقر الفضة الأمناء : ألفا نقرة البراذين أربعة آلاف برذون ، الرقيق : ألف رأس ، المتاع: سبعة وعشرون ألف ثوب ، الإهليج : ثلاث مئة رطل .

جرجان : اثنا عشر ألف ألف درهم ، الإبريسم : ألف منأ .

قومس ألف ألف ، وخمس مئة ألف درهم ، نقر الفضة الأمناء ألف نقرة . الأكسية : سبعون كساء ، الرمان : أربعون ألف رمانة .

طبرستان ، والرويان ودنباوند : ستة آلاف ألف ، وثلاثة مئة ألف درهم ، الفرش الطبرى : ست مئة قطعة ، الأكسية : مئتا كساء ، الثياب : خمسمائة ثوب ، المناديل : ثلاثمائة منديل ، الجامات : ستمائة جام .

الرى : اثنى عشر ألف درهم ، الرمان : مئة ألف ألف رمانة ، الخوخ : ألف رطل .

أصفهان : سوى خمتش ورسانيق عيسى راديس : أحد عشر ألف ألف درهم ، العسل عشرون ألف رطل ، الشمع عشرون ألف رطل .

همذان ودستبى : أحد عشر ألف ألف رطل ، وثمانى مئة ألف درهم ، الرب والرمانين[2] : ألف منا ، العسل الاروندى : عشرون ألف رطل .

ماهى البصرة والكوفة : عشرون ألف ألف وسبع مئة ألف درهم .

شهرزور ومايليها : أربعة وعشرون ألف ألف درهم .

المَوْصِل وما يليها : أربعة وعشرون ألف ألف درهم ، العسل الأبيض : عشرون ألف رطل .

الجزيرة ، والديارات ، والفرات ، أربعة وثلاثون ألف ألف درهم .

---

(١) فى القاموس : الفانيذ ضرب من الحلواء معرب (بانيد) .

(٢) كذا فى تاريخ ابن خلدون وفى الأصل (رب والريباس) .

أذربيجان : أربعة آلاف ألف درهم .

موقان وكرَج : ثلاثة مئة ألف درهم .

جيلان ، من الرقيق : مائة رأس ، البز والطيلسان[1] من العسل ، إثنا عشر زقا ، من البزاة : عشر بزاة . ومن الأكسية : عشرون كساء .

أرمينية : ثلاثة عشر ألف ألف درهم ، البسط ، عشرون بساطاً ، والرقم : خمس مائة وثمانون قطعة ، المالح المنبوذ ما هي : عشرة آلاف رطل ، الطريخ : عشرة آلاف رطل ، البزاة ثلاثون بازيا ، البغال : مئتا بغل .

قنسرين والعواصم : أربع مئة ألف وتسعون ألف دينار .

حمص : ثلاث مئة ألف وعشرون ألف دينار ، الزبيب : ألف راحلة .

دمشق : أربع مئة ألف وعشرون ألف دينار .

الأردن : ستة وتسعون ألف دينار .

فلسطين : ثلاث مئة ألف وعشرون ألف دينار ، ومن جميع أجناد الشام من الزبيب ثلاث مئة ألف رطل .

مصر : سوى تنيس ودمياط والأشمونين ، فإن هذه وقفت للنفقات ، ألف ألف وتسع مئة وعشرون ألف دينار .

برقة : ألف ألف درهم .

إفريقية : ثلاثة عشر ألف ألف درهم ، ومن البسط : مئة وعشرون بساطاً

اليمن : سوى الثياب ، ثماني مائة ألف ، وسبعون ألف دينار .

مكة والمدينة : ثلاث مائة ألف دينار .

جملة التقدير : فذلك العين ، خمسة آلاف دينار ، قيمتها حساب اثنين وعشرين درهما بدينار : مئة ألف ألف ، وخمسة وعشرون ألف ألف وخمس مئة واثنان وثلاثون ألف درهم ، الورق أربع مئة ألف ألف ، وأربعة آلاف ألف ، وسبع مئة ألف ، وثمانية آلاف درهم ، يكون الورق مع قيمة العين — خمس مئة ألف ألف وثلاثين ألف ألف ، واثنى عشر ألف درهم .

---

(١) يذكر أمامها تقدير في الأصل .

كذلك أورد ابن خلدون[١] بيانا مفصلا بجباية الخراج فى عهد الخليفة المأمون ، وقد نقله عنه جرجى زيدان [٢] . وإليك خراج الدولة فى هذا العهد :

أسماء الأقاليم	مقدار الجباية بالدرهم	الأموال والغلال
السواد	٢٧ر٨٠٠ر٠٠٠	ومن الحلل النجرانية ٢٠٠ حلة ، ومن طين الختم ٢٤٠ رطلا
كسكر	١١ر٦٠٠ر٠٠٠	
كور دجلة	٢٠ر٨٠٠ر٠٠٠	
حلوان	٤ر٨٠٠ر٠٠٠	
الأهواز	٢٥ر٠٠٠ر٠٠٠	وسكر ٣٠ر٠٠٠ رطل
فارس	٢٧ر٠٠٠ر٠٠٠	ومن ماء الورد ٣٠ر٠٠٠ قارورة ، ومن الزيت الأسود ٢٠ر٠٠٠
كرمان	٤ر٢٠٠ر٠٠٠	ومتاع يمانى ٥٠٠ ثوب ، وتمر ٢٠ر٠٠٠ رطل
مكران	٤٠٠ر٠٠٠	
السند وما يليه	١١ر٥٠٠ر٠٠٠	وعود هندى ١٥٠ رطل
سجستان	٤ر٠٠٠ر٠٠٠	ومن الثياب المعينة ٣٠٠ ثوب ومن الفانيذ ٢٠ رطلا
خراسان	٢٨ر٠٠٠ر٠٠٠	ومن نقر الفضة ٢ر٠٠٠ نقرة و ٤ر٠٠٠ برذون و ١ر٠٠٠ رأس رقيق و ٢٠ر٠٠٠ ثوب متاع و ٣٠ر٠٠٠ إهليج
جرجان	٢ر٠٠٠ر٠٠٠	و ١ر٠٠٠ شقة إبريسم
قومس	١ر٥٠٠ر٠٠٠	ومن نقر الفضة ١ر٠٠٠ نقرة
طبرستان والرويان ودماوند	٦ر٣٠٠ر٠٠٠	و ٦٠٠ قطعة من الفرش الطبرى و ٢٠٠ أكسية و ٥٠٠ ثوب و ٣٠٠ منديل و ٣٠٠ جام
الرى	١٢ر٠٠٠ر٠٠٠	و ٢٠ر٠٠٠ رطل عسل
همذان	١١ر٣٠٠ر٠٠٠	و ١ر٠٠٠ رطل رب الرمانين و ١٢٠٠٠ رطل عسل
ماهاالبصرة والكوفة	١٠ر٧٠٠ر٠٠٠	
ماسبذان والريان	٤ر٠٠٠ر٠٠٠	
شهر زور	٩ر٧٠٠ر٠٠٠	
الموصل وما يليها	٢٤ر٠٠٠ر٠٠٠	و ٢٠ر٠٠٠ رطل عسل
أذربيجان	٤ر٠٠٠ر٠٠٠	
الجزيرة وما يليها من أعمال الفرات	٣٤ر٠٠٠ر٠٠٠	و ١ر٠٠٠ رأس رقيق و ١٢ر٠٠٠ زق عسل ، وعشر بزاة و ٣٠ كساء

(١) مقدمة ص ١٥٦ — ١٥٨ .

(٢) كتاب التمدن الإسلامى ج ٢ ص ٥٣ — ٥٥ .

أسماء الأقاليم	مقدار الجباية بالدرهم	الأموال والغلات
أرمينية	١٣،٠٠٠،٠٠٠	و٢٠ درهم من القسط المحفور ، ٥٣٠ رطلا من الرقم ، و ٠٠٠ ر ١٠ رطل من المسايح السورماهى ، و ٠٠٠ ر ١٠ رطل من الصونج ، ٢٠٠ بغل ، ٣٠ مهراً
برقة	١،٠٠٠،٠٠٠	
إفريقية	١٣،٠٠٠،٠٠٠	و ١٢٠ بساطاً
المجموع الكلى	٣١٨،٦٠٠،٠٠٠	درهم
	من الدنانير	
قنسرين	٤٠٠،٠٠٠	و ٠٠٠ ر ١ حمل زيت
دمشق	٤٢٠،٠٠٠	
الأردن	٩٧،٠٠٠	
فلسطين	٣١٠،٠٠٠	و ٠٠٠ ر ٣٠٠ رطل زيت
مصر	٢،٩٢٠،٠٠٠	
اليمن	٣٧٠،٠٠٠	سور المتاع لم يذكر
الحجاز	٣٠٠،٠٠٠	
المجموع الكلى	٤،٨١٧،٠٠٠	دينار ، تساوى ٠٠٠ ر٢٥٥ ر ٧٢ درهم باعتبار الدينار ١٥ درهما وهو تقديره فى ذلك العصر
فيكون المجموع بالدرهم	٧٢،٢٥٥،٠٠٠	
يضاف إليه جباية الأقاليم المذكور أعلاه	٣١٨،٦٠٠،٠٠٠	
فتكون الجملة	٣٩٠،٨٥٥،٠٠٠	درهم

من هذه القائمة نرى أن خراج أقاليم المشرق كان يقدر بالدراهم وخراج أقاليم المغرب بالدنانير (إلا برقة وإفريقية) . وسنرى نحو ذلك أيضاً فى القائمتين الأخريين والسبب فى ذلك — على ما يظهر — يرجع إلى أن مناجم الفضة كانت أكثر فى أقاليم المشرق منها فى المغرب ، وبعكس ذلك مناجم الذهب .

فمجموع جباية أقاليم المشرق (مع برقة وإفريقية) ٠٠٠ر٦٠٠ر٣١٨ درهم ومجموع أقاليم المغرب ٠٠٠ر٨١٧ر٤ دينار. وبتحويل هذه الدنانير إلى دراهم يكون مجموعها ٠٠٠ر٢٥٥ر٧٢ درهم . وبإضافة مقدار جباية المغرب إلى مقدار جباية المشرق ، يبلغ مجموع الجباية ٨٥٥٠٠٠ر ٣٩٠ درهم . هذا عدا خراج الكرخ ويبلغ ٠٠٠ر٣٠٠ درهم ، وجيلان ويبلغ خراجها ٠٠٠ر٠٠٠ر٥ درهم . وعلى هذا يكون مجموع جباية الدولة العباسية فى عهد المأمون نحو ٠٠٠ر٠٠٠ر٤٠٠ درهم عدا الأموال والغلات الأخرى وقد جرت العادة أن تقدر الغلات بما تساويه نقداً ، كما فعل صاحب جراب الدولة فى غلات السواد ، ومعظمها فى الأصل من الحنطة ، كما سنرى فى تفصيل طساسيج (أى نواحى) السواد من قائمتى قدامة ابن جعفر وابن خرداذبه . وكان يصل إلى بيت المال ببغداد صافى ما يتحصل من الجباية فى الأقاليم بعد دفع أموال الجند وما تتطلبه الجباية من نفقات ، وإصلاح الترع وما ينفق على الدواوين ، وما يتطلبه الخليفة ووزرائه وكتابه ورجال بلاطه[١] .

وإليك بيان خراج الدولة العباسية فى عهد المعتصم على ما أورده قدامة ابن جعفر[٢]. وقد ذكر مقدار كل من الحنطة والشعير مفصلا باعتبار طساسيج السواد ، أى نواحيه فى الشرق والغرب .

١ — طساسيج السواد فى الجانب الغربي :

اسم الناحية	الحنطة بالكر	الشعير بالكر	الدراهم
الأنبار ونهر عيسى	٨٠٠ر١١	٤٠٠ر٦	٠٠٠ر٤٠٠
طسوج مكسن	٠٠٠ر٣	٠٠٠ر١	٠٠٠ر١٥٠
طسوج قطر بل	٠٠٠ر٢	٠٠٠ر١	٠٠٠ر٣٠٠
طسوج بادوريا (بادرايا)	٥٠٠ر٣	٠٠٠ر١	٠٠٠ر٠٠٠ر١
نهر سير	٧٠٠ر١	٧٠٠ر١	٠٠٠ر١٥٠
الرومقان	٣٠٠ر٣	٣٠٠ر٣	٠٠٠ر٢٥٠

(١) جرجى زيدان : كتاب التمدن الإسلامى ج ٢ ص ٥٥ ـ ٥٦

(٢) كتاب الخراج (طبعة ليدن سنة ١٣٠٦ هـ) ص ٢٣٧ ــ ٢٤٠ . انظر جرجى زيدان : كتاب التمدن الإسلامى ج ٢ ص ٥٧ ــ ٥٩ .

اسم الناحية	مقدار الحنطة بالكر	مقدار الشعير بالكر	الدراهم
كوثى	٣ر٠٠٠	٢ر٠٠٠	٣٥ر٠٠٠
نهر درقيط	٢ر٠٠٠	٢ر٠٠٠	٢٠٠ر٠٠٠
نهر جوبر	١ر٥٠٠	٦ر٠٠	١٥ر٠٠٠
باروسما ونهر الملك	٣ر٥٠٠	٤ر٠٠٠	١٢٢ر٠٠٠
الزوابى الثلاثة	١ر٥٠٠	٧ر٢٠٠	٣٥٠ر٠٠٠
بابل وخطرنية	٣ر٠٠٠	٥ر٠٠٠	٣٥٠ر٠٠٠
الفلوجة العليا	٥٠٠	٥٠٠	٧٠ر٠٠٠
الفلوجة السفلى	٢ر٠٠٠	٣ر٠٠٠	٢٨٠ر٠٠٠
طسوج النهرين	٣٠٠	٤٠٠	٤٥ر٠٠٠
طسوج عين التمر	٣٠٠	٤٠٠	٤٥ر٠٠٠
طسوج الحية والبداة	١ر٥٠٠	١ر٦٠٠	١٥٠ر٠٠٠
سورا وبربسيا	١ر٥٠٠	٤ر٥٠٠	٢٥٠ر٠٠٠
البزس الأعلى والأسفلى	٥٠٠	٥ر٥٠٠	١٥٠ر٠٠
فرات بادقلى	٢ر٠٠٠	٢ر٥٠٠	٦٢ر٠٠٠
طسوج السيلحين	١ر٠٠٠	١ر٥٠٠	١٤٠ر٠٠٠
روذمستان وهرمزجرد	٥٠٠	٥٠٠	٢٠ر٠٠٠
تستر	٢ر٢٠٠	٢ر٠٠٠	٣٠٠ر٠٠٠
إيغاد يقتين	١ر٢٠٠	٢ر٠٠٠	٢٠٤ر٨٠٠
كسكر	٣٠ر٠٠٠	٢ر٠٠٠	٢٧ر٠٠٠

طساسيج السواد فى الجانب الشرقى :

طسوج بزر جسابور	٢ر٥٠٠	٢ر٢٠٠	٣٠٠ر٠٠٠
« الواذ نين	٤ر٨٠٠	٤ر٨٠٠	١٢٠ر٠٠٠
« نهر بوق	٢٠٠	١ر٠٠٠	١٠٠ر٠٠٠
كلواذى ونهر بين	١ر٦٠٠	١ر٥٠٠	٣٣٠ر٠٠٠
جازر والمدينة العتيقة	١ر٠٠٠	١ر٥٠٠	٣٤٠ر٠٠٠
روستقباذ	١ر٠٠٠	١ر٤٠٠	٢٤٦ر٠٠٠

اسم الناحية	مقدار الحنطة بالكر	مقدار الشعير بالكر	الدراهم
سلسل ومهروذ	٢ر٠٠٠	١ر٥٠٠	١٥٠ر٠٠٠
جلولا وجللتا	١ر٠٠٠	١ر٠٠٠	١٠٠ر٠٠٠
الذيبين	١ر٩٠٠	١ر٣٠٠	٤٠ر٠٠٠
الدسكرة	١ر٨٠٠	١ر٤٠٠	٦٠ر٠٠٠
البندنيجين	٦٠٠	٥٠٠	٣٥ر٠٠٠
طسوج براز الروذ	٣ر٠٠٠	٥ر١٠٠	١٢٠ر٠٠٠
النهروان الأعلى	١ر٧٠٠	١ر٨٠٠	٣٥ر٠٠٠
النهروان الأوسط	٢ر٠٠٠	٥٠٠	١٠٠ر٠٠٠
بادرايا وباكسايا	٤ر٧٠٠	٥ر٠٠٠	٣٣٠ر٠٠٠
كور دجلة	٩٠٠	٤ر٠٠٠	٤٣٠ر٠٠٠
نهر الصلة على تلك العبرة	١ر٠٠٠	٣ر١٢١	٥٩ر٠٠٠
النهروان الأسفل	١ر٧٠٠	١ر٣٠٠	٥٣ر٠٠٠
مجوع حراج السواد	١١٥ر٦٠٠	١٢٣ر٩٢١	٨ز٨٢١ر٨٠٠

فجموع جباية السواد باعتبار نواحيه ١١٥ر٦٠٠ كر حنطة ، ١٢٣ر٩٢١ كر شعير ٨ ر ٨٢١ ر ٨٠٠ درهم . على أن هذا المجموع يختلف عما ذكره قدامة بعد أن أورد خراج كل ناحية بالتفصيل كما تقدم . فقد ذكر فى إيراد المجموع : « فذلك ارتفاع السواد سوى صدقات البصرة من الحنطة ١٧٧ر٢٠٠ كر ومن الشعير ٩٩ ر ٧٢١ كراً ، ومن الورق ٨ ر ٠٩٥ر٨٠٠ درهم » . ولعل السبب فى هذا الفرق خطأ قراءة بعض الأعداد . على أن الفرق على كثرته لا يعتد به .
بقى علينا أن نحول الحنطة والشعير إلى دراهم . وقد فعل قدامة ذلك فحولها باعتبار ثمن الكرين المقرونين من الحنطة والشعير ستين ديناراً . والدينار على صرف خمسة عشر درهما بدينار ، فبلغ ذلك ١٠٠ر٣٦١ر٨٥٠ درهما ، وقال إن صدقات البصرة ترتفع فى السنة ٦ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم ، فإذا جمعت ذلك كله بلغ ١١٤ر٤٤٧و٦٥٠ درهما على هذه الصورة .

٨٠٩٦٨٠٠	الدراهم المجموعة ورقاً
١٠٠٣٦١٨٥٠	قيمة الحنطة والشعير بالدراهم
٦٠٠٠٠٠٠	صدقات البصرة
١١٤٤٥٧٦٥٠	درهم

موارد الجباية من أقاليم المشرق والمغرب مع السواد :

١ — أقاليم المشرق

أقاليم المشرق	دراهم	أقاليم المشرق	درهم
السواد	١٤٤٥٧٦٥٠	الرى وماودند	٢٠٨٠٠٠٠
الأهواز	٢٣٠٠٠٠٠٠	قزوين وزنجان وأبهر	١٨٢٨٠٠٠
فارس	٢٤٠٠٠٠٠٠	قومس	١١٥٠٠٠٠
كرمان	٦٠٠٠٠٠٠	جرجان	٤٠٠٠٠٠٧٠٠
مكرمان	١٠٠٠٠٠٠	طبرستان	٤٢٨٠٠٠٠
أصبهان	١٠٥٠٠٠٠٠	تكريت والطيرهان	٩٠٠٠٠٠
سجستان	١٠٠٠٠٠٠	شهرزور والصامغان	٢٧٥٠٠٠٠
خراسان	٣٧٠٠٠٠٠٠	الموصل وما يليها	٦٣٠٠٠٠٠
حلوان	٩٠٠٠٠٠	قردى وبذيدى	٣٢٠٠٠٠٠
ماه الكوفة	٥٠٠٠٠٠٠	ديار ربيعة	٩٦٣٥٠٠٠
ماه البصرة	٤٨٠٠٠٠٠	آرزن وميافارقين	٤٢٠٠٠٠٠
همذان	١٧٠٠٠٠٠	طرون	١٠٠٠٠٠
ماسبذان	١٢٠٠٠٠٠	آمد	٢٠٠٠٠٠٠
مهرجان قذق	١١٠٠٠٠٠	ديار مضر	٦٠٠٠٠٠٠
الإيفارين	٣٨٠٠٠٠٠	أعمال طريق الفرات	٢٩٠٠٠٠٠
قم وقاشان	٣٠٠٠٠٠٠		
أذربيجان	٣٥٠٠٠٠٠	المجموع الكلي	٣١١٥٨١٣٥٠

٢ – أقاليم المغرب

أقاليم المغرب	دينار	أقاليم المغرب	دينار
قنسرين والعواصم	٣٦٠ر٠٠٠	الحرمين	١٠٠ر٠٠٠
جند حمص	٢١٨ر٠٠٠	اليمن	٦٠٠ر٠٠٠
جند دمشق	١١٠ر٠٠٠	اليمامة والبحرين	٥١٠ر٠٠٠
جند الأردن	١٠٩ر٠٠٠	عمان	٣٠٠ر٠٠٠
جند فلسطين	٢٩٥ر٠٠٠		
مصر والإسكندرية	٢ر٥٠٠ر٠٠٠	المجموع	٥ر١٠٢ر٠٠٠
		وبتحويلها إلى دراهم باعتبار الدينار ١٥ درهما تساوى ٧٦ر٧١٠ر٠٠٠ درهما	

وبإضافتها إلى مجموع جباية أقاليم المشرق والجزيرة يكون مجموع ذلك كله ٣٥٠ ر ٢٩١ ٣٣٨ درهما ، وهو ارتفاع الخراج حسب تقدير قدامة .

من ذلك يتضح أن جباية الخراج فى عهد المأمون ٠٠٠ر١٥٥ر٣٩٦ درهم وفى عهد المعتصم ٣٥٠ ر ٢٩١ ر ٣٨٨ ذرهم[1] .

وكان المال الذى يأتى من الموارد المتقدمة ينفق على مصالح الدولة ، فتدفع منه أرزاق القضاة والولاة والعمال وصاحب بيت المال وغيرهم من الموظفين ، كما تدفع منه أعطيات الجند ، أى رواتبهم التى يستولون عليها فى أوقات معينة من السنة ، كما ينفق منه على كرى الأنهار وإصلاح مجاريها ، وكرى الترع التى تأخذ من الأنهار الكبيرة كدجلة والفرات لتوصيل الماء إلى الأراضى البعيدة ، والنفقة على المسجونين وأسرى المشركين من مأكل ومشرب وملبس ، ودفن من يموت منهم ، وشراء المعدات الحربية ، ومنح العطايا للعلماء والأدباء وغيرهم .

---

(١) قدامة بن جعفر : كتاب الخراج ص ٢٤٩ — ٢٥١ .

وكان النظام المالي في الأندلس يدور حول هذه الأمور الثلاثة وهي : الخزانة العامة ، وإدارة بيت المال ، وإدارة خاصة الأمير أو الخليفة .

وأما الخزانة العامة فكان يشرف عليها أحد كبار الموظفين ويسمى « خازن المال » ، ومقر هذه الخزانة القصر ، وفيها تودع الأموال التي تجبى من المدن والقرى . ومن أهمها : أموال التركات التي يموت عنها أصحابها دون أن يتركوا وارثاً ، والضرائب المفروضة على الأسواق ، والرسوم الجمركية التي تضرب على السفن ، والخراج ، والجزية ، والأعشار . وقد قيل إن عبد الرحمن الناصر خلف في بيوت الأموال خمسة آلاف ألف ألف . ولا ندرى إذا كان هذا الرقم بالدينار أو بالدراهم . ويغلب على الظن أنه بالدراهم ، لأنه إذا حسب دنانير تجاوز ٣٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار ، وفي هذا شيء كثير من المبالغة .

وقد ذكر المقرى[1] الذى عزا ذلك إلى ابن خلدون ، أن الناصر « كان يقسم الجباية أثلاثاً : ثلثا للجند ، وثلثاً للبناء ، وثلثاً مدخراً . وكانت جباية الأندلس يومئذ من الكور والقرى خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار . ومن السوق والمستخلص[2] سبعمائة ألف وخمس وستين ألف دينار . وأما أخماس الأموال العظيمة فلا يحصيها ديوان » .

وذكر ابن حوقل[3] أن عبد الرحمن الناصر استطاع أن يوفر حتى سنة ٣٤٠ هـ ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار ، وأنه لم يكن في زمانه سلطان استطاع أن يتوفر عنده مثل هذا المبلغ الضخم . إلا أبا تغلب الغضنفر بن ناصر الدولة الحسن بن عبد الله الحمداني (٣٥٨ — ٣٦٩ هـ) . أما ما يطلق عليه اسم بيت المال في الأندلس فكان يقتصر على ما يرد من الأوقاف ، وكان مقره المسجد الكبير بقرطبة . ويقوم هذا الديوان على حفظ المنشآت الدينية ، ودفع رواتب موظفي المساجد ، وتوزيع الصدقات في أماكن خاصة . ويقوم بالإشراف عليها قاضي القضاة ومن ينوبون.

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٧١ .

(٢) أي من الضرائب التي تجبى على التجارة

(٣) المسالك والممالك ص ٧٧ .

عنه تحت إشراف الخليفة . ويشبه من هذه الناحية بعض دواوين وزارة الأوقاف ووزارة الشئون الاجتماعية الآن .

وأما موارد الخليفة الخاصة ، فكان يشرف عليها موظف يعرف « بصاحب الدية » ، كما يشرف هذا الموظف على أراضى الأمير أو الخليفة ، ويقوم بزراعتها جماعة من المزارعين على أن يأخذوا جزءاً قليلا من المحاصيل لأنفسهم .

٥ — النظام القضائى

(ا) القضاء :

تطور النظام القضائى فى العصر العباسى الأول تطوراً كبيراً ، لأن روح الاجتهاد فى الأحكام ضعفت بسبب ظهور المذاهب الأربعة ، فأصبح القاضى يصدر أحكامه وفق أحد هذه المذاهب . فكان القاضى فى العراق يحكم وفق مذهب أبى حنيفة ، والشام والمغرب وفق مذهب مالك ، وفى مصر وفق المذهب الشافعى[١] . وإذا تقدم متخاصمان على غير المذهب الشائع فى بلد من البلاد أناب عنه قاضياً يحكم بمذهب المتخاصمين .

وقد عمد بعض الخلفاء العباسيين إلى حمل القضاة على السير وفق رغباتهم ليكسبوا أعمالهم صبغة شرعية ، حتى امتنع كثير من الفقهاء عن تولى القضاء خشية أن يحملهم الخليفة على الإفتاء بما يخالف الشريعة الإسلامية . لذلك نرى أبا حنيفة النعمان يعتذر عن تولى هذا المنصب فى عهد أبى جعفر المنصور ، ويقول له : اتق الله ، ولا ترع فى أمانتك إلا من يخاف الله . والله ما أنا مأمون الرضا ، فكيف أكون مأمون الغضب ؟ » . وكان بين أبى حنيفة ومحمد بن عبد الرحمن ابن أبى ليلى القاضى وحشة ، لاعتراض أبى حنيفة عليه فى أحكامه — وكان أصغر منه سنا — فشكاه إلى المنصور ، فمنعه من الفتيا[٢] .

وهناك كثير من الأمثلة تدل على أن الخلفاء العباسيين نقضوا العهد مع

---

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٣٣٣ — ٣٣٤ .

(٢) جرجى زيدان : التمدن الإسلامى ج ٢ ص ١٨٥ — ١٨٦ .

كثير من القواد العلويين وغيرهم بعد أن أعطوهم الأمان ، وذلك عن طريق فتاوى القضاة ، كما فعل أبو العباس السفاح مع ابن هبيرة ، وأبو جعفر المنصور مع أبى مسلم الخراسانى وعمه عبد الله بن على ، وهارون الرشيد مع يحيى بن عبد الله بن الحسن العلوى[١] .

ذلك أن ابن هبيرة تسلم من أبى جعفر المنصور كتابا يحمل إمضاء الخليفة السفاح يعطيه فيه الأمان . ولكن لم تمض أيام حتى قتل ابن هبيرة . كذلك غدر المنصور بعمه عبد الله بن على وبأبى مسلم الخراسانى . وإلى ذلك يشير محمد النفس الزكية فى رده على كتاب أبى جعفر . وأما يحيى بن عبد الله أخو محمد النفس الزكية ، فقد ثار فى بلاد الديلم وأقلق بال الرشيد ، فندب الفضل بن يحيى البرمكى لمحاربته ، فاستماله إلى الصلح على أن يكتب له الرشيد أماناً بخطه يشهد فيه القضاة والفقهاء وكبار بنى هاشم . فأجابه الرشيد إلى ما طلب وأرسل إليه الأمان . ثم قدم يحيى مع الفضل ، فتلقاه الرشيد بالحفاوة والإكرام . ولكنه لم يلبث أن حبسه فى داره ، واستفتى الفقهاء فى نقض الأمان ، فمنهم من أفتى بصحته ، ومنهم من أفتى ببطلانه فأبطله .

وقد اتخذ الخلفاء العباسيون نظام « قاضى القضاة »[٢] . وكان يقيم فى حاضرة الدولة ويولى من قبله قضاة ينوبون عنه فى الأقاليم والأمصار . وأول من تلقب بهذا اللقب أبو يوسف صاحب كتاب الخراج فى عهد هارون الرشيد .

وفى العصر العباسى الأول اتسعت سلطة القاضى ، فبعد أن كان عمله مقصوراً على الفصل بين الخصوم ، أصبح يفصل فى الدعاوى والأوقاف وتنصيب الأولياء . وممن نبغ من القضاة فى هذا العصر يحيى بن أكثم الذى قاد الجنود فى عهد المأمون لمحاربة الروم ، وأحمد بن أبى دؤاد قاضى القضاة فى عهد الواثق الذى أخذ الفقه عن يحيى بن أكثم .

---

(١) النظم الإسلامية للمؤلف ص ٢٨ .

(٢) كان قاضى القضاة تسمى أيضاً « أقضى القضاة » .

على أن أهم ما امتاز به العصر العباسي أنه أصبح في كل ولاية قضاة يمثلون المذاهب الأربعة ينظر كل منهم في النزاع الذي يقوم بين من تدينون بعقائد مذهبه[١].

ومما هو جدير بالملاحظة اتخاذ جماعة الشهود الدائمين أمام القاضي ، فيحدثنا الكندي[٢] أن القاضي إذا شهد عنده أحد كان معروفاً بالسلامة ، قبله القاضي ، وإذا كان غير معروف بها أوقف ، وإذا كان الشاهد مجهولا لايعرف سئل عنه جيرانه ، فما ذكروه به من خير أو شر عمل به . وكان غوث بن سليمان في خلافة أبي جعفر المنصور ، أول من سئل عن الشهود بمصر في السر ، ويرجع ذلك إلى كثرة شهادة الزور في زمنه . وقد عين القاضي مفضل بن فضالة رجلا يسمى « صاحب المسائل » مهنته الوقوف على حالة الشهود . كما أن القاضي العمري الذي ولي قضاء مصر من قبل الرشيد سنة ١٨٥ هـ دون أسماء الشهود في كتابه ، وحذا القضاة حذوه في هذا العمل . وبلغ من اهتمام القاضي عيسى بن المنكدر الذي ولي قضاء مصر سنة ٢١٢ هـ بأمر الشهود ، أن كان يتنكر بالليل ويغطي رأسه ، ويمشي في الطرقات ليسأل عنهم . ونجد في عهد بولاية القضاء في كتاب الخراج لقدامة بن جعفر أن التثبت في شهادة الشهود والمبالغة في السؤال عنهم والفحص عن وجوه عوالتهم والبحث عن حالاتهم من أهم واجبات القاضي في ذلك العصر .

وقد أدخل بعض قضاة العصر العباسي في مصر ضروباً من الإصلاح ؛ فقد طهر القاضي غوث (١٣٥ — ١٤٠ هـ) القضاء من العيوب التي كانت فاشية فيه ، وأخصها شهادة الزور ، فكان يسأل عن الشهود سراً ، فإذا تحقق من استقامتهم وحسن سيرتهم قبل شهادتهم . وكان — كما وصفه الكندي — « أعلم الناس بمعاني القضاء وسياسته » واشتهر بالعدل والاعتدال في أحكامه ، وبلغ مع عدله أنه جعل الخليفة المهدي وامرأة شكته إليه على قدم المساواة في

---

(١) النظم الإسلامية للمؤلف ص ٢٨١ .
(٢) كتاب القضاة ص ٤٢٣ — ٤٢٤ .

الحكم ، إذ ساوى بين الرجل الذى وكله الخليفة عنه وبين الخصم فى مجلس القضاء .

وبلغ من نزاهة القاضى أبى خزيمة (١٤٤ — ١٥٤ هـ) ، أنه كان لا يأخذ عطاءه عن اليوم الذى يقضيه بعيداً عن مجلس الحكم لغسل ثيابه أوحضور جنازة . وكان قضاة هذا العهد يقتدون بالرسول فى بعده عن مظاهر الكبرياء . فقد أثر عنه أنه كان يقضى كثيرا من حاجاته بنفسه[١] . وكان أبوه عبد الله بن لَهِيعة (١٥٤ — ١٦٤ هـ) أول قاض بمصر حضر فى الاحتفال لإثبات رؤية الهلال .

وقد أدخل المفضل بن فضالة (١٦٨ — ١٦٩ ، ١٧٤ — ١٧٧ هـ) كثيراً من ضروب الإصلاح على نظام القضاء ؛ فقد عنى بالسجلات وجعلها تامة وافية ، فدون فيها الوصايا والديون . كذلك كان أول من اتخذ « صاحب المسائل » ، ومهنته الوقوف على حقيقة الشهود . ويظهر أن هذا الإصلاح كان ظاهريا . فقد قيل إن هذا الموظف كان يرتشى من بعض الناس ليقرر عدالتهم لدى القاضى . على أن المفضل فطن إلى ضرر الاستعانة بهذا الموظف ، فعين عشرة رجال للشهادة ، ولكن هذا العمل لم يرق فى نظر الجمهور ، لاتخاذه الشهود بهذه القلة ، ولأنه عمل جديد لم يسبق إليه أحد القضاة ، فقال رجل يسمى إسحاق بن معاذ يقبح رأى القاضى :

سنَنتَ لنا الجور فى حكمنا وصيرت قوماً لصوصاً عدولا
ولم يسمع الناس فيا مضى بأن العدولَ عَـديداً قليلا[٢]

وقد نظم لهيعة بن عيسى (١٩٦ — ١٩٨ ، ١٩٩ — ٢٠٤ هـ) الأحباس ، وكانت فى أيامه على ما قاله هو لأصحابه : سألت الله أن يبلغنى الحكم فيها ، فلم أترك شيئاً منها حتى حكمت فيه ، وجددت الشهادة به » . ولا غرو فقد جمع أموال

---

(١) روى البخارى أن السيدة عائشة سئلت : « ما كان النبى صلى الله عليه وسلم يصنع فى البيت ؟ قالت : كان فى مهنة أهله ، فإذا سمع الأذان خرج .

(٢) أن تنصب الإسم وترفع الخبر ، وقد نصب الجزئين كما هو فى هذا البيت كما فى قولهم إن حراسنا أسداً كما وردت فى كلام العرب .

الأحباس ، وخصص نصيباً منها لأهل مصر كما أدخل فيها المطوعة الذين كانوا يعمرون المواحيز[١] وأجرى عليهم العطاء من الأحباس . فكان ذلك أول ما فرضت فروض القضاة . ثم سن الناس هذه السنة بعد لهيعة ؛ فسميت هذه الأحباس فرض لهيعة ، ثم سميت بعد ذلك فروض القاضى . على أن لهيعة أغضب أهل مصر ، لأنه اتخذ ثلاثين رجلا جعلهم بطانة له .

ولم يكن النظام القضائى خالياً من العيوب التى جعلته متمشياً مع الحالة السيئة التى سادت مصر فى ذلك العصر . فقد بلغت الرشوة درجة انحطت معها نفوس القضاة ، ومنهم عبد الرحمن بن عبد الله العمرى الذى قيل إنه أصاب من الرشوة مائة ألف دينار . بل لقد شرب الخمر وأم الدور لسماع المغنيات ، مما أساء إلى سمعته ونال من كرامة منصبه . وعلى الرغم مما وصل إليه هذا القاضى من الضعف اتخذ الشهود ، ودون أسماءهم فى سجل خاص ، وحذا حذوه فى ذلك من جاء بعده من القضاة .

ومن أشهر قضاة هذا العصر ابن مسروق الكندرى (١٧٧ — ١٨٤ هـ) ، الذى عمل على رفع شأن القضاء ، وأبى أن يخضع لسلطة الوالى ، ولم يحضر مجلسه كما جرت العادة إلى وقته . وكان من أثر ذلك أن القضاة لم يحضروا مجالس الحكم بعد ذلك . كما أصلح هذا القاضى ديوان القضاء ، باتخاذه قمطراً تودع فيه القضايا ويختم ، ثم يفض إذا جلس للقضاء .

وقد وصف لينبول[٢] القاضى فى مصر فى عهد الأمويين وفى العصر العباسى الأول فقال : « إنه كان على خبرة اكتسبها من اشتغاله بالفقه الإسلامى . وقد اشتهر لدى العامة بالاستقامة وحسن الأخلاق . وكان لمركزه أهمية ولشخصه نفوذ كبير ؛ لذلك لم يكن يجرى عليه ما يجرى على غيره من العمال ، بل ظل القاضى

---

(١) جمع ماحوز ، وهو المكان الذى يكون بين القوم وبين عدوهم ، وفيه أساميهم ومكاتبهم ، وهو من سنن استعمال أهل الشام .

(٢) Hist. of Egypt in the Middle Ages, 39.40.
راجع كتاب النظم الإسلامية للمؤلف ص ٢٨٦ — ٢٨٧ .

فى كثير من الأحيان يشغل منصبه فى عهد عدة ولاة . ولم يكن أسرع إلى القاضى من تقديم استقالته إذا تدخل فى أحكامه الشرعية متدخل . وبلغ من محبة الناس للقضاة ، أن أصبح الولاة يفكرون طويلا إذا حدثتهم أنفسهم بالإقدام على عزلهم حتى لا يتعرضوا لكراهية الجمهور ، كما لم يعد للوالى فى العصر العباسى سلطة عزل القضاة ، بل صارت المراسيم تصدر بتعيينهم من بغداد عادة ، وأصبحت مسألة تحديد رواتبهم ودفعها موكولة إلى الخليفة نفسه » .

وكان للقضاء مركز ممتاز فى الأندلس شأنه فى سائر البلاد الإسلامية . فكان الأمير أو الخليفة الرئيس الأعلى للقضاء ، لتعلق هذه الوظيفة بالدين . وكان قاضى القضاة يسمى « قاضى الجماعة » أيضاً ، لأنه يكون فى حضرة الدولة وحكمه نافذ فى جميع أرجائها . ويشترط فى القاضى أن يكون متعمقاً فى الفقه مشهوداً له بالنزاهة والاستقامة ، ولا يشترط أن يكون عربياً خالصاً ، فكثيراً ما أسند هذا المنصب إلى بعض الموالى والمولدين والبربر . وكان يحيى بن يحيى الليثى كبير قضاة الأندلس من أصل بربرى . ويختار القاضى ، غالباً من قضاة الأقاليم المشهود لهم بالتفوق فى القضاء ، أو ممن تولوا بعض مناصب الدولة الهامة[١] .

وكان قاضى الجماعة يقيم بقرطبة ، ويعين من قبل الأمير أو الخليفة ، وينوب عنه فى الأقاليم قضاة يسمى كل منهم « مسدد خاصة » . وكان القرآن والسنة مصدر التشريع فى الأندلس ، ويسير القضاة أحكامهم على وفق مذهب الإمام مالك ، ويقوم الحكام والولاة بتنفيذ هذه الأحكام .

وقد سار الأمويون فى الأندلس على نهج الخلفاء الأمويين والعباسيين فى الشرق فى تولية قضاتهم قيادة الجيوش نيابة عنهم . ويقول ابن خلدون[٢] :

---

(١) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٠٣ .

(٢) مقدمة ص ١٩٣ .

إنهم كانوا يجعلون للقاضى قيادة الجهاد فى عساكر الصوائف . وكان يحي بن أكثم يخرج أيام المأمون بالصائفة إلى أرض الروم ، وكذا منذر بن سعيد قاضى عبد الرحمن الناصر من بنى أمية بالأندلس .

ومن اختصاصات القاضى أيضاً الإشراف على موارد الأحباس ، وسجلات الفتاوى الفقهية[١] ، والإشراف على الصلاة فى أيام الجمع والأعياد بالمسجد الكبير بقرطبة أو بمسجد الزهراء الذى أسسه عبد الرحمن الناصر بمدينة الزهراء والدعاء فى صلاة الاستسقاء [٢] . وكان القضاة فى الأندلس يعرفون الأسبانية القديمة ويناقشون المتقاضين بها فى مجلس الحكم [٣] .

(ب) النظر فى المظالم :

وإلى جانب القضاء «النظر فى المظالم» . وكان صاحب المظالم ينظر فى كل «حكم يعجز عنه القاضى ، فينظر فيه من هو أقوى منه يداً» . وكان الوزير يعين أصحاب المظالم فى البلاد . وقد حرص بعض الخلفاء العباسيين على الجلوس للنظر فى المظالم. وقد بين الماوردى الفروق بين نظر المظالم ونظر القضاء . ومن أهمها أن لناظر المظالم من فضل الهيبة وقوة اليد ماليس للقضاة ما يكف الخصوم عن التجاحد ومنع الظلمة من التغالب ،وأنه يستعمل من الإرهاب ومعرفة الإمارات والشواهد ما يصل به إلى معرفة الحق من المبطل ، وأنه يستطيع رد الخصوم إذا أعضلوا[٤] . إلى وساطة الأمناء ليفصلوا التنازع بينهم صلحاً عن تراض. وليس للقاضى ذلك إلا عند رضا الخصمين بالرد ،وأنه يجوز له إحلاف الشهود عند ارتيابه فيهم والاستكثار من عددهم ليزول عنه الشك ، وأنه يجوز أن يبتدىء باستدعاء الشهود وسؤالهم

---

(١) أنشىء هذا السجل فى سنة ٢٩١ هـ . وكان قاضى القضاة يستفتى الفقهاء فى بعض القضايا المعروضة عليه ، وجعل من هذه القضايا سجلا عاماً أصبح مرجعاً هاما لقضاة الأندلس .

(٢) كان قاضى القضاة يشرف على الصلاة أيضاً . ولذلك كان يسمى « صاحب الصلاة » . واستمرت الحال على ذلك حتى أفرد الناصر للصلاة شخصاً معيناً ، ولمنصب قاضى القضاة شخصا آخر .

(٣) الخشنى : القضاة بقرطبة ص ٩٦ ، ١٣٨ .

(٤) استعصى التوفيق بينهم .

عما عندهم ، وعادة القضاة تكليف المدعى إحضار بينة ، ولا يسمعون البينة إلا بعد سؤاله (١) .

وكانت محكمة المظالم تعقد برياسة الخليفة أو الوالى أو من ينوب عن أحدهما. ويعين صاحب المظالم يوماً يقصده فيه المتظلمون إذا كان من الموظفين ليتفرغ لأعماله الأخرى . أما إذا انفرد بالمظالم نظر فيها طوال الأسبوع . وتنعقد محكمة المظالم فى المسجد ، ويحاط صاحب المظالم بخمس جماعات لا ينتظم عقد جلساته إلا بحضورهم .

١ — الحماة والأعوان ، وكانوا من القوة بحيث يستطيعون التغلب على من يلجأ إلى العنف أو يحاول الفرار من وجه القضاء .

٢ — الحكام ، ومهمتهم الإحاطة بما يصدر من الأحكام لرد الحقوق إلى أصحابها ، والعلم بما يجرى بين الخصوم ، فيلمون بشتات الأمور الخاصة بالمتقاضين وكان القضاة يستفيدون من وراء حضورهم هذه الجلسات ، إذ كانوا يستطيعون تطبيق الأحكام على ما يعرض أمامهم من القضايا فى جلساتهم .

٣ — الفقهاء ، وكان صاحب المظالم يرجع إليهم فيما أشكل عليه من المسائل الشرعية .

٤ — الكتاب ،ويقومون بتدوين أقوال الخصوم ، وإثبات مالهم وما عليهم من الحقوق .

٥ — الشهود ، ومهمتهم إثبات ما يعرفونه عن الخصوم والشهادة على أن ما أصدره القاضى من الأحكام لا ينافى الحق والعدل . ومن اختصاصات قاضى المظالم :

١ — النظر فى القضايا التى يقيمها الأفراد والجماعات على الولاة إذا انحرفوا عن طريق العدل والإنصاف ، وعلى عمال الخراج إذا اشتطوا فى جمع الضرائب وكتاب الدواوين إذا حادوا عن إثبات أموال المسلمين بنقص أو زيادة .

٢ — النظر فى تظلم المرتزقة إذا نقصت أرزاقهم أو تأخر ميعاد دفعها لهم .

---

(١) الأحكام السلطانية ص ٦١ — ٧٢ .

٣ — تنفيذ ما يعجز القاضى والمحتسب عن تنفيذه من الأحكام .
٤ — مراعاة إقامة العبادات كالحج والأعياد والجمع والجهاد[١] .

(ح) الحسبة :

وكانت سلطة القاضى موزعة بينه وبين المحتسب وقاضى المظالم . فوظيفة القاضى فض المنازعات المرتبطة بالدين بوجه عام ؛ ووظيفة المحتسب النظر فيما يتعلق بالنظام العام والجنايات أحيانا مما يستدعى الفصل فيها إلى السرعة ؛ ووظيفة قاضى المظالم الفصل فيما استعصى من الأحكام على القاضى والمحتسب . وكان القضاء والحسبة يسندان فى بعض الأحيان إلى رجل واحد مع ما بين العملين من التباين : فعمل القاضى مبنى على التحقيق والأناة فى الحكم ، أما عمل المحتسب فمبنى على الشدة والسرعة فى العمل[٢] :

وكان عمر بن الخطاب أول من وضع نظام الحسبة ، وكان يقوم بعمل المحتسب. ولو أن هذا اللفظ لم يستعمل إلا فى عهد الخليفة المهدى العباسى (١٥٨ — ١٦٩ ﻫ) . وقد رؤى عمر يضرب جمالا ويقول له : « حملت جملك مالا يطيق » . فالمحتسب إذاً يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويحافظ على الآداب والفضيلة والأمانة ، وينظر فى مراعاة أحكام الشرع ، ويشرف على نظام الأسواق، ويحول دون بروز الحوانيت حتى لا يعوق ذلك نظام المرور، ويستوفى الديون ، ويكشف على الموازين والمكاييل تجنباً للتطفيف[٣] ، ويعاقب من يعبث بالشريعة أو يرفع الأثمان ، ويمنع التعدى على حدود الجيران ، وارتفاع مبانى أهل الذمة على مبانى المسلمين . وقد أجمل ابن خلدون[٤] أعمال المحتسب فى هذه العبارة فقال :

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٧٣ — ٨١ بتصرف .
(٢) المصدر نفسه ص ٦١ — ٧٢ .
(٣) وكان لها دار خاصة ، فيطلب المحتسب الباعة إلى هذه الدار فى أوقات معينة، ومعهم موازينهم وسنجهم ومكاييلهم فيعايرها ، فإن وجد فيها خللا صادرها ، وألزم صاحبها بشراء غيرها أو أمر بإصلاحها ، وقد بقيت هذه الدار طوال عهد الدولتين الفاطمية والأيوبية — المقريزى : خطط ج ١ ص ٤٦٣ — ٤٦٤ .
(٤) مقدمة ص ١٩٦ .

« ويبحث عن المنكرات ، ويعزر (يزجر) ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على المصالح العامة فى المدينة ، مثل المنع من المضايقة فى الطرقات ، ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار فى الحمل ، والحكم على أهل المبانى المتداعية للسقوط بهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة ، والضرب على أيدى المعلمين فى المكاتب وغيرها فى الإبلاغ فى ضربهم للصبيان المتعلمين . ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداء[1] ، بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك ويرفع إليه . وليس له إمضاء الحكم فى الدعاوى مطلقاً فيما يتعلق بالغش والتدليس فى المعايش وغيرها ، وفى المكاييل والموازين . وله أيضاً حمل المماطلين على الإنصاف ، وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة ولا إنفاذ حكم وكأنها أحكام ينزه القاضى عنها لعمومها وسهولة أغراضها ، فتدفع إلى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها ، فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء : وقد كان فى كثير من الدول الإسلامية ، مثل العبيديين بمصر والمغرب والأمويين بالأندلس . داخلة فى عموم ولاية القاضى يولى فيها باختياره » .

أما فى الأندلس فكان يتولى الحسبة فى كل مدينة موظف يسمى المحتسب أو صاحب السوق ، لأن معظم عمله متعلق بالإشراف على أهل الأسواق . وكان يشترط فيمن يتولى هذه الوظيفة أن يكون من المشهود لهم بالعلم والمعرفة والفطنة ، ويختار من القضاة لأن عمله مرتبط بالقضاء . وقد حدد المقرى[2] سلطة المحتسب فى الأندلس ، ومما ذكره يتبين أن هذا النظام بلغ شأواً بعيداً من الدقة ، حتى إن أثمان الحاجيات كانت محددة ، والإشراف على الباعة بلغ مبلغاً كبيراً ، كما يتبين أن المحتسبين كان « لهم فى أوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها كما تتدارس أحكام الفقه ، لأنها عندهم تدخل فى جميع البياعات[3] » .

---

(١) أى طلب رد عدوان الغير .

(٢) نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٣ .

(٣) ورد فى الأصل المبتاعات ولعلها محرفة عما أثبتناه .

الباب السادس

الحالة الاقتصادية

تمهيد :

حث الإسلام المسلمين على طلب الكسب . وهذا الدين الحنيف يُنظم الحياة الدنيوية والأخروية ويدعو إلى الاهتمام بهما معاً . وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة القصص (٢٨ : ٧٧) وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين) .

لذلك نرى أن العبادة فى الإسلام لا تقتصر على أعمال الخشوع كالصلاة والصيام وغيرها من الأمور الروحية ، بل تتناول كل حياة الإنسان العملية أيضاً . فهذا الإمام أبو حنيفة مؤسس المذهب الحنفى فى القرن الثانى للهجرة يقول : « طلب الكسب فضيلة كما أن طلب العلم فريضة » . وها هو الإمام محمد بن الحسن الشيبانى المتوفى سنة ٢٣٤ هـ وصاحب الإمـــام أبى حنيفة يضع « كتاب الاكتساب فى الرزق المستطاب » يبين فيه أن طلب الكسب واجب على كل مسلم ومسلمة ، كما يبين أنواع المكاسب ، وحصرها فى التجارة والإجارة والزراعة والصناعة .

وهذا حجة الإسلام الإمام الغزالى يفرد فى كتاب « إحياء علوم الدين » بابا فى آداب الكسب والمعاش ، ويستشهد بالآيات القرآنية التى تحث على الكسب والعمل ، إذ يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة المزمل (٧٣ : ٤٠) (وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله) . وبذلك وضع الدين الحنيف السعى فى الأرض ابتغاء الكسب عن طريق التجارة أو غيرها فى مرتبة الجهاد . ويقول الله جل شأنه فى هذا المعنى (ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً [أى خيراً] وسعة) . وهذا هو العلامة ابن خلدون

يخصص الباب الخامس من الكتاب الأول ويشتمل على ثلاثة وثلاثين باباً[١] فى مقدمة تاريخه « فى المعاش ووجوبه من الكسب والصنائع وما يعرض فى ذلك من الأحوال » ، مما لا يدع مجالا للشك فى أن الإسلام عنى عناية شديدة بهذه الحياة الدنيا التى هى مزرعة الآخرة كما جاء فى الأثر الشريف . وبذلك وضع الإسلام السعى فى الأرض ابتغاء الكسب عن طريق التجارة أو غيرها فى مرتبة الجهاد على ما تقدم .

وكانت خزائن العباسيين تفيض بالأموال التى كانت تجبى من الضرائب ، وقد بلغت فى أيام الرشيد ما يقرب من اثنين وأربعين مليون دينار ، عدا الضريبة العينية التى كانت تؤخذ مما تنتجه الأرض من الحبوب ، حتى قيل إن الرشيد كان يستلقى على ظهره وينظر إلى السحابة المارة ويقول : « إذهبى حيث شئت يأتى خراجك »[٢] .

على أن دخل الدولة العباسية أخذ ينقص شيئاً فشيئاً ، حتى أصبح فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) أقل من جزء من واحد وعشرين جزءاً مما كان عليه فى عهد هارون الرشيد ، وأصبحت الحروب عبئاً ثقيلا لا يحتمل مما نهك قوة هذه الدولة .

وإذا ذكرنا رخاء الدولة وحسن حالة الزراع ونفاق التجارة ، فإننا لا نعجب إذا علمنا أن دخل الدولة العباسية فى عهد هارون الرشيد بلغ ٢٧٢ مليون درهم وأربعة ملايين ونصف من الدنانير فى السنة ، وأن نفقة الخليفة المأمون بلغت ستة آلاف دينار كل يوم أى . . . ر . ١٩ر٢ دينار فى السنة[٣] .

وقد بلغ ما حمل إلى الرشيد من المال فى كل سنة نحواً من خمسمائة ألف درهم من الفضة وعشرة آلاف ألف دينار من الذهب . وكان المال الذى يأتى من الموارد المتقدمة ينفق على مصالح الدولة ، فتدفع منه أرزاق القضاة والولاة والعمال وصاحب بيت المال وغيرهم من الموظفين ، وتدفع منه أعطيات الجند ، أى رواتبهم التى تصرف لهم فى أوقات معينة من العام ، كما ينفق منه على كرى الأنهار وإصلاح

---

(١) مقدمة ص ٤٠٠ — ٤٢٩ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٧٢ :

(٣) Ameer Aly, p. 426 et seq.

مجاريها وكرى الترع التى تأخذ من الأنهار الكبيرة لتوصيل الماء إلى الأراضى البعيدة ، وحفر الترع للزراعة وغيرها ، وكذا النفقة على المسجونين وأسرى المشركين من مأكل ومشرب وملبس ودفن من يموت منهم ، وعلى المعدات الحربية والعطايا والمنح التى يمنحها العلماء والأدباء كما تقدم .

ومع توافر موارد الدولة فى العصر العباسى ، كانت خزائن الخلفاء تفيض بما كانوا يجبونه من الضرائب حتى عم الرخاء ورخصت أسعار الحاجيات . يقول الخطيب البغدادى[1] : « سمعت داود بن صغير بن شبيب بن رستم البخارى يقول : رأيت فى زمن أبى جعفر كبشاً بدرهم ، وحملا بأربعة دوانق (والدانق سدس درهم) ، والتمر ستين رطلا بدرهم ، والزيت ستة عشر رطلا بدرهم ، والسمن ثمانية أرطال بدرهم ... وكان ينادى على لحم البقر تسعين رطلا بدرهم ، ولحم الغنم ستين رطلا بدرهم ، ثم ذكر العسل فقال عشرة أرطال ، والسمن اثنى عشر رطلا » .

ويرجع الفضل فى ازدياد موارد الدولة فى العصر العباسى الأول إلى اهتمام الخلفاء بشئون البلاد الاقتصادية ، والعمل على تنمية مواردها ، وعنايتهم بالزراعة والتجارة وغيرها من شئون الاقتصاد والمال ، كما تفعل الدول فى العصر الحديث .

١ — الزراعة :

وجه خلفاء العصر العباسى الأول عنايتهم إلى تشجيع الزراعة ، فنشطوا فى حفر الترع والمصارف وإقامة الجسور والقناطر . وكانت الأراضى الواقعة بين نهرى دجلة والفرات من أخصب بقاع الدولة العباسية . وكانت الحكومة تشرف على إدارتها إشرافاً مباشراً ، وتعمل على تحسين زراعتها وتنمية مواردها . وامتدت فى هذه الأراضى شبكة من الترع والمصارف ، حتى أصبحت قوية الخصب ، تكثر بها المزارع والبساتين ، وكانت تعرف بأرض السواد[2] ، ولكثرة ما بها من الشجر

---

(١) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٠ .

(٢) يلحق العرب لون الخضرة بالسواد فتضع أحدهما محل الآخر ، من ذلك قوله تعالى حين ذكر الجنتين «مدهامتان» (سورة الرحمن ٥٥ : ٦٤) أى خضراوان ، فوصفت الخضرة بالدهمة وهى من سواد الليل . وقال الخطيب البغدادى (تاريخ بغداد ج ١ ص ٢٤) فى موضع آخر : إنما سمى السواد سواداً لأنهم قدموا يفتحون الكوفة ، فلما نظروا سواد النخل قالوا : ما هذا السواد ؟ .

والزرع والخضر . ويحد السواد من حديه : الموصل إلى عبادان طولا ، ومن العذيب بالقادسية إلى حلوان غرباً ، وتبلغ مساحته ، على ما ذكره الخطيب البغدادى[١] ، ... ر ... ٣٦ جريب ، والجريب عشرة آلاف ذراع[٢] .

ولما كان ماء الفرات لا يكفى لرى أراضى السواد أو يساعد على خصبها ، عمل أبو جعفر المنصور على تنظيم وسائل الإرواء بشق كثير من الجداول والترع ، على حين أمكن الاحتفاظ بماء دجلة لإرواء الأراضى الواقعة على شاطئه الغربى وعلى ساحل الخليج الفارسى ، وأمكن بذلك إرواء جميع الأراضى الممتدة بين الصحراء العربية وجبال كردستان وتحويلها إلى أرض نضرة تدر على أهلها الخير والنماء . كذلك مد المنصور قناة من دجيل الذى يأخذ ماءه من دجلة وقناة أخرى من كرخايا الذى يأخذ ماءه من الفرات ، ووصلهما بمدينة بغداد فى عقود محكمة بالصاروج (وهو حجر الكلس) والآجر . فكان ماء كل قناة منها يدخل المدينة وينفذ فى الشوارع والدروب والأرباض ، ولا ينقطع صيفاً ولا شتاء[٣]. كما ساق هذا الخليفة الماء إلى الكرخ ، فجرى فيها نهر القلائين ، نسبة إلى محلة كبيرة واقعة شرقى الكرخ كان يقلى فيها السمك ، ونهر البزازين ، ونهر الدجاج ، وقد سمى بهذا الاسم لأن بائعى الدجاج كانوا يقفون عنده لبيع ما معهم من الدجاج .

ويجرى ببغداد نهر عيسى الأعظم الذى يأخذ ماءه من الفرات ، ويمر بسطوج فيروز سابور ، حتى يصل المحوّل التى تبعد عن بغداد بفرسخ واحد . ويتفرع منه أنهار تخترق بغداد ، ويصب فى دجلة عند قصر عيسى بن على العباسى . وعلى كل قنطرة من القناطر المقامة عليه سوق تحيط بجانبه البساتين والمتنزهات . وقد امتدت القنوات إلى جميع أرباض بغداد ، فغرس أهلها النخيل الذى كانت زراعته مقصورة على البصرة والكوفة والسواد ، كما غرسوا الأشجار ونسقوا البساتين والحدائق . ويأخذ الصراة من نهر عيسى عند المحول ويسقى أرض بادُرايا ، ويستمر

---

(١) تاريخ بغداد ج ١ ص ١١ .

(٢) انظر لفظ السواد فى معجم البلدان لياقوت ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ج ١ ص ١١ ، ١٢ ، ٢٤ .

(٣) اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٢٥٠ .

فى سيره إلى أن يصل إلى بغداد ويصب فى دجلة . ومن أنهار بغداد نهر كرخايا الذى يأخذ ماءه من نهر عيسى جنوبى المحول ، وتتفرع منه جداول تجرى فى سوق الكرخ . ومنها نهر رفيل ، ويأخذ ماءه من نهر عيسى ويصب فى دجلة .

وقد عنى خلفاء العصر العباسى الأول بالزراعة وفلاحة البساتين التى قامت على دراسة عملية ، بفضل انتشار المدارس الزراعية التى كان لها أثر كبير فى إنارة عقول المسلمين ، فتوسعوا فى البحث النظرى ودرسوا أنواع النباتات وصلاحية التربة لزراعتها ، واستعملوا الأسمدة المختلفة لأنواع النبات .

وسار الخلفاء العباسيون على سياسة حكيمة ترمى إلى عدم إرهاق المزارعين بالضرائب ، وعنى بعض هؤلاء الخلفاء بوضع قواعد ثابتة لأنواع الخراج بحسب نوع المحصول وجودة الأرض ، وراعوا خفض الضرائب إذا قل المحصول لسبب من الأسباب .

وكذلك عنى الخلفاء العباسيون بشئون الزراع وعملوا على تخفيض الضرائب عليهم ؛ فألغى أبو جعفر المنصور الضريبة النقدية التى كانت تفرض على الحنطة والشوفان ، وأحل محلها نظام « المقاسمة » ، وهو دفع الضرائب نوعا بنسبة خاصة من المحصول . على أن النظام النقدى القديم ظل على النخيل والفواكه وأشباهها. ولما أدى ذلك النظام الجديد إلى اشتطاط الجباة فى جمع الضرائب ، توسع الخليفة المهدى (١٥٨ — ١٦٩ هـ) فى تطبيق النظام الذى أدخله أبوه المنصور فعممه ، وجعل الضرائب تجبى دائماً بالنسبة للمحصول . وإذا كانت الأرض ممتازة الخصب ولا تحتاج إلى عمل كثير ، ألزم المزارع بأن يقدم إلى الحكومة نصف غلة أرضه ، وإذا صعب عليه إرواؤها ، دفع الثلث أو الربع أو الخمس تبعاً لحالة الأرض .

أما الكروم والبساتين والنخيل فكانت غلتها تقوم بالمال ويدفع عنها النصف أو الثلث ، ويسمى هذا النظام المقاسمة ، تمييزاً له عن النظام القديم الذى كان يعرف بالمحاسبة ، والذى كان يقضى بأن تجبى الضريبة بالنسبة لمساحة الأرض .

وفى سنة ٢٠٤ هـ خفض الخليفة المأمون العباسى (١٩٨ — ٢١٨ هـ) ضريبة الأرض مرة أخرى ، فأصبح يجبى الخمسان بدلا من النصف ، حتى على أكثر

الأرض إنتاجا . أما فى بابل والعراق والجزيرة وفارس ، حيث نجد كثيراً من كبار الملاك والمزارعين ، فقد كانت هناك ضرائب مختلفة وفق شروط الصلح التى عقدت أيام الفتح ، وكان أهالى شمالى فارس وخراسان يتمتعون بنفس هذا الامتياز .

وقد أقطع أبو جعفر المنصور بعض أعيان دولته قطائع من الأرض ببغداد يعمرونها ويسكنونها ويحصلون على غلتها مكافأة لهم على ماقدموه من الخدمات الجليلة وسرعان ما عمرت هذه القطائع واتسع نطاقها وازدحمت بالسكان، وأصبحت كل قطيعة منها تعرف باسم الرجل أو الطائفة التى تسكنها : فنرى من بينها قطيعة العباس بن محمد بن عبد الله بن العباس ، وقطيعة الربيع بن يونس ، وكان بها تجار خراسان من البزازين أى بائعى الثياب ، وقطعه صالح بن المنصور[١] .

وقد ساد هذا النظام فى العصر العباسى حين تولى الأتراك حكم الدولة العباسية، فكانوا يقطعون الولايات على أن يؤدوا لدار الخلافة مبلغاً من المال ، عدا الهدايا والطرف ، كما كان متبعاً فى نظام الإقطاع الذى شمل أوربا فى القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين ، وسار عليه الخلفاء العباسيون قبل المعتصم . فولى الرشيد عبد الملك بن صالح مصر صلاتها وخراجها ، وولى المأمون عبد الله بن طاهر ابن الحسين هذه البلاد (٢١١ — ٢١٣ هـ) على هذا النحو الإقطاعى . وحذا المعتصم حذو الرشيد والمأمون فى تلك السياسة ، فولى أشناس التركى مصر (٢١٩ — ٢٢٩ هـ) ، وقلد الواثق إيتاخ ولاية هذه البلاد (٢٢٠ — ٢٣٥)[٢].

وكانت الحنطة تزرع فى كافة بلاد الدولة العباسية حيث يتوفر الماء . أما الذرة فقد بقيت زراعته مقصورة على جنوبى جزيرة العرب . وكان الأهلون يزرعون كذلك الشعير والأرز والنخيل وأشجار الفاكهة .

---

(١) راجع كتاب البلدان لليعقوبى . ص ٢٤٢ — ٢٥٤ . انظر ما ذكرناه عن قطائع بغداد فى الباب السابع من هذا الجزء .

(٢) الكندى : كتاب الولاة والقضاة ص ١٦٣ و ١٧٣ و ١٨٠ و ١٨٤ و ١٩٥ — ١٩٧ ، ١٩٨ — ٢٠٢ Corbet, J.R.A.S. (1861) p. 528.

وكان الكرم يغرس بكثرة فى جميع أنحاء الدولة العباسية . وتمتاز كروم اليمن بطول عناقيدها . يحكى أن بعض عمال هارون الرشيد حمل إليه وهو يؤدى فريضة الحج عنقودين من العنب محملين على بعير . وذكر ابن حوقل فى كتابه « المسالك والممالك » أن أهل مدينة زُغر القريبة من البحر الميت كانوا يلحقون كرومهم وكروم فلسطين كما يلقح النخل بالطلع .

ومن الفواكه التى أدخلت زراعتها فى أراضى الدولة العباسية النارنج ، وقد ذكر المسعودى أنه جلب من الهند ، ثم زرع بعمان والبصرة والعراق والشام . وذكر المقدسى فى كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » أن ثمار النارنج فى فلسطين كانت أحسن منها فى غيرها من البلاد .

وكانت بلاد الشام تشتهر بتفاحها الذى أصبح مضرب المثل فى الحسن ، كما كثرت بفلسطين أشجار الزيتون وخاصـــة فى بلدة نابلس التى كان أهلها يستخرجون منه الزيت .

وكان قصب السكر يزرع فى البصرة وصور . وبلغ من شهرة صور بزراعته أن اتخذ بعض أهالى البندقية بها مزرعة قصب فى أيام الحروب الصليبية ، كما بلغت زراعة القصب شأواً كبيراً فى العصر العباسى الأول .

وجلب العرب الجاموس من الهند — وهى موطنه الأصلى — ثم نقل إلى العراق فى عهد الأمويين . وروى أن أهل الشام فى ذلك العهد لما شكوا من كثرة هجوم السباع عليهم ، أمرت الحكومة بوضع أربعة آلاف جاموسة على حدود بلادهم من ناحية الشمال ، لأن الجاموس كان يعتبر أكبر عدو للأسود .

وكان أهالى فلسطين يعنون بتربية الجاموس ويعتمدون فى غذائهم على لبنه ولحمه . أما البقر فلم يكن لحمه مستساغا ، وإنما كان يربى للانتفاع بلبنه . وكان أبو بكر محمد بن زكريا الرازى الطبيب يوصى بلبن الغنم ولحم الضأن .

وقد حاول مسلمو المغرب وصقلية زراعة بعض النباتات التى لا تنمو إلا فى البلاد الحارة كالتوابل والقطن وقصب السكر والتوت ؛ ولكن زراعة التوابل

لم يقدر لها النجاح ، على حين نجحت زراعة القطن وقصب السكر والتوت فى بعض جهات الأندلس وصقلية[١] .

واشتهرت الأندلس بزراعة القمح والشعير والذرة والفواكه كالبرتقال والكمثرى والتفاح والتين والعنب والرمان والخوخ الذى كانت تكثر زراعته فى السهول ، والموز الذى تكثر زراعته فى وديان البحر الأبيض المتوسط ، كما اشتهرت بزراعة الأرز وقصب السكر والزيتون . وعنى أهل الأندلس بزراعة الكتان والقطن لصناعة الملابس ، والتوت لتربية دود القز . وانتفع الأمويون بمياه الأنهار الكبيرة كنتاجة والوادى الكبير والوادى اليانع وإبرو ، وأقاموا عليها السدود وشقوا الجداول ، واستخدموا هذه المياه فى الزراعة التى أحرزوا قصب السبق فيها . . ووضع الأمويون تقويماً للزراعة عرف بالتقويم القرطبى الذى أصبح دليلا ودستوراً لزراعة النباتات المختلفة فى مواعيدها ، وقد أخذه عنهم غيرهم من الأمم .

٢ — الصناعة :

كذلك كان للصناعة نصيب كبير من عناية خلفاء العصر العباسى الأول الذين عنوا باستعمال موارد الثروة المعدنية ، فاستخرجوا الفضة والنحاس والرصاص والحديد من مناجم فارس وخراسان . وكان بالقرب من بيروت مناجم للحديد ساعد وجودها على نمو بعض الصناعات المعدنية . كما استخرجوا الخزف والمرمر من تبريز ، والملح والكبريت من شمالى فارس ، والقار والنفط من بلاد الكرج .

واشتهرت البصرة بصناعة الصابون والزجاج ، ولاسيما فى عهد الخليفة المعتصم الذى شيد مصانع جديدة لها فى بغداد وسامرا وغيرها من المدن ؛ كما أنشأ مصانع الورق فى عدة مدن وجلب لها الأساتذة والصناع من مصر التى اشتهرت بصنع الورق منذ عهد بعيد . كما أنشأ العباسيون دوراً للطراز فى أهم مدن فارس . وكذلك

---

(١) Heyd : Histoire du Commerce, tome I. p- 50.

تفوق المسلمون في صناعة الحرير والأطلس والمنسوجات الحريرية المشجرة والسجاجيد . ومما يدل على تفوق المسلمين في الصناعة ، هذه المنسوجات النفيسة التي أخرجتها أنوال فارس والعراق والشام ، فامتازت الكوفة بكوفياتها الحريرية وغيرها ، وتفوقت خورستان بمنسوجاتها . وكان للمنسوجات الحريرية المشجرة الجميلة التي تصنع في تستر واسجاجيد قرقب وحراير سوس شهرة عظيمة في أسواق العالم في ذلك الحين . وامتازت دمشق بصناعة الأقمشة الحريرية التي لاتزال تسمى « الدمقس » ، واشتهرت مدن خراسان بصناعة البسط والستور والمنسوجات الصوفية على اختلاف أنواعها .

كما اشتهرت مصر في ذلك العصر بصناعة المنسوجات ، فكان يصنع في مدينة تنيس الثياب الملونة والفرش ، ويعمل بها للخليفة ثوب يقال له البدنة بلغت قيمته ألف دينار ، ليس فيه من الغزل سدى ولا لحمة سوى أوقيتين . أما بقيته فمن الذهب الخالص المحكم الصنعة . ولم يحفظ لنا التاريخ أن قطعة النسيج من الكتان بلغت قيمتها مائة دينار إلا في مدينتي تنيس ودمياط ، مما يدل على مدى تقدم صناعة المنسوجات المصرية ودقتها في ذلك العصر . كما كانت تصنع الثياب الصوفية في مدينة القيس .

واشتهرت بلاد الشام بصناعة الزجاج والخزف ، واتخذ أهلها سمة (طرازاً) خاصة بهم في زخرفة الزجاج . وفي مستهل القرن الثاني للهجرة كان الزجاج الملون المطلي بالميناء يصدر إلى كثير من جهات العالم . وبلغت هذه البلاد في نقش الزجاج بالذهب والألوان الأخرى درجة كبيرة من الإتقان[١] .

وكان ببغداد عدد كبير من دور الصناعة ، وقد قيل إنه كان بها أربعمائة رحى مائية ، وأربعة آلاف معمل لصنع الزجاج ، وثلاثون ألف معمل لصنع الخزف[٢] ويلوح لنا أن في هذا القول شيئاً كبيراً من المبالغة . وكان لكل حرفة سوق

---

(١) أمير علي : مختصر تاريخ العرب ، ترجمة ص ٣٦٤ — ٣٦٥ .
(٢) أمين زكي : كتاب عمران بغداد ص ٥٠ .

خاصة ، كسوق الحدادين وسوق النجارين وسوق البزازين[1] . وقد أسس الخليفة المنصور أسواق الكرخ فى الجهة الجنوبية بين الصراة ونهر عيسى لتكون مركزاً للصناعة والتجارة .

واشتهرت بغداد بالصياغة التى نبغ فيها الفرس ، وبلغت صناعتهم شأواً بعيداً فى الدقة والجمال ، حتى إنهم كانوا يرصعون الزجاج بالجواهر ، ويكتبون عليه بالذهب المجسم ، ويصنعون للملوك أقداحاً تبهر الأبصار . وكانوا يتخذون على الجامعات (الكؤوس) صوراً ، صوروا عليها طيوراً تطير . ومن فوقها العقبان تنقض عليها ، وهى تحاول الإفلات من مخالبها ، مما يأخذ بالألباب ويستوقف الأنظار[2] .

واشتهرت مصر من عهد الفراعنة بصناعة المعادن ، ولاسيما صياغة الذهب والفضة ، وضربوا بسهم وافر فى صناعة الأدوية والعقاقير .

واشتهرت مصر فى العصر العباسى الأول بصناعة المراكب النيلية التى كانت تسير فى النيل تحمل حاصلات البلاد بين جهات الوجهين البحرى والقبلى ، كما اشتهرت بصناعة السفن التى تشحن بالأسلحة والمقاتلة لغزو بلاد الدولة الرومانية الشرقية عن طريق الإسكندرية ودمياط وتنيس والفرما .

وكذا اشتهرت بلاد الأندلس باستخراج المعادن من مناجمها المختلفة ، وعلى الأخص الذهب من المناجم الواقعة على نهر تاجة ، والفضة ببعض جهات قرطبة ، والحديد من جبال طليطلة ، والرصاص من غربى قرطبة ، والنحاس بنواحى طليطلة وشمالى الأندلس . وقال المقرى[3] إنه كان بالأندلس عدة مقاطع للرخام الأبيض والخمرى والأحمر والمجزع ، ووصفها وصفاً شائقاً وذكر أماكنها . وكانت قرطبة مركزاً هاماً لصناعة الجلود ، كما اشتهرت بلاد الأندلس بصناعة السفن وآلات الحرب من التراس والرماح والسروج واللجم والدروع .

---

(١) أمين زكى : كتاب عمران بغداد ص ١٠٨ .

(٢) نخلة المدور : حضارة الإسلام فى دار السلام ص ٢٥ .

(٣) نفح الطيب جـ ١ ص ٩٥ .

كما اشتهرت الأندلس باستخراج الزيت من الزيتون ، والنبيذ من الكروم ، ومهر أهلها فى استخراج العقاقير من النباتات المختلفة التى أخذها عنهم الأوربيون فيما بعد[١] .

أسس محمد بن على بمدينة غرناطة حديقة للنباتات أبيح دخولها للأطباء لدراسة النباتات النادرة . وقد قام ابن البيطار النباتى المشهور الذى عاش فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) بغرس نباتات الشام وآسيا الصغرى ومصر وفارس . ثم ضمه الملك الكامل الأيوبى إلى حاشيته وأصبح رئيس النباتيين ، وألف كتابه المشهور فى النباتات ومات سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) .

٣ — التجارة :

ولم تقتصر عناية الخلفاء على الزراعة والصناعة وحدهما ، بل اهتموا كذلك بتسهيل سبل التجارة ، فأقاموا الآبار والخاط فى طرق القوافل ، وأنشأوا المنائر فى الثغور ، وبنوا الأساطيل لحماية السواحل من إغارات لصوص البحار . وكان لذلك أثر بعيد فى نشاط التجارة الخارجية والداخلية ، وأصبحت قوافل المسلمين تجوب البلاد وسفنهم تمخر عباب البحار .

وقد شجع خلفاء العصر العباسى الأول التجارة تشجيعاً غير مباشر بما أدخلوا من مظاهر الترف إلى بلاطهم ، وذلك بتمهيد الطرق وتأسيس مدينة بغداد التى ساعد موقعها على أن تصبح سوقاً تجارياً من الطراز الأول . وكانت دمشق مركزاً هاماً للقوافل الآتية من آسيا الصغرى أو من أقاليم الفرات إلى بلاد العرب ومصر ، وأصبح الفرات ودجلة شريانين تجاريين هامين فى داخل بلاد الدولة العباسية[٢] .

وبعد أن أسس العباسيون مدينة بغداد على شاطىء دجلة ، حفروا قناة للملاحة تأخذ ماءها من الفرات عبر العراق ، ووصلوها بحاضرة دولتهم ، وأصبحت هذه

---

(١) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٩٥ — ٩٦ .
(٢) Heyd, tome I, p. 26.

القناة تربط هذه الحاضرة بآسيا الصغرى وسورية وبلاد العرب ومصر ، وكانت تأتى إليها القوافل من آسيا الوسطى مارة ببخارى وفارس[1] .

وقد ذكر الخطيب البغدادى[2] وياقوت عند كلامهما على سبب اختيار المنصور موقع بغداد ، أن أحد الدهاقين ، وهم كبار ملاك الأراضى ، حسن له النزول ببغداد فقال له : « إنك تصير بين أربعة طساسيج (جمع طسوج وهو الناحية) : طسوجان فى الجانب الغربى ، وطسوجان فى الجانب الشرقى . فاللذان فى الغربى قطر بل وبادريا واللذان فى الشرقى نهر بوق وكلواذى ، فإن أجدب طسوج وتأخرت عمارته كان الآخر عامراً . وأنت يا أمير المؤمنين على الصراة ودجلة تجيئك الميرة من الغرب ، وفى الفرات من الشام والجزيرة ومصر ، وتحمل إليك طرائف الهند والبصرة وواسط فى دجلة وتجيئك ميرة أرمينية وأذربيجان ومايتصل بها فى تامُرا ، وتجيئك ميرة الموصل وديار بكر وربيعة . وأنت بين أنهار لا يصل إليك عدوك إلا على جسر أو قنطرة ، فإذا قطعت الجسر أو القنطرة لم يصل إليك عدوك ، وأنت قريب من البر والبحر والجبل » .

وبعد أن بنى المنصور مدينة بغداد ، وضع أساس الكرخ فى الجهة الجنوبية منها بين الصراة ونهر عيسى ، ونقل إليها أسواق بغداد ، وأفرد لكل حرفة سوقاً خاصة . ومن هذه الأسواق ، سوق العطارين ، وسوق الحدادين ، وسوق النجارين ، وسوق البزازين ، وسوق الرياحين (حيث تباع الزهور) ، وسوق القصابين . وقد قيل إن المنصور أمر بجعل هذه السوق فى آخر الأسواق وقال : اجعلوا سوق القصابين فى آخر الأسواق ، فإنهم سفهاء وفى أيديهم الحديد القاطع[3] .

ويقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب فى مقدمة كتاب التبصر بالتجارة لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ص٣) عن مدينة البصرة التى أصبحت فى العصر

---

(١) Heyd, tome i, p. 27.

(٢) تاريخ بغداد ج ١ ص ١ — ٢٣ .

(٣) الخطيب البغدادى : تاريخ ج ١ ص ٨٠ .

العباسى الأول من أهم مراكز التجارة : « وهى باب بغداد الكبير ، ومدخل دجلتها المتدفق بضروب المتاع وأنواع السلع المجلوبة من أطراف الدنيا .. إذ كانت مقصد القوافل الواردة من كل حدب وصوب ، ومحط رجال الشرق والغرب من مجاهل الصين إلى مفاوز الصحراء الكبرى . ولذلك استفحل بها العمران ، وكثرت فيها المصانع والصنائع ، وصارت واسطة العرب والعجم ، وحق لها أن تتلقب بقبة السلام ، كما سماها عمر بن الخطاب رضى الله عنه » .

وكان طريق القوافل الكبرى التى يجتازها الحجاج السوريون يبعد عن البحر بعض الشيء لأنه كان يمر شرقى نهر الأردن خارج فلسطين . ولكن زيارة المسجد الأقصى ببيت المقدس وقبر إبراهيم الخليل كانت من الأمور المقدسة عند المسلمين. وكان كثير من الحجاج يحجون بيت المقدس بعد أداء فريضة الحج فى مكة ، فيتقابلون مع حجاج الغرب المسيحيين . وبذلك أتيحت للتجار الفرصة لتبادل السلع . وفى ١٥ من سبتمبر من كل عام يقام فى بيت المقدس سوق كبيرة يفد إليها تجار الأمم المختلفة . وكان أكثر الحجاج يجتمعون فى دمشق التى كانت ملتقى عدة طرق هامة ، ثم يسيرون فى جماعات كبيرة إلى مكة ، ومنها يتفرقون بعد أداء فريضة الحج .

وقد أدت هذه الحركة المستمرة إلى انتشار السلع فى أسواق دمشق . ولما كانت المدن البحرية مثل طرابلس وبيروت وصور وعكاء لا تبعد عن سوق دمشق الكبيرة إلا بضعة أيام ، فلا يبعد أنها كانت تحصل على ما تحتاج إليه من السلع التى كانوا يبتاعونها فى سوق دمشق الكبير . وهناك طريق آخر مهم يوصل إلى سورية ، وهو مجرى الفرات الذى يبدأ من الخليج الفارسى وينتهى عند نقطة لا تبعد كثيراً عن البحر الأبيض المتوسط .

وكان ببلاد الشام كثير من الأسواق التى امتدت بها الحوانيت على جانبى الشوارع ؛ وكان لكل طائفة من التجار قسم خاص بها ؛ وللتجار الغرباء فنادق قريبة الشبه بالأسواق الكبيرة يضعون بضائعهم فى أسفلها وينامون فى أعلاها .

وقد أقام العرب غربى مصر وفى بلاد الأندلس وصقلية دويلات تقوم بدور

الوسيط فى تبادل التجارة بين الشرق والغرب ، وكانت قصور القيروان وقرطبة وبلرم فى حاجة إلى منتجات آسيا .

وكانت سفن العرب تقطع البحر الابيض المتوسط من ميناء أنطاكية شرقا إلى جبل طارق فى ستة وثلاثين يوماً . وتعد أنطاكية التى حصنها الخليفة المعتصم من أهم مرافق بلاد الشام التجارية ، كما كانت صور ميناء حربياً أنشئت به دار الصناعة تخرج منه السفن لمحاربة البيزنطيين .

ويتضح من رحلات السندباد البحرى التى وردت فى كتاب ألف ليلة وليلة والتى ترجع إلى عهد هارون الرشيد، أن العرب قاموا فى العصر العباسى برحلات بحرية تبدأ من بغداد وتسير فى الخليج الفارسى حتى تصل إلى شبه جزيرة ملقا (وتعرف الآن بشبه جزيرة الملايو) : وكان التجار يشجعون هذه الرحلات التى تجلب لهم توابل الهند وعطورها وحرير الصين .

ولا يبعد أن يكون العرب قد وصلوا إلى بلاد الصين فى القرن الثانى الهجرى، وأنهم كانوا من بين الأجانب الذين فتح لهم ميناء كانتون وسوقها فى سنة ٨٢ ﻫ (٧٠٠ م) . وقد أثبتت بعض الفتن التى وقعت بهذه المدينة فى سنة ١٤١ ﻫ (٧٥٨ م) وجودهم هناك(١) . كما جاوز العرب جزيرة سيلان فى العصر العباسى الأول . وبعد أن كان العرب حتى أوائل هذا العصر يجوبون البحار الواقعة على ساحل الهند ، أصبح من النادر أن يجوبوا الخليج الفارسى ،لأنهم أخذوا يقومون برحلات طويلة إلى بلاد الصين . وقد اتخذ العرب ميناء سيراف مرسى لهذه السفن التى كانت تعود محملة بالسلع الواردة من البصرة وعمان وغيرها من هذه الجهات، وتنقل تجارة العرب والفرس إلى بلاد الصين (٢) .

وفى القرن الثالث الهجرى وضع أبو القاسم بن خرداذبه(٣) دليلا للمسافرين،

---

(١) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة المؤلف ص ٣٣١ .
(٢) Heyd, tome I. p. 72
(٣) كتاب المسالك (ليدن سنة ١٣٠٦ ﻫ) .

وصف فيه الطريق البحرى الذى يبدأ مصب دجلة عند الأبلة ويصل إلى بلاد الهند والصين .

ويذكر ابن خرداذبه أن السفن العربية كانت تسير بمحاذاة الشاطىء الفارسى وساحل الهند حتى ملبار . وكان اختيار هذه الطريق يرجع إلى الرغبة فى شحن البضائع وتفريغها فى الموانىء المختلفة ، لا إلى الخوف من التوغل فى البحر . وفى الحق أن هذه السفن كانت إذا غادرت ساحل كروماندل تعبر خليج بنغالة فى خط مستقيم كما كانت تفعل السفن الصينية تماماً .

وقد استطاع العرب منذ أواخر القرن الثانى للهجرة أن يستقروا فى ميناء خانفو (بضم النون) إلى الجنوب من مدينة شنغهاى الحالية ، وكان لهم بسبب تساهل إمبراطور هذه البلاد وكرمه قاض مسلم يحكم بينهم وفق أحكام الشريعة الإسلامية ، ويؤمهم فى الصلاة ، كما كانوا يتبادلون التجارة مع الصينيين ، ويحصلون على جوازات تسمح لهم بالتنقل فى داخل هذه البلاد ابتغاء التجارة مع أهلها . وظل حال تجار العرب على ذلك حتى قامت فى هذه البلاد فتن وثورات كان من أثرها أن ساءت حال هؤلاء التجار ، فقطعوا علاقاتهم مع الصين ، وانتقلوا إلى شبه جزيرة ملقا ، واتخذوا مركزهم فى مدينة كله Kalah ، وهى فرضة فى الهند فى منتصف الطريق بين عمان والصين ، وتقع فى طرف خط الاستواء (١) .

وقد أصبحت كله مرسى للسفن التى تحمل متاجر آسيا الغربية والشرقية ، وفتحت أمام تجار العرب سوق جديدة للتجارة فى سلع الهند الصينية ، وهى الكافور والقرنفل وخشب العود والصندل وجوز الهند وجوز الطيب والقصدير ، وقد تقدمت هذه التجارة تقدماً عظيما ، حتى أصبحت الرحلة إلى شبه جزيرة ملقا فى القرن العاشر الميلادى من أسهل الرحلات العالمية فى نظر بحارة سيراف الذين عرفوا أيضاً جزيرة جاوه .

---

(١) انظر هذا اللفظ فى معجم البلدان لياقوت .

وقد وصل العرب إلى الهند الصينية والصين فى كثير من الأحيان ، ولا يبعد أن يكون بعضهم قد وصل إلى كوريا[١] .

وكانت الرحلة من الساحل العربى إلى ساحل الهند الغربى تستغرق مدة تتراوح بين شهرين وثلاثة أشهر ، وقد تستغرق شهراً واحداً إذا ساعدتها الريح . ولا ريب أن تجار العرب كانوا يقيمون فى سيلان قبل سنة ٨٠ ﻫ .

وقد ذكر الرحالة العرب الذين قاموا برحلاتهم فى القرنين الثالث والرابع أنهم كانوا يلاقون شيئاً كثيراً من العطف والرعاية من بعض ملوك الهند ، وأن جماعة من أمراء ملبار قد اعتنقوا الإسلام وسمحوا للعرب بإقامة المساجد فى هذه البلاد . وبينما أنشأ العرب على سواحل الهند وفى بعض مدنها جاليات عربية ، كانت جيوشهم منذ أوائل القرن الثامن الميلادى قد تجاوزت حدود فارس فاستولت على بلاد السند . وكان من أثر ذلك أن نشطت الحركة التجارية ونمت فى الملتان والديبل . وكانت سفن فارس وبلاد العرب تعرج على تلك البلاد فى ذهابها إلى بلاد الهند والصين وفى عودتها حاملة حاصلات تلك البلاد[٢] .

كذلك وجدت بين بلاد اليمن والحجاز والحبشة ومصر وبين آسيا الشرقية علاقات تجارية . وبينما كان زمرد ساحل الهند الشرقى ينقل إلى الغرب عن طريق عدن ومكة ، كان أمراء الشرق الأقصى يطلبون زمرد مصر العليا وناب الفيل الكثير فى الحبشة . وكانت ميناء عدن سوقاً نافقة لتلك السلع ومرسى للسفن الآتية من كل أنحاء آسيا وساحل إفريقية الشرقى[٣] .

وكانت جدة ميناء مكة كما كانت القلزم ميناء مصر وسورية . وقد فكر هارون الرشيد فى حفر قناة تصل بين البحرين الأبيض والأحمر ، ولكنه أهمل هذه الفكرة عند ما قيل له إن الإغريق يجدون عن طريق هذه القناة منفذاً إلى البحر الأحمر ، وإنهم يستخدمون هذا المنفذ لإرسال حملات ضد مكة والمدينة وقطع

---

(١) Hyed, tome I. pp. 30—32

(٢) Ibid, pp. 32—33 . أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٣٣١ وما يليها .

(٣) Heyd, tome I, p. 53.

طريق الحج . لذلك عدل الرشيد عن حفرقناة السويس[١] وأصبح من المستحيل تحاشى عبور الصحراء إذا أريد نقل السلع الواردة عن طريق البحر الأحمر إلى الغرب ، فكانت هذه السلع تحمل على ظهور الجمال ثم تنقل فى النيل ، أو ترسل فى البر عبر برزخ السويس .

وكان الطريق الأول يوصل إلى الإسكندرية مباشرة . وإذا كانت شهرة الإسكندرية قد تضاءلت أمام شهرة بغداد ، فإن حالة الغنى التى تمتعت بها مصر فى عهد الطولونيين قد أعادت إليها بعض الانتعاش . وكان بعض السلع التى ترد عن طريق البحر الأحمر يرسل عبر برزخ السويس إلى ميناء الفرما التى احتفظت بغناها وأهميتها . ومما جعل لهذا الطريق قيمة ظاهرة بين الطرق الأخرى أنه كان لا يستغرق أكثر من أربعة أو خمسة أيام[٢] .

أما السلع التى كانت تجلب من الشرق إلى جدة ومنها ترسل إلى مكة فى موسم الحج ، فإنها كانت تصل إلى الغرب على أيدى التجار المصريين الذى كانوا يفدون إلى بلادهم برآ مع الحجاج ، أو مع التجار السوريين الذين كانوا يحملونها إلى دمشق .

وفى الوقت الذى كاد فيه العرب أصحاب السيادة على المنطقة الواقعة عند مصب نهر السند ، كان هناك طريق تجارى يسير من تلك المنطقة إلى داخل فارس ماراً بولاية سجستان . وإلى الشمال من ذلك الطريق كانت قوافل البنجاب تنقل مقادير كبيرة من البضائع عبر هضاب أفغانستان ، وتوصلها إلى كابل وغزنة وغيرهما من المدن التى صارت فيما بعد مراكز تجارية كبيرة . ومن هنا تسير القوافل نحو خراسان غرباً وبخارى شمالا ، حتى إن توابل الهند كانت تنتشر فى تلك الأقاليم وتتلاقى فى بخارى مع السلع الآتية من الصين عبر آسيا الوسطى .

وكانت هناك علاقات تجارية بين أهالى بخارى والصين . وبعد أن وصل نفوذ العرب إلى نهر سيحون كان التاجر يستطيع الذهاب إلى الصين دون أن

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ١٨٩ .

(٢) Heyd, tome i, p. 41.

يجد عقبات من السلطات الرسمية . وبعد أن يعبر نهر سيحون شرقاً يمر بقبيلة التغزغز أهم قبائل الترك التي كانت تقيم على سفوح جبال تيان شان . وكان هناك طريقان مطروقان : أحدهما طويل يستغرق أربعة أسابيع ، ويصلح لسير دواب الحمل ، والآخر قصير جداً ، ولكنه متشعب ، ولذلك يستغرق أربعين يوماً وهناك طريق يمر بالتبت ولكنه كان محفوفاً بالمصاعب(١) .

وكانت تجارة الحرير هي السبب الأساسي في ذهاب القوافل إلى الصين . فلما انتشر هذا النوع في شمالي فارس واشتهرت بصناعته ، قل مسير القوافل إلى بلاد الصين(٢) .

ويقول صاحب «كتاب حضارة الإسلام في دار السلام»(٣) إنه لما توافرت الأموال في أيدي العباسيين وأمن هارون الرشيد طرق القوافل والسفن . حملت السلع من جميع أرجاء العالم إلى العراق . فحملت الآنية من الهند ، والحديد من خراسان ، والرصاص من كرمان ، والنسيج الملون من قشمير ، والعود والمسك والسروج والدار صيني من الصين ، والعطر وأنواع الطيب من اليمن ، والسلاح والمصوغات من فارس ، واللآلىء من عيـــذاب والخيزران والكافور والعود والقرنفل والنارجيل والثياب القطنية والفيلة من الهند ، والياقوت والماس من سرنديب ، والجلود والرقيق من بلاد الروم ، والفاكهة والسلاح والحديد من بلاد الشام ، وجلود الثعالب من الروسيا .

وقد عنى هارون الرشيد بتنظيم التجارة ، فعهد إلى المحتسب في مراقبة الأسواق والإشراف على الموازين والمكاييل ، ومراعاة أثمان الحاجيات منعاً للغش أو ابتزاز أموال الأهلين(٤) .

وكان المسلمون في العصر العباسي الأول يصدرون الشعير والحنطة ، والأرز

---

(١) Ibid, tome i. pp. 836—38.

(٢) Ibid, i. pp. 37—38

(٣) جميل نخلة المدور ص ١١٦ — ١١٧ .

(٤) المصدر نفسه ص ١١٨ .

والفاكهة وزهور مازندران المشهورة ، والسكر والزجاج والحرير ، والأقمشة الصوفية والكتانية والحريرية والزيت والعطور ، كماء الورد والزعفران وماء السوسن وشراب العنف وزيت البنفسج وغيرها[1] .

وصفوة القول أن عناية الخلفاء العباسيين بالتجارة وحرصهم على تبادلها وتيسير طرقها البرية والبحرية ، كان له أثر بعيد فى ترقية التجارة التى تقوم على تبادل المحاصيل ، كما مهد السبيل أمام الكاشفين والرحالة ، فكثرت رحلاتهم فى هذا العصر كثرة تدعو إلى الإعجاب فوصفوا البلاد المختلفة وصفاً دقيقاً مبنياً على المشاهدة .

(١) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ، ترجمة ص ٢٦٦ .

الباب السابع

الثقافة

(ا) اشتغال الموالى بالعلم :

مما يسترعى نظر الباحث فى تاريخ الثقافة الإسلامية ، أن السواد الأعظم من الذين اشتغلوا بالعلم كانوا من الموالى ، وخاصة الفرس . وكانت اللغة العربية هى الوسيلة الوحيدة للتفاهم بين المسلمين إلى أن أزال المغول الخلافة العباسية من بغداد فى القرن السابع الهجرى . وفى ذلك يقول ابن خلدون[1] عند كلامه على « أن حملة العلم فى الإسلام أكثر من العجم » :

« من الغريب الواقع أن حملة العلم فى الملة الإسلامية أكثرهم العجم ، لا من العلوم الشرعية ، ولا من العلوم العقلية إلا فى القليل النادر. وإن كان منهم العربى فى نسبته ، فهو أعجمى فى لغته ومرباه ومشيخته ، مع أن الملة العربية . وصاحب شريعتها عربى . والسبب فى ذلك أن الملة فى أولها لم يكن علم فيها ولا صناعة لمقتضى أحوال السذاجة والبداوة ، وإنما أحكام الشريعة التى هى أوامر الله ونواهيه كان الرجال ينقلونها فى صدورهم . وقد عرفوا مأخذها من الكتب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه . والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين ، ولا دفعوا إليه ولا دعتهم إليه حاجة . وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين . وكانوا يسمون المختصين بحمل ذلك ونقله القراء ، أى الذين يقرءون الكتاب ، وليسوا أميين لما أن الأمية يومئذ صفة عامة فى الصحابة ، بما كانوا عربا . فقيل لحملة القرآن يومئذ قراء ، إشارة إلى هذا ، فهم قراء لكتاب الله والسنة والمأثورة عن الله ، لأنهم لم يعرفوا الأحكام الشرعية

---

(۱) مقدمة (طبعة كترمير Quatremère) ص ۲۷۰ — ۲۷٤ .

إلا منه ومن الحديث الذى هو فى غالب موارده تفسير له وشرح . قال صلى الله عليه وسلم : تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنتى . فلما بعد النقل من لدن دولة الرشيد فيما بعد ، احتيج إلى وضع التفاسير القرآنية وتقييد الحديث مخافة ضياعه . ثم احتيج إلى معرفة الأسانيد وتعديل الرواة للتمييز بين الصحيح من الإسناد وما دونه ، ثم كثر استخراج أحكام الوقائع من الكتاب والسنة . وفسد مع ذلك اللسان ، فاحتيج إلى وضع القوانين النحوية وصارت العلوم حضرية . . وبعد العرب عنها وعن سوقها . والحضر لذلك العهد هم العجم أو من معناهم من الموالى وأهل الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم فى الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف ، لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس . فكان صاحب صناعة النحو سيبويه [والزجاج] والفارسى (٣٧٧هـ) من بعده والزجاج[1] (٣١١هـ) من بعدهما . وكلهم عجم فى أنسابهم . وإنما ربوا فى اللسان العربى فاكتسبوه بالمربى (النشأة والتربية) ومخالطة العرب ، وصيروه قوانين وفنا لمن بعدهم . وكذلك حملة الحديث الذين حفظوه على أهل الإسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمربى ، لاتساع الفن بالعراق وما بعده . وكان علماء أصول الفقه كلهم عجم كما نعرف ، وكذا جملة علماء الكلام ، وكذا أكثر المفسرين . ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم . فظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم : « لو تعلق العلم بأعناق السماء لناله قوم من فارس » . وأما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة وسوقها وخرجوا إليها عن البداوة ، فشغلهم الرياسة فى الدولة العباسية ، وما دفعوا إليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم والنظر فيه ، فإنهم كانوا أهل الدولة وحاميتها وأولى سياستها ، مع مايلحقهم من الأنفة فى انتحال العلم حينئذ بما صار من جملة الصنائع . والرؤساء أبداً يستنكفون عن الصنائع والمهن ومايجرى إليهما ، ودفعوا ذلك إلى من قام به من العجم والمولدين ، وما زالوا يرون لهم حق القيام فإنه دينهم وعلومهم ، ولا يحتقرون حامليها كل

---

(١) كذا بالأصل ولعله يريد أن يقول : والزجاج من بعده والفارسى من بعدهما ، لأن الزجاج متقدم على أبى على الفارسى .

الاحتقار . حتى إذا خرج الأمر من العرب جملة وصار للعجم ، صارت العلوم الشرعية غريبة النسب عند أهل الملك بما هم عليه من البعد عن نسبها ، وامتهن حملتها بما يرون أنهم بعداء عنهم ، مشغولون بما لايجدى عليهم فى الملك والسياسة » .

ويقول الأستاذ نيكلسون[1] « وكان لانبساط رقعة الدولة العباسية ، ووفرة ثروتها ، ورواج تجارتها ، أثر كبير فى خلق نهضة ثقافية لم يشهدها الشرق من قبل ، حتى لقد بدا أن الناس جميعاً من الخليفة إلى أقل أفراد العامة شأناً غدوا فجأة طلابا للعلم أو على الأقل أنصاراً للأدب . وفى عهد الدولة العباسية كان الناس يجوبون ثلاث قارات سعياً إلى موارد العلم والعرفان ليعودوا إلى بلادهم كالنحل يحملون الشهد إلى جموع التلاميذ المتلهفين ، ثم يصنفون بفضل مابذلوه من جهد متصل هذه المصنفات التى هى أشبه شىء بدوائر المعارف ، والتى كان لها أكبر الفضل فى إيصال هذه العلوم الحديثة إلينا بصورة لم تكن متوقعة من قبل » .

هذا فى الشرق الإسلامى فى العصر العباسى الأول . أما فى الغرب فقد نافست قرطبة بغداد والبصرة والكوفة ودمشق والفسطاط ، فأصبحت حاضرة الأندلس سوقاً نافقة للعلم وكعبة لرجال الأدب ، حتى جذبت مساجدها الأوربيين الذين وفدوا إليها لارتشاف العلم من مناهله والتزود من الثقافة الإسلامية . ومن ثم ظهرت فيها طائفة من العلماء والشعراء والأدباء والفلاسفة والمترجمين والفقهاء وغيرهم .

كان عهد الحكم الأول (١٨٠ — ٢٠٦ هـ) وعبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ — ٢٣٨ هـ) فترة هدوء سياسى لم يقع فيها من الأحداث السياسية مايستحق الذكر وقد ساعد ذلك الهدوء على خلق نهضة علمية ، ولاسيما فى عهد عبد الرحمن الأوسط الذى يعتبر عهده عهد يسر ورخاء وازدهار ثقافى ، وذلك عن طريق تأثير الشرق الإسلامى فى العصر العباسى .

وكان عبد الرحمن الأوسط نصيراً للعلوم والفنون ، وأولع بالفلك والتنجيم وأحاط نفسه بنخبة من علماء الفلك وأدر عليهم الأرزاق والمنح .

---

(١) Lit. Hist. of The Arabs. p. 281.

وقد بعث فى بداية عهده عباس بن نصيح إلى الشرق الإسلامى لينقل إليه الكتب التى استحوذ عليها العباسيون . وكان هذا الأمير الأموى مولعاً بمطالعة كتب الطب والفلسفة القديمة .(١) وانتقل كثير من التراث اليونانى والفارسى إلى قرطبة بفضل جهود عبد الرحمن الأوسط . وبذل الحكم المستنصر ، حتى قبل أن يجلس على عرش الخلافة الأموية سنة ٣٥٠ هـ جهوداً بعيدة الأثر فى توجيه الدراسة الأندلسية فى ميدان العلوم والطب .

تقسيم العلوم :

وقد ميز كتاب المسلمين بين العلوم التى تتصل بالقرآن الكريم وبين العلوم التى أخذها العرب عن غيرهم من الأمم . ويطلق على الأولى العلوم النقلية أو الشرعية ، وعلى الثانية العلوم العقلية أو الحكمية ، ويطلق عليها أحياناً علوم العجم أو العلوم القديمة .

وتشمل العلوم النقلية : علم التفسير ، وعلم القراءات ، وعلم الحديث ، والفقه ، وعلم الكلام ، والنحو ، واللغة والبيان ، والأدب .

وتشمل العلوم العقلية : الفلسفة ، والهندسة ، وعلم النجوم ، والموسيقى ، والطب ، والسحر ، والكيمياء ، والتاريخ ، والجغرافيا .

وفى العصر العباسى الأول اشتغل الناس بالعلوم الدينية ، وظهر المتكلمون ، وتكلم الناس فى مسألة خلق القرآن . وتدخل المأمون فى ذلك ، فأوجد مجالس المناظرة بين العلماء فى حضرته . ولهذا عاب الناس عليه تدخله فى الأمور الدينية ، كما عابوا عليه تفضيله على بن أبى طالب على سائر الخلفاء الراشدين والأمويين ، وذهب بعض إلى أن المأمون أراد بعقد هذه المجالس إزالة الخلف بين المتناظرين فى المسائل الدينية ، وتثبيت عقائد من زاغوا عن الدين . وبذلك تتفق كلمة الأمة فى المسائل الدينية التى كانت مصدر ضعفهم . وكان المأمون يميل إلى الأخذ بمذهب المعتزلة ، لأنه أكثر حرية واعتماداً على العقل ، فقرب أتباع هذا المذهب إليه ، ومن ثم أصبحوا ذوى نفوذ كبير فى قصر الخلافة .

وفى هذا العصر ظهر نوعان من العلماء : الأول هم الذين يغلب على ثقافتهم

---

(١) بروفنسال : الشرق الإسلامى والحضارة العربية (تطوان ١٩٥٠) ص ١٨ — ١٩ .

النقل والاستيعاب ويسمون أهل علم ، والثانى هم الذين يغلب على ثقافتهم الابتداع والاستنباط ويسمون أهل عقل . وقد ذكر ابن خلكان[1] أن الخليل بن أحمد اجتمع بابن المقفع وتحدثا فى شتى المسائل ، فلما افترقا قيل للخليل : كيف رأيت ابن المقفَّع ؟ فقال : رأيت رجلا علمه أكثر من عقله ، وقيل لابن المقفع : كيف رأيت الخليل ؟ قال رأيت رجلا عقله أكثر من علمه .

وليس من شك فى أن ابن المقفع قد غلب على ثقافته النقل والترجمة والتأثر بآراء غيره من العلماء ، على حين قد غلب على ثقافة الخليل الابتكار الذى يتجلى من هذه الحقيقة ، وهى أنه أول من فرغ قواعد النحو ، وأول من صنف المعاجم ، وأول من تكلم فى علم العروض ، فالأول إذن ذو علم ، والثانى ذو عقل .

العلوم النقلية :

١ — علم القراءات :

ومن العلوم التى اشتغل بها العباسيون علم القراءات ، ويعتبر المرحلة الأولى لتفسير القرآن . وتتركز النواة التى بدأ بها هذا العلم فى القرآن نفسه وفى نصوصه نفسها ، وبعبارة أخرى فى قراءته . فى هذه الأشكال المختلفة نستطيع أن نرى أول محاولة للتفسير . ويرجع السبب فى ظهور بعض هذه القراءات إلى خاصية الخط العربى ، إذ أن الرسم الواحد للكلمة الواحدة يقرأ بأشكال مختلفة تبعاً للنقط فوق الحروف أو تحتها .

وقد وجدت على مر الزمن سبع طرق فى القراءات ، تمثل كل طريقة منها مدرسة معترف بها ترجع قراءتها إلى إمام تربط باسمه وتستند إلى أحاديث موثوق بها ، وعليها يقتصر فى قراءة المصحف . ويعتبر هارون بن موسى البصرى اليهودى الأصل (المتوفى بين سنتى ١٧٠و١٨٠ﻫ) ، وكان مولى للأزد ، أول من حاول نقد القراءات المختلفة ، وبحث وجوه النظر التى تقوم عليها ، ونقد الأسانيد التى تسند إليها نقداً قوياً . وعلى الرغم من أنه كان قدريا معتزلياً ، قدره البخارى

---

(١) كتاب وفيات الأعيان ج ١ ص ١٧٣ .

ومسلم ووثقه يحيى بن معين . ويرجع أغلب الاختلافات فى القراءات إلى رجال موثوق بهم ممن عاشوا فى القرن الأول كابن عباس وعائشة ، وعثمان صاحب القراءة ، وابنه أبان ، وإلى قراء معترف بهم ، كعبد الله بن مسعود ، وأبى بن كعب ، وهؤلاء قد أثنى عليهم التابعون وغيرهم[١] .

ومن أشهر أصحاب القراءات فى العصر العباسى الأول يحيى بن الحارث الذمارى[٢] المتوفى سنة ١٤٥ هـ ، وحمزة بن حبيب الزيات المتوفى سنة ١٥٦ هـ فى خلافة أبى جعفر المنصور ، وأبو عبدالرحمن المقرىء المتوفى سنة ٢١٣هـ ، وخلف ابن هشام البزار المتوفى سنة ٢٢٩ هـ[٣] .

٢ — التفسير :

اتجه المفسرون فى تفسير القرآن اتجاهين : يعرف أولهما باسم التفسير بالمأثور ، وهو ما أثر عن الرسول وكبار الصحابة ، ويعرف ثانيهما باسم التفسير بالرأى ، وهو ما كان يعتمد على العقل أكثر من اعتماده على النقل : ومن أشهر مفسرى هذا النوع المعتزلة والباطنية .

على أن النوع الأول من التفسير ، وهو التفسير بالمأثور ، قد اتسع على مر الزمن بما أدخل عليه من آراء أهل الكتاب الذين دخلوا فى الإسلام ، والذين كانت لهم آراء أخذوها عن التوراة والإنجيل ، مثل كعب الأحبار اليهودى وعبد الله بن سلام وابن جُرَيج . « ولقد كان إسلام هؤلاء فوق التهمة والكذب ورفعوا إلى درجة أهل العلم الموثوق بهم »[٤] ، كما كانوا يتخذون الشعر مرجعاً للتفسير فى استعمالاته اللغوية . وقد أثر عن ابن عباس أنه قال : إذا تعاجم شىء من

---

(١) جولد تسيهر : المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن — ترجمة الدكتور على حسن عبد القادر ص ٣٦ — ٣٧ .

(٢) نسبة إلى ذمار من مخاليف اليمن .

(٣) ابن قتيبة : كتاب المعارف ص ٢٣٠ — ٢٣١ . ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٤٢ — ٤٥ .

(٤) المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ص ٦٦ .

القرآن فانظروا فى الشعر ، فإن الشعر عربى ، حتى لقد كان يفسر كثيراً من الآيات بألفاظ وردت فى الشعر الجاهلى[1] .

ولما كان الحديث يشغل كل عناية المسلمين فى صدر الإسلام ، اعتبر التفسير جزءاً من الحديث أو فرعا من فروعه ، حتى إن التفسير فى ذلك العهد كان تفسيراً لآيات مبعثرة غير مرتبة حسب ترتيب السور والآيات ، إلا تفسير ابن عباس ، ولو أن كثيرين يشكون فى نسبته إليه .

أما الطريقة المنظمة فى تفسير القرآن فإنها لم تحدث إلا فى العصر العباسى . روى ابن النديم[2] « أن عمر بن بكير كان من أصحاب الفرّاء صاحب كتاب معانى القرآن المتوفى سنة ٢٠٧ هـ . وكان منقطعاً إلى الحسن بن سهل ، فكتب إلى الفراء أن الأمير الحسن بن سهل ربما سألنى عن الشىء بعد الشىء من القرآن فلا يحضرنى فيه جواب ؛ فإن رأيت أن تجمع لى أصولا أو تجعل فى ذلك كتاباً أرجع إليه فعلت. فقال الفراء لأصحابه : اجتمعوا حتى أملى عليكم كتاباً فى القرآن ، وجعل لهم يوماً. فلما خرج إليهم ، وكان فى المسجد رجل يؤذن ويقرأ بالناس فى الصلاة ، فالتفت إليه الفراء فقال له : اقرأ ! وبدأ بفاتحة الكتاب ففسرها ، ثم استوفى الكتاب كله ، فقرأ الرجل ، ويفسر الفراء ، فقال أبو العباس : لم يعمل أحد قبله مثله ولا أحسب أن أحداً يزيد عليه » . ولا شك أن الفراء قد فسر القرآن حسب ترتيب الآيات ، وأنه فسره بهذه الطريقة التى رسمها لنفسه فى أربعة أجزاء[3] .

ومن أشهر المفسرين بعد عبد الله بن عباس ، ابن جريج الذى كان يجمع كل ما وصل إليه دون تحرى الدقة فى التفسير ، والسُّدى المتوفى سنة ١٢٧ هـ ، وقد اعتمد فى تفسيره على ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة ، ومقاتل ابن سليمان الأزدى المتوفى سنة ١٥٠ هـ ، وقد تأثر بتفسير التوراة الذى أخذه عن اليهود ، حتى إن الإمام أبا حنيفة قد اتهمه بالكذب ، وقال الشافعى : « الناس

(١) المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ص ٦٨ — ٦٩ .
(٢) كتاب الفهرست ص ٩٩ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٠٠ .

كلهم عيال على ثلاثة : على ابن مقاتل فى التفسير ، وعلى زهير بن أبى سلمى فى الشعر ، وعلى أبى حنيفة فى الكلام » . ويروى عنه أيضاً أنه قال : « من أحب التفسير فعليه بمقاتل » . ومن أشهر كتب التفسير : تفسير محمد بن إسحاق الذى أخذ كثيراً من آرائه عن اليهودية والنصرانية عن وهب بن منبه وكعب الأحبار .

على أن هذه التفاسير قد ضاعت ، ولم يصل إلينا شىء منها إلا عن ابن جرير الطبرى (٣١٠ هـ) فى تفسيره المشهور الذى يقع فى ثلاثين مجلداً (القاهرة سنة ١٩٠٤) ، وقد وصفه أبو حامد الأسفراينى بقوله : « لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل كتاب تفسير محمد بن جرير الطبرى لم يكن ذلك كثيراً » . يقول جولد تسيهر إنه دائرة معارف غنية فى التفسير بالمأثور[1] .

ويمتاز الطبرى فى تفسيره بتحرى الدقة فى النقل عن الرسول والصحابة والتابعين ، ومعارضته أصحاب الرأى المستقلين فى التفكير ، لأنهم كثيراً مايتبعون هواهم . « وقد أعطى — كذلك — فى تفسيره لإجماع الأمة سلطاناً كبيراً . وعلى هذا النحو انتظم فى تفسيره ، آية بعد آية ، التفسير بالروايات المروية عن العلماء المعتبرين وحدهم ، وأيد ذلك بالأسانيد المختلفة بالرجال الذين وصلت إليه المعرفة عن طريقهم . ولم يسلك هذا الطريق على نحو آلى ، وإنما فعل ذلك على مثال ما كان يسير عليه العلماء المسلمون من وقت طويل من نقد الرجال جرحاً وتعديلا . فعندما يظهر له أن الحديث غير موثوق به ، فإنه يصرح فيه بما يناسبه ، حتى آراء ابن عباس وقف حيالها موقفاً حراً صريحاً . وقال مرة عن مجاهد الذى كان يحب أتباعه ، إن رأيه يخالف إجماع الحجة الذى لا يمكن نسبته إلى الكذب ، وفى مرة أخرى « وما ذكر هنا عن مجاهد لا معنى له وفساد رأيه لاشك فيه » .

وعلى هذا النحو كان الطبرى يعالج أيضاً آراء الضحاك وغيره من الرواة عن ابن عباس . ويمتاز ابن جرير عمن سبقه من المفسرين ، بأنه كان يأتى بأخبار مأخوذة من القصص الإسرائيلية من مراجع يهودية الأصل (مثل كعب الأحبار ووهب

---

(١) المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ص ٨٥ — ٨٦ .

ابن منبه ، ولكنه لايتمسك فى ذلك بإعجاب المتقدمين بلا قيد ولا شرط[1] .

امتاز العصر العباسى الأول بوجود جماعة من المعتزلة (أحرار الرأى) الذين لم يتقيدوا بالتفسير بالمأثور ، وإنما كانوا يعتمدون فى دعم آرائهم على العقل . وقد بذلوا جهداً عظيما لدحض آراء معارضيهم بتفسير بعض الآيات القرآنية تفسيراً يتفق مع مبادئهم العقلية . ويقول جولد تسيهر[2] : « وقد جر سلوك هؤلاء المعتزلة المخالف لبعض النظريات الدينية السائدة عند المحدثين ، إلى التباعد بين هؤلاء المتطرفين الذين يعتمدون على العقل ، وهم أولئك الأتقياء المبالغون فى الدقة . وكان ذلك فى العصر العباسى الأول ، وما لبثوا بعد أن ذلك أصبحوا فرقة خالفت (وإن تكن للمخالفة أيضاً بواعث أخرى) النظريات المروية على خط مستقيم بكل حرية واستقلال » .

وفى سبيل مكافحة خصوم هذه الفرقة (المعتزلة) ، كان من الضرورى أن تؤسس تعاليمها على أسس دينية من القرآن ، وأن ترد من جهة أخرى حجج هؤلاء الخصوم وتضعف من قوتها ، من القرآن أيضاً ، بطريق التفسير الماهر واستخدامه فى سبيل ذلك .

وقد حبذ جولد تسيهر طريقة المعتزلة فى تفسير القرآن وجعلهم العقل مقياساً للحقائق الدينية ، لأنهم كافحوا الخرافات والتصورات المخالفة لطبيعة الأشياء التى وجدت طريقها إلى الدين[3] .

ومن أشهر تفاسير المعتزلة تفسير أبى بكر الأصم (٢٤٠ هـ) ، وتفسير ابن جروا الأسدى (٣٨٧هـ) . وقد قيل إنه كتب فى تفسير البسملة نحو ١٢٠ وجهاً .

من ذلك نرى أن القرآن الكريم قد أصبح منبعاً لكثير من العلوم التى اشتغل بها المسلمون فى العصر العباسى ؛ فعلماء النحو اتخذوا منه مادة خصبة يعتمدون عليها فى استنباط قواعد اللغة العربية ، كما ساعد « الإعراب » على تفسير

(١) المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ص ٨٦ — ٨٧ .
(٢) المصدر نفسه ص ٩٩ — ١٠٠ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٣٧ .

القرآن وكشف غوامض بعض الآيات القرآنية ، حتى لقد وضع بعض علمائهم ، كالكسائى والمبرد والفراء وخلف النحوى ، كتباً أطلقوا عليهـا « معانى القرآن[1] . كما اعتمد الفقهاء فى آرائهم الفقهية على القرآن ، وألفوا فى المذاهب المختلفة كتباً سموها « أحكام القرآن » . ومن هؤلاء الشافعى وأبو بكر الرازى أساساً للتدليل على صحة ماذهبوا إليه . أضف إلى ذلك ما كتبه المؤرخون من تفسير الآيات القرآنية التاريخية من حيث صلتها بتاريخ الأمم الأخرى . وغير خاف أن القرآن الكريم من أهم المصادر التاريخية بلا نزاع ، لأنه أقدمها وأصدقها وأوسعها مجالا ، ولاسيما فى الكلام على النبى صلى الله عليه وسلم . فمن القرآن نستطيع أن ننظر إلى النبى من حيث هو نبى أو سياسى أو مشرع ، أو من حيث هو مصلح اجتماعى ، أو من حيث كونه رجلا عادياً . وبهذا كله كلام نجد صورة واضحة للنبى من جميع هذه الوجوه . كما نجد فى القرآن مصدراً لتاريخ الامم الأخرى كدولة سبأ فى اليمن (سورة النمل وسورة سبأ) ، وتاريخ اليهود (سورة البقرة) وصراعهم مع الرسول (سورة الأحزاب) ، وعلاقتهم بموسى (سورة البقرة والنمل والقصص) .

كما أخذ علماء الكلام يفسرون القرآن الكريم بما يتفق ومبادئهم ، فأولوا القرآن لنفى الصفات عن الله سبحانه وتعالى ، وإبعاد الخرافات التى وجدت سبيلا إلى الدين الإسلامى عن طريق التفسير .

٣ — الحديث :

ومن أهم مصادر التشريع الإسلامى « الحديث » . وهو ما أثر عن النبى من قول أو فعل أو تقرير لشىء رآه ، ويأتى فى الأهمية بعد القرآن . وقد جمع البخارى ، على مانعلم ، نحو ٧٢٥٧ حديثاً بما فيها الأحاديث المكررة . فإذا حذفنا المكرر منها أصبح عددها نحو أربعة آلاف . وقد اختارها البخارى — على ماقيل —

---

(١) ابن النديم ص ٥١ — ٥٢ .

٢) المصدر نفسه ص ٥٧ .

من ثلثمائة ألف حديث . ومع ذلك فإن الإمام أبا حنيفة لم يثق إلا بستة عشر حديثاً . ومن ذلك يتبين لنا ما وصل إليه التحريف فى الحديث .

وكانت هذه الأحاديث التى وصلت إلى أيدينا موضعاً للجدل العنيف بين فقهاء المسلمين : ذلك أنه عند وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، لم يكن السواد الأعظم من العرب يستطيعون القراءة والكتابة ، حتى إن تاريخ هذه الأمة لم يدون إلا بعد زمن طويل . وقد روى العرب الأحاديث النبوية بعضهم عن بعض ، فتأثرت بشىء غير قليل من التبديل والتحريف ، مما أدى بها إلى الغموض والإبهام ، فشوهت معانيها والظروف التى أحاطت بوقوعها وقولها .

حتى إذا جاء القرن الثانى للهجرة ، أخذ العرب يدونون الأحاديث النبوية ، وأتاحوا الفرصة لظهور طائفة من أئمة الحديث الذين ظهروا فى العصر العباسى واشتهر منهم الإمام مالك ، والإمامان محمد بن إسماعيل البخارى (٢٥٦ هـ) ، ومسلم بن الحجاج القشيرى (٢٦١ هـ) صاحبى الصحيحين المشهورين الذائعين فى بلاد الإسلام . ثم ظهر بعدهما أبو داود السجستانى (٢٧٥ هـ) صاحب السنن ، وأبو عيسى محمد الترمذى (٢٧٨ هـ) صاحب الجامع ، والنسائى (٣٠٣ هـ) ، وابن ماجة (٢٧٥ هـ) صاحبا السنن ، وكلهم ممن ألف فى السنن كتاباً نسب إليه . ولا تزال كتبهم باقية ، وهى أشهر الكتب الستة ، ولكن أشهرها جميعاً صحيحا البخارى ومسلم . وهذه « الكتب الستة » كما تسمى ، تحتل المكانة السامية بين مصادر التشريع الإسلامى(١) .

ومن رواة الحديث محمد بن إسحاق صاحب المغازى المشهور . روى ابن خلكان(٢) أن أصحاب الزهرى كانوا يلجئون إلى محمد بن إسحاق فيما شكوا فيه من حديث الزهرى ثقة منهم بحفظه . وحكى عن يحى بن سعيد القطان وأحمد بن حنبل أنهم وثقوا محمد بن إسحاق واحتجوا بحديثه .

٤ — الفقه :

نشأ عن دراسة القرآن والحديث وتعرف معانيهما الخاصة الحاجة إلى تعلم

---

(١) Nicholson, p. 337

(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٨٣ .

النحو واللغة ، وتطلب ذلك فهم الشعر الجاهلى الذى أمد الباحثين بأحسن ما تمثله اللغة العربية من الأدب القديم الخالص . كما نطلب فهم اللغة العربية دراسة الأنساب والتاريخ التى مالبثت أن أصبحت على مر الزمن علوماً مستقلة . كذلك عكف المسلمون على تفسير القرآن ، وحذا حذوهم فى ذلك بعض التابعين . ولم يكن تدوين الحديث شائعاً فى القرن الأول الهجرى . غير أن الناس أقبلوا منذ مستهل القرن الثانى على جمعه وتدوينه ، حتى أصبح المحور الذى تدور عليه الحركات العلمية فى الأمصار الإسلامية .

على أن اختلاف أئمة الفقه فى فهم بعض النصوص الفقهية واستنباط الأحكام منها قد أدى إلى تعدد المذاهب . واشتهر من هذه المذاهب أربعة هى : مذهب مالك إمام أهل الحجاز وزعيم الفقهاء الذين يأخذون بطريقة أهل الحديث ، ومذهب أبى حنيفة إمام أهل العراق وزعيم الفقهاء الذين يأخذن بطريقة الرأى والقياس ، ومذهب الشافعى ، وكان يسير أولا على طريقة أهل الحجاز ، ثم جعل مذهبه وسطا بين الطريقتين ، ومذهب أحمد بن حنبل ، وكان من كبار المحدثين . واختص هو وأصحابه بالمذهب الحنبلى الذى يبعد عن الاجتهاد مما أدى إلى قلة عدد المتمسكين بمذهبه [١] .

ومن ثم ظهرت فى ميدان الفقه مدرستان : مدرسة أهل الحديث فى المدينة ، وعلى رأسها الإمام مالك الذى كان يأخذ بمبدأ التوسع فى النقل عن السنة ، ومدرسة أهل الرأى فى العراق ، وعلى رأسها الإمام أبو حنيفة الذى كان يدين بالرأى .

ولد أبو حنيفة النعمان بن ثابت بالكوفة سنة ٨٠ هـ ومات ببغداد سنة ١٥٠ هـ . وقيل إنه حج وهو فى السادسة عشرة من عمره مع أبيه . وشهد عبدالله ابن الحارث أحد الصحابة يحدث بما سمع عن رسول الله ، كما روى أيضاً أنه سمع مالك بن أنس . وكان أبو حنيفة بجانب اشتغاله بالعلم يحترف التجارة ببيع الخز ،

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٩١ — ٣٩٣ .

ويجلس فى الأسواق ، بما أكسبه خبرة عظيمة ، وجعله يعرف حقيقة ما يجرى فى الأسواق من معاملات الناس فى البيع والشراء .

وقد تعلم أبو حنيفة الفقه فى مدرسة الكوفة ، وأخذ عن عطاء بن أبى رباح ، وهشام بن عروة ، ونافع مولى عبد الله بن عمر ، ولكنه أخذ أكثر علمه عن أستاذه حماد بن أبى سليمان الأشعرى . وكان أبو حنيفة يتشدد فى قبول الحديث ويتحرى عنه وعن رجاله ، فلا يقبل الخبر عن رسول الله إلا إذا رواه جماعة عن جماعة ، أو إذا اتفق فقهاء الأمصار على العمل به .

ولم يصل إلينا أى كتاب فى الفقه لأبى حنيفة . إلا أن ابن النديم [(١)] ذكر من بين كتبه كتاب الفقه الأكبر ، وهو فى العقائد ، ورسالته إلى البُسْتى . وكتاب العالم والمتعلم ، وكتاب الرد على القدرية ، والعلم براً وبحراً وشرقاً وغرباً بعداً وقرباً .

ومن تلاميذ أبى حنيفة الليث بن سعد الذى تقلد قضاء مصر . وقد قيل إن أبا جعفر المنصور اجتمع به فى بيت المقدس ، وأنه لما خرج لوداعه : أعجبنى ما رأيت من شدة عقلك ؛ والحمد لله الذى جعل فى رعيتى مثلك . وقد ذكر ابن خلكان [(٢)] أن دخل الليث بلغ خمسة آلاف دينار فى السنة ، وأنه كان يوزعها على أهل العلم استغناء منه وتورعاً .

ومن فقهاء ذلك العصر مالك بن أنس الذى ولد سنة ٩٣ هـ (أو سنة ٩٧ هـ) ، وتوفى سنة ١٧٩ هـ . وقضى حياته بالمدينة المنورة . وروى أنه أخذ قراءة القرآن عن نافع بن أبى نعيم ، وأخذ العلم عن ربيعة الرى ، وسمع الحديث من كثير من شيوخ المدينة كان بن شهاب الزهرى ، ونافع مولى عبد الله بن عمر ، وروى عنه الأوزاعى .

وكان مالك أول من كتب فى العلوم الدينية فى العصر العباسى ، وكتابه « الموطأ » أول كتاب ظهر فى الفقه الإسلامى . ومن كتبه « المدونة » ، وهى

---

(١) كتاب الفهرست ص ٢٨٥ .

(٢) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤٣٨ .

مجموعة رسائل من فقه مالك ، جمعها تلميذه أسد بن الفرات النيسابورى . وتشتمل على نحو ست وثلاثين ألف مسألة . وكان مالك يعتمد على الحديث كثيراً ، لأن بيئته الحجازية كانت تزخر بالعلماء والمحدثين الذين تلقوا الحديث عن الصحابة رضوان الله عليهم ، وورثوا من السنة ما لم يتح لغيرهم من أهل الأمصار الإسلامية الأخرى .

وقد دخل مذهب مالك الأندلس فى عهد الحكم الأول (١٨٠ — ٢٠٦ ﻫ) ، وحل محل مذهب الأوزاعى الذى ظهر فى المدينة ومات فى الشام سنة ١٨١ ﻫ . وقد قبل الأمير الأموى هذا المذهب لأنه يحرر بلاده من تأثير العباسيين الأدبى [١] وانتشر هذا المذهب فى المغرب فى الوقت نفسه . وبذلك اتجهت الدراسات الفقهية شطر مذهب مالك . وقد نشأ عن دخول مذهب مالك فى المغرب والأندلس مدرسة دينية طبقت شهرتها العالم الإسلامى الغربى . وظهر من بين علمائها : عبد الملك ابن حبيب صاحب « الواضحة » وعيسى بن دينار ، وزياد بن عبد الرحمن .

وممن اشتهر بالفقه من تلاميذ مالك ، محمد بن الحسن فى العراق ، ويحيى ابن يحيى الليثى (ت ٢٣٤ ﻫ) فى الأندلس ، وكان من قبيلة المصامدة من البربر . وقد أخذ العلم عن مالك ، وروى عنه كتابه « الموطأ » ، وبروايته انتشر فى المغرب والأندلس ، وانتهت إليه الرياسة فى الفقه والحديث فى بلاد الأندلس . كما سمع عن الليث بن سعد فى مصر وسفيان بن عيينة بمكة . وكان قاضى القضاة فى بلاد الأندلس لا يلى إلا بمشورة يحيى واختياره [٢] . ومن تلاميذ مالك أيضاً عبد الله بن وهب ، وعبد الرحمن بن القاسم ، وعبد الله بن الحكم فى مصر ، وأسد ابن الفرات فى القيروان .

ومن أشهر أئمة هذا العصر أبو عبد الله بن إدريس الشافعى الذى جمع بين مدرستى النقل والعقل بما أوتيه من سعة العقل والقدرة على الابتكار . وهو أول من تكلم فى أصول الفقه وأول من أخذ فى وضع مبادئه . وكان شديداً فى التشيع حتى إنه حضر ذات يوم مجلساً فيه بعض الطالبين فقال : « لا أتكلم فى

---

(١) ويرجع السبب فى ذلك إلى أن العباسيين كانوا يسيرون على وفق مذهب أبى حنيفة . لذلك مال الأمويون بالأندلس إلى مذهب الأوزاعى ليتجنبوا المذهب الحنفى الذى اتخذه العباسيون

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٣٢ — ٣٣٤ .

مجلس يحضره أحدهم . هم أحق بالكلام ولهم الرياسة والفضل ». «وكان الشافعى إذا أراد أن يحدث ، توضأ وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته ، وتمكن فى جلوسه بوقار وهيبة . فقيل له فى ذلك ، قال : أحب أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحدث إلا متمكناً على طهارة » . وقد ترك بلاد العراق سنة ٢٠٠ ﻫ وقصد مصر حيث مات بها سنة ٢٠٤ ﻫ . وله كتب كثيرة فى الفقه . منها كتاب المبسوط فى الفقه ، وكتاب الأم ، وقد أملاه على تلاميذه فى مصر . وروى عنه كثير من الفقهاء كأبى ثور وابن الجنيد والبويطى وابن سُريج وغيرهم (١) .

كان الشافعى — كما وصفه ابن خلكان (٢) كثير المناقب جم المفاخر منقطع القرين : اجتمعت فيه من العلوم بكتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة رضى الله عنهم وآثارهم واختلاف أقاويل العلماء وغير ذلك من معرفة كلام العرب واللغة العربية والشعر ، حتى إن الأصمعى ، مع جلالة فى قدره هذا الشأن ، قرأ عليه أشعار الهذليين مالم يجتمع فى غيره ، حتى قال أحمد بن حنبل رضى الله عنه : ماعرفت ناسخ الحديث من منسوخة حتى جالست الشافعى . . . قال عبد الله بن أحمد بن حنبل : قلت لأبى . أى رجل كان الشافعى ؟ فإنى سمعتك تكثر من الدعاء له ، فقال : يابنى ! كان الشافعى كالشمس للدنيا وكالعافية للبدن ، هل لهذين من خلف أو عنهما من عوض ؟ .

ومن هؤلاء الأئمة أحمد بن حنبل ، الذى قال فيه الإمام الشافعى حينما خرج من بغداد إلى مصر : « خرجت من بغداد وما خلفت بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل » . إلا أن مذهبه قليل الأتباع ، وأكثرهم بالشام ونجد والبحرين . وقد شهد له أئمة عصره بالانفراد بالزهد والورع والتقوى : وموقفه من مشكلة خلق القرآن يدل على قوة عزيمته وشدة تمسكه بالدين :

ومن فقهاء ذلك العصر أبو يوسف الذى ولد سنة ١١٣ ﻫ وتوفى سنة ١٨٢ ﻫ . وقد ذكر المترجمون له أنه نشأ فقيراً ، وأن أستاذه أبا حنيفة كان يمده بالمال. وقد تولى أبو يوسف القضاء للمهدى والهادى والرشيد . وكان فى أيام الرشيد يتقلد منصب قاضى القضاة .

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٢٩٤ — ٣٠٠ .

(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٤٧ .

وكان أبو يوسف أكبر تلاميذ أبي حنيفة ، وقد أخذ عنه الفقه ، وعمل على نشر مذهبه ومبادئه بعد أن تقلد قضاء بغداد . ومن مؤلفات أبي يوسف « كتاب الخراج » الذى ألفه الرشيد ، وتعرض فيه لأهم أمور الدولة المالية التى لاتستطيع الإلمام بها إلا من كان فى مثل منصبه وقربه من الخلفاء وتضلعه فى الفقه الإسلامى.

ومن أشهر فقهاء هذا العصر الليث بن سعد . ولد ببلدة قلقشندة بمصر (فى محافظة القليوبية) ، واشتهر بالكرم والثراء ، وبلغ دخله خمسة آلاف دينار فى السنة كان يفرقها على أهل العلم من أصحابه كما تقدم . وقد أطنب العلماء فى الإشادة بعلمه . روى عن الشافعى أنه قال : إن الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به ، وقال ابن وهب : مارأينا أحداً قط أفقه من الليث . وكان الشافعى يتأسف على فوات لقائه ، وتوفى الليث سنة ١٥٧ هـ [١] .

٥ — علم الكلام :

ومن العلوم التى اشتغل بها العباسيون علم الكلام ، ويقصد به الأقوال التى كانت تصاغ على نمط منطقى أو جدلى ، وعلى الأخص المعتقدات ، كما يسمى المشتغلون بهذا العلم « المتكلمين » . وكان يطلق على هذا اللفظ أول الأمر على من يشتغلون بالعقائد الدينية ، غير أنه أصبح يطلق على من يخالفون المعتزلة ويتبعون أهل السنة والجماعة . يقول الغزالى[٢] : « وإنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة » .

وكان من أثر ذلك أن أحدث كل فرقة تدافع عن عقيدتها وتعمل على دحض الأدلة التى وردت فى عقائد مخالفيها . وكانت المناظرات تعقد بين المتكلمين فى قصور الخلفاء وفى المعاهد الدينية كالمساجد وغير الدينية كبيوت الحكمة .

ومن أشهر المتكلمين واصل بن عطاء ، وأبو الهذيل العلاف ، والنظام ، وأبو الحسن الأشعرى ، وحجة الإسلام الغزالى .

(١) ابن خلكان جـ ١ ص ٤٣٨ .

انظر على حسن عبد القادر : نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى ، الطبعة الثانية (القاهرة ١٩٥٦) .

(٢) المنقذ من الضلال (طبعة دمشق ١٣٥٢ / ١٩٣٤) ص ٧١ .

يقول دى بور[١] : « على أن ظهور الكلام فى الإسلام كان بدعة من أكبر البدع . وقد شدد فى النكير على هذا العلم أهل الحديث الذين كانوا يرون أن ماجاز البحث فى الأحكام الفقهية العلمية ابتداع ، لأن الإيمان عندهم هو الطاعة لا كما يذهب إليه المرجئة والمعتزلة من أنه هو العلم ، بل إن هؤلاء الأخيرين كانوا يعتبرون النظر العقلى من الواجبات المفروضة على المسلمين . وقد صادف هذا الرأى قبولا فى ذلك العهد . وفى الحديث أن النبى قال : أول ماخلق الله تعالى العلم أو العقل » .

على أن بعض أهل الحديث كانوا يعيبون المتكلمين ردهم على أهل البدع ، بحجة أن فى ذلك ترويجاً لعقائد هؤلاء المبتدعين[٢] .

على أننا نرى أن المتكلمين باستخدامهم أسلحة خصومهم قد نجحوا فى الرد عليهم ، كما نجحوا فى دعم علم الكلام وتقويته . ويقول نيبرج[٣] : « لحلت المعتزلة (وهم من المتكلمين) من تاريخ الإسلام محل المدافعين عن حوزة المسيحية فى أول أمرها من تاريخ المسيحية . فكما أنه لاريب فى أن أولئك المدافعين هم الذين أسسوا علم اللاهوت بمناظرتهم فلاسفة الوثنيين واختلاسهم أسلحتهم من أيديهم عند ذلك ، كذلك أوجدت المعتزلة كلام الإسلام وأسسته » .

وقد غلا خصوم المتكلمين فرموهم بالزندقة ، وقالوا : « علماء الكلام زنادقة » . ويقول الشهرستانى[٤] : « فالمعتزلة غالوا فى التوحيد بزعمهم حتى وصلوا إلى التعطيل بنفى الصفات » .

وكان لتعاليم المعتزلة أثر كبير فى النهضة الثقافية فى العصر العباسى الأول ، ولا سيما فى مسألة القرآن ، وهل هو مخلوق أو قديم ، وفى المناظرات التى عمل المأمون على ترويجها لنشر العلم وإزالة الخلاف بين العلماء . وقد ظهر فى عهده

---

(١) تاريخ الفلسفة فى الإسلام ، ترجمة أبى ريده ، ص ٥١ .

(٢) الغزالى : المنقذ من الضلال ص ٧٩ — ٨٠ .

(٣) مقدمة كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندى ص ٥٨ — ٥٩ .

(٤) الملل والنحل ج ١ ص ٢٠ .

جماعة من كبار العلماء والمتكلمين الذين تناولوا أصول الدين والعقائد ، وحكموا عقولهم فى البحث ، ونشأت بسبب ذلك اعتقادات تخالف اعتقادات عامة المسلمين وجمهور علمائهم المعروفين بأهل الحديث . وكان اعتماد المتكلمين فى مباحثهم على العقل دون النقل ، ومال المأمون إلى الأخذ بمذهب المعتزلة ، لأنه أكثر حرية واعتماداً على العقل ، فقرب أتباع هذا المذهب إليه . ومن ثم أصبحوا ذوى نفوذ فى قصر الخلافة ببغداد ؛ ووافقهم فيما ذهبوا إليه من أن القرآن مخلوق ، وعمد إلى تسخير قوة الدولة لحمل الناس على القول بخلق القرآن كما تقدم .

وصفوة القول أن بعض خلفاء العصر العباسى الأول ، كالمأمون والمعتصم والواثق ، شجع بعض الآراء الفلسفية والبحث العقلى فى المسائل الدينية ، وأن هؤلاء الخلفاء وقع فيما وقع فيه الروم من قبل ، فأخذوا ببعض هذه الآراء واضطهدوا المعارضين لها ، وعضدوا علماء الكلام فيما ذهبوا إليه من المسائل الدينية وبخاصة مسألة خلق القرآن ، التى شغلت عقول الخلفاء وعلماء الكلام نحو خمس عشرة سنة (٢١٨ — ٢٣٣ هـ) .

ومن أبرز متكلمى المعتزلة أبو الهذيل العلاف الذى ولد سنة ١٣٥ هـ ومات سنة ٢٣٥ هـ . وكان من أقوى الشخصيات فى مدرسة البصرة كما كان رئيس طائفة المعتزلة فى أيامه ؛ واشتهر بالجدل . وقد وصفه الخياط المعتزلى[١] بقوله : إنه نسيج وحده ووحيد دهره فى البيان ومعرفة جيد الكلام ، وكان أبو الهذيل واسع الاطلاع فصيحاً . يدل على ذلك قول أحمد بن المرتضى المتوفى سنة ٣٢٥ هـ ، وكان من أئمة الزيدية الذين يميلون إلى مذهب المعتزلة : « ما رأيت أفصح من أبى الهذيل والجاحظ . وكان أبو الهذيل أحسن مناظرة ، شهدته فى مجلس وقد استشهد فى جملة كلامه بثلثمائة بيت[٢] » . واشتهر أبو الهذيل بقوة الجدل والإقناع ، حتى قيل إنه أسلم على يديه ثلاثة آلاف رجل ، وقد شغل كل حياته بالجدل مع الزنادقة

---

(١) الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد ص ٦٧ .

(٢) أحمد بن يحيى بن المرتضى : كتاب المنية والأمل ص ٢٦ .

والمجوس والثنوية وغيرهم . وقد ناظر مرة صالح بن عبد القدوس ، وكان زنديقاً ، فغلبه ، فأنشد صالح هذا البيت :

أبا الهُذَيْلِ جزاك الله من رجل فأنت حقاً لعمرى مُعْضِل جدل

وبالإضافة إلى ماامتاز به أبو الهذيل من سعة الاطلاع والفصاحة وقوة الحجة ، أفاد كثيراً من وراء اشتغاله بالفلسفة اليونانية . وقد شهد له بذلك النظام المعتزلى الذى قال عنه حين ناظره فى الفلسفة : « فلما ناظرته خيل إلى أنه لم يكن متشاغلا إلا بها[1] » . ويقول دى بور[2] : « وكان متكلما مشهوراً ، وهو أول المفكرين الذين فسحوا للفلسفة المجال لتؤثر فى مذاهبهم الكلامية » .

٦ — النحو :

نشأ علم النحو فى البصرة والكوفة اللتين صارتا من أهم مراكز الثقافة فى القرن الأول الهجرى ، وفيهما وضعت العقائد والفقه ، ونشأت مدرسة النحويين واللغويين . وكان يقيم فى هاتين المدينتين جالية تنسب إلى قبائل عربية مختلفة ذات لهجات متعددة ، وآلاف من الصناع والموالى الذين كانوا يتكلمون الفارسية . ومن ثم تعرضت العبارات العربية السليمة إلى شىء غير قليل من الفساد ، ودعته الضرورة إلى تقويم اللسان العربى ، حتى لايتعرض القرآن الكريم للتحريف . وكان أبو الأسود الدؤلى أول من اشتغل بالنحو فى عهد الأمويين ، وقد قيل إنه تلقى أصول هذا العلم عن على بن أبى طالب[3] .

وكان أبو الأسود أول من وضع أساس مدرسة البصرة التى تعتبر أقدم من مدرسة الكوفة وأشهر منها . ولا غرو فقد تأثرت هذه المدرسة بالمنطق أكثر من منافستها مدرسة الكوفة ، حتى سمى نحاة البصرة « أهل المنطق » تمييزاً لهم عن نحاة الكوفة . « وكانت مصطلحاتهم النحوية مباينة بعض المباينة لنظائرها عند

---

(١) أحمد بن يحيى بن المرتضى : كتاب المنية والأمل ص ٢٦ .
(٢) تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ٥٧ .
(٣) ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٦٠ — ٦١ .

الكوفيين ؛ وسبق أهل البصرة إلى الانتفاع بالمنطق لم يكن محض اتفاق ، لأن تأثير المذاهب الفلسفية قد ظهر فى البصرة قبل ظهوره فى غيرها . وكان بين نحاة البصرة كثير من الشيعة والمعتزلة الذين فسحوا السبيل للحكمة الأجنبية كى تؤثر فى مذاهبهم الكلامية »[١] .

ومن علماء البصرة المبرزين أبو عمرو بن العلاء (١٥٣ / ٧٧٠) الذى اشتغل بالتفسير ، والخليل بن أحمد واضع علم العروض ، وصاحب كتاب « العين » الذى يعتبر أول معجم وضع فى اللغة العربية ، وسيبويه الفارسى ، ويعرف كتابه باسم « كتاب سيبويه » وفيه يقول دى بور[٢] : فلو نظرنا إلى كتاب سيبويه لوجدناه عملا ناضجاً ومجهوداً عظيما ، حتى إن المتأخرين قالوا ، إنه لابد أن يكون ثمرة جهود متضافرة لكثير من العلماء ، مثله مثل قانون ابن سينا فى الطب . ومن هؤلاء العلماء الأصمعى وأبو عبيدة ، وقد تألق نجمهما فى عهد هارون الرشيد ، والمبرّد صاحب كتاب الكامل الذى توفى بعد ذلك بقرن . ومن أشهر علماء الكوفة الكسائى العالم الفارسى الذى عهد إليه هارون الرشيد بتهذيب ابنيه الأمين والمأمون ، وتلميذه الفرّاء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ (٨٢٢ م) ، والمُفَضَّل الضَّبى الذى صنف كتابه المفضليات وأهداه إلى الخليفة المهدى[٣] .

الأدب :

(ا) الشعر :

وكانت نزعة الأمويين عربية جاهلية لا تميل إلى الفلسفة ، بل كان يؤثر عليها الشعر الجيد والخطبة البليغة ، فأجاد بعض خلفائهم نظم الشعر : كيزيد بن معاوية حتى قالوا : بدىء الشعر وختم بملك ، يعنون امرأ القيس ويزيد . وكان

---

(١) دى بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ٣٨ — ٣٩ .
(٢) تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ٣٩ .
(٣) Nicholson. p. 286-

عبد الملك بن مروان شاعراً فصيحاً ، وقد نبغ فى عهده من الشعراء جرير والأخطل والفرزدق .

أما فى العصر العباسى فقد ظهر كثير من الشعراء الذين نهجوا بالشعر مناهج جديدة فى المعانى والموضوعات والأساليب ، حتى فاقوا فى كل ذلك من سبقهم من الشعراء الإسلاميين والمخضرمين والجاهليين . ومن أشهر هؤلاء الشعراء أبو نواس ، وهو ممن أذاع القول فى الخمر والغزل والصيد ، وغير ذلك من فنون الشعر التى تناسب ما انتشر فى العصر العباسى من حضارة وترف ، وسخر من الأطلال التى جرى الشعراء على الإشادة بذكرها فى مطالع قصائدهم ، كما أنحى على كل قديم . يدل على صحة هذا الرأى قول أبى نواس :

دع الأطلال تَسفيها الجَنُوبُ ... وتبْلَى عهدَ جِدَّتها الخطوبُ
وخَلِّ لراكب الوجناء أرضاً ... تخبُّ بهـا النجيبة والنجيب
بلادٌ نبتهـا عُشَرٌ وطَلْح ... وأكثرُ صَيْدها ضبعٌ وذيب
ولا تأخذْ عن الأعراب لهواً ... ولا عيشـا فعيشُهُمُ جَديب
دع الألبـانَ يشربُها رجالٌ ... رقيقُ العيش بينهم غريب (١)

وقد حذا ابن قتيبة (٢١٣ — ٢٧٦ هـ) حذو أبى نواس فى القول بالتجديد ، وكان أول من اشتهر بالنقد ، وأعلن أن الحكم على القدامى والمحدثين يجب أن يبنى على المواهب دون سواها ، بغض النظر عن الزمن الذى عاشوا فيه . وحذا حذو ابن قتيبة من جاء بعده من الكتاب كالثعالبى ، وابن خلدون ، الذى نادى بأن الشعراء يجب أن يتغنوا بذكر الطبيعة ، وأن ينشدوا الحقيقة ، لا أن يصفوا أسفاراً على ظهور جمال لم يركبوها ، ويقطعوا صحراوات لم يشاهدوها ، بدلا من أن ينظموا قصائدهم فى أحد أنصار الأدب ، ممن يقيمون فى نفس المدينة التى يقيمون فيها .

---

(١) Divan des Abu Nowas, Die Weinlieder (ed. by Ahlwart), No. 10. dd. 1 — 5

ويتبين ذلك من عبارات ابن قتيبة فى مقدمة كتابه « الشعر والشعراء » : « ولم أقصد فيما ذكرته من شعر كل شاعر ، مختاراً له سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره ، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، وأعطيت كلا حقه ، ووفرت عليه حظه . فإنى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه موضع متخيرة ، ويرذل الشعر الرصين ، ولا عيب له عنده إلا أنه قيل فى زمانه »[١] .

ومن هؤلاء الشعراء أبو تمام الطائى الأكبر المشهور بنزعته العقلية والفلسفية فى الشعر ، وتلميذه أبو عبادة البُحْترى صاحب الأوصاف البديعة والمدائح الخالدة ، وابن الرومى المعروف بطول نفسه وغزارة شعره وغوصه على نادر المعانى وعجيب التصورات ، وأبو العتاهية الذى برع فى فنون الشعر ، فاشتهر بالغزل الرقيق ، وعلى الأخص فى عتبة جارية المهدى التى قال فيها :

يا عُتْبُ مالى ولكِ ياليتنى لم أركِ
ملكتِنى فانتهكى ماشئت أن تنتهكى
أبيتُ ليلى ساهراً أرعى نجومَ الفلك
مفترشاً جمر الغضى ملتحفاً بالحسك[٢]

كما امتاز شعره بالحكمة والموعظة ، وهو القائل :

إنّ أخاك الصدقَ من كان معك ومن يضر نفسه لينفعك
ومَنْ إذا رَيْبُ الزمان صدعك شتّت شملَ نفسه كى يجمعك[٣]

قال الثعالبى فى كتابه « يتيمة الدهر » : إن الشعراء المحدثين فاقوا شعراء الجاهلية فى رقة اللفظ وعذوبة المعنى .

(١) ابن سلام . كتاب طبقات الشعراء (طبعة القاهرة) ص ٢ .
راجع . Nicholson, pp. 286 - 7

(٢) يعنى حسك السعدان ، والحسك أيضاً مايعمل من الحديد على مثاله وهو من آلات العسكر . المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٣١ .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٥٢ .

ومن العوامل التى ساعدت فى العصر العباسى على ظهور المناهج الجديدة فى الشعر ومعانيه وأخيلته وأساليبه وفى الأدب عامة :

١ — اختلاف صور الحياة وقيم الأشياء فى الدولة العباسية عن نظائرها فى الحياة الجاهلية ، فضائل العرب فى الجاهلية لم تعد فى نظر الذين عاشوا فى العصر العباسى الأول مما يتغنى به .

٢ — تطور الحياة المادية التى كانت فى أيام الجاهلية تقوم على السذاجة ، وذلك بسبب تعدد أعمال الناس وزيادة تجاربهم فى العصر العباسى .

٣ — انتشار الشعوبية التى قامت على حط شأن العرب ونقد أشعارهم ومعانيهم .

٤ — أثر الثقافة الأجنبية ، والفارسية خاصة ، وفى الشعر والأدب العباسى . إلا أنه على الرغم من هذا كله ، لازلنا نجد فى اللغة العربية بعض بقايا من قيود الشعر القديم كالقوافى والأوزان .

٥ — اعتماد الشعراء طوال أيام العباسيين — عدا فترات قليلة — على تشجيع الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة . ويرجع السبب فى ذلك إلى أنه لم تكن هناك تجارة كتب منظمة ، كما لم يكن هناك أحد من الناشرين الذين يستطيعون نشر الكتب على نفقتهم . فكان كل اعتماد الشعراء فى كسب عيشهم ، على التقرب من الخلفاء والمقربين إليهم من العظماء ، بالقصائد الرنانة ابتغاء المنح والعطايا . ولهذا كان الإغراق فى المدح من أهم مميزات الشعر فى أيام العباسيين . أضف إلى ذلك دخول غير العرب وخاصة الفرس فى حلبة الشعراء . ولما كان الحكم فى الدولة العباسية استبدادياً ، كان الإفراط فى المدح هو السبيل الوحيدة إلى التقرب من الخلفاء ورجال دولتهم .

وكان للفرق الدينية كالشيعة والمعتزلة ، التى نشأت فى القرن الأول الهجرى ونمت فى العصر العباسى الأول ، شعراء يدفعون عن مبدئهم ويحفزون أتباعهم لمقاومة كل اعتداء يحيق بهم من خلفاء ذلك العصر . ومن هؤلاء السيد الحميرى

(١٧٣ هـ) ، وكان كيسانيا ، فأبان عن عقيدته فى محمد بن الحنفية بن على بن أبى طالب ، وأشاد بمآثره على ماتقدم .

وكان للمعتزلة الذين نشطت دعوتهم فى بداية العصر العباسى ونمت نمواً سريعاً فى عصر المأمون ، شعراء يشيدون بمبادئهم وأعمالهم . من ذلك ماقاله بعضهم :

له خَلْف شِعب الصين فى كل ثغرة إلى سوسها الأقصى وخلف البرابر
رجالٌ دعاةٌ لا يَفُلُّ عزيمَهُم تهكُّم جبار ولا كيدُ ماكر

وقد حفزت الانتصارات المتوالية التى ظفر بها الخلفاء العباسيون على الروم كثيراً من الشعراء إلى إنشاد القصائد الرائعة للإشادة ببطولاتها وما أحرزوه من نصر وظفر فى سبيل دفع خطر الأعداء عن المسلمين . من ذلك ماقاله أبو العتاهية فى مطلع قصيدته التى نظمها على أثر انتصار الرشيد على الروم فى هرقلة :

ألا نادتْ هِرقلةُ بالخراب من الملك الموفق بالصواب

ومدح أبو تمام الخليفة المعتصم على أثر انتصاره فى عمورية بقصيدته التى قال فيها :

فَتْحُ الفتوح تعالى أن يحيط به نظمٌ من الشعر أو نثر من الخطب
فتح تفتح أبواب السماء له وتبرز الأرض فى أثوابها القشب
يا يومَ وقعة عمورية انصرفت عنك المنى حفلا معسولة الحلب

(ب) النثر :

ويمثل الأدب وتاريخه فى العصر العباسى الأول طائفة من الأدباء ، نخص بالذكر منهم عبد الله بن المقفع الذى يرجع إليه الفضل فى نقل كثير من الكتب عن الفهلوية ، وهى الفارسية القديمة . ومن هذه الكتب كتاب كليلة ودمنة الذى ترجمه عن أقاصيص بيدبا التى كتبت بالسنسكريتية ، وهى اللغة الهندية القديمة . ويعد هذا الكتاب من أقدم كتب النثر فى الأدب العربى ، كما يعد مثلا أعلى فى سلامة الأسلوب وسلاسة العبارة .

ومن أدباء هذا العصر عبد الحميد الكاتب الذى يعتبر شيخ صناعة الكتابة ، والذى قيل فيه : « بدئت الكتابة بعبد الحميد » ، لأنه أحدث فيها أموراً فنية

لم تكن من قبل ، كالتحميدات فى صدور الرسائل وتقسيم الفقر والفصول ، وختم الرسائل بما يناسب المكتوب إليه ، وإطالتها فى شئون الملك والسياسة إطالة لم تعهد من قبل . وليس لعبد الحميد كتب ، وإنما خلف رسائل مشهورة مبثوثة فى كتب الأدب والتاريخ ، من أشهرها رسالته إلى الكتاب ، ورسالته التى كتبها إلى ولى عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية . ويجمع أسلوبه بين الجزالة العربية وسهولة الحضريين ، ومع غزارة المعانى ودقتها وحسن تقسيمها[١] .

ومن هؤلاء ابن قتيبة الذى ينسب إلى مدينة مروحاضرة خراسان ؛ وقد تقلد منصب القضاء فى مدينة دينور ، وعاش فى بغداد فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى . ومن كتبه كتاب المعارف ، وكتاب الشعر والشعراء الذى نادى فيه بالتحديد وأنحى على كل قديم لوما ، وكتاب « أدب الكاتب » ، وكتاب عيون الأخبار[٢] الذى قسمه إلى عشرة كتب : كتاب الحرب ، وكتاب السؤدد ، وكتاب الطبائع والأخلاق المذمومة ، وكتاب العلم والبيان ، وكتاب الزاهد ، وكتاب الإخوان ، وكتاب الحوائج ، وكتاب الطعام ، وكتاب النساء[٣] .

ومن أدباء ذلك العصر عمرو بن بحر الجاحظ البصرى (٢٥٥ هـ) الذى عرف بحرية الفكر والميل إلى عقائد المعتزلة ، حتى لقد نشأت فرقة تسمى الجاحظية نسبة إليه . ومن أشهر كتبه كتاب « الحيوان » وكتاب « البيان والتبيين » .

(جـ) العلوم العقلية :

١ — الترجمة :

أما عن اشتغال المسلمين بالعلوم العقلية ، فيرى الأستاذ نيكلسون[٤] أنهم استمدوا آراءهم وعلومهم من الثقافة اليونانية ، التى كانت منذ فتوحات الإسكندر

---

(١) راجع ما كتبه الجهشيارى فى كتاب الوزراء والكتاب — نشره الأستاذ مصطفى السقا (١٣٥٧/١٩٣٨) ص ٧٦ — ٨٣ .

(٢) طبعة دار المصرية فى أربعة مجلدات (١٣٤٣ — ١٣٤٨ هـ).

(٣) Lit. Hist. of the Araba, pp. 346—7.

(٤) Ibid, p., 258.

منتشرة فى مصر وسورية وغربى آسيا . فإنه لما اضمحلت مدرسة الرها فى أواخر القرن الخامس الميلادى بسبب قيام الخلافات المذهبية . لجأ علماؤها الذين طردوا إلى بلاد الفرس ، واحتموا ببلاط كسرى أنوشروان (٥٣١ — ٥٧٨م) ، وكان قد رحب بفلاسفة مدرسة الأفلاطونية الحديثة ، الذين نفاهم الإمبراطور جستنيان من أثينا لوثنيتهم ،وأسس فى جُنْد يسابور من أعمال خوزستان داراً للعلم قام فيها هؤلاء العلماء بتدريس الطب والفلسفة ، وبقى أثرها فى تلك البلاد حتى ظهرت الدولة العباسية . كما غدت حران مركزاً آخر من مراكز الثقافة اليونانية ببلاد العراق . وقد تكلم أهل حران ، وهم الصابئة ، اللغة العربية فى سهولة ويسر ، وساعدوا إلى حد كبير على نشر الثقافة اليونانية بين المسلمين ، وإليهم يرجع الفضل فى ترجمة كثير من الكتب عن اللغات الأجنبية .

ولم يكن لترجمة الكتب إلى العربية حظ كبير فى عهد بنى أمية . وكان خالد بن يزيد بن معاوية أول من عنى بنقل علوم الطب والكيمياء إلى العربية : فدعا جماعة من اليونانيين المقيمين فى مصر وطلب إليهم أن ينقلوا كثيراً من الكتب اليونانية والقبطية التى تناولت البحث فى صناعة الكيمياء العلمية ، وعمل على الحصول على الذهب عن طريق الكيمياء . وكذلك عربت الدواوين منذ عهد عبد الملك بن مروان ، بعد أن كانت بالفارسية واليونانية ، ونقل ديوان مصر من اليونانية والقبطية إلى العربية فى عهد الوليد بن عبد الملك [١] .

فلما جاءت الدولة العباسية التى قامت بمساعدة الفرس ، ونشأ من ذلك اختلاط العنصرين العربى والفارسى ، اتجهت ميول الخلفاء العباسيين إلى معرفة علوم الفرس واليونان ، فعنى أبو جعفر المنصور بترجمة الكتب ، ونقل له حنين بن إسحاق بعض كتب أبقراط وجالينوس فى الطب . كما نقل ابن المقفع [٢] كتاب كليلة ودمنة من الفهلوية ، وترجم كتاب « السند هند » وكتاب إقليدس فى الهندسة

---

(١) انظر كتاب أوراق البردى العربية ، ترجمة المؤلف جـ ١ ص ٢٨ وما يليها .

(٢) ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٣٤٢ .

إلى العربية . واشتهر فى الترجمة الفارسية إلى العربية غير ابن المقفع كثيرون . كآل نوبخت ، والحسن بن سهل الذى استوزره المأمون ، وأحمد بن يحيى بن جابر البلاذرى صاحب كتاب فتوح البلدان ، وعمر بن الفرّخان .

وقد زادت العناية بترجمة الكتب فى عهد هارون الرشيد بعد أن وقع فى حوزته بعض المدن الرومية الكبرى ، فأمر بترجمة ما عثر عليه المسلمون من كتب اليونان . كما نشطت حركة الترجمة بفضل تشجيع البرامكة للمترجمين وإدرار الأرزاق عليهم .

وفى عهد المأمون قويت حركة النقل والترجمة من اللغات الأجنبية ، وخاصة من اليونانية والفارسية ، إلى العربية ؛ فأرسل إلى القسطنطينية لإحضار المصنفات الفريدة فى الفلسفة والهندسة والموسيقى والطب . وروى ابن النديم [1] أن « المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات ، وقد استظهر عليه المأمون ، فكتب إليه يسأله الإذن فى إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم ، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع . فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج ابن مطر ، وابن البطريق ، وسلما صاحب بيت الحكمة وغيرهم . فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا . فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل » . ولم تكد تلك الذخائر النفيسة تصل إلى بغداد حتى عهد إليهم المأمون فى ترجمتها . وكان قسطا بن لوقا يشرف على الترجمة من الفارسية القديمة .

ولم تكد العناية بالترجمة مقصورة على المأمون ، بل عنى جماعة من ذوى اليسار فى عهده بنقل كثير من الكتب إلى العربية . ومن هؤلاء محمد وأحمد والحسن أبناء موسى بن شاكر المنجم ، الذين أنفقوا الأموال الضخمة فى الحصول على كتب الرياضيات . وكانت لهم آثار قيمة فى الهندسة والموسيقى والنجوم. وقد أنفذوا حنين بن إسحاق إلى بلاد الروم ، لجاءهم بطرائف الكتب وفرائد المصنفات [2] وقد ظهرت فى المأمون طائفة من جهابذة الرياضيين من أمثال

---

(١) كتاب الفهرست ص ٣٣٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٤٠ .

محمد بن موسى الخوارزمى الذى يعد أول من درس الجبر دراسة منظمة وجعله علماً منفصلا عن الحساب .

وكان من أثر نشاط حركة النقل والترجمة فى عهد المأمون العباسى، أن اشتغل كثير من المسلمين بدراسة الكتب التى ترجمت إلى العربية ، وعملوا على تفسيرها والتعليق عليها وإصلاح أغلاطها . نخص بالذكر من هؤلاء يعقوب بن إسحاق الكندى ، الذى نبغ فى الطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق والهندسة وعلم النجوم : وقد حذا فى تأليفه حذو أرسطو ، وترجم كثيراً من كتب الفلسفة وشرح غوامضها .

وقصارى القول أنه كان هناك أربعة من مشاهير المترجمين فى الإسلام هم : حنين بن إسحاق، ويعقوب الكندى ، وثابت بن قرة الحرانى ، وعمر بن الفرّاخان الطبرى وأن العباسيين ترجموا ما وصل إليه اليونان والفرس وغيرهم من العلوم كالفلسفة والطب والنجوم والرياضيات والموسيقى والمنطق والفلك والجغرافية والتاريخ والحكم والآداب والسير . وقد ذكر ابن النديم [١] « أن بنى المنجم كانوا يرزقون جماعة من النقلة ، منهم حنين بن إسحاق ، وحبيش بن الحسن ، وثابت بن قرة وغيرهم ، فى الشهر نحو خمسمائة دينار للنقل والملازمة » .

١ — معاهد الدرس والثقافة :

كانت المساجد تعد من أكبر معاهد الثقافة لدراسة القرآن والحديث والفقه واللغة. وقد تنوعت العلوم التى كانت تدرس فى العصر العباسى، وأصبح كثير من هذه المساجد مراكز هامة للحركات العلمية . وأحسن مثل لذلك مسجد البصرة الذى كان فيه حلقة قوم من أهل الجدل يتصايحون فى المقالات ، وبجانبهم حلقة للشعر والأدب. وكان الذين يحضرون هذه الحلقات من شعوب وديانات مختلفة . وهكذا صارت الثقافات التى كان للإسلام أثر فى مزجها ، تلتقى فى تلك المراكز على مر السنين ،

---

(١) كتاب الفهرست ص ٣٤٠ .

حتى امتزج بعضها ببعض . فإن من اعتنق هذا الدين من غير العرب كان يرى لزاما عليه أن يتعلم العربية وآدابها حتى يتيسر له قراءة القرآن ودراسته ، وبذلك يجمع بين ثقافته القومية والثقافة العربية .

ولم يكن للمكتبات شأن كبير فى العصر الأموى ، ولما نشطت حركة الترجمة والتأليف فى العصر العباسى ، وتقدمت صناعة الورق ، وتبع ذلك ظهور كثير من الوراقين واتخذ أمكنة فسيحة يجتمع فيها العلماء والأدباء للتزود من العلم ، كثرت المكتبات التى كانت تزخر بالكتب الدينية والعلمية والأدبية . وصارت هذه المكتبات فيما بعد أهم مراكز الثقافة الإسلامية .

وكان بيت الحكمة ، الذى يرجح أن الرشيد هو الذى وضع أساسه ، وعمل المأمون من بعده على إمداده بمختلف الكتب والمصنفات ، من أكبر خزائن الكتب فى العصر العباسى . وقد ظلت هذه الخزانة قائمة حتى استولى المغول على بغداد سنة ٦٥٦ هـ . وكانت تحوى كل الكتب فى العلوم التى اشتغل بها العرب ، كما كان العلماء والأدباء الذين كانوا يختلفون إليها ، أكبر الأثر فى تقدم الحركة العلمية فى عهد العباسيين ونشر الثقافة بين جمهور المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى . ولم يقتصر تشجيع العلم على الخلفاء بل تعداهم إلى الوزراء وسائر كبار رجال الدولة . فقد ذكر المسعودى[1] أن يحيى بن خالد البرمكى كان يميل إلى البحث والمناظرة ، وكان « له مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم من أهل النحل » .

ومن أهم معاهد الثقافة أيضاً : الزاوية ، والرباط ، والكتاب ، والمدرسة وديوان الإنشاء ، والمارستان . كما أصبحت بعض المدن مراكز للدراسات على اختلافها كما سيأتى الكلام على ذلك بشىء من الإسهاب فى الجزء الثالث من هذا الكتاب .

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٨٣ .

٣ — التاريخ :

يقول دى بور[1] : يمتاز مؤرخو العرب الأقدمون بالقدرة على إدراك الجزئيات إدراكا دقيقاً ؛ غير أنهم لم يقدروا على ربط الحوادث برباط جامع . وقد وجدوا من اتساع دولتهم مادة غزيرة فى التاريخ والجغرافية .

ولم يكن السواد الأعظم فى صدر الإسلام يستطيعون القراءة والكتابة ، فلم يدون تاريخ الأمة العربية إلا بعد زمن غير قصير . وقد روى العرب الحوادث التاريخية المشهورة والأحاديث النبوية بشىء غير قليل من التبديل والتحريف ، مما أدى بها إلى الغموض والإبهام ، فشوهت معانيها والظروف التى أحاطت بوقوعها وقولها . حتى إذا جاء القرن الثانى للهجرة ، أخذ العرب يبحثون تاريخهم ، ولم يكن أكثره إلا شذرات مبهمة غير متصل بعضها ببعض ، أو أنه دون بحيث يتمشى مع ميول الفرق الدينية المختلفة التى عمل كل منها على إكبار مذهبهم ولعن أعدائه .

والحق أن مصادر التاريخ الإسلامى كثيرة متنوعة . فمن أهم المصادر التاريخية مصادر التاريخ النبوى . وهى القرآن الكريم ؛ والأحاديث النبوية ، والشعر الذى أثر عن العصر النبوى ، مثل شعر حسان بن ثابت الذى نظم القصائد الكثيرة فى مدح الرسول وهجاء أعدائه ، إلا أن كثيراً من الشعر المنسوب إليه قد دس عليه .

ويعزى إلى ابن المقفع أنه نقل كتاب خداى نامه Khudày Namèh ، أو كتاب الملوك ، من الفهلوية إلى العربية ، وقد سماه سير ملوك العجم ، ويعد نموذجا لكتابة التاريخ عند العرب . ويعتبر هشام بن محمد الكلبى المتوفى سنة ٢٠٤ هـ ، وأبوه محمد ، أول من كتب من العرب فى علم التاريخ ، كما اشتهر كل منهما بتحرى الدقة فى روايته .

---

(١) تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ٨٠ .

وقد تأثرت كتابة التاريخ فى صدر الإسلام بحياة الرسول ، لأن المؤرخين اتخذوا من الحديث ولاسيما مايتصل منها بالغزوات مادة لما دونوه ؛ ومن ثم ظهرت كتب السير والمغازى .

ومن أقدم مصادر السيرة النبوية سيرة ابن هشام المتوفى بمصر سنة ٢١٨ ﻫ ، وتعرف باسم سيرة رسول الله : وقد استمد فيها معلوماته التاريخية عن أستاذه ابن إسحاق المتوفى سنة ١٥١ ﻫ[١] . وهى تعطينا صورة صحيحة لحياة النبى صلى الله عليه وسلم وما قام به فى تبليغ الرسالة وبث الدين . ويؤخذ على ابن هشام اختصاره فى مواضع أطال فيها ابن إسحاق وإطالته فى مواضع اختصرها . ومن كتب ابن هشام كتاب فى أنساب حمير وملوكها ، وكتاب فى شرح ما وقع فى أشعار السير من الغريب[٢] . ومن كتب المغازى كتاب الواقدى المتوفى سنة ٢٠٧ ﻫ .

وفى القرن الثالث الهجرى تطور علم التاريخ واتسعت مصادره ، وأخذ المؤرخون يوفقون بين المواد المستمدة من السيرة وغيرها من المصادر ابتغاء إدماجها فى رواية تاريخية متماسكة . ولعل البلاذرى المتوفى سنة ٢٧٩ ﻫ أول من أخذ بهذا المنهج فى كتابه فتوح البلدان .

ومن مصادر السيرة النبوية أيضاً كتاب الطبقات الكبيرة[٣] لمحمد بن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ ﻫ (٨٤٥ م) ، وكان كاتب الواقدى المتوفى سنة ٢١٨ ﻫ . ويعد هذا الكتاب من المصادر الموثوق بصحتها ، على الرغم من أن مؤلفه عرف بالميل إلى الشيعة .

٤ — الجغرافية :

كان لاتساع نطاق التجارة فى العصر العباسى الأول ، واتصال مدينة بغداد

---

(١) روى الشافعى أنه قال : من أراد أن يبحر فى المغازى فهو عيال على ابن إسحاق (ابن خلكان ج ٩ ص ٤٨٣) .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٢٩٠ .

(٣) يقع هذا الكتاب فى ثمانية مجلدات ، وطبع فى مدينة ليدن سنة ١٢٣٥ ﻫ ، وقام بطبعه المستشرق إدوارد سخاو Edward Sachau مدير مدرسة اللغات الشرقية ببرلين سابقاً ، وقد أفرد ابن سعد للسيرة مجلدين .

حاضرة العباسيين براً وبحراً بالبلدان القاصية ، ثم لتعبيد الطرق وجعلها آمنة ، أثر كبير فى تسهيل الأسفار وتمهيد السبل أمام الكاشفين والرحالين ؛ فظهر كثير منهم قاموا برحلات مهمة ووضعوا فى وصفها الكتب والأسفار ، ووصفوا ماشهدوه فى البلدان التى اختلفوا إليها وصفاً دقيقاً مبنياً على المشاهدة . وبذلك خلف لنا جغرافيو المسلمين ثروة كبيرة ، هى خلاصة مشاهدتهم وتجاربهم التى اكتسبوها من أسفارهم فى كثير من الأقاليم والممالك والبلدان .

وقد تقدم الكلام فى الباب السادس أن رحلات المسلمين وصلت فى عهد هارون الرشيد إلى الهند وسيلان وشبه جزيرة ملقا والصين. ويقال إنهم وصلوا بحراً إلى كوريا . كما كان للفتوح الإسلامية فى أواسط آسيا و فى بلاد الهند شرقاً ، وغرباً فى شمالى إفريقية وأوربا ، أثر كبير فى اتساع أفق التفكير الإسلامى عن أحوال هذه البلاد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وفى تنشيط التجارة والصناعة .

ولكن مما يسترعى النظر أن هذه الثروة الجغرافية العظيمة ، لم تظهر ظهوراً جلياً إلا فى العصر العباسى الثانى . أما فى العصر العباسى الأول فقد ظهر ابن خرداذبة ، الجغرافى الفارسى الأصل ، الذى عاش فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى ، وخلف لنا كتابه « المسالك والممالك[١] » . ويعتبر بحق من أقدم الكتب الجغرافية التى ظهرت فى اللغة العربية . وهو عبارة عن دليل يستعين به المسافرون فى الاهتداء إلى الطريق البحرى الذى يبدأ من مصب نهر دجلة عند الأبلة ، ويصل إلى الهند والصين[٢] .

٥ — علم النجوم والرياضيات والكيمياء :

ولم يكن لبعض علوم العجم كالنجوم والكيمياء والرياضيات والفلسفة والطب، مكان ملحوظ بين العلوم التى اشتغل بها المسلمون فى العصر العباسى الأول ، ولكنها ازدهرت بعد ذلك ، لأن همتهم كانت مقصورة فى الغالب على نقل

---

(١) طبع فى مدينة ليدن سنة ١٨٨٦ ونشره دى غويه .
(٢) Nicholson, p. 356.

الكتب . على أن هذا لا يمنعنا عن القول إنه كانت هناك طائفة من المسلمين أخذوا يشتغلون بهذه العلوم ، كجابر بن حيان الذى اشتهر فى الكيمياء . وكان من أهل طرسوس ، ويعرفه الأوربيون باسم Geber ، وتوفى فى عهد الخليفة المهدى (١٥٨ — ١٦٩ هـ) . وقد ألف جابر كتباً كثيرة فى الكيمياء والمعادن والأحجار انتفع بها الأوربيون .

واشتهر بالصيدلة كوهين العطار اليهودى الذى وضع كثيراً من المؤلفات ، نخص بالذكر منها كتابه « صناعة الصيدلة » ، شرح فيه العقاقير شرحاً ضافياً ، وأوضح طريقة عمل المشروبات والجرعات والمساحيق والحبوب وغيرها .

ويقول دى بور[1] إن فيثاغورس يعتبر معلم العرب فى الرياضيات ، حتى إنه كان يقال إن الإنسان لا يكون فيلسوفاً ولا طبيباً حاذقاً إلا بدراسة فروع الرياضيات ، كالحساب والهندسة والفلك والموسيقى . واشتهر فى علم الحساب عمران بن الوضاح وشهاب بن كثير ، ومهر فى الهندسة الحجاج بن أرطاه الذى خط المسجد الجامع ببغداد فى عهد المنصور . وكانت هناك علاقة كبيرة بين الرياضيات والتنجيم الذى اشتغل به العرب فى عهد بنى أمية ، ثم تقدمت ممارسته فى العصر العباسى الأول ، حتى إن أبا جعفر المنصور لما اتصل به خروج محمد النفس الزكية « أشفق منه ، فجعل الحارث المنجم يقول له : يا أمير المؤمنين ! ما يجزعك منه ؟ فوالله لو ملك الأرض مالبث إلا تسعين يوماً » .

ومما يدلنا على اعتماد العباسيين على التنجيم فى كثير من الأحيان ، ما ذكره ياقوت الحموى عند كلامه على تأسيس مدينة بغداد ، من أن أبا جعفر المنصور اعتمد على الوقت الذى اختاره له المنجمون ، حتى إنه لم يبدأ بوضع الحجر الأساسى للبناء إلا بعد أن أشار عليه أبو سهل نوبخت المنجم ، وأخبره بما تدل عليه النجوم من طول بقاء هذه المدينة وكثرة عمارتها .

وقد رأينا عند كلامنا على أثر الوزراء فى النزاع الذى قام بين العباسيين

---

(١) تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ٨٠ .

والعلويين ، أن الفضل بن سهل كان خبيراً بعلم النجوم ، وأن هذا العلم قد دل على أن المأمون سيصير خليفة . ولذلك تقرب إليه وأخلص له إلى أن أفضت الخلافة إليه فاستوزره . كما كان الحسن بن سهل أخو الفضل خبيراً فى علم النجوم ؛ فقد رأيناه ينصح لأخيه الفضل ألا يدخل الحمام فى اليوم الذى اغتيل فيه ، معتمداً فى ذلك على معرفته بالتنجيم . وممن اشتهر بالتنجيم فى العصر العباسى الأول عبد الله بن نوبخت . وقد ذكر ابن القفطى[1] أن المأمون استعان به فى إختيار وقت لبيعة على الرضا .

وممن نبغ فى علم النجوم فى العصر العباسى الأول جعفر بن عمر البلخى ، ويعرف بأبى معشر الفلكى . وكان فى بدء حياته من أصحاب الحديث ، ثم اشتغل بعلم النجوم ، ونبغ فيه بعد أن بلغ السابعة والأربعين من عمره ، وعمر طويلا حتى جاوز المائة ، ومات بواسط سنة ٢٧٢ هـ . ولأبى معشر كتب كثيرة ، منها إثبات العلوم ، وهيئة الفلك .

٦ — الطب :

وكان لاختلاط المسلمين بغيرهم من الأمم ، وخاصة الفرس والروم ، أثر كبير فى العلوم العقلية كالطب والرياضيات وعلم النجوم . فقد رأينا أبا جعفر المنصور يستشير أطباء العراق ويعتمد على إرشاداتهم ، وأنه استقدم طبيبا من مشاهير أطباء الهند ؛ كما ذكرنا عند كلامنا على وفاة المنصور كيف تنبأ أطباؤه بموته بسبب إكثاره من الطعام وإسرافه فى تعاطى الأفاوية والأدوية الحارة التى تهضم طعامه ، ولكنها تضر بمعدته وأمعائه ، وكيف ذهب المنصور ضحية عدم إصغائه لنصائح هؤلاء الأطباء مما يدل على مبلغ تقدم الطب فى ذلك العصر .

واشتهر فى عهد هارون الرشيد من الأطباء ابن بختيشوع الذى نبغ فى علم النفس ومهر فى تشخيص الأمراض العصبية وعلاجها ، وعينه هذا الخليفة رئيساً

---

(١) إخبار العلماء بأخبار الحكمة ص ٢٢١ — ٢٢٣ .

الأطباء فى حاشيته . واشتهر فى عهد المعتصم يحي بن ماسويه . ويذكر المسعودى أن المعتصم كان يعتمد على مشورته ، وأنه كان لذلك يحتفظ ببنية قوية ، وأنه لما خالف مشورة طبيبه اعتلت صحته وتغير لونه . يقول ابن ماسويه عن المعتصم لما اعتراه المرض : « كان قبل ذلك إذا أكل السمك اتخذ له صباغا من الخل والكراوية والكمون والسذاب والكرفس والخردل ، فأكله بذلك الصباغ فدفع أذى السمك وإضراره بالعصب ؛ وإذا أكل الرءوس اتخذت له أصباغ تدفع أذاها وتلطفها . وكانت فى أكثر أموره يلطف غذاءه ويكثر مشورتى ، فصار اليوم إذا أنكرت شيئاً خالفنى وقال : آكل هذا على رغم ابن ماسويه » .

وكما أن العباسيين اعتمدوا على أطباء العراق والهند ، كذلك اعتمدوا على الطب الذى خلفه اليونان ، وقد نبغ فى عهد الواثق من الأطباء ابن بختيشوع ، وابن ماسويه ، وميخائيل ، وحنين بن إسحاق ، وقد حذق هؤلاء وغيرهم صناعة القلب ومرنوا عليها ، واعتمدوا فى علاج مرضاهم على ما كسبوه من تجارب ، كما أفاد المسلمون من كتب اليونان ونظرياتهم فى تشخيص الأمراض[١] . ونبغ حنين ابن إسحاق فى علم المواد السامة . وقد قيل إن الخليفة المتوكل أمره بدس السم لأحد أعدائه ، فأبى قائلا إن القرآن يأمر بعمل الخير حتى لأعدائنا . وصناعتنا الشريفة تمنعنا من أذى الغير .

كذلك وصف الأطباء فى هذا العصر الفم والأسنان وأنواعها وعددها ووظيفة كل منها ، حتى لقد أعجب الخليفة الواثق بوصف حنين بن إسحاق ، وطلب منه أن يصنف له كتاباً يذكر فيه جميع ما يحتاج إلى معرفته ، « فصنف له كتابا جعله ثلاث مقالات ، يذكر فيه الفرق بين الغذاء والدواء والمسهل وآلات الجسد »[٢] .

وقد أورد المسعودى وصفاً دقيقاً للأسنان يعتبر فى الواقع وثيقة طبية هامة لا بأس من ذكرها هنا . قال الواثق لحنين من بين الجماعة : « ما أول آلاته

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ٢ ص ٣٦٦ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٦٤ — ٣٦٦ .

الغذاء من الأسنان ؟ قال : أول آلات الغذاء الفم وفيه الأسنان : والأسنان اثنتان وثلاثون سنا . منها فى اللحى الأعلى ستة عشر سنا ، وفى اللحى الأسفل كذلك : ومن أربعة فى كل واحد من اللحيين ، عراض محددة الأطراف ، تسميها الأطباء من اليونانيين القواطع ، وذلك أن بها يقطع مايحتاج إلى قطعه من الأطعمة اللينة . كما يقطع هذا النوع من المأكل بالسكين ، وهى الثنايا والرباعيات . وعن جنبى هذه الأربعة فى كل واحد من اللحيين سنان رءوسهما حادة وأصولها عريضة ، وهى الأنياب ، وبها يكسر كل ما يحتاج إلى تكسيره من الأشياء الصلبة مما يؤكل . وعن جنبى النابين فى كل واحد من اللحيين ، خمس أسنان أخر عوارض خشن ، وهى الأضراس ، ويسميها اليونانيون الطواحن ، لأنها تطحن ما يحتاج إلى طحنه مما يؤكل ، ولكل واحد من الثنايا والرباعيات والأنياب له أصل واحد . وأما الأضراس فما كان منها فى اللحى الأعلى ، فله ثلاثة أصول خلا الضرسين الأقصيين ، فإنه ربما كان لكل واحد منهما أصول أربعة . وما كان من الأضراس فى اللحى الأسفل ، فلكل واحد منهما أصلان ، خلا الضرسين الأقصيين ، فإنما ربما كان لكل واحد منهما أصول ثلاثة . وإنما احتيج إلى كثرة أصول الأضراس دون سائر الأسنان ، لشدة قوة العمل بها ، وخصت العليا منها بالزيادة فى الأصول لتعلقها بأعلى الفم » .

وفى هذا العصر اهتم العباسيون بنشر العلوم الطبية وتقدمها ، فشجعوا الأطباء وأسسوا المدارس الطبية والمستشفيات ، ودعوا إلى عقد المؤتمرات الطبية التى كان يجتمع فيها الأطباء من كافة البلاد فى موسم الحج ، حيث يعرض الأطباء نتائج أبحاثهم ، ويعرضون نباتات البلاد الإسلامية ويصفون خواصها الطبية . وأصبحت بغداد فى الشرق وقرطبة فى الغرب من أهم مراكز الثقافة الطبية الإسلامية . وقد أمر أبو جعفر المنصور الذى يعتبر المؤسس الثانى للدولة العباسية ببناء مستشفى للعميان ومأوى للمجاذيب وملجأ للعجائز فى بغداد ، وشيد هارون الرشيد مستشفى كبيرا لتعليم الطب وزوده بالمؤلفات العلمية .

الباب الثامن

الفن

لما اتسعت فتوح العرب واختلطوا بغيرهم من الأمم الأخرى ، اتسع أفق الفن فى أعينهم ، واستطاعوا أن يخرجوا صوراً فنية جديدة لا تخرج عن مبادىء الدين الإسلامى . على أن الأمر الذى يسترعى النظر أن العرب لم يعنوا بفن النحت والتصوير عنايتهم بالبناء والزخرفة ، لأنهم رأوا فى ذلك تشبها بعبدة الأوثان ، لهذا كان العنصر الأساسى فى زخرفتهم الرسوم النباتية والهندسية[1] .

وقد اتخذ العرب بعد استيلائهم على بلاد الشام وفارس طرازاً خاصاً للعمارة يتناسب وحالة معيشتهم ، فامتازت مبانيهم بطرز خاصة من الأعمدة والأقواس أو العقود والقباب والمقرنصات أو الدلايات ، وهى زخارف معمارية تشبه خلايا النحل ، وتجدها بارزة ومدلاة فى طبقات ، مصفوفا بعضها فوق بعض فى واجهات المساجد وفى المآذن ، لإقامة الشرفات التى يدور فيها المؤذن ، أو فى تيجان بعض الأعمدة الإسلامية أو فى القباب التى بين القاعدة المربعة والسطح الدائر . وقد استخدمت المقرنصات للزخرفة فى السقوف الخشبية فضلا عن استخدامها فى العمائر نفسها[2] .

وعلى الرغم من أن العرب استعانوا بمهرة الصناع فى البلاد التى دخلت تحت سلطانهم ، احتفظت العمارة العربية أول الأمر فى المساجد . وكان مسجد قباء الذى أنشأه الرسول عليه الصلاة والسلام ، النموذج الأول لسائر المساجد الإسلامية .

---

(١) زكى محمد حسن : فى الفنون الإسلامية ص ٨ و ٣٥ — ٤٣ .

Zaky M. Hassan : The Attitude of Islam Towards Pounting Bulletin Of the Faculty of Arts, Fouad I. University, Vol. vii. July, 1944 pp. I—15.

(٢) المصدر نفسه ص ٤٨ .

ومما لا شك فيه أن اختلاف الحجاج إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة فى كل عام ، وأداءهم الصلاة فى المدن والقرى التى كانوا يمرون بها ، قد ساعد على محاكاة مساجد بلاد الحجاز .

وقد أدخلت المقصورة فى عمارة المساجد لتحجب الإمام عن سائر المصلين . وكان أول من اتخذها معاوية بن أبى سفيان ، حين خشى على نفسه أن يحل به ما حل بعمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب ، واقتدى به الخلفاء من بعده . وكذلك دخلت فى عمارة المساجد زيادات ، منها المآذن والمحراب الذى يدل على جهة القبلة[1] ، والإيوانات ، وهى أروقة تحيط بالصحن ذات أقواس مرفوعة على أعمدة أو دعائم . واستمر ذلك إلى العصر العباسى الأول .

وقد تقدم فن الزخرفة الإسلامية فى عهد الخلفاء الأمويين والعباسيين . ومن مميزاته الظاهرة استعمال النقوش الخطية العربية ، فكثيراً ما نرى آية من آيات القرآن الكريم أو بيتاً من الشعر أو عبارة من عبارات التحية والتهنئة ، تدور حول حافة التحف الأثرية أو تكون شريطا زخرفياً على أثر من الآثار .

وفى عهد الأمويين ازدهر فن النقوش الحائطية التى لا يزال بعضها باقياً فى « قصير عمرة » ، وهو بيت للصيد شرقى البحر الميت . ويتجلى فى طرازها مزيج من الأساليب الشرقية والهلينية . ويذهب علماء الآثار إلى أن هذا البناء شيد فى عهد الوليد بن عبد الملك الأموى[2] .

ولما انتقل مركز الخلافة فى دمشق إلى بغداد أثر الفن الفارسى فى الفن الإسلامى تأثيراً كبيراً . وكان للخلفاء العباسيين والأمراء والوزراء وغيرهم من كبار رجال الدولة ، ولوع شديد ببناء القصور الفخمة . فقد بنى أبو جعفر المنصور قصر الذهب فى وسط مدينة بغداد . وفى صدر هذا القصر إيوان طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ، يعلوه قبة عليها مجلس . وفوق هذا المجلس القبة الخضراء .

---

(١) Creswell : Early Muslim Architecture, Vol. I. pp.98—99.

(٢) كتاب التصوير عند العرب ، تاليف أحمد تيمور باشا ، أخرجه وزاد عليه الدراسة الفنية والتعليقات الدكتور زكى محمد حسن ، ص ١٥٠ — ١٥١ ، ٢٤٧ — ٢٥٠ .

وبلغ ارتفاع القصر ثمانين ذراعا ، وقد بنى بالجص والآجر ، ورفعت حجراته على أساطين الساج ، وسقف بالخشب وحلى باللازورد . وبقى على ذلك حتى هدمه هارون الرشيد وأعاد بناءه ، وكان على رأس القبة تمثال على صورة فارس فى يده رمح . وكان هذا التمثال يدورمع الريح ؛ فإذا استقبل الصنم جهة من الجهات ومد الرمح نحوها ، كان ذلك إيذاناً بظهور بعض الخوارج من هذه الجهة . على أننا نرى أن فيما ذكره الخطيب البغدادى[1] شيئاً كثيرا من المبالغة .

ومن قصور بغداد « قصر الخلد » على شاطىء دجلة الغربى تجـــاه باب خراسان . وقد تأنق أبوجعفر المنصور فى بنائه وتجميله حتى سمى الخلد تشبيهاً له بجنة الخلد . وبنى المهدى بن المنصور قصر الوضاح على مقربة من قصر الرصافة . ومن قصور بغداد قصر عيسى الذى بناه عيسى بن على العباسى عند منصب الرُّفيل فى دجلة . وكانت بعض عمائر بغداد مؤلفة من عدة طبقات يظهر فى زخرفها الذوق الفارسى .

وفى العصر العباسى الأول تقدم فن الزخرفة تقدماً عظيما ، يدل على ذلك هذه القباب الأربع التى بناها المنصور على أبواب مدينة بغداد الأربعة ، وكان قطر كل واحدة منها خمسين ذراعاً . وقد زخرفت هذه القباب بالذهب ، وكان يصعد إليها على الخيل ، وعليها تماثيل تديرها الريح . وكان المنصور يجلس فى هذه القباب طلباً للراحة ؛ فإذا أحب النظر إلى الماء جلس فى قبة باب خراسان ، وإذا أحب النظر إلى الأرباض وما والاها جلس فى قبة باب الشام ، وإذا أحب النظر إلى الكرخ جلس فى قبة باب البصرة ، وإذا أحب النظر إلى البساتين والضياع جلس فى قبة باب الكوفة . وتشبه هذه القباب المناظر التى بناها الخلفاء الفاطميون فى الفسطاط والقاهرة فيما بعد .

وقد أصبحت القصور فى العصر العباسى الأول محلاة بالرسوم والزخارف من الداخل والخارج ، وعليها صور من الجص المجسم ، كما كانت طبقاتها مغطاة بستور من الديباج مزينة بالرسوم التى كانت من مميزات الفن الفارسى .

---

(١) كتاب تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٣ .

ومن آيات فن الزخرفة فى العصر العباسى تلك الزخارف الجصية التى كانت تغطى الأجزاء السفلية من الجدران ، والتى كشفت الحفائر فى أطلال مدينة سامرا عن نماذج كثيرة منها[1] ، كما أن من آياته الصور الحائطية التى عثر عليها فى أنقاض بعض القصور فى هذه المدينة . وقوام هذه الصور رسوم حيوانات وطيور وصور آدمية لأشخاص فى الصيد[2] أو لنساء يرقصن[3]. وقد انتشرت أساليب العباسيين فى زخرفة المنسوجات والتحف المعدنية والخزفية والخشبية فى الدولة الإسلامية فى ذلك العصر ، فوصلت إلى مصر وإفريقية وإيران[4] .

ولم تقتصر عناية الخلفاء العباسيين على عمارة المدن الكبيرة كبغداد وسامرا ، بل إنهم اهتموا ببناء القصور فى طريق مكة . يقول الطبرى[5] : « أمر المهدى ببناء القصور فى طريق مكة ، وأوسع من القصور التى كان أبو العباس بناها من القادسية إلى زبالة ، وأمر بالزيادة فى قصور أبي العباس . وترك منازل أبى جعفر التى كان بناها على حالها ، وأمر باتخاذ المصانع فى كل منها . وبتجديد الأميال والبرك وحفر الركايا مع المصانع ... وأمر المهدى بالزيادة فى المسجد الجامع بالبصرة . فزيد فيه من مقدمه مما يلى القبـلة ، وعلى يمينه مما يلى رحبة بنى سليم . وأمر المهدى بنزع المقاصير من مساجد الجماعات وتقصير المنابر ، تصييرها إلى المقدار الذى عليه منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكتب بذلك إلى الآفاق فعمل به » ، كما أمر المهدى بالزيادة فى المسجد الحرام[6] .

---

(١) زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ج ١ ص ٢٨ ، ٣١ .

(٢) Zaky M. Hassan : Hunting As Practiced in Arab Countries of the Middle Ages

(٣) زكى محمد حسن : الفن الإسـلامى فى مصر ج ١ ص ٣٢ ـ ٣٣ ، راجع أيضاً تعليقات زكى محمد حسن فى كتاب التصوير عند العرب لأحمد تيمور باشا ص ١٤١ ـ ١٤٥ ، ٢٥٠ ـ ٢٤١ .

(٤) زكى محمد حسن : الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامى ص ١٣ ، ٢١١ ـ ٢١٦ ، ٢٣٧ ـ ٢٥٣ .

(٥) ج ٩ ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩ .

(٦) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٩ .

وقد وصف المسعودى[1] قصر محمد بن سليمان الذى ولى البصرة فى عهد المهدى فقال :

« ولما بنى محمد بن سليمان قصره بالبصرة على بعض الأنهار ، دخل عليه عبد الصمد بن شبة فقال له محمد : كيف ترى بنائى ؟ قال : بنيت أجل بناء بأطيب فناء وأوسع بناء وأرق هواء على أحسن ماء بين صوارى وحسان وظباء » .

وقد أولع الخلفاء العباسيون عامة بالعمارة ويقول المسعودى[2] عن المعتصم : « كان المعتصم يحب العمارة ويقول إن فيها أموراً محمودة : فأولها عمران الأرض التى يحيا بها العالم ، وعليها يزكو الخراج ، وتكثر الأموال . وتعيش البهائم ، وترخص الأسعار ، ويكثر المكسب ويتسع المعاش . وكان يقول لوزيره محمد ابن عبد الملك : إذا وجدت موضعاً ، متى أنفقت فيه عشرة دراهم جاءنى بعد سنة أحد عشر درهما ، فلا تؤامرنى فيه .

والآن نأخذ فى الكلام على بناء المدن فى العصر العباسى الأول ، فنشرع فى الكلام على بناء مدينتى بغداد وسامرا .

(ا) بغداد :

الحواضر الإسلامية التى سبقت بغداد :

إن تاريخ بغداد باعتبارها قاعدة من القواعد الإسلامية ، يسير جنباً لجنب مع قيام الدولة العباسية وسقوطها . وقد جرت العادة فى البلاد الإسلامية أن تتخذ كل أسرة تلى الحكم قاعدة جديدة لها[3] ، فاتخذ الرسول عليه الصلاة والسلام يثرب مدينة له على أثر هجرته إليها ، فلم تلبث أن أصبحت حاضرة

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٦٤ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٤٥ .

(٣) وهذه ظاهرة لاحظها العلماء فى تاريخ الشرق القديم بوجه عام .
راجع الفصل الذى كتبه الأستاذ كريزول Greswell عن تأسيس بغداد ، الجزء الثانى من كتابه Early Muslim Architecture

الإسلام وأصبحت تسمى المدينة أو مدينة الرسول أو المدينة المنورة ، وظلت حاضرة للدولة العربية حتى ولى على بن أبي طالب الخلافة ، فتركها واتخذ الكوفة بعد موقعة الجمل المشهورة حاضرة لخلافته .

وقد برهنت الأيام على أن علياً لم يوفق في اختيار تلك الحاضرة الجديدة ، فإن تركه « المدينة » قد هدم التوازن الذى كان بين القبائل العربية فى عهد الخلفاء قبله . وقد تبين له بعد فوات الفرصة أن اعتماده على أهل الكوفة لم يكن إلا سراباً ، فإنه لم يستطع أن يقر النظام فى حاضرة ملكه الجديدة ، لأن السواد الأعظم منهم كانوا يناوئون حكومته الناشئة .

ولما انتقلت الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان اتخذ دمشق حاضرة لخلافته . ولا غرو فقد عمل منذ وليها فى عهد عمر على توطيد نفوذه فى بلاد الشام ، مستعيناً بأتباعه وذوى قرباه وجذب الأنصار حوله بالعطايا والمنح . ومن ثم أصبحت دمشق صالحة لأن تكون حاضرة للأمويين . أضف إلى ذلك خصب بلاد الشام وكثرة النماء فيها ، وقربها من بلاد الحجاز التى كانت لاتزال مركز القوة الدينية فى الإسلام ، ومن سائر مواطن القبائل العربية مما يساعد على تجنيد الجنود إذا دعت الحاجة إلى ذلك .

ولا عجب فإن الدولة الأموية كانت تحتفظ بالدم العربى والعصبية العربية . هذا إلى أن دمشق كانت قريبة من حدود الإمبراطورية البيزنطية ، تلك الحدود التى كان النزاع يقوم فيها بين العرب والروم ، والذى لم تكد الحرب تخبو نارها بينهم فى وقت من الأوقات . كما أن قرب حاضرة المسلمين فى العصر الأموى من هذه الحدود من شأنه أن يسهل حشد الجيوش فى أقرب وقت .

ولما قامت الدولة العباسية لم تعد دمشق صالحة لأن تكون حاضرة لخلافتهم .

أولا — لأن بنى أمية وأنصارهم كانوا يقيمون فيها .

ثانياً — لبعدها عن بلاد الفرس مصدر قوة العباسيين . فقد كانت الدولة الأموية فى وسط عنصر عربى يتعصب للعروبة ويناصر الأمويين على الروم إذا

دهموا بلادهم . أما العباسيون فلم تكن لهم عصبية بين العرب ، وإنما قامت قوتهم على الموالى من الفرس الذين كانوا بعيدين عن دمشق .

ثالثاً — ولقربها من حدود الدولة البيزنطية لم تعد آمنة من غارات جيوشهم عليها .

فكان من المناسب إذاً أن يعدل العباسيون عن اتخاذ دمشق حاضرة لخلافتهم، وأن يستبدلوا بها حاضرة جديدة على مقربة من بلاد فارس .

وفى غضون الفتوح الإسلامية تأسست ببلاد العراق مدينتان اتخذهما المسلمون مركزين حربيين للجند هما : البصرة القريبة من مصب دجلة ، والكوفة الواقعة على نهر الفرات ، حيث يدخل طريق القوافل الصحراوية من الحجاز إلى فارس فى أراضى بلاد العراق الزراعية . وقد أقام أبو العباس السفاح فى القصر الذى بناه بجانب الأنبار ، المدينة الفارسية القديمة الواقعة على الشاطىء الشرقى من نهر الفرات ، حيث يتفرع النهر الكبير الذى أطلق عليه فيما بعد نهر عيسى ، ويجرى نحو دجلة . وسمى السفاح قصره «الهاشمية» نسبة إلى جده هاشم بن عبد مناف(١) .

ولما توفى السفاح سنة ١٣٦ هـ (٧٥٤ م) وولى أخوه المنصور الخلافة ، شرع بعد قليل فى بناء قصر آخر سماه الهاشمية أيضاً . وكانت الهاشمية الثانية ، أو هاشمية الكوفة ، بين الكوفة والحيرة ، وهى المدينة الفارسية القديمة الواقعة على نهر الفرات (٢) . وقد أدرك المنصور أن هذه المدينة لا تصلح حاضرة لخلافته، لقربها من الكوفة مقر الشيعة ومركز دعايتهم ، ولأنها كانت معسكر القبائل العربية التى لم تفتر عن إثارة الفتن والقلاقل ، حتى أصبح المنصور لا يأمن على نفسه لمجاورته أهل هذه المدينة الذين أفسدوا عليه جنده ، ولما كان أيضاً من كراهته المقام فيها بعد حادث الراوندية . أضف الى ذلك أن الكوفة وما يجاورها من

---

(١) اليعقوبى : كتاب البلدان ص ١٣٧ . الطبرى ج ٩ ص ١٧٤.

(٢) وفى رواية أخرى أن هاشمية المنصور كانت على مقربة من المدينة المسماة بمدينة ابن هبيرة ، وكانت تقع على الفرات شمالى الكوفة . وينبغى أن تميز بينهما وبين قصر ابن هبيرة ، الذى عمر ما حوله ، حتى أصبح مدينة عرفت بقصر ابن هبيرة ، وكانت تقع على الفرات شمالى الكوفة .

المدن تقع على حد الصحراء العربية التي تهب رمالها على الشاطىء الغربي للفرات[1].

٢ — اختيار موقع بغداد :

وقد رأى المنصور ضرورة اتخاذ حاضرته الجديدة وسط أراض خصبة يرويها ماء دجلة والجداول التي تأخذ ماءها من الفرات . وفي مكان تسهل فيه المواصلات بين أجزاء دولته ، وتتوافر فيه سبل المعيشة ؛ فبعث رواداً يختارون له مكاناً يبنى فيه حاضرته الجديدة ، فدلوه على موضع قريب من بارما الواقعة جنوبي الموصل، فخرج إليه في جماعة من رجال بلاطه وبات فيه . ولما أصبح سأل رجاله عن رأيهم في هذا المكان ، فذكروا له طيب هوائه وجودة غذائه ، فقال : « ولكن لا مرفق فيه للرعية » . وذكر لهم أنه قد مر في طريقه إلى هذا المكان بموضع تجلب إليه المؤن في البر والنهر ، وأنه يصلح مكاناً لحاضرة ملكه إذا استطاب هواءه . ثم رجع المنصور إلى هذا المكان وأقام فيه يوماً وليلة ، وكان ذلك في فصل الصيف . فأعجبه هواؤه ووجد فيه المكان الذي يفي بأغراضه[2] .

ثم دعا المنصور أهل هذه النواحي[3] وسألهم عنها، وكيف هي في الحر والبرد والأمطار وغيرها ، فأخبره كل واحد بما عنده من العلم ، فبعث رجالا من عنده فباتوا في هذه النواحي وأتوه بأخبارها ، فأعجب المنصور موضع بغداد. وكان فيه، كما ذكر الخطيب البغدادي[4]، مزرعة يقال لها المباركة ، فدعا المنصور صاحبها — وكان أحد الدهاقين — وسأله عنها ، فحسن له النزول بها لوقوعها بين أربعة نواحي (طساسيج) ، وورود المؤن إليها من الشام والجزيرة ومصر والهند والسند والبصرة وواسط وأرمينية وأذربيجان عن طريق دجلة والفرات وفروعها[5] .

---

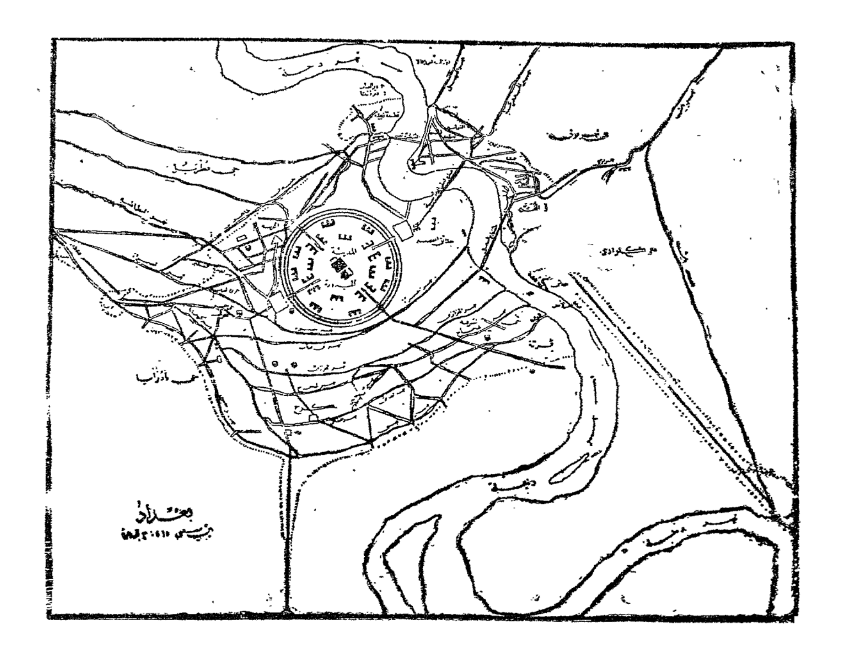
(١) راجع, Le Strang : Baghdad during the Abbasid Caliphate, pp. 11—14

(٢) الطبري ج ٩ ص ٢٣٨—٢٣٩ . ياقوت : معجم البلدان — انظر لفظ بغداد .

(٣) ذكر الطبري (ج ٩ ص ٢٣٩) هذه النواحي وهي . الدير وبغداد والمخرم والدير المعروف ببستان القس والعتيقة .

(٤) كتاب تاريخ بغداد ج ١ ص ٢١ .

(٥) انظر الباب السادس من هذا الكتاب .


بغداد
المدينة
دجلة

وقد روعى فى اختيار موقع بغداد ما قاله ابن خلدون(١) فى أوضاع الحواضر : ويشترط فى اختيار موضع المدينة أن تقع « إما على هضبة متوعرة من الجبل ، وإما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور ، وطيب الهواء للسلامة من الأمراض ، وقرب الزرع منها ليحصل الناس على الأقوات » . وختم ابن خلدون كلامه بقوله إن العرب لم يراعوا هذه الشروط فى اختيار مواقع المدن التى أسسوها كالبصرة والكوفة والقيروان وأنها كانت أقرب إلى الخراب لما لم تراع فيها الأمور الطبيعية .

وقد ذكر المؤرخون حكاية تظهر عليها مسحة الاختلاق . ذلك أن راهباً من رهبان الدير القريب من بغداد سأل أصحاب المنصور عن الرجل الذى يريد أن يبنى المدينة ، فقيل له أمير المؤمنين الخليفة المنصور . فسأل الراهب عن اسمه ، فقيل عبد الله ، فسأل عما إذا كان للخليفة اسم غير هذا ، فقيل : اللهم لا إلا أن كنيته أبو جعفر ولقبه المنصور . فقال الراهب للرجل : إذهب إليه وقل له لا يتعب نفسه فى بناء هذه المدينة ، فإنا نجد فى كتبنا أن رجلا اسمه مقلاص يبنى ههنا مدينة ويكون لها شأن من الشأن ، وأن غيره لا يتمكن من ذلك . فجاء الرجل إلى المنصور ، فقص على الحاضرين قصته وهو صغير : « أما والله كان اسمى مقلاصاً ، وكانت تضرب به الأمثال . وكان لنا عجوز تربينى ، فاتفق أن صبيان المكتب جاءوا يوماً إلى وقالوا نحن اليوم أضيافك ، ولم يكن معى ما أنفقه عليهم ، وكان للعجوز غزل ، فأخذته وبعته بما أنفقه عليهم . فلما علمت أنى سرقت غزلها ، سمتنى مقلاصاً ، وغلب على هذا اللقب ، ثم ذهب عنى ، والآن عرفت أنى أبنى هذه المدينة (٢) .

وكانت بغداد قبل تمصيرها قرية قديمة بناها بعض ملوك الفرس ، وتقع على الشاطىء الغربى لنهر دجلة فى أعلى المكان الذى يلتقى فيه نهر الصراة بدجلة .

---

(١) مقدمة ص ٢٩١ .

(٢) الطبرى ج ٩ ص ٢٣٩ — ٢٤٠ : ابن الجوزى . مناقب بغداد ص ١٩ . الفخرى ص ١١٧ — ١١٨ .

وقد بقيت قباب بغداد القديمة إلى أيام الطبرى المتوفى سنة ٣١٠[1] هـ . كما كانت سوقاً يقصده تجار الفرس والصين بتجارتهم ، وأغار عليها المسلمون سنة ١٣ هـ بقيادة المثنى بن حارثة الشيبانى وغنموا منها مغانم كثيرة[2] .

ويؤيد البحث الحديث وجود بغداد القديمة . وقد ذكر لى سترينج[3] أن المنقب الإنجليزى سير هنرى روليفسون عثر فى سنة ١٨٤٨ م وقت انخفاض نهر دجلة على سور من الآجر يحف بشاطىء هذا النهر الغربى ، ومنه يظهر أن مدينة قديمة كانت تقوم فى هذا المكان . وقد وجد اسم بختنصر وألقابه وغزواته منقوشة على قطع الآجر ، كما ظهر فى الثبت الجغرافى الأشورى لحكم سردانا بالوس لفظ يقارب تماماً لفظ بغداد .

٣ — اشتقاق لفظ بغداد :

ويروى بعض المؤرخين أن كلمة بغداد فارسية الأصل . فقد ذكر ياقوت وغيره عدة اشتقاقات طريفة لهذا الاسم منها :

١ — أن بغداد مكونة من كلمتين ؛ باغ ومعناها بالفارسية بستان وداد اسم لرجل كان يملك هذا البستان .

٢ — وقيل إن بغ اسم صنم ، وداد بمعنى أعطى أو منح . قيل إن كسرى أقطع هذه الناحية عبداً من المشرق من عباد الأصنام . فقال العبد : « بغ دادى » أى الصنم أعطانى . وروى النسائى أن رجلا قدم على عبد العزيز بن أبى رواد ، فقال له : من أين أنت ؟ فقال من بغداد ، فقال لا تقل بغداد ، فإن بغ صنم وداد أعطى ولكن قل مدينة السلام .

٣ — وقيل إن بغداد كانت سوقا يقصده تجار أهل فلسطين بتجارتهم فيربحون الربح الواسع . وكان اسم ملك الصين « بغ » فكانوا إذا انصرفوا إلى

(١) الطبرى جـ ٩ ص ٢٤٠ .

(٢) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ ١ ص ٢٦ .

(٣) Baghdad During the Abbasid Caliphate, pp. 9-10.

بلادهم قالوا : « بغ داد » أى أن هذا الربح الذى ربحناه من عطية الملك ، لأن داد بمعنى أعطى أى أعطانا الملك .

٤ — وقيل إن بغداد أصلها بغداد ، وهو فارسى معرب عن باغ ومعناه بستان ، وداذويه اسم رجل من الفرس . وذلك أن بعض نواحى بغداد كان بستاناً لرجل من الفرس اسمه داذويه . وهذا قريب الشبه بما ورد فى التسمية الأولى . ومما يدل على فارسية هذا الاسم وجود الدال مع الذال ؛ وهو مألوف عند الفرس وليس له نظير فى كلام العرب . ويقول لى ستريبنج إن الاشتقاق الصحيح لهذا اللفظ هو من الكلمتين الفارسيتين القديمتين بغ وهو الله ، وداذ ومعناها مؤسسة أو أساس ؛ ومن ذلك يكون معنى بغداد المدينة التى بناها الله .

٥ — وقد سماها المنصور مدينة السلام . وهذه التسمية مأخوذة عن الفارسية أيضاً ؛ فقد ذكر ياقوت أن بعض هذه المدينة كان أثراً لمدينة دارسة اختطها أحد ملوك الفرس ، فرض ، فقالوا له . « ما الذى يأمر الملك أن تسمى به هذه المدينة ؟ » فقال « هيلدوه وروز » أى أدخلوها بسلام . فلما علم المنصور بذلك قال : « سميتها مدينة السلام » . وقيل إنها سميت مدينة السلام لأن السلام هو الله ، أو لأن نهر دجلة يقال له وادى السلام . وكان أبو الفرج الببغا يقول هى مدينة السلام بل مدينة الإسلام .

٦ — وكان الجانب الغربى لبغداد فى العصور الإسلامية يسمى الزوراء ، لازورار فى قبلتها . وقيل لأن المنصور لما عمرها جعل الأبواب الداخلية مزورة عن الأبواب الخارجة (أى ليست على سمتها) ، وقيل لازورار نهر دجلة عند مروره بها . ويقول المسعودى إن أهل هذه المدينة كانوا يسمونها الزوراء والروحاء فى أيامه ، بينما يسمى جانبها الشرقى الروحاء لانبساط مجرى نهر دجلة عنده .

وقد أطلق لفظ الزوراء على بغداد فى بدء إنشائها للانحراف الذى شوهد فى محاريب مساجدها ، وسميت « المدينة المدورة » لأنها على شكل دائرة ، ويقال لها

دار السلام تشبيها لها بالجنة[١] . وقد ورد فى تسمية بغداد أيضاً مغداذ ومغداد ومغدان[٢] .

٤ — تخطيط بغداد :

شرع المنصور فى بناء حاضرته الجديدة فى موضع بغداد القديمة ، وأمر بإحضار المهندسين والبنائين والفعلة والصناع من النجارين والحدادين والحفارين من الشام والموصل والبصرة والكوفة وواسط وبلاد الديلم ، حتى بلغ عددهم مائة ألف على ماذكره المؤرخون ، وإن كنا نشك فى هذا العدد ونرى فيه مبالغة ظاهرة . كما اختار جماعة ممن يثق بفضلهم وعدالتهم وعلمهم وأمانتهم ومعرفتهم بالهندسة والحساب ، من أمثال الحجاج بن أرطاة ، وعمران بن الوضاح ، وأجرى عليهم الأرزاق ، ثم أمر بضرب اللبن وطبخ الآجرّ .

وقيل إن المنصور أراد أن يولى القضاء أبا حنيفة النعمان مؤسس المذهب الحنفى ، فامتنع فحلف ألا يتركه حتى يوليه عملا من الأعمال ، وحلف أبو حنيفة ألا يفعل . ومما حذا المنصور على معاملة أبى حنيفة هذه المعاملة ، رغبته فى التحلل من يمينه والخروج منها[٣] . وذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن المنصور عامل أبا حنيفة هذه المعاملة ، لما رمى به من الانحياز إلى دعوة محمد بن عبد الله العلوى ؛ فحفظ له ذلك . فلما شرع فى بناء بغداد ، عهد إلى أبى حنيفة فى عد اللبن والإشراف على البناء ، فابتكر طريقة لعد الطوب بالقصب . وهى طريقة سهلة ، فان كان طول الطوبة ٣٠ سنتيمترا مثلا ، أتى أبو حنيفة بقصبة قاس بها صف الطوب ، وأمكنه بذلك معرفة عدد الطوب بالضبط فى زمن قصير وبدون عناء .

أحضر أبو حنيفة قصبة يعد بها اللبن والآجر ، ثم وضع أبو جعفر المنصور

---

(١) البغدادى تاريخ بغداد ج ص ٧٧ — ٧٨ .

(٢) الطبرى ج ٩ ص ٢٣٠ — ٢٣٢ . تاريخ بغداد ج ١ ص ٥٨ — ٥٩ . انظر لفظ بغداد فى معجم البلدان لياقوت ولسان العرب .

(٣) الطبرى ج ٩ ص ٢٤١ .

أول لبنة بيده وقال : بسم الله ! والحمد لله ! والأرض لله يورثها من عباده والعاقبة للمتقين ثم قال : « ابنوا على بركة الله »[١] .

ويحدثنا ياقوت أن المنصور وضع أساس بغداد فى الوقت الذى اختاره المنجمون . قال أبو سهل بن نوبخت : « أمرنى المنصور لما أراد بناء بغداد بأخذ الطالع ففعلت ، فإذا الطالع فى الشمس وهى فى القوس ، فخبرته بما تدل النجوم عليه من طول بقائها وكثرة عمارتها وفقر الناس إلى مافيها ، ثم قلت : وأخبرك خلة أخرى أسرك بها يا أمير المؤمنين . قال : وماهى ! قلت : نجد فى أدلة النجوم أنه لايموت بها خليفة أبداً حتف أنفه ؛ فتبسم وقال : الحمد لله على ذلك (هذا فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) .

وكان من أعجب العجب أن المنصور مات وهو حاج ، والمهدى ابنه خرج إلى نواحى الجبل فمات بماسبذان بموضع يقال له الروذ ، والهادى ابنه مات بعيسباذ قرية أو محلة بالجانب الشرقى من بغداد ، والرشيد مات بطوس ، والأمين أخذ فى شبارته وقتل بالجانب الشرقى ، والمأمون مات بالبذندون من نواحى المصيصة بالشام ، والمعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر وباقى الخلفاء ماتوا بسامرا ، ثم انتقل الخلفاء إلى التاج من شرقى بغداد »[٢] .

احتفل المنصور بوضع الحجر الأساسى لبناء بغداد احتفالا شائقاً شهده رجال الدولة العباسية من الأمراء والوزراء والعلماء والقواد والأعيان .

وقد روى الطبرى وغيره أن المنصور لما عزم على بناء بغداد أحب أن يعرف رسمها ، فأمر أن تخط طريق المدينة بالرماد ، ثم دخل من موضع كل باب ، ومر فى طرقات المدينة ورحابها وهى مخطوطة بالرماد ، ثم أمر أن يوضع على تلك الخطوط حب القطن ، ويصب عليه النفط وتوقد فيه النار ، فنظر إليه والنار تشتعل . وبذلك أمكنه الوقوف على رسم مدينته الجديدة . ثم حفر الأساس مكان هذه الخطوط ، وكل ذلك سنة ١٤٥ هـ[٣] . وجعل المنصور مدينته مدورة ، وجعل

---

(١) اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٢٤٨ — ٢٥٠ . الطبرى ج ٩ ص ٢٤١ .
(٢) راجع لفظ بغداد فى معجم البلدان لياقوت .
(٣) الطبرى ج ٩ ص ٢٤١ .

داره وجامعه فى وسطها حتى لايكون أحد أقرب إليه من الآخر ؛ وهو نوع جديد فى بناء المدن عند المسلمين يظهر أنهم أخذوه عن الفرس[١] .

ولم يجعل المنصور حول القصر والجامع بناء إلا الدار التى بناها للحرس من ناحية باب الشام ، وسقيفة كبيرة ممتدة على عمد مبنية بالآجر والجص ، خص إحداها بصاحب الشرطة والأخرى بصاحب الحرس ، وجعل حول ذلك منازل أولاده الأصاغر ومن يقوم بشئونهم من الخدم والعبيد ، واتخذ حول ذلك قصور الأمراء ورجال الدولة ودواوين الحكومة ومطبخ العامة . وأخذ البناءون يبنون حول الدواوين دور الأهالى تتخللها الأسواق ، وجعل للمدينة شوارع رئيسية أربعة تمتد من شوارع المدينة الأربعة يتفرع منها شوارع أخرى[٢] .

ولما وقف المنصور على رسم مدينته الجديدة شرع فى بناء سورها . ثم أخذ العمال فى العمل حتى بلغ ارتفاع السور قامة ، ولكن البناء مالبث أن وقف بسبب خروج محمد النفس الزكية فى المدينة المنورة سنة ١٤٥ هـ .

٥ — إتمام البناء :

ولما قضى المنصور على ثورة العلويين عزم على إتمام بناء بغداد فى أقرب وقت[٣] ، وأمر بأن يبنى للمدينة سوران : سور داخل عرضه من أسفله خمسون ذراعاً ومن أعلاه عشرون ذراعاً ، وسور خارجى ارتفاعه ثلاثون ذراعاً وعرضه كعرض السور الداخلى وليس عليه أبراج[٤] ، وحوله من الخارج خندق عميق أجرى فيه الماء من القناة التى تأخذ من نهر كرخايا ، وبنيت حافتاه بالجص والآجر وفوقه ١٦٣ برجاً ، سمك كل منها خمسة أذرع[٥] . وكان بالسور الخارجى أربعة

---

(١) Le Strange, p. 18

(٢) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ ١ ص ٧٦ .

(٣) أجمع المؤرخون على أن بناء بغداد تم فى سنة ١٤٦ هـ وأصبحت مقر الدولة العباسية وأن بناء سور المدينة وخندقها لم يتم قبل سنة ١٤٩ هـ (الطبرى جـ ٩ ص ٢٤١) .

(٤) الطبرى جـ ٩ ص ٢٤٠ .

(٥) اليعقوبى . كتاب البلدان ص ٢٣٩ .

أبواب ، بابان دون باب وهى : باب الكوفة ويقع فى الجنوب الغربى ، وباب البصرة ويقع فى الجنوب الشرقى ويشرفان على قناة الصراة ، وباب خراسان ويقع فى الشمال الشرقى وكان على نهر دجلة ويوصل إلى قنطرة السفن الرئيسية ، وكان يسمى باب الدولة لإقبال قوة الدولة العباسية من خراسان ، وباب الشام ويقع فى الشمال الغربى ويوصل إلى طريق الأنبار[١] .

وكان قطر مدينة بغداد من باب خراسان إلى باب الكوفة ٢٢٠٠ ذراع ، ومن باب البصرة إلى باب الشام كذلك . وعلى السور أبراج ، سمك كل منها خمسة أذرع ، وبنيت عليه شرافات[٢] ، وبين السورين ستون ذراعاً ، ويسمى « الفصيل » ، ويسمى السور الخارجى « سور الفصيل » ، وحوله الخندق ويسمى السور الخارجى سور المدينة .

وكان وزن كل لبنة جعفرية (نسبة إلى أبى جعفر المنصور) ١١٧ رطلا . وقد ذكر اليعقوبى أن وزن اللبنة التامة المربعة التى يبلغ طولها ذراعاً وعرضها ذراعاً ، مائتا رطل ، واللبنة المنصفة التى يبلغ طولها ذراعاً وعرضها نصف ذراع مائة رطل . وذكر صاحب « كتاب مناقب بغداد » أن الطوب المستعمل هو اللبن والآجر المطبوخ .

وكان بين البابين دهليز ورحبة توصل إلى الفصيل الدائر بين السورين ، ويسمى الأول باب الفصيل والثانى باب المدينة . فإذا دخل من باب خراسان مثلا عطف على يساره فى دهليز أزج[٣] مبنى بالآجر والجص ، طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً ، ويوصله بالباب الثانى رحبة طولها ستون ذراعاً وعرضها أربعون ذراعاً . وعن يمين الداخل ويساره بابان : الأيمن ويوصل إلى فصيل باب الشام والأيسر ويوصل إلى فصيل باب البصرة . ومن باب البصرة يدور الشخص إلى

---

(١) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٤ — ٧٥ .

(٢) هى الحلى التى توضع فى أعلى البناء على هيئة عرائس أو نحوها وتلاحظ فى أعلى المبانى الأثرية كالمساجد والحصون .

(٣) ضرب من الأبنية .

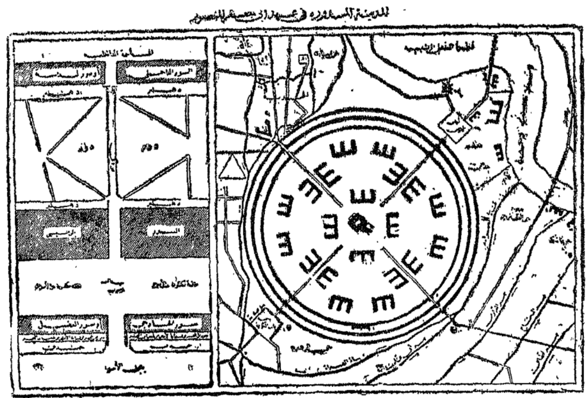
باب الكوفة ، ويدور الذى انتهى إلى باب الشام إلى باب الكوفة ، والأبواب الأربعة على مثال واحد من حيث الفصلان والرحاب والطاقات . أما الباب الداخلى أو باب المدينة ، فيدخل منه إلى دهليز طوله عشرون ذراعاً وعرضه اثنا عشر ذراعاً .

وقد ذكر الطبرى أن أبا جعفر المنصور نقل خمسة من هذه الأبواب من مدينة واسط . ويقال إن الحجاج بن يوسف الثقفى وجدها على باب مدينة بناها النبى سليمان بن داود تعرف باسم زندورد ، وهو اسم دير من أديار النسطوريين كان يقع شرقى مدينة بغداد . وقد شاهد الطبرى هذه الأبواب حول سنة ٣٠٠ هـ . وأقام المنصور على باب خراسان باباً جىء به من بلاد الشام ، ويقال إنه من عمل الفراعنة . وأقام على باب الكوفة باباً جىء به من الكوفة من عمل خالد بن عبد الله القسرى ، وعمل لباب الشام باباً صنع فى بغداد ، وكان أضعف أبواب بغداد ، وعلى كل أزج من أزج هذه الأبواب مجلس تتصل درجاته بهذا السور ، وعلى هذا المجلس قبة عالية يجلس فيها المنصور طلباً للراحة ، فيشاهد الوافدين من خراسان والشام والبصرة والكوفة .

وقد بنى المنصور قصره الذى كان يطلق عليه اسم قصر الذهب ، وبنى جامعه قبالته فى وسط المدينة . وبلغت مساحة القصر ٠٠٠ر١٦٠ ذراعاً مربعاً ، وبلغت مساحة الجامع ٠٠٠ر٤٠ ذراعاً مربعاً . ويعتبر قصر الذهب والجامع مركز الدائرة ، حيث تفرعت من أبواب السور الداخلى الذى يحيط بمركز المدينة أربعة شوارع رئيسية منظمة متجهة خارج المدينة على شكل محاور الدائرة حتى تنتهى إلى الخندق . وقد أقيمت على جانبى هذه الشوارع الأبنية العالية التى نسقت تنسيقاً بديعاً ، والتى كانت متشابهة فى الشكل وأسلوب البناء .

وكانت أبواب القواد تشرف على رحبة الجامع ، فشكا الناس ذلك إلى الخليفة المنصور ، فأمرهم بتحويل أبوابهم حتى لا تطل على الجامع ، وجعلت فى طرف المدينة وطاقاتها التى بلغ عددها خمسة وثلاثين ، عرض كل منهـــا خمسة عشر ذراعاً ، وطولها مائتا ذراع وبين كل طاقين بنيت غرف للمرابطة . وكان على كل

المدينة المدورة في عهد أبي جعفر المنصور



الاصطلاحات

جامع المنصور	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]
باب البصرة	[illegible]	[illegible]
باب خراسان	[illegible]	[illegible]
باب الشام	[illegible]	[illegible]
باب الكوفة	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]

باب من أبواب المدينة قائد فى ألف جندى[1] . وإذا وقف الإنسان فى نهاية أحد هذه الشوارع رأى قصر الخليفة [2] . كما هو الحال فى حى السكاكينى بالقاهرة حيث ترى السراى ماثلا أمام الأعين من كل الشوارع المتفرعة عن السراى الذى هو بمثابة مركز الدائرة .

وسرعان ماازدحمت بغداد بالعلماء والتجار والصناع الذين أقبلوا عليها ، فلم ير المنصور بدأ من الإقامة خارج المدينة فى مكان طيب الهواء ، فبنى قصر الخلد فى سنة ١٥٧ هـ [3] .

ولا شك أن هذه الأعمال الجليلة كلفت الخليفة المنصور كثيراً من النفقات ، حتى إنه فكر فى استعمال أنقاض « المدائن » حاضرة الفرس القديمة فى تعمير حاضرة ملكه الجديدة ، فاستشار وزيره خالد بن برمك فى هدم إيوان كسرى ونقل أنقاضه لبناء بغداد وتعميرها ، فنهاه خالد عن ذلك :

١ — القطائع والأرباض :

ولما فرغ أبو جعفر المنصور من عمارة بغداد ، أقطع أعيان دولته قطائع من الأرض رغبة فى تخفيف الضغط على بغداد من جهة . ومكافأة لهم على ما قدموه من الخدمات الجليلة من جهة أخرى . وقد حذا ابن طولون فى مصر حذو المنصور ، فأسس مدينة القطائع بعد أن ضاقت الفسطاط والعسكر بخدمه ومماليكه وجنده ، وأعطى كل طائفة قطيعة خاصة بها .

وسرعان ما عمرت هذه القطائع وازدحمت بالسكان ، وأصبحت كل قطيعة منها تعرف باسم الرجل أو الطائفة التى تسكنها . فترى من بينها قطيعة العباس بن محمد ابن عبد الله بن العباس على الصراة ، وقطيعة الصحابة وهم من سائر قبائل العرب من قريش والأنصار وربيعة ومضر ، وكانت على الصراة أيضاً ، وقطيعة الربيع

(١) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٦ .

(٢) ابن رسته . الأعلاق النفيسة ص ١٠٨ .

(٣) الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٥ . انظر لفظ بغداد فى معجم البلدان لياقوت .

ابن يونس مولى المنصور ، وكان بها تجار خراسان من البزازين[١] ، وقطيعة صالح ابن المنصور . وسرعان ما اتسعت قطائع بغداد وزاد إقبال الناس على سكناها ، حتى إن نقل حاضرة الدولة العباسية إلى سامرا فى أيام المعتصم لم يؤثر فى نمو الحركة التجارية والعلمية فى بغداد [٢] .

وقد أسهب اليعقوبى فى الكلام عن سكك[٣] بغداد ودروبها [٤] . فنجد سكة الشرطة ، وسكة المطبق وفيها سجن المطبق ، وسكة الربيع ، وسكة المؤذنين . وقد بلغ عدد هذه السكك والدروب ستة آلاف ، وبلغ عدد الحمامات عشرة آلاف . وبالغ اليعقوبى وابن رسته فى عدد المساجد ، فذكر كل منهما أنها بلغت الثلاثين ألف ! وزاد ابن رسته أن الجانب الغربى لمدينة بغداد (الكرخ) كان ضعف الجانب الشرقى (الرصافة أو بغداد الشرقية) سعة وكثرة عمارة .

قسم الخليفة المنصور أرباض[٥] بغداد أربعة أقسام جعل كل منها رئيساً ، وعهد إلى كل رئيس منهم إقامة سوق فى القسم الذى يشرف عليه . كما أمر أن تخطط الشوارع والدروب بحيث تكون المبانى منتظمة ، وأن يسمى الشارع أو الدرب باسم القائد أو الرجل النابه الذكر الذى يقيم فيه ، كما تفعل المجالس البلدية الآن . وسرعان ما عمرت الأرباض وكثرت فيها المساجد والحمامات [٦] .

ولننتقل إلى الكلام على بناء الرصافة فى الجهة الشرقية من نهر دجلة المقابلة لمدينة بغداد ، وعلى الكرخ التى بناها أبو جعفر المنصور فى الجزء الغربى من بغداد .

٧ — الرصافة — الكرخ :

إن بناء بغداد ، وإن كان قد حقق الغرض الذى رمى إليه المنصور من منع

---

(١) أى بائعى الثياب .
(٢) اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٢٤٣ — ٢٥٤ .
(٣) جمع سكة وهى الزقاق .
(٤) الدرب : المدخل بين جبلين ، والعرب تستعمله فى معنى الباب لأنه كالباب لما يفضى إليه ، والدرب باب السكة الواسع والباب الأكبر .
(٥) الربض (بفتحتين) المدينة وما حولها وجمعها أرباض أى نواحى .
(٦) اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٢٤٠ — ٢٤٩ .

وصول العدو إليه ، لم يحل دون ما قد يحدث إذا شعب عليه الجند . وقد برهنت الأيام على أنه لم يكن آمناً كل الأمن على نفسه بإقامته فى بغداد ، إذ وقع هذا الشغب فعلا حين قام عليه جنده وحاربوه على أحد أبواب بغداد وهو باب الذهب، فأشار عليه أحد رجال دولته ببناء الرصافة وقال له : «اعبر بابنك المهدى» ، فأنزله فى الجانب (الشرقى من بغداد) قصراً ، وحوّله ، وحول من جيشك معه قوماً ، فيصير ذلك بلداً ، وهذا بلداً . فإن فسد عليك أهل هذا الجانب ضربتهم بأهل ذلك الجانب ، وإن فسد عليك أهل ذلك الجانب ضربتهم بأهل هذا الجانب ، وإن فسدت عليك مضر ضربتها باليمن وربيعة والخراسانية ، وإن فسدت عليك اليمن ضربتها بمن أطاعك من مضر وغيرها فقبل (المنصور) رأيه فاستوى له ملكه » .

وقد اتخذ الرصافة فى الأصل ثكنات للجيش ، وسميت « رصافة بغداد » . وبغداد الشرقية لأنها تقع فى الجهة الشرقية من دجلة المقابلة لمدينة بغداد ، وبنى لها المنصور صوراً ، وحفر حولها خندقاً ، وجعل فيها ميداناً فسيحاً ومسجداً وبستاناً ، وأجرى الماء فيها ، فتم ذلك فى خلافة ابنه المهدى سنة ١٥٩ هـ [١] .

وسرعان ما عمرت الرصافة حتى قاربت بغداد فى الاتساع ، فظهرت فيها الحدائق والمتنزهات ، والميادين الواسعة ، والمبانى الفخمة ، كما تجلت فيها مظاهر الخلاعة والملاهى . وفى ذلك يقول على بن الجهم الشاعر :

عيون المها بين الرُّصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

وقد أحصى اليعقوبى [٢] طرق الرصافة ودروبها، ووصف أسواقها وتجارتها، وقال إنه كان بها أربعة آلاف درب وسكة ، وخمسة عشر ألف مسجد ، وخمسة آلاف حمام ، إلى غير ذلك من الأقوال التى لا تخلو من المبالغة .

وقال نخلة المدور [٣] إن أهالى بغداد توسعوا فى تعمير الجانب الشرقى لمدينة بغداد المعروف بالرصافة ، فبنوا فيه القصور الرفيعة والمنازل المزخرفة، واتخذوا

---

(١) الطبرى ج ٩ ص ٢٨٢ .
(٢) كتاب البلدان ص ٢٥٣ — ٢٥٤ .
(٣) حضارة الإسلام فى دار السلام ص ٩٢ — ٩٣ .

الأسواق والجوامع والحمامات ، وتوجهت عناية الرشيد والبرامكة إلى تزيينها بالبنايات العامة ، حتى أصبحت الزوراء (يعنى بغداد) بجانبها كأنها البلد العتيق تجمع محاسنه فى جزء من محاسن المدينة التى أحدثت فى جواره .

قد بلغ اتساع بغداد والرصافة اتساعاً عظيما حتى أصبحتا أشبه بمدن صغيرة متلاصقة [١] ، وأصبحت بغداد أم مدائن الشرق فى ذلك العصر ، وبلغ عدد سكانها مليونى نسمة ، وازدهرت فيها الفنون المختلفة وانتشرت منها إلى سائر أنحاء العالم الإسلامى حتى ما كان منها مناهضاً للخلافة العباسية [٢] .

ولم تزل الأسواق داخل مدينة بغداد حتى وفد على المنصور أحد بطارقة الروم ، فأمر حاجبه الربيع بن يونس أن يطيف به فى المدينة ، ويصعد به إلى السور ، ويريه قباب الأبواب والطاقات ليرى ماعليه حاضرة خلافته من الأبهة والعمران . فلما مثل البطريق[٣] بين يدى المنصور ، سأله : كيف رأيت مدينتى ؟ فقال : « يا أمير المؤمنين ! إنك بنيت بناء لم يبنه أحد كان قبلك ، وفيه ثلاثة عيوب :

« أما أول عيب فيه فبعده عن الماء ، ولا بد للناس من الماء لشفاههم؛ وأما العيب الثانى فإن العين خضرة وتشتاق إلى الخضرة وليس فى بنائك هذا بستان ؛ وأما العيب الثالث فإن رعيتك معك فى بنائك ، وإذا كانت الرعية مع الملك فى بنائه فشا سره » .

من ذلك وقف المنصور على أوجه النقص فى مدينته ، لكنه لم يرد أن

---

(١) ذكر ياقوت فى معجمه المدن التى تسمى الرصافة : فنها رصافة البصرة ورصافة الشام وهى أكثر من مدينة، منها رصافة نيسابور التى أقطعها سليمان بن عبد الملك ابنه عبد العزيز لما ولد ، ورصافة هشام بن عبد الملك غربى الرقة ، وقيل لها الزوراء ، وكان يسكنها فى الصيف ، ورصافة واسط وهى قرية بالعراق من أعمال واسط ، ورصافة أبى العباس السفاح بالأنبار ، ورصافة قرطبة التى بناها عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، ورصافة بغداد . وقال ياقوت باحتمال اشتقاق لفظ الرصافة من الوصف ، وهو ضم الشىء إلى الشىء كما يرصف البناء والشارع .

(٢) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ٨٣، ١٤٠، ١٦٨ .

(٣) البطريق : القائد من قواد الروم .

يعترف للبطريق بما فاته من أخطاء فى بنائها فقال له : « أما قولك فى الماء فحسبنا من الماء مابل شفاهنا ، وأما العيب الثانى فإنا لم نخلق للهو واللعب ، وما قولك فى سرى فما لى سر دون رعيتى » . ولكن البطريق لما خرج بعث أبو جعفر المنصور فى طلب شميس وخلاد وقال لهما : مدا إلى قناتين من دجلة وأغرسا لى العباسية وانقلا الناس إلى الكرخ[1] .

وفى سنة ١٥٧ هـ قام الربيع بن يونس ببناء الكرخ غربى المدينة المدورة (بغداد) من مال المنصور الخاص ، وحولت إليها أسواق المدينة[2] . وأوسع المنصور طرق بغداد حتى غدا اتساع كل منها أربعين ذراعا . ووضع تصميم بناء الكرخ على قطعة من القماش عين عليها مواضع الأسواق ، كما عين موضع بناء جامع يصلى فيه أهل هذه الأسواق حتى لايدخلوا المدينة ، وعهد بالعمل إلى مولاه الوضاح ، وأفرد لكل حرفة سوقاً خاصة كما هو الحال فى المدن الكبيرة . وقد بنيت أسواق الكرخ فى الجهة الجنوبية من بغداد بين الصراة ونهر عيسى[3] لتكون مركزاً للصناعة والتجارة ، حتى إذا أخذت بغداد فى الاتساع صارت الكرخ فى وسطها[4] ، وأصبحت كما قال أبو عبد الله إبراهيم بن عرفة نفطويه :

سقى أربع الكرخ الفوادى بديمة ... وكل ملث دائم الهطل مسبل
منازل فيها كل حسن وبهجة ... وتلك لها فضل على كل منزل[5]

وقد عنى المنصور عناية كبيرة بتنظيم مدينته ونظافة شوارعها وطرقها ؛ فكانت الرحاب تكنس كل يوم ويحمل التراب خارج المدينة . وكانت الروايا تدخل على ظهور البغال ، فرأى الخليفة أن ذلك لايتفق وأبهة حاضرة خلافته ورواءها ، فأمر بتوصيل الماء إلى قصره :

---

(١) الخطيب البغدادى : تاريخ ج ١ ص ٨٧ — ٧٩ .
(٢) أورد الطبرى (ج ٩ ص ٢٦٢ — ٢٦٣) فى نقل الأسواق إلى الكرخ سبباً آخر هو ارتفاع الدخان منها واسوداد حيطان بغداد مما ضايق الخليفة .
(٣) أمين زكى : عمران بغداد ص ١٠٨ .
(٤) اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٢٥٤ .
(٥) الخطيب البغدادى . تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٩ — ٨٢ .

٨ — نفقات بناء بغداد — ماقيل فى وصفها :

وقد تطلب بناء بغداد كثيراً من النفقات ، لأن المنصور عمل على تحصينها تحصينا منيعا لتحاكى الحواضر الكبيرة ، وخاصة القسطنطينية حاضرة الروم ، فى العظمة والأبهة . فقد بلغت نفقات المدينة وما إليها من الأسوار والأبواب والقصر والجامع والأسواق والقباب والفصلان والخنادق وغيرها ٤٫٨٣٣٫٠٠٠ درهم على رواية الطبرى (ج ٩ ص ٢٦٣) ، وهو يعادل ٤٠٠٫٠٠٠ دينار أو ٢٠٠٫٠٠٠ جنيه . وفى رواية أخرى للطبرى أن نفقات المدينة بلغت ١٨٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار من الذهب ، وهو يعادل ٩٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه تقريباً . وعن الطبرى أخذ الخطيب البغدادى مع تعديل طفيف . ويرجح لى سترينج الرواية الثانية ، ويستبعد أن تكون النفقات قد بلغت ١٦٠٫٠٠٠ جنيه إذا لاحظنا مقدار مابذل من النفقات فى بناء المدينة وتنسيق بساتينها وحفر خلجانها وتشييد حصونها وغير ذلك مما يتطلب أكثر من ٤٠٠٫٠٠٠ دينار أو ٢٠٠٫٠٠٠ جنيه .

ونرى أن فى الرواية الثانية مبالغة ظاهرة ، إذا علمنا أن أبا جعفر المنصور كان حريصاً على جمع المال كما كان أشد حرصاً فى إنفاقه . أضف إلى هذا رخص المعيشة فى ذلك العصر . وكان المنصور يحرص فى الإنفاق على البناء لأنه كان يغلب عليه الشح ، حتى ضرب المثل بشحه وحرصه ، فسمى « أبا الدوانيق » و « المنصور الدوانيق » . لتشدده فى محاسبة العمال والصناع على الحبة والدانق ، وهو مقدار لايزيد على سدس درهم أى سبع مليمات تقريباً .

هكذا تأسست مدينة بغداد فى عهد أبى جعفر المنصور ، وقد بقيت إلى سنة ٦٥٦ هـ حين أخربها التتار بقيادة هولاكو ، ولحق بها الخراب قبل القرن السابع الهجرى مرتين : مرة فى أثناء الفتنة التى قامت بين الأمين والمأمون فى أواخر القرن الثانى للهجرة ، ومرة ثانية حين أغار بنو بويه على بلاد العراق واستولوا على بغداد سنة ٣٣٤ هـ .

وفى العصر العباسى الأول أصبحت مدينة بغداد أم المدائن ومركز التجارة ،

وكعبة العلوم والآداب ومعين الثروة والرخاء ؛ كما أصبحت مبانيها الفخمة ومتنزهاتها الجميلة آية من آيات الفن . يقول الجاحظ : قد رأيت المدن العظام ، والمذكورة بالإتقان والإحكام ، بالشامات وبلاد الروم ، وفى غيرهما من البلدان فلم أر مدينة قط أرفع سمكا ، ولا أجود استدارة . ولا أنبل نبلا ، ولا أوسع أبوابا ولا أجود فصيلا من الزوراء ، وهى مدينة أبى جعفر المنصور ، كأنما صبت فى قالب ، وكأنما أفرغت إفراغا[١] .

ومما جاء فى مدح بغداد : « بغداد جنة الأرض ، ومدينة السلام ، وقبة الإسلام ، ومجمع الرافدين ، وغرة البلاد ، وعين العراق ، ودار الخلافة ، ومجمع المحاسن والطيبات ، ومعدن الظرائف واللطائف . وبها أرباب الغايات فى كل فن وآحاد الدهر فى كل نوع » . وكان أبو إسحاق الزجاج يقول : بغداد حاضرة الدنيا وما عداها بادية[٢] :

وقد وصف طاهر بن المظفر بن طاهر الخازن بغداد فى هذه الأبيات فقال :

هى البلدةُ الحسناء وخُصَّتْ لأهلها ... بأشياء لم يجمعن مُذْ كنَّ فى مصر

هواء رقيق فى اعتدالٍ وصحة ... وماء له طعمٌ ألذ من الخمر

ودِجلتها شطان قد نظما لنا ... بتاج إلى تاج وقصر إلى قصر

تراها كمسكٍ والمياهُ كفضة ... وحصباؤها مثل اليواقيت والدر

(ب) سامرا :

لما شكا أهل بغداد من عنت الأتراك وعسفهم ، ندب المعتصم أحد رجاله لاختيار موضع كان السفاح قد شرع فى بناء مدينة جديدة فيه ، ثم بنى الرشيد بجوارها قصراً وحفر عندها نهراً سماه « القاطول » ، ثم بنى المعتصم فى ذلك المكان قصراً وهبه لمولاه آشناس القائد التركى المشهور . وقد فكر المعتصم فى هذا المكان الذى فيه قصره ، فبنى عنده مدينة « سامرا » حاضرة خلافته

(١) الخطيب البغدادى ج ١ ص ٧٧ .

(٢) ياقوت — معجم البلدان : أنظر لفظ بغداد .

الجديدة ، وتقع شرقى دجلة على مسيرة ثلاثة أيام من بغداد ، وتبعد ستين ميلا من ناحية الشمال .

وقد ذكر ياقوت فى سبب اختيار موضع سامرا ، أن المعتصم أعطى وزيره أحمد بن خالد الكاتب (سنة ٢١٩ هـ) خمسة آلاف دينار ، وأن هذا الوزير قصد ذلك الموضع ، وابتاع ديراً للنصارى بخمسة آلاف درهم ، وبستاناً بجواره بخمسة آلاف درهم ، كما ابتاع بعض الأراضى والدور المجاورة لذلك بالموضع . ثم أطلع الوزير الخليفة المعتصم على عقود البيع ، فخرج إلى هذا المكان فى أواخر سنة ٢٢٠ هـ ، ونزل فى المضارب التى أقيمت على شاطىء نهر القاطول ، ثم قصد موضع سامرا ، وأقام فيه ثلاثة أيام طلباً للصيد ، فأعجبه موقعه ، لأنه يسهل منه الوصول إلى بغداد براً وبحراً إذا خرج أهلها عن طاعته .

شرع المعتصم فى تخطيط حاضرته الجديدة فى سنة ٢٢١ هـ ، فوضع أساس قصره ، وأحضر العمال والصناع وأرباب المهن من سائر الأمصار الإسلامية ، وجعل للأتراك قطائع خاصة بهم ولغلمانه من أهل خراسان — وكانوا يسمون الأشروسية — قطائع ، ولأهل الحوف فى مصر ، وكان يطلق عليهم « المغاربة » قطائع ، وأفرد للتجارة وأرباب الحرف والصناعات أسواقاً خاصة ، ونقل إلى هذه المدينة الأشجار والثمار وشيد طرفها مسجداً جامعاً . ونزل أشناس وغيره من القواد كرخ سامرا .

هكذا تم بناء سامرا التى قصدها الناس من كل صوب وحدب ، وشيدوا فيها المبانى الشاهقة ، حتى أصبحت من أحسن مدن ذلك العصر .

وقد سمى ياقوت سبعة عشر قصراً بناها المعتصم والمتوكل فى مدينة سامرا . وكانت هذه القصور نموذجاً للقصور التى بنيت فيما بعد فى البلاد الواقعة بين بخارى شرقاً وقرطبة غرباً (١) ، وذكر أن هذه المدينة لما عمرت ، أطلق عليها اسم « سرور من رأى » ، ثم اختصر الاسم فقيل « سر من رأى » ، ولما خربت واستوحشت سميت « ساء من رأى » ، ثم اختصرت فقيل « سامرا » .

---

(١) بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية (ترجمة حمزة طاهر) ص ٥٣ .

وذكر المسعودى (١) فى سبب تسمية سامرا بهذا الاسم ، أنها مدينة سام ابن نوح ، وقال ياقوت فى أن سام بنى هذه المدينة فنسبت إليه « سام راه » بالفارسية ، وأنه دعا أن لا يصيب أهلها سوء ، فأراد السفاح أن يبنيها ، فبنى مدينة الأنبار ، وأنه دعا أن لا يصيب أهلها سوء ، فأراد السفاح أن يبنيها ، فبنى مدينة الأنبار بحذائها . ولما تم بناؤها سميت « سرور من رأى » ، وقال قايل (٢) إن أميان Ammian ذكر هذه المدينة فى عبارته التى وردت عن تقهقر جوفيان باسم Castellum Sumere ويظهر أن لهذه التسمية الطويلة التى أطلقت على مدينة المعتصم صلة اشتقاقية بهذا الاسم القديم .

قال ابن المعتز فى وصف سامرا : « إنها وإن جفت معشوقة السكنى وحبيبة المثوى : كوكبها يقظان ، وجوها عريان ، وحصاها جوهر ، ونسيمها معطر ، وترابها مسك أذفر ، ويومها غداة ، وليلها سحر ، وطعامها هنىء ، وشرابها مرىء ، وتاجرها مالك ، وفقيرها فاتك » .

وقد احتفظت سامرا بروائها وبهائها منذ بنيت فى عهد المعتصم إلى نهاية خلافة المعتضد العباسى سنة ٢٨٩ هـ . ثم سارع إليها الخراب ، ولم يبق فيها إلا قبر على الهادى الإمام العاشر والسرداب الذى اختفى فيه محمد المنتظر ، وهو الإمام الثانى عشر عند طائفة الإمامية الإثنى عشرية ، وقبور الخلفاء العباسيين الواثق والمتوكل والمنتصر والمعتز والمهتدى والمعتمد .

وقد وصف ياقوت المتوفى أوائل القرن السابع الهجرى أطلال سامرا كما شاهدها ، فقال : « وسائر ذلك خراب يستوحش الناظر إليها ، بعد أن لم يكن فى الأرض كلها أحسن منها ، ولا أجمل ولا أعظم ، ولا آنس ولا أوسع ملكا منها ، فسبحان من لا يزول ولا يحول » .

(جـ) قرطبة :

لما دخل عبد الرحمن الأول بلاد الأندلس ووطد دعائم الإمارة الأموية فيها ،

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٥٠ .

(٢) Geschichte der Chalifen, vol. II. p. 302 n.

اتخذ مدينة قرطبة حاضرة لإمارته ، وبنى فيها القصر والمسجد والجامع .

وقد ذكر المقرى [١] العوامل التى حدت عبد الرحمن على اختيار قرطبة مقراً لإمارته فقال : إن ملوك بنى أمية حين اتخذوها حضرة ملكهم لعلى بصيرة : الديار الكثيرة المنفسحة ، والشوارع المتسعة ، والمبانى الفخمة ، والنهر الجارى ، والهواء المعتدل ، والخارج النضر ، والمحرث العظيم ، والشّعراء [٢] الكافية ، والتوسط بين شرق الأندلس وغربها » .

فلما ولى هشام بن عبد الرحمن الداخل بلاد الأندلس ، جمل قرطبه وزينها بالمبانى الفخمة والبساتين النضرة ، وجدد القنطرة التى بناها السمح بن مالك الخولانى عامل عمر بن عبد العزيز بالأندلس على نهر الوادى الكبير ،وأحكم هشام بناءها حتى أصبحت مضرب المثل فى إحكام البناء . وكان طولها ثمانمائة ذراع وعرضها عشرون باعاً [٣] ، وارتفاعها ستون ذراعاً ، وعدد حناياها ثمانية عشر حنية ، وعدد أبراجها تسعة عشر برجاً [٤] .

اتخذ عبد الرحمن الداخل من قصر قرطبة القديم مقراً لإمارته ،ثم جملةوأنشأ فيه الرياض الفيحاء ، وأجرى من الجبال القريبة من هذه المدينة ، المياه العذبة فى كل ساحة من ساحاته فى قنوات الرصاص « تؤديها منها إلى المصانع صور (تماثيل) مختلفة الأشكال من الذهب الإبريز والفضة الخالصة والنحاس المموه إلى البحيرات الهائلة والبرك البديعة ، والصهاريج الغريبة فى أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة » .

وقد ألحقت بهذا القصر القصور الفخمة والبساتين النضرة كالكامل والمجدد والحائر والروضة والزهراء والمعشوق والمبارك والرستق وقصر السرور والتاج والبديع [٥] .

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢١٧ — ٢١٨ .
(٢) الشعراء : الأرض الكثيرة الشجر ، وقيل ، هى الروضة .
(٣) الباع مسافة بين الكتفين إذا بسطتهما يمينا وشمالا .
(٤) المقرى نفح الطيب ج ١ ص ٢٢٦ .
(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٢١٩ .

وبنى عبد الرحمن بقرطبة كثيراً من القصور ، كقصر الرصافة الذى كان يختلف إليه للنزهة ، وكانت تحيط به البساتين الواسعة التى نقل إليها غرائب النبات والأشجار من مختلف البلاد ، كما جلب إلى هذا البستان شجر الرمان واستنبته حتى أينع وأثمر [١] . وقد قيل أن أخته أم الأصبغ كانت ترسل إليه شجرة الرومان من الشام [٢] .

ومن قصور قرطبة قصر الدمشق الذى احتفظ باسم حاضرة الأمويين فى الشرق ، وكان يقوم على أعمدة من الرخام . وقد نمقت ساحاته وفناؤه ، واتخذ أمراء بنى أمية فى الأندلس وخلفاؤها مكاناً للتسلية ، وحاكوا به قصرهم بدمشق.

ومن أشهر آثار عبد الرحمن الأول : المسجد الجامع بقرطبة الذى بناه فى سنة ١٨٦ هـ وأنفق فى بنائه ٨٠٠٠٠ دينار حصل عليها من غنائم القوط . ثم أتم هذا المسجد ابنه التقى هشام سنة ١٧٧ هـ ، وتعهد الأمراء من بعده بالتجميل والزيادة حتى أصبح من أجمل مساجد الإسلام . فمن الأمراء من صفح السوارى والحيطان بالذهب ، ومنهم من أضاف إليه مئذنة ، ومنهم من زاد فى رقعته ليتسع للعدد الضخم من المصلين .

وقد بلغ عدد بوائكه [٣] تسع عشرة من الشرق إلى الغرب وإحدى وثلاثين من الشمال إلى الجنوب . وللمسجد واحد وعشرون باباً طليت بالنحاس الأصفر اللماع ، وثلاث وتسعون ومائتان وألف سارية . وقد أجريت الفضة فى حيطان محرابه المزين بالفسيفساء وصب فى سواريه الذهب الإبريز واللازورد . أما المنبر فقد صنع من العاج ونفيس الخشب ، ويتألف من ستة وثلاثين ألف وصل (قطعة منفصلة) سمرت بمسامير الذهب والفضة وزين بعضها الأحجار النفيسة . وكان للجامع أربع ميضات يصل إليها الماء من الجبال . وبنيت الدور إلى الجانب الغربى من المسجد لنزول فقراء المسافرين وأبناء السبيل .

---

(١) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٢٠ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٥٩ .

(٣) من معانى البوائك النخل الثوابت فى مكانها . قال شارح القاموس ومنه أيضاً تسمية بوائك البيت لأعمدتها الضخمة ، وهى وإن كانت عامية مولدة غير أن لها وجها فى الاشتقاق صحيحاً .

وبهـذا المسجد أيضاً مثات من الثريات التى صنعت من نحـاس أجراس الـكنائس للإضاءة ليلا . وكان به شموع ضخمة زنة الواحدة منها خمسون رطلا كانت تشتعل ليلا ونهاراً إلى جانبى الخطيب أو الواعظ فى شهر رمضان . وكان يقوم بخدمة المسجد ثلثمائة رجل يوقدون البخور من العنبر والعود ويعدون الزيت العطر لإضاءة عشرة آلاف فتيل للقناديل . وبهـذا المسجد تنور من نحاس أصفر يحمل ألف مصباح ، « وفيه أشياء غريبة من الصنائع العجيبة يعجز عن وصفها الواصفون[1] » .

عنى عبد الرحمن الأوسط بتعمير قرطبة وتجميلها ، وشيد أمراء الأمويين فى الأندلس ، كالحـكم الأول وعبد الرحمن الأوسط ومحمد الأول (٢٣٨ — ٢٧٣ هـ) قصوراً فخمة ، كالمجلس الزاهر ، والبهو الـكامل ، والقصر المنيف ، وقصر الدمشق ، وقصر قرطبة الذى وصفه المقرى فقال إنه يمتاز بالرياض اليانعة ، والبحيرات الهائلة ، والبرك البديعة ، والصهاريج الغريبة ، والقباب العالية المنيفة الذى لم ير الراءون مثلها فى مشارق الأرض ومغاربها .

اتسع عمران قرطبة حتى بلغ عدد سكانها فى القرن الرابع الهجرى ٥٠٠,٠٠٠ نسمة ، وعدد دورها ١٣,١٠٠ ، غير قصورها الفخمة ، وضواحيها الثمانية والعشرين ، وحماماتها الثلثمائة ، ومساجدها التى بلغت ثلاثة آلاف على ما قيل . ولم يتفوق عليها فى الاتساع سوى مدينة بغداد ، وقد أولع أهل قرطبة بمقارنتها بحاضرة العباسيين ، فقال بعضهم :

دع عنك حضرَةَ بغدادٍ وبهجتَها ‌‌‌‌‌‌ ولا تعظِّم بلادَ الفرسَ والصـين
فمـا على الأرض قط مثـل قرطبة ‌‌‌‌‌‌ وما مشى فوقَها مثلُ ابن حَمْدين[2]

---

(١) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٦ .
Lane—poole : The Moors in Spain, pp, 136-9
(٢) المقرى نفح الطيب ج ٢ ص ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ .
Dozy : The Moslems in Spain, p 449.

(د) فاس :

١ — إرتياد موضع فاس :

في سنة ١٨٩ هـ وفد على إدريس الثانى نحو خمسمائة فارس من العرب من الأزد وبنى يحصب وغيرهم من إفريقية والأندلس . وقد ذكر ابن القاضى أن إدريس سر بقدومهم وأكرم وفادتهم ، ورفع منزلتهم واتخذهم بطانة له ، لأنه شعر بشىء من الوحشية بين البربر ، وقد قلد إدريس عمير بن مصعب الأزدى الوزارة ، وكان من فرسان العرب وسادتهم ، وكان لأبيه مصعب مآثر عظيمة في إفريقية والأندلس ومواقف مشهورة فى غزو بلاد الروم . كما قلد إدريس الثانى محمد بن سعيد القيسى القضاء . وكان صالحاً ورعا ، أخذ العلم عن الإمام مالك وسفيان الثورى وروى عنهما ، ثم خرج إلى الأندلس للجهاد فى سبيل الله ، ثم وفد على إدريس فيمن وفد عليه من العرب والبربر من جميع الآفاق ، فكثر الناس وضاقت بهم مدينة وليلى (بفتح الواو وكسر اللامين) ، وهى على مقربة من جبل زرهون (بفتح الزاى وسكون الراء) شمالى مدينة فاس حيث أقام إدريس الأول .

ولما رأى إدريس الثانى أن الأمر قد استتب له ، وأن مدينة وليلى قد ضاقت بجيشه وحشمه ووجوه أهل دولته ، أراد أن يرتاد موضعاً يبنى فيه حاضرة ملكه ، فسار فى سنة ١٩٠ هـ بصحبة بعض خاصته ورؤساء دولته ، فوصل إلى جبل زالغ (أو زلاغ) ، وهو جبل شامخ يشرف على مدينة فاس من ناحية الشرق ، ولا يزال يعرف بهذا الاسم إلى الآن . وهنا شرع إدريس الثانى فى البناء وأقام جزءاً من السور . ولكن السيل قد انهال من أعلى الجبل فى بعض الليالى وحمل معه كل ما بنى . فلم ير إدريس بدأ من العدول عن الاستمرار فى البناء(١) .

---

(١) ابن القاضى : جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس ، الخزانة العامة بالرباط ، مخطوط جـ ١٢٤٢ ورقة ٣٩٠ وما يليها .

ولما أهلت سنة ١٩١ هـ خرج إدريس الثانى يرتاد موضعاً آخر يبنى فيه مدينته .

ولما وصل إلى وادى (أو نهر) « سِبُو » (بكسر السين) رأى حمة (بفتح الحاء وتشديد الميم مع الفتح) خولان ، وهى حمة سيدى حرازم الآن ، وتبعد عن فاس بنحو عشرة كيلو مترات وتشتهر بمياهها المعدنية . وقد أعجبه هذا المكان لقربه من الماء ووجود هذه الحمة فيه ، فشرع فى وضع الأساس وقطعت الأخشاب وصنع الجير وغيره من أدوات البناء ، وبدىء فى العمل . ولكن « إدريس » عدل عن البناء مرة أخرى لأنه خشى أن تتعرض مدينته لفيضان وادى « سبو » فى فصل الشتاء ، وقفل راجعاً إلى مدينة وليلى ، وبعث وزيره عميراً يرتاد له موضعاً يفى بأغراضه .

سار هذا الوزير فى جماعة من قومه حتى بلغ « فحص سايس » ، وهو سهل فسيح يمتد بين جبل زرهون والحاجب وتقع فى وسطه مدينة فاس الآن . فوجد اتساع رقعة المكان واعتدال هوائه وكثرة مائه ، فنزل ودعا الله أن يستجيب لدعائه ، ثم امتطى صهوة جواده وأمر قومه أن ينتظروه عند تلك العين حتى يعود إليهم . ومن ثم نسبت إليه هذه العين فسميت « عين عمير » . ثم واصل الوزير سيره حتى وصل إلى العين التى ينبع منها وادى فاس ، فرأى أكثر من ستين عيناً تنساب مياهها فى أرض فسيحة تحيط بها المزارع والأشجار . ولما شرب من ماء هذه العين استطابه وقال : « ماء عذب وهواء معتدل » . ثم سار عمير فى الوادى حتى وصل إلى موضع مدينة فاس الحالى ، فنظر بين الجبلين ، فوجد غيطة[1] كثيفة الأشجار عامرة بالعيون والأنهار ، وشاهد فى بعض مواضعها خياما من شعر يسكنها قوم من زناتة . واطمأن الوزير إلى ما رأى ، فعاد إلى وليلى ووصف لمولاه إدريس الثانى هذا المكان وذكر له ما يمتاز به من وفرة مائه وجودة تربته

---

(١) الغيطة هى جزء من الأرض غنى بمائه وأشجاره وجمال خضرته . ومن هذا التعبير أخذ لفظ الغيط فى الاصطلاح المصرى بمعنى الحقل .

واعتدال هوائه . فسار إليه إدريس وسأل عن ملاك هذه الأرض ، فقيل قوم من زواغة يعرفون ببنى الخير فقال : هذا فأل حسن ، وبعث فى طلبهم واشترى هذه الأرض منهم بستة آلاف درهم وأدى لهم الثمن وأشهد عليهم بذلك[١] .

وقد ذكر المؤرخون حكاية تظهر عليها مسحة الاختلاق التى ظهرت عند بناء مدينة بغـداد . ذلك أن إدريس الثانى لما عزم على بناء مدينة فاس وبلغ موضعها مر به أحد الرهبان ، وكان شيخاً كبيراً ، قيل إنه ناهز المائة والخمسين . وكان يترهب فى صومعة قريبة من تلك النواحى ، فسلم على إدريس وقال له : أيها الأمير ! ما تريد أن تصنع بين هذين الجبلين ؟ قال : أريد أن اختط بينهما مدينة لسكناى وسكنى ولدى من بعدى ، يعبـد الله تعالى بها ويتلى بها كتابه وتقام بها حدوده . قال : أيها الأمير ! إن لك عندى بشرى . قال : وما هى أيها الراهب ؟ قال : أخبرنى راهب كان قبلى فى هـذا الدير منذ مائة سنة أنه وجد فى كتاب علمه أنه كان بهذا الموضع مدينة تسمى « ساف » خربت منذ ألف سنة وسبعمائة ، وأنه سيجددها ويحيى آثارها ويقيم درسها (وصحتها دارسها أى ما درس منها) رجل من آل بيت النبوة يسمى إدريس . فيكون له بها شأن عظيم لا يزال دين الإسلام قائماً بها إلى يوم القيامة . فقـال إدريس : الحمد لله ! أنا إدريس وأنا من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا بانيها إن شاء الله . لذلك عقد إدريس العزم على بناء مدينته ، فوضع أساسها .

ويدلل ابن أبى زرع[٢] وابن القاضى[٣] على صحة هذه الحكاية بأن أحـد اليهود حفر أساس دار له بقنطرة عديلة من هذه المدينة فوجد فى هـذا الأساس دمية (بضم الدال) من رخام على صورة جارية نقشت على ظهرها هـذه العبارة : هذا موضع حمام عمر ألف عام ثم خرب فأقيم بموضعه بيعة للعبادة .

---

(١) ابن القاضى : جذوة الاقتباس المصدر نفسه .
(٢) روض القرطاس ج ١ ص ٤٨ — ٤٩ .
(٣) جذوة الاقتباس ورقة ٣٩١ وما يليها .

٣ — اشتقاق لفظ فاس

اختلف المؤرخون فى تسمية مدينة فاس :

١ — فقد قيل إن إدريس الثانى لما شرع فى بنائها كان يعمل مع الصناع والفعلة ، فصنع له بعض الناس فأساً من ذهب ، أو فضة ، يستعمله إدريس فى البناء ، فكان يقال : هات الفأس احمل الفأس ، أحفروا بالفأس ، فسميت المدينة « فاس » ثم سهلت إلى فاس للتخفيف .

٢ — وقيل إنه لما شرع فى حفر أساس المدينة من جهة القبلة وجد فى الحفيرة فأس طوله أربعة أمتار وسعته شبر واحد ووزنه ستون رطلا من عمل الأوائل . فسميت المدينة « فاساً » .

ويرجح الحسن الوزان أو ليون الإغريقى (١) أن هذه التسمية جاءت نتيجة عثور المولى إدريس على فأس عند حفر أساس المدينة ، فسمى مدينته « فاس » .

٣ — وقيل إنه لما تم بناء المدينة طلب رجال الحاشية من المولى إدريس أن يسميها فقال : أسميها باسم المدينة التى كانت قبلها على ما أخبرنا به الراهب ، وكانت تسمى « ساف » (٢) ولكنى أقلب اسمها ، فأصبحت فاس بدل ساف .

ويرى بعض أن الموضع الذى بنيت فيه المدينة كان يحمل اسم فاس ، وأن هذه التسمية كانت راجعة إلى النهر الذى يخترق المدينة ، وكان يسمى « ساف » Sef باللغة الإفريقية ، فقلب لفظ ساف إلى فاس (٣) .

ويرى « إيبولار » عند تعليقه على ماذكره الحسن الوزان عن مدينة فاس ، أن كلمة « أسيف » Asef معناها بالبربرية النهر ، وأنها تصبح عند قلبها فاس ، وذلك بشىء من التصرف (٤) .

ولا تبعد صحة هذا الرأى الذى يرتكز على أصل من اللغة البربرية .

---

(١) Liou l' Africain, tomel, pp. 179—180

(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ج ١ ص ٦٠ — ٦١ .

(٣) الحسن الوزن Tome I, p. 180

(٤) Tome 1, p. 179, note 106

٣ — تخطيط فاس :

وضع إدريس الثانى أساس مدينة فاس فى يوم الخميس غرة ربيع الأول سنة ١٩٢ هـ فأسس عدوة [1] الأندلس وأدارها بالسور من ناحية القبلة . وقد أقام بها ثلثمائة أسرة جاءت من قرطبة بعد أن ثاروا على الحكم الأول الأموى (١٨٠ — ٢٠٦ هـ) بربض هذه المدينة الغربى بزعامة الفقيه يحى بن يحى الليثى ، فأحل بهم الأمير الأموى الهزيمة وهدم دورهم ومساجدهم ووضع حداً لتدخل رجال الدين .

وقد أرغم هؤلاء الثوار على الهجرة إلى فاس (والإسكندرية) وأقاموا بها ، حيث لحقت بهم قبائل البربر من أوربة (بفتح الألف مع الهمزة وسكون الواو وفتح الباء) وغمارة (بضم الغين) ولواته (بفتح اللام والتاء الأولى) .

ثم وضع إدريس الثانى أساس عدوة القرويين فى غرة ربيع الثانى من سنة ١٩٣ هـ [2] ، فوفد عليها ثلثمائة أسرة جاءت من القيروان (بتونس الحالية) تاركين بلادهم لنفس الأسباب التى أدت إلى هجرة الأندلسيين .

---

(١) بضم العين وسكون الدال وفتح الواو . ومعناها شاطىء النهر أو البحر . وقد ورد هذا اللفظ فى القرآن الكريم (سورة الأنفال ٨ : ٤٢) : (إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيى عن بينة وإن الله لسميع عليم) .

(٢) هذان التاريخان (١٩٢ و ١٩٣ هـ) هما المتداولان عند جمهرة مؤرخى المغرب . على أن الأستاذ « أندرى آدم » أتى بنظرية جديدة عن تأسيس مدينة فاس ، فذكر أن عدوة الأندلس بناها إدريس الأول بين سنتى ١٧٢ و ١٧٤ هـ (ولعله يقصد سنة ١٧٧ هـ ، وهى السنة التى توفى فيها إدريس الأول) . وقد دلل « آدم » على صحة نظريته بما أورده من نصوص متعددة استمدها من مصادر أصيلة ، مثل كتاب أبى بكر الرازى المتوفى سنة ٣٤٥ هـ الذى ينسب تأسيس مدينة فاس إلى إدريس الأول ، والنوفلى المؤرخ الذى ذكر أن إدريس الثانى أتى إلى مدينة فاس سنة ١٩٢ هـ واستقر بعدوة الأندلسيين ، أى أن مدينة كانت قائمة قبل مجىء إدريس الثانى . ومن المصادر التى اعتمد عليها الأستاذ « آدم » ، كتاب « الزهرة المنثورة فى الأخبار المأثورة » ، وهو ديوان تاريخى أى منظومة تاريخية نظمت فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) فى عهد بنى نصر (بنى الأحمر) ملوك غرناطة ، وقد ذكر صاحب هذا الديوان أن الأندلسيين بعد خروجهم من قرطبة فى سنة ٢٠٢ هـ فى عهد الحكم =

وقد امتاز هـذا المـكان بكثرة أشجاره ووفرة عيونه وتدفق أنهاره . ولذلك رأى إدريس الثانى أن ينتقل من عـدوة الأندلس إلى عدوة القرويين فى الموضع المعروف بدار القيطون (بفتح القاف وسكون اليـاء) اليوم القريب من ضريح مولاى إدريس . .

ثم أخذ إدريس الثانى فى بناء المسجد الذى يعرف الآن بمسجد الشرفا . وهو مسجد مولاى إدريس اليوم ، وأقام فيـه الخطبة . ثم أخـذ فى بناء داره المعروفة بدار القيطون التى يسكنها الشرفاء الجوطيون من أولاده . ثم بنى القيسارية إلى جانب المسجد الجامع ، وأدار حوله الأسواق من كل جانب ، وأمر الناس بالبناء وقال لهم : من بنى موضعاً أو اغترسه قبل تمام السور فهو له هبة ابتغاء وجـه الله . فبنى الناس الدور وغرسوا الأشجار وكثرت العمارات . وفى ذلك الوقت وفد على إدريس الثانى جماعة من الفرس من بلاد العراق ، فأنزلهم بناحية « عين علو » (بفتح العين وضم اللام مع التشديد) التى بنيت عليها دار الجزاء ودار أخرى بإزائها.

= ابن هشام جاءوا إلى فاس ، فسميت إحدى العدوتين « عدوة الأندلسيين » . وقد أضاف صاحب هذا الديوان أن مدينة فاس بنيت سنة ١٧٨ هـ ، حين دخل إدريس بن عبد الله بلاد المغرب (والمعروف أنه دخل سنة ١٧٢ هـ) . ويقول « أندرى آدم » : « هكذا نستخرج تاريخاً جديداً ذا ثلاثة فصول :

١ — مدينة بربرية الأسلوب بناها إدريس الأول سنة ١٧٨ هـ (٧٨٩ م) كانت تسمى إذ ذاك مدينة فاس ، ضربت بها السكة إلى سنة ١٨٩ هـ .

٢ — مدينة جديدة على أسلوب شرقى ، أو إن شئت فقل ، على أسلوب إفريقى تونسى . فسميت هذه المدينة أولا « العالية » ، ثم سميت بعد ذلك مدينة القرويين .

٣ — إن وفود القرطبين الأندلسين سنة ٢٠٢ هـ سمحت لادريس الثانى بأن يزيل الصبغة البربرية للمدينة التى أسسها أبوه ، وبأن يقيم هؤلاء الأندلسيين الذين زادوا مساحتها بالبناء بأسلوب أندلسى . ومن هنا سميت مدينة الأندلسيين .

ويرى الأستاذ بروفنسال أن القارىء يلتبس عليه قراءة سبعين وتسعين بالعربية ، ولا سيما إذا ذكرنا أن النقط لم يكن شائعاً فى العصور الأولى ؛ فـكتب بعض الناسخين اثنتين وسبعين ومائة بدلا من اثنتين وتسعين ومائة .

انظر مجلة الثقافة المغربية العدد الأول ص ٢٦٤ — ٢٦٦ .

أما دار الجزاء فهى المكان الذى تشرف عليه وزارة الأوقاف المغربية ولها سهم فى الدور التابعة له [(١)] .

وقد أدار إدريس سور عدوة القرويين مبتدئاً برأس عقبة علو وصنع برأس العقبة بابا سماه باب إفريقية (يقصد باب القيروان) . ثم هبط بالسور إلى عقبة الزعتر حيث صنع بابا سماه باب حصن سعدون ، ويليه باب القوس . واستمر فى البناء حتى وصل إلى المكان الذى يفصل بين العدوتين وصنع بابا سماه باب الفصيل لأنه يفصل بين عدوة الأندلس وعدوة القرويين . ثم جاوز هذا الباب وصنع بابا سماه باب الفرج .

ثم ابتدأ إدريس الثانى بعدوة الأندلس من جهة القبلة ، واستمر فى بناء السور وصنع قبالة باب الفرج وباب الفصيل من عدوة القرويين بابا سماه باب أبى سفيان ، ومنه يخرج الناس إلى بلاد غمارة (بضم الغين) والريف شمالا . ثم سار بالسور شرقا فصنع بابا يعرف بباب الكنيسة ، ومنه يخرج المسافر إلى تلمسان . ولم يزل هذا الباب على حاله كما بناه إدريس حتى هدمه عبد المؤمن بن على الموحدى سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م) ثم بناه الناصر بن المنصور الموحدى حين جدد سور المدينة سنة ٦٠١ هـ (١٢٠٤ — ١٢٠٥ م) . كذلك بنى إدريس بسور عدوة الأندلس القبلى بابا سماه باب القبلة لم يزل على حاله حتى هدمه « دوناس » اليفرانى حين دخل الأندلس عنوة ، فبناها الفتوح بن عطية الزناتى اليفرانى فى عهد ولايته على هذه المدينة[(٢)] . كما بنى بسور عدوة القرويين الغربى باب الحديد الذى يؤدى إلى الأطلس المتوسط ، وباب سليمان الذى يؤدى إلى مدينة مراكش وبلاد المصامدة ، وباب الجوف الذى يؤدى إلى الرابطة القديمة وسد فى أثناء المجاعة التى حلت بمدينة فاس سنة ٦٢٧ هـ (١٢٢٩ — ١٢٣٠ م) ، وباب حصن سعدون ويقع جنوبى السور ، وهو الذى بناه إدريس .

٤ — اتساع مدينة فاس :

وسرعان ما اتسعت مدينة فاس وكثر سكانها وزاد عدد أبوابها ، وغرست الأشجار والكروم والزيتون على جانبى نهر سبو ، وعمرت الأرض وقصدها

---

(١) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ؛ المصدر نفسه .

(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ج ١ ص ٥٢ — ٥٤

الناس من كافة البلاد وازدحمت بالسكان ، وأقام بها التجـــار وأرباب الحرف وغيرهم .

ولمـا فرغ إدريس من بناء فاس انتقل إليها واتخذها حاضرة لدولته . وفي سنة ١٩٧ هـ خرج لغزو من بقي من الـكفار بنفيس (نهر يقرب من مدينة مراكش) وبلاد المصامدة ، ففتحها وعاد سنة ١٩٩ هـ ، ثم خرج لغزو قبائل نفزاوة ودخل مدينة تلمسان (١) .

ولمـا فرغ إدريس من بناء مدينته أقام خطبة الجمعة وختمها بقوله : « اللهم إنك تعلم أني ما أردت بناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة ولا سمعة ولا مكابرة ، وإنمـا أردت أن تعبد بها ويتلى كتابك ، وتقام بها حدودك وشرائع دينك وسنة نبيك صلى الله عليـــه وسلم ما بقيت الدنيا . اللهم وفق سا كنها وقاطنها للخير وأعنهم عليه ، وأكفهم مؤونة أعدائهم ، ووسع عليهم الأرزاق ، وأغمد عنهم سيف الفتنة والنفاق ، إنك على كل شيء قدير » . وقد أدار عليها الأمير عجيسة في عهد ولايته سوراً وصنع فوق باب حصن سعدون باباً أطلق عليه باب عجيسة كما فعل أخوه الفتح بباب عـدوة الأندلس . ولم يزل باب عجيسة على حاله بقية أيام زناتة وصنهاجة إلى عهـد الناصر الموحدي (٥٩٥ — ٦١١ / ١١٩٩ — ١٢١٤) الذي أمر ببناء سور المدينة . وكان جده عبـد المؤمن قد هدمه سنة ٥٤٠ هـ كما ذكرنا ، وبنى على مقربة من باب الجيسة وفوقه باباً كبيراً سماه باب عجيسة (٢) .

ولم تزل الخطبة تقام في عـدوة القرويين حتى سنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٣ م) . حتى تقلد أمورها دوناس الزناتي . فلما مات بايع أهل عـدوة الأندلسيين ابنه الفتوح (وهو الأكبر) وحـكم ابنه الأصغر وعجيسة بعدوة القرويين . وكان لـكل من العدوتين جيش وبلاط . ثم قامت العـداوة بين الأخوين وتنافسا على الرياسة ، واشتعلت نار الحروب بين المدينتين ودارت رحى القتـال على ضفة النهر الـكبير بالمـكان الذي يعرف بكهف الوقادين بين العـدوتين . وقد دخل الفتوح صاحب

(١) ابن القاضي : جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس ، ص ٣٩٠ وما يليها .

(٢) وقد أسقط النـاس حرف العين وأدخلوا بدله حرف الألف واللام فقالوا باب الجيسة ، ولا يزال يعرف بهذا الاسم إلى الآن .

عدوة الأندلس على أخيه عجيسة فقتله واستولى على السلطة في العدوتين ثلاث سنين (١) .

وكان أهل عدوة الأندلس أهل نجدة وشدة وأكثرهم يشتغل بالزراعة ، وأهل عدوة القرويين أهل رفاهية ونخوة فى البناء واللباس ، وأكثرهم صناع وتجار ، ورجال عدوة القرويين أوسم وجوهاً من رجال عدوة الأندلس كما كانوا أجمل نساء .

وكانت أسواق فاس تحيط بجامع القرويين ، وكانت محلاتهم ملاصقة لسور الجامع وبعضها الآخر يقابل هذا السور .

وقد أشاد ابن أبي زرع (٢) بمزايا مدينة فاس على سائر مدن المغرب فقال : « وقد جمعت مدينة فاس بين عذوبة الماء ، واعتدال الهواء ، وطيب التربة ، وحسن الثمرة ، وسعة المحرث (٣) وعظيم بركته ، وقرب الحطب ، وكثرة عدده وشجره ، وبها منازل مؤنّقة ، وبساتين مُشرقة ورياض مورقة ، وأسواق مرتّبة منسقة ، وعيون منهمرة ، وأنهار متدفقة منحدرة ، وأشجار ملتفة ، وجنات دائرة بها محتفّة » .

وقد توافرت فى مدينة فاس المزايا التى يجب أن تتوافر فى المدن الجميلة فقال : وقالت الحكماء : أحسن مواضع المدن أن تجمع خمسة أشياء وهى . النهر الجارى والحرث الطيب ، والمحطب (بفتح الطاء) القريب ، والسور الحصين ، والسلطان ، إذ به صلاح حالها وأمن سبلها وكف جبابرتها . وقد جمعت مدينة فاس هذه الخصال التى هى كمال المدن وشرفها وزادت عليها بمحاسن كثيرة (٤) .

---

(١) ابن القاضى : نفس المصدر ، ابن أبى زرع : روض القرطاس ج ١ ص ٥٦ — ٥٧ .
(٢) روض القرطاس ج ١ ص ٤٢ .
(٣) أى الأرض الصالحة للحراثة . ومحرث كمجلس اسم مكان الحرث .
(٤) ابن أبى زرع : ج ١ ص ٤٢ .

الباب التاسع

الحالة الاجتماعية

١ — طبقات الشعب

(١) عند العباسيين :

يقصد بالحالة الاجتماعية فى بلد من البلاد ، ذكر طبقات المجتمع فى هذا البلد من حيث الجنس والدين ، وعلاقة كل من هذه الطبقات بعضها ببعض ، ثم بحث نظام الأسرة وحياة أفرادها وما يتمتع به كل منهم من الحرية ، ثم وصف البلاط ومجالس الخلفاء ، والأعياد ، والمواسم ، والولائم ، والحفلات ، وأماكن النزهة ، ووصف المنازل وما فيها من أثاث وطعام وشراب ولباس ، وما إلى ذلك من مظاهر المجتمع .

كان الخلفاء الأمويون يعتمدون على العنصر العربى الذى كان يكون السواد الأعظم من أفراد الشعب فى بلاد الشام . فلما ظهرت الدولة العباسية بمساعدة الفرس وتحول مركز هذه الدولة إلى بلاد العراق ، ساد العنصر الفارسى ، واعتمد الخلفاء العباسيون على الفرس دون العرب وأسندوا إليهم المناصب المدنية والعسكرية . ومن ثم قامت المنافسة بين العرب والفرس ، حتى جاء المعتصم — وكانت أمه تركية — فاعتمد على العنصر التركى واتخذهم حرساً له ، وأسند إليهم مناصب الدولة ، وقلدهم ولاية الأقاليم البعيدة عن مركز الخلافة ، بل أخرج العرب من ديوان العطاء وأحل محلهم الترك ، فحقد عليهم العرب والفرس جميعاً .

ولم يقتصر الصراع على ما كان بين العرب والفرس والترك ، بل تعداه إلى قيام المنافسة بين العنصر العربى نفسه : فاشتعلت نيران العصبية بين عرب الشمال المضريين ، وعرب الجنوب اليمنيين ، حتى إن نقل المنصور جنده إلى الكرخ

جنوبى بغداد ، كان نتيجة قيام روح العصبية بين بعض العرب وبعض .

ذكر الطبرى (١) أن قُثَم بن عباس دخل على المنصور ، وكان شيخاً ذا رأى وحزم ، فقال له المنصور : أما ترى يا قثم ما نحن فيه من التياث الجند علينا ؟ قد خفت أن تجتمع كلمتهم ، فيخرج هذا الأمر من أيدينا فما ترى ؟ قال يا أمير المؤمنين ! عندى رأى لو أظهرته لك فسد ، وإن تركتنى أمضيته ، صلحت لك خلافتك ، وهابك جندك ، فقال له : أفتمضى فى خلافتى أمراً لا تعلمنى ما هو ؟ فقال له : إن كنت عندك متهماً على دولتك فلا تشاورنى ، وإن كنت مأموناً عليها فدعنى أمضى رأيى فقال : فأمضه . فانصرف قثم إلى منزله ، فدعا غلاماً له فقال له : إذا كان غداً ، فتقدمنى ، فاجلس فى دار أمير المؤمنين . فإذا رأيتنى قد دخلت وتوسطت أصحاب الراتب فخذ بعنان بغلتى ، فاستوقفنى ، واستحلفنى بحق رسول الله ، وحق العباس ، وحق أمير المؤمنين ، لما وقفت لك وسمعت مسألتك وأجبتك عنها . فإنى سأنتهرك ، وأغلظ لك القول ، فلا يهولنك ذلك منى ، وعاودنى بالمسألة ، فإنى سأشتمك ، فلا يردعك ذلك ، وعاودنى بالقول والمسألة فإنى سأضربك بسوطى ، فلا يشق ذلك عليك ، فقل لى : أى الحيين أشرف اليمن أم مضر ؟ فإذا أجبتك فخل عنان بغلتى وأنت حر » . فغدا الغلام فجلس حيث أمره ، فلما جاء الشيخ ، فعل الغلام ما أمره به مولاه ، وفعل المولى ما كان قد قال له ثم قال له : قل ! فقال : أى الحيين أشرف : اليمن أم مضر ؟ فقال قثم ، مضر كان منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيها كتاب الله عز وجل ، وفيها بيت الله ، ومنها خليفة الله . فامتعضت اليمن ، إذ لم يذكر لها شىء من شرفها ، فقال له قائد من قواد اليمن : ليس الأمر كذلك مطلقاً بغير شرف ولا فضيلة لليمن ، ثم قال لغلامه : قم فخذ بعنان بغلة الشيخ ، فا كبحها كبحاً عنيفاً تطأ من به منه . ففعل الغلام ما أمره به مولاه حتى كاد أن يقيمها على عراقيبها ، فامتعضت من ذلك مضر فقالت : أيفعل هذا بشيخنا ؟ فأمر رجل منهم غلامه فقال . اقطع يده ،

---

(١) ج ٩ ص ٢٨١ - ٢٨٢ .

فنفر الحيان ، وصرف قثم بغلته ، فدخل على أبي جعفر ، وافترق الجند ، فصارت مضر فرقة ، واليمن ، والخراسانية فرقة ، وربيعة فرقة .

من ذلك ترى أن الشعب كان يتكون فى العصر العباسى الأول من العرب ، وعلى الأخص المضريين واليمنيين . ثم من الفرس ، وخاصة الخراسانيين الذين ساعدوا على قيام الدولة العباسية ، والترك ، وعلى الأخص منذ أيام المعتصم ، والمغاربة وغيرهم . وكان المسلمون ينقسمون إلى سنيين وشيعيين . ولم يخمد النزاع بينهم طوال العصر العباسى الأول ، بل تطور أطواراً مختلفة ، نراها فى الثورات التى أذكى نيرانها محمد النفس الزكية وأخوه إبراهيم فى عهد أبى جعفر المنصور ، والحسين بن على فى عهد الهادى ، ويحيى وإدريس ابنا عبد الله بن الحسن فى عهد هارون الرشيد .

ومن طبقات الشعب فى ذلك العصر أهل الذمة ، وهم النصارى واليهود ، وكانوا يتمتعون بكثير من ضروب التسامح الدينى ، حتى إننا نرى ببغداد كثيراً من الأديار ، نخص بالذكر منها دير العذارى ، وكان فى قطيعة النصارى على نهر الدجاج ، ودير درمايس الذى وصفه الشابشتى فى كتابه « الديارات » وكان به البساتين الكثيفة الأشجار ، ويقصده الناس للنزهة وانتشار الهواء ، ودير الروم شرقى بغداد ، الذى أشار أحد رهبانه على أبى جعفر المنصور ببناء مدينته فى هذا الموضع ، وكان خاصاً بالنسطوريين . وكان النصارى واليهود يقيمون شعائرهم الدينية فى أديارهم وبيعهم خارج مدينة بغداد فى أمن ودعة ، مما يدل على أن الخلفاء العباسيين كانوا على جانب عظيم من التسامح الدينى مع أهل الذمة .

وقد أوجدت الحاجة إلى المعيشة المشتركة وما ينبغى أن يكون فيها من وفاق بين المسلمين واليهود والنصارى نوعاً من التسامح ، ولم تتدخل الحكومة الإسلامية كذلك فى شعائر أهل الذمة ، بل كان يبلغ من تسامح بعض الخلفاء أن يحضر مواكبهم وأعيادهم ويأمر بصيانتهم .

وكانت الطوائف الدينية منفصلا بعضها عن بعض تمام الانفصال ، وكان لايجوز للمسيحى أن يتهود ولا لليهودى أن يتنصر ، واقتصر تغيير الدين على

الدخول فى الإسلام . ولم يكن النصرانى يرث اليهودى ولا اليهودى يرث النصرانى ، كما لم يكن اليهودى أو النصرانى يرث المسلم ، ولا المسلم يرث غير المسلم ، يهودياً كان أو نصرانياً . ولم يكن فى المدن الإسلامية أحياء مخصصة لليهود والنصارى بحيث لايتعدونها وإن كان أهل كل دين قد آثروا أن يعيشوا متقاربين .

وكان الشعب يتألف فى العصر العباسى الأول من أربعة عناصر رئيسية هى : العرب والفرس والأتراك والمغاربة . فلما قامت الدولة العباسية بمساعدة الفرس ، اعتمد الخلفاء عليهم وأهملوا العرب الذين نقموا على الفرس وأشعلوا نيران الثورات حتى قامت بين الأمين والمأمون هذه الفتنة التى كانت فى حقيقة الأمر انتصاراً للفرس على العرب . ولما ولى المعتصم الخلافة ، ظهر العنصر التركى على مسرح السياسة واتخذهم هذا الخليفة حرساً له ، وأسند إليهم مناصب الدولة ، وأقصى العرب من ديوان العطاء وأدى ظهور العنصر التركى إلى إخماد نار الخصومة بين الفرس والعرب حيناً وبين العلويين والعباسيين حيناً آخر ، لأن ذلك العنصر استأثر بالنفوذ دون الفريقين .

وإن الثورات التى أشعل نارها بابك الخرمى والمازيار والأفشين فى أواخر العصر العباسى الأول ، لتبين لنا مبلغ سخط الفرس على العرب والأتراك والمغاربة ، كما يظهر ذلك من قول الأفشين للمازيار يستحثه على مساعدته فى ثورته التى كانت ترمى إلى إعادة السلطان إلى الفرس . « فإن خالفت لم يكن للقوم من يرمونك به غيرى ، ومعى الفرسان وأهل النجدة والبأس . فإن وجهت إليك لم يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثة : العرب والمغاربة والأتراك ، والعربى بمنزلة الكلب ، أطرح له كسرة وأضرب رأسه بالدبوس ، وهؤلاء الذئاب ، يعنى المغاربة ، إنما هم أكلة رأس ، وأولاد الشياطين ، يعنى الأتراك ، فإنما هى ساعة حتى تنفذ سهامهم ، ثم تجول الخيل عليهم جولة فتأتى على آخرهم ، ويعود الدين إلى مالم يزل عليه أيام العجم » .

وكان الرقيق يكونون طبقة كبيرة من طبقات المجتمع الإسلامى فى العصر

العباسى الأول ، إذا كان اتخاذ الرقيق منتشراً انتشاراً كبيراً . وكانت سمرقند التى كانت تعد من أكبر أسواق الرقيق بيئة صالحة جداً لتربية الرقيق المجلوب من بلاد ماوراء النهر ، إذ كان أهلها يتخذون ذلك صناعة لهم يعيشون منها (١) . ولم ينظر الخلفاء العباسيون إلى الرقيق نظرة امتهان وازدراء ، بدليل أن كثيرين منهم كانت أمهاتهن من الرقيق . وقد أولع الخلفاء وكبار رجال الدولة باتخاذ الإماء من غير العرب ، حتى إنهم كانوا يفضلونهن أحياناً على العربيات الحرائر .

وقد أشاد الخطيب البغدادى (٢) بوصف أهل العراق مركز الخلافة العباسية وقلبها النابض فى العصر العباسى الأول فى هذه العبارة الشائقة ، وأطنب فى ذكائهم ومحاسنهم وأدبهم وخلقهم فقال : « إن العراق الذى بنيت فيه بغداد ، وهى صفوة الأرض ووسطها ، يحيط به ستة أقاليم هى بلاد الترك ، والهند ، والصين ، والشام ، والحجاز ، ومصر . لذلك أعتدلت ألوان أهله ، وامتدت أجسامهم ، وسلموا من شقرة الروم والصقالبة ، ومن سواد الحبش وسائر أجناس السودان ، ومن غلظة الترك ، ومن جفاء أهل الجبال وخراسان ، ومن دمامة أهل الصين ومن جانسهم وشا كل خلقهم ، فسلموا من ذلك كله . واجتمع فى أهل هذا القسم من الأرض محاسن جميع أهل الأقطار ، بلطف من العزيز القهار . وكما اعتدلوا فى الخلقة ، كذلك لطفوا فى الفطنة والتمسك بالعلم والأدب ومحاسن الأمور » .

(ب) فى مصر والأندلس :

ولما فتح العرب مصر أصبح فيها ثلاثة عناصر من السكان : القبط ، وهم أهل البلاد الأصليون ، وكانوا يكونون السواد الأعظم من السكان ، والروم ، وهم بقايا الحكم الرومانى الذى قضى عليه العرب . وكان الروم واليهود يكونون أقلية ضئيلة

---

(١) متز الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٢٦٨ .
(٢) تاريخ بغداد ج ١ ص ٢٢ — ٢٣ .

الدخول فى الإسلام . ولم يكن النصرانى يرث اليهودى ولا اليهودى يرث النصرانى ، كما لم يكن اليهودى أو النصرانى يرث المسلم ، ولا المسلم يرث غير المسلم ، يهودياً كان أو نصرانياً . ولم يكن فى المدن الإسلامية أحياء مخصصة لليهود والنصارى بحيث لايتعدونها وإن كان أهل كل دين قد آثروا أن يعيشوا متقاربين .

وكان الشعب يتألف فى العصر العباسى الأول من أربعة عناصر رئيسية هى : العرب والفرس والأتراك والمغاربة . فلما قامت الدولة العباسية بمساعدة الفرس ، اعتمد الخلفاء عليهم وأهملوا العرب الذين نقموا على الفرس وأشعلوا نيران الثورات حتى قامت بين الأمين والمأمون هذه الفتنة التى كانت فى حقيقة الأمر انتصاراً للفرس على العرب . ولما ولى المعتصم الخلافة ، ظهر العنصر التركى على مسرح السياسة واتخذهم هذا الخليفة حرساً له ، وأسند إليهم مناصب الدولة ، وأقصى العرب من ديوان العطاء وأدى ظهور العنصر التركى إلى إخماد نار الخصومة بين الفرس والعرب حيناً وبين العلويين والعباسيين حيناً آخر ، لأن ذلك العنصر استأثر بالنفوذ دون الفريقين .

وإن الثورات التى أشعل نارها بابك الخرمى والمازيار والأفشين فى أواخر العصر العباسى الأول ، لتبين لنا مبلغ سخط الفرس على العرب والأتراك والمغاربة ، كما يظهر ذلك من قول الأفشين للمازيار يستحثه على مساعدته فى ثورته التى كانت ترمى إلى إعادة السلطان إلى الفرس . « فإن خالفت لم يكن للقوم من يرمونك به غيرى ، ومعى الفرسان وأهل النجدة والبأس . فإن وجهت إليك لم يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثة : العرب والمغاربة والأتراك ، والعربى بمنزلة الكلب ، أطرح له كسرة وأضرب رأسه بالدبوس ، وهؤلاء الذباب ، يعنى المغاربة ، إنما هم أكلة رأس ، وأولاد الشياطين ، يعنى الأتراك ، فإنما هى ساعة حتى تنفد سهامهم ، ثم تجول الخيل عليهم جولة فتأتى على آخرهم ، ويعود الدين إلى مالم يزل عليه أيام العجم » .

وكان الرقيق يكونون طبقة كبيرة من طبقات المجتمع الإسلامى فى العصر

أما العرب فقد نزل كثير من القبائل الجنوبية أو اليمنيين والقبائل الشمالية أو المضريين وسكنوا فى أماكن كثيرة ، ونزل كثير من المضريين فى طليطلة وسرقسطة وإشبيلية وبلبسية وغيرهـا ، كما نزل اليمنيون فى غرناطة وقرطبة وإشبيلية ومرسية وبطليوس . وقام العرب فى الأندلس بدور هام فى تاريخ هـذه البـلاد وتدخلوا فى شئونها السياسة . وكان للنزاع بين هـذه القبائل أثر كبير فى إضعاف الحكم الإسلامى فى هـذه البـلاد . وكان لاعتماد عبد الرحمن الداخل على البربر واتخاذ جنوده منهم لعدم ثقته بالعرب ، أثر بعيد فى إضعاف الدولة الأموية فى هـذه البلاد ، واستغل المسيحيون هذه الفرصة لشن غاراتهم على المسلمين والعمل على استرداد بلادهم .

وعلى الرغم من أن البربر بقيادة طارق بن زياد أبلوا البلاء الحسن فى فتح بلاد الأندلس وتحملوا أكثر أعباء هـذا الفتح ، نرى العرب يحرمونهم ثمار فتوحهم وينزلونهم الأقاليم الجبلية الوعرة المجدبة فى الشمال ، حيث استهدفوا لخطر حملات المسيحيين الذين أقاموا فى الأماكن الحصينة ، على حين نعم العرب بالوديان الخصبة البعيدة عن خطر عصابات المسيحيين . ولهذا ثارت ثائرة البربر واستعرت حفائظهم على العرب(١) وأخـذوا يناصبونهم العداء كما كانوا يناصبون العرب والروم فى بلاد المغرب من قبل .

وفى الحق أن البربر كانوا إذا أنسوا من أمراء الأمويين وخلفائهم فى الأندلس قوة ، استـكانوا وآثروا العافية ، وعاشوا عيشة الهدوء والسكينة ، وإذا أنسوا من هؤلاء ضعفاً اتخذوا من ذلك فرصـة لشق عصا الطاعة ، فنراهم ينتهزون فرصة الاضطرابات فى عهد المنذر وعبد الله ابنى محمد الأول بن عبد الرحمن الأوسط ، ويستقلون فى أواخر القرن الثالث الهجرى بالولايات الغربية وجنوبى بلاد البرتغال ، ويحتلون بعض الأماكن الهامة فى الأندلس(٢) . ومن أشد هؤلاء البربر خطراً

---

(١) Lane—Poole, The Moors in Spain, pp, 53—55

(٢) ابن خلدون . العبر جـ ٤ ص ١٣٣ .

أسرة ذى النون التى دهمت الأندلس كلها — كما يقول ستانلى لينبول[1] — بالسيف والنار وعاثت فى جميع أرجائها .

ومن أهم طبقات المجتمع فى الأندلس : الصقالبة ، وكانوا من المماليك الذين كان تجار الإغريق والبنادقة يجلبونهم إلى بلاد الأندلس ويبيعونهم صغاراً ، فينشئون نشأة إسلامية ، وكانوا يسمون الخرس أيضاً لعجمتهم . وقد بلغت عدتهم خمسة آلاف . كما كانوا يجلبون من أسرى الحروب ، أو من هؤلاء الذين استولى عليهم القراصنة من السواحل الأوربية أو سواحل البحر الأبيض الغربية ويسمون « الحشم » . ويشبه هؤلاء الصقالبة الأتراك فى الدولة العباسية منذ عهد المعتصم .

وقد ذكر المقدسى[2] عند كلامه على الخدم السود والبيض ، أن البيض جنسان : « الصقالبة ، وبلدهم خلف خوارزم ، إلا أنهم يحملون إلى الأندلس فيخصون . ثم يخرجون إلى مصر والروم يقعون إلى الشام وأقور ، وقد انقطعوا بخراب الثغور » . وكان الصقالبة يكونون عنصراً هاماً من عناصر الجيش ويقيمون عادة بقرطبة . وقد اتخذهم الحكم الأول (١٨٠ — ٢٠٦ هـ) حرساً له ، ولم يلبث أن زاد نفوذهم وتفاقم شرهم .

٢ — مجالس الغناء والطرب

(ا) فى عهد العباسيين :

انغمس العباسيون فى الترف والبذخ بزيادة العمران وتدفق الثروة . وكانت قصور الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة مضرب المثل فى حسن رونقها وبهائها ، كما امتازت بفخامة بنائها واتساعها وما يكتنفها من حدائق غناء وأشجار متكاثفة . كما ازدانت بالمناضد الثمينة والزهريات الخزفية والتربيعات المرصعة

---

(١) The Moors in Spain, pp, 100–101

(٢) أحسن التقاسيم ص ٢٤٢ .

والمذهبة . وكان العباسيون ينفقون عن سعة فى سبيل رفاهيتهم ، ويعيشون عيشة قوامها البذخ والإسراف وحب الظهور . وحفلت قصور الخلفاء والأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة بالمغنين والموسيقيين ، كما كانت مجالس الخلفاء من آيات الروعة والجمال .

وقد أخـذ العباسيون نظام مجالسهم عن الفرس . وقد وصف الجاحظ فى كتابه « التاج فى أخلاق الملوك » فى باب المنادمة ، هذه المجالس فى عهد أردشير ابن بابك ، فقـال إنه كان أول « من رتب الندماء ، وأخـذ بزمام سياستهم وأنه جعلهم ثلاث طبقات (١) .

ولما قامت الدولة العبـاسية كان أبو العباس السفاح يظهر للندماء ، فى مجلسه ، ثم احتجب عنهـم ، كما كان يظهر سروره وابتهاجه لندمائه ومغنيه ويمنحهم العطايا والصلات ويقول : « العجب ممن يفرح إنساناً فيتعجـل السرور ، ويجعل ثواب من سره تسويفاً وعدة . فـكان فى كل يوم وليلة يقعد فيه لشغله لا ينصرف أحد ممن حضره إلا مسروراً » (٢) . ولم يظهر أبو جعفر المنصور لنديم قط ، ولم يره أحد يشرب غير المـاء ، كما كان لايثيب أحداً من ندمائه . وكان المهدى يسمع الغناء ، وكان أصحابه يشربون عنده النبيذ على الرغم من أنه لم يكن يشربه (٣) .

وقد احتجب المهـدى فى أول خـلافته عن الندماء عاماً كاملا تشبهاً بأبيه المنصور ، ثم ظهر لندمائه وأجزل لهم العطـايا والمنح . وكان الهادى يحب الغنـاء ويطرب له . وقد قرب إليه من المغنين ابن جامع الذى حذق فن الغناء ، وإبراهيم الموصلى الذى ضرب فى الغناء بسهم وافر ، والزبير بن دحمان والغنوى . وذكر الطبرى (٤) أن الهادى كان « يشتهى من الغناء الوسط الذى يقل ترجيعه ولا يبلغ

---

(١) انظر ما ذكرناه فى الجزء الأول من هذا الكتاب نقلا عن كتاب التاج فى أخلاق الملوك للجاحظ ص ٢٥ — ٢٦

(٢) الجاحظ . التاج فى أخلاق الملوك ص ٣٣ .

(٣) الفخرى ص ١٦٧ .

(٤) ج ١٠ ص ٤٦ .

أن يستخف بها جداً» . وكان إذا أعجبه الغناء وطرب قال لمغنيه «أحسنت أحسنت» ، ويكثر له العطاء حتى يبلغ أحياناً ألف ألف درهم .

وقد فاق هارون الرشيد الخلفاء العباسيين فى ولوعه بالغناء والموسيقى وإجزاله العطاء للمغنين والموسيقيين . وقد جعل للمغنين مراتب وطبقات على نحو ما وضعهم أردشير بن بابك وأنوشروان ، « فكان إبراهيم الموصلى و [إسماعيل أبو القاسم] ابن جامع وزلزل [منصور الضارب] فى الطبقة الأولى . وكان زلزل يضرب ، ويغنى هذان عليه » .

وفى عهد الرشيد نبغ من المغنين والموسيقيين . « وكان منصور زلزل من أحسن وأحذق من برأ الله بالجس . فكان إذا جس العود ، فلو سمعه الأحنف ومن تحالم فى دهره كله لم يملك نفسه حتى يطرب (١) . وكان يضرب المثل بزلزل فى حسن الضرب بالعود . واشتهر فى أيام المهدى والهادى والرشيد . وقد أنشأ فى بغداد بركة وقفها على المسلمين ، فاشتهرت باسمه . وأكثر الشعراء من ذكرها » .

وإذا أجاد أحد المغنين أو الموسيقيين ، أمر الخليفة بترقيته إلى الرتبة التى تعلو رتبته . ذكر الجاحظ (٢) أن برصوما الزامر أعجب الرشيد مرة ، وكان فى الطبقة الثانية ، « فطرب الرشيد يوماً لزمره ، فقال له صاحب الستارة يا إسحاق ! أزمر على غناء ابن جامع ، قال : لا أفعل ، قال : يقول لك أمير المؤمنين ولا تفعل ؟ قال : إن كنت أزمر على الطبقة العالية رفعت إليها ، فإما أن أكون فى الطبقة الثانية وأزمر على الأولى ، فلا أفعل ! فقال الرشيد لصاحب الستارة : ارفعه إلى الطبقة الأولى ، فإذا قمت فادفع البساط الذى فى مجلسهم إليه ، فرفع إسحاق إلى الطبقة العالية مأخذ البساط ، وكان يساوى ألفى دينار . فلما حمله إلى منزله استبشرت به أمه وأخواته . وكانت أمه نبطية لكناء ، فخرج برصوما عن منزله لبعض حوائجه ، وجاء نساء جيرانه يهنئن أمه بما خص به دون أصحابه ويدعون لها .

---

(١) الجاحظ : التاج فى أخلاق الملوك ص ٣٧ — ٣٨ ، ٣٩ .
(٢) المصدر نفسه ص ٤١ .

فأخذت سكيناً وجعلت تقطع لكل من دخل عليها قطعة من البساط ، حتى أتت على أكثره . فجاء برصوما فإذا البساط قد نقسم بالسكاكين فقال : ويلك ما صنعت ؟ قالت : لم أدر ، ظننت أنه كذا يقسم ، فحدث الرشيد بذلك فضحك ووهب له آخر » .

وممن نبغ فى الغنساء فى عهد الرشيد مسكين المدنى ، ويعرف بأبى صدقة . روى المسعودى (١) قصة هذا المغنى الذى وصف فيها حياته ، وكيف تبدلت حاله من حائك رقيق الحال إلى مغن رفيع القدر وكيف أخذ الغناء عن إحدى الجوارى ، وكيف كان لفن الغناء مكان ملحوظ بين الفنون فى العصر العباسى ، فقال :

« جمع الرشيد ذات يوم المغنين ، فلم يبق أحد من الرؤساء إلا حضر ، وكنت فيهم . وحضر معنا مسكين المدنى ، ويعرف بأبى صدقة ، وكان يوقع بالقضيب مطبوعاً حاذقاً ، طيب العشرة مليح البادرة . فاقترح الرشيد وقد عمل فيه النبيذ صوتاً ، فأمر صاحب الستارة ابن جامع أن يغنيه ففعل ، فلم يطرب عليه . ثم فعل مثل ذلك بجماعة ممن حضر فلم يحرك منه أحد . فقال صاحب الستارة لمسكين المدنى : يأمرك أمير المؤمنين إن كنت تحسن هذا الصوت فغنه ، قال إبراهيم : فاندفع فغناه فأمسكنا جميعاً متعجبين من جراءة مثله على الغناء بحضرتنا فى صوت قد قصرنا فيه عن مراد الخليفة . فلما فرغ منه سمعت الرشيد يقول : يا مسكين أعده ! فأعاده بقوة ونشاط ، فقال : أحسنت وأجملت ، ورفعت الستارة بيننا وبينه . قال مسكين : يا أمير المؤمنين ! إن لهذا الصوت خبراً ، قال : وما هو ؟ قال : كنت عبداً خياطاً لبعض آل الزبير ، وكان لمولاى علىّ ضريبة أدفع إليه كل يوم درهمين ، فإذا دفعت ضريبتى تصرفت فى حوائجى ، فخطت يوماً قميصاً لبعض الطالبين فدفع إلى درهمين وتغديت وسقانى أقداحاً ، فخرجت وأنا جذلان ، فلقيتنى سوداء على رقبتها جرة وهى تغنى هذا الصوت ، فأذهلنى عن كل مهم وأنسانى كل حاجة ، فقلت : بصاحب هذا القبر والمنبر ألا ألقيت على هذا الصوت ؟ فقالت : وحق صاحب هذا القبر

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٨ — ٢٧٩ .

والمنبر لا ألقيته عليـك إلا بدرهمين ، فأخرجت الدرهمين فدفعتهما إليها ، فأنزلت الجرة عن عاتقهـا واندفعت ، فما زالت تردد حتى كأنه مكتوب فى صدرى . ثم انصرفت إلى مولاى فقال لى : هلم خراجك ، فقلت : كان وكان ، فقال يا ابن اللخناء ، وبطحنى وضربنى وحلق لحيتى ورأسى . فبت يا أمير المؤمنـين من أسوأ خلق الله حالا وأنسيت الصوت مما نالنى . فلما أصبحت غدوت نحو الموضع الذى لقيتها فيه ، وبقيت متحيراً لا أعرف اسمها ولا منزلها ، إذ نظرت بها مقبلة فأنسيت كل ما نالنى ، وملت إليها فقالت : أنسيت الصوت ورب الـكعبة ؟ فقلت الأمر كما ذكرت ! وعرفتها ما مر بى من حلق الرأس واللحية فقالت : وحق القبر ومن فيه لافعلت إلا بدرهمين . فأخرجت جامى (مقصى) ورهنته على درهمين ، فدفعتهما إليها . فأنزلت الجرة عن رأسها واندفعت فمرت فيه ثم قالت : كأنى بك مكان الأربعة دراهم أربعة آلاف دينار ثم انصرفت إلى مولاى وجلا ، فقال : هلم خراجك ، فلويت لسانى ، فقال يا ابن اللخناء ! ألم يكفك ما مر عليك بالأمس ؟ فقلت : إنى أعرفك أنى اشتريت بخراجي أمس واليوم هذا الصوت ، واندفعت أغنيه ! فقال لى : ويحك ! معك مثل هذا الصوت ولم تعلمنى ، امرأته طالق لو كنت قلته أمس لأعتقتك . فضحك الرشيد وقال : ويلك ! ما أدرى أيما أحسن حـديثك أم غنـاؤك ؟ وقد أمرت لك بما ذكرته السوداء ، فقبضه وانصرف ، والشـعر :

قف بالمنـازل ساعةً فتأمـل   فلسوف أحمل للبـلى فى محمل

وكان الرشيد يقدر الندماء والمغنين والموسيقيين ، حتى إنه « لم يجتمع — كما يقول ابن طباطبا[1] على باب خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقراء والقضاة والـكتاب والندماء والمغنين ، ما اجتمع على باب الرشيد . وكان يصل كل واحد منهم أجزل صلة ويرفعه إلى أعلى درجة » .

ولا غرو فقـد ازدهرت الموسيقى فى العصر العباسى ، بفضل اهتمام الخلفاء

---

(١) الفخرى ص ١٧٧ — ١٨٧ .

والأمراء وكبار رجال الدولة الذين عملوا على رفع شأنها . وكثيراً ما كانت الأميرات وسيدات الطبقة الراقية فى بغداد يشتركن فى حفلات موسيقية خاصة[١] .

ومن أشهر المغنين الذين حظوا برضاء بعض الخلفاء العباسيين : إبراهيم الموصلى وابنه إسحاق ، وكانا من رجال الأدب ، إلا أن الغناء قد غلب عليهما بما وضعاه من الألحان . وقد أبدع إبراهيم الموصلى فى تنسيق الألحان حتى توهم أن الأرواح هى التى تعلمه الأصوات . ولم يكن إبراهيم الموصلى وحده متأثراً بهذا الشعور ، بل ورثه عنه ابنه إسحاق[٢] .

تعلم إبراهيم فن الغناء على رجل أخذ أصوات الغناء عن أهل الحجاز . وكان أول صوت أخذه عن أستاذه :

أرسلى بالسلام يا سَلم إنى ... مُنذْ علقتكم غنى فقير
فالغنى إن ملكت أمرك والفقـ ... ـر بأنى أزور من لا يزور
ويحَ نفسى! اسلوا لنفوس ونفسى ... فى هوى الريم ذكرها ما يجوز
من لنفسٍ تتوق أنتِ هواها ... وفؤادٍ يكاد فيك يطير ؟[٣]

وقد نبغ إبراهيم الموصلى فى فن الغناء ، وإليه يرجع الفضل فى تعليم الجوارى الغناء فى عصره . فقد روى صاحب الأغانى[٤] عن إسحاق بن إبراهيم قال : لم يكن الناس يعلمون الجارية الحسناء الغناء وإنما كانوا يعلمونه الصفر والعود . وأول من علم الجوارى الثمنات أبى ، فإنه بلغ بالقيان كل مبلغ ، ورفع من أقدارهن . وفيه يقول أبو عيينة ابن محمد بن أبى عيينة المهلبى ، وقد كان هوى جارية يقال لها أمان ، فأغلى بها مولاها السوم (القيمة) ، وجعل يرددها إلى إبراهيم وابنه إسحاق فتأخذ عنهما ، فكلما زادت فى الغناء زاد فى سومه .

وقد وصف إبراهيم الموصلى كيف كان يصوغ ألحانه فى هذه العبارة : أخرج

(١) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ٣٩١ — ٣٩٢ .
(٢) أنظر المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٧ — ٢٧٨ .
(٣) الأغانى ج ٥ ص ٢٠٢ .
(٤) المصدر نفسه ج ٥ ص ١٧٠ .

الهم من فكرى . وأمثل الطرب بين عينى ، فتسرع لى مسالك الألحان [التى أريد] ، فأسلكها بدليل الإيقاع ، فأرجع مصيباً ظافراً بما أريد » . ومن أغانيه :

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد ... لقد زادنى مسراك وجدا على وجد
أ إن هتفت ورقاء فى رونق الضحى ... على فنن غض النبات من الرند(١)
بكيت كما يبكى الحزين صبابة ... وذبت من الحزن المبرح والجهد
وقد زعموا أن المحب إذا دنا ... يمل وأن النأى يشفى من الوجد
بكل تداوينا فلم يشف ما بنا ... على أن قرب الدار خير من البعد(٢)

وكان البرامكة وآل الربيع يتمسكون بالغناء القديم ، على حين ترفع جماعة من العباسيين كإبراهيم بن المهدى وأخيه يعقوب وأختهما علية ، وعبد الله بن الهادى ، وعيسى بن الرشيد وغيرهم من تقييد غنائهم بما حفظ من أصوات المتقدمين .

وكانت مجالس الخلفاء العباسيين تزدان بمظاهر البذخ والروعة والبهاء ، فيتخذ الخليفة مكانه فى صدر الإيوان فى القصر ، وبين يديه مائة من صفوة الحرس فى أثواب زاهية ، ويقف حوله يمنة ويسرة كبار رجال الدولة والأعيان(٣) .

ولم تقتصر مجالس المنادمة والطرب على الخلفاء وحدهم ، بل جاراهم فى ذلك الأمراء والوزراء وسائر رجالات الدولة . فقد وصف ابن طباطبا(٤) مجلس جعفر ابن يحيى البرمكى حين كان يجلس للشراب ، ومعه ندماؤه الذين يأنس إليهم . وكانوا يلبسون « الثياب المصبغة ، وإذا جلسوا فى مجلس الشراب واللهو ، لبسوا الثياب الحمر والصفر والخضر . . . ثم جلسوا يشربون ، ودارت الكاسات وخفقت العيدان » .

ولم تكن هذه المجالس تخلو من النوادر والطرائف ، التى تملؤها بهجة

---

(١) الرند : بتشديد الراء وسكون النون شجر طيب الرائحة من شجر البادية .
(٢) الأغانى ج ٥ ص ٢٣٣ — ٢٣٤ .
(٣) سيد أمير على : كتاب مختصر تاريخ العرب ص ٣٨٧
(٤) الفخر ص ١٨٧ .

وسروراً . فقد روى صاحب الأغانى (١) أن الرشيد قال يوماً لجعفر بن يحيى : قد طال سماعنا هذه العصابة على اختلاط الأمر فيها ، فهلم أقاسمك إياها ، وأخايرك ، فاقتسما المغنين ، على أن جعلا بإزاء كل رجل نظيره. وكان ابن جامع فى حيز الرشيد ، وإبراهيم فى حيز جعفر بن يحيى . وحضر الندماء لمحنة المغنين (٢) ، وأمر الرشيد بن جامع فغنى صوتاً أحسن فيه كل الإحسان ، وطرب الرشيد غاية الطرب . فلما قطعه قال الرشيد لإبراهيم. هات يا إبراهيم هذا الصوت فغنه ، فقال : لا والله يا أمير المؤمنين ما أعرفه ، وظهر الانكسار فيه ، فقال الرشيد لجعفر : هذا واحد ، ثم قال لإسماعيل بن جامع : غن يا إسماعيل ! فغنى صوتاً ثانياً أحسن من الأول ، وأرضى فى كل حال . فلما استوفاه قال الرشيد لإبراهيم : هاته يا إبراهيم قال : ولا أعرف هذا ، فقال : هذان اثنان غن يا إسماعيل ، فغنى ثالثاً يتقدم الصوتين الأولين ويفضلهما . فلما أتى على آخره قال : هاته يا إبراهيم ، قال : ولاأعرف هذا أيضاً ، فقال له جعفر : أخزيتنا أخزاك الله !

وأتم ابن جامع يومه والرشيد مسرور به وأجازه بجوائز كثيرة ، وخلع عليه خلعاً فاخرة . ولم يزل إبراهيم منكسراً حتى انصرف . ولكن إبراهيم الموصلى تمكن من سرقة هذه الألحان التى لحنها ابن جامع عن طريق أحد أصدقائه ، ونال بذلك رضاء الرشيد ، مما يدل على حرص المغنين على الاحتفاظ بألحانهم ، حتى لا يتداولها سائر المغنين (٣) .

وكان الأمين يجتمع مع ندمائه فى مكان واحد ، وكان كثير الهبات والعطايا ، حتى فاق الخلفاء العباسيين قاطبة فى جوده وعطاياه لندمائه ومغنيه . ويقول إسحاق بن إبراهيم الموصلى : « لو كان بينه وبين ندمائه حجاب ، خرقها كلها وألقاها عن وجهه حتى يقعد حيث قعدوا » وكان من أعطى الخلق لذهب وفضة ، وأنهبهم للأموال إذا طرب لها . وقد رأيته وقد أمر بعض أهل بيته

(١) جـ ٥ ص ١٠٦ .

(٢) المحنة : الاختبار ؛ يقال : محنه إذا اختبره وجربه.

(٣) الأغانى جـ ١ ص ٢٠٦ — ٢٠٨

بوقر زورق ذهباً ، فانصرف به ، وأمر لى ذات ليلة بأربعين ألف دينار ، فحملت أمامى . ولقد غناه إبراهيم بن المهدى غناء لم أرتضه ، فقام عن مجلسه ، فأكب عليه فقبل رأسه ، فقام إبراهيم ما وطئت رجلاه من بساطه ، فأمر له بمائتى ألف دينار . ولقد رأيته يوماً وعلى رأسه بعض غلمانه ، فنظر إليه فقال : ثيابك هذه تحتاج إلى أن تغسل ، انطلق فخذ ثلاثين بدرة فاغتسل بها ثيابك » .

وقد وصف إبراهيم بن المهدى مجلس الأمين وما كان يحويه من أثاث ورياش وصفاً شائقاً ، وكيف حاول أن يتخذ من هـذا المجلس سبيلا إلى السلوى حين كان محاصراً ببغداد . وفى ذلك يقول المسعودي [1] : « وحدث إبراهيم بن المهدى قال : بعث إلىّ الأمين وهو محاصر ، فصرت إليه وهو جالس فى طارمة [2] ، خشبها من عود وصنـدل عشرة فى عشرة . وإذا سليمان بن أبى جعفر المنصور معه فى الطارمة ، وهى قبة كان اتخذ لها فراشاً مبطناً بأنواع الحرير والديباج المنسوج بالذهب الأحمر ، وغـير ذلك من أنواع الإبريسم فسلمت ، فإذا قدامه قدح بلور مخروز ، فيه شرابه ينفذ مقـداره خمسة أرطال . وبين يدى سليمان قدح مثله ، فجلست بإزاء سليمان ، فأتيت بقدح كالأول والثانى ، فقال : إنما بعثت إليـكما لما بلغنى قدوم طاهر بن الحسين إلى النهروان ، وما قد صنع فى أمرنا من المـكروه وقابلنا به من الإساءة ، فدعوتـكما لأفرج بكما وبحديثـكما فأقبلنا نحدثه ونؤنسه ، حتى سلا عما كان يجد ، وفرح ودعا بجارية من خواص جواريه تسمى ضعفاً ، قال : فتطيرت من اسمها ونحن على تلك الحال فقال لها : غنينا ! فوضعت العود فى حجرها وغنت .

كُلَيْبٌ لعمرى كان أكثرَ ناصراً وأكثرَ جرماً منك ضُرِّج بالدم

فتطير من قولهـا ثم قال لها : أسكتى قبحك الله ! ثم عاد إلى ما كان عليه من الإقطاب ، فأقبلنا نحدثه ونبسطه إلى أن سلا وضحك ، ثم أقبل عليها وقال : هات ما عندك ، فغنت .

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٠٠ — ٣٠١ .

(٢) الطارمة : مجلس يتخذ من الخشب وسط بستان للجلوس فيه والنزهة .

هم قتلوه كى يكونوا مكانَه   كما غَدَرَتْ يوماً بكسرى مرازِبُه

فأسكتها وزأرها ، وعاد إلى الحالة الأولى ، فسلبناه حتى عاد إلى الضحك ، فأقبل عليها الثالثة فقال : غنى فغنت :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا   أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا   صروف الليالى والجدود العواثر

وقيل بل إنها غنت :

أما وربِّ السكون والحرَكِ   إنَّ المنايا كثيرةُ الشرك

فقال لها : قومى عنى ، فعل الله بك وصنع بك ! فقامت فعثرت بالقدح الذى كان بين يديه فكسرته ، فانهرق الشراب . وكانت ليلة قمراء ، ونحن على شاطىء دجلة فى قصره المعروف بالخلد ، فسمعنا قائلا يقول : قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ، قال ابن المهدى : فقمت وقد وثب فسمعت منشداً من ناحية القصر ينشد هذين البيتين :

لا تعجبَنَّ من العَجَبْ   قد جاء مَا يقضى العجبْ
قد جاء أمرٌ فادحٌ   فيه لذى عَجبٍ عجب

قال : فما قمنا معه بعدها إلى أن قتل .

أما المأمون فقد امتنع عن سماع الغناء بعد قدومه بغداد سبع سنين ، ثم أخذ يسمعه من وراء حجاب كما كان يفعل أبوه الرشيد فى أول عهده بالخلافة . وظهر للندماء والمغنين ، ولم ينل إسحاق بن إبراهيم الموصلى تقدير المأمون أول الأمر ، حتى سأل عنه فأوقع به بعض خاصة الخليفة ورماه بالكبر والتية ، فلم يحفل به المأمون . ثم تمكن إسحاق الموصلى من إرسال بيتين غناهما زرزر أحد تلاميذه فى حضرة المأمون وهما :

يا سَرْحَةَ الماء[1] قد سُدَّتْ مواردُه   أما إليكِ طريقٌ غيرُ مسدود ؟

---

(١) الشجرة النابتة على الماء ، كناية عن المرأة . وأصل الكناية عن المرأة بالسرحة أن =

لحائم حام حتى لا حراك به محلأً عن سبيل الماء مطرود[١]

فلما غناه زرزر أطربه وأبهجه وحرك له جوارحه وقال : ويلك من هذا ؟ قال عبدك المجفو المطرح ياسيدى إسحاق . قال : يحضر الساعة ، فجاء رسوله ، وإسحاق مستعد قد علم أنه إن سمع الغناء من مجيد مؤد أنه سيبعث إليه ، فجاءه الرسول ، فحدثت أنه لما دخل عليه ودنا منه ، مد يده إليه ثم قال : أدن منى ! فأكب عليه واحتضنه المأمون وأدناه ، وأقبل عليه يوجهه مصغياً إليه ومسروراً به[٢] » .

وفى الحق أن إسحاق بن إبراهيم الموصلى قد أجاد فى وضع الألحان ، وكتب رسالة مطولة فى الغناء صحح فيها أنغامه وطرائفه ، واحتفظ بالغناء القديم ، وخالف بذلك أباه ومن ذهب مذهبه فى تغيير أصوات المتقدمين . ويقول صاحب الأغانى[٣] : وهو الذى صحح أجناس الغناء وطرائفه ، وميزه تمييزاً لم يقدر عليه أحد قبله ولا تعلق به أحد بعده » .

نبغ إسحاق فى العلم والأدب والرواية والشعر والغناء . قال صاحب الأغانى[٤] ولم يكن له فى هذا (أى الغناء) نظير ، فإنه لحق بمن مضى فيه ، وسبق من بقى ، ولحب[٥] الناس جميعاً طريقه ، فأوضحها ، وسهل عليه سبيله وأثارها . فهو إمام أهل صناعته جميعاً ، ورأسهم ومعلمهم . وكان المأمون يقول : لولا ما سبق على ألسنة الناس وشهر به عندهم من الغناء ، لوليته القضاء بحضرتى ، فإنه أولى به وأعف وأصدق ، وأكثر ديناً وأمانة من هؤلاء القضاة .

وكان إسحق يقدر العلم ويشجع العلماء ، وقد قيل إنه كان يعطى ابن الأعرابى فى كل سنة ثلثمائة دينار ، فاهدى له شيئاً من كتاب النوادر . ومر يوماً على دار

= عمر بن الخطاب لما أنذر الشعراء بالجلد إذا ما تشبثوا بالنساء ، قال أحد الشعراء فى قصيدة له :

ترانى إن عللت نفسى بسرحة من السرح موجود على طريق
أبى الله إلا أن سرحة مالك على كل سرحات العضاة تروق

(١) الجاحظ : كتاب التاج ص ٤٤ — ٤٥ .
(٢) الجاحظ ص ٤٤ — ٤٥ .
(٣) جـ ٥ ص ٢٦٩ .
(٤) جـ ٥ ص ٢٦٨ — ٢٦٩ .
(٥) لحب الطريق سلكه وأوضحه .

إسحاق فقال : هذه دار الذى نأخذ من ماله ومن أدبه . كما أشاد بفضله المدائنى المؤرخ المشهور صاحب كتاب المغازى فقال : إلى أين يا أبا عبد الله ؟ فقال : أمضى إلى رجل هو كما قال الشاعر :

تحمِلُ أشباحنا إلى ملكٍ   تأخذُ من ماله ومن أدبه[1]

ويقول ابن النديم [2] إن المدائنى مات فى دار إسحاق بن إبراهيم الموصلى — متقطعاً إليه — سنة ٢٢٥ هـ .

وقد غنى إسحاق الموصلى لهارون الرشيد وأبنائه الأمين والمأمون والمعتصم . ولما ولى المعتصم الخلافة ، وكان إسحاق الموصلى قد ناهز الستين من عمره ، فغناه قصيدة جاء فيها :

أنتم أهلُ الخلافة فينا   ولكمْ مِنْبَرُها والسَّريرُ

وقد أمر المعتصم لإسحاق الموصلى بجائزة سنية فضله بها على سائر الشعراء الذين هنئوه بالخلافة ، كما نال إعجابه بعد أن غناه قصيدة أخرى على أثر عودته من إحدى غزواته . وإليك بعض أبيات من هذه القصيدة التى يشيد فيها الموصلى بأبى إسحاق المعتصم ، وما أحرزه من نصر وظفر :

إلى ابن الرشيد إمام الهدى   بَعثْنا المَطِيَّ تجُوبُ الفَلا
إلى ملكٍ حلّ مِنْ هاشم   ذؤابةَ مجد مُنيف الذرى
كساه الإلهُ رداء الجمال   ونورَ الجلال وهَدْىَ التقى[3]

وكان الخليفة الواثق يتقن الغناء إتقاناً لم يسبق إليه خليفة ولا ابن خليفة . وقد وضع بعض الأصوات والأنغام الجديدة . يقول السيوطى [4] : وكان (الواثق) أعلم الخلفاء بالغناء ، وله أصوات وألحان عملها نحو مائة صوت ، وكان حاذقاً بضرب العود وراوية للأشعار والأخبار .

---

(١) الأغانى جـ ٥ ص ٢٧٤ .
(٢) الفهرست ص ١٤٧
(٣) الأغانى جـ ٥ ص ٣٢ — ٣٣ ، ٣٠٤ .
(٤) تاريخ الخلفاء ص ٢٢٧ — ٣٣٨ .

وكان الواثق يقدر غناء إسحاق الموصلي ويعجب به ، روى صاحب الأغاني أن الواثق لحن هذين البيتين وأمر الموصلي فغناهما ، فأعجب به وقال : «ما كان أغنانا أن نأمر إسحاق بالصنعة في هذا الشعر لأنه قد أفسد علينا لحننا» . وهاك هذين البيتين :

أيا مُنْشِر الموتى أقدني من التي ... بها نهلت نفسي سقاما وعلت

لقد بخلت حتى لو أني سألتها ... قذى العين من سافي التراب لضنت [1]

وكان إسحاق يصحب الخليفة الواثق في أسفاره . قصد مرة النجف [2] والصالحية ، فحن الموصلي إلى بغداد وإلى أولاده الصغار ، فوصف ذلك وصفا شائقاً وغناه في أبيات تدل على علو كعبه في الشعر والغناء :

يا راكبَ العيس لا تعجلْ بنا وقفْ ... نُحَيِّ داراً لِسُعدى ثم ننصرف

لم ينزل الناس في سهل ولا جبل ... أصفى هواء ولا أعذى [3] من النجف

حفت ببر وبحر من جوانبها ... فالبر في طرف والبحر في طرف

إذا ذَكَرتْ بغداد نفسي تقطَّعت ... من الشوق أو كادت تموت بها وجد [4]

(ب) في الأندلس :

وقد أولع أمويو الأندلس بالغناء والموسيقى وأجزلوا العطاء للمغنين والموسيقيين . وقد قيل إن علون (بفتح العين وبضم اللام مع التشديد) وزرقون (بضم الزاي وسكون الراء) أول من دخل هذه البلاد من المغنين في الحكم بن هشام (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) الذي اشتهر منصور اليهودي بالغناء في زمانه . وفي عهد عبدالرحمن الأوسط بن هشام (٢٠٦ — ٢٣٨ هـ) ، وفد على الأندلس أبو الحسن علي بن رافع الملقب بزرياب . وقد أطلق عليه هذا اللقب لسواد لون بشرته وفصاحة لسانه تشبيهاً له بطائر أسود الريش حسن الصوت . وقد روى المقري قصة هذا المغني والموسيقي المشهور ، وكيف تفوق على أستاذه إسحاق بن إبراهيم الموصلي المغني والموسيقي المشهور في بلاط بغداد .

---

(١) الأغاني جـ ٥ ص ٣٥٨ .

(٢) موضع بظهر الكوفة ، وبالقرب منه قبر علي بن أبي طالب .

(٣) أطيب هواء ، يقال : هذا المكان يعذو إذا طاب هواؤه .

(٤) الأغاني جـ ٦ ص ٣٥٦ — ٣٥٨ .

وقد دوّن أحمد بن محمد الرازى الذى كشف « پروفنسال[١] » أخيراً مخطوطه عن عهد الحكم الأول وعبد الرحمن الأوسط (والمقرى) [٢] قصة هذا المغنى ، وكيف أبدع فى فنه أيام الرشيد ، وكيف أثار حسد أستاذه إسحاق ، واضطر أن يرحل عن بغداد خوفاً على حياته ، وكيف رحل إلى قرطبة ، فقربه عبد الرحمن الأوسط إليه وأجزل له العطاء وأصبح لفن الغناء على يديه مكان ملحوظ بين الفنون فى هذه البلاد .

كان زرياب مولى الخليفة المهدى العباسى ، فارسى الأصل ، وكان شاعراً مطبوعاً وأديباً ملماً بعلم النجوم وأخلاق الشعوب وطبائعها وسير الملوك ، حافظاً لكثير من الحكم والأمثال ، كما كان فصيحاً حسن الصوت حلو الحديث . وقد امتاز منذ طفولته وتتلمذ على إسحاق الموصلى وتفوق عليه دون أن يشعر بذلك . وقد طلب هارون الرشيد من إسحاق أن يأتى له بمغن غريب حذق الغناء وإن لم يكن قد اشتهر فى هذا الفن ، فذكر له تلميذه زرياب ، فلما مثل بين يدى الرشيد سأله عن معرفته بالغناء فقال : « نعم ! أحسن منه ما يحسنه الناس ، وأكثر ما أحسنه لا يحسنونه مما لا يحسن إلا عندك ولا يدخر إلا لك . فإن أذنت غنيتك ما لم تسمعه أذن قبلك ، فأمر بإحضار عود أستاذه إسحاق . فلما أدنى إليه وقف عن تناوله وقال : لى عود نحته بيدى وأرهفته إحكامى لا أرتضى غيره ، وهو بالباب . فليأذن لى أمير المؤمنين فى استدعائه . فأمر بإدخاله إليه . فلما تأمله الرشيد وكان شبيهاً بالعود الذى دفعه ، قال له : ما منعك أن تستعمل عود أستاذك ؟ فقال : إن كان مولاى يرغب فى غناء أستاذى غنيته بعوده ، وإن كان يرغب فى غنائى فلا بد لى من عودى ، فقال له : ما أراهما إلا واحداً ، فقال : صدقت يا مولاى ؟ لا يؤدى النظر غير ذلك . ولكن عودى . وإن كان فى قدر جسم عوده ومن جنس خشبه . فهو

---

(١) الشرق الإسلامى والحضارة العربية ص ٢٠ — ٢٤

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٧٥٠ — ٧٥١

يقع من وزنه فى الثالث أو نحوه ، وأوتارى من حرير لم يغزل بماء سخن يكسبها أناثه ورخاوة وبهاء ، ومثلها اتخذتهما من مصران شبل أسد ، فلها فى الترنم والصفاء والجهارة والحدة أضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان » ثم غنى :

يا أيها الملكُ الميمونُ طائره   هارون راح إليك الناس وابتكروا

وطار الرشيد طرباً وقال لإسحاق : والله لولا أنى أعلم من صدقك لى على كتمانه إياك لما عنده وتصديقه لك من أنك لم تسمعه قبل ، لأنزلت بك العقوبة لتركك إعلامى بشأنه . فخذه إليك واعتن بشأنه حتى أفرغ فإن لى فيه نظراً . فسقط فى يد إسحاق وهاج به من داء الحسد ما غلب على صبره ، فخلا بزرياب وقال : يا على ! إن الحسد أقدم الأدواء وأدواها ، والدنيا فتانة والشركة فى الصناعة عداوة . . . فخذ الآن حذرك ، والله لا أبقى عليك ولا أدع اغتيالك ، باذلا فى ذلك بدنى ومالى . . . فخرج زرياب لوقته فرحل عنه يبغى مغرب الشمس واستراح قلب إسحاق منه . وتذكره الرشيد بعد فراغه من شغل كان منغمساً ، فيه فأمر إسحاق بحضوره ، فقال : ومن لى به يا أمير المؤمنين ؟ ذاك غلام مجنون يزعم أن الجن تكلمه وتطارحه ما يزهى به عن غنائه ، فما يرى فى الدنيا من يعدله ، وما هو إلا أن أبطأت عليه جائزة أمير المؤمنين وترك استعادته ، فقدر التقصير به والتهوين بصناعته ، فرحل مغاضباً ذاهباً على وجهه مستخفياً عنى . وقد صنع الله تعالى فى ذلك لأمير المؤمنين ، فإنه كان به لمم يغشاه . . . فسكن الرشيد إلى قول إسحاق وقال : على ما كان به فقد فاتنا منه سرور كثير » .

اختار زرياب الرحيل إلى المغرب وقضى وقتاً قصيراً فى بلاط زيادة الله الأول الأغلبى أمير القيروان ، حتى دعاه الحكم الأول بعد أن اتصل به خبر مهارته : سار زرياب وأولاده ونزلوا من البحر فى ميناء الجزيرة . لكنه علم بوفاة الحكم وتولية ابنه عبد الرحمن الأوسط (سنة ٢٠٦ هـ) الذى أسرع فأرسل إلى زرياب ينبئه بأنه منذ وعد أبيه إليه ، وكتب إلى عماله أن يحسنوا استقباله ويسهلوا له طريق الوصول إلى قرطبة ، وأنزله فى دار فخمة . ثم استقبله بعد أن

أستراح من عناء السفر ، وبالغ فى إكرامه وقرر له راتباً شهرياً قدره مائة دينار ، ولكل من أولاده الأربعة عشرون ديناراً . وأغدق عليه وعلى أولاده الأرزاق ، فأجرى عليه ثلاثة آلاف دينار فى كل سنة : ألف لكل من عيدى الفطر والأضحى ، وخمسمائة لكل من عيدى النوروز والمهرجان ، عدا ماخصص له من الشعير والقمح ، وما وهب من الضياع والدور والبساتين التى قدرت بأربعين ألف دينار .

ولما سمع عبد الرحمن غناء زرياب أعجب بمواهبه ، وقدمه على جميع المغنين . وزاد إعجاب هذا الأمير به ، حتى إنه كان يجلسه إلى جانبه ، ويستمع إلى غنائه ، وإلى مايقص عليه من أحوال الملوك وسير الخلفاء ونوادر العلماء . ولم يلبث أن ملك زرياب قلب عبد الرحمن ، حتى إنه أمر بأن يفتح له باب خاص يستدعيه منه متى أراد (١) .

وسرعان مافرض زرياب نفسه على المجتمع القرطبى بفضل فنه وثرائه الذى أثار دوياً فى العالم الإسلامى الشرقى ، حتى إن أحد الموسيقيين فى بغداد أعرب عن خيبة أمله بقوله ، إنه بينما يسير زرياب فى قرطبة فى كوكبة من الفرسان وملك ثلاثين ألف دينار من الذهب ، صار يؤدى سوء حظه إلى أن يموت من الجوع . أبدع زرياب فى تنسيق الألحان ، حتى توهم أن الجن هى التى تعلمه الأصوات . ولا غرو فقد ورث هذا الشعور عن أستاذه إسحاق الموصلى الذى ورثه عن أبيه . وكان زرياب « يهب من نومه سريعاً فيدعوا بجاريتيه غزلان وهنيدة ، فيأخذان عودها ، ويأخذ هو عوده فيطارحهما ليلته ، ثم يكتب الشعر ، ثم يعود عجلان إلى مضجعه (٢) . كما زاد زرياب على العود وتراً خاصاً ، واتخذ مضرب العود

---

(١) المقرى : نفح الطيب ج٢ ص ٧٥٠ — ٧٥١ .
(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٧٥١ .

من قوادم النسر بدل الخشب (١) . وقد أثر عنه أنه كان يحفظ عشرة آلاف مقطوعة من الأغاني بألحانها ، مقتدياً فى ذلك ببطليموس الذى ابتدع هذه العلوم .

وقد ازدهرت الموسيقى والغناء فى بلاد الأندلس فى عهد عبد الرحمن الأوسط ، الذى كان — كما يقول المقرى (٢) — مولعاً بالغناء مؤثراً له على جميع لذاته . وقد أورث زرياب صناعة الغناء بالأندلس كما يقول ابن خلدون (٣) . وكانت له طريقة غريبة مع المبتدئين من تلاميذه ، « فيبدأ بالنشيد أول شدوه بأى نقر كان ، ويأتى إثره بالبسيط ويختم بالمحركات والإهزاج تبعاً لمراسم زرياب » .

وكان زرياب إذا أراد أن يعلم تلميذاً أمره بالقعود على الوسادة المدورة المعروفة بالمسورة ، وأن يشد صوته إذا كان قوى الصوت . فإن كان لينه أمره أن يشد على بطنه عمامة ، لأن ذلك يقوى الصوت فلا يجد متسعاً فى الجوف عند الخروج على الفم . فإن كان ألص الأضراس لايقدر على أن يفتح فاه ، أو كانت عادته أن يزم أسنانه عند النطق ، راضه بأن يدخل فى فيه قطعة خشب عرضها ثلاث أصابع ، يبيتها فى فمه ليالى حتى ينفرج فكاه . وإذا أراد أن يختبر المطبوع الصوت المراد تعليمه من غير المطبوع أمره أن يصيح بأقوى صوته . ياحجام ، أو يصيح : آه ، ويمد صوته ، فإن سمع صوته صافياً ندياً قوياً ، لايعتريه غنة ولا حبسة ولا ضيق نفس ، أشار بتعليمه ، وإن وجده غير ذلك أبعده (٤) .

ورث زرياب فى الأدب والغناء أولاده ، وكانوا ثمانية ذكور وبنتان هما علية وحمدونة . وقد تعلموا الغناء ومارسوا صناعته . وكان عبيد الله أعلاهم قدراً ، ثم يليه عبد الرحمن ، لكنه كان شديد الزهو بنفسه والعجب بغنائه والإستخفاف بالعظماء حتى أثار سخطهم عليه وكراهتهم له . وكذلك تفوقت حمدونة فى فن

---

(١) المقرى ج ٢ ص ٧٥٠ .
(٢) نفح الطيب ج ١ ص ١٦٥ .
(٣) العبر ج ٣ ص ١٢٧ .
(٤) المقرى . نفح الطيب ج ٢ ص ٧٥٢

الغناء على أختها علية التى تزوجت من الوزير هشام بن عبد العزيز ، وتقدمت بها السن حتى لم يبق من بيت زرياب غيرها وأخذ عنها فن الغناء .

وإلى زرياب يرجع الفضل فى تعليم الجوارى الغناء فى عصره . وكانت له جوارى أدبهن وعلمهن الغناء والعزف على العود . ومن هؤلاء غزلان وهنيدة ، ومنفعة التى اشتهرت بفرط جمالها . وقد أعجب بها عبد الرحمن الأوسط ، فأهداها زرياب إليه ، فحظيت عنده (١) .

ولم يكن زرياب مغنياً وموسيقياً فحسب ، بل كان شاعراً مطبوعاً وأديباً ظريفاً وعالماً بالنجوم . وكان فى زيه مثالا يحتذيه أهل بلاد الأندلس فى ملابس الفصول المختلفة ، كما أدخل فى الطعام ألواناً جديدة . وقد بلغ الذروة فى الجاه والثروة ، ونال الحظوة التامة عند عبد الرحمن الثانى ، وبذ الناس فى تهذيبه وفكاهته ، وأصبح أشهر رجال الأندلس ، « وتحكم فى الأزياء والعادات كما كان يتحكم فيها بيترونيس Petronius وبروميل الوسيم Bean Brummel (٢) .

وكان نيترونيس كاتباً قصصياً ورومانياً ، اشتهرت كتابته بالتبكيت والسخرية المستورة ، وأعجب به نيرون ووصله بحاشيته . واشتهر جورج برومل بابتداع الأزياء ومات فى سنة ١٨٤٠ م .

وصفوة القول أن زرياب بلغ من الشهرة درجة عظيمة حتى إنه كان يركب فى مائة غلام (٣) .

٣ — قصور الخلفاء والأمراء والوزراء :

يعتبر المنزل وما فيه من سكان وما يقدم من طعام وشراب وما تقام فيه من حفلات ، وما يرتديه سكانه من ملابس ، من أهم مظاهر الحياة الاجتماعية . وقد تأثر العباسيون فى منازلهم بالأساليب الفارسية خاصة . ولا عجب فإنهم مالوا إلى

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٧٥٣ — ٧٥٤ .

(٢) L. Poole, The Moors in Spain, p. 82.

(٣) الأغانى ج ٤ ص ٣٥٤ ؛ أنظر ماذكره بروفنسال عن أحمد بن محمد الرازى فى مخطوطه عن عهد الحكم بن هشام وعبدالرحمن الأوسط فى الأندلس . منشورات معهد الجنرال فرانكو للابحاث العربية الأسبانية (تطوان) ١٩٥١ ص ٢٠ — ٢٤ .

الفرس ، فأسندوا إليهم مناصب الدولة واقتبسوا عنهم نظم الحكم ، واقتدوا بهم فى مظاهر البلاط ، وفى الاحتفال بالأعياد والمراسم وغير ذلك .

وقد اتخذت دور بغداد على مثال دور الفرس ودور الروم التى بنوها فى بلاد الشام ، وكانت مبنية بالآجر ومغطاة بالكلس . وتنقسم دور الأغنياء ثلاثة أقسام هى : مقاصير الحرم ، وحجرات الخدم ، ومجالس السلام الخاصة بالضيافة ، ويحيط بها حدائق غناء تزرع فيها الفاكهة والرياحين . وحليت جدرانها وسقوفها بالفسيفساء المذهبة والرسوم الملونة ، كما كانوا يزينون أسطح دورهم بالقباب المرفوعة على عمد دقيقة تظهر للعين كأنها معلقة فى الفضاء ، ويحيط بكل دار سور واحد . أما دور العامة فلم يكن لها أسوار تحيط بها ، وإنما كانت نوافذها تطل على الشوارع ، حتى إن المار ليستطيع أن يرى من بداخلها (١) .

وقد ساد الترف العباسيين بازدياد العمران . فكانت العمائر ببغداد وغيرها من أمهات المدن مؤلفة من عدة طبقات ، كما كانت غرفها تزدان بالمناضد الثمينة والزهريات الخزفية ، المرصعات والمذهبات التى بلغت حد الإتقان . ويقول نخلة المدور (٢) إن أهل بغداد كانوا يزينون مجالسهم بالفرش الفاخر والمتاع الثمين ، ويلبسون حيطانها بالوشى والديباج ، ويعنون بغرس الأزهار فى جناتهم ، حتى إنهم كانوا يجلبون لها الرياحين من بلاد الهند ، فيصير من هذه الجنان مايقوم ثمن البستان الواحد منها بعشرة آلاف دينار ، ويتخذون غلمانهم من أظرف الناس وأخفهم نشاطاً ، ويميلون إلى اللهو والطرب نتيجة إقبالهم على اقتناء القيان ، ويتفننون فى ملاذ الطعام إلى حد أنهم كانوا يشترون الصيد فى غير أوانه ، والثمار فى غير إبانها بما يزن مثله فضة ، ويتخذون مقاعدهم فى أوان الحر بين الماء المتدفق من صور السباع وأشكال الطيور وأشكال التفاحات وغيرها مما ينقشون فى الرخام فإذا ماأصابت الأجساد منها الرطوبة الواقية بترويح النفس ، واتخذوا فى السقوف مراوح يعملون لها مراوح تجرها فيجذبونها فيهب عليهم النسيم البارد ، ويستجيدون

---

(١) حضارة الاسلام فى دار السلام ص ٢٥ — ٢٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ٩٩ .

في اللباس والزينة ، وركوب الخيل بالديباج والحلية الثقيلة من الفضة إلى الغاية التي لم تبلغها الأمم المترفة من قبلهم .

وكانت قصور الخلفاء تشتمل على دور واسعة وقباب وأروقة وبساتين ومسطحات مظللة بالأشجار ، وكانت الأروقة تسمى بالأربعيني أو الستيني ، على قدر الغلمان ، أو يجتمعون في كل منها . ومن هذه القصور : قصر الذهب الذي بناه أبو جعفر المنصور في وسط بغداد ، وقصر الخلد الذي بناه على شاطىء دجلة الغربي تجاه باب خراسان ، وتأنق في بنائه وتجميله حتى سمي « الخلد » تشبيهاً له بجنة الخلد . وبنيت حوله المنازل فأصبح القصر وما حواليه يعرف بالخلد [١] .

وكان بهذا القصر قباب بديعة الشكل وبأبوابه مسامير من الذهب والفضة ، كما تخللته العمد الكثيرة الضخمة التي عني المنصور بتزيينها بالصور والرسوم . وفي هذا القصر العرش — ويسمى « مجلس الأمير » — وقد فرش بالرخام المجزع يتوسطه قضبان من الذهب ، وفرش بالديباج والبسط التي نقشت عليها أبيات من الشعر في مدح الخليفة ، وفيه كراسي مرصعة باللؤلؤ يجلس عليها كبار رجال الدولة ، وفي صدر هذا المجلس يجلس الخليفة في قبة مفروشة بأفخر أنواع الحرير المنسوج بالذهب .

وقد بنى الرشيد على دجلة قصراً تأنق في تجميله وزينه بأفخر أنواع الزينة وأقام فيه أساطين الرخام . وكان أشبه بإحدى المناظر التي كان يجلس فيها الخلفاء الفاطميون للنزهة وتبديل الهواء ، فكان يجلس إلى الشباك يستمع إلى غناء الملاحين .

وبنى الخليفة الواثق في مدينة سامرا عدة قصور منها قصر الهاروني . وقد وصف الطبري [٢] أحد أروقته ويسمى الرواق الأوسط ، فقال : « كان في أحد شقي ذلك الرواق قبة مرتفعة في السماء كأنها بيضة قدر ذراع فيما ترى العين حولها

---

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٥ .
(٢) ج ١١ ص ١٠٠ .

وفى وسطها ساج منقوش مغشى باللازورد والذهب . وكانت تسمى قبة المنطقة ، وكان ذلك الرواق يسمى رواق قبة المنطقة » .

كذلك كانت قصور الأمراء ورجال الدولة تكتنفها الحدائق الغناء ، كما امتازت أيضاً بفخامة بنائها واتساعها . ومن أحسن الأمثلة على ذلك قصر عيسى بن عبد الله ابن العباس عند مصب نهر الرفيل المتفرع من دجلة . فقد ذكر ياقوت أن أبا جعفر المنصور زار عمه عيسى بن على بن عبد الله فى أربعة آلاف رجل ، فوسعهم هذا القصر . ولما أراد المنصور الانصراف قال لمضيفه : « يا أبا العباس ! لى حاجة ! قال : ماهى يا أمير المؤمنين ؟ فأمرك طاعة ؟ قال : تهب لى هذا القصر ، قال : مابى ضن عنك به ، لكنى أكره أن يقول الناس إن أمير المؤمنين زار عمه فأخرجه من قصره وشرد عياله . وبعد : فإن فيه من حرم أمير المؤمنين ومواليه أربعة آلاف نفس . فإن لم يكن بد من أخذه ، فليأمر لى أمير المؤمنين بفضاء يسعنى ويسعهم أضرب فيه مضارب وخيما أنقلهم إليها إلى أن أبنى لهم مايواريهم . فقال له المنصور : عمر الله بك منزلك ياعم وبارك لك فيه ، ثم نهض وانصرف .

وكان البرامكة يعنون ببناء قصورهم ويتأنقون بتجميلها وتأثيثها حتى تبقى على مر الزمن شاهدة بمآثرهم ناطقة بذكراهم . فقد روى الجهشيارى أن يحيى بن خالد البرمكى قال لولديه الفضل وجعفر . « لاشىء أبقى ذكراً من البناء ، فاتخذوا منه مايبقى لكم ذكراً . فاتخذ جعفر قصره وكذلك الفضل » . قال جعفر يصف قصره لأبى الفضل عمرو بن مسعدة ، وقد سار بحذائه : « يا أبا الفضل ! والله إنى لأعلم أنه من بناء مثلى ، ولكن قلت : إن بقى لى فهو قصر جعفر ، وإن شره السلطان فى وقت من الأوقات فهو قصر جعفر ، وإن مضت عليه الأيام فهو قصر جعفر ، ويبقى اسمه وذكره ، ولعله أن يمر به من لا عنده إحسان فيترحم علينا » .

عاش البرامكة عيشة قوامها البذخ والإسراف وحب الظهور ، وأغدقوا الأموال على الشعراء والعلماء ، ولم يردوا قاصداً . قيل إن جعفراً البرمكى أنفق على بناء داره عشرين ألف ألف درهم ، وهو — كما يبدو — مبلغ لايقل عن مليون وثلثمائة ألف

دينار غير ما يحتاج إليه هذا البناء من أثاث ورياش وخدم وحشم ، وما إلى ذلك من أسباب البذخ وألوان الترف .

وبنى محمد بن سليمان قصره بالبصرة . وقد وصفه أحد زواره فقال : بنيت أجل بناء بأطيب فناء وأوسع فضاء ، وأرق هواء ، على أحسن ماء ، بين صوارى وحسان وظباء فقال محمد : بناء كلامك أحسن من بنائنا » (١) .

وقد خلف محمد بن سليمان كثيراً من الفرس الرقيق ، والدواب من الخيل والإبل ، والطيب والجوهر ، كما ترك ستين ألف ألف درهم ، غير ما خلفه من الضياع ، كما أخرج من خزائنه ما كان يهدى إليه من طرائف السند ومكران وكرمان وفارس والأهواز واليمامة والرى وعمان (٢) .

وكان العباسيون يقلدون الفرس فى تخفيف حرارة الشمس فى الصيف ، فيعملون لبيوتهم سقفاً من الطين يجددونها فى كل يوم يقضى الخليفة القيلولة فيه . « وكان يؤتى بأطنان القصب والخلاف طوالا غلاظاً فترصف حول البيت ، ويؤتى بقطع الثلج العظام فتجعل ما بين أضعافها . وكانت بنو أمية تفعل ذلك (أيضاً) . . . وذكر بعضهم أن المنصور كان يطين له فى أول خلافته بيبت فى الصيف يقيل فيه فاتخذ له أيوب الخوزى ثياباً كثيفة تبل وتوضع على سبائك ، فيجد بردها فاستطابها ، وقال : ما أحسب هذه الثياب إن اتخذت أكثف من هذه إلا حملت من الماء أكثر مما تحمل . وكانت أبرد ، فاتخذ له الخيش ، فكان ينصب على قبة ، اتخذ الخلفاء بعده الشرائح واتخذها الناس (٣) .

وقد عنى الخلفاء العباسيون عناية كبيرة بتنظيم بغداد ونظافة شوارعها وطرقها فكانت الرحاب تكنس كل يوم ويحمل التراب خارج المدينة . وقد رأى المنصور أن وصول الروايا على ظهور البغال إلى قصره لا يتفق وأبهة مدينته . لذلك أمر بتوصيل الماء إليه من نهر دجلة .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ٢ ص ٢٠٦٤

(٢) الطبرى : ج ١٠ ٥١ — ٥٢ .

(٣) المصدر نفسه ج٩ ص ٣٠٦ .

ولم تكن قصور الأمويين بالأندلس بأقل روعة وبهاء من قصور العباسيين ، فقد اشتهرت قرطبة وغيرها من مدن الأندلس بقصورها الفخمة . وقد ذكرنا من قبل أن أمراء الأمويين فى الأندلس بعد عبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن الأوسط ، شيدوا قصوراً فخمة كالمجلس الزاهر ، والبهو الكامل ، والقصر المنيف ، وقصر الدمشق .

٤ — الطعام :

عنى العباسيون بتنويع الطعام ، وكان أبو جعفر المنصور يكثر منه ولا يعمل بنصح الأطباء ، حتى كان ذلك من أسباب ضعف صحته ووفاته . وقد حفلت مائدة الرشيد بألوان الطعام ، حتى قيل إن الطهاة كانوا يطهون ثلاثين لوناً فى اليوم ، وإنه كان ينفق على طعامه عشرة آلاف درهم فى اليوم . ولما تزوج من زبيدة بنت جعفر ، أقيمت فى قصره وليمة أنفق عليها خمسة وخمسين ألف ألف درهم .

ولم يقتصر إسراف العباسيين فى الطعام على الخلفاء وحدهم ، بل تعداهم إلى الأمراء وكبار رجال الدولة . فقد ذكر ياقوت (١) أن أبا جعفر المنصور لما زار عمه عيسى ابن على فى أربعة آلاف قدم لهم من ألوان الطعام : الخبز ولحم الجدى والدجاج والبيض واللحم البارد والحلوى على نحو ما نراه فى ولائمنا اليوم . وقد بلغ من تفننهم فى الطهى وإسرافهم فى الإنفاق عليه ، أن بعضهم كان يشتري مقادير كبيرة من السمك لتقديم ألسنته على المائدة ، كلون من ألوان الطعام الشهية الكثيرة التى كانت تزخر بها موائدهم .

روى المسعودى (٢) ، أن إبراهيم بن المهدى قال : استزرت الرشيد بالرقة فزارنى ، وكان يأكل الطعام الحار قبل البارد . فلما وضعت البوارد ، رأى فيما قرب إليه منها جام قريض سمك ، فاستصغر القطع وقال لما صغر طباخك تقطيع السمك ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ! هذه ألسنة السمك ، قال فيشبه أن يكون

---

(١) انظر قصر عيسى بن على فى معظم البلدان لياقوت ، والمسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٩ — ٢٨٠

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٩ — ٢٨٠

فى هذا الجام مائة لسان ، فقال مراقب خادمه : يا أمير المؤمنين ! فيها أكثر من مائة وخمسين ، فاستحلفه عن مبلغ ثمن السمك ، فأخبره أنه قام بأكثر من ألف درهم فرفع الرشيد يده وحلف أن لا يطعم شيئاً دون أن تحضره مراقب ، ألف درهم . فلما حضر المال أمر أن يتصدق به وقال : أرجو أن يكون كفارة لسرفك فى إنفاقك على جام سمك ألف درهم .

وقد بلغت نفقة المأمون فى اليوم ستة آلاف دينار ، كان ينفق منها مبلغاً كبيراً على مطابخه (١) .

وكان أهل بغداد يتفننون فى الطعام ويسرفون فى اجتلاب ألوانه فى غير مواعيدها ، من صيد وفاكهة وخضروات ، حتى كانوا يزنون هذه الأطعمة أحياناً بما يعادلها فى الوزن من الفضة كما تقدم . كما كانوا يجلبون ألوان الطعام مثل السمك والحبوب والجبن وما إلى ذلك من البلاد الأخرى كفارس وعمان والهند (٢) .

وعلى الرغم من أن الخلفاء العباسيين قد يشربون النبيذ ، لم يسمح كثير منهم بتناوله على موائدهم . فقد ذكر الطبرى أن بختيشوع الطبيب لما قدم على أبى جعفر المنصور « من السوس ودخل عليه فى عصره بباب الذهب ببغداد ، أمر له بطعام يتغذى به . فلما وضعت المائدة بين يديه قال : شراب ، فأخبر المنصور بذلك فقال : دعوه . فلما حضر العشاء فعل به مثل ذلك ، فطلب الشراب فقيل له : لا يشرب على مائدة أمير المؤمنين الشراب ، فتعشى وشرب ماء دجلة . فلما كان من الغد نظر إلى مائه وقال : ما كنت أحسب أن شيئاً يجزى من الشراب (يغنى عنه) ، فهذا ماء دجلة يجزى من الشراب » .

ومما ذكره القريزى عن حلول المأمون وبعض أفراد أسرته وكبار رجال دولته فى ضيعة إحدى نساء القبط عند ما قدم مصر فى سنة ٢١٧ هـ ، وما قدم إليهم من طعام وشراب ، وما يذكر فى سبيل إكرامهم وتوفير أسباب الراحة لهم ،

(١) كتاب الفخرى ص٢٠٧
(٢) الطبرى ج ١٠ ص٥٢ .

نستطيع أن نقف على مدى ثروة مصر فى ذلك العصر .

قال المقريزى (١) إن المأمون لما سار فى قرى مصر ، كان يبنى له بكل قرية دكة يضرب عليها سرادقه والعساكر من حوله . وكان يقيم فى القرية يوماً وليلة ، فمر بقرية يقال لها طاء النمل ، فلم يدخلها لحقارتها . فلما تجاوزها خرجت إليه عجوز تعرف بمارية القبطية صاحبة القرية وهى تصيح ، فظنها المأمون مستغيثة متظلمة ، فوقف لها . وكان لا يمشى أبداً إلا والتراجمة بين يديه من كل جنس . فذكروا له أن القبطية قالت : يا أمير المؤمنين ! نزلت فى كل ضيعة ، وتجاوزت ضيعتى ، والقبط تعيرنى بذلك . وأنا أسأل أمير المؤمنين أن يشرفنى بحلوله فى ضيعتى ليكون لى الشرف ولعقبى ، ولا تشمت الأعداء بى ، وبكت بكاء كثيراً ، فرق لها المأمون ، وثنى عنان فرسه إليها ونزل . فجاء ولدها إلى صاحب المطبخ (٢) وسأله : كم تحتاج من الغنم والدجاج والفراخ والسمك والتوابل والسكر والعسل والطيب والشمع والفاكهة والعلوفة وغير ذلك مما جرت به عادته . فأحضر جميع ذلك إليه بزيادة .

وكان بصحبة المأمون أخوه المعتصم وابنه العباس وأولاد أخيه الواثق والمتوكل ، ويحيى بن أكثم ، والقاضى أحمد بن أبى دؤاد : فأحضرت لكل واحد منهم ما يخصه على انفراد ، ولم تكل أحداً منهم ولا من القواد إلى غيره . ثم أحضرت للمأمون الكثير من فاخر الطعام .

فلما أصبح الصباح وعزم الخليفة على الرحيل ، حضرت ومعها عشر وصائف ، مع كل وصيفة طبق . فلما شاهدها المأمون من بعد قل لمن معه : قد جاءتكم القبطية بهدية الريف . الكامخ والصحناء والصبر . فلما وضعت ذلك بين يدى المأمون ، رأى فى كل طبق كيساً من ذهب ، فأعجبه ذلك وأمرها بإعادته فقالت : لا والله لا أفعل . فتأمل المأمون الذهب ، فإذا به ضرب عام واحد ، فقال : هذا والله أعجب ، ربما يعجز بيت ما لنا عن مثل ذلك ، فقالت : يا أمير المؤمنين ! لا تكسر

---

(١) خطط ج ١ ص ٨١

(٢) يعنى مطبخ المأمون

قلوبنا ، فقال : إن لى فى بعض ماصنعت لكفاية ، ولا أحب التثقيل عليك ، فردى مالك ، بارك الله فيك ! فأخذت قطعة من الأرض وقالت : يا أمير المؤمنين ! هذا (وأشارت إلى الذهب) من هذا ، وأشارت إلى الطينة التى تناولتها من الأرض . وقالت : ثم من عدلك يا أمير المؤمنين ، وعندى من هذا شىء كثير ، فأمر به الخليفة فأخذ منها ، وأقطعها عدة ضياع ، وأعطاها من قريتها طاء النمل مائتى فدان بغير خراج .

وقد ابتدع زرياب فى بلاد الأندلس أرقى أنواع الطهى البغدادى ، فأدخل بقلة الهليون المسماة عندهم الأسفراج Aspirago ، كما زاد فى الأطعمة لوناً أطلقوا عليه « النقايا » ، يصنع بماء الكزبرة الرطبة المحلاة بالسنبوسق والكباب ، ولوناً من التقلية أطلقوا عليها تقلية زرياب ، يطبخ فيه الدجاج أو الأرانب فى مرق كثير الأفاوية والتوابل . وقد أذاع زرياب أنماطا جديدة فى تنظيم المائدة ، فكانوا يبدءون بالحساء ، ثم يقدمون اللحوم والطيور ، وينتهون بالحلوى . كما أخذوا عنه تفضيل الأكواب الزجاجية الرفيعة المصنوعة من الزجاج الثمين لأنها أكثر انسجاماً مع نظر المائدة من على الأكواب الذهبية والفضية . وابتكر أسمطة الطعام من الجلد الرقيق بدل الكتان ، واتخذ أمراء الأندلس وخلفاؤها وخواصهم زرياب قدوة فيما سنه لهم من آداب المائدة واستحسنه من الأطعمة التى نسبت إليه[١] .

٥ — الملابس :

وكان لانتشار النفوذ الفارسى فى الدولة العباسية أثر كبير على ظهور الأزياء الفارسية فى البلاط العباسى . ويؤيد ذلك ماذكره فون كريمر [٢] من أن النفوذ الفارسى فى بلاط الخلفاء قد بلغ الذروة فى عهد الهادى وهارون الرشيد والمأمون وإن أغلب وزراء الأخير من هؤلاء كانوا فرساً أو من أصل فارسى ، كما ذكر أن الميل للأزياء الفارسية فى بغداد أخذ ينمو ويطرد .

وكان اللباس الفارسى لباس البلاط الرسمى . فقد قرر أبو جعفر المنصور ثانى الخلفاء العباسيين لبس القلانس ، وهى القبعات السود الطويلة المخروطية الشكل ،

---

(١) المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ٧٥١ — ٧٥٢ . بروفنسال : الشرق الإسلامى والحضارة العربية — الأندلسية ص ٣٠ — ٣٤ .

(٢) Streifzuge, p p. 32-3

بصفة رسمية . كما أدخل استعمال الملابس المحلاة بالذهب ، وغدا خلعها على الناس من حق الخليفة ، كما يتضح ذلك من العملة التى ضربت فى عهد الخليفة المتوكل الذى تظهر عليه صورته مرتدياً ملابس فارسية حقيقية .

وفى العصر العباسى كان اللباس العادى للطبقة الراقية يشتمل على « سروالة » فضفاضة وقميص ودراعة وسترة وقفطان وقباء وقلنسوة . أما لباس العامة فيشمل على إزار وقميص ودراعة وسترة طويلة وحزام ، وكانوا ينتعلون الأحذية والنعال .

وكان من المستحسن لبس الثياب البيض . فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خلق الله الجنة بيضاء ، وخير ثيابكم البيض تلبسونها فى حياتكم وتكفنون بها موتاكم » .

وكان لباس الخليفة العباسى فى المواكب القباء الأسود أو البنفسجى الذى يصل إلى الركبة . وكان مفتوحاً عند الرقبة ، فيظهر القفطان زاهياً من تحته وكانت أكمامه ضيقة حتى عهد المعتصم الذى أمر بجعلها فضفاضة . ويقال إن عرض الأكمام بلغ ثلاثة أدرع . ويتمنطق الخليفة بمنطقة مرصعة بالجواهر ، ويتشح بعباءة سوداء ويلبس قلنسوة طويلة مزينة بجوهرة غالية (١) . وكان الخلفاء والقضاء يلبسون العمامة والطيلسان ، مقتدين فى ذلك بالنبى صلى الله عليه وسلم كما كانوا يلبسون قلنسوة طويلة ، حولها عمامة ذات لون أسود وهو شعار العباسيين . وكان الأمراء والنبلاء يقلدون الخلفاء فى ملابسهم .

وقد ذكر ابن خلكان (٢) عن أبى يوسف قاضى هارون الرشيد « أنه أول من غير لباس العلماء إلى هذه الهيئة التى هم عليها فى هذا الزمان . وكان ملبوس الناس قبل ذلك شيئاً واحداً لايتميز أحد عن أحد بلباسه » ، وكان الكتاب يلبسون الدراعات ، وهى ثياب مشقوقة من الصدر ، ويلبس القواد الأقبية الفارسية القصيرة (٣) . وأما غير العلماء فقد كانوا يلبسون داخل بيوتهم القلنسوة وحدها

---

(١) أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ٣٨٧ .
(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٣ .
(٣) متز . الحضارة الإسلامية ص ١٧٩ .

فوق كلوتة من الحرير الأبيض ، ثم استعاضوا عنها بكلوتة خفيفة بنفسجية اللون . وكان اللباس العادى للطبقة الراقية فى العصر العباسى يتألف من سروال فضفاض وقميص ودراعة وسترة وقفطان وقباء وقلنسوة وعباءة أو جبة .

وكان الأغنياء من الرجال والنساء يلبسون الجوارب المصنوعة من الحرير أو الصوف أو الجلد ويسمونها « موزاج » . وكانت ثمة فروق ملحوظة فى ملابس أصحاب المهن المختلفة . أما لباس العامة فكان يشتمل على إزار وقميص ودراعة وسترة طويلة وحزام يسمى « قمربند » . وكانوا ينتعلون الأحذية والنعال . أما الجنود فكانوا يلبسون الأحذية ، على حين كان بعض الأعيان ينتعل كليهما فى وقت واحد ، غير أنهم كانوا يخلعون الحذاء الخارجى المسمى « الجرموق » عند دخول المساجد أو القصور(١) .

وكان لباس المرأة يتكون من ملاءة فضفاضة وقميص مشقوق عند الرقبة ، عليه رداء قصير ضيق يلبس عادة فى البرد . وإذا خرجت المرأة العربية من بيتها فإنها ترتدى ملاءة طويلة تغطى جسمها ، وتقى ملابسها من التراب ، وتلف رأسها بمنديل يربط فوق الرقبة .

وقد تطورت ملابس النساء فى العصر العباسى تطوراً ظاهراً عما كانت عليه فى العصر الأموى ، إذ اتخذت سيدات الطبقة الراقية غطاء للرأس (البرنس) مرصعاً بالجواهر ، محلى بسلسلة ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة . ويعزى ابتكار هذا الغطاء إلى « عُلية » بنت المهدى وأخت الرشيد . وكانت نساء تلك الطبقة يعلقن الحجب بزنار البرنس للزينة . أما نساء الطبقة الوسطى فكن يزين رءوسهن بحلية مسطحة من الذهب ، ويلففن حولها عصابة منضدة باللؤلؤ والزمرد ، ويلبسن الخلاخل فى أرجلهن والأساور فى معاصمهن وأزنادهن . ولم يجهلن فن التجميل الذى أخذته عن الفارسيات . وكان « طابع الحسن » الصناعى مما يتحلى به الأعرابيات(٢) .

---

(١) أمير على : مختصر تاريخ العرب ٣٨٨ — ٣٨٩ .
(٢) المصدر نفسه ص ٣٨٩ — ٢٩٠ .

وكان للسيدة زبيدة أثر كبير فى تطور الزى وإدخال تغييرات على ملابس السيدات فى عصرها : فيعزى إليها اتخاذ المناطق والنعال المرصعة بالجواهر . وكانت فوق ذلك تسرف فى شراء ملابسها وتزيينها ، حتى إنها اتخذت ثوباً من الوشى الرفيع يزيد ثمنه على خمسين ألف دينار[1] .

وفى بلاد الأندلس تحكم زرياب فى ابتداع الأزياء ، وحث الناس على تغيير الملابس لتكون مناسبة للفصول ، وعلمهم أن يلبسوا ملابس بيضاء من أول يونيه حتى نهاية سبتمبر ، كما علمهم أن الربيع هو فصل الملابس الحريرية الخفيفة والقمصان ذات الألوان الزاهية ، وأن الشتاء فصل الفراء والملابس الثقيلة . ومن مآثر زرياب أنه فتح فى قرطبة معهد جمال كان يدرس فيه فن التجميل ، واستعمل معجون الأسنان ، وعلم أهل الأندلس أن يفرقوا شعرهم فى وسط الرأس ، بدلا من أن يتركو خصلات الشعر فوق جبينهم تغطى أصداغهم ويعقصونه حول رأسهم ، وأن يظهرو الحاجبين والأذن .

وبتأثير زرياب تغير البلاط الأموى والمجتمع القرطبى ، بسبب ما نقله إليهم من نظام البلاط العباسى ، حتى فى أزيائهم وأثاث منازلهم وطرق طهيهم . وربما كان تأثير زرياب على المجتمع الأرستقراطى أكثر عمقا من تأثيره كموسيقى ، بما أدخله من التجديدات التى ينسبها إليه المؤرخون فى هذه البيئة الإسلامية التى لم تغير طريقة حياتها زهاء قرن منذ تأسيس الدولة الأموية فى الأندلس سنة ١٣٨ هـ[2] .

٦ — المرأة :

كانت المرأة فى العصر العباسى الأول تتمتع بقسط وافر من الحرية فقد تدخل بعضهن فى شئون الدولة ، كالخيزران زوج الخليفة المهدى وأم الهادى والرشيد . وكانت كثيراً ما يسأل ابنها قضاء حاجات المترددين على بيتها . غير أن شدة غيرته على النساء حملته على أن يضع حداً لتدخلها فى أمور دولته .

---

(١) المدور : حضارة الاسلام فى دار السلام ص ٥٥ .

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ٧٥١ — ٧٥٢ . ليفى بروفنسال : الشرق الاسلامى والحضارة العربية الأندلسية ، عن مخطوط المؤرخ الأندلسى أحمد بن محمد الرازى . منشورات معهد الجنرال فرانكو للأبحاث العربية الأسبانية (تطوان ١٩٥١) ص ٢٠ ص — ٢٤ .

وقد تمتعت السيدة زبيدة زوجة الرشيد وأم الأمين بنفوذ كبير فى الدولة ، فإنها حين حجت بيت الله سنة ١٨٦ هـ وأدركت ما يعانيه أهل مكة من المشاق فى الحصول على ماء الشرب ، دعت خازن أموالها وأمرته أن يدعو المهندسين والعمال من أنحاء البلاد وقالت له : « اعمل ولو كلفتك ضربة الفأس ديناراً » . ووفد على مكة أكفأ المهندسين والعمال ، ووصلوا بين منابع الماء فى الجبال ، واعتمدوا على عين حنين فأرسلوا منها الماء تحت الصخور حتى تغلغل من الحل إلى الحرم . وبذلك وصل الماء إلى مكة ، قبلة المسلمين التى يجتمع فيها حجاج بيت الله . ولا زال هذا الماء ولا يزال يجرى إلى مكة حتى اليوم .

وكذلك ساهمت المرأة فى هذا العصر فى الحروب ، فاشتركت فيها أم عيسى ولبابة بنتا على بن عبد الله بن عباس عم الخليفة المنصور . وكن فى عهد الرشيد يمتطين الجياد ويقدن الجند إلى ميدان القتال(١) . ولما سبى الروم نساء المسلمين ومثلوا بهن فى عهد المعتصم وصاحت امرأة هاشمية وقعت أسيرة فى أيديهم « وامعتصماه » ! لبى الخليفة نداءها وثارت ثائرته ، وقاد جيشه الجرار وانتصر على الروم فى موقعة عمورية المشهورة كما تقدم .

وقد بلغت المرأة فى هذا العصر مبلغاً عظيما من الثقافة حتى كانت تنظم الشعر وتناظر الرجل فى عهد الرشيد والمأمون . وكانت السيدة زبيدة شاعرة مثقفة . وكثيراً ما كانت تبعث برسائلها الفياضة أبياتاً شعرية إلى زوجها الرشيد . وإن القصيدة التى بعثت بها الخليفة المأمون على أثر مقتل ابنها الأمين لتدل دلالة واضحة على علو كعبها فى الأدب والشعر والسياسة . وهاك بعض أبيات منها :

لخير إمام قام من خير عنصر ... وأفضلِ راق فوق أعواد مِنبر
ووارثِ علم الأولين وفخرهم ... والملك المأمونَ من أم جعفر
كتبتُ وعينى تستهل دموعها ... إليك ابن عمى مع جفونى ومحجرى
أُصبتُ بأدنى الناس منك قرابةً ... ومَنْ زال عن كبدى فقل تصبرى(٢)

---

(١) أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ١٩٠

(٢) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٣١٦

ويقول نخلة المدور(١) : « إن السيدة زبيدة زوج الرشيد كانت تصنع أعمالا تفوق مقدرة الملوك ، كمثل اصطناعها بساطا من الديباج جمع صورة كل حيوان من جميع الأجناس ، وصورة كل طائر من الذهب ، وأعينها من يواقيت وجواهر ، يقال إنها أنفقت عليه نحواً من ألف ألف دينار ، وكمثل اتخاذها الآلة من الذهب المرصد بالجوهر ، والثوب من الوشى الرفيع يزيد ثمنه على خمسين ألف دينار ، والقباب من الفضة والأبنوس والصندل ، عليها الكلاليب من الذهب الملبس بالوشى والديباج والسمور وأنواع الحرير ، وكمثل اتخاذها شمع العنبر ، واصطناعها الخلف مرصعاً بالجوهر ، واتخاذها الشاكرية من الخدم يختلفون على الدواب ويذهبون فى حاجاتها ورسائلها » .

وقد أولع الناس ، وخاصة الخلفاء ، باتخاذ الإماء من غير العرب ، لأنهن كن فى الغالب أوفر جمالا . أضف إلى ذلك أن العادة قد جرت ألا يرى الرجل من يريد التزوج بها رؤية تامة إذا كانت من الحرائر إلا فى حدود ما يسمح به الشرع الإسلامى لمريد الخطبة ، بخلاف الأمة فقد كان يستطيع أن يراها ويتعرف طباعها وأخلاقها بحكم مخالطتها قبل أن يقدم على الاقتران بها . وكثيراً ما كان أبناء الجوارى أحب إلى آبائهم من أبناء الحرائر . كذلك لم يكن ثمة فرق فى التوريث بين أبناء الحرائر والإماء .

وكان كثير من الخلفاء العباسيين من أمهات أولاد : فكانت أم المأمون أمة فارسية ، وأم المعتصم تركية ، كما كانت « شجاع » أم المتوكل خوارزمية ، والسيدة أم المقتدر رومية ، وكذلك كانت أم الخليفة المستكفى ، وكانت أم المطيع صقلبية(٢) .

وكانت الإماء يجلبن من أسواق النخاسة من جميع البلاد إلى بغداد . ومنهن الحبشيات والروميات والجرجيات والشركسيات والعربيات من مولدات المدينة

(١) حضارة الاسلام فى دار السلام ص ٩٥

(٢) النظم الاسلامية للمؤلف

(٣) حضارة الاسلام فى دار السلام ص ٩٨

والطائف واليمامة ومصر . واشتهرت كثيرات منهن بالجمال وعذوبة اللفظ وجمال الصوت . ولم يكن بيع الرقيقات مظهراً من مظاهر العبودية والاسترقاق بالمعنى المعروف ، بل إن كثيراً من الأماكن يأتين سوق النخاسة مختارات ليتمتعن بحياة الترف والنعيم فى بيوت الخلفاء والأمراء .

وقد أمدنا الجاحظ (١) بوثيقة أخرى تبين محاسن ومساوى التزوج من الإماء فقال عند كلامه على محاسن الجوارى : « قيل . . . كان يقال : من أراد قلة المؤونة وخفة وحسن الخدمة وارتفاع الحشمة ، فعليه بالإماء دون الحرائر . وكان مسلمة بن مسلمة يقول : عجبت لمن استمتع بالسرارى كيف يتزوج المهائر ، وقال السرور باتخاذ السرارى .

وكان أهل المدينة يكرهون اتخاذ الإماء أمهات أولادهم . حتى نشأ فيهم على بن الحسن بن على رضى الله عنهم ، وفاق أهل المدينة فقهاً وعلماً وورعاً ، فرغب الناس فى اتخاذ السرارى ، قال : وليس من خلفاء بنى العباس من أبناء الحرائر إلا ثلاثة : السفاح والمنصور (؟) والأمين ، والباقون كلهم أبناء الجوارى ، وقد علقت الجوارى لأنهن يجمعن بين عز العرب ودهاء العجم . وقال عند كلامه على مساوىء الجوارى :

إذا لم يكنْ فى منزل المرء حُرةٌ رأى خللاً فيما تولى الولائد

فلا يتخذ منهن حر قعيدةً فهنّ لعمر الله شر العقائد

وكان يقال : الجوارى كخبز السوق والحرائر كخبز الدور ، ومن أمثال العرب : لا تمازح أمة ولا تبك على أكمة .

ولم يظهر بين طبقة العامة فى ذلك العصر نساء كان لهن أثر فى الحياة السياسية أو فى ترقية المجتمع ، بل كان النشاط فى هذه النواحى مقصوراً على نساء الخلفاء والأمراء وغيرهن من نساء الطبقة الحاكمة .

وكان للمرأة شأن كبير فى بلاد الأندلس ، وقامت الجوارى بدور هام فى قصور

---

(١) المحاسن والأضداد (طبعة مصر سنة ١٣٢٤ ﻫ) ص ١٥٣ — ٣٥٤ .

الخلفاء والأمراء ورجالات الدولة . وليس أدل على ذلك من قصة « طروب » جارية عبد الرحمن الأوسط . ذلك أنه لما أغضبها ، هجرته ، وصدت عنه ، وأبت أن تأتيه ولزمت مقصورتها ، فاشتد قلقه لهجرها ، وضاق ذرعه من شوقها ، وجهد أن يترضاها بكل وجه فأعياه ذلك . فأرسل من خاصة خصيانه من يكرهها على الوصول إليه ، فأغلقت باب مجلسها فى وجوههم ، وآلت أن لا تخرج إليهم طائفة ، ولو انتهى الأمر إلى القتل فانصرفوا إليه وأعلموه بقولها ، واستأذنوه فى كسر الباب عليها ، فنهاهم ، وأمرهم بسد الباب عليها من خارجه ببدر الدراهم . ففعلوا ، وبنوا عليها بالبدر . وأقبل حتى وقف بالباب وكلمها مسترضياً ، راغباً فى المراجعة ، على أن لها جميع ماسد به الباب ، فأجابت وفتحت الباب ، فانهالت البدر فى بيتها ، فأكبت على رجله تقبلها ، وحازت المال (١) .

وذكر المقرى أن هذه الجارية كانت تبرم الأمور مع نصر الخصى ، وأن عبد الرحمن لم يرد لها شيئاً مما أبرمته ، وكذلك أولع عبد الرحمن بجارية أخرى تسمى مدثرة ، فأعتقها وتزوجها . كما أولع بجوارى أخر منهن شفاء ، وقلم ، وكانت أديبة راوية للشعر حافظة للأخبار ، كما كانت حسنة الخط (٢) .

٧ — الأعياد والمواسم :

(ا) الاحتفال بالعيدين :

زاد النفوذ الفارسى فى الدولة العباسية — كما رأينا — حتى شمل كل مظاهر الحياة فى العصر العباسى ، وبلغ الذروة فى عهد هارون الرشيد . وفى بغداد أخذ الميل للأزياء الفارسية ينمو ويطرد ، واحتفل بالأعياد الفارسية القديمة ، وخاصة بالنيروز والمهرجان والرام ، واتخذ رجال البلاط العباسى العادات الفارسية القديمة .

وكان الخلفاء يحتفلون بالعيدين احتفالا دينياً ، فيؤمون الناس فى الصلاة ،

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٦٤ — ١٦٥ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٦٥ .

ويلقون عليهم خطبة فى فضائل العيد وما يجب على المسلمين اتباعه للمحافظة على شعائر الإسلام ، ولا غرو فقد كانت مظاهر الإسلام تتجلى فى الاحتفال بهذين العيدين فى الأمصار الإسلامية وعلى الأخص فى بغداد وبيت المقدس ودمشق . أما المسلمون الذين يفدون على مكة من كافة أنحاء العالم لأداء فريضة الحج ، فكان الخطيب يخطب فى المسجد الحرام فى اليوم السابع من شهر ذى الحجة بعد صلاة الظهر خطبة بليغة يشرح لهم فيها مناسك الحج ، ثم يأخذون فى أداء شعائره ، ويضحون أضحيات العيد بعد رميهم الجمار بمنى .

وكان الاحتفال بعيد الفطر والأضحى يبلغ منتهى الروعة والأبهة فى البلاد التى يكون فيها الشعور الإسلامى قوياً ، مثل طرسوس حيث كان يتوافد إليها غزاة المسلمين من أنحاء الدولة الإسلامية ، وترد إليها صلات أهل البر من المسلمين الذين لا يستطيعون الخروج للجهاد بأنفسهم . ويقول ابن حوقل : ليس من مدينة عظيمة من حد سجستان وكرمان إلى مصر والمغرب إلا بطرسوس . لأهلها دار ينزل بها غزاة تلك البلدة ويرابطون بها إذا وردوها ، وتكثر لديهم الصلات ، وترد عليهم الأموال والصدقات العظيمة ، ولا شك أنه كان لذلك أكبر الأثر فى ظهور الأبهة الإسلامية بأجلى معانيها فى الاحتفال بالأعياد بطرسوس ، حتى أصبح عيدا الفطر والأضحى فى هذه المدينة من محاسن الإسلام .

وكانت الأنوار تسطع فى أرجاء المدن الإسلامية فى ليالى العيد ، وتتجاوب أصوات المسلمين بالتهليل والتكبير ، وتزدحم الأنهار بالزوارق المزينة بأبهى الزينات ، وتسطع من جوانبها أنوار القناديل ، وتتلألأ الأنوار الساطعة من قصور الخلافة . وقد لبست الجماهير الطيالسة السود تشبهاً بالخلفاء العباسيين الذين اتخذوا السواد شعاراً لهم . وكان بعضهم يتخذ بدل العمائم قلانس طويلة مصنوعة من القصب والورق مجللة بالسواد كذلك ، ويلبسون بدل الدروع دراعات كتب عليها « فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم » (١) .

---

(١) الدوري : حضارة الإسلام فى دار السلام ص ٣٢ .

(ب) الاحتفال بالنوروز والمهرجان والرام :

وكان النوروز من المواسم القديمة ، اتخذه الفرس لإحياء العام الجديد ، وهو أول أيام السنة عندهم ، ويقع عند الاعتدال الربيعى ودخول الشمس فى برج الحمل أى عند ابتداء فصل الربيع . وقد سن ملوك خراسان سنة جديدة ، فاتخذوا هذا اليوم موسماً يلبس فيه جنودهم ملابس الربيع والصيف ، وفيه يحتفلون بعيد النوروز . وأول من اتخذ هذا اليوم — على ما ذكره البيروتى [١] — هو جم شيد وهو — كما يقول براون [٢] نقلا عن بعض المصادر العربية — سليمان بن داود [٣] . وقد أبطل المسلمون الاحتفال بهذا العيد فى بلاد الفرس ، غير أنه عاد فى العصر العباسى الأول . وقد أضر نظام النيروز القديم بالمزارعين ضرراً بليغاً ، لأن التقويم الجديد قدم يوم النوروز ، فكان يجىء والزرع أخضر فى الوقت الذى يجب أن تدفع فيه الضرائب .

ويستطرد البيروتى فى الكلام حتى يذكر أن الملاك اجتمعوا فى عهد هشام بن عبد الملك الأموى (١٠٥ — ١٢٥ هـ) ، وشكوا إلى عامله خالد بن عبد الله القسرى ، وشرحوا له ما يجدونه من الصعاب ، وسألوه أن يؤخر النوروز شهراً فأبى ، وكتب إلى هشام بذلك فأجاب : إنى أخاف أن يكون هذا من قوله تعالى « إنما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدى القوم الكافرين » [٤] . واستمرت الحال كذلك إلى أن ولى هارون الرشيد الخلافة ، فاجتمع الملاك ثانية وشكوا إلى يحى بن خالد البرمكى ، وسألوه أن يؤخر النوروز نحواً من شهرين ، فهم يحى بإجابة طلبهم ، ولكن أعداءه أخذوا يرمونه بالتعصب للمجوسية ، فعدل عن ذلك ، واستمر الحال على ما كان عليه من قبل .

---

(١) الآثار الباقية (طبعة سخاو Sachau) ص ٢١٦ — ٢١٧ .

(٢) Lit, Hist of Persia, vol I, 114, 259

(٣) البيرونى الآثار الباقية ص ٢١٥

(٤) سورة التوبة ٩ : ٣٧

أما عن أصل النوروز فيقول البيرونى [١] إنه يرجع إلى أن سليمان بن داود لما فقد خاتمه ذهب عنه ملكه ثم رد إليه بعد أربعين يوماً ، فعاد إليه ملكه ، وأتته الملوك وعكفت عليه الطيور ، فقالت الفرس : « نوروز آمذ » أى جاء اليوم الجديد ، فسمى هذا اليوم « النوروز » . وأمر سليمان الريح فحملته ، ورآه خطاف فقال : « أيها الملك ! إن لى عشاً فيه بيضات ، فاعدل لا تحملها » : فعدل سليمان . ولما نزل على الأرض ثانية حمل الخطاف فى منقاره ماء ، فرشه بين يدى الملك ، وأهداه رجل جرادة ، فذلك أصل رش الماء والهدايا فى النوروز .

وكان الفرس يتهادون فى عيد النوروز بالهدايا ، ومنها السكر والملابس . ويقول البيرونى [٢] : « إن قصب السكر إنما ظهر فى مملكة جم يوم النوروز ، ولم يكن يعرف قبل ذلك الوقت ، وهو أنه رأى قصبة كثيرة الماء قد مجت شيئاً من عصارتها فذاقها ، فوجد فيها حلاوة لذيذة ، فأمر باستخراج مائها وعمل منها السكر ، فارتفع فى اليوم الخامس وتهاوده تبركا به .... فجرى الرسم لملوك خراسان فيه أن يخلعوا هى أساورتهم الخلع الربيعية والصيفية . كما اعتادوا الاغتسال بالماء ، وأن يرشوا بعضهم بعضاً به فى ذلك اليوم تبركا ودفعاً للأمراض » .

ومما يدل على اهتمام أكاسرة الفرس بالنوروز ما ذكره البيرونى حيث قال : « وكان من آيين الأكاسرة فى هذه الأيام الخمسة أن يبدأ الملك يوم النوروز فيعلم الناس بالجلوس له والإحسان إليه ، وفى اليوم الثانى يجلس لمن هو أرفع مرتبة وهم الدهاقين وأهل البيوتات ، وفى اليوم الثالث يجلس لأساورته وعظماء موابذته ، وفى اليوم الرابع لأهل بيته وقرابته وخاصته ، وفى اليوم الخامس لولده وصنائعه فيصل إلى كل واحد منهم ما استحقه من الرتبة والإكرام ، ويستوفى ما استوجبه من الميرة والإنعام . فإذا كان اليوم السادس كان قد فرغ من قضاء حقوقهم ، فنوروز لنفسه ، ولم يصل إليه إلا أهل أنسه ومن يصلح لخلوته ، وأمر بإحضار

(١) البيرونى : الآثار الباقية ص ٢١٦ — ٢١٧

(٢) المصدر نفسه ص ٢١٨ — ٢١٩ .

ما حصل من الهـدايا على مراتب المهدين ، فيتأملها ويفرق منها ما شاء ويودع الخزائن ما شاء الله » .

وكان أكاسرة الفرس والخلفاء العباسيون من بعدهم يحتفلون بالنوروز فى أول العام على ما رأينا ، وفى آخره بالمهرجان ، ويسمونه (روز مهر) ، ومعناه محبة الروح ، وكان من أكبر أعيـــادهم . فقد أثر عن سلمان الفارسى أنه قال : « كنا على عهد الفرس نقول إن الله أخرج زينة لعباده من الياقوت فى النوروز ، ومن الزبرجد فى المهرجان ، ففضلهما على غيرهما من الأيام كفضل الياقوت والزبرجـد على سائر الجواهر » (١) . وكان الفرس يتخذون المهرجان دليلا على نهاية العالم والنوروز دليلا على بدايته . ويوافق أول عيد المهرجان أول الشتاء .

وكان ملوك الفرس يلبسون تاجاً مرصعاً بالجواهر عليه صورة الشمس ويقيمون سوقاً عظيمة . وقد قيل إن تعظيم الفرس ليوم المهرجان يرجع إلى استبشار الناس حين سمعوا بانتصار أفريدون على الضحاك . ويعتقدون أن الملائـكة نزلت لمساعدة أفريدون فى ذلك اليوم . « وجرى الرسم بذلك فى دور الملوك أن يقف فى صحن الدار رجـل شجاع وقت إسفار الصبح ، ويقول بأعلى صوته : يا أيها الملائـكة ! انزلوا إلى الدنيا واقمعوا الشياطين الأشرار وادفعوهم عن الدنيا » . « وكان الفرس يتهادون فى المهرجان بالهدايا الـكثيرة كهدايا النوروز ومنها السكر ، ويقدم فيه الأكاسرة إلى الفرسان كسوة الخريف والشتاء (٢) » . وقد اعتاد ملوك الفرس الجلوس للعامة يوماً فى المهرجان ويوماً فى النوروز . ويقول الجاحظ (٣) : « ولا يحجب عنه أحـد فى هذين اليومين من صغير ولا كبير ولا جاهل ولا شريف » .

وكان اليوم الخامس من المهرجان من أعظم أيام الفرس ، ويسمونه « رام روز » وهو المهرجان العظيم ، وفيه ظفر أفريدون بالضحاك . وقد اهتم

---

(١) البيرونى : كتاب الآثار الباقية ص ٢٢٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(٣) التاج فى أخلاق الملوك ص ١٥٥ .

الفرس بعيد المهرجان ، ويقع فى اليوم السادس عشر ، وبعيد الرام ويقع فى اليوم الحادى والعشرين . « وقد أمر زرادشت أن يكون سبيل المهرجان ورام روز واحداً فى التعظيم ، فعيدوهما ، حتى وصل بينهما هرمز بن شابور البطل وعيد ما بينهما من الأيام جعل الملوك إيرانشهر من لدن المهرجان إلى تمام ثلاثين أعياداً بين طبقات الناس » (١).

ولا غرو فقد كان من أثر ميل العباسيين إلى الفرس وإيثارهم على العرب ، أن أخذوا عنهم نظم الحكم ، وقلدوهم فى الأزياء وفى الطعام ، واحتفلوا بأعيادهم ، وخاصة بالنوروز والمهرجان والرام ، التى أصبحت من أهم أعيادهم الرسمية فى العصر العباسى الأول .

(ج) موكب الخلفاء :

وقد فاقت مراكب الخلفاء العباسيين مواكب الأمويين فى الروعة والبهاء . ففى أيام الجمع يسير الحراس على اختلاف طبقاتهم فى مقدمة موكب الخليفة حاملين الأعلام ، ثم يليهم أمراء البيت العباسى على الخيول المطهمة ، ثم الخليفة ممتطياً جواداً شديد البياض ، وبين يديه كبار رجال الدولة . وكان الخليفة يلبس فى تلك المواكب القباء الأسود ، ويتمنطق مرصعة بالجواهر ، ويتشح بعباءة سوداء ويلبس قلنسوة طويلة مزينة بجوهرة غالية ، وبيده قضيب النبى صلى الله عليه وسلم وخاتمه ، ويتدلى على صدره سلسلة ذهبية مرصعة بالجواهر النفيسة (٢) . وكان الخليفة الهادى أول من أدخل هذا النظام ، ولكن الرشيد والمأمون كثيراً ما كانا يميلان إلى البساطة ، فلم يكن يصحبهما غير حارس واحد أو حارسين . ومن مظاهر سيادة الخليفة فى بغداد أن يضرب على باب قصره بالطبول والدبادب والأبواق فى أوقات الصلاة .

ومن أعظم مواكب الخلفاء العباسيين موكب الحج ، حيث يجتمع ببغداد

---

(١) البيرونى : المصدر نفسه ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .

(٢) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ٣٨٦ — ٣٨٧

الحجاج من مختلف الأمصار الإسلامية الشرقية ، وخاصة أهل العراق وفارس وخراسان ، وقد أعدوا عـدتهم من الإبل والـكسى والطعام الذى كان يتـكون من الأقراص المعجونة باللبن والسكر والـكعك والفواكه اليابسة وغيرها من طعام الحاج ، ومعهم شرذمة من الجند لحراسهم . ويسير فى مقدمة هذا الموكب هوادج يعلوها قباب مزينة بالديباج المطرز بالذهب ويقيم فى أحدها أمير الحاج (١) .

ذكر الماوردى أن أمير الحاج ينظر فى عشرة أشياء : أحـدها جمع الناس فى مسيرهم ونزولهم حتى لا يتفرقوا ، والثانى ترتيبهم فى المسير والنزول وإعطاء كل طائفة منهم مقاداً حتى يعرف كل فريق منهم مقاده إذا سار ، ويألف مكانه إذا نزل ، فلا يتنازعون فيه ولا يضلون عنه . والثالث أن يرفق بهم فى المسير حتى لا يعجز عنه ضعيفهم ولا يضل عنه منقطعهم . والرابع أن يسلك بهم أوضح الطرق وأخصبها ويتجنب أجـدبها وأوعرها . والخامس أن يرتاد لهم المياه إذا انقطعت والمراعى إذا قلت . والسادس أن يحرسهم إذا نزلوا ويحوطهم إذا رحلوا حتى لا يختلطهم ذاعر ولا يطمع فيهم متلصص . والسابع أن يمنع عنهم من يصدهم عن المسير ويدفع عنهم من يحصرهم عن الحج ، بقتال إن قدر عليـه أو يبذل مال إن أجاب الحجيج إليه . والثامن أن يصلح بين المتشاجرين ويتوسط بين المتنازعين ، ولا يتعرض للحـكم بينهم إجباراً ، إلا أن يفوض الحـكم إليه فيعتبر فيه أن يكون من أهله فيجوز له حينئذ الحـكم بينهم . فإن دخلوا بلداً فيه حاكم جاز له ، ولحاكم البلد أن يحـكم ، فأيهما حـكم نفذ حـكمه ولو كان التنازع بين الحجيج وأهل البلد لم يحكم بينهم إلا حاكم البلد . والتاسـع أن يقوم زائغهم ويؤدب خائنهم ولا يتجـاوز التعزيز إلى الحد . والعـاشر أن يراعى اتساع الوقت حتى يؤمن القوات ولا تلجئهم ضيقه إلى الحث فى السير . فإذا وصل إلى الميقات أمهلهم للإحرام وإقامة سنته ، فإذا كان الوقت متسعاً عدل بهم إلى مكة ليخرجوا مع أهلها إلى المواقف ، وإن كان الوقت ضيقاً عدل بهم عن مكة إلى عرفة خوفاً من فواتها فيفوت الحج بها ، فإن زمان الوقوف بعرفة ما بين زوال الشمس من يوم عرفة إلى طلوع الفجر من يوم النحر .

---

(١) الأحـكام السلطانية ص ١٠٣ — ١٠٥ .

فمن أدرك الوقوف بها فى شىء من هذا الزمان من ليل أو نهار فقد أدرك الحج ، وإن فاته الوقوف بها حتى طلع الفجر من يوم النحر ، فقد فاته الحج ، وعليه إتمام ما بقى من أركانه وجبرانه بدم ، وقضاؤه فى العام المقبل إن أمكنه وفيما بعده إن قدر عليه ، ولا يصير حجه عمرة بالفوات ، ولا يتحلل بعد الفوات إلا بإحلال الحج . فإذا قضى الناس حجهم أمهلهم الأيام التى جرت بها العادة فى إنجاز علائقهم ولا يرهقهم فى الخروج فيضر بهم ، فإذا عاد بهم سار على طريق المدينة لزيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ليجمع لهم بين حج بيت الله سبحانه وزيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رعاية لحرمته وقياماً بحقوق طاعته ، ثم يكون فى عوده بهم ملتزماً فيهم من الحقوق ما التزمه فى صدرهم ، حتى يصل بهم إلى البلد الذى سار بهم منه فتنقطع ولايته عنهم بالعود إليهم .

ويقول مخلة المدور(١) : « ولما صارت الشمس على ارتفاع قامة ، وقد غصت بالناس المواقف ، وضاقت بهم الساحات ، ضرب البوق إيذاناً بركوب الخليفة ثم لم يلبث أن أقبل مرتفعاً على فيل أبيض ، قد استرسل عليه الفضة فى الحلية الثقيلة ، وهو جالس فى هودج مزين بالأصداف اللامعة ، وعلى القبة أستار من الديباج يتخللها رسوم من الذهب ، وفى يده قضيب الخلافة ، وفى الأخرى الخاتم ، وعليه جبة وشى من فوقها بردة خضراء للنبى صلى الله عليه وسلم ، وهى غير البردة التى كانت للملوك بنى أمية ، يلقونها على أكتافهم فى جلوسهم وركوبهم ، لأنها فقدت بفقدان الخلافة منهم ، وكان قد اشتراها معاوية من آل زهير بن أبى سلمى بأربعين ألف درهم . وإنما هذه البردة هى التى أعطاها النبى صلى الله عليه وسلم أهل الأيلة لتبقى عندهم بركة فاشتراها أبو جعفر بثلثمائة دينار ، واتخذها فى شعار الخلافة موضع البردة التى كانت عند الأمويين . وأما الفيلة فإنه لم يسبق أحد من ملوك العرب إلى اتخاذها فى المواكب . . . وإنه إنما اتخذها موكباً له لما كان من تعظيم الملوك السالفة إياها واقتنائهم لها ، وإعدادها للحروب والزينة فى الأعياد وغيرها ، إذا كانت أوطأ مراكب الملوك وأمهدها . وكان يصحب أبا جعفر جماعة من الأمراء

---

(١) حضارة الإسلام فى دار السلام ص ٥٤ — ٥٥ .

ورجال بيت الخلافة ، ووراءهم الإبل التى يطعنها حريمه وأهل بيته ، وفيهم موسى ابن المهدى حاجاً ومعهم حرس خاص بهم يحملون الرايات السود » .

قد سن الخليفة المهدى سنة كسوة الكعبة فى كل عام . فإنه لما قدم مكة ، نزع كسوة الكعبة وطلى جدرانها بالمسك والعنبر ، وألبسها كسوة جديدة من الحرير ، إذ خاف أن تنهدم لكثرة ما عليها من الكسى التى ألبسها هشام بن عبد الملك الأموى . فأصبح ذلك سنة اتبعها الخلفاء الذين جاءوا بعد المهدى ، هى سنة إلباس الكعبة كسوة جديدة كل عام ، واختصت مصر بصناعة هذه الكسوة منذ ذلك الوقت .

وكان بعض وزراء العصر العباسى الأول يعيش عيشة قوامها البذخ والإسراف : فهذا يحى بن خالد البرمكى قد بلغ من كرمه وجوده ، أنه كان إذا ركب أعد بدراً (صرراً) فى كل منها مائتا درهم ، يدفعها إلى من يقفون فى طريقه ويلتمسون سؤاله . وقد كثر الوافدون على دار خالد بن برمك ، وكانوا قبل ذلك يسمون سؤالا ، فقال خالد : إنى أستقبح هذا الاسم لمثل هؤلاء وفيهم الأشراف والأكابر ، فسماهم الزوار . وكان خالد أول من سماهم بذلك فقال له بعضهم : والله لا أدرى أى أياديك عندنا أجل، أصلتنا أم تسميتنا[1] ؟

(د) حفلات الزواج :

وكان العباسيون يعنون عناية فائقة بحفلات الزواج . ويتجلى إسراف خلفاء العصر العباسى الأول وبذخهم مما فعله الخليفة المهدى عند زواج ابنه هارون (الرشيد) بالسيدة زبيدة . فقد أقام يوم زفافها وليمة لم يسبقه إليها أحد فى الإسلام ، ووهب للناس فى هذا اليوم أوانى الذهب مملوءة بالفضة وأوانى الفضة مملوءة بالذهب والمسك والعنبر ، وزينها بكثير من الحلى والجواهر ، حتى إنها لم تقدر على المشى لكثرة ما عليها من هذه الحلى والجواهر .

ويقول الشابشتى[2] إن المأمون أمهر بوران ١٠٠,٠٠٠ دينار ، ٥٠,٠٠٠,٠٠٠

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٤٠

(٢) الديارات : مخطوط فيمار رقم ١١٠ برلين ، ودار الكتب المصرية ورقة ٦٧ (١) .

درهم ، أى أكثر من نصف مليون دينار ، أنه أوقد بين يديه فى تلك الليلة ثلاث شمعات عنبر وكثر دخانها فقالت زبيدة : إن فيما ظهر من السرف الكفاية ، ارفعوا هذا الشمع العنبر وهاتوا الشمع . ولما جليت بوران على المأمون نثر عليها حباراً[1] كان فى كمه ، فوقع على حصير منسوج من الذهب ، فقال : لله در الحسن ابن هانى ، حيث يقول :

كأن صغرى وكبرى من فواقعها حصباء در على أرض من الذهب

وامتنع من كان حاضراً أن يلتقط شيئاً ، فقال المأمون : أكرمنها ، فمدت زبيدة يدها فأخذت حبة ، فالتقط الباقى من كان حاضراً ، كما ذكر الشابشتى أن نفقات الزواج بلغت من مال الخليفة المهدى ١,٣٨٨,٠٠٠ ديناراً ، عدا مبلغ كبير أنفقه الرشيد نفسه .

وقد أكدت السيدة زبيدة لأبى عبد الله المأمون ، وكان أخا الأمين ابن السيدة زبيدة من أبيه الرشيد كما نعلم ، أن نفقات هذا الزواج كانت تتراوح بين خمسة وثلاثين مليون درهم وسبعة وثلاثين مليون درهم .

وقد فاق المأمون أباه الرشيد فى كرمه وإسرافه . يدلنا على ذلك ما أنفقه على زواجه من بوران بنت الحسن بن سهل . ويقول الطبرى[2] إن المأمون أمر للحسن بن سهل وهو فى طريقه إلى بوران بعشرة ملايين من الدراهم ، ومنحه خراج إقليم فم الصلح . ويقول ابن خلكان[3] إنه أعطاه خراج إقليم فارس والأهواز سنة واحدة .

وقد وصف المسعودى[4] إسراف الحسن بن سهل وبذخه فى هذا الزواج فقال : ونثر الحسن فى ذلك من الأموال ما لم ينثره ولم يفعله ملك قط فى جاهلية ولا فى إسلام ، وذلك أنه نثر على الهاشميين والقواد والكتاب بنادق مسك ، فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك ، فكانت البندقة

---

(١) ذكر ابن خلكان (جـ ١ ص ٤٩٤) أنه نثر اللؤلؤ من كمه .
(٢) (طبعة دى غويه) ٢ : ١٠٨٣ — ١٠٨٤
(٣) وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٦
(٤) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٣٤

إذا وقعت فى يد الرجل ، فتحها فقرأ ما فيها فيجد على قدر إقباله وسعوده فيها ، فيمضى إلى الوكيل الذى نصب لذلك ، فيقول له ضيعة يقـال لها فلانة الفلانية ، من طسوج كـذا ، من رستاق كذا وجارية يقال لها فلانة الفلانية ودابة صفاتها كذا . ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافح المسك وبيض العنبر ، وأنفق على المأمون وقواده ، وعلى جميع أصحابه ومن كان معه من جنوده أيام مقامه عنده ، وعلى المـكارين والحمالين والملاحين ، وكل من ضمه العسكر من تابع ومتبوع مرتزق وغيره ، فلم يكن أحد من الناس يشترى شيئاً فى عسكر المأمون ، ولا مما يطعم تعلقته البهائم . فلما أراد المأمون إن يصعد فى دجله إلى مدينة السلام قال للحسن : حوائجك يا أبا محمد ! قال : نعم يا أمير المؤمنين ، أسألك أن تحفظ على مكانى من قلبك فإنه لا يتهيأ لى حفظه إلا بك ، فقالت فى ذلك الشعراء فأكثرت وأطنبت الخطباء فى ذلك وتـكلمت ، فما استظرف مما قيل فى ذلك الشعر قول ابن حازم الباهلى :

بارك الله للحسنْ ولبورانَ فى الختَنْ
يا ابنَ هارونَ قد ظفر تَ ولـكن ببنتْ مَنْ

فلما نمى هذا الشعر إلى المأمون قال : والله ما ندرى خير أراد أم شر(١) .

٨ — أنواع التسلية :

كان الناس فى العصر العباسى الأول يقضون أوقات فراغهم فى سماع الحـكايات القصيرة من النوادر الهزلية والأحاديث التى تتجلى فيها الزكانة والفطنة . أما الحـكايات الطوال فـكانوا يتنـكبون عنها ، لأنها بمجالس القصاص أولى منها بمجالس الخاصة ..

كما كانوا يتلهون فى داخل المنازل بلعبة الشطرنج التى أدخلها الرشيد ، ثم انتشرت بين العرب وحلت محل الورق والزهر ، وكانوا يلعبون بها على رقعة

(١) كتاب شذرات الذهب ج ٢ ص ٢٣ .
انظر الملحق الثانى عشر عن « بناء بيوران بنت الحسن بن سهل » .

مربعة حمراء من أدم وظهر فى قصر الخليفة العباسى المعتضد فى أواخر القرن الثالث الهجرى نوع من الشطرنج يسمى « الجوارحية » أو اللعب بالجوارح ، تعمل فيه كل حاسة من حواس الإنسان تنافس غيرها من الحواس (١) .

وقد قيل إن الخليفة المأمون مال إلى لعب الشطرنج بعد قدومه من خراسان إلى بغداد ، ودعا كبار لاعبيه الذين كانوا يتوقرون بين يديه ، فضاق بذلك وقال : إن الشطرنج لايلعب مع الهيبة ، قولوا ماتقولون إذا خلوتم (٢) .

وكان النرد من الألعاب التى اعتاد الناس أن يتلهوا بها فى العصر العباسى الأول ، ويستعمل فى لعبه ثلاثون حجراً وفصان على رقعة رسم عليها اثنا عشر منزلا . وقد شبه بعض الحكماء رقعة النرد بالأرض الممهدة لساكنها ، ومنازل الرقعة بساعات الليل والنهار ، واختلاف ألوانها باختلاف بياض النهار وسواد الليل ، وما يخرج من الفصين إذا رمى بهما بالقضاء الجارى على العباد .

ومن أنواع التسلية فى ذلك العصر الرمى بالنشاب ، والصيد بالبُندق ، ولعبة الجوكان والصولجان والجريد .

وكان سباق الخيل من أجمل أنواع التسلية عند الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة فى العصر العباسى الأول . وقد أباح الفقهاء هذا اللون من الرياضة على أن لاتكون وسيلة للحصول على المال . وبلغ من شغف الناس بسباق الخيل واهتمامهم به ، أن كان السابق يستولى على الحصان المسبوق فى بعض الأحيان (٣) ، وتنافس الخلفاء والوزراء فى تربية خيل السباق .

روى الجهشيارى (٤) أن هارون الرشيد أمر جعفر بن يحيى البرمكى « أن يتخذ خيلا يجريها فى الحلبة ، فأجرى جعفر يوماً خله بالرقة ، فسبقت خيل الرشيد ، فغضب الرشيد ، فقال العباس بن محمد الهاشمى لجعفر : ياأبا الفضل ! ما أحسن

---

(١) متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢١٣ — ٢١٤ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ٥٢٢ .

(٣) متز . الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢١٥ .

(٤) كتاب الوزراء والكتاب ص ٢٠٧ .

الشكر وأدعاه للمزيد ! من أين لك هذا الفرس السابق ؟ فقال له : أمه [illegible]
فقال : والله لأرضينك ثم أقبل على الرشيد فقال : كنت ياأمير المؤمنين مع أمير [illegible] ابن
أبى العباس ، ونحن فى المدائن وقد أرسلت الخيل ، فبينا نحن ننظر طلع آخر سابق ،
وقد حصل فى الغبار فما ترى علامته ، فقال عيسى بن على : لى ، وقال غيره لى . ثم
طلع آخر على تلك الصفة ، فنظروا فإذا هى لخالد بن برمك ، وقد أخذ قصبات السبق ،
فقال خالد : ياأمير المؤمنين ! من يقبضها ؟ فقال : هى لنا عندك فإنك عدة من عددنا ،
فسرى عن الرشيد وزال الغضب عنه » .

وروى المسعودى (١) حكاية تبين لنا مبلغ اهتمام الرشيد بسباق الخيل قال : وأجرى الرشيد الخيل يوماً بالرقة . فلما أرسلت ، صار إلى مجلسه فى صدر الميدان حيث توافى عليه الخيل ، لايتقدم أحدها صاحبه ، فتأملها فقال : فرسى والله . ثم تأمل لآخره فقال : فرس ابنى المأمون . فجاءا يحتكان أمام الخيل . وكان فرسه السابق ، وفرس المأمون ثانية فسر بذلك ، ثم جاء الخيل بعد ذلك .

ومن أنواع التسلية فى العصر العباسى الأول لعبة الكريكيت والتنس ، ويسمونها لعبة « القراح » . وكان النساء يمارسن الرمى بالسهام . ولم يكن الرقص فى بادىء الأمر مقصوراً على الطبقات المحترفة فحسب ، بل كثيراً ماكانت فتيات الطبقة الراقية يشتركن فيه أيضاً .

وكان بعض الخلفاء كلفا بالصيد . فقد حرص المهدى على القيام برحلات منظمة ، بصحبة فرسان يتقلدون السيوف ، ويتبعهم طائفة الجند والغلمان . وكان الخليفة يسير محاذياً لنهر دجلة ارتياداً للخضرة التى تجنح إليها الطيور وتسرح فيها الغزلان .

وقد كلف هؤلاء الخلفاء بالصيد وتأنقوا فى إعداد العدة له ، وقلدهم فى ذلك الأمراء حتى إنهم أخذوا يصنعون نصال سهامهم من الذهب . كما عنوا باستخدام الصقر والباز فى الصيد ، وعنو بتربية الكلاب السريعة العدو ، ووكلوا بكل كلب شخصاً يقوم بتربيته .

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٧٩ .

ملاحق الكتاب

الملحق الأول

خطبة أبي العباس السفاح فى مسجد الكوفة (١)

يقول الطبرى : « لما صعد (أبو العباس) المنبر حين بويع له بالخلافة قام فى أعلاها ، وصعد داود بن على فقام دونه ، فتكلم أبو العباس فقال : الحمد لله الذى اصطفى الإسلام لنفسه تكرمة ، وشرفه وعظمه ، واختاره لنا وأيده بنا ، وجعلنا أهله وكهفه وحصنه ، والقوام به ، والذابين عنه ، والناصرين له ، وألزمنا كلمة التقوى ، وجعلنا أحق بها وأهلها ، وخصنا برحم رسول الله وقرابته ، وأنشأنا من آبائه وأنبتنا من شجرته واشتقنا من تبعته ، جعله من أنفسنا ، عزيزاً عليه ماعنتنا (٢) ، حريصاً علينا بالمؤمنين رؤوفاً رحيما ، ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع ، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتاباً يتلى عليهم فقال عز من قائل ، فيما أنزل من محكم القرآن : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس (٣) أهل البيت ويطهركم تطهيراً) . وقال : (قل لاأسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى) . وقال : (وأنذر عشيرتك الأقربين) . وقال : (وما أفاء (٤) الله على رسوله من أهل القرى ، فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى) ، وقال : (واعلموا أنما غنمتم من شىء ، فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى) فأعلمهم جل ثناؤها فضلنا ، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا ، وأجزل من الفىء والغنيمة نصيباً ، تكرمة لنا ، وفضلا علينا ، والله ذو الفضل العظيم . وزعمت السبئية الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا ، فشاهت (قبحت) وجوههم ، بما ولم أيها الناس ؟

---

(١) الطبرى جـ ٩ ص ١٢٥ — ١٢٦ .

(٢) يعنى يعز عليه أن نقع فى أمر شاق .

(٣) الغدر أو العقاب أو الغضب .

(٤) من الفىء وهو كل ماغنمه المسلمون من المشركين عفواً من غير قتال .

وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم ، وبصرهم بعد جهالتهم ، وأنقذهم بعد هلكتهم ، وأظهر بنا الحق ، ودحض بنا الباطل ، وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً ، ورفع بنا الخسيسة الدنيئة ، وتم بنا النقيصة وجمع الفرقة، حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر ومواساة فى دينهم ودنياهم ، وإخواناً على سرر متقابلين فى آخرتهم ، فتح الله ذلك منة ومنحة لمحمد صلى الله عليه وسلم . فلما قضبه الله إليه ، قام بذلك الأمر من بعده أصحابه ، وأمرهم شورى بينهم ، فحووا مواريث الأمم ، فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها ، وأعطوها أهلها وخرجوا خماصاً (١) منها ، ثم وثب بنو حرب ومروان فابتزوها وتداولوها بينهم ، فجاروا فيها ، واستأثروا بها ، وظلموا أهلها ، فأملى الله لهم حيناً حتى آسفوه (٢) . فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا ، ورد علينا حقنا ، وتدارك بنا أمتنا ، وولى نصرنا ، والقيام بأمرنا ، ليمن بنا على استضعفوا فى الأرض ، وختم بنا كما افتتح بنا . وإنى لأرجو أن لا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح . وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله يا أهل الكوفة ! أنتم محل محبتنا ، ومنزل مودتنا . أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ، ولم يثنكم عن ذلك تحامل أهل الجور عليكم ، حتى أدركتم زماننا ، وأتاكم الله بدولتنا ، فأنتم أسعد الناس بنا ، وأكرمهم علينا ، وقد زدتكم فى أعطياتكم مائة درهم ، فاستعدوا ، فأنا السفاح المبيح ، والثائر المبير » .

وكان موعوكا : فاشتد به الوعك ، فجلس على المنبر .

---

(١) أى جياعاً من المخمصة وهى الجوع .
(٢) أى أغضبوه .

الملحق الثانى

خطبة داود بن على العباسى فى مسجد الكوفة (١)

« وصعد داود بن على ، فقام دونه على مراقى المنبر فقال : الحمد لله شكراً شكراً شكراً الذى أهلك عدونا ، وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، أيها الناس ! الآن أقشعت (أذهبت) حنادس (٢) الدنيا ، وانكشفت غطاؤها ، وأشرقت أرضها وسماؤها وطلعت الشمس من مطلعها ، وبزغ القمر من مبزغه ، وأخذ القوس باريها ، وعاد السهم إلى منزعه ، ورجع الحق إلى نصابه فى أهل بيت نبيكم ، أهل الرأفة والرحمة بكم ، والعطف عليكم . أيها الناس ! إنا والله ماخرجنا فى طلب هذا الأمر لنكثر لجينا (فضة) ولاعقيانا (ذهبا) . ولا نحفر نهراً ، ولا نبنى قصراً ، وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا ، والغضب لبنى عمنا ، وما كرثنا (٣) من أموركم ، وبهظنا (٤) من شئونكم . ولقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا ، ويشتد علينا سوء سيرة بنى أمية فيكم ، وخرقهم بكم ، واستذلالهم لكم ، واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم . لكم ذمة الله تبارك وتعالى ، وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذمة العباس رحمه الله ، أن نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير فى العامة والخاصة منكم بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم . تباً تباً لبنى حرب بن أمية وبنى مروان ، آثروا فى مدتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة ، والدار الفانية على الدار الباقية ، فركبوا الآثام ، وظلموا الأنام وانتهكوا المحارم وغشوا الجرائم وجاروا فى سيرتهم فى العباد وسنتهم فى البلاد التى استلذوا تسربل الأوزار وتجليب الآصار (٥) ، ومرحوا فى أعنة المعاصى وركضوا فى ميادين الغى جهلا باستدراج الله وأمناً لمكر

---

(١) الطبرى ج ٩ ص ١٢٦ — ١٢٧ .

(٢) جمع حندوس وهو الليل المظلم والظلمة .

(٣) اشتد علينا .

(٤) غلبنا وثقل علينا .

(٥) جمع إصر وهو الذنب .

الله ، فأتاهم بأس الله بياتاً وهم نائمون ، فأصبحوا أحاديث ومزقوا كل ممزق ، فبعدا للقوم الظالمين . وأدالنا الله من مروان وقد غره بالله الغرور ، أرسل لعدو الله فى عنانه حتى عثر فى فضل خطامه (زمامه) ، فظن عدو الله أن لن نقدر عليه . فنادى حزبه وجمع مكايده ورمى بكتائبه ، فوجد أمامه ووراءه وعن يمينه وشماله من مكر الله وبأسه ونقمته ما أمات باطله ومحق ضلالته وجعل دائرة السوء به ، وأحيا شرفنا وعزنا ورد إلينا حقنا وإرثنا . أيها الناس ! إن أمير المؤمنين نصره الله نصراً عزيزاً إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة ، إنه كره أن يخلط بكلام الجمعة غيره ، وإنما قطعه عن استتمام الكلام بعد أن اسحنفر [١] فيه شدة الوعك . وأدعو الله لأمير المؤمنين بالعافية ، فقد أبدلكم الله بمروان عدو الرحمن وخليفة الشيطان المتبع للسفلة الذين أفسدوا فى الأرض بعد صلاحها بإبدال الدين وانتهاك حريم المسلمين ، الشاب المتكهل المتمهل المقتدى بسلفه الأبرار والأخيار الذين أصلحوا الأرض بعد فسادها بمعالم الهدى ومناهج التقوى . فعج [٢] الناس له بالدعاء .

ثم قال يأهل الكوفة ، إنا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا ، حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان ، فأحيا بهم حقنا وأفلج بهم حجتنا وأظهر بهم دولتنا ، وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون وإليه تتشوفون ، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم وبيض به وجوهكم ، وأدالكم على أهل الشأم ونقل إليكم السلطان وعز الإسلام ، ومنّ عليكم بإمام منحه العدالة وأعطاه حسن الإيالة . فخذوا ما آتاكم الله بشكر ، والزموا طاعتنا ولاتخدعوا عن أنفسكم فإن الأمر أمركم ، فإن لكل أهل بيت مصرا ، وإنكم مصرنا . ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد ، وأشار بيده إلى أبى العباس . فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم . الحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا .

---

(١) اتسع فى كلامه .

(٢) رفع صوته بالدعاء .

الملحق الثالث

وصية أبي جعفر ابنه محمد المهدى (١)

« هذا ما عهد به عبد الله أمير المؤمنين إلى المهدى محمد بن أمير المؤمنين ، ولى عهد المسلمين ، حين أسند وصيته إليه بعده واستخلفه على الرعية ، من المسلمين وأهل الذمة ، وحرم الله وخزائنه وأرضه التى يورثها من يشاء من عباده و والعاقبة للمتقين . إن أمير المؤمنين يوصيك بتقوى الله فى البلاد ، والعمل بطاعته فى العباد ، ويحذرك الحسرة والندامة ، والفضيحة فى القيامة ، قبل حلول الموت ، وعاقبة الفوت حين يقول : رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب . هيهات أين منك المهل وقد انقضى عنك الأجل . . . وتقول رب ارجعنى لعلى أعمل صالحاً ، فيومئذ ينقطع أهلك ويحل بك عملك ، فترى ماقدمته يداك وسعت فيه قدماك ، ونطق به لسانك ، واستركبت عليه جوارحك ، ولحظت له عينك ، وانطوى عليه غيبك ، فتجزى عليه الجزاء الأوفى ، إن شراً فشراً وإن خيراً فخيراً .

فليكن تقوى الله من شأنك ، وطاعته من بالك ، استعن بالله على دينك ، وتقرب به إلى ربك ونفسك فخذ منها ، ولا تجعلها للهوى . ولئن تعمل الشر قامعاً ، فليس أحد أكثر وزراً ، ولا أعظم مصيبة ، ولا أجل رزية منك ، لستكاثف منك أجمعون ، وتسكافىء على أفعال ولاتك الظالمين ، فإن الله يقول (إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) . فكأنى بك وقد أوثقت بين يدى الجبار ، وخذلك الأنصار ، وأسلمك الأعوان ، وطوقت الخطايا ، وقرنت بك الذنوب ، حل بك الوجل وقعد بك الفشل ، كلت حجتك ، وقلت حيلتك ، وأخذت منك الحقوق ، وقتاد منك المخلوق فى يوم شديد هوله ، عظيم كربه ، تشخص فيه الأبصار لدى الحناجر كاظمين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ، فما عسيت أن يكون حالك يومئذ إذا خاصمك الخلق ، واستقضى عليك الحق ،

---

(١) تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ٤٠٧٢ — ٤٠٧٤ .

إذ لاخصمة تنجيك، ولا قرابة تحميك، تطلب فيه التباعة [1]، ولاتقبل فيه الشفاعة ويعمل فيه بالعدل ويقضى فيه بالفصل ، قال الله : (لاظلم اليوم إن الله سريع الحساب) . فعليك بالتشمير لدينك والاجتهاد لنفسك ، فافسكاك عنك ، وبادر يومك ، واحذر غدك ، واتق دنياك فإنها دنيا غادرة موبقة ، لتصدق الله نيتك ، وتعظم إليه فاقتك .

« وارغب إلى الله عز وجل فى الجهاد والمحاماة عن دينه ، وإهلاك عدوه بما يفتح الله على المسلمين ويمكن لهم فى الدين . وابذل فى ذلك مهجتك ونجدتك ومالك وتفقد جيوشك ليلك ونهارك . واعرف مراكز خيلك ومواطن رحلك ، وبالله فليكن عصمتك وحولك وقوتك ، وعليه فليكن ثقتك واقتدارك وتوكلك ، فإنه يكفيك ويغنيك وينصرك وكفى به مؤيداً ونصيراً » .

---

(١) يقال لى قبل فلان تبعة وتباعة وهى الظلامة أساس البلاغة .

الملحق الرابع

قتل مروان بن محمد(١)

ولما قتل عامر بن إسماعيل مروان، وأراد الكنيسة التي فيها بنات مروان ونساؤه ، إذا بخادم لمروان شاهر السيف ، يحاول الدخول عليهن ، فأخذوا الخادم ، فسئل عن أمره . فقال : أمرني مروان إذا هو قتل أن أضرب رقاب بناته ونسائه ، فلا تقتلوني ، فإنكم والله إن قتلتموني ليفقدن ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا له : أنظر ماتقول ، قال : إن كذبت فاقتلوني ، هلموا فاتبعوني ، ففعلوا فأخرجهم من القرية إلى موضع رمل ، فقال : اكشفوا هنا ، فكشفوا ، فإذا البرد والقضيب ومخصر قد دفنها مروان لئلا تصير إلى بني هاشم ، فوجه بها عامر بن اسماعيل إلى عبد الله بن علي ، فوجه بها عبد الله إلى أبي العباس السفاح ، فتداولت ذلك خلفاء بني العباس إلى أيام المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) .

ولما احتز عامر رأس مروان واحتوى على عسكره ، دخل الكنيسة التي كان فيها مروان ، فقعد على فرشه وأكل من طعامه ، فخرجت إليه ابنة مروان الكبرى ، وتعرف بأم مروان ، فقالت : ياعامر ! أن دهراً أنزل مروان عن فرشه حتى أقعدك عليها فأكلت من طعامه واحتويت على أمره وحكمت في مملكته ، لقادر أن يغير مابك .

ثم وجه عامر بنات مروان وجواريه والأسارى إلى صالح بن علي . فلما دخلن عليه تكلمت إبنة مروان الكبرى فقالت : ياعم أمير المؤمنين ! حفظ الله لك في الدنيا والآخرة ! نحن بناتك وبنات أخيك فليسعنا من عفوكم ماوسعكم من جورنا ، قال : إذاً لانستبقي منكم أحداً رجلا ولا امرأة . ألم يقتل أبوك بالأمس ابن أخي إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس الإمام في محبسه بحران ؟

---

(١) المسعودي : مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .

ألم يقتل هشام بن عبد الملك زيد بن على بن الحسين بن على وصلبه فى كناسة الكوفة ، وقتل امرأة زيد بالحيرة على يد يوسف بن عمر الثقفى ؟ ألم يقتل الوليد بن يزيد يحيى ابن زيد وصلبه بخراسان ؟ ألم يقتل عبيد الله بن زياد الدعى مسلمة بن عقيل بن أبى طالب بالكوفة ؟ ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين بن على ، على يد عمر بن سعد مع من قتل بين يديه من أهل بيته ؟ ألم يخرج بحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا حتى ورد بهن على يزيد بن معاوية ، وقبل مقدمهم بعث إليه برأس الحسين بن على قد نصب دماغه على رأس رمح يطاف به كور الشام ومدائنها ، حتى قدموا به على يزيد بدمشق ، كأنما بعث إليه برأس رجل من أهل الشرك ؟ ثم أوقف حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم موقف السبى يتصفحهن جنود أهل الشام الجفاة الطغام ، ويطلبون منه أن يهب لهم حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، استخفافاً بحقه صلى الله عليه وسلم وجرأة على الله عز وجل وكفراً لأنعمه . فما الذى استبقيتم منا أهل البيت لو عدلتم فيه علينا ؟ قالت : ياعم أمير المؤمنين ! وليسعنا عفوكم إذاً ، قال : أما العفو فنعم ، قد وسعكم ، فإن أحببت زوجتك من الفضل بن صالح بن على ، وزوجت أختك من أخيه عبد الله بن صالح . فقالت : ياعم أمير المؤمنين ! أى أوان عرس هذا ؟ بل تلحقنا بحران . قال إذن أفعل ذلك بكم إن شاء الله . فألحقن بحران ، فعلت أصواتهن عند دخولهن بالبكاء على مروان ، وشققن جيوبهن ، وأعولن بالصياح حتى ارتج العسكر بالبكاء منهن على مروان .

الملحق الخامس

نهاية بابك الخرمى (١)

وقد وصف السعودى نهاية بابك الخرمى وصفاً مسهباً فقال : « فلما استشعر بابك ما نزل به وأشرف عليه ، هرب من موضعه وزال عن مكانه ، فتنكر هو وأخوه وولده وأهله ومن تبعه من خواصه ، وقد تزيا بزى السفر وأهل التجارة والقوافل ، فنزل موضعاً من بلاد أرمينية على بعض المياه ، وبالقرب منهم راعى غنم ، فابتاعوا منه شاة وشاءوا شراء شيء من الزاد لهم ، فمضى من فوره إلى سهل بن سنباط ، فأخبره الخبر وقال : وهو بابك لا شك فيه .

وقد كان الأفشين لما هرب بابك من موضعه وزال عن جبله خشى أن يعتصم ببعض الجبال المنيعة أو يتحصن ببعض القلاع ، أو ينضاف إلى بعض الأمم القاطنة ببعض تلك الديار ، فيكثر جمعه وينضاف إليه فلال عسكره فيرجع إلى ما كان من أمره . فأخذ الطرق ، وكاتب البطارقة فى الحصون والمواضع من بلاد أرمينية وأذربيجان والران والبيلقان وضمن فى ذلك الرغائب . فلما سمع سهل بن سنباط من الراعى ما أخبره به ، سار من فوره فيمن حضر من عدده وأصحابه ، حتى أتى الموضع الذى به بابك . فترجل له ودنا منه وسلم عليه بالملك وقال له : أيها الملك ! قم إلى قصرك الذى فيه وليك وموضع يمنعك فيه الله من عدوك ، فسار معه إلى أن أتى قلعته ، وأجلسه على سريره ، ورفع منزلته ووطأ له منزلته ومن معه ، وقدمت المائدة وقعد يأكل معه ، فقال له بابك بجهله وقلة معرفته بما هو فيه وما دفع إليه : أمثلك يأكل معى ؟ فقام سهل عن المائدة وقال أخطأت أيها الملك ، وأنت أحق من احتمل عبده إذ كانت منزلتى ليست بمنزلة من يأكل مع الملوك ، وجاءه بحداد وقال له : مد رجليك أيها الملك ، وأوثقه بالحديد ، فقال له بابك : أغدراً ياسهل ؟ قال يابن الخبيثة ؟ إنما أنت راعى غنم وبقر ، ما أنت

(١) السعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٥٠ — ٣٥١ .

والتدبير للملك ونظم السياسات ؟ وقيد من كان معه ، وأرسل إلى الأفشين يخبر الخبر وأن الرجل عنده ، فسرح إليه الأفشين أربعة آلاف فارس عليهم الحديد ، وعليهم خليفة ، ويقال له بوغادة ، فتسلمه ومن معه ، وأتى به إلى الأفشين ، ومعه ابن سنباط ، فرفع الأفشين منزلة سهل ، وخلع عليه ، وحمله وتوجه ، وقاد بين يديه وأسقط عنه الخراج ، فأطلقه ، وأطلق الطيور إلى المعتصم ، وكتب إليه بالفتح . فلما وصل إليه ذلك ضج الناس بالتكبير ، وعمهم الفرح وأظهروا السرور ، وبثت الكتب إلى الأمصار بالفتح . وقد كان أفنى عساكر السلطان ، فسار الأفشين ببابك وتنقل بالعساكر حتى أتى سر من رأى ، وذلك سنة ثلاث وعشرين ومائتين . وتلقى الأفشين هارون بن المعتصم وأهل بيت الخلافة ورجال الدولة ، ونزل بالموضع المعروف بالقاطول على خمسة فراسخ من سامراً ، وبعث إليه بالفيل الأشهب ، وكان قد حمله بعض ملوك الهند إلى المأمون وكان فيلا عظيما ، وقد جلل بالديباج الأحمر والأخضر وأنواع الحرير الملون ، ومعه ناقة عظيمة نجيبة قد جللت بما وصفناه . وحمل إلى الأفشين دراعة من الديباج الأحمر ، منسوجة بالذهب ، وقد رصع صدرها بأنواع الياقوت والجوهر ، ودراعة دونها وقلنسوة عظيمة كالبرنس ذات سفاسك بألوان مختلفة ، وقد نظم على القلنسوة كثيراً من اللؤلؤ والجواهر وألبس بابك الدراعة ، وألبس أخوه الأخرى ، وجعلت القلنسوة على رأس بابك ، وعلى رأس أخيه نحوها . وقدم إليه الفيل وإلى أخيه الناقة . فلما رأى صورة الفيل استعظمه ، وقال : ماهذه الدابة العظيمة ! واستحسن الدراعة وقال : هذه كرامة ملك عظيم جليل إلى أسير ، فقد العز ذليل ، أخطأته الأقدار ، وزالت عنه الجدود وتورطته المحن ، إنها الفرحة تقتضى ترحة . وضرب له المصاف صفين ، فى الخيل والرجل والسلاح والحديد والرايات والبنود ، من القاطول إلى سامرا ، مدد واحد متصل غير منفصل ، وبابك على الفيل ، وأخوه وراءه على الناقة والفيل يخطر بين صفين به ، وبابك يخطر ذات اليمين وذات الشمال ويميز الرجال والعدد ، ويظهر الأسف والحنين على مافاته من سفك دمائهم ، غير مستعظم لما يرى من كثرتهم ، وذلك يوم الخميس لليلتين خلتا من صفر سنة ثلاث

وعشرين ومائتين . ولم ير الناس مثل ذلك اليوم ولا مثل تلك الزينة ، ودخل الأفشين على المعتصم فرفع منزلته وأعلى مكانه ، وأتى ببابك فطوف به بين يديه ، فقال له المعتصم : أنت بابك ؟ فلم يجب وكررها عليه مراراً ، وبابك ساكت . فمال إليه الأفشين وقال له : الويل لك ! أمير المؤمنين يخاطبك وأنت ساكت ؟ فقال : نعم أنا بابك ، فسجد المعتصم عند ذلك ثم قال :جردوه ، فسلبه الخدام ما عليه من الزينة، وقطعت يمينه وضرب به وجهه ، وفعل مثل ذلك بيساره ، وثلث برجليه ، وهو يتمرغ فى النطع فى دمه .

وقد كان تكلم بكلام كثير يرغب فى أموال عظيمة قبله ، فلم يلتفت إلى قوله ، وأقبل يضرب بما بقى من زنديه وجهه ، وأمر المعتصم السياف أن يدخل السيف بين ضلعين من أضلاعه أسفل القلب ليكون أطول لعذابه ففعل .

ثم أمر بجز لسانه وصلب أطرافه مع جسده . ثم حمل الرأس إلى مدينة السلام ، ونصب على الجسر ، وحمل إلى خراسان بعد ذلك يطاف به كل مدينة من مدنها وكورها ، لما كان فى نفوس الناس من استفحال أمره وعظم شأنه وكثرة جنوده ، وإشرافه على إزالة ملك وقلب ملة وتبديلها .

وحمل أخوه عبد الله مع الرأس إلى مدينة السلام ، ففعل به إسحاق بن إبراهيم ما فعل بأخيه بابك بسامرا . وصلب جثة بابك على خشبة طويلة فى أقاصى سامرا » .

الملحق السادس

محاكمة الأفشين (١)

« وذكر عن هارون بن عيسى بن منصور أنه قال شهدت دار المعتصم وفيها أحمد بن أبي دؤاد وإسحاق بن إبراهيم بن مصعب ومحمد بن عبد الملك الزيات . فأتي بالأفشين ، ولم يكن بعد في الحبس الشديد . فأحضر قوم من الوجوه لتبكيت الأفشين ، بما هو عليه . ولم يترك في الدار أحد من أصحاب المراتب إلا ولد المنصور ، وصرف الناس .

وكان المناظر له محمد بن عبد الملك الزيات . وكان الذين أحضروا المازيار صاحب طبرستان والموبذ والمرزبان بن تركش ، وهو أحد ملوك السغد ، ورجلان من أهل السغد . فدعا محمد بن عبد الملك بالرجلين ، وعليهما ثياب رثة ، فقال لهما محمد بن عبد الملك : ما شأنكما ؟ فكشفا عن ظهرهما وهي عارية من اللحم فقال له محمد : تعرف هذين ؟ قال نعم ! هذا مؤذن ، وهذا إمام بنيا مسجداً بأشروسنة ، فضربت كل واحد منهم ألف سوط ، وذلك أن بيني وبين ملوك السغد عهداً أو شرطاً أن أترك كل قوم على دينهم وماهم عليه . فوثب هذان على بيت كان فيه أصنامهم — يعني أهل أشروسنة — فأخرجا الأصنام واتخذاه مسجداً . فضربتهما على هذا ألفا ألفا ، لتعديهما القوم من بيعتهم . فقال له محمد : ماكتاب عندك قد زينته بالذهب والجوهر والديباج فيه الكفر بالله ؟ قال : هذا كتاب ورثته عن أبي . فيه أدب من العجم ، وما ذكر من الكفر ، فكنت أستمتع منه بالأدب واترك ماسوى ذلك . ووجدته محلى ، فلم يضطرني الحاجة إلى أخذ الحلية منه ، فتركته على حاله ككتاب كليلة ودمنة وكتاب مزدك في منزلك فما ظننت أن هذا يخرج من الإسلام . ثم تقدم الموبذ فقال : إن هذا كان يأكل المخنوقة ويحملني على أكلها ويزعم أنها أرطب لحما من المذبوحة . وكان يقتل شاة سوداء كل يوم

---

(١) الطبري ج ١٠ ص ٣٦٥ — ٣٦٧ .

أربعاء يضرب وسطها بالسيف ، ثم يمشى بين نصفيها ويأكل لحمها وقال لى يوما : إنى قد دخلت لهؤلاء القوم فى كل شىء أكرهه حتى أكلت لهم الزيت وركبت الجمل ولبست النعل ، غير أنى إلى هـذه الغاية لم تسقط عنى شعرة ، يعنى لم يطل. ولم يختتن ، فقال الأفشين : خبرونى عن هذا الذى يتـكلم بهـذا الـكلام ثقة هو فى دينه ؟ وكان الموبذ مجوسياً ، أسلم بعد على يد المتوكل ونادمه ، قالوا لا ، قال فما معنى قبولـكم شهادة من لا تثقون به ولا تعدلونه ؟ ثم أقبل على الموبذ فقال هل كان بين منزلى ومنزلك باب أو كوة تطلع على منها وتعرف أخبارى منها ؟ قال : لا ! قال : أفليس كنت أدخلك إلى وأبثك سرى ، وأخبرك بالأعجمية وميلى إليها وإلى أهلها ؟ قال ! نعم قال : فلست بالثقة فى دينك ولا بالـكريم فى عهـدك ، إذا أفشيت على سراً أسررته إليك . ثم تنحى الموبذ وتقدم له المرزبان بن تركش فقالوا للأفيشين . هل تعرف هذا ؟ قال لا فقيل للمرزبان : هل تعرف هـذا ؟ قال نعم هذا الأفيشين ، قالوا له : هذا المرزبان ، فقال له المرزبان : ياممخرق كم تدافع وتموه ؟ قال له الأفيشين : ياطويل اللحية ما تقول ؟ قال كيف يكتب إليك أهل مملـكتك ؟ قال : كما كانوا يكتبون إلى أبى وجـدى ، قال فقل قال لا أقول ، فقال المرزبان : أليس يكتبون إليك بكذا وكذا بالأشروسنية ؟ قال : بلى ، قال : أفليس تفسيره بالعربية إلى إله الآلهة من عبده فلان بن فلان ؟ قال بلى ! قال محمد بن عبد الملك . والمسلمون يحتملون أن يقال لهم هذا ! فما بقيت لفرعون حين قال لقومه أنا ربـكم الأعلى ؟ قال : كانت هـذه عادة القوم لأبى وجدى ولى قبل أن أدخل فى الإسلام ، فـكرهت أن أضع نفسى دونهم فتفسد على طاعتهم ، فقال له إسحاق بن إبراهيم ابن مصعب : ويحك ياخيذر ؟ كيف تحلف بالله لنا ، فنصدقك ونصدق يمينك ، ونجريك مجرى المسلمين وأنت تدعى ما ادعى فرعون ؟ قال يا أبا الحسين ! هـذه سورة قرأها عجيف على علىّ بن هشام ، وأنت تقرأها على ، فانظر غـداً من يقرؤها عليك .

ثم قدم مازيار صاحب طبرستان فقالوا للأفيشين . تعرف هذا ؟ قال لا ، قالوا للمازيار تعرف هذا ؟ قال نعم قد عرفته الآن ، قالوا : هل كاتبته ؟ قال لا ، قالوا

المازيار . هل كتب إليك ؟ قال نعم ، كتب أخوه خاش إلى أخي قوهيار أنه لم يكن ينصر هذا الدين الأبيض غيري وغيرك وغير بابك ، فإنه بحمقه قتل نفسه ، ولقد جهدت أن أصرف عنه الموت ، فأبى حمقه إلا أن دلاه فيما وقع فيه ، فإن خالفت لم يكن للقوم من يرمونك به غيري ، ومعي الفرسان وأهل النجدة والبأس .

فإن وجهت إليك لم يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثة : العرب والمغاربة والأتراك : والعربي بمنزلة الكلب ، اطرح له كسرة واضرب رأسه بالدبوس ، وهؤلاء الذئاب يعني المغاربة ، إنما هم أكلة رأس وأولاد الشياطين ، يعني الأتراك ، فإنما هي ساعة حتى تنفد سهامهم ثم تجول الخيل عليهم جولة فتأتى على آخرهم ، ويعود الدين إلى مالم يزل عليه أيام العجم ، فقال الأفيشين . هذا يدعى على أخيه وأخي دعوى لا يجب على ، ولو كنت كتبت هذا الكتاب إليه لأستميله إلى ويثق بناحيتى ، كان غير مستنكر ، لأنى إذا نصرت الخليفة بيدى كنت بالحيلة أحرى أن أنصره لآخذ بقفاه وآتى به الخليفة لأحظى به عنده كما حظى به عبد الله بن طاهر عند الخليفة : ثم نحى للمازيار . ولما قال للمرزبان التركشى ما قال ، وقال لإسحق بن إبراهيم ما قال ، زجر ابن أبي دؤاد الأفشين فقال : أنت ياأباعبد الله ترفع طيلسانك بيدك فلا تدعه على عاتقك حتى تقتل به جماعة . فقال له ابن أبي دؤاد :

أمطهر أنت ؟ قال لا ، قال فما منعك من ذلك وبه تمام الإسلام ، والطهور من النجاسة قال : أنت فى دين الإسلام استعمال التقية ؟ قال بلى ، قال خفت أن أقطع ذلك العضو من جسدى فأموت ، قال أنت تطعن بالرمح وتضرب بالسيف ، فلا يمنعك ذلك من أن تكون فى الحرب ، وتجزع من قتل قلفة ؟ قال : تلك ضرورة تعنينى ، فأصبر عليها إذا وقعت ، وهذا شيء أستجلبه ، فلا آمن معه خروج نفسى ، ولم أعلم أن فى تركها الخروج من الإسلام . فقال ابن أبي دؤاد : قد بان أمره يابغا (يوجه كلامه إلى بغا الكبير أبي موسى التركى) ، عليك به . فضرب بغا بيده على منطقته فجذبها فقال : قد كنت أتوقع هذا منكم قبل اليوم ، فقلب بغا ذيل القباء على رأسه ، ثم أخذ بمجامع القباء من عند عنقه . ثم أخرجه من باب الوزيرى إلى محبسه » .

الملحق السابع

كتاب أبي جعفر المنصور إلى محمد النفس الزكية (١)

« بسم الله الرحمن الرحيم ! من عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله. (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا ، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ، إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم)(٢) . ولك على عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، إن تبت ورجعت من قبل أن أقدر عليك أن أؤمنك وجميع ولدك وإخوتك وأهل بيتك ومن اتبعكم ، على دمائكم وأموالكم ، وأسوغك ما أصبت من دم أو مال ، وأعطيك ألف ألف درهم ، وما سألت من الحوائج ، وأنزلك من البلاد حيث شئت ، وأن أطلق من فى حبسى من أهل بيتك ، وأن أؤمن كل من جاءك وبايعك واتبعك ، أو دخل معك فى شىء من أمرك ، ثم لا أتبع أحداً منهم بشىء كان منه أبداً . فإن أردت أن تتوثق لنفسك فوجه إلى من أحببت يأخذ لك من الأمان والعهد والميثاق ما تثق به » .

(١) الطبرى ج ٩ ص ٢١٠

(٢) سورة المائدة ٥ : ٣٣ — ٣٤ .

الملحق الثامن

رد محمد النفس الزكية على أبي جعفر المنصور (١)

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله المهدى محمد بن عبد الله ، إلى عبد الله ابن محمد (طسم ، تلك آيات كتاب الله المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين ، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) (٢) . وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذى عرضت على .

فإن الحق حقنا ، وإنما ادعيتم هذا الأمر بنا ، وخرجتم له بشيعتنا ، وحظيتم بفضلنا. وإن أبانا علياً كان الوصى وكان الإمام ، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء ؟ ثم قد علمت أنه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا وشرف آبائنا . لسنا من أبناء اللعناء ولا الطرداء ولا الطلقاء . وليس يمت أحد من بنى هاشم مثل الذى يمت من القرابة والسابقة والفضل ، وإنا بنو أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاطمة بنت عمرو فى الجاهلية ، وبنو بنته فاطمة فى الإسلام دونكم . إن الله اختار لنا ، فوالدنا من النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن السلف أولهم إسلاما على ، ومن الأزواج أفضلهم خديجة الطاهرة وأول من صلى القبلة .

ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة ، ومن المولودين فى الإسلام حسن وحسين سيدا شباب أهل الجنة . وإن هاشماً ولد علياً مرتين ، وإن عبد المطلب ولد حسناً مرتين ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدنى مرتين من قبل حسن وحسين ، وإنى أوسط بنى هاشم نسباً وأصرحهم آبا ، لم تعرق فى

---

(١) الطبرى ج ٩ ص ٢١٠ — ٢١١ .
(٢) سورة القصص ٢٨ : ١ — ٦ .

العجم ، ولم تنازع فى أمهات الأولاد . فما زال الله يختار لى الآباء والأمهات فى الجاهلية والإسلام ، حتى اختار لى فى النار . فأنا ابن أرفع الناس درجة فى الجنة ، وأهونهم عذاباً ، فى النار ، وأنا ابن خير الأخيار وابن خير الأشرار ، وابن خير أهل الجنة وابن خير أهل النار . ولك الله على أن دخلت فى طاعتى ، وأجبت دعوتى ، أن أؤمنك على نفسك ومالك ، وعلى كل أمر أحدثته إلا حداً من حدود الله ، أو حقاً لمسلم أو معاهد فقد علمت ما يلزمك من ذلك ، وأنا أولى بالأمر منك وأدنى بالعهد لأنك أعطيتنى من العهد والأمان ما أعطيته رجالا قبلى . فأى الأمان تعطينى ؟ أمان ابن هبيرة ؟ أم أمان عمك عبد الله ابن على ؟ أم أمان أبى مسلم ؟ » .

الملحق التاسع

رد أبي جعفر المنصور على محمد النفس الزكية (١)

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ! فقد بلغني كلامك ، وقرأت كتابك . فإذ جل فخرك بقرابة النساء لتضل به الجفاة والغوغاء . ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء ، ولا كالعصبة والأولياء ، لأن الله جعل العم أبا . وبدأ به في كتابه على الوالدة الدنيا . ولو كان اختيار الله لهن على قدر قرابتهن ، كانت آمنة أقربهن رحماً ، وأعظمهن حقاً وأول من يدخل الجنة غداً .

ولكن اختيار الله لخلقه على علمه لما مضى منهم ، واصطفائه لهم . وأما ماذكرت من فاطمة أم أبي طالب وولادتها ، فإن الله لم يرزق أحداً من ولدها الإسلام لا بنتاً ولا إبناً . ولو أحداً رزق الإسلام بالقرابة ، رزقه عبد الله . أولاهم بكل خير في الدنيا والآخرة . ولكن الأمر لله يختار لدينه من يشاء . قال الله عز وجل (إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين) (٢) .

ولقد بعث الله محمداً عليه السلام وله عمومة أربعة ، فأنزل الله عز وجل (وأنذر عشيرتك الأقربين) (٣) ، فأنذرهم ودعاهم ، فأجاب إثنان أحدهما أبي وأبى اثنان أحدهما أبوك ، فقطع الله ولايتهما منه ، ولم يجعل بينه وبينهما إلا ولا ذمة ولا ميراثاً . وزعمت أنك ابن أخف أهل النار عذاباً ، وابن خير الأشرار . وليس في الكفر بالله صغير ، ولا في عذاب الله خفيف ولا يسير ، وليس في الشر خيار ، ولا ينبغي لمؤمن يؤمن بالله أن يفخر بالنار ، وسترد لتعلم (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب منقلبون) (٤) .

---

(١) الطبري جـ ٩ص ٢١١ — ٢١٣.

(٢) سورة القصص ٢٨ : ٥٦

(٣) سورة الشعراء ٢٦ : ١١٤

(٤) سورة الشعراء ١٢٦ : ٢٢٧

وأما ما فخرت به من فاطمة أم على ، وأن هاشما ولده مرتين ، ومن فاطمة أم حسن ، وأن عبد المطلب ولده مرتين ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم ولدك مرتين ، فخير الأولين والآخرين رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لم يلده هاشم إلا مرة ، ولا عبد المطلب إلا مرة . وزعمت أنك أوسط بنى هاشم نسبا وأصرحهم أما وأبا ، وأنه لم يلدك العجم ، ولم تعرق فيك أمهات الأولاد ، فقد رأيتك فخرت على بنى هاشم طرا ، فانظر ويحك أين أنت من الله غدا ، فإنك قد تعديت طورك ، وفخرت على من هو خير منك نفسك نفساً وأباً وأولا وآخراً ، إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى والد ولده ، وما خيار بنى أبيك خاصة ، وأهل الفضل منهم إلا بنو أمهات أولاد .

وما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من على بن حسين ، وهو لأم ولد ، ولهو خير من جدك حسن بن حسن ، وما كان فيكم بعده مثل ابنه محمد بن على وجدته أم ولد ، ولهو خير من أبيك ، ولا مثل أبيه جعفر ، وجدته أم ولد ، ولهو خير منك . وأما قولك إنكم بنو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن الله تعالى يقول فى كتابه (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم[1]) .

ولكنكم بنو ابنته وإنها لقرابة قريبة ، ولكنها لا تحوز الميراث ، ولا ترث الولاية ، ولا يجوز لها الإمامة ، فكيف تورث بها ، ولقد طلبها أبوك بكل وجه فأخرجها نهاراً ، ومرضها سراً ، ودفنها ليلا ، فأبى الناس إلا الشيخين وتفضيلهما ، ولقد جاءت السنة التى لا اختلاف فيها بين المسلمين ، أن الجد أبا الأم والخال والخالة لا يرثون .

وأما ما فخرت به من على وسابقته ، فقد حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم الوفاة ، فأمر غيره بالصلاة ، ثم أخذ الناس رجلا بعد رجل فلم يأخذوه ، وكان فى الستة فتركوه كلهم دفعاً له عنها ، ولم يروا له حقا فيها . أما عبد الرحمن فقدم عليه عثمان ، وقتل عثمان وهو له متهم ، وقاتله طلحة والزبير ، وأبى سعد بيعته ، وأغلق

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣ : ٤٠ .

دونه بابه ، ثم بايع معاوية بعده . ثم طلبها بكل وجه وقاتل عليها ، وتفرق عنه أصحابه ، وشك فيه شيعته قبل الحكومة ، ثم حكم حكمين رضى بهما وأعطاهما عهده وميثاقه ، فاجتمعا على خلعه .

ثم كان حسن فباعها من معاوية بخرق ودراهم ، ولحق بالحجاز ، وأسلم شيعته بيد معاوية ودفع الأمر إلى غير أهله ، وأخذ مالا من غير ولائه ولا حله ، فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه وأخذتم ثمنه . ثم خرج عمك حسين بن على على ابن مرجانة ، فكان الناس معه عليه حتى قتلوه وأتوا برأسه إليه . ثم خرجتم على بنى أمية ، فقتلوكم وصلبوكم على جذوع النخل ، وأحرقوكم بالنيران ، ونفوكم من البلدان ، حتى قتل يحيى بن زيد بخراسان . وقتلوا رجالكم وأسروا الصبية والنساء ، وحملوهم بلا وطاء فى المحامل كالسبي المجلوب إلى الشام ، حتى خرجنا عليهم ، فطلبنا بثأركم وأدركنا بدمائكم ، وأورثناكم أرضهم وديارهم وسنينا سلفكم وفضلناه . فاتخذت ذلك علينا حجة ، وظننت أنا إنما ذكرنا أباك وفضلناه للتقدمة منا له على حمزة والعباس وجعفر . وليس ذلك كما ظننت ، ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين ، متسلما منهم ، مجتمعا عليهم بالفضل ، وابتلى أبوك بالقتال والحرب ، وكانت بنو أمية تلعنه كما تلعن الكفرة فى الصلاة المكتوبة ، فاحتججنا له وذكرناهم فضله ، وعنفناهم وظلمناهم بما نالوا منه .

ولقد علمت أن مكرمتنا فى الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم وولاية زمزم ، فصارت للعباس من بين إخوته ، فنازعنا فيها أبوك ، فقضى لنا عليه عمر ، فلم نزل نليها فى الجاهلية والإسلام . ولقد قحط أهل المدينة ، فلم يتوسل عمر إلى ربه ، ولم يتقرب إليه إلا بأبينا ، حتى نعشهم الله وسقاهم الغيث ، وأبوك حاضر لم يتوسل به .

ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بنى عبد المطلب بعد النبى صلى الله عليه وسلم غيره ، فكان وارثه من عمومته . ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بنى هاشم ، فلم ينله إلا ولده : فالسقاية سقايته ، وميراث النبى له ، والخلافة فى ولده ، فلم يبق

شريف ولا فضل فى جاهلية ولا إسلام فى دنيا ولا آخرة ، إلا والعباس وارثه ومورثه .

أما ما ذكرت من بدر ، فإن الإسلام جاء والعباس يمون أبى طالب وعياله ، وينفق عليهم للأزمة التى أصابته . ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرها ، لمات طالب وعقيل جوعا وللحسا جفان عتبة وشيبة ، ولكنه كان من المطعمين ، فأذهب عنكم العار والسبعة ، وكفاكم النفقة والمؤونة ، ثم فدى عقيلا يوم بدر . فكيف تفخر علينا ، وقد علناكم فى الكفر ، وفديناكم من الأسر ، وحزنا عليكم مكارم الأباء ، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء ، وطلبنا بثأركم فأدركنا منه ما عجزتم عنه ، ولم تدركوا لأنفسكم؟ والسلام عليكم ورحمة الله ! »

الملحق العاشر

أصناف أهل السنة كما ذكره البغدادى(١)

وقد ذهب البغدادى صاحب كتاب الفرق بين الفرق إلى القول « إن أهل السنة والجماعة ثمانية أصناف من الناس : صنف منهم أحاطوا العلم بأبواب التوحيد والنبوة وأحكام الوعد والوعيد والثواب والعقاب ، وشروط الاجتهاد والإمامة والزعامة . وسلكوا فى هذا النوع من العلم طرف الصفاتية(٢) من المتكلمين الذين تبرءوا من التشبيه والتعطيل ، ومن بدع الرافضة والخوارج والجهمية والنجارية وسائر أهل الأهواء الضالة .

والصنف الثانى منهم أئمة الفقه من فريقى الرأى والحديث من الذين اعتقدوا فى أصول الدين مذهب الصفاتية فى الله وفى صفاته الأزلية وتبرءوا من القدر والاعتزال ، وأثبتوا رؤية الله بالأبصار من غير تشبيه ولا تعطيل ، وأثبتوا الحشر من القبور مع إثبات السؤال فى القبر ، ومع إثبات الحوض والصراط والشفاعة وغفران الذنوب التى دون الشرك ، وقالوا بدوام نعيم الجنة على أهليها ودوام عذاب النار على الكفرة ، وقالوا بإمامة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، وأحسنوا الثناء على السلف الصالح من الأمة ، ورأوا وجوب الجمعة خلف الأئمة ، الذين تبرءوا من أهل الأهواء الضالة ، ورأوا وجوب استنباط أحكام الشريعة من القرآن والسنة ومن إجماع الصحابة ، ورأوا جواز المسح على الخفين ووقوع الطلاق الثلاث ورأوا تحريم المتعة ، ورأوا وجوب طاعة السلطان فيما ليس بمعصية . ويدخل فى هذه الجماعة أصحاب مالك والشافعى والأوزاعى والثورى وأبى حنيفة وابن أبى ليلى وأصحاب أبى ثور وأصحاب أحمد بن حنبل ، وأهل الظاهر وسائر الفقهاء الذين اعتقدوا فى الأبواب العقلية أصول الصفاتية ، ولم يخلطوا فقهه بشىء من بدع أهل الأهواء الضالة .

---

(١) الفرق بين الفرق ص ٣٠٠ — ٣٠٣

(٢) الصفاتية . هم يثبتون صفات الله

والصنف الثالث منهم هم الذين أحاطوا علما بطرق الأخبار والسنن المأثورة عن النبي عليه السلام ، وميزوا بين الصحيح والسقيم منها ، وعرفوا أسباب الجرح والتعديل (١) ، ولم يخلطوا علمهم بذلك بشيء من بدع أهل الأهواء الضالة .

والصنف الرابع منهم قوم أحاطوا علما بأكثر أبواب الأدب والنحو والتصريف ، وجروا على سمت (٢) أئمة اللغة كالخليل وأبي عمرو بن العلاء وسيبويه والفرّاء والأخفش والأصمعي والمازني وأبي عبيد ، وسائر أئمة النحو من الكوفيين والبصريين الذين لم يخلطوا علمهم بذلك بشيء من بدع القدرية أو الرافضة أو الخوارج .

ومن مال منهم إلى شيء من الأهواء الضالة لم يكن من أهل السنة ، ولا كان قوله حجة في اللغة والنحو . والصنف الخامس منهم هم الذين أحاطوا علما بوجود قراءات القرآن ، وبوجود تفسير آيات القرآن وتأويلها على وفق مذاهب أهل السنة دون تأويلات أهل الأهواء الضالة . والصنف السادس منهم الزهاد الصوفية الذين أبصروا فأقصروا واختبروا فاعتبروا وراضوا بالمقدور وقنعوا بالميسور ، وعلموا أن السمع والبصر والفؤاد ، كل مسئول عن الخير والشر ومحاسب على مثاقيل الذر ، فأعدوا خير الاعتداد ليوم المعاد ، وجرى كلامهم فى طريق العبارة والإشارة على سمت أهل الحديث دون من يشترى لهو الحديث ، لايعملون الخير رياء ولا يتركونه حياء . دينهم التوحيد ونفي التشبيه ، ومذهبهم التعويض إلى الله تعالى والتوكل عليه والتسليم لأمره والقناعة بما رزقوا ، والإعراض عن الاعتراض عليه (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) (٣) .

والصنف السابع منهم قوم مرابطون فى ثغور المسلمين فى وجوه الكفرة ، يجاهدون أعداء المسلمين ، ويحمون حمى المسلمين ويذبون عن حريمهم وديارهم ،

---

(١) الجرح : الذنب الذى يجعل صاحبه غير أهل لرواية الحديث ، والتعديل هو إثبات الصفات التى تجعله غير عرضة للتجريح .

(٢) السمت : الطريق .

(٣) سورة الحديد : ٢١ ، سورة الجمعة : ٤ .

ويظهرون فى ثغورهم مذاهب أهـل السنة والجمـاعة . وهم الذين أنزل الله تعالى فيهم قوله (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا)[1] .

والصنف الثامن منهم عامة البـلدان التى غلب فيها شعائر أهـل السنة دون عامة البقاع التى ظهر فيها شعار أهـل الأهواء الضالة . وإنما أردنا بهذا الصنف من العامة عامة واعتقدوا تصويب علماء السنة والجماعة فى أبواب العدل والتوحيد والوعد والوعيد ، ورجعوا إليهم فى معالم دينهم ، وقلدوهم فى فروع الحلال والحرام ، ولم يفتقدوا شيئاً من بدع أهـل الأهواء الضالة . وهؤلاء الذين سمتهم الصوفية حشو الجنة ، فهؤلاء أصناف أهـل السنة والجماعة ومجموعهم أصحاب الدين القويم والصراط المستقيم » .

---

(١) سورة العنـكبوت : ٦٩ :

الملحق الحادي عشر

نسخة الشرط الذي كتبه عبد الله بن هارون أمير المؤمنين بخط يده في الكعبة(١) .

« هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، كتبه له عبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، في صحة من عقله وجواز أمره ، وصدق نية فيما كتب في كتابه هذا ، ومعرفة بما فيه من الفضل والصلاح له ولأهل بيته وجماعة المسلمين ، أن أمير المؤمنين هارون ولاني العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين في سلطانه بعد أخي على محمد بن هارون الوفاء بما عقد لي من الخلافة وولاية أمور العباد والبلاد بعده ، وولاية خراسان وجميع أعمالها ، ولا يعرض لي في شيء مما أقطعني أمير المؤمنين ، وابتاع لي من الضياع والعقد والرباع ، وابتعتُ منه من ذلك ، وما أعطاني أمير المؤمنين من الأموال والجواهر والكساء والمتاع والدواب والرقيق وغير ذلك ولا يعرض لي ولا لأحد من عمالي وكتابي بسبب محاسبة ، ولا يتبع لي في ذلك ولا لأحد منهم أبداً ، ولا يدخل علي ولا عليهم ولا على من كان معي ومن استعنت به من جميع الناس ، مكروها في نفس ولا دم ولا شعر ولا بشر ولا مال ، ولا صغير من الأمور ولا كبير . فأجابه إلى ذلك وأقر به ، وكتب له كتاباً أكد فيه على نفسه ورضى به أمير المؤمنين هارون ، وقبله وعرف صدق نيته فيه . فشرطت لأمير المؤمنين وجعلت له على نفسي أن أسمع لمحمد وأطيع ولا أعصيه . وأنصحه ولا أغشه ، وأوفي ببيعته ، وولايته ، ولا أغدره ولا أنكث ، وأنفذ كتبه وأموره ، وأحسن مؤازرته وجهاد عدوه في ناحيتي ما وفى لي بما شرط لأمير المؤمنين في أمري ، وسمى في الكتاب الذي كتبه لأمير المؤمنين ورضى به أمير المؤمنين ، ولم يتبعني بشيء من ذلك ، ولم ينقص أمراً من الأمور التي شرطها أمير المؤمنين لي عليه . فإن احتاج محمد بن أمير المؤمنين إلى جند وكتب إلي يأمرني

---

(١) الطبري ج ١٠ ص ٧٦ — ٧٧ .

بإشخاصه إليه ، أو إلى ناحية من النواحى ، أو إلى عدو من أعدائه خالفه أو أراد نقض شيء من سلطانه أو سلطانى الذى أسنده أمير المؤمنين إلينا وولانا إياه ، فعلى أن أنفذ أمره ، ولا أخالفه ولا أقصر فى شيء كتب به إلى . وإن أراد محمد أن يولى رجلا من ولده العهد والخلافة من بعدى ، فذلك له ما وفى لى بما جعله أمير المؤمنين إلى واشترطه لى عليه وشرط على نفسه فى أمرى ، وعلى إنفاذ ذلك والوفاء له به ، ولا أنقص من ذلك ولا أغيره ولا أبدله ولا أقدم قبله أحداً من ولدى ولا قريباً ولا بعيداً من الناس أجمعين إلا أن يولى أمير المؤمنين هارون أحداً من ولده العهد من بعدى ، فيلزمنى ومحمداً الوفاء له وجعلت لأمير المؤمنين ومحمد على الوفاء بما شرطت وسميت فى كتابى هذا ، ما وفى لى محمد بجميع ما اشترط لى أمير المؤمنين عليه فى نفسى وما أعطانى أمير المؤمنين من الأسماء المسماة فى هذا الكتاب الذى كتبه لى . وعلى عهد الله وميثاقه وذمة أمير المؤمنين وذمتى وذمم آبائى وذمم المؤمنين وأشد ما أخذ الله على النبيين والمرسلين من خلقه أجمعين ، من عهوده ومواثيقه والإيمان المؤكدة التى أمر الله بالوفاء بها ونهى عن نقضها وتبديلها . فإن أنا أنقضت شيئاً مما شرطت وسميت فى كتابى هذا ، أو غيرت أو بدلت أو نكثت أو غدرت ، فبرئت من الله عز وجل ، ومن ولايته ودينه ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقيت الله يوم القيامة كافراً مشركا ، وكل امرأة هى لى اليوم أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة ، طالقاً ثلاثاً البتة طلاق الحرج ، وكل مملوك لى اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة أحرار لوجه الله . وعلىّ المشى إلى بيت الله الحرام الذى بمكة ثلاثين حجة نذراً واجباً علىّ فى عنقى حافياً راجلا ، لا يقبل الله منى إلا الوفاء بذلك ، وكل مال لى أو أملكه إلى ثلاثين سنة هدى بالغ الكعبة . وكل ما جعلت لأمير المؤمنين وشرطت فى كتابى هذا ، لازم لى ، لا أضمر غيره ، ولا أنوى غيره . وشهد سليمان بن أمير المؤمنين وفلان ، وكتب فى ذى الحجة سنة ست وثمانين ومائة » .

الملحق الثانى عشر

ذكر بناء المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل(١)

« قال أحمد بن أبى طاهر : ذكر أصحاب التاريخ أن بناء المأمون ببوران بنت الحسن كان فى شهر رمضان فى سنة عشر ومائتين هـ ، وأنه لما مضى إلى فم الصلح إلى معسكر الحسن بن سهل حمل معه إبراهيم بن المهدى ، ومر بالمصلين الذين كانوا مع إبراهيم بن عائشة فى المطبق ، فأمر بإنزالهم ، وكانوا مصلبين على الجسر الأسفل . وكان إنزالهم فى جمادى الأولى ليلة الثلاثاء لأربع ليال بقين منه ولما كان من غد يوم الأربعاء أمر بإنزال إبراهيم بن عائشة ، فكفن وصلى عليه ، ودفن فى مقابر قريش كما ذكرنا فى خبر ابن عائشة آنفا .

حدثنى الحارث بن نصر المنجم ، وكان من أصحاب الحسن بن سهل قال : لما زار المأمون الحسن بن سهل للبناء ببوران ، ركب من بغداد زورقا حتى أرقى على باب الحسن بن سهل . وكان العباس بن المأمون قد تقدم على الظهر ، فتلقاه الحسن خارج عسكره فى موضع كان اتخذ له على شاطىء دجلة بنى له فيه جوسق . فلما عاينه العباس ثنى رجله لينزل ، فحلف عليه ألا يفعل . فلما ساواه ثنى رجله الحسن لينزل ، فقال له العباس : بحق أمير المؤمنين لا تنزل فاعتنقه الحسن وهو راكب .

ثم أمر له أن يقدم إليه دابته ودخلا جميعا إلى منزل الحسن . ووافى المأمون فى وقت العشاء ، وذلك فى شهر رمضان من سنة عشر ومائتين ، فأفطر هو والحسن والعباس ودينار بن عبد الله قائم على رجله ، حتى فرغوا من الإفطار وغسلوا أيديهم فدعا المأمون بشراب ، فأتى بجام ذهب فصب فيه وشرب ، فمد يده بجام فيه شراب إلى الحسن فتبطأ عنه الحسن لأنه لم يكن يشرب قبل ذلك ، فغمز دينار بن عبد الله الحسن فقال الحسن : يا أمير المؤمنين ! أشربه بإذنك وأمرك ، فقال له المأمون : لولا أمرى لم أمد يدى إليك فأخذ الجام فشربه .

---

(١) أحمد بن طاهر طيفور : كتاب تاريخ بغداد ص ٢٠٦ – ٢١١ .

فلما كان فى الليلة الثانية ، جمع بين محمد بن الحسن بن سهل والعباسة بنت الفضل ذى الرياستين ، فلما كان فى الليلة الثالثة دخل على بوران وعندها حمدونة وأم جعفر وجدتها . فلما جلس المأمون معها نثرت عليها جدتها ألف درة كانت فى صينية ذهب ، فأمر المأمون بأن تجمع . وسألها عن عدد الدركم هو ، فقالت : ألف حبة ، فأمر المأمون بعدها فنقصت عشرة ، فقال : من أخذها منكم ؟ ردوها فقالوا حسين زجلة (بحسب الطبرى فى النسخة رخلة) ، فأمر بردها فقال : يا أمير المؤمنين ! إنما نثر لنأخذه ، قال فإنى أخلفها عليك فردها . وجمع المأمون ذلك الدر فى الآنية ووضع فى حجرها وقال : هـــذه نحلتك فاسألى حوائجك ، فأمسكت فقالت لها جدتها : كلمى سيدك واسأليه حوائجك فقـد أمرك ، فسألته الرضى عن إبراهيم بن المهدى ، فقال قد فعلت ، وسألته الإذن لأم جعفر فى الحج فأذن لها . ولبستها أم جعفر البدنة الأموية ، وابتنى بها فى ليلته ، وأوقـد فى تلك الليلة شمعة عنبر فيها أربعون منـا فى تنور ذهب ، فأنـكر المأمون ذلك عليهم وقال : هذا سرف .

فلما كان من غد ، دعا بإبراهيم بن المهدى فجاء يمشى من شاطىء دجلة عليه مبطنة ملحم وهو متعمم بعمامة حتى دخـل . فلما رفع الستر عن المأمون رمى بنفسه فصاح المأمون : ياعم ! لا بأس عليك ، فدخل فسلم عليه تسليم الخلافة وقبل يده وأنشده شعراً ، ودعا بالخلع فخلع عليه خلعة ثانية ودعا له بمركب ، وقلده سيفا وخرج ، فسلم على الناس ورد إلى موضعه . قال الحارث : وأقام المأمون سبعة عشر يوماً يعـد له فى كل يوم والجميع من معه ما يحتاج إليه . قال : وخلع الحسن بن سهل على القواد على مراتبهم وحملهم ووصلهم .

وكان مبلغ النفقة عليـه خمسين ألف ألف درهم قال : وأمر المأمون غسان بن عباد عند منصرفه أن يدفع إلى الحسن عشرة آلاف ألف من مال فارس وأقطعه الصلح ، فحملت إليه على المـكان ، وكانت معدة عند غسان بن عباد قال : فجلس الحسن ففرقها فى قواده وأصحابه وحشمه وخدمه . قال : ولما انصرف المأمون شيعه الحسن ثم رجع إلى فم الصلح .

حدثنى الفضل بن جعفر بن الفضل قال : حدثنى أحمد بن الحسن بن سهل قال : كان أهلنا يتحدثون أن الحسن بن سهل كتب رقاعا فيها أسماء ضياعه ونثرها على القواد وعلى بنى هاشم ، فمن وقعت فى يده رقعة منها فيها اسم الغنيمة بعث فتسلمها .

وقال أبو الحسن على بن الحسن بن عبد الأعلى الكاتب قال : حدثنى الحسن بن سهل يوما بأشياء كانت فى أم جعفر . ووصف رجاجة عقلها وفهمها ، ثم قال : سألها يوماً المأمون بفم الصلح حين خرج للبناء على بوران وسأل حمدونة بنت غضيض عن مقدار ما أنفقت فى ذلك الأمر، فقالت حمدونة : أنفق خمسة وعشرين ألف ألف، فقالت أم جعفر : ما صنعت شيئاً ، قد أنفق ما بين خمسة وثلاثين ألف ألف ، إلى سبعة وثلاثين ألف ألف درهم . قال : وأعددنا له شمعتين عنبر . قال : فدخل بها ليلا فأوقدتا بين يديه ، فكثر دخانهما فقال : أرفعوهما فقد آذانا الدخان وهاتوا الشمع ، قال : ونحلتها أم جعفر فى ذلك اليوم الصلح . قال : فكان سبب عود الصلح إلى ملكى وكانت قبل ذلك لى .

فدخل على يوماً حميد الطوسى فأقرأنى أربعة أبيات امتدح بها ذا الرياستين ، فقلت له تنفذها لك إلى ذى الرياستين وأقطعك الصلح فى العاجل إلى أن تأتى مكافأتك من قبله ، فأقطعته إياها . ثم ردها المأمون على أم جعفر فنحلتها بوران ، وجدثنى على ابن الحسين قال : كان الحسن بن سهل لا يرفع الستور عنه ، ولا يرفع الشمع من بين يديه حتى تطلع الشمس ويتبينها إذا نظر إليها ، وكان متطيراً يحب أن يقال له إذا دخل عليه : انصرفنا من فرح وسرور ، ويكره أن يذكر له جنازة أو موت واحد » .

مصادر الكتاب

نورد فى الثبت الآتى أهم مصادر الكتاب

وقد رتبت أسماء المؤلفين حسب أحرف الهجاء
مع بيان سنة وفاة بعض المؤلفين

ابن الأثير : (٦٣٠/ ١٢٣٨) . على بن أحمد بن أبى الكرم

١ — « الكامل فى التاريخ » ١٢ جزءا ١٢ (بولاق ١٢٧٤ ﻫ)

أرنولد : سير توماس و . Arnold : Sir Thomas W.

٢ — The Preaching of Islam, 3 rd . ed. by Reynold A. Nicholson (Lond., 1935).

وترجمه إلى العربية حسن ابراهيم حسن ، وعبد المجيد عابدين ، وإسماعيل النحراوى (الطبعة الثانية) ، (القاهرة ١٩٥٧) .

The Caliphate (Oxford, 1941)

٣ — أربرى : ا . ج . Arbeerry : A .j .

٤ — (The Legay of Persia) ,oxford, 1953.

الأصفهانى : (٣٥٦/٩٦٧) : أبو الفرج .

٥ — « كتاب الأغانى » ٢١ جزءاً [القاهرة ١٢٨٥ ﻫ]،[القاهرة ١٩٢٧ — ١٩٣٦]

أمارى : ميشيل Amari : Michel

٦ — « مكتبة صقلية العربية » Biblioteca Arabo-Sicula, 2 Vols.

أمير على : سيد Ameer Ali : Sayed

٨ — (A Short History of the Saarcens (Lond., 1921-1953)

٨ — « مختصرة تاريخ العرب والتمدن الإسلامى ، (القاهرة ١٩٣٨) نقله إلى العربية رياض رأفت

أوتيخا (٣١١/٩٢٩) : سعيد بن البطريق

٩ — « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » (بيروت ١٩٠٩)

أوليرى دى ليسى . O,Leary De Lacy

١٠ — A Short History of the Fatimid Khalifate (Lond ., 1923)

بارتولد : ف . Bartold : F

١١ — تاريخ الحضارة الإسلامية » . نقله إلى العربية حمزة طاهر (القاهرة ١٩٤٢)

بالمر : Palmer

١٢ — Haroun el-Rachid (Lond., 1881)

براون : إدوارد ج. Browne : Edward G.
١٣ — A Literary History of Persia (From the Earliest) Times until (Firdawsi) Vol. 1. (Lond,. 1919).
بروكلمان : كارل Brocklmann : Carl
١٤ — Geschichte Arabischer Litteratur. 2 Vols. (Weimar. 1898 - 1902).
البغدادى : (٤٢٩/١٠٣٧) : أبو منصور عبد القادر بن طاهر
١٥ — « الفرق بين الفرق » (القاهرة ١٣٢٨/١٩١٠)
البكرى (٤٨٧/١٠٩٧) أبو عبيد الله بن عبد العزيز .
١٦ — « كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب » (طبعة دى سلان De Slane باريس ١٩١١)
البلاذرى : (٢٧٩/٨٩٢) : أحمد بن يحيى بن جابر
١٧ — « فتوح البلدان » (القاهرة ١٣١٨ هـ)
البلخى : (٣٢٢/٩٣٣ — ٩٣٤) : أبو زيد بن سهل
١٨ — « كتاب البدء والتاريخ » ، وينسب إلى مطهر بن طاهر المقدسى ٦ أجزاء (باريس ١٨٩٩ — ١٩٠٧)
دى بور : ت . ج De Boer T. G.
١٩ — « تاريخ الفلسفة فى الإسلام » نقله إلى العربية محمد عبد الهادى أبو ريدة ، جزءان (القاهرة ١٣٥٧/ ١٩٣٨) .
البيرونى : (٤٤٠/١٠٤٨) أبو الريحان محمد بن أحمد
٢٠ — « الآثار الباقية عن القرون الخالية » طبعة إدوارد سخاو (ليبزج ١٨٧٨ ، ١٨٧٩)
بيمونت ومونود Bemont et Monod
٢١ — Histoire de l'Europe au Moyen Age (Paris. 1921)
تيمور : أحمد (باشا) .
٢٢ — « التصوير عند العرب » : نشره وعلق عليه الدكتور زكى محمد حسن (القاهرة ١٩٤٢)
الجزنائى : أبو الحسن على
٢٣ — « زهرة الآس فى بناء مدينة فاس » (فاس ١٩٢٢)
٢٤ — « نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الأربعة وانتشارها » (القاهرة ١٣٥١ هـ)
٢٥ — « كتاب التاج فى أخلاق الملوك » .
حققه المرحوم أحمد زكى باشا (القاهرة ١٣٣٢/١٩١٤) .
٢٦ — « كتاب البيان والتبيين » ٤ أجزاء (القاهرة ١٩٢٨) .
٢٧ — « كتاب التبصر بالتجارة » الطبعة الثانية (القاهرة ١٣٥٤/ ١٩٣٥) نشره وصححه وعلق عليه السيد حسن حسنى عبد الوهاب التونسى .
٢٨ — ثلاث رسائل نشرت فى كتاب (القاهرة ١٣٤٤ هـ) .

٢٩ — المحاسن والأضداد (القاهرة ١٣٢٤ هـ) .

جرونيباوم : ج . ا . فون Grunebaum G. A. von

٣٠ — Islam, Essays in the Nature and Grouth of a Cultural Tradition. (Lond,. 1955)

جبون : إدوارد Gibon, Edward

٣١ — The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, 7 vols. ed. by. G. B. Bury.

جروهمان : أدولف Grohmann : Adolf.

٣٢ — أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية ، الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٥) الجزء الثانى (القاهرة ١٩٥٦) الجزء الثالث (القاهرة ١٩٦٢) — ترجمه الدكتور حسن إبراهيم حسن ، والجزء الرابع تحت الطبع .

الجهشيارى : (٩٣٣/٣٣١) : أبو عبد الله محمد بن عبدوس .

٣٣ — « كتاب الوزراء والكتاب » (القاهرة ١٩٣٨) ، حققه ونشره الأساتذة مصطفى السقا ، وإبراهيم الإبيارى ، وعبد الحفيظ شلبي .

دى جوبينو : De Gobineau

٣٤ — « Religion et philosophie dans L'Asie Centrale ». (Paris. 1865).

جولدتسيهر : إجنتس Goldziher : Ignaz

٣٥ — « المذاهب الاسلامية فى تفسير القرآن » ، ترجمه الدكتور على حسن عبد القادر (القاهرة ١٣٦٣ / ١٩٤٤)

٣٦ — Vorlesangen uder den Islams(2 nd ed Heidelberg. 1919). trans. Into French by Fèlix Arin under title (Le Dogme et la Loi de l'Islam) (Paris. 1920)

ترجمه إلى العربية بعنوان : « العقيدة والشريعة الاسلامية » محمد يوسف موسى وعبد العزيز عبد الحق ، وعلى حسن عبد القادر (القاهرة ١٩٤٦)

ابن أبى الحديد : (١٣٠٣/٤٠٤) : الشريف الرضى محمد بن أحمد الحسينى

٣٧ — « كتاب نهج البلاغة » أربع مجلدات (القاهرة ١٣٢٩ هـ)

حتى : فيليب ك . Hitti : Philp K.

٣٨ — History of the Arabs (London. 1953)

حسن إبراهيم حسن :

٣٩ — « الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص » (المطبعة الأميرية ببولاق ١٩٣٢) .

٤٠ — « الدولة الفاطمية » الطبعة الثالثة (القاهرة ١٩٦٤) .

٤١ — « السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات فى عهد بنى أمية » تأليف فان فلوتن (Van Vloten) ، ترجمه وعلق عليه المؤلف بالاشتراك مع الشيخ محمد زكى إبراهيم (القاهرة ١٩٣٣)

٤٢ — « أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية » تأليف أودلف جروهمان. ترجمه الى العربية وعلق عليه المؤلف ، الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٤) : الجزء الثانى (القاهرة ١٩٥٦) ، الجزء الثالث (القاهرة ١٩٦٢) .
٤٣ — « تاريخ الاسلام السياسى » الجزء الأول (الطبعة السابعة) (القاهرة ١٩٦٤) الجزء الثالث الطبعة السادسة (القاهرة ١٩٦٢) .
٤٤ — « النظم الاسلامية » بالاشتراك مع الدكتور على ابراهيم حسن (الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٢) .
٤٥ — « مصر الاسلامية من الفتح العربى الى الفتح العثمانى » : بحث مستخرج من «كتاب المجمل فى التاريخ المصرى» (القاهرة ١٩٤٢ ص ١٢٧ — ٢٢٩) .
٤٦ — انتشار الاسلام فى شرق القارة الافريقية (الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٤) .
٤٧ — اليمن : البلاد السعيدة (القاهرة ١٩٥٨) .
ابن حزم (٤٥٦/١٠٦٤) أبو محمد على بن أحمد .
٤٨ — « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » ٥ أجزاء (القاهرة ١٣١٧ هـ) .
ابن خرداذبة : أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله
٤٩ — « كتاب المسالك والممالك » (طبعة دى غويه — ليدن ١٨٨٩)
الخضرى : محمد
٥٠ — « تاريخ الدولة العباسية » « القاهرة ١٩١٦)
الخطيب البغدادى (٤٦٣/١٠٧٣) : الحافظ أبو بكر أحمد بن على
٥١ — « تاريخ بغداد أو مدينة السلام » ١٤ جزءا (القاهرة ١٣٤٩/١٩٣١)
ابن خلدون : (٨٠٨/١٤٠٥ — ١٤٠٦) : عبد الرحمن بن محمد
٥٢ — مقدمة ابن خلدون (بيروت ١٨٨٦) ونسخة مخطوطة بالمكتبة الزكية بدار الكتب المصرية رقم ١٥
٥٣ — « العبر وديوان المبتدأ والخبر » (القاهرة ١٢٨٤ هـ)
ابن خلكان (٦٨١ — ١٢٧١) شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم ابن أبو بكر الشافعى
٥٤ — « وفيات الأعيان » جزءان (بولاق ١٢٨٢ هـ) » (المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٠ هـ) ٦ أجزاء (القاهرة ١٩٤٨) ترجمه الى الانجليزية دى سلان De Slane (باريس ١٨٤٢ — ١٨٤٨)
الخياط : أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان المعتزلى
٥٥ — « كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد » ، مع مقدمة وتحقيق وتعليقات للدكتور نيبرج (القاهرة ١٣٤٤/١٩٢٥)
حاجى خليفة (١٠٦٧/١٦٥٧) : مصطفى كاتب شلبى
٥٦ — « كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون » ، نشر النسخة العربية وترجمها الى الألمانية ج. فلوجل G. Flugel (لبيسك لندن ١٨٣٥ — ١٨٥٨) .
ابن دقماق (٨٠٩/١٤٠٦ — ١٤٠٧) : ابراهيم بن محمد المصرى

« الانتصار لواسطة عقد الأمصار » الجزءان الرابع والخامس (القاهرة ١٣٠٩/١٨٣) .

الدورى ، عبد العزيز
٥٧ ــ العصر العباسي الأول (بغداد ١٩٤٥)
دوزى : ر . ب . أ . Dozy : R. P. A.
٥٨ — Histoire des Musulmans d'Espagne) (Leyden, 1861), trans. into English by F. G. Stokes (The Moslems in Spain) (London 1913).
٥٩ — Essai sur L'Histoire de l'Islamisme, trans. par Victor Chauvin (Leyden—Paris, 1841).
٦٠ — Dictionnaire des Vètements chez les Arabes. (Amsterdam, 1845).
٦١ — Supplément au Dictionairs Arabes, 2 vols. (Leyden, 1801).
ديمومبين : م. ج. Demombynes, M. G.
٦٢ — Muslim Institutions, trans. from French (London, 1950).
«النظم الاسلامية» ترجمه الى اللغة العربية صالح الشماع وفيصل السامر (بغداد ١٩٥٢)
ابن أبى دينار (١١١٠/١٦٩٨) محمد بن أبى القاسم بن عمر القيروانى .
٦٣ ــ « كتاب المؤنس فى أخبار افريقية وتونس » (تونس ١٢٨٦ هـ) .
الدينورى : (٢٨٢/٨٩٥) : حمد بن داود أبو حنيفة
٦٤ ــ « الأخبار الطوال » جزءان (ليدن ١٨٨٨)
ابن أبى زرع : أبو الحسن على بن عبد الله
٦٥ ــ « الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » ، (أمسالا ١٨٤٤) (الرباط ١٩٣٦) .
زكى محمد حسن
٦٦ ــ « الفن الاسلامي فى مصر » الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٥)
٦٧ ــ « كنوز الفاطميين » (القاهرة ١٩٣٧)
٦٨ ــ « الفنون الايرانية فى العصر الاسلامى » (القاهرة ١٩٤٠)
زيدان : جرجي
٦٩ ــ « تاريخ الاسلام » خمسة أجزاء (القاهرة ١٩٠٢ ــ ١٩٠٦)
ابن زيدان : عبد الرحمن
٧٠ ــ « اتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس » ٥ أجزاء (الرباط ١٩٢٩)؛ العز والصولة فى معالم نظم الدولة (الرباط ١٣٨١/١٩٦١)
لى سترينج : جاى Le Strange : Guy
٧١ — «Baghdad During the Abbasid Caliphate» (Oxford, 1924).

ابن سعيد (٥٨٣/١٢٨٥) : على بن موسى المغربى .
٧٢ — «كتاب المغرب فى حلى المغرب والمشرق فى حلى المشرق» (ليدن ١٨٩٨ — ١٨٩٩)
السلاوى : الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى .
٧٣ — « الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى » ١٠ أجزاء (الدار البيضاء ١٩٥٤) .
السيوطى (٩١١/١٦٠٥) : عبد الرحمن بن أبى بكر جمال الدين .
٧٤ — تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة » (القاهرة ١٣٥١ هـ) .
٧٥ — « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » جزءان (القاهرة ١٣٢٧ هـ) .
شاخت : يوسف .Schacht, Joseph
٧٦ — The Origins of Muhammadan Jurisdruence, (Oxford, 1950).
الشابشتى (٣٨٨/٩٩٦) : أبو الحسن على بن محمد .
٧٧ — « كتاب الديارات » مخطوط (Berlin, We. 1100)
الشهرستانى (٥٥٨/١١٥٣) : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم .
٧٨ — « الملل والنحل » ٥ أجزاء (القاهرة ١٣١٧ هـ) .
ابن طباطبا : محمد بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى
٧٩ — « الفخرى فى الآداب السلطانيه والدول الإسلامية » (القاهرة ١٩٢٣)
الطبرى : (٣١٠/٩٢٢) : أبو جعفر محمد بن جرير .
٨٠ — « تاريخ الأمم والملوك » (طبعة دى غوية — ١٨٨١) ، القاهرة ١٣٢٦ هـ)
٨١ — « تفسير محمد بن جرين الطبرى » فى ثلاثين مجلدا
٨٣ — «اختلاف الفقهاء » نشر يوسف شاخت بعض أجزاء من هذا الكتاب تحت عنوان « كتاب الجهاد وكتاب الجزية وأحكام المحاربين من كتاب اختلاف الفقهاء لمحمد ابن جرير الطبرى » (ليدن ١٩٣٣) .
طه حسين :
٨٣ — « حديث الأربعاء » (القاهرة ١٩٢٥)
الطوسى (٤٦٠/١٠٦٧ — ١٦٠٨) : محمد بن الحسن
٨٤ — « فهرست كتب الشيعة « كلكتا ١٨٥٥ م)
طيفور (٢٨٠/٨٩٣ — ٨٩٤) : أبو الفضل أحمد بن أبى طاهر
٨٥ — « تاريخ بغداد » الجزء السادس طبعة هـ كلر H. Keller (لايبسك ١٩٠٨)
ابن عبد ربه (٣٤٩/٩٤٠) شهاب الدين أحمد .
٨٦ — « العقد الفريد » ٣ أجزاء القاهرة (١٣٤٦/١٩٢٨)
ابن عذارى (توفى فى أواخر القرن السابع الهجرى) : أبو محمد عبد الله بن محمد المراكشى
٨٧ — « البيان المغرب فى أخبار المغرب » نشره دوزى فى ثلاثة أجزاء (١٨٤٨ — ١٨٥١)
على إبراهيم حسن : دكتور
٨٨ — تاريخ مصر فى العصور الوسطى » (القاهرة ١٩٥٤) .
« النظم الإسلامية » بالاشتراك مع الدكتور حسن إبراهيم حسن القاهرة (١٩٣٩ ، ١٩٥٩ ، ١٩٦٠) .
على حسن عبد القادر : دكتور

٨٩ — « نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى » الطبعة الثانية (القاهرة ١٩٥٦) .

الغزالى (٥٠٥/١١١١) الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد

٩٠ — « المنقذ من الضلال » (دمشق ١٣٥٣/١٩٣٤)

٩١ — « فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة » (القاهرة ١٣١٩/١٩٠١)

فان فلوتن : ج Van Vloten, J.

٩٢ — Bechrches sur la Domination Arabe, le Chiitisme et les Croyances Messiques Sous le Khililafat des Omayades) (Amsterdam, 8894).

ترجمه إلى العربية وعلق عليه الدكتور حسن إبراهيم حسن ، والشيخ محمد زكى إبراهيم (القاهرة ١٩٣٤)

أبو الفدا : (٧٣٣/١٣٣١) : إسماعيل بن على عماد الدين صاحب حماه

٩٣ — « المختصر فى أخبـار البشر » ٤ أجزاء (القسطنطينية ١٢٨٦ هـ) ، (القاهرة ١٣١٥ هـ)

فنلى : جورج Finlay : George

٩٤ — "History of the Byzantine Empire" (716 — 1507 A. D.) (London, 1859).

ابن القاضى : أحمد بن محمد المكناسى

٩٥ — « جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس » . مخطوط رقم ج ١٢٤٢ (الرباط).

ابن قتيبة . (٢٧٦/٨٨٩) أبو مسلم محمد عبد الله بن مسلم

٩٦ — « كتاب المعارف » (١٣٥٣/١٣٤٨ هـ)

٩٧ — « عيون الأخبار » أربعة أجزاء (القاهرة ١٣٤٣ — ١٣٤٨ هـ)

قدامة : (٣٣٧/٩٤٨) . أبو الفرج بن جعفر الكاتب البغدادى.

٩٨ — « نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة » (طبعة دى غويه — ليدن ١٨٨٩)

القفطى : (٦٤٤/١٢٤٨) جمال الدين على بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الوهاب

٩٩ — إخبار العلماء بأخبار الحكماء » (ليبسك ١٣٢٢/١٩٠٣)

القلقشندى : (٨٢١/١٤١٨) : أبو العباس أحمد

١٠٠ — « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » ١٤ جزءاً (القاهرة ١٧١٣ — ١٧١٧)

كاشف : دكتورة سيدة إسماعيل

١٠١ — « مصر فى فجر الإسلام » (القاهرة ١٩٤٧ م).

الكتبى (٧٦٤/١٣٦٢ ـ ١٣٦٣) : محمد بن شاكر بن أحمد الحلبى

١٠٢ — « فوات الوفيات » جزءان (القاهرة ١٢٩٩ ، ١٩٥١)

كريزويل . ك . ١ . ك Creswell : K. A. C:

١٠٣ — "Early Muslim Architecture" 2 vols: (Oxford, 1930 and 1930).

كريمر الفرد فون Kremer : Alfred Von

١٠٤ — "Culturgeschischte des Orients unter den Chalifen" 2 vols. (Vienna, 1875) Trans by. S. Khuda Bukhsh (the Orient under the Caliphs) (Calcutta, 1290).

الكندى : (٣٥٠/٩٦١) : أبو عمر محمد بن يوسف

١٠٥ — « كتاب الولاة وكتاب القضاة » طبعة روفن جست Rhuvon Guest

١٠٦ — كيرك : جورج ا. Kirk, Guorge E.

"A Short History of the Middle East" (Lond:,1952).

لويس : برنارد Lewis, Bernard

١٠٧ — " The Arabs in History" (London, 1950) E. G. W. Gibb Memorial Series (London, 1871)

١٠٨ — ليفى بروفنسال :

الشرق الإسلامى والحضارة العربية الأندلسية ، معهد الجنرال فرانكو للأبحاث العربية الأسبانية (تطوان ١٩٥١) .

لينبول : ستانلى Lane—Poole, Stanley

١٠٩ — "The Mohammadan Dynasties" (Paris, 1625)

١١٠ — "The Moors in Spain" (London, 1887) ترجمه إلى العربية على الجارم (القاهرة ١٩٤٤)

١١١ — " A History of Egypt in the Middle Ages" (Lond., 1924).

ليون الإفريقى (الحسن الوزان) Jean Lion l' Africain

١١٢ — Description de L'Afrique (trad, de L' Itabien) par A. Epaulard, 2 tomes (Paris, 1966).

الماوردى : (٤٥٠/١٠٥٧) : أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البغدادى البصرى

١١٣ — « الأحكام السلطانية » (القاهرة ١٢٩٨)

متز : آدم Mez : Adam

١١٤ — "The Renaissance of Islam" trans. into English by S. Khuda Bukhsh and D. S. Margoliouth (Lond., 1930).

وترجمه الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة إلى العربية بعنوان « الحضارة العربية فى القرن الرابع الهجرى » ، جزءان (القاهرة ١٩٤٠ — ١٩٤١)

أبو المحاسن (٨٧٤/١٤٦٩) : جمال الدين بن يوسف بن تغرى بردى

١١٥ — « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » ج ٦ ، ٧ (القاهرة ١٩٢٩ — ١٩٣٠)

المدور : جميل نخلة

١١٦ — « حضارة الإسلام فى دار السلام » (القاهرة ١٣٥١/١٩٣٣)

المراكشى (٦٦٩/١٢٧٠ — ١٢٧١) : محي الدين أبو محمد عبد الواحد ابن على التميمى

١١٧ — « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب » طبعة دوزى (ليدن ١٨٨١) (القاهرة)
وترجمه وشرحه ا . فانيان E. Fagnan (الجزائر ١٨٩٣)

ابن المرتضى (٢٢٥/٩٣٦ — ٩٣٧) : المهدى لدين الله أحمد بن يحيى

١١٨ — « باب ذكر المعتزلة » من كتاب المنية والأمل (طبعة الهند)

المسعودى (٣٤٦/٩٥٦) أبو الحسن على

١١٩ — « كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر » جزءان (القاهرة ١٣٤٦ هـ)
وترجمه إلى الفرنسية باربييه دى مينار Barbier de Meynard تحت عنوان Prairies d'Or (باريس ١٨٦١ — ١٨٧٧)

١٢٠ — « كتاب التنبيه والإشراف » (طبعة دى غويه — ليدن ١٨٩٣ ، القاهرة ١٣٥٧/١٨٣٨)

المقدسى : (٣٨٨/٩٧٧ م) شمس الدين أبو عبد الله محمد

١٢١ — « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » طبعة دى غويه (ليدن ١٩٠٦)

المقرى (١٠٤١/١٦٣٣) : أحمد بن محمد

١٢٢ — « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » ٤ أجزاء (بولاق ١٢٧٩/١٨٩٢)
١٠ أجزاء (القاهرة ١٩٤٩)

١٢٣ — «أزهار الرياض فى أخبار عياض » ٣ أجزاء ، ضبطه وحققه وعلق عليه الأساتذة مصطفى السقا وإبراهيم الأبيارى وعبد الحفيظ شلبى(القاهرة١٩٣٩ — ١٩٤١)

المقريزى : (٨٤٥/١٤٤١) تقى الدين أحمد بن على

١٢٤ — « المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » جزءان (القاهرة ١٢٧٠ هـ)

ميور : وليام تمبل Muir : Wiliam temple

١٢٥ — "The Caliphate, Its Rise, Decline and Fall", (Edinburgh, 1924)

نظام الملك : (٤٨٥/١٠٩٢ م)

١٢٦ — « كتاب سياسة نامة Siasset Naméh Traite de Gouvernement, Composè Pour Le Sultan Malik — Ghah par Le Nizam oul — moulk, (texe Persan (ed. by Charles Schefer) 3 vols. (Paris, 1891-1897)

ابن النديم : (٣٨٣/٩٩٣) محمد بن إسحاق

١٢٧ — « كتاب الفهرست » جزءان (لايبسك ١٨٧١ م) ، (القاهرة ١٣٤٨ هـ)

النسيبى

١٢٨ — « كتاب مطالب السول فى غزوات الرسول » مكتبة الجامعة بليدن، مخطوط رقم ١٩٧٩ .

ابن النعمان : محمد

١٢٩ — « كتاب الارشاد » مكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط رقم ١٦٤٧ .

النوبختى : (٢٠٢/٨١٧) أبو محمد الحسن بن موسى

١٣٠ — « كتاب فرق الشيعة » (استامبول ١٩٣١)

نيكلسون : ا . رينولد Nicholson : A. Reynold

١٣١ — "Literary History of the Arabs" (Cambridge, 1930)

هيد : و . Heyd' W.

١٣٢ — "Histoire du Commerce du Levant au moyen age" 2 vols (Liepzig 1925).

هل : يوسف Hell : Josesph,

١٣٣ — " The Arab Civilisation " trans. from German by Khuda Bukhsh (Cambridge, 1926).

وستنفلد : ف وفون Wustenfeld : Von

١٣٤ — " Die Geshichtschreiber der Araber und ihre Werke" (Gottingen, 1882)

ياقوت : (٦٢٦/١٢٢٩) : شهاب الدين أبو عبد الله الحوى الروى

١٣٥ — « معجم البلدان » ١٠ أجزاء (القاهرة ١٣٢٥/١٩٠٨)

اليعقوبى : (٢٨٢/٨٩٥) : أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح

١٣٦ — « تاريخ اليعقوبى » جزءان (طبعة M. Th. Houtsma ليدن ١٨٩٢)

١٣٧ — « كتاب البلدان » (طبعة دى غويه — ليدن ١٨٩٢)

أبو يوسف : (١٩٢/٨٠٧ — ٨٠٨ يعقوب بن إبراهيم

١٣٨ — « كتاب الخراج » (بولاق ١٣٠٢ هـ) و [المطبعة السلفية بمصر ١٣٤٦]

فهارس الكتاب

(الجزء الثانى ، الطبعة السابعة)

القاهرة

مطبعة السنة المحمدية

١٧ شارع شريف باشا الكبير — عابدين

ت ٩٠٦٠١٧


Bibliotheca Alexandrina
0226864